مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثالث والأربعون

سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّالِثُ والأَرْبعُونَ

سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرْآنِ الكريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي

AL QASIMI PUBLICATIONS

2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 5-94-732-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 5-94-732-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الحَادِي وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الرُّومِ

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الرّوم: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط غفلة النّاس عن الآخرة، بعدم التّفكّر في بديع صنع الكون بالحقّ

لَمّا أنكَر المشركون الإلهَ بإنكارِ وعْدِه، وأنكَروا البَعثَ كما قال سبحانه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أردَف هذا أنَّ الأدلَّةَ مُتظاهِرةٌ في الأنفُسِ والآفاقِ على وُجودِه وتفَرُّدِه بخَلْقِها، وأنَّه لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه، وأنْكَرَ عَلَيْهِمْ غَفْلَتَهم عَنِ الآخِرَة، مَعَ شِدَّةِ وُضوحِ أدِلَّتِها[1]؛ وذلك بوعظهم بالتّفكّر في خلق السّموات والأرض، الدّالّة على بديع الصّنعة، وعظمة الصّانع، وذلك مسلك للإيمان، ودلالة على الاعتبار، لليقين بعظمة الخالق القهّار، والاستدلال بأنّ له في كلّ شيء آية، تدلّ على أنّه الواحد، وقد روي عن أبي الدّرداء رضي الله عنه أنّه قال: تَفَكُّرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قيام ليلة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفُسِهِمۗ﴾: (نفس) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خُروجِ النَّسيم كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أَوْ غَيْرِها، والتَّنَفُّسُ: خُروجُ النَّسيمِ مِنَ الْجَوْفِ، والنَّفَسُ: كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنْ مَكْروبٍ، ومِنَ الاسْتِعارَةِ: تَنَفَّسَتِ الْقَوْسُ: انْشَقَّتْ[3]، والنَّفَسُ: الرّيحُ الداخلُ والخارجُ في البَدَنِ مِنَ الفَمِ والمِنْخَر، وهو كالغِذاء للنَّفْسِ[4]، والنَّفْسُ: الرّوحُ، والنَّفْسُ: العَيْنُ، يقال: أصابت فلانًا نَفْسٌ، ونَفْسُ الشَّيْءِ: عَيْنُه يُؤَكَّدُ به،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 21/ 30، والشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 168.
(2) هناد السري، الزهد: 2/ 468، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 5.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفس).
(4) الرّاغب، المفردات: (نفس).

يقال: رأيت فلانًا نَفْسَهُ، وجاءني بنَفْسِه[1]، والمراد هُنا: ذواتهم أي أشخاصهم.

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقّ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِه، والْحَقُّ نَقيضُ الْباطِلِ[2]، والمُرادُ بِالحَقِّ، هو الثّابِتُ الَّذي يَحِقُّ أنْ يَثْبُتَ لا مَحالَةَ لِابْتِنائِهِ عَلى الحِكَمِ البالِغَةِ الَّتي مِن جُمْلَتِها اسْتِشْهادُ المُكَلَّفينَ بِذَواتِها وصِفاتِها وأحْوالِها عَلى وُجودِ صانِعِها ووَحْدَتِه، وعِلْمِهِ وقُدْرَتِه، واخْتِصاصِهِ بِالمَعْبودِيَّةِ، وصِحَّةِ أخْبارِهِ الَّتي مِن جُمْلَتِها إحْياؤُهم بَعْدَ الفَناءِ بِالحَياةِ الأبَدِيَّةِ، ومُجازاتُهم بِحَسَبِ أعْمالِهِمْ عَمّا يَتَبَيَّنُ المُحْسِنُ مِنَ المُسيءِ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تساؤل عن نبذ التّفكّر في الأنفس والكون، لإدراك قدرة الخالق وعظمته

أوَلَمْ يَتَفَكَّر هؤلاء المشركون الغافلون المُكَذِّبون بِرُسِل اللّه ولقائه في أنْفُسِهم كيف خلقَها اللّهُ، ولَمْ يكونوا قَبْلُ شيئًا مَذْكورًا؟! ما خَلَقَ اللّه السّماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحَقِّ، وللدّلالة على قَيّوميَّتِه سبحانه، وتوحيده، ومُطْلَق قُدْرَته، فلَمْ يخلقهما عَبَثًا، وجعل لَهُمَا ولجميع مخلوقاته أجَلًا مُحدَّدًا، تَنْتَهي إليه وهو يوم البَعْث والنُّشور، وإنَّ كثيرًا مِن النّاس بيوم الحِساب لجاحدون مُنْكِرون.

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة العقلية المثبتة لها[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ على ما قَبْلها:

الاستدلال مِن مُقتضى الحِكْمَة، على عظمة الخلق، وإبداع الصّنعة

وجه ورود قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، معطوفًا على

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حقّ).
(3) الآلوسي، روح المَعاني: 21/ 22.
(4) الجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 162.

ما قَبْلَه، أو على مُقدَّر، أي: أَلَمْ يتفكّروا في مصنوعاته[1]؛ لبيان أنَّه "عَطْفٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ لِأنهم نَفَوُا الحَياةَ الآخِرَةَ، فسيقَ إِلَيْهِمْ هَذا الدَّليلُ، عَلى أنَّها مِن مُقْتَضى الحِكْمَةِ"[2] وأنَّ الّذي فعل ذلك، قادر لا محالة، على إعادتهم بعد فنائهم خلقًا جديدًا، ثمّ يكون بعثهم بعد ذلك، ليجازي كلّ عامل بعمله، ولكنّ الكثير من النّاس غافلون عن الآخرة، غير منتبهين ولا مقدّرين، ما فيها من حساب وجزاء، لأنّهم نأوا عن التّفكير في أنفسهم، ولو تفكّروا في معجزتها، ودرسوا عجائبها البديعة، لأيقنوا بلقاء اللّه وحسابه وآخرته، ولكنّهم كفروا فضلّوا عن الحقّ النّاصع الصّراح[3].

غرضُ الاستفهام في الآية:

الاستفهام للتّقرير، يدفع تَوَهُّم عَطْف الإنشاء على الخبر

الغرض من الاستفهام، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ التَّقرير، ويُؤَيِّد هذا اعتبار الجملة معطوفة، على قوله: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، لدخول الهمزة على الفعل المنفيّ بالحرف (لَمْ) دخولًا مباشرًا، فهي والحالة هذه، تنفي النَّفْيَ المستفاد من (لَمْ)، فيصير المعنى إثباتًا[4]، واعتبار الاستفهام للتَّقرير، يدفع تَوَهُّم عَطْف الإنشاء على الخبر، لِكَوْن الجملة في حُكْم الخبر[5]، وقيل: الاستفهامُ تَعجُّبِيٌّ من غَفلتِهم، وعدَمِ تفَكُّرِهم؛ والتَّقْديرُ: هم غافِلونَ وعَجيبٌ عَدَمُ تَفَكُّرِهِمْ[6]، وقيل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، "لتوبيخ أولئك الكافرين الّذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدّنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون"[7].

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 113.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 51.
(3) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 3299.
(4) عبد العظيم المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 242.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 105.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 51.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 51.

معنى الواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾:

التّفكير الواعي، فريضة إسلاميّة أصيلة

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾، للعَطْف على جملة، ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، لأنّهم نفوا الحياة الآخرة، فسيق إليهم هذا الدّليل، على أنّها من مقتضى الحكمة[1]، وقيل: إنّ الواو للعطف على محذوف، تقديره أنّهم: (أقْصَروا نظرهم على ظاهر من الحياة الدّنيا، ولم يتفكّروا في أَنْفُسِهِمْ)، أي: لم يُحدثوا التّفكّر فيها حتّى يظهر لهم بعض بواطنها، أو بمعنى: (أو لم يتفكّروا في أمر أنفسهم، فإنّها أقرب إليهم من غيرها)، والنّفس مرآة يُجتلى فيها للمستبصرين، ما يُجتَلى لهم في الممكنات بأسرها، حتّى يتيقّنوا بأنّه ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[2].

دلالة مرجع الضّمير في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾:

التّفكير في النّفس والملكوت، موصل إلى الحقائق بلا فوت

مَرْجِعُ ضمير الرَّفع المُتَّصل في ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾، عائد إلى المشركين الغافلين عن الآخرة، بسبب عدم تدبّرهم في النّفس والكون، بواسطة التّفكير المنطقيّ الواعي، الّذي يُجيل أبصارهم، ويُحرّك عقولَهم، في هدوء وتؤدَة، ممّا يجعلهم يدركون أنّ اللّٰه تعالى، لا يُعقل أن يكون قد خلق السّموات والأرض وما بينهما عبثًا، بل لحكمة جليلة تقوم على الحقّ، ولأمد معين في علمه[3].

معنى حَرْف الجَرِّ في قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾:

حرف الجرّ بَيْنَ الظَّرْفيَّة الحقيقية والظَّرْفيَّة المَجازية

حَرْف الظَّرْفيَّة ﴿فِيٓ﴾ من قَوْلِه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، إمّا أَنْ يَكون للظَّرْفيَّة الحَقيقيَّة الاعْتِباريَّةِ، فيَكونُ ظَرْفًا لِمَصْدَرِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، والمعنى: تَفَكُّرًا مُسْتَقِرًّا في أَنْفُسِهِمْ، ومَوْقِعُ هَذا الظَّرْفِ مِمّا قَبْلَهُ، مَوْقِعُ مَعْنى الصِّفَةِ لِلتَّفَكُّرِ، وإمّا أن يَكون ﴿فِيٓ﴾ لِلظَّرْفيَّة المَجازيَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 21/ 51.
(2) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 7/ 222.
(3) دروزة محمّد عزّة، التفسير الحديث: 7/ 222.

المُتَعَلِّقَة بِفِعْل ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾ تَعَلُّقَ المَفْعول بِفِعْلِه، والمعنى: يَتَدَبَّروا ويَتَأمَّلوا في أَنْفُسِهِم[1].

لطيفة التَّعبير بلفظ (أَنْفُس):

الأنْــفُــسُ غير المؤمنة مَحَلُّ ازدراء وتحقير

المقصود بالأنفس هُنا الذَّوات، وأوثر التَّعبير بِجَمْع القِلَّة (أَنْفُس)، على جَمْع الكثرة (نُفوس)؛ لأنَّ تِلْك الأنْفس غير المؤمنة، الغافلة عن لقاء الآخرة، مَحَلُّ ازدراء وتحقير، ولا يُؤْبَهُ لَها، وإن كانت أكثر عَدَدًا، مقابل النُّفوس المؤمنة المُطمئنة، فناسب المقام اختيار وزن من أوزان جموع القِلَّة، فقال: ﴿أَنفُسِهِمۗ﴾، وقد شاع التَّعبير بجمع القِلَّة (أَنْفُس) في القرآن الكريم، ولِكُلٍّ موضع عِلَّة، يقتضيها السّياق الّذي ورَدَ فيه، وعِلَّة الحثِّ على التَّفَكُّر في أَنْفُسهم؛ لأنَّ فيها آياتٍ يعرفون بها، أنّ الّذي أوجدهم مِن العَدَم سيعيدهم بَعْد ذلك، وأنَّ الّذي خَلَقَهم أطوارًا، مِن نُطْفَة إلى عَلَقة إلى مُضْغَة إلى آدميّ قد نُفِخَ فيه الرّوح، إلى طفل، إلى شابّ، إلى شَيْخ، إلى هَرِم غَيْرُ لائق أنْ يَتْركهم سُدًى مُهْمَلين، لا يُنْهَوْن ولا يُؤمرون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون[2].

نكتةُ ذِكْر القَيْد ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾:

تَـصْـويـر حـالِ المُـتَـفَـكِّـريـن، والتَّذْكير بمآل المُعْتَبِرين

وَقَعَ القَيْد بالجارّ والمجرور: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، مع أنّه لا تفَكُّرَ إلّا فيها؛ لكونه مَعْمولًا لـ: ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، إمّا عَلى تَقْدير مُضاف، والمعنى: في خَلْق أَنْفُسِهِم وأحوالها وأطوارها؛ ليَخْرُجوا مِنَ الغَفْلَة، فيَعْلَموا أنَّهم يَعْلَمون ظاهِرًا مِنَ الحَياة الدُّنْيا فقَطْ، ويَسْتَدِلّوا بِذَلِكَ عَلى وحدانيَّة اللّه تعالى الخالِقِ الباريءِ المُصَوِّر، ودَلَّ سياق الكلام على المحذوف هنا.

وإمّا أنْ يكون القَيْد ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، ظَرْفًا لِلتَّفَكُّر في خَلْق السَّماواتِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 52.

(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن: 3/ 329.

والأرْضِ، فيَكون ذِكْرُه تَوْكيدًا لِقَوْلِه: (يَتفَكَّرون)، كَما تَقول: أَبْصِرْ بِعَيْنِكَ واسْمَعْ بِأُذُنِكَ[1]، ولِتَحْقيقِ أَمْرِه، وتَصْويرِ حالِ المُتَفَكِّرينَ، والتَّذْكيرِ بِهَيْئَةِ المُعْتَبِرينَ[2]، وقالَ الزَّمَخْشَريُّ: في هَذا الوَجْه: "كَأَنَّهُ قالَ: أَوَلَمْ يُحْدِثوا التَّفَكُّرَ في أَنْفُسِهِمْ؟ أَيْ: في قُلوبِهِمُ الفارِغَةِ مِنَ الفِكْرِ، والفِكْرُ لا يَكونُ إلّا في القُلوبِ، ولَكِنَّهُ زِيادَةُ تَصْويرٍ لِحالِ المُتَفَكِّرينَ، كَقَوْلِكَ: اعْتَقِدْهُ في قَلْبِكَ وأَضْمِرْهُ في نَفْسِكَ، ويَكونُ صِلَةَ المُتَفَكِّرِ، كَقَوْلِكَ: تَفَكَّرَ في الأَمْرِ وأَجالَ فِكْرَه"[3]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ في مَعْنى قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات: 21].

معنى ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا خَلَقَ﴾:

إعمال العقول في المخلوقات، مفضية إلى الإيمان بربّ الأرض والسّموات

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ...، نافية، وفي هذه الجملة وجْهان: **أحدهما**: أنَّها مستأنفة، لا تَعَلُّقَ لها بِما قَبْلَها، والمعنى: أَوَلَمْ يتفكّروا في ذواتهم وخِلْقَتهم، فيقولوا هذا القول؛ ليستدلّوا بذلك على الخالق؟! **الثّاني**: أنَّها مُعَلَّقة للتَّفكُّر في خَلْقِ السَّماوات والأرض؛ كأنّه قال: أو لم يتفكّروا بعقولهم، فيعلموا أنَّ اللّه ما خلَقَ السّموات والأرض وما بينهما إلّا بالحَقِّ، فتكون في محلّ نَصْب على إسقاط الخافض (الجارّ)[4]، والمعنى الثّاني أظهر، وقد ذُكِرَت هذه الجملة بَعْدَ إقامة دليل الأَنْفُس، استدلالًا بدليل الآفاق[5].

فائدةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في الآية:

النّفي والاستثناء أعلى طُرُق القصر وأقواها

أوثر التَّعبير في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 351، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 103.
(3) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 566.
(4) ابن جُزّيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 165، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 9/ 31، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 15/ 388.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 6/ 530.

﴿بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، بأسلوب القَصْر بالنَّفي والاستثناء، وهو أعلى طُرُق القَصْر وأقواها؛ لِمجابَهة إنكار الغافلين مِن المشركين، ومَن على شاكلتهم، والقَصْر هُنا مِن قَصْر الصِّفة، وهو خَلْق السَّماوات والأرض على الموصوف، وهو التَّعَلُّق بالحَقِّ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

لفتةُ الطِّباق بَيْن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تأكيد طلاقة القُدرة الإلهيَّة، في التّصرّف والهيمنة على الكون

جاء سياق النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في الجمع بين متضادَّيْن مع مراعاة التقابل بينهما، وهو فنُّ الطِّباق بَيْن السّماوات والأرض؛ لتأكيد طلاقة القُدرة الإلهيَّة، وعَظَمة الخالق سبحانه ووحدانيته ورُبوبيَّته، وسَعَة سُلْطانه بِذِكْر العالَمَيْن: العُلْويّ والسُّفْليّ وما يشتملان عليه مِن آياتٍ وعِبَرٍ، تُلْجِئُ كُلَّ ذي لُبٍّ إلى الإيمان باللّه تعالى.

فائدة ذكر الظّرفيّة في قوله ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾:

عظمة ما بَيْنَ السَّماوات والأرض، تقارَنُ بعظمة كلّ منهما

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، نجد في التَّنصيص على ذِكر ما بَيْنَ السَّماواتِ والأرض، دليلًا على أنَّ ما بيْنَهما أمرٌ عظيمٌ، يُقارَنُ بعظمة السَّمواتِ، وعظمة الأرضِ، حيثُ استحقَّ أنْ يُجعلَ قَسيمًا لهما، فهذه ثلاثةُ أشياءَ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾، ومِن المعلوم عِظَمُ الأرضِ وعِظَمُ السَّماءِ؛ إذَنْ: فعِظَمُ ما بيْنَهما موازٍ لهما(1)، وفائِدَةُ ذِكْرِ السَّماواتِ هُنا، أنَّ في أحْوالِ السَّماواتِ مِن شَمْسِها وكَواكِبِها ومَلائِكَتِها، ما هو مِن جُمْلَةِ الحَقِّ الَّذي خُلِقَتْ مُلابِسَةً لَه(2).

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

معاني حرف المعنى، مفيدة في البيان المتوخّى

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، إمّا سببيَّة، أي ما خلقها إلّا للحَقِّ، وإمّا حاليَّة، والمعنى: مُتَلَبِّسة بالحَقِّ، مقرونة بالحِكْمَة، لا باطِلًا

(1) ابن عُثَيْمين، تفسير ابن عثيمين - سورة الرّوم، ص: 45.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 53.

ولا عَبَثًا خاليةً عن حِكْمة، ولا لتبقى خالدة، وإنّما خَلَقها، مُؤَجَّلة بأجَلٍ مُسَمًّى[1]، وخلاصة ذلك، أنَّ "الباء في قوله بِالْحَقِّ للملابسة، أي ما خلقها باطلًا ولا عبثًا، بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنّما خلقها مقرونة بالحقّ، مصحوبة بالحقّ"[2]، وتلك حكمة اللّه في الخلق والتّقدير.

دلالة (أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

أفادت (أل) الجِنْسيَّة في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، مَعْنى الكَمالِ، أي الحَقُّ المُطْلَق الكامِل الّذي لا يعلوه حَقٌّ؛ "لِأنَّ اسْمَ الجِنْسِ في المَقامِ الخِطابيِّ، يُؤْذِنُ بِكَمالِهِ في صِفاتِهِ"[3].

عِلَّة عَطْف قوله: ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ على ما قبله:

الحِكْمَة البالِغة في مقاصد الخَلْق، وعلل الفناء

عُطِفَ قوله: ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ عَلى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، عَطْف العِلَّة على المعلول؛ لاتِّصال الكلام بعْضه ببعض، والمراد بالأجَل: آخر المُدَّة لا المُدَّة نَفْسها، والمعنى: ما خَلَقَ السّموات والأرض وما بينهما باطلًا بغير غرض وحِكْمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنَّما خَلَقَها مقرونة بالحَقِّ، وبتقدير أجَل مُسَمّى تَنْتَهي إلَيْه، وهو يَوْمُ القيامَة، وفي هَذا تَنْبيهٌ عَلى الفَناءِ، وإشارَةٌ إلى البَعْث والنُّشور، وأنَّ لِكُلِّ مَخْلوقٍ أجَلًا لا يُجاوِزُه[4]، وأبان ابن عاشور عن غرض هذا العَطف، بقوله: "فَكانَ جَعْلُ الآجالِ لِبَقاءِ المَخْلوقاتِ من جُمْلَةِ الحَقِّ الَّذي خُلِقَتْ مُلابِسَةً لَهُ، ولِذَلِكَ نُبِّهَ عَلَيْهِ بِخُصوصِهِ اهْتِمامًا بِشَأْنِه، وتَنْبيهًا عَلى مَكانِه، وإظْهارًا أنَّهُ المَقْصِدُ بِكِيانِه، فعَطَفَهُ عَلى الحَقِّ لِلاهْتِمام بِه، كَما عَطَفَ ضِدَّهُ عَلى الباطِلِ، في قَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا

---

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 212 - 214، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 530، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 106.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 6.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 53.

(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 215، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 107، والشَّوكانيّ، فَتْح القدير: 3/ 99.

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115]، فقالَ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾"[1].

بلاغة الكِناية في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾:

أجَل المخلوقات مَهْما طال، فلا بدّ من الفناء والزّوال

في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ كناية عن صِفة مِن مجموع أمْرين: أحدهما: زوال الحياة الدُّنيا، والثّاني: بَدْء الحياة الآخرة، وفي السّياق المحكم، إشارة إلى أنّ للسّموات والأرض وما بينهما أجلًا مسمًّى، تنتهي إليه، وهو يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الفناء، وأنّ لكلّ مخلوق أجلًا لا يجاوزه، وقيل: معناه أنّه خلق ما خلق، في وقت سمّاه لخلق ذلك الشّيء[2].

وجهُ تنكير لفظ ﴿وَأَجَلٍ﴾ ودلالته:

ربط مصير المخلوقات بالآجال، حكمة الله العزيز المتعال

قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾، فيه ورود لفظ ﴿وَأَجَلٍ﴾، دالًّا على التّقليل، وقد نُكِّرت الصّفة والموصوف، وهذا ما أكّده النَّعْت ﴿مُّسَمًّىۗ﴾، ومفاد ذلك أنّ الأجَل مَهْما طال فهو مُقَدَّرٌ، ولا بُدَّ لَه مِن انتهاء، وفي التّنكير تعميم لا يسلم منه موجود، بما يطاله من أعراض وكوارث وهلاك، وأنَّ كلّ مخلوق سوف يفنى، ولا بقاء لشيء في الملكوت، إلّا للّه ربّ العزّة والجبروت، وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّحمن: 26 - 27].

سِرُّ تَتابع المؤكّدات في سيّاق الآية المحكم:

تنزيل السّامع مَنْزِلَة الشّاكّ، في وجود من يجحد لقاء الله

تَتابعت المُؤَكِّدات في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، حيث أُكِّدَت الجملة بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة، واللّام المزحْلَقة، لإنكار الكافرين أنَّهم عَلى كُفْرٍ، أو "لِتَنْزِيل السّامِع مَنزلَةَ مَن يَشُكُّ في وُجود مَن يَجْحَدُ لِقاءَ اللّهِ، بَعْدَ هَذا الدَّليلِ الَّذي مَضى، بَلْهَ أنْ يَكونَ الكافِرونَ بِهِ كَثيرًا"[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 54.

(2) القِنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 229.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 54.

دلالة تنكير الوصف ﴿كَثِيرًا﴾، وأثره في السّياق:

كلّ بلاغ يواكبه قلّة مؤمنة، وكثرة كافرة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ تنكير لفظ ﴿كَثِيرًا﴾ للتّكثير، والمُراد بالكثير هُنا الكُفّارُ عَلى الإطّلاق، أوْ كُفّارُ مَكَّة عمومًا، ولا شكَّ أنَّ البيئات الكافرة، تعجّ بالمئين من الجاحدين، وهم يجتمعون في المقاصد والغايات، ويختلفون في الوسائل والممارسات، ولا ريب أنّهم يمثّلون الكثرة الكاثرة، في كلّ مراحل الصّراع بين الحقّ والباطل، وعليه فقد كان الأنسب في السّياق، أن يُؤْثَرَ التّنكيرُ، لإفادة العموم، حيث كان التّعبير عن انتشار الظّاهرة، بصورة طفريّة مؤثّرة، ونؤكّد أنّه في التَّقييد بالوصف ﴿كَثِيرًا﴾، إشارة إلى كَثْرة الجاحدين بالآخرة، والمُنكرين لَها، وإلى قِلَّة المُقِرّين المُوَحِّدين بالنِّسبة لِهؤلاء[1].

معنى الواو في ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾:

شيوع الكفران، من شقاء الإنسان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ استئنافيّة، والجملة لا محلّ لها استئنافيّة[2]، وقيل الواو حالية[3]، والأوّل أظهر، وفي الجملة بيان بأنّ كثيرًا من النّاس كافرون، لا يصدّقون بأنّهم مبعوثون بعد الموت، وأنّهم ملاقون ربّهم، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين[4]، وكفرهم يتجلّى في أنّهم لا يؤمنون بأنّ السّموات والأرض، لا بدّ لها من أن تنتهي إلى أجل مسمّى، وهو قيام السّاعة، ووقت الحساب والثّواب والعقاب[5]، وأنَّ حياة الإنسان كحياة الأكوان، لا تنتهي بهذه الدّورة القصيرة على الكوكب الأرضيّ، وإنّ له لحياة أخرى، أعظم، وأبقى[6].

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 107.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 27.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 476.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 486.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 6.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 486.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾:

لِقاءُ اللهِ تَعالى أعظَمُ الأُمورِ، وفيه الفَوْزُ أو الخُسْران

في قوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾ كناية عن موصوف هو يوم الحِساب؛ حيث أخْبَر سبحانه عن كَثيرٍ مِنَ النّاسِ، أنَّهم كَفَرَةٌ بِذَلِكَ اليوم، فعَبَّرَ عنهُ بِلِقاءِ اللّهِ؛ لِأنَّ لِقاءَ اللّهِ ﷻ هو أعْظَمُ الأُمورِ، وفيهِ النَّجاةُ أوِ الهَلَكَةُ[1]، خصوصًا وأنَّ لقاء ربّهم يقين، قد دلّت الأدلّة القاطعة على صدقه وحصوله لا محالة، ومن كفر بلقاء اللّه، فقد أنكر معلومًا من الدّين بالضَّرورة، وردّ على اللّه وحْيَه وأمرَهُ وتشريعَهُ، وفي ذلك هلاكه في الدّنيا، وخسرانه في الآخرة.

دلالة التَّعبير بالرُّبوبيّة والضّمير في ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

تقريع وتوبيخ للجاحدين المُنْكِرين، من مقاصد هذا السّياق

في التَّعبير بالرُّبوبيَّة، وإضافتها إلى ضمير كثير الناس في قوله: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ توبيخ وتقريع لهؤلاء المُنكرين لقاء رَبِّهم، المُتَفَضِّل عليهم بِنِعَمِهِ وإحسانه، ورجوعهم إلى العَرْضِ عَلَيْه للحِساب، والثَّوابِ والعِقابِ في الآخِرَة.

نكتة تقديم المسند على المسند إليه:

الكفر بلقاء الله أشنع الكفر وأبشعه

ورد في قوله تعالى: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ تقديمُ المسند، وهو قوله: ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ﴾، على المسند إليه، وهو قوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾، وفي هذا التَّشنيعُ عليهم بإظهارهم مُسارعين إلى الكُفْر بلقاء رَبِّهم، ونكران جميله وعطائه غير المحدود، وهو المُنْعِم عليهم، فكأنَّ في هذا التَّقديم مُسَوِّغًا للغارة عليهم، وتهديدهم.

علة إيثار التَّعبير باسم الفاعل ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾:

الإصرار على الكُفْر، والرُّسوخ فيه، ضلال وهلكة

النُّكتة في إيثار التَّعبير باسم الفاعل ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾: للدِّلالة على أنَّ هؤلاء ثابتون على الكُفْر، راسخون فيه، ومُستقرّون عليه، كَأنَّهُ غَريزَةٌ لَهُمْ، والمعنى: "أيْ لَساتِرونَ ما في عُقولِهم من دَلائِل

(1) ابن عَطيَّة، المُحرَّر الوَجيز: 1472.

وحْدانيَّتِهِ وحُجَجِ قُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ سِتْرًا عَظيمًا، فهم لِذلِكَ يُكَذِّبونَ بِما وعَدَكم سُبْحانَهُ مِن إدالَةِ الرّومِ عَلى الفُرْسِ، فلا يَهولَنَّكم ذَلِكَ لِأنَّهم قَدْ كَذَّبوا بِما هو أكْبَرُ مِنهُ، وهو الآخِرَةُ عَلى ما لَها مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي تَفوتُ الحَصْرَ"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾:

الكـفـر بـلـقـاء الـلــه، منبـئ عـن انـطـمـاس البصيرة

اللّام في قوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾؛ لتأكيد كُفْر الكثير من النّاس بالآخرة، وذلك مُروقٌ عن وحي اللّه المنزل على رسله، وفيه إشارة إلى كون أكثر النّاس لا يوقنون بلقاء ربّهم، فينصرفون عن هذا التّدبر والتّفكير، ولذلك جاء التّأكيد باللّام، لإبراز فظاعة الكفر بالآخرة، وذلك أنَّ المكذِّب سوف يصعق بوجود الآخرة، وما فيها من حساب وسوء مصير، بالنّسبة لكلّ مكذّب غرير.

بلاغة التَّذييل في الآية:

إنـكـار الآخـرة كفران، والغَفْلَة عـــن المـصـيـر خسران

التَّذييل في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾، مُقَرِّرٌ لِما قَبْلَه بِبَيانِ أنَّ أكْثَرَهم غَيْرُ مُقْتَصِرينَ عَلى ما ذُكِرَ مِنَ الغَفْلَةِ، عَنْ أحْوالِ الآخِرَةِ، والإعْراضِ عَنِ التَّفَكُّرِ فيما يُرْشِدُهم إلى مَعْرِفَتِها، مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ، وما بَيْنَهُما مِنَ المَصْنوعاتِ، بَلْ هم مُنْكِرونَ جاحِدونَ، بِلِقاءِ حِسابِهِ تَعالى وجَزائِهِ بِالبَعْثِ[2].

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 352.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الرّوم: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تقرير الدَّليل أتْبَعه بالتَّهديد والتَّهويل

لَمّا أقامَ اللّه تعالى عَلى الكافرين الدَّليلَ، أَتْبَعَهُ التَّهْديدَ والتَّهْويلَ، فقالَ عاطِفًا عَلى ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) يَدُلُّ أَصْلُ المادَّة عَلَى تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه، وعَلى ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ[2]، وعَقِبُ كُلِّ شيءٍ، وعَقْبُه، وعاقِبَتُه، وعاقِبُه، وعُقْبَتُه، وعُقْباه، وعُقْبانُه: آخِرُه، والعُقْبَى جَزاءُ الأمْر، والعُقْبى تكون في الخَيْر، أي العاقبةُ، وجَمْعُ العَقِبِ والعَقْبِ: أعقابٌ[3]، والعَقِبُ: الذي يَكِرُّ على الشيء ويتبعه لينظر ما فيه من الخَلَل ليُنْقِصَه[4]، والمعنى هُنا: مَصيرُهُم الَّذي انْتَهوا إليه.

2) ﴿وَأَثَارُواْ﴾: أصلُ (ثَوَرَ) يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ[5]، الإثارة: تحريك الشَّيء حتَّى يرتفع تُرابه، عن قتادة، قوله: "إنّ من الرّيح عقيمًا وعذابًا، حين ترسل لا تلقح شيئًا، ومن الرّيح رحمة يثير اللّه ﷻ بها السّحاب، وينزل بها الغيث"[6]، ومن المجاز: أيضا: ثوّر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 50.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(4) السَّمين الحَلَبي، عُمْدة الحُفّاظ: (عقب).
(5) ابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 340، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثور)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 333.
(6) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 21/ 539.

عليهم الشّرّ، إذا هيّجه وأظهره، وثارت بينهم فتنة وشرّ، وثار الدّم في وجهه.

وفي حديث عبد الله: (أثيروا القرآن، فإنّه فيه خبر الأوّلين والآخرين)[1]، والمراد هُنا: حَرَثوا وزَرَعوا.

3) ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾: أصلُ (عمر) يدُلُّ على بقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ، وعَلَى شَيْءٍ يَعْلو، مِنْ صَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ[2]، والعِمارةُ: نَقيضُ الخرابِ، يقال: عَمَرَ أرضَه: يَعْمُرُها عِمارَةً، والْعَمْرُ والْعُمُرُ: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمارَةُ بَدَنِه بِروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس يقتضي ذلك، فإنّ البَقاء ضدّ الفَناء، والتَّعْميرُ: إعطاء العُمَر بالفِعْل، أو بالقول على سبيل الدُّعاء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ [فاطر: 37][3].

ومعنى الآية: أيْ وعَمَّرَها أولَئِكَ الَّذينَ كانوا قَبْلَهم بِفُنونِ العِماراتِ مِنَ الزِّراعَةِ والغَرْسِ والبِناءِ وغَيْرِها[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدعوة للسّير الاعتباري في الأرض ومعرفة عاقبة الهالكين

أَوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء الجاحدون المشركون بالله الغافلون عن الآخرة في الأرض، سَيْرَ تَأَمُّلٍ واتّعاظ، فيشاهدوا كيف كان مصير الأُمَم السّابقة، ومَصارع الَّذين كذَّبوا بِرِسالات الله كعاد وثمود وقوم لوط؟ وقد كانوا أقوى منهم أجسادًا، وأَكْثَرَ عِمارة للأرض، حيث حَرَثوها وزَرَعوها، وبنوا القُصور وسَكَنوها، فعَمَّروا دُنياهم أكثر مِمّا عَمَّر أَهْلُ مكَّة دنياهم، فلم تنفعهم عِمارتُهم، ولا طولُ مُدَّتهم، وجاءتهم رُسُلُهم بالحُجَج الظّاهرة، والبراهين السّاطعة، فكذَّبوهم فأهلكهم الله، ولم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنّما

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (ثور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمر).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 25.

ظلموا أنفسهم، بإيرادها موارد الهَلاك بالشِّرْك والعِصْيان، والنُّفور والطُّغيان[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ السَّير في الأرض فيه اعتبار بالجزاء المعجَّل في الدنيا، إذ هو نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له، وإلى مشروعية السَّير في الأرض للاعتبار مع اشتراط عدم حصول إثم في ذلك؛ بترك واجب، أو بفعل مُحَرَّم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾:

توبيخ المشركين؛ لِعَدم اعتبارهم بما حَلَّ بأسلافهم الأوّلين

الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، للتَّقرير المَشوب بالتَّوبيخ والتَّقريع؛ لِعَدَم تَفَكُّرِهم في الآثارِ، وتَأمُّلِهم لِمَواقِعِ الاِعْتِبارِ[3]؛ وذلك بناء على أنَّ "الاستفهام إنكار للنَّفْي، وإثبات للمَنْفيِّ، أي قد ساروا في تِجارتهم، وفي أسفارهم، وفيه تشنيع لَهُم؛ لِعَدَم اتِّعاظهم، وعَدَم تَنَبُّههم بما أصابهم مِثْل ما أصاب مَن قَبْلَهم غِبَّ توبيخ على عَدَم تفكيرهم في المصنوعات"[4]، والمعنى: (أَوَلَمْ يُسافروا في الأرض، فيَنْظروا إلَى مَصارِعِ الْأُمَم قَبْلَهُم فيَعْتَبِروا؟!).

دلالة الواو على المحذوف في السّياق:

لِلقُلوب سَيْرٌ، ولِلنُّفوس سَيْرٌ، وكلاهما خلق الله العجيب

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفة علَى مُقَدَّرٍ يَقْتَضيه المَقامُ، والمعنى: أنَّهم قَدْ ساروا وشاهدوا ماحاق بِمَنْ كانَ قَبْلَهم، مِن مُكَذِّبي الرُّسُلِ، والجملة معطوفة على جملة: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ عَطْف سَبَبٍ على مُسَبَّبٍ؛ لأنَّ السَّير سَبَب للتَّفَكُّر[5].

وأشار ابن عطيَّة إلى لطيفة بقوله: "ولا يَتوجَّهُ للكَفَرةِ أن يُعارِضَ

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 405.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 637، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 163.
(3) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 566، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 159.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 107.
(5) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين: 3/ 229.

منهم مَن لم يَسِرْ، فيَقولَ: لم أسِرْ؛ لأنَّ كافَّةَ مَن سار مِنَ النّاسِ، قد نَقَلَت إلى مَن لم يَسِرْ؛ فاستَوَتِ المعرفةُ، وحصَل اليقينُ للكُلِّ، وقامت الحُجَّةُ، وهذا بيِّنٌ"[1]، وللنُّفوس والقلوب أيضًا سَيْرٌ، فسَيْر النُّفوس في أقطار الأرض ومَناكِبها لأداء العبادات، وسَيْر القلوب بِجَولان الفِكْر في جميع المخلوقات، وغايته الظّفر بحقائق العلوم الّتي توجِب ثَلْج الصّدر[2].

سِرُّ الفرق بين ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ و﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

لكلّ من السّير والرّؤية، مجال للاعتبار المنيف، والنّظر الحصيف

ورد قولُه تعالى في هذه الآية قيد التّفسير: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ مغايرًا في الحثِّ مع قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 19]، وقوله ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: 67]، بلفْظِ (أوَلَمْ يَرَوْا)، ولم يقُل فيهما: (أولَمْ يَسيروا)؟.

عُبِّر بالرُّؤية في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 19]، وفي قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: 67] بلفْظ: (أوَلَمْ يَرَوْا) وفي الأنعام: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: 6] ولَمْ يَقُلْ: (أوَلَمْ يَسيروا)؛ لاختلاف المقام، إذ لا حاجَةَ هُناك إلى السَّيْرِ بِحُضورِ النَّفْسِ والسَّماءِ والأرْضِ، وقالَ هاهُنا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾، ذَكَّرَهم بحالِ أمْثالِهِمْ ووَبالِ أشْكالِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ أنَّهم أوْلى بِالهَلاكِ؛ لِأنَّ مَن تَقَدَّمَ من عادٍ وثَمودَ، كانوا أشَدَّ مِنهم قوَّةً، ولَمْ تَنْفَعْهم قواهم، وكانوا أكْثَرَ مالًا وعِمارَةً، ولَمْ يَمْنَعْ عَنْهُمُ الهَلاكَ أمْوالُهم وحُصونُهم[3].

---

(1) ابن عطيّة، المُحَرّر الوَجيز: 4/ 330.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 110.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 101.

نكتةُ التعبير بالظَّرْفيَّة:

الأرض تَشمَل الغلاف الجَوّيَّ؛ لأنَّها بِدونه لا تَصْلُح للعَيْش

نجد لفظ السَّير في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي يعني قَطْع المسافات مِن مكان إلى مكان، والمراد به هنا انتقال الأُمَم السّابقة المُكَذِّبة، مِن مكان إقامتهم إلى أماكن الاعتبار والنَّظَر، والأرْضُ: اسْمٌ لِلْكُرَة الّتي نعيش فيها، وكَشَفَ العُدول عن حَرْف الاستعلاء (على)، إلى حَرْف الظَّرْفيَّة ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، عن دِقَّة البيان القرآنيّ وإعجازه؛ لأنَّ الأرض ليست مُجَرَّد اليابسة التّي تَحْمِل الماء والّتي نعيش عَلَيْها، إنَّما الأرض تَشْمَل كُلَّ ما يُحيط بها مِن الغلاف الجَوّي؛ لأنَّها بِدونه لا تَصْلُح للعَيْش عَلَيْها؛ إذًا فغلاف الأرض مِن الأرض؛ فنحن حين نَسير نَسير في الأرض ولا نَسير عليها[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

سرّ الأرض فيما حملت من عبرة وعمران، على مرّ الزّمان

لا ريب أنّ سِرِّ تَعريف الأرض في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ كما يشير البقاعيّ: "ولَمّا أحاطَتْ آثارُ المُكَذِّبينَ بِمَكَّة المُشَرَّفَةِ شَرْقًا وغَرْبًا، وجَنوبًا وشَمالًا، بِديارِ ثَمودَ، وقَوْمِ فِرْعَوْنَ، وعادٍ وسَبَأٍ وقَوْمِ لوطٍ، عَرَّفَ وأطْلَقَ، فقالَ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومُشْركو مَكَّة لَم يسيروا في أرض المُكَذِّبين المُهْلَكين، سَيْرَ اعْتِبارٍ وتَأمُّلٍ وادِّكارٍ، مِن أيِّ جِهَةٍ أرادوا، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهم واقِفونَ عِنْدَ النَّظَرِ في ظاهِرِ المُلْكِ بِأبْصارِهِمْ، قاصِرونَ عَنِ الاعْتِبارِ في باطِنِ المَلَكوتِ بِأفْكارِهِمْ، وفيهِ هَزٌّ لَهم إلى امْتِطاءِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ، بِهَذِهِ العِبارَةِ الجَلِيَّةِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾"[2].

دلالة الزّجر والتّوبيخ، في السّياق المحكم:

تَضَمَّن قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11323.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.

تلويحًا بالوعيد لهؤلاء المشركين، وتلميحًا بالتَّهديد؛ لِتَكْذيبِهِم الرَّسول ﷺ وتَضَمَّن أيضًا تَجْهيلًا لَهُم وتوبيخًا؛ لِإحالَتِهِم المُمْكِنَ، "حَيْثُ أيْقَنوا بِأنَّ الفُرْسَ لا يُغْلَبون بَعْدَ انْتِصارِهِمْ! فَهَذِهِ آثارُ أُمَمٍ عَظيمَةٍ، كانَتْ سائِدَةً عَلى الأرْضِ، فزالَ مُلْكُهم، وخَلَتْ بِلادُهم مِن سَبَبِ تَغَلُّبِ أُمَمٍ أُخْرى عَلَيْهِمْ، والمَعْنى: أنَّهم كانوا مِن قَبْلِهِمْ في مِثْلِ حالَتِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وتَكْذيبِ الرُّسُلِ المُرْسَلينَ إلَيْهِمْ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَقِبَهُ ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ ... الآيَةَ"(1).

بـيـان مـلـمـح الـتّـلـويـح بـالـوَعـيـد، والـتّـلـمـيـح بالتَّهديد

وجهُ مرجع الضّمائر المتَّصلة، بالأفعال الواردة في السّياق:

إعادةُ التّاريخ نفسه بين الغابر والحاضر

نلمح في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ ... ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ أنَّ مَرْجِعَ الضَّمائر المُتَّصلة في هذه الأفعال، يعود على الأُمَم السّابقة، كَعادٍ وثَمود، وقَوْم لوطٍ، وأمْثالهم الَّذينَ شاهَدَ العَرَبُ آثارَهَمْ، وقد كانت الضّمائر المتّصلة موجّهة نحو سيرهم في الأكوان، وممارساتهم في العُمران، واستقبالهم الكنود لرسالات البلاغ عبر الزّمان، وقد شملت هذه الأفعال قرونًا من الصّراع بين الحقّ والباطل، وأزمنة من المغالبة الّتي جسّدَتْها مضامينُ القصص القرآنيّ، في الصّدام بين الدُّعاة والغُلاة، والّتي بقيت وقائعها عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد، ولكنّهم لم يستثمروها، واختاروا الضّلال، وصمّوا آذانهم عن الهدى.

فائدة عطف ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ على جملة ﴿يَسِيرُواْ﴾:

الـجـمـلـة الـمـعـطـوفـة داخلة في حُكْم الاستفهام

جاءت جملة: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، معطوفةً على جملة: ﴿يَسِيرُواْ﴾ فهي داخلة في حُكْم الاستفهام، ويمكن أن تكون الجملة منصوبة بإضمار (أنْ)، على أنَّه جواب النَّفي، والتَّقدير: قَدْ شاهَدوا رُسُلَهُمْ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

السببية والتعقيب ذو أثر في الدّلالة على الإبانة

الفاءُ في ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، لِلْعَطْفِ عَلى ﴿يَسِيرُواْ﴾ داخِلٌ تَحْتَ ما تَضَمَّنَهُ الاِسْتِفْهامُ مِنَ التَّقْرِيعِ والتَّوْبِيخِ، وهي للسَّببيَّة؛ أي تَسَبُّب النَّظَر عن السَّير، أو لِتعقيب النَّظَر على السَّير، والمَعْنى: أنَّهم قَدْ ساروا وشاهَدوا[1].

دلالة النَّظر المراد في جمله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

النَّظَر في الآية بين الحقيقة والمجاز، لا مغالاة فيه ولا انحياز

النَّظرُ هُنا إمّا أن يكون المراد به التَّأمُّل والتَّدبُّر، وأخْذ العِبرة، وعليه ففي اللَّفظ استعارة تصريحيَّة، وسِرُّها الوقوف على ما حَلَّ بالأُمَم السّابقة الغابرة المُتَجَبِّرة، مِن عِقاب اللّه تعالى حتَّى ولَكأنَّهم يَنْظرون إلى مصارعهم، وهي تقع أمامهم نَظَر العين، والغاية تعميق الفِكْر، والتَّأمُّل فيما حَلَّ بِهِم؛ لِكون ذلك رادعًا لَهُم، وزاجرًا عن تكذيب نَبيِّهم ﷺ، وحافزًا على الإذعان والإيمان والقبول بالدَّعوة إلى التَّوحيد والإسلام[2]، فالمطلوب السّير، سَيْرَ اعْتِبارٍ وتَأمُّلٍ وادِّكارٍ، مِن أيِّ جِهَةٍ أرادوا، "وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهم واقِفونَ عِنْدَ النَّظَرِ في ظاهِرِ المُلْكِ بِأبْصارِهِمْ، قاصِرونَ عَنِ الِاعْتِبارِ في باطِنِ المَلَكوتِ بِأفْكارِهِمْ، وفيهِ هَزٌّ لَهم إلى امْتِطاءِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ، بِهَذِهِ العِبارَةِ الجَلِيَّةِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾"[3]، وإمّا أن يكون النَّظرُ مستعمَلًا في معناه الحقيقيِّ، ويكون المراد به نَظَرَ العَيْنِ؛ لِأنَّ قُرَيْشًا كانوا يَمُرّونَ في أسْفارِهِم إلى الشّامِ عَلى دِيارِ ثَمودَ وقَوْمِ لوطٍ، وفي أسْفارِهِمْ إلى اليَمَنِ عَلى دِيارِ عادٍ[4].

بلاغة الاستفهام بـ﴿كَيۡفَ﴾ وغَرَضُه:

تَعاضُد دلالة البَصيرة، مع النّظر بالعين الباصرة

الاستفهامُ بلفظ ﴿كَيۡفَ﴾، في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ﴾

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 107، والقنوجي، فَتْح البيان: 3/ 374.
(2) المطْعَني، التَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 245.
(3) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.

للتَّعجيب مِمّا حَلَّ بِتلك الأُمَم السّابقة الظّالمة، وهو في مَحَلِّ نَصْبٍ مفعول بِه للفعل ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، أي: يَنْظروا كيفيَّة عِقاب الله لَهُم[1]، أي حالَةُ آخِرِ أمْرِهِم، مِن خَرابِ بِلادِهِم، وانْقِطاعِ أعْقابِهِم، فتآزَرَت الدِّلالتان: دلالة التَّفكُّرِ الّتي في قَوْلِهِ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، مَعَ دَلالَةِ الحِسِّ بِقَوْلِهِ ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾"[2].

لطيفةُ تذكير الفعل ﴿كَانَ﴾ مع ﴿عَٰقِبَةُ﴾:

تَـذْكـيرُ الـعَـمَـلِ يُشيرُ إلى عِظَمِ الأمْرِ، ومناسبة التّأنيث المجازيّ

العاقِبَةُ: آخِرُ الأَمْرِ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ، بِخِلافِ العُقْبى فهي لِلْخَيْرِ خاصَّةً، إلّا في مَقامِ المُشاكَلَة[3]، وذُكِّرَ الفعل ﴿كَانَ﴾ مع ﴿عَٰقِبَةُ﴾؛ لأَنَّ التَّأنيث مجازيٌّ، وسِرُّه البَلاغيّ هو أنَّه لَمّا كانَ ما حَلَّ بأسلافهم مِن المُكَذِّبين أمْرًا عَظيمًا، نَبَّهَ عَلى عِظَمِه، بِأنَّهُ أهْلٌ لِأنْ يُسْأَلَ عَنْهُ، فقالَ: ﴿كَيۡفَ كَانَ﴾، أيْ كَوْنًا لا قُدْرَةَ عَلى الِانْفِكاكِ عَنْهُ، وتَذْكيرُ العَمَلِ يُشيرُ إلى عِظَمِ الأَمْرِ[4]، وأوقَعَ فِعلَ ﴿كَانَ﴾ الماضي في مَوقعِ المُضارِعِ؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه، مِثلُ قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]؛ إتمامًا للنِّذارة[5].

نُكْتَة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

اخـتـيـارُ الـلّـفـظ الـدّالّ عن المراد، أمـكـن فـي إبـراز البيان المستفاد

أوثر لفظ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، الدّال على الجمع العاقل؛ للتّعبير عن المخبَرِ عنهُم بالموصولِ وصِلَتِه، وهو هنا مُشْعِرٌ بعِلَّةِ ثبوتِ الخبَرِ للمُخْبَرِ عنهم، فهم هنا السّابقون من الأقوام الخوالي، من الأمم المُهْلَكة كعادٍ وثمودَ، وغيرهم من كلّ شعب منكر كنود، وقد خصّ منهم بالموصوليّة ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، باعتبار ما كان لهم من قوّة،

(1) المِطْعَني، التَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 245.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.
(4) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.

وما شهدته حضارتهم من عزَّة، واستغنى عن تسميّتهم المحدّدة، وآثر التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ بغية أن يشمل كلّ أمّة في كلّ زمان ومكان، ممّن تمكّنوا بالعُمران، وآثروا الكُفران.

سِرُّ إثبات ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الدّلالة على قُرْب الزّمان، موحية بفائدة المثال وواقعيّته

ورد حَرْفُ الجَرِّ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ للدّلالة على قُرْب الزّمان، وبيان هذا أنَّه لّما كانَ حالُ مَن قَرُبَ مِن زَمانِ الإنْسانِ أوْعَظَ لَهُ،؛ لذا أُثْبِت الجارّ، فقالَ: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ في إهْلاكِ العاصي وإنْجاءِ الطّائِعِ[1]، ولذلك نماذج سلفوا من قبلهم، من طوائف الكفّار، ومن الأمم العتاة الكبار، الّذين أُهْلِكوا بسبب كفرهم بالله، وجحودهم للحقّ، وتكذيبهم للرّسل الكرام، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[2].

نُكْتة فصل ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾ عمّا قبلها:

فَصْل السّياق لِكمال الاتّصال، من فصيح البيان

جملة ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، إمّا تفسيريَّة لا مَحَلَّ لَها من الإعراب، وإمّا بَدَليَّة عَمّا قَبْلَها؛ لأنَّها بيان لَها وتفصيل، حيث شَرَعت في وصْف أحوال المُهْلَكين، فالفَصْل لكمال الاتّصال، وعُبِّرَ بالكَون الماضي؛ للدِّلالة على بُلوغ الأُمَم السّابقة لغايَةِ المُكْنَة في الأرض شِدَّة، وعِمارةً لَها وزرعًا وحَرْثًا وشَقًّا.

معنى الواو في جملة ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تثوير الأرض بالزّراعة، مُفْض إلى التّعمير والانتفاع

قوله تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، هذه جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، ومعنى أثاروا الأرض: أي استثمروها بزراعتها وحَرْثها، وتقليبها وسَقْيها، وهو أمرٌ قرّره الله في وضع الأرض للأنام، وتسخيرها للبشر، وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.
(2) القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 230.

﴿تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]، وأحسن مظهر للقوّة والعمارة، إنّما هو الإنتاج بمُكْنة وغزارة.

غرضُ التَّهَكُّم في: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾:

لا يُتَصَوَّر التّفاوت بَيْن الله وبَيْن البَشَر، إذْ شتّان بين الخالق والمخلوق

يفيدُ قوله: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، تأكيدَ الذَّم بما يُشْبِه المَدْح، وفيه تَهَكُّمٌ، وسُخْرية بمُشركي مَكَّة، ففي إسناد العِمارة لَهُم وهُمْ أَهْلُ وادٍ غير ذي زَرْع تهكُّمٌ بِهِم، وفي نَسَب القوَّة إليهم في قوله: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ حيثُ شاركهَم مع عادٍ وثمود في القوَّة وهُمْ ضِعاف القوى؛ تَهَكُّمٌ بِهِم أيضًا، فأفعل التَّفضيل يقتضي المُشاركة في الفعل مع أنَّه لامناسبة بينهم، فمشركو مكَّة أضعف حالًا فيها، ويتَّضح التَّهَكُّم إذا اعْتُبِرَت الصّيغة مسلوبةَ التَّفضيل، ويشير كلام الزَّمخشريِّ إلى هذا المعنى حيث يقول: "يَعْني أولئك المُدَمَّرون أكْثَرَ مِمّا عَمَروها مِن عِمارة أهل مكَّة، وأهل مكَّة أهلُ ما لَهَم إثارة الأرض أصلًا، ولا عمارة لها رَأْسًا؛ فما هو إلا تَهَكُّمٌ بِهِم، وبِضَعْف حالهم في دنياهم؛ لأنّ معظم ما يَستظْهِر به أهل الدُّنيا، ويَتَباهون به أمر الدَّهْقَنة - الزِّراعة - وهم أيضًا ضِعاف القوى، فقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، أي عاد وثمود وأضرابهم، من هذا القبيل، كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾، وإن كان هذا أبلغ؛ لأنَّه خالق القوى والقُدَر، ولا يُتَصَوَّر التّفاوت بَيْن اللّه تعالى وبَيْن البَشَر، في القوَّة، فما كان تدميره إيّاهم ظُلْمًا لهم؛ لأنّ حاله منافية للظُّلم، ولكِنَّهم ظَلَموا أنفسهم حيث عَمِلوا ما أَوْجب تَدْميرَهُم"[1].

نكتة التعبير بالعِمارة:

خطاب قريش للعبرة بالنّظر، في مصير السّابقين إلى الإثارة والعمارة

قال تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ولم يقُلْ: (وأثاروا الأرض أكثَرَ ممّا أثاروها)؛ لِكَونِ قُرَيشٍ لم تكُنْ لهم إثارةٌ في

(1) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 566، والطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 216، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 160، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 108.

الأرضِ؛ إذ كانوا بِوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، وإنَّما كان لهم عِمارةٌ في الأرضِ من غرسٍ قليلٍ، وبِناءٍ وتفجيرٍ، ولكنَّه يَتضاءلُ أمامَ عمارةِ الأُمَمِ السّالِفةِ مِن عادٍ وثَمودَ[1]، لذلك أشاد بالإثارة للأرض والعمارة، عند الأمم الخالية، أكثر ممّا كان يشهد عند أهل مكّة، وقد نقل القرآن والتّاريخ عن السّابقين، أنّهم عالجوا الأرض، و"قلّبوها للزّراعة، واستخراج المعادن وغيرهما، ممّا كانوا أرقى فيه من أهل مكّة، وعَمَروها أَكْثَرَ مِمّا عَمَروها، أي بالأبنية المشيدة، والصّناعات الفريدة، ووفرة العَدَد والعُدَد، وتنظيم الجيوش، والتّزيّن بزخارف أعجبوا بها، واستطالوا بأبّهتها[2].

دلالة تقديم الجارّ، في ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾:

التَّعجيل بالتَّهَكُّم، من بيان القرآن المعبّر عن الحال والمآل

و(مِنْ): حَرْف جَرٍّ، للدِّلالة على أَخْذ شيءٍ مِنْ شيءٍ بمعنى (بَعْض)، وهي هُنا بيانيَّة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور؛ لأهمّيَّته، وذلك للتَّعجيل بِالتَّهكُّم منهم والسَّخرية بهم، وتنبيههم إلى معرفة قَدْرِهم، في ميزان الحضارة والعُمران، وأنّ من كانوا أشدّ منهم قوّة، حينما كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم، لم تُغْنِ عنهم قوّتهم شيئًا، ولم يبقَ منهم إلّا أممٌ بائدة، وأطلالٌ شاهدة، ومنازلُ مُقفِرة، ولعنةٌ من الله ظاهرة، وهذا الجزاء العاجل المذكور، ليس إلّا نموذج لما ينتظرهم من عذاب مقيم، في يوم النّشور، حيث سوء العاقبة وسوء المصير.

سِرُّ إسقاط ضمير الفَصْل مِن السّياق:

لا مدعاة للضّمير، حيث لا ادّعاء لِعُلوِّ على الفرس والرّوم

قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، فيه أُسْقِط ضمير الفَصْل، حيث لم يُقَلْ: (كانوا هُم أشَدَّ مِنْهُمْ قوَّةً)؛ لِأَنَّ هَذا السّياقَ لا يَظْهَرُ فيهِ ادِّعاءُ العَرَبِ لِعُلُوِّهِمْ عَلى فارِسَ ولا الرّوم، وهذا ما فصَّله البِقاعيّ، بِقوله: "ولَمّا كانَ السّياقُ لِلظُّهورِ والغَلَبَةِ، الَّتي إنَّما مَدارُها عَلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 58.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 7.

الشِّدَّةِ المُقْتَضيَةِ لِلثَّباتِ، لا الكَثْرَةِ العاريَةِ عَنْها، أعْرَضَ عَنْها، وقالَ مُسْقِطًا ضَميرَ الفَصْلِ، لِأنَّ هَذا السّياقَ لا يَظْهَرُ فيهِ ادِّعاءُ العَرَبِ لِعُلُوِّهِمْ عَلى فارِسَ ولا الرّومِ، ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ﴾: أيْ مِنَ العَرَبِ ﴿قُوَّةٗ﴾، أيْ في أبْدانِهِمْ وعُقولِهِم"[1].

نكتة تنكير لفظ ﴿قُوَّةٗ﴾:

وقعت كلمة ﴿قُوَّةٗ﴾ هنا في قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ تمييزًا نكرة، والقوَّةُ كما عَرَّفها ابن عاشور: "حالَةٌ بِها يُقاوِمُ صاحِبُها ما يوجِبُ انْخِرامَهُ، فمِن ذَلِكَ قوَّةُ البَدَنِ، وقوَّةُ الخَشَبِ، وتُسْتَعارُ القوَّةُ لِما بِهِ تُدْفَعُ العادِيَةُ، وتَسْتَقيمُ الحالَةُ؛ فهي مَجْموعُ صِفاتٍ يَكونُ بِها بَقاءُ الشَّيْءِ عَلى أكْمَلِ أحْوالِه، كَما في قَوْلِهِ: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ [النمل: 33]، وحالَةُ مُشْرِكي قُرَيْشٍ لا تُداني أحْوالَ تِلْكَ الأُمَمِ في القوَّةِ، وناهيكَ بِعادٍ، فقَدْ كانوا مَضْرِبَ الأمْثالِ في القوَّةِ، في سائِرِ أُمورِهِمْ"[2].

التَّفخيم والتَّعظيم، ملمح من البيان المفيد

سِرُّ إيثار التَّعبير بالمجيء على الإتيان:

عبَّر بالمجيء في قوله: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾؛ لبيان أنَّ مجيء الرُّسُل مَجيءٌ ذو شَأْن وأهَمّيَّة؛ لاصطفاء اللّه لَهُم، وتمييزهم عن غيرهم، مِن سائر عباده؛ لذا صار ذلك بِمَنزلة الصُّعوبة في الحركة، وهذا ما يتوافق مع المدلول اللُّغويّ للكلمة، وجميع شواهد مجيء الرُّسُل واضحة في دلالتها، على خَطَر الرِّسالات السَّماويَّة وأهمّيتها، وعظيم غايتها، وأثرها في حياة البَشريَّة، وإخراجها مِن الظُّلمات إلى النّور، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الدَّيان، فهُم قد جاؤوا لإنذار أقوامهم، والدَّعوة إلى التَّوحيد، ولإبلاغهم الحِكْمة البالغة، والآيات الباهرة، والحقّ والصِّدق الّذي أُنْزل عليهم، ومجيءٌ كَهذا ليس بالأمْر الهَيِّن السَّهل، وإنَّما له مكانته

مجيء الرُّسُل مَجيء ذو شَأن وأهَمّيَّة؛ لاصطفاء الله لَهُم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 51.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 57.

وشأنه وخَطَره، ومِمّا يَدُلّ على مكانة مجيئهم وخَطَره، ما كان مِن رَدَّة أفعال أقوامهم، عند إرسالهم؛ لِما فيه مِن صعوبة ترجع إلى تغيير العادات، وإزالة مظاهر الوَثنيَّة والشِّرْك والانحراف فيهم؛ لذلك عاندوا، وكَرِهوا أن يُذْعِنوا إليهم، ويؤْمِنوا بِهِم[1].

علةُ إسناد فعل المجيء إلى ضمير الجمع:

إضافة الفعل للمفعول من فصيح البيان المقول

الإضافة في ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ مِن إضافة الفعل للمفعول لا إلى الفاعل، والبَيِّنات كِنايةٌ عن دلائل التَّوحيد والبَعْث، وإسناد الفعل (جاء) إلى ضمير المُرْسَل إليهم مِن الأُمَم السّابقة، مَع إضافة الرُّسُل إلى الضَّمير نَفْسه؛ لِتَحْقيق بَعْث اللّه الرُّسُلَ فيهم، وإقامة الحُجَّة للّه تعالى عليهم[2].

معنى (الفاء) في ثنايا السّياق:

اللّه عدلٌ لا يتأتّى منه ظلم؛ لكونه حرّم الظّلم على نفسه

الفاء في: ﴿فَمَا﴾ من قوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تَفريعٌ لِكلام محذوف تقديره: (جاءتهم رُسُلهم بالمُعْجزات القاهرات، والآيات الباهرات، فكَذَّبوا بِها واستهزؤوا، فاستأصلهم استئصالًا)، والمعنى: "وجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ، أي: الآيات الواضحات على حقيقة ما يدعونهم إليه، فما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، أي فكذّبوهم فأهلكهم، فما كان اللّه لِيُهلِكَهم من غير جُرْمٍ منهم، ولكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ"[3].

دلالة (اللّام) في ثنايا السّياق:

الكَون المَنفيّ دَلَّ على استمرار النَّفي، لا على نَفْي الاستمرار

اللّام في ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ صِلة خبر كان، أَوْ مُتَعَلِّق بمحذوف تقديره: (فما كان اللّه مُريدًا لأَنْ يَظْلِمهم)، والكَون المَنْفيّ ﴿فَمَا كَانَ﴾ دَلَّ على استمرار النَّفي لا نَفْي الاستمرار، أي استمرار نَفْي ظُلْم اللّه تعالى لهؤلاء المُهلَكين؛ وإنَّما أهلكهم بِسَبَب استمرار تكذيبهم

(1) حمدان، الإتيان والمَجيء فِقْه دلالتهما، واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 43 - 44.

(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للقرآن الحكيم: 3/ 246.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 7.

رُسُلَهم، وعِنادهم وكُفرِهم، فأخذهم أخْذَ عَزيزٍ مُقتدرٍ، ولَمْ يُغْنِ عَنْهم مِن اللّه شيء[1].

بلاغة التَّفريع في السّياق المحكم الأنيق:

استدلال عَقْليٌّ وحِسّيٌّ مراد لإبراز البيان المستفاد

يُلحظ في السّياق تَفْريعُ جملة: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾، عَلَى قَوْلِه: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، وهو إيجازٌ بالحَذْف بَديعٌ؛ لِأَنَّ مَجيءَ الرُّسُلِ بالبَيِّناتِ يَقْتَضي تَصديقًا وتَكْذيبًا، فلَمّا فرَّعَ عَلَيْهِ أَنَّ الأقوامَ ظَلَموا أنْفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كَذَّبوا الرُّسُلَ، وأَنَّ اللّهَ جازاهم عَلى تَكْذيبِهِمْ رُسُلَهُ، بِأنْ عاقَبَهم عِقابًا، لَوْ كانَ لِغَيْرِ جُرْمٍ لَشابَهَ الظُّلْمَ، فجُعِلَ مِن مَجْموعِ نَفْيِ ظُلْمِ اللّهِ إيّاهم، ومِن إثْباتِ ظُلْمِهِمْ أنْفُسَهم، مَعْرِفَةُ أنَّهم كَذَّبوا الرُّسُلَ وعانَدوهم، وحَلَّ بِهِمْ ما هو مَعْلومٌ مِن مُشاهَدَةِ دِيارِهِمْ، وتَناقُلِ أخْبارِهِم[2]، وفي هذا السّياق، فقد طَوَتِ الفاءُ وراءها محذوفًا، في قوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تقديره: "فَلَمْ يؤمنوا فأُهلِكوا، فما ظَلَمهم اللّه بتعذيبهم مِن غير ذَنْب"[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

من ظلم نفسه بالكفران، استحقّ العذاب والهوان

جاءت الواو في ﴿وَلَٰكِن﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ عاطفة، والاسْتِدْراكُ ناشِئٌ عَلى ما يَقْتَضيه نَفْيُ ظُلْمِ اللّهِ إيّاهم، مِن أنَّهم عومِلوا مُعامَلَةً سَيِّئَةً لَوْ لَمْ يَسْتَحِقّوها لَكانَتْ مُعامَلَةَ ظُلْم[4]، ولكنّ اللّه لايظلم أحدًا، وفي ذلك تنبيهٌ لأهل مكّة، بأنّ العذاب لو حلّ بهم، لكان مستحقّا لا ظُلمَ فيه؛ لأنّهم يشابهون من سبقهم في الكفر، ومحاربة اللّه ورسوله، وهم بذلك ظالمون لأنفسهم.

(1) القونويّ، حاشيّة على تفسير البيضاويّ: 15/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 58.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 531.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 58.

سِرُّ التَّعبير بِالكَوْن الماضي:

الـدلالـةُ على عَـراقـتـهـم في الـظُّـلـم، وإصرارهم عليه

عبَّر بالكَون الماضي في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ﴾؛ للدِّلالة على عَراقتهم في الظُّلْم، "أيْ كَوْنًا هو في غايَةِ المُكْنَةِ بغايَةِ جُهْدِهِمْ"[1]، وقد انصرم ذلك في الأزمنة الغابرة، وتجلّى واقعيًّا في تاريخ أولئك الأقوام، فتَناقَلَتْه الرّوايات، وخلَّدَتْه وقائع التّاريخ، وحَكَتْه كتبُ السّماء المنزلة على الرّسل، المبلِّغين لمراد اللّه من خلقه.

لطيفة التَّعبير بمضارع الظلم:

مَنْ تتابع ظلمه، تـقـرّر عـذابـه، وتأكّد عقابه

عُبِّرَ عَنْ ظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهم بِصيغَةِ المُضارِعِ في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلى إصرارهم على الظُّلْم، واستمرارهم عليه، وقد أَمْهَلَهم اللّه بَعْد كفرهم وظلمهم، ولَم يُبادرهم بالعُقوبة لكنَّهم أصَرّوا على الطُّغيان والظُّلْم والعِصيان، حتَّى أَخَذهم أَخْذ عزيز مُقتَدر، كما يَدُلُّ عليه لَفْظ (عاقِبَة).

نُكْتة تقديم المفعول به على الفعل:

ظــلــم الآخــر عجيب، ولكنّ ظـلـم الـنّـفـس أعجب

قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ فيه تَقْديمُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾، وهو مَفْعولُ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ عَلى فِعْلِهِ؛ لِلاهْتِمام بِأَنْفُسِهِمْ في تَسْليطِ ظُلْمِهِمْ عَلَيْها، لِأَنَّهُ ظُلْمٌ يُتَعَجَّبُ منه! مَعَ ما فيهِ مِنَ الرِّعايَة عَلى الفاصِلَة، ولَيْسَ تَقْديمُ المَفْعولِ هُنا للقَصْر؛ لِأَنَّ القَصْر حاصِلٌ مِن مجموع جُمْلَتَي النَّفْيِ والإثْباتِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيان والمَجيء:

الإتـيـان يـقـال لـلـمـجـيء بـالـذّات وبالأمر وبـالـتّـدبـير، وبينهما عموم وخصوص

الإتيان: تدور مادَّة الإتيان حول اليُسْر والسُّهولة واللّين، فالمجيء من بُعْد، وبسهولة، يقال: أتى يأتي إتْيانًا، فهو آتٍ[3]، وكلُّ آتٍ قريبٌ،

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 52.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 59.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أتيّ وأتاويّ، وبه شُبّه الغريب، فقيل: أتاويّ، ويكون مرجع السُّهولة فيه إلى كون الحركة صادرة عن طواعية ورغبة، أو لوقوع الفعل حال انقياد وطاعة، أو في معرض بيان التَّفضُّل به دون وجوب أو إلزام، أو في مقام بيان سهولته، لقدرة الفاعل عليه، أو لأنَّ الإتيان قد فارقه ما يجعله صعبًا(1)، والإتيان يقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّر، وفي الأعيان والأعراض، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ [طه: 60].

وأمّا المجيء: فيدلُّ أصل المادَّة على الغلبة والإلجاء، يقال: أجاءَهُ إلى الشَّيء، أي جاء به، وألجأه إليه، واضطرّه إليه، وفي المجيء معنى الحَبْس، وعدم النَّفاذ على الغاية؛ لذا اشتُقَّ من المادَّة الاسم (الجِئَة)، وهو مجتَمَع الماء حول الحِصْن وغيره؛ لأنَّها تحبس الماء عنه فلا ينفذ إليه(2)، والمجيء يكون مِن أي جهة، ويستعمل في لغة العرب لازمًا، ومتعدّيًا(3)، وبين الإتيان والمجيء عموم وخصوص، فالإتيان أخصُّ مِن جِهَة كونه بسهولة، والمجيء أخَصُّ من جهة كونه دون سهولة، وبينهما عموم من حيث دلالتهما على مُطْلَق الحركة والانتقال، دون التَّقيُّد بسهولة، أو غيرها.

والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال: (جاء): في الأعيان والمعاني، ولِما مجيئه بذاته، أو بأمره، ولمن قصد مكانًا، أو عملًا، أو زمانًا(4)، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [هود: 77]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [الزّمر: 59].

الشدّة والقوّة:

الشِّدَّة: يَدُلُّ الأَصْل عَلَى قوَّةٍ في الشَّيْءِ(5)، وهي العَقْد القَويّ، يقال: شَدَدْتُ الشّيء:

(1) حمدان، الإتيان والمجيء - فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 17.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) أبو هلال العسكري، الفروق في اللّغة، ص: 302.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).

الشِّدة في الأصل قوّة وصلابة، والقوَّة قُدْرة على الفعل، وتمكّن منه

قَوَّيتُ عُقَدَه، قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمّد: 4]، والشِّدَّةُ تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النَّفْس، وفي العَذاب، قال: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44]، وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم: 5]، يعني: جبريل عليه السلام، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التّحريم: 6]، وقال عن اليهود: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ [الحشر: 14]، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: 26][1]، وأمّا القوَّة: فيَدُلُّ أَصْلُها عَلَى شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ[2]، والقوَّة تُستعمل تارةً في معنى القُدْرة، نحو: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63]، والفرق بين اللَّفظين: أن الشِّدة في الأصل، هي مبالغة في وصْف الشَّيء في صَلابة وليس هو من قبيل القدرة، ولهذا لا يقال للّه شديد، والقوّة من قبيل القدرة.

(1) الرّاغب، المفردات: (شدّ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الرّوم: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين موعظة أهل مكّة وإنذارهم من عاقبة التّكذيب والاستهزاء

في الآيات السّابقة موعظة لأهْل مَكَّة، وهنا إنْذارٌ بَعْدَ المَوْعِظَة، ونَصٌّ بَعْدَ القياس، فإنَّ اللَّه وعَظَ المُكَذِّبينَ لِلرَّسولِ ﷺ، بِعَواقِبِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَتْ رُسُلَها، ليَكونوا عَلى حَذَرٍ مِن مِثْلِ تِلْكَ العاقبة، بحكم قياس التّمثيل[1]، لأنّهم استحقّوا الهلاك، وسلّط عليهم العذاب، عقوبةً لسوء أفعالهم، وكثرة ذنوبهم، وهو حاصل بما قدّمت أيديهم، دون ظلم ولا تجاوز لشروط استحقاق العذاب، ولا شكَّ أنَّ الاستهزاء والتّكذيب، يكون سببًا لأعظم العقوبات، وأعضل المَثُلات[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: أصلُ (سوء): القبحُ، والسّوأى: خلاف الحُسْنَى، والسّوأى: النّارُ[3]، وهي فُعْلى مِن السّوء، تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، وقيل: هي مصدرٌ بمنزلةِ الإساءةِ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، سمّيتْ سوأى؛ لِكَونِها تَسوءُ صاحِبَها، أو لقُبحِ منظرِها، أو هي عبارةٌ عن كلِّ ما يَقبحُ، والسّوءُ: كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[4]، والسّوأى تأنيث الأسوأ، كالحُسنَى تأنيث الأحسن، أو هي مصدرٌ كالبُشْرَى[5]، وعاقبة الّذين أساؤوا السّوأى، فالمرادُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 59.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 637.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوأ)، وابن الهائم، التّبيان في غريب القرآن، ص: 333.
(5) الشرتوني، أقرب الموارد في فُصَح العربيّة والشّوارد: 2/ 740.

بالذين أساؤوا: كلُّ مُسيءٍ من جنس تلك الإساءة، وهي الشّرك[1]، والمعنى: كان عاقبتُهم العقوبةَ الّتي هي أسْوَأ العقوبات.

2) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: (هزأ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ: هَزِئَ واسْتَهْزَأ، إذا سَخِرَ[2]، الهُزْؤُ: الاسْتِخفاف، يقال: استهزأ به يستهزئ، أي اسْتَخَفَّ به، قال الرّاغب: الاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإن كان قد يُعبَّر به عن تعاطي الهُزُؤِ، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، وإن كانت قد تجري مجرى الإجابة[3]، قال أبو عليّ عن الأصمعيّ: قال يونس: إذا قال الرّجل: هَزِئْتُ منك، فقد أخطأ، إنّما هو هَزِئْتُ بك، واستهزأت بك، وقال اللّيث: الهزء: السّخرية، يقال: هزئ به يهزأ به، واستهزأ به، ورجل هُزَأة، يهزأ بالنّاس، ورجل هزأة: يهزأ به[4]، والاستهزاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15]، صفةٌ فِعليَّةٌ ثابتةٌ للّٰه ﷻ؛ إذ قد يكون استهزاؤُه: استدراجُه لهم، وقيل: إيقاعُ استهزائِهم، وردُّ خِداعِهم ومَكْرِهم عليهم، وقيل: إنَّه يُظهِرُ لهم في الدُّنيا خلافَ ما أبطَنَ في الآخِرةِ، وقيل: هو تجهيلُهم وتخطئتُهم فيما فعَلوه، وهذا كلُّه حقٌّ، وهو استهزاءٌ بهم حقيقةً[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر عاقبة السّوء، الّتي يؤول إليها المكذّبون المستهزئون

ثمَّ كان آخِرَ أمْرِ أهْلِ السّوءِ الّذين ساءت أعمالهم بالشِّرْك باللّه، وعَمَلِ السَّيِّئات، النِّهاية البالغة في السّوء، بِأنْ حَلَّ بِهِم عذابُ اللّه؛ لِتَكذيبِهم بآياتِ اللّهِ سُبحانَه، واستهزائِهم المستَمِرّ بها[6]، وكانت العقبى سوأى؛ لارتكابهم أشدّ ألوان الإساءة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (هزأ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هزأ).
(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 7/ 111، وابن القيّم في مختصر الصواعق، ص: 404.
(6) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 179.

كونهم جحدوا بآيات الله، وكانوا يحقّرون من شأنها، ولا يرجون لله وقارا[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بيان جزاء الله العادل في أنّ عاقبة الإساءة السوأى، وإلى كفر الاستهزاء بالشرع وأحكامه والقرآن وآياته، وإلى أنَّ الكُفْرَ والتَّكْذيبَ قَدْ يُؤَدّي شُؤْمُهُ إلى شَقاءِ صاحِبِه، وسوءِ عاقِبَتِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في سياق الآية المحكم:

بيان أثر التّراخي في توجيه المعنى وترسيّته

الحرف ﴿ثُمَّ﴾، في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ للتَّفاوت بين المعطوف والمعطوف عليه في المنزلة؛ حيثُ إنَّ هَذِهِ العاقِبَةَ أشَدُّ سوءًا، وأعْظَمُ رُتْبَةً في العذاب مِن عَذاب الدُّنْيا، وبناء عليه " فيَجوزُ أنْ يَكونَ هَذا الكَلامُ، تَذْييلًا لِحِكايَةِ ما حَلَّ بِالأُمَمِ السّالِفَة، مِن قَوْلِه ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، والمَعْنى: ثُمَّ عاقِبَةُ كُلِّ مَن أساؤوا السّوأى مِثْلُهم، فيَكونُ تَعْريضًا بالتَّهْديدِ لِمُشْرِكي العَرَب، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [مُحمَّد: 10]، فالمُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، كُلُّ مُسيءٍ مَن جِنْسِ تِلْكَ الإساءَة، وهي الشِّرْكُ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ إنْذارًا لِمُشْرِكي العَرَبِ المُتَحَدَّث عَنْهم، مِن قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيَكونوا المُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، ويَكونُ إظْهارًا في مَقامِ الإضْمارِ عَلى خِلافِ مُقْتَضى الظّاهِرِ لِقَصْدِ الإيماءِ بِالصِّلَة، أيْ أنَّ سَبَبَ عاقِبَتِهِمُ السّوأى، هو إساءَتُهم، وأصْلُ الكَلامِ: (ثُمَّ كانَ عاقِبَتَهُمُ السّوأى) "[3].

---

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 604.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 6/ 171، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 163.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 60.

ويُفْهم مِن كلام البقاعيّ إفادة ﴿ثُمَّ﴾ هُنا الاستبعاد، حيث قال: "ولَمّا كانَ انْتِكاسُهم بَعْدَ هَذِه الأسْبابِ المُسْعِدَةِ بَعيدًا، أشارَ إلَيْه بِأداةِ التَّراخي، أوْ هي إشارَةٌ إلى تَطاوُلِ دُعاءِ الرُّسُلِ لَهم، واحْتِمالِهِمْ إيّاهم"(1)، ويجوز أن يكون التَّراخي على حقيقته في الزَّمان، والمعنى أنَّهم عوقِبوا في الدُّنيا بالتَّدمير، ثُمَّ كانت عقوبتهم في الآخرة العقوبة السّوء(2).

عِلَّة التَّعبير بالكَوْن الماضي:

التَّنبيه على تَحَقُّق وقوع الجزاء، مبين للمقصود

أوْقَعَ فِعْلَ كانَ الماضي ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ في مَوْقِعِ المُضارِعِ؛ لِلتَّنْبيهِ عَلى تَحْقيقِ وُقوعِه، مِثْلَ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1] إتْمامًا لِلنِّذارَة(3)، وللإشارة إلى تَمَكُّنه، وتَعَذُّر الانْفِكاك عَنْه، وهو في غايَةِ الهَوْلِ، كَما أشارَ إلَيْه تَذْكيرُ الفِعْلِ(4).

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

الجزاء مِن جِنْس العَمَل، وكلُّ مرهون بسعيه

في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، عُدول عن الإضمار إلى الإظهار، حيث كان الظّاهر أن يقال: (ثُمَّ كان عاقبتهم السّوأى)؛ للتَّعميم، وللدّلالة على السَّبب، أي لتعليل الحُكْم مِن خلال صِلة الموصول، للدّلالة على ما اقتضى أن يكون تلك عاقبتهم، وأنّهم عوقبوا نتيجة أفعالهم، وهذا المعنى: أنّهم عوقبوا في الدُّنْيا بالدَّمار، ثمّ كانت عاقبتهم سوأى(5).

توجيه القراءتين في: ﴿عَٰقِبَةَ﴾:

بيان أنّ علّة تذكير الفِعْل؛ كون التّأنيث مجازيًّا

قوله: ﴿عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ قرأ نافعٌ، وأبو جعفر وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرو ويعقوب بالرّفع: ﴿عَٰقِبَةُ﴾، والباقون بالنّصب(6)، فالرَّفْع على أنَّها

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 53.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 109.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 60.
(4) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 15/ 53.
(5) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 567، وأبو حيّان البحر المُحيط: 7/ 160، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 108.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 344.

اسم كان، وخبرها لفظ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، أي: ثُمَّ كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الّذين أساؤوا في دنياهم، أسوأ العقوبات، وأقبحها، أو كانت عاقبتهم العاقبة السّوأى، وهي الإلقاء بهم في النّار، وبِئْس القَرار[1]، وذُكِّر الفِعْل؛ لأنَّ التّأنيث مجازيّ.

دلالة حَذْف خَبَر المصدر المؤوّل:

مَــنْ يــزْرَعِ الــجــروح، لايجنِ إلّا الآلام والقروح

قوله: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾، خبر لمحذوف، تقديره: (وإساءتهم أن كَذَبوا)، فهي جملة مستأنفة لبيان صِلة الموصول، وهذا سِرُّ فصْلها عَمّا قَبْلَها، فالفصل لِكمال الاتِّصال.

و جملة ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، عِلَّةٌ لِما أُشيرَ إلَيْه مِن تَعْذيبِهِمُ الدُّنْيَويِّ والأُخْرَويِّ، أيْ: لِأَنْ كَذَّبوا، أوْ بِأَنْ كَذَّبوا بِآياتِ اللّهِ المُنَزَّلَةِ عَلى رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومُعْجِزاتِهِ الظّاهِرَةِ عَلى أيْديهِمْ[2]، ولا شكّ أنّ تعطيل ثمار التّفكير الصّحيح، منوط بالرّكون إلى الأرض، والخلود إلى الضّلال، حيث يكون السّمع في صمم، والقلب في عَمَهٍ؛ بسبب انتهاجه منهج الكفر الصُّراح، وتقليد عتاة الآباء وجبابرة الأجداد، في ضلالهم البَواح، ومن يزرع الشّوك، يجن الجراح.

توجيه ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ ودلالتها في السّياق:

أثَــر الجِنــاس الاشتقاقيّ، في تعليل العقوبة

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، لها أكثر من توجيه: فيَجوزُ أنْ تكونَ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مَصْدَرًا عَلى وزْنِ فُعْلى، كالرُّجْعى، وتَكونُ خَبَرًا أيْضًا، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مَفْعولًا بِـ: (أساءَ) بِمَعْنى اقْتَرَفوا، وصِفَةَ مَصْدَرٍ مَحْذوفٍ، أيِ: الإساءَةَ السّوأى، ويَكونُ خَبَرُ كانَ قولهُ: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾[3]، وسُمّيَتْ سوأى لِكَوْنِها تَسوءُ صاحِبَها، أيِ الحالَةُ الَّتي

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 71.

(2) البَيْضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 203.

(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 7/ 160.

هي أَسْوَأُ ما يَكونُ، وهي خَسارَةُ الأَنْفُسِ بِالدَّمارِ في الدُّنْيا والخُلودِ في العَذابِ في الأُخْرى، جَزاءً لَهم بِجِنْسِ عَمَلِهِم، فإنَّهم كَما أساؤوا الرُّسُلَ ساءَهُمُ المَلِكُ[1]، وقد وُصِفَت بِه العُقوبَةُ بالسّوأى؛ مُبالَغَةً كَأَنَّها نَفْسُ السّوأى.

معنى (أل) في ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾:

نـار الجحيم، أسوأ السّوأى، من العذاب الأليم

و(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ للاستغراق؛ للإيحاء بأنَّ عقوبتهم شَمَلت السّوء كُلَّه، أي: العُقوبَةُ الَّتي هي أَسْوَأُ العُقوباتِ، وأَفْظَعُها، والَّتي هي العُقوبَةُ بِالنّارِ، وفيه زيادة ترهيب وتهديد وتخويف، بمعنى أنَّ: "عاقبة هؤلاء الكافرين الّذين أساؤوا في دنياهم، أسوأ العقوبات وأقبحها، أو كانت عاقبتهم العاقبة السّوأى، وهي الإلقاء بهم في النّار، وبئس القرار"[2].

بديع الجناس الاشتقاقيّ، في السّياق المحكم:

تماثل الكلمات، يحقّق تناغمًا بديعًا في الأصوات

أَعْطى الجِناس الاشتقاقيّ في ﴿أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ جَرْسًا موسيقيًّا؛ لكونه حاصلًا من اتفاق اللفظتين في الاشتقاق في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، فلفظ ﴿أَسَـٰٓـُٔواْ﴾ ولفظ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مشتقان من مادة لغوية واحدة، وأطلق عليه علماء البلاغة اسم الجناس المطلق؛ لتلاقي اللفظين في الاشتقاق، وأَوْمَأ إلى أنَّ الجزاء مِن جِنْسِ العمل، ومِن مَعْدِنه، فهُم عوقِبوا بالجزاء السّوء؛ لارتكابهم الفعل السّوء، وهذا ما دَلَّ عليه توافق الحروف في الكلمتين المُتماثلتين، ﴿أَسَـٰٓـُٔواْ﴾، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

توجيهُ الاختلاف بين ﴿أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ و﴿أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

وضع اللّفظ في موضعه الملائم، من بلاغة النّظم القرآنيّ المحكم

توجيه الاختلاف في النَّظم بين قوله تعالى في وصْف جزاء المُسيئين: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ

(1) ابن جُزّي، التّسهيل: 2/ 165، والبِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 53، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 6/ 531.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 11/ 71.

﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقوله في وصْف جزاء المُحسنين: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: 26]، نلخّصه في النّقاط التّالية:

أوّلًا: قال تعالى في حَقِّ الَّذينَ أحْسَنوا: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: 26]، وقالَ في حَقِّ مَن أساءَ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾، إشارَةٌ إلى أنَّ الجَنَّةَ لَهم مِنَ ابْتِداءِ الأمْرِ، فإنَّ الحُسْنى اسْمُ الجَنَّة، والسّوأى اسْمُ النّارِ، فإذا كانَتِ الجَنَّةُ لَهم ومِن الابْتِداءِ، ومَن لَهُ شَيْءٌ كُلَّما يَزْدادُ ويَنْمو فيهِ، فهو لَهُ؛ لِأنَّ مِلْكَ الأصْلِ يوجِبُ مِلْكَ الثَّمَرَةِ، فالجَنَّةُ مِن حَيْثُ خُلِقَتْ تَرْبو وتَنْمو لِلْمُحْسِنينَ، وأمّا الَّذينَ أساؤوا، فالسّوأى، وهي جَهَنَّمُ في العاقِبَةِ مَصيرُهم إلَيْها.

الثّاني: ذَكَرَ الزّيادَةَ في حَقِّ المُحْسِنِ ولَمْ يَذْكُرِ الزّيادَةَ في حَقِّ المُسيءِ؛ لِأنَّ جَزاءَ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

الثّالِث: لَمْ يَذْكُرْ تعليل جزاء المُحْسِن، حيث لَم يَقُل: أنَّ لَهُ الحُسْنى بِأنَّهُ صَدَّقَ، وذَكَرَ التَّعليل في جزاء المُسيءِ، بِأنَّ لَهُ السّوأى، لأنَّه كَذَّبَ، والسِّرُّ هوَ لأنَّ الحُسْنى لِلْمُحْسِنينَ فضْلٌ، والمُتَفَضِّلُ لَوْ لَمْ يَكُنْ تَفَضُّلُهُ لِسَبَبٍ يكونُ أبْلَغَ، وأمّا السّوأى لِلْمُسيءِ عَدْلٌ، والعادِلُ إذا لَمْ يَكُنْ تَعْذيبُهُ لِسَبَبٍ لا يَكونُ عَدْلًا، فذَكَرَ السَّبَبَ في التَّعْذيبِ، وهو الإصْرارُ عَلى التَّكْذيبِ، ولَمْ يَذْكُرِ السَّبَبَ في الثَّوابِ[1].

معنى ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾:

﴿أَن﴾ مُفَسِّرَةٌ؛ لِأنَّ الإساءَةَ إذا كانَتْ مُفَسَّرَةً بِالتَّكْذيب والاسْتِهْزاءِ، كانَتْ مُتَضَمِّنَةً مَعْنى القَوْلِ[2]، أو ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ عَطْف بيان أو بَدل إن اعتُبر ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مفعول ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي العقوبة المتناهية في السّوء، وهي النّار الّتي لا أسوأ منها، وسوف تكون عاقبةَ المسيئين الكفرة، الّذين ناوؤوا الحقّ، وكذّبوا بالدّين[3].

التّكذيب والاستهزاء، كلاهما مَظْهَر للإساءة المفضية للسّوأى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 102.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 203.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3301.

دلالة حَذْف خَبَر الكون:

الحـذف مفيد في فسح المجال للتّأويل

على القول بأنَّ الخَبَرُ مَحْذوفٌ لِلْإِبْهام والتَّهْويلِ، يكون المعنى: ثُمَّ كان عاقبة الّذين اقترفوا الخَطيئةَ السَّوْأى، مِمّا لا يُسْأل عنه، ولا يُكْتَنه كُنْهُه، ولا يُقادَر قَدْرُه في الشِّدَّة والفَظاعة[1].

غرضُ الإضافة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تــهــديــد المـتـجـاسـريـن على الاستهزاء، بآيات الله تعالى

دلَّت إضافة الآيات إلى لَفْظ الجَلالة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ على زيادة ترهيب وتهديد لهؤلاء المُكَذِّبين الذين تجاسروا على التَّكذيب والاستهزاءبـ" الدَّلالاتِ المَنسوبَةِ إلى المَلِكِ الأعْلى الَّذي لَهُ الكَمالُ كُلُّه الدّالَّةُ عَلَيْهِ عَلى عِظَمِها بِعِظَمِه"[2].

لطيفة تنوع المراد بقوله ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

من نبذ الآيات آل إلى سوء وهلاك

في المُراد بالآيات ثَلاثَةُ أوْجُه: أَحَدُها: بِمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرْآنِ، قالَهُ الكَلْبيُّ، والثّاني: بِالعَذاب أنْ يَنْزِلَ بِهِمْ، قالَهُ مُقاتِلٌ، والثّالِثُ: بِمُعْجِزاتِ الرُّسُلِ، قالَهُ الضَّحّاكُ[3]، والآيات تشملُ الآيات الكونية والشرعية التي أنزلها اللّهُ لدعوة المنكرين للبعث الآخر، إلى الإيمان به، من طريق ذكر الأدلّة العقليّة التّي تحملها الآيات القرآنيّة، وهي آيات تدعو للتّفكُّر والتّدبّر، ونبذ الكفر والاستهزاء والتّكذيب، ولكنّ واقع الدّعوة أفاد أنّ الأقوام، في كلّ العصور، آثروا الظّلمات على النّور.

سِرُّ التَّعبير بالكَوْن الماضي ﴿وَكَانُواْ﴾:

بيان وصفهم بالعناد والتّكذيب، والاستهزاء المريب

الواو في ﴿وَكَانُواْ﴾ حاليّة، أي: والحال أنَّهم كانوا بها يستهزؤون، وعُبِّر بالكَوْن الماضي؛ للإشارة إلى أنَّه كَوْنٌ جِبلَّةٌ لَهُم، راسِخ فيهم، ومُتَمَكِّنٌ منهم، ولذلك كانت عاقبة أهل السّوء من الطّغاة والكفرة، أسوأ العواقب وأقبَحَها؛ لتكذيبهم باللّه، وسخريتهم بآياته الّتي

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 6/ 532.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 53.
(3) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 4/ 301.

أنزلها على رسله[1]، وذلك ما كان بالفعل أمرًا واقعًا، ذكره المؤرّخون، وفصَّلَتْه كتب التّاريخ والتّراجم والسّير.

دلالة علاقة ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بما قبْلها:

الاستهزاء أسلوب يُسفِر عن طوايا المنكرين وكفرهم

قوله: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عَطْفٌ عَلى كَذَّبوا، داخِلٌ مَعَهُ في حُكْمِ العِلّيَّةِ[2].

والاستهزاء لا ينفكُّ عن التّكذيب، وهو لون من ألوان الإنكار، إلّا أنّه يُغلَّف بعبارات الاستهزاء، لتلبيس الحقّ بالباطل، ومن ذلك قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحجر: 6]، وذلك على وجهِ التَّهَكُّم والاستهزاءِ منهم به، كما قالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ [الشعراء: 27]، والواقع أنّهم لا يُقِرّونَ بنزولِ الذِّكْرِ على النّبيّ ﷺ، ولا فرعون يقرّ لموسى بأنّه رسول، ولكنّ العبارتين على سبيل الاستهزاء من الطّرفين.

عِلَّة تقديم الجارّ والمجرور على الفعل:

بيان اندفاعهم نَحْو الاستهزاء، بلا تعقّل ولا تؤَدَة

الباء في قوله: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، لِلتَّعْدِيَة، ومَعَ كَوْنِ تلك الآيات أبْعَدَ شَيْءٍ عَنِ الهُزْءِ لكِنَّهم يَبْذلون جُهْدهم في تحصيله، كَما يَدُلُّ عَلَيه زيادة السّين والتّاء في ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وتَقْديمُ المَجْرورِ لِلاهْتِمام بِشَأْنِ الآياتِ، ولِلرِّعايَةِ عَلى الفاصِلَةِ[3].

نكتةُ التّعبير بمضارع الاستهزاء:

الاستمرار في الاستهزاء، بعزم وإصرار

إيرادُ الاسْتِهْزاءِ بصيغَةِ المُضارِعِ في قولِه: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِلدِّلالَةِ عَلى اسْتِمْرارِهِ بِتَجْديدِهِ في كُلِّ حين مَعَ تَعْظيمِهِ حَتّى كانَ اسْتِهْزاؤُهم بِغَيْرِها كَأنَّهُ عَدَمٌ، كَما أنَّكم أنْتُمْ تُكَذِّبونَ بِما وقَعَ مِنَ الوَعْدِ في أمْرِ الرّومِ وتَسْتَهْزِئونَ بِهِ، فاحْذَروا

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 405.
(2) القنوجي، فَتْح البيان: 10/ 411.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 60.

أنْ يَحِلَّ بِكم ما حَلَّ بِالأوَّلينَ، ثُمَّ تُرَدّونَ إِلَيْهِ سُبْحانَهُ فيُعَذِّبُكُمُ العَذابَ الأكْبَرَ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإساءَة والسّوء:

الإساءَةُ فِعْلُ المُسيءِ، والسّوءُ الفِعْلُ مِمّا يَسوءُ

ساءَهُ يَسوؤه سَوْءًا: فعَلَ بِهِ ما يَكْرَهُ، نَقيضُ سَرَّه، والاِسْمُ: السّوءُ بالضّمّ[2]، وسَوُأ: القُبْح، تَقولُ رَجُلٌ أَسْوَأُ، أيْ قَبيحٌ، وامْرَأَةٌ سَوْآءُ، أيْ قَبيحَةٌ، لذا سُمّيَت السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وسُمّيَتِ النّارُ سواى، لِقُبْحِ مَنْظَرِها[3]، والسَّيِّئَة: الفِعْلَة القبيحة، صَفَةٌ في الأَصْل جَرَت مَجْرى الجامِد كالحَسَنة[4].

وَفي الفَرْقِ بَيْنَ الإساءَةِ والسّوءِ وجْهانِ: أَحَدُهُما: أَنَّ الإساءَةَ إنْفاقُ العُمْرِ في الباطِلِ، والسّوءَ إنْفاقُ رِزْقِهِ في المَعاصي، الثّاني: أَنَّ الإساءَةَ فِعْلُ المُسيءِ، والسّوءَ الفِعْلُ مِمّا يَسوءُ[5].

السُّخرية والاستهزاء:

يشترك لفظا السُّخرية والاستهزاء، في الدّلالة على الهَوان والتَّحْقير

أَصْل السُّخْرية في اللُّغَة: التَّسْخير، ويعود سياقه إلى ما أراده المُسَخّر كُرْهًا وغَصْبًا، وعَرّفها الغزالي: "بأنّها الاستهانة والتَّحقير، والتَّنبيه على العيوب والنَّقائص على وجه يُضْحِك الآخرين منه، وقد يكون بالقول أو الفعل أو الإشارة والإيماء"[6].

وأصْل مادَّة هَزِئَ الخِفَّة، مأخوذ من قولهم: هَزأت به ناقته، أي: أسرَعت؛ وذلك لأنَّ المُستَهْزِئَ غرضه الذي يَقْصده هو طَلَب الخِفَّة والزِّراية بِمَن يَهزأ به، وإدخال الهَوان والحَقارة عليه[7]، وفي

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 53.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوأ).
(4) السَّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (سوأ).
(5) الماوردي، النُّكَت والعيون: 4/ 301.
(6) الغزّالي، إحياء علوم الدّين: 1/ 348.
(7) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 1/ 186.

الاصطلاح الشَّرْعي: هو السُّخْرية مِنْ أمْرٍ لا يَقْتَضي السُّخْرية مِنْه، وتتميَّز السُّخرية بالشِّدَّة، ووجود سَبَب يَتَطَلَّبها، ويتميَّز الاستهزاء بأنَّه لا يقتضي وجود سَبَب يدعو إليه، وإنَّما هو إلصاق للعَيْب والذَّم بِمَن لا يستحقُّه حَسَدًا أو حِقْدًا[1]، والفَرْق بَيْنَ السُّخْرية والاستهزاء: يُفرّق بين السخرية والاستهزاء وفْق ما يكون الدّافع لكلّ منهما، فإن كان الدّافع للقيام به مذلّة الطّرف الآخر فهو السّخريّة؛ لأنّ الأصل في التّسخير هو التّذليل، وإن كان الدّافع له مُجَرّد التَّقْليل مِن شَأْن الطَّرَف المُقابل، فهو الاستهزاء[2].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 286.

(2) مجموعة مِن المُؤَلِّفين، موسوعة الأخلاق الإسلاميَّة: 2/ 290.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الروم: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين بيان مصير الكافرين، وتأكيد قدرة الله على الخلق والبعث

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى أنَّ عاقِبَةَ الكافِرينَ إلى الجَحيم، وكان في ذلك إشارةٌ إلى الإعادةِ والحَشرِ؛ لم يَترُكْه دَعوى بلا بَيِّنةٍ، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، يَعْني مَن خَلَقَ بالقُدْرَةِ والإرادَةِ، لا يَعْجِزُ عَنِ الرَّجْعَةِ والإعادَةِ، فإلَيْهِ تُرْجَعونَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ (خلق) أَصْلانِ: أَحَدُهُما تَقْديرُ الشَّيْءِ، والآخَرُ مَلاسَةُ الشَّيْءِ[2]، والخَلْقُ أَصْلُه: التَّقْدير المُستقيم، يقال: خَلَقْتُ الأديمَ، إذا قَدَّرْتَهُ قبل القَطْع، ويُسْتعمل في إبداع الشّيء مِن غَيْر أَصْل ولا احتذاء، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أَبْدَعهما، ويُسْتَعمل في إيجاد الشَّيء مِن الشَّيْء، نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، والثّاني: في الكَذِب، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت: 17][3]، والخَليقَةُ: الطَّبيعةُ، والجمع الخَلائِقُ.

المَعْنى الإجماليُّ:

قدرة الله على الخلق والإعادة فإليه الرُّجعى

يُبيِّنُ اللّه تعالى ما يدُلُّ على قُدرته، ويَذْكُرُ أحوالَ النّاسِ وأقسامَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: اللّهُ وحْدَه هو الّذي يبدأُ إنشاءَ الخَلق مِن العَدَم، مِنْ غَيْر شريك ولا ظَهير، ثمَّ يُعيده فيُحييه خَلْقًا جَديدًا، مرَّةً ثانيةً بعدَ فنائه، ثمَّ يَرجِعُ الخَلْقُ جميعًا إليه وحْدَه يومَ القيامةِ، فيُجازي المُحْسِن بإحسانه والمُسيء بإساءته[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 405.

وترشد الآيةُ الكريمة إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة وعرض مشاهد القيامة، وإلى تأكيد الإيمان باليوم الآخر؛ إذ ذكَّر تعالى عبادَه بأمر يعترفون به، وهو أنه بدأ الخلق، ولا أحد ينكر ذلك، ولا أحد يدَّعي أنه خلق نفسه، فكلُّ إنسان يعرف أنه مخلوق من عدم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾:

يَبْدأ الله الخَلْق بمشيئته، ثُمَّ يعيده إذا ما شاء بمشيئته

الاستئناف في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ، وهو شُروعٌ فيما أُقيمَتْ عَلَيْه هَذِهِ السّورَةُ، مِن بَسْطِ دَلائِلِ انْفِرادِ اللَّهِ تَعالى بِالتَّصَرُّفِ في النّاسِ، بِإيجادِهِمْ وإعْدامِهِمْ وبِإمْدادِهِم وأطْوارِ حَياتِهِمْ، لِإبْطالِ أنْ يَكونَ لِشُرَكائِهِمْ شَيْءٌ مِنَ التَّصَرُّفِ في ذَلِكَ، فهي دَلائِلُ ساطِعَةٌ عَلى ثُبوتِ الوَحْدانيَّةِ الَّتي عَموا عَنْها[2].

بلاغة القصر في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ﴾:

الله تعالى يَبْدَأ الخَلْق على غَيْر مِثال سابق

تَقْديمُ اسْمِ الجَلالَةِ عَلى المُسْنَدِ الفِعْليِّ، لإفادة االتَّخصيص، فاللّه تعالى وحْده هو الّذي يَبْدَأ الخَلْق على غير مِثال سابق، ثُمَّ يُفنيه، ثُمَّ يُعيده، والقَصْر هنا حقيقي تحقيقيّ مِن باب قَصْر الصِّفَة على الموصوف[3].

سِرُّ التَّعبير بمضارع البدء:

عُبِّر بالمضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ البَدْء مُتَجَدِّد شيئًا فشيئًا مادامت الدُّنيا[4]، و(أل) في ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ للاستغراق الدّالِّ على العموم والشُّمول.

---

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 165، وابن عثيمين، تفسير سورة الروم، الآية: (11).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.
(4) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 3/ 229.

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾:

مُقدِّمة منطقيَّة واستدلال عَقْليٌّ، على المعنى المراد

في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، إدْماجٌ حَسَن، وخلاصته إدماج المتكلم غرضًا في غرض، أو بديعًا في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين، أو أحد البديعين؛ لِأَنَّهُ إذا سُلِّمَ لله تعالى بَدْءُ الخَلْقِ، كانَ تَسْليمُ إعادَتِه أَوْلى وأَجْدَر، وحَسَّنَ مَوْقِعَ الاسْتِئْناف، وُرودُه بَعْدَ ذِكْرِ أُمَم غابِرَة، وأُمَم حاضِرَة، خَلَفَ بَعْضُها بَعْضًا، وإذْ كانَ ذَلِكَ مِثالًا لِإعادَةِ الأَشْخاصِ، بَعْدَ فنائِها وذِكْرِ عاقِبَةِ مَصيرِ المُكَذِّبينَ لِلرُّسُلِ في العاجِلَة، ناسَبَ في مَقامِ الاعْتِبارِ أَنْ يُقامَ لَهُمُ الاسْتِدْلالُ عَلى إمْكانِ البَعْثِ؛ لِيَقَعَ ذِكْرُ ما يَعْقُبُهُ مِنَ الجَزاءِ، مَوْقِعَ الإقْناعِ لَهم(1)، فكان هذا بمنزلة البُرهان العَقليِّ والمَنْطِقيِّ؛ لإثبات البعث والنُّشور.

سِرُّ إفراد الضّمير في ﴿يُعِيدُهُۥ﴾:

البَعْثُ ليس ابتِداءَ خَلْقٍ، ولكِنَّه إعادةٌ بعد ممات

أَفْرَدَ الضَّميرَ في ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِاعْتِبارِ لَفْظِ الخَلْقِ، وجَمَعَهُ في ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بِاعْتِبارِ مَعْناهُ(2)، ولا يقطع بهذا الأمر، قولًا وفعلًا، في الحياة وفي المعاد، إلّا الله القدير، "وفي أعراف البشر أنَّ إعادة الشّيء أهونُ من ابتدائه؛ لأنّ الابتداء يكون من عدم، أمّا الإعادة فمن موجود، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: 27]"(3).

معنى حَرْف ﴿ثُمَّ﴾ في الآية:

عَطْف جُمْلة على جُمْلة، مفيد في ترسِيَة المعنى وتكامله

الحرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لِلتَّراخي الرُّتْبيِّ، كَما هو شَأْنُها في عَطْفِ الجُمَلِ، وذَلِكَ أَنَّ شَأْنَ الإرْجاعِ إلى اللَّهِ، أَعْظَمُ مِن إعادَةِ الخَلْقِ، إذْ هو المَقْصِدُ مِنَ الإعادَةِ، ومِن بَدْءِ الخَلْقِ(4)، وأضاف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.
(2) الشَّوْكاني، فَتْح القدير: 3/ 160.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 1330.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 111، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 61.

البِقاعيّ: "ولَمّا كانَ الجَزاءُ أمرًا مَهولًا، أشارَ إلَيْهِ بأداةِ التَّراخي فقالَ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾"[1].

بلاغة القصر بالتّقديم في السّياق:

بيان أنّ إلى الله المَرْجِع، وإليه المَصير

قُدِّم الجارّ والمجرور على الفعل في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لإفادة الاختصاص، أيْ: تُرجعون إليه لا إلى غَيْره، وهذا مِن باب قَصْر الصِفَة على الموصوف قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

نكتةُ الالتفات من الغَيْبة إلى الخِطاب:

مـوتُ الإنسان وبَعْثُه، كلاهما جَـبْرٌ لا اختيار فيه

قَرَأ جمهور القراء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالتَّاءِ عَلى الخِطابِ، وحُجَّتُهم أنَّ الْكَلام في ابْتِدائه، قد يكون خَبرًا ثمَّ يُصْرَف عَنهُ إلَى خِطاب كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2] ثمَّ قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، صار الْكَلام من الْغَيْبَة إلَى الْخطاب[2]، والمراد هُنا: إلى مَوْقِفِ الحِسابِ والجَزاءِ، وهذا الالتِفاتُ لِلْمُبالَغَةِ في التَّرْهيبِ[3]، وقَرَأ أبو عَمْرو وشعبة عن عاصم، ورَوْح عن يعقوب ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء، وحُجَّتُهم أنَّ الْمُتَقَدِّم ذِكْره غَيْبَة: ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فقَرُبَ مِن ذِكر الخَلْق فجَعلا الكلام خَبَرًا عَنهم؛ لاتِّصاله بِذِكْرِهم.

ويعقوب على قاعدته من قراءة مثل هذا بالبناء للفاعل؛ فتكون قراءة روح عنه: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ وتكون قراءة رويس عنه: ﴿تَرْجِعُونَ﴾، فحجَّة قراءة الجمهور أنّه من (أُرْجِعَ) إذا فُعِلَ به الرجوع، فاللّه سبحانه هو وحده القادر على إرجاعهم، ونظير هذا المعنى قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الكهف: 36] وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 62][4]، وأمّا قراءة يعقوب بالبناء للفاعل فجعل فعل الرّجوع منهم، ونظيره

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 54.

(2) ابن زَنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 556، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 344.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 353.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 208، والفارسي، الحجّة: 5/ 422.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]، فهو فاعل في اللّفظ دون المعنى، نحو: (مات زيد).

دلالة بناء الفعل لما لم يسمّ فاعله:

الرّجوع إلى الله حَتْمٌ لا مناص منه، ومن كذّب به هلك

بُني فِعل الرجوع إلى اللّه ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ لِما لَمْ يسمّ فاعله؛ للإشارة إلى سَلْب الاختيار عَنْهم في الرُّجوع إلى اللّه تعالى، فهُم يُساقون إليه سبحانه سَوْقًا، لا يَحيدون عن الرّجوع فيه إلى اللّه تعالى، للجزاء والحِساب، ولا يملِكون له دَفْعًا، والفاعل لم يذكر للعلم به، لأنّه لا أحد يدّعي الخلق، ناهيك عن بعث الخلق، بعد حياة البرزخ، وإرجاع من يُبعث إلى اللّه ليُحاسَب ويُجازى، وفْق ما يناسب عمله وسعيه الّذي قدّمَتْه يداه، وقيل: "﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بمعنى في أموركم كلّها، في الدّنيا، وإن كنتم لقصور النّظر تنسبونها إلى الأسباب"[1].

نُكْتة العدول عن الإفراد إلى الجمع ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

اختلاف أحوال الخَلْق في الرُّجوع إلى الله تعالى

عُدِل عن الإفراد في ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ إلى الجمع في ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، حيث كان الظّاهر أنْ يقال: (ثُمّ إليه يَرْجِعُ)، أي الخَلْق؛ لأنَّ النّاس جميعًا لا يختلفون في بَدْء الخَلْق، لكن تختلف أحوالهم في الرُّجوع إلى اللّه تعالى، فهذا مُؤْمن، وهذا كافر، وهذا طائع، وذاك عاصٍ، ففي حال الرُّجوع إلى اللّه تعالى، سَتَفتَرق هذه الوحدة إلى طَريقين: طريق للسُّعداء، وطريق لِلأشقياء؛ لذا لَزِم صيغة الإفراد في البَدْء وفي الإعادة، ثم انتقل إلى الجَمْع في الرُّجوع إلى اللّه لاختلاف الخلْق في الرُّجوع[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّجوع والعَوْدة:

الرُّجوعُ العَوْد إلى ما كان منه البَدْء، والعودة تكون إلى غير مرغوب فيه

الرُّجوع: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا: عادَ، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ، ويَدُلُّ أصل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 54.
(2) الشَّعْراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11231.

الكلمة عَلَى رَدٍّ وتَكْرارٍ[1]، والرُّجوعُ: العَوْد إلى ما كان منه البَدْء، أو تقدير البَدْء مكانًا كان أو فِعْلًا، أو قَوْلًا، وبذاته كان رُجوعه، أو بجزء مِن أجزائه، أو بفعل مِن أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْد، والرَّجْعُ: الإعادة[2]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التَّوبة: 94]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: 60]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العَلَق: 8].

وأمّا العَوْد: فهو الرُّجوع إلى الشَّيْء بَعْد الانصراف عنه؛ إما انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعَزيمة[3]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥﴾ [البقرة: 275] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، والعودة ومشتقاتها في القرآن الكريم، تَدُلُّ على العودة إلى شيء مكروه منبوذ سَيِّئٍ، وغير مرغوب فيه ولا مُسْتَحَبّ، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥﴾ [البقرة: 275]، وقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة: 8].

والفرق بين العَوْدة والرُّجوع: أنّ الرُّجوع فِعْل الشَّيء ثانيةً، ومصيره إلى حال كان عليها، والعَوْد: يُسْتَعمل في هذا المعنى على الحقيقة، ويُسْتَعمل في الابتداء مجازًا، قال الزَّجّاج: يقال قد عاد إليَّ مِن فلان مكروه، وإنْ لَمْ يَكُن قَدْ سَبَقَه مَكروه قَبْل ذلك، وتأويله أنّه لَحِقني منه مكروه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(3) السَّمين الحَلبي، عُمدة الحُفّاظ: (عود).
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 250، والزَّجاج، إعراب القرآن: 3/ 321.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الروم: 12]

العلاقة بين عُقْبى المجرمين في الجحيم، وإبلاسهم عند قيام السّاعة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ أنَّ عاقِبَتَهم إلى الجَحيمِ، وكانَ في ذَلِكَ إشارَةٌ إلى الإعادَةِ والحَشْرِ، لَمْ يَتْرُكْهُ دَعْوًى بِلا بَيِّنَةٍ، فقالَ ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، ثُمَّ بَيَّنَ بَعْضَ أحْوالِ الرُّجوعِ إلَيْه، فقالَ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[1]، والإبلاسُ سكوتٌ وانقطاعُ حجّة، حيث يقف المجرمون في وُجوم وخِزْي، لا يجدون ما يدافعون به عن أنفسهم، وقد يئسوا من النّجاة، وعلموا أنّ أوان الاستدراك قد فات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبۡلِسُ﴾: (بَلَسَ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الْيَأْسُ، يُقالُ أَبْلَسَ إذا يَئِسَ[2]، والإبْلاسُ: الحُزْنُ المُعْتَرِض من شِدَّة البَأْس، يقال: أَبْلَسَ، ومنه اشْتُقَّ إبليس، ولمّا كان المُبْلِس كثيرًا ما يَلْزَم السُّكوت، ويَنْسى ما يعنيه، قيل: أَبْلَسَ فلان: إذا سَكَتَ وانْقَطَعَتْ حُجَّتُه، ولَمْ يُؤَمِّلْ أَنْ يَكونَ لَهُ حُجَّةٌ، وقَريبٌ مِنْهُ: تَحَيَّرَ[3]، فالإبلاس أن يبقى يائسًا ساكتًا متحيّرًا، يقال: ناظرته فأبْلَس، ومنه النّاقة المبلاس، أي: التّي لا ترغو، وقال مجاهد: مفتضحون، وقال قتادة: المعنى: ييأس المشركون من كلّ خير"[4]، وإبليس إن كان عربيًّا، فاشتقاقه من أبلس يبلس، إذا يئس، فكأنّه أبلس من رحمة الله، أي يئس منها[5]، ومعنى ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، أي: يسكت المشركون لانقطاع حجّتهم.

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: (جرم) أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ الْفُرُوعُ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلس).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلس)، والقُرْطُبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 10.
(4) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 159.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (باب ما جاء على إفعيل).

فالْجِرْمُ الْقَطْعُ[1]، كقطع الثّمرة عن الشَّجَر[2]، والجُرْمُ: الذَنْبُ، والجريمةُ مثله، تقول منه: جَرَمَ وأجْرَمَ واجْتَرَمَ بمعنىً، والجَرْمُ: الحَرُّ، والجِرْمُ: الجَسَدُ، والجِرْمُ: اللّوْن[3]، وتجرّم: ادّعى عليه الجُرْم، وإن لم يُجْرِم، قال الشّاعر، أنشده ثعلب:

وَتَرَى اللَّبيبَ مُحَسَّدًا لَمْ يَجتَرِمْ *** شَتْمَ الرِّجالِ وعِرضُهُ مَشْتومُ[4]

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: 40]، قال الزَّجّاج: "المجرمون هاهنا، والله أعلم: الكافرون لأنّ الّذي ذكر من قصّتهم التّكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها"[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان حالة يأس المجرمين، عند قيام السّاعة

يبيِّنُ الله تعالى حالَ المجرمينَ فيقولُ: ويومَ القيامة يَيئَسُ المُشرِكون من رحمة الله، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم، ويَندَمونَ، ويَتلاشى أمَلُهم في النَّجاة.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ المشركين ما قدَّموا لذلك اليوم إلا الإجرامَ وهي الذنوبُ: من كفر وشرك ومعاصٍ، فلمّا قدَّموا أسبابَ العقاب ولم يَخْلِطوها بشيء من أسباب الثواب؛ أيِسوا وأبْلَسوا وأفْلَسوا، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترونه، مِن نَفْعِ شركائهم وأنهم يشفعون لهم[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في سياق الآية:

تنبيه لحال المُشركين يَوْم الرُّجوع إلى الله يوم الدّين

الواوُ في قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ عاطِفَةٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(2) الرّاغِب، المفردات: (جرم).
(3) الجَوْهري، الصِّحاح: (جرم).
(4) البيت لأبي الأسود الدّؤلي، ينظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جرم).
(5) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 338، ومثله ذكر النحاس في معانيه: 3/ 36، والسمرقندي في بحر العلوم: 1/ 541.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 638.

﴿تُرۡجَعُونَ﴾: " تَبْيينًا لِحالِ المُشْرِكينَ، في وقْتِ ذَلِكَ الإرْجاعِ، كَأنَّهُ قيلَ: ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعونَ، ويَوْمَئِذٍ يُبْلِسُ المُجْرِمونَ، ولَهُ مَزيدُ اتِّصالٍ بِجُمْلَةِ ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾"[1].

سِرُّ العدول عن تَقديرِ الجُملةِ المُضافِ إليها ﴿وَيَوۡمَ﴾:

بيان أنّ الإطْناب لِأجْلِ البَيانِ، والمَزيد من التَّهْويلِ

كانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يُقالَ: (ويَوْمَئِذٍ يُبْلِسُ المُجْرِمونَ)، أوْ (ويَوْمَئِذٍ تُبْلِسونَ)، أيْ: ويَوْمَ تُرْجَعونَ إلَيْه، يُبْلِسُ المُجْرِمونَ، فعَدَلَ عَنْ تَقْديرِ الجُمْلَةِ المُضافِ إلَيْها (يَوْمَ) الَّتي يَدُلُّ عَلَيْها ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، بِذِكْرِ جُمْلَةٍ أُخْرى، هي في مَعْناها؛ لِتَزيدَ الإرْجاعَ بَيانًا أنَّهُ إرْجاعُ النّاسِ إلَيْه، يَوْمَ تَقومُ السّاعَةُ، فهو إطْنابٌ لِأجْلِ البَيانِ، وزيادَةُ التَّهْويلِ، ويَدُلُّ لِهَذا القَصْدِ تَكْريرُ هَذا الظَّرْفِ في الآيَةِ، بَعْدَها بِهَذا الإطْنابِ[2].

نكتة إسناد القيام إلى السّاعة:

عَظيمُ القُدْرَةِ عَلى السّاعة، مَعَ كَثْرَةِ العصاة وأهل الطّاعة

في إسناد القيام إلى السّاعة في قوله: ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ مزيد تخويف وترهيب؛ لِما في ذلك الإسناد مِنَ المُباغَتَةِ والرُّعْبِ[3]؛ إذ شاعَ إطْلاقُ السّاعَةِ عَلى وقْتِ الحَشْرِ والحِسابِ، وأصْلُ السّاعَةِ: المِقْدارُ مِنَ الزَّمَنِ، ويَتَعَيَّنُ تَحْديدُهُ بِالإضافَةِ أوِ التَّعْريفِ، و(أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ للعَهْد.

وسُمّيَتْ بِذَلِكَ إشارَةً إلى عَظيمِ القُدْرَةِ عَلَيْها مَعَ كَثْرَةِ الخَلائِقِ عَلى ما فيهِمْ مِنَ العُظَماءِ والكُبَراءِ والرُّؤَساءِ[4].

علةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُبۡلِسُ﴾:

كَلِمة الإبلاس، غَنيّة بمعانيها، ثَريّة بمدلولاتها

أوثر التَّعبير بمضارع الإبلاس وتذكيره الدالِّ على التَّجدُّد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.
(4) البِقاعي، نَظم الدُّرر: 15/ 55.

والاِسْتِمْرار، الذي أَوْمَأ إلَيْه المُضارِعُ[1]؛ لأَنَّ الكلمة تَكْتَنِز عِدَّة مَعانٍ، لا توجد في مرادفاتها، فهي تَشْمَل معاني: الفَضيحَةُ، والاِكْتِئابُ، والإياسُ، والهَلاكُ، والنَّدامَةُ، والحَيْرَةُ[2]، والتَّأويل: أنّها بمعنى يَسْكُتُ، ويَسْكُنُ يَأْسًا وتَحَيُّرًا عَلى غايَةِ الذُّلِّ.

سِرُّ وضع الظّاهر موضع المُضْمَر:

تعليل الحُكْم المستبين، والتّشهير بالمُجرمين

فيه الإظْهارُ في مَقامِ الإضْمارِ، حيث كانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنَّهُ يُقالُ: (تُبْلِسونَ)، بِالخِطابِ أَوْ بياءِ الغَيْبَة، لَكِنَّه وضَعَ الظّاهِرَ في قوله: ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ مَوْضِع ضَميرِهِم؛ لِلتَّسْجيلِ عَلَيْهِمْ بِهَذا الوَصْف الشَّنيع، والإشْعار بِعِلَّةِ الحُكْم، والمُرادُ بِالمُجْرِمينَ عَلى ما أفادَهُ الطّيبيُّ أولَئِكَ الَّذينَ أساؤوا السّوأى[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: للجِنْس، وأفادت العُموم والشُّمول، ووُصِفوا بِالإجْرامِ لِتَحْقيرِ دين الشِّرْكِ وأنَّه مُشْتَمِلٌ عَلى إجْرامٍ كَبيرٍ[4].

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرر: 15/ 55.
(2) الماوردي، النُّكَت والعيون: 15/ 392.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب حاشية على الكَشّاف: 12/ 219، والآلوسي، روح المعاني: 16/ 25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَـٰفِرِينَ ١٣﴾ [الروم: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين قيام السّاعة والإبلاس، حيث لا شفعاء من الشّركاء ولا من النّاس

ذَكرَ اللهُ في هذه الآية سَبَبًا مِن أسْبابِ الإبْلاسِ وأعْظَمَها حينَئِذٍ - بينما في الآية السّابقة ذَكر إبلاس المجرمين يوم القيامة - وهو أنَّهم لَمْ يَجِدوا شُفَعاءَ مِن آلِهَتِهِمُ الَّتي أشْرَكوا بها، وكانوا يَحْسَبونَها شُفَعاءَ عِنْدَ اللَّهِ، فلَمّا نَظَروا وقَلَّبوا النَّظَرَ فلَمْ يَجِدوا شُفَعاءَ خابوا وخَسِئوا وأُبْلِسوا، ولَهم أسْبابُ خَيْبَةٍ أُخْرى لَمْ يَتَعَلَّقِ الغَرَضُ بِذِكْرِها، وأمّا ما يَنالُهم مِنَ العَذابِ، فذَلِكَ حالَةُ يَأْسٍ لا حالَةُ إبْلاسٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾: (شفع) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ: الشَّفْعُ خِلافُ الْوَتْرِ[2]، والشّفيع: الشّافع، والجمع شفعاء، واستشفع بفلان على فلان، وتشفَّع له إليه، فشفّعه فيه، وقال الفارسيّ: استشفعه: طلب منه الشّفاعة، أي قال له: كن لي شافعًا، والشُّفعة في الشّيء: القضاء به لصاحبه[3]، والشَّفاعَةُ: الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حُرْمَة ومَرْتَبة، إلى مَنْ هو أدْنى، ومنه: الشَّفاعَةُ في القيامة، كَقوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87]، ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: 109].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شفع).
(3) ابن سيده، المحكم: (شفع).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تهافت الشّفعاء من الشّركاء، وتبرُّؤ هؤلاء من أولئك

لم يكُن للمُشركِينَ مِن معبوداتِهم الباطلةِ الَّتي جعَلوها شُرَكاءَ للَّهِ شُفَعاءُ يَشفعَونَ لهم في الآخِرةِ، فيَجلِبونَ لهم نَفعًا، أو يَدفَعونَ عنهم ضُرًّا، ويَكفُرُ أولئك المُشرِكونَ بمَنِ اتَّخَذوهم شُرَكاءَ للَّهِ تعالى[1].

وترشدُ الآيةُ إلى تبرُّؤ المشركين ممن أشركوهم مع اللّه وتبرُّؤ المعبودين ممَّن عبدوهم، وإلى أنَّ الشفاعة للّه وحده، ولا تُطلَب من غيره، وإلى تقرير عقيدة أن لا شفاعة لمشرك ولا كافر يوم القيامة، وبطلان ما يعتقده المبطلون من وجود من يشفع لأهل الشرك والكفر[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ إيثار النَّفي بـ(لَمْ) في السّياق المحكم:

الأداة (لَـــمْ)، تقليب المضارع إلى معنى الماضي

الواو في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾، عاطفة على ما قَبْلَها، ونَفْيُ فِعْلِ ﴿يَكُن﴾ بـ(لَم) الَّتي تُخَلِّصُ المُضارِعَ لِلْمُضيِّ، لِلْإشارَةِ إلى تَحْقيقِ حُصولِ هَذا النَّفْيِ، مِثْلَ قَوْلِهِ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1][3].

معنى اللّام في ﴿لَّهُم﴾ ونُكْتة تقديمها:

لا شفاعة لِمُشْرِك ولا لكافر يوم القيامة

اللّام في ﴿لَّهُم﴾ للاستحقاق، والكَوْنُ المَنفيُّ نَفى شفاعة شُركائهم، وقُدِّم شِبْه الجملة؛ للتَّعجيل بما يَسوؤهم، ويُيَئِّسهم، وذلك منتهى خيبة الأمل، الّذي يكسو النّفوس حسرة ويأسًا، حين لا ينالهم من شركائهم شفاعة، ممّا كانوا يرجون ويؤمّلون.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾:

تغليب العاقل على غير العاقل

أفادت ﴿مِّن﴾ التَّبعيض، وفيه استغراق النَّفْي، أي: نَفي الشُّفعاء

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 11/ 17، والسَّعْدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 638، وابن عثيمين، تفسير سورة الرّوم، ص: 74.
(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 638، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 165.
(3) البَيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 203، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 62.

مُطْلَقًا، والمرادُ بِشُركائهم الأصنامُ، وعَبَّر بـ﴿مِّن﴾؛ لِمعاملتهم إيّاها مُعاملة العقلاء، أو المقصود بالشُّفعاء الأوثان، والشّياطين، ورؤساؤهم، فعُبِّر بِالحرف ﴿مِّن﴾، لِتَغليب العاقل على غير العاقل.

بلاغة مقابلة ضَميرِ الجمْعِ بصيغةِ جمْعِ الشُّركاءِ:

دِلالــــة نَـفْـي الجَمْع على نَفْي المفرد

مُقابَلة ضَميرِ الجمْعِ بصيغةِ جمْعِ الشُّركاءِ في قولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾، مِن بابِ التَّوزيعِ، أي: لم يكُنْ لأحدٍ من المُجرمين أحَدٌ شَفيعٌ أصْلًا، فضْلًا عن عِدَّةِ شُفعاءَ، وكذلك قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم يَكفُرون بهم يومَ تقومُ السّاعةُ(1).

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾:

أثـر المُـعـايَـرة والـتَـحْـسـير في ذلــك المـوقـف الخطير

الواو في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ حاليَّة، والمعنى: أنَّهم لَم يَشْفعوا لَهُم، مع أنَّهم سَبَب كُفْرهم، ونُكْتَة إضافة الشّركاء إلى ضميرهم هي مُعايَرتهم، وتحسيرهم؛ لِتَخَلّي مَن كان يَرْجون شفاعتهم عنهم في ذلك الموقف العظيم بين يدي رَبِّ العالمين، يوم تَتَجَلَّى الحقائق.

سِرُّ إيثار لفظ جمع ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾:

كـلّ شـريـك في الدّنيا، سوف لا يكون شفيعًا في الآخرة

الفرق الدّلالي بين جَمْعَيِ المُذَكَّر السّالم، وجَمْع التَّكسير، أنَّ جَمْعَ التَّكسير في غالب أوزانه يَدُلُّ على الكَثْرَة، بخلاف جَمع المُذَكَّر السّالم، فإنَّه يَدُلُّ على القِلَّة، في غالب دلالاته؛ إلّا إذا ورَدَ في سياق يَدُلُّ على الكثرة والاستغراق؛ لذلك أوثِر التَّعبير بِجَمْع التَّكسير ﴿شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾، الّذي يَغْلُب فيه معنى الاسميَّة على جَمْع المُذَكَّر السّالم، (شافعين) الّذي يغلب فيه معنى الوَصْفيَّة؛ للإشارة إلى أنَّه مَع كَثْرة الشّافعين إلّا أنَّه لا يوجد شَفيع واحد يَشْفَع لَهُم، فكُلُّ شَريك يُرْتَجى أن يكون شفيعًا، ولَمْ يكُن الشُّركاء كافَّة شُفعاء كافَّة، فكان الجَمْع في مقابلة الجَمْع، فالمراد نَفي الشَّفاعة كَخَبَر، فجَمْع التَّكسير دَلَّ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقل السَّليم: 4/ 353، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 63.

اسميَّة شُفعاء، أي: نَفْي وجود الشُّفَعاء الذين ينتفعون بِشفاعتهم يوم القيامة البَتَّة، والله أعلم بمراده.

أمّا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ [الشُّعراء: 100]، فالتَّعبير بِجَمْع المُذَكَّر السّالم الدّال على القِلَّة في تلك الآية، أفاد أيضًا الاستغراق لوقوع ﴿مِن﴾ [الشُّعراء: 100] في سياق النَّفْي، وهذا أكثر تأكيدًا في نَفْي الشَّفاعة عن الكافرين يوم القيامة؛ حيث ترادف التَّعبير بالجَمْع الدّال عَلى القِلَّة، مَعَ الاستغراق في تأكيد هذا المعنى، كما أنَّ جَمْع المُذَكَّر السّالم تظهر فيه قوّة الصِّفة، وحصول الجَمْع، وجَمْعُ المُذَكَّر السّالم أظهر ﴿شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ [الشُّعراء: 100] في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ [الشُّعراء: 100] بقوَّة الفعل حتَّى يصبح قريبًا مِن الفعل، وأنَّ هذه الفِعْلة باتت اسمًا لأصحابها يُسَمَّوْن بها، أي: لا تنفعهم شفاعة مَن يقومون بفِعْل التَّشَفُّع وأشْعَرَ جَمْعُ المُذَكَّر السّالم ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المدثر: 48] في سورة المُدَّثِّر: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾ [المُدَّثِّر: 48]، والشُّعَراء في الموضعين بَقوَّة الفعل لِتَمَكُّن الصِّفَة في الموصوف حتى باتت اسمًا له، فدَلَّ على عَدم انتفاعهم بِشفاعة مَن يقومون بالشَّفاعة، وهَذا الخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ في التَّحَسُّرِ والتَّوَجُّع.

لطيفة العدول عن المفرد إلى ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾:

المُـشـاكـلَـة اللَّفظيَّة وأثرها في بيان السّياق

عُدِل في سياق الآية الكريمة عن الإفراد (شَفيع) إلى الجَمْع ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾؛ لِعلَّة لَفْظيَّة هي توافقُ الجَمْعَيْن: (شُركاء) و﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ في المَبْنى والوزن، أي: مقابلةُ الجَمْعَيْن: جَمْع التَّكسير لِجَمْع التَّكسير، وقد أناب حرف المعنى ﴿مِّن﴾ عَنْ اسم الجِنس المفرد (شَفيع) في إفادة الاستغراق، أي: لم يكن لَهُم أيُّ شَفيع مِن الشُّفعاء؛ لوقوعه في حَيِّز النَّفْي، وأكَّد تَنكير ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ هذا المعنى بِدلالته على العُموم.

نُكْتة التَّعبير بالكَوْن الماضي ﴿وَكَانُواْ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ عاطفة ما بَعْدَها على

بيان حالة خَيْبة أمَـل، والمصير المزري المحتوم

جُمْلة ﴿يُبۡلِسُ﴾، وفي هذه الجملة ذَكَرَ حالَ الشُّفَعاءِ مَعَهُم، فقالَ: ﴿وَكَانُواْ﴾، أيْ: كَوْنًا هو في غايَةِ الرُّسوخِ[1]، وعُبِّر بِلَفْظ الماضي لتَحَقُّق وقوعه، فقد كفروا بِآلِهَتِهِم وشياطينهم ورؤسائهم، حَيْثُ وقفوا عَلى كُنْهِ أمْرِهِم، وعَجْزِهم عن نَفْعِ أنْفُسِهم، فخاب أمَل هؤلاء المشركين في النَّجاة بَعْد تَيَقُّنهم مِن هلاكهم.

معنى الباء في قوله: ﴿بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾:

من أشرك بالله، أضاع السّبيل، وهام في مهامه الضّلالة

الباء في قوله: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ للسَّبَبيَّة؛ أي كان هؤلاء الّذين أساؤوا السّوأى في الدُّنيا، كافرين بِسَبَب إضلال أوثانهم وشياطينهم مِن الإنْس والجِنِّ إياهم عن الصراط المستقيم.

بلاغة القصر بتقديم شبه الجملة:

تَـبَرُّؤ المشركين مِن شُركائهم؛ لِعَجْزهم عَن دَفْـع الـعـذاب عَنْهُم

لَمّا ذَكَرَ حالَ الشُّفَعاء مَعَ المشركين، ذَكَرَ حالَهم مَع الشُّفَعاء فقالَ: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، وقَدَّم شبه جملة الجارّ والمجرور في قوله: ﴿بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ لإفادة القَصْر، فهؤلاء يوم القيامة يَتَبَرَّؤون مِن شركائهم خاصَّة، نادِمين على صنيعهم الفاسد؛ لاعْتَقادهم اعتقادًا راسِخًا كَوْن أصنامهم آلِهَةً فعَبَدوهم؛ جَرْيًا عَلى عادَتِهِم فيما لا يُغْنيهم مِنَ العِنادِ والبُهْتِ.

عِلَّة إيثار ﴿كَٰفِرِينَ﴾ على (كُفّار):

ظُـهـور قـوَّة الفِعْل في جَمْع المُذَكَّر السّالم، دون جـمـع التّكسير

آثر النَّظْمُ الكريمُ جَمْعَ المُذَكَّر السّالم؛ كي تَظْهَرَ قوَّة الفِعْل فيه أكثر، ويكونَ التَّركيز فيه كذلك أكثر؛ لذا أوثر ﴿كَٰفِرِينَ﴾، على جَمْع التَّكسير (كُفّار) لِنَفْي الفِعْل؛ لأنَ فيه معنى الفِعْليَّة، كأنَّه يقول: ينبغي أن يكون شأنهم ودَيْدَنُهم الّذي يُخْبَر عنهم فيه الكُفْر بهؤلاء الشُركاء، كَما أنَّ جَمْعَ المُذكر السّالم نَفَى الاسميَّة، ونفي وجود الشَّفاعة البَتَّة.

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 55.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإبلاس واليأس والقنوط:

الإبلاس حُزْن وكآبة، واليأْس انقطاع الطَمَعَ، والقُنوط أشدُّ اليأْس وأقواه

الإبلاس: هو اليَأْس والحُزْن والكآبة، فالمُبْلِس هو: الكَئيب الحزين المتندم، وسُمّي إبليس؛ لأنَّه أَبْلَس مِن الخَيْر، واليَأْس: القُنوط، وقيل: اليَأْس نقيض الرَّجاء، أو قَطْع الأمل، يقال: يئس من الشّيء ييأس وييئِس؛ والمصدر اليأْس واليآسة واليأس، وقد استيأس وأيأسته، وإنه ليائس ويئِسٌ ويؤوس ويَؤُس، والجمع يُؤوس[1]، وعَرَّفَ أبو هلال العَسْكري اليأْس بقوله: "اليأْس: انقطاع الطَمَعَ من الشيء"[2].

والقنوط لغةً: مصدر قَنَط يَقنِطُ ويَقنُطُ وقَنِطَ يقنَط وهو قانِطٌ وقَنوط وقنِط[3]، وأصل هذه المادَّة يدُلُّ عَلَى الْيَأْسِ مِنَ الشَّيْءِ، فالقُنوط: اليأْس، وقيل: أشدُّ اليأْس من الشَّيْءِ، وقال الشَّوْكاني: "القُنوط: الإياس مِن الرَّحْمَة"[4]، والإبلاس: اليأس الشَّديد، إذا كان مِن سوء عَمَله، وأوجب حُزْنًا وابتلاءً شديدًا مع الخَفْض والفَقْر الشَّديد، واليَأس أعَمُّ مِن أن يكون بِسوء عَمَل الشَّخص مِن قِبَل نَفْسه، والإبلاس أعَمُّ مِن أن يُلازِم اليَأْس، والإبلاس هو التَّسليم للابتلاء والهَلاك، وليس مُقَيَّدًا باليأسْ، والقُنوط عامٌّ، واليَأْس خاصٌّ، واليأس جُزْء مِن القُنوط، واليَأْس يكون في دَفْع النِّقَم، والقُنوط يكون في اليأْس مِن دَفْع النِّقَم، وجَلْب النِّعَم، فالقنوط أشمل حيث يشمل الخير والشَّر، واليأس مِن الخير، ومِن الرَّحْمة أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 53]؛ أي: لا تيأسوا، وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: 56].

(1) ابن دريد، جَمْهَرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (يئس).
(2) أبو هلال العَسْكري، الفروق اللُّغوية: 1/ 436.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والفَيّومي، المِصباح المُنير: (قنط).
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/ 471، والشَّوْكاني، فَتْح القدير: 4/ 260.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ [الرّوم: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط التّيئيس من الشّفعاء، بتأكيد التّفرق عند قيّام السّاعة حسب المصير

بَعْد بيان حال الشُّفعاء مع المجرمين يوم قيام السّاعة في الآية السّابقة، بَيَّنَ في هذه الآية الكريمة أمْرًا آخَرَ، يَكونُ في ذَلِكَ اليَوْم وهو الافْتِراقُ، كَما قالَ تَعالى في آيَةٍ أُخْرى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس: 59]، فكَأنَّ هَذِهِ الحالَةَ مُتَرَتِّبَةٌ عَلى الإبْلاسِ، فكَأنَّهُ أوَّلًا يُبْلَسُ، ثُمَّ يُمَيَّزُ، ويُجْعَلُ فريقٌ في الجَنَّة، وفريقٌ في السَّعير[1]، وأيضًا "لَمّا كانَتِ النَّفْسُ رُبَّما تَشَوَّفَتْ إلى أنَّهُ هَلْ يَكونُ بَعْدَ إبْلاسِهِمْ شَيْءٌ آخَرُ، قالَ مُفيدًا لَهُ مُهَوِّلًا بِإعادَةِ ما مَضى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أيْ ويا لَهُ مِن يَوْمٍ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾: (فرق) أُصَيْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَمْييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[3]، والفَرْقُ: خِلافُ الْجَمْعِ، فرَقه يَفْرُقُه فرْقًا وفرَّقه، وقيلَ: فرَقَ لِلصَّلاحِ فرْقًا، وفرَّق للإفساد تَفْريقًا، وانْفَرَقَ الشَّيْءُ وتَفَرَّقَ وافْتَرَقَ[4]، الفَرْقُ يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال، وفَرَقْتُ بين الشّيئَين: فصَلْتَ بينهما سواء كان ذلك بِفَصْلٍ يُدْرِكه البَصَر، أو بِفَصْلٍ تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25][5]، ومعنى الآية: يفترقُ أهل الإيمان وأهل الكفر.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 85.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 67.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (فرق).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

في يوم القيامة يتفرَّقُ أهلُ الإيمان وأهلُ الكُفر في الجَزاء، حَسْبَ أعمالهم في دار الابتلاء من خيرٍ أو شر، ثُمَّ زادَ في تَهْويلِ ذلك اليوم بكون المُؤْمنينَ يَفْرَحونَ بنَصرِ اللّهِ، والكافِرينَ في حسرة، وهي فُرْقَةٌ لا اجْتِماعَ بَعْدَها، هَؤُلاءِ في عِلّيّين، وهَؤُلاءِ في أَسْفَلِ سافِلين[1].

وترشدُ الآيةُ إلى تفرُّق أهل الخير والشر في المنازل والجزاء، كما افترقت أعمالهم في الدنيا[2].

التّذكير بكون السّاعة ظرفًا فاصلًا، في جزاء أهل الإيمان وأهل الكفران

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

الواو حرف عطف، ﴿وَيَوۡمَ﴾ ظرف زمان، وكُرِّر قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لِأنَّ قيامَ السّاعَةِ أمْرٌ هائِلٌ، فأُعيد تأكيدًا لِلتَّخْويف والتَّرهيب، والتَّحذير من هَوْل هذا اليوم، وتَفظيع لِما يَقَعُ فيه، وقد اعْتادَ الخُطَباءُ تَكْريرَ يَوْمِ القيامَةِ في الخُطَبِ، لِتَذْكيرِ أَهْوالِهِ[3].

بيان ملمح التّرهيب من هَوْل يوم القيامة الأعظم

دلالة تكرير قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

التَّنْوينُ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تَنْوينُ عِوَضٍ مِنَ الجُمْلَةِ المَحْذوفَة، أيْ: ويَوْمَ تَقومُ السّاعَةُ يَوْمَ إِذٍ يُبْلِسُ المُجْرِمونَ، وكَرَّرَ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾؛ لِتأْكيدِ حَقيقَةِ الظَّرْفيَّة[4]، و﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مضافٌ لجملة، تقديرُها: يومئذٍ تقومُ، وهذا كأنّه تأكيدٌ لفظيٌّ؛ إذ يصيرُ التّقدير: يُبْلِس المجرمون يومَ تقومُ السّاعةُ، يومَ تقومُ السّاعة[5].

تكرار الظّرف، مرتبط ببيان حَقيقَةِ الظَّرْفيَّةِ

بلاغة الكِناية في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾:

التَّفَرُّقُ: انْقِسامُ الجَمْعِ وتَشَتُّتُ أجْزاءِ الكُلِّ، وقَدْ كُنّيَ بِهِ هُنا عَن

التَّفَرُّق يُلازِمُه التَّباعُدُ عُرْفًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 67.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 131، والسَّعْدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 638.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/ 103، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 354، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 6/ 21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 21.
(5) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 9/ 35.

التَّباعُد والتَّناكُر؛ لِأنَّ التَّفَرُّقَ يُلازِمُه التَّباعُدُ عُرْفًا[1]، وذلك أنّه عند قيام السّاعة، يفصل بين الخلائق في ساحة الحساب، ويوجّه كلّ واحد إلى ما يستحقّه، من نعيم أو عذاب، وهناك الافتراق، حيث يكون اللّقاء الفاصل في المصائر، ليكون التّفرّق من بعده، حسب العمل والمقام، بما يحدّد مصير الأنام، قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشّورى: 7].

موقع جملة ﴿يَتفرَّقُونَ﴾ في السّياق:

تفرّق القيامة يحدّد المصير، إلى الجنّة، أو إلى السّعير

وجملة: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ لا مَحَلّ لها معطوفة على جملة ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وفي قوله ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾، قال مقاتل: يتفرّقون بعد الحساب، حيث يساق المؤمنون إلى الجنّة، والكافرون الى النّار، ثمّ لا يجتمعون أبدا[2].

مَرْجع الضَّمير في ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾:

بيان أنّ المُسلِمين في عِلّيين، والكافرين في أسفل السّافلين

الضَّميرُ في ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ لِلْمُسلِمينَ والكافِرينَ؛ لِدَلالَةِ ما بَعْدَهُ عَلَيْهِ[3]، قالَ الزَّمَخْشَريُّ: "ويَظْهَرُ أنَّهُ عائِدٌ عَلى ما قَبْلَهُ، إذْ قَبْلَه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وعن الحسن ﷺ هو: هؤلاء في عِلّيين، وهؤلاء في أسْفل السّافلين"[4]، وعند أبي السّعود: "وضميرُ يتفرَّقون لجميعِ الخلقِ المدلولِ عليهم، بما تقدَّمَ من بدئِهم وإعادتِهم ورجعِهم، لا المجرمون خاصَّة، وليسَ المرادُ بتفرُّقِهم افتراقَ كلِّ فردٍ منهم عن الآخرِ، بل تفرُّقَهم إلى فريقَي المؤمنينَ والكافرينَ"[5].

سِرُّ إيثار صيغة ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾:

تتميّز المقامات يوم القيامة، بما كسبوا من أجر، وما اكتسبوا من إثم

في تأويل التَّفَرُّق وجهان: أَحَدُهُما: في الجَزاءِ بِالثَّوابِ والعِقابِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 64.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 26، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 225.
(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 7/ 160.
(4) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 567.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 53.

والثّاني: في المَكانِ بِالجَنَّةِ والنّارِ[1]، وأوثر لفظ ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ على (يَفْرقون)؛ لأنَّه أبلغ من يفرقون؛ إذ يدلُّ على أنَّهم يمتاز بعضهم عن بَعض تلقائيًّا بأنفسهم، دون تدخّل منهم بدون تفريق، مع أنَّه بَعْد الأمْر بالامتياز، كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس: 59][2].

نُكْتة التّعبير بمضارع التفرق:

تَـفَـرُّق يـوم القيامة، تفرّق فـاصل لا لقاء بَعْدَه

وأوثر التَّعبير بالمضارع ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾؛ للدِّلالة على استمرار هذا التَّفَرُّق، قال قَتادَةُ: هيَ - واللَّهِ - الْفُرْقَةُ الَّتي لا اجْتِماعَ بَعْدَها، يَعْني: إذا رُفِعَ هَذا إلَى عِلّيّينَ، وخُفِضَ هَذا إلَى أسْفَلِ السّافِلينَ، فذاكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُما؛ ولِهَذا قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الاختلاف والتَّفَرُّق:

الاخـتـلاف لا الخلاف، تقابل بـين رأيـين على سبيل التّنوّع، والتّفرّق تشتّت وتشرذم

الاختلاف: هو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرّأي فيه[4]، والتَّفَرُّق: خِلاف التَّجمُّع، يقال: تَفَرَّق القَوْم وتفارقوا، والاسم الفُرْقة، والتَّفْريق: خلاف التَّجْميع، يقال: فرَّق الشّيء تفريقًا وتفرقة: بدَّده، وهو مُتَعَدٍّ، أما التَّفرق فلازم، والتَّفْريق أبْلَغ مِن الفَرْق؛ لِما فيه مِن معنى التَّكْثير[5]، والاختلاف والخِلاف: مِن مادَّة واحدة، ولكن جَرَت العادة على استخدام الاختلاف في التَّنوع والتَّعدد، وتلاقح الأفكار والتَّدافع بين الآراء، واختلاف الحُجَج والبراهين، ومنه ما يكون بين العلماء من اختلاف في الرّأي، وبذل الوسع للانتصار له. أمّا الخِلاف فيكون في التَّنازع على الحقوق وتَعارض المصالح.

(1) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 4/ 302.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 113.
(3) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 11/ 17.
(4) المناويّ، التَّوقيف على مَهَمّات التَّعاريف، ص: 111.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الرّوم 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مناسبة تفرّق أهل المحشر بالمصائر، مع وجود أهل الإيمان في روضات الجنان

لما كانت الآيةُ السّابقة إخبارًا عن التَّفَرُّق يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين، جاءت هذه الآية لبَيان كَيْفيَّة هذا التَّفَرُّق، وتَفْصيل أحْوال الفَريقَيْن[1]، وإيضاح مآل أهل الإيمان، والعمل الصّالح، في الدّنيا، إلى روضات في الجنان، ذات بهجة ومتعة وجمال، يفوق الخيال، ينعّمون فيها بكلّ متعة متاحة، ويرشفون فيها لذائذ تلك الحياة المرفّهة الخالدة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَوۡضَةٖ﴾: (روض) أصلٌ يدُلُّ على اتِّساعٍ[2]، والرَّوضةُ: البُستانُ الَّذي هو في غايةِ النَّضارةِ والحُسْن، والرَّوْضَةُ: كُلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ[3]، والمرادُ بها الجنَّةُ، والدّليل عليه قول الرَّسول ﷺ: «ما بَيْنَ بَيْتي ومِنْبَري رَوْضَةٌ مِنْ رياضِ الْجَنَّة، ومِنْبَري عَلَى حَوْضي»[4]، وفسّر البغويّ الرّوضة، بأنّها الْبُسْتانُ الَّذي في غايَةِ النضارة، وهم فيه يكرمون[5].

2) ﴿يُحۡبَرُونَ﴾: (حبر) أصلٌ يَدُلُّ على الأَثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ، والحَبْرَةُ: السُّرورُ[6]، الحِبْرُ: الأثر المُسْتحْسَن، والحَبْر: العالم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 14/ 354.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (روض).
(3) الرّاغِب، المفردات: (روض)، والكَفَوي، الكُلّيات: 1/ 405.
(4) الحديث أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (1196)، ومسلم، الحديث رقم: (1391)، والبغويّ، في شرح السّنة: 2/ 338.
(5) البغويّ، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 3/ 572.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حبر).

وجَمْعه: أَحْبار، لِما يَبْقى مِنْ أَثَر عُلومهم في قلوب النّاس، ومِن آثار أفعالهم الحَسَنَة المُقْتَدَى بها[1]، والمراد: يُسَرّون ويُنَعَّمونَ، قال اللّيث: يحبرون ينعّمون، قال: والحبرة النّعمة، وقد حبر الرّجل حبرة وحبرا، فهو محبور، وقال المزار العدويّ:

قَدْ لَبِسْتُ الدَّهْرَ مِنْ أَفْنانِهِ *** كُلَّ فنٍّ ناعِمٍ مِنْهُ حَبِرْ[2]

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـان عقبى أهـل الإيـمـان والصّلاح، وهم مـكـرّمـون في روضات الجنان

يُبَيِّن اللّه تعالى حال أَهْل الإيمان آمنوا بقلوبهم، وصَدَّقوا ذلك بالأعمال الصّالحة المقبولة عِند رَبِّهم، فهُم في جَنَّة فيها سائر أنواع المُتَع، وأصناف المُشْتَهَيات، يُسَرّون بما ينالون فيها مِن النَّعيم الدّائم الّذي لا ينقطع أبدًا، ولا يحول ولا يزول، وعليه "فسيكونون في الآخرة في جنّة عظيمة، يسرّون بدخولها، سرورا عظيما، وينعّمون فيها نعيما لا يحيط به الوصف"[3].

وترشدُ الآيةُ إلى تقرير مبدأ السعادة يوم القيامة، فأهل الإيمان والتقوى في روضة يُسَرّون وينعَّمون بالمآكل اللذيذة، والأشربة، والحور الحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المُطربات، والسماع المُشْجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور واللذة والحبور[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَمَّا﴾:

أهميّة التَفْصيل بَعْد الإجْمال، فـي الإفـادة والبيان

الفاء تفريعيَّة، و(أمّا) حَرْف شَرْط وتفصيل[5]، وبيان هذا أنَّه تفصيل لِما أُجْمِل في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾،

(1) الرّاغِب، المُفردات: (حبر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حبر).
(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 11/ 72.
(4) السَّعْدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 638، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 165.
(5) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن: 7/ 480.

وقد أنْبَأت الفاءُ عن كلام محذوف، فهي فاء الفصيحة، والتَّقدير: إذا كان الأمر كذلك، فاستعِدّوا لِما استَعَدّوا به في ذلك اليوم مِن الأعمال الصّالحة؛ لِتَفوزوا بما فازوا به مِن رَوْضات الجنّات، ولِما تَخْلصون به مِن الشَّقاوة الأبَديَّة، والاستقرار في دَرَكات النّيران، باستغراق الأوقات في ذِكْر اللّه سبحانه، وطاعته الواجبة عليكم(1).

سِرُّ التّوطئة بحالِ المؤمنين، لِذِكْرِ المُجرمينَ:

حَسْرَة الكُفّار يَوْم القيامة بَعْد رُؤيتهم تَحقُّق وعْد الله لِعباده المؤمنين

بُدِئَ بِذِكْر حال الَّذينَ آمَنوا مَعَ أنَّ المَوْضِعَ مَوْضِعُ ذِكْر المُجْرِمينَ؛ "وذَلِكَ لِأنَّ المُؤْمِنَ يوصَلُ إلَيْه الثَّوابُ قَبْلَ أنْ يوصَلَ إلى الكافِرِ العِقابُ، حَتّى يُرى ويُتَحَقَّقَ أنَّ المُؤْمِنَ وصَلَ إلى الثَّوابِ فيَكونَ أنْكى، ولَوْ أُدْخِلَ الكافِرُ النّارَ أوَّلًا لَكانَ يَظُنُّ أنَّ الكُلَّ في العَذابِ مُشْتَرِكونَ، فقَدَّمَ ذَلِكَ زيادَةً في إيلامِهِمْ"(2).

نكتةُ التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعليل الحُكْم مِن خلال جُمْلة الصِّلَة في السّياق

عُبِّر باسم الموصول في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتعليل الحُكْم بِتَنَعُّم وسُرور المؤمنين في جَنَّة الخُلْد مِن خلال جُملة الصِّلة.

غرضُ تقديم الإيمان على العمل الصّالح:

الإيمان شَرْط قبول الأعمال

قُدِّم الإيمان على العمل الصّالح في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّه شَرْط قبول العمل، فلا عَمَل يُقبل مهما كان صالحًا من دون الإيمان؛ فقُدِّم لأهميَّته.

سرُّ ذِكْر العَمَل الصّالِح مع المُؤْمِن، دون العَمَل السَّيِّئ مع الكافِر:

لا يَبْلُغُ المُؤْمِنُ الدَّرَجَةَ العاليَةَ إلّا بِالإيمانِ والعَمَلِ الصّالِح

ذَكَرَ في المُؤْمِن العَمَلَ الصّالِحَ، ولَمْ يَذْكُرْ في الكافِرِ العَمَلَ السَّيِّئَ؛ لِأنَّ العَمَلَ الصّالِحَ مُعْتَبَرٌ مَعَ الإيمان، فإنَّ الإيمانَ المُجَرَّدَ

(1) الطّيبي، فتوح الغيب، حاشية على تفسير الكَشّاف: 12/ 222، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 114.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 103.

مُفيدٌ لِلنَّجاة دونَ رَفْعِ الدَّرَجات، ولا يَبْلُغُ المُؤْمِنُ الدَّرَجَةَ العاليَةَ إلّا بِإيمانِه وعَمَلِه الصّالِح[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

بيان السّياق لِتَنَوُّع أبواب الخير وكَثْرتها

(أل) للجِنس، وقد دَلَّت على أنَّ أهْلَ النَّعيم في الآخرة ما تركوا بابًا مِن أبواب الصّالحات في الدُّنيا إلّا وقد طرقوه، ولا عَملًا مِن أعمال الخير إلّا وقد بادروا إليه وعملوه، وهذا ما دَلَّ عليه التَّعبير بالجَمْع ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

دلالة نَظْمِ الجملة على الشّرطيّة:

شَرْط تَحقُّق موعود الله لِعباده، مبين عن المقصود

أَوْمَأ نَظْم الجملة على الشّرطيّة بدلالة الموصول على الشَّرْط، إلى تَحَقق الجزاء وثبوته، وموعود الله تعالى لعباده الصّالحين بالتَّنعيم في دار النَّعيم، فوْر تَحقّق العمل الصّالح، المُقتَرِن بالإيمان الرّاسخ بالله تعالى.

معنى الفاء والظَّرْفية في قوله: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾:

استقرار المؤمنين في دار النَّعيم، من عطاء الله الكريم

الفاء في قوله: ﴿فَهُمۡ﴾ رابطة لِما في الموصول مِن ملمح الشَّرْط، ودَلَّ التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي رَوۡضَةٖ﴾، على التَّمكن والاستقرار، فأهْل الإيمان والعمل الصّالح يوم القيامة، مُنْغَمِسون في النَّعيم، مُستَقِرُّون فيه، مُذَلَّل لَهم كُلُّ أنواع الطَّيِّبات.

نُكْتة دخول الفاء على الضَّمير المُنْفَصِل ﴿فَهُمۡ﴾:

الإيمان والعمل الصّالح سَبَبٌ لاِستحقاقهم ذَلِكُمُ النَّعيم

أُدْخِل الفاء على الضَّمير المُنْفَصِل (هُمْ) في قوله: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الإيمان والعمل الصالح سَبَبٌ لاِستحقاقهم ذَلِكُمُ النَّعيم بِمُقتَضى الوَعْد وإنْ كان تَفَضُّلًا في نَفْسِه[2]، وأفاد التَّعبير بالجملة الاسميَّة دوام استقرارهم في وسرورهم في نعيم الجَنَّة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 103.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 113.

تفخيم شأن الجنَّة، من بليغ البيان

غرضُ تنكير ﴿رَوۡضَةٖ﴾:

وتَنْكيرُ ﴿رَوۡضَةٖ﴾؛ لإبهام أمْرها وتَفْخيمه، والمُرادُ بها الجَنَّةُ[1]، والرّوضة: هي المكان المليء بالخضرة والأنهار والأشجار والنّضارة، وقد نكّرها لأنّها مطلب النّفس البشريّة مهما كان نوعها أو وصفها، وخصوصًا أنّها مفقودة عند العرب، في البيئة الصّحراويّة القاسيّة، بالوادي غير ذي زرع، والبيئة الّتي يكسوها الجفاف، ولا تنتشر فيها حدائق رائعة، ولا رياض يانعة، فهم بذلك يحلمون بأيّة روضة دون تخصيص[2].

أهل الجنَّة يَتَقلَّبون في نعيم دائم لا يَنْقَطِع

سِرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿يُحۡبَرُونَ﴾:

آثر النظمُ الكريمُ المضارع في ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ على اسم الفاعل: (مُحْبرون)؛ لدلالة المضارع على الاستمرار والتَّجَدُّد؛ إذ يوحي بأنَّ أهل الجَنَّة يَتقلَّبون في نعيم دائم لا يَنْقَطع؛ إذ يَأْتيهمْ كُلَّ ساعَةٍ ما يُسَرّونَ بِهِ، مِن مُتَجَدِّداتِ المَلاذِّ، وأنْواعِها المُخْتَلِفَةِ[3].

بيان أنّ الغاية هي التَّركيز على الحَدَث لا على فاعله

عِلَّة بناء الفعل ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ لما لم يسمّ فاعله:

وبُني الفعل للمجهول في قوله: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾؛ لأنَّ الغرض التَّركيز على الحَدَث أي الحُبور لا على فاعله؛ وأيضًا للإشارة إلى كَثْرة أسباب حُبورهم، والله أعلم بمراده.

التَّعجيل بالبُشرى، مناسب لغرض السّياق

سِرُّ التّقديم في الجارِّ والمجرور:

وقُدِّم الجار والمجرور على الفعل في قوله: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾؛ للتَّعجيل بالبُشْرى، ومعلوم أنّ النّفس تميل إلى المسرّة والتّكريم والإنعام، فكان تقديم الجارّ والمجرور ﴿فِي رَوۡضَةٖ﴾، علامة على مزيد من السّرور، والجنّة الغنّاء ذات الماء والاخضرار، تسهم في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 10، والطيبي، حاشيته على تفسير الكشّاف: 12/ 220.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 113334.
(3) أبو حَيّان، البحر المحيط: 8/ 380، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 15/ 393.

زيادة المسرّة وتأصّلها في النّفس والفؤاد، ولذلك كان التّقديم بين شبه الجملة وجملة الفعل وفاعله بعدها.

نُكتة حَذْف ما يُحْبَر به أهْلُ الجَنَّة في السّياق:

كَثْرَة مَسرّات أهل الجَنَّة، دليل على كثرة الألطاف

وحَذْف ما يُحْبَرُ به أَهْلُ الجنَّة، في قوله: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، أي يُسَرّون، بِعدم ذِكْر ما يُسَرّون بِه؛ إيذانًا بِكَثْرَةِ المَسارِّ وتَنَوُّعها وتَعَدُّدها، بِما لا يَخْطر لَهم على بالٍ[1]؛ فإنَّ كَثْرَة مَسرّات أهل الجَنَّة، دليل على كثرة الألطاف.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُبور والسُّرور:

الحبور يطلق على النّعمة الحسنة، والسّرور انبساط لتحصيل المرغوب

السُّرور: انبساط القلب، لِنَيْل محبوب أو توقّعه، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: 7 - 9] وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان: 11]، والحُبور: هو النِّعْمَة الحَسَنة مِن قولك: حَبَّرْتُ الثَّوْب إذا حَسَّنْتَه، والسُّرور الّذي يَظْهَر في الوَجْه أثَره، فهو أَشَدُّ السُّرور، ولذا خاطب سبحانه أَهْلَ الجنَّة بقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾ [الزُّخرف: 70][2]، وعليه فالَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ، في كمال الفرح، وتمام السّرور، لما حباهم اللّه تعالى من تمكّن في رَوْضَةٍ ذات أزهار رائعة، وأنوار ساطعة، وأنهار ذات أمواج متدافعة، تُدهِش الأنفس، وتأخذ بالأبصار، وهم لا يفتؤون، يتنزّهون في أرجائها، ويسعدون في جنباتها، ويتمتّعون بما فيها، ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 26.
(2) أبو هلال العَسْكري، مُعْجم الفروق اللُّغَويّة، ص: 152.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾ [الرّوم: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان مصير فريق الكافرين يوم الدّين

لمّا ذكر سابقًا قيامَ السّاعة، وذكر تفرّق النّاس يومئذ إلى فريقين: مؤمنين وكافرين، وبدأ بذكر حال الفريق الأوّل منَ المؤمنين ونعيمهم المقيم، جاءت هذه الآية بذكر الفريق الثّاني من الكافرين المكذّبين والجزاءِ المُعدِّ لهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِقَآيِٕ﴾: (لقي) أصل يدلُّ على تَوافي شيئَينِ[1]، فاللِّقاءُ: مُقابلة الشَّيء ومصادفته معًا، وقد يُعبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يُقالُ: لَقيَه يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقالُ ذلك في الإدراك بالحسِّ، وبالبَصر، وبالبصيرة[2]، ولَقيتُه لَقْوَةً، أي: مَرَّةً واحِدَةً ولِقاءَةً، واللُّقيةُ فُعْلَةٌ مِنَ اللِّقاءِ، والجَمعُ لُقًى[3]، والالتِقاءُ: المُحاذاةُ[4]، والتَّلَقّي: استقبالُ ما يُلْقَى[5]، والمُرادُ باللِّقاء في قوله تعالى: ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ البَعثُ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاءِ.

2) ﴿مُحۡضَرُونَ﴾: (حضر) أصل يدلُّ على إيرادِ الشَّيءِ، ووُرودِهُ ومُشاهدتِهِ[6]، والحُضورُ: نَقيضُ المَغيب والغَيْبةِ، وأحضَرَ الشَّيءَ، وأحضَرَه إيّاه[7] إحضارًا: جَعل الشَّيء حاضرًا، و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ في الآية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حضر).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).

يجوزُ أن يكونَ من الإحضارِ، أيْ: جَعْلِ الشَّيءِ حاضرًا، أي: لا يغيبونَ عنه، أي: لا يخرُجونَ منه، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى مأْتيّ بهم إلى العَذابِ، فقد كَثُرَ في القُرآنِ استعمالُ مُحْضَرٍ ونحوِهِ بمعنى مُعاقَبٍ[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّقيُّ التَّعِسُ يـوم القيامة مَن كفر وكذَّب بآيات الله وأنكر البعث

تُبَيِّن الآية الكريمةُ أنّ الَّذين جحدوا توحيد اللّه تعالى، وكذَّبوا رُسُلَه، وأنكروا البعث بعد الممات والنُّشور للدّار الآخرة، فأولئك يُؤتَى بهم إلى النّارِ، فيَبقَونَ فيها، لا يَغيبُ عنهم عذابُها[2]، كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بـ(الواو):

عَطفُ تعذيب الكافرين على تنعيم المؤمنين

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالَّةِ على الجمع والاقتران؛ لأنّ النّظم القرآنيّ ذكر في الآية السّابقة جزاءَ المؤمنين من النّعيم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الرّوم: 15]، ولذلك كان التّعبير بالواو؛ ليعطفَ عليه جزاء الكافرين، من باب تتميم التّقسيم، وتفصيلِ مصير كلّ فريق من النّاس يوم الدّين.

دلالة التّعبير بحرف (أمّا):

تفصيل الجزاء المُعدّ للكافرين بعد ذِكر جزاء المؤمنين

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بحرف (أمّا) الدّالِّ على التّفصيل؛ لأنّه فصَّل جزاءَ الكافرين من العذاب الأليم في هذه الآية بعد أن فُصِّل جزاءُ المؤمنين من النّعيم بقوله في الآية السّابقة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الرّوم: 15]، كما أنّ في حرف (أمّا) معنى الشّرط، ولذا يقترن جوابه بالفاء،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 332، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 14، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 491.

كما يفيد حرف (أمّا) توكيدَ الكلام وتقويته[1]، والمقصود هنا تأكيدُ سعادة المؤمنين وشقاوةَ الكافرين.

دلالة التّعبير بالموصول وصلته:

كفر الكافرين سبب استحقاقهمُ العذاب المهين

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلَتِه ﴿كَفَرُواْ﴾ دون الاسم الظّاهر (الكافرين)؛ للتّنبيه على علّة الحُكم، وللإيماء إلى وجهِ استحقاقهم النّارَ، فكُفرُ الكافرين بربّ العالمين وبرسوله الكريم، وتكذيبهم بالآيات الباهرة وبلقاء الآخرة، هو سبب خلودهم في العذاب المهين.

سبب إيراد الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جمعًا:

كثرة المخالفين للهدى من الكفّار والمكذّبين

جاء الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جمعًا في قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدّلالة على كثرة الكفّار والمكذِّبين[2]، الّذين صَدّقَ عليهم إبليسُ ظنَّه، فقد أقسم الملعون بأنّه سيغوي ما استطاع من بني آدم، كما ورد في الآية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39 - 40]، وكثرةُ الكافرين في الأرض واقعٌ دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116].

دلالة التّعبير بالكفر دون الشِّرك:

الكُفْرُ أعمُّ مِنَ الشِّرْكِ

أوثرَ التّعبيرُ بوصف الكفر دون الشّرك في قوله تَعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لقصد العموم، فالكفر له خصالٌ كثيرة، وكلُّ خصلة منها تُضادّ خصلةً منَ الإيمان؛ لأنّ العبد إذا فعل خَصْلة من الكفر، فقد ضيّع خصلة من الإيمان، وأمّا الشّركُ فهو خصلة واحدة، وهو إشراك آلهة مع اللّه أو دون اللّه، كالأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم باللّه تعالى، ككفار قريش، واشتقاقه ينبئ عن هذا

(1) بهاء الدّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 130.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 242.

المعنى، فلفظُ الشِّرْك مأخوذ منَ الشّريك، فمن لم يجعل للّه شريكًا فليس مشركًا[1]، وبذلك يكون الكفر أعمَّ منَ الشِّرك[2]، كما أنّ سياق الآيات في ذكر انقسام جزاء النّاس يومَ القيامة إلى جزاء مؤمنين وجزاء كافرين، فناسبَ إيرادَ لفظِ الكفر؛ لأنّه نقيض الإيمان المذكور في الآية السّابقة، في حين أنّ الشّرك نقيضُ التّوحيد[3].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

تحقّقُ كفرِ الكافرين ورسوخِهم فيه

جاء التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقّق كُفْرِ الكافرين في دار الدّنيا، ورسوخِ هذا الوصف فيهم؛ وذلك لأنّ الإِخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي تحقّق الخبر، ويقتضي كَوْنَ المخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا عَلى ذَلِكَ الإِخْبارِ[4].

نُكْتَة حذفِ مُتعلّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

بلاغة الإيجاز، لظهور كفرهم بالله

لم يذكرِ السّياقُ القرآنيُّ المتعلّقَ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلم يقل: كفروا بالله، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: 52]؛ لأنّ ذلك معلوم، والغالبَ المستفيض من استعمال لفظِ الكفر في القرآن أنّ معناه الكفرُ بالله، ومنَ المُقرّر: أنّه متى كان الفعل نَصًّا في مطلوبه، لا يُذْكَرُ المتَعَلِّقُ به[5] إلّا لغرضٍ بلاغيٍّ آخر مقصود.

نُكْتَةُ عدمِ ذِكر العمل مع الكفر:

الكفر وحده موجبٌ للهويّ في النّار

لم يُذكرِ العملُ السّيِّئُ مع الكفر في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، رغمَ ذِكْرِ العمل الصّالح مع الإيمان في

(1) ابن حزم، الفصل: 3/ 264.
(2) النّوويّ، شرح مسلم: 1/ 62.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 230.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7904.

الآية السّابقة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الرّوم: 15]، وذلك أنّ العمل الصّالح معتبَرٌ مع الإيمان، وسببٌ لرفع درجات صاحبه في الجنّات، وأمّا عدم ذكر العمل السيِّء مع الكفر والتَّكذيب بالآيات فلأنّ الكفر وحده سببٌ لاستحقاقه الخلود في النار، وكلّما ازداد في شدّة الكفر والتكذيب، ازداد انغماسه في دركات النّار التي أعدّها اللّه تعالى لأصناف الكافرين[1].

دلالة العطف في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾:

جمع صفات الكافرين الموجبة لعذابهم المهين

عُطِف التّكذيب على الكفر في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بحرف الواو الدّالَّةِ على الجمع والاقتران، فضُمَّ إلى صفة كفرهم وجحودهم صِفةٌ أخرى، وهي صفة التّكذيب بآيات اللّه القرآنيّة، الّتي مِن جملتها هذه الآياتُ؛ زيادةً في تقبيح حال الكافرين[2]، وللإشارة إلى أنَّ هؤلاء الكفّار لم يُنكروا الآيات بقلوبهم فقط، بل كَذَّبوها بألسنتهم أيضًا، وبذلك يكونوا جمعوا بين الأمرَين، وفي هذا غاية التّشنيع عليهم، وهو من باب عَطْفِ الخاصِّ بعد العامِّ، إذِ التّكذيبُ بالآيات كُفْرٌ[3]، وبلاغتُه: التّنبيهُ على معنًى في الخاصّ، حتّى كأنّه لخطورته جزءٌ آخَرُ مغايرٌ لِما قبله، فصرّح النّظمُ بالتّكذيب بآيات اللّه مع اندراجه في الكفر؛ للاعتناء بأمره والتّأكيد على قُبحه، إذِ التّكذيبُ بالآيات لازِمُه تكذيبُ الرّسلِ عليهم السلام ومُرسِلِهم سبحانه وتعالى.

دلالة التّعبير بالتّكذيب مادّةً وصيغةً:

تكذيب آيات الله موجِبٌ للعذاب المهين

عُبّر بلفظ التّكذيب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لأنّ التّكذيب معناه نسبةُ الآيات إلى الكذب، أي: الإخبار عن الشّيء بخلاف ما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 85.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 22/ 94.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/ 79.

هو عليه، ولأنَّ التّكذيب يدلّ على التّصميم والقطع بأنّ الخَبَرَ كَذِبٌ، ونقيضُه التّصديق، ولا تُطلق صفةُ المُكذِّب إلّا لَمَن كذّب بالحقّ لأنّها صفة ذمّ[1]، ويؤكِّد ذلك مجيءُ هذا الفعل ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بصيغة الماضي، الذي يدلّ على تحقّق صفة التّكذيب في المذمومين به، وهو على وزن (تفعيل)، الّذي يَرِدُ للدّلالة على نسبة الشّيء، ويدلّ على المبالغة في النّسبة إلى الكذب.

دلالة التّعبير بـ(الباء) في ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

تعدية الفعل الّلازم بحرف الجرّ

تدلُّ الباء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ على التّعدية؛ وذلك لأنّ الفعل (كذب) إذا صار مضعّفًا فإنّه يتعدّى إلى مفعوله بحرف الجرّ، والمقصود: أنّ كفر الكافرين تعدّى إلى التّكذيب بآيات اللّه الباهرة وبلقاء الآخرة، وفي التّعبير بالباء إشارةٌ إلى المبالغة في تأكيد التّكذيب، كأنّ كذبَهم ملاصِقٌ بالآيات.

دلالة التّعبير بالآيات:

آياتُ الله تعالى هي أدلّتُه على ألوهيّته وصِدق رُسله

ورد لفظُ الآيات في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وهو جمع آية، لأنّ جذرها يدلّ على بقاء الشّيء في مكانه شاخصًا علامةً لشيء، وفيه معنى الكثرة والجسامة أيضًا[2]، ومنه قولهم: خرج القوم بآياتهم، أي: جماعتِهم، والآية تُطلق على كلّ شيء ظاهرٍ ملازمٍ لشيءٍ باطن يُعْرَف به، حِسّيًّا كان أو عقليًّا[3].

ومِمّا يُذكَرُ في سِرِّ التعبير بها: أنّ آيات اللّه تعالى هي حُجَجُه وأدلَّتُه على ربوبيّته وألوهيّته، وما جاءت به رسلُه من شواهدَ على صدق ذلك[4].

وجاءت الآياتُ مجموعةً؛ للدّلالة على كثرتها ووفرتها وتنوُّعها،

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 45.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 101، ورضا، تفسير المنار: 1/ 238.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 552.

فهي علاماتٌ ودلائلُ على وجود اللّه سبحانه واستحقاقِه العبادةَ؛ وتَشَخُّصُها في الآيات الكونيَّة ظاهرٌ، وأمّا في الآيات الشّرعيّة ففيها معنى الهداية الظّاهرة والباطنة على حدٍّ سواء، فهي لظهورها ووضوحها كالشّيء المتشخِّص الّذي لا يخفى على ناظره.

نُكْتَةُ إضافة الآيات إلى ضمير العظَمة:

كمال قبح التّكذيب بآيات الله تعالى

إضافة الآيات إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يُراد به تعظيمُ المضاف، وهو الآيات؛ لزيادة المهابة وإدخالِ الرّوعة في نفوس المتلقّين، وفي تعظيم الآيات على النّحو المتقدّم إظهارٌ لكمال قبح التّكذيب بها(1).

بلاغة العطف بالواو في ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

التّكذيب بالآيات العاجلة والآجلة

جاء عطف التّكذيب بلقاء الآخرة على التّكذيب بآيات اللّه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بحرف الواو الدّالّة على الجمع والاقتران، فضُمَّ إلى صفة التّكذيب بآيات اللّه تكذيبُهم بالبعث والنّشور الواقع يوم القيامة؛ إمعانًا منهم في الكفر، واستحقاقًا للعذاب، ويرجع التّكذيب بالجزاء على الأفعال إلى التّكذيب بالدّين جملةً واحدةً.

سرُّ التّعبير باللّقاء دون غيره:

تنكيل الكفّار بعين ما كانوا يُنكرونه

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبير باللّقاء دونَ غيره في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنّ اللّقاء يُطلَق على مقابلة الشّيء، وعلى إدراكه بالبصر والبصيرة، وهذا هو المناسب لإنكار الكفّار البعثَ بقولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السّجدة: 10]، فلمّا وجدوا ما كانوا يُنكِرونه وكأنّه استقبلهم لإعلامهم بما كانوا يُنكِرونه من البعث عُبِّر عنه باللّقاء.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 93.

نُكْتَةُ إضافةِ ﴿وَلِقَآيِٕ﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

لقاء العباد لجزاء أعمالهم يومَ القيامة

أُضيف لفظُ ﴿وَلِقَآيِٕ﴾ إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لكون يوم القيامة هو اليوم الموعود الذي يُلاقي فيه العِبادُ الحسابَ والجزاءَ على أعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، فتكذيبُ الكفّار بهذا اللّقاء سببُ إسرافِهم على أنفسهم بالذّنوب والمحرّمات.

دلالة التّعبير عن القيامة بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الآخرة آخرُ المنازل

عُبّر بلفظ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عن القيامة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لبيان ملحظ وقوعها متأخّرًا، أي: كمرحلة أخيرة، لأنّ أصْلَها نَقيضُ التّقدُّم[1]، كما يُطْلَق الآخِرُ على الأبعَدِ والغائبِ[2]، والآخرةُ: نقيض الدُّنيا، فسُمّيت الدّنيا لأنّها دَنَتْ، أي: قَرُبَتْ، وسُمّيتِ الآخرةُ لِتَأَخُّرها، فهي إذًا آخِر المنازل، دارُ جزاءٍ بلا عمل، لا انتقال عنها إلى دار أخرى[3]، وأمّا انتقال الخَلْق إلى الجنّة أو إلى النّار فإنّ ذلك من أحوال الآخرة.

نُكْتَة تعريف ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الآخرة اسمٌ من أسماء يوم القيامة

ورد لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لدلالتها على تعريف العهد الذّهنيّ، فقد شاع في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة وعند المسلمين إطلاقُ هذا اللّفظ على اليوم الآخر، الذي هو يوم القيامة، فهو اسم من أسمائها الكثيرة.

بلاغة التّرتيب في الآية:

الكفر بربّ العالَمين سببٌ لارتكاب الكبائر في الدّين

تظهر بلاغة التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في ذكر الكفر أوّلًا، ثُمّ ذِكْرُ التّكذيب بآيات اللّه ثانيًا، ثُمَّ ذِكْرُ التّكذيب بلقاء الآخِرة ثالثًا، فبدأ بالكفر لأنّ معناه التّغطيةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(2) الخليل، العين: (أخر).
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 370.

والجُحود، فإذا تغطّت العقولُ عن إدراك الحقّ وجَحدت الخالقَ، نَتَجَ عن ذلك تكذيبُ أصحابِها بآيات الخالِق الشّرعيّة والكونيّة، وبالتّالي التّكذيبُ بما اشتملت عليه هذه الآياتُ من وجود الآخرة وما فيها من البعث والنّشور والجزاء، فالكفرُ بابٌ لِكُلِّ أنواع المعاصي.

دلالةُ التّعبير بـ(الفاء) في ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

ربطُ الإحضار للعذاب بالكفر والتّكذيب

جاء التّعبير بالفاء لعطف قولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ على ما قبلَه، وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ ربطًا للجزاء بالشّرط، ودلالةً على أنّه سببُه، ففي حرف (أمّا) معنى الشَّرطِ، ولذا يَقْتَرِنُ جوابُه بالفاء، والغَرَضُ البلاغيّ منه إنّما هو تعليقُ مضمونِ الجواب على حصول مضمون الشّرط، فيَحْصُل الثّاني بحصول الأوّل، والمقصود: أنّ جزاء الكفر والتّكذيب بآيات اللّه ولقاء الآخرة هو الإحضارُ للعذاب.

دلالة التّعبير باسم الإشارة للبعيد (أولئك):

شناعة ما اتّصفوا به مِنَ الكفر وتلبّسوا به من التّكذيب

في الإشارة إلى الكافرين والمكذِّبين بـ(أولئك) تنبيهٌ على شناعة ما اتّصفوا به وتلبّسوا به، بحيثُ تميّزوا عمّن عداهم أكملَ تمييز، ووقع اسمُ الإشارة هاهنا للبعيد إشعارًا إلى بُعد مكانتِهم في السّوء والشَّرّ، وللتّنبيه أيضًا إلى أنّهم أحرياء بتلك العقوبة؛ لأجل ما ذُكِر قبلَ اسم الإشارة[1] من الكفر والتّكذيب في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

دلالةُ التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾:

إحاطةُ العذابِ بالكافرين إحاطةَ الظَّرْفِ بالمظْروفِ

دلّ التّعبيرُ بالظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ على أنَّ مثوى الكافرين المُكَذِّبين هو وسطُ جهنّم، والعياذُ باللّه، كما أنّ التَّعبير بـ﴿فِي﴾ مُشْعِرٌ أيضًا بإحاطة العذابِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64.

بهم من كلّ جانبٍ، إحاطةَ الظَّرْفِ بالمَظْروفِ، لا يَخْرُجون منه بحالٍ منَ الأحْوالِ.

دلالة تعريف العذاب:

إطلاقُ لفظ العذاب على نار جهنّم معهودٌ في الشّرع

جاء لفظ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل) الدّالَّةِ على تعريف العهد، أي: في عذاب الآخرة الّذي جعله اللهُ جزاءَ الكفر والكبائر[1]، فإنّ عذاب كفرهم لـمّا كان معلومًا بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود، وقد تكرّر لفظُ العذاب في كثير من الآيات، وصار معهودًا عند المسلمين أنّ العذاب المقصود في لسان الشّرع هو عذابُ نار جهنّم، والعياذُ بالله، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزّمر: 19].

دلالة التّعبير بلفظ: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾:

دلالـة لفظ الإحضار على عذاب النّار

ورد التّعبيرُ بلفظ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ لِتَعَدُّدِ المُرادِ به، فيجوزُ أن يكون من الإحضار، أي: جَعْلُ الشّيء حاضرًا، أي: لا يغيبون عنه ولا يخرجون منه، ويجوز أن يكون ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنى: مَأْتيٌّ بهم إلى العذاب، فقد كثُر في القرآن استعمال مُحضَرٍ ونحوِه بمعنى مُعاقَب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨﴾ [الصّافات: 158][2]، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم يُساقون إلى العذاب سوقًا، ويُدفعون إليه دفعًا.

بلاغة الكناية في الآية:

جهنّمُ سجنُ اللهِ تعالى للكفّار

استنبط العلماءُ من قَوْله تَعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ تأبيدَ الكفّارِ في جهنّم بطريق الكناية؛ وذلك أنّه لمّا ذكر ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، ناسبَ أن لا يكونَ المقصودُ من وصف الإحضار أنّهم كائنون في العذاب؛ لدلالة ﴿فِي﴾ الظّرفيّة على ذلك،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64.

ولأنّ التّأسيس أوقع من التّأكيد، كما أنّ الإحضار: إنّما يكون على إكراه، فيُجاء بالكافر على كراهة، ففيه إشارةٌ إلى أنّ جهنّم سجنُ اللّهِ تعالى، فكما أنّ المجرم في الدّنيا يُساق إلى السّجن وهو كارهٌ له، فكذا المجرمُ في الآخرة يساق ويُجَرّ إلى النّار بالسّلاسل والأغلال، فيذوق وبالَ كفرِه وتكذيبه(1).

بلاغة اختلاف الأسلوب بينَ الاسميّة والفِعليّة:

تَجدُّدُ حبورِ المؤمنين، وثبوتُ العذاب للكافرين الخالدين

النّاظر فى نظم القرآن الكريم يجد اختلافَ الأسلوب بين الاسميّة والفعليّة؛ فقد آثرَ في الحديث عن الكفّار صيغةَ اسمِ المفعول ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾، بخلاف الحديث عن المؤمنين فإنّه آثرَ الفعلَ المضارع ﴿يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الروم: 15] في ذكر جزاء المؤمنين، بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الرّوم: 15]، والنّكتة في ذلك: أنّ الفعل يُنبِئ عنِ التّجدُّد، والاسمُ لا يدلّ عليه، فالمؤمنون يُحبرون، أي: يأتيهم كلَّ ساعةٍ أمرٌ يُسَرّون به، وأمّا الكفّار فقد قال فيهم: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بصيغة الاسم، ولم يقل: (يُحضرون)؛ لإرادة الثّبوت والدّوام، فهم إذا دخلوا العذابَ يَبْقَون فيه مُحضَرين، فهو وصفٌ لازِمٌ لهم(2).

بلاغة المقابلة بين مصير المؤمنين والكافرين:

المؤمنون في ثوابٍ وحُبورٍ، والكفّار في عذابٍ وثُبورٍ

يتجلّى بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الرّوم: 15]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ مقابلةُ مصير فريقين من النّاس، فريقُ المؤمنين وفريقُ الكافرين، فكلّ طائفةٍ تنفرد عنِ الأُخرى، فهؤلاء يُحضَرونَ العذابَ في الوقت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 94.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 85، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 380.

الذي يُحبَر فيه المؤمنون في روضات الجِنان، فيكونون في عذابٍ وويلٍ وثُبورٍ، كما يكون المؤمنون على ثوابٍ وسماعٍ وحُبورٍ، وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبدًا، قال الحسن: "لئن كانوا اجتمعوا في الدُّنيا، ليتفرَّقُنّ يومَ القيامة، هؤلاء في أعلى عِلّيّين، وهؤلاء في أسفل السّافلين"[1].

دلالةُ تقديم جزاءِ المؤمنين على عقاب الكافرين:

تقديمُ الفائز في الجزاء، نكايةً للخاسر وزيادةً في إيلامه

ورد في هذه المقابلة تقديمُ جزاءِ المؤمنين على عقابِ الكافرين؛ وذلك لزيادة النّكاية في الكافرين، لأنّ المؤمن يوصَلُ إليه الثّوابُ قبلَ أن يوصَلَ إلى الكافر العقابُ، حتّى يرى ويتحقّق أنّ المؤمن وصلَ إلى الثّواب، فيكون أنكى، ولو أُدخِل الكافرُ النّار أوَّلًا لظَنَّ أنّ الكلّ في العذاب مشتركون، فقُدِّمَ ذلك زيادةً في إيلامه[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّكذيب والجحود:

عمومُ التّكذيب في عدم التّصديق، وخصوصُ الجحود بمعرفة القلب للحقّ

يرِد كُلٌّ مِن (التّكذيب) و(الجحود) في صفات الكفّار، ويفترقان من ثلاثة أوجُه[3]: **الأوّل:** أنّ ضدّ التّكذيب هو التّصديق، وضدّ الجحود هو الاعتراف، **الثّاني**: حقيقة الجحودِ نفيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُه، فالجُحود يكون مع معرفة القلب بصحّة ما يجحده، ولكنّ الجاحد لا يُقِرُّ بلسانه، وممّا يدلّ على أنّ الجُحود إنكارٌ مع علم قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النّمل: 14]، وأمّا التّكذيبُ فهو أعمّ منَ الجُحود، والغالب أن يكون بسبب جهل صاحبه بصدق ما نسبه إلى الكذب، الثّالث: أنّ الجُحود يكون في إنكار الأمر الظّاهر لسبق المعرفة به،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 26.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 85، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 94.
(3) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 219.

ولذا يستعمل في القرآن الكريم خصوصًا في سياق جحود آيات اللّه سبحانه؛ إشعارًا بأنّ آياته سبحانه منَ الوضوح والظّهور بحيثُ يعلَمُ كلُّ واحدٍ صِدقَها، وأمّا التّكذيب فهو عامٌّ في كلّ إنكار، لذلك آثرَ النّظمُ لَفظ (التّكذيب) لعمومه.

اللّقاء والاجتماع:

اللّقاء اجتماعٌ بَـعـدَ غَـيـبَـةٍ وانقطاعٍ

يظهر الفرقُ بين اللّفظَين في المعنى الدّلاليّ لِكُلِّ لَفْظٍ منهما، فالاجتماع يُستعمل في مُطْلَقِ ضمّ الشّيء بتقريب بعضِه من بعض، يقال: جَمَعْتُهُ فاجْتَمَعَ، في حين لا يُطلق اللّقاء إلّا على توافي شَيئَين متقابلين، ومصادفة الواحد للآخر بعد غيبةٍ وانقطاع، ولذا يَرِد في القرآن كثيرًا للدّلالة على يوم القيامة والمصير إليه، ولهذا سُمّي بـ(يوم التلاق)؛ لِمَصير الخلق إلى ربّهم بعد غيبةٍ في هذه الدّنيا، فيجزيهم على ما فعَلوا في مدّة المغيب، فلقاءُ اللّهِ هو نهاية كلِّ حَيٍّ، وعندها سيندم المكذِّبُ بهذا اللّقاء، حين لا ينفعه النّدم[1]، فكان بذلك هذا اللّفظ أنسبَ لسياق الآية في ذِكر الآخرة.

(1) الرّاغب، المفردات: (لقي).

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ [الرّوم: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تسبيح الله وتحميده وسيلتان للنّجاة من العذاب وحلولِ دار الثّواب

لـمّا بيّن اللّهُ تعالى فيما سبَقَ أنّه يبدأ الخلق ويعيده، وأنّ الخلق يكونون فريقين؛ فريق في الجنّة، وهم المؤمنون العاملون بالصّالحات، وفريقٌ في السّعير، وهم الكافرون المكذّبون بالآيات، ذَكَرَ هنا ما يوصل للنّعيم ويُبعد عن الجحيم؛ إشارةً إلى أنّ تسبيح اللّهِ ﷻ وتحميدَه وسيلتان للنّجاة من العذاب، وحلولِ دار الثّواب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾: (سبح) أصلٌ يدُلُّ على جِنْسٍ من العِبادةِ[2]، وأصلُه: المرُّ السّريع في عبادة اللّه تعالى، وجُعل ذلك في فعل الخير، كما جُعل الإبعادُ في الشّرّ، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، وجُعل عامًّا في العبادات، قولًا كان أو فعلًا أو نيَّةً، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبحانًا، أيْ: نَزَّهْتُهُ وبَرَّأْتُهُ من كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[3]، ويأْتي بِمعنى قَوْلِ: سُبْحانَ اللّهِ، فيُقالُ: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أي قال: سُبحانَ اللّهِ، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعبادةِ[4]، والمقصودُ من قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: إنشاءُ تنزيهِ اللّهِ تعالى عمّا نَسبوهُ إليه، منَ العَجْزِ عن إحياءِ النّاسِ بعد موتهم وإنشاء ثناءٍ عليه تعالى[5].

---

(1) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 3/ 203.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح)، والخطّابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 96.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 65.

2) ﴿تُمْسُونَ﴾: (مسي) أصلٌ يدلُّ على زَمانٍ من الأزمنةِ، وهو خِلافُ الصّباحِ[1]، والمُسِّيُ من المَساء، كالصُّبح من الصَّباح، والمُمْسي كالمُصْبح، والمساء بعد الظُّهر إلى صلاةِ المَغرب، وقالَ بعضُهم: إلى نصفِ اللَّيل، وقَول النّاس: كَيفَ أَمْسيْت، أي: كَيفَ أَنْتَ في وقت المساء، ومَسَّيْتُ فُلانًا، قلتُ لَهُ: كيفَ أمسيتَ، وأمسينا نَحنُ: صِرنا في وقتِ المساء[2]، والمقصودُ من قوله تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: أَمْرُه لعباده بأن يُسبّحوه وقتَ المساء، أي: في النّصف الثّاني من النّهار.

3) ﴿تُصْبِحُونَ﴾: (صبح) لَوْنٌ من الألوانِ أصلُه الحُمْرةُ، وسُمّيَ الصُّبْحُ صُبْحًا لحُمرتِه، كما سُمّيَ المِصباحُ مِصباحًا لحُمْرته[3]، والصُّبْحُ: أَوَّلُ النَّهارِ، يُقال: صَبَّحْتُ الرَّجُلَ: إذا أتيتَهُ أَوَّلَ النَّهارِ، وأصبَحَ القَومُ: إذا دخلوا في الصَّباحِ[4]، والصَّباحُ: نورُ النَّهارِ[5]، ويُطلَق عليه: الفَجْرُ، والغَداةُ، وضِدُّه: المَساءُ، وجَمعُه: أَصْباحٌ[6]، والمقصودُ من قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: أَمْرُه لعباده بأن يُسبّحوه وقتَ الصّباحِ، أي: في أوَّل وقت النَّهار.

4) ﴿وَعَشِيًّا﴾: (عشو) أصلٌ يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيءِ[7]، والعِشاءُ: أوّلُ ظلام اللّيلِ، والعَشيُّ: من زوال الشّمس إلى الصّباح، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۝٤٦﴾ [النّازعات: 46]، والعِشاءُ: من صلاة المغرب إلى العتمة، والعِشاءانِ: المغرب والعتمة[8]، وقال الأزهريُّ: ويَقَع العِشيُّ على ما بين زَوال الشَّمس إلى وقت غُروبها، كلّ ذلك عِشيّ، فإذا غابَتِ الشَّمسُ فهو العِشاء[9]، وعليه فالمراد بالعشيّ في الآية: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صلاةَ العصرِ.

5) ﴿تُظْهِرُونَ﴾: (ظهر) أصلٌ يدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، مِن ذلكَ: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظهرُ ظُهورًا، فهو ظاهرٌ، إذا انكشفَ وبرزَ؛ ولذلكَ سُمّيَ وقتُ الظُّهرِ والظَّهيرةِ، وهو أظهرُ أوقاتِ النَّهارِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسا، مسي).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مسي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صبح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عشي).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عشو، عشا، عشي).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عشا).

وأضوؤُها، والأصلُ فيه كُلِّه: ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بطنِه، وهو يجمعُ البُروزَ والقوَّةَ[1]، والظُّهْرُ: ساعَة الزَّوال؛ ولذلك قيل: صَلاة الظُّهْرِ، وقد يحذفون على السَّعَة فيقولونَ: هذه الظُّهْرُ، يُريدونَ صَلاةَ الظُّهْرِ، والظَّهيرَةُ: حدُّ انتصافِ النَّهار، وقيل: إنَّما ذلك في القَيظ، وقيل: الظُّهرُ مُشْتَقٌّ منها، يُقالُ: أتاني مُظَهِّرًا ومُظْهِرًا، أي: في الظَّهيرَة، وأظهَرَ القَوْمُ: دخلوا في الظَّهيرَة[2]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿تُظۡهِرُونَ﴾: تَدخُلونَ في وقتِ الظَّهيرة.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللّهُ سبحانَه أنواعًا متعدِّدةً من الأدلَّةِ والبراهينِ على وحدانيَّته؛ لبيان أنّ اللّه تعالى تَنَزَّهَ عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنَزِّهوه - أيُّها النّاسُ - حينَ حُلولِ المساءِ، وحينَ حُلولِ الصَّباحِ، وهو وحدَه المُستَحِقُّ وصْفَه بصِفاتِ الكَمالِ مع محبَّتِه وتعظيمِه، في السَّمواتِ والأرضِ، ونزِّهوه وقتَ العَشيِّ، ووَقْتَ الإظهارِ، وفي الآيةِ دلالةٌ على أوقاتِ الصَّلوات الخمسِ، فقوله: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ صلاةُ المغربِ والعِشاءِ، ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ صلاةُ الفجرِ، ﴿وَعَشِيّٗا﴾ صلاةُ العصرِ، ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ صلاةُ الظّهر[3].

الحمد الكامل لا يكون إلّا لله

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التّعبير بـ(الفاء) في ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ دون غيرها؛ لِتَعَدُّدِ معانيها، فتحتمل هذه الفاءُ الإفصاحَ أو التّفريعَ، فعلى كونها فاءَ الفصيحة، أي: أفصحت عن جواب شرطٍ مُقَدَّرٍ، فيكون المعنى: إذا علِمتم أيّها العقلاء المميِّزون أنَّ الثّواب والنّعيم

ترتيب تسبيح ربّ العالَمين على معرفة مصير المؤمنين والكافرين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 476، والواحديّ، تفسير البسيط: 18/ 30، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/ 95، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 638.

للمؤمنين العاملين، والعذابَ والجحيمَ للكافرين المُكذِّبين، فسبّحوا اللّه، وعلى كونها فاءَ التّفريعِ، وهي الّتي تُفيد أنّ الكلام بعدَها مُتَرَتِّبٌ على الكلام الّذي قبلَها، فكأنَّه قيل: إذا صحَّ واتَّضح عاقبةُ المُطيعين والعاصين، فقولوا: (نسبِّحُ سبحان)[1].

دلالة التّعبير بـ(سبحان):

التّنزيهُ المُطلَق لله سبحانه

ورَدَ لَفْظُ (سُبْحانَ) في قَوْله تعالى: ﴿فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالَةِ عَلى تسبيحِ اللّه ذي العَظمَةِ المطْلَقةِ، و(سُبحانَ) اسْمُ التَّسبيحِ، وهو اسم مَصدَرِ (سَبَّحَ) المضاعَفِ وليس مَصدَرًا، لِأنَّهُ لم يَجِئْ على أبْنيَةِ مَصادِرِ الرُّباعيّ، وقيل: هو مَصدَرُ (سَبَحَ) مُخَفَّفًا بمَعْنى نَزَّهَ، فيَكونُ كالغُفْران والشُّكْران والكُفْران، مِنْ غَفَرَ وشَكَرَ وكَفَرَ، وقد كَثُرَ استعمالُه مَنْصوبًا على المفعوليَّةِ المطلَقَةِ بإضمارِ فِعْلِه، كـ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 23]، وهوَ مصدَرٌ مَنصوبٌ على أنَّهُ بَدَلٌ من فِعْلِه، وأصلُ الكَلامِ: أُسَبِّحُ اللّه سُبْحانًا، فلَمّا عوِّضَ عَنْ فِعلِه صارَ (سُبْحانَ اللّه) بإضافَتِهِ إلى مفعولِه الأصْليّ، وهو مَمنوعٌ مِنَ الصَّرفِ لِلعَلَميَّةِ وزيادَةِ الألِفِ والنّونِ، قالَ سيبَوَيْهِ: "وَأمّا تَرْكُ تَنْوينِ (سُبحانَ) فلِأنَّهُ صارَ عِنْدَهم مَعْرِفةً"[2].

بلاغة التّعبير بالخبر عن الأمر:

وجوب المسارعة إلى الامتثال، بإخراج الأمر في صورة الخبر

جاء الخبرُ في قَوْله تعالى: ﴿فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ مُرادًا به الأمرُ، والنُّكتة البلاغيَّة في إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيدُ الأمر، والإشعارُ بأنّه مِمّا يجب أن يُتَلَقّى بالمسارعة إلى امتثاله حتّى كأنّه امتُثِل، فهو يخبر عنه موجودًا، ونحوُه قولهم في الدّعاء: (رحمكَ اللّه)، حيثُ أُخرج في صورة الخبر ثقةً بالاستجابة، كأنّما وُجدت الرّحمة فهو يُخبر عنها، ومِمَّن أشاد بهذه النُّكْتَةِ ابنُ القيّم بقوله:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 95، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 08/ 08.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 414.

"قد جاءت أشياء بلفظ الخبر وهي في معنى الأمر والنّهي، منها قولُ عمرَ: «صلّى رجل في كذا وكذا»[1] - مِن اللِّباس - وقولُهم: (أنجز حرٌّ ما وعد)[2]، وقولهم: (اتقى اللّهَ امرؤٌ) وهو كثيرٌ، فجاء بلفظ الخبر الحاصل تحقيقًا لثبوته، وأنّه ممّا ينبغي أن يكون واقعًا ولا بدّ، فلا يُطلب من المخاطَب إيجادُه، بل يُخبَر عنه به؛ ليُحَقِّقَهُ خبرًا صِرْفًا، كالإخبار عن سائر الموجودات"[3]، وقد جَعَل ذلك بعضُ العلماء صورةً بيانيَّةً مِن نوع الاستعارة، بتشبيه النّسبة الإنشائيَّة بالنّسبة الإخباريَّة في الحصول والوقوع[4].

نُكْتَة إضافةِ المصدر إلى اسم الجلالة:

تعظيم توحيد الألوهيّة

أُضيف اسمُ المصدر (سبحان) في قَوْله تَعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلى الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾، الجامعِ لأسمائه الحسنى دونَ لفظ الرّبِّ؛ تعظيمًا لِحَقِّ الأُلوهيّة، وتقريرًا للقوّة الكاملة والعزّة القاهرة للّه سبحانه، فهو جديرٌ بكلِّ الصِّفات الفائقة المقتضية لتنزيهه عن كُلِّ نقصٍ[5]، لذلك كان التّعبيرُ باسمِ الجلالَةِ لإحضارِ المعنى الجامعِ لِصِفاتِ الكمالِ[6].

دلالةُ التّعبير بالتّسبيح عن الصّلاة:

الصّلاة تسبيح باللّسان والجَنان والأركان

أمرُ اللّهِ ﷻ بتسبيحه في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، إمّا أن يكون محمولًا على مُطلق التّنزيه، أي: نزِّهوه عن صفات النَّقص، وصِفوه بصفات الكمال، وإمّا أن يُحمل على الصّلاة خاصّةً، من باب إطلاق الجُزء وإرادة الكلِّ، إذِ التّسبيح جزءٌ من أجزاء الصّلاة، كقول المصلّي: (سبحان ربّي الأعلى، سبحان ربّي العظيم) وما

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (358)، ومسلم في صحيحه، برقم: (515).
(2) من قول الحارث بن عمرو الكندي، والعسكري، جمهرة الأمثال: 1/ 30.
(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 111.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 114.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

أشبهَ ذلك، ويدلّ على هذا المعنى ما رويَ أنّ نافعَ بنَ الأزرق سأل ابنَ عبّاس: «هل تجِدُ الصّلواتِ الخَمْسَ في القرآن؟ قال: نعم، وتلا قولَه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حينَ تُمسونَ وحينَ تُصبِحونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَحينَ تُظۡهِرونَ﴾»[1]، فنُسِجَت الآيةُ على نسجٍ صالحٍ لشموله الصّلوات الخمس وأوقاتها، وذلك من إعجاز القرآن[2]، ولا شكَّ أنّ القولَ الأوّلَ يتضمّنُ القولَ الثّانيَ وزيادة؛ وذلك لأنّ التّنزيهَ المأمور به يتناول التّنزيهَ بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم، وباللّسان مع ذلك، وهو الذِّكر الحَسَنُ، وبالأركان معهما جميعًا، وهو العمل الصّالح، والصّلاة أفضلُ أعمالِ الأركان، وهي مشتملة على الذِّكر باللِّسان والقصد بالجَنان، وهي نوع من أنواع التّنزيه[3].

دلالة تقييد التّسبيح بالأوقات:

لـزوم التّسبيح على الدّوام

جاء التّسبيح في قَوْله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ مُقَيَّدًا بالإصباح والإمساء، فعلى القول بأنّ التّسبيح المأمورَ به مُطلَقُ التّنزيه، يكون تخصيصُ التّسبيح في وقتَيِ المساءِ والصباح؛ لأنّ آثار القُدرة والعظَمة فيهما أظهر، فإخراجُ الظّلمات من النّور في المساء، وطلوعُ الشّمسِ في الصّباح من أعظم آيات اللّه الكونيّة، فناسبَ الأمرُ بالتّسبيح فيهما[4]، وقال بعضُهم في نُكْتَة التّخصيص بهذه الأوقات: أنّ الإنسان ما دام في الدّنيا لا يمكنه أن يصرف جميعَ أوقاته إلى التّسبيح؛ لكونه محتاجًا إلى أكلٍ وشُربٍ وتحصيل مأكولٍ ومشروبٍ وملبوسٍ ومركوبٍ، فأشار اللّه تعالى إلى أوقاتٍ إذا أتى العبد بتسبيح اللّه فيها يكون كأنّه لم يَفْتُر، فيتشبّه بالملائكة المُلازمين للتّسبيح على الدّوام كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 20][5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 66.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 86.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 115.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 86.

دلالة التّعبير بالمضارع:

تجدُّد التّسبيح ودوامُه في كلّ يوم

جاءت الأفعال ﴿تُمۡسُونَ﴾، و﴿تُصۡبِحُونَ﴾، و﴿تُظۡهِرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على الدّوام واللّزوم، فإنّ هذه الأوقات تتجدّد في كلّ يوم، وتتجدّد فيها نِعَمُ اللّهِ سبحانه على العبد، ممّا يستوجب عليه تجديدَ الثّناء والحمد والتّسبيح والصّلاة لربّه في كلّ يوم.

نُكْتَةُ تكرارِ الظّرف ﴿حِينَ﴾:

التّأكيد على أهمّيّة الوقت في حياة العبد

تكرّر الظّرفُ ﴿حِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾، والنّكتة في ذلك التّأكيدُ على أهمّيّة الوقت في حياة العبد، وضرورةِ استغلال كلِّ زمنٍ من أزمان يومِه في تسبيح مولاه ﷻ، المُنعِم عليه في كلّ حين، كما أنّ في تكرار الظّرف ﴿حِينَ﴾ دفعًا لتوهّم جمعِ الإمساء والإصباح في تسبيحٍ واحدٍ، فجاءت الدّلالة على تغايرهما، وأنّ لكلّ وقتٍ تسبيحًا يخُصُّه.

دلالةُ تقديم الإمساء على الإصباح:

اللّيل سابِقُ النّهار شرعًا ولغةً

تقدّم الإمساءُ على الإصباح في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾؛ لأنّ اللّيل سابقُ النّهار شرعًا ولغةً، ولأنّ الاستعمال العربيَّ يعتبر اللّياليَ مبدأ عددِ الأيّام، قال تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 18].

وممّا يُذكَر في سرِّ تقديم الإمساء على الإصباح: أنّه تقدّم في سياق الآيات ذِكْرُ الحشر والإعادة من قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: 11] إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الرّوم: 16]، وذُكرا كذلك في قوله بعد: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ والإمساء آخِرٌ، فذكَرَ الآخِرَ ليُذَكِّرَ الآخرَةَ[1]، وهذا من باب التّناسب في بلاغة القرآن الكريم.

دلالةُ عدم تعيين المخاطَب في الآية:

تعدُّد المُرادِ بالأمر

جاء التّعبير القرآنيُّ بعدم تعيين المُخاطَب في قوله تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 66.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾؛ وذلك لِتعدُّد المراد به، فيجوز أن يكون موجَّهًا إلى المشركين على طريقة الالتفات من ضمائر الغَيبة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ [الرّوم: 8] إلى آخرها، وقد يكون الخطاب موجَّهًا إلى المؤمنين إذا قلنا: إنّ الآية إشارةٌ إلى أوقات الصّلوات، والمناسبة مع سابقه: أنّه لمّا وعدَهم بحُسْن مصيرهم، لقّنهم شُكرَ نعمةِ اللّه بإقامة الصّلاة في أجزاء اليوم واللّيلة[1].

بلاغة الطِّباق في الآية:

توضيح المعنى بجمع اللّفظ وضدّه

في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ طباقٌ بديعٌ بين لفظَي ﴿تُمۡسُونَ﴾ و﴿تُصۡبِحُونَ﴾، وهو محسِّنٌ مَعنَويٌّ، فبين تقابلِ الإمساء والإصباح وتخالفهما تضادٌّ يثير الذّهن ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسنًا وطرافةً، كما يقوّي المعنى، إذ بضدّها تتمايز الأشياء، كما يفيد شمولَ أوقاتِ النّهار بالجمع بين الصّباح والمساء.

براعة التّعبير بِفِعْلَي الإمساء والإصباح تامَّيْنِ:

اقتران التّسبيح بالأوقات المذكورة

أوثِرَ استعمالُ الفعلين (أمسى) و(أصبح) في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ تامّيْن؛ لاقتران التّسبيح بالأوقات المذكورة، بمعنى: (حين تدخلون في المساء وفي الصّباح)، ومعنى التّمام في أفعال النّقصان عند سيبويه والجمهور: هو دلالتُها على الحَدَث والزّمان، ومعنى النّقصان عندهم: هو سلب الدّلالة على الحدث، والتّجرّد للدّلالة على الزّمان.

دلالة التعبير بـ(الواو) في: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾:

غنى ربِّ العالَمين عن عبادة العابدين

جاءت الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتراضيَّةً بين المعطوف والمعطوف عليه، والنّكتة في هذا الاعتراض:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 65.

أنّ اللّه تعالى لمّا أمر العباد بالتّسبيح، كأنّه بيّن لهم أنّ تسبيحهمُ اللّهَ لنفعهم أنفسِهم، لا لنفعٍ يعود على اللّه، فعليهم أن يحمدوا اللّه إذا سبّحوه، وفيه التّنبيه على أنّ تلك الأوقات كما أنّها ظرفٌ للتّسبيح تكون ظرفًا للحمد أيضًا، فالاجتهادُ بأنواع الذّكر في عموم الأوقات لازمٌ لكلّ أرباب المعارف[1].

دلالة التّعبير بـ(اللّام) في: ﴿وَلَهُ﴾:

استحقاقُ الرّبّ الحمدَ والثّناء من أهل الأرض والسّماء

وَرَدَ التّعبيرُ باللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لبيان الاِسْتِحْقاق، فاللّهُ سبحانه مستحِقٌّ للمدح والثّناء، جديرٌ أن يحمده أهلُ الأرض والسّماء؛ أو لبيان المِلك، أي: أنَّه سبحانه خالقٌ لكلِّ مَن نَطَقَ بالحَمدِ، فكان مالكًا له؛ إذِ الخالقُ مالكٌ، أو لبيان الاختصاص: أي: أنَّ له سبحانه بكُلِّ المحامدِ اختصاصًا[2]، وكونُ اللّامِ للاستحقاقِ أشبه بالقواعدِ، ولهذا اقتَصَر أبو حَيّان على هذا المعنى[3]؛ فإنَّ لامَ الاستحقاقِ هي الواقِعَة بَين مَعنًى وذاتٍ[4]، كما في هذه الآية.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾:

اختصاصُ ربّ العالَمين بحمد أهل السّماوات والأرَضين

تقدّم الجارُّ والمجرور (له) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادة الاختصاص، وقَصْر جنسِ الحمد على اللّه تعالى؛ لأنّ حمدَه هو الحمدُ الكامل، ولأنّ له الحمد من جميع خَلْقِه دونَ غيره، في السّماوات من سكّانها من الملائكة، والأرض من أهلها من جميع أصناف خَلْقه فيها، ويمكن أن يكون التّقديمُ للاهتمام بضمير الجلالة[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 88، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 116.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/ 483، والقِنَّوجي، فتح البيان: 11/ 161.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 34.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 473، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.

عمـوم الحمد فـي الفضائل والفواضل

سرُّ التّعبير بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ دون الثّناء:

عُبّر بلفظ الحمد دون الثّناء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لوجود فرقٍ بينهما؛ فالحمد معناه: الوَصْفُ بالجميل على جهةِ التَّفضيلِ[1]، أو هو الإخبارُ بمحاسِنِ المحمودِ معَ المحبَّةِ له[2]، وهذا المعنى أصحّ ممّن جعل الحمد هو الثَّناء باللِّسان على الجميل[3]، سَواءٌ تعلَّق بالفضائل كالعِلْم، أم بالفَواضِل كالبِرِّ[4]، وعلى ذلك فالحمدُ مغايرٌ للثّناء، يؤكِّد ذلك ما ثبت عن أفصح العربِ ﷺ، وذلك فيما يرويه عَنْ ربِّه ﷻ أنَّه قال: «قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْني وبَيْنَ عَبْدي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدي ما سَألَ، فإذا قالَ العَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، قال اللّهُ تعالى: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: 3]، قال اللّهُ تعالى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدي ...» الحديثَ[5]، فغايَرَ بينهُما.

استـغراق المحامد كلّها لله

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل)، وفي دِلالة (أل) عِدَّةُ أقوالٍ؛ **الأوَّلُ**: أنَّها لِلاستغراق، وهو الصَّحيحُ، وقد اختاره جماعةٌ مِنْ أهل العلم، مِنهم ابنُ عَطيَّة الأندلسيُّ[6]، **والثّاني**: أنَّها لتعريف الجِنس، ومال إليه الزَّمخشريُّ، وجعلَ الأوَّلَ وهمًا فقال: "والاستغراقُ الذي يتوَهَّمُه كثيرٌ مِنَ النّاس وهمٌ مِنهُم!"[7]، **والثّالث**: أنّها لِلعَهدِ، على معنى أنَّهُ "الحمدُ الذي حَمِدَ به نفسَه وحَمِدَهُ به أولياؤُه"[8]، "والعِبرَةُ بِحَمدِ مَن

(1) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/ 231 - 232.
(2) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/ 259.
(3) الخليل، العَين: 3/ 189، والأنباريُّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 78.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 201.
(5) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (395).
(6) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 1/ 66.
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 10.
(8) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/ 482 - 483.

ذُكِر، فلا فردَ مِنهُ لِغيرِه"[1]، **والرّابع**: أنَّها لِلكَمالِ، وهو مُخرَّجٌ على كلامٍ لِسيبَوَيهِ في (أل) الدّاخلةِ على الصِّفات[2].

والقولُ الأوَّلُ أصَحُّ - كما سبق -، وقد ذكر السُّيوطيُّ أنَّه قول المُحَقِّقين[3]، قال البَيْضاويُّ في وجه الاستِغراق: "إذِ الحمدُ في الحقيقة كُلُّه له؛ إذ ما مِن خيرٍ إلّا وهو موليهِ بِوَسَطٍ أو بِغَيْرِ وسَطٍ"[4].

بلاغة التّعبير بالجملة الاسميّة:

ثبوت الحمد لله وإن لم يَحمَدهُ أحدٌ

أوثِرَ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دون الفعليّة، كنحو: (احمدوه) مثلًا لوجوهٍ[5]؛ **الأوّل**: أنَّ الجملة الفعليّة توهِمُ أنَّ الخلق قادرٌ على تَوْفِيَةِ الحَمْدِ حقَّهُ، بخلافِ الاسميَّة فإنَّها تُفيد استحقاقَ اللّهِ تعالى للحَمْدِ قَبْلَ حَمْدِ الخلقِ له، واللَّفظ الدّالُّ على استحقاق اللّه لِلْحَمْدِ مُقدَّمٌ على غيره، **الثّاني**: أنَّ في جملة ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ مِنَ الاسْتِغْراقِ لأنواع المحامد ما لَيْسَ في (احمدوه)، فقولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ دخَلَ فيه حَمْدُهُ وحَمْدُ غيره جميعًا، من لَدُنْ خَلْقِ العالَم إلى انتهاء دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10][6]، **الثّالث**: أنَّ الجملة الاسميّة ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ دالّةٌ على الثُّبوت والاستمرار بالقرائن، بخلاف (احمدوه) فإنَّها جملة فعليَّة تَدُلُّ على الحدوثِ؛ والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناء، **الرّابع**: أنَّ في جملة ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ إثباتًا للحَمْدِ مع التّعريضِ بِالِاسْتِغْناءِ عن الخلقِ؛ أي: الحمد للّه وإن لَمْ يَحْمَدْهُ أحدٌ[7].

(1) الخطيب الشّربيني، السّراج المُنِير: 1/ 8.
(2) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 1/ 8.
(3) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/ 164.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 27.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/ 191.
(6) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/ 166.
(7) ابن عَجِيبة، البحر المديد: 1/ 53.

بلاغة إخراج الأمر في صورة الخبر:

وجوب المسارعة إلى الامتثال بإخراج الأوامر في صورة الأخبار

جاء الخبرُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ مُرادًا به الأمر، بمعنى: (احمدوه)، والنّكتة البلاغيَّة في ذلك تأكيدُ الأمر، والإشعارُ بأنّه ممّا يجب أن يُتَلَقَّى بالمسارعة إلى امتثاله، حتّى كأنّه امتُثل، فهو يُخبَر عنه موجودًا، فدلّ هذا النّظمُ على ثبوت الحمد له تعالى، ووجوبه على المميِّزين من أهل السّموات والأرض على أبلغ وجهٍ وآكَدِه[1].

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

عموم الحمد من جميع مخلوقاته

دلَّ التعبيرُ بـ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على شمول الحمد له سبحانه من جميع خَلْقِه في السّماوات من سكّانها من الملائكة، والأرض من أهلها من جميع أصناف خلقه فيها[2]، فكأنّ الحمد مُتَجَسِّدٌ في السّماوات والأرض، منغمسٌ فيها انغماسَ المظروف في الظّرف، إشارةً إلى ثبوت الحمد في السّماوات والأرض وفي سُكّانها.

نوع (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

ثبوت الحمد في عموم السّماوات والأرض

وَرَدَت كلمتا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معرّفتين بأداة التّعريف (أل)، الدّالّة على تعريف الجنس، سواء أُريد بالسّماء الجنسُ الصّادق بجميع السّماوات على طريقة العموم الحقيقيّ، أو الصّادق بسماوات مشهورة على طريقة العموم العرفيّ وهي السّماوات السّبع[3]، وكذلك الأرض فتعريفُها تعريفُ الجنسِ المقتضي للعموم.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الآيات في السّموات أعظمُ منها في الأرض

تقدّم ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لِنُكَتٍ بلاغيَّةٍ؛ وهي أنّ السّماوات والأرض تُذكَر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 54.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 473، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

غالبًا في سياق آيات الرّبِّ الدّالّة على وحدانيّته وربوبيّته، ومعلومٌ أنّ الآياتِ في السّماوات أعظمُ منها في الأرض لسعتها، وعِظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوِّها، واستغنائها عن عَمَدٍ تُقِلُّها، أو عِلاقَة تَرفعُها، إلى غير ذلك من عجائبها؛ ولهذا أمر سبحانه بأن يرجِع النّاظرُ فيها البصرَ كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، ويتأمّلَ استواءها واتّساقها، وبراءَتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظمُ من الأرض، وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ سبحانه وبحمده[1].

دلالة العطف بـ(الواو) في: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الجمع والاقتران بالتّسبيح والحمد من جميع مخلوقاته

عُطفت الأرضُ على السّماوات في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بحرف الواو الدّالّة على الجمع والاقتران؛ لإفادة عظَمة مُلك الخالق ﷻ، وشمول تسبيحه وحمده سبحانه من جميع مخلوقات السّماوات والأرض، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: 44].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَعَشِيّٗا﴾:

تنوّع المعنى بالعطف على التّسبيح أو الحمد

اقترن قولُه تعالى: ﴿وَعَشِيّٗا﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، وهو إمّا معطوفٌ على التّسبيح الوارد في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾، فيكون مقصودًا به صلاةُ العصر على قول ابن عبّاسٍ ﵄ بأنّ هذه الآية في أوقات الصّلاة[2]، وقد يكون معطوفًا على الحمد الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فخُصِّص الحمدُ بالعشيّ؛ لأنّ تجدّد النّعم فيه أكثر[3].

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 130.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 332.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 203.

سرّ العدول إلى الاسم ﴿وَعَشِيًّا﴾ دون الفعليّة:

العـشيّ ليس منَ الأوقات الّتي تختلف فيها أحوالُ النّاس

عُدل عن استعمال الفعل (تعشون) في قوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ إلى الاسم ﴿وَعَشِيًّا﴾، ولم يَرِد بالفعل كما في (تصبحون، تمسون، تظهرون)؛ لأنّه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدّخول في العشيّ، كالمساء والصّباح والظّهيرة، فلا يقال: (تَعشون) بمعنى الدّخول في العشيّ، ولعلّ السّرّ في ذلك أيضًا أنّه ليس من الأوقات الّتي تختلف فيها أحوالُ النّاس، وتتغيّر تغيُّرًا ظاهرًا، مصحِّحًا لوصفهم بالخروج عمّا قبلها، والدّخول فيها، كالأوقات المذكورة، فإنّ كلًّا منها وقتٌ تتغيّر فيه الأحوالُ تغيّرًا ظاهرًا، أمّا في المساء والصّباح فظاهر، وأمّا في الظّهيرة فلأنّها وقتٌ يُعتاد فيه التّجرّد عن الثّياب للقيلولة[1].

نُكْتَةُ تأخيرِ ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ على ﴿وَعَشِيًّا﴾:

الـتّـقـديـم والتّأخير لمراعاة توافق الفواصل

تقدّم قولُه تعالى: ﴿وَعَشِيًّا﴾ على ﴿تُظۡهِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾، مع أنّ الظّهر يتقدّم زمانًا على العشيّ؛ لنُكتة مراعاةِ الفواصل، خاصّةً وأنّ (العشيّ) لا يُشتَقّ منه فعلٌ يُسْنَد إلى ضمير المخاطَبين، بمعنى الدّخول في هذا الوقت.

سرّ تخصيص النّهار بالحمد، واللّيل بالتّسبيح:

مقابلة نِعَم النّهار بالحمد، وخَلْوةِ اللّيل بالتّسبيح

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ تخصيصُ التّسبيح بالمساء والصّباح؛ لأنّ آثار القدرة والعظَمة فيهما أظهر، وتخصيصُ الحمد بالعشيّ الذي هو آخرُ النّهار من عَشيَت العَيْنُ إذا نَقَصَ نورُها، والظّهيرة الّتي هي وسطه؛ لأنّ تجدّد النّعم فيهما أكثر[2]، وعلى القول بأنّ الآية في الصّلوات الخمس، فقد خُصّت

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 8.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 203.

صلاةُ اللّيلِ باسم التّسبيح، وصلاةُ النّهارِ باسم الحمد، والنّكْتَةُ في ذلك أنّ للإنسان في النّهار متقلَّبًا في أحوالٍ توجِبُ حمدَ اللّه تعالى عليها، وفي اللّيل خَلْوَةً توجب تنزيهَ اللّه فيها، فلذلك صار الحمدُ بالنّهار أخصَّ، فسمّيت به صلاةُ النّهار، والتّسبيحُ باللّيل أخصَّ، فسمّيت به صلاةُ اللّيل(1).

نُكْتَةُ تقديمِ التّسبيح على الحمد:

التّخليَة متقدِّمةٌ على التّحلية

تقدّم التّسبيح على الحمد في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾، والنّكتةُ في ذلك: أنّ التّسبيح تخليةٌ بتنزيهِ اللّه ﷻ عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنِه سبحانَهُ، وأمّا حمدُه تعالى والثّناءُ عليه ووصفُه بما هو أهله منَ الصّفات الجميلة والشّؤون الجليلة هو تحليةٌ، ومعلومٌ أنّ التّخلية متقدِّمةٌ على التّحلية(2).

دلالة تفصيل الأزمان في الآيتين:

شغل اللّسان بالحمد والتّسبيح في أجزاء الزّمان

النّاظر في الآيتين يجد الدّعوةَ إلى تسبيح اللّه وتحميده في أوقاتٍ مُحَدَّدَةٍ، قال تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾، ولم يأت الأمرُ بهما مُجْمَلًا، مع أنَّ المقصودَ التّأبيد، كما تقول: (سبحان اللّه دومًا)، غيرَ أنّه قد سُلِكَ به مَسلَكَ الإطنابِ؛ لأنّه مناسِبٌ لمقام الثّناء(3).

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

التّسبيح والتّنزيه:

عُمومُ التّسبيحِ للتّنزيهِ والتّعظيمِ

كَثيرًا ما يُستَعمَلُ التّسبيحُ بمَعنى التّنزيهِ، إذ يُستعملان في حَقِّ اللّه ﷻ، ولكن عندَ التّدقيقِ نجدُ أنَّ بينَهما فرقًا لَطيفًا، فالتّسبيحُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 15.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 65.

فيه جانبان: التَّنزيهُ والتَّعظيمُ، ويُقدَّمُ أحدُ المعنيين على الآخَرِ بِحسَبِ السّياقِ، ومِن أدِلَّةِ كَونِ التَّسبيحِ تَعظيمًا: تَفسيرُهُ في مَواطِنَ بالصَّلاةِ، والصَّلاةُ فيها جانِبُ التَّعْظيمِ للمَعبودِ كما هوَ ظاهِرٌ، فمَثَلًا في قَولِ الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30]، لم يَقَعْ سوءٌ يُنزَّه اللّهُ عَنهُ كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [البقرة: 116]، والفَرقُ بينَ الموضِعَين ظاهِرٌ، فجانِبُ التَّعظيم في هَذا السّياقِ أظهرُ من جانِبِ التَّنزيهِ، ونَظيرُهُ أيضًا في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: 1]، فأينَ جانبُ النَّقصِ ليكونَ المرادُ بالتَّسبيحِ هاهُنا التَّنزيهَ؟ إذًا فجانِبُ التَّسبيحِ يَزيدُ عَلى مجرَّدِ التَّنزيهِ بِأنَّهُ تَعْظيمٌ للمَولى ﷻ، ولهذا آثر النّظمُ الكريم في هذه الآية لفظَ (التّسبيح)؛ لعمومه وشموله للتّعظيم باللّسان والصّلاة وغيرِها.

العشيّ والأصيل:

دلالةُ العشيّ على صلاة العصر

يشترك لفظا (العشيّ) و(الأصيل) في الدّلالة على آخر النّهار، ويتّضح الفرقُ بينهما في تحديد زمن كلٍّ منهما، فقال بعض العلماء: إنّ الفيء إذا فاء سُمّيَ عشيّة، ثمّ أصيلًا بعد ذلك(1)، فعلى هذا القول يكون وقت الأصيل بعد العشيّ، قال ابن فارس: "الأصيل بعد العشيّ، وجمعه: أُصُل وآصال"(2)، ولكن ذهب الثّعالبيّ إلى عكس هذا، فجعل العشيَّ بعد الأصيل، حيثُ قال في تَعْديدِ ساعاتِ النَّهارِ واللَّيل: "ساعاتُ النَّهارِ: الشُّروقُ، ثُمَّ البُكورُ، ثُمَّ الغُدْوَةُ، ثُمَّ الضُّحى، ثُمَّ الهاجِرَةُ، ثُمَّ الظَهيرَةُ، ثُمَّ الرَّواحُ، ثُمَّ العَصْرُ، ثُمَّ القَصْرُ، ثُمَّ الأصيلُ، ثُمَّ العَشيُّ، ثُمَّ الغُروبُ"(3)، وقد آثرَ النّظمُ في هذه الآية

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أصل).
(3) الثّعالبي، فقه اللّغة وسرّ العربيّة، ص: 215.

لفظَ العشيّ؛ لدلالته على صلاة العصر، ومنه حديثُ ذي اليدين: «صَلّى بنا رَسولُ اللَّه ﷺ إحْدَى صَلاتَيِ العَشيِّ...»[1]، يقصد الظّهر أو العصر، قال ابن عاشور: "والعشيّ: ما بعد العصر، يقال: عشيّ وعشيّة"[2].

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (482)، ومسلم في صحيحه، برقم: (573).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 228.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩﴾ [الرّوم: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ بعضِ دلائل قدرةِ الله تعالى

لمّا ذُكِرَ في الآيات السّابقة أمرُ الإبداء والإعادة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١﴾ [الروم: 11]، جاءت هذه الآية بذِكْرِ نموذجٍ يتحقَّق فيه أمرُ الإبداء والإعادة بالحيِّ والميِّت، ولمّا ذُكِر في الآيات السّابقة أوقاتُ النَّهار المختلفة كالصّباح والمساء، وكان الإنسان عند الصّباح يَخرُج من شبه الموت وهو النّوم، إلى شبه الوجود وهو اليقظة، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النّوم، ذُكِرَ في هذه الآية أنّ إحياء الميّت عنده تعالى كتنبيه النّائم، وإماتة الحيّ كتنويم المنتبه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخْرِجُ﴾: (خرج) أصلٌ يَدُلُّ على النَّفاذ عنِ الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا[2]، ومنه الخُروجُ: اسمٌ من أسماء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ٤٢﴾ [ق: 42]، أي: يَوْمَ يُبْعَثونَ فيَخْرُجون من الأرْض[3]، والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ، ومنه سُمّي الخوارِجُ بذلك؛ لِخُروجِهم على النّاسِ[4]، والإخراجُ: فَصْلُ شيءٍ مَحْويّ عَنْ حاويه، يقالُ: أخرجَهُ مِنَ الدّارِ، وأخرج يَدَهُ من جَيْبِهِ، وهوَ في الآية مُستَعْمَلٌ لإنشاءِ شيءٍ من شَيْءٍ، والمراد به: إنْشاءُ حَياةِ شَيْءٍ بَعْدَ مَوْتِه، ومعناه: كإخْراجِ النَّباتِ مِنَ الأرض بعد موته فيها، يكونُ إخراجُكُم من الأرضِ بعد أن كنتم أمواتًا فيها[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 89، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 22/ 99.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خرج).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.

2) ﴿ٱلۡحَيَّ﴾: (حيي) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ المَوتِ[1]، والحَيُّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ، وحَيَّ، يَحْيا، فهو حَيٌّ، ومنه الحَيَوانُ، وهو كُلُّ ذي روحٍ، ناطِقًا كان أو غيرَ ناطِقٍ، والحيُّ مِن النَّباتِ: ما كانَ طَرِيًّا يَهتزُّ، وأرضٌ حَيَّةٌ، أيْ: مُخصِبَةٌ[2]، والحَيَوانُ: مقرُّ الحياة، والحيَوان والحياة واحد، والحَيا: المطر؛ لأنَّه يحيي الأرضَ بعد موتها[3]، والمقصود بالحَيِّ في الآية: الَّذي ثبت له وصفُ الحياةِ، ويظهر معنى إخْراج الۡحَيِّ مِنَ الۡمَيِّتِ في أحوالٍ كثيرةٍ؛ منها: إنشاءُ الأجِنَّةِ مِنَ النُّطفِ، والإنسان مِنَ التراب، وغير ذلك كثير.

3) ﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾: (موت) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[4]، أي: القوَّة النّامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّباتات، والمَيتُ بتَخفيفِ الياءِ وتَشديدِها: هو الذي فارَقَ الحَياةَ، ويَستَوي فيه الذَّكَرُ والأُنْثَى، يُقال: ماتَ، يَموتُ، مَوْتًا، فهو مَيّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، مَوْتَى، ومَيِّتون، ومَيْتون، ويُطلَق أيضًا على مَن في حُكْمِ المَيِّتِ وليس بِه[5]، والمقصود بالميّت في الآية: مَن اتَّصف بالمَوتِ، أي: زالَتْ عنه الحَياةُ، ويظهر إخراج المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ في أحوال عدّة، كالسّقط الميت من أُمٍّ على قيد الحياة، وإحياءِ الأرضِ بعد موتها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّظرُ في البعثِ وسيلةٌ إلى الاستِعدادِ له

هذه الآية تبيِّن أنَّ الله سبحانه وتعالى يُخرج بقدرته الحيَّ من الميّت، كالإنسان والحيوان من التراب مباشرةً أو عن طريق الأغذية، ويُخرج الميّت من الحيّ كالسّقط الميّت من المرأة، والبيضةِ العقيم مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيَّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حيي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 36.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيد، المحكم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).

الدّجاجة، ويحيي الأرض بالماء والنّبات بعد يُبسها وفقدان منفعتها، مثلُ ذلك الإخراج البديع تُخرَجون من قبوركم للحساب والجزاء، فكيف تُنكرون البعثَ وأنتم ترون آياتِه في الإحياء والإماتة؟! أليس في كلّ خَلَفٍ بعثٌ لسلفه الميّت؟[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمّا قبلها:

موجِد المخلوقات مستحِقّ للتّسبيح والحمد

فُصِل قولُه تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ عن الكلام قبلَه؛ لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتين اتحادًا تامًّا، وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تنزّل الثّانية منَ الأولى منزلةَ نفسِها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ موقعَ العِلّة لجملة ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ وما عطف عليها، أي: هو مستحقّ للتّسبيح والحمد؛ لتصرُّفِه في المخلوقات بالإيجاد العجيب، وبالإحياء بعد الموت، فتحصّل من ذلك: أنّ الأمر بتسبيحه وحَمْدِه معلول بأمرين: إيفاءِ حقّ شُكره سبحانه، وإيفاءِ حَقّ التّعظيم والإجلال، أو تكون هذه الآيةُ بدلًا من جملة ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 11]؛ لاتِّحادِهما في المعنى[3].

سرُّ اختيار تصرُّف الإحياء والإماتة:

إثبات البعث والنّشور بالقدرة على الإحياء والإماتة

أوثرَ اختيارُ تصرُّف الإحياء والإماتة في الحيوانات والنباتات من بين سائر التصرُّفات العظيمة للخالق سبحانه في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾؛ لأنّه تخلّصٌ للغرض المقصود من إثبات البعث، ورَدٌّ للكلام على ما تقدّم من قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 476، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 639، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 37.

(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الرّوم: 11][1]؛ ولأنّ أمر الإحياء والإماتة لا يختصُّ به إلّا اللّهُ سبحانه وتعالى، وفي ذلك ردٌّ على المشركين الذين يعبدون الأصنام وتوبيخٌ لهم؛ لأنَّهم لا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ولأنَّ مشهد إخراج الحيِّ من الميِّت، والميِّتِ منَ الحيِّ فيه دعوةٌ قرآنيَّةٌ إلى تأمُّل آياتِ الخلّاق العظيم، ففي كلِّ نظرةٍ يُلقيها الإنسان على أيِّ موقع من مواقع الحياة يرى حياةً تخرُج من موات، ومواتًا يخرج من حياة، الشّيءُ وضِدُّه يتبادلان موقفَهما، فالميِّتُ يأخذ مكانَ الحَيّ، والحَيُّ يَحِلُّ مكانَ الميِّت، حتّى لكأنّهما كائنٌ واحدٌ لا فرقَ بينهما في حالَي الحياة والموت، وهذا من عجيب قدرة اللّه، وبَسْطِ سلطانِه على المخلوقات[2].

نُكْتَةُ التّعبير بالفعل ﴿يُخۡرِجُ﴾:

استحقاق الخالق الإفراد بالعبادة لقدرته على الإحياء والإماتة

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ بالفعل ﴿يُخۡرِجُ﴾، ومعنى الإخراج: فصْلُ شيءٍ محويٍّ عن حاويه، يُقال: أخرجه مِن الدّار، وأخرج يده من جَيبه، فهو هنا مستعمَلٌ لإنشاء شيءٍ مِن شيءٍ، والمرادُ به: إنشاءُ شيءٍ بعد موته، فهو سبحانه يُنشِئُ الحَيَّ من الميِّت، ويُخرِج الميِّت من الحيِّ ويفصله عنه، ومن ذلك: أنّ أصل (خرج) يُطلق على اختلاف لونين، فالخَرَج لونان من سوادٍ وبياضٍ، ويُفهم من هذا المعنى اختلافُ الضِّدَّين، أي: اجتماعُهما معًا في شيءٍ واحدٍ، وهذا واضحٌ فى خروج الحيِّ من الميِّت، والميِّت من الحيِّ.

دلالة التّعبير بالجملة الفعليّة:

استحضار قوّة اللّه وقدرته وبقائه، فهو الحيُّ الذي لا يموت

جيء في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ بجملة فعليّةٍ؛ للدّلالة على أنّ هذا الفعل يتجدّد ويتكرّر في كلِّ آنٍ، فهو مرادٌ معلومٌ، وليس على سبيل المصادفة والاتّفاق، كما أنّ الإتيان بصيغة المضارع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 493.

فيه لاستحضار الحالة العجيبة وتصويرها في النّفوس، وإدخال المهابة عليها، إذِ الإخراجُ والإحياءُ آيةٌ عظيمةٌ دالّةٌ على استحقاق الخالقِ سبحانَه التّعظيمَ والإفرادَ بالعبادة[1].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾:

استغراق أفراد الأحياء والأموات

جاء لفظُ ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ معرّفين بـ(أل) الدّالَّةِ على تعريف الجنس المقتضي للعموم، فيدخل في ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ كلُّ ما ينمو، كانَ ذا روحٍ أم لا، كالحيوانِ والنَّباتِ، ويشمل الميِّت كلّ ما لا ينمو مطلقًا.

بلاغة التعبير بـ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾:

عظَمة الخالق في إخراج الحياة من الموت والعكس

يُستعمل وصفُ الحيّ والميّت في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز، فالحقيقة: النُّطفة والمَنيُّ يخرج منه الإنسان، والبيضة يخرج منها الطّائر، وهذه بعينها ميتة تخرج من حيّ، وما جرى هذا المجرى، وبهذا المعنى فسّر أكثر السّلف كابن عبّاس وابن مسعود[2]، أمّا المجاز فهو إخراج النّبات الأخضر من الأرض، وإخراج الطَّعْم من النّبات، وما جرى هذا المجرى، فتسميةُ النَّباتِ حيًّا عند بعض العلماء، مجازٌ بجامعِ قبولِ الزّيادةِ في كلٍّ[3].

بلاغة الطِّباق بين ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾:

الجمع بين الضِّدَّين دليلٌ على عَظَمة الرّبوبيّة

يتضمّن قولُه تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ طباقًا بديعًا بين لفظتي ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾، وهو محسِّنٌ معنويٌّ يوضِّح كمالَ قدرته سبحانه، فبين تقابل الحياة والموت وتخالفِهما تضادٌّ، يُثير الذّهنَ ويجذبُ الانتباه، ويزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرافةً، كما يقوّي المعنى،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 476.

(3) الصّاويّ، الحاشية على الجلالين: 03/ 203، والآلوسي، روح المعاني: 04/ 215.

إذ بضِدّها تتمايز الأشياء، وكلّ ذلك لزيادة التّعجيب من قدرة اللّه سبحانه، ويدلُّ هذا الطّباقُ على تمام إحاطة قدرةِ اللّه تعالى بالأفعال وأفضالها.

بلاغةُ الوصل في قوله: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ﴾:

كمالُ قُدرة الرّبّ سبحانه على الخَلقِ والإيجاد

وُصِل قولُه تعالى: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ بما قبله لنُكْتَة التّوسّط بينَ الكمالين، بمعنى التّوسّط بين حالَتَي كمالِ الانقطاع، وكمالِ الاتّصال[1]، فالجملتان مُتغايرتان من جهةٍ، إذِ الثّانية مُخبِرةٌ بضِدّ مضمون الجملة الأولى؛ وهما مُتلائمتان من جهةٍ أخرى، لأنّهما مُشيرتان إلى قُدرتِهِ تعالى على الخلقِ والإيجاد.

بلاغةُ الاحتراس في الآية:

إظهارُ القدرة الإلَهيَّة بالجمع بين الضِّدَّين

يرى بعضُ العلماءِ أنّ عطف ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ على قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ قد خرج مخرج الاحتراس، ومعناه دفعُ احتمالٍ يَرِدُ على المعنى[2]، باعتبار أنّ المقصود في السّياق هو إخراج الحيّ من الميّت، وقد أفاد العطفُ المنعَ مِن اقتصار قدرته على بعض التصرّفات دونَ غيرها، كما أبرز عجيبَ القدرةِ وكمالَها بأنّها تفعل الضدّين، وبذلك تظهر القدرةُ الإلَهيَّةُ تمامَ الظّهور[3].

دلالة إعادة الفعل (يُخْرِج):

استقلالُ كلٍّ من الفِعْلَين بحَدَثِه في جُملته

أُعيد الفعل (يُخْرِج) في قوله تعالى: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ مع سبْقِ ذِكْرِه في قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾؛ لأنّ إخراجَ الميّت من الحيّ يختلف عن إخراج الحيّ من الميّت، فهو غيرُ ما ذُكِر أوّلًا، وكلٌّ من الفِعلين مستقلٌّ بحدثه في جملته، فإخراج الحيّ من الميّت حدثٌ مستقلٌّ، وكذا إخراج الميت من الحيّ حدثٌ مستقلٌّ، فلذلك أُعيد الفعل[4].

---

(1) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 127.

(2) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة: 1/ 64.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 117.

بلاغة العطف بـ(الواو) في ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

إحيـاء الأرض بالنّبات شبيهٌ بإخراج الأحياء من الأموات

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالَّة على الجمع والاقتران؛ لكونه دليلًا آخر على عظمة الخالق ﷻ وقدرته الباهرة على الإحياء والإماتة، فإحياءُ الأرضِ المَوات بالمطر والنّبات شبيهٌ بإخراج الأحياء منَ الأموات[1].

دلالة التّعبير بالإحياء في الآية:

وصف إخراج النّبات بالإحياء بجامع النّماء

عُبّر في قوله تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بالفعل ﴿وَيُحۡيِ﴾ من الإحياء، والمقصود به إخراجُ النّبات الأخضر من الأرض، وإخراجُ الطَّعْم من النّبات، وما جرى هذا المجرى، وتسميةُ النَّباتِ حيًّا عند بعض العلماء مجازٌ، بجامعِ قبولِ الزّيادةِ في كلٍّ[2].

نُكْتَةُ المضارعِ في الفعل ﴿وَيُحۡيِ﴾:

استحضار الحالة العجيبة المتجدّدة لآيات الله الباهرة

جاء الفعل ﴿وَيُحۡيِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على أنّ هذا الفعل يتجدّد ويتكرّر في كُلِّ آنٍ، فهو مرادٌ معلومٌ، وليس على سبيل المصادفة والاتّفاق، كما أنّ الإتيان بصيغة المضارع فيه استحضارُ الحالة العجيبة وتصويرُها في النّفوس، وإدخالُ المهابة عليها، إذِ الإخراج والإحياء آيةٌ عظيمةٌ على استحقاق الخالِق سبحانه التّعظيمَ والإفراد بالعبادة[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

عموم الأرض الصّالحة للإنبات

جاء لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ معرَّفًا بـ(أل) الدّالَّة على الجنس، فإحياءُ الأرض المَوات بالغيث عامٌّ في كُلِّ أرضٍ، فالأرض بهذا المعنى اسمُ جنسٍ صادقٌ على شائعٍ مُتعدِّدٍ، وبهذا الإطلاق جُمعت على (أرَضين)، وقد يُقال: إنّ (أل)

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 100.

(2) الصّاوي، الحاشية على الجلالين، ص: 556، والآلوسي، روح المعاني: 04/ 215.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.

هنا دالّةٌ على تعريف العهد الذّهنيّ، ويُراد بها فردٌ مُبهَمٌ من أفراد الحقيقة، باعتبار عهديّته في الذّهن، لاشتمال الحقيقة عليه[1]، فالأرضُ التي تحيا بالمطر: هي الأرض المعهودة، التي لها أهليّة الإنبات دونَ غيرها من مجموع الأرَضين السّبع.

دلالة تقييد إحياء الأرض بالظّرف ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾:

صِحّةُ وصفِ الجمادِ بالمَوْت بين الحقيقة والمجاز

وُصِفت الأرضُ بالموت في قوله تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، فذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ إطلاق الموتِ على ما لم تَحُلَّه حياةٌ هو مِنْ باب المجازِ، فلا يصحُّ عِنْدَهُم وصفُ الجمادِ مثلًا بالموتِ حقيقةً، ونُكْتَةُ وصف الأرض بالموت: الاستدلالُ على البعث[2]، وقالت طائفةٌ أخرى من العلماء: إنَّ ذلك ليس من بابِ المجازِ بل هو حقيقةٌ، فالعرب تصف الجمادَ بالموتِ، وبذلك جاء القرآن الكريمُ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النّحل: 20 - 21]، "فهذا في الأصنام، وهي مِنَ الجمادات، وقد وُصِفَتْ بالموت"[3]، فالموت: عدمُ الحياة مُطلقًا، لا عدَمُها عمّا هي مِنْ شأنه[4].

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿وَيُحۡيِ﴾ و﴿مَوۡتِهَآۚ﴾:

توضيح المعنى وجَذْبُ الانتباه بالجمع بين الضّدّين

يتضمّن قولُه تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ طباقًا بديعًا بين لفظتَي ﴿وَيُحۡيِ﴾ و﴿مَوۡتِهَآۚ﴾، وهو محسِّنٌ معنويٌّ يوضّح كمالَ قدرتِه سبحانه، فبين تقابل الحياة والموت وتخالفهما تضادٌّ يُثير الذّهنَ ويجذب الانتباه، ويزيدُ الكلام حُسْنًا وطَرافةً، كما يقوّي المعنى، إذ بضدّها تتمايز الأشياء، وكلُّ ذلك لزيادة التّعجيب من قدرة الله سبحانه.

---

(1) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/ 214.

(3) ابن تيميَّة، التَّدمريَّة، ص: 160، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/ 186.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 2/ 108.

الـتّـأدّب في خطاب اللهِ ﷻ

دلالة نسبة الإحياء لله دون الموت:

يُلحَظ في قوله تعالى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ إسنادُ الإحياء إليه تعالى بقوله: ﴿وَيُحۡيِ﴾، وإضافةُ الموت إلى الأرض بقوله: ﴿مَوۡتِهَاۚ﴾، مع كونه الفاعلَ لهما سبحانه، والنُّكتَةُ في ذلك: أنّ الحياة أشرفُ من الموت، فنُسب الإحياء للّه ﷻ، ولم يُنسَب الموتُ إليه مباشرةً تنزيهًا للّه تعالى عن نسبة أدنى شبهة شرٍّ إليه، وفي هذا تأديبٌ للعباد في مخاطبته بنسبة الخير دون الشرّ إليه؛ لقوله ﷺ: «الْخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، معَ اعتقاد أنّ الكلّ فعلُه، وتنبيهًا على أنّ الشّرّ ممّا ينبغي التّبرّؤ منه، والبُعد عنه[2].

الاستدلال على البعث بإحياء الأرض

دلالة (الواو) في ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾:

دلّت الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ على العطف والجمع؛ لترتيب النّتيجة على مقدّماتها، ورَبطِ التّشبيه بالمُشبَّه به؛ فإنّ معجزة إخراجِ الحيّ من الميّت، وإحياءِ الأرض بعد موتها، وإن كانت آية عظيمةً بنفسها، ودلالةً وافيةً على قدرة اللّه وتدبيره، إلّا أنّها سيقت هنا أساسًا لبرهنتها على البعث والنّشور، ولمّا كان المقامُ مقامَ احتجاجٍ واستدلالٍ، ومخاطبةِ المُنكِر الجاحِد، ناسبَ التّصريحُ بوجه الدّلالة وصورة التّشبيه، وعدمُ الاكتفاء بالمقدّمات، ولهذا عُطف قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ على ما سبق.

عـظَـمـة قـدرة الخالق سبحانه في إخراج الموتى

دلالة (كذلك):

دلّ حرف (الكاف) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ على التّشبيه، وقد دخل على حرف الإشارة المستعمل للبعيد (ذلك)؛ للدّلالة على البُعد المعنويّ، وعظمةِ المُشار إليه، بمعنى: أنّ مثل فعلِه سبحانه من الإخراج بديعِ الشّأن للحيّ من الميّت والميّت من الحيّ،

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: (771).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 482.

ومثلَ إحياءِ الأرض بعد موتها، بإخراج نباتها وزرعها، يحييكمُ اللّهُ من بعد مماتكم، فيخرجُكم أحياءً من قبوركم إلى موقف الحساب[1].

دلالة الفعل ﴿تَخۡرَجُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الوعد بالإخراج من القبور للبعث والنّشور

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ بفعل الإخراج، ومعنى الإخراج: فصلُ شيءٍ محويٍّ عن حاويه، يُقال: أخرجه من الدّار، وأخرج يده من جيبه، والمقصود هنا: إخراج الموتى من قبورهم للحساب والجزاء على الأعمال، وقد جاء بصيغة المضارع؛ للدّلالة على الاستقبال، إذ محلُّه يومَ القيامة، وهو اليوم الموعود للخلائق.

دلالة صَوغ الفعل ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

الاقتصارُ على فعل خروج النّاس من قبورهم لأهمّيّته

أوثرَ استعمالُ الفعل ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾؛ للاهتمام بفعل الإخراج في حدّ ذاته لكونه المقصودَ من الكلام، دونَ التّعرّض لفاعله، فالغرضُ العامّ من ذِكرِ الفعل مجرّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المجرّد في الشّيء دونَ التّعرّض للمعمول[2]، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلام منصبًّا على غرضٍ من الأغراض جُعل سياقُه له وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3]، إضافةً إلى جواز عدم التّصريح بما هو معلومٌ من السّياق، إذ لا مُخرِجَ للنّاس من قبورهم إلّا خالقُهم سبحانه.

بلاغة التّشبيه في الآية:

بيانُ إمكان البعث بتشبيه الإعادة بالإبداء

تتجلّى بلاغةُ التّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ في كونه راجعًا إلى ما يصلح له من المذكور قبلَه، وهو ما فيه إنشاءُ حياة شيءٍ بعدَ موته، ويجوز أن يكون التّشبيهُ راجعًا إلى أقرب مذكورٍ، وهو إحياءُ الأرض بعد موتها، أي: وكإخراج النّبات منَ الأرض بعد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 476.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

موته فيها، يكون إخراجُكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتًا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾ [نوح: 17 - 18]، والقصد من هذا التّشبيه: بيانُ إمكانِ وقوع البعث، وأنّ الإبداء والإعادة متساويان، فليس البعثُ بعد الموت بأعجب مِن ابتداء الخَلْق، فكما سَهُل عليه سبحانه حركةُ النّائم السّاكن بالانتباه، وإنماءُ الأرض بإنباتها بعد موتها، يسهل عليه إحياء الميّت وإخراجُه من قبره لفَصْل القضاء[1].

تكامل صورة الإخراج للبشر

تعدّد القراءات في ﴿تُخۡرَجُونَ﴾، وأثره في تنوّع الدّلالات:

تعدّدتِ القراءةُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾، فقرأ الجمهور: ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ بضمّ التّاء الفوقيّة، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَف وابنُ ذكوان بخُلْفٍ عنه بفتح التاء وضم الراء: ﴿تَخۡرُجُونَ﴾[2]، فعلى قراءة الجمهور يكون فِعلًا لِما لم يُسَمَّ فاعلُه، بمعنى: أنّ اللّه يُخرجهم من قبورهم، ونظيرُه إجماعُ الجميع على قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون: 16] على أنّهم مفعولون ولم يُسمّ الفاعل، وأمّا على قراءة حمزة والكسائيّ وخَلَف وابن ذكوان - بخلف عنه - ﴿وَكَذَٰلِكَ تَخۡرُجُونَ﴾ فقد جُعل الفعلُ لهم؛ لأنّ اللّه جلّ وعزّ إذا بعثهم يوم القيامة فأحياهم وأخرجهم خرجوا، كما تقول: (مات فلانٌ) فتَنسِبُ الفعلَ إليه، وإنمّا أماته اللّهُ، ونظيره قوله: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: 25] على تصيير الفعل لهم، فكذلك أيضًا: (وكذلك تَخرُجون)، والقراءتان تتداخلان، لأنّ اللّه إذ أخرجهم خرجوا، وإذا خرجوا فبإخراج اللّه خرجوا، فهم فاعلون مفعولون[3].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 280، وابن خالويه، الحجّة، ص: 154.

تذكيرُ المؤمنين والتّعريضُ بالمشركين

سرُّ عدم تحديد المخاطَب في الآية:

لم يُحدَّد المخاطَب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾؛ لتعدُّد المراد به، فيحتمل أن يكون الخطاب تابعًا للّذي قبلَه في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾، وبذلك يكون موجَّهًا إلى المشركين على طريقة الالتفات من ضمائر الغَيبة المبتدئة من قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ [الرّوم: 8] إلى آخرها، وقد يكون الخطاب موجَّهًا إلى المؤمنين على سبيل التّعريض بالرّدّ على المشركين المُنكرين للبعث[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 67.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الرّوم: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحُجج الظّاهرة على البَدء والإعادة

لمّا أمر اللّهُ تعالى بتسبيحه عن النّقائص والعيوب، وذَكر أنّ الحمد له على خَلْقِ جميع الأشياء، وبيّن قدرتَه على الإماتة والإحياء؛ ذكر ما هو حجّةٌ ظاهرةٌ وآيةٌ باهرةٌ على ذلك، ومن جُملتها خلق الإنسان من ترابٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَقَكُم﴾: (خلق) أصلٌ يدلّ على تَقْديرُ الشَّيءِ[2]، وهو في كلامِ العَرَبِ على وجهين: إبداعُ الشَّيء على مثالٍ لم يُسْبَق إليه[3]، تقولُ: خَلَقَ اللّهُ الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا، أحدثه بَعْدَ أن لَمْ يَكُنْ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1] أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117][الأنعام: 101]، ويُستعمل في إيجاد الشّيء منَ الشّيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[4]، ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوز هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ[5]، وتقول العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرته وقِستَه لتقطعَ منه مزادَةً، أو قُربةً، أو خُفًّا[6]، والمقصود بالخَلْقِ في الآية: التَّقدير، وفيه بيانُ خَلْقِ جوهرِ الإنسانِ وتقويم بَشَرِيَّته.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(5) الخليل، العين: (خلق).
(6) الأزهري، تهذيب اللّغة: (خلق).

2) ﴿تَنتَشِرُونَ﴾: (نشر) أصلُ الانتِشارِ مِن النَّشرِ، وهو: فتحُ الشَّيءِ، يُقالُ: نَشَرتُ الكِتابَ أنشُرُهُ نَشرًا، أي: فتحتُهُ، ويُطلَقُ على الشُّيوعِ والظُّهورِ، تقول: انتَشَرَ الخَبَرُ، أي: ذاعَ وظَهَرَ[1]، والانتِشارُ أيضًا: الانبِساطُ والامتِدادُ، يُقالُ: انتَشَرَ النَّهارُ يَنتَشِرُ انتِشارًا، أي: طالَ وامتَدَّ، ويأتي بِمعنى الخُروج، يُقال: انتَشَرَ الماءُ في الأرضِ، أي: خَرَجَ على سَطحِها، ومِن مَعانيه أيضًا: التَّفَرُّقُ والكَثرَةُ والتَّوَسُّعُ والاستِطالَةُ والانتِقالُ[2]، والمقصود بالانتشارِ في الآية: الظُّهورُ على الأرضِ، والتَّباعُدُ بين النّاسِ في الأعمالِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من آيـات الله سبحانه الدّالّة على قدرته خَلْقُ الإنـســان من تراب

ومِن العَلاماتِ الدّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى، كوحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه: أنَّه ابتدَأ خَلْقَكم مِن تُرابٍ، فخَلَق أباكم آدَمَ منه، ثمَّ تَصيرونَ مِن هذا التُّرابِ الجامِدِ الذي لا حياة فيه ولا نموّولا حركةَ بَشَرًا أحياء، تَنتَشِرونَ في الأرضِ وتَسْعَونَ فيها؛ لتحصيل معايشكم وأقواتكم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاستـدلال على وحدانـيّـة الله بخلق الإنسان

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بحرف الواو الدّالّ على العطف والاقتران، لأنّه لمّا كان الاستدلال على البعث متضمّنًا آياتٍ دالّة على تفرّده تعالى بالتّصرّف ودلالتِه على الوحدانية، انتقل من ذلك الاستدلال إلى آياتٍ على ذلك التصرّف العظيم غير ما فيه إثبات البعث؛ تثبيتًا للمؤمنين وإعذارًا لمن أشركوا في الإلهيَّة[5].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 70.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 17، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 308.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.

براعة ترتيب الآية بعد سابقتها:

براعة التّخلُّص

تَظهَر براعةُ ترتيب الآية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾، بعد الآية السّابقة: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾، في التّخلّص من ذِكْرِ دلائل البعث إلى ذِكْرِ دلائل قدرته تعالى على الخَلْق، فإنّها الآية الأولى من آيات الاستدلال على وحدانيّته وقدرته، وفيها مع ذلك شَبَهٌ بالاستدلال على البعث؛ لأنّ خَلْقَ النّاس من ترابٍ، وبثَّ الحياة والانتشار فيهم، هو ضربٌ من ضروب إخراج الحيّ من الميّت المذكور في الآية السّابقة، فلذلك كانت هي الأولى في الذِّكْر لمناسبتها لما قبلها، فجُعلت تخلُّصًا من دلائل البعث إلى دلائل عِظَم القدرة[1].

دلالة التَّعبير بـ(مِن) في ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

ذِكْــرُ بعض الآيات الباهرة لمنفعة الإنسان

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ حرفُ الجَرِّ (مِن)، ومعناه التّبعيض[2]؛ وذلك لأنَّ آيات اللّه أكثرُ مِن أن تُحصى أو تُعَدَّ، وما ذُكِر هنا في هذه الآيات هو بعضٌ مِن كثيرٍ، يؤكِّد هذا ورودُ قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ سِتَّ مرّاتٍ، تنتهي عند قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ [الروم: 25]، فابتدأها بذِكْر خلق الإنسان، ثمّ بخلق العالَم عُلْويًّا وسُفْليًّا؛ إشارةً إلى أنّ الإنسان هو المنتفع بها، والحِكْمة في ذِكْرِ تلك الآيات الاهتداءُ بها[3]، والدّلالةُ على قدرته سبحانه وتعالى مِن خلال هذه الآيات النّفسيَّة والكونيَّة.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ وجَمعها:

كثرةُ الأدلَّة الواضحة والبراهين السّاطعة الدّالّة على الوحدانيّة

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ دون غيرها كـ(دلائل)؛ وذلك لوجود فَرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.
(3) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.

وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، فالمراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّة على وحدانيّة اللّه تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآيات) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ، لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسِّرُّ في جمعها: الدّلالةُ على كثرة آيات اللّه سبحانه الدّالَّةِ على وحدانيّته، والمذكور في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالة الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تعظيم قَدْرِ الآيات وتشريفُ منزلتِها

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى الضَّمير العائد على اللّه ﷻ، باعتباره مصدرها سبحانه وتعالى، والنّكتة في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْر هذه الآيات وتشريفُ منزلتها، فإنّ إضافة الأعيان إلى اللّه تشريفٌ لها، كبيت اللّه، وناقة اللّه، وغيرهما[3].

نُكْتَة تقديمِ شِبه الجملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاهتمام بآيات اللّه سبحانه، والتّنويه بشأنها

تَقَدَّم الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ للاهتمام بآيات اللّه سبحانه والتّنويه بشأنها، وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة اللّه ﷻ وقدرته على البعث.

دلالة التّعبير بالمصدر المُؤَوَّل ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾:

التّذكير بأصل الخَلْق الأوّل من التّراب

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، دونَ المصدر الصّريح (خَلْقُكُم)؛ للدّلالة على زمن الفعل، فإنّ المصدر قد يكون

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

فيما مضى وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلّ عليه، فجيء بلفظ الفعل المشتقّ منه مع ﴿أَنْ﴾ ليجتمعَ الإخبارُ عن الحَدَث، مع الدّلالة على الزّمان، مع إفادة التّذكير بأصل الخَلْق الأوّل من تراب[1].

سرُّ التَّعبير بالخَلْق دونَ غيره:

اختصّ اللهُ بإيجاد الإنسان من غير مثالٍ سابِقٍ

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالخَلقِ في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ دون غيره كالإنشاء والإيجاد؛ لأنَّ الخَلْقَ أعمُّ دَلالةً من (الإنشاء) و(الإيجاد)، وذَلك لأنَّ الخَلْقَ يُطلقُ على معنيين؛ الإيجادُ مِنْ غَيْرِ مثالٍ سابقٍ[2]، فالخَلْقُ بهذا المعنى مختَصٌّ بالله وحدَهُ، قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11]، ومن صِفات الله: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوز هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير الله ﷻ[3]، وقَدْ يَكونُ الخلْقُ بمعنى التَّقْدير[4]، وعِنْدَئذٍ يَدخُلُ فيه تَركيبُ الشّيءِ بضَمِّ بعضِهِ إلى بعضٍ وفقَ تقديرٍ مُعَيَّن، أمّا الإنشاءُ: فإيجادُ الشّيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يقال ذلك في الحَيَوانِ[5]، فأوثِرَ لفظُ الخَلْقِ في الآية لاختصاصِ الرَّبِّ سبحانه بإيجاد الإنسانِ من غير مثالٍ سابق.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾:

عموم الخطاب مع تأكيده بمَن أنكر البعث

توجّه الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى جميع النّاس مؤمنهم وكافرهم، ويؤكّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ [الحج: 5]، وإن كان الكفّار ألصقَ بهذا الخطاب؛ لكونهم

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 92.
(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وجد).
(3) الخليل، العين: (خلق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

منكرين للبَعث، فجاء هذا الاستدلالُ عليهم بأنفسهم؛ لأنهّم أشعرُ بها ممّا سواها[1].

خلْقُ البشرِ أمرٌ أزليٌّ قـدّره اللهُ لـكـلِّ المخلوقين قبلَ أن يخلقهم

دلالة التّعبير بالماضي ﴿خَلَقَكُم﴾:

دلّ التّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ على أنَّه أمرٌ أزليٌّ قدَّرَه اللّٰه سبحانه وتعالى لِكُلِّ المخلوقين الذين أراد خَلْقَهم، يؤكِّد هذا أنّه أخَذَ العهدَ والميثاق على كلِّ المخلوقين في عالَم الأصلاب بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

مبدأُ خَلْقِ كُلِّ بشرٍ من تراب

دلالة التّعبير بـ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن تُرَابٍ﴾:

دلّ حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ على ابتداء الغاية، فإنّ كُلَّ بَشَرٍ مبدأُ خَلْقِه من تراب، أمّا بخصوص آدمَ عليه السلام فظاهرٌ، وأمّا ذرّيَّتُه فلِأنّه خَلق أباهم آدمَ عليه السلام من تُرابٍ، وهذا معروفٌ مِن خطاب العرب إذا خاطبتْ بما فعَلَت بِسَلَفِه تقول: (فعلنا بكم وفعلنا...) وهم قد فُعِلوا بآبائهم[2]، أو لأنّهم خُلِقوا من نُطفةٍ، والنّطفة من صالح الغذاء، الّذي هو بالقوّة بعضٌ من الأعضاء، والغذاء يتكوّن من نبات الأرض، ونباتُ الأرض مشتمِلٌ على الأجزاء التّرابيّة التي أنبتته، فآلَ ذلك إلى أنّ البشر مخلوقين من تُرابٍ، فبذلك استقام جَعْلُ الخَلْقِ من التّراب آيةً للنّاس، أي: علامةً على عظيم القدرة مع كونه أمرًا خَفيًّا؛ على أنّه يمكن أن يكون الاستدلال مبنيًّا على ما هو شائعٌ بين البشر أنّ أصل الإنسان ترابٌ، وفيه إبطالٌ لِنظريّة النّشوء والارتقاء، التي قادها داروين، ووجهُ ذلك مخاطبةُ البشرِ باعتباره بشرًا في قوله: ﴿أَنۡ خَلَقَكُم﴾ فهو بشرٌ خُلِق مِن تراب، وليس مِن شيءٍ آخَر، وقد يُحمل هذا التّعبيرُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 69.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 477.

المجاز بالحذف، بمعنى حذفِ المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه، والتّقدير: (خلق أصلكم - وهو آدم عليه السلام - من تراب)، وقد يكون مجازًا مُرسَلًا علاقتُه السّببيّة، فخَلَقَهم مِن تراب لأنّه تعالى خلق مادَّتهم منه[1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿تُرَابٍ﴾ دونَ غيره:

الـتّراب أبـعدُ الأجـسـام عن قبول الحياة

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالتّراب في قوله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ دون غيره كالطّين والصّلصال ونحوهما؛ لأنّ الترابَ الأصلُ في خلق الإنسان الأوّل، وامتدّ في بنيه مِن بعده إلى يوم القيامة، ولأنّ الطّين في أصله ترابٌ، فعُبِّر بالأصل، ولأنَّ التّعبير بالتّراب في مقام الاستدلال على القدرة الإلَهيّة أبلغُ، والنّكْتَة في ذلك: أنّ التّراب أبعدُ الأشياء عن درجة الأحياء، وذلك من حيثُ كيفيَّته؛ فإنّه باردٌ يابسٌ والحياة بالحرارة والرّطوبة، ومِن حيثُ لونُه؛ فإنّه كَدِرٌ والرّوح نَيّرٌ، ومِن حيثُ فِعْلُه؛ فإنّه ثقيلٌ والأرواح الّتي بها الحياةُ خفيفةٌ، ومِن حيثُ السّكونُ؛ فإنّه بعيدٌ عن الحركة والحيوان يتحرّك يُمْنَةً ويُسْرَةً، وإلى خلفٍ وإلى قُدّام، وإلى فوق وإلى أسفل، وفي الجملة: فالتّرابُ أبعدُ من قبول الحياةً عن سائر الأجسام، فكان إنشاءُ المخلوق الحيّ المُدرِكِ منه دالًّا على العظَمة، وتمامِ القُدْرة للخالق سبحانه[2].

نُكْتَةُ التّنكيرِ في ﴿تُرَابٍ﴾:

خلقُ البَشر مِن مُطلَق التّراب

جاء في قوله تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ لفظُ ﴿تُرَابٍ﴾ نكرةً، ويحتمل التّنكيرُ فيه الدّلالةَ على الإبهام وعدم التّعيين، فالبشرُ مخلوقون من مُطلَق التّراب، كما يحتمل التّنكيرُ الدّلالةَ على التّحقير، فذُكِّرَ البشرُ بنسبتهم إلى التّراب؛ لئَلّا يُعجبوا بأحوالهم، وليُدرِكوا أنّ الأصل تُربةٌ، ولكنّ العِبرة بالتّربيّة لا بالتُّربة[3].

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 89.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 112.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ في جملة: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾:

خَلْقُ الإنسانِ في أطوارٍ عديدةٍ

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ دون غيره؛ لقصد إفادة التّراخي في المُدّة، فانتشارُ البشر في الأرض لا يتأتّى إلّا بعدَ مرورِهم بأطوارٍ متعدّدة، منها: أطوارُ خَلْقِهم في بطون أُمَّهاتِهم، وأطوارُ طفولتهم وصباهم، إلى أن يبلغوا سنّ الرّشد، ودليله قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ [غافر: 67][1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿إِذَآ﴾ في ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾:

خُلِقَ الإنسانُ مِن تُرابٍ بأمر التّكوين

عُبّر بحرف ﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ لأنّها لِلمفاجأة، يقال: خرجت فإذا أسدٌ بالباب، والمعنى: فاجَأتُم كَونَكم لكم بَشَرةٌ هي في غاية التّماسك والاتّصال معَ اللّين، عكسَ ما كان لكم منَ الوصف إذْ كنتم ترابًا، وفي ذلك أيضًا إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى خَلَقَ الإنسان مِن تُرابٍ بـ(كن) فكان، لا أنّه صار معدنًا ثمّ نباتًا ثمّ حيوانًا ثُمّ إنسانًا[2].

نُكْتَةُ الجمعِ بين التّراخي والمفاجأة:

تراخي الزّمان في الخَلْق العجيب للإنسان

جُمِع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ بينَ التّراخي المدلول عليه بحرف ﴿ثُمَّ﴾، والمفاجأة المدلول عليها بحرف ﴿إِذَآ﴾، مع أنّ ﴿إِذَآ﴾ الفجائيّة أكثرُ ما تقع بعد الفاء، لكنّها وقعت هنا بعد ﴿ثُمَّ﴾، لما يليق بهذه الحالة الخاصّة، وهي أطوار الإنسان، كما حكاها اللّهُ تعالى في مواضع، من كونه نطفةً، ثمّ علقةً، ثمّ مضغةً، ثمّ عظمًا مكسوًّا لحمًا[3]، ونُكتةٌ بلاغيّةٌ أخرى في تصدير الجملة

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 75.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 90، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 65.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 37.

بحرف المفاجأة، وهي: أنّ كونَ الخلق بَشرًا يَظهَر للنّاس فجأةً بوضع الأجنّة، وما بين ذلك من الأطوار التي اقتضاها حرفُ المُهْلة هي أطوارٌ خفيّةٌ غيرُ مشاهدةٍ، فكان الجمعُ بين حرف المُهلة وحرف المفاجأة تنبيهًا على ذلك التّطوّر العجيب، وحصل من المقارنة بين حرف المهلة وحرفِ المفاجأة شِبهُ الطِّباق، وإن كان مرجِعُ كلٍّ من الحرفين غيرَ مرجعِ الآخَر[1].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾:

تسمية الإنسان بالبَشَر اعتبارًا بظهور جِلْدِه من الشَّعَر

أوثِر التّعبيرُ بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ دون (خَلْقٍ)؛ لأنّه اسمُ جمعٍ للنّاس، يُعبَّر به عن الإنسان اعتبارًا بظهور جِلْدِه من الشَّعر، بخلاف (خَلْقٍ) فهو مصدرٌ سُمّي به جميعُ المخلوقات من إنسانٍ وحيوانٍ وجمادٍ وطَيرٍ ونحوِ ذلك، وبما أنّ الخطاب موجّهٌ للمُكَلَّفين المخلوقين من ترابٍ ناسبَ ذِكْرُ (البشر) دونَ غيره.

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿بَشَرٌ﴾:

الدّلالة على كثرة الخَلْق

جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ لفظُ ﴿بَشَرٌ﴾ نكرةً، والنّكْتَةُ في تنكيره التّكثيرُ، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النّساء: 1]، فبثّ اللّه من آدم عليه السلام بشرًا كثيرين.

دلالة تقييد ﴿بَشَرٌ﴾ بجملة ﴿تَنتَشِرُونَ﴾:

قــدرةُ الخالق سبحانه في خلق بَشَرٍ يجمعون بين الإدراك والحركة

قُيّد الخبر ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ بجملة ﴿تَنتَشِرُونَ﴾، وهي في محلّ الحال، والنّكْتَةُ في ذلك التّعجيبُ من قدرة الخالق سبحانه في خَلْق بشرٍ منتشرٍ بقوّةٍ مُدرِكَةٍ وقوّةٍ مُحرِّكَةٍ من ترابٍ ساكنٍ خامدٍ، فالخَلْق وحدَه عجيب، وجَعلُه منتشرًا من جمادٍ عجيبٌ أيضًا، ودالٌّ على عظيم القدرة في الإحياء والإماتة[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 70.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 90.

دلالةُ التّعبير بالانتشار في الآية:

عظَمةُ الخالقِ في تصريف المخلوقات في أمور معايشهم

عُبّر بلفظ الانتشار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على عظَمة الخالق سبحانه في تصريف المخلوقات في أمور العيش، وأصلُ مادَّةِ الانتشار يدلّ على التّشعّب[1]، فقد خلق اللّهُ سبحانَه من التّراب الذي لا تُرى فيه رائحةُ حياةٍ بشرًا يتشعّبون في الأرض، ويمشون في مناكبها، ويتقلّبون فيها تارةً عن طريق الزّراعة، وتارةً عن طريق التّجارة، وتارةً عن طريق الأسفار طَلَبًا للرّزق، وفي هذا أيضًا امتنانٌ على الإنسان بِنِعَمٍ تستوجب التّسبيح والشُّكران[2].

بلاغةُ المضارِع في ﴿تَنتَشِرُونَ﴾:

تجدُّدُ انتشارِ النّاس لعمارة الكون

جاء الفعل ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ بصيغة المضارع للدّلالة على التجدّد والاستمرار، فالبشر لا يفتُرون مِن التّحرّك في مصالحهم، والتّصرّف في قِوام معيشتهم، ويتجدَّدُ منهم كلَّ يومٍ سَعيٌ في تحصيل أرزاقهم وإصلاح شؤونهم.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿تَنتَشِرُونَ﴾:

إرادةُ فعلِ الانتشار بذاته

حُذف مُتَعَلَّق الفعل ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾؛ لكون فعل الانتشار في حدّ ذاته هو المقصودُ مِن الكلام، دونَ التّعرّض لمكان الانتشار أو زمانه، فالغَرضُ العامّ مِن ذِكرِ الفِعْلِ مجرّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المُجرَّد في الشّيء دونَ التّعرّض للمعمول[3]، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلامُ مُنصَبًّا على غرضٍ مِن الأغراض جُعل سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرحٌ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشر).

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّراب والغُبار:

الـــتّراب مـــادّةُ خَـلْـقِ الإنـسـان دونَ الغُبار

يظهر الفرْقُ بَين اللّفظين في كون الغُبار هو ما دقّ من أجزاء التّراب، ولهذا نَصَّ بعضُ الفقهاء على عدم جواز التَّيَمُّمِ إلّا بتراب طاهِرٍ له غُبارٌ يَعلَقُ باليد، وقد ورَدَ في كثيرٍ مِن آيات القرآن لفظُ (التراب) في ذكر مادَّة خلق الإنسان كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [فاطر: 11]، ولم يرد لفظ الغُبار في القرآن، وإن كان ورد بمعناه (النّقع) في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤﴾ [العاديات: 4]، والنّقع: الغبار[1]، فأوثِرَ لفظُ التّراب في الآية لكونه مادَّةَ خَلْقِ الإنسان دون الغبار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 501.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الرّوم: 21]

عَظَمَةُ الخالقِ في إبقاء النوع الإنسانيِّ بالتّزاوج

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّن اللّهُ في الآية السّابقة خَلْقَ الإنسان، ولم يكن مِن الأشياء الّتي تبقى وتدوم سِنين متطاولة، بيّن هنا ما يكون به بقاء الجِنس وهو التّزاوج والتّناسل، وبيّن ما يكون به بقاء هذا الزّواج من مودّةٍ ورحمةٍ، وأنّ جميع ذلك من آيات اللّه سبحانه وتعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾: (زوج) أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شيءٍ لِشيءٍ، مِن ذلكَ الزَّوْجُ زَوْجُ المَرأةِ، والمَرأةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][1]، فالزَّوجُ كُلُّ شَيءٍ ثانٍ مَعَ شَيءٍ آخَرَ، بَينَهُما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيَتِ الأُنثَى القَرينَةُ لِلرَّجُلِ بِنِكاحٍ زَوجًا؛ لِأَنَّها اقتَرَنَت به وصَيَّرَتْه ثانيًا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوجًا لها لِذلكَ بِلا فَرْقٍ[2]، فالأزواج في الآية: جمع زوجٍ، بمعنى المرأة المقترنة بالرّجل بنكاحٍ، فالمقصود: (زوجات).

2) ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾: (سكن) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الاضطراب والحَرَكةِ[3]، فالسُّكونُ ضِدُّ الحركة، يُقالُ: سَكَنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، إذا ذهبت حركتُه، وكلُّ ما هَدَأَ فقد سَكَن، كالرّيح والحَرِّ والبَرْد ونحوِ ذلك، وسَكَنَ الرَّجل: سكَتَ[4]، والسَّكن: سُكّانُ الدّار،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زوج)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 428.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (جعل)، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 225.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).

وهو الدّار أيْضًا، والسَّكَن كذلك: صاحبُك الَّذي تسكُن إليه؛ فلانٌ سَكَني، أي: الَّذي أسكن إليه[1]، والسُّكون الاطمئنانُ والتَّأنُّس، والسَّكينة: الطَّمأنينة والاستقرار والرَّزانة والوقار[2]، وأمّا السُّكون في الآية فمُستعارٌ للتَّأنُّسِ وفرَحِ النَّفْسِ؛ لِأنَّ في ذلكَ زوالَ اضطرابِ الوَحْشَة والكمَد بالسُّكونِ، الَّذي هو زَوالُ اضطرابِ الجِسْم[3].

3) ﴿مَّوَدَّةً﴾: (ودد) أصلٌ يدُلُّ على محبَّةٍ، ودِدْتُهُ: أحببتُه، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تمنَّيتَه، وفي المحبَّةِ الوُدُّ، وفي التَّمنّي الوَدادَةُ؛ لأنَّ التَّمنّي هو تَشهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ[4]، والوُدُّ يُستعملُ كنايةً عنِ السَّعْي لحصولِ الشَّيءِ المَوْدود؛ لأنَّ الشَّيءَ المحبوبَ لا يمنعُ من تحصيلِهِ إلّا مانعٌ قاهرٌ فهو لازمٌ للوُدِّ[5]، والمرادُ بالمودَّة في الآية: المحبَّةُ.

4) ﴿وَرَحْمَةً﴾: (رحم) أصلٌ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفة، يُقالُ من ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه، والرَّحِمُ: علاقَةُ القرابةِ، ثمَّ سُمّيت رَحِمُ الأُنثى رَحِمًا من هذا، لأنَّ منها ما يكونُ ما يُرحَمُ ويُرَقُّ له من ولَدٍ[6]، والرَّحمَةُ: اسمُ مصدرٍ لصفةِ الرّاحِم وهي من صِفاتِ الإنسانِ، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبعثُ على سَوْقِ الخيرِ لمن تتعدَّى إليهِ[7]، والمراد بها في الآية: صفةٌ تبعثُ على حُسْنِ المُعاملة[8].

5) ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: (فكر) أصلٌ يَدُلُّ على تَرَدُّدِ القَلْبِ في الشَّيءِ، يُقالُ: تَفَكَّرَ إذا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا، ورَجُلٌ فِكّيرٌ: كَثيرُ الفِكْرِ[9]، والفِكْرَةُ: قوّةٌ مطرقة للعِلْم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جوَلان تلك القوّةِ بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دونَ الحيوان، ولا يقال إلّا فيما يُمكن أن يحصل له صورةٌ في القلب[10]، والمقصود بالتَّفكُّر في الآية: تَكلُّفُ الفِكرةِ، وهو معالجَةُ الفِكْرِ ومُعاودةُ التَّدَبُّرِ في دلالَةِ الأدِلَّةِ على الحَقائق[11].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (سكن).
(2) مجمع اللّغة العربيّة، المجمع الوسيط: 1/ 440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 24.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ودّ، ودد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 301.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (فكر).
(10) الرّاغب، المفردات: (فكر).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 26.

المَعنى الإجماليُّ:

بناء الأسرة آيةٌ عظيمة مِن آيات الله

ومِن آيات اللّه الدّالَّة على رحمته بكم أنَّه خَلَق لكم مِن أنفُسِكم أزواجًا لِتَحصُلَ المناسَبةُ والأُلْفةُ والاطمِئنانُ بيْنَكم، وجعَلَ بيْنَكم - أيُّها الأزواجُ - مَحبَّةً عظيمةً، ورَحمةً يَعطِفُ بها بَعضُكم على بعضٍ، إنَّ في هذا الخَلْقِ والجَعْلِ لَعَلاماتٍ ودلالاتٍ على قُدرةِ اللّهِ وحِكمتِه ورَحمتِه، وغيرِها، لِقَومٍ يُعمِلونَ فِكرَهم في ذلك[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاســـتـــدلال عـلـى الـرّبـوبـيّـة والـوحـدانـيّـة بخَلْق الزّوجيّة

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لجمع الآيات المتعلِّقة بالإنسان أصلًا وتناسلًا، ولِما فيها من عِظةٍ وتذكيرٍ بنظام النّاس العامّ، وهو نظامُ الازدواج وكينونة العائلة وأساس التّناسل، وهو نظامٌ عجيبٌ جعله اللّهُ مرتكِزًا في الجِبِلَّة البشريّة[2].

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

ذِكْـــرُ بـعـضِ الآيـات الباهرة المتعلّقة بوجود الإنسان

دلَّ التّعبير بـ(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ على التّبعيض[3]، في سياق ذِكْر بعضِ آيات اللّه التي استدلّ بها على ألوهيّته ووحدانيّته، فهذه هي الآيةُ الثّانية مِن آياتٍ سِتٍّ تنتهي عند قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ [الروم: 25]، التي فيها ذِكرُ خَلْقِ الإنسان، وخَلق العالَم علويًّا وسُفليًّا[4]، وفائدةُ هذا الأسلوبِ أيضًا الإشعارُ بأنَّ ذلك آيةٌ خارِجةٌ مِن جنس الآيات، مستقلَّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 478، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 35، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 70.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.

(4) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، وجمعها:

كثرةُ الأدلّة الواضحة والبراهين السّاطعةِ الدّالّةِ على الوحدانيّة

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ دون غيرها كـ (دلائل)؛ وذلك لوجود فرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل، وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، فالمُراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّة على وحدانيّة اللّه تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآيات) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ، لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسِّرُّ في جمعها دون الإفراد: الدّلالةُ على كثرة آيات اللّه سبحانه، الدّالَّة على وحدانيّته، والمذكورُ في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالة الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تعظيمُ قَدْرِ الآيات وتشريفُ منزلتِها

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ إلى الضّمير العائد على اللّه ﷻ باعتباره مصدرَها سبحانه وتعالى، والنّكتةُ في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْرِ هذه الآيات وتشريفُ منزلتِها، فإنّ إضافة الأعيان إلى اللّه تشريفٌ لها، كبيت اللّه، وناقة اللّه، وغيرهما[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاهتمامُ بآيات اللّه سبحانه والتّنويهُ بشأنها

تَقَدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ للاهتمام بآيات اللّه سبحانه والتّنويه بشأنها، وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة اللّهِ ﷻ وقدرته على البعث.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ خَلَقَ﴾:

خَـلْـقُ الـلـهِ الزّوجيَّةَ للأُنس والسَّكن

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ دون المصدر الصّريح (خَلْقُ)؛ للدّلالة على زمن الفعل، فإنّ المصدر قد يكون فيما مضى وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلّ عليه، فجيء بلفظ الفعل المشتقّ منه مع ﴿أَنْ﴾ ليجتمعَ الإخبارُ عن الحَدَث مع الدّلالة على الزّمان، مع إفادة الامتنان على الإنسان بخَلْق زوجٍ له من جِنْسه ليُؤْنِسَه.

دلالةُ التّعبير بفعل الخَلْق ماضيًا:

قِـدَمُ خَـلْـقِ الـزّوجـيّـةِ للإنسان

أوثرَ استعمالُ الزّمنِ الماضي في الفعل ﴿خَلَقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، والنّكْتَةُ في ذلك: أنّه لـمّا كان إيجادُ الأنثى من الذّكر أمرًا خاصًّا، ولم يكن إلّا مرّةً واحدةً كالخلق من التّراب، عُبّر بالماضي[1]، ويفيد هذا الزّمنُ الدَّلالةَ على قِدَم خَلْقِ الزّوجيّة، فقد كان مع خَلْقِ آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾:

تـذكـيرُ الـنّـاس بسُنَن الـلـه عَجَلَّ الـسّـائـرة في الخَلْق

تَوجَّهَ الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إلى جميع نوع الإنسان، الذّكور والإناث، باعتبار أنّ خَلْقَ الأزواجِ ذكورًا وإناثًا سُنَّةٌ من سُنَن اللّه عَجَلَّ في خلقه أجمعين مسلمِهم وكافرِهم[2].

دلالةُ التّعبير بـ(اللّام) في ﴿لَكُم﴾:

الامتنان بخَلْق الزّوجِ لأجل نفع الإنسان

دلّ حرفُ اللّام مِن ﴿لَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ على اختصاص الإنسان بالزّوجيّة المَبنيَّة على المودَّة والرَّحمة، دونَ غيره مِن المخلوقات، وقد أُدمج

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 66.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71.

في هذه الآية الامتنانُ بخَلْقِ الزَّوج لأجل نفع الإنسان مِن الأُنس واستمرارِ نَسْله وبقائه في هذا الكون[1].

دلالة ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾:

خَلقَ من أبيكم آدمَ حواءَ، ومِن جِنْسِكم بناتِ حواءَ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ دون غيرها، فإمّا أن تكون بمعنى التّبعيض، وتكون (الأنفس) بمعناها الحقيقيّ، أي: (خلق لأبيكم آدمَ من نفْسِه زوجةً ليسكن إليها)، وذلك أنّه خَلَقَ حواءَ مِن ضِلَعٍ مِن أضلاع آدمَ، فحُمِل ذلك على جميع النّساء من حيثُ إنّ أمَّهم مخلوقةٌ من نَفْس آدمَ، أي: مِن ذات شَخْصِه، والنّساءُ بعدَها خُلِقنَ من أصلاب الرّجال[2]، وإمّا أن تكون ابتدائيّةً، والأنفسُ مجازًا عن الجنس، أي: (خلق لكم مِن جِنسكم لا مِن جنسٍ آخر)، وهو الأوفقُ بقوله تعالى: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ أي: لتميلوا إليها[3]، وفي التَّعبير بقوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ دلالةٌ على أنّ الذّكرَ والأنثى يعودان في أصل خِلْقَتِهما إلى النّفس الواحدة، فلا ينبغي التّعالي أو الاستكبار مِن طَرَفٍ على طرفٍ؛ لأنَّ الجميع مِن آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾:

الجنسيَّةُ سببٌ للتّقارب، والاخْتلافُ سببٌ للتّنافر

يرى بعضُ العلماء أنّ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ مجازًا بالنّفس عن الجنس، فإنّ الجنسيَّة عِلَّةٌ للضّمّ، والاخْتلافُ سببٌ للتّنافر، ونظيرُه قَوْله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التّوبة: 128]، وقَوْلُه تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164][4]؛ وذلك لأنَّ الاتّفاق في الجِنس يدلُّ على تقارب الطِّباع، ممّا يُيَسِّر أمْرَ الحياة الزّوجيَّة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 478.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 119.

ويُؤَكِّد هذا أنّ إرسال الرُّسل جاء مِن جنس البشر؛ ليأخذوا منهم القدوةَ، وليسهُلَ التّعامل معهم، بخلاف ما لو جاءت الرُّسل مِن جِنسٍ آخَرَ.

لطيفةُ جَمْعِ (الأنفس):

اقتضاء الجمع القسمة إلى آحاد

جاء لفظُ (الأنفس) جمعًا في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ باعتبار جماعة المخاطَبين، وإشارةً إلى النّسل الكثير المنحدر من آدمَ وحوّاءَ، وحملًا لبني آدمَ على أبيهم آدم، ولبنات حوّاءَ على أُمّهنّ حوّاء؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النّساء: 1]، فيكون من مقابلة الجمع بالجمع الموجب لانقسام الآحاد إلى الآحاد[1].

دلالةُ تقديمِ ﴿لَكُم﴾ و﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ على المفعول:

الاهتمامُ بالإنسان، وإبقاءُ نوعِه بالتّوالد

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ للدَّلالة على الامتنان على نوع الإنسان، بمعنى: (خَلَقَ ذلك لأجلكم؛ ليبقى نوعُكم بالتّوالُد)، وفي تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ دلالةٌ على حُرمة التّزوّج من غير النّوع[2].

دلالةُ التّعبير بالزّوجيّة في ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

الزّوجيّة اقترانٌ ناجِعٌ بين الذّكور والإناث

عَبّرَ القرآنُ الكريمُ بِلَفظ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ لدلالته على الاقتران، فالمادّة اللّغويَّة دالّةٌ على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، ومِن ذلك الرّجلُ: زوجُ المرأة، والمرأةُ زوجُ بعلِها، فالزّوجُ: كلُّ شيءٍ ثانٍ مع شيءٍ آخر، بينهما تقارنٌ في حالٍ ما، ففي التّعبير بالزّوجيَّة إشارةٌ إلى اقتران الذّكر بالأنثى، مع

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 119، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/ 258.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 66.

كمال الاستقرار بالإنجاب والمودّة والرَّحمة، ففي الآية بيانُ النّموذج الكامل للأسرة المستقرّة، وذلك بإيجاد الاقتران المشتمل على السّكن والمودّة والإنجاب.

دلالةُ الجمع مع التّنكير في ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

كـثرة الأزواج المخلـوقة من نفس واحدة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ بالجمع والتّنكير؛ للدَّلالة على كثرتها وتعظيمها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النّساء: 1]، فالمُنعِم بهذه النِّعمة العظيمة مستحقٌّ للحمد والطّاعة.

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾:

الـغـرض من الـزّواج سكونُ كِلا الزَّوجين إلى الآخر

دلَّ حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ على العِلَّة المقصودة مِن الزّوجيَّة، وهي السّكون، وهذا ظاهرٌ في أسلوب هذه الآية، حيثُ عُلّل خَلْقُ الأزواج بالسّكون إليها، وهو الإلف، فمتى كان الزّوجان مِن جنسٍ واحد، كان بينهما تآلفٌ، بخلاف ما لو كانا مِن جنسين مختلفين، فإنَّه يكون بينهما التّنافر، وهذه الحكمة في بعث الرُّسل من جِنس بني آدم(1).

بلاغةُ الاستعارة في ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾:

استعارة السّكن للأنس وفرح النّفس

تضمّن قولُه تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ استعارةً بديعةً في الفعل ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾، فالسّكون هنا مُستعارٌ للأُنس وفَرَحِ النّفس؛ لأنّ في ذلك زوالَ اضطرابِ الوحشة والكمد بالسّكون، الّذي هو زوال اضطراب الجسم، كما قالوا: (اطمأنَّ إلى كذا، وانقطع إلى كذا)، وأوّل ارتفاقِ الرّجل بالمرأة سكونُه إليها(2).

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.

دلالة المضارعة في الفعل ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾:

استمرارُ الأُنس باستمرار العِشرة الزّوجيَّة

جاء الفعل ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على الدّوام والاستمرار، فسكونُ الزّوجين إلى بعضهما دائمٌ مستمرٌّ باستمرار العِشرة الزّوجيَّة، ولا يستغني أحدُ الزّوجين عن زوجه لتجدّد الحاجة إليه والأنس به في كلّ وقت، وفي هذا التَّعبير دعوةٌ إلى تجديد السّكن النّفسيِّ بين الزّوجين، واستحضار ثمارِه مع متغيِّرات الحياة ونوائِبها.

نُكْتَةُ تقييد ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ﴾ بـ﴿إِلَيۡهَا﴾:

السّكونُ القلبيُّ قبلَ السّكونِ الجسمانيّ

أوثِرَ التّعبيرُ في تقييد (السّكون) بـ﴿إِلَيۡهَا﴾ دون (عندها) في قوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾؛ للدّلالة على انتهاء الغاية المناسبة للاطمئنان النّفسيّ، فيقال: (سكن إليه) للسّكون القلبيّ، ويقال: (سكن عنده) للسّكون الجسمانيّ، فكلمة (عند) لظرف المكان وهو للأجسام، و(إلى) للغاية وهي للقلوب[1]، أو لأنّه مِن باب التّضمين، فيكون الفعلُ (تسكنوا) قد ضُمِّنَ معنى الفعل (تميلوا)، فعُدّيَ بحرف (إلى)، وإن كان حقُّه أن يُعَلَّقَ بـ(عند) ونحوها منَ الظّروف؛ دلالةً على معنى كلمتين: السّكون والميل، فكلٌّ مِن الزّوجين يسكُن ويميل قلبُه إلى زوجه، بما أودعَ اللّهُ فيهما منَ المودّة والرّحمة[2].

دلالةُ التّعبير بـ(الواو) في ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ﴾:

تتميمُ المِنّة بجَعْلِ المودّة والرّحمة

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ تتميمًا للفضل والامتنان، فعَطَفَ اللّهُ سبحانه على نِعمة خَلْقِ الأزواج نعمةً أخرى، وهي جَعْلُ المودّةِ والرّحمة بينهما، فالسّكن لا ينتظم إلّا بدوام الأُلفة.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 91.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 687.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾:

تصييرُ المودّة والرّحمة بين الزّوجين لتحقيق الأُلفة

أوثِرَ التّعبير بالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ دون غيره؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ في الأفعال كُلّها، وهو أعمُّ مِن (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجُهٍ حسب السّياق الّذي يرد فيه[1]، وهو في هذه الآية بمعنى التّصيير، فقد صيّر اللّهُ الكريمُ بمنّه بين الأزواج بسبب الخَلْقِ على هذه الصِّفة مودّةً ورحمةً[2]، وفي التّعبيرِ بـ﴿وَجَعَلَ﴾ إشارةٌ إلى الحُبِّ الشَّرعيِّ دون الميل الفِطريِّ بين الجِنسَين، فلا وجْهَ للصّداقة والمخاللة قبل الزّواج بزَعْم تَعَرُّفِ كُلٍّ على الآخر، لأنَّ الذي يُحوِّل القلوبَ بين الرّجل والمرأة ويؤلِّف بينهما هو اللّه سبحانه وتعالى، بدليل التّعبير بالجعل.

نُكْتَةُ صَوغِ الفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ ماضيًا:

تحقّقُ المودّةِ والرّحمة بين الزّوجين

جاء الفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ بصيغة الماضي لتحقّق المودّة والرّحمة بين الزّوجين، كما يفيد أيضًا الدّلالةَ على قِدم هذا الجَعْل، فقد كان منذ خَلْق الأزواج بخلْق آدمَ وحوّاء عليهما السلام، وما صيّر بينهما من أُلْفَة، فالأصلُ في الحياة الزّوجيَّة أن تُبنى على المودَّة والرَّحمة، فهُما لا ينفكّان عنها، وعلى الزَّوجَين أخْذُ الأسباب لتحقيق ذلك بدفع العوارض التى تُعَكِّرُ صَفْوَ المَوَدَّة والرّحمة.

نُكْتَةُ التّقييد بالظّرف ﴿بَيۡنَكُم﴾:

تغليبُ جنس الرّجال على النّساء في الأحكام

ورد تقييدُ (جَعْلِ المودّة والرّحمة) بالظّرف ﴿بَيۡنَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ والمراد: (بين الأزواج)، وذلك إمّا على تغليب الرّجال على النّساء في الخطاب، أو على حذف ظرفٍ معطوفٍ على الظّرف المذكور، أي: (جعل بينكم وبينهنّ) كما في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285]، فالمرادُ بالمَوَدَّة

(1) الراغب، المفردات: (جعل).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 67.

والرّحمة ما كان منهما بعصمة الزّواج قطعًا، أي: (جَعَل بينكم بالزّواج الّذي شرعه لكم توادًّا وتراحُمًا، مِن غير أن يكون بينكم سابقةُ معرفةٍ ولا رابطةٍ مصحِّحَةٍ للتّعاطف مِن قرابةٍ أو رَحِمٍ)[1].

نُكْتَةُ تقديم الظّرف ﴿بَيۡنَكُم﴾:

جَعْلُ المودّة والرّحمة بالزّواج دون غيره

تقدّم الظّرفِ ﴿بَيۡنَكُم﴾ على المفعول ﴿مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ لإفادة الاختصاص، فقد حصر اللّهُ سبحانه جَعْلَ المودّة والرّحمة في ما كان بالزّواج المشروع بين الرّجال والنّساء دون غيره من العلاقات المحرّمة القائمة على أساس قضاء الشّهوات، والمفضية إلى كثيرٍ مِن المفاسد والآفات.

دلالة التّعبير بِ(المودّة والرّحمة):

دعوةُ الشّرعِ إلى بناء الزّوجيّة على المودّة والرّحمة

عُبِّرَ بلفظَي المودّة والرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾؛ لأنَّهما الأساسُ في بناء الزّوجيَّة، فمعنى المودّة: المحبّةُ، ومعنى الرّحمةِ: الشَّفَقَةُ، فالزَّوجانِ يكونان قَبْلَ التّزاوُج متجاهلَين، فيُصبِحان بعد التَّزاوج مُتحابَّين، ويكونان قبلَ التّزاوج لا عاطفةَ بينهما، فيصبحان بعد التّزاوج متراحِمَين كرَحمة الأُبوَّة والأُمومة، يعطف بها الزَّوجُ على زوجه[2].

سرُّ التّعبير بالمودَّة دون الحبّ:

المودّةُ حُبٌّ وعملٌ

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمَودَّة دون الحُبِّ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ ليُفرِّق بين الحُبِّ الفِطريّ الذي يكون بين الذَّكر والأنثى، والذي هو مجرّد ميلٍ طبيعيٍّ فِطريٍّ، وبين الحُبِّ الشّرعيِّ الذي يكون مبنيًّا على الزّواج، والذي يتطلّبُ جهدًا وعَملًا، في التّعاطف والتّفاهم والحنان والشّفقة والتّضحيّات؛ ولم ترد في القرآن الكريم مفردة (الحبّ) بين الجنسين الذّكر والأنثى إلّا في

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30] في وصف مُيولٍ مُحرَّمٍ خارجَ نطاق ما شرعه اللّه.

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾:

عِـظـم المــودّة والـرّحـمـة بين الزّوجين

جاء التّعبير بلفظ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ نَكِرَتَين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك التّعظيم، بمعنى أنّ اللّه سبحانه يجعل في كلٍّ مِن الزّوجين مودّةً ورحمةً عظيمتين اتّجاه الطَّرَف الآخَر بمُجرَّد الزّواج، وهذا من آياته العظيمة في تصريف قلوب البشر، بعد أن لم تكن بينَهم سابقةُ معرفةٍ، ولا لقاءٍ، ولا سببٌ يوجِب التّعاطُفَ مِن قرابةٍ أو رحمٍ.

الكناية في لفظ ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾:

المودّةُ كنايةٌ عَن النّكاح والرّحمةُ كنايةٌ عن الولد

قال بعضُ العلماء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بأنّ (المودّة) كنايةٌ عن النّكاح - أي: الجماع - للزومها له، و(الرّحمة) كنايةٌ عن الولد، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: 21]، وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2][(1)].

نُكْتَةُ تقديمِ (المودّة) على (الرّحمة):

المـــودّة أصـلُ البناء، والرّحمة من لوازمه

تقدّمتِ المودّةُ على الرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، لأنّ مودّة الرّجلِ لزوجه تكون في فترة شبابها، فإذا كَبِرت وعَجَزت رَحِمها، وقال بعضهم: بأنّه حين تتأصّل المودّةُ بين الزّوجين تتولّد بينهما الرّحمة، وقيل أيضًا: إنّ المودّة للكبير والرّحمة للصّغير[(2)]، وقيل أيضًا: إنّ المودّة هي الأصلُ في بناء الحياة الزّوجيَّة مع كمال مقوِّماتها مِن الصِّحَّة والغنى والجمال، لكنّ الحياة لا تدوم على ذلك، ففي حال طروِّ المتغيِّرات مِن مرضٍ وفقرٍ وغيرهما، تكون الرَّحمةُ عنوانًا لهذه الأسرة؛ لتُضمّد آلامَها، وتجبرَ كسرَها.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 225، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.

عِلّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾:

توكيد المعنى السّابق وإبرازُ حكمه في صورةٍ كُلّيّةٍ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عن صدر الآية على سبيل الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه خرج مخرج التّذييل لِما سبق، وفائدةُ التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمِه في صورةٍ كُلّيَّة[1]، فأكَّد اللّهُ سبحانه أنّ ما ذَكَره مِن خَلقِ أزواجِهم مِن أنفسهم وإلقاءِ المودّة والرّحمة بينهم، مشتمِلٌ على آياتٍ عظيمةٍ على قُدرة الخالق ﷻ وحِكمته.

فائدةُ تتابعِ المؤكّدات في الآية:

المبالغة في التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عِدَّةُ مؤكِّداتٍ مِن التّأكيد بـ(إنَّ)، والجملة الاسميّة، وتقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، ولامُ التّأكيد، وكلُّها من مؤكِّدات مضمون جملةِ الإسناد، وقد جاء الخبر على الضّرب الإنكاريِّ، مبالغةً في التّأكيد على عَظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيّة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

اشتمالُ الآياتِ على دلائل القدرة القاهرة

استُعمل حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّة في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنّ معجزة الزّوجيّة قدِ اشتملت على آياتٍ عظيمةٍ، ودلائلَ باهرةٍ على عَظَمة اللّه سبحانه، ووحدانيّته في ربوبيّته وألوهيّته، وأنّ معانيَ العظَمة أحاطت بها في الظّاهر والباطن إحاطةَ الظَّرف بالمظروف.

بلاغة الإشارة باسم ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استعارة البُعد المكانيّ للبُعد المعنويّ في المنزلة

أُشير في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إلى ما تقدّم ذِكرُه مِن خَلقِ الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه من معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد منزلته، فهي آياتٌ عظيمةٌ لا يُكتَنَهُ كُنهُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها[2].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 07/ 56.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمام بأدلّة الوحدانيّة الواضحة وبراهينِ القدرة السّاطعة

تقدّم الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لِنُكتَة الاهتمام بما سبق ذِكْره في الآية الكريمة، مِن أدلّةٍ واضحةٍ وبراهينَ ساطعةٍ دالّةٍ على وحدانيّة الخالق وعظيم قدرته.

دلالة التّعبير بـ(اللّام) في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾:

زحلقةُ اللّامِ كراهةَ اجتماع مؤكّدين في محلّ واحد

اتّصل حرفُ اللّام في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بلفظ (آيات)، وهي لامُ الابتداء، وغرضُها التّوكيد، والأصل أن تَقَع قبل ﴿إِنَّ﴾، لكن كَرِهَ العرب أن يجتمع مؤكّدان في محلٍّ واحدٍ - كما يقول النّحويّون - فزحلقوا اللّام عن موضعها.

دلالةُ جمع ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾:

شمولُ الآية القرآنيّة على عدّة آياتٍ كونيّة

جُمِع لفظُ ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مع أنّ المشار إليه واحدٌ؛ للدّلالة على أنّها آيةٌ عظيمةٌ تنطوي على عدّة آياتٍ، منها: أنّه سبحانه جعل للإنسان ناموسَ التّناسل، وجعل تناسلَه بالتّزاوج، ولم يجعله كتناسل النّبات مِن نفسه، وجعل أزواجَ الإنسان من صنفه ولم يجعلها مِن صنفٍ آخر، وجَعَل في ذلك التّزاوج أُنسًا بين الزّوجين، وجَعَل بَين كُلِّ زوجين مودّةً ومحبّةً، فالزّوجان يكونان من قَبْل التّزاوج متجاهلَين، فيصبحان بعد التّزاوج متحابَّين متراحِمَين، فلأجل ما ينطوي عليه هذا الدّليلُ مِن النِّعَم والدّلائل جُعِلت هذه الآيةُ آياتٍ عدّة[1].

دلالةُ تنكير ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾:

آياتُ اللّه عظيمةٌ في نفسها، كثيرةٌ في عددها

جاء لفظُ ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على العظَمة في نفسها، والكَثْرة في عددها، فهي آياتٌ عظيمةٌ، ودلائلُ باهرةٌ على عظمة اللّه سبحانه، وقدرته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

على البعث والنّشور، وهي آياتٌ كثيرةٌ باعتبار اشتمال ذلك الخلق على دقائقَ كثيرةٍ متولّدٍ بعضُها عن بعض، يُظهرها التّأمّلُ والتّدبّرُ، بحيثُ يتجمّع منها آياتٌ كثيرةٌ[1].

دلالةُ (اللّام) في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

تعليلُ انتفاعِ القوم المتُفكّرين بالآيات

ورد التّعبيرُ بحرف اللّام من لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لتعدُّدِ معانيها؛ فمنها: أنّها للتّعليل، أي: لأجل قوم يتفكّرون، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعل الذي قبلَها، فهي بمعنى (كي) أو (لأجل)، ولهذا سمّيت (لام الأجْلِ)[2]، ويجوز أن يكون معناها شِبهَ التّمليك، فهي واسطةٌ بين معنى التّمليك ومعنى التّعليل، ومثّلَ له ابنُ هشامٍ في المغني بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النّحل: 72]، وذكر في المعنى العشرين من معاني اللّام أنّ ابن مالك في (كافيته) سمّاها لام التّعدية[3].

دلالة التّعبير بـ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

رسوخ الفكر المتجدّد من مقوّمات حياة المؤمن السّعيد

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إجراءُ صفة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ على (قوم) للإيماء إلى أنّ الفِكرَ متمكِّنٌ منهم حتّى كأنّه من مقوّمات قوميَّتهم، وأنّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: (من المتفكّرين)[4].

نُكْتَة تنكير لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

تفخيم وتشريف أهلِ التّفكّر

أفاد تنكيرُ لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ التّفخيمَ والتّشريفَ المناسبَ لسياق مدح أهلِ التّفكّر في آيات اللّه، والاعتبارَ بما فيها من دلائلَ واضحةٍ، وبراهينَ ساطعةٍ دالّةٍ على وحدانيّة الخالقِ وعظيم قدرته.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 32، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 297.

دلالةُ التّعبير بصفة التّفكُّر:

التّفكّر في الآيات سبيلُ الاهتداء بها واستجلاءِ كُنهها

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بالفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنّ التّفكّر والنّظر في تلك الدّلائل هو الذي يُجلّي كُنهها، ويزيدُ النّاظر بصارةً بمنافع أُخرى في ضمنها، قال ابن عطيّة: "وخَصّ المُتفكّرين بالذِّكر؛ تشريفًا للمنزلة، وليقعَ التّسابقُ إلى هذه الرّتبة"[1]، فهم الّذين يقتدرون على الاستدلال، لكون التّفكّر مادَّةً له يتحصّل عنه، وأمّا الغافلون عن التّفكّر فما هم إلّا كالأنعام[2]، وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتفعوا بهذه الآيات ليس لديهم مَسْحَة فكر.

دلالة المضارع في الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

تجديدُ النّظر في الآيات للكشف عن مزيدٍ مِن الهدايات

جاء الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على التّجدّد والاستمرار، فقد ذكر سبحانه آياتٍ عظيمةً تهدي إلى الرّشد وإلى الاعتبار، لِقَوْمٍ يجدّدون النّظر والتّفكّر في مظاهر قدرة اللّه تعالى ورحمته بخلقه، ويتأمّلون في صنع اللّه وفعله، فيعلمون ما في ذلك مِن الحِكم والمصالح.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

تشريف فعل التّفكّر في حدّ ذاته دونَ نظرٍ إلى أفراده

حُذِف متعلّقُ الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لنُكْتَة التّركيزِ على وجود فعل التّفكّر في حدّ ذاته؛ لكونه المقصود من الكلام دونَ التّعرّض لأفراده، فالغرضُ العامُّ من ذِكر الفعل مجرّد الاقتصار على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المجرّد في الشّيء دون التّعرّض للمعمول[3]، ومعلوم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 11/ 76.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

أنّه إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِل سياقُه له، وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَح[1].

بلاغة التّذييل بجملة الفاصلة:

تقرير مضمون المعنى السّابق باستجلاء الهدايات من الآية

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على سبيل التّذييل لما سبق، وهو مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، مع التّنبيه على أنّ ما ذُكر ليس بآيةٍ مفردةٍ، بل هي مشتملةٌ على آياتٍ شتّى، وأنّها تحتاج إلى تفكّرٍ كما تُؤذِن بذلك الفاصلة، وذكرَ الطّيبيّ أنّه لمّا كان القصد مِن خَلْقِ الأزواج والسّكون إليها وإلقاء المحبَّة بين الزّوجين ليس مجرَّدَ قضاءِ الشّهوة التي يشترك بها البهائمُ، بل تكثيرُ النَّسلِ وبقاءُ نوعِ المتفكّرين الّذين يؤدّيهم الفِكرُ إلى المعرفة والعبادة الّتي ما خُلِقت السّماواتُ والأرض إلّا لها، ناسب كونُ المتفكّرين فاصلةً هنا؛ لأنّهم أهلُ التّمييز بين الأمور والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَهِ في الصّدور[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّفس والرّوح:

الرّوح من أمر الله والنّفس من عالَم الخَلْق

الرّوح بضمّ الرّاء في كلام العرب: النّفخ، سُمّي روحًا لأنّه ريحٌ يخرج من الرّوح، لذا اقترن النّفخ مع الرّوح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، والرّوح: جوهرٌ لطيفٌ حاملٌ قوّةَ الحياة والحِسّ والحركة الإراديّة، وجُعِلت الرّوح من أمر اللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]، تُعجز العقولُ عن إدراك كُنهه؛ أمّا النَّفْسُ فقد جُعِلت من عالَم الخَلق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 151، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 240، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.

﴿نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، والآيات في هذا عديدة، ولمّا كانت الرّوح من عالَم الأمر فهي أشرف من النّفْس، لذا نُسبت إليه سبحانه تشريفًا لها وتعظيمًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 29][1]، وممّا يُذكر في الفَرْق بينهما أنّ النّفْس هي ما يجمَع بين الرّوح والبدن، فأوثِر في نظم الآية لفظ (النّفْس) لمناسبته سياق الزّواج وعلاقته بالجسد.

السّكن والمنزل:

المنزل من النّزول، والسّكن من السُّكون واطمئنانِ النّفس

يظهر الفرقُ بين (السّكن) و(المنزل) في ملمح اشتقاق كلِّ لفظ، فالسَّكَن مأخوذٌ من السّكون، وهو ضدُّ الحركَةِ والاضْطِراب[2]؛ فهو دالٌّ على الاستقرار[3]، والسُّكون مجازٌ في الاطمئنانِ والتَّأنُّسِ[4]، ويُقال أيضًا: سكَنَ بالمكانِ: أقامَ فيهِ[5]، ولا تسمّى دارًا إلّا إذا سُكن فيها[6]، أمّا (المنزل) فهو مشتقّ من النّزول بمعنى الهبوط، لأنّ أصحابه ينزلون به بعد مسيرٍ أو رحيلٍ ليلًا أو نهارًا، ومكانٌ نُزُل: يُنزَل فيه كثيرًا، ووجدتُ القومَ على نُزُلاتهم، أي: منازلهم، والنُّزُل: ما يُهيّأ للنّزيل[7]، فأوثِرَ في نظم الآية لفظ (السّكن)؛ لكونه مستعارًا للتّأنُّسِ وفَرحِ النَّفْسِ وزوالِ الوحشة بالزّوج.

المودّة والمحبّة:

الودّ ميلُ الطّباع والحبّ ميلُ الطّباع والحكمة

يظهر الفرقُ بين (المودّة) و(المحبّة) في المعنى الدّلاليّ لِكُلِّ لفظ، فالمودّة من الوُدّ، والمحبّة من الحُبّ، والحبُّ يكون فيما يوجبه ميلُ الطّباع والحِكمة جميعًا، والودُّ يكون من جهة ميل الطّباع فقط،

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المجمع الوسيط: 1/ 440.
(5) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (دور).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).

ألا ترى أنّ القائل يقول: أُحِبّ فلانًا وأوَدّه، ويقول: أُحِبُّ الصّلاة، ولا يقول: أوَدُّ الصّلاة، ويقول: أودُّ أنّ ذاك كان لي إذا تمنّى وداده[1]، فأوثِرَ في نظم الآية لفظُ (المودّة) لمناسبة ميلِ الطّباع بينَ الزّوجين.

الرّحمة والرّأفة:

الرّحمة من باب التّزكية، والرّأفةُ من باب التّخليَة

بين لفظَي (الرّحمة) و(الرّأفة) عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ، فالرّأفةُ خاصّةٌ في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرّحمةُ تشمل هذا المعنى وغيره، قال ابن عاشور: "والرّأفة: رِقّةٌ تَنشأُ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به، يقال: رؤوفٌ رحيمٌ، والرّحمة رِقّة تقتضي الإحسانَ للمرحوم، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلق"[2]، وقال القفّال: "الفرق بين الرّأفة والرّحمة أنّ الرّأفة مبالغة في رحمةٍ خاصّة، وهي دفعُ المكروهِ، وإزالةُ الضَّرر، كقوله: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2] أي: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلد عنهما، وأمّا الرّحمة فإنّها اسمٌ جامعٌ يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإنعام"[3].

والرّأفة أشدُّ مِن الرّحمة، فالرّحمة من باب التّزكية، والرّأفة من باب التّخليَة، والرّأفة مبالغةٌ في رحمة مخصوصة هي رفع المكروه وإزالة الضّرّ، فذِكْرُ الرّحمة بعدَها في القرآن مُطَّرِدٌ لتكون أعمَّ وأشمل[4]، فأوثِرَ في نظم الآية لفظُ (الرّحمة) لعموم المعنى، واقتضائه الإحسانَ للزّوج.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 239.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 246، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 742.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [الرّوم: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مشابهة السّماء والأرض للذّكر والأنثى

لمّا ذكَرَ سبحانه الذَّكَرَ والأُنْثى، المَخلوقَينِ من الأرْضِ، وكانَتِ السَّماءُ كالذَّكرِ لِلأرْضِ الَّتي خُلِقَ مِنها الإنسانُ، وكان خَلقُهُما مع كونِهما مَخلوقَينِ مِن غيرِ شَيءٍ أعجَبَ مِن خَلقِهِ فهو أدَلُّ عَلى القُدرَةِ، وكانَ خَلقُ الأرضِ الَّتي هي كالأُنْثى مُتَقَدِّمًا على عَكسِ ما كانَ في الإنسانِ، أتبَعَهُ ذِكرَهُما بادِئًا بِما هو كالذَّكَرِ، فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ولمّا بيّن اللّهُ سبحانه فيما سبق دلائلَ الأنفس، أتبعها بما هو من صفات الأنفس في قوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ﴾: أصلُ (خلف) مِنَ الإخْلافِ، وهو: مجيءُ شَيءٍ بَعْدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[2]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[3]، وأمّا قَوْلُهُمْ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ، أي: مُخْتَلِفونَ، فمِنَ هذا الباب؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[4]، والاختِلافُ (افْتِعالٌ) أُريدَ به شِدَّةُ التَّخالُفِ، ولا يُعرَفُ لِمادَّةِ هذا المعنى فِعلٌ مُجَرَّدٌ، وزيادَةُ التّاءِ لِلمُبالَغَةِ، مِثْلُ: (اكْتَسَبَ) مُبالَغَةً في (كَسَبَ)[5]، وحقيقةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 69.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 282.

الاختلاف في الآية: اختلافُ اللُّغاتِ، أي: اختلافُ لغاتكم مع أنّ أصلَكم واحدٌ[1].

2) ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾: (علم) أصلٌ يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غيره، ومن ذلك العَلامَةُ، وهي معروفةٌ، يُقالُ: عَلَّمْتُ على الشَّيءِ علامةً[2]، والعِلْمُ: نقيضُ الجَهْلِ، وقياسُه قياسُ العلامَةِ[3]، وعَلِم عِلْمًا وعَلُمَ هو نَفْسُه، ورَجُلٌ عالِمٌ وعليمٌ من قوم عُلماءَ فيهما جَميعًا[4]، والعالمُ في وصف اللّه: هو الّذي لا يخفى عليه شيءٌ، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٌ ١٨﴾ [الحاقة: 18]، وذلك لا يصِحُّ إلّا في وصفه تعالى[5]، والمُرادُ بـ(العالمِين) في الآية: جمعُ عالِمٍ، أي: هذه الآياتُ للعُلَماءِ، لأنَّ العالِمَ أقرَبُ إلى الاعتبارِ مِن الجاهِلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

العالِمون هم أهل الفقه والتّدبُّر

ومِنَ العَلاماتِ الدّالَّةِ على توحيدِ اللّهِ، وكَمالِ قُدرتِه العظيمة، وغيرِ ذلك: خَلْقُ السّماوات والأرض وما فيهنّ مِن عجائب الإبداع وروائع الجمال، وبقاؤهنّ في الفضاء بعجيب قدرته وعظيم عِلْمه وحكمته، ومن دلائل ربوبيَّته أيضًا: اختِلافُ لُغاتِ البشر اختلافًا لا حدَّ له، كما هو معلومٌ مِن واقِعِ العالَم، فمَنِ اطَّلع على لغاته رأى مِن اختلاف تراكيبها، وتعدُّد اشتقاقاتها، وتنوُّع أساليبها، عجائبَ وغرائبَ لا يَعلم حصرَها إلّا خالِقُ اللّغات سبحانه، وكذلك اختلافُ ألوانِ الأجسادِ من البياض والسّواد والحمرة والصّفرة إلى غير ذلك من الألوان، مع أنَّ أصلَ البشر واحدٌ؛ وكُلُّ هذه المعاني لا يُدركها إلّا أهلُ النّظر والاستدلال، لأنّها أدِلَّةٌ لأولي

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 36.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(5) الرّاغب، المفردات: (علم).

العِلمِ، يستدلّون بها على وحدانيَّةِ اللّه تعالى وقُدرتِه على إعادةِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

إضافة آيات أخرى مع ما سبق للدّلالة على وحدانيَّته وقُدرته على البعث والنّشور

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما قبله من الآيات بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، حيثُ ضُمِّنت الآيةَ الثّالثةَ من دلائل وجوده سبحانه، وبراهين قدرته على البعث والنشور، آيةَ خَلْقِ السّماوات والأرض بمجموعها وسُكّانها، وهي آيةٌ عظيمةٌ مشهودةٌ، أظهرُ قدرةً على إعادة ما كان حيًّا قبل ذلك[2].

دلالةُ التّعبير بـ(مِن) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

بعض الآياتِ كافٍ في الدّلالة على وقوع البعث

ورد التّعبيرُ بحرف الجرّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ومعناه التّبعيض[3]، الذي يدلُّ على أنَّ هذه الآيةَ بعضٌ مِن الآيات السّتّ الدّالّة على ما ذُكِرَ من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء، والحكمة في ذِكْر تلك الآيات ليُهتَدَى بها[4].

دلالة تكرار هذا الأسلوب ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

فائدة تكرار هذا الأسلوب ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الإشعارُ بأنّ كلَّ واحدةٍ منها آيةٌ خارجةٌ من جنس الآيات، مستقلّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها[5].

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وسِرُّ جمعها:

كثرةُ الأدلّة الواضحة والبراهين السّاطعة الدّالّة على الوحدانيّة

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دون غيرها كـ(دلائل)؛ وذلك

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 479، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 9، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 41.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 103.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.

(4) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

لوجود فرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل، وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، فالمراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّة على وحدانيّة اللّه تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآياتُ) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسّرُّ في جمعها دون الإفراد (آية): الدّلالةُ على كثرة آيات اللّه سبحانه، الدّالَّة على وحدانيّته، والمذكورُ في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالةُ الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تعظيمُ قَدْرِ الآيات وتشريفُ منزلتِها

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى الضّمير العائد على اللّه ﷻ، باعتباره مصدرُها سبحانه وتعالى، والنّكْتَةُ في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْر هذه الآيات وتشريفُ منزلتِها، فإنّ إضافة الأعيان إلى اللّه تشريفٌ لها، كبيت اللّه، وناقة اللّه، وغيرهما[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

الاهتمامُ بآيات اللّه سبحانه، والتّنويه بشأنها

تَقَدَّم الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للاهتمام بآيات اللّه سبحانه والتّنويه بشأنها، وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة اللّه ﷻ وقدرته على البعث.

دلالة التّعبير بالخَلْق مصدرًا دون الفعل:

إفادةُ ثبوتِ السّماوات على علوّها، والأرض على اتّساعها

أوثِرَ استعمالُ المصدر ﴿خَلْقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دونَ استعمال الفعل (خَلَقَ)، كما في

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكريُّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

الآيات السّابقة؛ لإفادة المصدر الثّبوتَ، فإنّه لمّا كان منَ العجب إيجادُ الخافِقَين من العدم، إيجادًا مستمرًّا على حالةٍ واحدة، عبّر بالمصدر، فقال: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على علوِّها وإحكامها، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ على اتّساعها وإتقانها[1]، وقد جمع المصدرُ ﴿خَلْقُ﴾ جميعَ ما فيه عبرةٌ مِن مخلوقاتِ السّماوات والأرض، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ مخلوقٍ منها أو فيها هو آيةٌ وعِظَةٌ.

دلالةُ البَدءِ بِخَلْق السّماوات والأرض:

ظهور الاستدلال بالسّماوات الأرض

بدأ اللّهُ سبحانه وتعالى هذه الآيةَ بِخَلْق السّماوات والأرض، قبلَ الحديث عنِ اختلاف الألسنة والألوان؛ لظهور الاستدلال بهما على الوحدانيَّة، مِن باب الاستدلال بالأثَر على المؤثر، والصَّنعة على الصّانع، وفيه تعليمٌ لطريق النّظر فيما ينظرون فيه أوّلًا.

دلالةُ العطف في ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾:

استقلال آية اختلاف الألسنة والألوان لأهمّيّتها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ على خَلْق السّماوات والأرض بحرف الواو الدّالِّ على الجمع، حيثُ أدرجَ النّظمُ القرآنيُّ اختلافَ الألسنةِ والألوان في سلك الآيات الآفاقيَّة مِن خَلْق السّماوات والأرض، مع كونه منَ الآيات الأنفُسيَّة الحقيقةِ بالانتظام في سلك ما سَبَق من خَلْقِ أنفُسِهم وأزواجهم؛ للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهّم كونه من متمِّمات خَلْقِهم[2].

بلاغة المجاز في ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾:

شيوع التّعبير بالألسنة على اللّغات

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ مجازًا مُرسلًا في التّعبير بالألسنة عن اللّغات، والعلاقة الآليّة، بمعنى: تسمية الشّيء باسم آلته[3]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 69.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.
(3) الدّسوقيّ، الحاشية على مختصر المعاني: 3/ 274.

﴿قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]، فمِن آيات الله اخْتِلافُ الألسنة، أي: اللّغات، بأنْ عَلَّم سبحانه كلَّ صِنفٍ لُغَتَه، أو ألهمَه ﷺ وضْعَها وأقدره عليها، فصار بعضٌ يتكلَّم بالعربيَّة، وبعضٌ بالفارسيَّة، وبعضٌ بالرّوميَّة، إلى غير ذلك ممّا اللّهُ تعالى أعلمُ بِكمّيَّته(1)، وجوّز بعضُ العلماء أن يُراد بالألسنة أجناسُ النّطق وأشكالُه، فقد خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتّى لا تكاد تسمع منطِقَين مُتَّفِقَين في همسٍ واحد، ولا جهارةٍ، ولا حِدّةٍ، ولا رخاوةٍ، ولا فصاحةٍ، ولا لُكنةٍ، ولا نَظم، ولا أُسلوبٍ، ولا غيرِ ذلك مِن صفات النّطق وأحواله(2)، فأصواتُ المُتَكلِّمين متميّزةٌ بعضُها مِن بعض، وإن كانت بِلُغَةٍ واحدةٍ، فتقول: هذا صوت فلانٍ دون فلانٍ، مِن غير أن تراه.

لطيفة جمع ﴿أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾:

كـثرةُ الـلّـغـات وتنوّعُ الأصوات

جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ لفظُ ﴿أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ جمعًا، وهو مُشعِرٌ بكثرة الألسنة سواءً قُصد بها اللُّغاتُ - على المشهور - فإنّ عددَ اللّغاتِ مِمّا لا يَعلَم حَصْرَه إلّا خالِقُ اللُّغات، أو الأصوات، فهي كثيرةٌ جدًّا ومتنوّعةٌ(3).

دلالة العطف في ﴿وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾:

اختلاف الألوان من دلائل القدرة الإلَهيّة

عُطِفَ اختلافُ الألوانِ على اختلاف الألسنة في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّ الاختلاف والتّنوّع في الألوان مع كون الأبِ واحدًا والأُمِّ واحدةً مِن أعظم دلائل القدرة الإلَهيّة، فإنَّ البشر منحدرٌ مِن أصلٍ واحدٍ، وهو آدَمُ عليه السلام، وله لَونٌ واحِدٌ لا محالةَ، فلمّا تعدَّدَ نسلُه جاءت الألوانُ المُختلِفَةُ في بشراتهم.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 473.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 104.

دلالةُ التّعبير بـ(الألوان) وجمعِها:

تميُّزُ النّاس في الألوان والأشكال لِدَفعِ الالتباس

عُبِّرَ بلفظ ﴿وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾، والمقصودُ به اختلافُ لَونِ البَشَرة مِن البَياض والسَّواد والحُمرة والصُّفرة والأُدمة، مَع كَونِهم أولادَ رَجُلٍ واحِدٍ وأُمٍّ واحِدَةٍ، وله لونٌ واحِدٌ لا مَحالةَ، فلَمّا تَعَدَّد نسلُه جاءت الألوان المختلفةُ في بشراتهم، ويَدْخُلُ في اختلاف الألوانِ اختلافُ الأشكال والصُّوَر، فصار النّاسُ متميّزين في ذاتِ بينهم، لا يلتبس هذا بهذا، بل في كُلِّ فردٍ من أفرادهم ما يميّزه عن غيره منَ الأفراد، ولولا ذلك الاختلافُ لوقع الالتباس، وتعطّلت مصالحُ كثيرةٌ مِن المعاملات وغيرها، وفي هذا من بديع القدرة، وعجيب الحكمة[1].

نُكْتَةُ الجَمعِ بين ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾:

اختلافُ الألسنة والألوان من آثار خلق السّماوات والأرض

جُمع بين خلق السّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ لوجود المناسبة بينهما، فلهذه الأحوال المختلفة لهذا النّوع الواحد أسبابُ اختلافها مِن آثار خلق السّماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببُه القرار بأوطانٍ مختلفةٍ متباعِدةٍ، واختلافُ الألوان سببُه اختلافُ الجهات المسكونة مِن الأرض، واختلافُ مَسامتة أشعّة الشّمس لها، فهي مِن آثار خَلْقِ السماواتِ والأرض، وبهذا رُجّح أنّ المقصودَ هو آيةُ اختلاف اللّغات والألوان، وأنّ ما تقدَّمه من خلق السّماوات والأرض تمهيدٌ له، وإيماءٌ إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السّماوات والأرض[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 73، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 104.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 73.

عِلَّةُ فصْل جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾:

اختلاف الألسنة والألوان من الآيات الدّالّة على بديع القدرة

فُصل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ عن صدر الآية على سبيل الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه خرج مخرج التّذييل لِما سبق، وفائدة التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمه في صورةٍ كُلّيّة[1]، فأكّد اللّهُ سبحانه أنّ ما ذكره مِن خَلْقِ السَّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، آياتٌ دالَّةٌ على بديع القدرة، وعجيب الحكمة.

فائدة تتابع المؤكِّدات في الآية:

التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ عِدَّةُ مؤكِّداتٍ مِن التّأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة، وتقديم ما حقّه التّأخير، ولام التّأكيد، وكلُّها مِن مؤكّدات مضمون جملة الإسناد، وقد جاء الخبر على الضّرب الإنكاريِّ؛ مبالغةً في التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة.

دلالة التّعبير بـ﴿فِي﴾ في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾:

اشتمالُ الآياتِ على دلائل القدرة

عبَّر القرآنُ الكريم بحرف الجرّ ﴿فِي﴾، الدّالِّ على الظّرفيَّة في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾؛ لشمول هذه الآية الكريمة على آياتٍ عظيمةٍ ودلائلَ باهرةٍ على عظَمة اللّه سبحانه وقدرته على التّنويع في خَلْقه، وللإشارة إلى تمكُّن صفة العظَمة والانبهار في كلِّ جُزءٍ مِن أجزاء هذه الآيات، فكأنَّها أحاطت بها إحاطةَ الظَّرف بالمظروف.

بلاغةُ التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استعارة البُعد المكانيّ للبُعد المعنويّ في المنزلة

أُشيرَ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ إلى ما تقدّم ذِكْرُه مِن خَلْقِ السّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه مِن معنى البُعد، مع قُرب العهد

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

بالمشار إليه؛ للإشعار ببُعد منزلته، فهي آياتٌ عظيمةٌ لا يُكتَنَهُ كُنْهُها ولا يُقادَرُ قَدْرُها[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

العنايةُ والاهتمامُ بالآيات الباهرة

تَقدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ على اسم (إنّ) وهو ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ لنُكْتَة الاهتمام بما سبق ذِكْرُه في الآية الكريمة مِن أدلّةٍ واضحةٍ وبراهينَ ساطعةٍ، دالّةٍ على وحدانيَّة الخالِق، وعظيم قدرته.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

زُحْلِقَتِ اللّامُ كراهةَ اجتماع مؤكِّدَين في مَحلٍّ واحد

اتّصل حرفُ (اللّام) في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بلفظ ﴿لَآيَٰتٍ﴾، وهي لام الابتداء، وغرضُها التّوكيد، والأصل أن تقع قبل (إنَّ)، لكن كَرِهَ العربُ أن يجتمع مؤكّدان في محلٍّ واحِدٍ - كما يقول النّحويّون - فزحلقوا اللّامَ عَن موضعها.

دلالةُ جمعِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

اشتمالُ الآية القرآنيّة على عدّة آيات كونيّة وأنفسيّة

جُمِعَ لفظُ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على كثرة الآيات المودَعة في خَلْقِه سبحانه، للسّماوات المُزدانة بالكواكب، والنّجوم الثّوابت والسّيّارة، والسّماوات الواسعة الأرجاء، وخَلْقِ الأرض ذاتِ الجبال والوديان والبِحار والقِفار والحيوانِ والأشجار، فإنّ في خَلْق هذه الأجرام العظيمة، الّتي هي أجرامُ السّماوات والأرض، وجَعْلِها باقيةً ما دامت هذه الدّارُ، وخلْق ما فيها من عجائب الصّنع، وغرائب التّكوين، واختلافِ الألسنة والألوان، عبرةٌ للمعتبرين[2].

دلالة تنكير ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

آياتُ الله عظيمةٌ في نفسها، كثيرةٌ في عددها

جاء لفظ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 56.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على العَظَمة في نفسها، والكثرة في عددها، فهي آياتٌ عظيمةٌ، ودلائلُ باهرةٌ على عظَمة اللّه سبحانه وقدرته على البعث والنّشور، وهي آياتٌ كثيرةٌ باعتبار اشتمال ذلك الخَلْق على دقائقَ كثيرةٍ متولّدٍ بعضُها عن بعض، يُظهرها التّأمّلُ والتّدبّرُ، بحيثُ يتجمّع منها آياتٌ كثيرةٌ[1].

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾:

تعليلُ انتفاعِ العالِمين بالآيات

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بحرف اللّام مِن لفظ ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ لتعدُّدِ معانيها؛ فمنها: أنّها للتّعليل، أي: لأجل قوم يتفكّرون، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعل الذي قبلها، فهي بمعنى (كَي) أو (لأجل)، ولهذا سمّيت (لام الأجْلِ)[2]، ويجوز أن يكون معناها شبهَ التّمليك، فهي واسطةٌ بين معنى التّمليك ومعنى التّعليل، ومثّل له ابنُ هشام في المغني بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النّحل: 72]، وذُكِرَ في المعنى العشرين من معاني اللّام أنّ ابن مالك في (كافيته) سمّاه لام التّعدية[3].

أَثَرُ توجيه القراءات في ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾:

انتفاعُ الخلائق عامّةً، والعلماءِ خاصّةً

اختلف القُرّاء في لفظة ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ فقرأ الجمهور ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللّام، وقرأ حفصٌ وحدَه بكسر اللّام ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾[4]، فعلى قراءة الجمهور ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللّام يكون اسمَ جَمْعٍ لـ(عالَم)، والمراد بالعالَمين: أصنافُ الخلائق[5]، والمعنى: أنّه سبحانه جعل خَلْقَ السّماوات والأرض واختلافَ الألسنة والألوان آياتٍ واضِحةً لعموم النّاس، يُمكنهم الشّعورُ بها دون إمعانِ نَظرٍ؛ لِعَدَم خفائها على أحدٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 74.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.

(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 344.

(5) العُلَيْميّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/ 42.

مِنَ الخَلْق كافّة[1]، وعلى قراءة حفصٍ ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللّام يكون جمع (عالِم)، إذِ المنتفعُ بتلك الآيات العظيمة إنّما هم أهلُ العِلْم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: 43][2].

سرُّ التّعبير بجمع (العالَمين) دونَ (العوالِم):

جمعُ المُذكّر السّالم للعَلَم والوصف، وما سواه ملحَق

جاء التّعبيرُ بجمع (العالَمين) على قراءة الجمهور في قوله تعالى: (إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ للعالَمين) بفتح اللّام جَمْع (عالَم)، والأصل أن يُجمع (عالَمٌ) عَلَى (عَوالِم)، ولا يُجمع جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا، فإذا أُجريت مُجرى جمعِ المذكّر السّالم في الإعراب كانت مُلحقةً به، وليست جمعًا على الحقيقة، وإنّما لم تُعدَّ كلمةُ (العالَمين) جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا حقيقةً؛ لأنّ مفردها - وهو عالَم - فقَدَ شرطَ جَمْعِه هذا الجمع، إذ إنّه ليس عَلَما ولا وصفًا، وإنّما هو من أسماء الأجناس[3].

والسّببُ المُسَوِّغُ لجمع هذه الكلمةِ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا (العالَمين) ثلاثةُ أشياء:

أحدُها: ما في كلمة (العالَم) مِنْ معنى الوَصْفيَّة، إذْ هو دالٌّ على معنى العِلْم أو العَلامَة.

ثانيها: أنّه عُدِلَ إلى (العالَمين)؛ تَغْليبًا للعقلاء على غَيْرِهِم، وأوْمَأ إلى هذا البيضاويُّ؛ فقد قال: "وإنّما جمعه ليشملَ ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلَّب العقلاءَ منهم، فجمعه بالياء والنّون"[4].

ثالثها: أنّ فيه عدولًا عن جمع الكثرة إلى جمع القلّة؛ تنبيهًا على أنّهم وإنْ كَثُروا فهم قليلون في جانب عظمته تعالى وكِبْريائه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 75.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 1/ 60 - 61.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 28.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 1/ 57.

نُكْتَةُ حَذفِ مُتعلّق العِلم:

شرف العِلْم في حَدّ ذاته

حُذِفَ مُتعلِّقُ اسم الفاعل المجموع ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ لتشريف العِلم في حدّ ذاته، من غير أن يقصد النّصُّ على معلوم مُعَيَّن[1]، ونظيره قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزّمر: 9]، ومثال ذلك من كلام النّاس: "فلانٌ يحلّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويَضُرّ وينفع"، وكقولهم: "هو يعطي ويجزل، ويقري ويُضيف"، والمعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في نفسه للشّيء على الإطلاق وعلى الجملة، من غير أن يُتَعرَّض لحديث المفعول، حتّى كأنّك قلت: "صار إليه الحلُّ والعقد، وصار بحيثُ يكون منه حلٌّ وعقد، وأمرٌ ونهيٌ، وضُرٌّ ونفع"، وعلى هذا القياس[2].

بلاغة تذييل الآية:

تخصيص العالِمين بمعرفة الآياتِ دون الجاهلين

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ على سبيل التّذييل لما سبق، فما سبق ذِكرُه من خَلْق السّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لَآياتٌ عظيمة، ودلائلُ واضحة، كثيرةٌ عددها، ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللّام؛ أي: لأولي العِلْم، الّذين يفكّرون فيما خلقَ اللّه تعالى، فيعلمون أنّه سبحانه لم يخلقِ الخلقَ عبثًا، بل خَلَقَه لِحكمةٍ بالغة، فيها عبرةٌ لِمَن تذكّر؛ وخصّ العلماءَ لأنّهم أهلُ النّظرِ والاستدلال، دونَ الجهّال المشغولين بحطام الدّنيا وزخارفها، فلمّا كان الوصول إلى معرفة ما سبق ذكرُه إنّما يمكن بالعِلْم، ختم الآية بـ(العالِمين)، وكذلك يُقال على قراءة الفتح: (لِلْعالَمينَ) بأنّ هذه الآيات في غاية الوضوح، فلا تخفى على أحدٍ من الخَلْق، من مَلَك وإنسٍ وجِنٍّ وغيرِهم؛ لأنّ الكُلَّ تظلّهمُ السّماء، وتقلّهم الأرض، وكلٌّ

(1) الخطيب القزوينيّ، التّلخيص في وجوه البلاغة، ص: 127.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

منهم متميّزٌ بلطيفةٍ يمتاز بها عن غيره، وهذا يشترك فيه جميع العالَمين، فختم الآية به[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاختلاف والتّفاوُت:

التّفاوت اختلافٌ خـاصٌّ يقتضي الـبُـعـدَ بين شيئين

يختلف لفظا (الاختلاف) و(التّفاوت) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالاختلاف عامٌّ في عدم الاتّفاق[2]، و(التّفاوت) اختلافٌ خاصٌّ يقتضي الفَوْتَ وهو البُعد[3]، ويُطلق على الاختلاف في الأوصاف كأنّه يفوت وصْفُ أحدِهما الآخرَ، أو وصْفُ كُلٍّ واحدٍ منهما الآخرَ، كما يختلفان في معنى الصّيغة الصّرفيَّة منهما، فالاختلاف (افتعالٌ) مِن (خلف) يقتضي المبالغة، أمّا التّفاوت فهو (تفاعلٌ) من شِدَّة الفَوْتِ، أي: البُعد، وليست صيغةُ التّفاعل فيه لحصول فِعْلٍ مِن جانِبَين، ولكنَّها مفيدةٌ للمبالغة أيضًا، ومن الفروق أيضًا أنّ الاختلاف معنًى حقيقيٌّ في عدم التّوافق، أمّا التّفاوت فهو معنًى مجازيٌّ، إذ هو مستعارٌ للتّخالف وانعدامِ التّناسق؛ لأنّ عدمَ المناسبة يُشبه البُعد بين الشّيئين، تشبيهَ معقولٍ بمحسوس[4].

كما يتميّز (الاختلاف) عن (التّفاوت) في كونه أوسعَ دلالةً وأكثرَ استعمالًا، فمادَّةُ (خلف) كثيرةُ الاستعمال في القرآن الكريم، ولم يَرِد لفظُ التّفاوت إلّا في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [الملك: 3]، والاختلاف أوسعُ معنًى منَ التّفاوت، فقد يَرِد الاختلافُ في سياقٍ غير مذموم، كالاختلاف في الألوان، كقوله

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 105، ومجير الدّين العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 5/ 280.
(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات: (فوت).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 17.

تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ [النّحل: 13]، والاختلاف في الظّواهر الكونيَّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190]، وغير ذلك من موارد الاختلاف الدّالّ على التّنوّع، ومنها هذه الآية.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾ [الرّوم: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْر الأعراض المُفارقة بعد الأعراض المُلازمة

لمّا بيّن اللّهُ سبحانه وتعالى في الآية السّابقة بعضَ الأعراض الملازمة للنّاس مِن اختلاف الألسنة والألوان، أتبعه في هذه الآية بذِكْر أعراضٍ أخرى مفارقةٍ غيرِ ملازمة، لا يخلو عنها أحدٌ مِن أفرادهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَامُكُم﴾: (نوم) أصلٌ يدلُّ على سُكونِ الحَرَكَةِ[2]، فالنَّوم: الرُّقادُ، تَقولُ: نامَ إذا رَقَدَ، وضِدُّ النَّوم: الإفاقةُ واليقظةُ، ويُقالُ: نامَ يَنامُ نَوْمًا، أي: سَكَنَ وجَمَدَ، ومنه سُمِّيَ الرُّقادُ نَوْمًا، لأنَّ فيه تَسْكُنُ حركةُ النَّائم[3]، والمَنَام: النّوم؛ مصدر: يَنام نَومًا ومَنامًا[4]، ومِن معاني النَّوْمِ أيضًا: النُّعاسُ والفُتورُ[5]، والمَنَامُ في الآية مصدرٌ ميميٌّ، أو هو اسمُ مصدرٍ بمعنى النَّوْم، ويُطلَقُ على زمنِ النَّوْم وعلى مكانِه[6].

2) ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾: (بغي) أصلٌ يَدُلُّ على طَلَبِ الشَّيءِ، تقول: ابتغيتُ الشَّيءَ، وبغيتُه، أبغيه بُغيةً وابتغاءً، أيْ: طَلَبْتُهُ[7]، والباغي: الَّذي يَطْلُبُ الشَّيءَ الضّالّ، وأبْغاهُ الشَّيءَ: طَلَبَهُ له وأعانه على طَلَبِه[8]، والابتغاءُ، هو الاجتهادُ في الطَّلَبِ[9]، وهو أيضًا: الإرادةُ والقَصْدُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نوم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نوم)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 248.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نوم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 20، 21/ 76.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي، بغا).
(9) الرّاغب، المفردات: (بغي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 35.

يُقالُ: ابتغيتُ الأجْرَ في عملي، أي: قَصَدْتُهُ، ويأْتي بمعنى الاتِّخاذ، تقول: ابتغيتُ البيتَ سكنًا لي، أي: اتَّخذتُهُ[1]، والمُرادُ بالابتغاءِ من فضْلِ اللَّهِ هنا: طَلَبُ الرِّزْقِ بالعَمَل، لأنَّ فضلَ اللَّهِ الرِّزْقُ[2].

3) ﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾: (فضل) أصلٌ يدُلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، والفَضْلُ: الزِّيادةُ في الشَّيءِ[3]، سواءً كان محمودًا أو مذمومًا، واستعمالُهُ في المحمودِ أكثَرُ، يُقالُ: فضَلَ الشَّيءُ فضلًا، أي: زادَ، وضِدُّه: النَّقْصُ[4]، والفَضْلُ: الشَّرَفُ والخيرُ والرِّزقُ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شَرَفٍ وخَيْرٍ، والإفضالُ: الإحسانُ، والفضائلُ: خصالُ الخيرِ، ويأْتي الفَضْلُ بمعنى بقيَّةِ الشَّيءِ، والجمعُ: أفضالٌ[5]، والمُرادُ بالفَضلِ في الآيةِ: الرِّزقُ.

4) ﴿يَسۡمَعُونَ﴾: (سمع) أصلٌ يدُلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمْعًا[6]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرك بها المسموعات، وفِعله يُقالُ له السَّمْعُ أيضًا[7]، والجَمع أسماع، والسَّماعُ: ما سَمِعْتَ بِهِ فشاع وتُكُلِّمَ بِهِ، والسَّميعُ من صِفات اللّه وأسمائه[8]، والاسْتِماعُ: الإصغاء[9]، والمراد بالسَّمْعِ في الآية: سَماعُ تدَبُّرٍ وتفَهُّم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

آيةُ النَّومِ وطلَبُ الرِّزقِ مِن عَطاءِ ربوبيَّته

مِنَ العَلاماتِ الدّالَّةِ على وحدانيَّته وقُدرتِه تعالى: مَنامُكم باللَّيلِ والنَّهارِ، وابتغاؤُكم مِن فضلِ اللهِ فيهما، وذلك لِقَومٍ يَسمَعونَ سَماعَ

(1) الخليل، العين، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا، بغي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فضل).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سمع).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سمع).
(9) الرّاغب، المفردات: (سمع).

تدَبُّرٍ وتفهُّم، ومِن ذلك: الاستِدلالُ بهما على رحمةِ اللّهِ، وتَوحيدِه، وقُدرتِه على بَعثِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بـ(الواو) في ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

إضافة آياتٍ أُخرى دالَّةٍ على البعث والنّشور

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ لأنّ هذه الآية كسوابقها دالّةٌ على قدرته سبحانه على البعث والنّشور، فإنَّ آيةَ النّوم والاستيقاظ لابتغاء الرّزق شبيهةٌ بالبعث بعد الموت، فالنّوم شبيهٌ بالموت، والتّصرّفُ في الحاجات، والسّعيُ في المكاسب شبيهٌ بالحياة بعد الموت(2).

دلالة (مِن) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

بعض الآيات الباهرة الدّالّة على وقوع البعث

ورد التّعبيرُ بحرف الجرّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، ومعناه التّبعيض(3)، فهذه الآيةُ بعضٌ مِن آياتٍ سِتٍّ دالّةٍ على ما ذُكِرَ مِن أمر البعث وما يتلوه من الجزاء، والحِكمة في ذِكر تلك الآيات ليُهتَدى بها(4).

دلالةُ تكرار ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تكرَّر التّعبير بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وفائدة هذا التّكرار: الإشعارُ بأنّ كُلًّا منها آيةٌ خارجةٌ مِن جنس الآيات، مستقلّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها(5).

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وجمعها:

كثرةُ الأدلَّة الواضحة والبراهين السّاطعة الدّالّة على الوحدانيّة

آثَرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 205.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 22/ 106.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.
(4) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

﴿ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ دون غيرها كـ (دلائل)؛ وذلك لوجود فرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل، وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، فالمراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّةُ على وحدانيّة اللّه تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآيات) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسِّرُّ في جمعها دون الإفراد (آية): الدّلالةُ على كثرة آيات اللّه سبحانه الدّالَّة على وحدانيّته، والمذكورُ في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالة الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تعظيمُ قدر الآيات وتشريفُ منزلتِها

أُضيفت الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى الضَّمير العائد على اللّه ﷻ، باعتباره مصدرَها سبحانه وتعالى، والنُّكتة في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْرِ هذه الآيات وتشريفُ منزلتِها، فإنّ إضافة الأعيان إلى اللّه تشريفٌ لها، كبيت اللّه، وناقةِ اللّه وغيرهما[3].

نُكْتَةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

الاهتمام بآيات اللـه سبحانه والتّنويه بشأنها

تَقَدَّم الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لنُكْتَةِ الاهتمام بآيات اللّه سبحانه، والتّنويه بشأنها عمومًا، وبآية المنام وابتغاء الرّزق خصوصًا؛ وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة اللّه ﷻ وقدرته على البعث.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

دلالة التّعبير بالمنام دون النّوم:

دلالـــة المـصدر الميميّ على زمان الحدث أو مكانه

أوثِرَ التّعبير بلفظ (منام) دون المصدر الصّريح في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ لأنّ (منام) مصدرٌ ميميٌّ بمعنى النّوم، ويُطلَق على زمن النّوم وعلى مكانه، وهو بذلك يزيد على مجرّد الحدث المدلول عليه بالمصدر المجرّد (النّوم)، بزيادة الدّلالة على الزّمان والمكان.

سرُّ تخصيص النّوم:

الـنّـوم أعظم طُـرُق استعادة القوى

خصَّص القرآنُ الكريم ذِكْرَ النّوم كنعمةٍ مِن نِعَم اللّه تعالى، وجَعَلَها دليلًا على وقوع البعث؛ لأنَّها مِن أعظم آيات اللّه، فإنّه لا يقدر أحدٌ على اجتلابه إذا امتنع، ولا على دفعه إذا ورد؛ لأنَّه يَدُلُّ على استراحة القوى النّفسانيَّة، وقوّةِ القوى الطّبيعيّة، إذِ النّوم حالٌ يعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدِّماغ مِن رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيثُ تقف الحواسُّ الظّاهرة عن الإحساس رأسًا، فتستريح حينَئِذ ويزول كلالُها وتعبُها، مع عدم التّأثير على دورة حياة الإنسان فى القلب والأوعية الدّمويّة، لذلك تُعَدُّ هذه الآيةُ من أكبر نِعَم اللّه على الإنسان في استعادة قواه[1].

دلالة التّعبير بـ(الباء) في قوله: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ﴾:

الـلّيل والـنّـهار ظـرفـان لـلـنّـوم والابـتـغـاءِ من الفضل

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بحرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ لدلالتها على الظّرفيّة الزّمانيّة، فهي بمعنى (في)، فكلٌّ مِن اللّيل والنّهار ظرفان للنّوم، فأكثرُ النّاس ينامون باللّيل، ومنهم من ينام بالنّهار في القائلة، كأهل الأعمال المُضنية إذا استراحوا منها في منتصف النّهار، خصوصًا في البلاد الحارّة أو في فصل الحرّ[2]، ولم يَرِد التّعبيرُ بـ(في) لدلالة الباء على

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 22، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 76.

تلبس النّوم باللّيل في بعض أجزائه، بخلاف (في) الدّالّة على أنّ المنام مظروفٌ في الليل كلّه، وهذا غيرُ مراد.

دلالة عطف (النّهار) على (اللّيل):

شهرة اللّيل بالنّوم، والنّهار بابتغاء الفضل

عُطف النّهار على اللّيل في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع، وهذا يقتضي أنّ اللّيل والنّهار كلاهما زمانان لاستراحة القوى النّفسانيّة وتقوّي القوى الطّبيعيّة، وطلبِ المعاش فيهما، وإن كان الأشهرُ تخصيص اللّيلِ بالنّوم، والنّهارِ بابتغاء الفضل، وفيه الإشارة إلى أنَّ ابتغاء طلب المعاش معتبرٌ فيه ما يُعتبر في المعطوف عليه، بمعونة المقام والكسب في اللّيل لوقوع بعض العمل فيه، لا سيَّما في اللّيالي الطّوال أو في البلاد الحارّة[1].

وهذا الوجهُ مبنيٌّ على أن يكون الكلام مِن باب المقابلة، فإنّ اللّيل يقابل النّهار، والمنامُ لكونه مُنبِئًا عن السّكون يقابل الابتغاءَ المُنبئَ عن الحركة، أو المنامُ لكونه مُنبِئًا عن الاستراحة يقابل الابتغاءَ؛ لكونه مُنبِئًا عن التّعب، فحُذف ظرفُ الابتغاءِ لدلالة ظرف مقابله عليه، تقديره: (منامُكم باللّيل والنّهار وابتغاؤكم مِن فضله فيهما)[2].

سِرُّ حذف الباء مِن ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾:

النّاس في منام وإن مَشَوْا في اليقظة بين الأنام

حُذِف حرفُ الجَرّ (الباء) مِن لفظ (النّهار) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ اكتفاءً بباء (اللّيل) واستغناءً بالعطف، وقال بعضُ العلماء: لم يقل تعالى: (وبالنهار)، ليتحقّق لنا أنّنا في منام في حال يقَظَتنا المعتادة؛ أي: أنتم في منام ما دمتم في هذه الدّار، يقظةً ومنامًا بالنسبة لِما أمامكم، والمقصود أنّه لو قيل: (وبالنهّار) كان لا يتعيّن فيه ذلك، لجواز أن يكون الجارّ والمجرور

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 122.
(2) ابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 161.

معمولًا لمحذوف معطوف على المبتدأ، تقديره: (ويقظتكم بالنّهار) حُذف لدلالة معموله، أو مقابِله عليه[1]، وفي حذف الباء كذلك إشارةٌ إلى التّفريق بين الأصل في النّوم - وهو الليل - وبين ما يكون فرعًا عنه - وهو النّهار -، ولو ذُكرت الباء مع النهار لتساوى أمرُ النّوم فيهما، وهذا غيرُ مرادٍ.

دلالة (أل) في ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

دلالـةُ الجنس عـلى الحقيقة بقطع النّظر عن الأفراد

جاء لفظا (اللّيل والنّهار) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ مُعَرَّفَين بـ(أل) الدّالَّة على تعريف الجنس المقتضي للعموم، ويسمّيها البلاغيّون (لام الحقيقة)، وتُسَمَّى أيضًا لامَ العهد الذّهنيّ[2]، وهي الّتي تُبَيِّن الحقيقة بقطع النّظر عن الأفراد، وهي تُعرِّف حقيقةً ذِهنيَّةً يُراد بها فردٌ مُبهَمٌ مِن أفراد الحقيقة، باعتبار عهديّته في الذّهن؛ لاشتمال الحقيقة عليه كما في قوله: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13]، وقولهم: (ادخل السّوق)[3].

بلاغة المطابقة بين اللّيل والنّهار:

توضيح الكلام بـالـجـمـع بين الـضّـدّيـن في المقام

يتضمّن قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ طباقًا بديعًا بين لفظتَي: (اللّيل) و(النّهار)، وهو مُحَسِّنٌ معنويٌّ يوضِّح اختلافَ زمنَيهما، وكونَهما مِن آيات اللّه العظيمة، فبَين تقابلِ اللّيل والنّهار وتخالفِهما تضادٌّ يُثير الذِّهن، ويجذبُ الانتباه، ويزيد الكلامَ حُسْنًا وطَرافةً، كما يقوّي المعنى إذ بضِدّها تتمايز الأشياء.

سِرُّ تقديم اللّيل على النّهار:

اللّيل هو الأصل في النّوم بخلاف النّهار

تقدّم اللّيل على النّهار في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ لِكَون اللّيل هو الأصل في النّوم بخلاف النّهار، وقال بعضُهم: لأنّ اللّيل لخِدمة المولى، والنّهارَ لخِدمة الخَلْق، ومعارجُ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 106.
(2) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

الأنبياء عليهم السلام كانت باللّيل، ولِذا قال الإمام النّيسابوريُّ: اللّيل أفضل من النّهار، وقال بعضُهم: اللّيل محلُّ السّكون، وهو الأصل، والنّهار محلُّ الحركة، وهو الفرع[1].

دلالةُ عَطْفِ الابتغاء على المنام:

صلاحيَّةُ اللّيل والنّهار للنّوم والابتغاء

عُطف قولُه: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ على ﴿مَنَامُكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لأنّ كُلًّا مِن المنام وطلب القوت يقع في اللّيل والنّهار، وإن كان الأغلب وقوعُ المنام في اللّيل، والطّلب في النّهار، فامتنّ اللّه على عباده بأنّهم ينامون في اللّيل، وينامون بالنّهار في بعض الأحوال للاستراحة، وبأنّ ابتغاءهم من فضله فيهما؛ لأنّ بعض النّاس قد يبتغي الفضلَ في اللّيل، كالمسافرين والحُرّاس في اللّيل وغيرهم[2].

دلالةُ التّعبير بلفظ (الابتغاء):

وجوبُ السّعي في ابتغاء الرّزق

أوثِرَ التّعبير بلفظ (الابتغاء) دون غيره كـ (السّعي) مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لدلالته على الاجتهاد في الطَّلَبِ[3]، فمَجيئُه على صيغة (الافتعال) يُفيد تكلّف الفعل والمبالغة في تطلّبه، مع الحرص على كونه بالأساليب المشروعة، لقوله ﷺ: «أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّه وأجملوا في الطَّلبِ، فإنَّ نفسًا لن تموتَ حتَّى تستوفيَ رزقَها، وإن أبطأ عنْها فاتَّقوا اللَّهَ وأجملوا في الطَّلبِ»[4]، وفي التّعبير بالابتغاء ملمَحُ العبادة، ولِذلك عبَّر القرآنُ بالابتغاء مادحًا هذا المسلك بقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، وقولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت: 17]، إلى غير ذلك من الآيات التي تمدح الابتغاء، وتجعلُ فيه مع السّعي عبادةً.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 106.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 106.
(3) الرّاغب، المفردات: (بغي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 35.
(4) أخرجه ابن ماجه في سننه، برقم: (1756).

دلالةُ التّعبير بـ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

ابتغاءُ الرِّزق بعضٌ مِن فضل الله الواسع

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ لدلالتها على التّبعيض، فإنّ كُلَّ ما يطلبه الإنسانُ من الرِّزق هو بعضٌ يسيرٌ جدًّا مِن فضل اللّٰه الّذي عمّ به خَلْقَه، وقد ورد في الحديث أنّه سبحانه لو أعطى كُلَّ إنسان مسألته «ما نَقَصَ ذلكَ ممّا عِنده، إلّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ»[1].

سِرُّ تقييد الابتغاء بقوله: ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

كناية الابتغاء عن الهبوب إلى العمل

قُيِّد الابتغاءُ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ بكونه من فضل اللّٰه، والمقصود به طلبُ الرّزق بالعمل؛ لأنّ فضل اللّٰه يُراد به الرّزق، وجُعِل هذا كنايةً عن الهبوب إلى العمل، لأنّ الابتغاء يستلزم الهبوب من النّوم، وذلك آيةٌ أخرى لأنّه نشاطُ القوّة بعد أن خارت وفشلت[2].

نُكْتَةُ الإضافة في ﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾:

الـرِّزقُ كُلُّه من فـضـل الـلـه لا بكسب العبد

أُضيف الفضلُ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ إلى ضميره ﷻ؛ إشارةً إلى أنّ العبد ينبغي أن لا يرى الرِّزقَ مِن كسبه وبحذقه، بل يرى كُلَّ ذلك مِن فضل ربّه، ولهذا قَرَن الابتغاءَ بالفضل في كثيرٍ مِن المواضع، منها قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النّحل: 14][3]، وفي هذه الإضافة تعظيمٌ للفضل وتشريفٌ له.

نُكْتَةُ عدمِ تقييد الابتغاء بالزّمن:

جـواز ابـتـغـاء الـرّزق بالـلّيل والنّهار

يظهر في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ عدمُ التّقييد بالزّمن في الابتغاء، والنُّكتة في ذلك أنّ ابتغاء الرّزق من خصائص النّهار، فأُطلق ولم يُقَيَّد باللّيل أو النّهار؛ للدّلالة على جواز ابتغاء

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2577).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 76.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 93.

الرّزق فيهما، وفي ذلك إشارةٌ إلى توسيع حركة العمل والسّعي في طلب الأرزاق؛ ويمكن تقييدُه بما قُيِّد به المنامُ، للاستغناء بدلالة القيد السّابق عليه، والتّقدير: (وابتغاؤكم من فضله فيهما)[1].

دلالةُ التّقديم والتّأخير في الآية:

جَعَلَ اللهُ اللّيل سكنًا، والنّهارَ معاشًا

ذهب جَمْعٌ من المُفسّرين إلى وقوع تقديم وتأخيرٍ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ وذلك ليكون كلُّ واحدٍ مع ما يُلائِمُه، والتّقدير: (ومِن آياته منامكم باللّيل وابتغاؤكم من فضله بالنّهار)، فحُذِف حرفُ الجرّ لاتّصاله باللّيل وعطفه عليه، لأنَّ حرف العطف قد يقوم مقام الجارّ، وهذا المعنى هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، نحو قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ [يونس: 67]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: 10 - 11]، وغيرها، قال الزّمخشري: "وهو الظّاهر لتكرُّرِه في القرآن، وأسَدُّ المعاني ما دلّ عليه القرآنُ"[2].

بلاغة اللّف والنّشر في الآية:

ترتيبُ المنام في اللّيل، والابتغاء في النّهار

جَعَلَ بعضُ العلماء قولَه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ من قبيل اللّف والنّشر المرتّب، وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله باللّيل والنّهار، إلّا أنّه فُصِلَ بين القرينين الأوّلين، أي: ﴿مَنَامُكُم﴾ و﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾، بالقرينَين الآخرَين، أي: (اللَّيْلِ) و(النَّهارِ)، وإنّما جاز ذلك لأنَّ الليلَ والنّهارَ ظرفانِ، والواقعان فيهما المنامُ والابتغاءُ، والظّرفُ والمظروف كشيء واحد، فلا فصْلَ بالأجنبيِّ[3]، ولا يأبى ذلك توسيطُ اللّيلِ والنَّهارِ؛ لأنَّهما في نيّة التأخير، وإنَّما وُسِّطا للاهتمام بشأنهما، لأنَّهما مِن الآيات في الحقيقة، لا المنامُ والابتغاءُ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 76.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 473، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 228.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 473، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 228.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 33.

بلاغة الاحتباك:

الاستدلال بالمذكور على المحذوف في المعنيين المتقابلين

ذهب علماء آخَرون إلى أنّ الآية من قبيل الاحتباك، ومفهومه: أن يَجتمع في الكلام متقابِلان، ويُحذف من كلٍّ واحدٍ منهما مُقابِلُه؛ لدلالة الآخَر عليه[1]، وفي الآية قد دلّ ذِكْرُ النّوم على القيام منه، ودلّ الابتغاءُ على الانقطاع عنه، فحُذف نهايةُ الأوّل وبدايةُ الثاني[2]، وتقدير المعنى: ومن آياته منامكم باللّيل، وانقطاعُكم عن طلب المعاش؛ وقيامُكم بالنّهار وابتغاؤكم من فضله.

عِلَّةُ فصلِ جُملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾:

إبرازُ حِكم الله في آياته

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ عن صدر الآية على سبيل الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه خرج مَخرَجَ التّذييل لِما سبق، وفائدةُ التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكْمِه في صورةٍ كُلّيَّة[3]، فأكّد اللّهُ سبحانه أنّ ما ذكره مِن نوم اللّيل والنّهار، وابتغاءِ الرّزق فيهما، آياتٌ دالَّةٌ على بديع القدرة، وعجيب الحِكمة.

فائدةُ تتابُع المؤكِّدات في الآية:

التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾ عِدَّةُ مؤكّدات؛ مِن التّأكيد بـ(إنَّ)، والجملةِ الاسميّة، وتقديمِ ما حقُّه التّأخير، ولامِ التّأكيد، وكلُّها من مؤكّدات مضمون جملة الإسناد، وقد جاء الخبرُ على الضّرب الإنكاريِّ؛ مبالغةً في التّأكيد على عظَمة ما ذُكر مِن الآيات الجليلة.

دلالة الظّرفيَّة في قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

اشتمال الآياتِ على دلائل القدرة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لدلالته على الظّرفية التي تُبرز عظَمة ما في هذه الآية مِن آياتٍ عظيمةٍ، ودلائل باهرةٍ

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 12.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 71.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

على عظَمة اللّه سبحانه، وقدرتِه على الإماتة بالنّوم، والإحياء باليقظة، وفيه إشارةٌ إلى إحاطة العظَمة بآية المنام وابتغاء الرزق إحاطةَ الظَّرف بالمظروف.

بلاغةُ التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استعارةُ البُعْد المكانيّ للبُعد المعنويّ في المنزلة

أُشير في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ إلى ما تقدّم ذِكْرُه من آياتٍ باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه؛ للإشعار ببُعد رتبتِه وسُموِّ منزلته، فهي آياتٌ عظيمةٌ عالية الرّتبة في بيانها وظهور برهانها، لا يُكتَنَهُ كُنْهُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمام بأدلّة الوحدانيّة الواضحة وبراهينِ القدرة السّاطعة

تقدّم الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ لنُكْتَة الاهتمامِ بما سبق ذكرُه في الآية الكريمة من أدلّةٍ واضحةٍ وبراهينَ ساطعةٍ، دالّةٍ على قدرة الخالق على البعث والنّشور.

دلالةُ جمع ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

انطواءُ الآية القرآنيّة على آياتٍ عظيمةٍ للمُتَدبّرين

جُمِعَ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ لفظُ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ للدّلالة على كثرة الآيات المودعة في إيجاده سبحانه للنّوم بعد النّشاط، والنّشاط بعد النّوم الذي هو الموت الأصغر، وإيجادِ كلٍّ منَ المَلَوَين بعد إعدامِهما، والجِدّ في الابتغاء مع المفاوتة في التّحصيل، فهذه آياتٌ عديدةٌ دالّةٌ على القدرة والحِكمة، لا سيّما البعث[2].

دلالة (اللّام) في قوله ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾:

تعليل انتفاع المتدبّرين بالآيات

وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ حرفُ اللّام مِن لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾، ويظهر أنّه للتّعليل، أي: لأجل قَوْمٍ يَسمَعون،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 56.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 72.

وهي اللّامُ المُبَيِّنَةُ سَبَبَ الّذي قبلها، فهي بمعنى (كي) أو (لأجل)، ولهذا سُمّيَت (لام الأجْلِ)[1]، وذهب ابنُ هشام إلى أنّ معنى هذه اللّام شِبهُ التّمليك، وهو واسطةٌ بين معنى التّمليك ومعنى التّعليل، وذُكِر في المعنى العشرين من معاني اللّام أنّ ابن مالك في (كافيته) سمّاه لام التّعدية[2].

دلالة التّعبير بـ﴿لِّقَوۡمِ﴾:

ضـرورة رسـوخ سمـع الـتّـدبّـر للاعتبار بآيات الله

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ إجراءُ صِفَة ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ على (قوم)؛ للإيماء إلى أنّ سمع التّدبّر متمكّن منهم حتّى كأنّه من مقوّمات قوميَّتهم، وأنّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: (من السّامعين)، وشاهِدُ ذلك قولُ العنبريّ[3]:

قوم إذا الشَّرّ أبدى ناجذيه لهم***طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

أي: قومٌ هذه سجيّتهم[4].

نُكْتَة تنكيرِ لفظ ﴿لِّقَوۡمِ﴾:

تفخيم وتشريف أهـلِ الـتّـفـكّـر والنّظر في الآيات والعِبَر

أفاد تنكيرُ لفظِ ﴿لِّقَوۡمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ التّفخيمَ والتّشريفَ المناسِبَ لسياق مدح أهل التّدبّر في آيات الله، والاعتبار بما فيها من دلائلَ واضحةٍ، وبراهينَ ساطعةٍ دالَّةٍ على وحدانيّة الخالق، وعظيم قدرته.

دلالة التّعبير بصفة السّمع دون غيرها:

سـمـاع الآيـات وتدبّرها موصلٌ إلى الاهـتـداء والاعـتـبـار بما فيها

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ بحاسّة السّمع دون غيرها من الحواسّ لِنُكَتٍ؛ منها: أنّه لـمّا كانت هذه الآيات في دلالتها على ما تشير إليه مِن البعث دقيقةٌ لا يَسْتَقِلُّ العقلُ بها دون توقيف من الدّعاة، ذُكِر السّمع كوسيلة يُستعان بها في إدراك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.
(3) قُريط بن أُنيف من قبيلة بلعنبر، يُنظر: ديوان الحماسة، أبي تمام، ص: 20.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 297.

المعاني، فمُعظم النّاس في حاجةٍ إلى مَن يوقفُهم على هذه الدّلالة ويرشدهم إليها، ومنها: أنّ في ما يسمعه النّاس مِن أحوال النّوم ما هو أشدُّ دلالةً على عظيم صُنع الله تعالى، مِمّا يَشْعُر به صاحِبُ النَّوم مِن أحوال نومِه؛ لأنّ النَّائم لا يعرف مِن نومه إلّا بطريق الخبر مِن الذين يكونون أيقاظًا في وقت نومه، فطريقُ العِلْم بتفاصيل أحوال النّائمين واختلافها السّمعُ، ومنها أيضًا: أنّ النّوم يحول دونَ الشّعور بالمسموعات بادئَ ذي بَدْء، قبلَ أن يحول دون الشّعور بالمُبْصَرات، فدلّ النّظمُ على أنّ القوم الذين هم أهلٌ للسّمع يجب أن يكونوا قد تنبّهوا من رقادهم، فرجعوا عن عنادهم، إشارةً إلى أنّ مَن لم يتأمّل في هذه الآيات، فهو نائم لا مستيقظ، فهو غير متأهِّل لأن يَسمع[1].

دلالة صيغة المضارع ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

تجديد التّدبّر في الآيات؛ للكشف عن مزيد من الهِدايات

جاء الفعل ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة الدّوام والتّجدّد المناسبِ لتكرُّر آية النّوم والاستيقاظ في كُلِّ حينٍ، مِمّا يستوجب تكرارَ الاعتبار بهذه الآيات العظيمة.

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

تشريفُ سمع التّدبّر في حدّ ذاته، دونَ نظرٍ إلى أفراده

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ لنُكْتَةِ التّركيز على وجود فعل سمع التَّدَبُّر في حدّ ذاته؛ لكونه المقصودَ من الكلام، دونَ التّعرّض لأفراد المسموعات، فالغرضُ العامّ مِن ذِكرِ الفعل مُجَرَّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المجرّد في الشّيء دونَ التّعرّض للمعمول[2]، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلام مُنصَبًّا على غرضٍ من الأغراض، جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 72، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 76.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

بلاغةُ التّذييل في الآية:

النّومُ آيةٌ مِن صُنع الله الحكيم

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ على سبيل التّذييل لِما سَبَقَ مِن آياتٍ ومَواعظ، فمَن سمع أنّ النّوم مِن صنع اللّه الحكيم، لا يقدِر أحدٌ على اجتلابه إذا امتنع، ولا على دفعه إذا ورد، تيقّنَ أنّ له صانعًا مُدَبِّرًا، فاستمعَ سَمْعَ مُتَفكِّرٍ مُتَدبِّرٍ، فاستدلّ بذلك على البعث، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن لم يتأمَّل في هذه الآيات فهو نائمٌ، لا مستيقِظٌ، فهو غير مستأهلٍ لِأَنْ يسمع[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتغاء والطّلب والرّجاء:

الابتغاء طلبٌ مع جُهد، والرّجاء طلبٌ مع رغبة

يتَّضِحُ الفرق بين هذه الألفاظ في عموم الطّلب، واختصاصِ الابتغاء بتاء الافتعال الدّالّة على بذل الجهد إلى هذا الفعل، وهذه التّاء تدلّ على السّعي الدّؤوب مع بذل الجهد، وبمعناه جاء في القرآن كلُّ صيغ (ابتغى) كقول اللّه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207][2]، أمّا الرّجاءُ: فهو طلبٌ مع رغبة[3]، فأوثِرَ في الآية لفظُ (الابتغاء) لسعي النّاس في طلب الرّزق باللّيل والنّهار.

الفضل والزّيادة:

اختصاص الفضل بالزّيادة في الخير

يتّضح الفرقُ بين اللّفظين في عموم (الزّيادة)، وخصوصِ (الفضل)، بكون الزّيادة في كلّ خير ونعمة[4]، حِسّيّةً كانتِ الزّيادةُ أو معنويَّةً[5]، وذهب الرّاغبُ إلى أنَّ الفَضْلَ لا يخْتَصُّ بالخَيْر، بَلْ يقَعُ الفضْلُ محمودًا ومذمومًا، واستعمالُهُ في المحمودِ أَكْثَرُ وأغْلَبُ[6]، فأوثِر في الآية لفظُ (الفضل)؛ لرجاء العباد الخير من ربّهم.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 107.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو، بغى).
(3) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/ 291.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 302، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/ 45، والشّوكانيّ، فتح القدير: 1/ 648.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فضل).
(6) الرّاغب، المفردات: (فضل).

السّماعُ شرطٌ في حصول التّدبّر

السّمع والإصغاء:

يشترك اللّفظان في كونهما مُتعلِّقَين بجارحة الأُذُن والسّمع، ويختلفان فيما بينهما في أنّ السّمع هو حاسّة إدراكِ المسموع، والسّمعُ أيضًا اسمُ الآلةِ التّي يُسمع بها، وقد يكون التقاطُ الصّوت عفويًّا بدون قصد المستمع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: 55].

أمّا الإصغاء: فهو طلبُ إدراك المسموع بإمالة السّمع إليه، يقال: صغا يصغو، إذا مال وأصغى، وفي القرآن: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4] أي: مالت، وصَغْوُكَ مع فُلانٍ أي مَيْلُكَ[1]، ويشترط في (الإصغاء) التّركيزُ وتفاعلُ القلبِ والمشاعرِ، فأوثِرَ في الآية لفظُ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ لعمومه؛ ولأنّ الخطوة الأولى سماعُ المواعظ لحصول التدبُّر في تلك الآيات.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 284.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ [الرّوم: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّؤية والمشاهدة من وسائل الاتّعاظ بالآيات

لمّا خَتَم اللّهُ بالسّمع آيةً جَمَعت آياتِ الأنفُسِ والآفاق، لكونها نَشَأت مِن أحوال البشر والخافقين، افتتح بالرّؤية آيةً أخرى جامعةً لهما؛ لكونها ناشئةً عنهما مع كونها أدلَّ على المقصود لجمعها بين التّرغيب والتّرهيب(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرِيكُمُ﴾: (رأى) أصلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ أوْ بَصيرَةٍ، والرُّؤْيَةُ: إدراك المَرْئِيِّ، وذلك أضرُبٌ بحسب قوى النَّفس؛ فالأوَّلُ: بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]، والثّاني: بالوَهْم والتَّخيُّل، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]، والثّالث: بالتَّفكُّر، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]، والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قولُه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النّجم: 11](2)، والرُّؤْيَةُ بالعَيْن تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْم تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْن، والمقصود بالإراءة في الآية: إراءةٌ بصريَّة، والمُرادُ: المعنى المصدري، فكأنَّه قيل: ومن آياته إراءتُكم البَرق(3).

2) ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾: (برق) أصلٌ يدلُّ على لَمَعانِ الشَّيْءِ، والبَرْقُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 72.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 43.

وميضُ السَّحابِ، يُقالُ: بَرَقَ السَّحابُ بَرْقًا وبَريقًا، إذا لَمَع[1]، ويُقال: مَرَّتْ بِنا اللَّيْلَةَ بَرّاقةٌ وبارقة، أي: سَحابَةٌ ذات بَرْقٍ[2]، وسُمّيت السّيوف بارقةً وبوارق تَشْبيهًا بالبَرْقِ، وكلُّ شيءٍ يتلألأ فهو بارقٌ[3]، والمراد بالبرق في الآية: ما يراه الرّائي من نورٍ لامعٍ يظهر مِن خلال السَّحاب[4].

3) ﴿خَوۡفٗا﴾: (خوف) أصْلٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، يُقالُ: خِفْتُ الشَّيءَ خَوْفًا وخيفَةً، والياءُ مُبدَلَةٌ مِن واوٍ لِمَكانِ الكَسرَةِ[5]، والتَّخْويفُ والإخافَةُ: الإفْزاعُ والإرْهابُ[6]، وضِدُّه: الأَمْنُ، وقيل أصلُ الخَوف: النَّقْصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقّصْناهُم، وناقَةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بِها داءٌ[7]، والمقصودُ بالخَوفِ في الآيةِ: تَوَقُّعُ حُصولِ ما تَكْرَهُهُ النَّفْسُ، وهوَ ضِدُّ الأَمْن.

4) ﴿وَطَمَعٗا﴾: أصلُ (طمع) الرَّجاءُ القَويُّ في القَلْبِ، يُقالُ: طَمِعَ في الشَّيْءِ، طَمَعًا وطَماعَةً: إذا قَوِيَ رَجاؤُهُ فيه[8]، ويأْتي بمعنى الأمَلِ، وأكْثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يَقْرُبُ حُصولُهُ، وضِدُّه: اليَأْسُ، والطمع: نزوع النّفس إلى الشّيء شهوةً له، ويُطلق على الحِرص الشّديد، يُقالُ: طَمِعَ في الشَّيْءِ: إذا اشْتَدَّ حِرْصُهُ عليه، والطّامِعُ والطَّمِعُ: الحَريصُ، والطَّمّاعُ: الكَثيرُ الطَّمَعِ، ويُطْلَق على الرِّزْقِ، فيُقال: أخَذَ الجُنْدُ أطْماعَهُم، أَيْ: أَرْزاقَهُم[9]، والمقصود بالطَّمعِ في الآية: اشْتِهاءُ النَّفْسِ لِلشَّيْءِ وحِرْصُها لِلْحُصولِ عليه، وهو يُرادفُ الرَّجاءَ، أي: يَطمعونَ في نُزولِ المَطَرِ[10].

5) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: (عقل) أصلٌ يدُلُّ على حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ، أو ما يُقاربُ الحُبْسَةَ، مِنْ ذلك العَقْلُ، وهو الحابِسُ عَنْ ذَميمِ القَوْلِ والفِعْلِ[11]، وهو ضِدُّ الحُمق والجَهل[12]، والمعقولُ:

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (برق).
(2) ابن سيده، المحكم: (برق).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (برق).
(4) طنطاويّ، التّفسير البسيط: 7/ 455.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(7) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمع).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (طمع)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 228.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 78.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عقل).
(12) الخليل، العين: (عقل).

ما تَعْقِلُه في فؤادك، ويأتي العَقْلُ بمعنى: الفَهْم والتَّمييز، يُقال: عَقَل الشَّيء يعقله عقلًا، أي: فهِمَهُ، والعَقْلُ أيضًا: الشَّدُّ والرَّبطُ، تقولُ: عَقَلَ الدّابَّة، أي: شدَّها وربَطَها[1]، والجَمع: عُقولٌ، ومعنى التَّعقُّل في الآية: التَّدبُّر والتَّفكُّر.

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

آيات الله سبيل في زيـادة إيمان المؤمنين وعقاب الظّالمين

ومِن العَلاماتِ الدّالَّةِ على عَظمةِ اللّه تعالى وغَيرِها مِن صفاتِهِ الحسنى: أنَّه يريكم البرقَ الخاطف الذي يظهر بين السُّحُب المتراكمة، فتخافون ممّا فيه منَ الصَّواعق، وتطمعون فيما يجلبه من الماء الَّذي ينزل من السَّماء، فيُحيى الأرضَ الميتة التي لا زرع فيها ولا شجر، فيُخْرج زرعَها وشجرَها بعد جدبها، إنَّ في ذلك الَّذي سلَف ذِكرُه لبرهانًا قاطعًا، ودليلًا ساطعًا، على البعث والنُّشور، وقيام السّاعة لقوم يستخدمون عقولهم في إدراك تلك الحقائق الكونية، فإنَّ أرضًا هامدة لا نبات فيها ولا شجر، يجيئها الماءُ فتهتزّ وتربو وتنبت من كلِّ زوجٍ بهيج، لهيَ المثالُ الواضح، والدَّليلُ اللائح، على قُدرة مَن أحياها على إحياء العالَم بعد موته، حين يقوم النّاسُ لربِّ العالَمين[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

إضـافـة آيــاتٍ أخرى دالّـةٍ على البعث والنّشور

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، فهذه هي الآيةُ الخامسةُ من دلائل قدرته سبحانه، وهي متعلّقة بالإنسان وليست مُتّصِلةً به، فإنّ البرق آيةٌ من آياتِ صُنع اللّه، وهو من خَلْقِ القوى

(1) الرّاغب، المفردات: (عقل).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 482، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 310، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 74، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 41، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 640.

الكهربائيَّة النّورانيَّة في الأسحبة، وجَعْلِها آثارًا مُشاهَدَةً، وكم مِن قوًى أمثالها منبثّةٌ في العوالم العلويّة لا تُشاهَد آثارُها[1].

دلالة تعلّق الجارِّ والمجرور ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

ذِكْـرُ بعضِ الآيـات الباهرة الدّالةِ على القوّة القاهرة

يختلف معنى (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ حسبَ التّعلّق، فإذا تعلّق الجارّ والمجرور ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بـ﴿يُرِيكُمُ﴾ فيكون في موضع نصب، وتكون (مِن) لابتداء الغاية، أو يكون ﴿يُرِيكُمُ﴾ على إضمار (أن)، فلمّا حُذف (أن) ارتفع الفعل، فيكون التّقدير: (ومن آياته إراءتُه إيّاكم البرقَ)، فـ(من آياته) في موضع رفعٍ على أنّه خبر المبتدأ، وقال الرّمّانيّ: "يحتمل أن يكون التّقدير: (ومن آياته يريكم البرق بها)، وحُذف لدلالة (مِن) عليها، وعلى هذه الأوجه يكون حرف الجرّ (مِن) للتّبعيض[2]، وفائدة هذا الأسلوب الإشعارُ بأنَّ كلَّ آيةٍ منها آيةٌ خارجةٌ مِن جنس الآيات، مستقلّة بشأنها، مقصودة بذاتها[3].

نُكْتَةُ التّعبير بالآيات دون الدّلائل:

الآيـات علاماتٌ ظاهرةٌ موصلةٌ إلى الاعتبار

أوثِرَ التّعبيرُ بالآيات دون الدّلائل في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾؛ لاختصاص الآيات بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[4]، وفي مقام ذِكْر البرق ونزول الماء مِن السّماء يكون المناسِبُ التَّعبيرَ بالآيات لظهورها ووضوحها؛ فلا يخفى على ذي عينين هذه المشاهد، وقد جاء لفظُ (الآيات) جمعًا للدّلالة على كثرة آيات اللّه سبحانه في آية البرق ونزول الماء من السّماء، فكلٌّ واحدةٍ منهما تحمل فى طيّاتها آياتٍ عديدة تُدَلِّلُ على وحدانيَّته سبحانه.

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.
(4) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 97.

دلالة الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تعظيمُ قدْر الآيات وتشريفُ منزلتها

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ إلى الضمير العائد على اللّه ﷻ باعتباره أنّه مصدرها سبحانه، وللدّلالة على تعظيم قَدر هذه الآيات وتشريف منزلتها، إذ إضافة الأعيان إلى اللّه تُفيد التّشريفَ، كبيت اللّه، وناقة اللّه[1].

نُكْتَةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاهتمام بآيات اللّه سبحانه والتّنويه بشأنها

تقدّم الجارّ والمجرور ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾ للاهتمام بآيات اللّه سبحانه والتّنويه بشأنها؛ وذلك لأنّ السّياق القرآنيّ هو في الاستدلال على وحدانيّة اللّه ﷻ وقدرته على البعث، وفي التّقديم تعريضٌ بالمشركين؛ لأنّهم يُشركون مع اللّه ما لا يستطيع أن يأتيَ بآيةٍ من هذه الآيات.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ في الآية:

إثارةُ البرقِ الخوفَ والطّمعَ في النّفوس

عُبِّرَ بلفظ ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾، والنُّكْتَة في ذلك: أنّ مِن الحِكَم الإلَهيّة في كون البرق مرئيًّا أنّ ذلك يُثير في النّفوس خوفًا مِن أن يكون اللّهُ سَلّطَهُ عقابًا وطمعًا في أن يكون أراد به خيرًا للنّاس، فيَطمعون في نزول المطر، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، فإنّ نزول المطر ممّا يخطر بالبال عند ذِكر البرق[2].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾:

استحضارُ حقائق الأشياء بالعهد الذّهنيّ

جاء لفظُ ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾؛ لدَلالته على تعريف الجنس المقتضي للعموم، ويسمّيها البلاغيّون (لام الحقيقة)، وتسمّى أيضًا لامُ العهد الذّهني[3]، وهي التي تُبيّن الحقيقة بقطع النّظر عن الأفراد، وهي

(1) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 78.
(3) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.

تعرّف حقيقةً ذهنيّةً يراد بها فردٌ مُبهَمٌ مِن أفراد الحقيقة، باعتبار عهديّته في الذّهن؛ لاشتمال الحقيقة عليه كما في قوله: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13]، وقولِهم: (ادخل السّوق)(1).

نُكْتَةُ تقديم ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ على نزول الماء:

الأخذ بالأسباب والإعـــداد لها منهجٌ قرآنيٌّ

نُكتة تقديمِ البرق على إنزال ماء السّماء في قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ أنّه كما أنّ في إنزال المطر وإنبات الشّجر منافعَ، فكذلك في تقدُّم البرقِ والرّعد على المطر منفعةٌ؛ وذلك لأنّ البرق إذا لاح فالّذي لا يكون تحت كِنٍّ يخاف الابتلالَ فيستعدّ له، والّذي له صهريجٌ أو مصنعٌ يحتاج إلى الماء أو زرع يُسوّي مجاريَ الماء، وأيضًا كانت العرب مِن أهل البوادي لا يعلمون البلاد المُعشِبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللّائحة مِن جانبٍ دون جانب.

وفوائد البرق وإن لم تظهر للمُقيمين بالبلاد فهي ظاهرةٌ للبادين، ولهذا جُعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السّماء نعمةً وآيةً، فأمّا كونه نعمةً فقد تقدّم وجهها، وأمّا كونه آية فظاهرٌ أيضًا، فإنّ السّحاب ليس إلّا ماءً وهواء، وخروج النّار منها بحيث تُحرق الجبال في غاية البعد، فلا بدّ له من خالق، وهو اللّه(2).

بلاغة الجمع في قوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾:

إثـــارةُ رؤيـةِ البـرق المخـاوفَ مـن الأضـرار، والـطّـمـعُ في الأمطار

جمع القرآنُ الكريم بين الخوف والطّمع في قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾؛ وذلك لأنّ الخوف يعبِّرُ عن حالة الإنسان عندما يشاهد البرقَ، فيكون مضطربًا غيرَ آمن؛ أمّا الطّمع فيكون لتوقُّع الخير، وهو ما يأتي بعد البرق مِن نزول الماء؛ لذلك كان الجمع باعتبار الآثار المترتِّبة وليس باعتبار التّضادّ، وفيه أيضًا تعريضٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 94.

بالمشركين الذين يخافون من مخلوقٍ، وهو البرق، والأولى بهم أن يخافوا من الخالق سبحانه الذي خلق البرق.

دلالة حذف متعلّق ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾:

تَعدُّدُ أنواعِ الخوف والطّمع حسبَ المُخاطَب

حُذِف متعلّقُ ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قصدًا للعموم، لكي لا يقصرَهما السّامعُ على نعمةٍ دون أخرى، فقال بعضُهم: يريكم البرق إخافةً مِن الصّاعقة، خصوصًا لِمن كان في البرّيّة من أبناء السّبيل، وإطماعًا في الغيث، لا سيما لَمن كان مقيمًا، وقيل: خوفًا مِن البَرَدِ أن يهلك الزّرع، وطمعًا في المطر أن يحييَ الزّرع، وكلُّها - وغيرها - أوجهٌ سائغةٌ[1].

الأوجه الإعرابيّة في لفظَي ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾:

إثـراءُ المعاني الدّلاليّة بتنوّع الوجوه الإعرابيّة

ذهب المُعْربون في إعراب قوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مذاهبَ شتّى، فقال فريقٌ: هما مفعولان لأجله، بمعنى الإخافة والإطماع، كقوله: فعلته رَغمًا للشّيطان؛ أي: إرغامًا له، وهذا على مذهب من لا يشترط في نصب المفعول له اتّحادَ المصدر والفعلِ المعلّل في الفاعل، والخوفُ والطّمع ليسا كذلك، وأمّا على مذهب المشترطين لذلك فقيل في توجيهه: إنّ ذلك على تقدير مضافٍ، أي: إرادةَ خوفٍ وطمع، أو على تأويل الخوف والطّمع بالإخافة والإطماع، إمّا بأن يُجعَل أصلُهما ذلك على حذف الزّوائد، أو بأن يُجعَلا مجازَين عن سببيهما[2]، كما يجوز أن يكونا حالين، أي: خائفَين وطامِعَين[3].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

إتباعُ رؤية البرق بنزول المطر

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بما قبلَه بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، فهذه آيةٌ أخرى مِن آيات اللّه العظيمة ودلائل قدرته، وهي آيةُ إنزال الماء من السّماء وإحياءِ الأرض بعد

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 334، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 127.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 475.

موتها، ولـمّا كان البرقُ غالبًا مِن المُبشِّرات بالمطر، وكان ما ينشأ عن الماء أدلَّ شيءٍ على البعث، أتبعه شرحَ ما أشار إليه به من الطّمع[1].

ذِكْرُ القراءات المتواترة في ﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

تكثير المعاني الدّلاليّة بتنوّع القراءات القرآنيّة

قرأ الجمهور في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لفظ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بياء تحتيّة مضمومة، وفتح النّون وتشديد الزّاي مكسورة من فِعل (نَزّل)، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون النّون وتخفيف الزّاي مكسورةً ﴿وَيُنزِلُ﴾ من فِعل (أنزل)[2]، وقد ذهب بعض العلماء إلى التّفريق بين مصدَرَيهما: (أنزل إنزالًا، ونَزَّلَ تَنْزِيلًا) مِن حيثُ المعنى، فقالوا: إنّ الإنزالَ يكون جملةً واحدةً، والتّنزيلُ يكون مُنَجَّمًا[3]، وهذا مِن اختلاف التّنوّع والإثراء.

دلالة المضارعة في الفعل ﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

تَجدُّدُ نزولِ المطر رحمةٌ للعباد

جاء التّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للدّلالة على التّجدّد والتّكرار، للإشعار بأنّ إنزال المطر من السّماء رحمةٌ للمخلوقات، ونعمةٌ متجدِّدةٌ يمتنّ بها اللّهُ سبحانه على عباده.

دلالة ﴿مِنَ﴾ في القيد ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

مبدأ الأمطار من السّماء، ومنتهاه إلى الأرض

ورد في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حرفُ الجرّ (مِن)، وهو دالٌّ على ابتداء الغاية، أي: أنزل من جهة السّماء[4]، فإنّ المطر مبدأُ إنزالِه من السّماء، ومنتهاه إلى الأرض والمخلوقات التي عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾ [الفرقان: 48 - 49].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 73، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 128.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 219.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 2/ 202.

دلالة تعريف ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في الآية:

السّماء الدّنيا مصدرُ نزولِ الماء دونَ غيرها من السّماوات

جاء لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل) الدّالَّةِ على تعريف العهد الذّهنيّ، وهي تَعَرُّفُ حقيقةٍ ذهنيّةٍ يُراد بها فرْدٌ مبهمٌ من أفراد الحقيقة، باعتبار عهديّته في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه[1]، فالمطرُ لا ينزل إلّا من السّماء الدّنيا دونَ غيرها من السّماوات، فينزلُ من أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأنّ كلّ أُفُق من آفاقها سماء، كما أنّ كلّ طبقة من الطّباق سماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [فصّلت: 12][2].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

التّأكيد على عظمة السّماوات وما فيها من آيات بيّنات

تَقَدُّمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لنُكْتَة الاهتمام بمكان نزول المطر، فالسّماءُ آيةٌ عظيمةٌ مِن آيات الله بما تشتمل عليه مِن معجزاتٍ؛ كرفعها مِن غير عَمَد، واتّساعِها، وإتقانِها، وإنزالِ المطر منها، ونجومِها، وغيرِ ذلك؛ وقد تكرّر في القرآن التّنويهُ بشأن آية السّماء، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: 6].

دلالة التّنكير في ﴿مَآءٗ﴾:

الماء النّازل من السّماء كثيرٌ غزيرٌ

جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لفظ ﴿مَآءٗ﴾ نكرةً، والنّكتة في تنكيره التّكثيرُ المناسب لسياق الامتنان على الإنسان في الآية، فالماء النّازل من السّماء كثيرٌ غزيرٌ، يملأُ الأراضيَ والوديان والأنهار، ويُروي الأناسيَ والأنعامَ وسائر المخلوقات.

دلالة التّعبير بـ(الفاء) في: ﴿فَيُحۡيِۦ﴾:

سرعةُ حياة الأرض بالنّبات بعد إنزال الغيث

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ على ما قبله بحرف الفاء دون غيره؛ لدلالته على التّرتيب والتّعقيب، وفيه دلالةٌ

---

(1) الخطيب القزويني، الإيضاح: 2/ 21.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 01/ 82.

على سرعة النّبات[1]، بمعنى: أنّ إحياء الله ﷻ للأرض بالنّبات، وما يتفتّقُ من زَهْرٍ، ويكتَمِل من ثَمَرٍ، يكون عقِبَ إنزالِ المطر عليها، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه.

نُكْتَة المضارع في الفعل ﴿فَيُحۡيِۦ﴾:

استحضار الحالة العجيبة لآيات الله المهيبة

جاء الفعل ﴿فَيُحۡيِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على أنّ هذا الفعل مِن إنزال المطر وإحياء الأرض يتجدّد ويتكرّر في كلّ آنٍ، كما أنّ الإتيان بصيغة المضارع يفيد استحضارَ الحالةِ العجيبة وتصويرَها في النّفوس، وإدخالَ المهابةِ عليها، إذ إحياءُ الأرض بعد موتها دليلٌ ظاهرٌ على البعث والنّشور بعد الموت، وآيةٌ عظيمةٌ على استحقاق الخالق سبحانه التّعظيمَ والإفرادَ بالعبادة[2].

دلالة (الباء) في القيد ﴿بِهِ﴾:

سببُ الإنبات نزولُ الأمطار

دلّ حرفُ الباء من لفظ ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ على معنى السّببيّة[3]، والمعنى: أنّه بسبب الماء النّازل من السّماء، يحيي اللّهُ ٱلۡأَرۡضَ بأن يُخرج سبحانه بهذا الماء النّباتَ منها، فتكون السّماء كالذَّكَر، والأرضُ كالأنثى، ويجوز أيضًا أن تكون باءَ الآلة[4].

نُكْتَة تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِهِ﴾:

قَصْرُ حياةِ الأرض على نزول المطر من السّماء

تَقَدُّمُ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ لنُكْتَةِ الاختصاص، فمِن سُنَنِه سبحانه في هذه الدّنيا أن قَصَر حياة الأرض على نزول المطر من السّماء، وكلُّ المياه الجوفيّة الأخرى النّابعة من الأرض فرعٌ عنه، فهو

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 2/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 34.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 2/ 202.

مصدرُها، كما يحتمل أن يكون التّقديمُ لنُكْتَةِ الاهتمام بماء السّماء؛ إذ هو من آيات الله البديعة في هذا الكون.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تعريف الجنس يقتضي العموم والجمع

جاء لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ مُعَرَّفًا بـ(أل) الدّالّة على الجنس، فإحياءُ الأرضِ المَوات بالغيث عامٌّ في كُلِّ أرضٍ، فالأرض بهذا المعنى اسمُ جنسٍ صادق على شائع متعدّد، وبهذا الإطلاق جُمِعَت على (أرَضين)، وقد يُقال: إنّ (أل) هنا دالَّةٌ على تعريف العهد الذّهني، وهي تَعَرُّفُ حقيقة ذهنيّة يُرادُ بها فرْدٌ مُبْهَمٌ مِن أفراد الحقيقة باعتبار عهديّته في الذّهن؛ لاشتمال الحقيقة عليه[1]، فالأرضُ التي تحيا بالمطر هي الأرض المعهودة، التي لها أهليّةُ الإنبات دونَ غيرها من مجموع الأرَضين السّبع.

دلالة الظّرفيّة في قوله: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾:

صِحّة وصفِ الجماد بالمَوْت والاستدلال به على البعث

وُصِفت الأرضُ بالموت في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، فذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ إطلاق الموتِ على ما لم تَحُلَّه حياةٌ هو مِنْ باب المجازِ؛ فلا يصحُّ عِنْدَهُم وصفُ الجمادِ مثلًا بالموتِ حقيقةً، ونُكْتَةُ وصف الأرض بالموت الاستدلالُ على البعث[2]، وقالت طائفة أخرى من العلماء: إنَّ ذلك ليس من بابِ المجازِ، بل هو حقيقةٌ، فالعربُ تصف الجمادَ بالموتِ، وبذلك جاء القرآن الكريمُ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ [النّحل: 20 - 21]، "فهذا في الأصنام، وهي مِنَ الجمادات، وقد وُصِفَتْ بالموت"[3]، فالموت: عدمُ الحياة مطلقًا، لا عدَمُها عمّا هي مِنْ شأنه[4].

(1) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/ 214.

(3) ابن تيميَّة، التَّدمريَّة، ص: 160، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/ 186.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 2/ 108.

بلاغة الاستعارة في وصف الأرض:

تشبيه الأرض بالأحياء في قبول الحياة والموت

وُصِفت الأرضُ في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ بالحياة والموت، والمقصود بإحيائها: إخراج النّبات الأخضر منها، وإخراجُ الطّعم منَ النّبات، وما جرى هذا المجرى، والمقصود بموتها: يُبْسُها وجَفافُها، ووَصْفُ الأرضِ بالحياة عند بعض العلماء مجازٌ، بجامعِ قَبولِ الزّيادةِ والنّماء في كلٍّ، وكذلك ضِدّه من إطلاق صفة الموت عليها، فهو من باب الاستعارة، كأنّه لّما لم تظهر آياتُ حياةِ الأرض الكامنةِ فيها منَ النَّماءِ والاخضرار وغيرِها سُمّيت مَيّتة، أو فارقَتها صفة الحياة[1].

بلاغة الطباق بين الفعل ﴿فَيُحۡيِۦ﴾ والاسم ﴿مَوۡتِهَآۚ﴾:

توضيح المعنى بالجمع بين الضّدّين

يتضمّن قولُه تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ طباقًا بديعًا بين لفظَتَي ﴿فَيُحۡيِۦ﴾ و﴿مَوۡتِهَآۚ﴾، وهو مُحسّنٌ معنويٌّ يوضّح كمالَ قدرتِه سبحانه، والغرضُ منه: زيادة الامتنان على الإنسان، فإنّ مَن شاهد موتَ الأرضِ عرفَ قيمةَ حياتها، وكذلك فبينَ تقابلِ الحياة والموت وتخالفِهما تضادٌّ يُثير الذّهنَ ويجذبُ الانتباه، ويزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرافةً، كما يُقوّي المعنى، إذ بضدّها تتمايز الأشياء، وكلّ ذلك لزيادة التّعجيب من قدرة اللّه سبحانه.

دلالةُ نسبة الإحياء لله دونَ الموت:

التّأدّب في خطاب الله ﷻ

يُلحَظ في قوله تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ إسنادُ الإحياءِ إليه تعالى بقوله: ﴿فَيُحۡيِۦ﴾، وإضافةُ الموت إلى الأرض ﴿مَوۡتِهَآۚ﴾، مع كونه الفاعلُ لهما سبحانه، والنّكتة في ذلك: أنّ الحياة أشرفُ مِن الموت، فنُسب الإحياء للّه ﷻ وحدَه، ولم يُنسب الموتُ إليه مباشرةً؛ تنزيهًا للّه تعالى عن نسبة أدنى شُبهةِ شَرٍّ إليه، وفي هذا تأديبٌ للعباد في مخاطبته، بنسبة الخير دون الشّرّ إليه، لقوله ﷺ:

(1) الصّاويّ، الحاشية على الجلالين، ص: 556، والآلوسي، روح المعاني: 4/ 215.

«الْخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، معَ اعتقاد أنّ الكلّ فعلُه، وتنبيهًا على أنّ الشّرّ ممّا ينبغي التّبرّؤ منه، والبُعدُ عنه[2].

علّة فصل جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

دلالـةُ الآيـات البـاهـرة على بديع القدرة

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ عن صدر الآية على سبيل الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه خَرَجَ مخرج التّذييل لما سبق، وفائدةُ التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّلِ، وإبرازُ حُكمِه في صورةٍ كُلّيَّةٍ[3]، فأكّد اللّهُ سبحانه أنّ ما ذكره من إراءَة البرقِ، وإنزالِ الماء من السّماء، وإحياءِ الأرض به، آياتٌ دالَّةٌ على بديع القدرة، وعجيبِ الحِكمة.

فائدةُ تتابعِ المؤكّدات في الآية:

المبالغة في تأكيد آيـاتِ العظَمة والقدرة

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ عدّةُ مؤكِّدات، مِنَ التّأكيد بـ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميّة، وتقديم ما حقّه التّأخير، ولامِ التّأكيد، وكُلُّها مِن مؤكِّدات مضمونِ جملة الإسناد، وقد جاء الكلامُ على أسلوب الخبر الإنكاريِّ؛ مبالغةً في التّأكيد على عظَمة ما ذُكِر منَ الآيات الجليلة.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

اشتمالُ الآياتِ عــلى أوضــح البيّنات وأجلى الهدايات

استُعمل في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ حرفُ الجَرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّة، فقدِ اشتملت هذه الآيةُ الكريمة على آياتٍ عظيمة، ودلائلَ باهرةٍ على عظَمة اللّه سبحانه، وقدرتِه على الإحياء بعد الإماتة.

بلاغة التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استعارة البُعد المكـانيّ للبُعد المعنويّ في المَنزلَة

أُشيرَ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ إلى ما تقدّم ذِكْرُه مِن إراءة البرقِ وإنزالِ الماء من السّماء، وإحياءِ الأرض

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (771).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 482.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

بعد موتها باسمِ الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه من معنى البُعد، مع قُرْب العهدِ بالمشار إليه؛ للإشعار بِبُعْد رتبتِه وسُموّ منزلتِه، فهي آياتٌ عظيمة عاليةُ الرُّتبةِ في بيانها وظهورِ بُرْهانِها، لا يُكْتَنَهُ كُنْهُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الاهتمام بأدلّة الوحدانيّة الواضحة، وبراهينِ القُدْرة السّاطعة

تقدّمَ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ لنُكْتَةِ الاهتمامِ بما سبق ذِكْره في الآية الكريمة من أدلّة واضحةٍ، وبراهينَ ساطعةٍ دالّةٍ على قدرة الخالق على البعث والنّشور.

دلالةُ التّعبير بصفة العقل دون غيرها:

العقل المستقيم كافٍ في فهم الدّلائل والحِكم

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بصفة العقل دون غيرها، فقد نيط الانتفاع بهذه الآيات بأصحاب صفة العقل؛ لأنّ العقل المستقيم غيرُ المشوب بعاهة العنادِ والمكابرة كافٍ في فهم ما في تلك المذكورات من الدّلائل والحِكم، واستنباط أسبابها، وكيفيّة تَكوُّنِها، ليظهر لهم كمالُ قدرةِ الصّانع وحِكمتُه[2]، وفيه تعريضٌ بالكفّار بسلب وصفِ العقل عنهم.

دلالة المضارعة في الفعل ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

تجدّدُ تعقّل الآيات للانتفاع بما فيها من هِدايات

جاء الفعل ﴿يَعْقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة الدّوام والتّجدّد المناسب، لتكرّر هذه الآيات الكونيَّة في كلّ حين، ممّا يستوجب تكرار الاعتبار بهذه الآيات العظيمة.

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

حُذِفَ متعلّق الفعل ﴿يَعْقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 56.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 205.

تشريف صفة العقل في حدّ ذاتها، دونَ نظرٍ إلى أفرادها

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لنُكْتَةِ التّركيز على وجود فعلِ العقل في حدّ ذاته، لكونه المقصود مِن الكلام، دونَ التّعرّض لأفراد المعقولات، فالغرض العامّ من ذكر الفعل مجرّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المجرّد في الشّيء دون التّعرّض للمعمول[1]، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلام مُنصبًّا على غرضٍ من الأغراض، جُعِلَ سياقُه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَحٌ[2].

بلاغة التّذييل بجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

العـقـلُ مِـلاك الأمور، ووسيلةُ استنباط كُلِّ مستور

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ على سبيل التّذييل، لما سبق من آياتٍ ومواعظَ من إراءَةِ البرق، وإنزالِ الماء من السّماء، وإحياءِ الأرض به بعد موتها، فختم الآيةَ بقوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنّ العقل مِلاك الأمر في هذه الأبواب، وهو المُؤدّي إلى العِلْم، وأصحابُ العُقول يفهمون عن اللّه سبحانه حُجَجَه وأدلّتَه، فكما أنّه تعالى قادر على أن يحييَ الأرض بعد موتها، كذلك قادر على أن يحييَ الموتى ويبعثَ من في القبور، وقال بعض العلماء: العاقل من يرى بأوّل رأيه آخرَ الأمور، ويهتك عن مهمّاتها ظُلَمَ السّتور، ويستنبط دقائقَ القلوب، ويستخرج ودائعَ الغيوب[3].

سرُّ ختام الآية بقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

آيةٌ عظيمةٌ لِمَن لـه أدنى عقل، وإن لـم يتفكّر تفكُّرًا تامًّا

خُتمت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، بخلاف الآية الأخرى التي خُتمت بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وبالتّأمّل فيهما تظهر بلاغةُ القرآن في اختيار الألفاظ الملائمة للسّياق؛ فإنّه لمّا كان حدوثُ الولدِ من اقتران الذّكر وزوجه أمرًا عاديًّا مضطردًا، قليلَ الاختلاف، كان يتطرَّق إلى الأوهام

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 129.

القاصرة أنَّ ذلك بالطّبيعة؛ لأنَّ المضطرد أقربُ إلى الطّبيعة مِن المُختلف، فاحتيجَ إلى التّفكّر للوصول إلى الاستفادة من هذه الآية؛ أمّا البَرقُ والمَطرُ فليسا أمرًا مضطردًا، بل يختلفُ، إذ يقع في بلدةٍ دون بلدةٍ، وفي وقتٍ دونَ وقتٍ، وتارةً يكون قويًّا، وتارةً يكون ضعيفًا، فهو أظهر في العقل دلالةً على الفاعل المختار، وهو آيةٌ لِمَن له عقلٌ وإن لم يتفكّر تفكُّرًا تامًّا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخوف والرّهبة:

عموم الخوف، واختصاص الرّهبة بطول الخوف واستمراره

يظهر الفرقُ بين (الخوف) و(الرّهبة) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالخَوْف عامٌّ في توقُّع مكروهٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة، والرّهبة مخصوصةٌ بطول الخوف واستمراره، ومِن ثَمَّ قيل للرّاهب: راهبٌ لأنّه يُديم الخوف، وفَرَّقَ بينهما بعضُ العلماء بقوله: الخوف هو توقّع الوعيد، وهو سوط اللّه يُقَوِّم به الشّارِدين عن بابه، ويسير بهم إلى صراطه، حتّى يستقيمَ به أمرُ مَن كان مغلوبًا على رُشده، ومن علامته: قصر الأمل وطول البكاء، وأمّا الرّهبة فهي انصبابٌ إلى وجهة الهرب، (رهب) و(هرب) مثل (جبذ) و(جذب)، فصاحبُها يهْرُب أبدًا لتوقّع العقوبة، ومِن علاماتها: حركةُ القلب إلى الانقباض من داخل، وهربُه وإزعاجه عن انبساطه، حتَّى إنَّه يكاد أن يبلغ الرَّهابَة في الباطن، مع ظهور الكمد والكآبة على الظّاهر[2]، وبما أنّ سياق الآية في ذِكر البرق وما قد ينجرّ عنه، أوْثِرَ لفظ (الخوف) لعمومه، ولا وجه للتّخصيص.

الطّمع والرّغبة:

يظهر الفرق بين (الطمع) و(الرغبة) في كون الطّمع نزوع

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 112، والجَمل، الفتوحات الإلَهيّة: 3/ 389.

(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 261.

لا يكون الطّمع إلّا فيما قَرُب حصوله

النّفسِ إلى الشّيء شهوةً له[1]، ولا يكون إلّا فيما قَرُب حصوله، أمّا الرغبة فهي طلبُ مُغيَّبٍ، هو على شكٍّ من حصوله، وتقتضي طَلَبَه؛ قال ابن القيّم في مدارج السّالكين: "الرغبةُ طلبٌ، فإذا قوي الطّمعُ صارَ طلبًا"[2]، وقد أوثر في هذه الآية لفظ (الطمع) لقرب نزول المطر بعد رؤية البرق.

العقل والفكر:

التّعقّل في الأمور الظّاهرة، والتّفكّر في ما فيه خفاء

يظهر الفرق بين (العقل) و(الفكر) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالعقل أعمّ من الفكر، والفكر من أدوات العقل، فيُطلق العقل على القوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عقل[3]، وأمّا الفكر فهو جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل[4]، والعقلُ غريزةٌ يتهيّأ بها الإنسانُ إلى فهم الخطاب[5]، وهو نقيض الجهل[6]، ولهذا يُطلق وصفُ التّعقّل في ما يُعقل بالحواسِّ الظّاهرة، ونتيجتُه الفهمُ، وذَمَّ الكُفّارَ بأنّهم لا يعقلون مع ظهور آيات الوحدانيَّة، ويُطلَق التّفكُّرُ في الأمور الباطنة التي فيها خفاءٌ، بحيثُ يوصِلُ التّفكُّر فيها وإدامةُ النَّظر إلى الاعتبار، وقد أوثِرَ في هذه الآية لفظ (يعقلون)؛ لكون البرق واضحًا مُدركًا بحاسّة البصر ليس فيه خفاء.

(1) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 73، وابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/ 291.
(3) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فكر).
(5) الفيّوميّ، المصباح المُنير: (عقل).
(6) الخليل، العين: (عقل).

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ [الرّوم: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ التّذكير بآياته تعالى في الخلق والتّقدير بقدرته على الإماتة والبعث

دلّت السّياقات السّابقة على عظيم آيات اللّه الباهرة، وقدرته المهيمنة القاهرة، على كمال خلقه، وتمام إنعامه وفضله، ثمّ جاءت هذه الآية مبيّنةً عظمةَ خلق السّماء والأرض، بلا عمد مرئيّة، ولا دعائمَ مبنيّةٍ، في نظام بديع، وتقدير رفيع، تتحقّق به حركة نظام الموجودين، إلى أن ينتهي الكلّ لربّ العالمين، عند قيام السّاعة، وخروج النّاس من القبور، إلى مواجهة المصير، بأمر من العزيز القدير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَقُومَ﴾: أصلُ (قوم) يدلُّ على انْتِصابٍ وعَزْم، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقفَ وانْتَصبَ[1]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيه، وتُطْلَقُ بِمعنى الدَّوام على الشَّيْءِ، كَقَوْلِهِم: أقامَ الشَّيءَ بِمعنى أدامَهُ[2]، ومِن مَعانيها: القِيامُ بالشَّيءِ، مِن أقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ، كَما تُطْلَقُ الإقامَةُ أيضًا ويُرادُ بِها: جَعْلُ القاعِدِ قائمًا[3]، والقيام - نقيضُ الجلوس، واستقام - اعتدل واستوى، ولفظ القائم من قوم وقيم، قلبت فيه الواو ياء لخفّتها وقربها من الطّرف، ومعنى القيام في الآية: الثّبات والاستقرار والدّوام[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (قوم).
(4) ابن سيده المرسيّ، المخصّص: 3/ 334.

2) ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾: أصلُ (أمر) الأمرُ الحادثةُ، والجمعُ أُمورٌ، ويطلق الأمر على الشّؤون المهمّة للشّخص، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: 28]، والأمر: الشّأن، ويقال أمر يأمر أمرًا، وجمعه أمور، وأمرته: كلّفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامّ للأفعال والأقوال كلّها، وكلّ مأمور به فهو أمر، وعلى ذلك معنى الآمر في اللّغة عموما، وفي القرآن، سمّى اللّه ما رآه إبراهيم في المنام أمرًا؛ إذ قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصّافات: 102]، فسمّى ما كلّف به في المنام، من الذّبح أمرًا، والأنبياء إذا رأوا شيئًا فعلوه[1]، والأمرُ في الآية مقصود به: الشَّأْنُ والفِعْلُ، وهو أمر اللّه التّكوينيّ في مجموع ما وضعه من نظامِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، يمنع تَطرُّقَ الاختلالِ عنها[2].

3) ﴿دَعَاكُمۡ﴾: أصلُ (دعو) طلبُ شيءٍ من الآخرين[3]، والدّعو: مصدر دعا يدعو دعوا ودعاء، والدِّعوة في النّسب بالكسر لا غير، والدَّعوة الى الطّعام بالفتح، وهي المدعاة أيضًا، واستجاب اللّه دعاءه ودعوته[4]، ودعوت اللّه له وعليه دعاء، والدّعوة المرّة الواحدة، والدّعاء: واحد الأدعية، وأصله دعاوٌ؛ لأنّه من دعوت إلّا أنّ الواو، لمّا جاءت بعد الألف همزت[5]، وهو أقرب إلى النّداء، دعوت فلانا إذا ناديته لأمر[6]، ويتعدّى (دعا) بحرف (إلى)، لاتّخاذ موقف أو أمر[7]، كما تطلق الدَّعْوَى أيضًا على الادِّعاء، قالَ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ [الأعراف: 5][8]، والمقصود بالدُّعاء في الآية: نداء الآخرة للحضور إلى يوم الدّين.

4) ﴿تَخۡرُجُونَ﴾: أصلُ (خرج) النَّفاذُ عن الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا[9]، ومنه الخُروجُ: اسمٌ من أسماء يومِ القيامةِ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾ [ق: 42]، أي: يَوْم

(1) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 7/ 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 80.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (عدو).
(4) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (دعو).
(5) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (دعا).
(6) الرّاغب، المفردات: (دعا).
(7) الرّاغب، المفردات: (دعا).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (دعا).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

يُبۡعَثونَ فيَخۡرُجون من الأرۡض[1]، والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ[2]، والإخراجُ في الآية معناه: إظهار شيء من شيء بعد خفائه فيه، والمُراد به: بُروزُ أجسادهم من الأرضِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـان قـيـام السّماء والأرض بأمره

ومِن العَلاماتِ الدّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى، ثباتُ السَّماءِ والأرضِ، ودوام نظامهما، بأمر اللّه وتدبيره، بلا عمد تحملها، ولا أربطة تشدّها، ويبقى الأمر كذلك، حتّى ينتهي أجل الدّنيا، وتُفضي إلى نهايتها، الّتي رسمتها الآقدار، وحدّدها أمر اللّه الواحد القهّار، وهناك تبدّل الأرض غيرَ الأرض والسّموات، وتخرّ الجبال هدّا، وذلك عند النّفخ في الصّور، وخروج البشر من الأجداث سراعا، مقبلين إلى ربّهم، خاضعين لدعوته تعالى وحسابه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

غـايـة وصـل الـجـمـل هـنـا، الاسـتـدلال الأنصع، على ما خلق الله وأبدع

عُطفت جملة ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ﴾، على ما سبقها من الآيات، عطفَ تتبّعٍ ونسقٍ، دالٍّ على قادر عليم، ومدبّرٍ حكيم، ومحيٍ مميت ومعيد، انقادت حركة السّماء والأرض لأمره، فلا يهتزّ لها نظام، ولا يتصدّع منها تماسك، ولا يتنافر فيها التئام، لكونها محكمةَ البناء، متماسكةَ الجرم، دالّةً على آية اللّه تعالى، في الصّنع والقدرة والقيّوميّة.

معنى (مِنۡ) في جملة ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

آيـات الـحـقّ لا تُحصى، وبدائع خـلـق الـلـه لا تستقصى

عبّرت الآية بحرف (مِنۡ)، في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، وهي (مِنۡ) التّبعيضيّة، أي بعض آيات الحقّ ﷻ، وتشير (مِنۡ) إلى حذفٍ في الجملة، تقديره: وآية من

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خرج).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).

آياته، والسّياق بصدد تعداد الآيات الدّالّة على كمال اللّه، وتمام قدرته، وكم هي آيات اللّه تعالى الّتي لا تحصى عدًّا، ولا تُحصر دلالة! وهو شروع في بيان بقائهما وثباتهما، بعد بيان أنّه هو من أوجدهما آيتين بارزتين في الكون الواسع البديع، في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 22]، والقيام هنا يعني البقاءَ لا الإيجاد، وهو أمر مستقبليّ أكيد[1].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

آيـــاتُ الـلـه الـبـاهـرة، مـعـجـزاتٌ واضحة ظاهرة

جاء التّعبير بـ(آية)؛ في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، لما يحمله لفظ (آية) من معنيِي الدّلالة[2] والوضوح[3]، بحيث لا تحتاج إلى أكثر من إلقاء النّظر إليها، ومدّ البصر إلى مظهرها، فالّذي يتأمّل في قيام السّماء والأرض واستمرارهما، يستحضر لا محالة قدرةً تَحفَظ لهما أسباب الاستمرار على عظمتها واتّساعها، ونسبته إليه تعالى بالضمير زادها عظمةً، ومهابةً.

دلالةُ جمع ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، مضافة إلى الضّمير:

بـيـانُ تـعـدّد الآيات وتنوّعها، مـبـيـنـة عـلى كمال الصّنعة وتفرّدها

ذُكر لفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ جمعًا مضافًا، لضمير الواحد ﷻ، ليدلّ على كثرة الآيات الدّالّة على كمال القدرة والإرادة، وعلى التّفرّد والوحدانيّة، فأينما التفت المرء، وجد آية تدلّ على أنّه الواحد، كاملةَ الدّلالة، معلومة بالأثر والأصالة، ناهيك عن تعدّد الآيات؟ وما يترتّب عنها من تنوّع في الدّلالات، فمنها ما يدلّ على عظمة القدرة، ومنها ما يدلّ على كمال العلم، ومنها ما يدلّ على نفاذ الإرادة، وعليه فتضافُر الآيات، يورث اليقين، وتواردُ الدّلالات، يفضي إلى مزيد من المعرفة بربّ العالمين.

---

(1) صدّيق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 240 (بتصرّف).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 310.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 74.

بلاغةُ تأخير جملة المبتدأ:

تُعرَب جملة ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ﴾ في محلّ رفع مبتدأ، والتّقدير: (قيام السّماء والأرض بأمره من آيات الله)، وتمّ تأخيرها حتّى يتشوّق القارئ لمعرفة الآية ودلالتها، بعد أن ضُرِبت مثالا لآيات الله تعالى، وهو نوع من أنواع لفت الانتباه لتتوجّه الأنظار إلى الآية، وتتأمّل في جهة دلالتها، ومعنى قيام السّموات والأرض، واستمساكها بغير عمد بِأمْرِهِ، أي إرادته، لكونهما على صفة القيام دون الزّوال، وهي قضيّة أزليّة أبديّة، وسنّة كونيّة، لاتتحوّل ولا تتبدّل[1].

بيان أنّ التّأخير، مُفاده التّشويق، وتحفيز التّفكّر العميق

معنى ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن تَقُومَ﴾:

ابتدأت جملة ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، بـ﴿أَن﴾ المصدريّة، الدّالّة مع الفعل بعدها على قيام السّماء، وحدوث القيام، "وأنّه لا فرق عنده في شمول أمره، بين قيام الأحياء، وقيام الأرض والسّماء"[2]، وهو شروع في بيان بقائهما وثباتهما، بعد بيان إيجادهما، في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]، فهي إشارة إلى استحضار الحدث، وبيان أنّه قيام بأمر الله، واستجابة لمراده، تتجلّى في ثبات حفظه، وتبرز نقل الحدث إلى الإمكان، إشارة إلى أنّ قيامها ليس لذاتها، وإنّما بإقامة الحقّ لها، وتكريسه لها في الوجود، وهو الّذي بيده أمر كلّ موجود.

الدّلالة على أنّ القيام هنا، يعني البقاء لا الإيجاد

سِرُّ إيثار المصدر المنسبك على الصريح:

آثرَ النظم القرآني التّعبيرَ بالمصدر المنسبك ﴿أَن تَقُومَ﴾ دون الصّريح (قيام)؛ لأنّ الحديث هو عن القيام مجرّدًا عن كيفياته، وتفصيلاته؛ لكون المصدر المؤوّل ولا سيما مع (أنْ) يدلُّ على مجرّد معنى الحدث دون احتمال زائد عليه، ففيها [يعني أن] تحصين

القيام دائم، والمراد إعجاز حدوثه، ودوامه دون كيفيّاته

(1) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/ 516.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 74.

من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[1]، ثم إنّ المصدر المؤوّل يفيد الدّلالة على الزّمن، بخلاف المصدر الصّريح، والمعنى: استمرار قيام السّماوات، والأرض.

دلالةُ القيام في المضارع ﴿تَقُومَ﴾:

استمرارُ قيام السّماء والأرض، آية على عظمة الله القيّوم عليهما

عبّرت الآية بالفعل ﴿تَقُومَ﴾، على معنى القيام، ويدلّ القيام هنا على الاستقرار دون اضطراب[2]، كما يدلُّ القيام على البقاء دون زوال؛ فقيام السّماء والأرض، هو قيام حركة وصلاحيّة، واستمرار أداءٍ للمهامّ، وهو قيام بقاءٍ بكلّ ما تدلّ عليه كلمة البقاء، من الدّوام والاستمرار والعطاء، وقد جاء التّعبير في الآية بالمضارع ﴿تَقُومَ﴾؛ لتدلّ على استمرار حال القيام فيهما[3]، فزادت صيغة المضارعة، لمادّة القيام بقاءً ودوامًا، وفي استمرار السّماء والأرض قائمتين، بما خُلقتا عليه، أكبر دليل على وجود حافظ مدبّر لشؤونهما، وهو قيّوم السّموات والأرض، و"في كلّ ذلك آيات بيّنات، ودلائلُ ساطعات، على عظمته، وبالغ قدرته، وكونه مصدر كلّ نعمة ورحمة، ومدبّر كلّ أمر"[4].

نكتةُ إسناد القيام للسّماء والأرض:

قيامُ السّماء والأرض، استجابة واستمرار، بحفظ الحافظ القهّار

النّكتة في إسناد القيام إلى السّماء والأرض، استجابة السّماء والأرض لأمر ربّهما، بالاستمرار في البقاء والعطاء، وفي أداء مهامّهما، وذلك لعظم شأن خالقهما وحافظ نظامهما[5]، والسّياق يؤكّد أنّ "من جملة آياته الظّاهرة الباهرة، قيام السّماء والأرض، بلا عمد وأوتاد وأسانيدَ، وقرارهما ومدارهما في مكان معيّن، بلا

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 80.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11380.
(4) دروزة محمّد عزّت، التّفسير الحديث: 5/ 438.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 74.

تبدّل وتحوّل، وانّما هو بِأَمْرِهِ وحكمه، وعلى مقتضى إرادته ومشيئته، بحيث لا يسع لهما الخروج عن أمره وحكمه أصلا"[1].

معنى (أل) في لفظي ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾:

إدراكُ الغيب المستور، بالمشاهد المنظور، استدلالٌ بالمشهد على الغيب

جاء ذكر السّماء والأرض معرّفتين بـ(أل)، وهي العهديّة؛ فالسّماء هي هذه الّتي تعلونا، والأرض هي هذه الّتي نُمضي عليها حياتنا، وفي تعريفها بلام العهد، استحضار لما هو مشاهَد قريب، وتلمّسٌ لآثار القدرة الإلهيّة، وكمال الإرادة، وتمام الحفظ الإلهيّ، خصوصا ونحن نبصر السّماء والأرض بأمّ أعيننا، وهما باقيان فى حيّزيهما بِأَمْرِهِ أي بإقامته لهما، وإرادته ببقائهما[2]، وما شهد عصر من العصور، ولا جيل من الأجيال، تأبّيا من السّماء، ولا تأخّرا من الأرض، عن تنفيذ آليّ رتيب، للقوانين الضّابطة للفلك الّذي فيه السّماء والأرض، آيتان بارزتان.

دلالةُ إفراد ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ بعد جمعها قبل ذلك:

بيانُ تمام الحفظ بعد بيان تمام القدرة

أُفردت ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في هذه الآية ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، وقد جُمعت قبلها في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]؛ لأنّ تعديد السّماوات، أوقع في الاستدلال بعظمة الخلق وتنوّعه، فجاءت السّماوات جمعًا، في حين كان الاستدلال في هذه الآية بالسّماء الدّنيا، على الاستمرار في أداء مهامّها، وتحقيق ما خُلقت لأجله، وهو أمرٌ مُشاهدٌ في السّماء الدّنيا، وبه يقع الاستدلال، ناهيك عمّا فوقها[3]، دلالة وعظمة وحكمًا.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِأَمۡرِهِۦۚ﴾:

بيان أنّ القيام بأمر الله لا استغناء فيه عن هدايته وحماه

قُيّد الأمر في الآية ﴿بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ بحرف الباء، وتدلّ الباء على

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 119.
(2) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 7/ 230.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 74.

السّببيّة[1]؛ فهو قيام غير مستقلّ ولا قيام ذاتيّ، بل قيام متسبَّب عن قدرة تامّة، وحفظ دائم، وإرادة نافذة، ولولا أمر اللّه ﷻ، لزالت السّماء والأرض[2]، وقوله: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، أي بإرادته تعالى، والتّعبير عن الإرادة بالأمر، للدّلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادي والأسباب، والأمر لفظ عامّ للأفعال والأقوال كلّها[3].

دلالةُ التّعبير بالمضاف إلى الضّمير (أمْرِه):

الأمرُ التّكوينيّ غيبيّ منوطٌ بنفوذ إرادة، وكمال قدرة

اختارت الآية التّعبير بلفظ (أمْرِه)، مضافًا إلى ضميره سبحانه، في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، ولفظ (الأمر) يدلّ على إرادة وقرار، وعلى نفوذ وقدرة، وعلى تحكّم وقوامة، فهو تعبير عن المبالغة في كمال القدرة والإرادة[4]، إذْ من حُججه وأدلّته على توحيده وقدرته، قيام السّماوات والأرض بأمره، خضوعًا له بالطّاعة بغير عُمُدٍ"[5]، ونكتة إضافة الأمر إليه ﷻ، هي الإشارة إلى الغنى عن القوانين والأسباب[6]، فهو أمر اللّه التّكوينيّ؛ أي مجموع ما وضعه اللّه من نظام العالم العلويّ والسّفليّ[7]، فلا يتطرّق الاختلال إليهما بما حَفِظ اللّه وأمَرَ.

دلالةُ ذكر (القيام) بعد ذكر (الخلْق):

الخلقُ يكون ابتداء، والقيام يكون استمرارا، إلى غاية الأمر بالزّوال

تكرّر ذكر السّماء والأرض في هذه الآيات؛ مرّة بذكر الخلق، ومرّة بالقيام بأمر الحقّ؛ لأنّ في الاستدلال بين الوصفين اختلافًا؛ فقد كان الاستدلال أوّلًا بابتداء الخلق، وفي ذلك دلالة على الصّانع

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 80.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 75.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 25.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 205.
(5) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 677.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 57.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 80.

المبدع، ثمّ ثنّى في الاستدلال هنا بالانتظام والدّوام، فذكر أنّ السّماء والأرض، تقوم الحياة بينهما وبهما، بشكل مستمرّ، دون أن يطرأ عليهما خلل، ومعلوم أنّ السّماء والأرض على ضخامتهما، لا يقعان ولا يزولان، وعليه فإنّ في ذلك دليلًا على الإنعام، وكمال القدرة، ونفوذ الإرادة[1]، فاختلفت الدّلالة وحَسُن ذكر هذا وذاك، كلّ في موضعه، وببليغ دلالته، ثمّ كان الاستدلال بعدها، من البقاء مع الحفظ الإلهيّ الأثير، إلى الإفناء، بقصد وحكمة وتقدير، وذلك عند قيام السّاعة، دليلًا على أنّ الله بإرادته يأمر بالاستمرار، أو يحكم بالاندثار.

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾:

قيامُ السّماء والأرض بأمره، وبعث الخلائق بإرادته وقهره

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، وفيه عُطفت جملة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾، على جملة قيام السّماء والأرض، بالحرف ﴿ثُمَّ﴾، ويدلّ ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الزّمني[2]؛ أي إنّ السّماء والأرض، لا تزال كلٌّ منهما قائمة مُددا، ثمّ يزول العالم فتُدْعَون، وهي إشارة إلى استمرار حفظ الله لهما، وهما تقومان بأمره وتدبيره، بموجب نظام أقامهُ في الوجود، ولا يزال الأمر كذلك حتّى ينتهي أجل العالم في الموعد الّذي حدّده الله، فتُبدّلُ الأرض غير الأرض، وحينئذٍ يأمر الله فينفخ في الصّور، فيخرج البشر من الأجداث سراعًا إلى ربّهم، مستجيبين لدعوته لهم[3]، ويصحّ أن يكون ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي الرّتَبي، بمعنى: (ومع كلّ ذلكم الحفظ والقيام، إذا أراد الله زوال العالم زال)، وذلك يبعثكم أحياء بعد ذلك الزّوال؛ بيانًا لعظم ما يكون من ذلك الأمر، واقتداره ﷻ، على البعث بعد الموت[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 385.
(2) البيضاويّ، أنوار التنّزيل وأسرار التّأويل: 4/ 205.
(3) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 3316 (بتصرّف).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 475.

دلالةُ التّعبير بالأداة ﴿إِذَا﴾ عوض (إنْ):

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، قُيّدت دعوة الخلق للحشر بـ﴿إِذَا﴾ الشّرطيّة[1]، وهي ظرفٌ للزّمن المستقبل، متضمّنٌ معنى الشّرط، متعلّق بمضمون الجواب[2]، وتدلّ على أنّ دعوة الخلق للحشر واستجابتهم له، أمر قريب المنال، فحسن التّعبير بـ﴿إِذَا﴾، بدل (إنْ) الّتي تشير إلى الاحتمال، وفي ذلك ما يؤكّد نفوذ إرادة الحقّ جل جلاله، وتمام قدرته على إحياء الموتى؛ إذ يقول لكم: (أيّها الموتى، اخرجوا)، فتندفعون للخروج منها، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه: 108][3].

دعــوةُ الخـلـق لــلــحــشــر واستجابتهم، أمــر مــلــزم لا مندوحة عنه

دلالةُ التّعبير بالدّعوة دون الأمر:

عبّرت الآية بالدّعوة دون الأمر، في قوله: ﴿دَعَاكُمۡ﴾، والدّعوة نداء للحضور، تتلوها استجابة؛ بخلاف الأمر الّذي هو تكليف بمهمّة، فهل يستجيب الموتى؟ وكيف؟ تلك قدرة القادر على حفظ الموجود، وبعث المعدوم، ومُفاده أنّه بعد موتكم ومصيركم في القبور، إذا دعاكم دعوة واحدة من الأرض الّتي أنتم فيها - كما يقال: (دعوته من أسفل الوادي، فطلع إليّ) - خرجتم من الأرض[4]، وهو خروج بعث وإنشاء، بعد موت وفناء.

نداءٌ واستجابة، بـقـدرة المـوجِـد الحافظ جل جلاله

دلالةُ مرجع ضمير الفاعل في ﴿دَعَاكُمۡ﴾:

أُضمر الفاعل في قوله: ﴿دَعَاكُمۡ﴾، ويرجع إلى الله عز وجل، وفي إضماره إشارةٌ إلى يقين المعرفة به، لما تدلّ عليه الآيات السّابقة، والّتي هو من خلقها، وضبط قوانينها، ابتداءً بخلق السّماوات والأرض، وانتهاءً بحفظ نظام السّماء والأرض، ويدلّ ملمح الإضمار

لـفـظُ الجـلالـة المـضـمـر، يعبّر عن تمام الظّهور وكمال التّفرّد

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 476.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 37، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 37.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 10.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 241.

أيضًا، على كمال تفرّده يوم البعث، فالأمر أمره، والدّعوة دعوته، ومن خلق وحفظ، ودبّر وملك، هو صاحب الدّعوة الأوحد يوم البعث، تلك الدّعوة الّتي تهبُّ لها المخلوقات قيامًا، ملبيّة نداء القدرة، الّتي تقول للشّيء كن فيكون، وهو ما عبّر عنه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزّمر: 68].

دلالةُ ضمير المفعول في جملة ﴿دَعَاكُمْ﴾:

يـبـعـثُ البشر جماعاتٍ وفرادى لا يُستثنى منهم أحدٌ

إذا كان الفاعل مضمرا في قوله: ﴿دَعَاكُمْ﴾، فإنّ المفعول مخاطب وبصيغة الجمع، وفي صوغ المفعول بهذا الشّكل دلالة على أنّ الدّعوة لا تستثني أحدًا، وأنّ الاستجابة لازمة على الجميع؛ لأنّها دعوة المالك لعبيده، والحاكم لمحكوميه، فهو يخاطبهم خطاب الآمر المالك، الّذي تقوم السّماء والأرض بأمره، قائلا لهم في معرض تصوير الحالة: "إذا دعاكم للبعث خرجتم من بطن الأرض مستجيبين لدعائه إيّاكم"(1).

دلالةُ إفراد ﴿دَعْوَةً﴾، ولطيفة تنكيرها:

تـمـامُ تـرقّـب وانـتـظـار، استجابة لدعوة الله القهّار

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، عبّرت الآية بلفظ ﴿دَعْوَةً﴾ بالإفراد والتّنكير، وفي ذلك الإفراد إشارة إلى المرّة، فهي ستكون مرّة واحدة، فلا تحتاج إلى تكرير لسرعة الإجابة(2)، بل سوف تقع بصفة سريعة، ودون تردّد أو تأخّر، لأنّ أيّ دعوة، إذا صدرت من الملك القيّوم، جلّ في علاه، لزم أن تجاب بسرعة وفوريّة، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة الاستعداد التّامّ لها، والانتظار المتوخّي لقدومها بتربّص وحذر، كأنّ المخاطبين بها، ليس لهم شغل إلّا ترقّب تلك الدّعوة الفاصلة، والصّيحة المصيريّة الحاصلة،

(1) القِنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 241.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 384.

وذلك بقصد تعظيمها وتهويلها من جهة، وإظهار كمال ملك اللّه ﷻ، وتمام سؤدده، في ذلك الموقف الأعظم الأجلّ من جهة أخرى، وهو ملمح يكشف عنه تنكير لفظ ﴿دَعۡوَةٗ﴾.

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾ في سياق الآية الكريمة:

المنطلَق لإجابة الدّعوة والانتقال إلى المصير بأمر الله القدير

قوله تعالى: ﴿دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، قَيّدت الآية الدّعوة بحرف ﴿مِّنَ﴾، في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿مِّنَ﴾ لابتداء الغاية[1]، وتدلّ هنا على حصول الدّعوة وأنتم في الأرض، أي تكونون في الأرض[2]، والمقصود بذلك القبر؛ أي فتخرجون منها بعد انقضاء أجلكم في الأرض[3]، وصارت ﴿مِّنَ﴾ تحمل معنى المنطلق للانتقال إلى لقاء الباري[4]، فثمّة انتقال من الأرض بدعوة منتظرة، وأمرٍ بالرّحيل، وقيل: إنّ الدّعوَة من صَخْرَة بَيت المقدس، ويُقال: هيَ من السَّماء، والدّعوة: هيَ دَعْوَة إسْرافيل، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، بمعنى: أنّه تعالى سوف يدعوكم أن تخْرجوا من الأرْض، وهَذا على القَوْل الَّذي يَقول إنّ الدّعْوَة من السَّماء[5]، وذلك لكون الصّيحة الأولى قد أهلكت الخلائق جميعًا، والصّيحة الثّانية ستبعثهم من موات، وتجمعهم من شتات، وهو ما عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزّمر: 68].

معنى (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مستَقرٌّ مرحليٌّ للانطلاق نحو حياة أخرى في كنف الخلّاق

عبّرت الآية عن ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بلام التّعريف، وهي لام العهد؛ أي إنّها تلكم الأرض الّتي خُلِقت برعاية اللّه؛ تُمضون حينا من الدّهر في مجالها، وترتعون في أرجائها، وتمشون في مناكبها، وتأكلون

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 334.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 96.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 35.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 205.
(5) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 206.

من رزق اللّه فيها، وهي قائمة بحفظ اللّه، ولكّنها ليست دائمة في المصير، ولا هي لكم بالمستقرّ الأخير، وإنّما هي المنطلق لحياة أخرى، مهما طال مقامكم فيها، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٤٠﴾ [مريم: 40].

نكتةُ تقييد الدّعوة بالجارّ والمجرور:

بيانُ التّحوّل المزمع، بعد المستقرّ والمستودع

قُيّدت الدّعوة للبعث بالجارّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، إشارةً إلى التّحوّل من حال الاستقرار والحياة فيها، إلى عالم آخرَ، هو عالم الأمر والجزاء، والحساب والعقاب، وذلك تعبير عن البعث إلى الدّار الآخرة، بعد العبور من عالم العدم، إلى عالم الأرحام، ثمّ إلى الحياة الدّنيا على ظهر هذه الأرض، الّتي يحيى عليها البشر، بصورة مؤقّتة، ولكنّهم ليسوا فيها بخالدين، ولا عليها بباقين، بل سيخرجون من القبور مسرعين، لتحقيق وعد اللّه ووعيده، في يوم الدّين، للمثول أمام اللّه ربّ العالمين، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾ [المعارج: 43 - 44].

دلالةُ ﴿إِذَآ﴾ في السّياق المحكم:

المفاجأةُ دليل العجلة، ومؤشّر إجابة الأمر الإلهيّ كن فيكون

عبّرت الآية عن جواب الشّرط في قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾، بالأداة ﴿إِذَآ﴾، وهي في السّياق ﴿إِذَآ﴾ الفجائيّة، وتنوب منابَ الفاء في جواب الشّرط[1]، وفي معنى الفجائيّة، إشارةً إلى نفوذ الأمر وفوريّة الاستجابة[2]، فهو خروج عَجِل سريع، لا انتظار فيه، ولا امتناع منه، لأنّه مشهد رهيب، يسارع فيه الكلّ لنداء الجبّار المهيب.

بلاغةُ الاستعارة في سياق الآية:

تضمّن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 476.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 475.

تـرقّـبُ الميّت لـلـدّعـوة الـفـاصـلـة، والاسـتـجـابـة الفوريّة للأوامر العاجلة

﴿تَخۡرُجُونَ﴾ استعارةً بديعة؛ حيث شبّه الموتى في الأرض بمن ينتظر دعوة - في أيّ لحظة -، للحضور إلى مكان معيّن، وبمجرّد صدور الدّعوة يخرج الجميع من الأرض، مع المفارقة هنا، وهي أنّهم يحيون بعد ممات، وقال أبو حيّان: "وظواهر الأخبار أنّ الموتى يُدعون حقيقة للخروج من القبور، وقيل: المراد تشبيه ترتّب حصول الخروج، على تعلّق إرادته بلا توقّف واحتياج، إلى تجشّم عمل بسرعة ترتّب إجابة الدّاعي المطاع على دعائه، ففي الكلام استعارةٌ تمثيليّة أو تخييليّة ومكنيّة بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذّهاب إلى محلّ ملك عظيم، متهيّئين لذلك، وإثبات الدّعوة لهم قرينتها، أو هي تصريحيّة تبعية في قوله تعالى: ﴿دَعَاكُمۡ﴾ إلى آخرها[1]، وكأنّ الاستعارة تجعل أمر حياة الموتى أمرًا مفروغًا منه، بل إنّهم في أهبة التّرقّب، وكامل الاستعداد، مع التّعبير عن الحركيّة والفوريّة، في قوله ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾، وفي ذلك إشارة إلى تمام القدرة، وتمام الحكمة، وهو آية على إمكان البعث.

بلاغةُ أسلوب القصر في تقديم ﴿أَنتُمۡ﴾:

تأكيدُ الخروج من الأرض، ولزوم الاستجابة للدّاعي

في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾، تقدّم لفظ ﴿أَنتُمۡ﴾ على الجملة الخبريّة ﴿تَخۡرُجُونَ﴾؛ ليكتسب الخروج من الأجداث، صفة الثّبوت والتّأكيد بالجملة الاسميّة؛ فخروج البشر من الأجداث، أكيدٌ ثابتٌ في تلك الأحداث، ردًّا على أيّ إنكار أو تردّد في ذلك، ويدلّ التّقديم أيضًا على القصر؛ أي: أنتم الموتى تخرجون لا غيركم، وهو قصر إضافيّ، غرضُه مزيد تأكيد طواعية الخروج، ولزوم الاستجابة للدّعوة المذكورة، وكمال القدرة على الإحياء بعد الإماتة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 35.

دلالةُ مجيء الخبر جملة فعليّة:

بيانُ التّأكيد، على خروج بني آدم الأكيد

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾، جاء خبر ﴿أَنتُمۡ﴾ جملةً فعليّةً في قوله: ﴿تَخۡرُجُونَ﴾، ويدلّ الفعل هنا على الحدوث؛ فقد كنتم عدمًا مواتًا، ثمّ حدث خروجكم، وفي ذلك إشارة إلى الحياة بعد الموت، والحركة بعد السّكون.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿تَخۡرُجُونَ﴾:

استحضارُ مشهد عجيب متجدّد بكثرة الخارجين

صيغ فعل الجملة الخبريّة، في قوله: ﴿أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ مضارعًا؛ ليصوّر مشهد الخروج العجيب[1]؛ حيث تتجمّع العظام، وتُكسى لحمًا، ويتجمّع ما تفرّق في الأرض، فيصير جسدًا، وتتلاءم أطراف الإنسان بعد تمزّق، وتحيا النّسمة بعد فناء، مع ما في تشقّق القبور، وبعث الأرواح في الأجساد، من دلالة على ذلك المشهد العجيب، كما أنّ الصّيغة تدلّ على تجدّد فعل الخروج، باعتبار المجموع، حيث يخرج هذا من قبره، وذاك من قبره[2]، ليتشكّل مشهد عجيب غريب، وتبرز صورة لهول الموقف وضخامته، وهي الصّورة الّتي طالما أنكرها الكفّار، واستهزؤوا بالرّسل حينما أخبروهم، بأنّها ستكون واقعًا، ما له من دافع، ولذلك انبرى سياق الآية لاستحضار ملامحها، والإشارة إلى تجدّدها بصيغة المضارع ﴿تَخۡرُجُونَ﴾.

نكتةُ إسناد الخروج إلى ضمير الجماعة:

سيخرج المبعوثون جميعًا دون استثناء

يشير إسناد الخروج إلى الجماعة في قوله: ﴿تَخۡرُجُونَ﴾، إلى أنّ الخروج يكون للجميع، فلا يُستثنى أحد ويبقى دون بعث من جديد، ولا يغيب أحد فالكلّ مدعوّ وملزم الانصياع لأمر اللّه، ويشير ذلك أيضا إلى أنّهم يخرجون مجتمعين، فيخرج من آمن بالخروج، ومن كفر، وتتنوّع صور الخروج، ويتمايز الخلق، بين مؤمن بالبعث،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 81.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 75.

مستعدّ له، مطمئنّ إلى مرضيّ العاقبة، وحسن المصير، وكافر بالبعث، خائف من سوء الموئل، والحساب العسير، وهناك تتجلّى ملامح المشهد، فتجد هذا يسعى نوره بين يديه وعن أيمانه، ونجد ذاك يصْلَى نارًا تلظّى، بسبب كفرانه وطغيانه.

بلاغةُ ذكر (البعث) بعد (القيام بأمره):

تقديرُ اللهِ لا يؤخّر، والقيام والزّوال كلاهما منوط بأمر المقدّر

جاءت جملة ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾، بعد ذكر آية قيام السّماء والأرض، في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، وفي ذلك وجه لطيف؛ إذ إنّ ذكر قيام السّماء والأرض بأمر اللّه، يُشعر بدوامها، واستمرار أدائها، لِما خُلقت له، ولا غرو أنّ استمرارها بتلك الحال، قد يلهي العقول عن خالقها الأصيل، وموجدها الجليل، ويجعلها تتوهّم أنّها مستقلّة بنفسها عن مبدعها، فكانت جملة البعث نوعًا من الاحتراس، من تصوّر أبديّة هذه الأجرام، أو استقلاليّة السّماء والأرض بما يحكمها من نظام، لتأكيد أنّ الكون بأمر اللّه قائم، وبأمر اللّه يزول، وبأمر اللّه سوف تبعث منه الخلائق، وتتجلّى في مضماره الحقائق[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأمر والتّكليف:

الأمــر نـفـوذ قـرار وتفاصيل مـهـمّـة، والتّكليف جهدٌ وأتعاب ومؤنة

التّكليف، إلزام العبد بما فرض اللّه عليه من أحكام، كالتّكليف بالشّعائر ونحوها، ولا مندوحة من الامتثال به، على سبيل الوجوب؛ لأنّه تكليف من علّام الغيوب، وعلى هذا؛ فالفرق بينه وبين الأمر واضح، فالأمر لا اختيار للعبد فيه، والتّكليف له عليه اختيار، فيؤجر إذا فعل، ولا يعاقب إذا غفل، ولا شكّ أنّ الأمر والتّكليف، يجتمعان في معنى الإلزام، بأداء أمرٍ معيّن، ويختلفان في أنّ الأمر يُنظر فيه إلى الآمر، ومدى لزوم أمره، وإلى المأمور به ومضمونه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 80.

وتفاصيله، في حين يُنظَر في التّكليف إلى الجهد المبذول فيه والتّعب والكلفة التّي تلحق من يؤدّي هذا التّكليف، فالأمر إلزام ونفوذُ قرار، وتفاصيل مهمّة، والتّكليف جهدٌ وأتعاب ومؤنة، ولمّا كان التّوجيه من العليّ القادر بقيام السّماء والأرض أمرًا على وجه الإلزام، والنّفوذ الذي لا اختيار فيه بوصفه وجهًا من وجوه إتمام الخلق بالكيفيّة التي شاءها الله تعالى ناسب لفظ الأمر سياق الآية دون التّكليف.

الإخراج والنّشور والبعث:

النّشور إحياء وبسط، والبعث دفع إنهاض، والإخراج إظهار وبروز

يُطلق النّشور والبعث والإخراج على معنى إحياء الموتى، ويتميّز الإخراج، بأنّه إظهار ما كان كامنًا خفيًا، فيُنظر فيه إلى البروز وتمام الظّهور بعد الخفاء، في حين يُنظر إلى النّشور باعتبار الإحياء والبسط بعد الانقباض، أي إلى حركة الميّت بعد سكونه وضيقه[1]، ويختلف عنهما البعث من حيث إنّه يشير إلى إثارة ودفعٍ للنّهوض والحركة[2]، والانتقال إلى حيث لقاء المنادي، فالنّشور إحياء وبسط، والبعث دفع وإنهاض، والإخراج إظهار وبروز، ولما كانت الدّعوة من الأرض بعد أن كانت مثوى لهم وهم مستورون كلّيًّا تحتها ناسب اصطفاء لفظ ﴿تَخۡرُجُونَ﴾ الدّالّ على إظهار الكامن الخفيّ من دون الإشارة إلى كيفيّته إثارةً، أو دفعًا، أو بسطًا بعد انقباض.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (نشر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الرّوم: 26 - 27]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

العلاقة بين البعث والتّشور، وبين آيات الله في بدء الخلق وإعادته، بعزّته وحكمته

ذكرت الآيات السّابقة دلائلَ على وحدانيّة اللّه ﷻ، وعلى البعث بعد الموت، فجاءت هذه الآية كالنّتيجة المحصّلة لما سبق[1]؛ ببيان قهره سبحانه فوق العالمين[2]، وخضوع المخلوقات له في الحياة الدّنيا، وفي يوم الدّين[3]، وهو أنّه لا إله إلّا هو، وأنّه المتفرّد بكماله وجلاله، والأحد الّذي ليس كمثله شيء، لأنّه العزيز الّذي لا يغالَب، والقويّ الّذي لا يُضام، وهو الحكيم في خلقه وتدبيره، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يوجد الكون باطلًا[4].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿قَٰنِتُونَ﴾: (قنت) أصلٌ يدل على الطّاعَةِ، يُقال: قَنَتَ، يَقْنُتُ، قُنوتًا، أيْ: أطاعَ وخَضَعَ وسكن[5]، وتدُلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دين[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التّحريم: 12]، ويُطلق القُنوتُ على طولِ القيامِ، ومِنهُ سُمّيَ القيامُ في الصّلاةِ قُنوتًا[7]، وعليه فحقيقة القنوت العبادة والدّعاء للّه، في حال القيام، ويجوز أن يقع في سائر الطّاعة؛ لأنّه إن لم يكن قيامًا بالرّجلين، فهو قيام

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 41، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 82.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 82.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3317 - 3318.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (قنت).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قنت).

بالشّيء بالنّية، ويقال للمصلّي قانت[1]، القنوت على أربعة أقسام: الصّلاة، وطول القيام، وإقامة الطّاعة، والسّكوت[2]، والمشهور في اللّغة أنّ القنوت الدّعاء، وحقيقة القانت أنّه لقائم بأمر اللّه، فالدّاعي إذا كان قائمًا، خصّ بأن يقال له قانت، لأنّه ذاكر للّه تعالى[3]، ومعنى القُنوتِ في الآية: الخضوع والسّكون بين يديه تعالى.

2) ﴿أَهْوَنُ﴾: (هون) أصلٌ يدُلُّ على سُكونٍ أو سكينةٍ أو ذُلٍّ، من ذلك الهَوْنُ: السَّكينَةُ والوَقارُ، قال اللّهُ سبحانه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63][4]، والهَونُ: مصدر هان عليه الشّيء أي خفَّ، وهَوَّنَهُ اللّه عليه، أي سهَّله وخفَّفه، وشيء هيِّن، على (فَيْعَل)، أي سهل[5]، وفي قول اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، قيل معناها: وهو هيّن عليه، وقيل: الهاء في عليه راجعة إلى الإنسان المخلوق، كأنّه قال: وهو أهون على الإنسان من إنشائه النّشأة الأولى، قال أبو إسحاق الزّجاج: خاطب اللّه ﷻ العباد بما يعقلون، فأعلمهم إنّه يجب عندهم، أن يكون البعث أسهلَ من الابتداء، وجعله مثلا لهم[6]، والمُرادُ بأهون في الآية: السَّهْلُ حُصولُهُ، بمعنى أنّ الخَلْقَ الثّاني، أسهلُ من الخَلْقِ الأوَّلِ[7].

3) ﴿ٱلْمَثَلُ﴾: أصل معنى (مثل) الشّبه؛ وهو على ثلاثة جوانب: أحدها: الوجه المناسب لمشابهة المثال للمعنى؛ فهذا مَثَل لكذا أي نموذج مناسب لذلك المعنى، فحاتم الطّائي هو أحسن مثل للكرم، وأيّوب هو أحسن مثل للصّبر، فكان المثال مناسبًا لذلك المعنى، والثّاني: هو مشابهة شيء لشيء، لاتّفاقهما في معنى معيّن[8]؛ أي هذا مثل هذا أي شبيهه، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: 11]، لأنّ اللّه تعالى ليس له شبيه[9]، والثّالث أن يُذكر وصف عند المثال المناسب للمعنى، فيستحضر معه المستمع النّموذج الأوّل والمعنى المشترك؛ فأُطلق المثلُ على تمام مناسبة المعنى، وأُطلق على مشابهة مثال لمثال، وأُطلق

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قنت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قنت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قنت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (هون).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (هون).
(6) الهرويّ، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعيّ، ص: 59.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 83.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (مثل)، والفيروزأباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 482.

كذلك على القول الّذي يشير إلى ذلك المعنى، ومعنى المثل في الآية: أنّ للّه تعالى المعنى الأسمى؛ لأنّه النّموذج الأعلى شأنا، والّذي لا يصلح معه إلّا القول المناسب لعلوّ منزلته سبحانه[1].

4) ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: (علو) أصل واحد يدلّ على السّموّ والارتفاع[2]، لا يشذّ عنه شيء، ومن ذلك العلاء والعلو، والعلوّ: أصل البناء، ومنه العلاء والعلوّ، فالعلاء الرّفعة، والعلوّ العظمة والتّجبر، يقال: علا ملك في الأرض، أي: طغى وتعظّم، قال اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4][3]، وعليٌّ أي شريف رفيع مثل صبيّ وصبيّة، وعلاه غلبه، وعلاه بالسّيف ضربه، و(علا) في الأرض تكبّر[4]، والعلاءُ الرِّفْعَةُ: عَلا المَلِكُ في الأرضِ عُلوًّا كبيرًا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، والأعلى: الأشرفُ والأفضلُ[5]، والأعلى في الآية: معناهُ الأمثل والأعظمُ البالغُ نهايةَ حقيقةِ العَظَمَةِ والقوَّةِ[6].

المَعنى الإجماليُّ:

ثباتُ عظمة الله في كونه وخلقه، دليل على أنّه لا يعجزه خلق النّاس ولا بعثهم

للّه ملْكُ السَّموَاتِ والأرضِ برمّته، ومن فيها لا يفتؤون خاضِعينَ لوحدانيّته، مَقهورينَ في كونه بإرادته، وهو الَّذي يُنشِيء الخَلق مِن عَدَمٍ بقدرته، ويميتهم في الدّنيا بإرادته، ويُعيدُهم بعدَ مَوتِهم بقيّوميّته، وإعادةُ الخَلقِ، أيسَرُ مِنِ ابتِداءِ الإيجاد، إذ إنّ إعادة الشّيء أيسر من إبتدائه، فهو وحده الموصوف بالكمال، وليس كمِثْلِه شَيءٌ، في الذّات ولا في الصّفات ولا في الأفعال، قدرته كاملة، وحكمته شاملة، وله المثل الأعلى، في الأرض والسّموات العلا، وهو العزيز في ملكه وسلطانه، والحكيم في تقديره وأحكامه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(4) الرازيّ، مختار الصّحاح: (علا).
(5) الرّاغب، المفردات: (علا).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 187.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصل بـ(الواو):

ابتدأت الآية بحرف الواو، في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وهو واو العطف؛ إذ عطف النّتيجة على الاستدلال، فلما سبق ذكر آيات عظيمة دالّة على وحدانية اللّه ﷻ، خلقا ورعاية، ورحمة وملكا، جاءت هذه الآية، لتبيّن كمال ملكه ﷻ، وتمام قهره لخلقه، مبدأ ومعادًا، فصارت الآية كالنّتيجة لما سبق[1]، ويصحّ أن تكون الجملة تكملة لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، فتكون الآية مزيدَ بيان لخروج الخلق للجزاء[2].

المنحى الاستدلاليّ، بعطف جمل السّياق على التّوالي

نكتةُ استعمال (اللّام) في (لَهُ):

عبّرت الآية باللّام في متعلّق الخبر، في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وهي لام الملك والاختصاص[3]؛ أي إنّ من في السّماوات والأرض ملك للّه ﷻ، فهم خلقه وهم عباده[4]، وفي ذلك إشارة إلى تفرّده سبحانه بالتّصرّف لاختصاصه بها، فكلّ مَن في السّموات والأرض، من مخلوقات اللّه تعالى، الّتي ملأت الوجود، وأبانت عن عظمة الخلق، من الملائكة والإنس والجنّ، وسائر الأجناس، جميعها مطيعة لأمره، خاضعة لسلطانه وقهره[5].

تمامُ الملك لله، لا يشاركه فيه سواه

دلالة تقديم متعلّق الخبر (لَهُ) على المبتدأ:

قُدّم متعلّق الخبر (له) على المبتدأ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ويدلّ التّقديم هنا على قصر الملك فيه للّه ﷻ، ولو عظم خطر سواه واستفحل، فله وحده الملك الأتمّ دون غيره[6]، فليس لغيره شركة في

تمام التّفرّد بالملك التّامّ، دليل على عظمة العزيز العلّام

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 41.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 82.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 20.
(5) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 407.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76.

ذلك بوجه من الوجوه[1]، فزاد لتمام الملك تمام التّفرّد به، وشبه الجملة (له)، تعني هيمنته على كلّ المخلوقات والأجناس، "أي كلّ من في السمّوات والأرض، من الملائكة والإنس، والجنّ، منقادون له تجري عليهم أحكامه، كما أرادها، فلا يتعطل منها حكم"[2].

دلالة التّعبير بالموصول ﴿مَن﴾:

عـمـوميّة الملك واتّساعه، مرعيّة الآلاء، بشهادة العقلاء

آثر سياق الآية لفظ ﴿مَن﴾ على غيره، في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وترجع علّة ذلك إلى أنّ كلّ من صحّ إطلاق ﴿مَن﴾ عليه، فهو ملك للّه ﷻ[3]، فتغني ﴿مَن﴾، عن تعداد المخلوقات الّتي اكتظّت بها الأرض، وأطّت بها السّموات، لتسِم الملك بالاتّساع والشّمول، وتدلّ أيضًا على الأناسيّ من أرباب النّهى، وأصحاب العقول، وهم جملة الواعين بالأمر والخطاب، والعارفين بأنّ الخلق لا يكون إلّا من الخالق الوهّاب، فكان تخصيصهم بالذّكر، إشارةً إلى أنّ العاقل الواعي المتفكّر، سيكون أوّل من يشعر بعظمة ملكه ﷻ، لما يتجلّى له من الآيات والدّلائل والحجج، وفي شهادته بملك اللّه، دليل آخر، على كمال ملكه، وفي ذكر العاقل بـ﴿مَن﴾، تضمّن لغير العاقل من باب أولى[4].

دلالة ﴿فِي﴾ على الظّرفيّة في السّياق:

اســتــحــضــار الظّرفيّة، يؤكد الملكيّة المبسوطة في أقطار الكون

دلّ حرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ على الظّرفيّة، وفي ذلك إشارة إلى تحكّم اللّه ﷻ في ملكوته، وبسط سلطانه على الكون، فإذا كانت السّماوات والأرض خلقًا له وملكًا، فمن يكون فيهما، إنّما هو قائم وموجود، بإيجاده سبحانه لهما، وإيجاد من فيهما، وقد تمّ استحضار الأدلّة المدرجة الّتي تؤكّد تمام ملكه ﷻ، وعظمته وجلاله.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 58.
(2) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير: 4/ 173.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 385.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11383.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

استذكار عظم الخلق وكمال الخالق، بعبوديّة لا تندّ عنها كلّ الخلائق

عبّرت الآية بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معرَّفة بـ(أل)، وهي العهديّة، فقد ذكرت السّماوات قبلًا، في معرض الاستدلال بخلقها، على اعتبار أنّ السّماء كلّ ما علا، وأنّها مرفوعة بغير عمد؛ لأنّها قائمة بأمر ربّها، وقد كانت منذ بداية الخلق الأوّل، آتية لربّها في طاعة وقنوت، فإذا لم تتأبّ السّماوات بضخامتها واتّساعها، عن انصياعها لربّها، وتنفيذها لأوامره الجليلة، مخبتة في عبوديّة كاملة ذليلة، فما على الإنسان إلّا أن ينسلك في ذلك المسلك، وهو بالنّسبة إليها جرم صغير، وقد حباه اللّه بالعقل والتّفكير، فهو بالعبادة جدير.

نكتةُ الفصل في الآية الكريمة:

الإفصاح عمّا في الكون من إخبات وقنوت، لصاحب العزّة والجبروت

علّة فصل جملة ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ عمّا قبلها، كونُها تقريرًا لما سبق وتأكيدًا له[1]، كأنّها نتيجة لتمام الملك؛ فمن ملك من في السّماوات والأرض وما فيهما، قنت له الجميع، وخضعت له الرّقاب، وامتلك النّواصي، من كلّ طائع وعاص، وفي ذلك تقرير يزيد هيبة الملك هيبة، ويضفي على اتّساعه جلالًا وعظمة.

دلالةُ التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلٌّ﴾:

تأكيدٌ يزيل أيّ وهم، بوجود ملكٍ مع ملكه سبحانه

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، زاد التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلٌّ﴾، عمومًا لما سبق في الآية من دلالة ﴿مَن﴾ عليها، وشموليّة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ولعلّ ذلك لتأكيد اليقين بأنّه لا استثناء في ملك اللّه ﷻ، وهو تأكيد في مقابل ريبة الكفّار وغرورهم، حيث ادّعوا بأنّهم يملكون شيئًا، مع ظهور أنّ الملك التّامّ للّه ﷻ، قال تعالى: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧﴾ [الطّور: 36 - 37].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 79.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لَّهُۥ﴾:

تقويةُ تعلّق القنوت بالله صاحب الملك والملكوت

ذكرت الآية اللّام في القيد الجارّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾، وهي لام التّقوية، إذ لا يتعدّى القنوت إلى معموله وحده، ولتأخيره عن معموله، فكانت اللّام لتقويّة التّعديّة[1]، - والتّعديّة هي نوع تعلّق - ؛ أي كلّ قانتون له سبحانه، مع مزيد تأكيد الملك له على اللّام السّابقة، في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فتلك للملك وهذه للقنوت، وتمام العبوديّة للّه القنوت له ﷻ.

نكتةُ تقديم القيد ﴿لَّهُۥ﴾ على متعلّقه:

قصرُ القنوت عليه سبحانه، تأكيدٌ بأنّه لا معبود بحقّ سواه

قُدّم القيد ﴿لَّهُۥ﴾ على متعلّقه ﴿قَٰنِتُونَ﴾، ونكتة تقديمه هنا هي اختصاصه ﷻ بالقنوت له، فهو قنوت له وحده[2]، والكلّ له لا لغيره ﷻ قانتون[3]، "واللّه ﷻ لا يريد أنّ يحكم الإنسان بقهر القدرة، إنّما يريد لعبده أنّ يأتيه طواعية مختارًا، فبإمكانه أن يكفر، ومع ذلك آمن، وبإمكانه أن يعصي ومع ذلك أطاع"[4].

سرُّ اختيار مادة (القنوت):

تمامُ الانقياد والاستسلام، انقياد للعزيز العلّام

آثر السّياق لفظ القنوت، في قوله: ﴿قَٰنِتُونَ﴾، وفي ذلك دلالات عديدة؛ إذ القنوت هو الانقياد وعدم الامتناع[5]، بما يشير إلى الخضوع للّه ﷻ طَوعًا أو كُرهًا[6]، بشهادة المقال إيمانًا، أو بشهادة الحال التزامًا، حيث الكلّ في قبضته ﷻ[7]، فلا يمتنع عليه سبحانه شيء يريد فعله بهم؛ من حياة أو موت، أو صحة أو مرض، أو غنى أو فقر[8]، وإن أبى بعض البشر الخضوع له سبحانه، فإنّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 82.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 36.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 1384.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 205.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 311.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 82.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 79.

سيؤوبون إليه يوم البعث، حين يقوم النّاس لربّ العالمين، ويأتون إليه وهم قانتون.

ويجوز أن يقصد بالقانتين الطّائعين، وبه قال الكلبيّ، والصّحيح أنّه عامّ، لبيان سطوته وقهرمانه، والمراد الانقياد في الأوامر التّكوينيّة، وهو ما يؤيّده قول ابن عبّاس: كلٌّ مطيعٌ له فى الحياة والموت، والبعث ونحو ذلك، وإن عصوا فى العبادة[1].

دلالةُ صوغ ﴿قَٰنِتُونَ﴾ جمعًا:

ثـبـاتُ قـنـوت المخلوقين لله، مهما أوتـوا من قوّة وسطوة

جاءت صيغة ﴿قَٰنِتُونَ﴾ على وزن (فاعل)، ويتميّز اسم الفاعل بالدّلالة في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه، فوصف القنوت في مخلوقات اللّه تعالى الّتي تملأ أرجاء السّماوات والأرض، يوصف بالثّبات والرّسوخ، وإن بدر من بعضهم التّمرّد والعصيان، فإنّهم لامحالة قانتون طَوعًا أو كُرهًا، في الرّزق والصّحة، والحياة والممات، ممّا لا خيار لهم فيه؛ لأنّ ألطاف اللّه تسيّره بحكمة ورحمة وحسن تدبير، والغاية من ورود القنوت بصيغة الجمع، رفع الإلباس عن أوهام النّاس، في أنّ مجموعهم، مهما بلغت قوّته وعزوته، سينتهي إلى طاعة وقنوت، لخالق الملك والملكوت، ناهيك عن الأفراد، فهم أولى بالطّاعة والانقياد، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: مطيعون طاعة الإرادة وإن عصوا أمره في العبادة[2].

معنى (الواو) في مطلع الجملة:

تأكيدُ أنّ البعث أيسر من الخلق الآوّل

ابتدأت جملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ بحرف (الواو)، وهو حرف عطف جملة على جملة، ومفاده عطف كمال القدرة، على كمال القهر، في معرض توخّي نتيجة ما سبق، بحيث إنّه لمّا ذكر

(1) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 7/ 231.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76.

سبحانه كمال ملكه، وأكّد قنوت الخلق له ﷻ، أكّد على إمكانية البعث ويسرها، مُفضيًا إلى أنّ إعادة الخلق أهون من بدئه[1].

دلالةُ الضّمير (هو) في مطلع الجملة:

البدءُ بالضّمير تخصيص، وإعادته تأكيد

قُدّم الضّمير (هو)، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، ليفيد اختصاصه تعالى بالبدء والإعادة[2]، فهو لا غيره يبدأ ويعيد[3]، ويدلّ الضّمير أيضًا على تأكيد إمكان البعث، لشدّة إنكار الكفّار لذلك، فالبعث حقّ، وهو من يعيد الخلق؛ لأنّه هو من بدأه أوّل مرّة، ومن بدأ سهلٌ عليه أن يعيد[4]، وقد ذكر الشّعراويّ أنّ لفظ "(هوَ) مدلولها (اللّه)، وهو كما نعلم ضمير غيبة، والحقّ سبحانه غَيّب عن الأنظار، ومن عظمته سبحانه أنّه غيب، فلو كان مُدْرَكًا مُحسًّا، ما استحقّ أنْ يكون إلهًا، وكيف نطمع في إدراكه سبحانه، ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته؟"[5].

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

القدرةُ على بدء الخلق، دليل على القدرة على إعادته

جاء التّعبير عن الحقّ ﷻ، باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لما في حيّز الصّلة من دلالة؛ وبسبب إظهار الارتباط بين تلك الصّلات، فالّذي يبدأ هو الّذي يعيد، وفي هذا إحكام للحجّة على الكفّار؛ لأنّهم يعتقدون بأنّ الّذي خلق الإنسان أوّل الأمر هو اللّه الخالق، وهو ما يؤكّده قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، فاتجّهت الحجّة عليهم بهوان الإعادة بعد البدء.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، عبّرت الآية بلفظ ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 79.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11390.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76.
(4) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 118.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11386.

مُصاغًا بصيغة المضارع، والبدء لفظ يدلّ على الإخراج من عدم[1]، وعلى الخلق من غير مثال[2]، وهو ما لا يقدر عليه إلّا ربّ العالمين، وفي ذلك تصوير لمشهد الخلق، وما يتطلّبه من إتقان وقدرة وحكمة، وصيغة المضارع تدلّ على تجدّد الخلق، قال ابن عطيّة: "وقوله يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ معناه ينشئه ويخرجه من العدم، وجاء الفعل بصيغة الحال، لما كان في هذا المعنى ما قد مضى كآدم وسائر القرون وفيه ما يأتي في المستقبل، فكانت صيغة الحال تعطي هذا كله"[3]، وتماثل تلك المخلوقات في خصائصها، خلقًا بعد خلق على نفس الشّاكلة، وذلك بفعل قدرة من لايعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء.

عظمةُ الخلق في الإنشاء بغير مثال، والتّتجدّد مع بديع المنوال

دلالةُ (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

عُرّف لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ بالأداة (أل)، في قوله: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، وهي (أل) الجنس؛ إذ صحّ أنّ كلّ خلق من خلق اللّه ﷻ، ففي خلقه إحكام الصّنع، وبديع الإتقان، وفي كلّ خلق وفرد من الخلق، تتجدّد الدّلالة على الخالق، ابتداء ودوامًا، وهذا يعنى أنّ الوجود في حركة دائمة، وفي هدم وبناء مستمرّين، وأنّ الوجود في أية لحظة، هو على غير صورته في اللّحظة السّابقة أو اللّاحقة[4].

كـلُّ خـلق ففي بدئه آية، وآيات الله عبر لا تنتهي

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

آثر سياق الآية لفظ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾، لما فيه من الدّلالة على الخالق، فالخَلْق هو من وقع عليه فعل الخَلْق، واحتاج الخلق لأجل ذلك إلى بدء وإنشاء، وتحديد خصائص، وتحويل من شيء إلى شيء، وكلّ ملمح من هذه الملامح، علامة على بديع الإنشاء، وتمام الإتقان، وإعجاز الخلق مظهر لتجليّات القدرة الخارقة، الّتي أوجدت

لا بدّ للخلق من مُبدئ ومعيد، يـجلّي العظمة ويبرز المعجزة

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 335.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 41، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 79.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 335.

(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 508.

الإنسان في أحسن تقويم، وأبدعت في خلقته وتناسق أعضائه، وتناسب سمته، بالصّورة العجيبة المبهرة، الّتي أكّدت قدرة اللّه القاهرة، والّتي لا يقدر البشر على مضاهاتها، ولا الإيجاد على منوالها؛ لأنّها صنعة اللّه تعالى، وهو الخلق على الحقيقة لا على المجاز، وهذا الأمر يلمح في كلّ ما خلق اللّه في الوجود، وقد قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١١﴾ [لقمان: 11].

مناسبةُ لفظ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ للابتداء في الآية:

اكتمالُ المخلوق ابتداء بلا سبق، معجزة باهرة، وحكمة ظاهرة

ناسب ذكر لفظ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ عمليّة بدء الخلق، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، وتظهر مناسبته في التّكامل بين معنييهما؛ فكلاهما إيجاد، إلّا أنّ البدء يشير إلى عدم السّبق[1]؛ أي أنّه هو سبحانه الّذي يبدأ الخلق بدون مثال سابق[2]، ولا أنموذج موافق، فقد كان الخلق عدمًا، فبدأه الخالق، وهو لم يكن شيئًا مذكورًا، في حين يشير الخلق إلى التّقدير والتّصوير والتّهيئة[3]، فاكتمل المخلوق ابتداء وتصويرًا، وخلقًا وتقديرًا، من غير سبق مثال، ولا قياس خلقه على منوال، وفي ذلك من استحضار المشهد ما ينبئ عن تطابق الإعادة للابتداء، وكونها هيّنةً بالنّسبة للابتداء، وقد قيل: (أصعب الشّيء بدايته).

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق المحكم:

بين البدء والإعادة، توجد حالٌ هي فناء الخلق

عبّرت الآية بحرف ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة لجملة ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ على ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، ويدلّ ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الزّمني، وهي إشارة إلى وجود حال بين البدء والإعادة، وهي فناء الخلق، فاللّه هو المبدئ والمميت، ثمّ هو المعيد بعد الفناء[4]، وهي محلّ الاستغراب في تقديرهم؛ حيث

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدأ).
(2) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 11/ 79.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلق).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76 (بتصرّف).

يتساءلون: كيف يعود شيء بعد عدم؟! والآية تقرّر إمكان البعث، مراعية الترقّي في الاستدلال، ومقارنة بين حالين للخلق، بدءًا في الحياة، وإعادةً لما هو رفات، فيدلّ حرف ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الرُّتبي، قال الطّيبي: "ويجوز أن يُحملَ ﴿ثُمَّ﴾ على مجرّدِ البُعْدِ مجازًا، فيُعتَبرُ التّراخي في الزمانِ والمَرْتبةِ معًا"[1]، ممّا يخوّله أن يترقّى به الاستدلال، ويتحدّد به محلّ الاستغراب، من البعث بعد الفناء، ومن النّشور للأجساد المتناثرة في القبور.

سرُّ اختيار لفظ ﴿يُعِيدُهُۥ﴾:

سرُّ الإبداع والإعجاز إعادةُ الخلق سيرته الأولى

آثرت الآية لفظ ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ دون (يُرْجِعُهُ)، لِما في الإعادة من إرجاع الخلق، إلى حاله الأولى الّتي كان عليها[2]، وهو ما لا يدلّ عليه لفظ الإرجاع[3]؛ إذ العود يكون إلى التّراب، وهو المبدأ والمنطلق[4]، ومحلّ الاستدلال، أن يعود الإنسان كما بدأ، بمكوّناته الأولى، من اللّحم والدّم والعظام، ومن المشاعر والعواطف والأحاسيس، فتعود وظائف جسمه سيرتها الأولى، كأن لم يطرأ عليها موت، ولم يصبها فناء.

بلاغةُ الطّباق بين ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾:

توجيهُ النّظر إلى وجوه الاختلاف

بين ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ و﴿يُعِيدُهُۥ﴾ طباق بليغ، إذ البدء إيجاد من عدم، وإنشاء بغير مثال منصرم، والإعادة رجوع ومطابقة لما كان، وفي ذكر الطّباق بين البدء والإعادة، توجيه للنّظر إلى جوانب الاختلاف بين الحالين، والمقارنة بين أيّهما يكون الأهون والأيسر، وهي لفتة أخرى إلى مدى انغلاق عقول الكفّار، حين جعلوا الأدنى أعلى، مع أنّهما في قدرة الله سيّان، ولا غرابة أن يعيد الله بمعجزة باهرة، ما كان بدأه بمعجزة ظاهرة.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 12/ 236.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (عيد).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11389.
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).

الله تعالى قادر حكيم، لا يعجزه خلق، ولا إعادة بعث

بلاغةُ فنّ الاستخدام في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ فنّ الاستخدام، وهو فنّ دقيق غامض المسلك، ويكون مجسّدا في أحد وجهيه، بإطلاق لفظ مشترك بين معنيين مطلقا، فيريد بذلك اللّفظ أحد المعنيين، ثمّ يعيد عليه ضميرًا يريد به المعنى الآخر، أو يعيد عليه ضميرين يريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالآخر المعنى الآخر، بعد استعماله في معناه الثّالث، وهذا هو المذهب المشهور في الاستخدام، وهو طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أعاد الضّمير وهو قوله ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، على الخلق بمفهومه الآخر، وهو المخلوق لا بمفهومه الأوّل، وهو المصدر[1].

حجّةُ الله على العباد ظاهرة، ودلائله في الخلق قاهرة

بيانُ فنّ المذهب الكلاميّ في الآية:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، فنّ المذهب الكلاميّ، وأوّل من اخترعه الجاحظ، وزعم أنّه لا يوجد منه شيء في القرآن الكريم، ولكنّه مشحون به، ويعرّفه البلاغيّون بأنّه احتجاج المتكلّم على ما يريد إثباته، بحجّة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام ومنه نوع تستنتج فيه النّتائج الصّحيحة من المقدّمات الصّادقة، قال ابن عاشور في معرض تعليقه على هذه الآية: "وهَذا أشْبَهُ بِالتَّسْليمِ الجَدَليِّ في المُناظَرَة، ذَلِكَ لِأنَّهم لَمّا اعْتَرَفوا بِأنَّ اللَّه هو بادِئُ خَلْقِ الإنْسانِ، وأنْكَروا إعادَتَهُ بَعْدَ المَوْتِ، واسْتُدِلَّ عَلَيْهِمْ هُنالِكَ بِقِياسِ المُساواةِ، ولَمّا كانَ إنْكارُهُمُ الإعادَةَ بَعْدَ المَوْتِ مُتَضَمِّنًا تَحْديدَ مَفْعولِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ، جاءَ التَّنازُلُ في الِاسْتِدْلالِ إلى أنَّ تَحْديدَ مَفْعولِ القُدْرَةِ لَوْ سَلِمَ لَهم لَكانَ يَقْتَضي إمْكانَ البَعْثِ بِقياسِ الأحْرى فإنَّ إعادَةَ المَصْنوعِ مَرَّةً ثانيَةً أهْوَنُ

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 498.

عَلى الصّانِعِ مِن صَنْعَتِهِ الأولى وأُدْخِلَ تَحْتَ تَأْثيرِ قُدْرَتِهِ فيما تَعارَفَهُ النّاسُ في مَقْدوراتِهِمْ"[1].

دلالةُ (الواو) مطلع الجملة الإسميّة:

بيانُ أنّ إعادة الخلق بالبعث، أهون من ابتدائه بالإيجاد

ابتدأت جملة ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾، بحرف الواو، وهي واو الحال؛ إذ حين إعادة شيء يتّصف الأمر باليسر والهون، ممّا يكمّل صورة المقارنة بين البدء والإعادة؛ إذ الإعادة خلق على مثال، والّذي أوجد الشّيء أوّل مرّة، هو أعلم بأسراره وخصائصه، وهو أقدر على إعادته كما هو، بعد أن أبدعه وجمّله، وسوّاه في أحسن صورة وعدّله.

مرجعُ الضّمير (هو) في الجملة الإسميّة:

الاستدلالُ بقدرة الله تعالى، على أنّ البعث عودٌ على بدء

عبّر سياق الآية بالضّمير (هو)، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾، ويرجع الضّمير إلى تأكيد إمكانيّة الإعادة دون افتئات، بالإيمان ببعث من مات[2]، على أنّ العود الّذي ينكره الكفرة، هو أهون من عمليّة البدء المقرّرة، فالإعادة تكون بإرجاع الخلق كما كان[3]، والضّمير يشير إلى الإعادة، الّتي بها يتاح الإمكان، لإحكام الاستدلال، على أنّها نسجٌ على المنوال، واللّه يوجد من عدم بقدرته، ويعطي من عُدْمٍ بقيّوميّته، بحيث لا يتأبّى على قدرته شيء، ولا يعجزه شيء؛ إذ كلّ صعب له يهون، وقد أسلس لأمره الحرون، ووقع بحكمه ما قيل هيهات لا يكون.

نكتةُ التّعبير بالحال الجملة دون المفرد:

البعثُ أهون على الله، مع أنّ البدء والإعادة منه جلّ في علاه

جاء التّعبير عن الحال بالجملة ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾، دون المفرد (هيّنا)، لما في الجملة الحالية من الفصل، الّذي يعطي دلالة جديدة للجملة السّابقة، فالجملة الأولى نسبت بدء الخلق وإعادته

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 499.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 476.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.

للّه ﷻ، في حين ركّزت الجملة الثّانية على المقارنة بينهما، من حيث السّهولة والصّعوبة، فصار الاستدلال بها واضحًا، وتدرّج الاستدلال من ثبوت الفعلين للحقّ ﷻ، والمقارنة العامّة بينهما، إلى تفنيد ما اعتقده الكفّار، من استحالة الإعادة، مع أنّها أسهل وأمكن.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿أَهْوَنُ﴾، بوزن (أفْعَلُ):

المـفـاضـلـةُ بين البدء والإعـادة، اسـتـدلالا بتلك على هاته

آثر سياق الآية لفظ ﴿أَهْوَنُ﴾، مصوغًا بصيغة التّفضيل (أفْعَلُ)، الدّالّة في أصل معنى الهوان، على اليسر والسّهولة، لما في الإعادة من الصّنع على مثال سبق، ممّا ييسّر العمليّة، فتصير الإعادة ضئيلة المعنى، أمام بدء الخلق، ودلالة الصّيغة على التّفاضل بين بدء الخلق وإعادته، يقوم على اعتبار الفعل ذاته، دون نظر إلى فاعله، وتلك قاعدة عامّة، أنّ من بدأ شيئًا من عدم، كانت قدرته على إعادته أبين وأوضح، وأمكن وأفسح، والحاصل أنّ ذلك جاء على سبيل التّسليم الجدليّ[1]، للكفّار الّذين آمنوا بابتداء الخلق، وأنكروا الإعادة بالبعث بعد الموت، واعتبروا ذلك مستحيلًا، فجاء السّياق مرخيًا لهم العنان، وتمّ خطابهم من وحي ما يتصوّرون[2]، بمراعاة مداركهم وملابسات خطابهم، ومستوى التّفكير الّذي قام عليه التّعبير، وتأكّد به التّفاضل، في ذات الفعل، لا باعتبار الفاعل[3]، فكلا الفعلين على اللّه هيّن.

معنى (على) في القيد ﴿عَلَيۡهِۚ﴾:

بـيـــانُ أنّ الاسـتـعـلاء صعوبةٍ وشدّةٍ، وكلفة ومشقّة

قُيّد فعل الإعادة بحرف (عَلَى)، في قوله: ﴿أَهْوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، وحرف (عَلَى) يدلّ على الاستعلاء، أي إنّ الإعادة أهون على الحقّ ﷻ، من بدء الخلق، وكلاهما على اللّه هيّن، وفي الاستعلاء إشارة إلى ما اعتقده الكفّار، بأنّ إعادة الخلق مستحيلة، لصعوبتها وعدم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 83.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 386.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 83.

إمكانها، فكيف يُصيّر الشّيء حيًّا بعد عدم؟ وكيف يتحوّل العظام الرّميم إلى عظام تكسى لحمًا؟ فكأنّ الإعادة صارت مكلِّفة وعسيرة، والنّظر إليها من هذه الزّاوية، يقلب الرّؤى، ويعكس المفاهيم، الّتي حرص السّياق في هذه الآية على تصحيحها، وإزالة ما علق بها من غبش، بإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل.

دلالةُ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِۚ﴾:

دفعُ ما لا يتناسب مع قدرة المبدئ المعيد

قُيّد الهوان بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِۚ﴾؛ ليحوّل كلّ استعلاء في الإعادة إلى أضدادها؛ فالإعادة أيسر وأسهل وأطوع، كأنّ بين الهوان والجرّ بحرف الجرّ تضادّ، ولكنّه ينتفي بما جُرّ به الحرف، وهو الضّمير العائد على الله تعالى، المبدئ للخلق، والمعيد لمن يريد، فالّذي يبدأ - في منطق العقل وواقع النّاس - لا يصعب عليه أن يعيد ما بدأه كرّة أخرى، فكيف بالله القادر على كلّ شيء؟ وهو الّذي لا فرق عنده بين الابتداء والإعادة، لأنّه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء.

دلالةُ المتشابه بين ﴿أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ و﴿عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾:

صعوبةُ الأمر تقتضي التّقديم، وبعكسه المتيسّر الهيّن

تشابه التّعبير بالهوان في القرآن الكريم، مع تأخير الصّلة في قوله تعالى هنا: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، وتقديمها في قوله سبحانه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: 9]، وتوجيه ذلك هو أنّ تقديم الصّلة هناك يدلّ على الاختصاص[1]؛ لأنّه جاء في مقام خرق العادة[2]؛ فإنْ كان خلق ولد من غير سبب مستعصيًا عليكم، فهو على ربّكم هيّن، في حين أنّ الإعادة هنا لا تستدعي هذا الاختصاص ليُسرها، ولذلك عبّر بأنّه الإعادة أهون من الابتداء[3]، وكلٌّ منهما أمام قدرة الله سواء، لأنّه تعالى يوصف بالقدرة على الخلق، لكلّ ما أراد أن يخلقه، ولا يستثنى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 476.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 12/ 235.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 76.

من المخلوقات والأفعال أحد ولا شيء، يمكن أن يتأبّى على إرادة الله الّتي تقول للشّيء كن فيكون.

معنى (الواو) في جملة ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾:

التّفاضلُ مثل لما يسهل ويصعب وينقاس في عرف النّاس

عُطِفت جملة ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾؛ ليدلّ على أنّ ما ضربه من التّفاضل بين إعادة الخلق وابتدائه سهولة وهوانًا، إنّما هو مثال للإفهام والحجاج[1]، وأنّ قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾، أي الوصف الأعلى الّذي ليس لأحد غيره، وقد عرف به كمالًا، ووصف في السّموات والأرض، على ألسنة الخلائق الباهرة، وألسنة الدّلائل الظّاهرة، وهو أنّه القادر الّذي لا يعجز عن شيء، من إنشاء وإعادة وغيرهما، من المقدورات[2].

معنى (اللّام) في قوله ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾:

المثل الأعلى لله استحقاق، لما له من كمال وجلال

تعلّق المثل الأعلى بالله سبحانه بحرف (اللّام)، وهي دالّة هنا على الاستحقاق، أي" ثبت له واستحقّ الشّأن الأتمّ الّذي لا يقاس بشؤون النّاس المتعارفة وإنّما لقصد التّقريب لأفهامكم"[3]، فالله ﷻ يستحقّ المثل الأعلى، وهو ثابت له سبحانه، فلا يُقاس عليه أحد، ولا يصلح معه تمثيل وتشبيه، بما في الخلق، فالكمال كماله، لذلك فالابتداء والإعادة عنده سواء، وإن كان ذلك عندكم درجات.

نكتة تقديم متعلّق الخبر (لَهُ):

بيانُ اختصاص الله بالكمال، ودفع العجز عنه والكُلْفة

قُدّم متعلّق الخبر (لهُ) على المبتدأ ﴿ٱلْمَثَلُ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، لإفادة الاختصاص؛ فالمثل الأعلى لله خاصّة[4] وليس لغيره[5]، في مقارنة مع غيره ﷻ؛ فلا تصحّ مقارنة ولا تمثيل، وهو

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون: 9/ 40.
(2) النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 698.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 84.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 77، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 477.

ردّ على الكفّار اعتقادَهم باستحالة إعادة الخلق، فاللّه على كلّ شيء قدير، وفي البخاريّ عن أبي هريرة ﵁، عن النّبيّ ﷺ قال: «قال اللّه تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي، فقوله: لن يُعيدني كما بدأني، وليس أوّل الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأمّا شتمه إيّاي، فقوله: اتّخذ اللّه ولدًا، وأنا الأحد الصّمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد»[1]، وقد خاطب السّياق المعاندين بمستوى فهمهم، ونبّه في هذا المضمار، إلى أنّ من كان له المثل الأعلى، فلا يوصف بهوان شيء عليه ولا استحالة، لأنّه لا يعجزه شيء.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾ معرّفًا:

بيانُ ما لله تعالى من كمال الشّأن وتمام التّميّز

عبّرت الآية بـ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾ للّه ﷻ معرّفا بـ(أل)، ويدلّ المَثَل على المعنى الأتمّ[2]، أي: إنّه سبحانه في تمثيل الكمال كامل، فلا أعلى منه شأنا، وهو ما زادته اللّام دلالة، أي: أنّه سبحانه الأتمّ في صفاته ومناسبته، وفي ذلك إشارة إلى أنّه لا يصحّ أن يوصف إلّا بالقول المناسب لعلوّ منزلته سبحانه[3]، فلا نقيسه بغيره إلّا تقريبًا للأفهام[4]، "وذلك لأنّه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التّمثيل، عقبه بهذا، فكأنّه قيل هذا، لتفهم العقول القاصرة أنّ صفاته عجيبة، وقدرته عامّة، وحكمته تامّة، فكلّ شيء بدءًا وإعادة، وإيجادًا وإعدامًا، عنده على حدّ سواء، ولا مثل له ولا ندّ"[5].

نكتةُ وصف ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾ بـ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾:

خلقُ الله كمال على كمال، فلا معنى للرّيبة في إعادة الخلْق

إذا كان ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾ يحمل معنى الشّأن التّامّ والوصف الأنسب، فإنّ

(1) الحديث صحيح، وهو مرويّ عن عبدالله بن عبّاس في صحيح البخاريّ، رقم: 4482.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 12.

في وصفه بالأعلى، زيادةَ تمام على تمام، ووصف للكمال بالكمال؛ فهو العليّ الّذي ليس لغيره أن يساويه أو يدانيه[1]، وفي ذلك تأكيد للمعنى، وإبعاد لكلّ ريب، في إمكان إعادة الإنسان للحياة بعد حين من الدّهر من الوفاة، فهو سبحانه الكامل، قدرة وحكمة ومثلًا أعلى، وقد بدأ الخلقَ؛ فهل يستحيل معه إعادة الخلق بعد فناء؟.

دلالةُ صيغة ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ في السّياق:

تفاضلٌ في العلوّ إلى المثل الأعلى، الّذي هو المثل الأكمل

آثرت الآية لفظة ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ بصيغة الأفْعَل دون الفاعل أي (العالي)؛ لما في صيغة (الأفْعل) من المفاضلة، كأنّ ثمة عاليًا وأعلى، وكلّ ما دونه دانٍ وإن علا، وليس لغيره ما يدانيه، في صفات الكمال فضلًا عمّا يساويها[2]، ثمّ يزداد التّرقّي في درجات التّفاضل في الكمال، إلى أن يبلغ المنتهى[3]؛ فلا أعلى إلّا اللّه سبحانه، وهو المتفرّد بالجلال الّذي لا يُشابَه ولا يُضاهى، ولا يقارن ولا يُماثل[4].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

المـثـلُ الأعـلـى فـيـمـا يـعـرفـه عـامّـة الـنّـاس، وما يصفه أهل النّظر بالمراس

قيّد المثل الأعلى بحرف ﴿فِي﴾، في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ويدلّ هذا الحرف على الظّرفيّة، فأيّ شيء في السّماوات والأرض هو الأعلى مثلا غيره سبحانه؟ وفيه مراعاة للمخاطبين؛ إذ مجال نظرهم هو السّماوات والأرض وما يعرفونه[5]، فجاء الخطاب بما يفهمون[6]؛ فلا شيء أعلى وأمثل منه ﷻ، ويمكن أن يدلّ على الموجودين في ذلك المجال؛ فيكون الحرف ﴿فِي﴾ بمعنى (عِنْدَ أَهْلِ السَّماواتِ والْأَرْضِ)، فهو سبحانه موصوف بالمثل الأعلى، وموسوم بالشّأن الأتمّ، عند من أنعم النّظر وأعمل الفكر، أي: ثبت

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11391.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 77.

له واستحق الشّأن الأتمّ الّذي لا يقاس بشؤون النّاس المتعارفة[1]، فهو المثل الأعلى فيما يعرفون، والنّموذج الأوفى فيما يصفون، "أي الوصفُ الأعلى العجيبُ الشّأنِ من القدرة العامَّةِ، والحكمة التّامةِ، وسائر صفاتِ الكمال الّتي ليس لغيرِه ما يُدانيها فضلًا عمّا يساويها[2].

معنى (أل) في لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

مجالُ النّظر، ومحلّ العبر، إلى المثل الأعلى المعتبر

ذُكرت السّماوات والأرض معرّفة بـ(أل)، وهي العهديّة، فالسّماوات والأرض هي المعهودة عند المخاطبين، فهي مجال النّظر، ومناط الفكر، ومن خلالها تُبنى المعارف، فمن تأمّل في خلقها، ونظر في عظيم اتّساعها، وكمال اتّساقها، استحضر المثل الأعلى فيها، وهو موجدها وباريها، واستحضر مع ذلك جليل قدرته تعالى، على خلق البشر، إذْ من أهمل فيها النّظر، لا يتسنّى له أن يذّكر أو أن يعتبر.

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تأكيدٌ أنّ الله تعالى، موصوف عن استحقاق بالمثل الأعلى

عبّرت الآية بالجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، باعتباره صفة للمثل الأعلى، أي ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الموصوف بأنّه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فهو وصف لله ﷻ في أهل السّماوات والأرض، ممّن أنعم النّظر، وأيقن بالحقّ وبصر، فالجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف نعتا[3]، ويمكن أن يكون حالا للمثل الأعلى، أي: أنّ استحقاقه المثل الأعلى، مستقرًّا في السّماوات والأرض، فالجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف حالا[4]، فهو أمر ثابت مستقرّ في السّماوات والأرض، وإن لم يقرّ هؤلاء الكفّار به.

دلالةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

إذا شهد أهل السّماوات بعظمة الخالق، فأهل الأرض من باب أولى

جُمعت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأفردت ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 84.

﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، دلالةً على كثرة من يشهد للّه بالمثل الأعلى في السّماوات، بكثرة أهلها واتّساعها، مقارنة بمن في الأرض الّتي جعلها اللّه للأنام، فإن لم يشهد لِذلك أهل الأرض، فأهل السّماوات يقرّون للّه بالمثل الأعلى، ولا شكّ أنّ أهل الآرض لا ينفكّون عمّا شهد به أهل السّماء، وكلاهما خلق اللّه المقرّون له بالوحدانيّة والخلق والإمداد.

معنى (الواو) في جملة الفاصلة:

العـزّة نـموذج للمثل الأعلى، والحكمة بيان لمقصد إعادة الخلق

عُطفت جملة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على جملة ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، عطفَ خاصّ على عامّ، وبيان مثالٍ على الكمال[1]؛ ومن تجلّيات المثل الأعلى في السّماوات والأرض، أنّه سبحانه العزيز الحكيم، لذلك سوف يعيد الخلق، بعد الفناء والتّلاشي، وقد عاد الخطاب إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، كأنّ هذه الجملة هي المعطوف عليها، وأنّ جملة ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، جملة معترضة توسّطت بينهما، فانتقل الخطاب من كمال القدرة، إلى كمال العزّة والحكمة، لبيان مقصد إعادة الخلق، إظهارا للحقّ، بصفة الإعزاز وتمام الحكمة.

دلالةُ تقديم الضّمير (هو) في السّياق:

الاختصاص بكمال العزّة والحكمة، مفصح عن الجلال والعظمة

يدلُّ تقديم الضّمير (هو) الجملةَ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، على اختصاصه ﷻ، بتمام العزّة وكمال الحكمة، ولذلك كان وحده ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2]، وقد جاء السّياق، وكأنّه يقول: لا تقيسوا قوّتكم بقوّته؛ لأنّه العزيز، ولا تقفوا عند حدود عقلكم؛ لأنّه الحكيم.

دلالةُ (أل) في لفظي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

عُرّف لفْظا ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بالأداة (أل)، وهي لكمال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 78.

الجنس، فهو الكامل في العزّة؛ فلا يعجز عن شيء، ولا يأبى عنه شيء سبحانه، وهو التّام في الحكمة؛ يجري كلّ أمره على حكمة[1]، ولا ريب أنّه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ بمعنى أنّه المنيع في قدرته، أو القويّ في انتقامه، وأنّه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبيره، أو ذو الحكمة في إعذاره وحجّته إلى عباده[2].

كـمـالُ الـعـزّة والحكمة، بتمام مقتضياتها

وجهُ مناسبة لفظ (الحكمة) للفظ (العزّة):

ناسبتْ صفة الحكمةِ صفة العزّة، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ من حيث إنّ إفناء الخلق ثمّ إعادتهم، يدلّ على العزّة وكمال القدرة، لكونه العزيزَ القادر الّذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته، لتمكّنه من نواصي المخلوقات، ومعرفته بأحوالهم ومآلهم، وهو الحكيم الّذي تجري الأفعال على مقتضى حكمته، فلا حركة ولا سكون في ملكه الواسع إلّا بإرادته وأمره، وبقدره وتقديره[3]، لذلك كان كمال العزّة بتمام الحكمة، وصارت إعادة الخلق، من مقتضيات الحكمة، فهو يعيد الخلق للحساب، ويبعثهم للجزاء، فناسبت الحكمة العزّة.

تـكـمـلُ الـعـزّة بتمام الحكمة، وكلاهما صفتان لله الآجلّ

نكتةُ تقديم صفة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

تقدّمت صفة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنّ الحكمة تظهر وتكمل، في الفعل، بابتداءِ الخلق، وإعادته بعد موات، وقد تقدّم ذكر العزّة التّي بها يكون الخلق والإفناء، وبها تكون الإعادة والحياة، فتتجلّى حكمة الله في تلك الأفعال المعجزة، والجارية بعلم رشيد، وتقدير سديد، ولا ريب أنّ الحكمة تتجلّى في أكمل صورها، وأجلى معانيها، في إعادة الخلق؛ لأنّ في ذلك رحمةً بالعباد، فيما قدّر تعالى وأراد.

يـتـجـلّـى تـمـام الـحـكـمـة في التّسيير، بتمام العزّة في التّقدير

وجهُ مناسبة العزّة والحكمة لمضمون الآية:

خُصّت صفتا العزّة والحكمة، بابتداء الخلق وإعادته، لتمام المناسبة بينهما؛ فبالعزّة والقدرة، يكون تمام الخلق، وبهما يفنى

لا تـمـام للمثل الأعـلـى فـي الـسّـمـاوات والأرض، إلّا بكمال العزّة والحكمة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 477.

(2) العزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن (مختصر لتفسير الماورديّ): 2/ 527.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206 (بتصرّف).

كلّ شيء، وبهما يعود الخلق سيرته الأولى، وهذا الأمر يسري على السّموات والكون برمّته، قال تعالى في محكم التّنزيل: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]، ولا غرو أن نشير إلى أنّ الحكمة تتجلّى في كمال الخلق، وفي إتقان الصّنع، وفي فلسفة الفناء، وفي بعث الخلائق بعد البرزخ، لينال كلٌّ جزاءه، قال ابن عاشور: "ومن آثار القدرة والحكمة، أنّه يعيد الخلق بقدرته، وأنّ الغاية من ذلك الجزاء، وهو من حكمته"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القنوت والطّاعة:

القُـنـوتُ طاعة مطلقة دائمة، والطّاعة انقياد لمطلوب، وتكون طوعا أو كرها

القنوت في كلام العرب، له معانٍ عدّة، منها: الطّاعة، كما قال ﷻ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]، معناه: كلٌّ له مطيعون[2]، والقانت: الذّاكر لله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزّمر: 9][3]، والطّاعة أن ينقاد الطّائع للمطاع، ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه[4]، ويجتمع القنوت والطّاعة في معنى الموافقة واللّين، فالطّاعة من المطاوعة، وهي الموافقة والاستجابة، والقنوت من اللّين والانقياد[5]، إلّا أنّ الطّاعة انقياد لمطلوب[6]، وقد تكون طوعًا كما تكون كرهًا[7]، فيكون في المطيع ما لا يمنعه من العصيان، لكنّه يطيع، في حين أنّ القنوت لين أصيل، وسكون وانقياد ذاتيّ، فصار القنوت درجة في الطّواعية، يرقى إليها الطّائعون بوصفها طواعيّة تامّة، وبذلك فهي أنسب لسياق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 84.
(2) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: (قنت).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قنت).
(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (طوع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قنت).
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 137.
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 334.

الآية الدّالِ على خضوع كلّ ما في السماوات والأرض للّه تعالى ملكًا مطلقًا له سبحانه.

الابتداء والإنشاء:

الابتداء شروع في العمل بلا سبق، والإنشاء يكون بتجدّد

يقال أنشأ اللّه تعالى السّحاب: رفعه، في التّنزيل ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرّعد: 12]، (و) أنشأ فلان (الحديث: وضعه)، وأنشأ فلان حديثا، أي ابتدأ حديثا ورفعه، وقوله تعالى: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: 141]، أي: ابتدعها وابتدأ خلقها[1]، وأنشأه اللّهُ: خَلَقه، وأبدعه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 98][2]، ويجتمع الإنشاء والابتداء في الإحداث والإيجاد، ويتميّز الإنشاء، بأنّه تجدّد في الإحداث حالًا بعد حال[3]، في حين أنّ الابتداء هو الإيجاد لأوّل مرّة دون سبق[4]، فهو إيجاد مِن لا شيء، وإيجاد على غير مثال، وعليه فالابتداء إيجاد دون سبق، والإنشاء تجدّد حال، ولمّا كانت السّماوات والأرض إحداثًا مبتكرًا على غير مثال سابق ناسب لفظ الابتداء.

الهَوْن واليُسر:

الهون عادة ما يكون لضعف، واليسر يستعمل لقلّة

يجتمع الهَوْن واليسر، في السّهولة والخفّة، لذلك صحّ أن يطلق كلّ واحد منهما على الآخر، كما في قوله هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ [العنكبوت: 19]، والهون: هوان الشّيء الحقير، والهيّن: الّذي لا كرامة له، أي: لا يكون على النّاس كريمًا، وأهنت فلانا، وتهاونت به، واستهنت به، والمؤمن استهان بالدّنيا[5]، وفي التّنزيل: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، أي كلّ ذلك هيّن على

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (نشأ).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نشأ).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 80.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدأ).
(5) الخليل، كتاب العين: (هون).

اللّه، وليست للمفاضلة، لأنّه ليس شيء أيسر عليه من غيره[1]، إلّا أنّ بينهما افتراقًا؛ من حيث إنّ الهَون لضعفه سَهُلَ وخفّ، وبذلك أُطلق الهيّن على الذّليل الضّعيف[2]، في حين أنّ اليسر لقلّته خفّ وسهل أيضًا، ولذلك أُطلق اليسير على القليل[3]، فاختلفا باختلاف سبب السّهولة.

المثَل والوصف:

المَـثَـل كـمـال وصـف، وتـمـام مناسبَة

إذا كان المَثل وصفًا، فيقال: ضربت لفلان مثلا، أي: وصفت له شيئًا، وأنّ مثل هذا كمثل هذا، أي: صفته كصفتِه[4]، فمثل الشّيء صفته، وقوله عزّ من قائل: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ [محمّد: 15]، معناه صفة الجنّة، وذهب أبو عليّ، إلى أنّ معناه التّمثيل[5]؛ لأنّ (مثل) لا يوضع في موضع صفة، إنّما يقال: (صفة زيد أنّه ظريف، وأنه عاقل)، ويقال: (مثل فلان): المثل مأخوذ من: المثال والحذو، والصّفة تحلية ونعت[6]، والظّاهر أنّ بين المثل والصّفة فروقًا، فالمثل ليس أي وصفٍ كان، بل هو وصف دقيق لجانب من الجوانب المراد وصفُها، وذلك لمناسبته لتمام الحقيقة[7]، حتّى صار المثل مقولة سائرة، وصار هو الموصوف لا الوصف، يُقاس عليه غيره ويوصف، ولذلك سميّ المثل مثلا لأنّه يقاس عليه ويُضرب به لما يماثله، ومن هنا فهو أنسب لسياق نفي أن يكون للّه تعالى مثل؛ إذ له وحده المثل الأعلى جلّ في علاه في القدرة المطلقة التي منها بدء الخلق وإعادته.

(1) ابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم: (هون).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (هين).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 434.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 480.
(5) ابن منظور، لسان العرب: 11/ 611.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مثل).
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 480.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

[الرّوم: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضرب مثل الأصنام، وأنّها ليست شريكة لله في ملكه، بعد مثل الابتداء والإعادة

وُصف الحقّ ﷻ في الآية السّابقة بالمثل الأعلى، كمالًا في الخلق والقدرة، وأنموذجًا أعلى في العزّة والحكمة، وتساءل في استنكار واستغراب، عن اتّخاذ الكفّار أصنامًا دونه؟ فضرب المثل لهم من أنفسهم، ليتّضح المقال بالمثال، وليتميّز الخالق من المخلوق، وكما ضرب المثل هناك بالخلق والإعادة، ضرب هنا المثل بالسّيّد وعبيده، تفريقًا بين المالك والمملوك، لإدراك الفرق بين العابد والمعبود، و"جعل له المثل الأعلى الّذي لا يتّصل به تكييف، ولا تماثل مع شيء"[(1)].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيْمَٰنُكُم﴾: أصلُ (يمن) القوّةُ والبركة، وتُطلَق اليَمينُ على إحدى اليدين لمبادرة النّاس بها في التّعامل والتّناول، وكثرة الاعتماد عليها، فصار رجاء اليُمن بها[(2)]؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصّافات: 93]، وأطلقتِ اليمين على القسم؛ لأنّ العرب إذا تحالفوا ضرب كلّ واحد منهم بيمينه يمين صاحبه، كما كُنّيَ باليد اليمنى عَنِ التَّمكُّن مِنَ المأخوذ؛ وجمع اليمين أَيْمانٌ[(3)]، ومعنى مِلك اليَمين في الآية: الأمَةُ والعَبْد المملوكان، والقرآن يجعل تعبير (أيمانكم) بمعنى العهود والمواثيق أو القسم، وهو ما يتّفق مع

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 335.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (يمن).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (يمن).

مبدأ القرآن، في كون الزّواج ميثاقا بين طرفين، بل هو ميثاق غليظ، كما وصفه القرآن، في معرض كلامه عن المهر، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾ [النّساء: 21][1].

2) ﴿شُرَكَآءَ﴾: أصلُ (شرك) الشِّرْكَةُ، وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثنين، لا ينفردُ به أحدُهما، ويُقالُ: شاركتُ فلانًا في الشَّيءِ، إذا صرتَ شريكَهُ، وأشركتُ فُلانًا، إذا جعلتَه شريكًا لك[2]، والشّريك يجمع على شركاء وأشراك، مثل شريف وشرفاء وأشراف، والمرأة شريكة، والنّساء شرائك، وشاركت فلانًا: صرت شريكه[3]، والطّريق مشترك، أي: النّاس فيه شركاء، وكلّ شيء كان فيه القوم سواء فهو مشترك[4]، والشِّرْكُ: يأْتي بِمعنى المُشاركةِ، وهي الانضمامُ والمُخالطَةُ بين الشَّريكين، يُقالُ: شركتُه في الأمر وشاركتُه: إذا انضمَمتُ إليه وخالطتُه، وصرتُ شريكًا له[5]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: المُشارِكُ في المال؛ لقوله بعدها: ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

3) ﴿سَوَآءٌ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بَيْنَ شيئَينِ، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أيَ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأمرِ، أيَ سواءٍ[6]، فالسَّواءُ: العدلُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: 58]، أي على حكم العدل والإنصاف[7]، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه؛ لاسْتِواءِ المسافةِ إلَيه مِنَ الأطْرافِ[8]، وبنو فلان سواء وسواس - إذا استووا في خير أو شرّ والسّيّ - المثل فإذا قلت سواسية لم يكن إلّا في شرّ، قال أبو عليّ: وأمّا قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: 6]، فإنّ السّواء، والعدل، والوسط، والنّصف، والقصد، ألفاظ يقرب بعضها من بعض، في المعنى، قال زهير:

أرونا سُنّةً لا عيبَ فيها *** يُسَوَّى بَيْنَنا فيها السَّواءُ[9]

(1) توفيق حميدة، مقال: هل هناك معنى آخر لـ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، منشور عل الشّابكة، في 11 ديسمبر 2020م.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (شرك).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (شرك).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سوى).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سوى).
(9) البيت لزهير بن أبي سلمى، يُنظر: ديوانه، ص: 15، وفيه: (أرونا سنّة لا عيب فيها) وتم التصويب في المتن، وهو والفقرة الّتي قبله مذكوران عند ابن سيده المرسيّ، المخصّص: (الاستواء).

والمقصود بـ﴿سَوَآءٌ﴾ في الآية: التّساوي، والمعنى: أنتم ومَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ مُتساوينَ.

4) ﴿نُفَصِّلُ﴾: (فصل) أصلٌ يدُلُّ على تَمييزِ الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانتِه عنه[1]، والفَصْل: الحاجز بين الشَّيئَين، فصَلَ بينهما يَفْصِل فصلًا فانفصلَ، وفَصَلْت الشَّيءَ فانفصلَ أي: قَطَعتُه فانْقطعَ[2]، وفَصْلُ الخِطاب: ما فيه قَطعُ الحُكم، والتَّفصيلُ: التَّبْيينُ[3]؛ لأنّ المعاني تتّضح، فتنفصل عن بعضها، ولا يكون بينها اشتباه أو خفاء، وهو في الآية مراد به: التَّبيينُ والتَّوضيحُ، أيْ: نُفصِّلُ الدَّلائلَ على الاعتقادِ الصَّحيحِ تَفصيلًا كهذا التَّفْصيلِ، ونوضّحه وضوحًا بيِّنًا[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تمثيل إشراك الشّركاء لله في الاعتقاد، بإشراك العبيد سادتهم في التّصرّف بما يستفاد

أعطى اللّهُ تعالى للمُشرِكينَ - مَثَلًا قريبًا مِن أنفُسِهم، يوضِّحُ قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه، فقال: أيكون لكم مِن رَقيقِكم الَّذين تَملِكونَ، مَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ؟ فتَكونوا أنتم وهم فيه مُتساوينَ! تَخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه، كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ، أن يَتصَرَّفَ في مالِه بشَيءٍ دونَ رِضاه أو إذنِه، وعليه، فإنّه كما لا يَرضى أحَدٌ منكم أن يكونَ عَبيدُه شُرَكاءَ له في رِزقِه، فاللّه لا يَرضى أن يكونَ له شَريكٌ مِن عَبيدِه في ألوهيّته، وبذلك نُفَصِّلُ آياتِ القُرآنِ؛ ليَتبَيَّنَ الحَقُّ لذَوي العقولِ، وأربابِ الأفهامِ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة ﴿ضَرَبَ لَكُم﴾ عمّا قبلها:

إتْباعُ الدّليل بالمثل، مبين عن المراد من السّياق المستفاد

فُصِلت جملة ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ عمّا قبلها؛ لتمام الاتّصال

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(2) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فصل).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فصل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 87.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 489، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 312، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.

بينهما[1]، فهو إتباعُ الدّليل بالمثل[2]؛ فلمّا ذكر اللّه الأدلّة على وحدانيّته، وكمال صفاته، وأنّه له المثل الأعلى في السّماوات والأرض، ضرب مثلا لذلك[3] بما في أنفس المشركين من خوف الشّركة في ملكهم، مع أنّ اللّه تعالى أولى بذلك، فهو المالك وحده، وحتّى ينتظم الدّليل على أصل الوحدانيّة، وأصل البعث، وينكشف المعنى بالتّمثيل والتّقريب بعد نهوضه بدليل العقل، قرّب لهم الصّورة في مشهد من الواقع المعيش في بيئتهم العربيّة الجاهليّة.

بلاغةُ التّمثيل للمشرك بِملكِ اليمين:

التّمثيلُ لهم من واقعهم، بما يكرهونه لأنفسهم، ويستبيحونه لله خالقهم

جاء التّمثيل على بطلان الإشراك باللّه ﷻ، بحال المشرك مع ملك يمينه، يشاركونه في ماله وقراره، وهو ما كانت العرب تأباه وتأنف من قبوله والرّضا به، وتكمن بلاغة التّمثيل بذلك في جوانبَ منها: أنّه مثال من أنفسهم ومألوفهم، يلمسونه في واقعهم، فهو أدعى للإقرار به، وفهم مضمونه، وإدراك غاية التّمثيل به، كي يدركوا بأنّ ما يكرهونه لأنفسهم، يجب أن ينزّهوا عنه خالقهم، الّذي هو سبب وجودهم، ومصدر نعمائهم، لو كانوا يعقلون، ومنها أنّه حضٌّ للمشركين، للارتداع عن إشراكهم، وذلك بإرفاقه بالإستفهام الإنكاريّ، بغرض إبراز المعنى الاعتقاديّ في الشّرك الباطل المهين، في هذه الصّورة المحسوسة المشوّهة[4]، حتّى يزهق الباطل، ويظهر الحقّ ويستبين.

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿ضَرَبَ﴾:

إقامةُ الحجّة بوضع الأمثال القريبة للمعاني، مفيد في الإبانة

عبّرت الآية بفعل ﴿ضَرَبَ﴾ للمثل، دلالةً على وضعِ مَثَل نظيرًا لمعنى؛ حتّى يزداد وضوحًا[5]، وحتّى يُحدث أثره الإيجابيّ في التّعرّف

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 43.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86 (بتصرّف).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 85.

على الأمور وتعقّل المعاني[1]، ما يشير إلى أهميّة المعنى الممثّل له والحاجة إلى توضيحه إزالةً للشّبه، وصوغه على هيأة الماضي يحقّق هذا المعنى بما يتضمّنه من إيحاءٍ بالوقوع.

دلالةُ (اللّام) والقيد ﴿لَكُم﴾:

ضربُ المثل لأجل الإفهام، مفيد في إيضاح مغزى الكلام

عبّرت الآية باللّام في ﴿لَكُم﴾، وهي لام التّعليل[2]، علّلت ضرب المثل بأنّه لأجل إفهام المخاطبين، فالموضوع هو وحدانيّة اللّه، والموقف الشّائن هو الإشراك باللّه مع أنّه الواحد الأحد، فاقتضى الأمر ضرب المثل، وتعليل ذلك حتّى يكون محلّ اهتمام وإعمال نظر، كما أنّ تقييد ضرب المثل بالجارّ والمجرور ﴿لَكُم﴾، هو مزيدُ بيان وتوضيح، وإزالة للشّبهة، وإقامة للحجّة، رجاء تصحيح ذلك التّناقض الصّارخ، بين كمال اللّه، الّذي له المثل الأعلى في السّماوات والأرض، وبين عبادة غيره من الأشياء والأشخاص الّتي لا تنفع نفسها بَلْه غيرها.

دلالةُ مرجع الضّمير في ﴿لَكُم﴾:

مفادُ التّخصيص، إظهار غرابة الإشراك، مع كمال الله المتفرّد

يعود الضّمير في جملة ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾، إلى الكفّار المشركين باللّه آلهة أخرى، وقد قُدّم للاهتمام بالمخاطب وتخصيصه بضرب المثل، فالمثل قد ضُرب لكم دون غيركم؛ لما في موقف الشّرك من غرابة، مع كمال وحدانيّة اللّه وتمام ملكه وعزّته وحكمته، فخُصّ ضرب المثل ابتداء، بهؤلاء المشركين، توضيحًا لغريب فعلهم، وجلبًا لمزيد اهتمامهم، ومواجهةً لهم سوء فعلهم.

وجهُ التّعبير بلفظ ﴿مَّثَلًا﴾:

بيانُ التّشابه الدّقيق في صورة مثلٍ، بالإقناع حقيق

جاء التّعبير بلفظ ﴿مَّثَلًا﴾ منكّرا، في قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾، أي: أنّ هذا المثل المضروب، يتبيّن به بطلان الشّرك مِنْ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.

أَنْفُسِكُمْ، بكونه منتزعًا من أحوالها، وهي أقرب الأمور إليكم وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على ما ذُكر من بطلان الشِّرك، لكونها بطريقِ الأولوية[1] وأظهر كشفًا لما تعرفونه من أحوالها ونزغاتها، ويدلّ المثل على مشابهة بين حال المشركين، وحال أخرى لا يتفطّنون لها، فاحتيج إلى تمثيل يكشف النّقاب، ويبيّن الصّواب، وفي تنكير المثل دلالة على أنّ أيّ مثل يصلح للإقناع، فهو حقيق بأن يُمثّل به.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في القيد ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾:

القـرب دليل الإلـف وأدعـى للقبول واللّطف

دلّ حرف ﴿مِّنْ﴾ في القيد ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ على ابتداء الغاية[2]؛ أي إنّه أُخِذ المثل من أنفسكم، وانتُزع منها[3]، وهي إشارة إلى قرب المثل والتصاقه بالأنفس؛ فالقرب دليل الألفة، وهو ما يجعل المثل أدعى للإقبال عليه، ثمّ لقبوله، وليس ببعيد عنكم تنفرون منه وتستغربونه[4].

دلالةُ التّعبير بالنّفس ونكتةُ جمعها:

ضربُ المثل من أحوال النّاس وجماعتهم، أنصع في الدّلالة على المراد

عبّرت الآية بالنّفس في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ﴾ جمعًا، ويدلّ لفظ النّفس هنا على جنس النّاس وأحوالهم، أي: من ذواتكم وحياتكم وشؤونكم وشجونكم، فالمقصود هنا هو انتزاع المثل المضروب، ممّا يحياه المخاطبون ويعرفونه لإثبات وحدانيته تعالى، بما يكشفها، من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها الّتي هي أقرب الأمور إليكم[5]، ولأجل ذلك جاء لفظ ﴿أَنفُسِكُمْۖ﴾ جمعًا، ليشير إلى تلك الشّؤون كلّها، فالمثل من أحوال جماعتهم؛ "إذ لا تخلو الجماعة عن ناس لهم عبيد، وهم يعرفون أحوال العبيد مع سادتهم، سواء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 387.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11397.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

منهم من يملك عبيدًا، ومن لا عبيد له، فالخطاب لجميع الأمّة، باعتبار وجود فريق فيهم ينطبق عليهم هذا المثل"[1].

نكتةُ الإضافة في لفظ ﴿أَنفُسِكُمۡۚ﴾:

مـواجـهـةُ المـخـاطـبـين بـاعـتـقـادهـم في ربّـهـم ما لا يـرضـونـه لأنفسهم

أُضيف لفظ ﴿أَنفُسِكُمۡۚ﴾، إلى ضمير الجمع المخاطب، ونكتة ذلك مزيد القرب من المخاطبين، فهي أنفسكم وما تعرفونه دون غيركم، وهي إشارة إلى مخاطبتهم ابتداء بالمثل؛ فمِن أحوالهم جاء خطابهم مواجهة لهم بها، ليقول لهم: هذا حالكم، فهل ترضون أن يكون لمولاكم ما لا ترضونه لأنفسكم؟.

علّةُ فصل الجملة ﴿هَل لَّكُم﴾ عمّا قبلها:

أهميّةُ التّشويق في تلقّي المثل، وإثارة الاهتمام بالاستفهام

فُصلت جملة ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، عمّا قبلها؛ لأنّها تفصيل لها؛ فقد ابتدأت الآية بالإعلام بضرب المثل، فالمخاطبون يترقّبون المثل، كأنّ ثمّة سؤالًا مفاده: ما هو هذا المثل؟ فتأتي الجملة جوابا عنه وتفصيلًا، ففي الفصل تشويقٌ، لتلقيّ المثل، وبعثٌ للاستفهام عنه، وضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن، للبيان والتّوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، وهو يوضّح الأمر الغامض توضيحًا بيّنًا، ويجعل الفكرة في الذّهن قائمة واضحة المعالم[2].

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿هَل لَّكُم﴾:

الاسـتـفـهـامُ والتّقرير، أبلغ من الإخـبـار في التّأثير

عبّرت الآية عن المثل بصيغة الاستفهام: ﴿هَل لَّكُم﴾، وهو استفهام إنكاريّ[3]، جيء فيه بأسلوب السّؤال مع الدّلالة على النّفي؛ دفعًا إلى التّقرير[4]، فالاستفهام والتّقرير أبلغ من الإخبار؛ لأنّ الخبر قد يكون محلّ تشكيك عندهم، أمّا الاستفهام فإلجاء إلى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 43.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11395.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336.

واقع لا يمكن إنكاره، ولا يستطيع أحد منهم أن يفرّ منه، ولا يملك إلّا أن يعترف به[1]، فالتّقرير أقرب إلى التّذكير، وأبعد عن التّنفير[2].

بلاغةُ الحذف في الآية:

بيانُ مدى إبراز الاستفهام، للإنكار والتّوبيخ

في عبارة ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ حذف، تقديره: (هل تَرضون لأنفسكم هذا الحال؟ أن يكون لكم ممّا ملكت أيمانكم شركاء في أرزاقكم، فأنتم في هذه الحال سواء في التّصرّف)[3]، وتكمن بلاغة هذا الحذف في مواجهة هؤلاء المشركين بما يخافونه، والإنكار عليهم رضاهم لربّهم باتخاذ الآلهة ما لا يرضونه لأنفسهم، ففي ذلك معنى الإسكات والتّوبيخ.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لَّكُم﴾:

غرابةُ اختصاص الرّزق الخاصّ بالشّراكة

قُيّد الشّركاء باللّام في قوله: ﴿هَل لَّكُم﴾، وهي تدلّ هنا على الاختصاص؛ أي هل شركاء كائنون لكم، ممّا ملكت أيمانكم فيما رزقناكم[4]، وهي إشارة إلى خصوصيّة الرّزق واستغراب أن يكون العبيد - وهم بعض المال - شركاء في بقيّة المال! حتّى يساويه في التّصرّف في ذلك؛ إذ يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرّف فيه، كما يخاف غيره من الشّركاء والأحرار[5].

إضافةُ القيد ﴿لَّكُم﴾ إلى المخاطبين:

غرابةُ رفض الشّركاء في خالص الملك، وقبول ذلك لله تعالى

ورد أسلوب الاستفهام الحامل معنى الإنكار، عن كون المختصّ بالشّراكة هم المخاطبون، أي: من اتّخذوا إلها مع الله، وعبدوا مع الله بعض عبيده[6]، فكيف يكون حالكم مع أموالكم ورزقكم - الّذي يختصّ بكم - وأنتم مع غيركم شركاء فيه؟ فهذا أمر لا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11399.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(5) ابن قيم الجوزيّة، التّفسير القيّم، ص: 431.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.

يقبلونه، مع أنّهم يقبلون بأن يكون مع المالك الأوحد شركاء في ملكه سبحانه!.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾:

اكتمالُ المَثَل ببيان أثر شراكة المملوك في ملك سيده

عبّرت الآية عن الشّركاء بحرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، الدّالّة على التّبعيض[1]؛ أي نوع من الشّركاء الّذي في رزقكم هم عبيدكم[2]، وفي ذكر حرف ﴿مِّن﴾ مزيد تفصيل، وتصوير للمثل، فليس الحديث عن الشّركاء عمومًا في الرّزق، بقدر ما هو شراكة المملوك لسيّده في رزقه، بما يزيد الغرابة، ويدعو للرّفض ويورث الإسكات والاعتراف.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿مَّا﴾ في السّياق:

إطلاقُ تصوّر الشّريك، في أيّ مملوك، لتقريب المعنى

في قوله تعالى: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، عبّرت الآية بالموصول ﴿مَّا﴾، الدّالّة على العموم[3]، لتصْدُقَ على أي مملوك من المماليك[4]؛ عبيدًا أو إماءً، الموافق منهم القريب، أو البعيد العنيد، فكلّ من انطبق عليه وصف ملك اليمين، صحّ تصوّر المثل به، ولا أحد يرضى بأن يكون ملك يمينه، شريكا له في رزقه؛ مهما كان المملوك.

دلالةُ التّعبير بمِلك اليمين في الجملة:

بيانُ التّأكيد بأنّ المملوك وماله لسيّده

عبّرت الآية بلفظ الملك في جملة ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، ويدلّ الملك على التحكّم والتّصرّف[5]، وفي ذلك إشارة إلى تمام التّمايز بين المملوك والمالك؛ فالمملوك وما ملكه هو لسيّده، ولا مجال لتحكّم المملوك في شيء دون سيّده، ومجال استنكار المثل: الاستفهام الإنكاريّ، عن كون المملوك، يصير شريكا لمن ملكه! وهذا أمر لايقبله

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 257.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 38.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 97.

عقل، ولا يستسيغه منطق، ولا يرتضيه عرف في القديم الغابر، ولا في العصر الحاضر.

دلالةُ التّعبير بالجمع ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾:

تحكّمُ سوى المالك في ملك المالك، من أسباب الخلل والمهالك

جاء التّعبير بلفظ (الأيمان) مجموعة في قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، ويدلّ اليمين على اليد، واليد دليل التّحكّم والتّصرّف، يقال أمْرُك بيمين فلان، أي: في قبضته وتحكّمه، وفي ذلك إشارة إلى تعارض الشّراكة مع المملوك في مال السيّد المالك، وقد جاءت لفظة الأيمان مجموعة، وفي ذلك دلالة لطيفة، على تصوير الآية مغبّة وجود شركاء من المملوكين، يتصرّفون في أموال أسيادهم، وما ينجرُّ عن ذلك التّداخل في التّصرّف والتّسيير، من جهتين منفكّتين، من فوضى عارمة، ومصادمات دائمة، واختلال في الحركة، وتناقض في التّنفيذ، حين تأتي الأوامر والنّواهي بالأمر والتّرك، في نفس الأوان، وهو شبيه بقوله تعالى عن السّماوات والأرض، إذا كان فيهما آلهة غير الله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 21 - 22].

بلاغةُ الكناية في ملك الأيمان في السّياق:

بيانُ أنّ كمال التّصرّف، مفضٍ لتمام الخضوع وإحكام التّسيير

التّعبير بقوله تعالى ﴿مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، يحمل دلالتين؛ الدّلالة المباشرة، وهي ما تملكه اليد، والدّلالة الكنائيّة وهي التّحكّم التّام، وكمال التّصرّف في الرّزق وحركة الحياة، كاليد حين تمسك بالسّلاح[1]، وتكمن بلاغة ذلك في أنّ المملوك تامّ الخضوع لمالكه؛ لا يملك من أمره الخاصّ شيئًا، فهو في قبضة مالكه، وتحت تصرّف مولاه، ولا غرو أن يفضي المعنى إلى أنّ خضوع العبوديّة امتلاك للنّاصية، وتقييد للحريّة، يصبح به المملوك مستطيعًا بالغير،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 6.

لا مستطيعًا بنفسه، وهو ما يتنافى مع إمكانيّة التملّك، أصالة أو بالشّراكة، وهو ما ينطبق على حالة الآلهة المتّخذة من دون اللّه تعالى، انطلاقًا من كونها مملوكة، وكون اللّه مالكًا، وأنّ مشاركتها في الألوهيّة محال.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾:

تأكّدُ الاعتراف بالخطأ، بتأكّد النّفي وعمومه

تقدّمت ﴿مِّن﴾ لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾، وحرف ﴿مِّن﴾ هنا مزيدة؛ جيء بها لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النّفي[1]، إذ لا تُزاد ﴿مِّن﴾ في الإثبات[2]، فعمّ بذلك النّفي للشّراكة؛ أي: في أيّ حالة من الحالات، لايسوغ لكم أن تجعلوا للّه شركاء فيما رزقناكم[3]، فتأكّد النّفي وعمّ لكلّ الحالات، إذ لا يرضون بهذه الشّراكة أصلًا، وهو ما يزيدهم اعترافًا بخطأ الشّرك باللّه، واتّخاذ آلهة من دونه.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ جمعًا:

اقترانُ التّصرّف في المشترك من الممتلك، وضعف تأثير المالك في ملكه

آثرت الآية التّعبير بلفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾، ومعنى الشّراكة هو تعدّد الإمساك بالشّيء الواحد، تملّكًا[4] أو تصرّفًا، والرّبط بين أشياء منفصلة برباط[5]، فدلّ لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ على تسوية في المشترَك بين الشّركاء؛ مع أنّ الملك الخاصّ، لا شِرْكة فيه، وقد جاء لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ جمعًا، ليزيد التّصوير جلّاء، ذلك أنّ تعدّد الشّركاء يضعف حظّ الواحد، حيث يصير المالك الأوحد ضعيفًا في تصرّفه، فيما يملكه، وهذا المثل التّصويريّ، إنّما جيء به، لبيان اختلال عقيدتهم في قبولهم الشّراكة للّه مع المعبودين، وعدم قبولها لأنفسهم مع العبيد المملوكين.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (شرك).

معنى ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

تحديدُ محلّ الشّراكة تفصيلًا غير محبوب في بلاغة المثل المضروب

التّعبير بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ يدلّ على الظّرفيّة؛ أي أنّ الشّراكة محدّدة في الأرزاق[1]، فليست في غيرها، وفي تحديدها بالرّزق توضيح للمثل؛ فالشّركاء من العبيد، والمشترك هو الأرزاق، فهل يرضى هؤلاء المشركون بهذا؟.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿مَّا﴾ في السّياق:

عدمُ الرّضى بالشّراكة في الرّزق مُفضٍ إلى عدم الرّضا بالشّرك

جاء التّعميم بالموصول ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾، وفي قوله: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ ليطال كلّ ما رزق اللّه به المخاطبين، بمعنى كونهم شركاء في أيّ شيء ممّا رزقناهم، وفي التّعميم تصوير للمثل، وفسح للمجال، لتصوّر أنّ المشاركة غير المؤسّسة شرعًا ولا عقلًا ليست مقبولة في أيّ لون من ألوان الرّزق، قلّ أو كثر، من النّفيس والمحتقر، وخاصّة لو كان الشّريك عبدًا من عبيده، فإنّ طبع البشر يرفض ذلك ويأباه، فكيف يرضى ذلك للّٰه، جلّ في علاه.

دلالةُ التّعبير بالرّزق، بصيغة الماضي:

لا شراكة فيما تتمحّض فيه الملكيّة للواحد لا للآحاد

آثر سياق الآية التّعبير بلفظ ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ لعلّة في مادّته وفي صيغته، فأمّا عن مادّة ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، فالرّزق هو ما ينتفع المرء به انتفاعًا مباشرًا من الطّعام[2]، وفيه إشارة إلى ما يكون به قوام الإنسان، وما به قوام حياته واستمرارها، وحيث أنّه لصيق بالإنسان، فإنّ أي شراكة فيه، سوف تؤثر تأثيرًا بليغًا فيه، وهو ما يعلّل عدم الرّضى بالشّراكة فيما هو قوام الحياة، وأمّا عن صيغته، فقد جاء لفظ ﴿رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ بصيغة الفعل الماضي الدّالّ على حدوث هذا الرّزق، وأنّ ملكه له حادث، وذلك باعث على عدم الرّضى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (رزق).

بالشّراكة من ندٍّ له حرّ شريف، بلْهَ أن يكون الشّريك من النّوع المحتقر الضّعيف.

لطيفةُ إسناد ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾، إلى ضمير العظمة:

امتنانُ الله تعالى مشيرٌ إلى إنعامه بسبب الحياة

أُسند الرّزق إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾، للتذكير بأنّ ما تملكون إنّما هو من الله ﷻ، الّذي هو المالك الأوّل، والحقيق بالشّكر على عوارف امتنانه، وفيه امتنان بالرّزق[1]، كما هو باعث على الحياء من موقفهم ممّا رزقهم، ما فيه قوام حياتهم[2]، فصاروا أشحّة عليه، يخافون أن يشاركهم فيه غيرهم، لكنّهم تجرّؤوا على الله تعالى، وأشركوا معه آلهة، واتّخذوا معه أربابًا، فكان التّذكير لهم بمصدر الرّزق هنا مفيدًا.

نكتةُ إسناد فعل الرّزق إلى ضمير الجماعة:

بيانُ أنّ الإشراك، لم يمنع تدفّق الرّزق على العباد

جاء مفعول الفعل ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ضمير جماعة، ليشمل الجميع برزق الله ﷻ، فما بيد السّادة هو من عند الله، وما كان من عبيد هم ملكٌ للسّادة، فهو برزق الله، وفي ذلك مزيد إظهار لتمام ملك الله ولزوم أن يوحّدوه، بدل أن يشركوا به أحدًا من خلقه.

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾:

مزيدُ تصوير بالتّصريح بعد التّلميح

ابتُدئت جملة ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ بحرف الفاء، وهي فاء التّفريع[3]؛ لأن الشِّرْكة لمّا كانت سببًا لتساوي الشّركاء في الأمر المشترك، فرّع عليه قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾[4]، وهو تصريح بعد تلميح، وتدرّج في بيان المثل للوصول إلى الموقف الأنسب في الأخير.

نكتةُ تقديم الضّمير (أَنْتُمْ):

تساوي الشّركاء في التّصرّف، مع عدم التّكافؤ، محلّ استغراب

جاء التّعبير عن المبتدأ ضميرًا، في قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، لتأكيد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 79.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 97.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.

معنى التّسوية بين الشّركاء، إبعادًا لأيّ مفاضلة بين السيّد وعبده في رزق السّادة، وهو ما لا يرضاه المشركون، ولذلك فهم يقولون لهم: فأَنْتُمْ أيّها المالكون، وما ملكت أيمانكم في التّصرّف والاحتياج إلى الأموال سَواءٌ؛ إذ أيّ شيء تحتاجون إليه أنتم، هم أيضًا محتاجون إليه بلا تفاوت، لكن أنتم تخافونهُم وتحذرون منهم، أن يتصرّفوا في أموالكم وأكسابكم، بلا اذن منكم، كخوفكم من سائر الأحرار من بنى نوعكم(1).

معنى (في) في القيد ﴿فِيهِ﴾:

أهـمـيّـةُ مزيد الـتّـفـصـيـل، فــي مضمون التّمثيل

جيء بحرف الجرّ (في)؛ للدّلالة على الظّرفيّة؛ أي: أنّ الشّركاء في الرّزق سواء، وفي ذكر الظّرفيّة مزيدُ تنصيص على محلّ الشّراكة والتّسوية، وهو التّصرّف في الأرزاق، ليصل المثل إلى أعلى درجات الوضوح والمواجهة.

نكتةُ تقديم القيد ﴿فِيهِ﴾ على الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾:

أهميّةُ تخصيص الــشّـــراكـــة في الــــرّزق دون غيرها

قُدّم القيد ﴿فِيهِ﴾ على الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾، في قوله: ﴿فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، لتخصيص التّساوي بالشّراكة في الرّزق دون أيٍّ من الشّراكات الأخرى، والاستواء في الشّراكة هنا، أن يكونوا مستوين في التّصرّف فيه على عادة الشّركاء(2)، كالشّراكة في النّسب أو الحسب، أو أصل الخلقة، فدفع كلّ توهّم في محلّ الشّراكة أي التّصرّف في الرّزق، والحقّ سبحانه تكفَّل لك برزقك، إنّما جعل للرّزق أسبابًا، وكلّ ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب، ثمّ لا تشغل بالك همًّا في موضوعه، وإيّاك أن تظنّ أن السَّعْي هو مصدر الرّزق، فالسّعي سبب، والرّزق من اللّه، وما عليك إلّا أنْ تتحرّى الأسباب، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك؛ لأنّك لا تعرف عنوانه، أمّا هو فيعرف عنوانك، وسوف يَأتيك يطرق عليك الباب(3).

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 120.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 244.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 1400.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ وتنكيره:

لا فروقَ البتّة بين الشّركاء في مطلق التّصرّف في الرّزق

عبّرت الآية عن التّسوية بلفظ ﴿سَوَآءٌ﴾، وتدلّ في ضرب المثال على التّساوي بين الشّركاء في التّصرّف في الرّزق، فلا يعلو بعضهم على بعض[1]، وهي إشارة إزالة الفارق الّذي بين السيّد وعبده، بل إزالة مُسمّى الملك نفسه، حيث يتساوى فيه من يملك ومن لا يملك، وزاد تنكير لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ في إطلاق التّسويّة بين الشّركاء، فلا تُقصد تسويّة دون تسويّة، إمعانا في إزالة كلّ فارق بين الشّركاء، فصار لفظ ﴿سَوَآءٌ﴾ يدلّ على إزالة أي فارق ومزيّة، "والمراد إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بدّ أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم؟ وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟"[2].

علّةُ فصل جملة ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾ عمّا قبلها:

تبيينُ حال التّساوي بين الشّركاء

فُصلت جملة ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾ عمّا قبلها، لأنّها جملة حال[3] موصولة بما سبق؛ تبيّن المساواة الّتي صارت بين هؤلاء الشّركاء، فلمّا ذكرت الآية تساوي الشّركاء في التّصرّف في المال، ذكرت حالهم وهم متساوون في التّصرّف: أي فأنتم فيه مستوون خائفين عبيدكم خيفة مثل خيفة الأحرار الّذين هم أمثالكم[4]، فهي بيان لحال المساواة دون استبداد بشيء[5]، كأنّ الخيفة أثر للتّساوي في التّصرّف وحال له.

دلالةُ التّعبير بالخوف في سياق الآية:

الخوفُ توجّسٌ نفسيّ وعدم اطمئنان

عبّرت الآية بالخوف، في قوله: ﴿تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، والخوف انفعال نفسيّ، ناشئ عن توقّع مكروه، والمتوقَّع هنا هو ضياع حقوقهم في أرزاقهم، فصار الخوف توقّيًا من التّفريط

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (سوي).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/ 244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.
(4) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 6/ 542.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.

في تلك الحظوظ[1]، فكيف سيكون حال هؤلاء السّادة مع عبيدهم، في حفظ قوام حياتهم، أن يصاب بمكروه؟ وفي ذلك إشارة إلى الاضطراب في التّعامل مع الأرزاق، لعدم الاستقلال في التّصرّف فيها، ولا الاطمئنان عليها، من تصرّفات قد تُؤَدي بها جميعًا، وهو ما لا يرضاه هؤلاء المشركون.

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾:

الخوفُ حال تتسلّط على النّفس، واستمرارها مرهق

صيغ فعل الخوف مضارعًا، في قوله: ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾، للدلالة على تجدّد الخوف واستمراره، كلمّا وقع تصرّف في الرّزق، ولا تخلو الأملاك من تصرّفات عديدة، فيتجدّد معها التّوقّي والخوف، وهو ما لا يستسيغه أحد وهو يتصرّف في ملكه، وفي ذكر استمرار الخوف، مزيدُ تصوير للاضطراب الّذي سيحصل للأسياد، فيما تعلّق بأرزاقهم، بما لا يصبر عليه أحد.

لطيفةُ إسناد الخوف إلى ضمير الجمع:

خوفُ السّيّد من المسود، انقلاب موازين، وتحوّل وضع مشين

وقع فاعل الخوف على ضمير الشّركاء جمعًا في قوله: ﴿تَخَافُونَهُمۡ﴾، وفي ذلك معنى لطيف؛ إذ فيه تصوير لزمرة السّادة مجتمعة، يخافون زمرة العبيد، ممّن يملكون على ما يملكون[2]، كأنّه تأرجح في موازين السّيادة وانقلاب في الوضع يؤذن بالخراب وجعل السّافل عاليًا، وفي ذلك مزيد تقبيح لحالهم: كيف يرفضون ذلك بتاتا، ولا يرفضونه لسيّد الوجود، وربّ كلّ موجود.

دلالةُ التّعبير بالمركّب الإضافيّ ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾:

خيفةُ السّادة بعضهم من بعض، أمرٌ موجود في كلّ زمان

عبّرت الآية بالأنفس مضافة إلى ضمير الجمع المخاطب، في قوله: ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾، وتدلّ الأنفس هنا على النّوع[3]، أي: أنفس الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.

(3) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 119.

لهم شركاء من عبيدهم من المخاطبين[1]، فالمقصود بالأنفس هنا الأحرار السّادة؛ أي: خيفتكم مَن هو مِن نوعكم[2]، أي خيفتكم مِن بعضكم، وهو إشارة إلى ما بين المتشاركين في المال الواحد، مِن توقٍّ وملاحظة، من كلّ صاحب سهم لسهمه، في المال المشترك، وفي ذلك خيفة ومشقّة وتوجّس.

دلالةُ الإضافة في ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾:

بيانُ مشقّة الشّراكة، وتوقّي المتشاركين، بعضهم من بعض

أضيفت الخيفة إلى ضمير الجمع المخاطب في قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾، للدلالة على تحقّق هذه الخيفة فيهم؛ ممّا يتعاملون به من المال المشترك، والمعنى في العبارة، تخافون من عبيدكم في أموالكم، أن يرثوكم بعد وفاتكم كما يرث بعضكم بعضًا، وقيل: المعنى تخافونهم كما يخاف الشّريك شريكه[3]، ووجود متشاركين في مال واحد، مظنّة أن يجور بعضهم على بعض، وربّما أساء ببعض الظّن، فاتّهم أحدهم شريكه، لأنّ العادة أنّ كلّ شريك يراقب الآخر، ويهاب أن يتصرّف في المال المشترك دون إذن منه، في إشارة إلى مشقّة الشّراكة وخطورتها، وقد قال النّبيّ ﷺ: «قالَ اللّهُ ﷻ: أنا ثالثُ الشَّريكينِ، ما لم يَخُنْ أحدُهما صاحِبَه، فإذا خانا، خَرجتُ مِن بينِهما»[4]، ولا أسلم للمرء من استقلاله بماله، يتصرّف فيه كيف يشاء.

بلاغةُ التشبيه في قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾:

تشبيهُ غريبٍ بمعروف، مفضٍ للإبانة عن المعنى المألوف

شبّهت خيفة تصرّف العبيد في ملك سيدهم، بخيفة المتشاركين بعضهم من بعض، في المال المشترك، وتكمن بلاغة هذا التّشبيه في تقريب شيءٍ غريبٍ، بشيء معروف مألوف؛ مع وجود عُسرٍ فيه؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 82.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 82.

(4) الحديث أخرجه أبو داود، الحديث رقم: (3383)، والحاكم، المستدرك: 2/ 52، وصحّحه، ووافقه الذّهبيّ، وأعلّه الدّارقطني في (علله): (2084) بالإرسال، ورواه الدّارقطنيّ، برقم: (2933)، ينظر: الدارقطنيّ، السنن: 3/ 442.

فيستحضر المخاطبون تلك المشقّة في التّوقّي، ثمّ تزداد بلاغة التّشبيه درجة؛ فالتّوقّي الحاصل مع المتشاركين، أمر مقبول على الرغم من عسره؛ لأنّ كلّ واحد من الشّركاء أسهم بنصيب من ملكه الخاصّ، وهو يلاحظ نصيبه بملاحظة المال المشترك، ولكنّ التّوقّي من تصرّف العبيد، أمر مرفوض، كيف والمال مال السّيد خالصًا، وليس لهم فيه حقّ ولا نصيب، بل إنّ العبد من ملك السّيد أيضًا، فيتصرّفون فيه، كأنّهم أرباب الملك، وعليه فالتّشبيه هنا تقريب غريب بمألوف، فهو ترقّ من درجة عُسرٍ إلى أسوأ منها، وهو حال مرفوض[1].

براعةُ التّمثيل على بطلان الشّرك:

الغرابةُ أن يرضوا لأنفسهم، ما لا يرضونه لربّ العالمين

جاء هذا المثل في أعلى درجات البيان؛ فهو تشبيه هيئة مركّبة، بهيئة مركّبة أخرى: فالمشركون اعتقدوا أنّ للّه شركاء - ممّا خلق - يتصرّفون في ملكه، يجلبون النّفع لعباده ويدفعون عنهم السّوء، فشُبّه ذلك بسادة لهم عبيد شركاء في أرزاق سادتهم، يحذر السّادة من تصرّفاتهم، وفي التّمثيل تشبيه هيئة حاصلة مشينة، ألفها النّاس - وهي الإشراك باللّه أصنامًا -، بهيئة منفّرة مشوّهة منكرة، حتّى يقارن النّاس بين هذه وتلك، فيقفوا على سوء تصرّفهم وقبح إنزال اللّه منزلة أدنى من منزلتهم، فهل يرضى هؤلاء السّادة بشراكة عبيدهم في ملكهم، ثمّ يقبلون أن يتغاضى اللّه عن تصرّف آلهتهم في ملكه وهم ملك له؟[2].

بلاغةُ الجناس في ذكر (مِن):

جناسٌ يختصر المَثل، ويفصح عن المراد في السّياق

تكرّر الحرف (من) في الآية ثلاث مرّات، في قوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾، وفي قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ﴾، وفي قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾، فقد قال أبو السّعود: "فمِن الأولى ابتدائيّةٌ، والثّانية تبعيضيّةٌ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 80.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 86.

والثّالثةُ مزيدةٌ، لتأكيدِ النّفيُ المستفادِ من الاستفهام"[1]، ومع اختلاف موقع كلّ واحد منه ودلالته، فقد رسمت في الآية جناسًا تامًّا قال ابن عاشور: "فالجمع بين هذه الحروف في كلام واحد، من قبيل الجناس التّام[2]؛ وتكمن بلاغة الجناس هنا في تصوير المثل كاملًا بين من الإبتدائيّة من الأنفس، ومن الجزئيّة من الملك، ومن التّأكيديّة للنّفي، فصار المثل دائرًا بين هذه الأحرف الثّلاثة، مبلورة في مدخول كلّ منها، من الأنفس والملكيّة، والشّركاء.

دلالةُ التّعبير بإشارة البعيد في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

بيانُ أنّ البعد معبّر به عن الدّرجة الرّفيعة

عبّرت الآية عن البيان المفصّل باسم الإشارة للبعيد (ذلك) لكونه يرجع إلى البيان العالي الّذي في المثل، وذلك لما في هذا المَثَل من التّفصيل البليغ، والإقناع العالي، والأسلوب الرّفيع؛ فقد احتوى هذا المثل على ملامح المَثَل، ودقّة التّقابل، واللّمسات النّفسيّة الدّافعة إلى رفض الإشراك باللّه سبحانه، فكأنّ علوّ مستوى هذا البيان، صار كالبعيد، فأوثر اسم الإشارة الدّال على البعيد، بغرض التّعظيم، لتفصيل نصّ الآيات الكريم، فلمّا كان هذا المَثَل في ذروة الكمال؛ في تقريب المعنى وتصوير المشهد ودفع الكفّار إلى الاعتراف بقبح الإشراك باللّه، لِما لمسوه من بيان في المثل، قال: (كذلك التّفصيل نفصلّ الآيات)[3].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿نُفَصِّلُ﴾ مضارعًا:

معالمُ التّفصيل، توضيح وتقريب وتمييز

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ التّفصيل في قوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ لأنّ الفصل هو الميز[4]، فتتميّز الأمور وتبيّن المتشابهات، وتتّضح المعاني والمغازي، ففي التّفصيل كشف للمعاني وتوضيح لها[5]، وفي المثل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.

محاكاة وتوضيح[1]، و"تصوير للمعاني المعقولة، بصورة المحسوس، فتصير أوضح"[2]، وتقريب الغريب المجهول، في هيئة المعروف المعقول، وإيراد ما يحسّ، على صورة ما يؤنس، قال أبو السّعود: "تصويرٌ للمعاني المعقولة، بصورةِ المحسوسِ، وإبرازٌ لأوابدِ المُدركاتِ على هيئة المأنوسِ"[3]، فقد صارت صورة الإشراك باللّه، مشوّهة منفِّرة عند المشركين أنفسهم؛ لـمّا تمّ مقارنتها بالشّركاء العبيد في خالص ملكه، وخاصّ محيزه[4]، وصيغ الفعل ﴿نُفَصِّلُ﴾ مضارعًا؛ للدّلالة على التّجديد والاستمرار[5] في الحال، والمثال.

نكتةُ إسناد الفعل ﴿نُفَصِّلُ﴾ إلى ضمير العظمة:

تفصيلُ الآياتِ كمالُ حكمة، ولطيفُ رحمة من بديع الأرض والسّماوات

أُسند الفعل ﴿نُفَصِّلُ﴾ إلى نون العظمة، ونكتة ذلك، إظهار كمال العلم والحكمة في اللّه سبحانه، من خلال هذه الأمثال، وهذا التّفصيل، يعني تبيينها وتوضيحها، لا تفصيلًا أدنى منه، فإنَّ التَّمثيل تصويرٌ للمعاني المعقولة، بصورةِ المحسوسِ، وإبرازٌ لأوابدِ المُدركاتِ، على هيئة المأنوسِ، فيكون في غايةِ الإيضاحِ والبيان"[6]، كما يظهر فيها تمام الرّحمة والرّأفة، أن أسهب سبحانه في إبطال شبهات المشركين، وهو الغنيّ العزيز، لكنّ رحمته أوسع لعباده؛ حتّى يقفوا هم أنفسهم، على بطلان الإشراك باللّه، وتمام الهداية بعبادته وحده، دون سواه.

دلالةُ التّعبير بالآيات دون العلامات والدّلائل:

أهـمـيّـةُ دلالـة الـعـلامـة، وأثـر وضوح الدّلالة

جاء التّعبير بالآيات، في قوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ دون العلامات أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98.
(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 119.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 388 (بتصرّف).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(6) أبو السعود إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

الدّلائل؛ لما في الآيات من الأدلة الجليّة[1]؛ فالآية علامة، تحمل دلالة واضحة، ومع وضوحها وجلائها يزيدها البيان القرآنيّ تفصيلًا وبيانًا، لتزداد دلالة على الحقّ وهدايته ورحمته، ومفاد قوله: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، "أي دلائل توحيدنا، وبراهين وحدتنا وتفرّدنا لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ويستعملون عقولهم، في تأمّل الآيات، والتّدبّر فيها على وجه العبرة والاستبصار، فاعتبروا يا أولي الأبصار"[2].

دلالةُ جمع ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ في السّياق:

سَوقُ الآيات به يتضافر المعنى ويتكامل، ويستبين المقصود ويتجلّى

جاءت لفظة ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ جمعًا، وفي جمعها تعدّد وتنوّع، فكلّ آية تدلّ على دلالة، فإذا تعدّدت الآيات وتنوّعت، تعدّدت معها زوايا الاستدلال، فيقوى بها التّعليل، وتتضافر بها الدّلالة، وتتكامل بها الرّؤية، حتّى تورث يقينًا راسيًا، وتزيح كلّ شبهة، وتمحو كلّ ريبة.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِقَوْمٍ﴾:

فصّلت الآيات، لأجل إعمال العقول النّيّرات

جُرّ لفظ القوم باللّام، في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾، وهي لام التّعليل؛ أي لأجل القوم العقلاء، نفصلّ الآيات، فالمقصد من التّفصيل هو إعمال العقل، وما تكرّر الاستدلال وتنوّع، إلّا للفت الأنظار، ولإيقاظ القلوب لتذّكر، والعقول لتفقه، والقصد أنّ القوم المذكورين هم الّذين يستعملون عقولهم، فى تدبّر الأمور والأمثال[3]، والتّمييز بين الحقّ والضّلال، فيكون وصفهم بالقوم تمييزًا وتنصيصًا، ووصفهم بالعقل تكريمًا وتخصيصًا.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿لِقَوْمٍ﴾ منكّرة:

السّياقُ تحفيز لذوي العقول للنّظر في المثل المنقول

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿لِقَوْمٍ﴾ دون ملأ، لما في لفظ القوم، من رسوخ الوصف بالتعقّل؛ أي إنّ إعمال العقل عادةٌ وطبع فيهم؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 81.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 120.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 29.

عُرِفوا بذلك وبه تميّزوا[1]، وجاء لفظ ﴿لِقَوۡمٖ﴾ نكرة، ليعمّ كلّ من يصحّ أن يوصف بذلك، فيدخل في هذا الخطاب كل ذي عقل من المخاطبين ومن بعدهم إلى يوم الدّين، وفي ذلك تحفيز للمخاطبين بأن ينظروا في المثل وبيانه، إن كانوا من ذوي الحجى.

علاقةُ مضمون الآية بقوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

العقلُ مفضٍ إلى قابليّة للانتفاع، ومنع للهوى والضّياع

خُصّ القوم العقلاء، بتفصيل الآيات، مع عموم التّفصيل لكلّ المخاطبين، لأنّ من يُعمل عقله، فإنّه سيكون أوّلَ مستفيد من توضيح الآيات[2]، ولأنّ أصل إطلاق العقل، هو المنع من الهوى، فمن يُعمل عقله، فإنّه لا محالة سيقوّم عاداته وأعراف النّاس، ويجعل نداء العقل مقدَّمًا، على الهوى والإلف[3]، فيكون منهُ ترك الشّرك والاهتداء بنور التّوحيد.

دلالةُ المضارعة في ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

تجدّدُ إعمال العقل، يورث الهداية

عبّرت الآية عن تعقّل الأمثال، في قوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ بالفعل المضارع؛ لدلالة ذلك على تجدّد التّعقّل[4] وإدمان استعمال العقل في تدبّر المثال، فمن درّب عقله على التّفكير، والنّظر البصير، والاعتبار الجدير، اهتدى إلى طريق الهدى، ومنع نفسه من موجبات الرّدى، وكان أوّل المنتفعين بهذه الأمثال على المدى.

بلاغةُ التّعريض في جملة الفاصلة:

المشركون لا تمييزَ لهم يردع، ولا عقول لهم تمنع

خُتمتِ الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وفي ذلك تعريض بالكفّار؛ فالتّمثيل الّذي يكشف المعاني بالتّصوير والتّقابلات لا يدع لبسًا، فمن خفيت عليه هذه المعاني، لم يكن له عقل ولا تمييز[5]، فأهل العقول يتنزّهون عن المكابرة والإعراض،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11402.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.

ويُقبلون على الحقّ والحقائق، لنضج عقولهم، فمن تصلّب في شركه، وأوغل في كفره، فليس من أهل العقول، ولا ممن ينتفعون بها[1]، وفي الآية إشارة إلى أنّ من لم يعملوا بمقتضى توجيه اللّه تعالى، وفق ما مثّلت الآية، كانوا مجانين، لأنّ" التّمثيل يكشف المعاني بالتّصوير والتّشكيل، كشفًا لا يدع لبسًا، فمن خفي عليه لم يكن له تمييز"[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّريك والمُقاسِم:

الــشّــريــك مساهم ممازِج، والقسيم مقابِل مجزّئ

إذا كان الشّريك والقسيم، يجتمعان في معنى صاحب نصيبٍ في الشّيء الواحد؛ فإنّ بينهما فروقًا، فالشّريك هو الملازم لآخر في شيء، يكون لاثنين فصاعدًا[3]، أمّا القسيم فمن القسم، وهو فرز النّصيب وتفريقه، يقال: قسّمت الشّيء بين الشّركاء أي جزّأته[4]، والقسيم هو ذو النّصيب[5]، فالملاحظ في الشّريك المساهمة في المجموع والممازجة[6]، وفي القسيم تقسيم المجموع، ومعنى التّقابل بين الأقسام، ومن هنا يتبين سبب اختيار لفظ ﴿شُرَكَآءَ﴾ في الآية من حيث إنّ الشّراكة هي تعدّد الإمساك بالشّيء الواحد، تملّكًا أو تصرّفًا وهو يناسب سؤال الآية بطريقة الاستنكار عن قبول أن يكون العبيد شركاء لسادتهم في الرزق.

التّفصيل والتّبيين والتّوضيح:

الـتّـفـصـيـلُ لـلإجـمـال، والـتّـبـيـين لـلالـتـبـاس، والـتّـوضـيـح للغموض

يلتقي التّفصيل والتّبيين في التّوضيح، فالتّوضيح كشف عن الغموض، وإزالة للخفاء، ثمّ إنّ بين التّفصيل والتّبيين فروقًا؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 87.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (شرك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قسم).
(5) الرّاغب، المفردات: (قسم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (شرك).

فالتّفصيل من الفصل، وهو إبانة أحد الشّيئين من الآخر، حتّى إلى درجة الإبعاد والفرجة بينهما، ومنه قيل: المفاصل[1]، فالتّفصيل توضيح بعزل كلّ قسم وتمييزه[2]؛ بما يفرّق بينها فرقًا جليًّا[3]، فهو تجزئة للكلّ وتقسيم لمجمل الشّيء، ومنه الإجمال في المعاني، فتفصّل إلى أقسامه وأجزائه، والتّبيين توضيح بعد لبس؛ وإنّما البيان لما فيه لبس[4]، ومنه البيان للتّمييز والتّفريق، حتّى لا يبقى أي اشتباه بين المميّزين، فالتّفصيل خلاف الإجمال والتّبيين خلاف الإبهام، والتّوضيح خلاف الغموض[5]، وناسب سياق الآية اصطفاء لفظ ﴿نُفَصِّلُ﴾ بوصف الآيات التي تُضربُ مثلا إنّما هي كشف عن غموض، أو رفعٌ لإلباس، أو إزالةٌ لمخفيٍّ، أو تفريق بجلاء.

(1) الرّاغب، المفردات: (فصل).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (فصل).

(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 134.

(4) الرّاغب، المفردات: (بين)، والعسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 371.

(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 68.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الرّوم: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين اتّخاذ آلهة غير الله، واتّباع الهوى والضّلالة، بُعْدا عن الله ذي الجلالة

بعد أن ضرب الله مثلًا للكفّار، الّذين يشركون مع الله آلهة في ملكه، وهم لا يرضون أن يشركهم عبيدهم في ملكهم، وفصّل الآيات رجاء أن يعقلوا فيهتدوا، أضرب عن ذلك، وذهب يذكر حالهم، وأنّهم ليسوا ممّن يعقل شيئًا من تلك الآيات المفصّلة، لأنّهم يتّبعون الهوى سفهًا وجهلًا، دون دليل يعتمد، ولا برهان يستند[1]، وليس لهم من ناصر يشفع، ولا منافح يدفع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبَعَ﴾: أصلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ[2]، وأتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[3]، وتبع الشّيء تبوعًا: سار في إثره[4]، وتَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعته إذا مشيت خَلفَه لتلحقه[5]، قال أبو عبيد: أتّبعت القوم: إذا كانوا سبقوك فلحقتهم واتّبعتهم إذا مرّوا بك فمضيت معهم، وتبعتهم تبعًا مثله، يقال ما زلت أتبعهم حتّى اتّبعتهم[6]، ومنه اتّباع الرّسول ﷺ في سنّته، يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: 158]، والمراد بالاتّباع في الآية: المضيّ معه واقتفاء أثَره.

2) ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾: (هوي) أصلٌ يدُلُّ على خُلوٍّ وسُقوطٍ، يُقالُ:

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 44 (بتصرّف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (تبع).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(6) ابن سيده المرسيّ، المخصّص: (الاتباع).

هَوى الشَّيءُ، أي: سَقَطَ، ومنه سُمّيَ هَوى النَّفسِ بِذلك لأنّه يَهوي بصاحبه في المهالِكِ[1]، قال ابن عبّاس: ما ذكر اللّه الهوى في القرآن إلّا ذمّه، قال تعالى ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ [الأعراف: 176]، وقال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: 28]، وقال ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: 26][2]، وهَويت الشّيءَ أهواهُ هوىً: إذا أحببته وغلب على قلبي[3]، والهوى: محبَّةُ الإنسانِ للشَّيءِ، ويأتي بِمعنى الإرادةِ والمَيْلِ للشَّيءِ، سواءً كان حقًّا أو باطلًا، فيُقالُ: سارَ على هواهُ: إذا فعَلَ ما أرادَ[4]، والجَمْعُ: أَهْواء[5]، والمقصود بالأهواء في الآية: ما تمليه النّفوس دون حقّ ولا حكمة.

3) ﴿أَضَلَّ﴾: (ضلّ) أصلٌ يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ، في غَيْرِ حَقِّهِ[6]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب[7]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريق، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق[8]، ورجلٌ مُضَلّل، أي: لا يوفَّق لخيرٍ[9]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، ومعنى ﴿مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾: مَنْ قَدَّرَ عليه الضَّلالَ، وطَبَعَ على قَلْبِهِ[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن الحقُّ تعالى بعد ضرب المثل وتفصيل الآيات، أنَّ هؤلاء المشركين لم ينتفعوا بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعِناد عليهم،

لا هادي لمن أضلّه الله، واتّبع هواه، ولا ناصر له من عذاب الله

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوى).
(2) ا المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 156.
(3) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 388.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (هوى).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هوى).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغّة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(9) الخليل، العين: (ضلَّ).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.

فقال: لم يَعقِلْ أولئك الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم، آياتِ القُرآنِ المُفصَّلةَ؛ فيتَّبِعوها، وإنَّما مضوا مع زيغهم، وما تمليه عليه نفوسهم؛ وترتضيه أهواؤهم، بغير علم ينفع، ولا عقل يردع، ومن أضلّه اللّه، فلا ناصر له يحميه، ولا ملجأ له يؤويه، إذ لا منقذ له من العذاب؛ لأنّ وعده واقع بلا ارتياب، وقد قيل: لن يوفَّق لاتِّباعِ الحَقِّ مَن قدَّرَ اللّهُ إضلالَه، وليس لِلَّذينَ أضَلَّهم اللّهُ، مِن ناصِرينَ، يُنقِذونَهم مِن عَذابِ اللّهِ المهين(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصل الجملة عمّا قبلها:

التّصريحُ بضلال الكفّار، والتسلية عمّا كان للكفر من آثار

فُصلتْ جملة ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ عمّا قبلها؛ وعلّة ذلك الإضراب عنه إلى بيان الحال، فقد تضمّنت الآية السّابقة مثلًا عاليًا في التّفصيل والبيان، واجه المشركين بما لا يرضونه، وأنّ إشراكهم باللّه باطل لا يصحّ، وعرّض بغياب عقولهم إن لم ينتفعوا بهذا المثل؛ فأضرب عن التّعريض إلى التّصريح بحالهم، وأنّهم مع كلّ هذا البيان أعرضوا واتّبعوا الهوى، وتركوا العلم والعقل والهدى(2)، وفي ذلك تسلية للنّبيّ عمّا كان منهم من شديد الإعراض(3)؛ " لأنّهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له ولا تكليف، عبدًا إلهًا لا أمر له ولا نهي، لا يرتّب على التّقصير عقوبة، ولا على العمل ثوابًا، وهذا كله من وحي الهوى الذي اتبعوه(4)، قال الشّاعر:

إذا حارَ أمْرُكَ في مَعْنَيَيْنِ ولَمْ *** تَدْرِ حَيْثُ الخَطا والصَّوابُ

فَخالِفْ هَواكَ فإنَّ الهَوَى *** يَقودُ النُّفوسَ إلَى ما يُعابُ(5)

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 492، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 313، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 640.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 81.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 39.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشعراويّ: 18/ 11408.

(5) البيتان من شعر الإمام الشافعيّ، ديوانه، ص: 1.

دلالةُ الأداة ﴿بَلِ﴾:

منتهى الضلال أنْ يعي المرءُ الآيات ويعميه الهوى

ابتدأت جملة ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، بحرف ﴿بَلِ﴾، وهي للإضراب؛ بذكر أمر يختلف عمّا سبق، وينادي بتجاوزه؛ وهو هنا إضراب عن التّعريض إلى التّصريح بأنّ الكفّار، وإن كانوا يعون تلك الآيات إلّا أنّ اتّباعهم للهوى أعماهم[1].

سرّ إيثار لفظ ﴿ٱتَّبَعَ﴾:

تمكّنُ الهوى وشدة الإعراض والعناد، سبب للضّلال والفساد

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿ٱتَّبَعَ﴾، لعلّة في مادّته وفي صيغته، فأمّا عن مادّة ﴿ٱتَّبَعَ﴾ فالاتّباع سير وراء شيء، خطوة خطوة، باقتفاء أثره، وفي ذلك إشارة إلى أنّهم تمكّن منهم الهوى، فصاروا يفعلون كلّ ما يشير به عليهم، دون تردّد أو تأخّر، وترك اتّباع الوحي، وما تدعو إليه الحكمة، وأمّا عن صيغته، فقد جاء بصيغة الماضي الدّال على الحدوث، مع ما في الفعل من التّكلّف بالألف والتّاء[2]، فبعد أن سمعوا المثل وتلقّوا ما فيه من التّفصيل والبيان البليغ، اتّبعوا أهواءهم، وفي ذلك دلالة أخرى على عنادهم، وتكليفهم أنفسَهم مخالفةَ الفطرة[3].

علّةُ التّعبير عن الظّالمين بالموصول:

بيانُ أنّهم ظالمون ابتداء وتسبّبا وأثرا

جاء التّعبير في الآية بالموصول، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، مع إمكان أن تكون العبارة: (بَلِ اتَّبَعَ الظّالمونَ)، وفي ذلك إظهار للوصف الحامل على اتّباع الهوى؛ فالّذي حملهم على اتّباع الهوى - بعد تبيّن الحقّ - هو العناد، والظّلم؛ فبظلمهم اتّبعوا الهوى[4]، وهو أيضًا تسجيل عليهم، بأنّهم في ذلك الاتّباع ظالمون، فهم ظالمون ابتداء، وهم بظلمهم اتّبعوا الهوى، وهم باتّباع الهوى ظالمون أيضًا[5].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 134.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 82.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 81.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

ذكرُ التّعدّي على الحقّ، بعد تعدّي حقوق الله

دلالةُ لفظ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾، ونكتة صوغه ماضيًا:

اختارت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾، والظّلم يدلّ في أصله، على تجاوز المستَحقّ بمنعه وانتقاصه[1]، والظّلم في الآية لصيقٌ بالشّرك باللّه تعالى؛ لأنّه تجاوز في حقّه سبحانه، وجرأة على مقامه، في مسألة الشّريك، الّذي يرضونه للخالق، ولا يرضونه لأنفسهم، في أن يكون لهم شركاء من عبيدهم في أرزاقهم[2]، ونكتة صوغ لفظ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ فعلًا ماضيًا، هي التّنبيه لهم بأنّهم قد وقع منهم الظّلم بالفعل؛ لأنّهم انزلقوا وراء أهوائهم الّتي اتّبعوها، ولو تعقّلوا لما ظلموا، ويدلّ أيضًا على أنّ ظلمهم، منوط بالإشراك، واتّباع الهوى بغير علم، وأنّ الظّلم يفضي إلى الظّلم.

الاتّصافُ بالظّلم قبيح، مهما كان نوعه أو شكله

بلاغةُ حذف مفعول الفعل ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾:

حُذف مفعول الفعل ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾، وفي حذفه تعميم لصور الظّلم؛ فهو ظلم لحقّ اللّه ﷻ، وظلم لعقولهم القاضية بالحقّ ولزومه، وظلم لنفوسهم بتعريضها للعقاب[3]، وقد هويت أنفسهم النّاقصة المتأزّمة، الّتي ظهر من نقصانها وعقدها، ما تعلّق به هواها، أمرًا يجزم العقل بفساده، وتتّفق الفطر السّليمة بردّه، بغير علم دلّهم عليه، ولا برهان قادهم إليه[4]، وهي إشارة إلى أنّ فعل الظّلم نفسه هو المقصود؛ فالآية جاءت تُسَجِّل عليهم فعل الظّلم دون النّظر إلى مَن ظلم؛ والظّلم قبيح في النّفوس والعقول الرّاجحة، ويكفي قُبحًا أن يوصَف المرءُ بالظّلم.

المعاندُ حقيق بالإعراض عنه وإبعاده

بلاغةُ الالتفات في سياق الآيات:

التفتتِ الآيةُ من التّكلّم إلى الإخبار عن الغائب، في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (ظلم).
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 478 (بتصرّف).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 640.

﴿نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾، ويعبّر الالتفات هنا عن تناهي الغضب عليهم لِشدّة عنادهم بعد البيان[1]، فانتقلوا من المخَاطب القريب الحاضر، إلى الغائب المُبعد الطّريد، وكان اتّباعهم أهواءهم بالإشراك بالله غيره، وقد اجتمع هنا الإضراب مع الإلتفات، وأقيم الظّاهر مقام الضّمير للتّسجيل عليهم بوصف الظّلم[2]، فكان في الإضراب تهوين وتوبيخ، وفي الالتفات، لفتٌ لما اقترفوا من ظلم، وما يكون في اتّباع الهوى من مفاسدَ وتبعاتٍ، خصوصًا إذا قادهم الهوى، وانزلقوا في منحدرات الشّرك، الّتي تهوي بهم في قاع سحيق.

دلالةُ التّعبير بالأهواء جمعا:

شهوات تتضامّ وتهوي بصاحبها، في قاع الضّلالة والهوان

آثرت الآية التّعبير بلفظ ﴿أَهْوَآءَهُم﴾؛ لما في لفظ الهوى من الميل إلى المشتهيات، فصارت الشّهوات هي المتّبع[3]، ولو ترك الأمر للرّغبات وحدها، دون دليل من منطق عقل، أو هداية وحي، لهوت بصاحبها في المهالك[4]، وفي ذلك إشارة إلى سوء المتبوع، ومغبّة المنقلب، والوصف باتّباع الهوى، وصفُ ذمٍّ، للهوى الّذي لا ترضاه العقول الحصيفة، ممّا يزيد على الكفّار، اتّصافًا بالضّعة والسّفالة والبوار، وقد صيغ لفظ ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ بصيغة الجمع، لما يُشعره الجمع من تعاظم الأهواء على أصحابها، وتضافر تأثيرها عليهم، وتضارب الأهواء، يُبدِّد حركة الحياة، ويضيع ثمرتها[5]، فقد صاروا عبيدًا لها، لا يردّهم منطق عقل، ولا يعصمهم نور من الحقّ، ولا إشراق من الهدى.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 81.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 245.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (هوي).
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11408.

نكتةُ إضافة ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾ إليهم:

أُضيفت الأهواء إلى الكفّار، في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، ونكتة ذلك هي رغبة هؤلاء ألّا يكون لهم آمر وناهٍ، ولا سائل ولا مُحاسب؛ فاختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له ولا تكليف، وعبدوا إلهًا لا أمر له ولا نهي، لا يُرتِّب على التّقصير عقوبة، ولا على العمل ثوابًا، وهو من قُبح حالهم، وقد أشار الشّعراويّ في هذا المضمار، بعد هذا الكلام الآنف، إلى أنّ تضارب الأهواء، يُبدِّد حركة الحياة، ويضيع ثمرتها[1].

إذا غلب الهوى كان الانفلات، فلا مساءلة ولا ارتداع

معنى (الباء) في القيد ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾:

جاء التّعبير في قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ بحرف الباء، وهي باء الملابسة[2]، وتدلّ على ملابسة انتفاء العلم لاتّباع الهوى، ومعنى حرف الباء هنا هو أقرب إلى معنى (من): أي: من غير علم، فشِبه الجملة متعلّق بمحذوف: حال[3]، تقديره: جاهلين؛ أي إنّهم اتّبعوا الهوى جاهلين؛ فليس لهم أثارة من علم، وإنّما هو محض اتّباع هوى، وفي ذلك إشارة إلى أنّ أيّ موقف ينبغي أن يعتمد على نصيب من العلم، لكنّ هؤلاء "لم يعقلوا الآيات بل اتّبعوا أهواءهم الزّائغة، وآراءهم الفاسدة الزّائفة، والمعنى جاهلين بأنّهم على ضلالة"[4].

اتّباع الهوى ملابِسًا، لانعدام أي أثارة من علم

نكتةُ التّعبير عن الجهالة بنفي العلم:

عبّرت الآية بنفي العلم، في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾، وأمكن أن يكون الوصف: جاهلين، وتكمن نكتة ذلك في أنّ المقصود، هو رفض العلم، والبقاء دون علم؛ فهم ليسوا على جهل فقط، ولكنّهم يعرضون عن العلم مع وجود أسبابه، وهو ما

الإعراضُ عن العلم مع وجود أسبابه، من غلبة الهوى

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 11408.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 141.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 258.

(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 245.

يشير إلى تأصّل اتّباع الهوى فيهم، حتّى رفضوا أيّ صوت ينادي بخلاف هواهم.

نكتةُ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾:

التّشنيعُ على الكفّار اتّباعهم الهوى مع الجهل المطبق

قَيّدت الآية اتّباعَ الهوى بشبه الجملة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾، ونكتة هذا التّقييد هو التّشنيع عليهم في هذا الاتّباع، فهو اتّباعُ شهوة مع جهالة[1]، لأنّ ذا العلم يردعه علمه، عمّا لا يصحّ اعتقاده أو فعله، وأمّا الجاهل فيهيم على وجهه لا يكفّه شيء[2]، ولأنّ اتّباع الهوى قد يصادف دليلًا فينضبط الهوى بالحكمة، أمّا أن يغيّب العلم، فلا يبقى للهوى ضابط ولا حكم[3].

دلالةُ إضافة ﴿بِغَيۡرِ﴾ لـ﴿عِلۡمٍۖ﴾ وتنكيره:

اتّباعُ الهوى يفضي إلى العماية، والتّجرّد من المنطق والدّليل

أُضيف لفظ ﴿بِغَيۡرِ﴾ إلى ﴿عِلۡمٍۖ﴾ مع تنكير العلم، ويدلّ ذلك على انتفاء العلم في موقفهم هذا، ونكّر لفظ ﴿عِلۡمٍۖ﴾ ليعمّ النّفي لأيّ علم كان، فليسوا على شيء من العلم في موقفهم هذا، وليس لديهم أدنى شيء يصحّ أن يسمّى علمًا، ممّا يشير إلى عمايتهم التّامّة وانتفاء أيّ دليل في موقفهم أو برهان، لقد كانوا "جاهلين ببطلانِ ما أتَوا، مكبّين عليه، لا يَلويهم عنه صارفٌ، حسبما يصرِّف العالم إذا اتّبع الباطل علمه ببطلانه"[4].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي﴾:

تفريعُ انتفاء الهدى، على متّبع هواه دون حجّة

ابتدأت جملة ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ بالفاء، وهي فاء التّفريع؛ إذ رتّبت على اتّباعهم أهواءهم بغير علم انتفاءَ الهدى عنهم أبدًا[5]، فإنّ من اتّبع هواه بعد إقامة الحجّة عليه، دون أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 478.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 82.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.

يكون لديه دليل أو أثارة من علم، فإنّه على ضلال مبين، وقد أوصد للهداية كلّ مداخلها، فمن يهديه وهو على هذه الحال؟.

دلالةُ (مَن) في سياق الآية المحكمة:

لا أحد يهدي هؤلاء الظّلمة، لقلّة العلم، وغلبة الهوى

عبّرت الآية بلفظ (مَن) عن صاحب الهداية، وهو اسم استفهام، يعمّ كلّ من يرغب في هدايتهم، ويُشفق عليهم أن يبقوا على ضلالة؛ لأنّه لا أحد يهدي هؤلاء[1]، ذلك أنّه إذا غوي القلب، وانغلق العقل، فلا يغني عنه، صديق مقرّب، ولا يؤثّر فيه حكيم مجرّب، وفي ذلك تعميم للتّيئيس من هدايتهم، وعدم جدوى الإشفاق عليهم؛ لأنّ من أضلّه اللّه فلا هادي له، ومن ضلّ عن طريق اللّه وهداه، فليس له من نصير سواه.

دلالةُ الاستفهام في السّياق المحكم:

التّيئيس من اهتداء متّبع الهوى بجهالة

الاستفهام الّذي في قوله: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، هو استفهام إنكاريّ بمعنى النّفي[2]، ويَدلّ على استحالة تبعيّتهم للحقّ[3]، فكن على يأس منهم، فلن تجد إلى نفوسهم مسلكا[4]، لأنّهم ليس لهم حجّة ولا معذرة، فيما فعلوا من تشريكهم مع اللّه تعالى، بل اتّبعوا أهواءهم، جهالة وشهوة، وقصدًا لأمر دنياهم، ثمّ قرّر على جهة التّوبيخ لهم أنّه لا أحدٌ يهدي من أضّل اللّه[5].

إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿يَهۡدِي﴾ مادّةً وصيغةً:

من أضلّهم الله، فلا هداية لهم برغم الاجتهاد في الإرشاد

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿يَهۡدِي﴾، لعلّة تتعلّق بمادّته وصيغته؛ فأمّا عن مادّته، فإنّ الهداية إرشاد إلى السّبيل والخير، ممّا يشير إلى حاجة صاحبها إلى الأخذ بيد صاحب الضّلال والعمى والحيرة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 39.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(5) ابن عطيّة الأندلسيّ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 336.

وتشير الهداية أيضًا إلى قصد الهادي الإيجابيّ في أن ينفع الضّالّ ويعينه، وأمّا صيغة المضارع فإنها تشير إلى استمرار الإرشاد، ومحاولة ذلك مرّاتٍ ومرّات، ممّا يُظهر نُبْلَ قَصْد الهادي؛ لأنّ غايته الخير، ومقصده الإشفاق على أهل الغواية، وأصحاب الضّلالة.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ في السّياق:

اطّـــرادُ المنـع، بكون من أضلّه الله، لا يهديه أحد سواه

في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ عبّرت الآية بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ عن المقصود بالهداية، ويدلّ ذلك على عموم المقصود بالهداية، فكلّ من يراد هدايته، أيًّا كان، سينطبق عليه هذا النّفي في الآية، وهو ما يجعل من الآية قاعدة مطّردة، لا يَنِدّ عنها أحد من هؤلاء الضّالين بغير علم، وعليه " إذا كان أمر هؤلاء النّاس المشركين كذلك، فلا أحد يهديهم ويوفّقهم إلى الحقّ، بعد أن اختاروا الكفر، وفقدوا الاستعداد للإيمان، وصار الشّرك طبعا لهم، وخلقوا ميّالين بالفطرة إليه".

دلالةُ فعل الإضلال الماضي:

وجودُ مانع تامّ للهداية، بعد أن استحبّوا العمى

عبّرت الآية بلفظ ﴿أَضَلَّ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، ويدلّ الضّلال على العدول عن السّبيل، فيكون الإضلال هو الإبعاد عن السّبيل؛ أي: أنّ معنى إضلال الله لهؤلاء، هو صرفهم عن الحقّ[1] ودفعهم للإعراض عنه، فكلّ باب يؤدّي إلى الهداية يوصد، وكلّ ما يكشف عن ظلامهم يبعد، وفي صوغ لفظ ﴿أَضَلَّ﴾ بالفعل الماضي، دلالة على حدوث الإضلال، فلم يكن قبل؛ إذ كان فيهم خير، وكان من الله لهم دعوة وبيان، وإنّما حدث بعد أن استحبّوا الضّلال واتّباع الهوى، وترك كلّ دليل وبرهان[2]، ويدلّ أيضًا على سبق الإضلال، لجهد كلّ من يريد أن يهدي هؤلاء، فلا ينفع معه أي جهد، وأيّة رغبة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 44، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 83.

نكتةُ إسناد الفعل ﴿أَضَلَّ﴾ إلى لفظ الجلالة:

بيانُ قدر الله بمنع الهداية، عمّن امتنع عن الحقّ

نكتة إسناد لفظ ﴿أَضَلَّ﴾ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ تعالى، هي نسبة الإضلال إلى الّذي له الأمر كلّه، فإذا أراد شيئًا وقدّره، فلا رادّ له[1]، وفي حذف المفعول تركيز على الفعل والفاعل، دون نظر إلى هؤلاء الكفّار أو غيرهم، في إشارة إلى أنّ هذا الإضلال قدر منه ﷻ، وطبع على الضّلالة، فالإسناد إليه سبحانه تكوينيّ[2]؛ بما علم اللّه فيهم من امتناع تامّ عن الهداية، بعد كلّ المحاولات في التّبليغ، وضرب الأمثال، وتفصيل الآيات، "لأنّ اللّه أعذر حين أنذركم، وعدله يقتضي التّسوية بين أهل الضّلال، كالتّسويّة بين أهل الإيمان، والتّفرقة بين الفريقين"، ويدلّ أيضًا على أنّ ذلك هو بإرادة اللّه سبحانه؛ فإنّ هؤلاء لا يضلّون باستقلال عن إرادته ﷻ، فإن ضلّوا فبِقَدَر منه، وبكسب منهم[3].

سرُّ وصل جملة الفاصلة:

تعقيبُ الضّلالة بالخسران، هو قانون الله في كلّ آن

وصلت جملة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ بحرف الواو، وهو واو العطف، فبعد أن أيأس من اهتدائهم بالاستفهام الإنكاريّ، عطفت الواو على الاستفهام خبرا عن حالهم: أنّه لا ناصر لهم[4]، فقد استحقّوا السّخَط والعقاب، ولن يجدوا لهم نصيرًا من اللّه الغلّاب؛ لأنّ ظلمهم واتّباع أهوائهم، "هو الضّلال الّذي لا يرجى معه هدى، والشّرود الذي لا ترجى معه أوبة".

بلاغةُ النّفي بـ(ما):

مفادُ نفي ادّعاءِ النّصرة وإبطالها

آثر سياق الآية الكريمة النّفي بالأداة (ما)، في جملة: ﴿وَمَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 88.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 336.

لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وأمكن أن يكون النّفي بـ(ليس)؛ لأنّ النّفي بـ(ما) يأتي ضدّ ادّعاء سابق، وهو هنا زعمُ المشركين أنّ آلهتهم تنصرهم، وتشفع لهم عند اللّه[1]، فهو نفي لشيء بقصد نفي سببه؛ وهو هنا نفي اعتقادهم النّصرةَ في آلهتهم، والمعنى: (لا تشركوا باللّه شيئًا بزعم أن ينصروكم من دونه، فإنّه إذا حلّ بكم عذابه، فلا ناصر لكم)، وهو تيئيس من النّصرة المزعومة، بتأكيد أنّه ليس لهم من ناصرين، ينصرونهم، حين تحقّ عليهم كلمة العذاب، وينقطع بهم الوصل والأسباب[2]، فحَسُن النّفي هنا بـ﴿وَمَا لَهُم﴾، وانتظم المعنى بين الجملتين في مخاطبة المشركين، أي: إنّكم في شرككم باللّه، بما لا ترضونه لأنفسكم، إتباعٌ للهوى، بعد أن جاءكم البيان المُحكَم، ولن تنالوا ما ترجونه من آلهتكم، فما لكم - آنئذٍ - من ناصرين.

دلالةُ (اللّام)، والجمع في القيد ﴿لَهُم﴾:

نفيُ الزّعم بوجود ناصر، تمحيض لوحدانيّة الله القادر

جاء القيد في قوله: ﴿لَهُم﴾ باللّام والضّمير، واللّام هنا هي لام الاختصاص؛ وتدلّ على ادّعاء هؤلاء المشركين للنّصير؛ فقد ادّعى المشركون أنّ آلهتهم تنصرهم، وتدفع عنهم المكروه؛ فلذلك عبدوها من دون اللّه، ولكنّ الآية تنفي تمامًا أن يكون النّصير سوى اللّه ممكنًا، فالنّصرة لهم معدومة، وأوهامهم في هذه الحال معلومة، حيث يدّعون أنّهم سينصرون، ولكنّهم لن ينصروا.

نكتةُ تقديم القيد ﴿لَهُم﴾:

نفيُ اختصاص المشركين بالنّاصر، إذا تخلّى عنهم العليُّ القاهر

قُدّم القيد ﴿لَهُم﴾، على قوله ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، للاهتمام بالمنصور لا بالنّاصر، فالمقصود بالنّفي هنا أن يُنصر هؤلاء، لا مطلق النّصرة؛ فجاءت جملة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، لمقابلة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 640.

زعمهم بوجود النّاصر، بتأكيد أنّ نصرة من سواه ممتنعة، وهو يقول لهم: فأنتم - باتّباعكم الهوى، وإعراضكم عن الحقّ، لن تُنصروا أبدا.

دلالةُ ﴿مِن﴾ الزّائدة، في ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

من لم ينصره الله، فلا ناصر له سواه

جيء بحرف الجرّ المزيد ﴿مِن﴾، في قوله: ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ لتأكيد النّفي[1]؛ فليس لهؤلاء ما يدّعون من النّاصر، فلن يكون لهم أيُّ ناصر مهما كان، فزادت ﴿مِن﴾ للنّفي عراقة[2]، ولا شكّ أنّه بمقتضى الشّقاوة الأزليّة والغباوة الفطريّة الجبلّيّة، الّتي قضاها الله على أولئك المشركين الكفرة، وأثبتها في لوح قضائه، تشير إلى أنّهم من جملة الضّالين، وزمرة الجاهلين، وما لَهُمْ - بعد ما نفذ القضاء على شقاوتهم وضلالهم - مِنْ ناصِرينَ، يرشدونهم إلى سبيل الهداية، ووسائل الوقاية، من كلّ بلاء وإذاية[3]، وفي ذلك أيضًا تسليّةٌ للمصطفى ﷺ في معاناته مع المستهزئين الّذين عاملوه بالعنف لا باللّين؛ بتأكيد أنّ الله سيخزيهم ومن لفّ لفّهم، ولن يُنصروا أبدًا، مهما حاول من حاول نصرتهم[4].

دلالةُ التّعبير بالنّصرة دون الإعانة:

بيانُ أنّه لا هادي في الضّلالة، ولا ناصر من سخط الله ذي الجلالة

آثرت الآية التّعبيرَ بالنّصر دون الإعانة، في قوله: ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ لأنّ الكلام عن الضّلالة والهدى، وليس عن العون والخذلان[5]، فالمشركون قد أقبلوا على آلهتهم، واتّخذوها أولياء من دون الله ﷻ؛ بعد ما أنزل من الدّلائل الظّاهرة، وأرسل من الآيات المفصّلة الباهرة، فكان كفرانهم سببًا في ضلالهم، واستحكام أهوائهم،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 39.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 82.
(3) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 121.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 39.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 242.

وقد أكّد السّياق أنّهم قد عرّضوا أنفسهم إلى المهالك، وإلى السّخط والعذاب[1]؛ ولن يجدوا من دون اللّه ناصرًا ينصرهم[2].

وجهُ جمع ﴿نَّٰصِرِينَ﴾:

لـن يكـون لهم مـن نـاصـرين، مـجـتـمـعـين ومنفردين

جمع السّلامة في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يكون باعتبارِ المعنى: ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي "يُخلِّصونهم من الضَّلالِ، ويحفظونهم من تبعاته وآفاتِه، على معنى (ليس لواحدٍ منهم ناصرٌ واحدٌ)، على ما هو قاعدةُ مقابلة الجمع بالجمع[3]، والمعنى: لن يكون لهم من ناصرين، مجتمعين ومنفردين، قال أبوحيّان: "لا يقال: انتفاء الجمع لا يدلّ على انتفاء المفرد، لأنّ ذلك في معرض نفي النّفع والإغناء، وحصول الاستعانة، فإذا لم يجد الجمع، ولم يغن، فأحرى أن لا يجدي ولا يغني الواحد"[4].

دلالةُ صوغ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ اسمَ فاعل:

إفادة أنّه إن لم يغن عنك الله، فلا ناصر لك إلّاه

صيغ لفظ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ باسم الفاعل، ويدلّ اسم الفاعل على رسوخ الوصف؛ فهو ناصر في الحقيقة، متمكّن من النّصرة، ومع هذا فلا يقوى على نصرة هؤلاء، مهما كان شديدًا عزيزًا، فلن يغني عن هؤلاء المشركين من سخط اللّه ﷻ، وفي ذلك تيئيس لهم من النّجاة، وترهيب لهم من سوء المصير، وحلول العذاب الخطير.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاتّباع والتّقليد:

التّقليدُ يكون عن ميل وقلّة وعي، والاتّباع عن تأمّل وتعمّد

يشترك التّقليد والاتّباع في مسايرة شيء ما، مبدأ أو شخصًا، وبينهما فروق، فالتّقليد مجاراة دون معرفة دليل، أو إقناع بحجّة[5]،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 258، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 44.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 59.

(4) أبو حيان الأندلسيّ، البحر المحيط في التّفسير: 2/ 688.

(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 136.

بل موافقة دون نظر عميق أو تفكير دقيق، فلا يؤمن مع التّقليد الغلطُ، وقد يكون التّقليد عن غير وعي واختيار، بل مبناه على الميل والشّعور بالمناسبة[1]، في حين يكون الاتّباع بشيء من التّأمّل والنّظر، وبدرجة من الاختيار وتعمّد الاتّباع، فهو تتبّع القائل، على ما بان لك من فضل قوله، وصحّة مذهبه، أمّا التّقليد فأن تقول بقوله، وأنت لا تعرف وجه القول، ولا معناه، وتأبى من سواه، أو أن يتبيّن لك خطؤه فتتبعه مهابة خلافه، وأنت قد بان لك فساد قوله[2]، ولمّا كان اتّباع الظالمين أهواءَهم في الآية الكريمة عن قصد وتعمّد وإن كان عن غير علم ناسب لفظ ﴿ٱتَّبَعَ﴾ دون غيره.

الهَوَى والشّهوة:

الـهــوى مـيـلٌ لـمـرغـوب، والشّهوة تلذّذ بمحسوس

بين الهوى والشّهوة فروق دقيقة؛ فالهوى ميل النّفس إلى ما فيه لطف به وراحة، فتهوى إليه ويَهوي بها إلى المهالك، دون اعتبار بنظر وحكمة، ويتعلّق الهوى بالحسيّات، كما يتعلّق بالمعنويات، أمّا الشّهوة فهي ما يستلذّه المرء، وغالبًا ما تتعلّق بالحسّ[3]، وقد تكون الشّهوة سببًا لميل الهوى، قال الماورديّ: "فأمّا فرق ما بين الهوى والشّهوة مع اجتماعهما في العلّة والمعلول، واتّفاقهما في الدّلالة والمدلول، فهو أنّ الهوى مختصّ بالآراء والاعتقادات، والشّهوة مختصّة بنيل اللّذة، فصارت الشّهوة من نتائج الهوى، وهي أخصّ، والهوى أصل هو أعمّ"[4].

الهُدى والبيان:

البيانُ توضيح بالقول، ودرجة في الـهـدى، تتلوه درجات في الوضوح

يتّفق الهدى والبيان في جوانبَ، ويفترق عنه في أخرى، فإذا كان البيان إظهارًا للمعنى، وتوضيحًا يزيل الخفاء، ويميّز بين

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 371.
(2) ابن عبد البرّ القرطبي، جامع بيان العلم وفضله: 2/ 787.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 562.
(4) الماورديّ، أدب الدّنيا والدّين، ص: 33.

المتشابه، وكان الهدى هو اتّضاح السّبيل؛ فإنّ البيان سبب للهدى، ويُطلق عليه، فيكون من أنواع الهدى، هداية البيان، ثمّ يتميّز الهدى بدرجات أخرى، كهداية التّوفيق أي المرافقة في الاهتداء، ووضوح المنهج، وهداية التّحقيق أي الوصول إلى كمال الهدى، ووضوح الغاية، فالبيان بهذا المعنى درجة من درجات الهداية، والفرق بينهما في كون البيان قولًا[1]، والتّوفيق والتّحقيق سلوكًا وعملًا، ولما كان الضلال زيغًا عن المسار، وانحرافًا عن السبيل ناسبه لفظ ﴿يَهۡدِى﴾ بوصفه دالًّا على الكمال، والتمام.

الضّلال والغيّ:

الـغـيُّ قصد فاسد والضلال عـــدول عـن الجادّة ومآل

يفترق الضّلال عن الغيّ بفروق دقيقة؛ فالضّلال عدول عن السّبيل[2]، وقد يكون عن وعي وقصد، أو عن جهالة وغفلة، أمّا الغيّ ضلال متعمّد[3]، وانغماس في الضّلال رغم التّنبيه والنّصح، حتّى صار الغيّ فسادًا[4]، ويطلق الغيّ على القصد السّيئ، في حين يُطلق الضّلال على الفعل والحال، لذلك أُطلق الضّلال على الضّياع والهلاك[5]، والغواية لا تكون إلّا عن قصد، وهو الإمعان في الضّلال، والضّلال عامّ، نقول ضلّت الدّابة، ولا نقول غوت الدّابّة، والغواية هي للمكلّف، والضّلال نقيض الهدى، والغواية نقيض الرّشد، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النّحل: 93]، ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79][6] فالضّلال أعمّ استعمالًا في الوضع، تقول: ضَلَّ بَعيري ورَحْلي، ولا تقول غيَّ؛ فالمراد من الضّلال، أن لا يجد السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغواية أن لا يكون له

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 109.
(2) الرّاغب، المفردات: (ضل).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 392.
(4) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 393.
(6) فاضل صالح السّامرّائيّ، أسرار بلاغيّة، منشور على الشّابكة.

طريق، إلَى القصد مستقيم[1]، ولمّا كان الضّلال في عمومه عدولًا عن السّبيل، وقد يكون عن وعي وقصد، ناسب اختياره في الآية على أنه قدرٌ منه ﷻ بما علم اللّه فيهم من امتناع تامّ عن الهداية، بعد كلّ المحاولات في التّبليغ، وضرب الأمثال، وتفصيل الآيات.

النّصر والتّأييد:

النّصرُ عون على عـدوّ، والتّأييد قـوّة تـؤدّي إلى النّصر

يتّفق النّصر والتّأييد في أنّهما عون على الغير[2]، ويتميّزان بأنّ النّصر مآل، وأنّ التّأييد سبب إليه؛ فالنّصر: غلبة لعدو[3]، يقول تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾ [الصّافات: 116]، والتّأييد مددٌ يؤدّي إلى الغلبة[4]، وقد يكون النّصر تأييدًا إذا أدّى إلى انتصارات بعده، كما يقول الحقّ سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال: 62][5]، وقد يُنظر في النّصر إلى المعونة، في حين يُنظر في التّأييد إلى القوّة[6]، ومن هنا فنفي نفع النّاصر مؤدٍّ من غير شكٍّ إلى نفي جدوى المؤيِّد بوصفه سببًا إلى المآل وهو النصر، فاختير الأعمّ ليندرج ضمنه الأخصّ، وهذا علّة اصطفائه في الآية الكريمة.

---

(1) محمّد عبد الرّحمن، مقال بعنوان جمال القرآن، اليوم السّابع، 2022م، منشور على الشّابكة.
(2) الراغب، المفردات: (نصر).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 540.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (أيد).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 467.
(6) الرّاغب، المفردات: (أيد).

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الرّوم: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط بيان عاقبة من اتّبع الهوى، بالأمر بالدّين القيّم، والفطرة الأصيلة

بعد أن عدّد اللّه سبحانه البيّنات والأدلّة، على وحدانيّته وعظمته، وأثبت الحشر، وضرب لذلك المثل، وما دام الكفّار، قد اتّبعوا أهواءهم وضلّوا، وأصرّوا على ضلالهم، خاطب النّبيَّ ﷺ، فدَعْك أيّها النّبيّ منهم، ولا تتأثّر بإعراضهم[1]، واثبت على ما أنت عليه من إخلاص العبادة للّه تعالى وحده، وأقبل على هذا الدّين الّذي أوحاه اللّه إليك[2]، فهو فطرة اللّه الّتي رسخت معرفتها في العقول[3]، وهي الحنيفيّة الإبراهيميّة، الّتي هداك اللّه إليها، وفطرك عليها، كما فطر الخلق جميعًا، وبهذه الفطرة السّليمة، والعقيدة القويمة، يهتدي البشر إلى معرفة ربّهم وخالقهم تعالى وتقدّس، وأنّه واحد لا شريك له[4].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَقِمۡ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ وعَزْمٍ، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ[5]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيهِ، وأقامَ الشَّيءَ بِمعنى أدامَهُ[6]، وأقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ[7]، واستقام

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11413.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 83.
(3) المراغي، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3321.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).

له، وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصّلت: 6]، أي: في التّوجه إليه دون الآلهة، وقوّمت الشّئ فهو قويم، أي: مستقيم، والقوام: العدل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67][1]، والمُرادُ بإقامةِ الوجهِ: تقويمُه وتعديلُه باتّجاهه، والدّوام على ذلك[2].

2) ﴿حَنِيفٗاۚ﴾: (حنف) أصلٌ يدلُّ على المَيلِ، والحنف: انقلاب القدم حتّى يصير ظهرها بطنَها، وحنف الرّجل يحنف حنفًا، فهو أحنف، والمرأة حنفاء، والحنف في القدمين، أن تميل كلّ واحدة منهما، بإبهامها على صاحبتها، وقد سمّت العرب حنيفًا، يُقالُ: تَحَنَّفَ فُلانٌ إلى الشَّيْءِ، تَحَنُّفًا: إذا مالَ إليه[3]، ومنه سُمّي الموحِّدُ حَنيفًا؛ لأنَّه مائِلٌ إلى الدّين المُستَقيم، وثابِتٌ عليه[4]، ومَن أقبلَ على شيءٍ مالَ عن غيرِه[5]، ويُقالُ هو يتحنَّفُ، أي: يتحرَّى أقوَمَ الطَّريقِ[6]، والمقصود بالحَنيف في الآيةِ: المَيْلُ عن غير الإسلام، من كلّ باطل شركًا وانحرافًا مُقبِلًا على عبادةِ اللّه.

3) ﴿فِطۡرَتَ﴾: (فطر) أصلُ يَدُلُّ على فتْحِ شَيءٍ وإبرازِه[7]، يقال: فطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فطْرًا، أي: شقَّها وحفَرَها، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم[8]، والفطرة: الغَريزَة، والطَّبيعة، قال ابن عبّاس: كنت ما أدري ما فاطر السّموات والأرض، حتّى احتكم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأت حفرها[9]، والمقصود بها في الآية: الخِلقة أو الحالة الّتي خلَق اللّه عليها الخَلْق.

4) ﴿تَبۡدِيلَ﴾: أصلُ (بدل) واحِدٌ، هو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ: إذا غَيَّرتُه، وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]، وأبْدَلْتُهُ: إذا أتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (قوم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88، 89.
(3) الأزهرّي، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(4) الزّجاج، معاني القرآن: 4/ 184.
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (فطر).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فطر).

والإبدال: تنحيّةُ الشّيء، واستئناف شيء آخر مكانه[1]، والمقصود بالتَّبديل في الآية: أنّه لا تعديل لما خلق اللّه عليه الخلق، ولا تحويل ولا تغيير.

5) ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ أو عزم، قوَّمتُ الشَّيءَ تقويمًا[2]، والقيِّمُ: وصفٌ بوزنِ فيْعِلٍ يُفيدُ قوَّةَ الاتِّصافِ بمصدره، أي: البالغُ قوَّةَ القيام مِثْلَ استقامَ الَّذي هو مُبالغةٌ في قامَ كاستجابَ[3]، والقيِّمُ هوَ المُسْتَقيم[4]، وهو الَّذي يَتَولَّى القيامَ بالأمرِ رعايةً لهُ وحِفظًا، وقَيِّمُ القَوْم: الَّذي يَقومُ بشأنهم ويسوسُ أمرهُم، وقَيِّمُ اليَتيم: هو الَّذي يقومُ بأمرِه، ويتعهَّدُ شُؤونه بالرِّعاية والحِفظِ[5]، وقول اللّه ﷻ: ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [التّوبة: 36]، أي ذلك الحساب الصّحيح، والعدد المستوي[6]، والمُرادُ بالدّين القيِّم في الآية: الدّين المُسْتَقيمُ الَّذي لا زيغ فيه، ولا مَيْلَ عن الحَقِّ، والقائم بمن يلتزمه بالنّفع والخير والحفظ[7].

❁ المَعنى الإجْماليّ:

أمر الرّسول الأكرم ﷺ، بإقامة دين الفطرة القيّم

يأمُرُ اللّه تعالى نبيَّه - والمؤمنين معه - أن يَثْبُتَ على الحقِّ الَّذي هداه إليه، فيقولُ: فانصِبْ يا محمَّدُ ﷺ قَلْبَك وقَصْدَك كُلَّه، إلى الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللّهُ لك، ودُم عليه، واجتَهِدْ في طَلَبِه واتِّباعِه، مُقبلًا على عبادةِ اللّهِ وحْدَه، مائِلًا عن كلّ باطل ممّا عداه، والزم الإسلام؛ فطرة اللّه؛ إذ خلق اللّه جميعَ النّاسِ مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (بدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (دين).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(6) الأزهرّي، تهذيب اللّغة: (قوم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 93.

وقَبولِه، والانقيادِ إليه، وجعَل تعاليمَه مُناسِبةً لخِلقتِهم، تلك فطرة اللّه للجميع، لا مبدّل لها، والإسلامُ هو الدّينُ الكاملُ الّذي يقوم بشؤون النّاس، ويصلح أحوالهم، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ جاهلون، فهم يُشرِكونَ باللّهِ، ويتَّبِعونَ غيرَ ما شَرَعه اللّهُ تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَأَقِمۡ﴾:

الأمــر بإقـامـة الدّين، والإقبال على الحقّ المبين

ابتدأت جملة ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ بالفاء، وهي فاء الفصيحة؛ تُفصح عن محذوف تقديره: (إذا علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحقّ فأقم وجهك للدّين)[2]، وترتّب ما بعدها عليه، في الأمر بإقامة الوجه للدّين[3]، ويجوز أنْ تكون (الفاء) رابطةً لجواب شرط مقدّر، وجملة: (أقِمْ وجْهَكَ ...)، في محلّ جزم جواب الشّرط، تقديره: (إن ضلّ بعض النّاس، فأقم وجهك للدّين)[4]، والمعنى: انصب وجهك إلى الدّين، بأن تتوجّه بقلبك وقصدك وبدنك، إلى إقامة شرائعه الظّاهرة والباطنة[5]، وهي رابط تشدّ بين كلمات التّركيب الالتئام، فتكون للكلام كالسّلك للعقد النّظيم، أو القالب الّذي يفرغ فيه الذّهب الكريم[6].

دلالةُ التّعبير بفعل الإقامة:

بـيـانُ ضـرورة الإقـبـال على الحقّ، ولزومه والثّبات عليه

عبّرت الآية عن الإقامة بلفظ ﴿فَأَقِمۡ﴾؛ مِن قوّم العود وأقامه، فقام واستقام وتقوّم[7]، فدلّ على إقامة الوجه، وهو فعل متعدّ؛ أي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 492، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 313، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 83، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 641.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 243.

(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 41.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 640.

(6) ابن عاشور، تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنّة، ص: 35.

(7) الطّيبّي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 242.

تعديل إقبال الوجه وتسديده[1]؛ فلا يميل عنه ولا يلتفت إلى غيره، ودلّ أيضًا على الإقامة على الدّين، وهو فعل لازم؛ أي الجدّ في الدّين والثّبات عليه[2]، ويدلّ أيضًا على الإقامة عنده دون مفارقة، بمعنى لزوم الدّين، وفي كلٍّ فإنّ المراد من السّياق الإقبالُ على دين الإسلام، والثّبات عليه، مراعاة للقابليّة للحقّ، والتّهيّؤ لإدراكه بالفطرة[3].

غرضُ الأمر في الفعل ﴿فَأَقِمۡ﴾:

الأمر بالدّوام على الحقّ، وعدم الالتفات للمعرضين

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، جاء الأمر بإقامة الوجه للدّين، وليس الأمر على ظاهره؛ لأنّ المأمور هو الرّسول ﷺ، وهو مقيم للدّين ثابت عليه، وإنّما الغرض من الأمر هو الحثّ على المداومة على إقامة الوجه للدّين، والمبادرة إلى الالتزام بالإقبال على الحقّ[4]؛ والإعراض عن الكفّار[5]، وتمحيض الوجهة لدين الله وحده، من غير التفات إلى غيره من الأديان الباطلة، فإنّ من اهتمّ بالشّيء صوّب إليه بصره، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه، مقبلًا عليه[6]، بحيث يكون الإقبال بالكليّة.

بلاغةُ الاستعارة التّمثيليّة في ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾:

أثرُ الاهتمام بالدّين، والالتزام بنهج ربّ العالمين

تضمّن قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ استعارة تمثيليّة، بتشبيه المأمور بالتّمسّك بالدّين، ورعاية حقوقه، وعدم مجاوزة حدوده، والاهتمام بأموره، بمن أُمر بالنّظر إلى أمر، وعقد طرفه به، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له، لمراعاته والاهتمام بحفظه حَنيفًا، أي: مائلًا عن كلّ ما سواه إليه[7]، وقد جاءت الصّورة تمثيلًا لحالة الإقبال على

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 83.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(6) القنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 245.
(7) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 13.

الدّين والثّبات عليه والاهتمام به وبأسبابه[1]؛ بالإقبال على شيء والتّمحّض للاشتغال به فقط، دون التفات عنه يمنة ولا يسرة[2].

دلالةُ ضمير الخطاب في لفظ ﴿وَجۡهَكَ﴾:

دعوةُ للثّبات على الحقّ السّديد، والإخلاص للدّين الجديد

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، جاء فيه الخطاب بصيغة الأمر للمفرد، وإضافة الكاف في ﴿وَجۡهَكَ﴾، ليكون المقصود بالخطاب هو النّبيّ محمّد ﷺ ابتداء، ويكون المؤمنون معه تبعًا له في الخطاب، كما يفهم من قوله بعده: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾[3]، وفي ذلك إيناس بقرب المخاطَب، ودفع للأسى عنه ﷺ، وتحفيزه على مزيد من الثّبات على الحقّ، في مواجهة إعراض الكفّار، وطعنهم في الحقّ، ويقول له، ما مؤدّاه: إذا كان هؤلاء يعرضون، فأقبل أنت على دين الله حنيفًا، وإذا كانوا ينحرفون، فاثبتْ فأنت على الفطرة النّقيّة، والمحجّة السّويّة.

بلاغةُ الالتفات من المخاطب إلى الغائب:

أثرُ السّياق في إيناس المقبل، وتقريع المعرض

جاء أسلوب الالتفات في السّياقات السّابقة، بالعدول من المخاطب في قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾، إلى الغائب في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، والنّكتة في ذلك هي بُعد المعرضين ونفورهم عن الحقّ، بعد إذ تبيّن، فأُبعدوا في الخطاب بعد أن قُرّبوا بالحديث المباشر؛ لأنّهم لم يكونوا أهلًا للقرب، ثمّ عدل بعد الحديث عن الغائب، إلى خطاب المفرد في هذه الآية، فقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، ونكتة العدول بالالتفات، هي العودة تارة أخرى، إلى الإيناس والتّسلية، لخير البشريّة، عمّا يعانيه من الكفر والجحود، من كلّ معاند كنود، وهو بذلك يقول

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

له: أقم وجهك للدّين، فأنت على الحقّ المبين، وأنت مكرّم لدينا، ولست بالمهين.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِلدِّينِ﴾:

استيعابُ حرف المعنى لأكثر من دلالة، مفيد في البيان المتوخّى

جُرّ لفظ الدّين في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾، باللّام، التي عملتْ هنا على تعديّة فعل الإقامة إلى الدّين؛ كما ضُمّنت اللّام معنى الحرف (إلى) باعتبار توجيه الوجه إلى الدّين، بمعنى (أقبل عليه)، ويمكن أن تُضمّن اللّام معنى (عند)؛ أي (أقم وجهك عند الدّين) أي (الزم الدّين، واستغن عمّا سواه)، كما يمكن أن تُضمّن معنى (على) بمعنى الإقامة على الدّين؛ أي: الدّوام والاستمرار على الحقّ، فصار معنى الجملة بضمّ دلالة اللّام إلى معنى الإقامة، هو: الإقبال على الدّين ولزومه والدّوام عليه، قال البيضاويّ: له غير ملتفت عنه، هو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به[1]، وبذلك يمكن أن تستوعب المعاني برمّتها.

دلالةُ لفظ ﴿لِلدِّينِ﴾ ومعنى (أل) فيه:

الدّين عند الله الإسلام، وهو الالتزام بالحقّ والفطرة

معنى الدّين في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾: "أخلص قصدك إلى اللّه، واحفظ عهدك مع اللّه، وأفرد عملك في سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك للّه"[2]، وقد جاء لفظ ﴿لِلدِّينِ﴾ معرّفا بالأداة (أل) العهديّة، فالمقصود بالدّين هو دين الإسلام[3]، والمطلوب إقامة الوجه لهذا الدّين، وفيه دعوة صريحة بليغة، لاعتناق الحقّ، والتزام الفطرة، والإشارة إلى أنّ المشركين - وإن كانوا يزعمون أنّهم على دين - ليسوا على شيء من ذلك، لإعراضهم عن الحقّ، بعد تفصيل آياته، وظهور معالمه وبيّناته.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿حَنِيفًاۚ﴾ دلالة وصيغة:

التّبرّؤ ممّا سوى الحقّ، هو مسلك الله المحقّ

آثرتِ الآيةُ التّعبير بلفظ ﴿حَنِيفًاۚ﴾ في الآية؛ لِسبب يتعلّق بمادّتها؛ إذ إنّ الحنف هو الميل، سواء أكان ميلًا ذاتيًّا، أو ميلًا عن أشياء، وهنا الحنف هو الميل من الضّلالة إلى الاستقامة[1]، أي الميل عن غير الحقّ، من أديان محرّفة، أو عقائد باطلة[2]، وفي ذلك تعريض بأهل الضّلال، في اتّباعهم الهوى بغير علم؛ لأنّ المؤمن بالمقابل، يميل مع الدّليل، ويجنح إلى الحقّ، لا تمنعه الأهواء عن الأوبة، ولا تصرفه الشّهوات عن التّوبة، إذا أبصر الهدى، ولاح له النّور، "حال كونك ميّالًا مع الدّليل، هيّنًا ليّنًا، نافذ الصّبر، نيّر البصيرة، ساري الفكر، سريع الانتقال، طائر الخاطر[3]، وهناك سبب يتعلّق بصيغتها ﴿حَنِيفًاۚ﴾، حيث وردت بصيغة المبالغة (فَعيلٌ)، وفيها تلميح لسرعة الميل عن الباطل، وشدّة الميل إلى الحقّ[4]، وفيها دلالة على كمال الاتّصاف بالحنف، أي: كون الحنيف مائلًا إلى دين الإسلام في كلّ حال وأوان[5]، وباجتماع دلالة مادّته وصيغته، فقد صحّت دلالته، على التّبرُّؤ ممّا سوى الحقّ، ووحدانيّته، وعظمته.

علّةُ فصل جملة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلها:

تأكيدُ صلاحيّة الإسلام بموافقته للفطرة

فُصلت جملة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّها كالتّأكيد لما قبلها[6]؛ فلمّا ذُكر التّبرّؤ من الشّرك والباطل قبلها، ناسب أن يذكر هنا موافقة الإسلام للفطرة، فيفيد أنّه دين سمح سهل لا عنت فيه[7]، وفي ذلك بيان للكفّار بصحّة دين الإسلام "بأمر هو

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 83.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89 (بتصرّف).
(5) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 543.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 136.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

في أنفسهم، كما بيّن بطلان دينهم، بأمر هو في أنفسهم"[1]، وهو ما يوافقه قولُ السّعديّ في معرض كلامه عن الفطرة؛ إذ يقول: "إنّ جميع أحكام الشّرع الظّاهرة والباطنة قد وضع اللّه في قلوب الخلق كلّهم، الميلَ إليها، فوضع في قلوبهم محبّة الحقّ، وإيثار الحقّ، وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها"[2].

نكتةُ حذف العامل في قوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾:

التزامُ الإسلام ونَبذُ ما يخالف الفطرة، هو مسلك الحقّ والنّجاة

جاء لفظ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوبًا في بداية الجملة، وهو ما يشعر بوجود عامل، وفي تقدير العامل اختلاف بين المفسّرين؛ فجعل بعض المفسّرين نصبه على الإغراء، ويكون تقديره: (الِزموا فطرة اللّه[3]، وعليكم فطرت اللّه)[4]، وفي ذلك إغراء وتشويق للالتزام بالإسلام، لأنّه موافق للفطرة[5]، فمن أراد الفطرة فعليه بالإسلام، وفيه أيضًا تعريض بالشّرك، لأنّه مخالف للفطرة.

دلالةُ الإضافة في ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾:

مخالفةُ الإسلام هي مخالفة فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها

أضيف لفظ ﴿فِطۡرَتَ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾، وتدلّ الإضافة هنا على نسبة الفطر إلى مولاه، فاللّه هو خالق الإنسان، وهو أعلم بخلقه، ولا يصلح للإنسان أحسن ممّا فطره اللّه عليه، وهي فطرة اللّه الملك الآمر، فلا مردّ لأمره[6]، وفطرة اللّه صنعة اللّه الّتي خلق النّاس عليها، ونصبت ﴿فِطۡرَتَ﴾ على المصدر، من معنى قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، وذلك أنّ معنى ذلك: فطر اللّه النّاس على ذلك فطرةً، وبنحو ذلك قال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 84.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 640.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 243.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 40.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11418.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 85.

أهل التّأويل[1]، وهي إشارة إلى أنّ من يخالف الإسلام، فإنّه يخالف فطرة اللّه، ويخالف الخالق الآمر.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

بـيـانُ مـزيّـة الفطرة، وتأكيد لزومها

جاء التّعبير عن فطرة اللّه، في قوله: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾، وهو وصف لفطرة اللّه، مبيّنا للإضافة، أي: إضافة الفطرة إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، أي فطرة هي؟ إنّها ما فُطر النّاس عليه[2]، أي في أصل خلقهم، وما ينسجم مع فطرتهم؛ حين سلامة عقولهم وحواسّهم، ويدلّ أيضًا على تأكيد وجوب الامتثال بهذه الفطرة؛ لأنّها فطرة اللّه الّتي فطر النّاس عليها[3]، وأنّ هذا هو الأصل في النّاس، لا ما طرأ عليهم من الغواية والانحراف.

دلالةُ المضيّ في الفعل ﴿فَطَرَ﴾:

الإسـلامُ أصل سابق، والكفر انحراف حادث

صيغ الفعل ﴿فَطَرَ﴾ بصيغة المضيّ، ويدلّ هذا على أنّ الإسلام، هو الأصل في خلق النّاس، ومبدأ وجودهم، فالأمر بلزومه هو رجوع إلى الأصل، كما يدلّ الفعل الماضي على سبق الإسلام، فطرة في النّاس، وأنّ ما يظهر في النّاس من غواية وانحراف، إنّما هو طروء وأمر حادث على الأصل، في إشارة إلى مطالبة الكفّار بالدّليل، على سلامة حالهم وموافقته لأصلهم، كما يقال: (الأصل لا يُطالبُ بالدّليل).

معنى (على) في القيد ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾:

طبْعُ النّاسِ على قبول الإسلام، فطرةٌ وجبلّةٌ

جيءَ بحرف (على) في القيد ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾، ليدلَّ على الاستعلاء، فهو فطر للنّاس على تلك القابليّة، وهي إشارة إلى "تمكّن ملابسة الصّفة بالموصوف تمكّنا يشبه تمكّن المُعتلي على شيء"[4]، ففطر

(1) الطّبريّ، جامع البيان في تأويل القرآن: 20/ 97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 90.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 15/ 85، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 40، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 60.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 90.

النّاس على هذه الفطرة، أصيل متمكّن، كأنّ النّاس قد طُبعوا عليه، وترسّخ فيهم، وفي ذلك مزيدُ إغراء وترغيب، في التزام الإسلام؛ لأنّه أقرب إلى خلق النّاس وطباعهم، وأكثر انسجامًا مع فطرتهم.

الفطرةُ أمر مطبوع، لا ينفكّ عنه أحد

قُيّد ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾، لتأكيد أنّ ما فُطر النّاس عليه هو القابلية للحقّ والإسلام، وأنّه أمر مفروض وطبع لازم فيهم؛ وليس بالأمر الذي ينفكّون عنه، وفي ذلك الدّعوةُ إلى الإقبال على الفطرة والرّجوع من الانحراف إلى الجادّة.

علّةُ فصل جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ عمّا قبلَها:

استمرارُ سلامة الفطرة، دليل على أن لا تبديل لخلق الله

إذا كانت الفطرة أمرًا مطبوعًا عليه النّاس ابتداءً، فهل هو أمر موجود دائمًا؟ تأتي جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ لتبيّن ذلك[1]؛ فهذه الجملة بيان وتتمّة لمعنى فطرة اللّه، أي إنّ سلامة الفطرة مستمرّ فلا تبديل لخلق اللّه[2]، وهي أيضًا تعليل للأمر بلزوم فطرة اللّه، ولوجوب الامتثال بالإسلام، بأنّه لا تبديل له لأنّه خلق اللّه[3]، والفطرة هي: الحالةُ الّتي جُبِلوا عليها مِن قَبولهم للتّوحيد، واقتناعهم بدينِ الإسلام، وتمكُّنهم مِن فهمه بعمق، وإدراكه بإحاطة، بحيث لو خُلّوا وما جُبِلوا عليه، لَما اختاروا عليه سواه، وشهدت عقولُهم الفطريَّة به، ومَن غوى منهم فبإغواء شياطينِ الإنس والجنِّ، الّذين يجتالون عباد اللّه عن دينهم[4].

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾:

تيئيسٌ من التّبديل ودعوة للتّكشيف

ابتدأت جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ بـ﴿لَا﴾ النّافية للجنس؛ وهي لنفي أيّ تبديل لخلق اللّه ﷻ[5]، وفي ذلك تيئيس أيّ تيئيس؛ فالفطرة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 60.
(4) كتاب تفسير ابن كمال باشا: 8/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 93.

كامنة في نفس كلّ إنسان، ولن يبدّلها شيء، وفي ذلك دعوة إلى استكشاف هذا المعنى الأصيل، تحت ركام من المؤثرات تبغي التفلّت من الفطرة ولا تقدر على ذلك، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، يعني: لقضاء الله وقدره، وهذا المعنى صحيح أيضًا، وإن كان الأوّل أقرب، فإذا قدر الله شيئًا فلن يقدر أحد أن يغيّر قدر الله المقدور، وهو سبحانه خلق الجنّة للمثوبة، وخلق لها أهلها، وخلق النّار للعقوبة، وخلق لها أهلها؛ لأنّ الله أعلم بما كانوا عاملين، فهؤلاء للجنّة وهؤلاء للنّار، وعدله يستوعب هؤلاء وأولئك[1].

سرُّ اختيار لفظ ﴿تَبۡدِيلَ﴾ دون غيره:

بيانُ أن لا تغيير لخلق الله الكريم، ولا تبديل لقدرة الحكيم

آثرت الآية لفظ ﴿تَبۡدِيلَ﴾ في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، دون لفظي (التّغيير) و(التّعديل)، لما في التّبديل من تجاوز الموجود، ومحاولة إحلال شيء محلّه[2]، وهو معنى أعمّ من التّغيير، حيث يكون المبدَل مخالفًا للأوّل، وأطلق التّغيير في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ [الرعد: 11]، على التّسبّب فيه على طريقة المجاز العقليّ[3]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ مجرّد تجاوز ما هو موجود، وهو الإسلام والقابليّة للحقّ وتبديلها بدين آخر، هو أمر غير مقبول، ناهيك عن تعديله، أو اتّخاذ دين يخالفه، ممّا تأباه الفطرة، ولا يتلاءم مع الطّبع الإنسانيّ، كما أرادته حكمة الله العليّة.

معنى (اللّام) في ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾:

انتفاءٌ تامٌّ لأيّ تعلّق بين التّبديل وخلق الله

جُرّ لفظ (خَلْق) في قوله: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ باللّام، وهي لام الاختصاص، أي: تخصيص الخلق بالتّبديل وتعلّقه به، فصار عمل ﴿لَا﴾ النّافية للجنس، هو نفي أيّ تعلّق بين التّبديل، وخلق الله، فقد

(1) أحمد حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 3/ 212.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (بدل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 102.

يقع تبديل في الكون لأمر من الأمور، بفعل الظّواهر الطّبيعيّة، الّتي تجري بإرادة اللّه وقهره، ولكنّ قوانين الخلق لا تتبدّل، كما أنّ خلق اللّه قد يوصف بصفات أخرى كالمناسبة مع الفطرة، وكمال الحكمة، ولطف الرّحمة، ولكنّه لا يوصف بالتّبديل، وفي ذلك إشارة إلى نفي ذلك عن خلق اللّه، بأيّ صفة وبأيّ حال، ما لم يكن أمرًا وقدرًا من اللّه جلّ في علاه، في إطار الإهلاك والعذاب، فتلك خوارقُ تخرج عن القوانين الثّابتة، وتكون محدّدة بزمانها ومكانها وأسبابها.

دلالةُ التّعبير بلفظ الخلْق:

بيانُ أنْ لا تبديل ولا تغيير، لما أنشأ العليُّ القدير

عبّرت الآية في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، بلفظ (خَلْق)، والخلق مصدرٌ يدلّ على الإنشاء والابتداء، أي إنّ قابلية النّاس للحقّ، وكون الإسلام موافقًا للفطرة، أمر أُنشئَ عليه الإنسان، وابتدئ به منذ الخلق الأوّل للأنام، وما كان على الأصل فلا يتبدّل[1]، ويدلّ الخلق كذلك على تقدير وتحديد، لا ينفكّ عن إرادة اللّه المجيد، وهي إرادة منوطة بالإختيار، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨﴾ [القصص: 68]، وفي ذلك إشارة إلى أن: لا تبديل لما اختاره اللّه وارتضاه في خلق الإنسان[2]، فجملة: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ تحتمل تأويلين: أحدهما أن يريد بها هذه الفطرة المذكورة، أي اعلم أنّ هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخلق، وثانيهما: أنّ هؤلاء الكفّار قد خلق اللّه لهم الكفر، ولا تبديل لخلق اللّه، أي إنّهم لا يفلحون أبدًا[3].

دلالةُ إضافة (خَلْق) إلى اسم الجلالة:

خلقُ اللّه معجز أثير، فلا تبديل له ولا تغيير

أضيف لفظ ﴿لِخَلۡقِ﴾ إلى اسم الجلالة، في قوله: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، والإضافة هنا تدلّ على ربط عدم التّبديل للخلق، بكونه خلقَ اللّه،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 84.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11419، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 84.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 336.

ولتمام قدرته، واتّساع ملكه، ونفوذ إرادته، لا يقدر أحد على تبديل شيء ارتضاه، ولا تغيير أمر حكم به في علاه، ولذلك نفى السّياق التّبديل عن غيره، حين نسب الخلق إلى جلاله الأعزّ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ فطرة اللّه لا تتبدّل، وأنّ خلقه لا يتحوّل، باعتبار ذلك سننًا كونيّة، وقوانينَ علويّة، وقد قال في محكم تنزيله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: 43].

بلاغةُ الخبر بإفادة النّهي عن تبديل الخلق:

بيانُ تقرير الخبر المراد، بتضمّن الغرض المستفاد

جاء التّعبير بالأسلوب الخبريّ، في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، وتقدير معناه بإفادة النّهي: (لا تُبدِّلوا خلق اللّه)، وتكمن بلاغة الأسلوب الخبريّ هنا، في تضمّن تقرير مضمون الجملة، فالإسلام فطرة اللّه، ولا تبديل لخلق اللّه، وتضمّن الخبر يفيد التّنفير من ذلك؛ فلا ينبغي أن تُبدَّل فطرة اللّه أو تُغيّر، فيكون السّياق خبرًا في معنى النّهي؛ كأنّه قيل: لا تُبدّلوا دين اللّه بالشّرك[1]، وهذا ما لا يتضمّنه أسلوب النّهي المباشر؛ إذ في أسلوب الخبر المسوق، بيانٌ أجودُ، ودلالةٌ أنصع وأوكد.

نكتةُ فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ عمّا قبلها:

ترتّبُ العظمة على تمام الكمال، مفيد في البيان عن غرض المقال

فُصلت جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ عمّا قبلها، لِما فيها من التّتميم؛ إذ إنّه لمّا تقرّر أنّ الإسلام دين الفطرة التّي فُطر النّاس عليها، وأنّه لا تبديل لخلق اللّه، ترتّب عليه تعظيم هذا الدّين، وأنّه حقيقٌ بإقامة الوجه له[2]، والمراد بالدّين القيّم هنا، الشّريعةُ المستقيمة، وقد يكون أيضًا بمعنى: هذا الجزاء من اللّه ﷻ الّذي يجازي به خلقه يوم القيامة، فهو الجزاء العادل من اللّه سبحانه وتعالى، أو هو ذلك الحساب البيّن من اللّه سبحانه"[3].

(1) الأحنف اليمنيّ، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 2/ 41.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 88.
(3) أحمد حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 4/ 212.

علّةُ التعبير باسم الإشارة الدّالّ على البُعد:

الـدّيـن القـيّـم الكريم يستحقّ المزيد من التّمييز والتّعظيم

ابتدأت جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾، باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، ومرجع الإشارة هنا إلى الإسلام، أي الدّين المأمور بإقامة الوجه له، ولزوم الفطرة[1]، وفي مجيئه باسم الإشارة للبعيد مزيدُ تعظيم له، فالعظيم لرفعته، وعلو منزلته، كأنّه حاز البعد فيما ذكر، وفي ذلك إشارة إلى زيادة تمييز هذا الدّين، مع تعظيمه[2].

دلالةُ لفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾، ونكتةُ تعريفه بـ(ألْ):

إسلام الخضوع والاستسلام، هو الفطرة الّتي بـرأ الله عليها الأنام

عبّرت الآية بلفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾ في قوله: ﴿ٱلدِّينُ﴾، ويدلّ لفظ الدّين على الخضوع والالتزام والاستسلام[3]، والقيّم: الّذي لا تقوم الحياة إلّا به، هو مجموعة من التّشريعات الرّبانيّة المشتملة على الأخلاق؛ ودين اللّه دين الإسلام الحقّ، الّذي نؤمر بالإستقامة على نهجه، والالتزام بهدي[4]، و﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ هو الجامع لمعاني الإسلام النّبيلة، الّتي دلّ عليها، تعريفه بأل العهديّة، والإشارة إليه باسم الإشارة الدّال على البعيد، اعتبارًا لكماله وسموّه، وكونَه الحقيقَ باسم الدّين القيّم، دون سواه من الأديان، لما فيه من كمال، وما يتميّز به من موافقة للفطرة النّقيّة، والثّبات على المبادئ والمُثُل النّقيّة.

سرُّ صيغة (فَيْعِل)، وبلاغة الاستعارات:

الـدّيـن القيّم، نهج واستقامة وثبات

صيغ الوصف ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ بصيغة (فَيْعِل)، والّتي تفيد المبالغة وقوّة الاتّصاف بمصدره، وهو القيام[5]، فصار مستقيمًا في نفسه قائمًا بغيره، وفي وصف ﴿ٱلدِّينُ﴾ بـ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ استعارات بديعة، إذ استعير وصف الاستقامة من العود الّذي لا عوج له إلى الدّين؛

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 259، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 93.
(3) الراغب، المفردات: (دين).
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 54.
(5) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 337، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 390.

لنفي أي ميل أو انحراف أو نقص فيه[1]، واستعير وصف القوامة من القائم بشؤون غيره يرعاها ويؤدّي ما تستحقّه، لمن أقبل على الإسلام، وثبت عليه، وصَلحت حياته، وتحقّق كماله، واستعير وصف القيّم أيضًا، للمهيمن على غيره، والحافظ له، والإسلام حفظ ما في الكتب السّالفة، وهيمن عليها ببلاغة وارفة، وجدّد للنّاس المعين الزّلال، وأسعدهم بالوسطيّة والكمال، "لأنّ الدّين القيّم هو الدّين الكامل المستقلّ بنفسه، وذلك إنّما يكون إذا كان الدّين حاصلًا، وكانت آثاره ونتائجه حاصلة"[2].

معنى (الواو) في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الاسترسالُ لإتمام التّنويه، مفيد في الإبانة عن المراد

عُطفت جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، بالواو، عطفَ استدراك على التّنويه، فالتّنويه بشأن هذا الدّين في خطاب الكفّار لا يمرّ دون استغراب، فاسترسل الحديث ليدفع أيّ اعتراض على كمال هذا الدّين، والاستدراك في قوله: ولكن أكثر النّاس لا يعلمون لدفع توهم واهم يقول: إذا كان هو دين الفطرة وهو القيّم فكيف أعرض كثير من النّاس عنه بعد تبليغه[3]، قال القاضي: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: "أي، لا ينظرون ولا يتأمّلون لفرط غفلتهم واتّباعهم أهواءَهم، وما يستوي العاقل والمتبصّر، وينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التّفاوت، وهي فيما بعد البعث[4].

دلالةُ قوله تعالى: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

الاستدلالُ بالخارجين على دين الفطرة، بتأجّج الصّراع بين الحقّ والباطل

نسبتِ الآية عدمَ العلم إلى أكثر النّاس، والمقصود بأكثر النّاس هنا هم غير المؤمنين، أي المشركين وأهل الكتاب المحرّف، وكلّ العالمين سوى المسلمين من أتباع المصطفى وأتباع الرّسل والأنبياء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 13/ 531.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 94.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 531.

السّابقين بحقّ، وفي ذلك إشارة إلى ما يُنتظر من كثرةٍ تعارض ما فُطرت عليه، مع أنّ الإسلام للّه أصيل فيهم، وعدم العلم، بمعنى عدم معرفتهم، أنّ اللّه قادر على البعث والنّشر، وهو أهون عليه، كما أكّد ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[1].

دلالةُ التّعبير بصيغة (أفعل) في ﴿أَكۡثَرَ﴾:

ليست العبرة بالكثرة، بل بالفعاليّة والجدوى

صيغ لفظ ﴿أَكۡثَرَ﴾، بصيغة التّفضيل أفعل، وتدلّ على أنّ عدد من حاد عن دين الفطرة أكثر ممّن التزمه، في إشارة إلى أنّ العبرة ليست دومًا بالكثرة، فالفئة الأقلّ هي الّتي لزمت الأصل، في حين انحرفت الفئة الأكثر، وقد أشار القرآن في سورة الحجّ إلى انسلاك الكون برمّته، في طاعة اللّه وعبوديّته، واستثنى البشر الّذين شذّوا عن ذلك النّهج العبوديّ الحصيف، فانحرف لفيفٌ منهم، عن الهدى ودين الحقّ، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحجّ: 18]، وقال في هذا السّياق: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

نكتةُ الإضافة في قوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

الكثرةُ قد تكون ذات أثر، في الخير وفي الشّرّ

أضيف لفظ ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ونكتة هذه الإضافة هي الإشارة إلى أنّ الكثرة من الشّيء الواحد قد تؤثّر، في من هو مثلُهم، ولو كان ذلك على خلاف الأصل، فهؤلاء الكفّار لكثرتهم، قد أثّروا في الآخرين، فرأوا أنّ الأصل هو الشّرك؛ مع أنّ ذلك خلافُ فطرة النّاس.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 14/ 137.

دلالةُ التعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

بيان أنّ البشر مخلوقون على الفطرة، ويخالفونها

اختارت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، للإشارة إلى أنّهم ممّن خلق اللّه على الفطرة، وتعريف اللّفظ بأل الجنس؛ أي إنّهم البشر، وفي ذلك إشارة إلى استغراب موقف الكفّار المضادّ لفطرتهم، والتّساؤل عن سبب ذلك، مع أنّ الكلّ بشر فُطِر على الحقّ! وفي السّياق إشارة إلى جهل هؤلاء المشركين، وغيرهم من الضّالين والمكذّبين، في مختلف العصور والبيئات، بقدرة اللّه وسلطانه القائم على كلّ شيء، وأنّ فطرة اللّه الّتي فطر النّاس عليها، هي الدّين القيّم الّذي لا ريب فيه، وذلك أمر يشمل النّاس برمّتهم، ولو علموا لكانوا على الهدى لا على الضّلال.

معنى ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

لو تحقّق العلمُ في النّاس لعادوا إلى الفطرة السّوية بالعبوديّة

عبّرت الآية بلا النّافية في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وتدلّ ﴿لَا﴾ هنا على نفي العلم، فهم لا يعلمون ذلك حتّى يعملوا به[1]، فلو أنّهم اتّصفوا بالعلم، لآمنوا بأنّ الإسلام دين الفطرة، فهي إشارة إلى سبب الاهتداء، وهو تحقّق العلم في أسلوب النّفي الّذي جعلهم غير عالمين، والعلم وسيلة الإدراك، لفهم طبيعة الفطرة، ولو كان لهم أثارة من علم، لزالت تلك الغشاوات الّتي تغطّي عنهم مجال الرّؤية الصّافية، لتتفاعل مع الفطرة الأصيلة، ممّا غرسته قدرة اللّه في أعماق النّاس، ليعلموا دون غبش، ولا ضبابيّة، ولا حجب.

دلالةُ نفي العلم في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

بيان أنّ نسبة الجهل للنّاس، نتيحة منطقيّة لنفي العلم عنهم

دلّ نفي العلم عنهم في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، على نسبتهم إلى الجهل، فلا يوصفون بالعلم لأنّهم ولو علموا حقّ العلم لاتّبعوا[2]، إذًا فهم جاهلون بالحقّ، وبفطرتهم وما ينسجم معها، وما به

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 259.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 41، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 46.

صلاحهم لو التزموا الإسلام، والوصف في القرآن الكريم بعدم العلم في عمومه، يؤكّد أنّهم "لا يعلمون شيئًا عمّن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم، وسوف يميتهم، ثمّ يحييهم، ثمّ يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئًا عن مصيرهم الأخير الّذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا، فليس معدودًا من جنس من يعلم؟[1]، وعدم العلم بالفطرة، ضلال ومفسدة.

دلالةُ نفي المضارعة:

نفيُ محاولة التعلّم عنهم غلْقٌ لباب الفهم والتّأثّر

صيغ الفعل المنفيّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بصيغة المضارعة، وفي نفيه نفي لمحاولاتهم التّعلّم، فهم لا يعلمون ولا يحاولون التّعلّم، ولو حاولوا لعلموا الحقّ، فالتزموا به، وهي إشارة إلى تمام بعدهم عن العلم، وإعراضهم عن كلّ ما يفتح عليهم علمًا[2]، فصاروا في ظلمات الجهل بعضها فوق بعض، ومن كان كذلك، فأنّى له أن يقف على فطرته، وما ينسجم معه؟.

نكتةُ حذف مفعول العلم:

نفيُ أصل التعلّم عنهم إفصاحٌ عن إيغالهم في الجهالة والعناد

حُذف مفعول العلم في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ونكتةُ حذفِه هنا، هي القصد إلى الفعل ذاته؛ كأنّه فعل لازم مع أنّه متعدّ[3]، أي إنّ المنفي فيهم هو فعل العلم ذاته، بغضّ النّظر عن المطلوب، فهم لا يَسۡعَون لتعلّم شيء أو معرفته، مكتفين بما عندهم من أثارة علم، فيما لا يفيد في مهمّات حياتهم، فلا يبذلون جهدا في القيام بالتعلّم، ومن كان كذلك، فإنّ رواسب الزّمان، وتأثير الأقران ووساوس الشّيطان، ستُغطّي عليه أكبر الحقائق، وأشدّ الأمور أصالة فيه.

---

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 528.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 89.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 94.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الفطرة والخلقة:

الفـطـرة أصـلٌ وابـتـداء، والخـلـقـة خصائص وطباع ومكوّنات

تجتمع الفطرة والخِلقة في معنى الإيجاد، و"فَطْرُ اللّهِ الخلقَ: هو إيجادُه الشّيءَ وإبداعُه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال"[1]، والفطرةَ السّلامةُ والاستقامة، بدليل حديث عياض بن حمار عن النّبيّ ﷺ حاكيا عن ربّه ﷻ: «إنّي خلقت عبادي حنفاء»[2]، يعني أنّه أوجدهم على استقامة وسلامة، "والفطرة: ما فُطِر - أي خُلق - عليه الإنسان ظاهرًا وباطنًا، أي جسدًا وعقلًا، فسَيْرُ الإنسان على رجليه، فطرة جسديّة، ومحاولة مشيه على اليدين، خلافُ الفطرة"[3]، وتتميّز الفطرة في أنّها ابتداء وإخراج من عدم، ففطر الشّي أوجده من عدم، وفطره أي ابتدأه، وفطره أي شقّه[4]، أمّا الخلق فتقدير وخصائص[5]، فخلقَ الشّيء أوجده، يقول تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]، أي تقديرًا وتصويرًا، وإذا كانت الفطرة والخلقة سواء، فإنّ الفطرة يُنظَر إليها من زاوية الأصل والابتداء، في حين يُنظر إلى الخلقة من زاوية الخصائص، ولمّا كان الإسلام هو سبيل الاستقامة التي أوجد اللّه تعالى النّاس عليها ناسب لفظ ﴿فِطۡرَتَ﴾ بوصفه فعل إبتداء خلق النّاس على مبنى السّلامة والاستقامة.

التّبديل والتّغيير والتّحريف:

التّحريف تبديل جزئيّ والتّغيير تبديل إلى وضع مخالف

التّغيير والتّحريف تبديل، وهو إحلال شيء محلّ شيء آخر نوعًا أو صفةً[6]، إلّا أنّ التّغيير هو إبدال إلى ما يخالف الوصف أو

---

(1) الرّاغب، المفردات: 2/ 494.

(2) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 18/ 68 - 71.

(3) ابن عاشور، أصول النّظام الاجتماعيّ، ص: 36.

(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 407.

(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 224.

(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (بدل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 21.

الشّيء الأوّل[1]، ففيه معنى التّقابل بينهما، وأمّا التّحريف فهو إمالة الشّيء إلى حرفه أيّ حافّته[2]، وهو تعديل في حرف الشّيء لا في أصله[3]، بِغضّ النّظر عمّا حرّف إليه موافقًا أو مخالفًا، فالتّحريف تبديلٌ جزئيّ والتّغيير تبديل كلّيّ إلى مخالف، وقيل التّغيير هو انتقال من حال إلى حال، وهو يتعلّق بالأعراض، مع بقاء الذّات، أمّا التّبديل يكون في الذّوات، وما ذكره المشركون من طلب تغيير القرآن أو تبديله، إنّما هو إمّا طلب بقاء رسم القرآن في المصحف، مع التّصرّف في المضامين، بما يلائم الأهواء، أو استصدار رخص تلغي عزائمه وواجباته الملزمة المفروضة على المؤمنين، بنصّ قطعيّ صريح، أمّا تبديله، فهو إلغاؤه وتعطيله وإبطاله بصورة نهائيّة، وإحلال قوانين البشر وفلسفاتهم محلَّه[4]، وقد كان المشركون يريدون التّغيير والتّبديل حتّى قبل نهاية التّلاوة، قال السّامرّائيّ: "قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ [يونس: 15]، فإنّ معناها أنّهم في أثناء القراءة، يقولون: ائت بقرآن غير هذا، يقولون ذلك والقراءة لم تكتمل بعد، لضيق ذرعهم بسماعه"[5]، وهذا المعنى ملائمٌ لاختيار لفظة التّبديل.

الخَلق والإنشاء والتّقدير:

التّقديرُ تحديد قدر، والخلق ابتداء وتقدير، والإنشاء تعهّد وتجديد

يجتمع الخلق والإنشاء في الإيجاد، ويفترق عنه في أنّ الإنشاء إحداث الشّيء وتربيته[6]، فهو إيجاد متجدّد وتعهّد للشّيء حالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 102.
(2) الرّاغب، المفردات: (حرف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (حرف).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 24 (بتصرّف).
(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 79.
(6) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

بعد حالة؛ فيتجدّد خلقه كلّ حين، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14]، أما الخلق فهو ابتداء بخصائص، وتقدير محدّد[1]، يقول ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، والخلق تقدير، إلّا أنّ التّقدير هو تحديد كمّية شيء[2] وخصائصه ومقاديره[3]، يقول تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: 2]، في حين أنّ الخلق تقدير للشّيء ابتداء وتحديد خصائصه الأصليّة، ويزاد بأنّ غير اللّه تعالى لا يخلق كخلق اللّه، فلا يمكنه إيجاد معدوم، ولا إحياء ميت، وإنّما خلق غير اللّه تعالى، يكون بالتّغيير وتحويل الشّيء من صفة إلى صفة أخرى، وهو مخلوق للّه ﷻ، فالمصوّر مثلًا إذا صوّر صورة، فإنّه لم يحدث شيئًا، غاية ما هنالك، أنّه حوّل شيئًا إلى شيء، كما يحوّل الطّين إلى صورة طير، أو صورة جمل، وكما يحوّل بالتّلوين الرّقعة البيضاء إلى صورة ملوّنة، فالمداد من خلق اللّه ﷻ، والورقة البيضاء من خلقه، هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنّسبة إلى اللّه تعالى، وإثبات الخلق بالنّسبة إلى المخلوق، وعلى هذا؛ يكون اللّه سبحانه وتعالى منفردًا بالخلق الّذي يختصّ به[4]، ومنه فلفظ (خلَق) في الآية يناسب التّصريح بنفي تبديل ما قدّر اللّه تعالى ابتداءً.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خلق).

(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).

(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 121.

(4) محمّد بن صالح العثيمين، كتاب فتاوى أركان الإسلام، ص: 11.

﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الرّوم: 31 - 32]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الـــرّبــــط بـين الالتزام بالفطرة والإقـبــال على الـدّيــن الـحـقّ دون شــرك ولا ضلال

حثّ اللّه ﷻ في الآية السّابقة على إقامة الوجه للدّين حنيفًا، مبيّنًا أنّه فطرة اللّه التّي فطر النّاس عليها، ولا تبديل لخلق اللّه، وأنّ ما عليه أغلب النّاس من الإعراض عن الحقّ فهو راجع إلى عدم العلم، فجاءت هذه الآية هنا لتحثّ النّاس على لزوم الحقّ والإنابة إليه، لتتجلّى فيهم فطرة اللّه، ولا يكونوا من المشركين، ففي الآية مزيد تحريض للإقبال على هذا الدّين القيّم والتمثّل به، والحنف عمّا عداه[1]، فيكونون مُنيبينَ، راجعين إليه بالتّوبة والإخلاص، والتّقرّب بالصّلاة، دون شرك مضلّ، ولا تفرّق في الدّين مخلّ، بمنأى عن الفرح الزّائل، والتّشرذم والتّحزّب لما سوى اللّه؛ إذْ لا نجاة إلّا في كنفه وحماه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنِيبِينَ﴾: (نوب) أصلٌ يدُلُّ على اعْتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيْهِ[2]، نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسمّي النّحل نَوْبًا لرجوعها إلى مقارّها، والإنابة إلى اللّه تعالى: الرّجوع إليه بالتّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ۝٢٤﴾ [ص: 24][3]، وفلانٌ ينتاب فلانًا، أي: يقصده مرّة بعد أخرى، والمُنيبُ مَنْ أنابَ إذا رَجَعَ[4]، وتاب، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 85.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نوب).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نوب).

﴿رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزّمر: 54]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الرّوم: 33]، والّذي في القرآن من هذا التّركيب كلُّه من الإنابة، بمعنى: الرّجوع إلى الله ﷻ[1]، وهو معنى اللّفظة في الآية، أي: أنّهم سيكونون راجعين إليه في كلِّ ما أمَر به، ولا يخرجون عن شيء مِنْ أمْرِه[2].

2) ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: أصلُ الوقايةِ: دَفْعُ شيءٍ عن شيءٍ بغيرِهِ، يُقال: وقى نَفْسَهُ من العَدوِّ بِسلاحه، أيْ: دَفَعَهُ به، والوقايةُ: ما يقي الشَّيءَ، واتَّقِ اللّهَ: تَوَقَّهُ، أي: اجْعَلْ بينك وبينه كالوقايةِ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِ تَمْرَةٍ»[3]، وكأنَّهُ أرادَ: اجعلوها وقايةً بينكُم وبينها[4]، والمُتَّقي من اتَّصَفَ بالاتِّقاءِ وهو طلَبُ الوقايةِ، وهو الحَذِرُ المُتَطَلِّبُ للنَّجاةِ مِنْ شَيْءٍ مَكْروهٍ مُضِرٍّ[5]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ من الشَّيءِ، والاتِّقاءُ: تكَلُّفُ الوِقايَةِ، وهيَ الصَّوْنُ والدَّفْعُ[6]، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ من الأَذَى والضَّرَرِ[7]، والمقصودُ بالاتِّقاء في الآيةِ: اتّخاذ وقاية من سخط اللّه.

3) ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ أوْ عَزْمٍ، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ، إذا انْتَصَبَ[8]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيه، وتُطْلَقُ بمعنى الدَّوام على الشَّيْءِ، كقَوْلِهم: أقامَ الشَّيءَ بِمعنى أدامَهُ[9]، ومِن مَعانيها: القيامُ بالشَّيءِ، من أقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ، كما تُطْلَقُ الإقامَةُ أيضًا ويُرادُ بِها: جَعْلُ القاعِدِ قائمًا[10]، قَوْلُهُ: "الصَّلاةُ القائِمَةُ، أي: الدائِمَةُ، وأقيموا الصَّلاةَ، أيْ: أديموها لِأَوْقاتِها[11]، ولم يرد لفظ الصّلاة بالأمر إلّا مقرونًا بإقامتها؛ لأنّ الإقامة هي المقصد من الصّلاة، وأنّ ممارستها دون إقامتها،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (نوب).
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 185.
(3) رواه أحمد في مسنده، عن عدي بن حاتم ﷺ، رقم الحديث: (18253).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقى).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وقى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 226.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (وقى)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التعاريف، ص: 340.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(11) بطّال الرّكبيّ، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب: 1/ 64.

يذهب بغايتها، ويفرغها من جوهرها الرّوحيّ، باعتبارها صلةً بين العابد والمعبود، والمُرادُ بإقامَةِ الصَّلاةِ هنا: أداؤها أحسن أداء، وربط الصّلة بالله[1].

4) ﴿فَرَّقُواْ﴾: (فرق) أصلٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بينَ شيئَين[2]، والفَرْقُ: موضع المَفرِق من الرَّأس في الشَّعر، والفَرقُ: تفريقٌ بين شيئَين فرقًا حتَّى يَتميّزا تمامًا، وتَفارقَ القومُ وافترَقوا أي فارق بعضهم بعضًا[3]، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، أي: تركوه، وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: 29]، أي: فتحًا ونصرًا، قال الفرّاء: ومثله يوم الفرقان، أي يوم الفتح، ويقال للصّبح قد طلع الفرقان[4]، والفِرْقُ والفِرْقَةُ والفَريقُ: الطّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ المُتَفَرِّق، والفِرْقةُ: طائِفَةٌ مِنَ النّاسِ تميّزت بشيء مشترك بين أفرادها عن غيرهم[5]، والتَّفريقُ في الآية معناه: اختلافهم فيما يعبدونه، وفق اختلاف أهوائهم[6].

5) ﴿شِيَعٗاۖ﴾: (شيع) أصلٌ يدُلّ على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَةٍ[7]، الشّيعة: الفِرْقَةُ، أو القَوْم يَجْتَمعونَ على الأمر، وبه فسَّر الزَّجاج قَوْله تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾ [الحجر: 10][8]، وشاعه الله تعالى بالسّلام شَيْعًا وأشاعه أتبعه، والسّلام كذلك، وشِعْت بالخبر شَيْعًا، وأشعته وأشعت به فشاع شَيعًا، أي ظهر وانتشر في النّاس[9]، والشّيعة أيضًا: أتباع الرَّجُل وأنصاره، وجَمعها شيَعٌ وأشْياعٌ جمع الجمع[10]، وكُلُّ قَوْم أمْرُهُم واحِدٌ يَتْبَعُ بَعْضُهُم رَأْيَ بعضٍ فهُم شِيَعٌ، ويُقالُ: هُم شيعَةُ فُلانٍ وشيعَةُ كذا من الآراءِ[11]، والشّيعُ في القُرْآن على أَرْبَعَة أوجه: أحدها: الْفِرَق، والثاني: الْأَهْل والنّسب، والثّالِث: أهل المِلَّة، والرّابِع:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 200.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(3) الخليل، العين: (فرق).
(4) الهرويّ، كتاب الغريبين في القرآن والحديث: (فرق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرق).
(6) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 51.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيع).
(8) الزّجاج، معاني القرآن: 3/ 174، وابن سيده، المحكم: (شيع).
(9) ابن القطّاع الصقلّي، كتاب الأفعال: (شاع).
(10) ابن سيده، المحكم: (شيع).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (شيع).

الْأَهْواء الْمُخْتَلفَة[1] والمقصود بالشّيَع في الآية: جَمْعُ شيعةٍ، وهي الفِرْقَةُ الَّتي أمْرُها واحِدٌ، ينصر بعضها بعضًا، على الفرقة الأخرى، والمعنى: كانوا مُتَفَرِّقين في دينهم ينصر كلّ واحد منهم حزبه.

6) ﴿حِزْبٍ﴾: (حزب) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ، فمِنْ ذَلِكَ الْحِزْبُ الْجَماعَةُ مِنَ الناسِ، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حِزْبٌ[2]، قوله تعالى جدّه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [المجادلة: 19]، أي: جنده وجماعته، وقد تحزّب القوم: إذا صاروا أحزابًا وفرقًا[3]، وحَزَّبَ فلانٌ أصحابَه أحْزابًا، بالتّشديد، أي جَمَعَهم، والحِزْبُ بالكسر: النَّصيب، يقال: أَعْطِني حِزْبي من المال، أي حَظِّي ونَصيبي، وتَحازَب القومُ: إذا مالَأَ بعضُهم بعضًا، وأمرٌ حَزيبٌ، أي شديدٌ[4]، وأصلُ (حَزَبَ): يدلُّ على تَجَمُّعُ الشَّيءِ، فمن ذلكَ الحِزْبُ الجماعةُ من النّاسِ، والأحزابُ: كلُّ طائفةٍ هواهُم واحدٌ[5]، والمقصودُ بالحِزب في الآيةِ: الفئة الّتي تجتمع على أمر واحد[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإخلاص لله والالتزام بالعبادة، بدل الإشراك والتّشرذم، واتّباع الهوى

بيّن الحقُّ تعالى، أنَّ العِبادة لا تُقبَلَ إلّا بالرُّجوع إليه ﷻ، والتَّمَسُّكِ بشرعه، وامتِثالِ أوامِره، واجتِنابِ نواهيه، وإقامة الصَّلاة على وجْهها الأكمل، بعيدًا عن الشّرك ودواعيه، وترك التّفرّق في دين اللّهِ الَّذي فطَرَ العِبادَ عليه، وشَرَعَه لهم، بأن يكونوا فِرَقًا وأحزابًا، كُلُّ فِرقةٍ مِنهم، تسعى لنَصرِ ما معها مِن الباطِلِ، ومُنابَذةِ

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر في علم الوجوه والنّظائر، ص: 378.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حَزَبَ).
(3) الهرويّ، كتاب الغريبين في القرآن والحديث: (حَزَبَ).
(4) الصّاغانيّ، التكملة والذيل والصلة: (حَزَبَ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 73.

مَن خالَفَها، لنجد كلّ فرقة تزهو وتغتبط، بما عندها مِنَ الضَّلالاتِ والغلط، وهي تتوهّم أنَّها على هدى مستقيم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصل جملة ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ عمّا قبلها:

الإنابةُ إلى الله تجلٍّ للفطرة، وإقامة للدّين القيّم

ابتدأت جملة ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ باسم منصوب، ويمكن حمله على الحال؛ أي حال المقيمين وجوهَهم للدّين، فهم في إقامتهم وجوهَهم للدّين منيبين إلى ربّهم[2]، وإذا كان النّاس قد فطرهم اللّٰه على الفطرة التّي لا تبديل لها، فليكونوا منيبين إليه، حتّى تتجلّى فطرة اللّٰه فيهم، والخطابَ للنّبيِّ ﷺ لأُمّته؛ أي: أقيموا وُجوهَكُم مُنيبينَ إليه ولا تكونوا مشركين[3]، فلأجل تمييز المؤمنين عن المشركين، جاء الأمر بالإنابة والتزام الدّين، وتجنّب سعي المشركين، فأمر المسلمين عن طريق المصطفى المؤتسى به بإقامة وجهه للدّين حنيفًا، فحسُن بذلك فصل الآية، عمّا قبلها.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿مُنِيبِينَ﴾ دلالة وصيغة:

بيانُ أنّ مجانفة الباطل، والإنابة إلى الحقّ، هي جوهر الدّين

آثرت الآية لفظ ﴿مُنِيبِينَ﴾؛ لأنّ الإنابة رجوع وانقطاع إلى اللّٰه ﷻ[4]، وهي رجوع إلى الحقّ، والتزام به، كما أنّها انقطاع عن غيره من سُبُل الكفّار[5]، فصارت عودة والتزامًا، بما يجعل الأمر بالإنابة في معنى الآية السّابقة، وهي قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، فالإنابة هي إخراج القلب من ظلمات الشّبهات، وقيل: الإنابة الرّجوع من الكلّ إلى من له الكلّ، وقيل: الإنابة الرّجوع من الغفلة إلى الذّكر، ومن الوحشة إلى الأُنْس[6]، وصوغُه على هيئة اسم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 497، والواحديّ، الوسيط: 3/ 434، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 211، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 31، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 316.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 243.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 89.

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 31.

(6) عرفة بن طنطاويّ، المنهج التّأصيلي لدراسة التفسير التحليليّ، ص: 234.

الفاعل دليل على رسوخ صفة الإنابة فيهم، ودوامها، وهو ما يناسب صدق التّوبة التي يَحثُّ عليه الشّارع سبحانه.

مرجعُ ضمير الجماعة في ﴿مُنِيبِينَ﴾:

اعتناءٌ بالمؤمنين بعد خطاب المصطفى الأمين

وجّهَ الخطاب في قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ إلى الجماعة، فالضمير راجع إلى جماعة المؤمنين من أتباع المصطفى[1]، وهم من أقبل على الحقّ اتّباعًا للرّسول الّذي أُمر في الآية السّابقة، أن يقيم وجهه للدّين حنيفًا، وهم من ستتجسّد فيهم فطرة الحقّ التّي لا تتبدّل، لا الكفّار الّذين لا يعلمون من أمر العقيدة الحقّة شيئًا، وفي ذلك إشارةٌ إلى الاعتناء بالمؤمنين، ومخاطبتهم مع رسول الهداية الأمين، رجاء "النّزوع عمّا اكتسبتموه من رديء الأخلاق، إلى تلك الفطرة السّليمة المنقادة للدّليل، الميّالة إلى سواء السّبيل"[2].

معنى (إلى) في القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾:

بيانُ منتهى الإنابة والإخلاص، وأثر الانقطاع والالتزام

قُيّدت الإنابة بحرف (إلى) والضّمير، ويدلّ حرف (إلى) على انتهاء الغاية، والمقصود بذلك تحديد المرجع الّذي إليه ينتهي المؤمن، وهو الرّجوع إلى جناب الحقّ ﷻ[3]، إخلاصًا وقصدًا، وانقطاعًا والتزامًا، ويخاطبهم، بما مُفاده أنّه إذا كان الكفّار يعرضون عن الحقّ، فأقبلوا أنتم عليه، وإذا كانوا ينقطعون عنه، فانقطعوا إليه، مّما يجعل للإنابة قصدًا، ولقوّته أصلًا يرجع إليه وهو أصل الفطرة[4]، فالأوبة إلى اللّه إخلاص في القصد له، والتزام بدينه الّذي جاء به رسوله ﷺ، ودرجات تقوى في الاقتراب إليه سبحانه، وتقييد الوجهة هنا، بأن تكون الإنابة للّه وحده دون سواه، وهي بذلك تمحيصٌ للاعتقاد، وتمحيصٌ للتّوحيد المراد، وتحديدٌ صارم للوجهة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 390.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 89.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 89.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11420.

معنى (الواو) في قوله ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾:

بيانُ المنهج بعد تحديد المرجع، مفيد في الإبانة عن المراد

عُطف قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ على ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ بالواو، عطْفَ أمر على أمر[1]؛ أي (كونوا منيبين إليه واتّقوه)، هو أمر بالتّقوى بعد الأمر بالإنابة[2]، فالإنابة إلى اللّه وجهةً وانقطاعًا، وتَكمل بتقوى اللّه ﷻ؛ لأنّ التّقوى تورث الالتزام بالحقّ، وتؤتي ثمرات الفطرة في أصحابها، فحَسُن بيان منهج الإنابة بعد بيان مرجعها[3]، ومعنى ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي خافوه تعالى؛ إذ عذابه شديد، فلا تتركوا دينه لأيّ دين، ولا طاعته لأيّ مطاع غيره تعالى[4].

سرُّ اختيار لفظ (التّقوى):

التّقوى وقاية تُقَرّب إلى رضوان الخالق

اختارت الآية التّعبيرَ بلفظ التّقوى، في قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنّ التّقوى تدلّ على اتّخاذ وقاية ممّا يُكره، فصارت التّقوى تعبيرًا عن الوقاية من غضب اللّه وعقابه، وذلك بترك معاصيه؛ إشراكًا به، وإعراضًا عن آياته، بل المأمور به ملازمة طاعته، واتّباع هديه، واجتناب معاصيه[5]، وفي ذلك إشارة إلى مباعدة منهج الكفّار[6]، وفي اختيار لفظ التّقوى دون الخوف والرّهبة، إشارة إلى ما في الإسلام من اللّطف والأنس، وموافقة الفطرة والاطمئنان، فالتّقوى تقرّب إلى الحقّ بنيل رضوانه، والتزام إيمانه، والابتعاد عن كلّ ما يجلب الشّرور، وينأى بصاحبه عن الفعل الصّالح المبرور، إذ من اتّقى ربّه، انتحى سبيله، وأناب إليه، عَجلًا إلى مرضاته، ومسارعًا إلى طاعاته، فهي رأس الأمر كلّه، ثم إنّ إقامة الصّلاة لا تتأتّى إلّا إذا ظهرت أمارات التّقوى على المصلّي، وبذلك فإنّ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 259.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11420.
(4) أبوبكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 178.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 46.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 89.

الوصل بين ألفاظ الإنابة، والتّقوى وإقامة الصّلاة، دالٌّ على ملمح التّكامل بينها.

نكتةُ إسناد التّقوى إلى ضمير الجماعة:

الجماعة تُعين على التّقوى، وتشدّ الأزر في البلوى

أُسندت التّقوى إلى الجماعة، في قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ونكتة هذا الإسناد، هو ما في الجماعة من التّعاون مع الالتزام وتيسير سبل تحقيق مراد الله ﷻ، فالجماعة تُؤنس وتُصوّب وتُعين، ألم يقل الحقّ ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 2]؛ في مقابل كثرة المعرضين عن الحقّ، فالمؤمنون شأنهم التّعاون والتّكاتُف، والفرد منهم لن يقاوم الشّرور المحيطة به، والأعداء المتربِّصين به وحده، بل لا بدّ، أن يشدّ إخوانُه أزره، ومعلوم أنّ سرّ قوّة الأمّة في تماسكها وتعاضدها، لذلك كان الأمر بالتّقوى والإنابة قبلها، مسندين إلى الجمع، ولم يقل "(منيبا إليه واتّقه)، بل قال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾، والغرض من أمر المؤمنين بالتّقوى هنا، دوام طاعة الله ﷻ، فمن أناب إلى ربّه ورجع إليه، فهو من المتّقين، ولكنّ دوام التّقوى، هو الّذي يجليّ الفطرة، لذلك نادى الجماعة المخاطبة، أن اتّقوا الله ودوموا على تقواه[1]، وفي ذلك إشارة إلى اتّخاذ التّقوى منهجًا في الحياة، في مقابل اتّباع الكفّار لأهوائهم.

دلالةُ (الواو) في قوله ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

عطفُ الأمر بالصّلاة، على التزام نهج التّقات

عُطف قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، على قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، بحرف الواو، عطف أمر ثالث على أمر ثان، وهو كالتتمّة للأمر السّابق؛ فإنّ من التّقوى إقامةَ الصّلاة، فصار العطف عطف خاصّ على عامّ، وكلاهما مفضٍ إلى قرب الله ونيل جزائه وعطائه، وذلك لما في إقامة الصّلاة من أثر، وما للتّقوى من تأثير، فهو عطف المتقاربات، في الفعاليّة والأجر والجزاء، للحثّ على سلوك نهج الرّضى[2].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 85.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 90 (بتصرّف).

دلالةُ التّعبير بإقامة الصّلاةَ:

إجادةُ التّقرّب إلى الحقّ، في عبادته بما شرع

أمرت الآية في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالإقامة دون الاقتصار على الأمر بالصّلاة فقط، وذلك بإتمامها بكلّ شروطها وأركانها وخشوعها وتأديّتها لأوقاتها(1)، لما في الإقامة من معنى أداء الصّلاة، على أكمل وجه، وأكمل خشوع، فالصّلاة صلة، وكلّما أدّاها المؤمن بأكمل صورها، نال ثمرتها، فصار الأمر بإقامة الصّلاة أمرًا بدوامها وإجادتها(2).

دلالةُ الأمر في الفعل ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

كمالُ التّقرّب إلى الله، قرب وطاعة ونجاة

جاء الأمر بإقامة الصّلاة، في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والغرض من الأمر هنا، هو مزيد القرب إلى الحقّ ﷻ بصورة قيّمة؛ لأنّ إقامتها على أكمل صورها، كالّذي يُذكّر كلّ يوم بالله ورضوانه، ومعيّته وتوفيقه، وهو ما يجلّي الفطرة الّتي في صاحبها، فيشهد الصّلاح في حياته(3)، وذلك في مقابل شدّة إعراض الكفّار وغفلتهم عن الحقّ، ومن الإنابة إلى الله، والالتزام بشرعه وهداه، "الأمر بتقوى الله، وإقامة الصّلاة، حيث يلتقي هذا الأمر مع فطرة سليمة، أناب أصحابها إلى الله، ورجعوا إليه، بعد أن بعدت بهم الطّريق عنه"(4).

دلالةُ التّعريف بـ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الارتباطُ بالحقّ والتّعبّد والتّقرّب، هي مجلى الإنابة إلى الله

عبّرت الآية بلفظ الصّلاة، في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، معرّفا بأل، وهي أل العهد، أي الصّلاة المعروفة عند المسلمين، وتدلّ على الصّلة بين الخلق والخالق، وصورة العبادة المثلى لله سبحانه ووسيلة التّقرّب، وفي ذلك إشارة إلى عظيم شأن التّعبّد والتّنسّك لله تعالى بها، فهي صورة التّواصل والصّلة مع الله، فمن فقدها فقد الرّابط.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 21/ 55.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11421.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 46.
(4) عبدالكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 516.

دلالةُ إسناد إقامة الصّلاة إلى الضّمير:

التّعاونُ مع القربى بدل التّشيّع على الإعراض والهجران

أُسند الأمر بإقامة الصّلاة، في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إلى ضمير الجماعة، مع أنّ الصّلاة جانب شخصيّ فرديّ؛ فهي تواصل بين العبد وربّه! ويشير ذلك إلى شأن الجماعة في إقامة الصّلاة، والتّضافر على العبادة والقربى، ممّا يزيد الفطرة رسوخًا وجلاءً، ويثمر وحدة في المشاعر والعلائق، ويشير إلى التّعاون بين المؤدّين لشعيرة الصّلاة.

بلاغةُ الالتفات من المفرد إلى الجمع:

علاقةُ خصوصيّة الأوّليّة، بعموم الاعتناء

استعمل القرآن أسلوب الالتفات في الآيتين من خطاب المفرد، في قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، إلى خطاب الجماعة، في قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وتكمن براعة الالتفات هنا في تقديم مقام الرّسول ﷺ أوّلا بالخطاب؛ ففي تخصيصه بيان لمنزلته العظيمة، وخصوصيّته بأنّه مرجع هذا الدّين، ومحلّ الاقتداء عند المسلمين، وهو أوّل مخاطب بتحقيق مقاصد الدّين، وأوّل مأمور بتطبيق أصول الشّريعة وفروعها، من إنابة زكيّة، وإقامة للدّين رضيّة، والتزام بالتّقوى والعبوديّة، والأمر بذلك يرسو لديه أوّلًا، ثمّ يتعدّى إلى المخاطبين، برسالته وهديه وسنّته، من عموم أمّته.

دلالةُ التّرتيب بين الأوامر الثّلاثة:

أوامرُ الله في السّياق مرتّبة، بين الإقبال والتّخلية والتّحلية

جاءت الأوامر الثّلاثة في قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، على نسق في التّرتيب؛ فتقدّم ذكر الإنابة على الأمر بالتّقوى، لما في الإنابة من الإقبال والتّوجّه إلى الحقّ، فينتج عنه تقواه، فجاء الأمر بالتّقوى، تخليةً من النّقص، وجاء بعدها التّحلية بإقامة الصّلاة، وقد كانت التّقوى جزءًا من الإقبال على المولى، وكانت إقامة الصّلاة صورة للتّقوى، في مستواها الأعلى، وكانت بها أولى.

وصفُ الشّرك المهين، يقابله معرفة الله بيقين

نكتةُ تقديم الأمر على النّهي:

عطف قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، على قوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، بحرف الواو، عطفَ نهيٍ على أمر، فبعد أن أمر بالتّقوى، وإقام الصّلاة، وهي علامات الإنابة والإقبال على الحقّ ﷻ، حذّر من الرُّكون إلى المشركين، وبضدّها تتميّز الأشياء، وقد تقدّم الأمر على النّهي في قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ونكتة ذلك أنّ الأصل هو الفطرة، لذلك فقد جاء الإرشاد إلى ما يجلّيها في الإنسان، ثمّ انتقل الخطاب إلى ما يخالفها، ممّا به يقع الخلل، فحذّر ممّا يكدّر صفو الفطرة، ويعكّر صفاءها، بالشّرك أو التّفرّق أحزابًا وشيعًا، فمن أناب واتّقى وأقام الصّلاة، فهو منسلكٌ في أمر اللّه، ومن خالف ذلك، وانسلخ من الفطرة، فهو من المشركين المنبوذين، بنصّ الآية المبين.

التّعريضُ بالمشركين المـمزّقين، في الدّنيا وفي الدّين

دلالةُ الأداة (لا):

جاء التّعبير في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باللّام، وهي لام النّهي، تمنع المؤمنين أن يكونوا من المشركين، بتضييعهم فرائضه، وركوبهم معاصيَه، وخلافهم الدّين الّذي دعاهم إليه[1]، وتدلّ أيضًا على الأمر بمقابل ذلك؛ أي لا تكونوا من المشركين، بل كونوا من الموحّدين المخلصين للّه العبادة، لا يريدون بها سواه[2].

مخالفةُ زمرة المشركين، منجاة من الهلاك في الدّارين

دلالةُ النّهي عن الانتساب للمشركين:

نهت الآية عن الانسلاك مع المشركين، دون النّهي عن الإشراك مباشرة، ويدلّ ذلك على المنع من التّشبّه بهم، وفعل أفعالهم، وموافقتهم فيما يفعلون، فلم يقف النّهي عند منع الإشراك، بل

(1) فيصل آل مبارك، توفيق الرّحمن في دروس القرآن: 3/ 441.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 316.

تجاوزه إلى المنع من الدّخول في زمرة المشركين، وهو أبلغ في منع التّلبّس بأيّ وصف يتّصفون به، أو منهج يتّخذونه[1].

دلالةُ إسناد فعل النّهي إلى ضمير الجماعة:

التّميّز عن المشركين ضرورة؛ لأنّه منوط باختلاف المنهجِ والاعتقاد

أُسند النّهي إلى الجماعة، في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وفي ذلك دلالة على تميّز منهج المؤمنين عن منهج المشركين؛ إقبالًا على الحقّ، والتزامًا بالتّقوى، واتّصافًا بالتّعبّد والإخلاص، في مقابل إعراض المشركين عن الحقّ، واتّباعهم للهوى، وعبادتهم لغير اللّه، لذلك فإنّ للمشركين سبيلًا، وللمؤمنين سبيلًا آخرَ، مخالفًا له، وشتّان بين الحقّ والباطل، وبين النّور والظّلماء.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

منعُ الانتماء إلى المشركين، وقاية من صفاتهم وشرورهم

جاء ذكر حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ليدلّ على التّبعيض[2]، فلا تكونوا جزءًا منهم ولا مثلَهم، في أي شيء يقومون به، من الإشراك ولوازمه، وفي ذلك إشارة إلى التّمايز التّامّ مع هؤلاء.

دلالةُ التّعبير بالإشراك في النّهي:

شركُ العبادة والالتجاء، منهيٌّ عنه في كتب السّماء

عبّرت الآية بالإشراك في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ويدلّ لفظ الإشراك على اتّخاذ آلهة مع اللّه ﷻ، والتّعبّد لغير اللّه، أو بالتّديّن بما يخالف وحي اللّه[3]، فالإشراك هو اتّخاذ شيء مع اللّه ﷻ في عبادة أو دعاء أو تقرّب، وفي ذلك إشارة إلى غير المسلمين من عبدة الأوثان.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

المشركون فئة معروفة بفساد المعتقد والزّلفى لغير الله

عُرّف لفظ المشركين بألـ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 95.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 90.

وهي أل العهد؛ أي إنّ المقصود بالمشركين وهم المخاطبون في السّياق، وهم عبدة الأوثان؛ الّذين عبدوا مع اللّه إلها آخر[1]، وتقرّبوا إلى غير اللّه سبحانه، وتركوا نور التّوحيد وهداية الوحي، ومن المبدّلين لفطرة اللّه ﷻ[2]، وفي ذلك إشارة إلى معرفة المؤمنين بهذه الفئة[3] وتميّزها لديهم بصفات ومنهج، ومُفاد قوله في خطاب المبلّغين بالهداية: "ولا تكونوا من أهل الشّرك باللّه بتضييعكم فرائضَه، وركوبكم معاصيَه، وخلافكم الدّينَ الّذي دعاكم إليه"[4].

دلالةُ التّعبير بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

ارتضاءُ الشّرك واتّخاذُه منهجًا، ضلال وغواية

صيغ لفظ ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل، الدّالّ على ثبوت وصف الإشراك فيهم، وما ذلك إلّا لاختيارهم له؛ فالمشركون قد اختاروا الشّرك وارتضوه، وصار فيهم منهجًا، فلذلك ينبغي أن يتميّز المؤمنون عنهم ولا يكونوا مثلهم.

دلالةُ شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ﴾:

بيانٌ وتفصيلٌ لحال المشركين، في التّفرّق والتّمزّق

عبّرت الآية بشبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾، على أنّها بدل من قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[5]، فهي بيان لصفات هؤلاء المشركين الّذين نهى اللّه عن الكون منهم[6]، والمعنى: فلا تكونوا من الّذين فرّقوا دينهم، وكانوا شيعًا، فرحين بما لديهم، فالجملة استمرار في بيان المنهي عنه، ومزيد تفصيل في حال المشركين المنبوذة، وهي تنديدٌ بمن فرّقوا دينهم، و"أقاموا في دنياهم في دار الغفلة، وعناد الجهل والفترة، فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وثَمِلوا بِسُكْرِ غَيِّهِمْ، وظنّوا أنّهم على

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 47.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 60.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 191.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 498.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 47.

شيء، فإذا انكشف ضبابُ وقتهم، وانقشع سحابُ هجرهم، انقلب فرحُهم تَرَحًا، واستيقنوا أنّهم كانوا في ضلالة، ولم يعرجوا إلّا في أوطان الجهالة"[1].

دلالةُ تكرار ﴿مِنَ﴾ في سياقها وما قبلها:

بيانُ المزيد من تأكيد النّهي، بتفصيل المنهيّ عنه

أُعيد حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ﴾، ليكون قرينة على تعلّق وصف تفريق الدّين بالمشركين؛ بدلًا له[2]، وتعلّق النّهي بالكون من الّذين فرّقوا دينهم، أي: لا تكونوا من المشركين الّذين فرّقوا دينهم، أي: بدّلوه وغيّروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض[3]، وفي ذلك مزيد تأكيد للنّهي بإظهار حرف الجرّ ثانية، مع إمكان الاستغناء عنه[4].

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أثرُ التّنفير من نهج المفرّقين لدينهم

عبّرت الآية بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لتعريف المسنَد إليه، وذلك لإفادة تحقّق معنى الصّلة فيه، فالمشركون هم من فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، ومن فرّق دينه فلا يصحّ أن يكون المؤمنون منهم ولا مثلهم، وفيه إشارة إلى التّنفير ممّن يوصفون بهذا الوصف[5]، من الّذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو فرّقوا دينهم إلى مذاهب شتّى، واعتقادات باطلة، أو جعلوا دينهم فِرَقًا وطوائف مختلفة، وبدعًا ما أنزل الله بها من سلطان[6]، وقال مقاتل بن سليمان: يعني: أهل الأديان، فرّقوا دينهم الإسلام، أحزابًا في الدّين؛ يهودًا ونصارى ومجوسَ وغيره[7]، وضلالهم مستغرب لمعرفتهم بالحقّ، ومعلوم

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 4/ 341.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 60.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 316.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 95.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 191.
(6) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 56.
(7) مجموعة مؤلّفين، موسوعة التّفسير المأثور: 17/ 455.

"أنّ أهل الكتاب، لم يؤتوا من قلّة علم، وضآلة معرفة، وإنّما كان هلاكهم، لأنّهم وظّفوا ما عندهم من علوم ومعارف للبغي بينهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: 19]"[1].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿فَرَّقُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

البعدُ عن الدّين الحقّ، فُرقةٌ وتمزّقٌ وتشرذمٌ

آثرت الآية التّعبيرَ بلفظ التّفريق، في قوله: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾، لعلّة تخصّ مادّته وصيغته، فأمّا عن مادّته، فإنّ التّفريق انفصال وترك، والمشركون انفصلوا عن دينهم الحقّ وتركوه[2]، والتّفريق قسمة لمجموع وتغيير له، والمشركون قسّموا دينهم آلهة متعدّدة وغيّروه[3]، والتّفريق تغاير وتباعد، والمشركون تغايروا بعضهم من بعض، بتعدّد آلهتهم[4]، وتباعدت قلوبهم؛ لأنّ بعضهم ينكر آلهة بعض[5]، وقد صيغ لفظ ﴿فَرَّقُواْ﴾ بصيغة الفعل الماضي، الدّالّ على حدوث التّفرُّق بعد الاجتماع، والتّعدُّد بعد الوحدة، ويدلّ أيضًا على تحقّق التّفريق منهم لدينهم، لذلك أمر المؤمنين أن لا يكونوا مثلهم.

لطيفةُ إسنادِ التّفريق إلى ضمير الجماعة:

تعاونُ المشركين على تفريق الدّين، مسلك مألوف منذ غابر الدّهور

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾، أُسند التّفريق إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿فَرَّقُواْ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى اشتراك المشركين في التّفرّق، حين يدّعي كلّ واحد منهم الحقّ وينابذ غيره، وحين ينكرون الحقّ والفطرة، اعتدادا بآلهتهم، كأنّهم تعاونوا على ذلك، فاتّفقوا في شركهم وفي تفرّقهم.

(1) طه جابر فيّاض العلوانيّ، أدب الاختلاف في الإسلام، ص: 8.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 316.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - أ/ 191.

بـيـانُ أنّ من فرّقوا دينهم، ما فتئوا أن فارقوه

توجيهُ القراءاتِ في الفعل ﴿فَرَّقُواْ﴾:

قرأ جمهور القرّاء[1] قولَه: ﴿فَرَّقُواْ﴾ من التّفريق؛ أي جعلوا دينهم مفرّقًا[2]، وقرأ حمزة والكسّائي: ﴿فَـٰرَقُواْ﴾ من المفارقة، أي تركوا دينهم الّذي أُمروا به[3]، والّذي يجمع بين القراءتين هو حمل (فارق) على (فرّق)، مثل: ضاعفت الحسنات أي ضعّفتها، فأصل فارق وفرّق واحد، وهو التّفريق[4]، وإن اختلف الأصلان لغة، فالمفارقة أثر للتّفريق؛ فهم قد فرّقوا دينهم ففارقوه، وثمرة الخلاف في القراءة، هي بيان شؤم مفارقة الجماعة، والتّشيّع لغير كتاب اللّه، فقد اعتبر القرآن الحكيم، تفريق الدّين بمنزلة مفارقته، وهو تصريح شديد في ذمّ الفرقة[5].

الـتّـفـرّقُ في الـدّيـن، من أشنع التّفرّق في كلّ حين

دلالةُ التّعبير بالدّين في المفعول ﴿دِينَهُمْ﴾:

عبّرت الآية بلفظ الدّين في قوله: ﴿دِينَهُمْ﴾، ويدلّ ذلك على أصل التّفريق، وأنّه في الدّين، أي الخضوع والتعبّد والتّقديس، ممّا يشير إلى أنّه محدّد مفروض من قوّة أعظم، وأنّ عليهم الالتزامَ به والاتّباع، لا الابتداع أو الخروج عنه، ممّا يبرز قبح جرمهم، ويدلّل على التّنفير من سبيلهم، وخطؤهم أنّهم ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾: "أي آمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو فرّقوا دينهم إلى مذاهب شتّى واعتقادات باطلة، أو جعلوا دينهم فِرَقًا وطوائف مختلفة، وبدعًا ما أنزل اللّه بها من سلطان"[6].

بـيـانُ قُـبـح الـتّـفـريـق في الدّين، ومفارقة الحقّ المستبين

دلالةُ الإضافة في لفظ ﴿دِينَهُمْ﴾:

أُضيف الدّين إلى الّذين فرّقوه في قوله: ﴿دِينَهُمْ﴾، للدّلالة على أنّ

(1) ابن أبي مريم، الموضح، ص: 1005، وابن الجزري، النشر: 2/ 266.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/ 208.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 207.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/ 530.
(5) محمّد حبش، القراءات المتواترة، ص: 235.
(6) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثريّ الجامع: 21/ 56.

لهم دينًا؛ هو دين الفطرة، وأنّه دين واحد، هو دين الإسلام والحقّ، ممّا يقبّح فعلهم في تقسيم الدّين الواحد، ومفارقة الدّين الحقّ، فذلك أصلُ فطرتهم، والحقُّ الّذي ينبغي أن يثوبوا إليه، فـ" ظاهرُ القرآن يدلّ على أنَ كلَّ من ابتدع في الدِّين بدعة من الخوارِج وغيرهِم، فهو داخلٌ في هذه الآية، لأنَهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرّقوا"[1].

معنى (الواو) في قوله ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾:

كونُهم صاروا شيعًا، فيه مزيد من التّنفير والتّفظيع

عُطفت جملة ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ على جملة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾، عطْفَ تفصيلٍ وترتّب؛ فقد وُصف المشركون بأنّهم فرّقوا دينهم، وهذا من قبيح ما يوصفون به، ثمّ زاده توضيحًا، ببيان ما يترتّب على ذلك ضرورةً، وهو تشيّع كلّ فرقة لمعبودها، وانتصارها لدينها الباطل المزعوم، ممّا يزيد المنسوبين إليها تشرذمًا، وعليه، فقد كان سبيل المشركين مستفظعًا مستبشعًا بهذا الاعتبار.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿شِيَعٗاۖ﴾:

المشايعةُ اتّباعٌ ونصرةٌ، بحقّ وبباطل

اختارت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿شِيَعٗاۖ﴾، وهو جمعٌ مفرده (شيعة)، وتدلّ على المناصرة والتّحالف بين فئة معيّنة مهما كانت الحال[2]، بناء على اتّباع مبدأ معيّن[3] يتوافقون عليه[4]، فصار لكلّ دين من تلك الأديان مجموعة متّفقة عليه، ولم يقف الأمر عند التّوافق، بل انتقل إلى المناصرة عليه، سواء أكان حقًّا أم باطلًا، فالمناصرة ثابتة؛ دون نظر إلى مقياس الحقّ.

دلالةُ ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ دون (تشيّعوا):

أصالةُ كونِهم شيعًا، وتجذّر ذلك فيهم

عدل التّعبير من (تشيّعوا)، الموافق لقوله: ﴿فَرَّقُواْ﴾ إلى التّعبير

(1) الشاطبيّ، الاعتصام: 1/ 89.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11425.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 47، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 148.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 96.

بـ: ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، ويدلّ ذلك على أنّهم كابدوا جهدهم في تلك الفرقة والتّفريق[1] فثبت فيهم وصف التّشيّع بكلّ معانيه، من التّشرذم والتّكفير والتّلاعن والتّناحر، فهم شيع صادفوا تفرّقًا، فازداد تفرّقهم، حتّى صاروا شيعًا وأوزاعًا.

نكتةُ فصل جملة الفاصلة:

الجملة المستأنفة، تتضمّن التّنفير من كونهم شيعًا وأحزابًا

فُصلت جملة ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ عمّا قبلها، والعلّة في فصلها هي مزيد التّعجّب من حال هؤلاء المشركين[2]، الّذين يفرّقون دينهم ويتمزّقون شيعًا وأحزابًا، والعجب أنّ كلّ شيعة منهم فرحون بما لديهم، فالجملة استئناف وتذييل؛ لأنّ التّفرّق يقتضي التّحزّب[3]، وهي تقرير لمضمون ما قبلها[4] ومزيد تنفير من سبيل المشركين المؤدّية للخيبة والهلاك، بلا نجاة ولا إدراك.

دلالةُ التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾:

اتّفاقُ الشّيع على الضّلال، سفه رأي، واتّباع هوى

ابتدأت جملة ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾، بـ﴿كُلُّ﴾، الدّالّة على العموم؛ فما من شيعة من هؤلاء إلّا وهي فرِحةٌ بما لديها، وفي ذلك إشارة إلى اتّفاقهم على الضّلال واجتماعهم على اتّباع الهوى، في أوليّات حياتهم، وهو الدّين، والمقصود بلفظ ﴿حِزۡبِۭ﴾ فريق فرحون بما لديهم من الدّين الزّائف، القائم على غير صواب، فهم "مسرورون مبتهجون، يظنّون أنّهم على الحقّ، وليس بأيديهم منه شيء، والجملة اعتراض مقرّر لما قبله من تفريقهم دينَهم، وكونهم شيعًا[5].

نكتةُ الإضافة في ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾:

الإيمانُ جمع وتقريب، والشّرك تحزيب وتفريق

أُضيف لفظ ﴿كُلُّ﴾ إلى الحزب، في قوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾، ونكتة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 90.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 91.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 73.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 61.
(5) صدّيق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 249.

الإضافة هنا، هي المفارقة بين الكليّة الجامعة، في ﴿كُلُّ﴾ والحزبيّة المفرّقة في ﴿حِزْبِۢ﴾، في إشارة إلى سفاهة عقولهم، وعدم تيقّظهم لما يشتركون فيه، وتقويمِ تحزّبهم بالحقّ بدل الهوى، وهذا أمر من الله جلّ ذكره بلزوم الجماعة، وترك تفريق الكلمة، وتنبيه منه أنّ الفرقة مرتبطة بالضّلالة[1]، وأنّها مفسدة للحاضر، ونسفٌ للمستقبل، تثير الظّغائن، وتحرّك الكوامن، وتضرّ بأصحابها بيقين لا مندوحة منه، ولا انفكاك عنه.

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿حِزْبِۢ﴾ وتنكيره:

التّحـزّبُ توزّع مقيت، وصراع مهلك مميت

آثرت الآية التّعبير بالحزبيّة، في قوله: ﴿حِزْبِۢ﴾، لدلالته على الفئة الّتي تجتمع على أمر من اعتقاد أو عمل[2]، فتكون نزعتهم واحدة[3]، وقد جاء لفظ ﴿حِزْبِۢ﴾ نكرة، ليدلّ على أي فئة كانت؛ مهما عظمت أو صغرت، وفي ذلك إشارة إلى التّشرذم والتّوزّع، وكثرة الأحزاب بلا مسوّغ، فكيف إذا كان الهوى، هو ما يجمع كلّ حزب، وهم مغترّون به؟.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾:

فـرحٌ بما ليس للفرح بسبب، ســوء فَـهْـمٍ وانحراف معتقد

جرّ الموصول بحرف الباء، في قوله: ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾، وتدلّ الباء على تعلّق الفرح بما يجمعهم من دين، وتسبّبه في الفرح، وفي ذلك استغراب: فهل هذا الأمر هو سبب مناسب للفرح؟ وسببٌ كافٍ للتحزّب والتشيّع؟ إنّ "كلّ طائفة من هؤلاء الّذين فارقوا دينهم الحقّ، وأحدثوا من البدع ما أحدثوا، فرحون بما هم به مستمسكون، ويحسبون أنّ الصّواب لا يعدوهم إلى غيرهم، من النّحل والمذاهب الأخرى"[4].

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 5689.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 73.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 96.
(4) المراغي، تفسير المراغيّ: 21/ 47.

علّةُ التّعبير بالموصول (ما) في السّياق:

بيانُ قبح الفرح بغير الحقّ

عبّر سياق الآية عمّا يفرحون به بالموصول (ما)، الدّالّة على عموم ما يَفرحون به مهما عظم شأنه أو حقُر، أكان مبنيًّا على حقّ أم على أوهام، فهم فرحون به، مهما كان هو، وما بني عليه، وفي ذلك تصوير لقبح هذا الفرح الّذي يترك الفطرة ويفرح بغيرها.

دلالةُ التّعبير بلفظ (لَدَى) دون (عند):

انحصارُ الفرح عن قرب، على مبدأ (أنْ لا حزنٌ يدوم ولا سرور)

آثرت الآية التّعبيرَ بـ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾، مع إمكان أن تكون الجملة: (بما عندهم فرحون)، ويرجع ذلك إلى دلالة (لدى) على الحاضر في حوزة اليد أو القريب، خلاف دلالة (عند)، وفي ذلك إشارة إلى وقوف هؤلاء عند الحاضر بين أيديهم، دون نظر إلى ما وراءه: من موافقة الحقّ، من الإعداد للمآل، بمطابقة الأصل، وترقّب العواقب، فليس لديهم بعد نظر كالّذي يقف عند يومه، ويحصر نظره فيما يهواه فقط، وفرحهم بما لديهم، لما لهم من سلطة زمنية، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتزّ، كالسّلطة الزّمنية التي منعتْ يهودَ المدينة من الإيمان برسول الله، مع أنّهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره"[1].

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾:

بيانُ أنّ الفرح بما هو خاصّ، متقرّر لديهم

أُضيف (لَدَى) إلى ضمير (هُمْ) في قولك: ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾، وتدلّ الإضافة هنا على خصوصيّة ما يفرحون به، وأنّه من خاصّ ما عندهم من الضّلال[2]، فهم لا يفرحون بالحقّ، ولا بما يرضي الله، بل بما لديهم خاصّة[3]، ويشير كذلك إلى أنّه أمر متقرّر لديهم، لا يشكّون فيه ولا يرتابون، فهم إنّما يفرحون بما هو خاصّ،

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11426.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 91.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99.

متقرّر لديهم، ممّا اجتمعوا له وتحزّبوا لأجله، وتشيّعوا وتناصروا في سبيله.

نكتةُ تقديم القيد ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ على الخبر:

دناءةُ ما يفرحون بـه، دليـل على سقوط همّتهم، وقلّة عقولهم

قُدّم القيد ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ على الخبر ﴿فَرِحُونَ﴾، ونكتة تقديمه هنا، هي الاهتمام بما يفرح به، فليس القصد ذكر فرحهم، وإنّما ذكر ما يفرحون به، وأنّه ليس بالأمر الّذي يستحقّ أن يُفرحَ به، ففي تقديم القيد إشارة إلى دناءة ما يفرحون به.

دلالةُ التّعبير بالفرح في الخبر ﴿فَرِحُونَ﴾:

التّأثّرُ بالهوى والإلــف، دون وعي ونظر، من أسوأ التّأثّر

عبّرت الآية بالفرح في الخبر ﴿فَرِحُونَ﴾، ويدلّ الفرح على انطباع نفسيّ، وانشراح في الصّدر، ورضى وابتهاج[1]، ومعناه أنّ كلّ حزب منهم، صار مسرورًا بما لديه من دين باطل، وملّة فاسدة، وعقيدة زائفة، وهذا الفرح بالباطل سببه جهلُهم، وانطماسُ بصائرهم عن الانقياد للحقّ[2]، وفي ذكر فرح هؤلاء بما عندهم، إشارة إلى احتكامهم للعواطف، والمعتادِ لديهم بدل الحقّ[3]، حتّى يُحسب الباطل حقًّا[4]، فهم متأثّرون بما يحبّون، ومفتونون بما عندهم[5]، وذلك أضلّ لهم[6].

نكتةُ صياغة الفرح على صيغة (فَعِل):

الدّينُ لا يحكمه انفعال نفسيّ عابر، بل هو عقيدة ويقين

صيغ لفظ ﴿فَرِحُونَ﴾ على وزن (فَعِلون)، ومفردها فرِحٌ بوزن (فَعِلٌ)، ونكتة ذلك هو دلالة هذه الصّيغة على الانفعالات الباطنيّة للإنسان، والّتي تعرض وتزول[7]، ممّا يشير إلى عدم استقرارها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 96.
(2) سيّد طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 11/ 85.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 73.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 390.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 337.
(7) السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 69.

فهؤلاء فرحون بما لديهم اليوم، وقد يحزنون به غدًا عند لقاء ما هو أكثر أثرًا، وأشدّ مساوقة لهواهم، فينقلبون عمّا كانوا فرحين به، وفي ذلك مزيد تصوير لقبح موقفهم، ومغبّة تحزّبهم، وسوء مآلهم؛ لأنّهم: "أقاموا في دنياهم في دار الغفلة، وعناد الجهل والفترة، فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وثَمِلوا بِسُكْرِ غَيِّهِمْ، وظنّوا أنّهم على شيء، فإذا انكشف ضبابُ وقتهم، وانقشع سحابُ هجرهم، انقلب فرحُهم تَرَحًا، واستيقنوا أنّهم كانوا في ضلالة، ولم يعرجوا إلّا في أوطان الجهالة"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنابة والتّوبة والرّجوع:

الإنـابـةُ تـكـرّر رجـوع وشـدّة توبة، والرّجوع عـود إلى حال البدء بالأوبة

تجتمع الإنابة والتّوبة والرّجوع في العودة، وتفترق؛ فالتّوبة توقّف وانقطاع عن الذّنب[2] وتركه إلى الطّاعة[3]، والإنابة رجوع متكرّر[4]، لذلك فالإنابة أشدّ من التّوبة؛ فإذا كانت التّوبة هي الإقلاع عن المعاصي، فإنّ الإنابة هي ترك المعاصي في المستقبل[5]، والرّجوع عود، ولكن إلى ما كان منه البدء[6]، وفرَّق بعض العلماء بين الإنابة والتّوبة: بأنَّ التّائب قد يرجع من خوف العقوبة، والمنيب يرجع استحياء من كرم اللّه تعالى، - والْإِنابَة الرُّجوع إِلَى الطّاعَة، وفي هذا المضمار قال إبراهيم بن أدهم رحمه اللّه: إذا صدق العبد في توبته صار منيبًا، وقال أبو سعيد القرشيّ: المنيب، الرّاجع عن كلّ شيء يشغله عن اللّه إلى اللّه[7]، فتميّزت الإنابة بتكرّر الرّجوع،

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 4/ 341.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (توب).
(3) الراغب، المفردات: (توب).
(4) الراغب، المفردات: (نوب).
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 146.
(6) الراغب، المفردات: (رجع).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303، وكذلك: أحمد بلال البيانونيّ، مقال: الفرق بين التّوبة والأوبة والإنابة، رابطة هيئة علماء سوريا (فتاوى)، مارس 2020م (على الشّابكة).

في حين تميّز الرّجوع، بالعود إلى نقطة البدء، ولذلك ناسب لفظ ﴿مُنِيبِينَ﴾ سياق الآية الدّاعي إلى الاخلاص والصّدق في القول العمل الذي يتطلّب دوام الرّجوع إلى اللّه بترك المعاصي.

التّقوى والخوف والخشية:

توقّعُ مكروه، وجعل وقاية وشدّة خوف، مع عرفان ومهابة

تجتمع التّقوى والخوف والخشية في الخوف، وهو توقّع مكروه من أذى أو ضرر، خلاف الأمن[1]، وينتج عن الخوف تقوى باتّخاذ وقاية ممّا يخاف[2]، فصارت التّقوى أثرًا للخوف[3]، قال بعض السّلف: التّقوى أن تعمل بطاعة اللّه على نور من اللّه، ترجو ثواب اللّه، وأن تدع معصية اللّه على نور من اللّه تخاف عقاب اللّه، والرّسل جميعًا دعوا أقوامهم إلى تقوى اللّه تعالى، حيث يرفع كلّ منهم عقيرته، قائلًا لقومه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران: 50]، وقد جعل القرآن وصية اللّه تعالى للبشر برمّتهم التّقوى، فقال في محكم التّبيان: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [النّساء: 131]، وأمّا الخشية فتتميّز عن الخوف، في أنّها خوف عن علم بما يخشى منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ [النّساء: 25][4]، فقد صارت الخشية درجة في الخوف، أي خوف مع تعظيم، وقد جمعها قول الحقّ سبحانه: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، وفي العلاقة باللّه ﷻ: فخوف اللّه خوف من سخطه وعقابه، وتقوى اللّه خوف يدفع لاتّخاذ وقاية من غضب اللّه، بترك معاصيه، وخشية اللّه خوف مع مهابة وتوقير للّه، لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وترك المعاصي خوفًا من غضب اللّه تعالى يناسب لفظ الإنابة، وإقامة الصلاة فكلٌّ منها مُرتبطٌ بالآخر، ومُتمّمٌ له.

(1) الراغب، المفردات: (خوف).
(2) الراغب، المفردات: (وقي).
(3) الراغب، المفردات: (وقي).
(4) الرّاغب، المفردات: (خشي)، والعسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 218.

التّفريق والتّقسيم:

التّفريقُ فصل، والتّقسيم تمييز، وكلاهما لفظ قرآنيّ فصيح

التّفريق والتّقسيم متقاربان؛ إذ يدلّان على تفصيل لشيء واحد مشترك، والتّفريق "هو أن تقصد إلى شيئين من نوع، فتوقع بينهما تباينًا"[1]، و"تفريقًا بذكر ما يفيد معنى زائدًا فيما هو بصدده من مدح أو ذم أو نسيب أو غير ذلك"[2]، وأمّا التّقسيم "فهو أن تذكر شيئًا ذا جزءين أو أكثر، ثمّ تضيف إلى كلّ واحد من أجزائه ما هو له عندك"[3]، فهو استيفاء أقسام الشّيء الموجودة، لا الممكنة عقلًا[4]، فالتّقسيم يتميّز بأنّه فرز الكلّ إلى أنصبة، مثل قسمة المواريث، وقسمة الغنيمة، أي: تفريقها على أربابها، يقول سبحانه: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: 44][5]، فالتّقسيم هو جعل الشّيء أقسامًا، وليس بالضّرورة أن يُفصَل بينها، أمّا التّفريق فهو الفصل بين الأقسام، وقطع الاتّصال بين شيئين أو أكثر[6]، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: 50]، والفرق: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرقة للجماعة المتفرّدة من النّاس[7]، وهذا المعنى علّة اختيار لفظة ﴿فَرَّقُواْ﴾ في سياق التعديد إلى شيع، وجماعات.

الشّيعة والجماعة:

الشّيعةُ جماعة متناصِرة، والجماعة فئة متلاقية أو متجاورة

الشّيعة والجماعة مجموعة، وتتميّز الجماعة بأنّها فئة مؤلّفة من أفراد، يضمّها معنى مشترك، فالجمع هو ضمٌّ وتقريبٌ لشيء إلى شيء، يقال: جمعته فاجتمع، وقال ﷻ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: 9][8]، أمّا الشّيعة فهي جماعة بين أفرادها معنى مشترك، وتوافق ونصرة،

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 425.
(2) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 311.
(3) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 425.
(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 305.
(5) الرّاغب، المفردات: (قسم).
(6) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 129.
(7) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(8) الراغب، المفردات: (جمع).

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾ [القصص: 4]، أي ينتصر كلّ أفراد فرقة لفرقتهم[1]، وشيعة الرّجل هم الجماعة المحبّة له، حبًّا متميّزًا وهم القوم الّذين يجتمعون على الأمر يتبع بعضهم بعضًا، وإن لم يكونوا جميعًا متّفقين[2]، ومعنى لفظ الشّيعة يناسب سياق الآية من حيث اجتماعُهم على تفريق دينهم يتبع بعضهم بعضًا.

الحزب والزُّمرة:

الحـزب للكثرة المتـعـاونـة، والـزّمـرة للقلّة المتّحدة في شتات

الحزب والزّمرة هي أنواع من الجماعات، إلا أنّ بينهما فروقا؛ فالحزب جماعة كبيرة يتعاونون على أمر[3]، يقال حزب أي جمع، وحزب القرآن لمجموعة من السّور أو الآيات، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ [الكهف: 12][4]، أمّا الزّمرة فهي جماعة قليلة، ومنه قيل: شاة زمرة أي قليلة الشّعر[5]، إلا أنّ في الزّمرة تضامًّا قَويًّا مستمرًّا[6]، وهي فئة متحّدة في مجموعة مفرّقة[7]، يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: 73]، والزّمرة جماعَة لَها صَوت لا يُفهم، وقالَ أبو عُبَيْدَة الزّمرة جماعَة في تَفْرِقَة[8]، يقال: جاؤوا زمرًا، أي جماعات في تفرقة، بعضها إثر بعض، قال شيخنا: قال بعضهم: الزّمرة مأخوذ من الزّمر الّذي هو الصّوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه، وقيل: هي الجماعة القليلة[9]، ولمّا كان من تفرّقَ شيعًا من الممكن أن يكونوا كثيري العدد متعاونين على أمرٍ ناسب اختيار لفظ ﴿حِزۡبِ﴾.

---

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 307.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شيع).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 415.
(4) الرّاغب، المفردات: (زمر).
(5) الراغب، المفردات: (زمر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (زمر).
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 415.
(8) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 415.
(9) الزّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (زمر).

الفرح والسّرور:

ما يجمع بين الفرح والسّرور، هو الانبساط لنيل محبوب أو توقّعه[1]، ويفترق الفرح، بأنّه درجة في الانشراح متقدّمةٌ، يغلب عليه التّعلّق بلذّة عاجلة، حتّى صار مذمومًا، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ [الحديد: 23][2]، في حين أنّ السّرور فهو انشراح الصّدر أيضًا، إلّا أنّه من السّرّ والإسرار خلافَ العلانيّة والإعلان، فهو ما يُنكتم من الفرح، فهو فرح في أصله لكنّه غير مبالَغ فيه، يقول سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ١١﴾ [الإنسان: 11][3]، ومن الفروق بينهما أنّ نقيض السّرور هو الحزن، أمّا نقيض الفرح فهو الغمّ[4]، والحزن هو انقباضٌ بما حدث، والغمّ هو الضّيق والكربة، فصار الغمّ مرحلةً متقدّمة في الحزن، كما صار الفرح مرحلةً متقدّمة في السّرور، ثمّ إنّ الفرح هو الغبطة النّاجمة عن شيء حدث دون جهد منك، والسّرور هو الغبطة النّاجمة عن شيء فعلته أو بذلت فيه جهدًا، ولمّا كان الفرح تعلّقًا بلذّة عاجلة، حتّى صار مذمومًا، ناسب اختيارُه في سياق الآية بوصف من يفرّق دينه شيعًا لذّته زائلة.

الفرح سرور ظاهر بعاجل، والسّرور انبساط بحقّ، ويكون في سرّ

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 175.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرح).
(3) الراغب، المفردات: (سرر).
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 227.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الرُّوم: 33 - 34]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِنَ التَّحذيرِ مِنَ الشِّرك إلى بيان اضطراب حال المشركين

لمّا بَيَّن اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقة دينَ التَّوحيد الواجبِ اعتقادُه، وهو دين الفطرة التي فطر النّاسَ جميعًا عليها، وأمر بالعمل بما جاء به إنابةً والْتِجاءً واتِّقاءً، وحذَّر مِنَ الشِّرك المُؤدّي إلى التَّحزُّب والتَّعصُّبِ والفرح بالأعمال الباطلةِ؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان حال النّاس عند إصابتهم بالضَّرّاءِ والبلاء، مِنَ الالتجاء إلى اللّه الواحد الأحد، فإذا ما رفع عنهم ضُرَّهم وبلاءَهم؛ إذا فريقٌ منهم يشرك باللّه تعالى، فيكفرون بنِعَم اللّهِ؛ ليَتمتَّعوا بها وقتًا قليلًا، فانتقلت الآياتُ من بيان الدّين الحقِّ وموقف النّاس منه قبل البلاء، إلى بيانِ واقعِ النّاس عند وقوع البلاء؛ لبيان اضطرابهم وقلقهم في المعتقد والسُّلوك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: (مسّ) أصلٌ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[1]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا، لَمَسْتَهُ بيَدِك، وهُوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلُولِه، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزّمر: 8]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصّلت: 51]، وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73][2]، والمَسوسُ مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسّ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 316.

المياه: ما نالته الأيدي[1]، وحاجةٌ ماسَّة، أي: مُهِمَّة[2]، وحقيقةُ المَسِّ في الآية مُسْتَعْمَلٌ في الإصابَةِ على وجْهِ المجازِ[3].

2) ﴿مُّنِيبِينَ﴾: (نوب) أصلٌ يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورُجُوعٍ إليه[4]، نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسُمّي النَّحلُ نَوْبًا لرجوعها إلى مقارِّها، والإنابةُ إلى اللّه تعالى: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العَمَل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][5]، والمُنيبُ: مَنْ أنابَ؛ إذا رَجَعَ[6]، والمقصودُ بالإنابة في الآية: الرُّجوعُ إلى اللّه والتَّوبةُ إليه، أي: راجعينَ إلى ما أمرَ بِهِ، غيرَ خارِجينَ عَن شَيْءٍ مِن أمره[7].

3) ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: (متع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ[8]، والمَتْع: بُلُوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِه[9]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالغ الجودة[10]، والمُتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[11]، تَقُولُ: تَمَتَّعْتُ بِكذا، واسْتَمتعتُ به؛ إذا انتفعتَ به، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلُّ شيءٍ يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّد، ويأتي عليه الفَناءُ في الدُّنيا، والجَمْعُ أمتعةٌ[12]، والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانتفاعُ القَصيرُ زمنُه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيتان أحوالَ النّاسِ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ؛ فإذا أصاب النّاسَ ضُرٌّ، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم، أو قَحطٍ وشِدَّةٍ في مَعيشتِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ للّهِ مُقبلِينَ عليه وحْدَه، تائِبينَ مِنَ الشِّرك؛ لِعِلْمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُّرَّ إلّا اللّهُ، ثمَّ إذا رَحِمَهم، فكَشَفَ ما

(1) الخليل، العين: (مس).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نوب).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نوب).
(7) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 185، والزّبيديّ، تاج العروس: (نوب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(9) الرّاغب، المفردات: (متع).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (متع).
(11) الأصبهانيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/ 148.
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

واقع المشركين مضطربٌ فعند الأمن شركٌ وعند الضُّرِّ إيمانٌ والتجاء

أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأصابَهم بنِعمةٍ منه، كعافيةٍ أو سَعةِ رزقٍ وغيرِ ذلك؛ إذا جماعةٌ منهم يُبادِرونَ بنَقضِ تلك الإنابةِ الصّادرةِ منهم، فيُشرِكونَ معه غَيرَه في عبادتِه، ولا يَشكُرونَه على نِعَمِه[1]؛ ليكفروا بما آتاهمُ اللهُ مِنَ النِّعم، وليتمتعوا مُدَّةَ حياتِهم بما أعطاهم اللهُ سبحانه، فسوفَ يَعلَمونَ ما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

انتظامُ الكلام في مذامِّ المُشركين لتصوير طبائعهم المتقلِّبة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾؛ لعطف الجملةِ على جملة: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ [الروم: 32]، أي: فرَّقوا دينَهم، وكانوا شيَعًا، وإذا مَسَّهم ضُرٌّ، فدعَوا اللّهَ وحدَه، فرحمهم؛ عادوا إلى شِركهم وكُفرهم نعمةَ الذي رحمهم، فالمقصود منَ الجُملة هو قوله: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، فمَحلُّ انتظامِ الكلام في مذامِّ المُشركين أنَّهم يرجعون إلى الكفر، بِخلاف حال المؤمنين، فإنَّهم إذا أذاقهمُ اللّهُ رحمةً بعد ضُرٍّ؛ شكروا نعمة ربِّهم، وذلك من إنابتهم إلى اللّه[3].

دلالة استعمالِ (إذا) دون (إنْ):

لا يُعرفُ أهلُ الباطلِ على التَّحقيق إلّا بالنِّعم بعد رفعِ البلاءِ

(إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ شرطيَّة، أي: هُم بمُجرَّد نزول الضُّرِّ بهم يلجؤون إلى اللّه تعالى؛ ليُزيلَه عنهم، ثُمَّ إذا ما كشفه عنهم، وأحاطهم برحمته؛ أسرع فريقٌ منهم إلى عبادة غيره سُبحانه[4]، وأتى بأداة (إذا) دون (إن)؛ لبيان تحقُّقِ ذلك في فريقٍ منهم - لا محالةَ - وفائدته: تحذيرُ العقلاء،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 499، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 33، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 641.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 499، 500، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 53.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.

وتنبيهُ الصّالحين أن يكونوا من ذلك الفريق، وفيه كذلك توطينُ المؤمنين على توقُّعِ الباطلِ من أهلِه، والنّاس لا يُعرفون على الحقيقةِ إلّا بنزول النِّعم بعد رفع الضُّرِّ.

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿مَسَّ﴾:

قليلُ الضُّرِّ وعظيمُهُ سواءٌ في موقفِ المشركين

لفظُ المَسِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ مُستعارٌ للإصابة، وحقيقة المَسِّ: أنَّه وضع اليد على شيء ليُعرفَ وجودُه، أو يختبرَ حالُه، فشَبَّه إصابةَ الضُّرِّ والبلاءِ بمَسِّ الشَّيء وجَسِّه، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهي مستعملةٌ في الإصابة بجامع الاتِّصال، أي: إذا أصابهم ضُرٌّ؛ التجؤوا إلى الله تعالى، والاستعارة أبلغُ منَ الحقيقةِ؛ لأنَّ المقصود بيانُ أنَّ أدنى ضُرٍّ يُصيب المشركين، فهم في حالةِ التجاءٍ وانتحاب، وهو ما يُعبِّر عنه لفظُ المَسِّ، ولو قال: (وإذا أصاب النّاس)؛ لانصرفَ الذِّهنُ إلى الإصابة العظيمة الكبيرة، فمن هاهنا كان استعمال لفظِ المسِّ أبلغَ؛ لدلالته على قليل الضُّرِّ صراحةً، وكثيره التزامًا.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

الاستغراقُ لذمِّ الجاحدين صراحةً ومدحِ المؤمنين إدماجًا

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ يُراد به مُطلقُ النّاس، فهو للاستغراق[1]، فإنَّ من شأن الإنسان من حيثُ هو إنسان، إذا أذاقه اللهُ من رحمته، وأفاض عليه من نِعَمِه؛ فرحَ، ورضيَ، وإن أصابه سُوءٌ؛ تكرَّه، وساء ظنُّه، وطاف به طائفُ اليأس والقُنوطِ[2]، وجاء النَّظم الكريم بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ لما فيه مِنَ العموم، وإدماجًا لفضيلة المؤمنين الذين لا يكفرون نِعمةَ الرَّحيم[3]؛ لأنَّ ذِكر حال الكافرين وشِرْكِهم يستثني أهلَ الإيمان من هذه الحال.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 522.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.

توجيهُ المتُشابِه اللَّفظيِّ:

جنسُ الإنسان يغلب عليه الجحود والنّاس استغراقٌ بقصدِ التَّقسيم

جاء استعمالُ كلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في سياق مسِّ الضُّرِّ في القرآن الكريم في آيةٍ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾، بينما بقيَّة المواضع فجاء فيها استعمال كلمةِ (الإنسان)، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس: 12]، وقولُه تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ [الزّمر: 8]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾ [الزّمر: 49]؛ وذلك أنَّ آية الرّوم قُصِد بها الحديثُ عن عموم أصناف النّاس المؤمنين والمشركين، فهي للاستغراق، فصحَّ انقسامُ النّاس إلى فريقين: مشركٍ ومؤمنٍ، بينما آية يونس وآيتا الزّمر؛ فالمقصودُ بها جنسُ الإنسان، والغالب على هذا الجنس هو الكفران والجحود، فجاء بالجنس بقصد التَّغليب، وجاء بالاستغراق بقصد التَّفريق، فآثرَ النَّظمُ استعمالَ كلِّ كلمةٍ في السّياق الأنسبِ بها.

نُكْتَةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دونَ إضماره:

جميعُ الكائنات إذا تحرَّكت؛ فإنَّما تتحرَّك ملتجئةً إلى خالقِها

يرى البقاعيُّ رحمه اللّه أنَّ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ هو من باب إظهار ما حقُّه الإضمار، فالأصل عنده أن يُقال: (يمسهم)، ولكنَّه أظهرَ؛ لأنَّه أنسبُ بمقصود السّورة في قصر ذلك على الإنسان، كما هي العادة في أكثر السّور، فلمّا خالف الأصلَ بإظهار ما حقُّه الإضمارا، كان من وراء ذلك نُكْتَةٌ، وهي مناسبة مقصود السّورة، أو ليدخلَ في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ غيرُ ذلك من أنواع العالم؛ تقويةً لإرادة العموم، وإشارةً إلى كلِّ من فيه أهليَّة النَّوس، وهو التَّحرُّك منَ الحيوانات العجماوات والجمادات، فلو نطقت، ثمَّ اضطربت؛ لتوجَّهت إليه سبحانه، ولم تعدِل عنه، كما أنَّها الآن كذلك بألسنة أحوالها[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 91، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 96.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿ضُرٌّ﴾، وفائدةُ تنكيرها:

التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى لبيانِ شديدِ فرطِ جَزَعِ النّاس

جاء استعمالُ مفردة الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾، وهو سُوءُ الحال في البدن أو العيش أو المال[1]، دون مرادفات هذه اللَّفظة من مثل: البلاء والفتنة والسّوء؛ لأنَّها أقلُّ ما يُتصوَّر في إلحاق أذًى بالنّاسِ، مع مناسبته للفظِ ﴿مَسَّ﴾، ومجيئُه نكرةً في سياق الشَّرطِ؛ ليَعُمَّ كلَّ أنواعِ الضُّرِّ، ونُكْتَةُ ذلك: بيانُ أنَّ النّاس يضجرون، ويتحرَّكون، ويرتعدون بأقلِّ ضُرٍّ يمسُّهم، فنبَّهَ بالأدنى على الأعلى، فإذا كان هذا حالُهم مع أقلِّ ضُرٍّ؛ فكيف إذا وقع البلاءُ، ونزلت المصائب؟ وهو ما يُبيِّن شديدَ ضعفِهم، وفَرْطَ جَزَعِهم.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ الدُّعاء:

الدُّعاءُ كاشفٌ عن حقيقةِ معرفةِ المشركين للمُستحقِّ للعبادةِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الدُّعاء، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ هؤلاء المُشركين إذا مسَّهم ضُرٌّ؛ استغاثوا بالله في كشفِ ما نزل بهم، مُقبلين بالدُّعاء عليه وحدَه دونَ الأصنام؛ لعلمِهم أنَّه لا فرج عندها[2]، وهو ما يكشفُ علمَهم بحقيقةِ من عنده القدرةُ على رفع الضُّرِّ، ففي تلك الحال يعود الإنسانُ إلى فطرته، وإذا هو قد فَزِع إلى الله تعالى، ولاذ به من وجه هذا البلاء المُطِلِّ عليه[3]، فالدُّعاء دليلُ المعرفة بالمُستحقِّ للتَّوحيد والعبادة.

عِلَّةُ استعمالِ عنوان الرُّبوبيَّة:

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ عنوانِ الرُّبوبيَّة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ التجاءٍ إلى رافع الضُّرِّ، وهو الأنسب بالرُّبوبيَّة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(2) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 12/ 34.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 518.

كفرانُ الإحسانِ يستوجب التَّقريعَ ويستنزل التَّوبيخَ

معنى الإضافة وفائدتُها:

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّميرِ في لفظِ ﴿رَبَّهُم﴾، والإضافة بمعنى الاختصاصِ؛ إشارةً إلى فداحة الظُّلْم الذي رَكِبَهُ هؤلاء المُشركون، فجحدوا نعمةَ ربِّهم، الذي استجاب لهم، ودفع البلاء عنهم[1]، والذي لم يُشاركه في الإحسان إليهم أحدٌ في جميع مُدَّة مَسِّهم بذلك الضُّرِّ[2]، فهو ربُّهم المستحقُّ للعبادةِ الحقَّة، وهو ما يزيد من تقريعهم وتوبيخهم عند شركهم وكفرهم.

تحقيقُ غرضين الاحتجاجُ على المشركين وعِظةُ المؤمنين وتَنبيهُهم

فائدةُ استعمالِ مفردة الإنابة:

جاء استعمال مفردة الإنابة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾، دون الرُّجوع؛ وذلك لتشملَ معاني متنوِّعة من مثل: التَّوحيد والطّاعة، مع أنَّ أصل الإنابة الرُّجوعُ، لكنَّها اختصَّت هنا بقيد الرُّجوعِ إلى الخير دون مطلق الرُّجوع، أي: راجعين إليه عمّا كانوا فيه منَ الشِّرك، فالإنابة هي التَّوحيد، وإن كان عنِ العصيان؛ فالإنابة هي الطّاعة، ففيه احتجاجٌ على المشركين، في تركهم التَّوحيد وإقبالِهم على الشِّرك، وتنبيهٌ وعِظةٌ للمؤمنين، أن يكونوا في الأحوال كلِّها على حال واحد في حال الرَّخاء والشِّدَّة، ذاكرين له شاكرين؛ لأنَّهم في حال الشِّدَّة والبلايا أكثرُ ذِكْرًا له وإنابةً من حال السَّعة والرَّخاء، فيُنبِّهُهم ليكونوا في كُلِّ حالٍ ذاكرين له مُنيبين إليه راجعين[3].

الإنابةُ الحقَّةُ في الشَّدائد لا تكون إلّا لصاحبِ الإبانة الحقَّة

فائدةُ تقييد الإنابة:

جاء لفظ: ﴿مُّنِيبِينَ﴾ مقيَّدًا بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، أي: لا يرجعون التجاءً في شدائدهم إلى مَنْ عبدوه مع اللّه ﷻ، بل يرجعون في دعائهم إليه وحده[4]، علمًا منهم بأنَّه لا فرج لهم

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 520.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 275.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 60.

عند شيء غيرِه، وهذا دَيْدَن الكُلِّ، لا يخرم عنه أحدٌ منهم في أزمة منَ الأزمات، وهذا دليلٌ على أنَّ معرفة الرَّبِّ في فطرة كلِّ إنسان، وأنَّهم إن غَفَلوا في السَّرّاء؛ فلا شكَّ أنَّهم يلوذون إليه في حالِ الضَّرّاء[1].

نُكْتَةُ استعمالِ حرف التَّراخي:

أقبحُ الشِّركِ ما كان بعد رفع الضُّرِّ وتحقيقِ الرَّحمة

نوعُ التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ هو الرُّتبيُّ، واستُعمِلَ لأجل أنَّ الواقعَ في شِدَّةٍ مستبعدٌ كُلَّ استبعادٍ الخلاصَ منها، فلهذا عبَّر بأداة البُعْدِ[2]، ولأنَّ إشراكهم باللّٰه بعد الدُّعاء والإنابة وحصولِ رحمتِه أعجبُ من إشراكهم السّابق، ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنى التَّعجيب من تجدُّد إشراكهم[3]، فهي توطئةٌ لما سيقع منَ المشركين بعد رفعِ الضُّرِّ، من تجديد الشِّرك بعد ذوقهم الرَّحمة من بعد الضُّرِّ، وهذا من أشنع ما وقع منهم.

فائدةُ استعمالِ أداة ﴿إِذَآ﴾ الشَّرطيَّة:

الانتكاسةُ بعد ذوق الرَّحمة المتحقِّقة دليلُ شُؤمٍ ونداءُ بُؤس

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ أداة ﴿إِذَآ﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾؛ لبيان تحقُّقِ إذاقة الرَّحمة للعبادِ في كُلِّ الأحوال، وخصوصًا عند رجوعهم لربِّهم ولجوئهم إليه، مع ما فيها منَ التَّهيئة للتَّشنيعِ على الفريقِ الذي سارع إلى الإشراك والانتكاسة بعد ذوق الرَّحمة المتحقِّقة، ولو قال: (إن)؛ لما أفاد هذا البيان.

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

تحقُّقُ إذاقةِ الرَّحمة لجميع من يلتجئ إليه تعالى

جاء التَّعبير بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿أَذَاقَهُم﴾؛ لبيانِ أنَّ إذاقةَ الرَّحمةِ قد تحقَّق في حقِّ النّاس جميعًا بعد التجائهم إليه، ففيه بيانُ سُوءِ مقابلتِهمُ الإحسانَ بالإساءة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة الإذاقة:

بدايةُ الإنعامِ على الجاحد كشفٌ عن سُوءِ معدنِهِ وخِسَّةِ باطنِهِ

استُعمِلت مفردة الإذاقة في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ دون أن يُقال: (أنزل عليهم رحمةً منه)، لما فيها من تصوير معنى إدراك الرَّحمة، فالإذاقةُ في الأصل إصابةُ المطعوم بطرف اللِّسان لإدراك الطَّعام واختباره، وهي أضعف إصابات الأعضاء للأجسام، فهي أقلُّ منَ المضغ والبَلع، ثمَّ استُعيرت للإصابة بالرَّحمة والإحساس بها، حيثُ شُبِّهَ ذلك الإحساسُ بذوقِ الطَّعْم بجامع سُرعة اتِّصال الإحساس بالإدراك، وسُرعةِ زوالِه، كما تزولُ الطُّعومُ، فالمُشَبَّهُ: هو إصابة المشركين بالرَّحمة، والمُشبَّهُ به: هو الإذاقةُ باللِّسان، ووجهُ الشَّبَهِ: هو سُرعة الإحساس بالشَّيء القليل واختبارُه، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ لحذفِهِ المشبَّهَ والتَّصريحِ بالمشَبَّهِ به، وفي الاستعارة إشارةٌ إلى إسراعهم بكفرهم بالمُنعِم عليهم، فمِن بداية مُخالطتهم للنِّعمة وذَوقها كفروا بمُذيقهم إيّاها؛ إذِ الذَّوقُ هو أوَّلُ المُخالطة، فاختير التَّعبيرُ بالإذاقة؛ لِما يَدُلُّ عليه من إسراعهم إلى الإشراك عند ابتداء إصابة الرَّحمة لهم[1].

نوعُ (من) وفائدتُها:

ابتداءُ الأمرِ كلِّهِ من صاحبِ الأمرِ كلِّهِ

حرف (من) في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً﴾ دالٌّ على الابتداءِ، ففيه دلالةٌ على اختصاصِ الأمر ابتداءً منه تعالى؛ فرحمة النّاس بكشف الضُّرِّ عنهم من فعل اللّٰه تعالى وحده، ولمّا كان السّياق كُلُّه للتَّوحيد؛ كانتِ العنايةُ باستحضار المعبود والإشارة إليه بضميره أتَمَّ، وإسنادِ الرَّحمة إليه تعظيمًا للأدب[2].

غرضُ تقديم ﴿مِّنۡهُ﴾ على المفعول به:

الرَّحمةُ باللّه خاصَّةٌ ونزولُها منه خاصَّة

تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.

﴿رَحۡمَةٗ﴾؛ للاختصاص، وأنَّ ذلك لا يقدر عليه غيرُه سبحانه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لو أخذهم بذنوبهم؛ أهلكهم، فلا سببَ لإنعامه سوى كرمه[1]، وللاهتمام به؛ ليَظْهَرَ أنَّ الَّذي أصابَهم هو مِن فضل الله وتقديرِه لا غير ذلك[2].

غرضُ تنكير لفظِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا النَّوع من النّاس، يبطُرون، ويَطْغَون لأدنى رحمة ونعمة[3]، فالرَّحمة عامَّة في كلِّ ما يُوصَف بها، وهي نكرة في سياق الشَّرط.

الدّلالةُ على العموم فهم يبطُرون ويَطْغَون لأدنى رحمة تُصيبهم

نوعُ المجازِ وبلاغتُه:

لفظُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ مجازٌ مُرسلٌ، حيثُ ذُكرت الرَّحمةُ، وهي السَّبب، وأُريد بها كلُّ ما يَرحَم النّاسَ مِنَ السَّعة والرَّخاء والصِّحَّة والعافية والمَطر، وهي المُسبَّب، فهذا مجازٌ مُرسل علاقتُه السببيَّةُ.

الرَّحمةُ مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ السببيَّة لإرادةِ العموم

بلاغةُ استعمال أداة المُفاجأة: ﴿إِذَا﴾:

حرف المُفاجأة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ جيء به لبيانِ حال هذا الفريق الغريب العجيب، الذي يعبِّر عن حالةِ خلافِ المتوقَّع من عمل البشر، ولا يقع معه ظنُّ العقلاء، فإنَّهم أسرعوا العودةَ إلى الشِّرك بحُدْثان ذوقِ الرَّحمة؛ لتأصُّل الكفرِ منهم وكمونه في نفوسهم[4]، ففيه ذمٌّ بليغ، وتنبيهٌ على أنَّ رجوعَهم عن دعاء غيره إليه تعالى لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدَّة القحط ونحوه، فهم قبل قليلٍ كانوا داعين مَضْرورين، والآن أصبحوا مرحومين مشركين، وهذا أمرٌ يُثير العجبَ والدَّهش والاستغراب.

أسرارُ النُّفوسِ كمائنُ خفيَّةٌ لا تُعرفُ إلّا بالمواقفِ الجَليَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 42، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿فَرِيقٌ﴾:

الإيماءُ إلى افتراقِ طائفةٍ عنِ الحقِّ وثباتِ الأخرى

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة (الفريق)، في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ دون مرادفاتها، والفريق أكثر من الفِرْقَةِ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط ومعشر؛ لبيانِ أنَّ هذا الفريق قدِ افترق عنِ الحقِّ وطريقِ الفطرة، ولتَخْصيصِ هذا الفعلِ ببعضِهم؛ لِما أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك، فقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، يُشعر بأنَّ فريقًا آخر منهم ليسوا كذلك، وهم الموحِّدون[1]، فهو إنصافٌ وتشريف لفريق آخر منَ النّاس، من صفاتهم أنَّهم يذكرون اللّه تعالى في كُلِّ الأحوال، ويصبرون عند البلاء، ويشكرون عند الرَّخاء[2].

غرضُ تقديم متعلّق الفعل عليه:

كفرانُ المحسَنِ إليه يزدادُ قُبحًا ويستحقُّ قَدْحًا

جاء التَّعبيرُ بتقديمِ متعلِّق الفعل على الفعلِ نفسِه، في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، فلم يقل: (يُشركون بربِّهم)، وذلك لأنَّ فظاعةَ ما قاموا به هو كونهم أشركوا بربِّهم ﷻ الذي أحسن إليهم بالخَلقِ والرِّعايةِ والتَّربية، فالتَّقديم لمزيد التَّبكيت والتَّقريع لما قاموا به مِنَ الإشراك بعد الإحسان.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تجدُّدُ الشِّركِ دليلُ ثبات الكفرِ وبقاءِ الجُحْد

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الشِّرك ﴿يُشْرِكُونَ﴾، دون الكفر أو الجحود؛ لبيانِ سُوءِ صنيعهم في ترك عبادة المتفرِّد بالإحسانِ والعطاء، ورفعِ الضُّرِّ بعد مسِّهم، إلى عبادةِ من لا يقوى على دفعِ الضُّرِّ عن نفسِه، ففيه تعريضٌ بأنَّهم تركوا عبادةَ واجب الوجود، إلى عبادةِ فاقد الوجود، وجاء بصيغة المضارع؛ لبيانِ أنَّهم يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران، ويُقابلون إحسانَه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 61، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 42، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 143.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.

بالنِّسيان، هؤلاء ليس لهم عهدٌ ولا وفاء، ولا في مودَّتهم صفاء[1]، فالمُضارع دليلُ تَجدُّدِ شركِهم واستمرارِه آنًا بعد آن، وفي ذِكر شِركهم تصويرٌ لحالهم، حين يُرفع عنهم البلاء، وتتداركهم رحمةُ اللّه تعالى، فهم لا يكادون يخرجون من يد الهلاك، حتَّى يُسارعوا إلى النِّسيان.

نوعُ اللّامِ ودلالاتُها الحقيقيّة والمجازيّة:

تحتملُ اللّامُ أن تكون للتَّعليل والعاقبة والأمر

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ تحتمل أن تكون للتَّعليل، وعليه فهي مُستعارةٌ لمعنى التَّسبُّب الذي حقُّه أن يُفاد بالفاء؛ لأنَّهم لمّا أشركوا؛ لم يُريدوا بشركهم أن يجعلوه عِلَّةً للكفر بالنِّعمة، ولكنَّهم أشركوا محبَّةً للشِّركِ، فكان الشِّركُ مُفضيًا إلى كفرهم نعمةَ اللّه؛ خشيةَ الإفضاء والتَّسبُّب بالعِلَّة الغائيَّة، على نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8][2]، وتحتمل أن تكون للعاقِبةِ، أي: ليَؤولَ أمرُهم إلى الكفر بنعمة اللّه، وجحودِ فضله وإحسانه[3]، وتحتمل أن تكون لامَ الأمر، ويُقصد بها وعيدُ المُشركين الذين كانوا يواجهون الرَّسولَ ﷺ والإسلامَ وتهديدُهم، وهو مُناسب لقوله سُبحانه: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، أي: افعلوا ما شئتُم، فسوفَ تحيق بكم عاقبةُ تمتُّعِكُم ووباله[4]، وسوف تعلمون - أيُّها المُشركون - عاقبةَ تمتُّعِكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني[5].

فإن قيل: كيف جاز أن يأمر اللّهُ بالكفر وبأن يفعل العصاةُ ما شاؤوا، وهو ناهٍ عن ذلك ومتوعِّدٌ عليه؟ فالجواب: أنَّه مجاز عنِ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 117.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 207، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 392، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 61.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 392، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 521، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 504.
(5) المنصوريّ، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 207، وقاسم، عقد الجمان، ص: 864.

الخُذلان والتَّخلية، وأنَّ ذلك الأمر متسخِّطٌ إلى غاية، ومِثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنَّ ذلك الأمر خطأٌ، وأنَّه يُؤدّي إلى ضرر عظيم، فتُبالِغُ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم ترَ منه إلّا الإباءَ والتَّصميم؛ غَضِبْتَ، وقُلتَ: أنتَ وشأْنُكَ، وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر، كيف والآمرُ بالشَّيء مريدٌ له، وأنتَ شديد الكراهة متحسِّر، ولكنَّك كأنَّك تقول له: فإذْ قد أبيتَ قبولَ النَّصيحة؛ فأنت أهلٌ ليُقال لك: افعل ما شئت؛ ليتبَيَّن لك - إذا فعلتَ - صِحَّةُ رأي النّاصح، وفسادُ رأيك[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ مادّة وصيغةً:

كُـفـران النِّـعـم قرينُ الكُفرِ فهو مسيسُ الصِّلةِ به

الكفر في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ يُرادُ به كُفرانُ النِّعمة بقرينة قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾، أي: أعطيناهم من نعمة الخلاص والعافية، فإنَّ الإيتاء بمعنى الإنعام، بقرينة تفريعه على ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، فالعِلَّة مُغايرة للمعلول، وكفرانُ النِّعمةِ مُسبَّبٌ عنِ الإشراك؛ لأنَّهم لما بادروا إلى شؤون الإشراك، فقد أخذوا يكفرون النِّعمة[2]، وأتى بمفردة الكفرِ؛ لبيانِ أنَّ هذا الكفران قرينُ الكفر، وأنَّه ما كان إلّا وله به صلة، كما أنَّ صيغة المُضارعة تقتضي تجدُّدَ الكفر منهم واستمرارَه، بعد تجدُّد الإنعام عليهم بعد زوالِ كُلِّ ضرٍّ مسَّهم.

براعةُ استعمالِ الباءِ في الدّلالةِ الإيمائيَّة:

مقابلةُ الإحسان بالإساءةِ مسلكُ أهلِ المساءة

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ للسَّببيَّة، أي: بسبب ما آتاهمُ اللّهُ تعالى منَ الرَّحمة والإنقاذ منَ الشِّدَّة، فصار ذلك سببًا لأشَرهم وبطَرهم وكُفرهم، كما هي عادةُ الإنسانِ إلّا مَن عصَمَهُ اللّهُ ﷻ، وعليه فالآيةُ بلغت مبلغًا عظيمًا في التَّوبيخ، أي: بدل أن يشكروا بسبب ما آتاهمُ اللّهُ من رفعِ الضُّرِّ، قابلوا الإحسانَ

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 464.
(2) الهواريّ، تفسير كتاب الله العزيز: 3/ 286، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 280.

بالإساءةِ، فكفروا، فأتى بالضِّدِّ ممّا يجب أن يكونوا عليه؛ لتوبيخهم وتبكيتهم وتقريعهم.

نُكْتَةُ استعمالِ أداة (ما) الموصوليَّة:

كـفـرانُ أهـلِ الـخُـسـران يَـعـمُّ جميعَ النِّعمِ الظّاهرة والباطنة

استعمل النَّظمُ الكريم الاسمَ الموصول (ما)، في قوله تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾، للدَّلالة على العموم، أي: ليكفروا بجميعِ الذي أعطيناهم منَ النِّعم العِظام، والفواضلِ الجِسام، فلم يشكروا، وما ذلك إلّا من خُبث طينتهم، وتَركُّب جهلِهم المَركوز في جِبِلَّتهم[1].

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾:

الـدَّلالـةُ على سهولةِ وصول النِّعَمِ وتحقُّقها

الإيتاءُ: إعطاءُ النّافع، فمعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾: أنعمنا عليهم مِنَ النِّعَم، التي هي نعمة الرِّزق وكشفِ الضُّر[2]، وجاء استعمال الإيتاء للدِّلالة على سهولةِ وصول النِّعَم وتحقُّقها.

فائدةُ إسنادِ فعلِ الإيتاءِ إلى ضمير العظَمةِ:

التَّعريضُ بأنَّ مُنزِّلَ النِّعم هو القادرُ على إنزالِ النِّقَم

أُسند فعلُ الإيتاءِ إلى ضمير العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ لبيانِ أنَّ إيتاءَ النِّعَم كان مِنَ العظيم سبحانه، وهي التي لا يقدر عليها سواه، ففيه تعريضٌ بأنَّ مَن آتاهم تلك النِّعمَ، هو القادر دونَ سواه على سلبِها وإنزالِ النِّقَم.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

تفريعُ الإنـذارِ والتَّوبيخ عن الكلامِ السّابق

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ للتَّفريع، جيء بها؛ لأنَّ الإنذار والتَّوبيخ مُفرَّعان عنِ الكلام السّابق[3]، أو الفصيحة، والتَّقدير: إن فهمتُم مقصِدَ الكلامِ؛ فتمتَّعوا، فسوف تعلمون.

غرضُ استعمالِ لفظ التَّمتُّع مادَّةً وصيغةً:

تـهـديـدُ الجاحدين مع التَّهكُّم والتَّقريع

استُعمِل لفظُ التَّمتُّعِ، في قولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 37.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾، ومعناه: الانتفاعُ بالملائم وبالنِّعمة مُدَّةً تنقضي[1]، والأمر فيه للكُفّار بأن يتمتَّعوا بدُنياهم قليلًا، أو بعبادتهم الأوثان، أو باتِّباعهمُ الأهواءَ، فإنَّها من قبيل الشَّهوات التي يُتمتَّع بها، وفي التَّهديد بصيغة الأمر إيذانٌ بأن المُهَدَّد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المُهَدَّد به[2]، فالأمر في (تمتَّعوا) مُستعملٌ في التَّهديد والتَّوبيخ[3]، وهو خطابُ تهديد على سبيل التَّهكُّم والتَّقريع.

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ:

آيــاتُ الـنَّـحـلِ والـــــرُّوم لـلـمـخـاطَـبـين وآية العنكبوت للغائبين

جاء قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ في سورة النَّحل في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [النّحل: 53 - 55]، وفي سورة الرّوم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، بينما في سورة العنكبوت جاء بلفظ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ [العنكبوت: 66]، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [العنكبوت: 65 - 66]، ولسائلٍ أن يسأل عنِ اختصاص آيةِ العنكبوت بما خُصَّت به، ومجيء الآيتين الأُخْرَيين بلفظ الأمر على معنى التَّهديد، وهو ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾؟ والجواب: أنَّ الآية الأولى افتُتِحت بخطاب الشّاهد، فأجرى قوله: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ على هذا اللَّفظ، وآيةُ العنكبوت افتُتِحت بالإخبار عنِ الغائب، وهو قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: 65] ومَرَّ سائر الأفعال في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 281.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.

هذه الآية على ذلك، ولم يكن لها نظيرٌ في لفظها تُرَدُّ إليه، فأجرى قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ [العنكبوت: 66] عليه.

والآية في سورة الرُّوم، وإنِ افتُتِحت بلفظ الإخبار عن الغائب - في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ - فإنَّ لها في لفظها نظيرةً رُدَّت إليها، وصارت كالفرع عليها، وهي قوله تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزُّمر: 8]، فهذه الآية مُفتتحة بمثل ما افتُتِحت به تلك، إلّا أنَّ هذه الآيةَ لواحد من النّاس، وتلك للجمع، فصارت كالفرع على الأولى، فكان حَمْلُها في هذه اللَّفظة عليها أولى[1].

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيبة إلى الخطاب:

مباغتةُ الخطابِ أشدُّ في بعضِ النُّفوس من خطابِ الإخبار بالغيبةِ

التفتَ النَّظمُ الكريم منَ الغيبةِ إلى الخِطاب في قولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ﴾؛ بقصد التَّوبيخ والإنذار والمُبالغة في زجرهم[2]، فلمّا أخبر عن نتيجة شركهم بتحقيق الكُفران؛ التفت إليهم ليفْجَأهم بالخطاب، آمرًا لهم بالتَّمتُّع بكُفرانِ الإحسان، حيثُ يواجَه هؤلاء المُشركون بهذا الوعيد من ربِّهم، فلْيَتمتَّعوا بما هم فيه، وسوف يعلمون ما يَجُرُّه عليهم كفرُهم وشركُهم من بلاءٍ شديد، وعذابٍ أليم[3]، فلمّا كان فعلُهم هذا سببًا لغايةِ الغضب، دلَّ عليه بتهديده مُلتفتًا إلى المُخاطَبة[4].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تفريعٌ للإنذارِ على

(1) الإسكافيّ، دُرّة التّنزيل: 1/ 840 - 841، والكرمانيّ، البُرهان في توجيه مُتشابه القرآن، ص: 160، وابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 2/ 298.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 7/ 504.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 521.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 93.

التَّوبيخ[1]، أو فصيحةٌ واقعةٌ في جوابِ شَرْطٍ مُقدَّرٍ، بمعنى: إن تتمتَّعوا؛ فسوف تعلمون[2].

غرضُ استعمالِ أداةِ التَّسويف للبعيدِ:

عــــذاب الـلـه بالظّالمين آتٍ لا محالة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ التَّسويف للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ دون السّين، فلم يقل: (فستعلمون)؛ وذلك أنَّهم استبعدوا مجيءَ العذابِ قريبًا، فعاملهم على ظنِّهم تنزُّلًا معهم، وإمهالًا لهم بمزيدِ عذابٍ مُتراخٍ عنهم، أي: سيأتي عليهم زمانٌ يعترف كلٌّ منهم بجميع ما جرى عليه مِنَ الكُفران والعصيان، وقتَ رؤيتِهم أحوالَ الكافرين وأهوالَهم في النّار[3]، فهو إنذارٌ بأنَّهم سيعلمون في المستقبل شيئًا عظيمًا[4]، وقال بعضهم: واللّهِ، لو توعَّدَني حارسُ دربٍ؛ لخِفت منه، فكيف والمُتوعَّد هاهنا هو الذي يقول للشَّيء: كن فيكون[5]؟.

بلاغةُ الكنايةِ ودقَّةُ الإيماء:

مَـن حـادَ عن حقيقةِ العِلْم تـأدُّبًا؛ لَحِقَتْهُ حقيقةُ العِلْم تأديبًا

لمّا كان المشركون الجاحدون عالمين بحقيقةِ المُنعِم ﷻ، الذي يُخرجهم من هول المصائب، وعملوا بمقتضى ذلك جهلًا وخُسْرًا؛ عاملهم بواقع أعمالهم المآليَّة، فأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: سُوءَ تدبيركم عند تدميركم، فهذا تهديد بعد تهديد، ووعيدٌ بعد وعيد، والعِلْم كنايةٌ عن حصول الأمر الذي يُعلم، أي: عن حلول مصائب بهم، لا يعلمون كُنهها الآن، وهو إيماءٌ إلى عظمتها، وأنَّها غيرُ مترقبةٍ لهم، وهذا إشارةٌ إلى ما سيُصابون به[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 9/ 111.
(3) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلَهيَّة: 2/ 122.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98.
(5) المغراويّ، التَّدبُّر والبيان: 26/ 234.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 98، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 280.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجماعة والطّائفة والفريق:

الطّائفة في الأصل: الجماعةُ التي من شأنها الطَّوْفُ في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلُها الجماعةَ التي تستوي بها حلقةٌ يُطاف عليها، ثُمَّ كثُر ذلك حتى سُمّيت كلُّ جماعة طائفة، ويجوز قبولُ الواحد، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التّوبة: 122]، والجَماعَة أقلُّها ثَلاثَةٌ، وأمّا الطّائِفَةُ؛ فقيل: إنَّها تُطلَق على الواحد فأكثر[1]. فالطّائفةُ هي الجماعة القليلة[2]، فأُوجِب العملُ في خبر الطّائفة، وقد تكون الطّائفة واحدًا[3]، ففي الطّائفة معنى القِلَّة مُقارنةً بالجماعة، أمّا الفِرقة؛ فهي الجماعة الكثيرة، والفَريقُ أكثر مِنْها[4].

الطّائفة يُلْحظ فيها الانتقالُ والجماعةُ الاجتماعُ على سببٍ ما والفريق الافتراقُ عن جهةٍ ما

فالجماعةُ والطّائفة والفِرقة بينهما تقاربٌ دلاليٌّ؛ حيثُ تشترك الألفاظُ في الدِّلالة على العدد، والفارق بين الكلمات هو كثرةُ العدد في الفريق، وقلّته في الطّائفة والجماعة، والقرآن الحكيم لم يُهدِر هذا الملمحَ الدِّلاليَّ المُميَّز في استعمال الكلمات[5]، مع وجود فرقٍ آخر، وهو أنَّ الطائفة ما يسهل تنقُّلها، والجماعةُ ما يجمعها سببٌ ما، والفريقُ ما يُلحظ فيها الافتراق عن شقٍّ مخالفٍ له.

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ أقْوى مِنَ الإعْطاءِ وفيه معنى الالتزام

لا يكاد أهلُ اللُّغةِ يفرِّقون بينَ الإيتاء والإعطاء، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعضَ الفروق الدَّقيقة التي تُوحي ببعض الفروق، وهي فروقٌ أغلبيَّة لا كليَّة، فالإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له فعلٌ مطاوعٌ، تقول: أعطاني، فعَطوتُ، ولا

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 685.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 210.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 278.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (فرق)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 323.
(5) محمَّد داود، الفروق الدّلالية، ص: 333.

يُقال في الإيتاء: آتاني، فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني، فأخذتُ، والفعل الذي له فعلٌ مطاوِع أضعفُ في إثبات مفعولِه من الذي لا مطاوعَ له، فالإيتاءُ أقوى منَ الإعطاء، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعطاه إلّا مَن له قوَّة، وكذا: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، والحكمةُ شيءٌ عظيم أيضًا، وقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] لعِظَم القرآن وشأنه[1].

ومنَ الفروق أيضًا: أنَّ الإيتاء فيه معنى الوجوب والالتزام، أمّا الإعطاء؛ ففيه معنى التَّفضُّل والإكرام، فمثلًا: بعد أن أسعد اللّهُ المؤمنين بدخول الجنَّة، قال: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النبأ: 36].

ومنَ الفروق أيضًا: أنَّ العطاء يكون في الأشياء المادّيَّة، ويُفيد التَّكرار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1] أي: سيتكرَّر شُربَكَ - يا محمَّد - كثيرًا من نهر الكوثر، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]، أي: سيكون عطاءُ اللّه لك مكُرَّرًا حتَّى تبلغَ درجة الرِّضا[2]، أمّا الإيتاءُ؛ ففي الأشياء الماديَّة والمعنويَّة، قال سُبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20][3].

ومن الفروق أيضًا: أنَّ الإعطاء دليلُ التَّملُّك دونَ الإيتاء[4]، فالإيتاءُ يشمله النَّزع، بمعنى: أنَّه ليس تمليكًا، ولكنَّ العطاء تمليك، والإيتاء ليس بالضَّرورة تمليكًا؛ لأنَّ الإعطاء هو إيصالُ الشَّيء إلى الآخذ له، وكَثُرَ استعمال الإعطاء حتَّى صار لا يُطلَق إلّا على التَّمليك، فيُقال: أعطاه مالًا؛ إذا ملَّكهُ إيّاه.

(1) السُّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367 - 368، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 212.
(2) الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 367.
(3) صلاح لاشين، من أسرار التَّعبير في القرآن الكريم، ص: 71 - 77.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات: 1/ 360.

﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾

[الروم: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيان الواقع إلى بيانِ خُلوّه منَ الدّليل

لمّا ذُكِرَ في الآيات السّابقة واقعُ المشركين، وأنَّهم أشركوا باللّٰه تعالى دون علمٍ أو فهمٍ أو قاعدةٍ يعتمدون عليها؛ ناسبَ أن ينتقل إلى افتراضٍ لا وجودَ له، وهو إنزال سلطانٍ ودليل لهم، فهو يدافع عنهم، ويُبيِّن حُجَّتَهم في شركهم باللّٰه تعالى، فهو انتقالٌ من وصف الواقع المخزي للمشركين، إلى بيان فَقْدِ الحُجَّة والبرهان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: (سلط) أصلُ الكَلِمَةِ مِنَ السَّلاطَةِ، وهي: القُوَّةُ والتَّمَكُّنُ والقَهْرُ[1]، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليه، أي: مَكَّنَهُ مِنْهُ وحَكَّمَهُ فيه، والسُّلْطان: قُدرةُ المُلْكِ، وقُدرة من جُعِلَ ذلك له، وإنْ لم يكن مَلِكًا[2]، وسُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّهُ يُكسِبُ المُستَدِلَّ به سُلطةً على مُخالِفه ومُجادِله[3]، ويأتي بمعنى الخَليفَةِ، والإمام، والقاضي، والسَّليطُ مِنَ الرِّجالِ: الفَصيحُ اللِّسانِ الذَّرِبُ[4]، والسُّلْطانُ: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ، قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقّة: 29]، أي: حُجَّته، والمقصودُ بالسُّلْطانِ في الآية: الحُجَّةُ والبُرهانُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا بُرهانَ سوى القرآن

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة خُلوَّ المشركين من أدنى حُجَّة وبرهانٍ، فلا برهانَ يعرفه الوجودُ يشرح الحقَّ، ويُبيِّنه سوى القرآن، أي: فهل

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(2) الخليل، العين: (سلط).
(3) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 232.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلط).

أنزَلْنا على المُشركينَ حُجَّةً ظاهِرةً تَشهَدُ بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يُوجِبَ لهم ذلك شِدَّةَ التَّشَبُّثِ بالشِّركِ؟ ففي الآية تهكُّمٌ بهم؛ لسفَهِهم وجَهْلِهم، وهي تنفي أن يكون شركُهم مبنيًّا على دليلٍ، أو ما يُشبه الدَّليل، أو أن يكون هناك مَن أمَرهم به سوى تقاليدهم الباطلة، وأهوائِهم الفاسدة، وأفكارِهم الزّائفة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتُها البيانيّة:

الإضـراب بالتَّوبيخ واللَّوم المتَّصل بالتَّوبيخ السّابق

أداةُ ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ منقطعةٌ، فهي مثلُ (بل) للإضراب، وهو إضرابٌ انتقاليٌّ، وإذ كان حرفُ ﴿أَمۡ﴾ حرفَ عطفٍ، فيجوز أن يكون ما بعدَها إضرابًا عنِ الكلام السّابق؛ فهو عطفُ قِصَّة على قصَّة بمنزلة ابتداء، والكلامُ توبيخٌ ولومٌ مُتَّصلٌ بالتَّوبيخ، الذي أفاده قولُه: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[2].

فائدةُ الالتفات مِن الخطاب إلى الغَيبة:

تحقيرُ المشركين والتَّهوين من شأنهم للتعجيب من حالهم والإبعاد لهم

التفتَ النَّظمُ الكريم من الخطاب - في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ - إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ إعْراضًا عَنْ مُخاطَبةِ المشركينَ إلى مُخاطبةِ المُسلمينَ؛ تَعجيبًا من حالِ أهْلِ الشِّرْكِ[3]، على سبيل التَّحقير لهم، والتَّهوين من شأنهم[4]، وإيذانًا بالتَّهاون بهم، وإبعادًا لهم عن جنابه، حيثُ جلَّى لهم هذه الأدلَّة، واستمرّوا في خطر إغضابه بقوله: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا﴾[5].

غرضُ الاستفهام ودلالتُه:

تقريرُ الجاحِدين إنكارٌ لهم وتوبيخٌ لأفعالِهم

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ على

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 500، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 87.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 99.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 99.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 86.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 94.

تقدير همزة الاستفهام، فالاستفهام ملازمٌ لأداة ﴿أَمۡ﴾، أي: أأنزلنا، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى النَّفي، أي: ما أنزلنا، غرضُه تقريرٌ على الإنكارِ، كأنَّ السّائل يسأل المسؤول ليُقِرَّ بنفي المسؤول عنه[1]، فالمشركون يقولون ما لا علمَ لهم به، بل هم عالمون بخلافه، فإذا ظهرت هذه الحُجج على عنادهم؛ فماذا نقول؟ أهم يتبعون الأهواءَ من غير علم؟ أم لهم دليلٌ على ما يقولون؟ وليس الثّاني، فيتعيَّن الأوَّل[2].

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الإنزال إلى ضمير العظَمة:

أُسنِدَ فعلُ الإنزال إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا﴾؛ لتعظيم شأنِ الإنزال، فإنَّ إنزالَ العظيم عظيمٌ، فلمّا نفى الإنزالَ؛ نفى لوازمه من تكريمهم وإثبات ضدِّه.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول:

ذِكْرُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ لإثبات الحصر، أي: أنزلنا عليهم دون غيرهم، ففيه تهكُّمٌ بهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ السُّلطان:

مناسبةُ الألفاظِ للمقامِ من بديعِ نظمِ القرآن

آثرتِ الآيةُ استعمالَ لفظِ السُّلطان، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾، وهو الحُجَّة والبُرهان، وسُمّيتِ الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّ صاحبَ الحُجَّة يقهر من لا حُجَّة له، كالسُّلطان يقهر غيرَه بقوَّته[3]، فأتى بلفظِ السُّلطانِ لنفي ما يتضمَّنه اللَّفظ من معنى الحُجَّة والبرهان، ولمّا جحد المشركون النِّعَم التي أنزلها اللّهُ عليهم، فكانوا كمن أتى بسلطانٍ عظيمٍ على صنيعهم، ناسب استعمالَ لفظِ السُّلطان، وعليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 99.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 101.
(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 282.

فالآية تتهكَّم بهم لسفههم وجهلهم، وتنفي أن يكون شركُهم مبنيًّا على دليل أو ما يُشبه الدَّليل، أو أن يكون هناك من أمَرهم به سوى تقاليدِهم الباطلة، وأهوائهم الفاسدة، وأفكارهم الزّائفة[1].

غرضُ تنكيرِ لفظ السُّلطان:

إفـادةُ العمومِ واحتمالُ المعاني المتنوِّعة

نُكِّر لفظ ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾؛ لإفادةِ العموم والاحتمال، فالظّاهر أنَّه بمعنى كتاب - كما تقدَّم - ويحتمل أن يكون معنى الآية: أم أنزلنا عليهم ذا سلطان، أي: مَلَكًا معه بُرهان، فذلك المَلَك يتكلَّم بالبرهان الذي بسببه يشركون[2]، وهذه الاحتمالات أقوى في إثبات حجَّة القرآن، واضمحلال حُجَّتهم، فإنَّ إرخاءَ العنانِ للخَصْم أقوى من تقييده وتضييق الخناق عليه.

بلاغةُ المجازِ المُرسل في لفظِ الكلام:

الإشــــارةُ إلى وضــوح دلالـة الـسُّـلـطـان وظُهورها

لفظُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ بمعنى الدِّلالة، وهي من لوازمه بطريق المجاز المُرسل[3]، لعلاقة الإطلاق والتَّقييد، أي: يدلُّ السُّلطان المُنزَّل عليهم على كيت وكيت، ولمّا جُعِل السُّلطانُ مفعولًا للإنزال من عند اللّه؛ تعيَّن أنَّ المراد به كتابٌ، كما قالوا: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: 93]، ويتعيَّن أنَّ المراد بالتَّكلُّم الدِّلالة بالكتابة، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: 29]، أي: تدلُّ كتابته[4].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في إسناد التَّكلُّم إلى السُّلطان:

تـشـخـيـصُ معنى السُّلطان وتصويرُه حسّيًّا

إسنادُ فعلِ الكلام إلى الضَّمير العائد على لفظ السُّلطان في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، مجازٌ عقليٌّ، كما يقول القائل: كتابُه ناطِقٌ بكذا، وهذا مِمّا نطق به القرآنُ، ومعناه: الدِّلالة والشَّهادة،

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 86.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 415 والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 395.
(3) الفتوحيّ، شرح الكوكب المنير: 1/ 50.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 99، وأطفيّش، تيسير التَّفسير: 11/ 122.

كأنَّه قال: فهو يشهد بشركهم وبصِحَّته، أو بالذي يشركون به[1]، وأُسنِد الكلامُ إلى السُّلطان بطريق المجاز العقليِّ، فهو لظُهور بيانه ﴿يَتَكَلَّمُ﴾ كلامًا مَجازيًّا بدلالته وإفهامه[2]، وغرضُ المجاز تشخيصُ السُّلطان لتصويرِه بصورةٍ محسوسةٍ، وهو أقوى في إثبات غرض التَّهكُّم بهم.

بلاغةُ الاستعارة المكنيَّة:

تصويرُ قوَّةِ السُّلطان وشِدَّةُ ظهور حُجَّتِهِ وشهادته

التَّكلُّمُ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ بمعنى: يُظهِر مذهبَهم، وينطق بشِركهم، حيثُ شبَّه السُّلطان بالإنسان النّاطق، وحذف المُشبَّه به، وذَكَرَ صفة من صفاته، وهو التَّكلُّم، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: 29]، فهو استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّة، كأنَّه قال: هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقِّ، وهو يتكلَّم، وهو جوابٌ للاستفهام الذي تضمَّنه: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا﴾، أي: بُرهانًا شاهدًا لكم بالشِّرك، فهو يشهد بصِحَّة ذلك[3].

نوعُ (ما) ودلالتُها:

تنويعُ المعنى وتكثيرُه بِحَسَبِ دلالة (ما)

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ إمّا أن تكون مصدريَّة، والمعنى: بإشراكهم به تعالى، وإمّا موصولة، ويرجع الضَّمير إليها، والمعنى: فهو يتكلَّم بالأمر الذي بسببه يُشركون[4]، وهي أولى من جَعْلها مصدريَّةً لوجود العائد[5].

فائدةُ ذِكْر فعلِ ﴿كَانُواْ﴾:

ذَكَر النَّظمُ الكريم فعلَ الكونِ، في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾، أي: كَوْنًا راسِخًا، وهذه العبارة تدلُّ على أنَّهم لازموا الشِّركَ ملازمةً صيَّرتْهُ لهم خُلُقًا لا يَنْفَكُّ[6].

(1) الزَّمخشريّ، الكَشَّاف: 3/ 480.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 94، والسُّيوطيّ، الإتقان: 3/ 121.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 392، وأطفيّش، تيسير التَّفسير: 11/ 122.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 38.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 22/ 146.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 94.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

تأكيدُ نفي استمساكِ المشركين بما يُعوَّل عليه

الباء في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ سببيَّة، والمُراد: نفيُ أن يكون لهم مُستمسك يعوَّل عليه في شركهم[1]، أي: بإشراكهم بالله ﷻ، على أنَّ (ما) مصدريَّة، وضمير ﴿بِهِۦ﴾ يعودُ إليه تعالى، أو بالأمر الذي يُشركون بسببه.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفعل:

التَّنبيهُ على سبب الشِّرك في حيِّز الإنكار

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفعل ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، فلم يقل: (بما كانوا يشركون به)؛ للاهتمام بالتَّنبيه على سبب إشراكهم الدّاخل في حيِّز الإنكار[2]، بحيثُ لم يجدوا بُدًّا من مُتابعته؛ لتزولَ عنهم الملامة[3]، ولحسن نظم الفاصلة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المُضارع في قوله تعالى: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ للدِّلالة على استمرارهم في الشِّرك، مع رُسوخهم وعراقتهم فيه، ولتصوير حالهم البغيض عند وقوعه منهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البُرهان والسُّلطان:

البُرهان الحُجَّة الفاصلة البيِّنة والسُّلطان أعمُّ منه وأقوى

البُرهان: الحُجَّة الفاصلة البيِّنة، يُقال: بَرهَن يُبَرهِنُ بَرهَنَةً؛ إذا جاء بحُجَّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ[4]، فيُبَرهِن بمعنى يُبَيِّن، وقد بَرهَنَ عليه: أقام الحُجَّة، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: «الصَّدقةُ بُرهان»[5]، أي: هي دَليلٌ على صحَّة إيمان صاحبها لطيب نَفسه بإخراجها، وذلك لعَلاقة ما بين النَّفس والمال[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 100.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 94.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(5) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (223).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (برهن).

أمّا السُّلطان؛ فيُطلَق على الحُجَّة، ويُذكَّر، ويُؤَنَّث، فمن ذكَّر السُّلطان؛ ذهب به إلى معنى الرَّجل، ومَن أنَّثه؛ ذهب به إلى معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود: 96] أي: وحُجَّةٍ بَيِّنة، والسُّلطان: الحاكم، إنَّما سُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّه حُجَّةُ اللَّهِ في أرضه، أو هكذا ينبغي أن يكون[1]، وقولُه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة: 29] معناه: ذهبت عنّي حُجَّتي[2]؛ فالسُّلطانُ أعمُّ مِنَ الحُجَّة وأقوى.

(1) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 217.
(2) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/ 31، وابن جزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 407.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾

[الرُّوم: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

استحضارُ العِلْمِ عندِ ضيقِ الرِّزقِ طاردٌ للهُمومِ ودافعٌ للغُمومِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حالَ النّاس عند مسِّ الضُّرِّ في الالتجاء ودُعاء الله تعالى إنابةً ورجوعًا، وأنَّه عند إذاقتهم رحمةً منه إذا فريقٌ منهم يُشركون كُفرانًا وجحودًا؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان أحوال المشركين، زيادةً في بسط الحالة التي يتلقَّون بها الرَّحمةَ وضِدَّها تلقّيًا يستوون فيه، بعد أن ميَّز فيما تقدَّم حالَ تلقّي المشركين للرَّحمة بالكفران المقتضي أنَّ المؤمنين لا يتلقّونها بالكفران، فأُريد تنبيهُهم هنا إلى حالة تلقّيهم ضِدَّ الرَّحمة بالقُنوط؛ ليَحْذروا ذلك، ويرتاضوا برجاء الفرج والابتهال إلى الله في ذلك، والأخذ في أسباب انكشافها[1]، ولمّا ذَكَرَ أنَّ السَّيئة أصابتهم بما قدَّمت أيديهم؛ أتبعَه ذِكْرَ ما يجب أن يُفعل، وما يجب أن يُتْرَكَ عند البَسْطِ، وهو الإيمانُ بأنَّ الله تعالى هو القابض الباسط، والتَّسليم لأمرِه.

شرح المُفردات:

1) ﴿أَذَقۡنَا﴾: أصلُ (ذوق) اختبارُ الشَّيءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منهُ مجازًا، يُقال: ذُقْتُ المأكُولَ، أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عند فُلانٍ؛ إذا اخْتَبَرْتَه[2]، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ، والذَّوقُ وجودُ الطَّعم بالفَم، واستُعمل في العذاب بكثرة، قال تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 100.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدّخان: 49]، واستعمل في الرَّحمة: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [هود: 10][1]، فإن كان التَّذوُّق للعذاب زيادةً في الألم؛ فالتَّذوُّقُ للنِّعمة زيادةٌ في التَّنعُّم، فهو مُستَعارٌ للإحساسِ القَويِّ، وهذا هو المراد في الآية.

2) ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾: (صوب) أصلُ الإصابة في الرَّميَّة، ثمَّ اختصَّت بالنّائبة الفادحة، وتُستعمل في الخير والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ﴾ [التّوبة: 50]، وقال بعضهم: الإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّواب، وهو المطر، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصلٍ واحدٍ[2]، والمراد بالإصابة في الآية: حصولُ حالٍ بشيءٍ آخرَ ووُرُودُه عليه.

3) ﴿يَقۡنَطُونَ﴾: (قنط) أصلٌ يدُلُّ على اليأسِ منَ الشَّيْءِ، يُقالُ: قَنَطَ يَقْنِطُ، وقَنِطَ يَقْنَطُ[3]، والقَنْطُ: المَنْعُ، يُقال: قَنَطَ ماءَهُ عنّا، أيْ: مَنَعَهُ، ومنه سُمّيَ اليَأسُ قُنوطًا؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ مِن رَحْمَةِ اللهِ تعالى، يُقال: قَنِطَ مِنَ الخَيْرِ، يَقْنَطُ، ويَقْنِطُ، فهو قانِطٌ، أي: يَئِسَ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ[4]، ويأتي القنوطُ بمعنى قَطْعِ الأمَلِ، والمرادُ بالقُنُوط في الآيةِ: اليَأسُ الشَّديدُ، أي: يَيئسون من رحمة اللّه تعالى.

4) ﴿يَبۡسُطُ﴾: أصلُ (بسط) امْتِدادُ الشَّيءِ، في عِرَضٍ أو غيرِ عِرَضٍ، فالبِساطُ ما يُبْسَطُ، والبَساطُ: الأرْضُ، وهيَ البَسيطَةُ، ويَدُ فُلانٍ بِسْطٌ؛ إذا كانَ مِنْفاقًا، والبَسطَةُ في كُلِّ شَيءٍ: السَّعَةُ[5]، وبَسْطُ الشَّيءِ: نشرُه وتوسيعُه[6]، والباسِطُ: من أسماءِ اللهِ تعالَى، هُوَ الَّذي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ، ويُوَسِّعُهُ عليهمْ بجُوده ورَحْمَتِهِ، ويبسُط الأرواحَ في الأجساد عِنْدَ الحَياةِ، والبَسْطُ: نَقيضُ القَبْضِ[7]، والبَسْطُ في الآية معناه: المَدُّ والتَّوسعة.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/ 282، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 172.
(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 407، وابن جرير، جامع البيان: 16/ 458، والرّاغب، المفردات: (صوب)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/ 43.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنط).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (قنط)، والمناويّ، التَّوقيف على مُهمَّات التَّعاريف، ص: 257.
(5) ابن فارس، مُجمل اللُّغة، ومقاييس اللُّغة: (بسط).
(6) الرّاغب، المفردات: (بسط).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (بسط).

❁ المعنى الإجماليُّ:

حالُ النّاسِ متقلِّبٌ بحسب هواهم لا بحسب إرادةِ مولاهم

يُخبرُ الحقُّ ﷻ عن طبيعة الإنسان وجِبلَّته إلّا مَن عصمه، فيقول: وإذا أصَبْنا النّاسَ برَحمةٍ، كحُصولِ الخِصْبِ والعافيةِ، فَرِحوا بذلك، وإنْ تُصِبْهم حالٌ تَسوؤُهم، كقِلَّةٍ في أموالِهم، أو شِدَّةٍ في مَعيشَتِهم بسَبَبِ ذُنوبِهم؛ أصابَهم يأسٌ شديدٌ مِن حُصولِ الرَّحمةِ والفَرَجِ، وزَوالِ تلك الحال[1]، ثمَّ يخبر عن حالهم، مُنكرًا عليهم إهمالَ التَّأمُّل في السُّنن الإلَهيَّة الشّائعة في النّاس من لَحاق الضُّرِّ وانفراجه، فيقول: أوَلم يَرَ هؤلاءِ الَّذين يَفرَحونَ عندَ الرَّخاءِ، ويَيئَسونَ عندَ الشِّدَّةِ أنَّ اللّهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ فهو وحْدَه المتصَرِّفُ في عبادِه بحِكمتِه، فيُغْني مَن يَشاءُ، ويُفقِرُ مَن يَشاءُ، إنَّ في ذلك - الَّذي ذكرناه لكم من أحوال النّاس، ومن قُدرتنا على كلِّ شيءٍ - لَآياتٍ واضحات لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه، ويعملون بما يقتضيه إيمانُهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في الاستدلال والبيان:

اعتقادُ المُشركِ يتزعزعُ عند أوَّلِ بلاءٍ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ عطفٌ على ما تقدَّم؛ لأنَّه لمّا بان بهذين المُتعادِلَيْن أنَّه لم يضطرَّهم إلى الإشراك عُرفٌ في أنفسهم مُستمرٌّ دائم، ولا دليلٌ عقليٌّ ظاهر، ولا أمرٌ منَ اللّه قاهر، فبان أنَّهم لم يتَّبعوا عقلًا ولا نَقْلًا، بل هم أسرى الهوى المبنيِّ على محضِ الجهل، وكان قد صرَّح بذلك عَقِبَ العديل الأوَّل؛ لُمِحَ هنا إلى أنَّه تَرَكَ التَّصريح به لإغناء الأوَّل عنه، واستدلَّ عليه بدليل خالفوا فيه العادة المستمرَّة، والدَّلالة الشُّهوديَّة المستقرَّة،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 501، والقُرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 34، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 642.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 501، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 35، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 318.

فقال عاطفًا على: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ دالًّا على خِفَّة أحلامهم من وجه آخر غير الأوَّل[1].

بلاغةُ استعمال (إذا) في الخير و(إن) في الشَّرِّ:

رحـمـةُ الله تعالى متحقِّقة والمصائبُ بسبب أفعالِ النّاسِ متوقِّعة

استعمل النَّظمُ الكريم في جانب الرَّحمة (إذا)، وفي جانب المُصيبة (إن)، فقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾؛ وذلك للإشعار بأنَّ رحمته تعالى بعباده مُتحقِّقة في كُلِّ الأحوال، وأنَّ ما ينزل بالنّاس من مصائب، هو بسبب ما اجترحوه من ذنوب[2]؛ لأنَّ من شَرط (إذا) أن يكون التَّعليقُ بها على أمر معلوم مقطوع بوقوعه أو كثيرِ الوقوع، بخلاف (إنْ)؛ فإنَّه لا يكون التَّعليقُ بها إلّا في مُبهم مشكوك فيه، فإذا أذاق اللّهُ النّاس نِعمًا هي من آثار رحمة منه؛ فرحوا بها، وأكثرهم لا يَشْكُرون ربَّهم على نِعَمِهِ التي هي من آثار رحمته، بل يقتصرون على الفرح بها، وإن أنزل بهم أحيانًا نادرة سَيِّئَةً تُصيبهم في أنفسهم أو أهلهم أو أموالهم، بسبب ما كسبوا من ذنوب وخطايا؛ فإنَّهم يقنطون يائسين أشدَّ اليأس[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في لفظ الإذاقة:

الكفرُ الخبيءُ يكشفُه البطرُ الدَّنيء ويُظهرُه الخيرُ المليء

استُعمِل فعلُ الإذاقة، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾، وهو في الأصل تَناوُلُ الشَّيء القليل بالفم لإدراك الطَّعم واختباره، ثُمَّ استُعيرت للإحساس بالرَّحمة، حيثُ شُبِّه ذلك الإحساسُ بذَوقِ الطَّعم بجامع سُرعة اتِّصال الإحساس بالإدراك، وسُرعةِ زواله كما تزول الطُّعوم، فالمُشَبَّهُ هو إصابة المُشركين بالرَّحمة، والمُشبَّهُ به هو الإذاقةُ بالفم، ووجهُ الشَّبهِ هو سُرعة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 94.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 95، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 85.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 143.

الإحساسِ بالشَّيء القليل واختبارِه؛ لأنَّ حاسَّة الذَّوق قويَّةُ الإحساسِ بما يُلامسها، والتَّلذُّذِ بما تذوقه من طيِّبات، والاستعارةُ تصريحيَّة تبعيَّة؛ لحذف المُشبَّه والتَّصريح بالمُشبَّه به، وفي هذه الاستعارة إشارةٌ إلى إسراعهم في الفرح بالنِّعمة دونَ شُكْرِ المُنعِم، فهُم من بداية مُخالطتِهم للنِّعمة كفروا بصاحبها سُبحانه، إذِ الذَّوق هو أوَّلُ المُخالطة، وتنبيهٌ على أنَّ الإنسان بأدنى ما يُعطَى مِنَ النِّعمةِ يَأشَرُ، ويَبطَرُ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6 - 7]، ودلالةٌ على أنَّهم تمتَّعوا بعدَ الحِرمان[1].

بلاغةُ اختلافِ الإسناد في فعلَيِ الإذاقةِ والإصابة:

الخيرُ كلُّه من الله تعالى وما سواه فمن صنيع العِبادِ

أُسنِد فعلُ الإذاقة إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ في مقام العظَمة؛ إشارةً إلى سعة جوده، فرحمتُه وسعت كُلَّ شيء[2]، وفي المقابل أُسنِد فعلُ الإصابة إلى السَّيِّئة - في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ - لأنَّ السَّيِّئة من فعلِهم، وذلك بسببِ ما قدَّمته أيديهم، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]، مع ما فيها من رعاية الأدب مع الله تعالى، فإنَّ كلَّ ما يقع؛ فهو بأمره ومشيئته.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

قرينةُ السّياق دالَّةٌ على أنَّ الحديث عنِ المشركين

تعريف لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للعهدِ، وهم المشركون المتحدَّثُ عنهم بقرينة السّياق، كما أنَّ الآية خُتِمت بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[3].

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 95.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 100.

بِهَاۖ﴾؛ لإفادة التَّفخيم، أي: أكرمهمُ اللّهُ - رغمَ عدم استحقاقهم - برحمة عظيمة لا يُحَدُّ حَدُّها، ولا يُقَدَّرُ قَدْرُها، وخاصَّة أنَّها منَ اللّه تعالى[1]، وقد جاءت نكرةً لتُفيدَ العموم، فيدخلَ فيها كلُّ ما هو رحمة من اللّه تعالى، من غيثٍ أو صِحَّة أو ولد أو رزق، أي: مُطلق نعمة، كما أنَّ الضُّرَّ في الآية السّابقة يُطلَق على أضداد هذه الرَّحمة، ويشتمل على كُلِّ شَرٍّ[2].

تَفخيمُ الرَّحمة لنزولِها منَ العظيم

بلاغةُ المجازِ المرسل في استعمالِ مفردة الرَّحْمَة:

إنزالُ النِّعمِ بسببِ رحمةِ المُنعِم

استعمالُ مفردة الرَّحمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ في موضع السَّرّاء؛ لبيانِ سببِ إنزال ما يسُرُّ العبادَ، وهو الرَّحمة الإلَهيَّة، وهو مجازٌ مرسل من بابِ إطلاق السَّبب وإرادة المُسبَّب، والمعنى: رحمناهُم من غير استحقاق، فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقِّ اللّه، ويخضعوا لما تدعو إليه الآيةُ، وهو توحيد ربِّهم وشُكرُ نعمتِه، لا أن يقنطوا، وييئسوا من رحمة ربِّهم، فهذه الرَّحمةُ منَ اللّه تفضُّلٌ منه وامتنان، أمّا كونها منه؛ فلقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا﴾، وأمّا كونها تَفَضُّلًا؛ فلأنَّه لم يذكر لها سببًا، فكانت تفضُّلًا وامتنانًا[3].

غرضُ تقديم إذاقة الرَّحمة على إصابة السَّيّئة:

قُدِّمَ ذِكْرُ إذاقةِ الرَّحمة على إصابة السَّيِّئة في هذه الآيةِ بخلافِ الآيةِ التي قبلها، فقُدِّم مسُّ الضُّرِّ على إذاقة الرَّحمة؛ للاهتمام بالحالة التي جُعِلَت مبدأ العبرةِ وأصلَ الاستدلال، فقوله: ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ وصفٌ لحال النّاس عندما تصيبهم الرَّحمةُ؛ ليُبنى عليه ضِدُّه في قوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾؛ لما يقتضيه القنوطُ منَ التَّذمُّر والغضب،

الاهتمامُ بذِكْرِ آثارِ الرَّحمةِ منَ الفرح؛ لتكونَ توطئةً لذكر آثار السَّيِّئة منَ القنوطِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 143.
(2) ملّا حويش، بيان المعاني: 2/ 447.
(3) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 214.

والمعنى: أنَّهم كما يفرحون عند الرَّحمة، ولا يخطر ببالهم زوالُها، فكذلك ينبغي أن يصبروا عندما يَمَسُّهم الضُّرُّ، ولا يقنطوا من زواله؛ لأنَّ قنوطَهم من زواله غير جارٍ على قياس حالهم عندما تصيبهم رحمةٌ حين لا يتوقَّعون زوالَها، فالقنوطُ هو محلُّ الإنكار عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت: 49]، في أنَّ محلَّ التَّعجيب هو اليأسُ والقنوطُ[1].

بلاغةُ استعمال مفردةِ الفرحِ:

حُسْنُ المقابلةِ بينَ الألفاظِ يُظهر الفرقَ في المواقفِ

استعمالُ مفردة الفرحِ في قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾؛ لبيانِ أنَّ النّاس تُسارع إلى إظهار السُّرورِ والبهجة حين يَرَوا الرَّحمة، وفي المقابل يكون موقفهم عجيبًا؛ إذا نزلت عليهم المصائبُ، فيُصابون بالقُنوط واليأس، والفرحُ أمارةُ الخِفَّة والطَّيش، والقنوطُ أمارة البُؤسِ والجُمود، فناسبَ لفظُ الفرحِ مقابلةَ لفظِ القُنُوط.

تخصيصُ الفرح بالذِّكر دون الشُّكر:

أكثرُ النّاس لا يشكرون

اقتصر النَّظمُ الكريم على ذِكرِ الفَرَح في قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ دون الشُّكر؛ للدِّلالة على أنَّ أكثر النّاس لا يشكرون ربَّهم على ما يُؤتيهم من نِعَمٍ يُفرحهم بها.

نوعُ الباء ودلالتُها في ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ سببيَّة، والمعنى: بطروا، وافتخروا بِسبب هذه الرَّحمة، وهذا شأن الغافلين، وأمّا المُتيقِّظون؛ فيحمدون اللّٰه عليها[2].

بلاغةُ عطفِ الجُمَلِ المتقابلة:

تتميمُ بيانِ حالِ الإنسانِ في تقلُّبِه وضعفه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾؛ لعطف الجملة على الجملةِ السّابقة، لبيانِ ضدّيَّة موقفِ النّاس منَ الرَّحمة والسَّيِّئة،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 100.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 207، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 143.

فلا اتِّزان ولا اعتدال، فإمّا فرحٌ وإمّا قنوط، وفي هذا العطف تتْميمٌ للإنكار على الإنسان من حيثُ هو، إلّا مَن عَصَمَهُ اللّه، فهو إذا أصابته نِعمةٌ؛ بَطِرَ، وافتخر، وإذا أصابته شِدَّة؛ قَنَطَ، وأيس[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿سَيِّئَةٌۢ﴾، ومجيئُها نكرةً:

السَّيِّئةُ عامّةٌ في أنواعِ البلاءِ لا يحتملها أهلُ الرَّخاء

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ السَّيِّئة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌۢ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذه المصيبة تسوؤهم، فهي تُحاكي القنوط، وجاءت نكرةً؛ لتدلَّ على العموم، أي: بلاءٌ من جَدْبٍ أو ضيْق أو مرض أو شِدَّة على أيِّ صفة[2]، وذلك بسبب معاصيهم وذنوبهم، إذا هم ييئسون مِنَ الرَّحمة والفرج، وهذا جهلٌ منهم وعدمُ معرفة[3].

نوعُ الباء ودلالتُها:

الـذُّنـوب سببُ المصائب

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ سببيَّة، وما قدَّمته أيديهم هي المُخالفات[4]؛ وذلك لأنَّ السَّيِّئات سببُها أعمالُ العِباد، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشّورى: 30][5].

سِرُّ إطلاقِ الرَّحمة وتقييد السَّيِّئة:

رحمةُ اللهِ تنزل بفضلِه وعُقوبتُه تكون بعدلِه

يُلحظ أنَّ النَّظم الكريم لم يذكر السَّببَ الذي نزلت بسببه الرَّحمةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾، وذلك ليُعلَمَ أنَّها بفضله سبحانه، فرحمتُه زيادةُ إحسانٍ وتفضُّل، بينما ذَكَرَ سبب السَّيِّئة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، وهو شُؤمُ معاصيهم؛ ليدلَّ على عدلِه، ويحقِّقَهُ[6] بعد بيان فضله، فيُرغِّبَ به.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 317، وقاسم، عقد الجُمان في تفسير القرآن، ص: 864.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 480، والقِنَّوجي، فتح البيان: 5/ 277.
(3) قاسم، عقد الجمان، ص: 864.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 95.
(5) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 212.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 415، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 392.

دلالةُ استعمالِ (ما):

العاقل يحذرُ المعاصي ليأمنَ البلاء

تحتمل أداةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أن تكون موصولة، أو موصوفة، والعائد محذوف، والتَّقدير: بالذي قدَّمته أيديهم، أو بشيءٍ قدَّمته أيديهم[1]، وهذا من قبيل تنويع المعنى وتكثيره، ولم تأتِ صريحةً موصولة؛ لإفادة العموم والشُّمول، فيدخل كلُّ ما قدَّمته أيديهم ممّا يُنزَل عليهم مِنَ المصائب والسَّيِّئات.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ التَّقديم:

أعمالُ الإنسانِ جزاؤه وكسبُهُ أمامَهُ

أصلُ التَّقديم جَعْلُ الشَّيءِ مُقدَّمًا، أي: سابقًا غيرَه، واستُعير في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾؛ لِما سَلَفَ من العمل بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ تشبيهًا له بشيء يسبق المرءَ إلى مكان قبلَ وصولِهِ إليه، وجيء بهذا المجاز؛ للدِّلالة على ما كسبوا، ويكسبون في رِحلة امتحانهم، فهُم قدَّموا أسبابَ الهلاكِ بدلَ أن يُقدِّموا أسبابَ النَّجاة، فوجدوا أعمالهم المُقدَّمة أمامَهم في المصائب النّازلة عليهم.

بلاغةُ المجاز في إسنادِ التَّقديم إلى الأيدي:

أكثرُ الأعمال تُزاوَلُ باليد فمَن حجبَها عنِ الباطل؛ حجبَتْه عنِ النّار

أُسنِد التَّقديمُ إلى الأيدي في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لا إلى الذّات؛ لأنَّ أكثرَ العمل صادرٌ عنِ الأيدي، وهو مجازٌ مرسَل من باب ذِكر الجُزْء وإرادةِ الكلِّ؛ إذ كان لذلك مزيدُ اختصاصٍ فيما يُساق له القولُ، كما يُعَبَّر عنِ الجاسوس بالعين، وهنا عبَّر عن الذّات باليد التي يكون بها الاعتداءُ بالبطش، وسفك الدِّماء، أوِ الاغتصاب، والإيذاء[2]، فأطلَقَ الأيدي، وأراد الأنفسَ لعلاقة الكليَّة والجُزئيَّة؛ لكون أكثر الأعمال تُزاوَل بها، وهذا كثير في القرآن، أنَّ اللّه تعالى يُضيف الشَّيء إلى الأيدي، والمُراد بها نفسُ العامِل؛ لأنَّ السُّوء لا يَنالُ النّاسَ إلّا بأعمالهم[3].

(1) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 284.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 95.
(3) البقاعيّ، معارج التَّفكُّر: 15/ 160، والعثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 214.

بلاغةُ فَنِّ الإدماج:

مُحاسبةُ النَّفسِ لتداركِ المصائبِ أولى من القنوطِ

أَدْمَجَتِ الآيةُ في خلال الإنكار على المشركين قولَه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لتنبيههم إلى أنَّ ما يصيبهم من حالة سيِّئة في الدُّنيا، إنَّما سببُها أفعالُهم التي جعلها اللّهُ أسبابًا لمُسبِّبات مُؤثِّرة، لا يُحيط بأسرارها ودقائقِها إلّا اللّهُ تعالى، فالجَدْب والقَحْط بسبب الأعمال السَّيّئة والمعاصي، فما على النّاس إلّا أن يُحاسِبوا أنفسَهم، ويجتنبوا أسبابَ إصابةِ السَّيّئات، ويتداركوا ما فات، فذلك أنجى لهم منَ المصائب والسَّيِّئات، وأجدرُ منَ القنوط، وهذا أدبٌ جليل من آداب التَّنزيل[1].

نوعُ ﴿إِذَا﴾ ودلالةُ استعمالِها:

سُرعةُ اليأسِ دليلُ فراغِ القلبِ وذهابِ العقل

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ فجائيَّةٌ، أي: من ينظر في حالهم يتفاجأ من ردَّة أعمالِهم، فإنَّ نزولَ المصائبِ بسبب المعاصي والشِّرك تحصيل حاصل، واستعمال أداة ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّة للإشارة إلى سُرعة يأسهم من رحمة اللّه تعالى، حتَّى ولو كانت المُصيبةُ هيِّنةً يسيرة، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم؛ إذِ القُنوطُ من رحمة اللّه، يتنافى معَ الإيمان الحَقِّ[2]، كما أنَّ ﴿إِذَا﴾ جوابُ الجزاء؛ لأنَّها نابت عنِ الفعل بدلالتها عليه، فكأنَّه قيل: وإن تصبهم سيِّئة بما قدَّمت أيديهم؛ وجدتَهم يقنطون، أو تجدهم، أو رأيتهم[3]، فالقنوطُ هو محلُّ الإنكار عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت: 49]، في أنَّ محلَّ التَّعجيب هو اليأس والقُنوط[4].

دلالةُ الجُملة الاسميَّة:

سبيلُ الخلاصِ مِـنَ القـنـوطِ الإيمانُ والإقبالُ على الرَّحمن

جاء النَّظمُ الكريم بالجملة الاسميَّة: ﴿هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾؛ للدَّلالة

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 101.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 87.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 501.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 100.

على أنَّهم اتَّصفوا بذلك على سبيلِ الدَّوام، فهم دائمًا في قُنوطٍ ما دامت السَّيِّئة فيهم[1]، فهي صفةٌ راسخةٌ فيهم، ملازمةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]، ففيها إيماءٌ وإشارةٌ إلى أنَّ القنوطَ باقٍ فيهم، وسبيلُ الخلاصِ من ألم اليأس وهلاكِ القنوط الإيمانُ، والإقبالُ على عبادةِ الرَّحمن.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارِع:

قنـوطُ المـذنبِ عند نزولِ البلاءِ ورفعِ الرَّخاءِ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارع ﴿يَقْنَطُونَ﴾؛ لبيان استمرار قنوطهم في حال أخرى، وهي حالة الاستغراق لألم الشِّدَّة ودعاء ربِّهم، فهم مُجدِّدون له في كُلِّ حين من أحيان نزول المصائب بهم[2]، ولتصوير حالهم عند نزولِ العذابِ بأنَّهم يقنطون بسبب حلول البلاء، ورفع الرَّخاء.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُهُ:

مَنْ أهملَ التَّأمُّلَ في سُنَّةِ اللّه؛ ضاقت به أحوالُ الزَّمان

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ للاستفهام الإنكاريِّ المُفيد للتَّقرير[3]، وهو في مَعنى النَّفي كذلك، حيثُ أنْكَرَ عليهم عدَمَ الرُّؤية؛ تَنزيلًا لِرُؤيتِهم ذلك مَنزِلةَ عدَمِ الرُّؤية؛ لإهمالِ آثارِها مِنَ الاعتبارِ بها، فأنكر عليهم إهمالَ التَّأمُّل في سُنَّةِ اللّهِ الشّائعة في النّاس، من لَحاق الضُّرِّ وانفراجه، ومن قِسْمَةِ الحُظوظ في الرِّزق بين بَسْطٍ وتقتيرٍ، فإنَّه كثير الوقوع كُلَّ حين؛ فكما أنَّهم لم يقنطوا من بَسْط الرِّزقِ عليهم في حين تقتيره، فكدحوا في طلب الرِّزق بالأسباب والدُّعاء؛ فكذلك كان حقُّهم أن يتلَقَّوا السّوءَ النّادر بمثل ما يتلقَّون به ضيقَ الرِّزق، فَيَسْعَوا في كشف السَّيِّئة بالتَّوبة والابتهال إلى اللّه، وبتعاطي أسبابِ زوالها مِنَ الأسباب التي نصبَها اللّهُ تعالى[4].

(1) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 215.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 95.
(3) الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 504.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 101.

دلالةُ العطفِ في الرّبط بينَ الجمل:

تعقيبُ ذِكْرِ شأنِ القانطين بالتَّعجيب من حالهم الحزين

الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ حرفُ عَطْف، حيثُ عَطَف الآيةَ على جملة: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾[1]، فعقَّب سُبحانه على أحوالِهم هذه، بالتَّعجيب من شأنهم، وبالتَّقريع لهم على جهلهم، أي: أجَهِلَ هؤلاءِ النّاسُ الذين لم يُخالطِ الإيمانُ قلوبَهم، ولم يُشاهدوا بأعينهم أنَّ الله تعالى بمُقتضى حِكْمَتِه، يُوَسِّعُ الرِّزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّقه على من يشاء منهم، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه، ولا يُسألُ عمّا يفعل؟[2].

نوعُ الرُّؤيةِ وبلاغةُ استعمالِها:

مقصودُ السُّورة بذلُ الجهدِ وإمعانُ النَّظرِ

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ بصريَّة[3]، وتحتمل أن تكون علميَّةً، حيثُ استعمل النَّظمُ الكريمُ لفظَ الرُّؤية الصّالحةِ للبصر والبصيرة؛ لأنَّ مقصودَ السُّورة إثباتُ الأمرِ كُلِّه لله، ولا يكفي فيه إلّا بذلُ الجهدِ وإمعانُ النَّظر، والسّياق لِذَمِّ القنوط الذي يكفي في بقيَّة المشاهدة؛ لاختلاف الأحوال[4].

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع:

تكرُّرُ الرُّؤيةِ يزيدُ في اليقين ويدفع يأسَ القانطين

جيء بصيغة المضارعِ لفعلِ الرُّؤيةِ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ لبيان أنَّ آثارَ بسطِ الرِّزقِ مشاهدةٌ معلومةٌ ومُتكرِّرة مُتجدِّدة، وليعلموا علمًا هو في ثباته كالمُشاهد المحسوس[5]، فصيغةُ المُضارعة للدِّلالة على تكرُّر الرُّؤيةِ حالًا بعد حال، إذ بتكرُّرها وتجدُّدِها يزدادُ اليقينُ، ويثبُتُ في القلبِ، فإذا حصل خلافُ ذلك؛ اشتدَّ الإنكارُ على القانطين، والتَّقريع للمنتكسين.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 101.
(2) طنطاويّ، تفسير الوسيط: 11/ 88.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 101.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 96.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 96.

توجيهُ المتُشابه اللَّفظيِّ:

مُناسبةُ السّياق لما يُرى بالبصر ويُعْلَم بالبصيرة

قال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، فأتى بلفظ الرُّؤيةِ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، وفي سورة الزُّمر بلفظ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ [الزُّمر: 52]؛ وذلك لأنَّ بَسْطَ الرِّزق مِمّا يُرى، فناسبَ ذكرُ الرُّؤيةِ هنا، وما في الزُّمر تقدَّمَهُ قولُه تعالى: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ [الزُّمر: 49]، فناسب ذِكْرُ العِلْم[1]، فأتى في كلِّ سورةٍ بما يناسبها مِنَ اللَّفظ المُبين عنِ المُراد الكريم.

نُكْتَةُ توكيدِ الخبرِ:

توكيدُ الأخبارِ للقانطين زيادةٌ في الإنكار عليهم والتَّبكيت لحالِهم

جيء بالخبر مُؤكَّدًا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ مؤكَّدًا؛ لأنَّ المُخاطَبين بهذا الخبر ابتداءً هم أولئك المُنْكِرون لِنِعَم الله، القانطون من رحمته، فكان ذِكْرُ كلامٍ مؤكَّدٍ من شأنه زيادةُ الإنكار على المخاطَبين، الذين قَنَطوا بأدنى سببٍ، والإيماء إلى المؤمنين؛ إذِ المُحَقِّقُ للإيمانِ ينبغي ألّا يكونَ نظرُه على ما يوجَد، بل إلى من يُوجِد، وهو اللّهُ تعالى، فلا يكون له تبدُّلُ حالٍ، وإنَّما يكون عنده الفرحُ الدّائم، وتلك مرتبةُ المؤمنِ المُوحِّدِ المُحقِّقِ[2].

سِرُّ التَّعبير باسم الجلالة:

البَسْطُ والقبضُ عنوانُ الجلال ودليلُ الكمال

لمّا كان في البسط والقبض جَمْعٌ بَيْنَ جلالٍ وجمال؛ لفتَ الكلامُ بِذِكر الاسم الجامع، وهو لفظ الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: بجلاله وعظمته يبسُط الرِّزقَ للعبادِ[3].

غرضُ تقديم المسنَد إليه على المسند الفعليِّ:

بَسْطُ الرِّزقِ وقبضُه من خصائص الرُّبوبيَّة

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على الخبر الفعلي ﴿يَبۡسُطُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ لإفادة الاختصاص، أي: اللّه لا غيره يبسط الرِّزق، ويَقْدِرُ، فكان عليهم أن يعلموا أنَّ بسط النِّعمةِ وإقتارَها

(1) الأنصاريّ، فتح الرحمن، ص: 443، 444، والأجهوريّ، إرشاد الرّحمن، ص: 559.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 102.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 96.

بيده وحدَه ﷻ، وهو المُتصرِّف في أرزاق العباد، فيُوسِّع الخيرَ في الدُّنيا لمن يشاء، ويُضَيِّق على من يشاء، على وفق الحِكمة والعَدل، والاختصاصُ مُستفادٌ كذلك مِنَ المعنى، وفي هذا الاختصاص اهتمامٌ بالحُكم وتقويةٌ له، كما أنَّ في حَصْرِ الرِّزق في كونه منَ اللّه وحدَه لا غير ردًّا على من يعتقدون أنَّ أرزاقَهم بيد الخَلق لا بيد اللّه، ووعيدٌ لمن يستعبدون النّاس من ذوي الحاجات.

بلاغةُ استعارةِ لفظِ البَسْطِ لمعنى التَّكثير:

تقريبُ معاني السَّعةِ توسعةٌ في إفهام العباد

استُعمل لفظُ البسطِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ لمعنى التَّوسيع والتَّكثير، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [الرُّوم: 48]، يعني: يُوَسِّعه[1]، فالتَّعبير بفعل ﴿يَبۡسُطُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة عنِ الكثرة والتَّوسِعَة، بجامع المَدِّ؛ إذ أصلُ البَسْطِ امْتِدادُ الشَّيءِ، في عرَضٍ أو غيرِ عرَضٍ[2]، فشَبَّه التَّوسعةَ بالبِساطِ الذي يُبْسَطُ، مبالغةً في التَّعبير عنِ السَّعَة، وتقريبًا لصورةِ السَّعة للمخاطَبين.

براعةُ التَّعبير بالمُضارعِ لفعْلَي البَسْطِ والقَدْر:

تـجـدُّدُ البَسْطِ والـقَـدْرِ مشعرٌ بـضـرورةِ تجدُّدِ الشُّكر والصَّبر

جيءَ بصيغةِ المُضارعِ في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ لإفادة تجدُّد البَسْطِ والقَدْرِ، وهذا شأنُه دائمًا مع الشَّخْص الواحد في أوقات مُتعاقبة مُتباعدة ومُتقاربة، ومعَ الأشخاص، ولو في الوقت الواحد[3]، ففي التَّعبير بالمضارع لفعل البسط إشعارٌ للمُوسَّعِ عليه بضرورة الشُّكر، وللمضيَّق عليه بأمل السَّعة؛ ليَدْرُجَ في مسالك الدُّعاء، ولفعل القَدْرِ إشعارٌ للمُوسَّع عليه بضرورة الحَذَر واليقظةِ على الدَّوام، والاستعدادِ ليوم الضّيقِ بعدَ السَّعةِ، وللمُضَيَّقِ عليه بضرورةِ الصَّبر بعدَ الشُّكر.

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 219.

(2) ابن فارس، مُجمل اللُّغة، ومقاييس اللُّغة: (بسط).

(3) الجلالان، تفسير الجلالين، ص: 411، والشِّربيني، السراج المنير: 3/ 226.

غرضُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ وتعريفِها:

شُمولُ لفظِ الرِّزقِ لمُطلَقِ العطاءِ الرَّبّانيِّ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ الدّالِّ على العطاءِ، وعلى الحَظِّ المُعطَى، وكُلُّ ما يُنتفَع به، فكلُّ شيءٍ يكونُ مجالُهُ الانتفاع يدخل في الرِّزق، وفي اختيارِ لفظ الرِّزق دون غيرِه من مُرادفاته؛ لِما فيه من معنًى شُموليٍّ لمُطلَق العطاء الجاري، في السَّماء كالمطر، أو الأرضِ كالنَّبات وسائر ما يتعيَّش به الإنسان، ولشُمولِهِ لمُطْلَقِ العطاء الحِسّيِّ، كإعطاءِ المال والولد، والمعنويِّ كالعِلْم، فيُعطيه المالَ والصِّحَّةَ، أو الجاهَ والسُّلطان وأشباهَ ذلك[1]، ففيه تنبيهٌ على أن يكون الاهتمامُ ونَصْبُ الرِّعاية على كلِّ أنواعِ الرِّزقِ التي يحظى بها العبادُ في الدُّنيا، ولا يقتصر همُّهم على بعض أنواعِه، ممّا يرونه رزقًا، وهذا سِرُّ تعريف هذا اللَّفظ؛ ليشملَ كلَّ أنواعِ الرِّزقِ.

دلالةُ استعمالِ الموصولِ:

الدِّلالةُ على العموم وعدمِ التَّعيين

جاء استعمالُ الاسم الموصول (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للعموم وعدمِ التَّعيين، مقيَّدًا بالمشيئة، فاللهُ يوسِّع الرِّزق لمن يشاء من عباده العاصين والطّائعين، ويُضيِّق الرِّزق، ويقلِّله على مَن يشاء ابتلاءً وامتحانًا، بحسب ما تقتضيه حكمتُه ومشيئته[2].

دلالةُ تقييدِ القبض والبَسْطِ بالمشيئة:

كُلُّ أمرٍ متعلِّقٌ بالقانون الإلهيِّ الثّابتِ بمُقتضى الحِكمةِ

قُيِّدَ فعلُ البسطِ والقدر بالمشيئة، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، وكُلُّ شيءٍ قيَّده اللهُ بالمشيئة؛ فإنَّه مقرون بالحكمة، وليست مشيئةُ الله تعالى مشيئةً مجرَّدةً؛ لأنَّنا نعلم أنَّ الله ﷻ حكيمٌ لا يفعل شيئًا، ولا يشرِّع شيئًا إلّا لحِكمة، فالأمر في السَّرّاء والضَّراء يتبع قانونًا ثابتًا، ويرجع إلى مشيئة الله

---

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 2/ 900، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 21/ 4151.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 96، ومجد مكّي، المعين على تدبّر الكتاب المبين، ص: 408.

سُبحانه، فهو الذي يُنْعِمُ بالرَّحمة، ويبتلي بالشِّدَّة، ويبسط الرِّزق، ويُضيِّقه وفْقَ سُنَّتِه وبمُقتضى حكمته(1).

نُكْتَةُ استعمالِ فعلِ ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

التَّقديرُ هو الإعطاء على مقدارٍ مخصوص

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة القَدْر في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ دونَ (يُضيِّق)؛ لأنَّ المقصود أنَّ اللّه تعالى جعل تقديرَ الرِّزق على مقدار مخصوص، ووجه مخصوصٍ حسبما اقتضتِ الحكمةُ(2)، فالتَّقدير لم يكن خاليًا منَ الحِكمة والرَّحمة، بل بما يُصلِح العِباد.

دلالةُ حذفِ مُتعلِّق ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

الإيجازُ عنوانُ الكلام الفصيحِ وإيماءُ النَّظم البليغ

جاء تقييدُ فعلِ البسط بفعل المشيئة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ بخلاف فعل ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ وذلك لأنَّ له حكمَ فعلِ البسطِ المعطوف عليه؛ لأنَّ المعنى: أنَّه سبحانه يبسط الرِّزقَ لمن يشاء، ويقدر، ويُضيِّق على من يشاء التَّضييقَ عليه(3)، وهذا من لازم المعنى؛ لأنَّه إذا وسِعَه؛ إذا شاء؛ لزم منه تضييقُه؛ إذا لم يشأ.

بديعُ الطِّباق بين لفظَيِ البَسْطِ والقَبْضِ:

رداءُ الغنيِّ الشُّكرُ وإزارُ الفقيرِ الصَّبر

في المُطابقة بَيْنَ ذِكْرِ البَسْطِ والقبض: دلالةٌ على أنَّ في ذلك التَّوسيعِ والتَّضييق والتَّفضيل بين العباد لآياتٍ مُتعدِّداتٍ على حِكمة اللّه في اختياراته، يُدركها القومُ المستعدُّون لأن يُؤمنوا بحِكَم اللّهِ الجليلة، في اختياراته لعباده، وما يريده لهم من بسط وقبض، وعطاءٍ وإمساك، فلا يدلُّ البَسطُ على رضا اللّه تعالى، ولا التَّضييق على سخطه(4).

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 448، والعثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 220.

(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).

(3) أطفيّش، تيسير التّفسير: 11/ 124.

(4) مجد مكّي، المعين على تدبّر الكتاب المبين، ص: 408.

سنّةُ البسطِ والتَّقدير آياتٌ جليّاتٌ في عيونِ المُبصرين

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ التَّذييلِ:

فُصِلت جُملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّها تعليل وتذييل لما قبلَها، وجميع ما ذُكِرَ آياتٌ كثيرة حاصلة كثرتها مِن اشتمال كُلِّ حالةٍ من تلك الأحوال على أسباب خفيَّة وظاهرة، ومسبِّباتها كذلك، ومن تَعَدُّد أحوالِ النّاس منَ الاعتبار بها والأخذ منها، كُلٌّ على حَسَبِ استعداده[1]، فنبَّه ﷻ على سنَّتِه في رزقه، مع بيانِ موقف النّاس مع علمهم ومشاهدتهم، للوصول إلى الاعتبار، وبيَّن أنَّ ذلك إنَّما يكون لقوم يُؤمنون.

تقويةُ جوانبِ الإيمان بكوامن حِكَمِ البَسْطِ والقبض

غرضُ التَّأكيد بأكثر من مُؤكِّد:

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ بأكثر من أداةِ توكيد؛ للإيذانِ بأنَّ بسْطَ الرِّزقِ وتَقْديرَهُ بمَحْضِ مَشيئَتِه تعالى، وبأنْ ليس الغنى بفِعلِ العبْدِ وجهْدِه، ولا العُدْمُ بعَجْزِه وتَقاعُدِه، ولا يَعرِفُ ذلك إلّا مَن آمَنَ بأنَّ ذلك تقْديرُ العزيزِ العليم[2]، ولمّا كان هناك مَن يعتقد أنَّه قادرٌ على كسبِ الرِّزق بذكائه وعِلْمِه كقارون، ومَن يعتقد أنَّه مستحقٌّ للرِّزق كصاحب الجنَّة؛ كان طَردُ هذه الأوهام بجملة التَّذييلِ، أي: لا يفهم هذا المعنى، ويُحيطُ به إلّا أصحابُ القلوب المؤمنة، والعقولِ المتأمِّلة.

الإشـارةُ إلى عظَمة المدلول عليه وعُلُوِّ مرتبتِه

دلالةُ استعمالِ اسم الإشارة:

جاء استعمالُ اسمِ الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لبيانِ أنَّ المُشارَ إليه من جلائل الأمور التي تحتاج من صاحبها التَّدبُّرَ والتَّأمُّل، أي: الأمر العظيم مِنَ الإقتار في وقتٍ والإغناءِ في آخر، والتَّوسيع على شخص والتَّقتيرِ على آخر، والأمنِ من زوالِ الحاضر من النِّعَمِ مع تكرُّرِ المُشاهد للزَّوال في النَّفس والآخرين،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 101.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 240، 241، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 43.

واليأسِ من حصولها عند المِحنة مع كثرةِ وُجدان الفرج، وغيرِ ذلك من أسرار آلائه[1].

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ الآية جمعًا:

الآيـةُ جامعةٌ لمعنى العِبرة والعَلامة والوضوح في الإبانة

اختار النَّظمُ الكريم مفردةَ الآية وجمعَها، في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، والمعنى: دلالات واضحات على الوحدانيَّة للّه تعالى، وتمامِ العِلْم وكمالِ القُدرة[2]، وأصلُ الآية العلامةُ الثّابتةُ الدّالَّةُ على أمْرٍ مِنْ شَأنِهِ أنْ يَخْفَى، وتأتي بمعنى العِبرة والعلامة، والوجهان مُتقاربان، يصلح استعمالُ أحدهما في موضع الآخر[3]، والآياتُ جَمْعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّهِ دلائلُه وعَجائِبُه[4]، وجَمَعَها لبيان كثرتِها، وكثرةِ أوجه التَّأمُّل فيها، فمَن نظرَ؛ اعتبَر، ومَن أدبرَ؛ انحسر.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

الإيمانُ هو عِلَّة قيامِ النّاس بالخير ورضاهم بالمَقدور

اختير لفظُ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لبيان أنَّ القوم إنَّما قاموا على الإيمانِ، وكانت همَّتُهم وكفايةُ قيامِهم بالأمر بما ارتَضَوه مِنَ الدّينِ الحقِّ، وارْتَضَوه مِنَ الإيمانِ، فهُمْ أعمقُ بصائرَ بما ارتاضت عليه أنفسُهم من آداب الإيمان، ومِن نَصْبِ أنفسِهم لطلب العِلْم والحِكمة، من علوم الدّين وحِكمة النُّبوَّة[5].

توجيهُ تخصيصِ المؤمنين بالذِّكر:

المؤمنون هم المنتفعون على التَّحقيق من آياتِ النَّظم الكريم

خصَّ النَّظمُ الكريم ذِكرَ أهلِ الإيمان في هذا المقام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهم هم الّذين ينتفعون بهذه الرُّؤية، وهذا التَّفكُّر، أمّا غيرُ المؤمن؛ فإنَّه لا ينتفع بهذا،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 97، والشِّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 226.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 97.
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 92.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (إيي).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 102.

ولذلك تجد هؤلاء الّذين لا يؤمنون - إذا حصلت مثلُ هذه الأمور - ينسبونها إلى الطَّبيعة، وأهل الإيمان لا يُنكرون أنَّ الأمورَ لها أسبابٌ، ولكنَّهم يُنكرون أن تكون الأسبابُ هي الفاعلةَ، فإنَّ الفاعل هو اللّه ﷻ، وما الأسباب إلّا وسائلُ يُستدلُّ بها على حكمة اللّه ﷻ، وأنَّه حكيم، حيثُ ربط المُسبِّبات بأسبابها[1]، فالمؤمنون هم الذين يَعتَبِرونَ بَسْطَ اللّهِ لِمَن يَشاءُ وقَبْضَه، ويَعرِفونَ بذلك حِكمةَ اللّهِ ورَحمَتَهُ وجُودَهُ، وجَذْبَ القُلوبِ لِسُؤالِه في جميعِ مَطالِبِ الرِّزقِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المُضارع:

إدامةُ وصفِ الإيمان وتجدُّدُهُ في كلِّ وقت

جاء التَّعبيرُ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهم يُوجِدون هذا الوصفَ، ويُديمون تجديدَه كُلَّ وقت لما يتواصل عِندهم من قيام الأدلَّة، بإدامة التَّأمُّل والإمعان في التَّفكُّر[3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرَّأفةُ والرَّحمةُ:

الرَّأفة أخصُّ مِنَ الرَّحمة وهي تغلِبُ في دفعِ المكروه عن المرؤوف به

الرَّحمةُ والرأفةُ كلمتان متقاربتان في المعنى، إلّا أنَّ بينهما فروقًا لطيفة، فالرَّأفةُ: رِقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوفِ به، يُقال: (رؤوف رحيم)، والرَّحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ للمرحوم[4]، كما أنَّ الرَّأفة أن تُدفَع عنك المضارُّ، والرَّحمةَ أن تُوصَل إليك المسارُّ، فالرَّأفة من باب التَّخْلية، والرَّحمة من باب التَّزكية[5]، كما أنَّ الرَّأفة مُبالغة في رحمة خاصَّة، وهي دفعُ المكروه وإزالةُ الضَّرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2]، أي: لا ترأفوا بهما، فترفعوا الجَلْد عنهما، وأمّا الرحمةُ؛ فإنَّها اسم جامع يدخل

---

(1) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 221.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 642.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 98.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 239.
(5) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 471.

فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإنعام[1]، فبينهما عموم وخصوص مُطْلق، فالرَّأفة خاصَّة في دفع المكروه عنِ المرحوم، بينما الرَّحمةُ تشمل هذا المعنى وغيرَه.

الفرحُ والسُّرور والاستبشار:

السُّرُور لا يكون إلّا بِما هُوَ نفعٌ أو لَذَّة على الحَقيقَة بخلافِ الفرح فهو أعمُّ

الفرحُ لذَّةٌ تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيلِ المُشتهى، فيتولَّدُ من إدراكه حالةٌ تُسمَّى الفرح، والفرق بينه وبين السُّرور: أنَّ السُّرُور لا يكون إلّا بِما هُوَ نفع أو لَذَّة على الحَقيقَة، وقد يكون الفَرح بما ليس بنفع ولا لَذَّة، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْوِ والسِّباحة وغيرِ ذلك مِمّا يُتعِبُه، ويُؤذيه، ولا يُسمّى ذَلِك سُرُورًا، فيُقال: الصِّبيانُ يفرحون بالسِّباحة والرَّقص، ولا يُقال: يُسَرُّون بذلك، ونقيضُ السُّرُورِ الحزنُ، ومَعْلُومٌ أنَّ الحزنَ يكون بالمَرازِئ، فَيَنْبَغي أن يكون السُّرور بالفوائد وما يجْري مجْراها منَ الملاذِّ، ونقيضُ الفَرحِ الغمُّ، وقد يغتمُّ الإنْسانُ بِضَرَرٍ يتوهَّمُه من غير أن يكون لَهُ حَقيقَة، وكذلكَ يفرح بما لا حَقيقَة لَهُ، كفرح الحالم بالمُنى وغيره، ولا يجوز أن يحزن، ويسرَّ بما لا حَقيقة لَهُ[2]، وقد جاء الفرحُ في القرآن على نوعين: مُطْلَقٍ ومُقيَّدٍ، فالمُطلقُ جاء في الذَّمِّ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]، والمُقيَّدُ نوعان: مُقيَّدٌ بالدُّنيا يُنسي صاحبَه فضلَ اللّه ومنَّتَهُ، فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44]، ومُقيَّدٌ بفضل اللّه وبرحمته، وهو نوعان: فضل ورحمة بالسَّبب، وفضل بالمُسَبَّب، فالأوَّل: كقوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: 58]، والثّاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: 170]، فالفرح باللّه، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسُّنَّة،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 93.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 265، وابن القيم، مدارج السَّالكين: 3/ 148.

وبالعِلْم، وبالقرآن، وهو من أعلى مقامات العارفين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الرَّعد: 36].

الفرحُ يكون بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبلَ حصوله

والفرق بينَ الفرح والاستبشار: أنَّ الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبلَ حصولِه إذا كان على ثقة من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [آل عمران: 170].

والفرح صِفَةُ كمالٍ، ولهذا يوصف الرَّبُّ تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفَرحِهِ بتوبة التّائب أعظمَ من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامُه وشرابه، في الأرض المُهلِكة بعد فقده لها، واليأسِ من حصولها[1].

القنوط واليأس والخَيبة:

القنوط أشدُّ اليأس والخيبة لا تكون إلّا بعد الأمل واليأس أعمُّ منهما

أصلُ القُنُوطِ: المَنْعُ، يُقال: قَنَطَ ماءَهُ عنّا، أي: مَنَعَهُ[2]، ومنه سُمّيَ اليَأسُ قُنوطًا؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ مِن رَحْمَةِ اللّه تعالى، ويأتي القنوط بمعنى قَطْعِ الأمَلِ، والقُنوط: اليَأسُ الشَّديد مِنَ الشَّيْءِ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ[3]، أمّا اليأس؛ فهو انقطاعُ الطَّمع أو الرَّجاء مِنَ الشَّيء، والقنوط أشدُّ مبالغةً مِنَ اليأس، ولا يكون القنوط إلّا باليأس مِنَ الخير، فهو أخصُّ مِنَ اليأس، وأمّا الخَيبةُ؛ فلا تكون إلّا بعدَ الأمل؛ لأنَّها امتناعُ نيلِ ما أُمِّلَ، فأمّا اليأس؛ فقد يكون قبلَ الأمل، وقد يكون بعدَه، والخائبُ المنقطعُ عمّا أمَّلَ[4].

البَسْط والسَّعة:

البسطُ يدلُّ على السَّعة والانتشار فهو أعمُّ وأشمل مِنَ السَّعة

البسط: السَّعَةُ والانتشار، والبسطةُ في كلِّ شيءِ السَّعة، يُقال:

---

(1) ابن القيم، مدارج السَّالكين: 3/ 149.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنط).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قنط)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 257.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 435، والمُصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 147.

رجلٌ بسيطُ الجسم والباع والعلم، وأصل (بسط) يَدُلُّ على امْتِدادِ الشَّيْءِ وانفراشه أو اتِّساعه[1]، والبَساطُ: الأَرْضُ العريضة الواسعة[2]، وبَسْطُ الشَّيء: نشره، والبَسْطُ: نَقيْضُ القَبْضِ[3]، فهو إذًا يتضمَّن السَّعةَ، وأوسع منها في الدِّلالة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بسط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بسط).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (بسط).

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الرّوم: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من ذِكر بَسْط الرِّزقِ وقَـدْره إلى أسبابِ بَسْطه

لَمّا ذكرتِ الآيةِ السّابقةُ أنَّه تعالى هو الباسِطُ القابِضُ، وجعَلَ في ذلك آيةً للمُؤمنين؛ أمَر نبيَّه بالإحسانِ لِمَن به فاقةٌ واحتياجٌ؛ لأنَّ مِن الإيمانِ الشَّفَقةَ على خَلقِ اللّهِ؛ إذِ الإيمان تَعظيمٌ لأمرِ اللّهِ، وشَفَقةٌ على خَلقِ اللّهِ[1]، فخاطبَ مَن بَسَط له الرِّزقَ بأداءِ حَقِّ اللّهِ مِن المالِ، وصَرْفِه إلى مَن يَقرُبُ منه في رحِم، وإلى غيرِه مِن مِسكينٍ وابنِ سَبيلٍ[2]، وفي مناسبةِ الآية لما قبلها إيماءٌ إلى أنَّ بسطَ الرِّزق من أسبابه إيتاءُ ذوي القربى والمسكين وابن السبيل حقوقَهم من مال اللّه تعالى المبسوطِ لعباده، وهو خيرٌ من جَمْعِه ومضاعفته.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَـَٔاتِ﴾: (أتي) أصلُ الإيتاءِ: الإعْطاء، وآتَى يُؤاتي إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً، أي: أعطاه، ويُقالُ: لِفُلانٍ أَتْوٌ، أي: عَطاءٌ، وآتاهُ الشَّيْءَ، أي: أعطاه إيّاه، وآتاهُ على الأمْرِ: طاوَعَه[3]، والإيتاءُ: مُسْتَعارٌ للإنعام بالحالَةِ النّافِعَة؛ لأنَّ شَأنَ الإعْطاءِ أنْ يَكُونَ تَمْكِينًا بالـمَأْخُوذِ الـمَحْبُوبِ[4]، والـمُؤاتاةُ: حُسْنُ الـمُطاوَعةِ، وآتَيْتُه على ذلكَ الأمْرِ مُؤاتاةً؛ إذا وافَقْته، وطاوَعْتُه[5]، والمقصودُ بالإيتاءِ في الآية: الإعْطاءُ، وهو مُشْعِرٌ بأنَّ الـمُعْطَى مَرْغُوبٌ فيه، وهو المالُ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 102.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 393.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179.
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).

2) ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: (قرب) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستعمل ذلك في المكان، وفي الزَّمان، وفي النِّسبة، وفي الحظوَة، والرِّعاية، والقُدْرَة[1]، والقُرْبَةُ: الوَسيلَةُ وكُلُّ ما يُتَقَرَّبُ بِهِ[2]، والتَّقَرُّبُ: التَّدنّي والتَّواصل بحقٍّ أو قَرابةٍ، والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى اللهِ تعالى تبتغي به قُرْبًا ووسيلة[3]، وذُو القُرْبَى: صاحِبُ القَرابَةِ، والقُرْبَى فُعْلَى، اسمٌ للقُرْبِ مصدرُ (قرب) كالرُّجْعَى، والمُرادُ بالقُرْبى هنا: قُربُ النَّسَبِ والرَّحِمِ[4]، وحقُّهم: حُسنُ المُعاملةِ في الصِّلةِ والبرِّ[5].

3) ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾: (سكن) أصْلُ الكلمةِ مِنَ السُّكونِ، وهو الهُدُوءُ والثَّباتُ، ومنه سُمّيَ المِسْكينُ بذلك؛ لِسُكُونِهِ إلى النّاسِ، أو لأنَّ الفقْرَ أسْكَنَهُ، أيْ: قَلَّلَ حَرَكَتَهُ[6]، والجَمْعُ: مساكينُ، والمِسْكينُ: مَن لا يَمْلِكُ شَيْئًا، وقيل: الَّذي ليس له ما يَكْفيه، يُقالُ: تَمَسْكَنَ الرَّجُلُ، أيْ: صارَ مِسْكينًا[7]، ويأتي المِسْكينُ بمعنى الذَّليلِ والخاضِعِ والضَّعيفِ، وتَمَسْكَنَ الرَّجُلُ لِرَبِّهِ؛ إذا تَواضَعَ، وذَلَّ، والمَسْكَنَةُ: الفقْرُ والحاجَةُ[8]، والمُرادُ بالمسكين هنا: المُعْدِمُ الَّذي لا مالَ له[9]، وحقُّه: سَدُّ خَلَّتِهِ.

4) ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾: (سبل) أَصْلٌ يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، وكذلك على امْتِدادِ شيءٍ، فالأوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها، وأمّا الثّاني؛ فالمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهو الطَّريقُ؛ سُمّيَ بذلكَ لامتدادِهِ[10]، يُذكَّرُ، ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغلَبُ، والسّابِلَةُ هم الَّذين يَسلِكون السُّبُلَ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[11]، وابنُ السَّبيل هنا: المُسافرُ المُجتازُ بالقَرْيةِ أو بالحَيِّ[12]، وحَقُّه: الضِّيافةُ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قرب).
(3) الخليل، العين: (قرب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 103.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 103.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سكن).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (سكن).
(8) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(9) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 51.
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(11) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 103.

5) ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: (فلح) أصلٌ يَدُلُّ على فَوْزٍ وبَقاءٍ، والفَلاحُ: الفوز، والنَّجاة، والبَقاء، والسَّحُورُ، قالُوا: سُمّيَ فَلاحًا؛ لِأَنَّ الإِنْسانَ تَبْقَى مَعَهُ قُوَّتُهُ على الصَّوْمِ، يقول الرَّجُل لامرأته: اسْتَفْلِحي بأمرِك، أي: فُوْزي بأمرك[1]، والفلاحُ أيضًا: النَّجاحُ بِحُصُولِ المَطْلُوبِ، والخَيْبَةُ ضِدُّهُ، يُقال: أفْلَح، وأنجح؛ إذا أدْرك مَطْلُوبه، ومِنْه حَيَّ على الفلاح[2]، والمقصود بالفلاحِ في الآيةِ: الفَوْزُ بالبُغْيَةِ بعد سعيٍ للحصول عليها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إيــتــاءُ ذوي القربى والمسكين وابــنِ السَّبيلِ حقَّهم سبيلُ الــفــلاحِ في الدّارين

فأعطِ - أيُّها الرسول الكريم - ذا القربى حقَّه مِنَ المودَّة والصِّلة والإحسان، وليَقتدِ بكَ في ذلك أصحابُك وأتباعك، وأعطِ أيضًا المسكين - الذي لا يملك شيئًا ذا قيمة - حقَّه من الصَّدقة والبرِّ، وكذلك ابنَ السَّبيلِ: وهو المسافر المنقطعُ عن ماله في سفره، ولو كان غنيًّا في بلده، فذلك الإيتاء لهؤلاء الثَّلاثة - الذين تقدَّم ذِكرُهم - من فعل الخير الَّذي يتقبَّله اللّٰه تعالى، ويرضى عن فاعليه، ويعطيهم جزيل الثَّواب، وأولئك قد ربحوا في صفقتهم، فأعْطَوا ما يفنى، وحَصَلوا على ما يبقى، من النَّعيم المُقيم، والخير العميم، وأولئك المتَّصفون بتلك الصِّفات الحميدة، هم الكاملون في الفلاح، والظَّفر بالخير في الدُّنيا والآخرة[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاءُ تحتمل أن تكون تفريعيَّةً أو فصيحة

الفاءُ من قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إمّا أن تكونَ للتَّفريع، وهي تُفيد أنَّ الكلام بعدَها مُترتِّبٌ على ما قبلها، وإمّا أن تكون

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فلح).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 52، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 89.

فصيحةً؛ لأنَّها أفصحت عن مُقدَّرٍ، تقديره: إن عرفتَ أنَّ السَّيِّئة أصابتهم بما قدَّمت أيديهم؛ فآتِ، أو إذا كان الأمر كما ذُكِر، من أنَّ بَسْطَ الأرزاق وقَبْضَها بيدِ اللّه وحده، فأعطِ ذا القربى حَقَّه منَ المودَّة والصِّلة والإحسان، وليقتدِ بك في ذلك أصحابُك وأتباعك[1].

غرضُ الأمرِ وبلاغته:

صيغةُ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ﴾، الأصلُ في مَحْملها الوجوب، مع أنَّ المأمور بإيتائه عبَّر عنه بأنَّه حَقٌّ، والأصل في الحَقِّ الوُجوب، وظاهر الآية يقتضي أنَّ المُراد حَقٌّ في مال المُؤْتي[2]، فالأمرُ للوجوب، ولم يصرفه صارفٌ[3]، فلا ينبغي أن يَتوقَّفَ الإنسانُ في الإحسانِ، فإنَّ اللّهَ إذا بسَطَ الرِّزقَ؛ لا يَنقُصُ بالإنفاقِ، وإذا قَدَرَ؛ لا يَزدادُ بالإمساكِ[4].

إذا بسَطَ اللهُ الرِّزقَ؛ فلا يُنقصُه الإيتاءُ وإذا قَدَرَه؛ فلا يزيدُه الإمساكُ

فائدة خِطاب الإفراد دونَ الجمع:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ﴾ لسيِّد الخَلْقِ[5] صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم بالأصالة، ولغيره منَ المُؤمنين المُوسرين بالتَّبَعِ على سبيل التَّأسّي به، فخطابُ النَّبيِّ ﷺ خطابٌ لأمَّته ما لم يكن خصّيصًا له[6]، أي: فآتُوا ذا القُربى حقَّه، بقرينة قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾[7]، ووجهُ تخصيصه ﷺ بالخِطاب بقصد تعظيمه وجَعْلِه أسوةً للمؤمنين.

تعيينُ القدوةِ وحضُّ النُّخبةِ على التَّأسّي

بلاغةُ المجاز في استعمال مفردة الإيتاء:

الإيتاء حقيقةٌ في إعطاء الأشياء، ومجازٌ شائع في التَّمكين مِنَ

وفرةُ المعاني وإيجازُ الألفاظِ طريقةُ القرآنِ في استعمال المفردات

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 88.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 102.
(3) ملّا حويش، بيان المعاني: 2/ 448.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 102.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 98.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 144.
(7) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 393، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 102.

الأمور المعنويَّة، كحُسْن المُعاملة والنُّصرة، ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ القرآنَ، فهو يقوم به آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهار»[1]، وإطلاقُ الإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ صالحٌ للمعنَيَين، كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجازِ الألفاظ، وقد بَيَّنت أدلَّةٌ شرعيَّةٌ حقوقَ ذوي القُربى ومراتبَها، من واجبة مثل بعض النَّفقة على بعض القرابة، وشروطُها مبيَّنةٌ عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسانِ والبرِّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دون الإعطاءِ:

إرشادُ المُتصدِّق إلى اليُسر في التَّصدُّق دونَ عَنَتٍ أو ضَيق

جاء استعمالُ مفردة الإيتاءِ في قولِه تعالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، دون الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[2]، وقدْ خُصَّ هذا الفِعْلُ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ حيثُما وردَ في القرآنِ الكريم[3]، وعليهِ فالآيةُ تُرشِدُ إلى أن تكونَ الصَّدقةُ مُؤدّاةً بيُسرٍ وسُهولةٍ، دون شعورٍ بعَنَتٍ وضيق، أمّا فعلُ الإعطاءِ؛ فإنَّه "اتِّصال الشَّيْء إلى الآخِذ لَهُ، فقد تُعْطي زيدًا المالَ؛ ليَرُدَّهُ إلى عَمْرو، وتعطيه؛ ليَتَّجرَ لك به"[4]، أي: إنَّ المُعْطَى يُعاد إلى المُعطي، وهذا ليسَ متعيَّنًا في فعلِ الإيتاءِ، فإنَّ الصَّدقة بمنزلةِ الهِبَة، فلا تُعادُ، والإيتاءُ مُشْعِرٌ بأنَّ المُعطَى مالٌ، ويقوّي ذلك وقوعُ الآية عَقِبَ قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾[5].

بلاغةُ التَّنوُّعِ في دلالاتِ مفردة الحقِّ:

مــن مظاهر إعجازِ المفردة القرآنيَّة إعطاءُ دلالاتٍ متنوِّعةٍ في سياقٍ واحد

بيَّن النَّظمُ الكريمُ أنَّ لِكُلِّ صنفٍ منَ الأصنافِ الثَّلاثةِ المذكورة في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ حقًّا،

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (7232)، ومسلم في صحيحه، برقم: (266).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (أتى).
(3) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (أتي).
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 167.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 102.

فحَقُّ ذي القُربى يختلف بحسب حاجته، فَلِلْغَنيِّ حَقُّه في الإهداء تَوَدُّدًا، وللمحتاج حقٌّ أقوى، والظّاهر أنَّ المُراد ذو القَرابةِ الضَّعيف المال، الذي لم يبلغ به ضعفُه مبلغَ المَسكنة، بقرينة التَّعبير عنه بالحقِّ، وبقرينة مُقابلته بقوله: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، على أحد الاحتمالات في تفسيره، وحَقُّ المسكين سَدُّ خَلَّته، وحَقُّ ابنِ السَّبيل: الضّيافة[1]، فهذه الحقوقُ مختلفة من حيثُ الماهيَّة، متنوِّعة بحسب الاحتياج، ومفردة الحقِّ قد أتت عليها بتنوُّعها، وتباينِ معانيها.

بلاغةُ ترتيب الأصنافِ المذكورة:

التَّرتيبُ بناءٌ لفقه الأولويّات وسُلَّمِ الضَّروريّات

رَتَّبَ النَّظمُ الكريم ذِكْرَ أهلِ الحقوق في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ بادئًا بذي القُربى؛ لأنَّه أحقُّ النّاس بالبِرِّ، وللاهتمام به، ولأنَّ بِرَّهُ صَدقةٌ وصِلَةٌ، ولَمّا كان المِسكينُ حاجتُه ليست مختَصَّةً بِمَوضِعٍ، كان مُقَدَّمًا على مَن حاجتُه مختَصَّةٌ بموضِعٍ دونَ مَوضِعٍ[2]، فجاء التَّرتيب بحسب العنايةِ والاحتياج.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر:

لا يخرُجُ إيتاءُ الخيرِ عن كونه ثابتًا ومتقطِّعًا ومنقطعًا

خصَّ النَّظمُ الكريم الأصنافَ الثلاثة بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ دون غيرهم؛ لبيان من يجب الإحسانُ إليه على كُلِّ من له مالٌ، سواءٌ كان زكويًّا أم لم يكن، وسواء بعد الحول أم قبلَه؛ لأنَّ المقصود توريثُ الشَّفقةِ العامَّة، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ يجب الإحسانُ إليهم بهذا الاعتبار، فأحدُهم صلتُه ثابتةٌ، وهو القريب، والإحسان إليه يورِّث قوَّةَ العلاقة وتمامَ الصِّلة، والثّاني صلتُه متوسِّطةٌ، وهو المسكين، والإحسان إليه يورِّث الشَّفقةَ وحُبَّ المساكين، والثّالثُ الإحسانُ إليه منقطعٌ، فهو لمرَّة واحدة، وهو ابن السَّبيل، فأتتِ الأصنافُ الثَّلاثة على جميع الأحوال والأنواع.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 103 - 104.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 102، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 391 - 392.

بلاغةُ المجاز في التعبير بـ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾:

إضافةُ المُسافرِ للسَّبيل لبيانِ احتياجه

المُراد بابن السَّبيل المُسافرُ؛ لأنَّه إنَّما وصل منَ السَّبيل، وهي الطَّريق، وجَعْلُ المُسافرِ ابنًا له لِلُزومِه إيّاهُ، كما يُقال لطير الماء: ابنُ الماء، ويُقال للرَّجل الذي أتت عليه السُّنونُ: ابن الأيام، وتسميتُه بابن السَّبيل لمُلازمته الطَّريقَ، مثل لزوم الولد لوالدته، وهذا مِنَ المجاز العقليِّ، وهو من باب تسمية الحال باسم المَحلِّ، وذلك لكون المسافر موجودًا في السَّبيل.

معنى الإضافةِ ودلالتُها:

ابنُ السَّبيل خفيفُ المؤنةِ قصيرُ المدّة

أُضيف لفظُ الابن إلى لفظِ السَّبيل، والإضافةُ بمعنى الظَّرفيَّة، أي: موجودٌ في السَّبيل، وهو بيانٌ لِخِفَّة مؤنته، فهو ضاربٌ في الأرض، وليس قاصدًا المكوثَ والتَّطويلَ في الموضع الذي نزل فيه، وهذا معنًى ينشِّط النُّفوسَ لخِدمته والعناية به.

علَّةُ فَصْلِ الجملةِ عمّا قبلها:

تعليلُ إيتاءِ الحقوقِ لأصحابِها معينٌ على العطاء

فُصِلت جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ عمّا قبلَها؛ للاستئناف البيانيِّ، على افتراض أنَّ سائلًا قد سأل عن سببِ الأمر بإيتاء أولئك حقَّهم، فكان الجواب: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾، ويحتمل كذلك معنى التَّعليل، أي: آتِ هؤلاء حقَّهم؛ لأنَّه خيرٌ للذين يبتغون وجهَ اللّهِ تعالى في أعمالِهم التي يُقدِّمونها.

نُكْتَةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للبعيد:

التَّنويهُ بالإيتاء عالي الرُّتبة شريف القَدْرِ

استُعمِل اسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾؛ للتَّنويهِ بالمأمورِ به[1]، فلمّا أمر بالإيتاء؛ رغَّب فيه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الإيتاءُ العالي الرُّتبة[2]؛ لهؤلاء الثَّلاثة، خيرٌ وأبقى عند اللّه تعالى؛ للذين يريدون بصَدَقتهم وإحسانِهم وجهَ اللّه[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 104.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 99.

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 11/ 90.

توجيهُ استعمالِ مفردة ﴿خَيۡرٌ﴾:

لفظ (خير) إمّا لمعنى التّفضيل وإمّا لمعنى ما يُقابِلُ الشَّرَّ

لفظ ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ استُعمل إمّا للتَّفضيل، ولم يسبق ذِكرُ المُفضَّل عليه نصًّا، فيكون ما يُفهم مِنَ السّياقِ من تفضيل إيتاءِ الحقوقِ لأصحابها، مِنَ الاستحواذ على المالِ عند بَسْطِهِ ممّا أُشيرَ إليه في السِّباق، أو المُرادُ: ذلك خيرٌ مِن بذل المال في المُراباة التي تذكر بعدُ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾، وإمّا لغير معنى التَّفضيلِ، فالمُراد بلفظ ﴿خَيۡرٌ﴾ ما قابل الشَّرَّ، أي: ذلك فيه خيرٌ للمُؤمنين، وهو ثوابُ اللّٰه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسم الموصول في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

الإشارةُ إلى مَن قُصِدَ بالخطاب ابتداءً وكلُّ مَن تأسّى به نالتْهُ بركتُهُ

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾، وذلك أنَّ صلة الاسم الموصول أفادت معنى التَّعليل، أي: ذلك الإيتاءُ خيرٌ، ويقوم به المؤمنون؛ لأنَّهم يريدون بأعمالهم وجهَ اللّٰه تعالى، ففيه تنبيهٌ على إخلاص النّيَّة، وتحقيقِ المطلوب.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة الإرادة مادَّةً وصيغةً:

تمكينُ النّيّة الصّادقة مع تجديدها هي سِرُّ الفوز بالرِّضوان

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإرادة، في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾، والمُراد بالإرادة: قصدُ الأعمال الصّالحة الّتي حثَّ اللّٰهُ عليها، أو رغَّبَ فيها، باستحضار النّيَّة الصّالحة الّتي يُثيب اللّٰهُ عبادَه عليها، ومجيء الإرادة في الآية بصيغة المُضارعة فيه إشارةٌ إلى ضرورة تجديد إخلاصها، وتعاهده في كلِّ الأعمال والأوقات، فكلَّما كان الإنسان أخلصَ في إرادة وجه اللّٰه؛ كان أكثرَ خيرًا له[2].

بلاغةُ اجتماعِ الكناية والتَّعريض:

طلبُ رضوانِ اللّٰه تعريضٌ بمَن طلب رضوانَ غيرِه

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ أُضيف الوجهُ إلى لفظ الجلالة، وهو كنايةٌ عن إرادة رضوان اللّٰه تعالى، وتعريضٌ بأهل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 104.

(2) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 227.

الجاهليَّةِ الذين كانوا يريدون بإعطائهم وجهَ المُعْطَى من أهل الوجاهة في القوم، فجَعَل الإعطاءَ لوجه اللّه[1] هو الأليقُ بالإعطاء؛ لبقاء خيرِه، وديمومة شكره، وفي ذِكْرِ الوجه إشارةٌ إلى رؤية اللّه ﷻ يومَ القيامة، كما ثبت ذلك في القرآن والسُّنَّة وإجماعِ السَّلف[2].

فائدةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

بيانُ عُلُوِّ رتبةِ المؤمنين المنفقين

جاء استعمالُ اسم الإشارة للبعيد (أولئك) في قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لبيانِ رُتبةِ المؤمنين المُنْفِقين العالية؛ لغناهم عن كُلِّ فانٍ[3]، فهم الذين يُريدون بما أنفقوا وجهَ اللّه.

فائدةُ القَصْر بتعريف الطَّرفين:

المنفقون مخصوصون بكمال الفلاح ورفعة المنزلة

في قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ، وذلك بتعريف الطَّرفين وتوسُّط ضميرِ الفَصْلِ، والمعنى: أولئك المُتفرِّدونَ المقصورون بالفلاح، وهو نجاحُ عَمَلِهم في إيتاءِ مَن ذُكِرَ لوجْهِ اللّهِ تعالى، لا للرّياءِ والفخْرِ، فمَن آتَى للرّياءِ والفخْرِ؛ فلا فلاحَ له مِن إيتائِه[4]، فهم خاصَّةُ المفلحين الذين لا يشوب فلاحَهم شيءٌ مِنَ الخيبة، وأمّا غيرُهم؛ فخائبٌ، أمّا إذا لم ينفق؛ فواضحٌ، وأمّا مَن أنفق على وجه السُّمعة والرّياء؛ فإنَّه خَسَرَ مالَهُ، وأبقى عليه وبالَه[5]، فالقَصْر بالنِّسبة إلى كمال الفلاح دونَ أصل الفلاح[6].

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

للدِّلالة على أنَّهم الكاملون في الفلاح والظَّفر بالخير

تعريف لفظ ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لبيان أنَّهم الكاملون في الفلاح والظَّفر بالخير في الدُّنيا والآخرة، فهم الظّافرون بما يريدون، والفائزون بنعيم الآخرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 104.
(2) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 227.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 99.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 104، 105، والجيلانيّ، تفسير الجيلانيّ، ص: 283.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 99.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 146.

❁ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطريقُ والسَّبيلُ والصِّراطُ:

السَّبيل الطَّريق السَّهل والصِّراط ما استقام من الطَّريق والطَّريق أعمُّ

الطَّريقُ: هو كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطّارِقُ مِنَ النّاسِ، مُعْتادًا كانَ أو غيرَ مُعْتادٍ[1]، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77].

أمّا السَّبيلُ؛ فهُوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وأغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام: 55].

أمّا الصِّراطُ؛ فَهُوَ السَّبيلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسَّبيلِ: أنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهُولَةَ واعْتيادَ السُّلوكِ[2]، أمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ؛ فَهُوَ السَّهْلُ المُعْتادُ.

والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أنَّ الصِّراطَ لا اعْوِجاجَ فيهِ[3]، قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعامُ: 161]، فالصِّراطُ أخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[4]، وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

---

(1) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 513.

(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 298.

(3) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 513.

(4) المَناويُّ، التَّوقيفُ على مُهِمّاتِ التَّعاريفِ، ص: 215.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الرُّوم: 39]

كمالُ الطّاعةِ باجتنابِ مواضعِ المعصية

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا جرى التَّرغيبُ والأمرُ ببذلِ المالِ لِذوي الحاجةِ، وصِلةِ الرَّحِمِ في الآيةِ السّابقة؛ ناسبَ التَّعقيبُ بالتَّزهيدِ في ضَربٍ آخَرَ من إعطاءِ المالِ لا يَرضى اللّٰهُ تعالى به، فكان الرِّبا فاشيًا في زَمَنِ الجاهليَّةِ وصَدرِ الإسلامِ، فلمّا أرشَدَ اللّٰهُ المسلمينَ إلى مُواساةِ أغنيائِهم لفُقرائهم؛ أَتْبَعَ ذلك بتهيئةِ نُفوسِهم للكَفِّ عنِ المعامَلةِ بالرِّبا للمُقتَرِضينَ منهم، فإنَّ المعاملةَ بالرِّبا تُنافي المواساةَ؛ لأنَّ شَأنَ المُقتَرِضِ أنَّه ذو حاجةٍ، وشأنَ المُقرِضِ أنَّه ذو سَعَةٍ، فمُعامَلتُه المُقتَرِضَ منه بالرِّبا استغلالٌ لحاجتِه لاضْطِرارِه، وذلك لا يليقُ بالمُؤمنينَ[1]. فلَمّا ذكَر اللّٰهُ تعالى العملَ الَّذي يُقصَدُ به وجْهُهُ مِنَ النَّفَقاتِ؛ ذكَر العملَ الَّذي يُقصَدُ به مَقصِدٌ دُنيويٌّ فيمَن يتصرَّف في مالِه على غيرِ الجهة المرضيَّة[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿رِّبٗا﴾: (ربو) أصلٌ يدُلُّ على الزّيادةِ والنَّماءِ والعلوِّ[3]، تَقولُ: رَبا الشَّيءُ يَرْبُو رَبْوًا، أيْ: زادَ، وكَثُرَ، ومِنْهُ سُمّيَ أَخْذُ الرَّجُلِ أكثَرَ ممّا أعطى: رِبًا[4]، ويُطلَقُ بمعنى النَّماءِ، يُقالُ: أربَى الزَّرْعُ: نَما، وعَلَتْ سيقانُهُ، وأرْبَيْتُ المالَ؛ إذا نَمَّيْتَهُ[5]، ومن مَعانيهِ أيضًا: العُلُوُّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 105.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 393، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 642.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربو).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ربو).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 266.

والارتفاعُ، ومنه سُمّيَت الرّابيةُ، وهي: المكانُ العالي المُرتفعُ عنِ الأرْضِ، ورَبا: أصابَهُ الرَّبْوُ، والرَّبْوُ: عُلُوُّ النَّفَسِ[1]، والمقصود بالرِّبا في الآية: الفضلُ والزّيادة، و(يربو): أصله (ربو)، ومعناه في الآية يزيد، ويكثر، ويُضاعف.

2) ﴿زَكَوٰةٍ﴾: (زكو) أصلُ الزَّكاةِ: الزّيادَةُ، وقيل: الطَّهارَةُ والنَّقاءُ، ومنه سُمّيَ المالُ الّذي يُخرَجُ للفُقراءِ زكاةً؛ لأنَّ فيه تَطْهيرًا للمالِ مِمّا دَخَلَ فيه مِن حَقِّ غيره، وتنميةً وإصلاحًا له[2]، وتأتي الزَّكاةُ - أيضًا - بمعنى الصَّلاحِ والاستقامةِ، ورَجُلٌ زَكيٌّ، أيْ: صالِحٌ[3]، والزَّكاةُ: النَّماءُ والزّيادةُ والبَرَكَةُ، يُقالُ: زَكا المالُ يَزكو زَكاءً، أيْ: زادَ ونَما، وأرضٌ زكيَّةٌ: مُباركةٌ طَيِّبَةٌ[4].

3) ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: (ضعف) أصلٌ يَدُلُّ على أنْ يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَهُ، قالَ الخَليلُ: أضْعَفْتُ الشَّيءَ إضْعافًا، وضَعَّفْتُهُ تَضْعيفًا، وضاعَفْتُهُ مُضاعَفَةً، وهوَ أنْ يُزادَ على أصْلِ الشَّيءِ، فَيُجْعَلَ مِثْلَيْنِ أو أكْثَرَ[5]، وضَعَّفَ الشَّيءَ: أطْبَقَ بعضَهُ على بَعْضٍ وثَناه، فَصارَ كأنَّه ضِعْفٌ[6]، والمرادُ بالمضاعفة في الآية: تكريرُ شيءٍ ذي مقدارٍ بمِثْلِ مِقدارِه[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

طلبُ الزّيادة عند بذْلِ المال ماحِقٌ للبَرَكةِ مُنزلٌ للعذابِ

تُخاطب الآيةُ النّاسَ بأنَّ ما قدَّموه مِن عَطاءٍ يُريدونَ به زيادةً وأرباحًا تَحصُلُ لهم مِن أموالِ النّاسِ، بأن يَرُدُّوه إليهم بأكثَرَ ممّا أخذوه، فلا يَزْكو، ويَنمو عندَ اللهِ، فهو مالٌ مَمْحوقُ البَرَكة، ولا ثوابَ

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ربو).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زكو).
(3) ابن سيده، المحكم: (ركو)، والزّمخشريّ، الفائق: 2/ 119.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (زكو).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (ضعف).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ضعف).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 319.

فيه، وما قدَّموه مِن زكاةٍ عن إخلاصٍ للّه تعالى، يريدونَ بها وجهَهُ، فأولئك هم الذين يُضاعِفُ اللّهُ لهم ثوابَ صَدَقاتِهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتها على المتقابلات:

المقابلةُ بين الإنفاقين لتكميل مدح المتصدِّقين وذمِّ المرابين

واو العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم﴾ جَمَعَت بَيْنَ ذِكْرِ نوعين من أنواعِ العطاء، **الأوَّل:** حَسَنٌ مقبولٌ عند اللّه، وهو ما سبق ذِكْرُهُ من أمر الإنفاق على القُربى والمساكين وابن السَّبيل، **والآخر:** قبيح مبغوضٌ عند اللّه، وهو الرِّبا، فدلَّتِ الواوُ على المقابلة بين نوعَي المال المُعْطَى؛ لتتميم مدحِ المُتصدِّقين، وتكميلِ ذَمِّ المُرابين، أو تكونُ الواوُ اعتراضيَّةً، ومضمون هذه الجُملة بمنزلة الاستدراك؛ للتَّنبيه على إيتاء مالٍ هو ذميمٌ[2].

نوعُ (ما) ودلالتُها:

أصلُ المُرابي في النَّفع مقطوعٌ وفي الزِّيادة ممنوعٌ

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ شرطيَّةٌ تُفيد العمومَ، وجيء بالجُملة شرطيَّة؛ لأنَّها أنسبُ بمعنى الاستدراك على الكلام السّابق، فالخطاب للمُسلمين الذين يُريدون وجهَ اللّه، الذين كانوا يُقرضون بالرِّبا قبل تحريمه[3].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

بينَ القراءاتِ تلاقٍ في المعنى واتِّفاقٌ في المآل

قرأ الجمهورُ الإيتاءَ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم﴾ بمَدِّ الهمزة، وقرأ ابن كثير بالقَصْر[4]، فمعنى قراءة الجمهور: وما أعطيتُم، و﴿ءَاتَيۡتُم﴾: آتى بعضُكم بعضًا؛ لأنَّ الإيتاء يقتضي مُعطيًا وآخِذًا[5]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 507، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 318، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 642.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 105.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 105.
(4) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 228.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 105.

ومعنى قراءة ابن كثير: وما جئتُم[1]، بمعنى: ما فعلتُم، كما يُقال: أتيتَ صَوابًا، وأتيت خطأ[2]، فمن قصر؛ فمعناه: ما جئتُم من ربًا، ومجيئهم ذلك على وجه الإعطاء، كما يقول: أتيتُ خطأ، وأتيتَ صوابًا؛ فهو يُؤوَّل في المعنى إلى قول من مَدَّ[3].

نوعُ ﴿مِّن﴾ ووظيفتها:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾ بيانيَّة، فهي مبيِّنة لإبهام (ما) الشَّرطية في الموضعين[4].

بلاغةُ احتمالِ لفظِ الرِّبا للحقيقة والمجاز:

الأصلُ في لفظ الرِّبا الحقيقةُ والمجازُ احتمالٌ دلاليٌّ

لفظ الرِّبا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ على الحقيقة الشَّرعيَّة المعهودة في الاستعمال القرآنيِّ، أي: زيادةً ليزيدَ في أموالهم؛ إذ تأخذون فيه أكثرَ منه: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، أي: لا يَزْكُو، ولا يَنْمو، ولا يُبارِك فيه، بل يَمْحَقُهُ مَحقَ ما لا عاقبةَ له عندَه إلّا الوبالُ والنَّكال، وهذا المعنى على حقيقته، وذُكِرَ في تفسيرها معنًى آخر، وهو أن يهبَ الرَّجلُ للرَّجل، أو يُهْدي له؛ ليُعَوِّضَهُ أكثرَ ممّا وهبَ أو أهدى، فليست تلك الزّيادة بحرام، وتسميتُها ربًا مجازٌ؛ لأنَّها سببُ الزّيادة، وهو مجاز مُفرد مرسلٌ، علاقتُه سببيَّة، حيثُ ذَكَرَ السَّببَ، وأراد المُسَبَّب، فإنَّ السَّببَ هو ﴿رِّبٗا﴾، والمُسبَّب هو الزّيادة، والقرينة لفظيَّة، وهي ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾؛ فتكون تسميةُ العطيَّة ربًا مجازًا؛ لكونها سببًا جَعْليًّا للزّيادة[5].

سِرُّ تنكير ﴿رِّبٗا﴾:

عمومُ الزِّيادة المُحرَّمة في المعاملة

جاء لفظُ الرِّبا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾ نكرةً للعموم،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 393.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 4/ 339.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 579.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 105.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 147.

أي: زيادةً مُحرَّمةً في المُعاملة، أو عَطيَّةً يُتوقَّع بها مزيدُ مُكافأة[1]، سواء كانت هذه الزّيادة قليلةً أم كثيرةً.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

قصد المُرابي مذمومٌ في كلِّ أحواله

في قوله تعالى: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾ قراءتان متواترتان، فقرَأ نافعٌ وأبو جعفرٍ ويَعْقُوبُ بِالخِطابِ وضَمِّ التّاءِ، وإسْكانِ الواوِ: ﴿لِّتُرْبُوا﴾، وقَرَأ الباقُونَ بِالغَيْبِ وفَتْحِ الياءِ والواوِ ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾[2]، ومعنى القراءة على الخطاب: لتأخذوا الرِّبا من أموال النّاس، أو لتكونوا ذوي زيادات[3]، فأسند الفعلَ إليهم، ومعنى قراءةِ الغيب ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾ أي: ليزيدَ، ويَنمو في أموال النّاس، فيدفعوا لكم أجرَ مرورِ الزَّمن على الأموال التي هي لكم عندهم، مستغلّين ضروراتهم وحاجاتهم، فلا يزيد عند اللّه، بل يَمحَقُهُ، ويُبْطِلُهُ[4].

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّة:

الكشفُ عن طمع المُرابي في أموال النّاس

حرف ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ للظَّرفيَّة المَجازيَّة، بمعنى (من) الابتدائيَّة، أي: لتنالوا زيادةً تحصُل من أموال النّاس[5]، فهي كاشفةٌ عن طمع المُرابي في أموال النّاس.

معنى الفاء ودلالتُها في جواب الشَّرط:

ثمرةُ المُرابي في الدّارين محقٌّ وبُطلان

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط، والتَّقدير: وما أعطيتم من مال؛ لتأخذوا من أموال النّاس أكثرَ منه كيفيَّةً أو كميَّةً، ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، ولا يُبارك فيه، بل يمحقُه ولو بعد حين، وهذه صورة الرِّبا المُحرَّمة إجماعًا، وعلى المعنى الثّاني يكون التَّقدير: وما أعطيتُم من هديَّة؛ لتأخذوا أكثرَ

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 207.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 344.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 152، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 347.
(4) مجد مكّي، المعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 408.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 105.

منها، فلا يَربُو عند اللّه؛ لأنَّكم لم تقصدوا به وجه اللّه، وهذه هديَّةُ الثَّواب[1].

دلالةُ استعمال أداة النَّفي (لا):

امتناعُ حصولِ الزّيادة في المستقبل الدُّنيويِّ والأخرويِّ

دلَّ استعمال حرف (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ على امتناع حصول الزّيادة في المستقبل الدُّنيويِّ والأخرويِّ؛ لأنَّه عملٌ ناقص عند اللّه غير زاكٍ عندَه.

بلاغةُ ذِكْر قيد العِنديَّة:

كُلُّ عملٍ خالٍ مِنَ الإخلاص فلا بَركةَ فيه ولا خَلاص

جاء ذِكْرُ قيد العنديَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾؛ لبيانِ أنَّ قصد المُعْطي يجب أن يكون متعلِّقًا باللّه تعالى؛ لتحصيل القَصْد النّافع، فذِكْرُ القيدِ من باب توكيد هذا المعنى، والمعنى: فلا يزكو عند اللّه، ولا يُثيبُ عليه؛ لأنَّه لم يُرِدْ به وجهَ اللّهِ، بل قَصَدَ به الزّيادةَ والعِوضَ، ولم يقصد به البِرَّ والتَّقوى[2]، فمن أعطى عطيَّةً يريد أن يَرُدَّ عليه النّاسُ أكثرَ ممّا أهدى لهم، فهذا لا ثوابَ له عند اللّه، إنَّما الثَّواب عند اللّه في الزَّكاة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾، أي: الذين يُضاعِفُ اللّهُ لهمُ الثَّوابَ والجزاء[3].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل:

توريثُ المهابةِ في نفوس المخاطَبين

جاء استعمالُ لفظِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِۖ﴾؛ لتوريث المهابةِ في نفوس المخاطَبين، ولبيان أنَّ المقصود الحقيقيَّ من سلوك العِباد هو في تحقيق رضوانِ اللّه.

مناسبة ذِكْر الزَّكاة بعد الرِّبا:

المقابلةُ بين ما نَقْصُهُ زيادةٌ بعد ذِكْرِ ما زيادتُه نقصٌ

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 347.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 5/ 278، والجبليّ، البستان في إعراب مشكلات القرآن، ص: 42.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 318.

﴿هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؛ لأنَّ ذلك الحقَّ هو المُسمَّى بالزَّكاة[1]، فلمّا ذَكَرَ ما زيادتُه نقصٌ؛ أتبعَهُ ما نقصُه زيادةٌ، وعبَّر عنها بذلك؛ ليُفيدَ الطَّهارةَ والزّيادة، فالزَّكاةُ تُطهِّرون بها أموالَكم مِنَ الشُّبَه، وأبدانَكم من مواد الخُبث، وأخلاقَكم مِنَ الغِلِّ والدَّنَس[2]، على أنَّ المُراد بالزَّكاة المالُ المُخرَج المُعطَى للمساكين، بقرينة ﴿ءَاتَيۡتُم﴾، وإطلاقُ الزَّكاة على الفعل - وهو تمليك المال أو إخراج المال - اصطلاحُ الفقهاء، والمُراد بالزَّكاة مطلقُ الصَّدقةِ لا الزَّكاةُ المفروضة؛ لما عرفتَ من أنَّ السّورةَ مكّيَّةٌ، والزَّكاة فُرِضت في المدينة، وبهذا ظهر ارتباطُ الآية بما قبلَها[3].

دلالةُ ﴿مِّن﴾ البيانيَّة:

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن زَكَوٰةٖ﴾ بيانيَّةٌ، مُبيِّنةٌ إبهامَ (ما) الشَّرطيَّة[4]، على أنَّ المُراد بالزَّكاة المالُ المُخرَج المُعطَى للمساكين، وهو مُطلَق الصَّدقة[5].

غرضُ تنكير لفظ ﴿زَكَوٰةٖ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿زَكَوٰةٖ﴾ للاستغراق والعموم، أي: من شيء تلتمِسون به الطُّهْرةَ مِنَ الذُّنوب، والجزاءَ في الآخرة لا في الدُّنيا[6]، سواء كان هذا المُعطَى قليلًا أم كثيرًا.

نُكْتَةُ ذِكر القيد:

الاعتبارُ بالقصدِ والنّيَّةِ لا بالفعل نفسِه

جاء تقييدُ فعلِ إيتاء الزَّكاة بقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾، وهو صفةٌ للفظ ﴿زَكَوٰةٖ﴾، فلا بُدَّ فيه من ضمير يعود إلى الموصوف،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 106.
(2) الشِّربيني، السّراج المنير: 3/ 227.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 147.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 106.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 148.
(6) النَّسفي، مدارك التّنزيل: 12/ 37.

أي: تريدون بها، أو حالٌ من فاعل ﴿ءَاتَيْتُم﴾، والمقصود من التَّقييد الإشارةُ إلى أنَّ الاعتبار بالقصد والنّيَّة لا بنفس الفعل[1].

معنى الفاء ودلالتُها الوظيفيَّة:

مُـؤتي الـزَّكـاةِ مُضْعِفٌ للثَّواب

الفاء في جملة: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ رابطة لجواب الشَّرط ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾، أي: إن آتى المُؤتون الزَّكاةَ إرادةَ وجهِ اللّه تعالى؛ فمُؤتوها هم المُضْعِفون، وأولئك الذين حصل لهم الإضعافُ، وهو إضعاف الثَّواب[2].

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيد:

الإعـلامُ بِعُلوِّ الرُّتبـةِ ورفـعـةِ الشَّأن

اسمُ الإشارةِ (أولئك) في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ، اقتضاه مَقامُ اجتلابِ اسم الإشارة[3]، والإشارةُ إليه بأداة البُعد إعلامٌ بعُلُوِّ رتبتِهم؛ تنويهًا بهم، وللدِّلالة على أنَّهُمْ أحْرياءُ بالمضاعفة؛ لأنَّ المُخاطَب بالإيتاء كثيرٌ، والعاملَ قليلٌ وجليل[4].

نُكْتَةُ ذِكْر ضمير الغائبين:

قَـصْـرُ جنـسِ المُضـعِفين على هؤلاء للمبالغة وعـدمُ الاعتداد بـإضـعـاف مَـن عداهم

ذُكِر ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ في قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ لقصر جنسِ المُضعِفين على هؤلاء، وهو قَصْرٌ ادعائيٌّ للمُبالغة؛ لعدم الاعتداد بإضعاف من عداهم؛ لأنَّ إضعاف من عداهم دنيويٌّ زائل[5].

بلاغةُ الالتفات مِن الخطاب إلى الغَيْبَة:

مدحُ المتصدِّقين وتعظيمُ فعلِهم والإرشـادُ إلى الاقتداء بهم

التفت النَّظمُ الكريم من الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ إلى الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ للمُبالغةِ والتَّعظيم؛ لأنَّه إذا التفت إلى الآخرين شاكرًا لصنيعهم، واستحمادًا

(1) محيي الدّين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 549.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 106.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 107.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 101.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 21/ 106.

منه لهم، وترغيبًا لهم فيما نالوا به هذه المنزلة؛ كان أبلغَ ممّا لو قال لهم: فأنتُم المُضعِفون، أو للتَّعميم، كأنَّه قال: فمَن فعل ذلك؛ فأولئك هم المضعفون، مع ما فيه مِنَ الإشعار بأنَّ أولئك مُحقِّون بأن يكونوا مُضعِفين؛ لاكتسابهم تلك الفضيلة، وليس في (فأنتم المُضعِفون) من ذلك شيء[1].

بلاغةُ توالي المؤكِّدات:

تقويةُ المدح وتعظيمُ الشَّأن

في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ تأكيدٌ بالجملة الاسميَّة، وبضمير الفصل، وبالحصر؛ إشارةً لعُلُوِّ المرتبة، وبذِكْر ما أعطاهمُ اللّهُ في الجواب من الإضعاف، فهم ذوو الأضعاف من الثَّواب[2].

بلاغةُ المجاز المرسل:

حثُّ العبادِ على المسارعةِ في إيتاء الزَّكاة وتحصيل الرِّفعة

إسنادُ التَّضعيف إلى المشار إليهم - في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ - مجازٌ؛ لكونهم سببًا بالأعمال الصّالحة للتَّضعيف، فهو مجازٌ مرسل بعلاقة السَّببيَّة، يُبْرِز كرمَ اللّهِ وسَعَةَ فضلِه على عباده المنفقين في سبيله ابتغاءَ وجهه، حيثُ نسب التَّضعيفَ لهم إكرامًا لهم وتنويهًا بهم[3]، ففيه حثٌّ للعبادِ على إيتاء الزَّكاة؛ لينالوا ما نال أولئك المُضعِفون مِنَ الوصف الكريم، والمكانِ الرَّفيع.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾:

التَّعريضُ بالمُرابين وبيانُ حقيقةِ الإضعاف المقبول

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإضعاف في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ للتَّعريض بالمُرابين الذين اعتقدوا أنَّهم يُضعفون أموالَهم بالرِّبا، فبيَّن سبحانه أنَّ هذا هو الإضعافُ المقبول، وأتى باسم الفاعل لبيان أنَّهم ثابتون فيه، دائمون في تحصيله.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 481، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 208، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 394.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 62.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 148.

بديعُ المُقابلة بينَ الآيات:

اختلافُ منازلِ النّاس في الإنفاق بحسب مقاصدهم

بيْنَ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾ مُقابَلةٌ لطيفة، تدلُّ على اختلاف منازلِ النّاس ومراتبِهم في الإنفاق، وتفاضلِهم عند الله بحسب نيّاتِهم ومقاصدهم، فذَكَر في جانب المُزَكّين قصدَهم، وحذفَ قصدَ المُرابين؛ لإظهار شرفِ مطلوبِ المؤمنين، وخِسَّةِ مطلوبِ غيرهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الرُّوم: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من تباينِ أحوالِ الرِّزقِ إلى تقريرِ توحيد الخالق الرّازق

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أحوالَ النّاس في السَّرّاءِ والضَّرّاء، وأحوالَ النّاس في المنعِ والعطاء، وحثَّت على إيتاء أصحاب الحقوقِ حقوقَهم، وذَمَّتِ الاكتسابَ بطريق محرَّم؛ ناسبَ الانتقالُ إلى تقرير أنَّ اللّه ﷻ هو الخالق الرّازق، وهو الذي يتوفّى النّاسَ، ثمَّ يبعثهم للحسابِ، وهو المُشَرِّع دونَ سواه ممَّن يتَّخذهمُ النّاسُ شركاء، ومَن جمع بين كونِه خالقًا رازقًا، وكونِه مميتًا محييًا، فهو المستحِقُّ للعبادةِ، فهذا انتقالٌ مِنَ الاستدلال بما يطرأ للنّاس من أحوالٍ متباينة، إلى تقرير الاعتقاد الحقِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُمِيتُكُمْ﴾: (موت) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ذَهابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[1]، والمَيتُ بِتَخْفيفِ الياءِ وتَشْديدِها: هو الذي فارَقَ الحَياةَ، ويَسْتَوي فيه الذَّكَرُ والأُنْثَى، يُقال: ماتَ يَمُوتُ مَوْتًا، فهو مَيِّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، مَوْتَى، ومَيِّتون، ومَيْتون، ويُطلَق أيضًا على مَن في حُكْمِ الميِّتِ، وليس به[2]، والمقصود بالموت في الآية: زوالُ القُوَّة الحاسَّة[3].

2) ﴿يُحْيِيكُمْ﴾: أَصْلُ (حيا) يدلُّ على خِلافِ المَوتِ[4]، والحَيُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (موت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيي).

من كُلِّ شيءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ، وحَيَّ يَحْيا، فهو حَيٌّ، ومنه الحَيَوانُ، وهو كُلُّ ذي رُوحٍ، ناطِقًا كان أو غيرَ ناطِقٍ، والحيُّ مِنَ النَّباتِ: ما كانَ طريًّا يهتزُّ، وأرضٌ حَيَّةٌ، أيْ: مُخصِبَةٌ، وطريقٌ حَيٌّ، أيْ: بَيِّنٌ[1]، والحَيَوانُ: مقرُّ الحياة، ويُقالُ على ضربين، أحدهما: ما له الحاسَّة، والثّاني: ما له البقاء الأبديُّ، وهو المذكور في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: 64]، والحَيا: المَطَر؛ لأنَّه يحيي الأرض بعد موتها، والإحياءُ في الآية مرادٌ به: الخَلْقُ.

3) ﴿شُرَكَآئِكُم﴾: (شرك) أصلٌ يدلُّ على مقارنة وخلاف انفراد، وهو أن يكُونَ الشَّيءُ بينَ اثنين، لا ينفردُ به أحدُهما[2]، والشِّرْكُ: يأتي بِمعنى المُشاركةِ، وهي الانضمامُ والمُخالطَةُ بينَ الشَّريكين، يُقالُ: شركتُه في الأمر وشاركتُه؛ إذا انضمَمتُ إليه، وخالطتُه، وصرتُ شريكًا له[3]، ويُطلَقُ على الكُفْرِ، والشِّركُ باللّٰه تعالى ضربان: ضربٌ يُجْعَل للّٰه فيه شريكٌ، والثّاني: الشِّرك الصَّغير، وهو مراعاة غير اللّٰه في بعض الأمور، وذلك كالرِّياء والنِّفاق[4]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: جمعُ شريكٍ، وهم النُّظراء والأنداد، أي: الآلهة والأوثان الذين جعلوها شركاء للّٰه سبحانه في العبادة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُتفرِّدُ بالخَلْقِ وهدايةِ النّاس مُستَحِقٌّ للتَّوحيدِ والعبادةِ

تُبيِّن الآيةُ الكريم مظاهرَ فضلِه ﷻ على النّاسِ، فاللّٰهُ وحْدَه هو الَّذي خلَقَ النّاسَ مِنَ العدَمِ، ثمَّ رزَقَهم، ثمَّ يُميتُهم من بَعدِ حياتِهم، ثمَّ يُحييهم للبَعثِ يومَ القيامة، فهل من آلهةِ المُشركينَ مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك؟ تنزَّه اللّٰهُ، وتقدَّس عن شِركِ هؤلاءِ المُشرِكينَ[5]،

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(4) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (شرك).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 319، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 643.

فالآيةُ بيانٌ مقنعٌ لأصحاب العقولِ، والفطرة السَّويَّة، بأنَّ توحيد اللّه تعالى من مقتضياته التَّسليمُ لأمره، في كلِّ ما أمر به، ونَهَى عنه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

إقـامـةُ دلائـل انفراد اللّه تعالى بـالـتَّـصـرُّف في النّاس

فُصِل قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ أُقيمت عليه دلائلُ انفرادِ اللّه تعالى بالتَّصرُّف في النّاس، وإبطالِ ما زعموه مِنَ الإشراك في الإلَهيَّة، كما أنبأ عنه قولُه تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾[1]، فالآيةُ انتقالٌ لبيانِ الاستحقاقِ الإلَهيِّ بعد بيان ما يُثبت ذلك من واقع النّاس أنفسِهم عند وقوع المصائب.

نُكْتَةُ التَّعبير باسم الجلالة:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ التَّوحيد

ابتدَأتِ الآيةُ الكريمةُ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ الرُّبوبيَّة، فلم يقل: (ربُّكم الذي خلقكم)، والخَلْق من أفعال الرُّبوبيَّة، وكونُه ربًّا؛ فهو الذي يخلق سُبحانه، وأتى باسم الجلالة لبيانِ استحقاقه العبادةَ، فهو اللّه العظيم المعبود الذي خلق، فاستحَقَّ أن يُعبَد، ولا معبودَ بحقٍّ في الوجود سواه، أوجدكم على ما أنتم عليه من التَّقدير لا تملكون شيئًا[2]، فمَن كانت هذه صفاته؛ فهو اللّه دون سواه، والسّياقُ سياقُ أمرٍ بطاعةِ الخالق دون الشُّركاء، وهو ما يُناسبه لفظُ الجلالة، مع ما فيه من توريث المهابة.

نُكْتَةُ الوصفِ بالاسم الموصول:

تعليلُ استحقاق العبادةِ وتقريرُ ذلك بالمشاهداتِ اليقينيَّة

جاء استعمالُ الاسمِ الموصول في وصف لفظ الجلالة، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾؛ لتعليل استحقاقِهِ العبادةَ دونَ سواه، فهو لا شريكَ له في الخَلْق والرِّزق والإماتة والإحياء، ومن كان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 107.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 102، وحجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 32.

كذلك؛ فهو الإله الحقُّ، كأنَّه قال: لأنَّه خلقكم، ورزقكم، وأحياكم، وأماتكم، فهو الحقيق بصفات الكمال التي لأجلها يُعبَد المعبودُ إفرادًا وتوحيدًا.

دلالةُ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في باب الرِّزق:

الرِّزقُ مُتراخٍ عنِ الخَلْق في المُدَّة

المُراد بالرِّزق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ ما يكون بعد الوِلادة، ولذلك كان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾، وإن فُسِّر بما يُتغذّى به في البطن من حين نَفَخَ فيه الرُّوحَ؛ صَحَّ التَّراخي أيضًا[1]، فجاء الرِّزقُ مُتراخيًا عنِ الخلق في المدَّة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بحرف التَّراخي:

الإيماءُ إلى مراتب الوجود؛ ليَقعَ الفكرُ ويُنبذَ الكُفر

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ﴾ في جميع الأفعال الدّاخل عليها، فحرف ﴿ثُمَّ﴾ مُستعملٌ في معنَيي التَّراخي الزَّمنيِّ والرُّتبيِّ[2]، فهذا التَّرتيبُ هو في الآحادِ شيئًا بعد شيء[3]، فبدأ بالخَلْقِ باعتباره المبدأ، ثمَّ بالرِّزق؛ ليشملَ ما يَتَغذّى به الإنسانُ في البطن من حين نفخ الرُّوح، وما بعد الولادة[4]، ثمَّ يأتي الموت متراخيًا في زمانه ورُتبته، ومثلُه الإحياءُ في القبور، وهذا التَّراخي يُشير إلى حياة الإنسان وانتقالاته بين مراتب الإيجاد والتَّربية؛ ليكونَ مهمازًا في التَّفكُّر فيما صنعَه اللَّهُ تعالى لعباده من العناية المستحِقَّة للعبادةِ الحَقَّة.

براعةُ عطف صيغةِ المضارع على الماضي:

العاقل لا يغفل عمّا سيقع بما وقع

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في الجُملتين الأوليين: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾؛ لأنَّ الخَلْقَ والرِّزق كانا قد حصلا عند الخطاب،

---

(1) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 11/ 130.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 107.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 339.

(4) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 11/ 130.

وجاء التَّعبير بصيغةِ المضارع في الإماتة والإحياء: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ﴾؛ لتصوير ما يقع على النّاسِ في هذه الحياةِ من الإماتة المتواصلة إلى يوم القيامة، والإحياء الذي سيكون عند البعث، فالخَلْقُ والرّزق في الدُّنيا، والإماتةُ والإحياء بدايةُ الآخرة، فإذا مات الإنسان بدأت آخرتُه بإحيائه وبعثه، فكان ذِكر الماضي للإيماءِ إلى أنَّ الخَلْق والرِّزقَ أمرٌ محتومٌ، وهو بحكم الواقع المُنقضي، وأمّا الإماتةُ والإحياء؛ فهما في حُكم ما سيقع حتمًا، وذلك كي لا ينشغلَ الإنسانُ بما وقع، عمّا سيقع.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

الإنـكـارُ على المشركين للتهكُّم والتوبيخ على قلَّة عقلِهم

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ في معنى النَّفي[1]، فاللّهُ ﷻ أضاف لنفسه الخَلْقَ والرِّزق والإحياء والإماتة، ثمَّ أنكر على المخاطَبين بأسلوب الاستفهام، هل من معبوداتكم من يفعل شيئًا من ذلك؛ ليستحِقّوا عبادتَكم ودعاءَكم؟ وهي أبلغُ صيغ النَّفي والتَّهكُّم والتَّوبيخ[2].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها البيانيَّة:

تحتمل (مِن) البيانَ والتَّبعيض

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾ بَيانيَّةٌ، وهي بيانٌ للإبهام الذي في قوله تعالى: ﴿مَّن يَفۡعَلُ﴾، فيكون ﴿مَّن يَفۡعَلُ﴾ مبتدأً، وخبرُه محذوفٌ دلَّ عليه الاستفهام، تقديره: حَصَلَ، أو وُجِدَ، أو هي تبعيضيَّةٌ صفةٌ لِمُقدَّر، أي: هل أحدٌ من شركائكم[3]، كأنَّه أقام فعلَ البعضِ مقامَ فعلِ الكُلِّ توسعةً على الخصم[4].

بلاغةُ الإضافةِ ودلالتُها:

التَّهكُّم بالمُشركين والإزراءُ على معتقداتهم

أُضيفَ لفظُ (شركاء) إلى ضمير المُخاطبين من المُشركين

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 46.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 103، والصّاويّ، حاشية الصَّاوي: 3/ 195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 107.
(4) النّيسابوريّ، غرائبُ القرآن: 5/ 417.

﴿شُرَكَآئِكُم﴾؛ لأنَّ المخاطَبين هم الذين أثبتوا، واعتقدوا وصفَ الشُّركاء للّه، فكانوا شُركاءَ بزعم المُخاطَبين، وليسوا شُركاءَ في نفس الأمر، وهذا جارٍ مَجرى التَّهكُّم[1]، أي: الذين تزعمون قدرتَهم على النَّفعِ والضُّرِّ.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

تبعيضيَّة في موضع الحال؛ لتأكيد عجزِ الشُّركاء وتجهيلِ عَبَدتِهم

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ تبعيضيَّة في موضع الحال: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾[2]، وجيء بها لتأكيد عجزِ شركائهم، وتجهيلِ عَبَدتِهم[3]، مع إفادتها شيوعَ الحُكم في جنس الأفعال[4].

نُكْتَةُ إفرادِ اسمِ الإشارة إلى المجموعِ:

الإشارةُ إلى فعلٍ واحدٍ مشتملٍ على أفعالٍ متعدِّدة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ اسم الإشارة (ذلك) للبعيد، في الإشارةِ إلى الخَلْق، والرِّزق، والإماتة، والإحياء، وهي مصادر الأفعال المذكورة، وأفرد اسمَ الإشارةِ بتأويل المذكور[5]، أي: يفعل ذلك الفعلَ المشتملَ على الخَلْق والرِّزق والإماتة والإحياء، مُشيرًا إلى عُلُوِّ رُتبته بأداة البُعْد[6]، فإنَّها منزلةٌ عاليةٌ لا يبلغُها الخَلْق، ولو اجتمعوا عليها.

بلاغةُ الاستغراقِ بعدَ الاستفهام:

استغراقُ النَّفي زيادةٌ في تعجيز المُشرك

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ صلةٌ لاستغراق النَّفي[7]، فلمّا كان الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ السّابقُ في معنى النَّفي؛ قال هنا مُؤكِّدًا له، مُستغرقًا لِكُلِّ ما يُمكن منه، ولو قَلَّ جِدًّا ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ يستحِقُّ هذا الوصفَ الذي تطلقونه عليه[8]، فالاستغراقُ زيادةٌ في التَّعجيز وتقبيحِ عبادةِ مَن لا يَقْدِر على فعل شيءٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 108.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 108.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 349.
(4) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 237.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 108.
(6) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 15/ 103.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 108.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 103.

دلالةُ الاستئنافِ بجُملة التَّسبيح والتَّنزيه:

موقعُ جملة التَّنزيه موقعُ النَّتيجة بإنشاء تنزيهه تعالى عنِ الشَّريك

جملة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مستأنَفَةٌ؛ لإنشاء تنزيه اللّه تعالى عنِ الشَّريك في الإلَهيَّة، وموقعُها بعد الجُملتين السّابقتين موقعُ النَّتيجةِ بعدَ القياس، فإنَّ حاصل معنى الجملة الأولى: أنَّ الإلهَ الحَقَّ - وهو مسمّى اسم الجلالة - هو الذي خلق، ورزقَ، ويميتُ، ويُحيي، فهذا في قُوَّة مقدِّمة هي صُغرى قياسٍ، وحاصلُ الجملةِ الثّانية: أنَّهُ لا أحدَ منَ الأصنام بفاعلِ ذلك، وهذه في قُوَّة مقدِّمة هي كُبْرى قياسٍ، وحاصلُ معنى تنزيهِ اللّهِ عنِ الشَّريك: أنَّه لا شيءَ منَ الأصنام بإلهٍ، وهذه نتيجةُ قياس، ودليلُ المقدِّمةِ الصُّغرى إقرارُ الخَصْم، ودليلُ المقدِّمةِ الكبرى العقلُ[1].

بلاغةُ عطفِ التَّعالي على التَّنزيه:

مَن تنزَّه عنِ النّقائص؛ تعالَى عنِ الشَّريك

لمّا لَزم ممّا سبق ذِكْرُه أن يكون جوابُ القوم: (لا وعِزَّتك)؛ أشار إلى عظيم ما ارتكبوه بما أنتجه هذا الدَّليلُ، فقال مُعْرِضًا عنهم زيادةً في التَّعظيم والعظَمة، مُنَزِّهًا لنفسه الشَّريفةِ منها على التَّنزيه بِبُعد رُتبته الشَّمّاء من حالهم: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، أي: تنزَّه تَنزُّهًا لا يُحيط به الوصفُ من أن يكون مُحتاجًا إلى شريك، فإنَّ ذلك نَقْصٌ عظيم[2]، وعطفَ عليه التَّعالي عن ذلك، فقال: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي: عُلُوًّا لا تصِلُ إليه العقول، كما دلَّت عليه صيغة التَّفاعل[3].

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع:

شأنُ العاقلِ ألّا يُشرِكَ ابتداءً فضلًا عن تجدُّدِه

عبَّر النَّظمُ الكريم بالمُضارع في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ إشارةً إلى أنَّ العاقل من شأنه ألّا يقع منه شِرْكٌ أصلًا، فكيف إذا كان على سبيل التَّجدُّد والاستمرار[4]، فالتَّعبيرُ بالمضارع هنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 108.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 103.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 103.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 104.

لِما في الشِّركِ مِن الغَرابةِ المُقتضية مزيدًا مِنَ الإنكار، أو للإشعارِ باستمرارِه وتجدُّدِه منهم[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

الخِطاب متَّسقٌ مع الخطابِ وفي الغَيْبةِ إعراضٌ عنِ المُشركين

قرأ الجمهور ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ بالياء التحتية، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ بالتاء، على الالتفات مِنَ الغَيبة إلى الخطاب[2]، وحجة من قرأ بالياء أنه حمله على معنى: أن اللّه جلّ ذكره نزَّه نفسه عما يشركون فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ويجوز أن يكون على الأمر لنبيه ﷺ أن يقول: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وحجة من قرأ بالتاء أنه ردّه على ما قبله من لفظ الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُمۡ﴾، ﴿رَزَقَكُمۡ﴾، ﴿يُمِيتُكُمۡ﴾، ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، ﴿شُرَكَآئِكُم﴾، فحمل آخر الكلام على أوله في الخطاب[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الشُّركاء والأنداد:

الـشَّـريـكُ أعـمُّ مِنَ النِّدِّ وفي النِّدِّ معنى المساواة والمماثلة

الشَّرِكَةُ والمُشاركة خَلْطُ المِلْكَيْنِ، وقيل: هو أن يُوجد شيءٌ لاثنين فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشَّيءُ أو معنًى، كمُشاركة الإنسان والفَرَس في الحيوانيَّة[4]، وأصْلُ (شرك) في اللُّغة: يَدُلُّ على مُقارَنةٍ وخِلافِ انفِرادٍ، يقالُ: شَرِكَهُ في الأمرِ، وأشرَكَهُ شَرِكًا وشَرِكةً؛ إذا صارَ له شَريكًا[5]، والشِّركُ: اعتِقادُ شَريكٍ للّهِ في ألوهيَّتِه، وهو الشِّرْكُ الأعظَمُ، وهو شِرْكُ الجاهِليَّةِ، ويليه في الرُّتبةِ اعتِقادُ شَريكٍ للّهِ تعالى في الفِعلِ، وهو قَولُ مَن قال: إنَّ موجودًا ما غيرَ اللّهِ تعالى يستَقِلُّ بإحداثِ فِعلٍ وإيجادِه، وإن لم يُعتَقَدْ كَونُه إلَهًا[6].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 47.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات: 2/ 282.
(3) الكشف، مكي: 1/ 515، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 103.
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (شرك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شرك)، وابن الأثير، النّهاية: 2/ 466، والفيوميّ، المصباح المنير: 1/ 311.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 181.

أمّا النِّدُّ؛ فهو العِدْلُ والمِثْلُ، يُقال: (لَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ)، أي: لستَ له بمِثْلٍ في شيء من معانيه ولا عِدْل، وكلُّ شيءٍ كان نظيرَ الشَّيء وشبيهًا له؛ فهو له نِدٌّ[1]، ولا يلزم في النِّديَّة المُماثلة من كلِّ وجه، والمناظرة في كلِّ صفة، بل يكفي فيها التَّشبيهُ ولو بوجهٍ واحد، فإنَّك تقول: فلانٌ نِدُّ فلانٍ؛ إذا كان مماثلًا له في السِّنِّ فقط، وإن لم يجتمع معه في أيِّ صفة أخرى.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ندد)، وابن جرير، جامع البيان: 1/ 368، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ندد).

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الرّوم: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكر العِلّة إلى بيان النّتيجة

لمّا بيَّنتِ الآيةُ السّابقة حقارةَ المشركين وما يعبدون من دون اللّه تعالى، وكان قد سبق بيانُ أنَّ ما يُصيب النّاسَ إنَّما يكون بما قدَّمته أيديهم؛ ناسبَ الانتقالُ إلى سبب ظهور الفساد في البرِّ والبحر، وأنَّه بما ارتكبَتْهُ أيدي المشركين مِن اتِّخاذ شركاءَ من دون اللّه تعالى؛ لبيانِ عظيم شأنِ الشِّرك، وعاقبتِه الوخيمة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَهَرَ﴾: (ظهر) أصلٌ يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُرُوز[1]، من ذلك: ظَهَرَ الشَّيءُ ظُهُورًا: تبَيَّن، وأظْهَرْتُ الشَّيْءَ: بَيَّنْتُه، والظُّهور: بُدُوُّ الشَّيءِ الخفيِّ؛ ولذلك سُمّيَ وقت الظُّهر والظَّهيرة، وهو أظهرُ أوقاتِ النَّهارِ وأضوؤُها، وظَهَرَ الشَّيءُ: أن يحصل على ظَهْرِ الأرضِ، فلا يخفى، وبَطَنَ؛ إذا حصل في بطنان الأرض، فيخفى، ثمَّ صار مستعملًا في كلِّ بارز مبْصَرٍ بالبصر والبصيرة[2]، والمراد بالظُّهور هنا الكثرةُ والشّيوعُ.

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: (كسب) أصلٌ يَدُلُّ على ابْتغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، يُقالُ: كَسَبْتُ الشَّيء، أي: طَلَبْتُهُ[3]، ومنه الكَسْبُ: وهو ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفْعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المالِ، والاكْتِسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفدتَهُ لنَفْسِكَ[4]، ويُطْلَقُ الكَسْبُ على الجَرْح، أي: فِعْلُ الشَّيء بالجارحة، والكَواسِبُ: الجَوارح مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ظهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كسب).

الإنسانِ والطَّير[1]، والمراد بالكَسْبِ في الآية: ما يحصِّلُه المَرْءُ بعِلْمه لإرادةِ نَفْعِ نَفْسِه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

فسادُ البرِّ والبحرِ نتيجةُ العِصيان فيهما

تُبيِّن الآيةُ الكريمة الآثارَ السَّيِّئةَ التي تترتَّبُ على الكفرِ والمعاصي، حيثُ يظهر الجَدْبُ وقِلَّةُ النَّباتِ ومَحْقُ البركاتِ، وكَثرةُ الشُّرورِ في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسبَبِ وُقوعِ النّاسِ في الشِّركِ والمعاصي؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم، لعلَّهم يتوبونَ إلى اللّه تعالى، ويَترُكونَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

ظهورُ الفسادِ نتيجةُ أعمالٍ متواصلةٍ وأفعالٍ متراكمة

موقع قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ممّا سبقها هو موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ، بتقدير سؤالٍ عن سبب ما حلَّ بأولئك الأمم الذين أشركوا باللّه، ويجوز أن تقع هذه الآيةُ موقعَ التَّكملةِ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾، فتكونَ خبرًا مُستعملًا في التَّنديم على ما حَلَّ بالمُكذِّبين المُخاطَبين من ضُرٍّ؛ ليعلموا أنَّ ذلك عقابٌ منَ اللّه تعالى، فيُقْلِعوا عنه خشيةَ أن يُحيطَ بهم ما هو أشَدُّ منه، كما يُؤْذِن به قولُه عقبَ ذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

الفسادُ متوارٍ مختبئٌ ينتظرُ الإذنَ بالظُّهور

الظُّهور: خروج الشَّيء إلى حيثُ يقع الإحساسُ له، بمنزلة الإدراك[4]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بان، وبرز بعد الخفاء، وأُطلِقَ الظُّهور على حدوث حادث لم يكن، فشَبَّهَ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (كسب).
(2) الزَّمخشريّ، الكَشَّاف: 3/ 482، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 40، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 104.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 109.
(4) ابن فورك، تفسير ابن فورك، ص: 436.

ذلك الحدوثَ بعدَ العَدَم بظُهور الشَّيءِ الذي كان مُختفيًا بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وفي التَّعبير بالظُّهور هنا إشارةٌ إلى أنَّ هذا الفسادَ طارئٌ على هذه الأرض، ومُفيدٌ لكثرته وشيوعه[1]، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ الفسادَ ماكِثٌ في الأرض مختبئٌ، ينتظر الإذنَ بالظُّهورِ، فهو تنبيهٌ وتحذيرٌ ووعيد.

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي:

التَّحذيرُ من قُربِ وقوعِ الفسادِ لتحقيقِ التَّوبةِ والإنابةِ

مَحْمَلُ صيغةِ ﴿ظَهَرَ﴾ على حقيقتها مِنَ المُضي، وهو يقتضي أنَّ الفساد حَصَلَ، وأنَّه ليس بمُستقبل، فيكون فيه إشارةٌ إلى فسادٍ مُشاهَدٍ، أو محقَّقِ الوقوعِ بالأخبار المتواترة، وقد تُحمَل صيغةُ الماضي على معنى توقُّعِ حصولِ الفساد والإنذار به، فكأنَّه قد وقع، على طريقة ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1][2]، ففيه تحذيرٌ من أمرٍ قريبِ الوقوع.

تعريف لفظ ﴿ٱلۡفَسَادُ﴾:

شمولُ اللَّفظ لما يقع مِنَ الحوادث النّازلة والضَّلالات الواقعة

معنى ﴿ٱلۡفَسَادُ﴾: هو انتقاضُ الأمرِ بما يقع بِهِ الضُّرُّ، مِنَ الجَدْب والعَناء والزَّلزلة والوباء والحرْقِ والغرَقِ، والتَّعريف في اللَّفظ يُفيد عمومَ الفسادِ وشمولَهُ؛ لذا عُلِّق بظهوره في البرِّ والبحر، ففسادُ البَرِّ بحوادثَ مِنَ الخوف تمنع من سلوكه، وفساد البحر اضطراب أمره؛ حتَّى لا يكون للعباد مُتصرَّفٌ فيه، وكلُّ ذلك ليرتدعَ النّاس به[3].

احتمالُ لفظِ ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ الحقيقةَ والمجازَ:

الأولى حملُ اللَّفظ على الحقيقةِ؛ لاشتماله على معاني الحقيقة والمجاز

يحتمل لفظُ ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ الحقيقةَ والمجازَ، فذُكِرَ المَحلُّ، وهو ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ و﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾، وأُريدَ به الحالُّ، وهي البوادي وقُراها في البرِّ، فيكون مجازًا مرسلًا،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 112، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 529، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 157.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 112.

(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك، ص: 436.

ومُدن البحر وقُراه التي على شاطئه[1]، فيكون مجازًا على الحذف، والأولى من ذلك حملُ الكلامِ على حقيقته، أي: ظهر الفسادُ في البرِّ كلِّه فيما يُتوقَّع ظهورُه فيه، وما لا يُتوقَّع، وكذلك البحر، فيشملُ جميعَ أنواعِ الفساد الظّاهر والباطن، وقد ظهر الفسادُ في البحر بما كان فيه منَ الأعاصير المُدمِّرة، وما بلغته من أطراف المُدن والجُزرِ في وسط البحار، فشَمَلت المساكنَ والفُلكَ في البحار، وهذا أشدُّ في التَّهديد وأبينُ في الوعيد.

عِلَّةُ تقديم ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ على ﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾:

الفسادُ يعمُّ البَرَّ وذِكرُ البحرِ منَ التَّكميل في الوعيد

قُدِّم ذِكْرُ البَرِّ على البحر في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾؛ لكثرة ساكنيه من النّاس الذين يقع عليهم الفَسادُ، ولكون أكثرِ منافعهم ومصالحهم من معاشٍ وحركةٍ حاصلةً في البَرِّ، ولظهور الفساد في البَرِّ أكثرَ من ظهوره في البحر لمعظم البشر، فذِكْرُ البحر من باب التَّكميل والتَّتميم، لا من باب القِسمة المقتضية النَّصَفة، وهذا أشدُّ في وعيد المكذِّبين، وتهديد المشركين.

نوعُ الباءِ ومعناها:

احتمالُ العِوضِ والسَّببية بحسب تعيين المعاني

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ للعِوض، أي: جزاء لهم بأعمالهم، كالباء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30]، وإذا كان المقصودُ بالفساد الشِّركَ؛ فتكون الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾؛ للسَّببيَّة، أي: بسبب ما كسبت أيديهم، وكلُّ ما يعمله النّاسُ هو محسوب عليهم، مجزيّون به[2].

نوعُ (ما) ومعناها السّياقيُّ:

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ موصولةٌ،

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 208.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 111، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 529.

الـطّـاعـةُ كـالـشّـمـس في نفعِها والمعصيةُ كـالـلّـيـل في ظُلمتِها

وحُذِفَ العائدُ من الصِّلة، وتقديره: بما كسبته أيدي النّاس، أي: بسبب أعمالهم، وأعظمُ ما كسبته أيدي النّاس منَ الأعمال السَّيِّئة الإشراكُ، وهو المقصود هنا وإن كان الحُكمُ عامًّا، ويُعْلَم أنَّ مراتب ظهورِ الفساد حاصلةٌ على مقادير ما كسبت أيدي النّاس، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30][1].

ويحتمل أن تكون (ما) مصدريَّة، وهي لا تحتاج إلى عائد، ويكون المعنى: بكسب أيدي النّاس[2]، وفي التَّقديرين إشارةٌ إلى أنَّ الطّاعةَ كالشَّمس المنيرة، تنتشر أنوارُها في الآفاق، والمعصيةَ كاللَّيلة المُظلمة، فكما أنَّ اللَّيلة تُحيط ظُلمتها بالجوانب، فكذا المعصيةُ تتفرَّق شآمتُها إلى الأقارب والأجانب، فَهيَ من تأثيرات قَهْرِه تعالى[3].

بلاغةُ المجاز المُرسل:

الأيـدي عنـوانُ الـعـمـلِ ومـا دونَها فتابعٌ لها في بارقة الأمل

أُسنِد فعلُ الكسبِ إلى الأيدي في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾؛ لجريانه مجرى المَثل في فعل الشَّرِّ والسُّوءِ منَ الأعمال كُلِّها، دونَ خصوصِ ما يُعْمَل منها بالأيدي؛ لأنَّ ما يكسبه النّاسُ يكون بالجوارح الظّاهرة كُلِّها، وبالحواسِّ الباطنة مِنَ العقائد الضّالَّة والأدواء النَّفسيَّة[4]، ولكن لمّا كان أكثرُ الأفعال باليد؛ أُسنِد إليها ما يُراد به الجُملة[5]، فهو مجازٌ مُرسل بإطلاقِ الجُزءِ - وهو الأيدي - وإرادةِ الكلِّ - وهو الإنسان - والعلاقةُ جزئيَّة، فقد ذَكَرَ اليدَ، وأُريدت أعمالُ الإنسانِ كلُّها الظّاهرةُ والباطنة، دون خصوص ما يعمل منها بالأيدي؛ لأنَّ ما يكسبُه النّاسُ يكون بالجوارح الظّاهرة كُلِّها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 112.
(2) العثيمين، تفسير سورة الرُّوم، ص: 255.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 157.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 112.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 105.

نُكْتَةُ ذِكْرِ النّاس دونَ المشركين:

تنبيهُ عمومِ النّاس على خطورةِ إفسادِ بعضهم

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على نحو ما يجري في تعريف الفساد من عهد أو عموم، فالمعهود هم المُشركون، وقد شاع في القرآن تغليبُ اسمِ النّاس عليهم[1]، ويندرج عمومُ كُلِّ ما له أهليَّةُ التَّحرُّك[2]، فيكون من باب ذِكْر الكلِّ وإرادةِ الجُزء، وجاء استعمالُ لفظِ النّاس دونَ المشركين؛ لتنبيه عمومِ النّاس على أنَّ الفتنة والفسادَ إذا وقعا؛ فلا يُخَصّان.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

ذِكْــرُ العِلَّةِ الجَزائيَّة بعد ذِكْرِ العِلَّة البِدائيَّة

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ للتَّعليل[3]، وفيه تقريرٌ لتلك الحقيقة، وهي أنَّ ما يعمله النّاسُ، هو محسوب عليهم، مجزيّون به، من خير أو شَرٍّ[4]، فلمّا ذكرَ عِلتَّه البدائيَّةَ؛ ثنّى بالجزائيَّة[5].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الذَّوق:

تصويرُ ألمِ العذاب الدُّنيويِّ بذوق الطَّعام؛ للتَّنبيه على شديد العذاب الأُخرويِّ

لفظُ الإذاقة في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ استعارةٌ مكنيَّة، حيثُ شَبَّهَ ما يصيبُهم منَ الآلام، فيُحِسّون بها كإصابة الطَّعام حاسَّةَ المُطْعَم[6] في سُرعته وتحقُّقه، والذَّوقُ في الأصل يكون بالفم، وكَثُرَ استعمالُه في العذاب، يعني: أنَّ اللّه يُبطل عملَ المُفسدين بسبب سُوءِ صنيعهم؛ ليذيقَهم بعضَ جزاءِ ما عملوا منَ الذُّنوب والإعراض عن الحقِّ، ويُعذِّبَهم بالبأساء والضَّراء في الدُّنيا[7]، فإذا كان عذابُهم في الدُّنيا ذوقًا، فكيف بعذاب الآخرة.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

الجمع بينَ الجري على السّابق وإظهارِ العَظمة

قرأ الجمهور: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بالياء التَّحتيَّة، أي: ليذيقهمُ اللّهُ، على

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 112.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 105.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 111.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 530.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 105.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 113.
(7) يرجع في تفصيل هذه الاستعارة إلى الآية الأولى من هذه الصّفحة في الآية رقم: 33 من سورة الرّوم.

سُنن الجلالةِ الماضي، فمَعادُ الضَّمير قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، وقرأه قنبل عن ابن كثير بخُلْفه ﴿لِنُذِيقَهُمْ﴾، ورَوَح عن يعقوب بنون العَظمة: ﴿لِنُذِيقَهُم﴾؛ لإظهار العَظمة في الإذاقة للبعض، والعفو عنِ البعض[1].

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ ﴿بَعْضَ﴾:

عفو الله كثيرٌ وتمام الجزاء يقع في الآخرة

استُعمِل لفظُ ﴿بَعْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، دون أن يقول: (ليذيقهم الذي عملوا)؛ لبيان أنَّه لمّا كان ما عمله العصاةُ لا يصيبهم بعينه؛ تعيَّن أنَّ الذي يصيبهم بعضُ الذي عملوا، فأُطلق على جزاء العمل، ولذلك فالبَعضيَّةُ تبعيضٌ للجزاء، فالمُراد بعضُ الجزاءِ على جميع العمل، لا الجزاءُ على بعض العمل، أي: إنَّ ما يذيقهم مِنَ العذاب هو بعضُ ما يستحقُّونَه، وفي هذا تهديدٌ إن لم يُقْلِعوا عن مساوئ أعمالِهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]، ثُمَّ وراءَ ذلك عذابُ الآخرة، يُكْمَل لهم فيه العذابُ؛ لأنَّ تمام الجزاء في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه: 127][2]، مع ما فيه مِنَ الفضل والكرم والإحسان، فلم يَجْزِ النّاس بكلِّ ما عملوا من شرٍّ، بل ببعض ما كسبوا منه، حتّى يكون لهم من ذلك زاجرٌ يزجرهم، وأدبٌ سماويٌّ يأخذون منه العبرةَ والعِظَة، وليَرجعوا إلى اللّه من قريب، ويستقيموا على طريق الخير والإحسان[3]، ففي التَّعبير بالبَعضيَّة إشارةٌ إلى كرمه سُبحانه، فإنَّه يعفو عن كثير، إمّا أصلًا ورأسًا، وإمّا للمعاجلة به، ويُؤَخِّرُه إلى وقت ما في الدُّنيا، أو إلى الآخرة[4].

---

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 345، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 113، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 105.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 113.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 530.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 105.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصول:

التَّنبيهُ على أسباب العذابِ مُعينٌ على تركها

استعمل النَّظمُ الكريم الاسمَ الموصول ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ دون أن يقال: (بعض أعمالهم)؛ للإيماء إلى ما في الموصول من قوَّة التَّعريف، أي: أعمالَهم المعروفةَ عندهم، المُتَقرِّرَ صدورُها منهم[1]، ولبيانِ أنَّ ما أصابهم من ظهور الفساد سببُه أعمالُهم المعلومةُ.

براعةُ استعمالِ (لعلَّ) في سياق الوعيد:

قيَمُ الهدايةِ مبثوثةٌ لِثَني النّاسِ عن باطلِهم ودفعِهم إلى نجاتهم

ذَكَر النَّظمُ الكريم العِلَّةَ الغائيَّةَ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: ليكونَ حالُهم عند من ينظرهم حالَ من يُرجى رجوعُه عن فعل مثلِ ذلك، خوفًا مِن أن يُعاد لهم بمثل ذلك مِنَ الجزاء[2]، والتَّرجيَة المستفادَة من (لعل) تُشير إلى أنَّ ما ظهر من فسادٍ كافٍ لإقلاعهم عمّا اكتسبوه، وأنَّ حالهم حالُ من يُرجَى رجوعُه، فإن هم لم يرجعوا؛ فقد تبيَّن تَمرُّدُهم وعدمُ إجداءِ الموعظةِ فيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التَّوبة: 126][3].

غرضُ استعمالِ مفردةِ الرُّجوع:

تجديدُ الأوبة عند الإنسان من غايات نظم القرآن

المقصود بالرُّجوع في قوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، أي: مِنَ الغفلات وتتبُّع الشَّهوات، إلى تتبُّع الأوقاتِ إلى اللّٰه وطَلَبِه، والجهدِ في عبوديَّتِه وتعظيمِ الشَّرعِ، والتَّأسُّفِ على ما فاتهم مِنَ الحقِّ[4]، ففي المضارع دلالةٌ على تجديد التَّوبة والأوبةِ إلى اللّٰه، والاستمرار عليهما حتّى الممات.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 113.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 106.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 113.
(4) نجم الدّين، التَّأويلات النَّجمية، ص: 17.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرُّجوع والإياب والإنابة:

عمومُ الرُّجوع وخصوص الإياب بمنتهى القصد

الإيابُ: هو الرُّجوع إلى منتهى المقصد، والرُّجوع يكون لذلك ولغيره، فيُقال: رجع إلى بعض الطَّريق، ولا يُقال: آبَ إلى بعض الطَّريق، ولكن يُقال: رجع إلى منزله، ولهذا قال أهل اللُّغة: التَّأويب أن يمضيَ الرَّجلُ في حاجته، ثمَّ يعود، فيثبت في منزله[1]، فالتَّأويب الرُّجوع، ومبيتُ الرَّجلِ في منزله وأهله[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ الإيابَ الرُّجوعُ إلى منتهى القصد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كأنَّ القيامة منتهى قصدِهم؛ لأنَّها لا منزلة بعدها.

الرُّجوع عامٌّ والإنابة صفة مدح تكون في الطّاعة

وفي باب الطّاعة والمعصية يكون الرُّجوعُ عامًّا في الطّاعةِ والمَعصيةِ، بخلاف الإنابة؛ فهي الرُّجُوع إلى الطّاعَة، فلا يُقال لمن رَجَعَ إلى مَعصية: إنَّه أناب، والمُنيبُ اسْمُ مَدحٍ كالمؤمن والمُتَّقي[3].

(1) العَسْكَريُّ، الفُروقُ اللُّغويَةُ، ص: 303.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 219.
(3) العسكريّ، الفروق اللغويَّةُ: 302 - 303.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعظُ برُؤيةِ مَهلِك الأُمم مُترتِّبٌ على بُعْد الوعظِ بحكاية ما جرى لهم

بعد أن بيَّن النَّظمُ الجليلُ الآثارَ السّيِّئةَ التي تترتَّبُ على الكفر والمعاصي، يَلفتُ ﷻ نظرَ النّاس إلى سُوء عاقبةِ مَن ارتكس في الشّرك والظّلم، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، فلمّا وعظَهم بما أصابَهم من فساد الأحوال، وبيّن أنّها بسببِ ما كسبت أيديهم؛ أتبعَهُ بتنْبيههم على فسادٍ أعظمَ قد يحِلُّ بهم بسبب شِركِهم ومعاصيهم، كما حلّ بسابِقيهم، فأمرهم بالسّير في الأرض، والنّظرِ في مصير أولئك المشركين ممّن أُهْلِكَ وصار أثرًا يُعتَبرُ به(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَـٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلٌ يَدُلُّ على تَأخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا فَهُوَ عَقيبُهُ، كَقَوْلِك: خَلَفَ يَخْلُفُ، بِمَنْزِلَةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ إذا مَضى أحَدُهُما عَقَبَ الآخَرِ، وعاقَبْتُ الرَّجُلَ مُعاقَبَةً وعُقوبَةً وعِقابًا، وإنَّما سُمّيَتْ عُقوبَةً لِأنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ(2)، وعاقِبَةُ كُلِّ شَيْءٍ: آخِرُهُ، وفَعَلْتُ ذَلِكَ بِعاقِبَةٍ، كَما يُقالُ: بِآخِرَةٍ(3)، والعَقِبُ: مؤخَّر الرِّجْل، وعَقَبَهُ: إذا تلاه عقبًا، والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّان بالثّواب، نحو: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، والعاقبةَ إطلاقُها يختصُّ بالثّواب، نحو: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 114، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(3) الخليل، العين: (عقب).

[القصص: 83]، وبالإضافةِ قد تُستعملُ في العقوبة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10][1]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: آخِرُ أمرِهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فسادُ أحوالِ معيشةِ النّاسِ بسببِ الشّركِ تعريضٌ وتنبيهٌ من تَكرارِ وقوعِه

أمرَ اللّهُ تعالى به نبيَّه ﷺ بأن يقول للنّاس: "سيروا في الأرض سيرَ المُتأمّلين المُعتَبِرين، لِتَروا بأعينِكم كيف كانت عاقبةُ الظّالمين من قبْلِكم، لقد كانت عاقبتُهم الدّمارَ والهلاكَ؛ بسبب إصرار أكثرِهم على الشّرك والكفر، وانغماسِ فريقٍ منهم في المعاصي والفواحش"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الفصلِ في الآية:

الشّروعُ بترهيب المشركين والتّعريضِ بمصيرِ الأممِ المشركةِ قبلَهم

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنّها جملةٌ مستأنَفةٌ، فلمّا تقدّم وعظُهم بفساد أحوالِ عيشهم، وبيّن أنّ سببَه ما كسبت أيديهم، أتبعَ ذلك ببيانِ ما أصاب الأممَ السّابقةَ بسبب ما كانوا عليه منَ الشّرك؛ وذلك للتّعريض بهم بأنّ مصيرَكم مثلُهم، فالجملةُ مسوقةٌ للإنذار والتّرهيب من عاقبة الشّرك، فأمَرَهم بالسّير في الأرض لرؤيةِ ما حلَّ بالأمم التي أشركت وكذّبت، مثلَ عادٍ، وثمودَ، وقومِ لوط، وغيرِهم[4].

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿قُلۡ﴾:

دعوةُ النّاسِ للمُضيِّ في الأرض والاعتبارِ بمصارعِ الأمم

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل ﴿قُلۡ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون أن يقول: (سيروا في الأرض)؛ لتكون الدّعوةُ إلى ذلك تبليغًا منَ النّبيّ ﷺ، فيكونَ الأمرُ صادرًا منه ﷺ بأيّ لفظٍ كان، حاملًا دلالةَ المجاهرة والتّصريح، بأن يُطلَب منَ النّاس أن

(1) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 4/ 217.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 114.

يَنظروا ما في أنحاء الأرض من آثار الأقوامِ الذين أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وشِركِهم، وهذا يدلّ على شدّة الحثِّ على السّير والنّظرِ في الأرض؛ لِما له من أثرٍ كبيرٍ في النّاس، وموعظةٍ بليغةٍ لهم.

سرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿سِيرُواْ﴾؛ مادّةً وصيغةً:

المُضيُّ في جهات الأرض في كلِّ زمانٍ أدعى لتحقيق الاعتبارِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ السّير في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنّ السّير يَدُلُّ على مُضيٍّ وجريان، ليلًا ونهارًا[1]، وليس مُطلقَ المشي؛ فالمرادُ دوامُ المُضيّ في الأرض لتحقيق العِبرة بالوقوف على ما جرى للأمم السّابقة، والمُرادُ من السّير "ما يترتّبُ عليه من عظاتٍ وعِبَر، حتّى لا تكونَ عاقبةُ اللّاحقين كعاقبة السّابقين، في الهلاك والنَّكال"[2]، وإنّما أمرَهم بالسّير مع أنّهم كانوا يسيرون قبْلَ أمرهم بذلك؛ لأنّ سيرَهم في السّابق لم يكن بغرض الاعتبار، فالمقصودُ منَ الأمر بالسّير الاعتبارُ ورؤيةُ ما حلّ بالغابرين[3].

نُكْتَةُ تقييدِ السّيرِ بكونه في الأرض:

في كلّ جهات الأرض عِظةٌ وعِبرةٌ للمُعْتَبِر

قيّد النّظمُ الجليلُ السّيرَ بكونِه في الأرض في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدّلالة على استغراق جميعِ ديارِ الأمم التي أهلكها اللّهُ تعالى، وهذا يشيرُ إلى كثرة ديارِ المشركين؛ فهي قد عمّتْ كلَّ جهات الأرض، فأنّى سار المَرءُ واجه بقيّةً من آثارهم[4].

معنى الفاء في ﴿فَٱنظُرُواْ﴾:

الاعتبارُ بمصارعِ الأُممِ لا يقعُ إلّا بجهْدٍ وسَيْرٍ في جهات الأرض

عبّر النّظمُ الجليلُ بالفاء العاطفة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾ لِما فيها من دلالةٍ على التّعقيب[5]، فإنّ النّظرَ المُسَبِّبَ للاعتبار يقعُ بعد السّير، وهو مترتِّبٌ عليه، ومسبَّبٌ عنه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 173.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 106.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 107.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

النّظرُ والتّأمّلُ والإدراكُ أمرٌ يحثُّ عليه الدّينُ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالنّظر دون سواه في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ وذلك لأنّ النّظر هو تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشّيءِ ورؤيَتِه، ويدلّ أيضًا على التَّأمُّلِ والفَحْصِ، وعلى المعرفةِ الحاصلةِ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، يقال: نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ، أي: لم تَتَأمَّلْ ولم تَتَرَوَّ[1]، فالأمرُ بالنّظر يُرادُ منه تقليبُ البصرِ والفكر بتروٍّ وتأمّلٍ؛ لإدراك العِبرة من آثار الأقوامِ، وتحقيقِ الانتفاع، وجاء به بصيغة الأمر؛ حثًّا لهم وتعليمًا وترغيبًا، وهو يبيّنُ مكانةَ النّظر والتّفكّر والتّأمّلِ لتحقيق الإدراكِ.

دلالةُ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

شدّةُ الحالِ وكيفيّةُ نهايةِ الأقوامِ وسُوءُ مصيرِهم رادعٌ للنّاسِ عنِ الشّرك

عبّر النّظمُ الجليلُ بالاستفهام عنِ الكيفيّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالة على الحال الذي كان في نهاية عاقبتِهم، فلمّا كان ما حلَّ بهم في غاية الشّدّةِ، عبّر باسم الاستفهام الدّالِّ على الكيفيّة؛ تخويفًا لهم وترهيبًا من حلول مصيرِ السّابقين بهم[2]، فالاستفهامُ دالٌّ على عِظَم الجزاء الذي حلَّ بهم، وشدّةِ الحالِ الذي صاروا إليه.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿كَانَ﴾ مادّةً وصيغةً:

العذابُ للمشركين وسُوءُ العاقبةِ سنّةٌ ثابتةٌ وحقيقةٌ كونيّة

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بفعل الكون بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ تفخيمًا لشأن تلك العاقبةِ وتهويلًا لها؛ وذلك للإشارة إلى أنّها كانت استحقاقًا لهم، ثابتةً عليهم منذ أن وُجِدَ الشّركُ فيهم، فعاقبةُ الشّركِ والكفرِ راسخةٌ في سُنَن اللّه تعالى في خَلْقه.

(1) الرّاغب، المفردات: (نظر).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 107.

نهايةُ الأمرِ هو موطنُ الاتّعاظِ فلا يغترَّ أحدٌ بحُسْن الحالِ

علّةُ التّعبيرِ بلفظِ العاقبةِ:

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ العاقبةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالة على نهاية أمرِهم[1]، فالعِظَة حاصلةٌ بما آل إليه أمرُهم، وما كان عليه مصيرُهم، وأنّ العذاب الواقعَ عليهم إنّما وقع عقبَ كفرهم وإصرارِهم على الشّرك، فمَوطنُ العِظَة هو نهايةُ الأمر، فهو يتضمّن إشارةً إلى المشركين أن لا يَغترّوا بحُسْنِ حالهم الآن، فإنّ العبرةَ في الخواتيم.

إدراكُ عاقبةِ المُهلَكين أبلغُ موعظةٍ لِنبذِ الشّركِ

فائدةُ إضافةِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ إلى الاسم الموصول:

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ العاقبة إلى الاسم الموصول في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾ لتقييد العاقبة، فليس المُرادُ مُطلقَ عواقبِ الأمم، بل المرادُ عاقبةُ أقوامٍ يُنتفعُ من ذِكْر عواقبِهم في الوعظ والتّرهيب، وهم قسمٌ منَ النّاس لا كلُّ النّاس، فقيَّد عمومَها بإضافتها إلى الاسم الموصول.

المقصودُ بالنّظر فئةٌ منَ الأممِ صاروا عبرةً للمُعتبِرين

سرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ عنِ الأمم المُهلَكة بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ وذلك لأنّهم بعضٌ منَ الماضين، لا كلُّهم، فالمُرادُ أنّهم طوائفُ محدّدةٌ معروفةٌ مُعيَّنةٌ، وهمُ الذين أُهلِكوا وعُذِّبوا[2].

الأممُ السّابقةُ لم تَستغرقْ كلَّ الزّمان الماضي بل بعضَه

دلالة ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ وذلك لأنّ الأمم السّابقةَ لم تستغرق كلَّ الزّمان الماضي، بل بعضَه[3]، فزمانُ عاقبتِهم هو بعضُ الزّمان الذي قبلَ زمانكم، فهو إشارةٌ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 114.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 107.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 107.

أنّ العاقبة كانت في عهدٍ قريب، يتذكّرُها النّاس في مَرويّاتهم، وتحفظُ الأرض آثارَ مَهلكِهم.

إهلاكُ الأممِ السّابقةِ عريقٌ في القِدمِ وشواهدُه مبثوثةٌ في الأرجاء

رأيُ جمهورِ النّحويّين أنّ (مِن) الدّاخِلَةَ على (قبل) و(بعد) هي لابتداء الغايَة، وزعم ابْنُ مالك أنّها زائِدَة[1]، وعلى هذا يمكنُ أنْ تفيد ﴿مِن﴾ في سياق الآية العراقةَ في القِدَم؛ لأنّ الابتداءَ يدلّ على أنّه حصل من أوّل اللّحظات، على أنْ لا ينفيَ ذلك قُربَ العهد؛ ليكونَ أدلَّ على العِظة والاعتبار، أمّا زيادتُها فتفيدُ التّأكيدَ؛ لأنّ الظّروف إذا حُدّتْ حُقّقتْ، لتشير إلى استغراق ديارِ المُهلكين كلَّ حدّ ما حولَهم منَ الجهات.

سرُّ الفصلِ في جملة ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾:

علّةُ هلاكِ الأممِ هي الغايةُ منَ البيان

فَصَل النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾؛ لأنّها مستأنَفةٌ استئنافًا تعليليًّا؛ فهي مُساقةٌ لبيان علّة عاقبةِ الذين من قبلُ، فسببُ تلك العاقبة هو إشراكُ الأكثرين منهم، فيعلمَ السّامعون أنَّ أكثر تلك الأمم التي شوهدت عاقبتها الفظيعة كان من أهل الشِّرك، فتعلمون أنَّ سبب حلول تلك العاقبة بهم هو شركهم[2].

سرُّ تكرار الفعلِ ﴿كَانَ﴾:

سَبْكُ الكلامِ بتكرار فعلِ الكونِ يؤكّدُ علّةَ الهلاك

كرّر النّظمُ الجليلُ فعلَ الكونِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾؛ وذلك لسبْكِ الجملتَيْن في سياقٍ واحدٍ، فالتّكرار لربطِه وإخراجه مخرجًا واحدًا؛ فلو قال: (أكثرهم مشركين) بعد قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾، لم يتبيّن أنّها متعلّقةٌ بسابقتها، فينتقضُ السّبكُ بين الكلام، كما أنّه يُشير إلى تأكيد رسوخِ صفةِ الشّرك في أكثرهم.

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 429.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 114.

أكثرُ المُهْلَكين مشركون وبعضُهم مكذّبون

فائدةُ التّعبيرِ ﴿أَكۡثَرُهُم﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الأكثريّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الأمم المُهْلَكين لم يكونوا كلُّهم منَ المشركين، بل إنّ بعض المُهْلَكين إنّما كان هلاكُهم بسبب الكفر والعناد، كأهل مدينَ[1]، فدلّ "على أنّ الشّرك وحدَه لم يكن سببَ تدميرهم، وأنّ ما دونه منَ المعاصي يكون سببًا لذلك"[2].

تأليهُ الأوثان صفةٌ راسخةٌ في المشركين

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ﴿مُّشۡرِكِينَ﴾ مادّةً وصيغة:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الشّرك في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم أثبتوا شريكًا للّه تعالى، وقرنوا الأوثانَ به تعالى، وهو ضِدُّ الانفراد والتّوحيد[3]، وذِكْرُ الشِّرك يبيّنُ العِلّة التي بسببها أُهْلِكوا واستؤصلوا، وجيء به بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على رسوخ صفةِ الشّرك بهم، فهم أقوامٌ عريقون في الشّرك، وجمعُه يناسبُ لفظَ الأكثريّة المُصرَّحِ بها في السّياق.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّير والمشي:

المشيُ حركةٌ للانتقال من مكان إلى آخرَ والسّيرُ دوامُ الحركةِ للمُضيّ في الأرض

السَّيرُ أصلُه يَدُلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ، يُقالُ: سارَ يَسيرُ سَيْرًا، وذَلِكَ يَكونُ لَيْلًا ونَهارًا[4]، فالسَّيْرُ: المُضيّ في الأرض، ورجل سائِرٌ، وسَيّارٌ، والسَّيّارَةُ: الجماعة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: 19]، وقولُه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 69] حثٌّ على السّياحة في الأرض بالجسم، وقيل: حثٌّ على إجالة الفِكر، ومراعاةِ أحوالِه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 114.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 483.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شرك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(5) الرّاغب، المفردات: (سار).

أمّا المشيُ فأصلُه يَدُلُّ على حَرَكَةِ الإنْسانِ وغَيْرِهِ[1]، وهو: الانتقالُ من مكان إلى مكان بإرادةٍ[2]، فلمّا كان المرادُ هو الحركةَ في الأرض لرؤية آثار الأقوامِ الهالكة، وكان ذلك يتطلّبُ جَريانًا دائمًا ومضيًّا في الأرض وسياحةً فيها، جاء التّعبيرُ بالفعل ﴿سِيرُواْ﴾.

العاقبة والنّهاية والمآل والمصير:

النّهايةُ مُطلقُ الانتهاء والعاقبةُ نهايةٌ مُترتّبةٌ على فعلٍ ما جزاءً له

النِهايةُ: الغايةُ، يُقال: بلغَ نِهايَتَهُ[3]، أمّا العاقبةُ فأصلُها من تَأخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه[4]، وعاقِبَةُ كُلِّ شَيْءٍ: آخِرُهُ، وفَعَلْتُ ذَلِكَ بِعاقِبَةٍ، كَما يُقالُ بِآخِرَةٍ[5]، والعاقِبةُ إطلاقُها يختصُّ بالثّواب، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تُستعملُ في العقوبة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10][6]، أمّا المصيرُ: فهو من (صار)، يقال: صارَ إلى كذا: انتهى إليه، ومنه: صيرُ البابِ لِمَصيرِهِ الذي ينتهي إليه في تنقّله وتحرّكِه، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشّورى: 15][7]، وصيورُ الأمر: آخِرُه وما يؤولُ إليه[8]، فهو يدلّ على التّحرّك والتّنقّل بلوغًا إلى النّهاية المحدّدة، أمّا المآلُ: فهو من (أوَلَ)، وأصلُه ابْتِداءُ الأمْرِ وانْتِهاؤُهُ، وآلَ يَؤولُ، أيْ: رَجَعَ، يُقالُ: أوَّلَ الحُكْمَ إلى أهْلِهِ، أيْ: أرْجَعَهُ ورَدَّهُ إلَيْهِمْ[9]، والموئِلُ: المرجِع، وهو موضعُ الرّجوع، والمآل: مَفعل منه كالمقام[10]، فالمآل: موضعٌ محدّدٌ يُرجَع إليه، فهو نهاية الرّجوع، أوِ الرّجوع إلى الموضعِ الأصلِ، فلمّا كان الجزاء مترتّبًا عن إساءتهم كان ذلك عاقبةً؛ فالعاقبةُ أخصُّ منَ النّهاية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مشي).
(2) الرّاغب، المفردات: (مشى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نهى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) الخليل، العين: (عقب).
(6) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(7) الرّاغب، المفردات: (صير).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (صير).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(10) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أول).

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ [الرّوم: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّحذيرُ من مهالكِ الأممِ مَتبوعٌ بالأمرِ بالثّباتِ على المنهاجِ القويمِ

بعد أن حذّر النّظمُ الجليلُ الكافرين والمشركين منَ البقاء على حالة الكفر والشّرك؛ خيفةً أن يحلّ بهم سُوءُ العذاب، أتبَعه بأمر النّبيّ ﷺ ومَن تبعه بالثّبات على دينهم القويم، وعبادتِهمُ الواحدَ الأحدَ، قبل أن يأتيَ يومُ الحساب[1]، فلمّا ذكر ما جرى للسّابقين بأن صارت ديارُهم آثارًا للمتّعظين، توجَّه بالخطاب إلى مَن ينتفعُ بالوعظ والإرشاد، فتسبّبَ عن ذِكر تلك المواعظ الأمرُ بإقامة الدّين والثّباتِ عليه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَقِمۡ﴾: (قوم) أصلٌ يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[3]، والقيامُ على أضرُبٍ؛ قيامٌ بالشّخص إمّا بتسخير أوِ اختيار، وقيامٌ للشّيء: وهو المراعاةُ للشّيء والحفظُ له، وقيامٌ هو على العزم على الشّيء، ومِنَ القيامِ الذي هو العزمُ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، وقولُه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55] أي: يديمون فعلَها ويحافظون عليها[4]، وذلك بأنّهم يؤدّونَها مُقوَّمةَ الأركانِ والسّنَنِ، غيرَ مُخلّين بشيءٍ منها، مِنْ أقامَ الأمرَ: إذا أتى به على أكمل هيئاتِه[5].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 57.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 107 - 108.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قوم).

2) ﴿مَرَدَّ﴾: (مرد) أصلٌ يدلّ على رَجْعِ الشَّيْءِ[1]، والرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيْءِ ورَجْعُه، وهو مَصْدَرُ رَدَدْتَ الشَّيْءَ، ورَدَّهُ عَنْ وجْهِهِ يَرُدُّه رَدًّا ومَرَدًّا وتَرْدادًا: صَرَفَهُ، وأمرُ اللّٰهِ لا مَردَّ لَهُ، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الشّورى: 47] يَعْني: يَوْمَ القيامَةِ؛ لأنّه شيءٌ لا يُرَدّ[2]، الرَّدُّ: صرفُ الشّيء بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، يقال: رَدَدْتُه فارْتَدَّ، فمنَ الرّدّ بالذّات قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومنَ الرّدّ إلى حالة كان عليها قولُه: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149][3]، وقولُه: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]، أي: لا دافعَ ولا مانعَ ولا صارف[4]، والمَردُّ: مصدرٌ ميميٌّ منَ الرّدّ، والمُرادُ به: الدّافع، أي: لا دافعَ له عنِ المجيء، ولا مانع، ولا صارفَ[5].

3) ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: (صدع) أَصْلٌ يَدُلُّ على انْفِراجٍ في الشَّيْءِ، والصَّدْعُ: النَّباتُ؛ لِأَنَّهُ يَصْدَعُ الأَرْضَ، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ [الطّارق: 12][6]، والصَّدْعُ: الشَّقُّ في الشّيءِ الصُّلْبِ، كالزُّجاجةِ والحائِطِ وغَيْرِهِما، وجَمْعُهُ صُدوعٌ؛ وصَدَعَ الشّيءَ يَصْدَعُه صَدْعًا، وصَدَّعَه فانْصَدَعَ وتَصَدَّعَ: شَقّه بِنِصْفَيْنِ، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: يَتَفَرَّقُون فَيَصيرُونَ فريقَيْنِ، فَريقٌ في الجَنَّةِ وفَريقٌ في السَّعيرِ، وأصلُها: يَتَصَدَّعُون، فَقُلِبَت التّاءُ صادًا وأُدغمت في الصّادِ، وكُلُّ نِصْفٍ مِنْهُ صِدْعةٌ[7]، وتَصَدَّعَ القومُ، أي: تفرّقوا[8]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: يتفرَّقُون[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى لنبيّه الكريم ﷺ إنَّ الأمر إذا كان كما ذكرْنا لكَ من سُوء عاقبةِ الأشرار، وحُسْنِ عاقبةِ الأخيار، فاثْبُتْ على هذا الدّين القويم، ووجِّهْ وجْهَكَ نحوَ الوجهِ الذي وجَّهك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(3) الرّاغب، المفردات: (رد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ردد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 115.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (صدع).
(8) الرّاغب، المفردات: (صدع).
(9) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.

المبادرةُ بالثّباتِ على الدّين المستقيم قبلَ حلولِ يوم القيامة

إليه ربُّكَ، والذي أوحاه إليك، وهو الدّينُ القَيِّمُ، والمِلّةُ المستقيمةُ التي لا اعوجاجَ فيها عنِ الحقِّ، من قبْلِ مَجيء يومِ القيامة الذي لا يَقْدِر أحدٌ على منعِ مجيئِه أو دفعِ عذابه؛ لأنّ اللّه قد قضى بمجيئه، ويومَ يجيءُ ذلك اليومُ يتفرّق النّاسُ فرقتيْن؛ فريقٌ في الجنّة، وفريقٌ في السّعير، والمعنى: اثْبُتْ على هذا الدّين، من قَبْلِ أن يأتيَ يومُ القيامة، الذي يَتفرّق فيه النّاسُ إلى فريقيْن[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَأَقِمۡ﴾:

إقامةُ الدّينِ والثّباتُ عليه علامة عباد الله الصّالحين

افتتح النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بالفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ وهي هنا تفريعيّةٌ؛ فبعد أن ذَكَر التّحذيرَ من عاقبة الشّرك؛ فرّع عليه تثبيتَ النّبيّ ﷺ على أمر الشّريعة والتّوحيد، مع التّعريض بنقيض الشّرك، وهو طريقُ الخلاص منَ العذاب، وذلك باتّباع الدّين الحقّ[2].

دلالةُ الأمرِ ﴿فَأَقِمۡ﴾:

تأكيدُ الأمرِ بالثّباتِ وطلبُ الدّوام على التّوحيد المعهود

عبّر النّظمُ الجليلُ بفعل الأمر ﴿فَأَقِمۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ للدّلالة على تأكيد الثّباتِ على الحقّ، بعد أن قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾ [الرّوم: 30]، فهو تأكيدٌ للكلام السّابق، فبعدَ بيانِ عاقبة الشّرك حَسُنَ تأكيدُ الأمر بالثّبات على هذا الدّين القويم، أي: اثبتْ عليه ولا تتحوّلْ عنه إلى جهةٍ ما[3]، والنّبيُّ ﷺ لا يُتصوّر منه خلافُ المأمور به، وإنّما جاء الأمر بذلك طلبًا للدّوام على ما هو عليه، وتوجيهًا له بأن لا يهمَّه إعراضُ الكافرين عنه[4]، فهو تثبيتٌ للنّبيّ ﷺ، وتسليةٌ له.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 110 - 111، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 114 - 115.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.

بلاغةُ المجازِ في الأمرِ بإقامةِ الوجه:

إحكامُ دينِ الاسلامِ يُلزم النّفسَ بالتّقويم والتّمسكِ بطريقه القويم

عبّر النّظمُ الجليلُ بإقامة الوجه للدّين في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾؛ مجازًا عنِ الإقبال على الدّين، فإنّ إقامة الوجه تعبيرٌ عن تقويمه وتعديله، بحيثُ ينظرُ إلى الأمام غيرَ مُلتفتٍ يمينًا ولا شمالًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 29]، وقوله حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 79]، فهو يدلّ على الإخلاص للّه تعالى[1]، والتّعبيرُ به يدلُّ على شدّة الحضور وتركِ الانصراف عنه إلى غيره، وتخصيصِ الاشتغال به دونَ سواه.

سِرُّ تخصيصِ الوجهِ بالذِّكْر:

الإقبالُ بالكلّيّة أمارةُ التّسليمِ المُطلقِ

أسندَ النّظمُ الجليلُ الإقامةَ للوجه دون الذّات في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾، دون أن يقول: (فاستقم للدّين)، فخصّ الوجهَ بالذِّكر؛ وذلك للدّلالة على شدّة الأمر بالتّوجّه إلى اللّه تعالى، والاستقامةِ على دينه، والاهتمامِ بأسباب ذلك؛ لأنّ مَنِ اهتمّ بشيء فإنّه يثبِّتُ طرفَه إليه، ويُسدّد نظرَه نحوَه، ويُقوّمُ له وجهَه[2]، وخُصّ الوجهُ بالذِّكر لأنّه أشرفُ ما في الإنسان، فجُعِل الإقبالُ بالوجه دليلًا على الإقبال بالكلّيّة، ولأنّه قائدُ الشّخص، فحيثما اتّجه الوجهُ كان مسيرُ صاحبه.

دلالةُ الإضافةِ إلى المُخاطَبِ في ﴿وَجۡهَكَ﴾:

خطابُ النّبيِّ ﷺ خطابُ تشريفٍ للأمّة

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الوجه إلى ضمير المخاطَب في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾، والمُرادُ به النّبيُّ ﷺ[3]؛ وذلك لتشريف ذِكر وجهِه ﷺ، فجَعَلَ الخطابَ المقصودَ به الأُمّةُ مضمّنًا بضمير المخاطَب المفرد؛ لبيان عظَمة المأمور به، وشدّةِ وجوبه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 409.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 139.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 263.

والهابًا لنفوس المؤمنين باتّباع الأمرِ الذي وُجِّه إلى نبيِّهم أصالةً، وإليهم تبعًا.

معنى اللّام في ﴿لِلدِّينِ﴾:

الاستقامةُ مطلوبةٌ على وجه الإخلاصِ لله تعالى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾، وهي هنا صالحةٌ أن تكون دالّةً على التّعليل؛ أي: إنَّ الاستقامة لأجل الدّين، "أي: أخلصْ دينَك لله"[1]، فالإخلاصُ في الدّين يكون لأجل الله وتوحيدِه، وصالحةٌ أن تكون بمعنى الغاية، "أي: إلى الدّين البليغِ الاستقامة الذي ليس فيه عوج أصلًا، وهو دينُ الإسلام"[2].

نوعُ (أل) في ﴿لِلدِّينِ﴾ ودلالتُها:

عرّف النّظمُ الجليلُ الدّينَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ تعريفَ العهد؛ لأنّ الدّين المأمورَ بإقامة الوجه إليه هو دينُهم الذي هم عليه، وهو الإسلامُ[3].

سرُّ وصفِ الدّين بالقيّم؛ مادّةً وصيغةً:

الإسلامُ دينُ استقامةِ النّاس وصلاحِ حياتهم

وصف النّظمُ الكريمُ الدّينَ بصفة القيّم في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾؛ لدلالة القيام على الحفظ والمراعاةِ للشّيء[4]، فالدّينُ حافظٌ لأمور النّاس وصلاحِ حياتهم، فعبّر بذلك للدّلالة على استقامته وخُلُوّه مِن الاعوجاج، فهو الدّينُ الذي لا يأتي فيه عوجٌ، وهو الإسلامُ[5]، وجاء التّعبيرُ عنه بصيغة (فيعل) وهو صفةٌ مشبّهةٌ بمعنى المستقيم، وأصلُه (قيوم)، فأُعِلّ بالقلب[6]؛ وذلك للدّلالة على

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 409.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 161، والقنّوجيّ، فتح البيان: 10/ 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.
(4) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(5) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 258.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 5/ 335.

المبالغة في استقامته وعدالتِه، أي: هو الدّينُ البليغُ في الاستقامة[1]، فهو خالٍ من أيّ اعوجاجٍ ينفي صلاحَه للنّاس.

معنى ﴿مِن﴾ وسرُّ ذِكْرِها:

الاستقامةُ لا تُؤخَّر ومن رحمة الله بعباده قَبولُه اليسيرَ منهم

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، وهي هنا ابتدائيّةٌ؛ أي: يجب الثّباتُ على الإسلام في زمان يبدأُ قبلَ مجيءِ يوم القيامة، فلا ينبغي تأخيرُ الاستقامة بالتّسويف والإرجاء؛ بلِ المطلوبُ البدارُ بالاستقامة والتّمسّكِ بمنهج الإسلام القويم، وجَعَلَه الإمامُ البقاعيُّ منَ التّبعيض، وذلك إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى يرضى "باليسير منَ العمل، ولو كان ساعةً من نهارٍ، بشرطِ الاتّصال بالموت"[2].

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِن قَبۡلِ﴾:

الاستقامةُ واجبةٌ في كلّ آنٍ مقبولةٌ حتّى قبلَ حلولِ الأجل

علّق النّظمُ الجليلُ إقامةَ الوجه للدّين بشبْه الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ وذلك للدّلالة على وجوب الاستقامة في أيّ زمانٍ كان منَ العُمُر، حتّى لو تأخّر إلى آخر ساعةٍ قبلَ الموت، وهذا يدلّ على سَعَة رحمتِه تعالى بأن يقبلَ من عباده مهما قلّ زمانُ توجّههم إليه[3].

نُكْتَةُ إيثارِ الإيتاء، والتّعبيرِ عنه بالمصدر المؤوّل:

يومُ القيامةِ يقتربُ زمانُه فهو في مجيءٍ دائمٍ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المؤوّل دونَ المصدر الصّريح في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾؛ للإشعار بمَرّ الزّمان الذي يُعبّر عنه الفعلُ المضارع، فيومُ القيامة مستمرٌّ بالإتيان، وهو أقربُ إلى النّاس بعد كلّ آنٍ يَمرُّ بهم، فضلًا عن أنّ المُراد في السّياق التّنبيهُ، بأنّه آتٍ حسبُ، دونَ بيانٍ لكيفيّة هذا الإتيان، وهذا المعنى يَفوتُ لو عَبَّر بالمصدر الصّريح، وقد عبّر بالإتيان دونَ المجيء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 108.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 108.

للدّلالة على أنّ يوم القيامة مهما طال الزّمان فهو آتٍ بيُسرٍ؛ إيماءً إلى سرعة مجيئِه بانتفاء العوائق والموانعِ دونَه.

دلالةُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٞ﴾:

يـومُ القـيامةِ للـحسابِ يـومٌ جليلٌ عظيمٌ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ اليوم بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ لِما في التّنكير من دلالةٍ على التّعظيم والتّفخيم، فهو يومٌ جليلُ القدر عظيمُ الشّأن.

سرُّ وصفِ اليومِ بكونِه ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾:

يومُ القيامة أمرٌ مقطوعٌ وقوعُه لا يـردُّه أحدٌ إلّا الله تعالى

وصفَ النّظمُ الجليلُ اليومَ بالجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ للدّلالة على انتفاء القدرة عن ردّه، فيومُ القيامة لا يقدر أحدٌ على ردّه إلّا اللّه تعالى وحده[1]، وفائدةُ هذه الصّفة تأكيدُ حتميّةِ مجيءِ ذلك اليوم، فوقوعُه حاصلٌ بدون أن يتلبّس به أيُّ شكّ، فلا يوجد أحدٌ قادرٌ على ردّه.

دلالة النفي في قوله: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾:

مـجـيءُ يـومِ الحسابِ حتميٌّ لا يُردُّ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ النّفيَ بـ ﴿لَّا﴾ الدّالّةِ على نفي الجنس في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ وذلك لتأكيد نفيِ وجودِ المَردّ منَ الأصل، فنفيُ جنس المَردِّ - فضلًا عن نفيِ الوحدة - تعبيرٌ عن حتميّة مجيئِه ووقوعِه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَرَدَّ﴾؛ مادّةً وصيغةً:

معنى الرّدّ ليوم القيامة غيرُ واردٍ منَ الأصل

عبّر النّظمُ الجليلُ بالمصدر الميميّ ﴿مَرَدَّ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ للدّلالة على أنّه إذا جاء لا يَردُّه عنِ المُجازَيْنَ به رادٌّ[2]، والتّعبيرُ بالمصدر الميميّ يدلّ على قوّة المعنى، فنَفَى المَردَّ ولم يَنفِ الرّادَّ؛ لأنّ نفيَه أبلغُ في الدّلالة على وجود مَن يحولُ دونَ وقوعِ ذلك اليوم، فهو ليس له مَردٌّ منَ الأصل، فأنّى يكون له رادٌّ؟!.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 115.

وجهُ التّعبيرِ بشبْهِ الجملة ﴿لَهُۥ﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بشبْه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ مُسنَدًا لاسم ﴿لَّا﴾ النّافيةِ للجنس[1]؛ لتخصيص اليومِ بنفي المَردّ، إذ لو لم يُذْكَرْ لأوهَمَ إطلاقَ نفي المَردّ، وتعميمَه لكلّ شيء.

تخصيصُ اليومِ بنفي المَردّ

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱللَّهِۖ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: ابتدأ أمر مجيئِه منَ اللّه تعالى، فالجارُّ والمجرور متعلّقان بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾، أي: إنَّ هذا اليومَ إذا جاء لا يَرُدّه أحدٌ؛ لأنّه آتٍ منَ اللّه تعالى[2].

الأمرُ بمجيءِ ذلك اليوم صادرٌ منَ الله تعالى الذي لا تُردّ كلمتُه

دلالةُ التّصريحِ بلفظِ الجَلالةِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسم الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾؛ لتفخيم أمرِ مجيءِ اليوم، وتأكيدِ حصولِه لصدور الوعدِ به منَ اللّه تعالى، وفي تفخيم أمرِ المجيء تأكيدٌ لانتفاء ردِّه؛ فمَن ذا الذي يَردُّ ما أمرَ اللّهُ تعالى بمجيئِه[3].

ما أمرَ به ذو الجلالِ تأكّدَ وقوعُه بلا احتمالٍ

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ عمّا قبلها:

فَصَل النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ لأنّها جملةٌ مسوقةٌ لبيان أحوالِ النّاس في ذلك اليوم[4]؛ فهي جملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فلمّا أخبرَ بأنّ مجيءَ ذلك اليوم أمرٌ مقطوعٌ به، فكأنّه قيل: كيف سيكون النّاس يومئذٍ؟ فقيل: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: إنّهم سيتفرّقون.

الإخبارُ عن حتميّةِ مجيءِ اليومِ يُثير تساؤلًا عن أحوال النّاسِ فيه

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1787.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 115.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 109.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 93.

دلالةُ الحذفِ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

حذفُ المضافِ أدعى للإيجاز

حذفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ المضافة إلى (إذ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾، وأُشيرَ إليه بتنوين العوض، والتّقديرُ: يومَ إذ يأتي ذلك اليومُ يصّدّعون؛ وساغ الحذفُ لوجود دليلٍ مقاليٍّ عليه، وهو أدعى للإيجاز.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ مادّةً وصيغةً:

ينقسمُ النّاسُ إلى فريقٍ في الجنّة وفريقٍ في السّعير

عبّر النّظمُ الجليلُ عن تفرّق النّاس يومَ القيامة بلفظ التّصدّع في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ وذلك للدّلالة على شدّة التّفرّقِ بينهم يومئذٍ؛ لأنّ الصَّدْعَ هو الشّقّ، وإنّما يكون في الأجسام الصّلبة كالزّجاج والحديد ونحوهما[1]، فيدلُّ ذلك على ظهور الشّقّ في الجسم الصّلب ظهورًا مُدركًا، فعبّرَ به لبيان تمايُزِ النّاس إلى فريقيْن: أهلِ الإيمان، وأهلِ الكفر والعصيان، ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشّورى: 7][2]، وجاء التّعبيرُ عنه بصيغة الفعلِ المضارع لتصويرِ الحدثِ واستجلابِ الصّورة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّدع والشّقّ:

الصّدعُ فَصْلُ خِلالِ الشّيء وتفريقُه والشّقُّ صدعٌ شديدٌ فالشّقُّ أخصُّ من الصّدع

الصّدعُ شَقٌّ دقيقٌ يفصلُ الشّيءِ الصّلبِ، أوِ الملتحمَ ويخترقُه، صَدَعَ الشّيءَ: شَقَّهُ، ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: 21]، وصدع الغَنَمَ صِدْعَتَين، أي: فِرْقتين، ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾، أي: يتفرّقون[3].

أمّا الشّقُّ: فيَدُلُّ على انْصِداعٍ في الشَّيْءِ[4]، وهو الخَرْمُ الواقعُ في الشّيء، يُقال: شَقَقْتُه بنصفَين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا

(1) الرّاغب، المفردات: (صدع).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (صدع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).

﴿٢٦﴾ [عبس: 26]، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الحاقة: 16][1]، فالشّقُّ صدعُ الشّيء الشّديدِ صدعًا نافذًا إلى عمقه، كصدع العود والحائط والزّجاجة، وكما يصدعُ النّبتُ والنّابُ ما يغطّيهما، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس: 26][2]، وعليه: فإنّ الصّدع هو فصلُ خِلالِ الشّيء وتفريقُه، أمّا الشّقُّ فهو صدعٌ شديدٌ، فالشّقُّ أخصُّ منَ الصّدع، وعبّرَ في الآية الكريمة هنا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ بلفظ الصّدعِ للدّلالة على تفرّقِهم يومَ القيامة، وانفصالِهم إلى فرقتيْن.

(1) الرّاغب، المفردات: (شق).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل: (شقق).

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾ [الرّوم: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ الإخبارِ عن تفرّق النّاسِ يومَ القيامة بيَّنَ ما يحلُّ بهم في ذلك اليوم

بعد أن أمرَ تعالى بإقامة الدّين والثّباتِ على التّوحيد، وحذّر من يوم القيامة الذي يتفرّقُ فيه النّاسُ؛ أتبعَه ببيانِ حال النّاسِ في ذلك اليوم، وجزاءِ كلّ فريقٍ منهم[1]، ومنَ المناسبة: أنّه لمّا ذكرَ التّفرّقَ في ختام الآيةِ السّابقة؛ أتبعَه ببيانِ إلى أين يكونُ التّفرّقُ بين النّاس في ذلك اليوم، فذكر أنّ منهم في الجنّة، ومنهم في السّعير[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡهَدُونَ﴾: (مهد) أصلٌ يدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ المَهْدُ، ومَهَّدْتُ الأَمْرَ: وطَّأْتُه، وتَمَهَّدَ: تَوَطَّأ، والمِهادُ: الوطاءُ مِنْ كُلِ شَيْءٍ[3]، وأصلُ المَهْد: التَّوْثيرُ، ومنه يُقالُ للفراشِ: مِهادٌ لِوثارَتِه، وقَدْ مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا: بَسَطْتُه، ووَطَّأْتُه، ويُقالُ: مَهَدْتُ لِنَفْسي ومَهَّدت، أي: جَعَلْتُ لَها مَكانًا وطيئًا سَهْلًا، ومَهَدَ لِنَفْسِه خَيْرًا: هَيّأه وتَوَطَّأه؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ أي: يُوَطِّئُون[4]، وتمهيدُ الأمور: تسويتُها وإصلاحُها، وتمهيدُ العُذر: بسطُه وقَبولُه[5]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: يوطِّئون ويهيّئون[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 57.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 109.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مهد).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (مهد).
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 341، والعليميّ، فتح الرّحمن: 5/ 290.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر النّظمُ الكريمُ عن جزاء النّاس يومَ القيامة، فمَن كفر منهم فإنّ عاقبةَ كفره واقعةٌ عليه لا على غيره، وأنّه سيحملُ وحده ما يترتّبُ على ذلك من عذابٍ مهين، وأمّا مَن عمل الصّالحاتِ بعد الإيمان بربّه وحدَه فقد أعدّ لنفسه العُدّةَ، ووطّأ لنفسه الفراشَ حتّى لا يُقضَّ عليه مضجعُه، فإنّهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وهم في رياض الجنّة يُحبَرون[1].

لا يـقـعُ جـزاءُ الـكـفـر إلّا على الكافر والمؤمنون في رياض الجنّة يُحْبَرون

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الفصلِ في صدر الآية:

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ لأنّها مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فلمّا ذَكَرَ أنّهم فريقان: فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير؛ أتبعَه ببيان كيفيّته، فالجملة مُساقةٌ للجواب عن سؤالٍ مَن كأنّه قال: إلى أين يتفرّقون؟ فقيل: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[2].

ثمارُ الأعمالِ في الدّنيا رَباحٌ في الآخرة أو خَسارٌ

وجهُ التّعبير بـ ﴿مَن﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بـ ﴿مَن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وهو هنا اسمُ شرطٍ جازمٌ[3]، والتّعبيرُ به يدلُّ على عموم الحُكم، وأنّه ليس مُرادًا به فئةٌ ما، بل كلُّ مَن كفرَ في كلّ مكانٍ وزمان؛ فإنّه داخلٌ تحتَ مضمونِ الخطاب.

جزاءُ الكفرِ عامٌّ لكلّ الكفّار

إيثارُ التّعبيرِ بـ ﴿كَفَرَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الكفرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ لأنّ الكفر عنوانٌ على ترك الدّين والعصيان،

الكفرُ عنوانٌ لكلّ المعاصي شاملٌ لكلِّ السّيّئات

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 58، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 94.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 109.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 54.

فهو يدلُّ على غيره منَ المعاصي، ففي التّعبير به نوعٌ منَ الإيجاز، فمَن جاء بالكفر يُتَوقَّعُ منه كلُّ سُوءٍ آخرَ، وجاء التّعبيرُ عنه بالفعل الماضي؛ للدّلالة على أنّ الجزاء مبنيٌّ على تحقّق الكفر، وتأكُّدِ حصولِه.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَعَلَيۡهِ﴾:

جزاءُ الكفرِ وثيقُ الارتباطِ بالكافر

أدخل النّظمُ الجليلُ الفاءَ على جواب الشّرط في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾؛ لربط الجواب بالشّرط؛ لأنّ جملة جواب الشّرط ليست فعليّةً، ولا دليلَ يُبيّنُ أنّها سيقتْ لبيان جزاءِ الذين كفروا؛ فوجب دخولُ الفاء لبيان ارتباطِها، فالفاء سابكةٌ للنّص، رابطةٌ بين الكلامَيْن اللّاحق والسّابق، فيكون جزاءُ الكُفر مُرتبطًا بالكافر نفسِه لا بغيره.

فائدةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ (على):

عاقبةُ الكُفرِ شنيعةٌ مُستحقّةٌ بالكفر

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (على) الدّالّ على الاستعلاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ في الكفر تَبِعةً وضُرًّا يلحقُ بأهله، فمَن كفر فإنّ جزاءه العقابُ الشّديدُ منَ اللّه تعالى، فاكتفى بدلالة (على) هذه عنِ التّصريح بلفظ العقاب، وهذا من بليغ الإيجازِ وبديعِه[1]، فالتّعبيرُ عن حالة الكافر بـ(عليه)، يدلُّ على الفعل والمشقّة[2].

سِرُّ إفرادِ الضّميرِ (الهاء):

لا منزلةَ للكافر عند الله تعالى

إفرادُ الضَّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ باعتبار لفظة ﴿مَن﴾؛ للإشارَة إلى انعدام منزلتِهم عنده تعالى وقلّتِهم كيفًا، وإلى اتّحادهم في ضَرر الكفرِ عليهم، وإن كان عذابُهم مُتفاوتًا[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 116.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 396.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 15/ 156.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة ﴿فَعَلَيۡهِ﴾:

جـزاءُ الـكـفـرِ مختصٌّ بفاعله لا يـتـعـدّى صاحبَه

قدّم النّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة: ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ في جملة جواب الشّرط، ولم يقل: (فكفره عليه)؛ للدّلالة على الاختصاص[1]، فإنّ ضَرَر الكفرِ لا يعودُ إلّا على الكافرين، كما أنّ منفعةَ الإيمان والعملِ الصّالح ترجعُ إلى المؤمنين، ولا تُجاوزُهم[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالقَصْر في ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾:

عاقبـةُ الكفر وبالٌ وخسرانٌ

جمعَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ الكثيرَ منَ المعاني، فهي عبارةٌ جامعةٌ قليلةُ الألفاظِ وافرةُ المعاني[3]، فمَن تحمّل مَضارَّ كفره فإنّه سيُحاط بكلّ المعاصي التي اقترفت يداه[4]، مع الدّلالة على اختصاص العذابِ على الكفر بفاعله، لا يتعدّاه إلى غيره.

بلاغةُ المجازِ المُرسلِ في لفظ الكفرِ:

جزاءُ الكفرِ نارٌ مؤبّدةٌ

من وجوه معاني قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾، أي: عليه وبالُه، وهو النّارُ المُؤبّدة، بتقدير المُضاف، ومثلُ هذا شائعٌ كقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الرّوم: 41]، ويجوزُ أن يكون مَجازًا مُرسلًا بذِكْر السّبب وإرادةِ المُسَبّب[5].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَمَنۡ عَمِلَ﴾:

إتباعُ التّرهيبِ بالتّرغيب منهجٌ تربويٌّ قرآنيٌّ

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإخبارَ بأنّ منفعةَ العملِ الصّالح ترجعُ إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾، على الإخبار بأنّ تَبعةَ الكفر ترجعُ على الكافرين في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾[6]، وفائدةُ هذا العطف تكملةُ البيان،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 259.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 257.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 483.

(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 15/ 156.

(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 54.

فلمّا بيّنَ قولَه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ بقولِه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾، الدّالِّ على الإنذار، عطفَ عليه ما يدلُّ على البِشارة، بجامع التّضادِّ؛ إذ مِن دَأبِ القرآنِ تعقيبُ النِّذارةِ بالبِشارة، والتّرهيبِ بالتّرغيب[1].

معنى (مَن) في ﴿وَمَنۡ عَمِلَ﴾:

جزاءُ العملِ الصّالحِ عامٌّ لكلّ مؤمنٍ وصالحٍ

كرّر النّظمُ الجليلُ اسمَ الشّرط الجازم (مَن)[2] في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ للدّلالة على عموم الحُكم، فمَضمونُ الخطابِ لا يختصُّ بفئة مِنَ النّاس، بل هو عامٌّ في كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، فالحُكم شاملٌ لكلّ زمانٍ ومكان؛ لأنّ العمل الصّالحَ يأتي من ذات الإنسان، ويستقبلُه هو مِنۡ غيره، وكلمة (مَنۡ) هنا تصلحُ للمُفرد وللمُثنّى وللجمع بنَوعيْه، وتَحِلُّ محلَّ جميع الأسماء الموصولةِ، كذلك في هذه الآية استعمل (مَنۡ) للدّلالة على المفرد، وعلى الجمع[3].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿عَمِلَ﴾ مادّةً وصيغةً:

العملُ المقصودُ هو المنوطُ بالجزاء

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ العمل في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ لأنّ العمل يدلُّ على ما يُفۡعَل قصدًا وإرادةً، فهو تعبيرٌ عن صلاح نيّاتِهم، وجيء به فعلًا ماضيًا للدّلالة على تحقّق عملِهم ورسوخِهم فيه.

سِرُّ تنكيرِ ﴿صَٰلِحٗا﴾، وحذفِ الموصوفِ:

صلُحتِ الأعمالُ حتّى كأنّها الصّلاحُ نفسُه

عبّر النّظمُ الجليلُ عن صلاح أعمالهم بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ تفخيمًا لصِفة الصّلاح وتعظيمًا لها، وحذفَ الموصوفَ وأبقَى الصّفةَ؛ إذِ التّقديرُ: ومن عمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 116.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 54.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11493.

عملًا صالحًا؛ فحُذِف للإيجاز، وذلك لَمّا كثُرَ ذِكْرُ (العمل الصّالح)، استُغني بالوصف عنِ الموصوف، كما أنّ فيه مبالغةً في صلاحهم؛ فكأنّ عملهم تحوّلَ إلى الصّلاح نفسِه، فهم يعملون الصّلاحَ لا العملَ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾:

الرّبطُ بين جُزئيْ جملةِ الشرط وتعلّقُ التّمهيدِ بالعمل الصّالح

ربط النّظمُ الجليلُ جملةَ جوابِ الشّرط بفعل الشّرط بالفاء الرّابطة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ للدّلالة على تعلّق التّمهيد بالعمل الصّالح، فالفاءُ تربطُ بين جزئَيْ جملة الشّرط؛ لبيان تعلّق الثّاني بالأوّل، فالعملُ الصّالح مرتبطٌ بنتيجته ارتباطًا لازمًا.

دلالةُ اللّامِ في ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾:

فوائدُ العملِ للأنفسِ وعوائدُه لها

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾؛ للدّلالة على التّعليل؛ فغايةُ التّمهيد والتّوطئة إنّما هي لأجل أنفسِهم، وذلك تعبيرٌ عن خوفهم منَ اللّه تعالى وتقواهُم، فمبادرتُهم إلى العمل الصّالح، هو استجابةٌ للّه تعالى وطلبٌ لمرضاته، التي تكون غايتُها النّجاةَ منَ النّار والفوزَ بالجِنان، ويجوز أن تكون اللّام في ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ للاستحقاق؛ فجَنيُ ما تزرعُه الأيدي هو أعزُّ استحقاقٍ.

نكتة تقديم شبه الجملةِ، وإضافتها إلى الضمير:

لا يَنتفِعُ مِنَ العملِ الصّالحِ إلّا العاملون أنفسُهم

قدّم النّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يَمۡهَدُونَ﴾؛ للدِّلالة على الاختصاص[1]، أي: ليس المنتفعُ من أعمالهم الصّالحة سواهم، وليس للّه تعالى فائدةٌ من ذلك؛ فهو الغنيُّ عن عباده، وفي إضافة لفظِ الأنفس إلى ضمير الجمع الغائبِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ دلالةٌ على اختصاص فائدةِ العملِ الصّالح بهم[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 259.

سرُّ اختيارِ لفظِ (الأنفس)، ودلالةُ جمعِها:

من ثمارِ الأعمالِ الصّالحةِ تزكيةُ الأنفس

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ (النّفس) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ العمل الصّالحَ من ثماره تزكيةُ النّفس والرّقيُّ بها حتّى تنالَ ذلك الأجرَ الجزيل، فالعملُ الصّالحُ يزكّي النّفوسَ ويطهّرُها منَ الرّذائل، وجاء التّعبيرُ عنِ النّفس بصيغة الجمع؛ للدّلالة على أنّ العمل الصّالحَ ينفعُ المؤمنَ وأهلَه ووالدَيه، فالمؤمنُ للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضُه بعضًا، وفيه ترغيبٌ بالعمل الصّالحِ، بأنّ فائدةَ العمل ستكون مباركةً بحيثُ تعُمُّ المؤمنَ ومَن معه[1].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿يَمْهَدُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

العملُ الصّالحُ في الدّنيا هو إعدادٌ وتهيئةٌ للسّكن في الجِنان

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظِ (المهاد) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ لدلالة المِهاد على بسط الفراشِ وتوطئتِه، فضلًا عن دلالته على تسوية الأمور وإصلاحِها، فالتّعبيرُ به يدلّ أنّ المؤمن الذي يعملُ صالحًا إنّما هو يُعِدُّ لنفسه في الجنّة سكنًا ومضجعًا هنيئًا، فهو يدلُّ على أنّهم يُسوون المنزلَ والسّكن في تلك الدّار[2]، والتّعبيرُ عنه بالفعل المضارع تصويرٌ لثمرة العمل الصّالح، واستجلابٌ للصّورة والمشهدِ، فالسّامعُ يرى في ذهنه صورةً لإعداد تلك المساكن وفرشِها بحيثُ تكون نُزُلًا خالدًا، ويحتملُ ضميرُ الجمع في ﴿يَمْهَدُونَ﴾ تفخيمَ شأنِ المُؤْمنينَ، وفيه أيضًا رعايةٌ للفاصلة[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿يَمْهَدُونَ﴾:

مَن يطلبُ الرّاحةَ في الآخرة يُمَهِّدُ الطّريقَ إليها بالعملِ الصّالحِ في الدّنيا

لفظُ ﴿يَمْهَدُونَ﴾ استعارةٌ منقولةٌ منَ الفرش ونحوِها، إلى الأحوال والمراتبِ[4]؛ للدّلالة عن كونهم يفعلون في الدّنيا ما يَلْقَون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 94.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 15/ 157، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 117.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 341.

به ما تقَرُّ به أعينُهم، وتُسَرُّ به أنفسُهم في الجنّة[1]، والاستعارةُ هنا تبعيَّةٌ، شَبَّه حالةَ المكلَّفِ مع عَمَله الصّالحِ وما يتحصَّلُ به منَ الثَّواب ويَتخلَّصُ منَ العقاب، بحالةِ مَن يُمهِّدُ فراشَه ليستريحَ عليه، ولا يُصيبَه في مَضجَعِه ما يُنغِّصُ عليه[2].

الدّنيا للمؤمن دارُ نَصَبٍ وفناءٍ والآخرةُ له دارُ تنعّمٍ وبقاءٍ

ويجوز حملُ الكَلام على الاستعارة التّمثيليّةِ بتمثيل حالِ المؤمنين في عملهم الصّالح بحالِ مَن يتطلّبُ راحةَ رُقادِه فيمهّدُ فراشَه، أي: يَبسطُه، ويُوطِّئُه، ويُسوّيه لنفسه؛ ليكونَ في غاية الرّاحة بحَيْثُ لا يصيبُه في مرقده، أو يتعرضُ له في مضجعه ما يؤذيه ويَبغضُه من أدنى خشونة، أو يُبّس، أو نحوِها ممّا يَستفزُّ منامَه، والتّعبيرُ هنا بالاسْتعارَة يزيد التّعبيرَ فخامةً[3].

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ المُفرِدِ إلى الجمع:

مِن سَعةِ رحمةِ الله تعميمُ خيرِ المؤمن على أهله

انتقل الخطابُ القرآنيُّ منَ الإفراد عند الحديث عن جزاء الكافرين بقوله ﷺ: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾، إلى الجمع عند الحديث عن جزاء المؤمنين في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾، فلم يقل: (فلنفسه يمهدُ)؛ وذلك للإشارة إلى أنّ رحمة اللّه تعالى أعمُّ من غضبه؛ فإنّ فائدةَ العمل الصّالح تشملُ المؤمن وأهلَه وذرّيتَه، وأمّا الغضبُ على الكافر فإنّه مسبوقٌ بالرّحمة أوّلًا، ولأنّ ضررَ الكفر لازمٌ لصاحبه لا يتعدّاه إلى أهله ومَن معه وذرّيّته[4].

دلالةُ مقابلةِ الكفر بالعمل الصّالح:

العملُ الصّالحُ مُختصٌّ بأهل الإيمان

قابل النّظمُ الجليلُ بين جزاء الكافر والمؤمن في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾، فجعل الكفرَ بمقابل العملِ الصّالح دون أن يجعلَه مُقابلًا للإيمان،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 396.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 258. (بتصرّف).
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 15/ 157، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 117.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 106، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 15/ 420.

فلم يَقُل: (ومَن آمن)؛ وذلك للتّنويه بأنّ المؤمنين هم أهل الصّلاح، وأنّ الأعمال الصّالحةَ من فعل المؤمنين لا من فعل الكافرين، كما أنّ فيه تحريضًا للمؤمنين على العمل الصّالح؛ خشيةَ الاتّكال على الإيمان وحده[1].

بلاغة الاحتباك في الآية:

العمل الصالح شعار أهل الإيمان وعنوان لهم

في الآية احتباكٌ لطيفٌ، فذكر واحدًا منَ السّببيْن، وواحدًا منَ الثّمرتيْن؛ ففي العبارة الأولى ذَكَرَ الكفرَ الذي هو السّبب، وهو يدلّ على الإيمان غيرِ المذكور في العبارة الثّانية، وذَكَرَ في العبارة الثّانية العملَ الصّالح الذي هو الثّمرةُ، وهو يدلّ على العمل السّيّءِ في العبارة الأولى[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المِهاد والفِراش:

الـفـرشُ بُـسـطٌ والمِـهـادُ توطِئَتُه وتـوثـيرُه والمِـهـادُ أخـصُّ مـن الفراش

المِهادُ من (مهد)، وهو أصلٌ يدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ[3]، يُقالُ للفِراشِ: مِهاد لِوِثارَتِه، وأصلُ المَهْدِ التَّوْثيرُ؛ يُقالُ: مَهَدْتُ لنَفْسي ومَهَّدت، أي: جَعَلْتُ لَها مَكانًا وطيئًا سَهْلًا[4]، أمّا الفَرْشُ فهو البسطُ، وفَرَشْتُ الشّيءَ أفرشُه فراشًا: بسطتُه[5]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: 22]، أي: ذلَّلَها، ولم يجعلْها ناتئةً لا يمكن الاستقرارُ عليها[6]، فالفرشُ يدلُّ على البسط، أمّا المهاد فيدلُّ على توطئة الفراش وتمهيدِه وتوثيرِه، وعبّر في الآية بقوله: ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ لأنّ الأعمال الصّالحةَ سببٌ وممهِّدٌ لدخول الجنّة[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 116 - 117.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 110 - 111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مهد).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (فرش).
(6) الرّاغب، المفردات: (فرش).
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 259.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ [الرّوم: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذِكْرِ يومِ القيامةِ ونتائجه بيَّن الحِكمة من ذلك اليوم

بعد أن بيّن النّظمُ الجليلُ تفرّقَ النّاسِ يومَ القيامة، وبيّن أنّ الكافر يتحمّلُ نتائجَ كفرِه، وأنّ المؤمنين يَمْهَدون لأنفسهم، أتبعَ ذلك ببيان الحكمةِ من يوم القيامة والغايةِ منه، وهو أن جعلَه ليجازيَ المؤمنين عن صلاحهم، فلمّا ذكَرَ يومَ القيامة وأحوالَ النّاس فيه، أتبعَهُ ببيان عِلّته والحكمةِ منه[1]، والآيةُ أيضًا: "زيادةُ تفصيلٍ لِما يَمْهَدُه المؤمنُ لفعله الخيرَ وعملِه الصّالح، وهو الجزاء الذي يجازيه به اللّهُ"[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَجۡزِيَ﴾: (جزا، جزى، جزي): أَصْلٌ يدلُّ على الاكتفاءِ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: اجْتَزَأْتُ بِالشَّيْءِ اجْتِزاءً، إذا اكْتَفَيْتُ بِهِ، وأَجْزَأَني الشَّيْءُ إِجْزاءً، إذا كَفاني[3]، والجَزاءُ: ما فيه الكفايةُ مِنَ المقابلة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ[4]، والجَزاء أيضًا: القَضاء[5]، ولم يجئ في القرآن إلّا جزى دون جازى، وذاك أنَّ المجازاة هي المكافأةُ، وهي المقابلةُ من كلِّ واحدٍ منَ الرَّجُلين، والمكافأةُ هي: مقابلةُ نعمة بنعمة هي كفْؤُها، ونعمةُ اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يُستعملُ لفظُ المكافأة في اللّه ﷻ، وهذا ظاهرٌ[6]، والمقصودُ بالجَزاءِ في الآية: الإثابةُ على العَمَلِ بما يُناسِبُ ذلكَ العَمَلَ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 111، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 94.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 106.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(4) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزي).
(6) الرّاغب، المفردات: (جزا).

2) ﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾: (فضل) أصلٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلك الفَضْلُ: الزّيادَةُ والخير، والإفضالُ: الإحسان[1]، وفَضَلَ الشّيءُ فَضْلًا: زاد عنِ الحاجة، فالفضل: الزّيادةُ، حسّيَّةً أو معنويَّة، وأفْضَلَ عليه: أحسنَ إليه، والفَضْلُ: الإحسانُ ابتداءً بلا عِلَّة[2]، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزمُ مَن يُعطي يُقال لها: فَضْلٌ، وهو ضربان: محمودٌ وهو أكثرُ استعمالًا، كفضل العِلْم، ومذمومٌ: كفضل الغضبِ على ما يجبُ أن يكونَ عليه[3]، ومعناه في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، فالفضلُ من اللّه تفضُّلٌ من غير إلزام، فهو إحسانٌ منه تعالى ومنٌّ على عباده.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جـزاءُ أهـلِ الإيـمـان من مـحـضِ فـضـلِ الله

يخبرُ النّظمُ الكريمُ أنّ اللّه تعالى إنّما قَسّمَ النّاسَ إلى فريقين؛ ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الأعمالَ الصّالحاتِ، الجزاءَ الحسنَ الذي يستحقّونه، بل إنّ جزاءهم ليس مقصورًا على أعمالهم، بل إنّ اللّه تعالى يَجزيهم من فضله المدودِ، ما لا تبلغُه أعمالُهم؛ لأنّ اللّه سبحانه قد أحبّهم، ومن أحبَّهُ اللّهُ فإنّه يَصُبّ عليه الإحسان صبًّا، ويُجْزِلُ له العطايا والنّعمَ الظّاهرةَ والباطنة، بخلاف الكافرين؛ فإنَه سبحانه لمّا أبغضَهم ومقتَهم؛ عذّبهم شَرَّ العذاب، فهو لا يحبّ الكافرين[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ اللّامِ في صدر الآية:

الغايةُ من يوم القيامةِ مجازاةُ أهلِ الإيمان ولا اعتبارَ بغيرهم

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، وهي هنا دالّةٌ على التّعليل، وذلك لبيان الغاية من قيام يومِ الحساب، وبيانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).

(2) مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (فضل).

(3) الرّاغب، المفردات: (فضل).

(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 643، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 94.

حكمته تعالى منه، أي: يقوم ذلك اليومُ ويتفرّق النّاسُ ليجزيَ اللّهُ تعالى المؤمنين جزاءَ إيمانهم[1].

سرُّ التّعبيرِ بلفظ ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ مادّةً وصيغةً:

عطـاءُ اللـه للمؤمنين موافِقٌ لعملهم؛ عدالةً منه وتفضُّلًا

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الجزاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لأنّ الجزاء يدلُّ على الغَناء والكفايةِ منَ المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ[2]، فدلَّ بذلك على تحقيق الكفاية منَ المجازاة بالخير على أعمال المؤمنين، وأنّ جزاءهم ذلك بمقابل ما قدّموه منَ الإيمان والعملِ الصّالح بفضل اللّه تعالى عليهم، وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع لوقوع ذلك الجزاءِ في المستقبل، فالتّعبيرُ عنه بالفعل المضارع هو تعبيرٌ عن موعودٍ مُنتظَرٍ.

نُكْتَةُ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ:

التّصـريـحُ بـالاسـم يـدلُّ على علّةِ الجزاءِ الحسن

عدَلَ النّظمُ الجليلُ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلم يقل: (ليجزيَهم)؛ وذلك للتّصريح بأنّهم هم أصحابُ الإيمان والعملِ الصّالح، وفيه بيانٌ لِعلّة الجزاء، وهي كونُهم اتّصفوا بالإيمان والعمل الصّالح[3]، فعبّر بالاسم الموصول دون الضّمير للدّلالة على أنّهم المعهودون بالإيمان والعملِ الصّالح، وللإشارة إلى أنّ علّة ذلك ما تضمّنتْه صلةُ الموصول.

دلالةُ التّعبيرِ بفعل الإيمان ماضيًا:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الإيمان بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للدّلالة على كمال تحقّقِ الإيمان فيهم.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 94.
(2) الرّاغب، المُفردات: (جزا).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 117.

دلالة تقديم الإيمان على عمل الصّالحات:

الإيمانُ أصلُ العمل الصّالح وسببُهُ

قدّم النّظمُ الجليلُ ذِكرَ الإيمان على العمل في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لأنّ الإيمان شرطٌ لقَبول العمل، فهو من تقديم السّبب على المُسبَّب، والتّنويهِ على أنّ العمل ليس معتبَرًا ما لم يتقدَّمْه إيمانٌ، كما أنّ ذِكْر العمل بعد الإيمان يشيرُ إلى ثمرته، فالعملُ تصديقٌ للإيمان(1).

سرُّ التّعبير بالعمل مادّةً وصيغةً:

شرطُ الأعمال الصّالحة القَصْدُ من فعلها ونيّةُ إيقاعِها

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ العمل في قوله جلّ شأنِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنّ العمل يدلُّ على ما فُعل قصدًا وإرادةً، فهو تعبيرٌ عن سبق النّيّةِ الصّالحةِ على العمل الصّالح، ويشيرُ ضِمنًا إلى صلاح سريرتِهم وإخلاصِهم بأعمالهم، وجيءَ به فعلًا ماضيًا للدّلالة على تحقّقِ عملهم الصّالح، وأنّه كان منهم ديدَنًا، وكانوا راسخين فيه.

دلالةُ حذفِ الموصوفِ:

العملُ الصّالحُ هو الصّلاحُ نفسُه

حذفَ النّظمُ الجليلُ الموصوفَ وأبقى الصّفةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إذِ التّقديرُ: وعملوا الأعمال الصّالحة، وفائدةُ هذا الحذفِ الإيجازُ في التّعبير، وذلك لمّا كَثُرَ ذِكْرُ (العمل الصّالح) استُغْنيَ بالوصف عنِ الموصوف، كما أنّ فيه مبالغةً في صلاحهم؛ فكأنّ عملَهم تحوّل إلى الصّلاح نفسِه، فهم يعملون الصّلاحَ لا الفعلَ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالصّالحات دلالةً وصيغةً:

وجوهُ العملِ الصّالحِ لا تُحصى والفَطِنُ مَن يسعى

(أل) في الصّالحات للاستغراق، وشلمتْ جميعَ الصّالحات، والعمومُ المُتحصّلُ من معنى (أل) متحصّلٌ أيضًا من جمع اللّفظة؛ لأنّ الجمع من مواضع التّنصيص على العموم، وما أكثرَ الصّالحاتِ إذا عددتَها، وما أكثرَ سُبُلَها، ومسالِكَها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 111.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾:

وقوعُ الجزاءِ تفضّلٌ محضٌ من الله تعالى

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾، وهي هنا صالحةٌ لأن تكون دالّةً على التّعليل؛ أي: أنّ اللّه تعالى بسبب فضلِه على المؤمنين وكَرمِه تعالى يدخلُهمُ الجنّةَ، أي: لا يَدخلونها بسبب عملهم[1]، وصالحةٌ أن تكون دالّةً على الابتداء، فصدورُ الجزاء بادئٌ من فضل اللّه تعالى، وصادرٌ عنه؛ وذلك لتفخيم شأن جزائهم.

سرُّ التّعبيرِ بالفضلِ مصدرًا:

عطاءُ الله تعالى وجزاؤه أعظمُ من عمل العاملين

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الفضلِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ الجزاء إنّما يقعُ منَ اللّه تعالى تفضّلًا، لا وجوبًا[2]، والجزاءُ الذي يكون من تفضّل الإلهِ الكريم أجَلُّ منَ الجزاء الذي يكون بمقابل العمل، فالتّعبيرُ بالفضل يدلُّ على فخامة الجزاء وعظمتِه؛ ففي التّعبير بالمصدر مبالغةٌ لا تكون في الوصف.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿فَضۡلِهِۦٓۚ﴾:

الفضلُ الكائنُ منَ الله تعالى فضلٌ عظيمُ الشّأن

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الفضل إلى ضمير الجلالة في قوله جلّ شأنِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لتعظيم الفضلِ وتفخيم شأنه، فالفضلُ المنسوبُ إلى اللّه تعالى متّصفٌ بسَعة الكرم والعطاء، والمرادُ: تفخيمُ جزاء المؤمنين، وأنّه بالغاية الأسمى منَ العطاء والجزاء.

علّةُ الفصلِ في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

عطاءُ الله المؤمنين محبّةٌ وتكريمٌ

فصلَ النّظمُ الجليلُ الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنّها مُستأنَفة استئنافًا تعليليًّا؛ لأنَّه لمّا كان تنعيمهم من

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 69.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.

أعظم عذاب الكافرين الذين كانوا يهزؤون بهم ويضحكون منهم، علَّله بقوله على سبيل التأكيد لدعوى من يظنُّ أنَّ إقبال الدنيا على العصاة لمحبَّة اللّه لهم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يفعل مع العريقين في الكفر فعل المُحِبِّ، فلا يسوّيهم بالمؤمنين[1].

سِرُّ توكيدِ صدرِ الجملةِ:

مَنْ أبغضه اللهُ فقد خاب وخسر

أكّد النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بكونها اسميّةً، وبتصديرها بحرف التّأكيد (إنّ)، للرّدّ على من توهّمَ أنّ إقبال الدّنيا على الكافرين يدلُّ على محبّة اللّه تعالى لهم، فأكّده للإنكار على ذلك الوهم[2].

دلالةُ نفيِ المحبّةِ في: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾:

نفيُ المحبّة نفيٌ لإرادة الخير وهو نفيٌ متجدّدٌ

نفى النّظمُ الجليلُ محبّةَ اللّه تعالى عنِ الكافرين في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنّ المحبّة تدلُّ على إرادة الخير، ومحبّةُ اللّه للعباد: إرادةُ الخير بهم وغفرانُ ذنوبهم[3]، فنفى تعالى محبّتَه عنِ الكافرين للدّلالة على بُغْضِه تعالى لهم، وانتفاءِ إرادةِ الخير بهم، وهذا يُشيرُ إلى وقوع العذاب بهم لا محالةَ[4]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة الفعلِ المضارع للدّلالة على تَجَدُّد انتفاءِ هذه المحبّة، فيكون بغضُهم مستمرًّا متجدّدًا؛ وذلك تعبيرٌ عن استحقاقِهم للبُغض الذي لا ينقطعُ.

دلالة العُدولِ عنِ الفعل (يكره):

نفيُ المحبّة نصٌّ في البُغض

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بنفي الحُبّ، والعدولَ عنِ التّعبير بالكُره في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فلم يقل: (إنّه يكره الكافرين)؛ لأنّ التّعبيرَ عنِ البُغض بنفي المحبّة أبلغُ منه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 111.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حبب).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.

بإثبات الكُره؛ فإنّ التّصريحَ بلفظ الكُره قد يُفهم منه المجازُ، أمّا نفيُ المحبّة فيدلُّ على البغض نصًّا.

وجهُ التّعبيرِ عن نفيِ الحُبِّ بالإجمالِ دون التّفصيل:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ عظيمٌ، وقد أجملَه ولم يُفَصِّلْه؛ لأنّ الإجمالَ فيه كالتّفصيل، فإنَّ عدمَ المحبةِ مِنَ اللّهِ تعالى غايةُ العذابِ[1].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

اللـه تـعـالى لا يـحـبُّ كـلَّ مَـنِ اتَّصف بالكفر

عرّفَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الكافرين بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهي هنا دالّةٌ على الجنس الشّامل المستغرِقِ لجميع الأفراد، فاللّه تعالى لا يحبُّ أحدًا منَ الكافرين جميعًا، في كلّ زمانٍ وكلّ مكان.

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ (الكفر) مادّةً وصيغةً:

الكفرُ عنوانٌ لكلّ المعاصي شاملٌ لكلّ السّيّئات

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الكفرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ على الجحود والإنكار، فهو يشملُ إنكار الخالق، وإنكار النّبوّة، وإنكار الغيبيّات، والإشراك به تعالى، فالتّعبيرُ بالكفر هنا شاملٌ لغير المؤمنين، فهو منَ الإيجاز البليغ، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة اسمِ الفاعل المجموعِ للدّلالة على أنّه تعالى لا يحبُّهم جميعَهم؛ لكونهم صاروا عَريقين بالكفر، فاتّصفوا بهذا الوصف على جهة الثّبوتِ فيهم[2].

الفروقُ المُعجَميّةُ:

الفضل والنّعمة والمَنّ والإحسان:

الفضلُ العطاءُ الزّائدُ بلا سببٍ موجبٍ والنّعمةُ رزقٌ مـنَ المال وطيبِ العيش

النّعمةُ من (نَعِمَ)، وأصلُه يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 259.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 111.

مِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّهُ تعالى على عَبْدِهِ بِهِ مِنْ مالٍ وعَيْشٍ، يُقالُ: لِلّهِ تَعالَى عليه نِعْمَةٌ، والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ[1]، والإِنْعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْرِ[2].

أمّا الفضلُ: فأصلُه الدّلالةُ على زيادَةٍ في شَيْءٍ، وهو: الزّيادَةُ والخَيْرُ، والإفْضالُ: الإحْسانُ[3]، والفَضْلُ: الزّيادةُ عنِ الاقتصاد، وقولُه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النّساء: 34]، فإنه يعني: بما خَصّ به الرّجلَ منَ الفضيلة الذّاتيّة له، والفضلِ الذي أُعْطيَه منَ المُكنة والمال والجاه والقوّة، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ [الإسراء: 55]، وكلُّ عطيّةٍ لا تلزمُ مَن يُعطي يقال لها: فَضْلٌ، نحو قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النّساء: 32]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 54][4].

أمّا المِنَّةُ: فهي النّعمةُ الثّقيلة، يقال: منَّ فلانٌ على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قولُه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164][5].

والإحسانُ: هو الإنعامُ على الغير، وهو أعمُّ منَ الإنعام، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ﴾ [الإسراء: 7]، وقولُه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النّحل: 90]، فالإحسانُ فوقَ العدل، فالعدل أن يعطيَ ما عليه، ويأخذَ أقلَّ ممّا له، والإحسان أن يعطيَ أكثرَ ممّا عليه، ويأخذَ أقلَّ ممّا له، فالإحسانُ زائدٌ على العدل[6]، وقد عبّر في الآية الكريمة بالفضل؛ لأنّ الجزاء غيرُ مُلزم للّه تعالى، بل هو محضُ تفضّلٍ منه وعطاءٍ بلا مُوجبٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(2) الرّاغب، المفردات: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(5) الرّاغب، المفردات: (منن).
(6) الرّاغب، المفردات: (حسن).

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦﴾ [الرّوم: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذَكَرَ النّظمُ الجليلُ في صدر السّورة الآياتِ الدّالّةَ على الوَحدانيَّة، وما يترتّبُ على ذلك منَ البعث، عاد النّظمُ إلى ذِكْر الآيات والنّعمِ التي فيها حفظُ الوجود، وهي الرّياح، التي جعلها تعالى سببًا في إدرار المطر اللّازم للحياة، وما في آثار المطرِ من الاستدلال على البعث، وهو إنباتُ الأرض المَوات[1].

بعد آياتِ التّوحيدِ والبعثِ أثرى البيانُ الاستدلالَ على البعث بالإنبات من المَوات

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَشِّرَٰتٖ﴾: (بشر) أصْلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجمالٍ، ويُقالُ: بَشَّرْتُ فُلانًا أُبَشِّرُهُ تَبْشيرًا، وذَلِكَ يَكونُ بِالخَيْرِ[2]، والبَشَرَةُ والبَشَرُ: ظاهرُ جِلدِ الإنسان، والمُبَشِّرات: الرّياح التي تُبَشِّرُ بالغيث[3]، وأبْشَرْتُ الرّجلَ وبَشَّرْتُهُ: أخبرتُه بسارٍّ بَسَط بشرةَ وجهِه، وذلك أنّ النّفسَ إذا سُرَّت انتشر الدَّمُ فيها انتشارَ الماء في الشّجر، يقال: بَشَرْتُهُ فَأَبْشَرَ، أي: اسْتَبْشَرَ، وأَبْشَرْتُهُ، والبشير: المُبَشِّر، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [الزّمر: 17]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، أي: تبشّرُ بالمطر[4].

2) ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾: (ذوق) أَصْلُه اخْتِبارُ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا، فَيُقالُ: ذُقْتُ المَأكول أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بشر).
(4) الرّاغب، المفردات: (بشر).

عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُه، وقال الخَليل: كُلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فَقَدْ ذاقَهُ[1]، وأصلُه فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأَكْلُ، واختير في القرآن لفظُ الذّوق في العذاب كثيرًا، نحو: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ [النّساء: 56]، ويَكونُ بِالفَمِ وبِغَيْرِ الفَمِ، وكلُّ ما نزل بإنسان من مكروه فقد ذاقه، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: 9] أي: خبَرت[2].

3) ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾: (بغي) أصلٌ يدل على طلَبِ الشَّيءِ، تقول: ابتغيتُ الشَّيءَ، وبغيتُه، أبغيه بُغيةً وابتغاءً، أيْ: طلَبتُه[3]، والباغي: الَّذي يَطلُبُ الشَّيءَ الضّالَّ، وأبغاهُ الشَّيءَ: طَلَبَهُ له، وأعانه على طلَبه[4]، والابتغاءُ: الاجتهادُ في الطَّلَبِ[5]، وهو أيضًا: الإرادةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابتغيتُ الأجرَ في عملي، أي: قصدتُه، ويأتي بِمعنى الاتِّخاذ، تقول: ابتغيتُ البيتَ سكنًا لي، أيْ: اتَّخَذْتُهُ[6]، والمقصودُ بالابتغاءِ في الآيةِ: الرَّغبةُ والطَّلَبُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

من دلائلِ القدرةِ وكمالِها ما في الكون من مظاهر الحياةِ وأسبابِها

يبيّن النّظمُ الجليلُ أنواعًا أخرى منَ الظّواهر الكونيّة الدّالّة على كمال قدرةِ الله تعالى، أي: إنّ من أدلّة وحدانيّته تعالى - وأنّه إلهُ كلِّ شيءٍ - أنّه يُرسل الرّياحَ مُبَشِّراتٍ بالغيث والرّحمة، فيُنزلُ عليكم الغيثَ الذي يحيي به البلادَ، ولتجريَ السُّفنُ في البحار بأمره تعالى، ولتلتمسوا من أرزاقه ومعايشكم التي قسمها بينكم، ولتشكروا ربّكم على ذلك[7]، أي: أنّ الله تعالى يرسلُ الرّياح مبشراتٍ بالأمطار

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بغي).
(5) الرّاغب، المفردات: (بغي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 35.
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا، بغي).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 112.

لتنالوا من رحمته الخِصْبَ والنّماء لزرعكم، ولتجريَ السّفنُ في البحر بإذنه تعالى، ولتبتغوا أرزاقَكم عن طريق الأسفار، والانتقالِ من مكان إلى آخر، ولكي تشكروا اللّهَ تعالى على هذه النّعم العظيمة؛ فإنّكم إذا شكرتموه على نعمه زادكم منها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في صدر الآية:

عَـطْـفُ الآيــاتِ عــلـى الآيـــاتِ تـجـديـدٌ للـبيان وتأكيدٌ لحقيقة التّوحيد

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ على الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الرّوم: 25]، فعاد النّظمُ إلى تعداد الآياتِ الدّالّةِ على التّوحيد، وما بين الآيتين منَ الدّلائل على الوَحدانية والبعث، ومنَ المواعظ الجليلة، كان لتجديد نشاطِ السّامعين؛ للإقبال على هذه الدّلائل البيّنةِ بجِدٍّ وانتباه[2].

معنى (مِن) في ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

كـلُّ آيـــةٍ مـنَ آياتِ الله تعالى كافيةٌ في البيان والـدّلالـةِ على الحقّ

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (مِن) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ وهي هنا دالّةٌ على التّبعيض، "أي: ومن دلالاتِ بديعِ قدرته تعالى إرسالُ الرّياح"[3]، والتّبعيضُ يدلّ على أنّ كلَّ آية مفردةٍ من تلك الآيات جديرةٌ بالكفاية على الدّلالة على التّوحيد.

دلالةُ التّعبيرِ بالآياتِ جمعًا:

الآيـاتُ علاماتٌ بيّنةٌ واضحةٌ على الخالق

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الآيات في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾؛ لأنّ المذكوراتِ تتضمّن علاماتٍ بيّنةً واضحةً على كمال القدرة، وتمامِ العِلْم، ودالّةً على أنّ الله

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 118.
(3) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 260.

تعالى وحدَه الذي أقام هذا الوجود[1]، وجاء التّعبيرُ بصيغة الجمع للدّلالة على كثرة الآياتِ، وأنّ إرسال الرّياح آيةٌ واحدةٌ من تلك الآيات الكثيرة.

الآياتُ العظيمةُ الدّالّةُ على الله تعالى جديرةٌ بنسبتِها إليه سبحانه

دلالةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرٍ:

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الآيات إلى الضّمير العائدِ على ذي الجلال والإكرام في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾؛ تعظيمًا لشأن تلك الآيات، وبيانًا لكونِها آياتٍ جديرةً بإيقاع الاتّعاظ، وتحقيقِ الفهم، فهي حقيقةٌ بإظهار صفةِ التّوحيد لخالق هذا الكون، الذي من لطفِه بعباده ورحمتِه بهم تسييرُه الرّياحَ.

إرسالُ الرّياح آيةٌ خاصّةٌ بخالقها تعالى

نُكْتَةُ تقديم المُسْنَدِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ على المسنَد إليه:

قدّم النّظمُ الجليلُ شبْه الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ على المُسنَد إليه في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، دون أن يقول: (وإرسال الرّياح من آياته)؛ وذلك للدّلالة على اختصاص إرسالِ الرّياح بكونِه آيةً ودليلًا على خالق الوجود، ومُدَبِّرِ أمره.

الإنعامُ بإرسالِ الرّياحِ دائمٌ متجدّدٌ

نُكْتَةُ إيثارِ المصدرِ المُؤوَّلِ ﴿أَن يُرۡسِلَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المؤوّل دون المصدر الصّريح في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، فلم يقل: (ومن آياته إرسالُ الرّياح)؛ وذلك لِما في الفعل المضارع من دلالةٍ على التّجدُّد، فهو يرسلُ تلك الرّياحَ على سبيل التّجدُّد والاستمرار[2]، فهو يشيرُ إلى أنّ وجه الإنعام في إرسال الرّياحِ هو تجدُّدُ إرسالِها ودوامُه، وفي التّعبير بالمصدر المؤوّل بيانٌ لحدث الإرسال دونَ تحديدٍ لكيفيّاته؛ لأنّ "المصدرَ المؤوّلَ ولا سيما مع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 113.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 113.

(أنْ) يدلُّ على مُجرّد معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففيها - يعني (أن) - تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال"(1).

بلاغةُ المجازِ في ﴿يُرۡسِلَ﴾:

الإرسالُ تعبيرٌ عن تحقُّق بلوغِ المُراد منَ الرّياح

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الإرسال على سبيل المجاز في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾؛ وذلك لأنّ الإرسال إنّما يكون برسالة يتحمّلُها رسولٌ، فعبّر بالإرسال للدّلالة على وصول نفعِ الرّياح إلى البلاد التي تحتاجُها، أي: أنّ الله تعالى يُكوِّنُ يُكَوِّنُ الرّياحَ ويوجِّهُها إلى بلدٍ محتاجٍ إلى المطر(2).

سِرُّ جمعِ الرّياح:

كثرةُ الرّياحِ دليلٌ على كمال القدرةِ وسَعةِ النّعمةِ

جمع النّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾؛ للإشارة إلى "باهرِ القدرة؛ فإنّ تحويل الرّيح الواحدةِ من جهة إلى أخرى أمرٌ عظيم، لا قدرة لغيره عليه في الفضاء الواسع، وكذا إسكانُه، فكيف إذا كانت رياحٌ متعاكِسَةٌ، ففي إثارتها كذلك ثمّ إسكانِها من باهر القدرة ما لا يعلمُه إلّا أولو البصائر"(3).

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾:

الرّياحُ كرسولٍ يحملُ أخبارَ المَسَرّة للنّاس

استعار النّظمُ الجليلُ لفظَ التّبشير للرّياح في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، والبشارةُ: هي الخبر السّارُّ، فشَبّهَ الرّيحَ بالرّسول المُبشِّرِ بخبر يَسُرُّ النّاس(4)، فحذفَ المُشبّهَ به وهو الرّسولُ، وأبقى البشارةَ دالّةً عليه، فالاستعارةُ مكنيّةٌ،

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 118.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 113.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 118.

وإنّما كانتِ الرّياح مُبشرّةً بالمطر؛ لأنّها تسبقُه[1]، ويرى القُونَويُّ أنّ ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ إمّا مجازٌ عقليٌّ، وإمّا مَجازٌ مُرْسَلٌ[2].

سرُّ اختيارِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾:

ثـبـوتُ صفـةِ الـتّـبـشـيرِ في الرّيـاحِ المُرسلةِ بالمطرِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ التّبشير بصيغة اسم الفاعل في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ للدّلالة على ثبوت صفةِ التّبشير في الرّياح المُرسَلةِ بالمطر.

دلالةُ عطفِ الفعلِ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾:

إرسـالُ الـرّيـاحِ تبشيرٌ ورحمـةٌ بالعالمين

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ على المعنى في قوله تعالى: ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ كأنّه قال: ليبشّرَكم بها، وليذيقَكم من رحمته[3]؛ وذلك لأنّ التّبشير يدلُّ على علّة الإرسال، فعطفَ علّةَ الإذاقة على علّة التّبشير[4].

معنَى اللّامِ في ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾:

من حِكَمِ إرسالِ الـرّيـاحِ إيصالُ رحـمـةِ الـلـه لعباده بالغيث

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ للدّلالة على التّعليل، أي: أنّ علّةَ إرسالِ الرّياح المبشّرةِ هو رحمةُ العباد بوفرة الرّزق؛ إذِ الرّياحُ تسوق السّحابَ إلى حيثُ يُمطِر ويُغيثُ النّاسَ، فاللّام تُبيّنُ الفوائدَ التي تعود على النّاس من إرسال الرّياح، التي تأتي بين يدي الأمطار، فاللّهُ تعالى يرسل الرّياحَ ليمنحَ عبادَه من رحمته الخِصْبَ والنّماء[5].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ مادّةً وصيغةً:

تـحـقّـقُ فـوائـدِ المطرِ ووجودِ أثرِه في حياة النّاس من رحـمـة الله تعالى

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بلفظ الإذاقةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ لأنّ الذّوق: وجودُ الطّعمِ بالفَمِ، وأصلُه فيما يَقِلّ تناولُه

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 260.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 160.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 118.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 96.

دونَ ما يكثر، فإنّ ما يكثُر منه يقال له: الأكل[1]، فالتّعبيرُ به يدلّ على أنّ المطر الذي يُغيث النّاسَ ويوفّرُ لهم أسبابَ الحياة منَ الماء والنّماء هو بعضُ رحمةِ اللّه تعالى، وهو أيضًا يُعبّرُ عن بلوغ رحمته لعباده وتحقّقِ المطلوب منها، بأنّهم نالوا فوائدَ المطر، واختيارُ مادّة الإذاقةِ هنا - أيضًا - لِما تُشْعِر به من إدراك أمرٍ محبوب؛ لأنّ المَرء لا يَذوقُ إلّا ما يشتهيه[2]، وجاء التّعبير عنه بصيغة الفعل المضارع؛ للدّلالة على تجدُّد هذه النّعمة وتَكرارِ وقوعِها.

سرُّ إيثارِ لفظِ الإذاقةِ دونَ غيره:

نـسـبـةُ مـتـاعِ الدّنيا إلى الآخرة لا يكادُ يُذكر

أُوثِرَ لفظُ الإذاقة في قوله تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ على غيره كـ (يرحمكم)، أو (يشملكم برحمته)، أو (يصيبكم من رحمته)، وغيره؛ لأنّ لفظ الإذاقة يُستعملُ في مواضع القِلّة بلحاظ دلالتِه: طعمًا، أو قلّةَ أكل، ولمّا كان أمرُ الدّنيا قليلًا، وراحتُها نزرًا، قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾، وأمّا في الآخرة فيرزقُهم، ويُوسِّعُ عليهم، ويُديمُ لهم[3].

توجيهُ التعبير بـ(الإذاقة) بين المجازِ والاستعارة:

رحمةُ الله تعالى نعمةٌ من واسعِ نِعَمِهِ

تُستعملُ الإذاقةُ في مُطلق الإدراك والإحساسِ والشّعورِ بغير الطّعوم إطلاقًا مجازيًّا، فهو منِ استعمال المُقيَّد في المُطلق، وهو مجازٌ مرسلٌ في الحِسّ بعلاقة الإطلاق، وقد اشتُهر إطلاقُ الإذاقة في القرآن الكريم على إدراك الآلام واللّذات، وهي في حقيقتها إحساسُ اللّسان بأحوال الطّعوم، ووجْهُ الاستعارة فيها هنا: الإحساسُ بالرّحمة إحساسًا مكينًا، كتمكُّن ذوقِ الطّعام من فم ذائقِه حين يجدُ له لذّةً، أو هي مسْتعارَةٌ للإعطاء المُشتمِلِ لإدراك أثرِ النّعمة؛ إذِ الذّوقُ إدراكُ الطّعومِ، وعلى الاتّساع يُستعملُ لإدراك

(1) الرّاغب، المفردات: (ذوق).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 12.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 107.

سائر المحسوسات والحالات؛ بحَيْثُ يجد لذَّتَها مُطْلَقًا، سواء كانت لذَّةَ الطّعم، أو لَذَّةَ الشَّمّ والسّمع وغيرِها، ووجهُ الشّبهِ بَيْنَهُما: أنّ وجدان اللَّذَّةِ يترتَّب على الإعطاء، كما يترتّب على الإذاقة[1].

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

المطرُ تلكَ النّعمةُ العظيمةُ هو بعضٌ من رحمة الله تعالى

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وهي هنا دالّةٌ على التّبعيض[2]، فالمطرُ الذي تبشِّر به الرّياحُ هو بعضُ رحمة اللّه تعالى، والتّبعيضُ هنا يدلُّ على عَظَمَة تلك النّعمة، فكلُّ النّعم التي تأتي من إرسال الرّياح وما يتبعُها منَ المطر ونزولِ المياه العذبةِ، لتسقيَ النّباتَ والأشجار، وتحقّقَ صحَّةَ الأبدان، وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلّا خالقها، ولا يتصوّرُها إلّا من فَقَد الرّياحَ، من وجود الرّوح وزكاءِ الأرض، وإزالةِ العُفونة منَ الهواء، وغيرِ ذلك، كلُّه بعضُ رحمته تعالى[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالرّحمة:

المطرُ المُغيثُ محضُ رحمةٍ منَ المولى تعالى

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الرّحمة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ للدّلالة على المطر[4]، فرحمةُ اللّه تعالى في السّياق يُراد بها المطرُ، وما يتعلّقُ به منَ النّماء ومن مقدّماتِه من إرسال الرّياح ونشرِ السّحاب.

بلاغةُ المجازِ في لفظ الرّحمة:

منافعُ الإنسانِ الدّنيويّةُ من آثارِ رحمةِ الله

الرّحمةُ بمعنى المطر مجازٌ عنِ المنافع والنِّعم، من خِصبٍ ونماء؛ لكونِها سببًا لها[5]، ووجهُ تشبيهِ الرّحمة بالنّعم والمنافع؛ لأنّها أثرُ الرّحمة، سواءٌ أُريدَ بها إرادةُ الخير، أوِ الإكرامُ والإنعام، والتّعبيرُ بها بوصْفها فضلًا[6].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/ 30.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 260.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 114.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 118.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 160.

(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/ 30.

سرُّ الإضافةِ في ﴿رَّحۡمَتِهِۦ﴾:

عظَمةُ الرّحمةِ المنسوبةِ إلى الله تدلُّ على عظيم الامتنان

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّحمة إلى ضمير الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾؛ تفخيمًا لشأن تلك الرّحمةِ، وتعظيمًا لها، وإظهارًا لعظيم عنايتِه تعالى بعباده، فهو يصيبُهم بالرّحمة المنسوبة إليه.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَلِتَجۡرِيَ﴾:

جَرَيانُ الفُلْك في البحار يُظهرُ حِكمةَ خَلْق الرّياح

عطفَ النّظمُ الجليلُ جَريانَ الرّياح في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ على العِللِ السّابقةِ منَ التّبشير والإذاقة؛ للدّلالة على أنّ جَريان الفُلْك في البحار هي عِلّةٌ منَ العلل الدّالّة على الحكمة من خلق الرّياح[1].

نُكْتَةُ تَكرارِ اللّامِ على خلاف الظّاهر:

جَريُ السّفنِ نعمةٌ جليلةٌ فيها الكفايةُ بتحقيق الاتّعاظِ

كرّر النّظمُ الجليلُ ذكْرَ لام الجرّ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ على خلاف الظّاهر؛ فلم يقل: (وتجريَ الفلك بأمره)؛ وذلك للتّنبيه على عظَمة هذه النّعمة؛ لأنّها لكثرة الإلْفِ لها صارت مغفولًا عنها[2]، ويدلُّ ذلك - أيضًا - على أنّها نعمةٌ جليلةٌ جديرةٌ بأن تكون مستقلّةً بالتّعليل.

سرُّ اختيارِ لفظِ الجرْيِ مادّةً وصيغةً:

مَرُّ السُّفنِ بسُرعة أبلغُ في إظهارِ الامتنان

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الجَرْيِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنّ الجَرْيَ يدلّ على المَرّ السّريع[3]؛ وذلك للدّلالة على قوّة الانتفاع بأنّ الرّيح تجعلُ السّفنَ تجري بسُرعة لتحقيق مطالبِ النّاس في التّجارة والسّفر، وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع لاستجلاب الصّورةِ وتصويرِ المشهد، وهذا أبلغُ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 114.

(3) الرّاغب، المفردات: (جرى).

إظهار الإنعام، فلمّا يَستذكرُ الإنسانُ صورةَ تلك النّعمةِ الجليلةِ، ينبعثُ في قلبه وازعُ الاتّعاظ.

نُكْتَةُ إيثارِ الفُلْك على السّفينة:

الفُلْكُ مُستعملٌ في نظْمِ القرآن فـــي ســيــاق الامتنانِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الفُلْك دونَ السُّفُن في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنّه مُستعملٌ في سياق الامتنان؛ فيلاحظُ في أسلوب القرآن الكريم أنّه دأبَ على التّعبير بالسَّفينة عمّا له صاحبٌ من تلك المراكب، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ [الكهف: 71]، أمّا استعمالُ الفُلْك فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لأحدٍ ما، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحجّ: 65]، وجاء الفُلْك في مواضع الامتنان على العباد بتسخيره لهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]، وفي هذه الآية استعملَ الفُلْكَ لكونِه سياقَ امتنانٍ وبيانِ وجوهِ الإنعام على العباد.

سرُّ التّقييدِ بالجارّ والمجرور ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾:

تنبيهُ الغافلين بالإعلامِ بمُكوِّنِ الأسبابِ ومُهَيّئِ وجودِها

قيّد النّظمُ الجليلُ جريَ السّفنِ بشِبْهِ الجُملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾، فدلَّ ذلك على أنّ الجَريَ كائنٌ بأمر اللّه تعالى، وفائدةُ هذا التّقييد: الإعلامُ بمنّة اللّه تعالى؛ فلولا تقديرُ اللّه تعالى ذلك لَما جرتِ الفُلْك، ويندرج تحتَه معانٍ كثيرةٌ؛ كإلهامِه تعالى البشرَ لصنعِ الفُلْك، وخَلْقِ نظامِ الرّيح والبحر لتسخير سيرِها[1].

معنَى الباءِ، ودلالةُ التّعبيرِ بها ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنُه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.

﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ للدّلالة على السَّبَبيَّة، أي: أنّها تَجري بسبب أمرِه تعالى، لا بالأسباب الظّاهرةِ.

دلالةُ الإضافةِ إلى ضمير اسمِ الجلالةِ:

عِظَمُ الامتنانِ بصدورِ أمرِ التّسخيرِ منَ الله تعالى

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الأمر إلى ضمير الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ للدّلالة على عظيم الامتنان، فإنّ الأمرَ بتسخير الرّياح والفلك والبحر إنّما هو أمرُ اللّه تعالى، فالإضافةُ لإظهارِ عظيم المِنّة.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

خلتِ الآيةُ من شِبه الجملة لعدمِ ذِكْرِ البحر

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ يشابه قولَه تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الجاثية: 12]؛ إذ زاد في سورة الجاثية شبْهَ الجملة ﴿فِيهِ﴾ [الجاثية: 12]؛ وذلك لأنّ الآيةَ في سورة الرّوم في ذكر الرّياح، ولم يتقدّم ذِكْرُ البحر؛ فلذا لم يحوج ذِكْر ما يُشير إليه بشِبه الجملة المتضمّنة لضميره، أمّا في سورة الجاثية فالآية في ذكر البحر، وقد تقدّم ذِكْره، قال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ [الجاثية: 12][1].

دلالةُ عطفِ الابتغاءِ من فضلِه على ما قبْله:

ابتغاءُ الخيرِ في التّنقّل في البحارِ نِعمةٌ أخرى من نِعَم إرسال الرّياح

عطفَ النّظمُ الجليلُ الابتغاءَ من فضل اللّه تعالى في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ على ما سبق؛ للتّنبيه على عِظَم هذه النّعمة، فالابتغاءُ من فضل اللّه تعالى بالحركة خلالَ البحار، هو حِكمةٌ من حِكم اللّه تعالى التي مَنّ بها على عباده بتسخير الرّياح[2].

نُكْتَةُ تَكرارِ اللّامِ في ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾:

السّيرُ في البحارُ بتلك الرّياح نعمةٌ جديرةٌ بالشّكر والامتنانِ

كرّرَ النّظمُ الجليلُ ذِكْرَ حرفِ التّعليل (اللّام) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ للتّنبيه على أنّ مجرّد السّيرِ في البحر

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 203، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/ 444.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 115.

والانتقالِ من بلد إلى آخرَ هو نعمةٌ في نفسها، فهي جديرةٌ بالامتنان بأن تكون حِكمةً وعِلّةً قائمةً بنفسها[1].

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الابتغاءِ مادّةً وصيغةً:

الاجتهادُ في الانتفاعِ بما مَنَّ الله به على عباده

عُبِّرَ بلفظ الابتغاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ لدلالته على الاجتهاد في الطّلب[2]، فدلّ التّعبيرُ به على أنّ اللّه تعالى شرع لعباده الاجتهادَ في الانتفاع من فوائد إرسالِ الرّيح بالخير، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعل المضارع؛ للدّلالة على تجدُّد طلبِهم واستمرارِه، وهو يُشير إلى دوام هذه النّعمةِ واستمرارِها.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

الانتفاعُ بحركةِ السّفنِ في البحار نعمةٌ من نِعَمٍ كثيرةٍ متحصّلةٍ منَ الرِّياح

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجَرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وهو هنا دالٌّ على التّبعيض، فإنّ الانتفاع بجَرْيِ السّفن في البحار هو بعضٌ من فضل اللّه تعالى[3]، وهي صالحةٌ أن تكون للابتداء، أي: أنّ اجتهادَكم في الطّلب يَصْدرُ من فضل اللّه تعالى ومنّتِه عليكم، بما سخّرَ لكم من إرسال الرّياح التي تجري السّفنُ في البحار بسببِها.

دلالةُ التّعبيرِ بالفضلِ:

كلُّ نعمةٍ على الإنسانِ هي محضُ فضلٍ من الله

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ (الفضل) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ للدّلالة على أنّ منافع البحارِ كالتّجارة، والصّيدِ، والسّياحةِ، هي من محض فضل اللّه تعالى[4]، فهو وعظٌ للعِباد، وتذكيرٌ بأصل تلك النّعم.

معنَى الواوِ في ﴿وَلَعَلَّكُمۡ﴾:

إرسالُ الرّياحِ نعمةٌ عظيمةٌ تقتضي الشّكرَ

عطفَ النّظمُ الجليلُ رجاءَ الشّكرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 115.
(2) الرّاغب، المفردات: (بغي).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 115.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 70.

﴿تَشۡكُرُونَ﴾ على العلل التي تقدّم ذِكْرُها؛ لبيان الحكمةِ من إرسال الرّياح، وتقتضي الواو أنّ علّة الشّكر عِلّةٌ منفصلةٌ عنِ العِلل سابقةِ الذّكر، فمُجرّدُ إرسالِ الرّياح يقتضي الشّكرَ بلا نظرٍ للحِكم والفوائدِ الأخرى.

سرُّ التّعبيرِ بـ (لعلَّ):

من عللِ الإنعامِ تذكيرُ العبادِ بحقّ المُنعِم

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الرّجاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ للدّلالة على علّة أخرى من عِلل تلك النّعم متقدّمةِ الذِّكر، فـ(لعلّ) هنا مساقةٌ للتّعليل، أي: حصلت تلك النّعمُ كي تشكروا المُنعمَ تعالى على عظيم فضلهِ، وجليلِ مِنَحِه، وواسعِ نعَمِه[1].

دلالةُ تذييلِ الآيةِ برجاءِ الشُّكرِ:

حصولُ الإنعامِ بالتّفضّلِ المحضِ يوجبُ شُكرَ المُنعِمِ

ختم النّظمُ الجليلُ الآيةَ برجاء الشّكر في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ تذييلًا لما سبق ذكرُه في الآية من جزيل النّعم وعظيمِها، فشُكرُ المنعم بتلك النّعم عاقبةٌ واجبةٌ على كلّ عاقلٍ.

سرُّ اختيارِ صيغةِ المضارعِ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

شكرُ النّعمِ المتجدّدةِ واجبٌ على سبيلِ التّجدّدِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع عنِ الشّكر في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لما في المضارع من دلالة على التّجدّد والاستمرار، فيكونُ المطلوبُ الإيتاءَ بالشّكر على سبيل التّجدّد في كلّ زمان؛ وذلك لأنّ تلك النّعم متجدّدةٌ دائمةٌ، فيقعُ التّناسبُ بين النّعمة وشُكرِها.

❁ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الفُلْك والسّفينة:

السّفينةُ ما له صاحبٌ منَ المراكبِ أمّا الفُلْكُ فباعتبارِ الوظيفةِ العامّةِ

دأبَ النّظمُ القرآنيُّ على التّعبيرِ بالسَّفينة عمّا له مالكٌ وصاحبٌ من تلك المراكب، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 70.

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، أمّا استعمالُ الفُلْك فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخر، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحجّ: 65]، وجاء الفُلْك في مواضع الامتنان على العباد بتسخيره لهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]، وكقولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: 73].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾

[الرّوم: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذَكَر النّظمُ الجليلُ ما أنعم اللّهُ به على عباده من نعمة الرّياح وما تُسَبِّبُه من تكوين السّحاب وجَريان الفُلْك في البحر بأمره تعالى، وكان السياق كله لنصر أولياء اللّه وقهر أعدائه، وكانت الرياح مبشرات ومنذرات كالرسل، وكانت موصوفة بالخير في كثرة منافعها وعمومها إن كانت نافعة، ومضارها إن كانت ضارة، أشبه شيء بالرسل في إنعاش قوم وإهلاك آخرين، أتبعَ ذلك بالتنبيه هنا أن عادته ما زالت قديماً وحديثاً قائمة على نصر أوليائه، فأخبر عن إرسال الرسل بالبينات وتتابعهم على الناس دون طول انقطاع[1].

بعدَ الآياتِ والحُججِ إمّا إيمانٌ فنجاةٌ وإمّا إعراضٌ فانتقامٌ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾: (نقم) أصلٌ يَدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[2]، والإنكارُ على الفعل إمّا باللِّسانِ، وإمّا بالعُقوبَةِ، أوِ المعاتبةِ عليه[3]، ومِن ذلك: النِّقْمَةُ مِنَ العَذابِ والانْتِقام، كأنَّه أنكَرَ عليه فَعاقَبَه، والنِّقْمَةُ أيضًا: كَراهَةُ الشَّيءِ كَراهَةً شَديدَةً، يُقال: نَقِمْتُ الأمرَ، إذا بالَغْتَ في كَراهَتِه[4]، والمقصودُ بالانتِقام في الآية: العُقوبَةُ لأجلِ ذَنْبٍ[5]، والانتقامُ: العقوبةُ لِمَن يفعلُ ما لا يُرضي[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 116 - 117، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقم).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (نقم).
(4) الرّاغب، المفردات: (نقم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.

2) ﴿أَجۡرَمُواْۖ﴾: (جرم) أصلٌ واحِدٌ يرجِعُ إليهِ الفُرُوعُ، والجَرْمِ: القَطْعُ[1]، وقيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أهْلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[2]، والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْمِ، وهوَ الإثْمُ العَظيمُ[3]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايَةً[4]، ويأتي بِمعنى الاعْتِداءِ والظُّلْم، فيُقال: أجْرَمَ في حَقِّ أخيهِ، أيْ: ظَلَمَهُ، واعْتَدَى عليه، والمقصودُ بالإجرام في الآية: فعلوا الآثامَ، واكتسبوا السّيّئاتِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

سنّةُ الله بإهلاك الكَفَرة ماضيةٌ على السّابقين واللّاحقين

الآيةُ الكريمة تسليةٌ للنّبيّ ﷺ عمّا يَلقَى من قومه منَ الأذى، بتذكيره بما لقي مَن قبلَه منَ الرّسل من أقوامهم، وتبيينِ سُنّةِ اللّه تعالى فيهم، وأنّ تلك السّنّةَ جاريةٌ عليه ﷺ وعلى قومه: ولقد أرسلنا يا محمّد مِن قبلك رسلًا إلى قومهمُ الكفرةِ، كما أرسلناك إلى قومك الذين يعبدون الأوثان من دون اللّه، فجاؤوهم بالحُجج الواضحةِ الدّالّةِ على صدقهم فكذّبوهم، كما جئتَ أنتَ قومَكَ بالبيّنات، فكذَّبَك قومُك، فانتقمنا منَ الذين أجرموا بما اكتسبوا منَ السّيّئات، ونحن فاعلون ذلك كذلك بمجرمي قومِك، ونجّينا الذين آمنوا؛ إذ جاءهم بأسُنا، وكذلك نفعلُ بك وبمَن آمن بكَ من قومك، ونحن ناصروكَ ومَن آمن بكَ على مَن كفر بك[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواوِ في ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ ودلالتُها:

الاعـتراضُ لتسلية النّبيّ ﷺ

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 113 - 114.

أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ وهي هنا للاعتراض، فالجملةُ معترضةٌ، وفائدةُ الاعتراض هنا تسليةُ النّبيِّ ﷺ، جيء به بين قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾[1]، والذي حَسَّن الاعتراضَ هنا ذِكْرُ نعمةِ الرّياح وما يتبعُها من جَريان الفُلْك، فعَقّبه بذِكْر ما فيه تذكيرٌ بنقمة الطّوفان لقوم نوحٍ ونجاةِ المؤمنين بالفُلْك، فَسيقَ تحذيرًا للمكذّبين من قريش أن يصيبَهم ما أصاب المكذّبين قبلَهم[2].

سرُّ التّوكيدِ بـ (اللّام) و(قد):

تأكيدُ الإرسالِ لـردِّ شبهةِ إرسالِ البشر

أكّد النّظمُ الجليلُ الجملةَ باللّام المُوطّئةِ للقَسَم وحرفِ التّحقيق (قد) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾؛ وذلك للرّدّ على إنكار كثيرٍ من النّاس إرسالَ رُسلٍ من البشر، كما أنّ فيه إشارةً إلى شِدّة الحال التي كان عليها النّبيُّ ﷺ من تكذيب قومِه له[3]، فأكّد النّظمُ الجليلُ أنّ الإرسال من سُنّة اللّه تعالى التي لا تتخلّفُ عن عباده، كما أنّ تكذيب الأقوام لهؤلاء الرّسل أمرٌ مُعتادٌ منهم، فهو تسليةٌ للنّبيّ ﷺ، وتثبيتٌ لفؤاده.

دلالةُ التّعبيرِ بالإرسالِ؛ مادّةً وصيغةً:

التّأكيدُ على إرسالِ النّبيِّ ﷺ برسالةٍ يبلّغها عن ربّه

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالإرسال في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّه يحمل رسالةً، وأنّه مُبلِّغٌ عن ربّه، وجيءَ به فعلًا ماضيًا للدّلالة على تحقّق الإرسال.

السّرُّ في إسنادِ الإرسالِ إلى ضميرِ التّعظيمِ:

إرسالُ الرّسل نعمةٌ جليلةُ القدرِ عظيمةُ الشّأن

أسنَد النّظمُ الجليلُ الإرسالَ إلى الذّات العَليّة المُعبَّر عنها بضمير التّعظيم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ دون أن يقول:

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 116 - 117.

(وأرسل من قبلك)؛ وذلك لأنّ التّعظيم أنسبُ لسياق الانتقام في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾[1]، وإرسالُ الرّسلِ نِعمةٌ جليلةٌ من نِعَم اللّه تعالى، فالتّعبيرُ بضمير التّعظيم للإشارة إلى عظَمة هذه النّعمةِ التي يكفُرُ بها المشركون.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾:

كفايةُ الرّسالاتِ تُغني عنِ الإرسالِ في كلّ الأزمنةِ

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ وهي هنا دالّةٌ على التّبعيض، أي: إنّ إرسال الرّسل قبلَ النّبيِّ ﷺ لم يستغرق كلَّ الزّمان السّابق[2]، وهذا يدلُّ على كفاية الرّسالاتِ التي بعثها اللّهُ تعالى لعباده قبلَ النّبيِّ ﷺ .

إيثارُ التّعبيرِ بالقَبْليّة:

تكذيبُ الرّسل شأنٌ دأبَ عليه الكفّارُ في السّابق

عبّر النّظمُ الجليلُ بالقَبليّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾؛ تذكيرًا بأنّ دأبَ الأمم تكذيبُ رسلِهم، مثلما كذّبت قريشُ النّبيَّ ﷺ، وجاء السّياقُ تسليةً له، فبيّن النّظمُ الجليلُ بلفظ القَبليّة بأنّ التّكذيب ليس بدعًا من قريش، بل إنّ الأقوام قبْلَهم قد كذّبوا رسلَهم، فما تراه من قومك قد سبق أن عانى منه الرّسلُ، فصبروا على عُتوّ قومهم وصدِّهم عنهم.

دلالةُ تنكيرِ ﴿رُسُلًا﴾:

لا يعلمُ عددَ الرّسلِ الذين أرسلهمُ اللهُ تعالى على وجه التّحديدِ إلّا الله

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الرّسل بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾؛ وذلك لِما في التّنكير من دلالة على التّكثير، وعلى تفخيم شأن المذكور وتعظيمِه.

بلاغةُ الجناسِ بين ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿رُسُلًا﴾:

جمع النّظمُ الجليلُ بين اللّفظين: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿رُسُلًا﴾: في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 116.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 117.

تكرارُ ألفاظٍ من مادّة الإرسال تأكيدٌ على عِظَم نعمةِ الرّسالة

الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا﴾ على سبيل الجناس الاشتقاقيّ؛ لكونهما مُشتقَّين من جذرٍ واحدٍ، وهو (رسل)، وهذا يعطي جمالًا بلاغيًّا على النّظم، وذلك بتَكرار ألفاظٍ متوافقةٍ في الجذر، يجعلُ النّصَّ متماسكًا ومسبوكًا لفظًا ومعنًى.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾:

مقصودُ الإرسالِ بلوغُ التّبليغِ للأقوام

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾، وهو هنا دالٌّ على الغاية، فغايةُ الإرسال بلوغُ المرسلين إلى قومهم والنّهايةِ إليهم، وقد بيّن ذلك أنّ المقصود منَ الإرسال هو الأقوامُ، وهذا إظهارٌ لِلُطْفِ اللّه تعالى بعباده، أن يُرسل إليهم مَن يُبلِّغُهم أمرَه وشريعتَه.

سرُّ التّقييدِ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾:

معرفةُ الأقوامِ برسولِهم أدْعى للإيمان به

قيّد النّظمُ الجليلُ الإرسالَ بشبه الجملة ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾؛ للدّلالة على أنّ اللّه تعالى يُراعي حالَ عباده بكونهم إنّما يتّبعون مَن يعرفون حالَه، ولا يأنَسون إلّا لمن عرفوا منَ النّاس، فأرسل إليهم رسلًا من بين أظهُرِهم؛ ليكون ذلك أدْعى أن يؤمنوا بهم.

معنَى الفاءِ في ﴿فَجَآءُوهُم﴾:

المجيءُ بالآياتِ واقعٌ عقبَ الإرسال؛ لطفًا بالعباد

عطفَ النّظمُ الجليلُ المجيءَ بالآيات على الإرسال بالفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، لِما في الفاء من دلالةٍ على التّعقيب والسّببيّة، فالإرسالُ هو المُسبِّبُ لذلك المَجيء، والمَجيءُ بتلك الآيات كان بعد الإرسال على الفور بلا تأخير؛ تحقيقًا لأسباب الإيمان، وإقامةً للحُجّة على العباد.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿فَجَآءُوهُم﴾ مادّةً وصيغةً:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمجيء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَجَآءُوهُم

تقديمُ الآياتِ يأتي بقوّة وفخامةٍ مناسبةٍ لمقام التّبليغ

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾؛ للدّلالة على قوّة تلك الآيات وفخامةِ شأنها، وأنّها جديرةٌ بالإيمان بها، وجاء التّعبيرُ بالفعل الماضي للدّلالة على تحقُّق المجيء.

معنَى الباءِ في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

الآياتُ قرينةُ الرُّسل لا تنفكُّ عنهم

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ وهي هنا للتّعدية، أي: أَحْضَروا معهم الآياتِ والحُججَ شاهدةً على صدقهم، ولمّا كانتِ الباء لا تخلو منَ الدّلالة على الإلصاق، صار المعنى: أنّ المجيء متلبّسٌ بالحُجج والدّلائل، ويصلحُ أن تكون للمصاحبة، أي: إنّ مجيئَهم صاحبَ البيانَ والآياتِ الشّاهدةَ على الصّدق.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مادّةً وصيغةً:

براهينُ الأنبياءِ واضحةٌ بيّنةٌ قائمةُ الحُجّة

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ البيّنات في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ إشارةً إلى أنّ الحُجج والبراهين التي أتى بها الرّسلُ عليهم السلام كانت تتّصفُ بالوضوح والبيان، فهي حُجَجٌ واضحةٌ نيّرةٌ[1]، وجاء التّعبيرُ بصيغة الجمع للدّلالة على كثرة تلك الحُجج وتظافُرِها، على إثبات الصّدق وإظهارِ الحقّ، فضلًا عن دلالتها على العموم؛ تعديدًا للحُجج وتنوّعًا.

معنَى الفاءِ في ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

الانتقامُ مُتسبّبٌ عنِ التّكذيب

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ بالفاء الفصيحة؛ لأنّها تُفصحُ عن كلامٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: فكذّبُوهم فانتقمنا منهم[2]، فالانتقامُ إنّما يقع بسبب التّكذيب، لا بسبب المجيء بالآيات، وفي التّكذيب تعريضٌ بهم من حيثُ تقديمُهم الإعراضَ والجُحودَ عنادًا وكِبْرًا، على إعمال العقل

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 261.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 64.

والتفكّر، وتدلُّ - أيضًا - على التّعقيب، فالانتقامُ كان رِدفَ التّكذيبِ بلا طُول مُهلةٍ.

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ مادّةً وصيغةً:

الانتقامُ عقوبةٌ على الفعل غيرِ المرضيِّ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالانتقام في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾؛ لدلالته على إنْكارِ شَيْءٍ وعَيْبِه، والنِّقْمَةُ مِنَ العَذابِ والِانْتِقام، كَأنَّهُ أنْكَرَ عليه فَعاقَبَهُ[1]، فهو يدلُّ على أنّ العقوبة إنّما جاءت بسبب فعلٍ مُنكرٍ قدّموه، فالانتقامُ هو العقوبة لِمَن يفعلُ ما لا يُرضَى، وجاء التّعبيرُ بصيغة (الافتعال) للدّلالة على حصول أثرِ النِّقم، وهو الإنكارُ والكراهيّة والغضب[2].

السِّرُّ في إسناد الانتقامِ إلى ضمير العظَمةِ:

الانـتـقـامُ في الـغـايـةِ الـعُـليا مـنَ الـشّـدّة؛ لوقوعه منَ الله العظيم ﷻ

أسند النّظمُ الجليلُ الانتقامَ إلى ضمير التّعظيم في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾؛ للدّلالة على أنّ الله تعالى عاقبَهم بما له منَ العظَمة[3]، وهذا يدلُّ على شدّة الانتقام وتهويلِ شأنه، والمُرادُ ترهيبُ كفّارِ قريش من مغبّة كُفرِهم بالنّبيِّ ﷺ، بأنّ مصيركم لا يبعدُ عن مصير أولئك المكذّبين.

عِلّةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

الـتّـعـبـيرُ بالموصولِ يشيرُ إلى عِلّة الانتقام وهي الإجرامُ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصول دون الضّمير في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ فلم يقل: (فانتقمنا منهم)؛ وذلك للدّلالة على علّة الانتقام، وهو ما تضمّنتْه صلةُ الموصول منَ الدّلالة على الإجرام، وفيه تنبيهٌ على المحذوف المُقدّرِ الذي أفصحت عنه الفاءُ[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 117.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 64.

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَجۡرَمُواْۖ﴾ مادّةً وصيغةً:

الإجرامُ قطعُ الإيمانِ ووصلُ الكفرِ والعصيان

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالإجرامِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾؛ لدلالة الجُرم على القطع، فهو تعبيرٌ عن كونهم قطعوا ما أمرَ اللّه تعالى به أن يُوصَل، فوصلوا الكفرَ وقطعوا الإيمانَ[1]، وجاء التّعبيرُ عنه بصيغة الفعل الماضي المُسنَدِ إلى واو الجماعة؛ للدّلالة على أنّهم قد تمالؤوا على ذلك الإجرام جميعًا.

دلالةُ الواوِ في جملة الفاصلة:

إرسالُ الرّسلِ ونصر المؤمنين وعدٌ من الله العظيم

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على جملة القَسَم المُقدَّرةِ في صدر الآية[2]، فلمّا أقسم تعالى على إرسال الرّسل إلى أقوامهم، وبيّن أنّه انتقم منَ الذين أجرموا بما كذّبوا، أتبعَ ذلك بالإخبار بأنّ نصر اللّه تعالى لعباده المؤمنين وعدٌ منه سبحانه، وهو صادقُ الوعد لا يُخْلِفُ الميعاد[3]، فإرسالُ الرّسلِ مُؤكَّدٌ مُحَقّقٌ، ونصرُ المؤمنين بهم حقٌّ ثابتٌ.

فائدةُ التّعبيرِ بالكون:

نصرُ اللهِ تعالى المؤمنين حقٌّ ثابتٌ لا يزولُ

عبّر النّظمُ الجليلُ بفعل الكون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الحقّ ثابتٌ على سبيل الدّوام والثّبوت[4]، فهو تأكيدٌ لكون هذا الحقّ راسخًا بحيثُ لا يعتريه الزّوالُ.

نُكْتَةُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿حَقًّا﴾:

نُصرة أهلِ الحقّ عدالةٌ منَ الله تعالى

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الحقّ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لدلالة الحقّ على الواجب واللّازم[5]، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 117.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 58.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 265.
(4) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 174.
(5) الرّاغب، المفردات: (حق).

أنّ نصر المؤمنين أوجبه اللّهُ تعالى وألزم نفسَه به، وعدًا منه لا خُلْفَ فيه[1]؛ وذلك لأنّ اللّه تعالى عادِلٌ، فكان منَ العدل والحكمة نصرةُ أهلِ الإيمان.

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه:

تقديمُ الحقِّ تفخيمٌ لشأنه وتنويهٌ بقوّة ثبوتِه ولُزومِه

قدّم النّظمُ الجليلُ المُسندَ ﴿حَقًّا﴾ على المُسنَد إليه ﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للاهتمام به، فقدّم الحقَّ الذي أوجبه اللّهُ تعالى على ذاته العليّة تفخيمًا لشأن ذلك الحقّ وتنويهًا به، كما أنّ تأخير المُسنَد إليه فيه تشويقٌ لذِكْره؛ فإنّ السّامع يتطلّعُ ليعرف ما الحقُّ الذي أوجبه اللّهُ تعالى على نفسه، فلمّا سمع أنّه ﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فإنّ ذلك يقع في النّفس أبلغَ موقعٍ.

بلاغةُ التّعبيرِ بشبْه الجملةِ ﴿عَلَيۡنَا﴾:

نصرُ المؤمنين استحقاقٌ بالإيمان

عبّر النّظمُ الجليلُ بشِبْه الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لجعْلِ نصرِ المؤمنين حقًّا ثابتًا على اللّه تعالى مُستحَقًّا لهم، فهو تشريفٌ وتكريم للمؤمنينَ؛ لأنّ حرف الجرّ (على) يفيدُ معنى اللّزوم[2]، فشِبهُ الجملةِ دلّت على أنّ نصر المؤمنين حقٌّ قد أوجبه اللّه تعالى على ذاته العليّة، فضلًا منه وكرمًا لمن آمن وأخلص للّه تعالى[3].

وجهُ إضافةِ النّصرِ إلى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تكريمُ المؤمنين وتشريفُهم بجَعْلِ نصرِهم حقًّا على الله تعالى

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ النّصر إلى المؤمنين في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لتكريم المؤمنين وتشريفِهم بأنّ نصرهم هو الحقُّ الذي أوجبه تعالى على نفسه، وليس مُطلقَ النّصر.

---

(1) الخطيب، السّراج المنير: 3/ 174.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 64، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 186.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 96.

معنَى (أل) في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

النّصرُ واقعٌ لجنس المؤمنين شاملٌ للزّمان والمكان

عرّف النّظمُ الجليلُ المؤمنين بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهي هنا دالّةٌ على الجنس، فاللهُ تعالى ينصرُ كلّ المؤمنين في كلّ زمان ومكان، لا يختصّ بفئة ما منهم دون فئة.

سرُّ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ مادّةً وصيغةً:

الإيمانُ شاملٌ للتّصديق بالأنبياء والاتّباعِ للشّريعة

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإيمان في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنّ الإيمان يُوَصَف به كلُّ مَن أقرّ بالله تعالى وبالنّبوّة[1]، فهو تعبيرٌ شاملٌ لكلّ من اتّبع النّبوّةَ وصدّق وآمن قلبُه، وجاء التّعبيرُ عنهم بصيغة اسمِ الفاعل المجموع للدّلالة على أنّهم عريقون في ذلك الوصف[2].

الفروقُ المعجميّةُ:

الانتقامُ، والتّعذيبُ، والقصاصُ، والعقابُ:

العذابُ إيجاعٌ لا يقتضي السّببَ والانتقامُ العذابُ بسببِ فعلٍ غيرِ مرضيٍّ

العذابُ: هو الإيجاعُ الشّديد[3]، والانتقامُ: يدلّ على إنْكارِ شَيْءٍ وعَيْبِه، والنِّقْمَةُ مِنَ العَذابِ والاِنْتِقام، كَأنَّهُ أنْكَرَ عليه فَعاقَبَهُ[4]، فيدلُّ على أنّ العقوبة تكونُ بسبب فعلٍ مُنكَرٍ قدّموه، فالانتقامُ هو العقوبة لِمَن يفعلُ ما لا يُرضى[5].

وأمّا القِصاصُ: فهو تتبّعُ الدّم بالقَوَد[6]، وأصلُه يَدُلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الأثَرَ، إذا تَتَبَّعْتَهُ، ومِنْ ذَلِكَ: اشْتِقاقُ القِصاصِ في الجِراحِ، وذَلِكَ أنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بِالأوَّلِ، فَكَأنَّهُ اقْتَصَّ أثَرَهُ[7]، فهو خاصٌّ بالعقاب في الجروح.

(1) الرّاغب، المُفردات: (أمن).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 118.
(3) الرّاغب، المُفردات: (عذب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 119.
(6) الرّاغب، المفردات: (قصص).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصّ).

وأمّا العقابُ: فأصلُه من (عقب)، وهو يَدُلُّ على تَأخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ، وإنَّما سُمّيَتْ عُقُوبَةً لِأنَّها تَكونُ آخِرًا، وثانيَ الذَّنْبِ[1]، والعُقوبَةُ والمُعاقَبة والعِقاب يختصّ بالعذاب[2]، فالعقاب هو العذاب الذي يأتي تبعًا للذّنوب.

فالعذابُ يدلُّ على مُطلق الإيجاع، وقد يكون بلا سببٍ، والقصاصُ خاصٌّ بالجروح، والعقاب هو العذابُ المُترتِّبُ على الذّنوب، أمّا الانتقامُ فيدلّ على التّعذيب بسبب فعلِ ما لا يُرضَى، فهو واقعٌ بسبب جُرم قدِ ارتكبَه المُنتقَمُ منه، وهذا الأنسبُ للآية؛ لأنّهم أجرموا فاكتسبوا الذّنوبَ التي استحقّوا بها العقوبةَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ
كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ
أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن
كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ
ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ
ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: 48 - 50]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

حصرُ إرسالِ الرّياحِ وآثارِها على الله تعالى بعد ذِكْر الرّياح المُبَشِّرة

بعد أن أورد النّظمُ الجليلُ الاعتراضَ لتسلية النّبيِّ ﷺ بما وقع للمكذّبين منَ الأقوام، عاد النّظمُ إلى نعمة الرّياح واستئنافِ الحديث عنها، وما يترتّبُ عليها من منافعَ[1].

ومنَ المناسبة: أنّه تعالى لمّا ذكر الاستدلالَ بإرسال الرّياح في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، استدلّ هنا على تفرّده تعالى بالتّصرف بالكون، ثمّ أعقب الاستدلالَ بإرسال الرّياح وما تُسَبّبُه من مطرٍ يُنبِتُ الأرضَ ويُحييها بعد موتها؛ ليستدلّ به على البعث[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتُثِيرُ﴾: (ثور) أصلُه انْبعاثُ الشَّيْءِ[3]، ثارَ الشّيءُ ثَوْرًا وثُؤورًا وثَورانًا وتَثَوَّرَ: هاجَ، وثارَتِ الحَصْبَةُ بفلان: انْتَشَرَتْ، وكُلُّ ما ثارَ فَقَدْ ظَهَرَ، ويُقالُ: ثَوَّرَ فلانٌ عليهمْ شَرًّا، إذا هَيَّجَهُ وأظهره، وكُلُّ ما اسْتَخْرَجْتَهُ أو هِجْتَه، فَقَدْ أَثَرْتَه إثارَةً[4]، وثارَ الغبارُ والسّحابُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 120.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثور).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ثور).

ونحوهما: انتشر ساطعًا، قال تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾[1]، وإثارةُ السّحاب: إنشاؤه بما تُحدثه الرّياح في الأجواء من رطوبةٍ تحصلُ من تفاعل الحرارة والبرودة[2]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: تهييجُ السّحاب وتحريكُه[3].

2) ﴿كِسَفًا﴾: (كسف) أَصْلٌ يَدُلُّ على قَطْعِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، يُقالُ: كَسَفَ العُرْقوبُ بِالسَّيْفِ كَسْفًا يُكْسِفُهُ[4]، والكِسْفَةُ: القِطْعَةُ من الشّيء، والجمع كِسْفٌ وكِسَفٌ، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشّعراء: 187][5]، والكَسْفُ، بالفتح: مصدرُ كَسَفْتُ البعيرَ، إذا قطعتُ عُرقوبَه، وكذلك كَسَفْتُ الثّوبَ، إذا قطعتُه[6]، والمرادُ به في الآية الكريمة: القِطَعُ المتفرّقةُ منَ السّحاب[7].

3) ﴿ٱلْوَدْقَ﴾: (ودق) أصلٌ يدُلُّ على إتْيانٍ وأنَسَةٍ، والوَدْقُ: المَطَرُ؛ لِأَنَّهُ يَدِقُ، أيْ: يَجيءُ مِنَ السَّماءِ[8]، أو هو ما يكونُ من خلال المطر كأنّه غُبارٌ[9]، ويُقالُ للحَرْبِ الشَّديدَةِ: ذاتُ وَدْقَيْنِ، تُشَبَّهُ بِسَحابَةٍ ذاتِ مَطَرَتَيْنِ شَديدَتَيْنِ، ويَقولونَ: سَحابَةٌ وادِقةٌ[10]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: المطرُ.

4) ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: (بلس) أَصْلُه اليَأْسُ، يُقالُ: أَبْلَسَ إذا يَئِسَ، قال تعالى: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ [المؤمنون: 77][11]، وأَبْلَسَ من رحمة اللّه، أي: يَئِسَ[12]، والإِبْلاسُ: الحزنُ المعترضُ من شدّة البأس، يقال: أَبْلَسَ، ومنه اشْتُقّ إبليسُ، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ [الرّوم: 12][13]، والإِبْلاسُ: القُنوط وقَطْعُ الرَّجاءِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه تعالى، وهو

(1) الرّاغب، المفردات: (ثور).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 121.
(3) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 262.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسف).
(5) الرّاغب، المفردات: (كسف).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (كسف).
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 262.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودق).
(9) الرّاغب، المفردات: (ودق).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (ودق).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلس).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (بلس).
(13) الرّاغب، المفردات: (بلس).

الِانْكِسارُ والحُزْنُ، يُقالُ: أَبْلَسَ فُلانٌ إذا سَكَتَ غَمًّا[1]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: اليأسُ مع الانكسار[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إحياءُ الأرضِ برحمةِ الله تعالى الذي يُحيي الأمواتَ يومَ الحساب

إنّ الله تعالى وحده هو الذي يُرسل الرّياحَ، فتُنْشِئُ الرّياحُ سحابًا، فينشرُه تعالى، ويجمعُه في السّماء كيف يشاء، ويجعلُ ذلك السّحابَ قِطعًا متفرّقةً، فترى بعينك المطرَ يخرجُ من بين ذلك السّحاب، فإذا صرفَهُ تعالى إلى أرضِ مَن أراد من خَلْقه؛ فإنّك تراهم يستبشرون بذلك ويفرحون، وقد كان هؤلاء من قبلِ أن يُنَزّلَ عليهم هذا الغيثُ مكتئبين حَزِنين باحتباس المطرِ عنهم، قانطين من رحمة الله، فانظر يا محمّد ويا كلَّ سامعٍ وباصرٍ إلى آثار الغيث، كيف يُحيي الأرضَ الميتة، فينبتُها ويُعشِبُها، من بعد موتها ودُثورِها، وإنّ الذي يحيي هذه الأرضَ بعد موتها بهذا الغيث، لَمُحْيي الموتى من بعد موتهم، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، لا يَعِزُّ عليه شيءٌ أرادَه، ولا يمتنعُ عليه فعلُ شيءٍ شاءَه سبحانه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الجملةِ في صدر الآية:

فُصِلَ الخطابُ لتفصيلِ ما أُجْمِلَ بيانُه من نعمة الرّياحِ

فصل النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لأنّها مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، جيء بها لتفصيل ما أُجملَ فيما سبق من بيان نعمة إرسالِ الرّياح[4]، فهي عَودٌ على الاستدلال بآية الرّياح على عظيم الامتنانِ منَ المولى تعالى على عباده.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ مقدّمًا:

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الجلالة مُقدِّمًا إيّاه على الفعل في قوله

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بلس).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 122.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 114 - 116.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 64.

جلّ شأنُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ للدّلالة على حصر الفعل في ذات اللّه تعالى، فاللّهُ تعالى وحده هو المُتصرّفُ في الرّياح، وذِكْرُ لفظِ الجلالة في مفتتَح الكلام تنويهٌ بِعظَم هذه الآيات العجيبةِ، متضمّنًا إبطالَ دعوَى المشركين بإلَهيّة أصنامهم؛ فهي لا تستطيعُ مثلَ هذا الفعل العظيم[1]، وهي أيضًا عاجزةٌ عن كلّ فعلٍ مهما كان ضئيلًا، وإنّما تذكرُ مثلَ تلك الأفعال التي جعلها اللّهُ تعالى لمنافعِ عباده؛ تذكيرًا لهم بعظيم النّعم المُستوجِبة للشّكر.

إرسالُ الرّياحِ فعلٌ خاصٌّ بالله تعالى وهو من شأن الرّبوبيّة

بلاغةُ التّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ على العهد والتّعيين، فالمشركون لا يَدفعون كونَ اللّه تعالى هو مرسلَ الرّياح ومُجريَ السّحاب.

اعتراف الكفار بأن الله يرسل الريح لا يغني عن إيمانهم به

إيثارُ التّعبيرِ بفعلِ الإرسالِ مادّةً وصيغةً:

آثرَ النّظم الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإرسال في شأن الرّياح في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ لأنّ الإرسال يدلُّ على تحميل المُرسَل أمرًا ما، يبلغُ به إلى غيره، فكأنّ الرّياح رسلٌ تحملُ رسالةَ التّبشير بالخير منَ اللّه تعالى، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مُبَشِّرَٰتٖ﴾، وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع؛ لأنّه يرسلُها مرّة بعدَ أخرى، وفي المضارعة استحضارٌ لصّورة إرسال الرّياح ومشهدِه[2].

البشارةُ بالخيرِ رسالةٌ تحملُها الرّياحُ

معنَى الفاءِ في ﴿فَتُثِيرُ﴾:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الإثارةَ على الإرسال بالفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾؛ للدّلالة على أنّ الإثارة تعقبُ الإرسالَ على التّرتيب، وأنّها كائنةٌ بعدَه على المباشرة، كما أنّ الإرسال سببٌ في الإثارة، كما تدلُّ السّببيّةُ في الفاء.

إثارةُ السّحابِ وإنشاؤُه واقعٌ عقبَ إرسالِ الرّياحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 120.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 118.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿سَحَابًا﴾؛ مفردًا مُنكّرًا:

الرّياحُ تبعثُ جنسَ السّحاب كلِّه صغيرِه وجليلِه

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ السّحاب بصيغة الإفراد في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ وذلك لإرادة الجنس، فليس مرادًا سحابًا بعينه، فالتّعبيرُ بذلك تعبيرٌ عن مُطلَق السّحاب، وجاء التّنكير ليناسبَ التّعميمَ والشّمول، وفيه أيضًا تفخيمٌ لشأن السّحاب الذي أُنشئ برحمة اللّه تعالى وإحسانه على عباده.

معنَى الفاءِ في ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾:

بسطُ السّحابِ يأتي وشيكًا بعد بَعْثِه

عطف النّظمُ الجليلُ بسطَ السّحاب على إثارته بالفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ﴾؛ لأنّ الإثارة تسبقُ البسطَ، وهو يأتي بعدَها وشيكًا، وبسطُ السّحابِ ونشرُه لا يكون إلّا بسبب إثارتِه وجمعِه منَ الأبخرة المنبثّةِ في الهواء.

بلاغةُ التّعبيرِ بالبَسْط مادّةً وصيغةً:

بسطُ السّحابِ بالمَدّ والنّشر متّصلًا بعضُه ببعضٍ

آثرَ النّظم الجليلُ التّعبيرَ بلفظ البسط في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا﴾؛ للدّلالة على نشره ومدِّه بعد جمعه، كما أنّه يدلُّ على اتّصالِ بعضِه ببعضٍ[1]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعل المضارع استحضارًا للصّورة والمشهد، ودلالةً على تجدّد ذلك الفعلِ.

فائدةُ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

تكَوُّنُ السّحابِ يكون في جهة العُلُوّ

عبّر النّظمُ الجليلُ بشِبه الجملة ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالة على أنّ تكَوُّنَ السّحابِ يكون في جهة العُلُوّ، أي: في جهة السّماء، وليس المُرادُ حقيقةَ السّماء المعهودة[2].

---

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 262.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 262.

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾:

للسّحابِ أنواعٌ وكيفيّاتٌ عديدةٌ يقرّرُها اللهُ تعالى

عبّر النّظمُ الجليلُ باسم الاستفهام الدّالّ على الكيفيّة والهيئةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾، أي: يبسطُه في الجوّ بالكيفيّة التي يختارُها ويريدُها، وذلك بأن يجعله كثيفًا، أو متناثرًا، أو من جهة الشّمال، أو منَ الجنوب، أو يجعلَه خفيفًا، أو يباركَ فيه فيجعلَه ثقيلًا[1]، وقد أجاد الإمامُ البقاعيُّ في بيان فائدةِ التّعبير بالاستفهام هنا بقوله: "ولمّا كان أمرُ السّحاب في غاية الإعجاب في وجوده بعد أن لم يكن، وأشكالِه، وألوانِه، وجميعِ أحواله، في اجتماعه وافتراقه وكثافته، وما فيه من مطر ورعدٍ وبرقٍ، وغيرِ ذلك، ممّا لا يعلمُه حَقّ علمِه إلّا اللّه تعالى؛ أشار سبحانه إلى ذلك بأداة الاستفهام"[2].

علّةُ التّعبيرِ بفعل المشيئةِ:

أمرُ السّحابِ عائدٌ لمشيئتِه تعالى لا لغيره

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمشيئة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾؛ للدّلالة على أنّه وحدَه المُتصرّفُ في السّحاب وكيفيّاتِه المختلفة بأن يجعلَه قليلًا أو كثيرًا، وبأوضاع عديدةٍ متباينةٍ، وكلُّ ذلك يفعلُه وحدَه باختياره، فنفَى بذلك أن يكون شأنُ السّحابِ من فِعل الطّبيعة المّجرّدة، أو من فعل غيرِها من آلهتهم وأصنامِهم[3].

معنَى الواوِ في ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ﴾:

تفريقُ السّحاب وتكثيفُه آيةٌ دالّةٌ على قدرة الله تعالى

عطفَ النّظمُ الجليلُ جَعْلَ السّحابِ كِسَفًا على البسط في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾، أي: أنّه تعالى يبسطُ السّحابَ تارةً بأن يجعله ممتدًّا متكاثفًا مغلقًا، ويجعلَه

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 119.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 119.

كِسَفًا تارةً أُخرى، بأن يكون غماماتٍ متفرّقةً متقطّعةً، فالجمعُ بينهما في الذّكر بيانٌ لاختلاف أحوال السّحاب، وهذا يُفضي إلى الدّلالة على سَعة القدرة[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالجَعْل؛ مادّةً وصيغةً:

تصييرُ السّحابِ على حالة دونَ غيرها

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الجَعْل في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾؛ لدلالته على التّصْيير، فهو تصييرُ السّحابِ على حالةٍ دونَ حالة أخرى[2]، وجاء التّعبيرُ بالمضارع لتجدُّدِ ذلك وحدوثِه على الدّوام، وفي المضارعة أيضًا استحضارٌ للصّورة والمشهد، فكأنّ السّامعَ يشاهدُ تفرّقَ السّحاب في السّماء، وهذا أوقعُ في الذّهن وأبلغُ في الوعظ.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿كِسَفًا﴾:

مِن أشكالِ السّحابِ المتقطّعُ المتراكبُ

عبّر النّظمُ الجليلُ بالكِسَف عنِ السّحاب في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾؛ وذلك لأنّ الكِسْفَة هي القِطْعَةُ منَ السّحاب والقُطن، ونحو ذلك منَ الأجسام المتخلخلةِ الحائلة[3]، فهي لفظةٌ لها خصوصيّةٌ على قطعٍ وإبانةٍ لجُزء من شيء عريض[4]، فعبّر بذلك لاختصاص اللّفظة بالمعنى الشّامل للسّحاب وغيره، وللدّلالة على أنّه تعالى يجعلُ السّحابَ قِطَعًا بعضَها فوقَ بعضٍ[5]، أي: غيرَ مُتّصلٍ ولا مُمتدٍّ ولا مبسوطٍ، بل متفرّقٌ متقطّعٌ.

معنَى الفاءِ في ﴿فَتَرَى﴾:

رؤيةُ نزولِ الماء مِنَ السّماء بسببِ إرسالِ الرّياحِ وتَكَوُّنِ السّحاب

عطفَ النّظمُ الجليلُ رؤيةَ المطر بالفاء على ما قبْله من إرسال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 121 - 122.
(2) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(3) الرّاغب، المفردات: (كسف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (كسف).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 97.

الرّياح وما ترتّبَ عليها من إثارة السّحاب وتجمّعِه في جوّ السّماء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦٓ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّ نزول المطر منَ السّحاب ورؤيتَه، حصل بسبب إرسالِ الرّياح، وبسبب جعْلِه متفرّقًا، فالمطرُ نازلٌ من كليهما[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالرّؤيةِ؛ مادّةً وصيغةً:

آيــــةُ المـطـر شـــاخــصــةٌ واضحةٌ تراها كلُّ عينٍ باصرةٍ

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الرّؤية في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذه الآية تُرى بالعين المُجرّدةِ، فهي شاخصةٌ أمامَ أعينهم، وآثرَ التّعبيرَ بالفعل المضارع للدّلالة على أنّ رؤية المطر مُتجدّدةٌ دائمةٌ، ولتصوير المشهد واستحضارِ حالةِ نزول المطر في الذّهن، والفائدةُ من ذلك: إيقاعُ الوعظ على أبلغ وجهٍ، كما أنّ الخطاب في هذا الفعل هو "خطابٌ لغير مُعيَّن، وهو كلُّ من يتأتّى منه سماعُ هذا، وتتأتّى منه رؤيةُ الوَدْق"[2].

إيثارُ التّعبيرِ بالخروج مادّةً وصيغةً:

بـــروزُ المـــاءِ منَ السّحابِ الذي هـــو كـهـيـئـة الـدّخـان آيـةٌ عجيبةٌ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الخروج في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦٓ﴾؛ لأنّ الخروج يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيْءِ[3]، أي: برز من مَقرّه، سواءٌ كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسه، أو في أسبابه الخارجة[4]، فالمطرُ يخرج من أسبابه وهو السّحابُ، فيبرز الماء وينفذُ من خلال تلك الغيوم، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على التّجدُّد والاستمرار، وتصويرِ حالة بروزِ الماء من خلال السّحاب.

معنَى ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ خِلَٰلِهِۦٓ﴾:

ابـتـداءُ خـروجِ المطرِ النّازلِ منَ السّحاب

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 120.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 122.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

(4) الرّاغب، المفردات: (خرج).

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾ وهي هنا ابتدائيّةٌ، أي: ابتدأ خروجُ المطرِ النّازل من ذلك السّحابِ، فالسّحاب هو مصدرُ المطر.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿خِلَٰلِهِۦۖ﴾:

خروجُ الماء من اجتماع السّحبِ وتلاحمِها

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ (الخِلال) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾؛ لدلالته على الفُرجة بين الشّيئَيْن[1]، والمُرادُ: بيانُ أنّ المطر ينفذُ من بين ذلك السّحاب ووسطِه[2]، ولعلّ في ذلك إشارةً إلى أنّ المطر لا يخرجُ إلّا في حالة اجتماع غيومٍ، فيزداد التّكاثفُ بينها فيخرجُ المطرُ من وسطها.

فائدةُ الإضافةِ في ﴿خِلَٰلِهِۦۖ﴾:

ينزلُ الماءُ من السّحاب المبسوطِ والمتقطّعِ

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الخِلال إلى ضمير السّحاب في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ﴾؛ للدّلالة على أنّ المطر يخرجُ منَ السّحاب في كلتا حالتيه؛ حالةِ بسْطِه في السّماء، وحالةِ جَعْلِه كِسَفًا، فإنّ المطر ينزل من خلال السّحاب المغلقِ والغمامات، ومِن قِطَع السّحاب التي بعضُها فوقَ بعض[3].

معنَى الفاءِ في ﴿فَإِذَآ أَصَابَ﴾:

مسرّةُ النّاس متحقّقةٌ برؤية المطر نازلًا

الفاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ دالّةٌ على التفريع، فبعد أن أخبر اللّه تعالى أنَّه يرسل الرّياح مُثيرةً السَّحاب بما يحمله من مطر؛ فرَّع على ذلك الإخبار عن حال الناس من الاستبشار عند نزول المطر بعد أن كانوا في يأس وإبلاس.

دلالةُ التّعبيرِ بـ (إذا):

استبشارُ النّاسِ محقّقٌ بنزول المطر

عبّر النّظمُ الجليلُ بظرف الزّمان (إذا)، الدّالِّ على المستقبل،

(1) الرّاغب، المُفردات: (خلّ).
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 262.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 122.

والمتضمّنِ معنى الشّرط[1] في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على تعلّق استبشارِهم بنزول المطر وإصابتِه لبلادهم، وهذا التّعليق تمهيدٌ لبيان حالهم الذي ستفصّلُه الآيةُ اللّاحقة، فالشّرطُ هنا يُشير إلى أنّ حالَهم كان ضِدَّ حالةِ السّرور والاستبشار؛ لانقطاع المطر عنهم زمانًا بحيثُ أبْلَسوا من رَوح اللّه تعالى، فدلّ ذلك على عظيم النّعمة التي لحقتْهم ورفعتْ ما بهم من حرج وضيقٍ.

إيثارُ التّعبيرِ بالفعل ﴿أَصَابَ﴾ مادّةً وصيغةً:

نزولُ المطرِ حالَ الحاجة إليه من عظيم النِّعم

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ الإصابة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ لدلالة الإصابة على تحقيق المراد، كإصابة السّهم، وهو وقوعُه في الغرض[2]، والمُرادُ أنّ المطر ينزل بأرضِ مَن شاء اللّه تعالى مِن عباده[3]، وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعل المضارع لتجدُّد وقوعِه ودوامِه، وتكرارِ وقوعِه في بلاد شتّى.

معنَى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

إصابةُ العبادِ بالخير كائنةٌ بسبب المطر

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وهو هنا مُستعمَلٌ للدّلالة على الواسطة، أي: أصابهم الخيرُ بواسطة هذا المطر، والإلصاقُ كذلك ظاهرٌ في الدّلالة، حيثُ بلغهمُ المطرُ حتّى التصق بهم أثرُه.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

قدّم النّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور على المفعول

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1790.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صوب).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 97.

نعمةُ المطرِ مقصودُ السّياق وتقديمُ ذِكْره تنويهٌ بشأنه

به في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ للاهتمام بشأن المطرِ الذي هو المقصودُ بالسّياق، فقدّمه تنبيهًا على كونه سببَ إبلاسهم، كما أنّه سببُ استبشارهم، وذلك يُظهر ضعفَهم؛ إذ إنّهم لا يمكنُ لهم العيشُ بلا هذه النّعمةِ الجليلةِ.

سرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾:

المطرُ رحمةٌ لكلِّ عبادِ الله تعالى

آثَرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ على العموم، فالمطرُ الذي يرسلُه اللّه تعالى رحمةً لعباده وغوثًا لهم لا يختصُّ بفئة دون أخرى.

معنَى ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهي هنا بيانيّةٌ، أي: أنّ الذي يشاء أن يصيبَه بالمطر هو من جنس عبادِه.

علّةُ التّعبيرِ بالعباد مادّةً وجمعًا:

كلُّ النّاسِ عبادُ للهِ مؤمنُهم وكافرُهم

آثَرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ (العباد) في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ عبادتَهم له تعالى واجبةٌ عليهم، وأنّهم لا يخرجون من سلطان حكمِه، وأنّهم مُلْزَمون بشُكره، والخضوعِ لأمره[1]، وجاء اللّفظ بصيغة الجمع للدّلالة على شمولهم جميعًا بالعبادة.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾:

كلُّ النّاسِ عبادُ للهِ على جهةِ الإقرارِ أوِ القهرِ

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ العباد إلى ضمير الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على أنّ العباد منتسبون إليه تعالى، سواءٌ على جهة الإقرار ممّن آمن، أو على جهة القهر ممّن كفر وأعرض.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 120.

سرُّ التّعبير بـ ﴿إِذَا﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائيّةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم قد "فاجؤوا الاستبشارَ بمجيء الخِصْبِ"[1]، فأسرعوا إلى إظهار الاستبشار، وهذا يشيرُ إلى كربهم وضيقِهم الذي كانوا عليه، ويدلُّ على عظمة الإنعامِ بالمطر الذي يُسعفُهم منَ العطش والجفاف.

استبشارُ النّاسِ المفاجئُ دليلٌ على شدّة العَوَزِ للماء

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على تأكيد مضمونِ الجملة، فاستبشارُهم وصفٌ ثابتٌ ومؤكّدٌ، وملازمٌ لهم بقرينة نزولِ الغيث.

استبشارُهم وصفٌ ثابتٌ ومؤكّدٌ وملازمٌ لهم

إيثارُ التّعبيرِ بـ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاستبشار في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ للدّلالة على ظهور السّرورِ على ظاهر البَشرة، ودلّت صيغةُ (الاستفعال) على قوّة المعنى وتأكيدِه، أي: يظهرُ عليهم البِشرُ والسّرورُ الذي تشرقُ له البشرةُ ظهورًا بالغًا عظيمًا؛ وذلك لحدوث ما يرجونه منَ الأثر النّافع منَ الخِصْب والرّطوبة واللّين[2]، وفي صيغة (الاستفعال) أيضًا الدّالِّ على الطّلب هاهنا معنى تطلّبهم الشّديدِ للاستبشار، بأمارة نزولِ الغيث بوصفه مُسبّبًا عنه، ومُصاحبًا له، وجاء التّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على دوام استبشارِهم حالَ نزولِ المطر، وتجدُّدِ ذلك السّرور.

فَرِحوا بالمطر حتّى ظهرَ الفرحُ والسّرورُ على ظاهر بَشرتهم

معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾:

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو الحاليّة في قوله جلّ شأنُه:

حالُهم قبلَ المطرِ منافٍ للاستبشارِ والسّرورِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 64.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 120.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ وذلك لبيان حالهم قبلَ نزول تلك الأمطار[1]، فالجملة حاليّةٌ، وفائدةُ هذا الحال بيانُ شدّةِ عجزهم وضعفِهم، فلولا نعمةُ اللّه تعالى عليهم لهلكوا، فكان حريًّا بهم ردُّ شكرِ تلك النّعمة بالإيمان والتوّحيد.

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ في قوله: ﴿كَانُواْ﴾؛ مادّةً وصيغةً:

تمكّنَ الإبلاسُ منهم حتّى استقرَّ فيهم استقرارًا ثابتًا

عبّر النّظمُ الجليلُ بفعل الكونِ بصيغة الفعل الماضي في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾؛ للدّلالة على شدّة تلبّسِ حالة الإبلاس فيهم، فالحالُ أنّهم كانوا في حالة منَ الإبلاس قد تمكّن من نفوسهم[2].

دلالةُ ﴿مِن﴾ ودخوله على الظّرف ﴿قَبۡلِ﴾:

استبشارُهم صدرَ عن حالةِ اليأسِ التي كانوا فيها

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ وهي هنا ابتدائيّةٌ، وجيء بها للدّلالة على أنّ استبشارَهم قد صدرَ عن حالة اليأس التي كانوا فيها، أي: أنّهم قد بلغوا اليأسَ فنزل المطرُ، فوقع استبشارُهم، وهذا يدلُّ على شدّة استبشارِهم بالنّعمة؛ إذ إنّه وقع بعد بلوغهم مرحلةَ الإبلاس، ويحتملُ أنْ تدلّ ﴿مِن﴾ على استغراق زمن قبْليّة نزولِ المطر كلّهِ، بقرينة تَكرار الظّرف والجارّ ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾:

نزولُ الماءِ منَ السّماء متجدّدٌ مُستمرٌّ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدرِ المُؤوَّلِ من ﴿أَن﴾ والفعل المضارع، دونَ المصدر الصّريح في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾، فلم يقل: (من قبل إنزاله عليهم)؛ وذلك لِما في الفعل من دلالةٍ على التّجدُّد والاستمرار، إشارةً إلى أنّ نزول المطر يتجدّدُ في كلّ حين رحمةً منَ اللّه تعالى، فضلًا عن إفادته التّركيزَ على حدث الإنزال من دون بيانِ هيئاته، وكيفيّاته.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 121.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالنّزولِ مادّةً وصيغةً:

نـزولُ المطرِ من فـوقٍ يـدلُّ على محْضِ الإنعامِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالإنزال في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ لأنّ النّزول يدلُّ على انحطاطٍ من عُلُوّ[1]، فالمطرُ ينزلُ من جهة السّماء باتّجاه الأرض التي هي تحت، وهذا يشيرُ إلى انتفاء أسباب البَشر وقدرتِهم عليه، فهو محضُ إنعام منَ الله تعالى، وجيء به فعلًا مضارعًا للدّلالة على تجدّد النّزول، وبُنِيَ لصيغة المفعول للدّلالة على أنّ الإنعام يقع بمطلق النّزول لا بكونه من معيّن، فضلًا عمّا فيه من إيجاز؛ لأنّه لا يخفى أنّ الفاعل هو الله تعالى.

معنَى (على) في ﴿يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾:

أنعَمُ ما يكون المطرُ ما كان متمكّنًا منَ الأرض التي ينزل عليها

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ (على) الدّالّة على الاستعلاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ لدلالة الاستعلاء على التّمكّن، أي: أنّ ذلك المطر قد نزل نزولًا متمكّنًا منهم، وهذا أنعمُ ما يكون عليه المطرُ من حال.

سرُّ تكرارِ الظّرف (قَبْل):

تَكرارُ ظرفِ القَبْليّةِ يُشير إلى طول زمانِ العَوزِ للماء

كرّر النّظمُ الجليلُ الظّرفَ الدّالَّ على القَبْليّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ لتأكيد المعنى، وفائدةُ التّأكيد هنا "الدّلالةُ على أنّ عهدهم بالمطر قد تطاولَ، فاستحكم يأسُهم، وتمادى إبلاسُهم، فكان الاستبشارُ على قدر اغتمامِهم بذلك"[2].

نوعُ اللّامِ في لفظ ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾:

إبلاسُهم واقعٌ على وجه الحقيقةِ والتّأكيد

أدخل النّظمُ الجليلُ اللّامَ على الإبلاس في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾، وهي اللّامُ الفارقةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 491، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 265، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 164، والقنوجيّ، فتح البيان: 10/ 263.

التي تدخل على خبر (إنّ)؛ للتّفريق بين (إنْ) المخفّفة و(إنْ) الشّرطيّةِ، فتنصُّ على أنّ (إنْ) في صدر الجملة هي المخفّفةُ[1]، وأفاد التّأكيدُ رفع التّوهم عن كون إبلاسهم كان مجازًا عن طول الانتظار، بل إنّهم قد يئسوا وأُبلِسوا على وجه التّأكيدِ والحقيقةِ.

يـشـتـدُّ بـأسُ النّـاس بالعَوز لـلـمـاء حتّـى يبلغَهم اليأسُ والحُزن

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

آثَرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ (الإبلاس) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ لدلالة الإبْلاس على الحزن المعترضِ من شدّة البأس[2]، فهو حزنٌ ويأسٌ وانكسار، فقد يئسوا منَ الخير ومن نزول المطر، وصاروا في غمّ وحُزن[3]، وجاء التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على شدّة اليأس الذي كانوا عليه، فصارت صفةُ الإبلاس ثابتةً فيهم، حتّى باتوا عَريقين في الحزن واليأس.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

آثار رحمة الله تـعـالى ظـاهـرةٌ لكلِّ عاقلٍ

افتتح النّظمُ الجليلُ الجملةَ الاعتراضيّة بالفاء الاستئنافيّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، ودلّتِ الفاء على أنّ النّظم رتّبَ الاعتراضَ بالأمر بالنّظر إلى أثر رحمةِ اللّه تعالى لعباده، وإغاثتِهم به، وإحياءِ الأرض بعد موتها بالجفاف، على ما ذُكِر من أسباب تكوّنِ المطر ومقدّماتِه، من إرسال الرّياحِ وجمعِ السّحاب[4]، والاستئنافُ بالفاء يتضمّن دلالةَ الفاء على التّرتيب والسّببيّة والتّعقيب، فآثارُ المطر متسبّبةٌ عنه، مترتّبةٌ عليه، واقعةٌ بعدَه وشيكًا[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 122.
(2) الرّاغب، المفردات: (بلس).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 97.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 64.

بلاغةُ اختيارِ النّظرِ مادّةً وصيغةً:

الأمرُ بالنّظرِ تأكيدٌ على ظهورِ نعمةِ الله الدّالّةِ على كمالِ ربوبيّتِه

عبّر النّظمُ الجليلُ بفعل الأمر في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾، والمُرادُ به: التّنبيهُ على العِظَة والاعتبار، والاستدلالُ على عظَمة الخالقِ تعالى، فالمرادُ بالنّظر التّعقّلُ والاستدلالُ والاتّعاظُ، وجاء الأمر بلفظة (النّظر) للدّلالة على أنّ تلك النّعمة العظيمةَ تُدْرَك آثارُها بالعين، والمُرادُ به التّمهيدُ على ما يعقبُه من أمر البعث المذكور لاحقًا، وجاء الخطاب بصيغة المفرد لغيرِ معيّن؛ فالمُراد كلُّ مَن يتأتّى منه النّظرُ، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾[1].

معنَى ﴿إِلَىٰٓ﴾ في ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ﴾:

غايةُ النّظرِ الوقوعُ على أصلِ النّعمةِ للاستدلالِ على المنعِم

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ الدّالِّ على انتهاء الغاية في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ النّظر مطلوبٌ بحيثُ يقعُ على نتائج نزولِ الغيث، تأكيدًا للاعتبار، والاستدلالِ على المنعِم ﷻ.

بلاغةُ التّعبيرِ بـ ﴿ءَاثَٰرِ﴾:

فوائدُ المطرِ ونتائجُه شاخصةٌ لكلّ بصير

عبّر النّظمُ الجليلُ بلفظ الآثار في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾، لدلالة الأثر على حصول ما يدلُّ على وجوده[2]، فالمُرادُ هو التّنبيهُ على ما نتج منَ المطر، وهي آثارُ رحمة اللّه تعالى؛ لأنّهم لا يرون الرّحمةَ ذاتَها؛ بل يرون آثارَها في حياتهم، والتّعبيرُ عن ذلك بصيغة الجمع لكثرة تلك الآثار وسَعتِها.

سرُّ الاضافةِ في ﴿ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ﴾:

نزولُ المطرِ وآثارُه إنّما هو محضُ نعمةٍ صادرةٍ من رحمة الله

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الآثار إلى الرّحمة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾؛ للدّلالة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123.

(2) الرّاغب، المفردات: (أثر).

على أنّ تلك النّعمةَ إنّما كانت بفضل اللّه تعالى ورحمتِه، فلمّا "لم يكن لذلك سببٌ سوى سبْقِ رحمتِه لغضبه قال: ﴿رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾"[1]، فتحقُّقُ النّعمةِ وظهورُ آثارِها كائنٌ بسبب الرّحمة التي رحم اللّهُ تعالى بها عبادَه.

فائدةُ إضافةِ رحمة إلى اسم الجلالة:

الرّحمةُ التي تأتي منَ الرّحمن الرّحيم جليلةٌ عظيمةٌ

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّحمة إلى اسم الجلالة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا لشأن الرّحمة وتفخيمًا لها؛ فإنّ جلال تلك النّعمةِ بإنزال الماء الذي يسقي الأرضَ، واكتساءَها بأنواع النّباتِ والأشجار، واختلافَ الثّمار، يدلُّ على أنّه رحمةٌ منَ اللّه تعالى[2]، فأضاف لفظها إلى ذاته ﷻ لبيان عظمتِها.

توجيه القراءات في ﴿ءَاثَٰرِ﴾ وبلاغتها:

الإفراد والجمع من التفنن في إيصال المعاني

قَرَأَ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وابْنُ كَثيرٍ وشعبة: ﴿أَثَرِ﴾ بقَصرِ الهَمْزَةِ وحَذْفِ الألِفِ بَعْدَ الثّاءِ على التَّوْحيدِ، وقَرَأ الباقُونَ بِمَدِّ الهَمْزَةِ وألِفٍ بَعْدَ الثّاءِ على الجَمْعِ: ﴿ءَاثَٰرِ﴾، وهُمْ في الفَتْحِ والإمالَةِ على أُصُولِهِمْ"[3] فالحجة لمن وحَّد: أنه اكتفى بالواحد من الجمع، لنيابته عنه، ودليله قوله: ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ [طه: 84]، ولم يقل آثاري، والحجة لمن جمع: أنه أراد به: (أثار المطر في الأرض مرَّة بعد مرَّة)، والمراد بهذا من اللّه ﷻ تعريف من لا يقرُّ بالبعث، ولا يوقن بحياة، بعد موت، فأراهم اللّه تعالى إحياء بعد موت، ليعرفوا ما غاب عنهم بما قد شاهدوه عيانًا، فتكون أبلغ في الوعظ لهم، وأثبت للحجة عليهم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 121.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 121 - 122.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 345.
(4) ابن خالويه، الحجة، ص: 283.

بلاغةُ التّعبيرِ باسمِ الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾:

كيفيّةُ إعادةِ الخَلْق ماثلةٌ للنّاس بكيفيّة إحياءِ الأرض بالنّبات

عبّر النّظمُ الجليلُ باسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾، الدّالِّ على الحالة والهيئةِ والكيفيّةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ المأمور به هو النّظرُ إلى كيفيّة إحياء الأرض بعد موتها بالجفاف[1]، وإنّما عبّر عن ذلك بالاستفهام دون أن يقول: (فانظر إلى هيئة الأرض، وكيفيّة إحيائها)؛ لأنّه نبّه باسم الاستفهام على عظَمته، وأنّه من عِظَم الحال، بحيثُ إنّه جديرٌ بأن يُسأل عن كيفيّته، فلأنّه لمّا صار مألوفًا لكثرة تَكراره، نبّه عليه بالاستفهام[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في إحياء الأرض وموتِها:

الأرضُ مُماثلةٌ للأحياء فجفافُها موتٌ وإنباتُها إحياء

استعار النّظمُ الجليلُ لفظَ الموتِ والحياة في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾، فأطلقَ على إنبات الأرض إحياءً، وأطلقَ على جفافها موتًا[3]، فشَبّه الأرضَ بكائن بكلتا حالتيه عندما يكون حيًّا وميّتًا؛ فشَبّه إنباتَ الأرض بالحياة، وجفافَها بالموت، وهي استعارةٌ مكنيّةٌ لحذفه المُشبَّه به.

إيثارُ فعلِ الإحياءِ مادّةً وصيغةً:

نُموُّ النّباتِ بماء السّماء هو حياةٌ لها

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإحياء في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾؛ لأنّ الحيّاة تُطلقُ على القوّة النّامية الموجودةِ في النّبات والحيوان، فيُقال: نباتٌ حَيٌّ[4]، فلمّا نمتِ النّباتاتُ بالماء أطلق عليه لفظَ الحياة، وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع؛ لأنّه يتجدّد ويستمرُّ، ولاستحضارِ تلك الحالةِ العَجيبةِ الشّأنِ في مشاهدة السّامِع، وهي اخضرارُ الأرضِ بآثار رحمةِ اللّه بعد جَفافِها[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123.
(4) الرّاغب، المفردات: (حيي).
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 266.

دلالةُ التّقييدِ بقوله: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾:

إحـيـاءُ الأرض بعد تمامِ موتِها من عظيم مِنّةِ الله على العباد

قيّد النّظمُ الجليلُ إحياءَ الأرض بكونه بعد موتها في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾؛ للنّصّ على أنّ إحياءَ الأرض بذلك المطر كان بعدَ موتها بالجفاف على التّمام، وهذا يُظْهِرُ عِظَمَ الامتنان بتلك النّعمةِ الجزيلة.

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾:

بناءُ الاستدلالِ على البعث يومَ القيامة بإحياء نباتِ الأرض في الدّنيا

فَصل النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لأنّها مُستأنَفةٌ جيء بها لإنشاء الاستدلال على طريقة الإدماج؛ فأدمج دليلَ البعثِ عَقِبَ الاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها[1]، فالاستئنافُ للشّروع بالاستدلال بإحياء الأرض المَواتِ، على إحياء البشر الأمواتِ[2].

سرُّ تعدّدِ المؤكِّداتِ:

تـأكيـدُ حقيقةِ الإحياءِ للإنكار على المُنكرين

عدّد النّظمُ الجليلُ المؤكّداتِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، فجاء بالجملة الاسميّة مصدَّرةً بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾، وبلام التّأكيد في الخبر؛ والمُرادُ تقويةُ مضمونِ الجملة، وتقريرُ الخبر[3]، وفائدةُ التّأكيد للرّدّ على إنكار مُنكري البعث وإحياءِ الموتى يوم القيامة، فمذهبُ الإنكار يستلزم قوّةَ الإقرار.

مرجعُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، ودلالةُ التّعبيرِ به للبعيد:

الإلـــهُ الــذي يُـحـيـي الأرضَ بعد موتِها شأنُه عـظـيـم وأمــرُه جليل

عبّر النّظمُ الجليلُ باسم الإشارة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهو عائدٌ إلى اسم الله تعالى، بما أُجريَ عليه من الإخبار بإحياء الأرض بعد موتها، ليفيد اسم الإشارة معنى أنَّه جدير بما يرد بعده من الخبر عن المُشار إليه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123 - 124.
(2) القنوجي، فتح البيان: 10/ 264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 124.

وآثرَ التّعبيرَ بصيغة البُعْد للتّعظيم، أي: ذلك الإلهُ البعيدُ الشّأن في العظَمة بما ظهر من آثار رحمتِه في عباده.

إيثارُ لفظِ ﴿لَمُحۡيِ﴾ مادّةً وصيغةً:

ثبوتُ صفةِ الإحياء وتأكيدُها لله ﷻ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإحياء بصيغة اسم الفاعل في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾؛ للدّلالة على ثبوت صفةِ الإحياء وتأكيدِها، أي: "ما زال قادرًا على ذلك، ثابتًا له هذا الوصفُ ولا يزال"[1]، فوَعْدُ اللّهِ مقطوعُ الحصولِ، "فإنَّ الإنسان إذا قال: إنّ المَلك يعطيك، لا يفيد ما يفيدُ قولُه: إنّه مُعطيك؛ لأنّ الثّاني يفيد أنّه أعطاك، فكان وهو مُعطٍ متّصفًا بالعطاء، والأوّل يُفيد أنّه سيتّصفُ به، ويتبيّنُ هذا بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ﴾ [الزّمر: 30] فإنّه آكَدُ من قوله: (إنّك تموت)"[2].

دلالةُ الإضافةِ ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾:

صفةُ إحياءِ الموتَى صفةٌ ثابتةٌ لله تعالى

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الإحياء إلى الموتى في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فعرّف (محيي) بإضافته إلى الموتى، وهو إضافةُ اسمِ الفاعل إلى معموله، وإضافةُ اسم الفاعل تدلُّ على أنّ الوصف كائنٌ بالزّمن الماضي؛ وذلك لتأكيد المعنى، وتقريرِ تحقيقه، أي: "ما زال قادرًا على ذلك، ثابتًا له هذا الوصفُ ولا يزال"[3].

معنَى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾:

عرّف النّظمُ الجليلُ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾ للدّلالة على الجنس، أي: يُحيي جميعَ الموتى منَ النّاس.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 122.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 109.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 122.

الجمعُ بين الموتِ والحياةِ تنويهٌ على عظيم القدرةِ

بلاغةُ الطّباقِ بين الإحياءِ والإماتةِ:

جمع النّظمُ الجليلُ بين لفظتَي الموت والحياة في عبارة واحدة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾، على سبيل الطّباق بجمع الضّدّين، لِما فيه من جمالٍ في النّظم، وتقويةٍ للمعنى بتأكيد تحقيقِ الحياة في الموتى.

مُحيي الموتَى لا يُعجِزُه شيءٌ

دلالةُ الواوِ في ﴿وَهُوَ﴾:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، على الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾ بالواو العاطفة[1]، والجملةُ مسوقةٌ تذييلًا مقرِّرًا لمضمون ما سبق، أي: أنّه بالغُ "القُدرةِ على جميع الأشياء، التي من جملتها إحياؤُهم، لِما أنَّ نسبةَ قُدرتِه إلى الكُلِّ سواءٌ"[2].

معنَى ﴿عَلَىٰ﴾ في ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ وذلك للدّلالة على تمكّن قدرتِه تعالى من كلّ شيء.

كلُّ شيءٍ داخلٌ تحت قدرةِ المولى تعالى

دلالةُ الإضافةِ في ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

أضاف النّظمُ الجليلُ لفظَ الكلّيّة إلى الشّيء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ للدّلالة على تعلّق قدرتِه بعموم الأشياء، أي: ما ذُكر في السّياق، وما لم يُذكر؛ لأنّ قدرته تعالى متعلّقةٌ بكلّ ممكنٍ بنسبة غيرِ متباينةٍ[3].

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَد:

قدّم النّظمُ الجليلُ شبهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور على المُسنَد

---

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1791.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 65.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 123.

مقصودُ السّياقِ بيانُ شمولِ الأشياءِ الدّاخلةِ تحتَ قدرتِه تعالى

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فلم يقل: (وهو قديرٌ على كلّ شيء)؛ اهتمامًا بمتعلّق القدرة، فإنّ قدرتَه تعالى معلومةٌ، ولكنَّ المُرادَ بيانُ كونِها متعلّقةً بعموم الأشياء جميعًا على سبيل الشّمول، فقدّم ما دلّ على ذلك للتّنبيه عليه.

إيثارُ اختيارِ صفةِ القُدرة مادّةً وصيغةً:

يفعلُ اللهُ ما يشاءُ على وفقِ ما تقتضيه الحِكمةُ والحاجة

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ القدرةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لدلالة لفظ (القَدير) على أنّه الفاعل لِما يشاء على وفق ما تقتضيه الحِكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه؛ ولذلك لا يصحُّ أن يُوصَف به إلّا اللّه تعالى[1]، وجاء التّعبيرُ بصيغة المبالغة على وزن (فعيل)؛ للدّلالة على المبالغة في القدرة[2]، أي: هو القويُّ القادر، عظيمُ الشّأن، لا يُعجِزُهُ شيء عن فعل أيِّ شيء[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإثارة والبَعثرة والتّهييج:

الإثـارةُ تهييجُ الشّيءِ وانتشارُه أمّا البعثرةُ فتفريقُ الشّيءِ وتقليبُه

الإثارةُ أصلُها انْبِعاثُ الشَّيْءِ[4]، وثارَ الشَّيءُ: هاجَ، وكُلُّ ما اسْتَخْرَجْتَهُ أو هِجْتَه، فَقَدْ أَثَرْتَه إثارَةً[5]، وثارَ الغبارُ والسّحاب ونحوُهما: انتشر ساطعًا، قال تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾[6]، والمُرادُ به في الآية الكريمة: تهييجُ السّحاب وتحريكُه[7].

أمّا البعثرةُ: فهي قلبُ الشّيء وإثارتُه، بجَعْل أعلاه أسفلَه، وأسفلِه أعلاه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ [الانفطار: 4][8]، وبَعْثَرَ

(1) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 65.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 1/ 27.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثور).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ثور).
(6) الرّاغب، المفردات: (ثور).
(7) القنوجيّ، فتح البيان: 10/ 262.
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بعثر).

الرّجلُ متاعَه، إذا فرَّقه وبدَّدَه، وقلبَ بعضَه على بعضٍ[1]، وتقول: بعثرتُ حوضي، أي: هَدَّمْتُه وجعلتُ أسفلَه أعلاه[2].

أمّا التّهييجُ: فأصلُه يَدُلُّ على ثَوَرانِ شَيْءٍ[3]، وهاج الشّيء: أي ثارَ[4]، يقال: هاجَ البقل يَهيجُ: اصفرَّ وطابَ، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ [الزّمر: 21]، وأهْيَجَتِ الأرضُ: صار فيها كذلك[5]، ويقال: هاجَتْ الإبلُ: عَطِشَت، وهاجت الأرضُ: يَبَس بَقلُها، والمعنى المحوريُّ يدلُّ على جَفافٍ وحِدَّةٍ في الباطن أوِ الأثناء كعطشِ الإبل، وهو حِدَّةٌ في باطنها، وكذلك يُبس الزَرع والبقل: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: 20]، ومنَ الحِدَّة في الباطن: هاجَ به الدمُ، وهاجَتِ السّماءُ فمُطِرنا، والهيجُ: الإزعاجُ، والفتنة، والرّيحُ الشّديدةُ، والحركةُ[6]، والهَيْجاءُ: الحَرْبُ؛ لأنها مَوْطِنُ غَضَبٍ[7]، فالتّهييجُ يدلّ على الإثارة التي فيها نوعٌ منَ الشّدة والحدّة.

فالإثارة: تهييجُ الشّيء وانتشارُه، أمّا البَعثرةُ: فتفريقُ الشّيء وتقليبُه، والتّهييجُ: شدّة الإثارة، وعبّر في الآية بالإثارة؛ لأنّ المُرادَ تهييجُ السّحاب وإنشاؤه، لا تقليبُه.

الوَدْق والمطر والغَيث:

المـطـرُ مُـطـلـقُ المـاء المُنسكبِ والغيثُ ما غاث مِـنَ الـجَـدْب والـــوَدْقُ الماء الآتي من السّماء

الوَدْق: أصلُه يدُلُّ على إتيانٍ وأنَسَةٍ، والوَدْقُ: المَطَرُ؛ لِأنَّهُ يَدِقُ، أي: يَجيءُ مِنَ السَّماءِ[8]، وهو ما يكونُ من خلال المطر كأنّه غبارٌ، وقد يُعبّر به عنِ المطر، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النّور: 43][9].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (بعثر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بعثر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هيج).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هيج).
(5) الرّاغب، المفردات: (هاج).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (هيج).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (هيج).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودق).
(9) الرّاغب، المفردات: (ودق).

أمّا المَطَر: فهو الماء المُنسكِبُ[1]، وأمّا الغَيْثُ: فهو المطر الذي يُغيث الأرضَ إذا أصابها، وغاثَ اللّهُ البلادَ يَغيثُها غَيْثًا[2].

والفرق بين الغيث والمطر: أنّ الغيثَ هو المطرُ الذي يغيث منَ الجَدْب، وكان نافعًا في وقته، وأمّا المطرُ فقد يكون نافعًا، وقد يكون ضارًّا في وقته، وفي غير وقته[3]، وجاء التّعبيرُ في الآية بالودق ليَدُلَّ عن كثافة الماء وشدّته؛ لأنّ المراد رؤيةُ المطر حالَ خروجِه من بين السّحاب، وهو في تلك الحالة يبدو كثيفًا كأنّه دخانٌ وغبارٌ.

الإبلاس واليأس:

الإبلاسُ: القُنوط وقَطْعُ الرَّجاءِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه تَعالَى، وهو الانْكِسارُ والحُزْنُ، يُقالُ: أَبْلَسَ فُلانٌ إذا سَكَتَ غَمًّا[4]، أمّا اليأسُ: فهو قَطْعُ الرَّجاءِ[5] وانتفاءُ الطّمع[6]، والقُنوط، هو نَقيضُ الرَّجاءِ[7]، وعبّرَ بالإبلاس في الآية؛ لأنّ المُرادَ بيانُ شِدّة يأسِهم وانكسارِهم مع حُزنهم، فالمُرادُ اليأسُ مع الانكسار[8].

الإبـلاسُ أخصُّ منَ اليأس فهو يأسٌ مع انكسارٍ وحُزن

(1) الرّاغب، المفردات: (مطر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (غيث).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 391.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بلس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(6) الرّاغب، المفردات: (يأس).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (يأس).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 122.

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾ [الروم: 51]

إصرارُ الكافرينَ في كُلِّ أحوالِهم على الضَّلالِ ونَفْيِ البعثِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانَ تَكْرارُ مُشاهَدة مُنكري البعثِ للاقْتِدارِ الإلهيِّ على تصريفِ الكونِ وإحياءِ الأرضِ بعد موتِها لا يُفيدُهم عِلْمًا باللّهِ تَعالى، بل يزيدُهم غيًّا وضلالًا؛ قدَّم النَّصُّ الكريم في هذه الآية دليلًا آخرَ على مدى سُخفِ هؤلاءِ وضَعفِ عقولِهم، ذلك أنَّ موقفَ هؤلاءِ المُكذِّبين المُعاندين من الأدلَّةِ الدّامغةِ على البعثِ هو التَّمادي في الضَّلالِ والكفرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: (رسل) أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ على الِانْبِعاثِ والِامْتِدادِ، فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وجاءَ القَوْمُ أرْسالًا: يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وأصل الرِّسْلِ: الانبعاث على التّؤدة[2]، والإرْسالُ يقالُ في الإنسانِ، وفي الأشياءِ المحبوبةِ، والمكروهةِ، وقد يكونُ ذلك بالتّسْخير، كإرسالِ الرّيحِ، والمطرِ، نحو: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ [الأنعام: 6]، وقد يكون ببعثِ من له اختيارٌ، نحو إرْسالِ الرّسل والملائكة، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61][3]، والإرْسال: التَّوْجيهُ[4]، والمراد بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: بعثنا ووجّهْنا.

2) ﴿رِيحٗا﴾: (روح) أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَة واطِّرادٍ، وأَصْلُ ذَلِكَ كُلِّهِ الرِّيحُ، وأصْلُ الياءِ في الرّيح الواوُ، وإنَّما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 123.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رسل).

قُلِبَتْ ياءً لِكَسْرَةِ ما قَبْلَها[1]، والمعنى المحوري انبساطٌ أو اتساعٌ وانتشارٌ مع شمولٍ ولطفٍ مع استواءٍ أو نحوه، والرّيحُ معروفة، وهي: الهواءُ المتحرّك، ومادَّتُها مُتَخَلْخِلَةٌ وهي تشملُ الأرضَ وأهلَها، أو هيَ مشمولةٌ في كلِّ خلاءٍ بيننا[2]، والرّيحُ: نَسيم الهَواءِ، وكَذَلِكَ نَسيم كُلِّ شَيْءٍ[3]، وأغلبُ المواضعِ الّتي ذَكَرَ اللّه تعالى فيها إرسالَ الرّيحِ بلفظِ الواحدِ فعبارةٌ عن العذابِ، وأغلبُ المواضعِ التي ذكر فيه الريحَ بلفظِ الجمعِ فعبارةٌ عن الرّحمة[4]، والريح ههنا: ريح مخصوصة للعذاب.

3) ﴿مُصْفَرًّا﴾: (صفر) سِتَّةُ أوجُهٍ: فالأَصْلُ الأَوَّلُ: لَوْنٌ مِنَ الأَلْوانِ التي بين السواد والبياض، والثّاني: الشَّيْءُ الخالي، يُقالُ هو: صِفْرٌ، والثّالِثُ: جَوْهَرٌ مِنْ جَواهِرِ الأَرْضِ يُقالُ: إِنَّهُ النُّحاسُ، وقَدْ يُقالُ: الصِّفْرُ، والرّابِعُ: الصَّفيرُ لِلطّائِرِ، وقَوْلُهُمْ: ما بِها صافِرٌ مِنْ هَذا، أَيْ: كَأَنَّهُ يُصَوِّتُ، والخامس الزّمانُ: وهو صَفَرٌ: اسْمُ هَذا الشَّهْرِ، والصَّفَرِيُّ، نَباتٌ يَكونُ في أَوَّلِ الخَريفِ[5]، وربما سَمَّتِ العربُ الأسودَ أَصْفَرَ[6]، والمرادُ بـ﴿مُصْفَرًّا﴾: اصفرارُ الزرعِ بعد اخضرارِه يَدلُّ على يبسِه، واصفرارُ السحابِ يدلُّ على أنّه لا يُمطرُ، واصفرارُ الرّيحِ يدلُّ على أنّها لا تُلقِّحُ، والضميرُ في (فرأوه) للرّيحِ أو للنَّباتِ، فالآيةُ هنا مع ما قبْلَها تُصوِّرُ تقلُّبَهم ومسارعتَهم إلى الجحودِ والكفرِ من أول شِدّة[7].

4) ﴿لَّظَلُّواْ﴾: (ظلّ) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، وهو الَّذي يُسَمَّى الظِّلَّ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإِنْسانِ وغَيْرِه، ويَكونُ بِالغَداةِ والعَشِيِّ، والفَيْءُ لا يَكونُ إلّا بِالعَشِيِّ، وتَقولُ: أَظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمٌ، وأظَلَّ يَوْمُنا: دامَ ظِلُّهُ، ومِنَ الباب قَوْلُهُمْ: ظَلَّ يَفْعَلُ كَذا، وذَلِكَ إذا فَعَلَهُ نَهارًا[8]، ولا يُقالُ ذَلِكَ إلّا في النَّهارِ لَكِنَّهُ قَدْ سُمِعَ في بَعْضِ الشِّعْرِ ظَلَّ لَيْلَه؛ ومِنْهُ قَوْلُه تَعالَى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ [الواقعة: 65][9]، ويجري مجرى (صار)،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روح).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (روح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (روح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفر).
(6) الجوهري، الصحاح: (صفر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صفر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).

من لزومِ الظِّلِّ وعدمِ مفارقَتِه سَبَبَهُ، فظلَّ يفعلُ كذا، أي: استمرَّ وواصل[1]، وقولُه: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾، أي: استَمَرّوا على عنادِهم وضلالِهم وكفرِهم.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

كفرُ المشركينَ في حالتي السَّرّاءِ والضَّرّاءِ دليلٌ على انطماسِ بصائرهم

ضربَ اللّٰه سبحانَه مثلًا لسَفَهِ الكفّارِ وضلالِهم، فأقسم سبحانه أنه لَئِنْ أرْسَل ريحًا حارَّةً أو باردَةً فضَربَتْ زَرْعَهم بالصَّفارِ، فَرَأَوهُ مُصْفَرًّا بَعْدَ خُضرَتِهِ ونَضارَتِهِ لَيَظَلُّنَّ من بَعْدِ الإرْسالِ، أو من بَعْدِ اصْفِرارِ زَرْعِهِمْ، يَكْفُرونَ من غيْرِ تَلَعْثُمٍ نِعْمَةَ اللّٰهِ تعالى، وفيما ذَكَرَ من ذَمِّهِمْ بِعَدَمِ تَثَبُّتِهِمْ وسُرْعَةِ تَزَلْزُلِهم بَيْنَ طَرَفَي الإفْراطِ والتَّفْريطِ ما لا يَخْفى من الذم والتوبيخ، حَيْثُ كانَ الواجِبُ عليهِمْ أنْ يَتوكَّلوا عَلى اللّٰهِ سُبْحانَهُ في كُلِّ حالٍ، ويَلْجَؤوا إلَيْهِ ﷻ بالِاسْتِغْفارِ، إذا احْتَبَسَ عَنْهُمُ المَطَرُ، ولا يَيْأسوا من رَوْحِ اللّٰهِ تعالى، ويُبادِروا إلى الشُّكْرِ بالطّاعَةِ، إذا أصابَهم ﷻ بِرَحْمَتِهِ، ولا يُفْرِطوا في الِاسْتِبْشارِ، وأنْ يَصْبِروا عَلى بَلائِهِ تَعالى إذا اعْتَرى زَرْعَهم آفَةٌ، ولا يَكْفُروا بِنَعْمائِهِ جَلَّ شَأْنُهُ، فَعَكَسوا الأمْرَ، وأبَوْا ما يُجْدِيهِمْ، وأتَوْا بما يُؤْذيهِمْ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في جملة ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

مسارعةُ المشركين إلى معاودةِ الكفر لأدنى سببٍ دليلٌ على شكِّهم وقنوطِهم

جاءت الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ استئنافية؛ لتبيّن حالًا أخرى من أحوال المشركين، ويمكن أن تكون عاطفة؛ عطفتْ هذه الآيةَ على جُمْلَةِ: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ٤٩﴾ [الروم: 49] وما بَيْنَهُما اعْتِراضٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلل).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 65، والآلوسي، روح المعاني: 20/ 483.

واسْتِطْرادٌ، وهَذِهِ الجُمْلَةُ سيقَتْ لِلتَّنْبيهِ عَلى أنَّ الكُفْرانَ مَطْبوعٌ في نُفوسِهِمْ بِحَيْثُ يُعاوِدُهم بِأدْنى سَبَبٍ، فَهم إذا أصابَتْهُمُ النِّعْمَةُ اسْتَبْشَروا ولَمْ يَشْكُروا وإذا أصابَتْهُمُ البَأْساءُ أسْرَعوا إلى الكُفْرانِ[1].

معنى (اللام) في قوله: ﴿وَلَئِنْ﴾:

اختزالُ الألفاظِ بتقديرِ الجواب وأداءُ المعاني على وجهِ الصَّوابِ

اجتمعَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ قسمٌ وشرطٌ، أما القسمُ فدلَّتْ عليه اللام؛ فهي تُؤْذِنُ بقسم محذوفٍ متقدم، فقد اجتمعَ القسمُ المتقدِّمُ المحذوفُ، والشَّرطُ متأخرٌ عنه، فجوابُ القسمِ هو قولُه تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾، فاللّامُ في (لَئِنْ) موطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ دَخَلَتْ عَلى حَرْفِ الشَّرْطِ.

معنى الفاء في قول: ﴿فَرَأَوْهُ﴾:

تعجلُ الكفارِ في الحكمِ وتَسَرُّعُهُم وقلةُ تَلَبُّثِهِم وفِقهِهِم

يحتمل أن تكون الفاءُ في قوله تعال: ﴿فَرَأَوْهُ﴾ فَصيحَةٌ، وهي تفصح عن كلام محذوف يُمكن أن يُقدَّر كالآتي: ولئن أرسلنا ريحًا ذهب مطرها بكلّ شيءٍ زرعوه، فرأوا نباتهم قد أصابه الاصفرار، أو تكون عاطفة تفيد الترتيبَ والتعقيبَ والسرعةَ، ويختلفُ معناها على اختلافِ عودِ الضمير في ﴿فَرَأَوْهُ﴾، ففي حال عود الهاء على النبات، كما هو رأي كثير من المفسرين، فهي إشارةٌ إلى سرعة تأثير ريح الابتلاءِ في مزروعاتهم وسرعة فسادها، وإذا كان الضمير عائدًا على السَّحابِ الذي تحمله الرّيح أو إلى أثرها، ففيه دلالةٌ على تسرُّعهم وتقلُّبهم دون تثبّتٍ.

نكتةُ إيثار (إنْ) على (إذا) في ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾:

إهلاكُ زروعِ الكُفّارِ أمرٌ غيرُ متحقّقٍ بل هوُ ابتلاءٌ وامتحانٌ مشروطانِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ جاء الشرط بـ(إن) مع كونِ فعل الشرطِ ماضيًا، والقياسُ فيه أن يكونَ مضارعًا؛ لأنَّ حُصولَه يكونُ في الاستقبالِ، فيمتنعُ مُضيُّه وثبوتُه، والغرضُ من الإتيانِ بالماضي التعريضُ بذمِّهم وتوبيخِهم، ولأنَّ ريحَ العذابِ نادرةٌ

(1) التحرير والتنوير: 21/ 124 - 125.

الهبوبِ، على النَّقيضِ من رياحِ الرحمةِ التي هي كثيرةٌ متنوعةٌ، وقد عبّر النَّظْمُ الحكيمُ في الآيةِ الأولى بقولِه تعالى: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: 48] عَلى طَريقَةِ الإخْبارِ عَنِ الإرْسالِ، وقالَ ههُنا: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ لا عَلى طَريقَةِ الإخْبارِ عَنِ الإرْسالِ؛ بل على طريقةِ الشرطِ، باستعمالِ أداةِ الشَّرطِ (إنْ) التي لا تقْتَضي تحقّقَ الوقوعِ، بل هي في الغالبِ لمجرَّدِ الشرطِ، على النقيضِ من (إذا) التي تستعمل في الوقوعِ المتحقّق؛ لِأنَّ الرّياحَ مِن رَحْمَتِهِ وهي مُتَواتِرَةٌ، والرّيحُ مِن عَذابِهِ، وهو تَعالى رَؤوفٌ بِالعِبادِ يُمْسِكُها[1].

بلاغة الاستعارةِ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

التعبيرُ بالإرسالِ يفيد انقيادَ الريحِ التامِّ كانقيادِ العاقلِ المطيعِ

عبَّرَ النَّظم الحكيمُ بلفظ الإرسال عن انتقال الرّيح على وجهِ الاستعارةِ التّصريحيَّة التَّبعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾، حيث شبّه الانتقال بالإرسال بجامع المطاوعة، إذ إرسالُ الرّيحِ هبوبُها من المكانِ الذي تهبُّ فيه إلى محلِّ وصولها، فَشُبِّهَتْ بالعاقل المرسَلِ إلى جهة ما، ومفادُ التشبيه أن الرّيحَ مسخرةٌ في تحوّلها من جهةٍ إلى جهةٍ، والتعبيرُ بالإرسالِ يفيدُ انقيادَها التّامَّ، ومطاوعتَها مطاوعةَ العبدِ الذي يُرْسِلُه سيّدُه حيث يشاء، من غير عناءٍ لسيِّدِه، ومن غير تردّدٍ منه أن يُرْسَلَ.

نكتةُ التعبير بالإرسالِ دونَ البعث:

اقتدارُ اللهِ سبحانه على التصرُّفِ في كافَّةِ أمورِ كونِه من دواعي الإيمان

غَلَبَ على النّظم القرآنيِّ الحكيم التعبيرُ عن هبوب الرّيح بـ(الإرسال) دون (البعث)، ومن ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ إشارةً إلى الاقتدارِ الإلهي على تصريفِ الكونِ كيفما شاءَ الحقُّ سبحانَه؛ وذلكَ لأنَّ في البعث من الحثِّ والتهييجِ ما ليس في الإرسالِ، فلفظة الإرسال أشعرت بسرعة استجابة الرّيح ومطاوعتها للأمر، فاختصَّ كلٌّ من الفعلينِ بمواضعَ تَصْلُحُ له ولا يَصلحُ لها مرادفُه القريبُ منه في المعنَى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 130.

لطيفةُ إسنادِ الإرسالِ إلى نون العظمة:

تفخيم أمر إرسال الريح والابتلاء به

جاء الفعلُ (أرسل) في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ مسندًا إلى ضميرِ الجمعِ، تعظيمًا من شأنِ إرسالِ الرّيح المُؤْذِنِ بالتخويفِ والترهيبِ والعذابِ، فاللّه تعالى هو الذي يتولَّى هذا الإرسال بنفسه دون أن يكله إلى غيره، تعظيمًا من شأنِ هذا الابتلاءِ والامتحانِ بالسَّرّاءِ والضَّراءِ في الإنعامِ والحرمانِ.

دلالةُ التعبيرِ بالرّيح دونَ غيره:

الرّيحُ مُشتمِلٌ على المطرِ والرَّعدِ وهو أدلُّ على شدَّةِ الابتلاءِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بالرّيحِ دونَ المطرِ والرعدِ وغيرهما من أسبابِ الترهيب؛ على سبيل المجاز المرسل، حيث أطلق السَّببَ وأراد المُسبّب؛ لأنَّ منشأ المطرِ والرعدِ من الرّيح، فعبّر بالسببِ العامِّ دونِ السببِ الخاصِّ، ولأن التعبيرَ بالرّيح يشملُ ذلك كلَّه، بخلافِ المطرِ والرعدِ؛ فإنهما لا يشملانِ الرّيحَ بالضرورةِ، وفي ذلكَ دلالةٌ على شدَّةِ الابتلاءِ والامتحانِ بالإنعامِ والحرمانِ.

نكتةُ تذكير ﴿رِيحٗا﴾، ولطيفةُ تنكيرِه:

الإشارةُ إلى جنسِ الرّيح أوقعُ في العذابِ وأشدُّ في الابتلاءِ

جاء لفظُ الرّيح في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ مُذَكَّرًا، عندَ من أعادَ الضميرَ في قوله: ﴿فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ على الريح، وليسَ على النباتِ والزَّرعِ، وفي ذلكِ مخالفةٌ لمُقتَضَى الظاهرِ، إذ الأصلُ أن يكونَ العودُ بضميرِ التأنيثِ، فيكونَ السياقُ (ولئن أرسلنا ريحًا فرأوها مصفرة)، ونكتةُ التذكيرِ هُنا الإشارةُ إلى جنسِ الريح نفسِها، إذ إنَّ ذلكَ أوقعُ في العذابِ وأشدُّ في الابتلاءِ، فليست الرّيحُ هنا مجردَ ريحٍ عاصفةٍ، بل إنَّ جنسَ الريحِ نفسَه هو ما أُرسِلَ عليهم ليبتليَهم بالعذابِ والضَّرّاءِ وهلاك الزرع، بعد أن امتحنوا بالسَّرّاءِ ونماءِ الزرعِ، وأفاد تنكير ﴿رِيحٗا﴾ هنا التَّعظيم والتَّفخيم لشأنها، فهي ريح عظيمة تسبَّبت لهم بالمطر الشَّديد الذي ذهب بكلِّ شيء قد زرعوه.

دلالةُ التعبير بالإفراد دون الجمع في ﴿رِيحًا﴾:

إفرادُ لفظِ الرّيحِ للدّلالةِ على العذابِ

عبّر النَّظمُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحًا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرًّا﴾ بلفظ (الرّيح) مفردةً، والغالبُ على النَّظم القرآنيِّ في المواضعِ الّتي ذَكَرَ اللّهُ تعالى فيها إرسالَ الرّيح بلفظِ الواحدِ أنَ تكونَ للعذاب، وأغلبُ المواضعِ الَّتي ذَكَرَ فيها الرياحَ بلفظِ الجمع أن تكونَ للرحمةِ[1]، وقد ذهب العلماء إلى تخصيصِ إفرادِ لفظِ الرّيح للعذابِ، وجمعِ الرّياحِ للرحمةِ لِوُجوهٍ، **أحَدُها**: أن الرياحَ النّافِعَةَ كَثيرَةُ الأنْواعِ كَثيرَةُ الأفْرادِ فَجَمَعَها، فَإنَّ كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ تَهُبُّ نَفَحاتٌ مِنَ الرّياحِ النّافِعَةِ، ولا تَهُبُّ الرّيحُ الضّارَّةُ في أعْوامٍ، بَلِ الضّارَّةُ في الغالِبِ لا تَهُبُّ في الدُّهورِ، **والثّاني**: هو أنَّ النّافِعَةَ لا تَكونُ إلّا رياحًا، فَإنَّ ما يَهُبُّ مَرَّةً واحِدَةً لا يُصْلِحُ الهَواءَ ولا يُنْشِئُ السَّحابَ ولا يُجْري السُّفُنَ، وأمّا الضّارَّةُ بِنَفْحَةٍ واحِدَةٍ تَقْتُلُ كَريحِ السَّمومِ، والثّالِثُ: هو أنَّ الرّيحَ المُضِرَّةَ إمّا أنْ تَضُرَّ بِكَيْفيَّتِها أو بِكَمّيَّتِها[2].

إفرادُ الرّيحِ للدّلالةِ على التخصيصِ بقومٍ بعينهم

وثمَّة رأيٌ آخرُ جديرٌ بالاعتبارِ، وهو أنَّ التَّتبُّعَ الدَّقيق لكلمتي (الرّياح) و(الرّيح) في القرآنِ الكريم في قراءاته المتواترةِ لا يرجِّحُ التفسيرَ السابقَ المشهورَ، بل يشيرُ إلى أنَّ (الريح) و(الرياح) مجموعةً ومفردةً آية من آياتِ اللّهِ تعالى في إفادةِ الموجوداتِ، في علاقتِها بالسحابِ، والأمطارِ، وإنباتِ الزّورعِ، وقد يكونُ بالتَّدبُّرِ في علاقةِ إحياءِ الأرض والزرع بالحياة والموت، والبعث والنشورِ، وقد يكونُ بتوجيهِ الأنظارِ إلى فعلِها في تسيير السفنِ، وكلُّ هذه أمورٌ عامةٌ للمخلوقاتِ جميعًا، فهي بذلك لا تختصُّ قومًا أو مكانًا أو فردًا أو زمانًا، فهي واردةٌ بلفظِ الجمعِ لذلك، ولكنّها إن وردتْ في سياقٍ معنويٍّ آخرَ يتركَّز على عقاب بعض الأقوام في أزمانٍ مختلفةٍ،

(1) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (روح).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131.

أو في إفادةِ بعضِهم إفادةً خاصةً بهم في أزمانٍ مختلفةٍ، فحينئذٍ لا تكونُ عامةً، فلا تأتي في صيغةِ الجمع؛ لأنَّها أثناء استخدامها تكونُ مختصّةً بقوم مُعَيَّنين، في زمانٍ معين، ومكانٍ معين، وكذلكم عندما تُستخدم في الإفاداتِ الخاصةِ، فتكونُ لذلك مختصّةً لفظيًّا ودلاليًّا، ويتلاءمُ مع هذا السياقِ ورودها في صيغةِ المفردِ، ومن ثَمَّ يمكنُ القولُ إنَّ ورودَ لفظِ الرِّيحِ في صيغةِ الجمعِ في القرآن الكريم يكونُ للدّلالةِ على أنَّها آيةٌ من آياتِ اللّه تعالى، تدعو إلى التَّدبُّرِ لليقين بالبعث والنشور، ولشكر اللّه تعالى على نعمه، ووردها بصيغة الإفراد لتكون خاصة بقومٍ دونَ أقوامٍ، أو بفردٍ دون أفرادٍ، أو بزمانٍ معينٍ ومكانٍ معينٍ[1].

نكتةُ التعبيرِ بالماضي في ﴿فَرَأَوۡهُ﴾:

سوءُ اعتقادِ الكفارِ دافعٌ لهم لسرعة التشاؤُم وتخيّلِ العذابِ والابتلاءِ

عبّر النظم الحكيم بفعل الرؤية في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾؛ لأنَّ من معاني الرُّؤْيَة: إدراكَ المَرْئيِّ بالحاسّة وما يجري مجراها، كما أنَّ من معانيها إدراكَ المرئيِّ بالوهم والتّخيّل، فكأنَّ الكفارَ لشدَّة يأسِهم من رحمة اللّه ولتعجُّلِهم وتقلّبِ نفوسِهم في الشكِّ يبادرون إلى تخيّلِ العذابِ بسبب سوءِ اعتقادهم في اللّهِ ﷻ، وجاءَ الفعلُ في الماضي مبنيًّا على الضم المُقَدَّرِ على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، وهو في محل جزم، عطفًا على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾[2]؛ لأنَّ وقوعَه في سياقِ الشَّرْطِ يَمْحضُه للاستقبالِ، فَأوثِرَتْ صيغَةُ المُضيِّ لِأنَّها أخَفُّ، والمُتكلِّمُ مُخيَّر في اجْتِلابِ أيِّ الصّيغَتَيْنِ مَعَ الشَّرْطِ[3].

نكتةُ إسنادِ الرؤيةِ إلى ضميرِ الجماعة:

اجتماعُ الكفارِ على سرعةِ تبدّلِ الأحوالِ أثرٌ من آثارِ اجتماعهم على الشرك

جاء الفعلُ ﴿فَرَأَوۡهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ

(1) إبراهيم بركات، الريح والرياح في القرآن، ص: 483.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 112.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 125.

﴿مُصۡفَرّٗا﴾ مُسندًا إلى ضميرِ الجمع، للتعبير عن اجتماعِهم على سرعةِ التغيُّرِ والتنكّرِ لِنِعَمِ اللّه دون تلبّثٍ أو تمهّلٍ، وهو أثرٌ من آثار اجتماعِهم على الكفرِ والتكذيبِ باللّه واليوم والآخر وقضية البعث، فلما كانوا جماعةً يُزَيِّنُ بعضُهم لبعضٍ الكفر، كانوا كذلك جماعةً في سرعةِ تقلُّبِهم وقلَّةِ صبرِهم على البلاءِ.

مرجعُ ضميرِ المفعولِ في ﴿فَرَأَوۡهُ﴾:

مــن بـلاغـةِ الإعجازِ القرآنيّ عـودُ الـضـمـيـر عـلى وجـوهٍ صالحةٍ متعددةٍ

الضَّميرُ في قوله سبحانه: ﴿فَرَأَوۡهُ﴾ عائِدٌ عَلى ما يُفْهَمُ مِن سياقِ الكَلامِ، وهو النَّباتُ، وقال بعضهم: إلى الأثَرِ؛ لِأنَّ الرَّحْمَةَ هي الغَيْثُ، وأثَرُها هو النَّباتُ، وقالَ آخر: الضَّميرُ في ﴿فَرَأَوۡهُ﴾ عائِدٌ عَلى السَّحابِ؛ لِأنَّ السَّحابَ إذا اصفَرَّ لَمْ يُمطِر؛ وقال بعضهم: عَلى الرّيحِ، وهَذانِ قَوْلانِ ضَعيفانِ عند أبي حيانَ وغيره[1]، والراجحُ أن الضَّميرَ المَنصوبَ في ﴿فَرَأَوۡهُ﴾ عائِدٌ إلى ﴿ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: 50] وهو الزَّرْعُ والكَلَأُ والشَّجَرُ[2]، ورُغم ذلك فإن اختلافَ عودِ الضمير وتعدد المعاني التي يشير إليها دليلٌ باهرٌ على إعجازِ القرآن الكريم وشمولِه كثيرًا من الأوجُهِ الصّالحةِ الَّتي تتعاضدُ ولا تَتَعانَدُ.

نكتةُ تخصيصِ اللونِ الأصفرِ بالذِّكرِ:

جــاءَ الــلـونُ الأصفرُ في هذا السياقِ مُعـبِّرًا عــن الـسُّـقـم ودلـيـلًا على الابتلاء

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ الأثرَ الذي تُحدثه الريح في النبات بقوله تعالى: ﴿مُصۡفَرّٗا﴾، والاِصْفِرارُ في الزَّرْعِ ونَحْوِهِ مُؤْذِنٌ بِيُبْسِهِ، وقد جاءَ توظيفُ اللَّونِ الأصفرِ حِسّيًّا، من حيثُ وصفُ تحوُّلِ النبات الأخضر بعدما تصيبُه الريحُ، وفيهِ دلالةٌ معنويَّةٌ على الشحوبِ والمرضِ وغيرِها من دلالاتِ السُّقْمِ والابتلاءِ[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 17/ 200.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 125.

(3) خمقاني فائزة، دلالات اللون الأصفر في القرآن، ص: 89.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَّظَلُّواْ﴾:

اللّامُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ﴾ لامُ جوابِ القَسَم؛ أي: وباللّه لَئِنْ أَرْسَلْنا ريحًا حارَّةً أو بارِدَةً فَضَرَبَتْ زَرْعَهم بِالصَّفارِ فَرَأوهُ مُصْفَرًّا لَيَظَلُّنَّ كافرينَ[1]، فأفاد دخول اللام ههنا توكيد كفرهم وشركهم وعنادهم، رغم وضوح الآيات الدالة على البعث واقتدارِه سبحانَه على التَّصرُّفِ في مقاليدِ الكونِ.

اللّام رابطةٌ لجواب القسم وتفيد التّوكيد

دلالةُ التعبير بـ(ظلّ) مادةً وصيغةً:

الأصلُ أن يُستعمل (ظلَّ) لإفادةِ الحكمِ في النَّهار، وقد يخرجُ عن هذا الأصل فيُستعمل استعمال (كان) و(صار) مع قطع النظر عن الأوقات الخاصَّة، وقد وردت (ظلَّ) في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، ليس فيها موضعٌ واحدٌ تَخَصَّصَ الفعلُ فيه بالنهار، ما يدلُّ على أنَّ هذا الأصلَ قليلُ الاستعمالِ جدًا[2]، ولَعَلَّهُ عَبَّرَ بالظُّلولِ لأَنَّ مُدَّةَ النَّوْمِ لا تَجْديدَ فيها لِلْكُفْرِ[3]، وقد جاء الفعل ﴿لَّظَلُّواْ﴾ في صيغة الماضي بِمَعْنى المُستقبل، وعُلِّلَ ذَلِكَ بِأنَّهُ في المَعْنى جَوابُ (إنْ)، وهو لا يَكونُ إلّا مُسْتقبلًا، كما أوثِرَت صيغَةُ المُضيِّ لِأنَّها أخَفُّ[4]، وأشار القرطبيُّ إلى حُسن وقوع الماضي في مَوْضِعِ المُسْتَقْبَلِ لِما في الكَلامِ مِن مَعنَى المُجازاةِ، والمُجازاةُ لا تَكونُ إلّا بالمُستَقبَلِ[5]، وذهب البقاعيُّ إلى أنَّ التعبيرَ بالماضي مَوْضِعَ المُستَقبلِ نَحْوُ (ليَظَلَّنَّ) (واللّه) تأكيدٌ لِتَحقيقِه[6]، وأُسندَ الفعلُ لضميرِ الجمعِ للدلالةِ على اجتماعِهم على كفرانِ النِّعمةِ وإصرارِهم على ذلك فيما يُشبهُ التَّحديَ والعصيانَ.

استحقاق الكفّار المجازاة في الآخرة بسبب تماديهم في غيّهم

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 586، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 65، والآلوسي، روح المعاني: 20/ 483.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 236.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 123.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 125.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 449.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 123.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في القيد ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

تجديدُ الكفرانِ والجحودِ بعد هلاكِ الزّروعِ والثِّمارِ

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ ابتداءَ الغايةِ الزمانيَّة، أي: ابتداءَ تجديدِهم للكُفرانِ والجحودِ بعد هلاكِ الزّروعِ والثِّمار مرةً تلو مرةٍ، بسبب إنكارهم لقضايا البعث والآخرة، وذهب البِقاعيُّ إلى أن ﴿مِنۢ﴾ هنا للتَّبْعيضِ[1].

دلالةُ التعبيرِ بالبعدية في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

تقريعُ الكفار والتشنيعُ عليهم بسببِ مسارعتِهم إلى الكفرانِ والجُحودِ

الضميرُ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ يعود على الاصفرار، أيِّ: من بَعد اصْفِرارِ الزروع وهلاكها[2]، وفي زيادةِ الظَّرفِ دلالةٌ على زيادةِ تقريعِهم والتشنيعِ عليهم بتسرُّعِهم وتقلُّبِ أحوالِهم، وعجلتهم في الضلال والفساد، وكان الأحْرَى بهم أن يشكروا نعمةَ اللّهِ إذا أنعمَ بها عليهم، وأن يصبروا على فقدانها إذا ابتلاهم بفقْدها، ولكنَّ سوءَ اعتقادِهم حال دونَ تحلّيهم بخصالِ التَّوكُّلِ على اللّه، بسبب يَأسِهِمْ مِن رَوحِ اللّهِ وجُحودِهِم لِما أسلَفَ إليهِم مِنَ النِّعَمِ بَعدَ ما تَكَرَّرَ مِن تَعَرُّفِهِ سُبْحانَهُ إلَيهِمْ بالإحْسانِ[3].

دلالةُ اختيارِ مفردةِ الكفر:

استمرارُ المشركين على كفرِهم وجحودِهم من أماراتِ فسادِهم وضلالهم

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عن جحودِ الكفّار لنعم اللّه باستعمالِ مفردة الكفرِ بقوله تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾، والإتْيانُ بِفعلِ التَّصيير ﴿لَّظَلُّواْ﴾ مَعَ الإخْبارِ عَنْهُ بالمُضارِعِ إنَّما هو لِتَصْوِيرِ مُبادَرَتِهِمْ إلى الكُفْرِ ثُمَّ اسْتِمْرارِهِمْ عليه، والحاصِلُ أنَّ المَعْنى أنَّهُ يَغْلِبُ الكُفْرُ عَلى أحْوالِهِمْ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 123.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 123.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 123.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 125.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعث:

في الإرسـالِ أناةٌ وهـدوءٌ وفي الـبـعـثِ حـثٌّ وتهييجٌ

ثمَّة فروقٌ دقيقةٌ بين الإرسال والبعث بصفة عامة، فالإرسال يكون بإرسال شيء جديد؛ أي: برسالةٍ جديدةٍ، أو منهجٍ جديدٍ، أو تغيُّرٍ، أو تعديلٍ في المنهج السابق، حسب الزمان والمكان، والإرسال: لا يصاحبه إثارةٌ ولا تهييجٌ، ولا حثٌّ كما في البعث، والإرسالُ: من مكانٍ إلى مكانٍ، أو إلى مكانٍ جديدٍ، كما أنَّ الإرسالَ أقلُّ شدةً وقوةً ومشقةً مقارنةً بالبعث، أما البعثُ: فهو إحياءُ منهجٍ كان موجودًا سابقًا، وغفلَ عنه النّاس، فإذا أراد اللّه تعالى إحياء نفس المنهج، الذي غفل عنه النّاس، بعث اللّه رسولًا أو نبيًّا لإحياءِ معالم ذلك المنهجِ السابقِ، الذي اندثر؛ أي: باختصارٍ بعثُ شيءٍ قديم، وليس هناك من جديد، كما أنَّ البعثَ يصاحبُهُ إثارةٌ، وحضٌّ، وتهييجٌ على القيام بالعمل وحث عليه، وفيه شدة، ومشقة، وقوة، وعمل؛ أشد من الإرسال[1]، ومن خلال تأمل هذه الفروق يتضحُ أن التعبيرَ بالإرسالِ في الآية الكريمة أليقُ بالسّياق، إذ إنَّ إرسالَ الرّيحِ إنَّما هو لتغيير حالِ هؤلاءِ المكذِّبينَ منَ الرَّخاءِ والنَّعيمِ إلى العذابِ والهلاكِ.

الرؤيةُ والمشاهدةُ:

المشاهدةُ تتطلَّبُ التَّأملَ والتَّدبرَ عـلى خـلافِ الرُّؤيةِ التي قد تـكونُ عَـرَضيَّةً عابرةً

الرُّؤْيَةُ: إدراك المَرْئيِّ، وذلك أضربٌ بحسبِ قوى النَّفْسِ: الأوّلُ: بالحاسّة وما يَجْري مَجراها، والثاني: بالوهمِ والتّخيُّلِ، والثالثُ: بالتّفكّر، والرابعُ: بالعقلِ، ورَأى إذا عُدّيَ إلى مفعولينِ اقتضى معنَى العِلمَ، والرُّؤيةُ قد تكونُ عَرَضيَّةً وقد تكون واعيةً، أمّا المُشاهدةُ فتأتي من (شاهَدَ)، ويقصدُ بها المعاينةُ، وهي تدلُّ على الإدراكِ البصريِّ المباشرِ، أي: رؤية شيء مع التدبر والتأمل والأناة، وغالبًا

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221 - 222.

ما تكون في سياق معين أو في وقت محدد، وهي تتطلب حضورًا فعليًا وانتباهًا مباشرًا وتأملًا واعيًا[1].

ظلّ ولبث:

اللُّبثُ مرتبطٌ بالإقامة في المكان أما الظُّلولُ فمرتبطٌ بالفعلِ وحدَه

ظَلَّ يَفعَلُ كَذا، وذَلِكَ إذا فَعَلَهُ نَهارًا، ويجري مجرى (صار)، من لزوم الظل وعدم مفارقته سببه، فظل يفعل كذا، أي: استمرَّ وواصل، كقوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة: 65]، وقوله: ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾، وأما اللُّبث فهو الإقامةُ بالمكان، وقيل: اللُّبث: الإقامةُ الطويلةُ، فهي أخصُّ من الإقامةِ، فكل لُبثٍ إقامةٌ، وليست كلُّ إقامةٍ لبثًا[2]، ولارتباط الظُّلولِ بالفعل وحده دون اللُّبثِ فقد جاءَ النَّظمُ الكريم باستعمالِ (ظلّوا) دونَ (لبِثوا).

(1) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (رأى) و(شهد).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ظلل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبث).

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ۝٥٣﴾ [الروم: 52 - 53]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

الإصرارُ على كفرانِ النِّعمِ من سماتِ موتى القلوبِ وصُمِّ الأسماعِ وعُمْيِ العيونِ

لمّا عَلَّمَ اللّهُ تعالى رَسولَهُ أنْواعَ الأدِلَّةِ وأصْنافَ الأمْثِلَةِ، ووعَدَ وأوعَدَ ولَمْ يَزِدْهم دُعاؤُهُ إلّا فِرارًا، وإنْباؤُهُ إلّا كُفْرًا وإصْرارًا، بل تمادوا في إصْرارِهِمْ عَلى تَجْديدِ الكُفْرِ[1]، فكان ذلك دَليلًا عَلى خِفَّةِ أحْلامِهِمْ، وسوءِ تَدَبُّرِهِمْ، لذلك كلِّه مثّل اللّه جلّ اسمه للكفار المعاندين بِثَلاثَةِ أصْنافٍ مِنَ النّاسِ، هم: الموتى والصم والعمي، فلَيْسَ في قُدْرَتِهِ ﷺ إسْماعُ الَّذينَ لا حَياةَ لَهُمْ، أو مَوْتى القُلوبِ، إسْماعًا يَنْفَعُهُمْ، ولَمّا بَدَأ بِفاقِدِ حاسَّةِ السَّمْعِ لِأنَّها أنْفَعُ مِن حَيْثُ إنَّ الإنْسانَ إنَّما يُفارِقُ غَيْرَهُ مِنَ البَهائِمِ بِالكَلامِ، أتْبَعَها حاسَّةَ البَصَرِ مُشيرًا، إلى أنه ﷺ ليس بموجِدٍ لَهم هِدايَةً وإنْ كانوا يَسْمَعونَ، ولَمّا كانَ ذَلِكَ كِنايَةً عَنْ إيغالِهِمْ في الكُفْرِ، بَيَّنَهُ بِبَيانِ أنَّ المُرادَ مَوْتُ القَلْبِ وصَمَمُهُ وعَماهُ لا العَمَى الحَقيقيُّ[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾: (سمع) أصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيْءِ بِالأُذُنِ، مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ بفتح السين وكسرها: الذِّكْرُ الجَميلُ، ويُقالُ سَماعِ بِمَعْنَى اسْتَمِعْ، ويُقالُ سَمِعْتُ بِالشَّيْءِ، إذا أشَعْتُهُ لِيُتَكَلَّمَ بِهِ[3]، والسَّمْعُ: قوّة في الأذن به

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 124 - 125.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

يدرك الأصوات، ويُعَبَّرُ تارةً بالسمّع عن الأذنِ، وتارةً عن فعلِه كالسَّماعِ نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء: 212]، وتارةً عن الفهمِ، وتارةً عن الطّاعةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال: 31]، وكلُّ موضع أثبت اللّه السّمع للمؤمنين، أو نفى عن الكافرين، أو حثَّ على تحرّيه فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتّفكر فيه، ومعنى المقصود بالآية: لا تُفْهِمُهم، لكونهم كالموتى في افتقادهم القوّة العاقلة بسوء فعلهم التي هي الحياة المختصّة بالإنسانيّة[1].

2) ﴿ٱلصُّمَّ﴾: (صمّ) صَمَّ يَصَمُّ وصَمِمَ، بِإظْهارِ التَّضْعيفِ نادرٌ، صَمّاً وصمَماً وأصَمَّ وأصَمَّهُ اللّهُ بِمَعْنَى صَمَّ، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسّة السّمع[2]، والمعنى المحوري انسداد سُموم الشيء بالنفاذ فيها بغلظ واستواء ظاهره بذلك[3]، وبه يوصف من لا يُصغي إلى الحقّ ولا يقبله، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وكانوا سامعين ناطقين مبصرين، لكن لما لم يسمعوا القرآن ولم يقرؤوه ولم ينظروا في دلالاته جُعلوا كذلك، وليتهم كانوا فاقدين لهذه الحواس خاصة إنما المصيبة في فقدان تلك البصائر، وقال: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: 71]، والصُّمَّ البُكْمَ: رُؤوسَ الناسِ، جَمْعُ الأَصَمِّ، وهو الَّذي لا يَسْمَعُ، وأراد بِهِ الَّذي لا يَهْتَدي ولا يَقْبَلُ الحَقَّ مِنْ صَمَمِ العَقل لا صَمَم الأُذن[4].

3) ﴿وَلَّوْا۟﴾: (ولي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، وقولهم تَولَّى إذا عُدّيَ بنفسِه اقتضى معنى الولايَةِ، وحصوله في أقرب المواضع منه[5]، وإذا عدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، ومنه قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63]، والتَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: 20]، والتَّوْلِيَةُ: الرُّجوعُ مِن حَيْثُ أتى، وكلُّ (تولى عن) فهي بمعنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا، والحال تُبيِّن ذلك غالبًا نحو ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل: 10][6].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (سمع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صمم).
(3) جبل المعجم الاشتقاقي: (صمم).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).

4) ﴿مُدۡبِرِينَ﴾: (دبر) أَصْلُ هَذا البابِ أَنَّ جُلَّهُ في قياسٍ واحِدٍ، وهو آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِهِ[1]، والدُّبُر مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُه ومُؤَخَّرُه[2]، وجعلْتُ كلامَهُ دَبْرَ أُذُني، أي: أَغْضَيْتُ عنه وتَصامَمْتُ[3]، ويقال: دُبْرٌ ودُبُرٌ، وجمعه أَدْبار، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، وقال: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدامهم وخلفهم، ومنه أدبارُ السُّجودِ: وهيَ أواخرُ الصلوات، و﴿مُدۡبِرِينَ﴾ جمع مُدبر، وهو هنا: من يَبعُدُ عَنْ مَكانِ مَن يُكَلِّمُهُ نفورًا من الاستِماعِ وإعراضًا عن الهداية والرشد[4].

5) ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾: (عمي) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على سَترٍ وتَغطيَةٍ، مِن ذَلِكَ العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَينَينِ كِلتَيهِما، والفِعلُ مِنهُ عَمِيَ يَعمَى عَمًى، ورَجُلٌ عَمٍ، إذا كانَ أَعْمَى القَلْبِ؛ وقَوْمٌ عَمونَ، ويَقولونَ في هَذا المَعْنَى: ما أَعْماهُ، ولا يَقولونَ في عَمَى البَصَرِ: ما أَعْماهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ نَعْتٌ ظاهِرٌ يُدْرِكُهُ البَصَرُ[5]، والعَمَى يقالُ في افتقادِ البصرِ والبصيرةِ، ويقالُ في الأوّل: أَعْمَى، وفي الثاني: أَعْمَى وعَمٍ، وعلى الأوّل قولُه: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: 2]، وعلى الثاني ما وردَ من ذمِّ العَمَى في القرآن نحو قولِه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18]، بلْ لم يُعدّ افتقادُ البصر في جَنْبِ افتقادِ البصيرة عَمًى[6]، والمراد بـ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾ هنا الكفّار الَّذين أعرَضُوا عن سُبل الهدايَة.

6) ﴿ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾: (ضلّ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو ضَياعُ الشَّيْءِ وذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ، لُغَتانِ، وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصْدِ ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالَةُ بِمَعْنًى[7]، والضَّلالُ: فَقْدُ ما يوصِّل إلى المطلوبِ، أو: سُلوكُ طَريقٍ لا يوصِّلُ إلى المَطْلوبِ[8]، أو: العدولُ عن الطَّريق المُستقيم، ويُضادُّه الهداية، ويقال: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، والضَّلالُ من وجه آخر ضربان: ضَلالٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دبر).
(3) الجوهري، الصحاح: (دبر).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (دبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمى).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (عمى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (ضلل).

في العلوم النَّظريّة، كالضَّلالِ في معرفة اللّه ووحدانيَّته، ومعرفة النّبوّة، وضَلالٌ في العلوم العمليَّة، كمعرفة الأحكام الشَّرعيَّة التي هي العبادات، والضَّلالُ البعيدُ إشارةٌ إلى ما هو كفر محض[1].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أثر الضلال على المعرضين أشد من أثر فقدان الحواس

يَقولُ تَعالَى ذكره: فإنَّك يا محمَّدُ، لا تَجعَلُ لَهُم أسماعًا يَفهَمون بها عَنكَ ما تَقولُ لَهُم، وإنَّما هَذا مَثَلٌ مَعناهُ: فَإنَّكَ لا تَقدِرُ أن تُفهِمَ هَؤُلاءِ المُشرِكينَ الَّذينَ قَد خَتَمَ اللّهُ على أسماعِهِم، فَسَلَبَهُم فَهمَ ما يُتلَى عَلَيهِم مِن مَواعِظِ تَنزيلِه، كَما لا تَقدِرُ أن تُفهِمَ المَوْتَى الَّذينَ قَدْ سَلَبَهُمُ اللّهُ أسْماعَهُمْ، بِأنْ تَجْعَلَ لَهُم أسماعًا، وكَما لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ الَّذينَ قَد سُلِبوا السَّمعَ الدُّعاءَ، إذا هُم ولَّوا عَنكَ مُدبِرينَ، كَذَلِكَ لا تَقدِرُ أن توفِّقَ هَؤُلاءِ الَّذينَ قَد سَلَبَهُمُ اللّهُ فَهمَ آياتِ كِتابِه، لِسَماعِ ذَلِكَ وفَهمِه، وما أنْتَ يا مُحَمَّدُ بِمُسَدِّدٍ مَنْ أعْماهُ اللّهُ عَنِ الاستِقامَةِ، ومَحَجَّةِ الحَقِّ، فَلَم يوفِّقهُ لإصابَةِ الرُّشدِ، فَصارِفُهُ عَن ضَلالَتِه الَّتي هو عَلَيها، ورُكوبِه الجائِرَ مِنَ الطُّرُقِ، إلى سَبيلِ الرَّشادِ، يَقولُ: لَيسَ ذَلِكَ بِيَدِكَ ولا إلَيكَ، ولا يَقدِرُ على ذَلِكَ أحَدٌ غَيري، لِأنّي القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ، فما تُسمِعُ السَّماعَ الَّذي يَنتَفِعُ بِه سامِعُهُ فَيَعقِلُهُ، إلّا مَن يُؤمِنُ بِآياتِنا، لِأنَّ الَّذي يُؤمِنُ بِآياتِنا إذا سَمِعَ كِتابَ اللّهِ تَدَبَّرَهُ وفَهِمَهُ وعَقَلَهُ، وعَمِلَ بِما فيه، وانتَهَى إلى حُدودِ اللّهِ، الَّذي حَدَّ فيه، فَهو الَّذي يَسْمَعُ السَّماعَ النّافِعَ، فَهُمْ خاضِعونَ لِلّهِ بِطاعَتِه، مُتَذَلِّلونَ لِمَواعِظِ كِتابِه[2].

۞ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غلبةُ الكفرِ على أحوالِ المشركين حائلٌ دون وصولِ الهداية الربانية

دلالةُ التعبيرِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لِلتَّرتيبِ عَلَى قَوۡلِهِ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ضلل).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 524 - 525.

﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ المُفيد أنَّ الكُفْرَ غالِبُ أحْوالِهِمْ؛ لِأنَّهم بَيْنَ كُفْرٍ باللّهِ وبَيْنَ إعْراضٍ عَنْ شُكْرِهِ، أوِ الفاءُ فَصيحَةٌ تَدُلُّ عَلى كَلامٍ مُقَدَّرٍ، أيْ: إنْ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْراضُهم وساءَكَ اسْتِرْسالُهم عَلى الكُفْرِ؛ فَإنَّهم كالمَوْتى، وإنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى، وهَذه مَعْذِرَةٌ لِلنَّبي ﷺ، ونِداءٌ عَلى أنَّهُ بَذَلَ الجُهْدَ في التَّبْليغِ[1].

فائدةُ التوكيدِ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ﴾:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ عن مسارعةِ الكفّارِ لتجديدِ كفرِهم وشركِهم

جاءَ التوكيد في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بحرف التّوكيد، وبالجملة الاسميّة، وبإعادة المسند إليه مُضمرًا في الفعل ﴿تُسۡمِعُ﴾، وذلك لبيانِ اختصاصِه سبحانَه بالهدايةِ، فلا يَقْدِرُ عليها أحدٌ سواه، فإنَّ مبادرةَ الكفّارِ لتجديدِ كفرِهم وشركِهم لأدنى ابتلاءٍ في أرزاقهم حائلٌ منيعٌ دون سيرِهم في طريقِ الهدايةِ، حتى كأنَّهُم أصبحوا موتى وهُم بعدُ أحياء، فجاء مَوْقِعُ حَرْفِ التَّوْكيدِ فيه كَمَوْقِعِهِ في التَّعْليلِ بِالجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَهُ، وهَذا عُذْرٌ لِلرَّسولِ ﷺ وتَسْلِيَةٌ لَهُ[2]، فأكَّدَهُ لِأنَّهم يُنْكِرونَ أنْ يَكونَ حالُهم كَذَلِكَ، والنَّبيُّ ﷺ شَديدُ السَّعْيِ في إسْماعِهِمْ والجُهْدِ في ذَلِكَ[3].

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ﴾:

بيانُ شدَّة حرصِ النبيِّ ﷺ على قومِه

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، وفي ذلك بيانٌ لشدَّةِ حرصِه على هدايةِ قومِه وتبليغهم رسالة ربه ودعوتهم إلى الإسلام، وفي تخصيص الخطاب له كذلك ﷺ تسليةٌ له عن إعراضِهم وإمعانِهم في الكفرِ والضَّلالِ.

دلالة النفي بـ ﴿لَا﴾ في ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾:

نفيُ استطاعةِ النبيِّ إسماعَ الكفارِ إسماعَ هدايةٍ وإرشاد

جاءت ﴿لَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ نافيةً، وهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 125 - 126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 34.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 125.

متوسّطة بين المسند إليه - وهو ضمير النّبيّ ﷺ - وبين المسند الفعليّ ﴿تُسۡمِعُ﴾، والأصل أن يفيد هذا تقوية الحكم، وقد يُفيد القصر بالقرائن، ولا قرائن هنا، ولذلك أفاد التّوكيد هنا نفيَ استطاعةَ النبيِّ ﷺ على إسماعِ الكفارِ إسماعًا تُرْجَى منه هِدايَتُهم ورشادُهم، لأنَّهُم في حكم المَوتَى، الَّذينَ فقدوا حواسَّهم، ومنها حاسةُ السَّمعِ في المقامِ الأوَّلِ.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع في ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾:

استمرارُ الكفّار على كفرهم ونفي إمكانية تبدُّلهم

خصَّ النظمُ الحكيمُ نفيَ السمع تحديدًا بالذكر في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لأنَّ إدراكَ الكلامِ المُفْهِمِ المُبين بالسماعِ المنصتِ المتدبِّرِ هو أولَى ما تميَّز به جِنسُ الإنسانِ عن جنسِ الحيوانِ والجمادِ، فنصَّتِ الآيةُ الكريمةُ على عدم سماعِهم؛ لأنَّهم أشبهوا الجمادَ في قساوةِ قلوبِهم وإمعانِهم في الضَّلالِ والعصيانِ، وتَنَكُّرِهم لنعم اللّه بمجردِ الابتلاءِ، دون تثبُّتٍ أو تمهُّلٍ.

بلاغةُ المجازِ في التعبير بـ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

كلُّ من أعرضَ عن سماعِ القرآنِ فلم يصلْهُ هديُه ميّتُ القلبِ جامدُ الوجدان

عبَّر النَّظمُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ عن أولئك الذين يسارعون في الكفر وجُحود النِّعم بـ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بمجاز الاستعارة، فاستعيرَ الموتُ لِلْقَوْمِ الَّذينَ لا يَقْبَلونَ القَوْلَ الحَقَّ ويُكابِرونَ مَن يَقولُهُ لَهم، فشُبِّهوا بالمَوتى عَلى طَريقَةِ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّة التّبعيّة بجامعِ انْتِفاءِ فَهْمِهِمْ مَعانيَ القُرْآنِ، إذ إنَّ أثرَ القرآن يعودُ في بعضِ وجوهِهِ على ما يَشْتَمِلُ عَلَيهِ مِنَ المَعاني المَقبولَةِ لَدى أهلِ العُقولِ السَّليمَةِ، وهي المَعاني الَّتي يُدرِكُها ويُسَلِّمُ لَها مَن تَبلُغُ إلَيهِ ولَو بطَريقَةِ التَّرجَمَةِ بِحَيثُ يَسْتَوي في إدْراكِها العَرَبيُّ والعَجَميُّ وهَذا أثَرٌ عَقْليٌّ، فالمُشْرِكونَ شُبِّهوا بالمَوْتى بِالنَّظَرِ إلى إعراضِهم عن هذا الأثَرِ الجليل، ونَفْيُ الإسْماعِ فيهِ تَرشيحٌ لِلاسْتِعارَة، لانْتِفاءِ مُعالَجَةِ إبْلاغِهِمْ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 34 - 35.

نكتة التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ و﴿ٱلصُّمَّ﴾:

التّعريف قد يكون للجنس أو للعهد

أفاد التَّعريف بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الجنسيّة، أي جنس الموتى وجنس الصّمّ، ويمكن أن تفيد (أل) الاستغراق ليعمّهم الموت أو الصَّمم جميعًا، فإنّه ﷺ لا يملك هدايتهم، ويمكن أن يكون التّعريف للعهد على اعتبار أنّ المقصود بهم كفّار قومه.

دلالة تكرار نفي السماع في ﴿وَلَا تُسۡمِعُ﴾:

تأكيدُ عُتوِّ الكفّارِ وموتِ قلوبِهم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ عاطفةٌ، وهي تأكيدٌ لمبلغِ هؤلاءِ الكفّارِ في العُتوِّ في الشركِ وإنكارِ البعثِ وجحودِ النِّعم، فكانَ من المناسبِ عطفُ هذه الجملةِ على سابقتِها؛ لأن الكفرَ موتُ القلبِ، كما أن العصيانَ مرضُه، فمن مات قلبُه بالكفر بطل سمعُه بالكلية، فلا ينفعُه النصحُ أصلًا، ومن مَرضَ قلبُه بالعصيانِ فيسمعُ سمعًا ضعيفًا كالمريض فيحتاجُ إلى المعالجةِ في إزالته حتى يعود سمعه[1].

وكرّرَ النظمُ الحكيمُ نفيَ السمعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾، بعد نفيه في قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، ولَمۡ يُكتَفَ بِأنۡ يُقالَ: (إنَّكَ لا تُسۡمِعُ المَوۡتى ولا الصُّمَّ)، وذلك لتأكيدِ إعراضِهم عن الحقِ، وأنَّهُم مهما تأتِهم من آيةٍ بيِّنةٍ فإنَّهُم مستكبرون معرضون.

بلاغة المجاز في ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

تشبيه الكفّار بالصم لازم لانتفاء الأثر البلاغي للقرآن في أسماعهم

التعبيرُ بنفي سماعِ الصّمّ للدُّعاء استعارة ثانية لِلقوم الّذين لا يقبلون القول الحقّ ويُكابِرون من يقولُهُ لهم، فقد شُبِّهوا أوّلًا بِالموتى على طريقةِ الِاستِعارةِ التّصريحيّة بِجامعِ انتِفاءِ فهمِهِم معاني القُرآنِ، وشُبِّهوا بِالصُّمِّ كذلِك في انتِفاءِ أثرِ بلاغةِ ألفاظِهِ

(1) البروسوي، روح البيان: 7/ 56.

عن نُفوسِهم، واختُصّتِ الاستعارةُ الثانيةُ بنفي أثرِ دلالةِ القرآنِ في "نظمِهِ وبلاغتِهِ على أنّهُ خارجِ عن مقدرةِ البُلغاءِ العربِ، وهذا أثر لفظيّ وهو دليلُ الإعجازِ، وهو خاصّ بالعربِ مُباشرةً، وحاصِل لِغيرِهِم مِن أهلِ النّظرِ والتّأمُّلِ إذا تدبّروا في عجزِ البُلغاءِ مِن أهلِ اللِّسانِ الّذي جاء بِهِ القُرآنُ، فهؤلاءِ يوقِنون بأنّ عجز بُلغاءِ أهلِ ذلك اللِّسانِ على مُعارضتِهِ دالّ على أنّهُ فوق مقدِرتِهِم؛ فالمُشرِكون شُبِّهوا بِالموتى بِالنّظرِ إلى الأثرِ العقلي، وشُبِّهوا بِالصُّمِّ بِالنّظرِ إلى الأثرِ البلاغي، فحصلتِ استِعارتانِ"[1].

نكتةُ تقديمِ نفيِ إسماعِ الموتى في الآيةِ:

قدّم النّظمُ الحكيمُ نفيِ إسماعِ الموتى على نفيِ إسماعِ الصمِّ؛ لأنّ إرشاد الميِّتِ مُحال، والمُحالُ أبعدُ مِن المُمكِنِ، ثُمّ إرشادُ الأصمِّ صعب؛ فإنّهُ لا يسمعُ الكلام وإنّما يفهمُ ما يفهمُهُ بِالإشارةِ لا غير، والإفهامُ بِالإشارةِ صعب، ثُمّ إرشادُ الأعمى أيضًا صعب، فقال أوّلًا: لا تُسمِعُ الموتى، ثُمّ قال: ولا الأصمّ، ولا تهدي الأعمى الّذي دون الأصمِّ[2].

التّـــدرُّجُ في نـفـيِ الإسـمـاعِ من المُـحـالِ إلى المُمكِنِ من بلاغةِ القرآنِ الآسرة

التوجيهُ البلاغيُّ لقراءةِ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

قرأ ابنُ كثير: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ﴾[3]، ووجه ذلك أنّه إخبارٌ عن هؤلاء بأنّهُ لا سماعَ لهم، فجُعِلوا فاعِلين، فكما أنَّ الأصَمَّ لا يَسۡمَعُ ما يُقال لهم، فكذلك هؤلاء لا يَنۡتَفِعون بما يُقال لهم ممّا يبلِّغهم به الرّسول ﷺ مِنَ الوَحۡي، وقرأ باقي العشرَةِ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[4] على أنَّهُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه لا يقدر على إسماعهم؛ لأنّهم صُمٌّ[5]، وفيه دلالة على بلادةِ حسِّهم وقسوةِ طِباعهم.

مـنْ مـاتَ قلبُه ذَهَــبَ سَـمـعُه وإن كـانَ ينۡبِضُ بالحياةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 34 - 35.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 339.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 339.
(5) مكّي، الكشف: 2/ 166 - 167.

نكتةُ التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾:

نفي السمعِ عن الموتى وإمكان سماعِ الصمِّ للأصوات الهائلة

نصَّ النَّظمُ الكريمُ على المفعولِ الثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ على قراءة الجمهور، ولَمْ يَنُصَّ على ذلك عندما نفى الإسماعَ عن المَوْتى؛ لأنه لَمّا كانَ المَيِّتُ لا يُمْكِنُ أنْ يَسْمَعَ، لَمْ يُذْكَرْ لَهُ مُتَعَلِّقٌ، بَلْ نَفى الإسْماعَ مطلقًا، أيْ لا يَقَعُ مِنكَ إسْماعٌ لَهم ألْبَتَّةَ لِعَدَمِ القابِليَّةِ[1]، وذكر المتعلق مع الأصم وهو ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾؛ لِأنَّ الأصَمَّ قَدْ يَسْمَعُ الصَّوْتَ الهائِلَ كَصَوْتِ الرَّعْدِ القَويِّ، ولَكِنَّ صَوْتَ الدّاعي لا يَبْلُغُ ذَلِكَ الحَدَّ، فَقالَ: إنَّكَ داعٍ لَسْتَ بِمُلْجِئٍ إلى الإيمانِ، والدّاعي لا يُسْمِعُ الأصَمَّ الدُّعاءَ، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وإزاحة للهمِّ عن قلبه بأنَّه قد فعل كل ما في وسعه، فبَيَّنَ سبحانه أنَّهُ لا قُدْرَةَ لَهُ ﷺ عَلى هُدى مَن أضَلَّهُ اللَّه، فَإنَّ الهُدى والإضْلالَ بيَدِهِ ﷻ وحْدَهُ[2].

وأفاد تعريف الدّعاء هنا جنس الدّعاء والأصوات، وفي هذا مزيد مبالغة في عدم انتفاعهم وتعطيلهم أدوات المعرفة ونوافذها عن سماع الحقّ.

نكتةُ التقييدِ بالجملةِ الشَّرطيةِ ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾:

إدبارُ الكفّارِ عند سماعِ دعوةِ الحقِّ أوغلُ في انتفاءِ الإسَماعِ

قيَّدَ النظمُ الحكيمُ نفيَ إسماعِ الصُّمِّ بِزَمانِ تَولِّيهِمْ مُدْبِرينَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ لِأنَّ تِلْكَ الحالَةَ أوغَلُ في انْتِفاءِ إسْماعِهِمْ؛ لِأنَّ الأصَمَّ إذا كانَ مواجِهًا لِلْمُتَكَلِّمِ قَدْ يَسْمَعُ بَعْضَ الكَلامِ بِالصُّراخِ ويَسْتَفيدُ بَقيَّتَهُ بِحَرَكَةِ الشَّفَتَيْنِ، فَإذا ولّى ولا يَكونُ نَظَرُهُ إلى المُشيرِ؛ فَإنَّهُ لا يَسْمَعُ ولا يَفْهَمُ[3]، فأفادَ التقييدُ ههنا بيانَ كمالِ سوءِ حال الكفرة، والتنبيه على أنَّهُم جامعون لخصلتَي السوء: نُبّو أسماعهم عن الحقِ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كانتْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 16/ 484.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131، والشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 463.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 35.

فيهِم إحداها لَكَفَتْهُم، فكيفَ وقد جمعوهما؟[1]، وأشار البقاعيُّ إلى أنَّ في التَّقييد بزمان التَّولي ترجية في إيجادِ الإسْماعِ إذا حَصَلَتْ لَهم حالَةٌ مِنَ اللَّهِ تُقْبَلُ بِقُلوبِهِمْ[2].

سرُّ التعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

تحـقُّقُ وقــوعِ تــولِّي الـكـفّـارِ وإدبـارِهـم عن سماعِ الحقّ

جاءَ الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ باستعمال أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ التي تفيد تحققَ الوقوعِ غالبًا، دون أداة الشرط (إن) التي تفيدُ مجردَ تعليقِ الشرط دون تحققِ الوقوعِ، وذلك إشارة إلى تحقق إعراضِهم وتولّيهِم وانصرافِهم قصدًا وعمدًا عن السماع كلَّما دعاهم ﷺ إلى الإيمانِ، أي أن إدبارهم وانصرافِهم عن السَّماعِ متحقِّقٌ ولا ريبَ، فهو حكايةٌ لحالِهم مع النبي ﷺ، وكثرةِ إدبارِهم وتولّيهم عن سماعِ الحقِّ وإعراضِهم عن الهُدى والرشادِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّولية مادَّةً وصيغةً:

إعـراضُ الكفّارِ واسـتـكـبـارُهـم عن سماعِ دعوةِ الحقِّ

عبَّرَ النظمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ باستعمالِ الفعلِ ﴿وَلَّوْاْ﴾ الذي يفيدُ الإعراضَ وتركَ القرب، ومن خصائصِ التَّولّي أنَّه قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاءِ والائتمارِ، فأفاد استعمال هذا الفعل ههنا معنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا عن سماع الحقِّ، وقد جاء الفعلُ في صيغة المُضيِّ ليدلَّ على تحقُّقِ التَّوْليةِ وتوكيدِها، وأنَّهُم في نفورٍ دائمٍ عن سماعِ الحقِّ، وأُسْنِدَ الفعلُ ﴿وَلَّوْاْ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ للدلالةِ على اجتماعِهم على التولّي والإعراضِ، وتظاهرِهم عليهم وتألُّبِهم ضد الإسلام وهديه.

نكتةُ تقييدِ الفعلِ ﴿وَلَّوْاْ﴾ بالحال:

نفورُ الكفّارِ عن الاستماعِ للحقِّ إعــراضًــا عـن الهدايةِ والرشدِ

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ التَّولّي في قولِه تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ بالحالِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾، جمعًا مُصاغًا من اسم الفاعل (مُدْبِر)، وهو

---

(1) البروسوي، روح البيان: 7/ 56.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 213.

هُنا: مَنْ يَبْعُدُ عَنْ مَكانِ مَن يُكَلِّمُهُ نفورًا من الاِسْتِماعِ وإعراضًا عن الهداية والرشد، وذلك لِتَتْميم النفي وتَأكيده؛ فَإنَّهم مَعَ صَمَمِهِمْ عَنِ الدُّعاءِ إلى الحَقِّ؛ مُعْرِضونَ عَنِ الدّاعي مولّوْنَ عَلى أدْبارِهِمْ[1]، وجاءت الصياغة على وزن الفاعل للدّلالة على الثباتِ والدوام، فكأنَّ الإدبارَ عن سماعِ دعوةِ الحق قد أصبح سمةً راسخةً في نفوسهم لا تنفكُّ عنهُم ولا ينفكون عنها.

نكتةُ الجمعِ بين التَّولية والإدبار:

تأكيدُ إعراضِ المشركين ونفورِهم عن دعوةِ الحقّ

جمع النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ بين الوصف بالتَّوليةِ والوصفِ بالإدبار، تأكيدًا لإعراضهم واستكبارهم عن سماع دعوة الحقِّ، وضَميرا ﴿وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ عائِدانِ إلى الصُّمِّ، وهو تَتْميمٌ لِلتَّشْبيهِ، حَيْثُ شُبِّهوا في عَدَمِ بُلوغِ الأقْوالِ إلى عُقولِهِمْ بِصُمٍّ ولَّوْا مُدْبِرينَ، فَإنَّ المُدْبِرَ يَبْعُدُ عَنْ مَكانِ مَن يُكَلِّمُهُ فكانَ أبْعَدَ عَنِ الاِسْتِماعِ وقبول الهدى[2].

بلاغةُ المتشابهِ اللفظيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

إثباتُ البعثِ قضيَّةٌ مركزيَّةٌ في القرآنِ عامَّةً والمكّيِّ منه خاصَّةً

تكرّرتْ هاتانِ الآيتانِ بنفس ألفاظِهما في سورتي النملِ والروم، وهما قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾، ففيما عَدا الفاءِ في سورة الروم، فالآيَةُ نَظيرُ الَّتي في آخِرِ سورَةِ النَّمْلِ[3]، ويرجع هذا التشابهُ أو التطابقُ اللفظيُّ بين السورتين للتشابهِ الكبيرِ بين أغراضِ السورتين، وخاصَّةً قضيَّةَ إثباتِ البعثِ والنُّشورِ، ومماراةَ الكفّار وجدالهم بشأنها، وهي قضيَّةٌ محوريَّةٌ في القرآن عامَّةً، والقرآنِ المكّيِّ خاصَّةً، ولمّا كانت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 57.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 35.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 124.

السورتانِ مكيَّتَيْنِ، وتكرّر ذكرُ فضلِ القرآنِ في السورتين كلتيهما، كانَ تَكرارُ هاتينِ الآيتينِ مناسبًا لأغراضِهما.

نكتة العطف بالواوِ في ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾:

تشبيهُ الكفار بالعُمْي ترشيحٌ للتشبيهين السابقينِ بالموتى والصمِّ

جاءتِ الواوُ هُنا لتعطفَ جملةَ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ على جملة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، فكَرَّرَ النَّظم الحكيم تَشْبيهَ المُشْركينَ في إعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ بأنْ شُبِّهوا في ذَلِكَ بِالعُمْيِ بَعْدَ أنْ شُبِّهوا بِالمَوْتى وبِالصُّمِّ عَلى طَرِيقَةِ الِاسْتِعارَةِ، إطْنابًا في تَشْنيعِ حالِهِمُ المَوْصوفَةِ، وحَسَّنَ هَذا التَّكْريرَ هُنا ما بَيْنَ التَّشْبيهَيْنِ مِنَ الفُروقِ مَعَ اتِّحادِ الغايَةِ؛ فَإنَّهم شُبِّهوا بِالمَوْتى في انْتِفاءِ إدْراكِ المَعاني الَّذي يَتَمَتَّعُ بِهِ العُقَلاءُ، وبِالصُّمِّ في انْتِفاءِ إدْراكِ بَلاغَةِ الكَلامِ الَّذي يَضْطَلِعُ بِهِ بُلَغاءُ العَرَبِ، وشُبِّهوا ثالِثًا بِالعُمْيِ في انْتِفاءِ التَّمْييزِ بَيْنَ طَريقِ الهُدى وطَريقِ الضَّلالِ مِن حَيْثُ إنَّهم لَمْ يَتَّبِعوا هَدْيَ دِينِ الإسْلامِ، والغايَةُ واحِدَةٌ وهي انْتِفاءُ اتِّباعِهِمُ الإسْلامَ[1]، وضلالهم عن الحقِّ والرشادِ، حتى إنَّهُم يخبطونَ خبطَ عشواءَ في ظلماتِ الشركِ.

نكتةُ النَّفيِ بـ(ما) في ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾:

اختصاص الهدايةِ للإيمانِ باللهِ سبحانه وحدَه

جاءتْ (ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ نافيةً، وهي إما عاملة عمل ليس أو لا عمل لها[2]، وتفيد عندما تتقدَّم على المُسند إليه والمُسند الفعليّ التّخصيص؛ وهي هنا دالَّةٌ على نفي إمكانِ الهدايةِ الخاصَّةِ الموصِّلةِ إلى الإيمانِ والرَّشادِ عن النَّبي ﷺ، وهو نفيٌ يفيدُ اختصاصَ الهدايةِ للإيمانِ باللّه سبحانه وحدَه، وفيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّه قد بلَّغَ رسالةَ ربِّه ﷻ، وليس له أن يَبْخَعَ نفسَه أسفًا على عدم هدايتِهم للحقّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 36.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 20/ 36.

دلالةُ الخطابِ بالضميرِ ﴿أَنتَ﴾:

تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بالخطابِ تشريفٌ وتسليةٌ لخاطِرِه الكريمِ

جاء ضميرُ الخطابِ ﴿أَنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾؛ لتخصيصِ النفيِ عن النبيِّ ﷺ تسليةً لخاطرِه بأنَّه قد أدَّى الأمانةَ التي وكَّلَه اللّه بها وهي التبليغُ، وأنَّ الهدايةَ أمرٌ من أمورِ الأُلوهيَّة، وفيه كذلك تشريفٌ وإيناسٌ له ﷺ بالإشارةِ إليه، وتوكيدٌ لنفيِ إمكانِ الهدايةِ الخاصَّةِ عن أي أحدٍ بعده بدلالةِ نفيها عنه ﷺ، وفيه كذلك رفعٌ لاحتمالِ أن يكونَ أحدٌ سواه مقصودًا بالخطاب، فنفيُ الهدايةِ الخاصَّةِ عن النَّبيِّ - وعن أحد من البشر بالتبعيَّة - يشيرُ إلى اختصاصِه سبحانَه بالهدايةِ، وهو أمرٌ في علمِ اللّه وحدَه ﷻ، لمْ يُخَوِّلْه لأحدٍ من خلقِه.

نكتة وقوع الباء في خبر (ما):

ليسَ في وسعِ أحدٍ من الناسِ إدْخالُ الهُدى في قَلْبِ مَن عَميَ عَنِ الحَقِّ

دخلت الباءُ على خبرِ (ما) العاملة عمل ليس في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ﴾ لتأكيدِ النفي، فوُرودَ حرفِ الباءِ يُفيد توكيدِ نفي الهدايةِ، وأنَّه سبحانَه مختصٌّ وحدَه بالهداية، ونفي إمكان الهداية عن النبيِّ ﷺ، والمعنى: لَيسَ في وُسْعِكَ إدْخالُ الهُدى في قَلْبِ مَن عَميَ عَنِ الحقِّ ولَمْ يَنْظُرْ إلَيْهِ بِعَيْنِ قَلْبِه[1]، وفي التعبيرِ بنفي إمكانِ الهدايةِ ترْشيحٌ للاستعارةِ في الآيةِ السابقة، إذ هو أيْضًا مُستَعارٌ لِبَيانِ الحَقِّ والصَّوابِ لِلنّاسِ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿بِهَٰدِ﴾:

مـجـمـوعُ القراءتَيْنِ يفيدُ نـفـيَ إمـكـانِ الهدايةِ من غير اللهِ سبحانَه

قَرَأ الجُمْهورُ: ﴿بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾، وهو اسْمُ فاعِلٍ مُضافٌ، وقرأ حَمْزَةُ: ﴿تَهۡدِ﴾، مُضارِعُ هَدى، و﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ بالنَّصْبِ على المفعولية؛ وكذا قرأ الأَعْمَشُ، وطَلْحَةُ، وابْنُ وثّابٍ، وابْنُ يَعْمُرَ، في غير المتواتر[3]، والتعبيرُ بالمضارعِ في قراءة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 16/ 484.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 36.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 339، وأبو حيان، البحر المحيط: 16/ 483.

حمزة نفيٌ للهدايةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ على ما تقتضيه صيغةُ المضارعة، ونفيُهُ بصيغةِ اسم الفاعلِ في قراءةِ الجمهورِ يُفيدُ الثَّباتَ والدوامَ، ومجموعُ القراءتين يشيرُ إلى نفيِ إمكانِ الهدايةِ لغيرِ اللّهِ بأي وجهٍ من الوجوهِ، وإثباتِ اختصاصِها بِهِ سبحانَه.

بلاغةُ الاستعارةِ في التعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾:

المقصودُ من الإبصارِ الاعتبارُ والاستبصارُ ومن لا يهتدي فهو بمنزلةِ العُمي

شَبَّهَ النظمُ الحكيمُ الكفّارَ منكري البعث بالعُمي في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾؛ لتعاميهم عن الحقِّ وعدمِ انتفاعِهم بأبصارِهم، فحذفَ المُشَبَّهَ وصرّح بالمشبَّه به على طريقِ الاستعارةِ التصريحيَّةِ الأصليَّة، والمراد بهذه الاستعارةِ تسليةُ النَّبيِّ ﷺ وجبرُ خاطره في أداءِ دعوتِه؛ والمعنى: كما انتفَى عنْكَ إمكانُ إسماعِ الصُّمِّ دعوةَ الحقِّ، فكذلك لا تَقْدِرُ أن تخلقَ للعمي أبصارًا يهتدون بها، فأنت لا تَقْدِرُ أن توفِّقَ هؤلاء للإيمانِ، فلا تحمِّلْ نفسَك عناءَ ما اختصَّ اللّهُ به نفسَه، وفي جعلهم عميًا إيماءٌ إلى أنه لا يَقْدِرُ على إسماعِهم وهدايتِهم إلا اللّهُ سبحانَه، كما لا يَقْدِرُ على خلقِ قوةِ الإسماعِ في الصُّمِّ والإبصارِ في العُمْيِ إلا اللّهُ وحدَه، ففي الاستعارةِ تأكيدٌ لاختصاصِه سبحانَه بالهداية.

دلالةُ التعريف بـ(أل) في: ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾:

الانصرافُ عن الحقِّ ومنهجِ الصَّوابِ ضربٌ من ضروبِ العَمى والاضطرابِ

التعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾ من قولِه تَعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾؛ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ: المَعهودون بعماهُم وانصرافِهم عن جادةِ الحقِّ ومنهجِ الصواب، وهم الذين اتَّصَفَتْ نفوسُهم بالاستكبارِ عن الحقِّ وجحودِ نِعم اللّه تعالى لأدنى ابتلاء أو اختبار، فهي صفاتٌ متأصِّلةٌ في نفوسِهم أدَّت بهم إلى التعامي عن الحقِّ وإن كانت آياتُه واضحات بيِّنات.

نكتةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾:

قيَّدَ النظمُ الحكيمُ نفي الهداية بالجارِّ والمجرور ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾،

التَّقييدُ بنفيِ الهدايةِ حالَ الضَّلالةِ تأكيدٌ لاستكبارِ الكُفّارِ عن طريقِ الحقِّ

والمعنى المقصود: فما أنت بِموجِدِ الهِدايَةَ عَلى الدَّوام في قُلوبِ العُمْي حال ضلالتهم مُزيلًا لَهم وناقِلًا ومُبْعِدًا عَنِ الطَّريق، بِحَيْثُ تَحْفَظُهم عَنْ أنْ يُزالوا عَنْها أصْلًا، فَإنَّ هَذا لا يَقْدِرُ عليه إلّا الحَيُّ القَيّومُ، فـ﴿عَن﴾ مُتَعلِّقةٌ بِالهِدايَةِ بِاعْتِبارِ تَضَمُّنِها مَعْنى الصَّرْفِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۚ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۚ﴾ يَتَضَمَّنُ اسْتِعارَةً مَكْنِيَّةً قَرِينَتُها حاليَّةٌ، فشَبَّهَ الدّينَ الحَقَّ بِالطَّريقِ الواضِحَة، وإسْنادُ الضَّلالَةِ إلى سالِكيهِ تَرْشيحٌ لَها وتَخْييلٌ، والضَّلالَةُ أيْضًا مُسْتَعارَةٌ لِعَدَمِ إدْراكِ الحَقِّ تَبَعًا لِلاسْتِعارَةِ المَكْنِيَّة، وأُطْلِقَتْ هُنا عَلى عَدَمِ الاهْتِداءِ لِلطَّريقِ، وضَميرُ ضَلالَتِهِمْ عائِدٌ إلى العُمْي.

الكفّارُ عاجزونَ عن إدراكِ الحقِّ بسببِ إمعانِهم في طريقِ الضَّلالةِ

والجارُّ والمجرور ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۚ﴾ متعلِّقٌ بأحد أمرين: أحدهما: أنَّه متعلق بـ ﴿بِهَٰدِ﴾ وعُدّي بـ ﴿عَن﴾ لتضمُّنه معنى يَصْرِفهم، والثاني: أنه متعلِّقٌ بالعُمْي لأنَّك تقول: عَميَ عن كذا[2]، وفي ذلك تأكيدٌ لاختصاصِ الهدايةِ به سبحانه.

فائدةُ التعبيرِ بالضلالةِ دون الضلالِ:

سفهُ الكفارِ متمثّلٌ في استبدالِ الهُدَى الواضحِ بالضلالةِ الحقيرةِ

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بـ(الضلالة) دون (الضلال) في قوله تعالى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۚ﴾، مع أنَّ التعبيرَ بالضلالِ يُشعر بكثرةِ ضلالِهم بخلاف (الضلالة)، فهي دالَّةٌ على الوحدةِ والقلَّة، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيمُ ذلك لوجهين: أحدهُما: أنَّ الذَّمَ وقَعَ عليهم بوقوعِهم في الواحدة، فكيفَ إذا وقَعوا في الضلالاتِ الكثيرةِ الكثيفة، فهم عندئذٍ أشدُّ ضلالًا وأكثرُ إمعانًا في الكفرِ والجحودِ، والآخرُ: أن التعبيرَ بـ(الضلالة) أبلغُ في التشنيعِ عليهم، من جهةِ أنَّهُم بدّلوا الهدى الكثيرَ والرَّشادَ الشريفَ بشيءٍ حقيرٍ في القدر قليلٍ في المقدارِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 125، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 642، والخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 941.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 58.

نكتةُ إضافةِ الضَّلالةِ إلى ضميرِ الكفّار:

شــدَّةُ تـمكُّـنِ الـضـلالـةِ مـن نـفـوسِ الـكـفّـارِ صارفٌ لهم عن الهُدى والحقِّ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الضلالةَ إلى الكفّار في قولِه تعالى: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾، ولم يقلْ (عن الضلالة) أو (عن الضلال)، وذلك للدَّلالةِ على اختصاصِها بهم، وشدَّةِ تَمَكُّنِ الضلالةِ من نفوسِهم وعقولِهم، فكأنَّ الضلالةَ أصبحتْ مِلكًا لَهم، وجزءًا لا يتجزأُ منهُم، فلا تنفكُّ عَنهم ولا ينفكونَ عَنها، وما ذاكَ إلا لشدَّةِ تَمَسُّكِهِم بالضلالةِ وإنكارِهم للحقِّ والهُدى والرَّشادِ[1].

بلاغةُ القصر في: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

مهمةُ الرَّسولِ ﷺ إسماع من كُلِّفَ بدعوتهم

جاءَ أسلوبُ القصرِ في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قصرًا مستفادًا من النفي والاستثناء، وهو من قصر الصّفة على الموصوف، وهو قصر إضافيّ، وقد خرجت طريقة القصر هنا عن الظّاهر، إذ إنّه يُؤتى بأسلوب القصر بالاستثناء بعد النّفي لمن كان منكرًا، أو لمن يُنزّل هذه المنزلة، وغرضُ الخروج عن الظّاهر هنا في إنزال غير المنكر منزلة المنكر طمأنةُ النَّبيِّ ﷺ والتَّسرية عنه، وهو يَقْتَضي انحصارَ مهمةِ النبيِّ ﷺ في إسماعِ من سبقت له من الله بشائر الرحمة وبوادر الهداية، وفي ذلك تسليةٌ له ﷺ وإراحةٌ لقلبه من عناءِ مخاطبتِهم، ومحاولةِ إسماعِهم رغمَ نفورِهم وإعراضِهم واستكبارِهم ومبادرتِهم لجحد نِعَم الله لأدنى ابتلاءٍ أو امتحانٍ في أنفسِهم أو أرزاقِهم.

معنى ﴿إِن﴾ ولطيفةُ إيثارِها على (ما):

شِـدَّةُ الإعـراضِ والـتـولّي تقتضي استخدامَ أقوى أساليبِ النفي

عدلَ النظمُ الحكيم عن استعمالِ (ما) إلى استعمالِ ﴿إِن﴾ في هذا السياق الذي يقتضي شدَّة النَّفْي في قولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لأنّ (إن) آكدُ في النَّفي مِن (ما)، يدل على ذلك اقترانُها الكثيرُ بـ (إلّا) وهذا يعطيها قوَّةً وتأكيدًا، وقد وردت ﴿إِن﴾

---

(1) السيوطي، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 3/ 422 - 423.

النافيةُ في القرآنِ الكريمِ في عشرة ومائة موضع، كلها مقترنةٌ بـ (إلّا) أو (لَمّا) عدا سبعَ آيات، فدلَّ هذا على قوّتها في النفي، ومما يدل على ذلك أيضًا الاستعمالُ القرآنيُّ، فإنَّه يَستعملُ (إن) فيما فيهِ زيادةُ توكيدٍ في النفي[1].

بلاغةُ الكنايةِ بالإسماعِ عن الهدايةِ:

الاستماعُ الصادقُ المنصتُ أوّلُ طُرَقِ الهداية

عبّرَ النظمُ الحكيمُ بالإسماعِ عن الهدايةِ في قولِه جلَّ اسمُه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بدليلِ آخرِ الآية ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾، إذ المعنى: ما تُسْمِعُ سَماعًا يُجْدي السّامعَ نَفْعًا إلا لمن الإيمانُ بآيات اللّه من شَأنِهم، وإيرادُ الإسْماعِ في النَّفْيِ والإثْباتِ دونَ الهدايَةِ مَعَ قُرْبِها بِأنْ يُقالَ: (إنْ تَهْدي إلّا مَن يُؤْمِنُ)، لِما أنَّ طَريقَ الهدايَةِ هو إسْماعُ الآياتِ التَّنْزيليَّةِ[2]، فهو أوّلُ طريقِ الهدايةِ، إذ بعدَ سماعِ الأذنِ وتلقّي العقلِ يخشعُ القلبُ وتلينُ الجوارحُ فتدخلُ الهدايةُ إلى سويداءُ القلوب بأمر اللّه تعالى؛ لِأنَّ المُؤْمِنَ تَرِدُ عَلى قَلْبِهِ أمْطارُ البَراهينِ، فَتُثْبِتُ في قَلْبِهِ العَقائِدَ الحَقَّةَ، ويَسْمَعُ زَواجِرَ الوَعْظِ فَتَظْهَرُ مِنهُ الأفْعالُ الحَسَنَةُ[3].

علّةُ التعبيرِ بالموصولِ وإفرادِه:

تفخيم شأن من يؤمن بآيات الله تعالى

جاءَ النظمُ الكريمُ باستعمالِ الاسم الموصولِ ﴿مَن﴾ وصلته ﴿يُؤۡمِنُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وعدلَ عن صيغةِ اسم الفاعلِ (المؤمن)، فلم يَقُلْ: (إن تسمع إلا المؤمن)؛ لأنَّ التعبيرَ بالاسمِ الموصول أشدُّ دلالةً من التعبيرِ باسمِ الفاعل عن لصوق الصفة بصاحبها، إذ يشيرُ استخدامُ الاسم الموصولِ لِتأصُّلِ الصفةِ في المتصف بها، فكأنه أصبحَ معروفًا بها بين الناسِ، فأضْحَت الإشارة إليه بها راسخةً ثابتةً، وأشارَ بالإفْرادِ في الشَّرْطِ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 200 - 201.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 132.

إلى أنَّ لَفْتَ الواحِد عَنْ رَأيِهِ أقْرَبُ مِن لَفْتِهِ وهو مَعَ غَيْرِهِ[1]، فضلًا عن أنّ مِن أغراض التّعبير بالاسم الموصول التّعظيم والتّفخيم لشأن مَن يؤمن بآيات الله.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع في: ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

التـعـبـيرُ بـالمـضـارعـة يـشـمـل كـل الأزمنةِ في الحالِ والاستقبالِ

جاءَ التعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ في قولِه جلَّ ثناؤه: ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، رغمَ أنَّ مقتضى الظاهرِ أن يكونَ التعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ، فيكونُ: (إنْ تُسْمِعُ إلّا مَن آمَنَ بآياتِنا فَهُم مُسْلمون)، وسرُّ ذلك أن التعبيرَ بالمُضارعِ قدْ يُرادُ به الاِسْتِقْبالُ الشّامِلُ لِجَميعِ الأزْمِنَةِ، والاستقبال كَما يَكونُ بالنَّظَرِ لِزَمانِ الحُكْمِ والتَّكَلُّم يَجوزُ أنْ يَكونَ بِالنَّظَرِ إلى عِلْمِ القائِلِ أيْضًا، فَيَشْمَلُ ﴿مَن يُؤۡمِنُ﴾ هُنا مَن آمَنَ حالًا، كَما يَشْمَلُ مَن يُؤْمِنُ اسْتِقْبالًا[2].

نكتةُ إضافةِ (آيات) إلى ضميرِ العظمة:

تفخيمُ الآيـاتِ بإضافتها لضمير الـعـظـمةِ بيانٌ لـجـدارتـهـا لأن تـكـونَ سببًا في الإيمانِ

أضاف النظمُ الحكيمُ الآياتِ إلى ضميرِ الجمعِ المعبّرِ عن التعظيم في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، إشارةً إلى أنَّهُم آمنوا بالآياتِ التي هي جديرةٌ بالتصديقِ والإذعانِ؛ لما لها من العظمة بانتسابها إلى اللهِ تعالى، فالله تعالى هو الذي أنزلها، وقد أشار بعضهم إلى أن المراد بالآيات هنا القرآنُ الكريمُ، وفي ذلك بيانٌ لدوره في الهدايةِ، وأشار بعضُهم إلى أنَّها الآيات المَسْموعَة أو الآيات المَصْنوعَة[3].

بلاغة الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الآياتُ هي سببُ إيـمـانِ المؤمنين وعـلَّـةُ إقـامـةِ الـحـجَّـةِ على الكافرين

الباءُ في قوله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ للسببيَّة لبيانِ أنَّهُم إنَّما آمَنوا بسبب نزولِ الآيات والتَّفَكُّرِ فيها والاعتبارِ بها، وهي الآياتُ التي يسمعُها ويتدبَّرُها كلُّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 126.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 58.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 525، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 126.

من ألقى السمعَ وهو شهيدٌ، ويمكن أن تفيد الباء معنى الملابسة والإلصاق، وهو معنىً لا يكاد يفارقها، أي من كان إيمانه ملتبسًا بهذه الآيات لا ينفكّ عنها.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾:

الاستماعُ إلى آياتِ الله بتدبُّرٍ وإنصاتٍ سبيلٌ للإسلامِ والانقيادِ لله

قَوْلُه جلَّ اسمه: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تَعْليلٌ لِإيمانِهِمْ بها؛ كَأَنَّهُ قيلَ: فَإنَّهم مُنقادونَ لِلحَقِّ في كُلِّ وقتٍ، وقيلَ: مُخلِصونَ لِلَّهِ تَعالى مأخوذ مِن قَولِهِ تَعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 112]، وقيلَ: هو تَعْليلٌ لِما يَدُلُّ عليه الكَلامُ مِن أنَّهم يَسمَعونَ إسماعًا نافِعًا لَهُمْ[1].

دلالةُ التعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾:

الخضوعُ والانقيادُ للحقِّ أولُ صفاتِ المهتدين

عبّرَ النظمُ الحكيمُ عن سماتِ المهتدينَ بسماعِ الحقّ بقوله جلَّ ثناؤُه: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أيْ: خاضِعونَ مُستَجيبونَ مُطيعونَ، أي: فَأولَئِكَ هُمُ الَّذينَ يَستَمِعونَ الحَقَّ ويَتبَعونَهُ، وهَذا حالُ المُؤْمِنينَ[2]، وفي تَوْحيدِ الضَّميرِ تارَةً وجَمْعِهِ أُخْرى رِعايَةٌ لِلَفْظِ ﴿مَن﴾ ومَعْناها، وأشارَ بِالجَمْعِ في الجَزاءِ إلى أنَّ هَذِهِ الطَّريقَةَ إنْ سُلِكَتْ كَثُرَ التّابِعُ[3]، فيؤازِرُ بعضُهم بعضًا على الإسلامِ.

دلالةُ التعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

ثباتُ المسلمينَ وتمكُّنُ الإسلامِ من قلوبِهم

استعملَ النظمُ الحكيمُ الجملةَ الاسميَّةَ في قوله تباركَ اسمُه: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾، التي تفيد التّوكيد والثّبات، وعدلَ عن الجملةِ الاسميةِ ذاتِ الخبرِ الفعليِّ، فَلَمْ يَقُلْ (فَهُمْ يُسْلِمون)؛ للدلالةِ على ثباتِ المسلمينَ على إسلامِهم بعد سماعِ الآياتِ البيِّناتِ، وتمكّنه من قلوبِهم، إذ الجملةُ الاسميَّةُ التي كان المسند فيها فعليًّا تفيد تقوية الحكم، وذلك توكيدًا لبيان تحقُّقِهم بصفة الإسلام، حتى غَدَتْ صفةً ملازمةً لهم لا تنفكُّ عنهم.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 300.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 11/ 39.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 126.

بلاغةُ المقابلةِ بينَ ﴿لَا تُسۡمِعُ﴾ و﴿إِن تُسۡمِعُ﴾:

يتمثّلُ الفارقُ الجوهريُّ بينَ الكفّارِ والمسلمينَ في الاستجابةِ لآياتِ الله

أبرزَت المقابلةُ بين قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وقوله ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الفارقَ الجوهريَّ بين الكفارِ المعانِدينَ الجاحِدينَ، وبينَ المسلمينَ الخاضِعينَ المستسلمينَ لأمرِ اللّه، مُتَمَثِّلًا في قضيةِ الاستجابةِ لآياتِ اللّه سبحانَه، ففي حينِ كانَ موقفُ الكفّارِ الجحودَ والعنادَ لأدنى ابتلاءٍ أو اختبارٍ، كان سبيلُ المؤمنينَ هو التسليمُ والخضوعُ والاستجابةُ.

سرُّ العدولِ عن الجملةِ الفعليةِ إلى الجملةِ الاسميةِ:

إبرازُ شدَّةِ حرصِ الرسولِ ﷺ على هدايةِ قومِه

عُدِلَ في الجُمْلَةِ عَنْ صيغتَي النَّفْيَيْنِ السّابِقَيْنِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الواقِعَيْنِ على مُسْنَدَيْنِ فِعْلِيَّيْنِ، إلى تَسْليطِ النَّفْيِ هُنا عَلى جُمْلَةٍ اسْميَّةٍ لِلدَّلالَةِ عَلى ثَباتِ النَّفْيِ، وأُكِّدَ ذَلِكَ الثَّباتُ بِالباءِ المَزيدَةِ لِتَأكيدِ النَّفْيِ، ووجْهُ إيثارِ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِهَذَيْنِ التَّحْقيقَيْنِ هو أنَّهُ لَمّا أفْضى الكَلامُ إلى نَفيِ اهتِدائِهِم، وكانَ اهْتِداؤُهم غايَةَ مَطْمَحِ الرَّسولِ ﷺ، كانَ المَقامُ مُشْعِرًا بِبَقيَّةٍ مِن طَمَعِهِ في اهْتِدائِهِمْ حِرْصًا عليهِمْ، فَأُكِّدَ لَهُ ما يقطع طَمَعَهُ[1].

نكتة تعدّد التشبيهِ في الآيتين:

لكلِّ طائفةٍ من المشركينَ تشبيهٌ أليقُ بحالِهم ومقامِهم

تعدَّدَ التّشبيهُ في الآيتينِ الكريمتينِ، ويمكنُ القول إنَّ تَعَدّد التَّشبيهِ مَنظورٌ فيهِ إلى اخْتِلافِ أحْوالِ طَوائِفِ المُشْرِكينَ، فَكانَ لِكُلِّ فَريقٍ تَشْبيهٌ، ويَحْصُلُ مِن جَميعِ ذَلِكَ تَشْبيهُ جَماعَتِهِمْ بِجَماعَةٍ تَجْمَعُ أمْواتًا وصُمًّا وعُمْيًا فَلَيْسَ هَذا مِن تَعَدُّدِ التَّشَبُّهِ لِمُشَبَّهٍ واحِدٍ كالَّذي في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 19][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 36.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 126.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الهدايةُ والإرشادُ:

الإرشـادُ إشارةٌ إلى أمرٍ محبوبٍ والهدايةُ التمكنُ من الوصولِ إلى الحقِّ

الإرْشاد إلى الشَّيْء هو التّنبيه على الشّيء والتبيين لَهُ، والهِدايَة هيَ التَّمَكُّن من الوُصول إلى الله، ويُقال أيْضًا: هداه إلى المَكْروه، كَما قالَ اللّه تَعالَى ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23]، والهدى: الدّلالَة؛ فَإذا كانَ مُسْتَقيمًا، فَهو دلالَة إلى الصَّواب، والإيمان هدى؛ لأنَّه دلالَة إلى الجنَّة، وقد يُقال: الطَّريق هدى، ولا يُقال: أرشده إلا إلى المحبوب، والراشد الَّذي صلح بِما فيهِ نَفسه مِمّا يبْعَث على الخَيْر، والرّاشد القابِل لما دلّ عليه من طَريق الرُّشد، والمُرشد: الهادي للخير والدّال على طَريق الرّشد، ومثل ذَلِك مثل من يقف بَين طَريقين لا يدْري أيهما يُؤَدّي إلى الفَرْض المَطْلوب، فَإذا دلَّه عليه دالٌّ فَقد أرشده، وإذا قبل هو قَول الدّال فسلك قصد السَّبيل فَهو راشد، وإذا بعثته نَفسه على سلوك الطَّريق القاصد فَهو رشيد، والرَّشاد والسداد والصَّواب حق من يعْمل عليه أن ينجو وحقّ من يعْمل على خِلافه أن يهْلك(1).

الضلال والتّيه:

الـضـلال هـو الهلاك والضياع وأما التيه فهو التردُّد والحيرة

أصل الضَّلال الهَلاك، ومِنْه قَوْلهم: ضلَّتِ النّاقة إذا هَلَكت بضياعها، وفي القُرْآن: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10]، أي: هلكنا بتقطّع أوصالنا، ويُستَعْمل الضَّلال أيْضًا في الطريق كَما يُستَعمل في الدّين، فَيُقال: ضلَّ عَن الطَّريق إذا فارقه، ويُقال أيْضًا: ضلَّ عَن الثَّواب، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [غافر: 74]، والضَّلال بِمَعْنى الضّياع، يُقال: هو ضال في قومه، أي: ضائع، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: 7]، أي: ضائعًا في قَوْمك لا يعْرفونَ منزلتك، ويجوز أن يكون ضالًّا أي: في قوم ضالّين،

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 209.

فلا ينصرف الضَّلال إليه ﷺ، وأمّا التيه فجِنْسٌ مِنَ الحَيْرَةِ، والتّيهُ والتَّيْهاءُ: المَفازَةُ يَتيهُ فيها الإنْسانُ(1).

التولية والإدبار:

التَّوَلْيَةُ أنْ يولّيَ الـشَّيْءَ ظَـهْـرَهُ والإدْبارُ أنْ يَهْرُبَ مِنْهُ

التَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، والتَّوْلِيَةُ: الرُّجوعُ مِن حَيْثُ أتى، أما الإدبار: فهو آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِه، فالتَّولية والإدبار بِمَعنَيَين مُختَلفينَ، فالتَّوْلِيَةُ أنْ يولّيَ الشَّيءَ ظَهرَهُ، والإدبارُ أنْ يَهْرَبَ مِنْهُ، فَلَيْسَ كُلُّ مُولٍّ مُدبرًا ولا كُلُّ مُدبِرٍ مولّيًا، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾، فَلَو كانَ أصَمَّ مُقبلًا لَم يَسمَعْ، فَإذا ولَّى ظَهرَهُ كانَ أبعَدَ لَهُ مِنَ السَّماعِ فَإذا أدبَرَ مَعَ ذَلك كانَ أشَدَّ لِبُعدِهِ عَنِ السَّماعِ، ومِنَ الدَّليلِ على أنَّ التَّولّيَ لا يَتَضَمَّنُ الإدبارَ قَوْلُهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144] فإنه بمعنى الإقبال(2).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (ضلل) و(تيه)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 214 - 215.

(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 403.

﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنشاءُ الخلق والتَّدرج بهم منَ الضَّعف إلى القوَّة دليل باهر على البعث

لَمّا دَلَّ سُبحانَهُ عَلى قُدرَتِهِ عَلى البَعْثِ بِوُجوهٍ مِنَ الدَّلالاتِ، تارَةً في الأَجْسام، وتارَةً في القوى، وأَكْثَرَ عَلى ذَلِكَ في هَذِهِ السّورَةِ مِنَ الحُجَجِ البَيِّناتِ؛ خَتَمَ بأَنَّهُ لا يُبْصِرُ هَذِهِ البَراهينَ إلّا مَن حَسُنَتْ طَوِيَّتُهُ[1]، وهو دليلُ خلقِ الإنسانِ من ضعفٍ، ثم تدرُّجِه في مدارجِ القوَّة، وصولًا مرَّة أخرى إلى ما بدأ به وهو الضعفُ، وزادَ عليه الشيبة، فكان ذلك كله دليلًا على قدرتِه سبحانَه على بعثِ الخلائقِ يوم الحسابِ، لأنَّ كلَّ هذه الأطوارِ تحتاجُ إلى علمٍ تامٍ وقدرةٍ باهرةٍ لا تَتأتّى إلا للعليمِ القديرِ جلَّ في عُلاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَعْفٍ﴾: (ضعف) أَصْلانِ مُتَبايِنانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على خِلافِ القوَّةِ، ويَدُلُّ الآخَرُ على أَنْ يُزادَ الشَّيْءُ مِثْلَهُ، فالأَوَّلُ: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، وهو خِلافُ القوَّةِ، يُقالُ: ضَعُفَ يَضْعُفُ، ورَجُلٌ ضَعيفٌ، وقَوْمٌ ضُعَفاءُ وضِعافٌ، وأمّا الأَصْلُ الآخَرُ: أَضْعَفْتُ الشَّيْءَ إِضْعافًا، وضَعَّفْتُهُ تَضْعيفًا، وضاعَفْتُهُ مُضاعَفَةً، وهو أَنْ يُزادَ على أَصْلِ الشَّيْءِ فَيُجْعَلَ مِثْلَيْنِ أو أَكْثَرَ[2]، والضَّعْفُ قد يكون في النّفس، وفي البدن، وفي الحال، وقيل: الضَّعْفُ والضُّعْفُ وقال الخليل: الضُّعْفُ بالضم في البدن، والضَّعْفُ في العقل والرّأي[3]، وقال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 127.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(3) الخليل، كتاب العين: (ضعف).

الأزهري: هما عِنْد جماعَة أهل البَصَر باللغة لُغَتانِ جَيِّدتان مستعملتان في ضَعف البدنِ وضَعف الرَّأي[1].

2) ﴿قُوَّةً﴾: (قوي) أَصْلانِ مُتَبايِنانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ، والآخَرُ على خِلافِ هَذا وعلى قِلَّةِ خَيْرٍ، فالأوَّلُ القوَّةُ، والقَوِيُّ: خِلافُ الضَّعيفِ، وأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القوى، وهِيَ جَمْعُ قوَّةٍ مِنْ قوى الحَبْلِ، ورَجُلٌ شَديدُ القوى، أيْ شَديدُ أَسْرِ الخَلْقِ، فأمّا قَوْلُهُمْ: أَقْوى الرَّجُلُ في شِعْرِهِ، فَهو أنْ يَنْقُصَ مِنْ عُروضِهِ قوَّةً، والأَصْلُ الآخَرُ: القَواءُ: الأَرْضُ لا أَهْلَ بها، ويُقالُ: أَقْوتِ الدّارُ: خَلَتْ[2]، والمعنى المحوري شدة في الأثناء بالالتئام أو الالتواء مع امتداد، القوَّةُ تستعمل تارة في معنى القدرة، وتارة للتهيّؤ الموجود في الشيء، وليس في القرآن من التركيب إلا (القوة) بمعناها المذكور، وجمعها (القوى)، والصفة (القويّ)[3]، ويستعمل ذلك في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المعاون من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيّة تارة[4].

3) ﴿وَشَيْبَةً﴾: (شيب) هَذا يَقْرُبُ مِنْ بابِ الشّينِ والواوِ والباءِ، وهُما يَتَقارَبانِ جَميعًا في اخْتِلاطِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، مِن ذَلِكَ الشَّيبُ: شَيبُ الرَّأسِ؛ يُقالُ شابَ يَشيبُ، والرَّجُلُ إذا شابَ فَهو أشيَبُ، وقال بعضهم: الشَّيْب والمَشيب واحِدٌ، وقالَ الأَصْمَعيُّ: الشَّيْبُ: بَياضُ الشَّعْرِ، والمَشيبُ: دُخولُ الرَّجُلِ في حَدِّ الشّيبِ مِنَ الرِّجالِ ذَوي الكِبَرِ والشَّيْبِ[5]، ويُقال: رجل أشْيَب، ولا يُقال: امْرَأة شيباء، لا تنْعَت بِهِ المَرْأة[6]، والمعنى المحوري تحول سواد شعر الرأس إلى بياض تأثرًا بضعف الشيخوخة[7]، وقوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4] الشيب: ابيضاض الشعر من الكبر غالبًا، وقد يرد من مصائب الدنيا ما يعجل بياضه مع حداثة السن، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل: 17]، وقوله تعالى: ﴿ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ بمعنى الشيخوخة[8].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضعف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوو).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (قوو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شيب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (شيب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شيب).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (شيب).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اقتدارُه سبحانَه على مراحلِ الخلقِ من أعظمِ أدلّةِ قدرتِه على البعث

إنَّ اللّهَ تعالى هو الذي جعلَ الإنسانَ يَمُرُّ في أطوارٍ متفاوتةٍ من الخلق حالًا بعد حال، فجعل أصلَه من ترابٍ، ثمَّ من نُطفةٍ، ثمَّ من علقةٍ، ثمَّ من مضغةٍ، ثمَّ كَوَّن عظامه، ثمَّ كسا العظام لحمًا، ونفخ فيه الروحَ، ثمَّ أخرجه من بطن أمِّه ضعيفًا نحيفًا واهِن القوى، ثمَّ يشبّ قليلًا قليلًا فيكون صغيرًا، ثمَّ شابًّا بالغًا، وهذا دور القوَّة بعد الضعف، ثمَّ يأتي دور الضعف من ابتداء الكهولة إلى الهرم والشيخوخة، وهو الضعف بعد القوَّة، فتضعف الهمَّة والحركة وتتغيَّر الصفات الظاهرة والباطنة؛ هذا الانتقال والتدرُّج والتحوُّل من حال إلى حال دليل على القدرة الإلهيَّة الخالقة، وبرهان على البعث الذي ينكره المشركون، فإنَّ القادر على هذا التغيير والتبديل قادر على الإعادة مرَّة أخرى إلى الحياة الأولى كما كانت؛ لأنَّ من كانت قدرته تامَّةً شاملةً لا يصحُّ مقارنتها بقدرة الإنسان النسبيَّة، ولا يعجزه شيء، سواء في بدء الخلق أم حال إعادته.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ عما قبلها:

قدرةُ اللهِ تعالى على الخلقِ دليلٌ مستقلٌّ مستأنفٌ على قدرتِه على البعث

فصل النظم الحكيم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾، ولم يصله بقوله تعالى: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، وذلك لكمال الانقطاع بينهما، إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ حجَّةٌ قائمةٌ مستقلّةٌ بنفسها من الآيات الكونية الدالة على قدرة اللّه سبحانه وطلاقة تمكنه من هذا الكون عامة، واقتداره سبحانه على البعث خاصة، فقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ رابعُ استِئنافٍ في هذه السّورة الكريمة؛ لِلاستِدْلالِ عَلى عَظيمِ القُدْرَةِ في مُخْتَلَفِ المَصْنوعاتِ مِنَ العَوالِمِ لِتَقْريرِ إمْكانيَّةِ البَعْثِ وتَقْريبِ حُصولِهِ إلى عُقولِ مُنْكِريه[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 127.

بلاغةُ تقديمِ اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

التصريحُ بذكرِ لفظِ الجلالةِ (الله) تأكيدٌ لقدرته سبحانه على البعث

أتى النظم المحكم بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ إثباتًا لقدرته تعالى على البعث كما هو قادر على الخلق، فَإِنَّهُ لا انْفِكاكَ لِأَحَدِهِما عَنِ الآخَرِ؛ فكان من المناسب لَفَتُ الكَلامِ إلى الِاسْمِ الجامِعِ ﴿ٱللَّهُ﴾، أي: الجامِعُ لِصِفاتِ الكَمالِ وحْدَهُ(1).

علةُ التعبيرِ بالموصول في ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾:

الوصفُ بالنَّعتِ المخصوصِ أقوى دليلٍ على قدرته سبحانه على البعث

لَمّا كانَ تَعْرِيفُ المَوْصولِ ظاهِرًا غَيْرَ مُلْبِسٍ، عَبَّرَ بِهِ دونَ اسْمِ الفاعِلِ فَقالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، وفي ذلك إكبار لشأن الاسم الكريم(2)، وتوكيدٌ على اختصاصه وحده سبحانه بأمر الخلق، فالوصف بما هو مُتَّفَقٌ عليه أقوى برهانًا وأهدى سبيلًا في الإلزام بقدرته سبحانه على البعث، كما أفاد التعبيرُ بالموصول مع صلته ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ الإيماء بتعظيم الخالق من خلال التَّذكير بعظيم صفة الخلق، وذلك أوجزُ لفظٍ في استحضارِ عظمة اللّه تعالى وقدرته، وانفراده بأمر الخلق والبعث على السواء.

بلاغة القصر في ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾:

اخـتـصـاصُـه سبحانه وحدَه بالخلق يقضي بـأنَّـه سبحانه قادرٌ على البعث

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ جملةً اسميةً مكونةً من معرفتين، فالمسندُ والمسندُ إليه معرفان، فأفادت الجملةُ القصرَ بتعريف طرفيها، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، قصر قضيةَ الخلق على اللّه وحدَه سبحانه، أي: هو خالقكم على جهة القصر والتخصيص لا غيره، وفيه إشارة إلى أنَّه سبحانه بتفرده بالخلق؛ فإنه سبحانه قادر على البعث، بل هو أهون عليه، وقد ذهب بعض المعربين إلى أنَّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ صفةٌ للّه تعالى، وأنَّ الخبر ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 127.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 127.

يَخلقُ ما يَشاءُ مِما أخبَرَ بِهِ وأنتُم تُنكِرونَ(1)، ولعل الوجهَ الأولَ أرجحُ مع احتمال كون ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ خبرًا ثانيًا.

سرُّ اختيار مفردة الخلْق مادَّة وصيغة:

انفراده سبحانه بقضية الخلق وتوكيد تحققها ووقوعها دليل على باهر قدرته

آثر النَّظم الحكيمُ التعبيرَ بمفردة (الخلق) في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾؛ لما تتضمنه من معاني الإبداع والإنشاء على غير مثال سابق من غير أصل ولا احتذاء، وهي المعاني التي يتطلَّب السياق إثباتها لتكون حجة على منكري البعث، لكي تستيقن عقولهم عظيم قدرته، كما قال سبحانه في السورة نفسها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، وأتى بالفعل في صيغة المُضيِّ لإفادة اليقينِ بوقوعه، ورسوخ تحقّقه بقدرته سبحانه، فكلُّ ما خلق وكلُّ ما يخلقُ وسيخلقُ فإنَّما هو في علمه وقدرته سبحانَه.

نكتة إيقاع فعل الخلق على ضمير المخاطبين:

تخصيصُ الخلقِ بالمخاطبين إشارةٌ إلى وجوب الإيمان بالبعث

أضاف النَّظم الحكيمُ الفعلَ ﴿خَلَقَكُم﴾ إلى ضمير المخاطبين في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾، ويحتمل أن يكون المرادُ بهم أحدَ ثلاثةٍ: الناسَ أجمعين، فيكون الخطاب عامًّا لكلِّ الخلق، وهو الأرجح والأليق بنظم الآية وسياق السورة كلها بما فيها من الدَّلائل العامَّة على قدرته سبحانه، وإمّا أن يكون المرادُ المؤمنين، ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم، وإمّا أن يكون المرادُ الكفارَ منكري البعث، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ على طريقة الالتفات، وقد أُسْنِدَ الفعلُ إلى ضميرِ الخطاب إيجابًا للإيمان بالبعث، وبطلان الامتراء؛ لتوضيح منهاج القياس، وللمبالغة في إزاحة الاشتباه والالتباس، مع ما فيه من تحقيق الحقِّ، فإن خلقَه سبحانه لهم أمرٌ محقّقٌ لا امتراءَ فيه، يعلمُه كلُّ واحدٍ منهم من نفسِه التي بين جَنبَيْه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 127.

دلالة التقييد بحرف الجر ﴿مِّن﴾:

الابتداءُ بالخلقِ من الضعفِ والانتهاء بالوهنِ دليلٌ على قدرة الله على البعثِ

جاءت ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ابْتدائيَّة، أيْ مُبْتَدَأُ خَلْقِهِ من ضَعْفٍ، وهي حالَةُ كَوْنِهِ جَنينًا ثُمَّ صَبيًّا إلى أنْ يَبْلُغَ أشدَّهُ، وهَذا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: 37] يَدُلُّ على تَمَكُّنِ الوصْفِ مِنَ المَوْصوفِ حَتّى كَأنَّهُ مُنْتَزَعٌ مِنهُ، قالَ تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: 28]، والمَعْنى: أنَّهُ كَما أنْشَأكم أطْوارًا تَبْتَدِئُ مِنَ الوهْنِ وتَنْتَهي إلَيْه، فَكَذَلِكَ يُنْشِئُكم بَعْدَ المَوْتِ، إذْ لَيْسَ ذَلِكَ بِأعْجَبَ مِنَ الإنْشاءِ الأوَّلِ وما لَحِقَهُ مِنَ الأطْوارِ، ولِهَذا أخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ﴾[1].

نكتة تنكير ﴿ضَعْفٍ﴾ وتكرارها:

تتعدّد أغراض التّنكير لتنوّع المعاني

ذهب بعضهم إلى أن تنكير ﴿ضَعْفٍ﴾ للدلالة على الإبهام وعدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك، وأشار بعضهم إلى أن التَّنْكير لِلنَّوْعيَّة؛ فذهب إلى أن ﴿ضَعْفٍ﴾ المَذْكور ثانيًا هو عَيْنُ ﴿ضَعْفٍ﴾ المَذْكورِ أوَّلًا، بخلاف الضعف الثالث المذكور في الآية، فإن المراد به ضعف الشيخوخة، وقَوْلُهُمْ: النَّكِرَةُ إذا أُعيدَت نَكِرَةً كانَتْ غيرَ الأولى، يُريدونَ بِهِ التَّنكيرَ المَقْصودَ مِنهُ الفَرْدُ الشّائِعُ لا التَّنْكيرُ المُرادُ بِهِ النَّوْعيَّةُ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾:

مبنَى الإنسانِ على الضعفِ ولكنَّ غلبةَ الاستكبارِ قد تورده المهالك

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ اسْتِعارَةٌ مكنيّة حَيْثُ شُبِّهَت المادَّة التي يخلق منها الإنسان بالأصل الضعيف، فحُذف المشبّه به، وترك شيءٌ من لوازمه وهو الضّعف، وأُدخل على المشبّه به للتّخييل، ويمكن إجراؤها على التّصريحيّة بأن يكون قد شبّه النّطفة بالضّعف، بجامع قلّة الحيلة والمقاومة، ويَجوزُ أنْ يُرادَ مِنَ الضَّعْفِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 127.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 127.

الضَّعيفُ، بإطْلاقِ المَصْدَرِ عَلى الوصْفِ مُبالَغَةً، أو بِتَأويلِه بِهِ، أو يُرادُ مِن ذي ضَعْفٍ، والمُرادُ بِذَلِكَ النُّطْفَةُ، أي: اللَّهُ تَعالى الَّذي ابْتَدَأَ خَلْقَكم مِن أصْلٍ ضَعيفٍ، وهو النُّطْفَةُ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السَّجْدَة: 8]، وهَذا التَّفْسيرُ وإنْ كانَ مَأثورًا عَنْ قَتادَةَ، إلّا أنَّ الأوَّلَ أولى وأنْسَبُ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾[1]، وذلك للإشعارِ بأنَّ الضعفَ هو مادتُهم الأولى التي تركَّبَ منها كيانُهم، فهو شامل لتكوينهم الجسدي، والعقلي، والعاطفي، والنفسي[2]، وفي هذا التفسير نوعٌ من الإطلاق على خلافِ التفسيرِ بالنطفة.

التوجيهُ البلاغيُّ للقراءاتِ الواردةِ في ﴿ضَعۡفٖ﴾:

ضعفُ العقلِ والبدن كليهما من ألزمِ خصائصِ الإنسان

وردت في كلمةِ ﴿ضَعۡفٍ﴾ قراءتان مشهورتان، وهما الضمُّ والفتحُ، فقَرَأَ الجُمْهورُ: بِضَمِّ الضّادِ في ﴿ضُعۡفٍ﴾ مَعًا؛ وقرأ شعبة وحفص بخلفه عن عاصِم وحَمْزَةُ: بِفتحِها فيهما، وهما لغتان، وهناك من فرّق بينهما، فقال: الظّاهِرُ أنَّ الضَّعْفَ والقوَّةَ هُما بِالنِّسْبَةِ إلى ما عَدا البَدَنِ مِن ذَلِكَ، وإنَّ الضَّمَّ والفَتْحَ بِمَعْنًى واحِدٍ في ضَعْفٍ، وقالَ كَثيرٌ مِنَ اللُّغَوِيّينَ: الضَّمُّ في البَدَنِ، والفَتْحُ في العَقْلِ، وهي لُغَةٌ أيْضًا فيه، وحُكِيَ عَنْ كَثيرٍ مِنَ اللُّغَوِيّينَ أنَّ الضُّعْفَ بِالضَّمِّ ما كانَ في البَدَنِ، والضَّعْفَ بِالفَتْحِ ما كانَ في العَقْلِ، وذهب كثير من العلماء أيضًا إلى أنَّهُ لا فَرْقَ بَيْنَ المَضْمومِ والمَفْتوحِ[3].

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

دقَّةُ النَّظمِ القرآني في استخدام أدوات العطفِ من دلائل إعجازه البلاغي

عَطفَ النَّظْمُ الكريمُ باستعمالِ أداةِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾، وعَدَلَ عَنْ غَيْرِها مِنْ أَدَواتِ العَطْفِ كالواوِ والفاءِ، وذَلِكَ لِإفادَةِ التَّرْتيبِ والتَّراخي الرُّتبي أو الزّمني أو كليهما معًا، وهي المُدَّةُ الَّتي تكونُ بَينَ النُّطفةِ ثُمَّ التَّحوُّلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 494.
(2) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 132.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 345، والآلوسي، روح المعاني: 20/ 493 - 494.

إلى مَرحَلة الجَنينِ فالوليدِ وما بَعْدَها، وفيه دلالةٌ على التَّراخي الرُّتبي أيضًا لاختلاف الحالين، وفي إيثارِ هَذا الحَرفِ دونَ سِواه دَليلٌ على دِقَّةِ النّظْم القُرآنيِّ في استِعمالِ أدَواتِ العَطْفِ، وإشارَةٌ إلى عَظَمَةِ الإعْجازِ البَلاغيِّ.

نكتةُ التعبير بالبعدية في شبه الجملة:

تعاقب مراحل الخلق والتكوين دليل على صانع حكيم

قيَّد النَّظمُ الحكيمُ مرحلة القوة بالجار والمجرور ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾، إذ ليس المرادُ الاِستِغراقَ، بل المرادُ الإشارَةَ إلى تعاقبِ مراحلِ الخلقِ والتكوين مرحلةً بعد مرحلة، وفي ذلك دليلٌ على وجود الصانع الحكيم القادر على الإحياء والبعث مرةً أخرى بطلاقةِ قدرته سبحانه، و﴿مِنۢ﴾ هنا ابتدائيّة، وفي التعبير بالبعدية إشارةٌ إلى ما تأخذُه هذه المراحل من فتراتٍ زمانيةٍ تعد بالسنينَ والأعوام.

نكتةُ التَّنكير في قوله: ﴿قُوَّةٗ﴾:

اختلافُ الأفرادِ في مقدار القوَّة الّتي قدَّرها الله لهم

عبَّر النَّظم الكريم بالنَّكرة في قوله: ﴿قُوَّةٗ﴾؛ لإرادةِ الإطلاق، لاختلاف الأفراد في مقدار القوَّة التي قدَّرها اللّه لهم، ولَمّا كانَ الضَّعفُ الَّذي تكونُ عَنهُ القوَّةُ غيرَ الأوَّلِ، أظهر ولَم يُضمر فَقالَ: ﴿ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ بِكِبَرِ العَيْنِ والأثَرِ، مِن حالِ التَّرَعْرُعِ إلى القوَّةِ بِالبُلُوغِ إلى التَّمام في أحَدٍ وعِشْرينَ عامًا، وهو ابتِداءُ سِنِّ الشَّبابِ إلى سِنِّ الاِكْتِمالِ بِبُلوغِ الأشُدِّ في اثنَينِ وأربَعينَ عامًا، فَلَولا تَكَرُّرُ مُشاهَدَةِ ذَلِك لَكانَ خَرقُ العادَةِ في إيجادِهِ بَعدَ عَدَمِهِ مِثْلَ إعادَةِ الشَّيْخِ شابًّا بَعْدَ هَرَمِه[1]، ويمكن أن يكون غرض التّنكير هنا التّفخيم لشأن هذه القوّة.

بلاغةُ الطباقِ بين ﴿ضَعۡفٖ﴾ و﴿قُوَّةٗ﴾:

إبرازُ التباين في حياةِ الإنسانِ يقتضي التفكرَ في الخالقِ الحكيم

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ طباق إيجاب بين ﴿ضَعۡفٖ﴾ و﴿قُوَّةٗ﴾ يبرز التباين الواضح بين حالتي الإنسان، ويوضِّحُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 128.

الأطوارَ المختلفةَ والتحولاتِ المتعدّدةَ التي يمرُّ بها، مما يدل على الصانعِ القديرِ الذي بيده كل شيءٍ، وقد أضفى الطِّباق على النص الكريم قوةً وجمالًا، وأبرزَ أطوارَ خلقِ الإنسانِ من حالٍ إلى حالٍ.

بلاغةُ التكرارِ في ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾:

كرَّر النَّظمُ الحكيمُ عبارةَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ﴾؛ للإشارةِ إلى ما يطرأُ على الإنسانِ من التحوُّلِ والتغيرِ إذا أَخَذَ منه السِّنُّ وتقدم به العمر، والمُرادُ بِالضَّعۡفِ هُنا ابۡتِداؤُهُ، ولِذا أَخَّرَ الشَّيۡبَ عَنۡهُ[1].

تحوُّلُ الإنسانِ من حالٍ إلى حالٍ إنَّما هو بأمرِ الله سبحانه

بلاغةُ التَّرقي في الآية:

اتَّسمَ أسلوبُ النَّظمِ الحكيمِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ بالترقي من الأدنى إلى الأعلى ثم التنزل إلى الأدنى، فتدرّج في إيراد المعاني، حيث انتقل من الأدنى إلى الأعلى، ومن الضعيف إلى القوي، ثم عاد مرة أخرى إلى الأضعف في تصويرٍ بديعٍ، حيثُ يبدأُ خلقُ الإنسان من نطفةٍ، ثم يتدرج الإنسانُ من نطفةٍ إلى علقةٍ، إلى مضغةٍ، إلى عظامٍ، إلى لحمٍ يكسو هذه العظام، ثُمَّ إلى وليدٍ ينشقّ عنه رحمُ الأم، فإذا هو إنسان يأخذُ مكانَه في المجتمع البشري، ويتدرج في مدارج الحياة، من الطفولة إلى الصبا، إلى الشباب والكهولة، ثم ينحدر إلى الشيخوخة والهرم، هذا هو بعض ما لله في الإنسان[2].

حياة الإنسان متقلّبة لا تدوم على حال

نكتةُ تقديمِ التعبيرِ بـ ﴿ضَعۡفٗا﴾ على ﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾:

ذكر النظم الحكيم ﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾ بعد ﴿ضَعۡفٗا﴾ لِلۡإيماءِ إلى أنَّ هَذا الضَّعفَ لا قوَّةَ بَعدَهُ، وأنَّ بَعدَهُ العَدَمَ بِما شاعَ مِن أنَّ الشَّيبَ نَذيرُ المَوتِ، والشَّيبَةُ: اسمُ مَصدَرِ الشَّيبِ، وهو بَياضُ الشَّعرِ، ويَعرِضُ

بعدَ الضعفِ يأتي الشيبُ الذي لا قوة بعده إذ هو نذيرُ الموت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 494.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 545.

لِلشَّعرِ البَياضُ بِسَبَبِ نُقصانِ المادَّةِ الَّتي تُعطي اللَّونَ الأصليَّ لِلشَّعرِ، ونُقصانُها بِسَبَبِ كِبَرِ السِّنِّ غالِبًا، فَلِذَلِكَ كانَ الشَّيبُ عَلامَةً على الكِبَرِ، وقَد يَبيَضُّ الشَّعْرُ مِن مَرَضٍ[1].

نكتة تنكير ﴿ضَعۡفٗا﴾ و﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾:

تتنوّع أغراض التّنكير بحسب المقام

جاءت الكلمتان ﴿ضَعۡفٗا﴾ و﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾ نكرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾؛ للدلالة على الإطلاقِ، لاختلافِ مقاديرهما باختلاف كلِّ واحدٍ من الناس، ويمكن أن يكون غرض تنكيرهما التّعظيم، أي: ضعفًا عظيمًا، ويمكن أن يفيد التّحقير أيضًا.

دلالةُ ترديدِ خلقِ الإنسانِ بين تلك الأحوال:

ترديدُ الإنسانِ بين الضعف والقوة أظهر دليل على الصانع القدير

فصَّلت الآيةُ الكريمةُ في تغيُّرِ أحوالِ الإنسانِ؛ لأنَّ هذا التَّرديد في الأحوال المختلفة والتغييرَ من هيئةٍ إلى هيئةٍ ومن صفةٍ إلى صفةٍ أظهرُ دليلٍ وأعدلُ شاهدٍ على الصانع القدير العليم الحكيم[2].

نكتة فصلِ جملةِ ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾:

توكيدُ انفرادِ الله سبحانه بأمر الخلق قضيةٌ ثابتةٌ في النظم القرآني

فصلَ النَّظمُ الحكيمُ بين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ وقولِه تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ لكمال الاتصال بين الجملتين، إذ كلتاهما جملةٌ خبريةٌ، وجاءت الثانيةُ مؤكدةً للأولى، فصار بينهما من التلاحمِ والاتصالِ والترابطِ ما يُغني عن الوصل[3]، إذ اشتملت كلتاهما على مادةِ الخلقِ والتحويلِ والتغيير، وهي القضيةُ المحوريةُ لهذه الآية الكريمة، وفي ذلك كلِّه تأكيدٌ لطلاقةِ القدرةِ الإلهية، وفضلًا عن ذلك التوكيدِ، فقد أفادت هذه الجملة الاحتراس بإفادة طلاقة التصرف؛ لأنه لَمّا كانَت العادَةُ الغالِبَةُ أن يتحوَّل الإنسان من ضعف إلى قوة ثم إلى ضعف وشيبة، وكانَ النّاسُ مُتَفاوِتينَ فيها، وكانَ مِنَ النّاسِ مَن يَطْعَنُ في السِّنِّ وهو قَويٌّ، أَنْتَجَ ذَلِكَ كُلَّهُ - ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 127، و16/ 65.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 587.
(3) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 446.

بُدَّ - التَّصَرُّفُ بِالِاخْتيارِ مَعَ شُمولِ العِلْمِ وتَمامِ القُدْرَةِ فَقالَ: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾[1]، إشارةً إلى طلاقة القدرة الإلهية.

دلالةُ التعبير بالمضارع في ﴿يَخۡلُقُ﴾:

تأكيدُ قدرته سبحانَه على الخلقِ المستمرِ الذي لا حد لنهايته إلا مشيئتُه

عَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن فعل (الجعل) إلى فعل (الخلق) في قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأن الجملةَ تأكيدٌ لما ورد في أوَّل الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ﴾، ولانتهاءِ مراحلِ التحويلِ والتصيير، فكان الأنسب التعبير بفعل الخلق، وقد جاءَ الفعلُ ﴿يَخۡلُقُ﴾ في صيغةِ المضارعة للدلالةِ على تجدّدِ الخلقِ واستمراريته أبدًا إلى أن يشاء اللّٰه سبحانه، ففيه دلالة على طلاقة قدرته سبحانه، وهو كذلك تدليلٌ على قدرته سبحانه على البعثِ بعد الموت.

علَّةُ التعبيرِ بالموصول ﴿مَا﴾:

تعدّدُ أنواعِ الخلقِ وكثرتُها من دلائلِ شمولِ قدرتِه سبحانه

آثر النَّظمُ الحكيمُ التعبير عما يقع عليه الخلقُ الإلهيُّ باسم الموصول ﴿مَا﴾ دون الموصول (من) في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّها اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهامِ، حتى إنَّها تقعُ على كل شيءٍ، وتقعُ على ما ليس بشيء، ولا يجوز أن توجد إلا واقعة على جنس تتنوع منه أنواعٌ، ولذلك كان في لفظها ألفٌ آخرةٌ؛ لما في الألفِ من ارتفاع الحدِّ والاتساعِ في هواءِ الفمّ، مُشاكَلَةً لاتساعِ معناها في الأجناس[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تنوعِ المخلوقاتِ وتعددها وكثرتها، وهو دليل على طلاقة القدرة الإلهية وشمولها، وأن اللّٰه سبحانه كما هو قادر على الخلق الكثير المتنوع قادرٌ على البعثِ وإعادةِ الخلقِ للحساب يوم القيامة من باب أولى.

دلالةُ التعبيرِ بصيغةِ المضارعة في ﴿يَشَآءُۚ﴾:

تجدّدُ مشيئتِه سبحانه على الدوام دليلٌ من أدلةِ قدرتِه على البعث

جاءَ الفعل ﴿يَشَآءُۚ﴾ في صيغةِ المضارعة في قولِه تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 129.
(2) السهيلي، نتائج الفكر، ص: 140.

﴿يَشَآءُۚ﴾؛ للدلالة على تجدّدِ مشيئتِه سبحانَه واستمراريتها أبدًا، ففيه دلالةٌ على طلاقةِ مشيئته سبحانه، وهو كذلك تدليلٌ على قدرتِه سبحانه على البعثِ بعد الموت.

بلاغة القصر في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾:

تـمـامُ الـعـلـمِ وشمولُ القدرة صفتانِ لتجلياتِ عظمةِ الخالقِ سبحانه

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ إما عاطفةٌ، أي: يخلق ما يشاء بعلمِه وقدرتِه، وإما حاليَّةٌ، أي: يخلق ما يشاء عالمًا قديرًا، وقد جاءت الجملةُ الاسميَّةُ بأسلوبِ القصرِ، بتعريفِ الطرفين، فقصرت هاتين الصّفتين عليه دون غيره، فأفادت أنَّه وحدَه سبحانه المتفردُ بشمولِ العلمِ، وطلاقةِ القدرةِ، وذلك بحسب ما أفاده تقديمُ الضميرِ المنفصلِ (هو) عليهما مع تعريفهما، كما في قولك: هو المنطلق[1].

وجهُ مناسبةِ صفتي العلمِ والقدرةِ لمضمونِ الآية:

علمُ الله بأعمال الـنـاس سابقٌ عـلـى الـثـوابِ والعقابِ

ختم النَّظم الحكيم الآية بقوله جل شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾، أي: البالغُ العِلم، فَهو يُسَبِّبُ ما أرادَ مِنَ الأَسْبابِ لِما يُريدُ إيجادَهُ أو إعْدامَهُ، ﴿ٱلۡقَدِيرُ﴾ فَلا يَقْدِرُ أحَدٌ عَلى إبْطالِ شَيْءٍ مِن أسْبابِهِ، فَلِذَلِكَ لا يَتَخَلَّفُ شَيْءٌ أرادَهُ عَنِ الوقتِ الَّذي يُريدُهُ فيه أصْلًا، وقَدَّم صِفَةَ العِلم لِاستِتباعِها لِلقُدرَةِ الَّتي المَقامُ لَها، فَذِكْرُها إذَن تَصْريحٌ بَعْدَ تَلْويحٍ، وعِبارَةٌ بَعْدَ إشارَةٍ[2]، ثُمَّ إنَّ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ تَبْشيرٌ وإنْذارٌ؛ لِأنَّهُ إذا كانَ عالِمًا بِأعْمالِ الخَلْقِ كانَ عالِمًا بِأحْوالِ المَخلوقاتِ، فَإنْ عَملوا خَيْرًا عَلِمَهُ، وإنْ عَملوا شَرًّا عَلِمَهُ، ثُمَّ إذا كانَ قادِرًا؛ فَإذا عَلِمَ الخَيرَ أثابَ، وإذا عَلِمَ الشَّرَّ عاقَبَ.

ولَمّا كانَ العِلْمُ بِالأحْوالِ قَبْلَ الإثابَةِ والعِقابِ اللَّذَيْنِ هُما بِالقُدْرَةِ

---

(1) السهيلي، نتائج الفكر، ص: 140.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/ 485.

قَدَّمَ العِلمَ، وأمّا في الآخِرَةِ فالعِلْمُ بِتِلْكَ الأَحْوالِ مَعَ العِقابِ فَقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ [التحريم: 2][1].

سرُّ التعبير بصيغة (فَعيل) في الخَبرَين:

المبالغةُ في تأكيدِ العلمِ والقدرةِ تأكيدٌ لتفرُّدِه سبحانه بقضيتي الخلقِ والبعثِ

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ استعمالَ صيغة (فعيل) الدّالةِ على المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾، فالعليم صيغةُ مبالغةٍ تفيدُ المبالغةَ في الوصفِ بالعلم، أي: المحيط بظواهرِ الأمورِ وبواطنها، والقديرُ مبالغةٌ في وصف اللّه ﷻ بالقدرةِ على كل شيءٍ، فلا يعجزه شيءٌ، ولا يخرجُ عن قدرته شيءٌ[2]، وتأكيدُ هاتين الصفتين الجليلتين مناسبٌ غايةَ المناسبةِ لتأكيد تفرده سبحانه بقضيتي الخلقِ والبعثِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّعف والوهَن والاستكانة:

الوهنُ انكسارُ الجسد بالخوفِ وغيرِه والضعفُ نقصانُ القوة

الضَّعفُ ضدُّ القوَّة، وهو من فعلِ اللّه تعالى، كما أنَّ القوَّةَ من فعلِ اللّه، تقول: خلقه اللّه ضعيفًا، أو خلقه قويًّا، وفي القرآن: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، والوهَن: هو أن يفعل الإنسان فِعْل الضَّعيف، تقول: وهَن في الأمر يَهِن وهْنًا، وهو واهِن: إذا أخذ فيه أخذ الضَّعيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: 139]، أي: لا تفعلوا أفعالَ الضُّعفاءِ وأنتم أقوياءُ على ما تطلبونه بتذليلِ اللّه إيّاه لكم، ولا يُقال: خلقه اللّه واهِنًا، كما يقال: خلقه اللّه ضعيفًا، وقد يُستَعمل الضَّعف مكان الوهَن مجازًا في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران: 146]، أي: لم يفعلوا فعل الضَّعيف، ويجوز أن يقال: إنَّ الوهَن هو انكسار الجسد بالخوف ونحوه، والضَّعف نقصان القوَّة، وفرق بعضهم بينهما، فذهب إلى أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا وجهيًا، فيجتمعان في الضعف إذا كان طارئًا، وينفرد الضعف في إطلاقه على الضعف الأصلي، وينفرد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 132.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 452 - 458.

الوهن في صفات أخرى؛ إذ قد يكون الوهن جُبْنًا بعد شجاعةٍ، أو فُتورًا بعد عزيمةٍ، أو تَوانيًا بعد همَّةٍ، أو اختلالًا بعد إحكام[1].

القوةُ والقدرةُ:

القدرةُ التَّمكّنُ من الفعلِ بلا عجزٍ والقوةُ التمكُّنُ من الفعلِ بلا ضعفٍ

القوةُ كمالُ الشدّةِ وصلابةُ الأعضاءِ لأداءِ الأعمال التي تراد منها، أما القدرةُ فهي التَّمَكُّن من إيجاد شَيْءٍ، والفرقُ بينهما أن القدرةَ التمكّنُ من الفعلِ بلا عجزٍ، والقوة التمكّنُ من الفعلِ بلا ضعف، فنقيض القوة الضعف، ونقيض القدرة العجز، والقوة أعم من القدرة؛ لأنها تكونُ في ذي الشعورِ وغيره، وأما القدرةُ فإنَّها لا تكونُ إلا من ذي الإرادة، والقوةُ أكملُ؛ لأنَّه يلزمُ من وجودِ القوةِ القدرةُ ولا عكس[2].

الشيبة والكِبَر:

الشيب يصحب الكبر عادة ولكن الشيب قد يحدث دون بلوغ سن الكبر

الشّيبُ والشّوب اخْتِلاط الشَّيْءِ بالشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ الشَّيْبُ: شَيْبُ الرَّأْسِ؛ يُقالُ شابَ يَشيبُ، والرَّجُلُ إذا شابَ فَهو أَشْيَبُ، والمَشيبُ: دُخولُ الرَّجُلِ في حَدِّ الشّيبِ مِنَ الرِّجالِ ذَوي الكِبَرِ والشَّيَّبِ، والمعنى المحوري تحول سواد شعر الرأس إلى بياض تأثرًا بضعف الشيخوخة، وقد يرد من مصائب الدنيا ما يعجل بياضه مع حداثة السن، وأما الكبر فيَدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، ومِنَ البابِ الكِبَرُ، والأصل أن يستعمل في الأعيان، ثم استعير للمعاني كبر، فمن ذلك ما اعتبر فيه الزمان، فيقال: فلان كَبيرٌ، أي: مسنّ، نحو قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾ [الإسراء: 23]، وقال: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ [البقرة: 266]، ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: 40][3]، والفارقُ بين الشيبةِ والكبرِ أن الكبرَ تصحبُه الشيبةُ عادةً بسبب كبر السن، أما الشيبة فقد تحدث دونَ بلوغِ سنِّ الكبرِ من مرضٍ أو خوفٍ أو مصيبةٍ.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 115، موسوعة التفسير الموضوعي: (الوهن).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 707، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 44، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: سورة الأنعام، ص: 85.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (شيب) و(كبر).

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ تفصيلِ مراحلِ الدنيا يأتي تفصيلُ مراحلِ الآخرةِ وما يعتري الكفّارَ من الإنكارِ

لمّا ذَكَرَ في الآياتِ السابقة عَدَمَ انْتِفاعِ المُشْرِكينَ بآياتِ القُرْآنِ، وشُبِّهوا بِالأَمْواتِ والصُّمِّ والعُمْيِ، فَظَهَرَتْ فَظاعَةُ حالِهِمْ في العاجِلَةِ؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ في هذه الآيَةِ بِوَصْفِ حالِهِمْ حينَ تَقومُ السّاعَةُ في استِصحابِ مُكابَرَتِهِمُ الَّتي عاشوا عَلَيْها في الدُّنْيا[1]، وأشار البقاعي إلى أن هذه الآية معطوفة على قوله تعالى في أَوَّل السّورَة ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢﴾ [الروم: 12]، بعد أن ثَبَتَتْ قُدْرَتُهُ عَلى البَعْثِ وغَيْرِه، أو عَلى ما تَقْديرُهُ: فَيَوْمَ يُريدُ مَوْتَكم تموتونَ، لا تَسْتَأْخِرونَ عَنْ لَحْظَةِ الأَجَلِ ولا تَسْتَقْدِمونَ[2]، وأقربُ من هذين التقديرين القولُ بأن موقعَ هذه الآية الكريمة من الآية السابقة أنها تستكمل الحديث عن مراحل الإنسان في الدنيا والآخرة، فبعد بيانِ أدلةِ التوحيد في خلقِ الإنسانِ في النشأة الأولى، ودلائلِ البعثِ والإعادةِ مرةً أخرى إلى الحياة، ذَكَرَ اللّٰهُ تعالى أحوالَ البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا، وما يحدث يوم القيامة من مناقشات بين أهل الإيمان وبين المجرمين، وجهل الكفّار في الدنيا والآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: (سوع) يَدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّه، مِن ذَلِكَ السّاعَةُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، يُقالُ جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ، أيْ بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ، وذَلِكَ أنَّهُ شَيءٌ يَمْضي ويَسْتَمِرُّ[3]، وهي جُزْء من آخر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 128.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 130.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوع).

اللَّيْل والنَّهار، وتُجمع ساعات وساعًا، وتصغّر سويعة، واللَّيْل والنَّهار مَعًا أربعٌ وعِشْرون ساعَة، وإذا اعتدلا فَكلّ واحِد مِنْهُما اثْنَتا عشرة ساعَة[1]، ويراد بها: جزء من أجزاء الزَّمان، ويعبّر به عن القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾، فالأولى هي القيامة، والثانية الوقت القليل من الزمان، وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاثة: السّاعَةُ الكبرى، هي بعث الناس للمحاسبة، والساعة الوسطى، وهي موت أهل القرن الواحد، والساعة الصّغرى، وهي موت الإنسان، فَساعَةُ كلّ إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: 31][2]، والمراد بالساعة القيامَة، سُمّيَتْ بها لِأَنَّها تَقومُ في آخِرِ ساعَةٍ مِن ساعاتِ الدُّنْيا، أو لِأَنَّها تَقَعُ بَغْتَةً، وصارَتْ عَلَمًا لَها بِالغَلَبَةِ[3].

2) ﴿يُقۡسِمُ﴾: (قسم) أَصْلانِ صَحيحانِ يَدُلُّ أَحَدُهُما على جَمالٍ وحُسْنٍ، والآخَرُ على تَجزِئَةِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ القَسامُ، وهو الحُسْنُ والجَمالُ، وفُلانٌ مُقَسَّمُ الوجْهِ، أَيْ ذو جَمالٍ، والقَسِمَةُ: الوجْهُ، وهو أحسَنُ ما في الإنسانِ، والأصلُ الآخَرُ القَسمُ: مَصدَرُ قَسَمتُ الشَّيءَ قَسمًا، والنَّصيبُ قِسمٌ بِكَسرِ القافِ، فَأمّا اليَمينُ فالقَسَمُ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وهيَ الأَيْمانُ تُقْسَمُ على أولياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوْا دَمَ مَقتولِهِم على ناسٍ اتَّهَموهُمْ بِهِ[4]، ومنه: أقسم بالله: حلف، كأنَّه جعله من قِسمه ومن نصيبه[5]، كقوله سبحانه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ [الأنعام: 109]، واستقسَمتُهُ: سألته أن يَقسِمَ، ثم قد يستعمل في معنى قسم، قال تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ [المائدة: 3][6].

3) ﴿لَبِثُواْ﴾: (لبث) أصل يَدُلُّ على تَمَكُّث، يُقالُ: لَبِثَ بِالمَكانِ: أقامَ، ويقال: لبث يلبث فهو لابث ولبث لبثًا، قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارٍۭۚ﴾ [الأحقاف: 35][7]، والمعنى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوع).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (سوع).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 494.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قسم).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (قسم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).

المحوري ملازمةٌ للمكان ممتدّة، وهي المكث في المكان، وليس في القرآن من التركيب إلا اللُّبْث المكاني أو الزماني وهو منه[1]، وقيل: اللُّبث: الإقامة الطويلة، فهي أخص من الإقامة، فكل لبث إقامة، وليس كل إقامةٍ لبثًا[2].

4) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: (أفك) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِهِ عَن جِهَتِه، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأفِكَ الرَّجُلُ: إذا كَذَبَ، والإفْكُ الكَذِبُ، وأفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيءِ: إذا صَرَفْتَه عَنْه، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المهابّ: مُؤْتَفِكَة، يَقولونَ: إذا كَثُرَتِ المُؤْتَفِكاتُ زَكَتِ الأرْضُ[3]، والمعنى المحوري تغير حال الشيء جملةً من وجه إلى وجه، وكل ما جاء في القرآن من التركيب فهو بمعنى القلب عن الوضع الصحيح ماديًّا كما ذكر، أو معنويًّا كالقلب أو الصرف من الحق إلى الباطل[4]. فالإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، قال تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، والمراد بقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ هنا: أيْ يُصرَفونَ عَنِ الصَّوابِ الَّذي مَنشَؤُهُ تَحَرّي الصِّدْقِ والإذْعانِ لِلْحَقِّ إلى الباطِلِ[5].

المَعنى الإجماليّ:

بسبب شدة أهوال القيامة يلجأ الكفار إلى الكذب والإنكار كما اعتادوا في الدنيا

حينَ تقومُ القيامةُ ويبعثُ اللهُ النّاسَ من قبورهم، يحلفُ الكفّارُ الآثمون أنَّهُم ما أقاموا في الدنيا أو في القبورِ غيرَ ساعةٍ واحدةٍ، أي: مدة قليلة من الزمانِ، قاصدينَ بذلك عدمَ قيامِ الحجةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبث).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أفك).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أفك).

عليهم، وأنَّهُم لم يُنْظَروا مدةً معقولةً، حتى يُعْذَروا فيما هُم عليه من تقصيرٍ، فيُصْرَفون عن تقدير الحقيقةِ والواقعِ في مدة اللبث، كما كانوا يُصْرَفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذبِ، والمرادُ أنَّهُم كاذبونَ في قولهم: ما لبثنا غير ساعة، وفي حلفهم على الكذب، وأنَّهُم مغترونَ بزينة الدنيا ومتاعها وزخرفِها، فإذا عَرَفوا ذلك ربما حَمَلَهم على تركِ العنادِ، وسلوك طريقِ الرشادِ، وفي هذا دلالةٌ على أن إصرارَهم على الكفرِ، صَرَفَهم عن التفكيرِ فيما هو حقٌّ وعنِ الاعتقادِ بالبعثِ واليوم الآخرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

استئناف الحديث عن أحوال الآخرة بعد الحديث عن مراحل الخلق في الدنيا

جاءتِ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ عاطفة، فوصلت هذه الجملة بالجملة السابقة، لتوسطِ الكمالين: كمالِ الاتصالِ وكمالِ الانقطاعِ، فالجملتانِ خبريتانِ لفظًا ومعنى، ووُجِدت المناسبةُ المُسوِّغةُ للعطف، وهي استئنافُ الحديثِ عن أحوالِ الآخرةِ بعد الحديثِ عن مراحلِ خلقِ الإنسان، ولم يمنع من العطف مانع[1]، فوصل النَّظْمُ بينهما بالواو.

دلالةُ التعبيرِ بـ(يوم) دون (ليلة):

اليومُ الآخرُ يومٌ لا ليلَ بعده وهو آخرُ أيامِ الدنيا

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بلفظِ (يوم) دون (ليلة) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لأن يومَ القيامةِ هو آخرُ يوم من أيام الدنيا، فلا يومَ بعدَه سواه، إذ اليومُ عندَ العربِ إنما يُسَمَّى يومًا بليلتِه التي قبلَه، فإذا لم يتقدَّمِ النهارَ ليلٌ لم يُسَمَّ يومًا، فيومُ القيامةِ يومٌ لا ليلَ بعدَه سوى الليلةِ التي قامت في صبيحتِها القيامةُ، فذلك اليومُ هو آخرُ الأيامِ، ولذلك سمّاه اللّهُ جلَّ ثناؤُه اليومَ الآخِرَ، ونعَته بالعُقْمِ،

(1) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 475.

ووصَفه بأنَّه يومٌ عقيمٌ؛ لأنه لا ليلَ بعدَه[1]، ومن هنا فقد آثر النَّظم الحكيم استعمالَ اليوم دون الليلة، كما أنَّ لفظَ (اليوم) يشملُ في طياته الليلةَ إذا أُريدَ به العمومُ.

بلاغة تقديمِ الظرفِ (يوم):

تذكيرُ المجرمين بيوم القيامةِ وإثباتُ وقوعِهِ

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ الظرفَ (يَوۡمَ) على جملة: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ خلافًا لمقتضَى الظاهرِ، إذ الأصل: (يقسمُ المجرمونَ ما لَبِثوا غيرَ ساعة يوم تقومُ الساعةُ)، وذلك للاهتمام بالمُتقدِّم، وهو ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ إذ المقصودُ الأولُ من الآية الكريمةِ تذكيرُهم بذلك اليومِ، وهو يومُ القيامةِ، وإثباتُ وقوعِه، مع تهديدِهم وتحذيرِهم بما يكونُ فيه منَ الأهوالِ الجسامِ، كما أنَّ تقديمَ الظَّرفِ أعرقُ في البلاغة، قالَ ابنُ الأثير: وأما تقديمُ الظرفِ، فإنَّه إذا كان الكلامُ مقصودًا به الإثباتُ فإنّ تقديمَه أولى من تأخيرِه، وفائدتُه إسنادُ الكلامِ الواقعِ بعده إلى صاحبِ الظرفِ دون غيره[2].

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع في ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

شـدَّةُ السّاعةِ وهَوْلها وطول يومها

عبّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالفعل المضارع ﴿تَقُومُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الذي يدلُّ على العزمِ والانتصابِ لفعل الشيء، وفي إيثارِ التعبيرِ بهذا الفعلِ دونَ غيرِه إشارةٌ لهَوْلِها وشدَّتِها، والمُرادُ بِقيامِ الساعة: وجودُها، أو قيامُ الخَلائِقِ فيها من قبورهم فَزَعًا وخوفًا، وجاءَ الفعلُ ﴿تَقُومُ﴾ في صيغةِ المضارعةِ للدَّلالة على التجدّدِ والاستمرارِ، إشارةً لطولِ هذا اليومِ الشَّديد، حتَّى إنَّ فعلَ القيامِ ليبدو مُتجدِّدًا مستمرًّا، حتَّى وإنْ وقعَ القيامُ دفعةً واحدةً، إلا أنَّ قيامَهم للجزاءِ يقع حالًا بعد حالٍ، فقيامهم مُتجدّدٌ، كما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 278 - 279.
(2) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر: 2/ 39.

أفادَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ ﴿تَقُومُ﴾ استحضارَ صورةِ القيامِ في نفوسِهم، حتَّى يكونوا على ذكرٍ منه، وإن كانوا ينكرونه.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ القيامِ إلى السّاعةِ:

حـالـةُ الـقـيـامِ أقـوى أحـوالِ الإنسانِ

معنى قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: يَثْبُتُ، ويمكن أن يكون القيام قد اسْتُعيرَ للثُّبوت تبعًا لتشبيه الساعة بإنسانٍ قائم؛ لأنَّ حالة القيامِ أقوى أحوالِ الإنسانِ، إذ هو انتصابٌ للعمل، ومنه قولُهم: قامت الحربُ على ساقٍ، إذا قَوِيَتْ واشْتَدَّت، ويجوزُ أن يُسند القيامُ إلى قيامِ الناس إسنادًا مجازيًّا، على المجاز العقليّ؛ حيث أُسند القيام إلى السّاعة، والمراد أهلها، فالعلاقة زمانيَّة[1].

دلالة التعريف بـ (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

الـسـاعـةُ هـيَ يـومُ الـقـيـامـة الـذي يَـشـهَـدُ بـعـثَ الخلائقِ أجمعين

جاءتْ (أل) في كلمة ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ للعهدِ الذِّهنيّ، عَلى مَعْنى السّاعَةِ الَّتي تَقومُ فيها القيامَةُ التي ينتظرها كلُّ الخلائق، فَلِذَلِكَ لَمْ تُعرَفْ أيُّ ساعَةٍ هي[2]، والمراد بها القيامَةُ الَّتي هي إعادَةُ الخَلائِقِ الَّذينَ كانوا بالتَّدْريجِ في أُلوفٍ مِنَ السِّنينَ لا يَعْلَمُ مِقدارَها إلّا اللّهُ تَعالى في أقَلَّ مِن لَمْحِ البَصَرِ[3].

نكتة إيثار التعبير بـ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

إثـبـاتُ الـبـعـثِ وأدلَّـتِه وسرعةُ جزاءِ المكذِّبينَ به

المرادُ بـ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ساعة جزاء المكذّبين بالبعثِ والمنكرين لأحوالِ الآخرة، أي: ساعة البعث، وهو يوم القيامةِ، وعبَّرَ النَّظْمُ بالساعةِ دون القيامةِ؛ لأنَّها تَفْجَأُ النَّاسَ بَغْتَةً في ساعةٍ لا يعلمها إلّا اللّه سبحانه، وللإشعارِ بسرعةِ مجيئِها وسرعة إقامة البعثِ وجزاءِ المكذِّبين، ولما كانتِ السّورةُ تدورُ حولَ إثباتِ البعثِ وإقامةِ الدلائلِ عليه فقد ناسَبَها التّعبيرُ بالساعة

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 382.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 191.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 130.

دونَ القيامةِ أو غيرِها من مُقارباتِها، كَما عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن لفظِ (القيامة) ولم يَقُلْ: (ويومَ تقومُ القيامةُ)؛ تجنبًا لمثلِ هذا التكرارِ، ولأنّ معناه قد جاءَ في الفعل ﴿تَقُومُ﴾ فاستغنى عن إعادته بذكرِ القيامةِ.

نكتةُ التعبير بالمضارع في ﴿يُقۡسِمُ﴾:

تجدُّدُ قسَمِ المجرمين عن قِصَرِ مدةِ لُبثِهم في الحياةِ الدنيا والبرزخ

أوردَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿يُقۡسِمُ﴾ في صيغةِ المضارعةِ؛ للدلالةِ على التجدّدِ والاستمرارِ، ففيهِ إشارةٌ لشدّةِ فزعِ الكفّارِ وما أصابهم من ذهولٍ، حتى إنَّهم لَيستمرّون في القسم تعبيرًا عن تعجُّبهم من قصرِ مدّة لبثهم في الحياةِ الدُّنيا والبرزخ.

وعبّرَ النَّظْمُ بالفعلِ ﴿يُقۡسِمُ﴾ دون الفعل (يحلف)؛ لأنَّ القسمَ أبلغُ من الحلفِ[1]، وذلك لأنَّ الكفار لمّا كانوا في حال من الذهول والمفاجأة فقد لجؤوا إلى المبالغةِ في تأكيدِ كلامهم.

نكتةُ التعبيرِ بالإجرامِ دونَ الكفر:

لطفُ الإشارةِ في تحذيرِ المؤمنينَ من الإجرام وتوبيخُ الكفّار بسوء الفعال

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بقولِه: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دونَ لفظِ الكفّارِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، رغم أنَّ لفظَ الكفّارِ أعَمُّ مِنهُ بِحَسَبِ المَفهوم وأشملُ، وإنَّما آثرَ ذلك اللفظَ تلطُّفًا بِالمُؤمنينَ في تَرْكِ الجَرائمِ لِما فيهِ مِن إرشادِهِمْ إلى أنَّ الجُرْمَ مُطْلَقًا مَبْغوضٌ من اللهِ ﷻ، إذ لا يجتمع الإيمان والإجرام في قلب مؤمن، وفي التعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ بيانٌ لآثار إجرامهم في الأرض وعاقبته، وتوبيخ لهم على سوء فعالهم[2]، وما ذاك إلا لأنَّهم عَريقونَ في الإجْرامِ جَرْيًا مِنهم عَلى دَيْدَنِ الجَهْلِ في الجَزْمِ بِما لَمْ يُحيطوا بِهِ عِلْمًا[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 450.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 130.

دلالة التعبير بجملةِ: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾:

ذهولُ المشركينَ مِنْ هولِ ما وجَدوا من معاصيهم وزلّاتِهم ساعة البعث

جاءتْ جملةُ: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ جوابًا للقسم على المعنى في قولِه تعالى: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ إذ لو حُكيَ قولهم لقيل: ما لبثنا[1]، والمرادُ أنَّهُم يُقْسِمونَ أنَّهُم لم يَلْبثوا في قبورِهم غيرَ ساعةٍ، كما ذكر بعض أهل التأويل، لكنَّ الأشبهَ أنْ يكونَ قولُه: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾؛ أيّ: في الدنيا التي هي دارُ الامتحانِ، لا في القبور، لأنَّهُم استقصَروا مقامَهم في الدنيا؛ تكذيبًا لما ثبت عليهم من الزللِ والمعاصي وأنواعِ الكفرِ؛ يقولون: إنّا لَبِثْنا في الدنيا وقتًا لا يَكونُ مِنّا في مثلِ ذلك الوقتِ وتلك المُدَّةِ هذا الزللُ وتلك المعاصي كلُّها[2].

دلالة النفي بـ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾:

شدةُ إنكارِ الكفّارِ لطولِ مدةِ لبثِهم في الدنيا

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مَا﴾ النافية في قوله سبحانه: ﴿يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾؛ للتعبير عن إنكار المشركين لمدة لُبثِهم في الدنيا، فكذَّبوا طول المقام فيها؛ كما كانوا يكذِّبون في الدنُيا، ويقولون: لا بعثَ ولا حياةَ بعد الموتِ ولا حسابَ.

نكتةُ اختيارِ اللُّبثِ دونَ المُكثِ:

اللّبثُ مرتبطٌ بوقتٍ محددٍ أما المكثُ فإقامةٌ مطلقةٌ غير محددة

آثرَ البيانُ القرآني التعبيرَ عن إنكارِ الكفّارِ للمدَّة التي أمضوها في الدنيا بالفعل ﴿لَبِثُواْ﴾ دون الفعل (مكثوا) في قوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾، وذلك لأن اللُّبثَ يرتبطُ بزمانٍ محددٍ ومقيدٍ، كما هو في الآية الكريمة، إذ حُدِّدَ اللبث بساعةٍ واحدةٍ، وأما الفعل (مكث) فيرتبط بالإقامة المطلقة غير المحدد في مكان بعينه، ومن ثم كان الأنسب التعبير بـ﴿لَبِثُواْ﴾ دون (مكثوا).

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾:

في قولِ اللّهِ جَلَّ ثناؤُه: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ جاءَ أسلوبُ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 115.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 292.

قِصَرُ مُدَّةِ البقاءِ في الدُّنيا يُقابلُها طـولُ الحسابِ في الآخرة

القصرِ بقصرِ الصِّفةِ على المَوْصوفِ، وهي الساعةُ، أو الوقتُ الزَّمَنيُّ مِنَ النهارِ قَصْرًا حَقيقيًّا ادعائيًّا، وطريقُ القصرِ ههنا: النَّفْيُ والاستثناءُ، وهو مستعملٌ في الأصلِ لِما يُنكِرُه المخاطبُ ولا يُقِرُّ به، وفي التعبيرِ بِه تخصيصٌ وتوكيدٌ ومبالغةٌ، وفيهِ بيانٌ لشدَّةِ فزعِ المُشركينَ يوم البعث، وتعبيرٌ عن مَدى إنكارِهم على أنفسهم لإضاعتهم حياتهم الدنيا هباءً بغير عملٍ نافعٍ، ولذلك عبّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بـ﴿مَا﴾ التي تفيدُ النفيَّ، و﴿غَيْرَ﴾ التي تفيدُ الاستثناءَ، وعَدَلَ عن استعمالِ (إلّا) التي هيَ الأصلُ في بابِ الاستثناءِ إلى (غير)؛ لأنَّ (غير) تشتملُ على عدد من المعاني لا تشتملُ عليها (إلّا)، "ذلك أنَّ ما بَعدَ (إلّا) هو المقصودُ بالاستثناءِ، وهو الذي يدورُ عليه الحكمُ أمّا في (غير) فإنَّ الكلامَ قد يدورُ على ما بعدَ (غير)، وقد يدور على (غير) نفسها، لا على المجرور بها، فـ (إلّا) تفيدُ القصرَ نصًا، أمّا (غير) فتفيدُ القصرَ تَضمُّنًا"[1].

دلالةُ التعبيرِ بـ﴿سَاعَةٍۚ﴾:

تـقـلـيـلُ مُــدَّةِ لُبثِهم في الدنيا محاولةٌ بائسةٌ لالتماسِ المَعْذَرَة في الآخرة

المَقصودُ بالساعةِ في قوله جلَّ ثناؤُه: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ هو المقدارُ المعلومُ من الزَّمانِ الّذي يعيشُه الإنسانُ، الَّذي هو جزءٌ مِن أربعةٍ وعشرين جزءًا من اليوم[2]، والمقصودُ الوقتُ القليلُ مِنَ الزمانِ، وقد جاءَ التعبيرُ بها مفردةً غير مجموعةٍ لبيانِ حَقارتها وقلَّتها، إذ عادةً ما يُعبَّرُ بها عَنِ الزَّمَنِ القصيرِ مَعَ وجودِ قرينةٍ، وأسهمَ مجيئُها نكرةً في الدَّلالةِ عَلى قِلَّتها إذا ما قورنتْ بطولِ يوم الحشر، أو بطولِ مدَّةِ اللُّبثِ في الدنيا، فَهُم إنَّما يَزْعُمون قلّة مُدَّتهم في الدنيا في مُحاولةٍ بائسةٍ يائسةٍ لالتماسِ المعذرةِ في الآخرة، وذهبَ أبو السعودِ إلى أنَّهُم إنَّما استقلّوا مُدَّةَ لُبثِهم نِسيانًا، أو كذبًا، أو تَخمينًا[3].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 263.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوع).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 66.

بلاغةُ الجناسِ التّام في الآية:

تقريع المشركين والاستهزاء بهم

اتَّفَقت كلمتا ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿سَاعَةٍۚ﴾ في الحروفِ والضَّبطِ، واختَلَفَتا في المعنى في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٍۚ﴾، وهو المُسمَّى في عِلمِ البديعِ بالجناسِ التامِ، إذ المعنَى في الأولَى يومُ القيامةِ، وفي الثانيةِ الوقتُ المحدَّدُ من أربعةٍ وعشرينَ جزءًا من اليومِ، وقد جاءَ الجناسُ في هذه الآيةِ الكريمةِ على أحسنِ صورةٍ وأجملِ موقعٍ فلا تَكَلُّفَ فيهِ ولا تَصَنُّعَ، ولا جَورَ على المعنى لحسابِ اللَّفْظِ، ولا اقتصارَ للفظِ بدونِ دلالةٍ حَسَنَةٍ، فأمالَ الآذانَ لحسنِ الإصغاءِ إليه؛ لأنَّ اللَّفْظَ المُشترَكَ إذا حُمِلَ على معنًى ثُمَّ جاءَ والمرادُ به معنًى آخرَ كان للنَّفسِ تشوقٌ إليه، كما أنَّ التوافقَ في الصورةِ واقترانَ الأشباهِ والنظائرِ بعضها ببعضٍ تميلُ إليه النُّفوسُ بالفطرة، وتأنسُ به وتغتبطُ ويطمئنُّ إليه الذوقُ لأنَّه نظامٌ وانسجامٌ وائتلافٌ[1]، وقد أسهمَ هذا الجناسُ التّامُّ في تصويرِ مدى حسرةِ الكفّارِ يوم القيامة، وشدّة الشماتة بهم، ليَكونوا هُزَأةً لِأَهْلِ النُّشورِ، ويَتَّضِحُ غَلَطُهم وسوءُ فَهْمِهِمْ[2] بإنكارهم للبعث والآخرة.

علّةُ فصلِ جملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ عَمّا قبلها:

أوهامُ الكفّار صارفةٌ لَهُم عن اليقين مهما تواترتِ الأدلّةُ وسيقت الحُجج

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جملة: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لشبهِ كمالِ الاتصالِ بينهما، إذ جاءَتْ جُمْلَةُ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ غَرابَةَ حالِهِمْ من فَسادِ تَقْديرِ المُدَّةِ والقَسَم عليه مَعَ كَوْنِه تَوهُّمًا يُثيرُ سُؤالَ سائِلٍ عَنْ مَثارِ هَذا الوهمِ في نُفوسِهم فَكانَ قَولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ بَيانًا لِذَلِكَ، ومَعْناهُ: أنَّهُم لا عَجَبَ في صُدورِ ذَلِكَ منهم فَإنَّهم كانوا يَجيئُونَ بِمِثْلِ تِلْكَ الأوهامِ مُدَّةَ كَوْنِهِم في الدُّنيا، فَتَصْرِفُهم أوهامُهم عَنِ اليَقينِ،

(1) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني: 2/ 442 - 444.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 129.

وكانوا يُقْسِمونَ عَلى عَقائِدِهِمْ كَما في قَوْلِهِ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38] اسْتِخْفافًا بِالأَيْمانِ، وكَذلِكَ إِشارَةً إلى انْصِرافِهِمْ عَنِ الحَقِّ يَوْمَ البَعْثِ(1).

معنى (الكاف) في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟﴾:

يُصرفُ الكافرونَ عــنْ حقيقةِ لُبْثِهم كما كانوا يـصـرفـونَ عَـنِ الحَقِّ في الدُّنْيا

جاءَتِ الكافُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ إمّا اسميَّةً، بمعنى (مثل)، فتكونُ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: نائبةً عن المفعولِ المطلقِ، أي: يُؤفَكونَ إفكًا مثلَ ذلك الإفكِ، أي: مثلَ ذلكَ الصَّرفِ كانوا يُصرفونَ عن الصِّدقِ، أو: مثلَ ذلكِ الإفكِ كانوا يُؤْفَكونَ في الاغترارِ بما تبيَّنَ لهُم الآنَ أنَّه ما كان إلّا ساعةً، واسمُ الإشارةِ في محلِ جرٍّ مضافٍ إليه، واللّامُ للبُعدِ، والكافُ للخطابِ، وإمّا حرفُ جرٍّ، و(ذا) في محلِّ جرٍّ، والجارُ والمجرورُ متعلقانِ بمحذوفٍ نائبٍ عن المفعولِ المطلقِ(2)، فَهُم كما صُرِفوا عن حقيقةِ لُبْثِهم في الدُّنْيا أو في القبورِ؛ كانوا يُصرفونَ عن الحقِّ في الدُّنْيا(3).

بلاغةُ التشْبيهِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شناعةُ الكذبِ والاستكبارِ في الدُّنيا تؤدّي إلى الصرفِ عنِ الحقِّ في الآخرةِ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُركَّبٌ من كاف التشبيهِ واسم الإشارة، والمُشارُ إِلَيْهِ هو المُشَبَّهُ بِهِ، والمُشَبَّهُ مَحْذوفٌ دَلَّ عليه كافُ التَّشبيهِ، والتَّقديرُ: إفكًا مِثلَ إفكِهِم هَذا كانوا يُؤفَكونَ بِهِ في حَياتِهِمُ الدُّنيا، وهو تشبيهُ معقولٍ بمعقولٍ، فالمشبّهُ صرفُهم عن الحقِّ في الآخرةِ، والمُشبَّهُ به صرفهم عن الحق في الدنيا، والمَقصودُ مِنَ التَّشبيهِ المُماثلةُ والمُساواةُ(4).

دلالةُ التعبيرِ باسمِ الإشارةِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ استعمال اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قولِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 129 - 130.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 116.
(3) محمد عبد اللطيف الخطيب، أوضح التفاسير، ص: 498.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 129 - 130.

الدلالةُ عَلى بعدِ الكُفّار عن إصابةِ الحقِّ في الدُّنيا والآخرة

جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ الموضوع للبعيد؛ للدلالةِ على شدَّةِ بُعدهم عن الحقِّ بتكذيبهم بالبعثِ وإعراضهم عن الإقرارِ والاعترافِ به في الدُّنيا[1]، فَهُم كذلك بَعيدون عن إصابة الحقِّ في تقديرِ مُدَّةِ لُبثِهم يومَ البعث.

نكتةُ التعبيرِ بالكونِ ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

تجدُّد كذبِ المجرمين في الماضي وتحزينهم لفواته

عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه جَلَّ ثناؤُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ عنِ التَّعبيرِ على مُقْتَضَى الظّاهرِ بأنْ يكونَ النَّظمُ: (كَذَلِك أُفِكوا) إذا كان المقصودُ مجردَ الدلالةِ على صرفِهم عنِ الحقِّ، فَضلًا عن الدلالةِ على وقوعِ الفعلِ في الماضي، ولكنّ البيانَ القُرآنيَّ أتى بزيادةِ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ على أصلِ المعنى، لنكتٍ دقيقةٍ، فذهبَ البِقاعيُّ إلى أنَّ الفعلَ ﴿كَانُواْ﴾ أثبتَ لَهُم كَوْنًا هو كالجِبِلَّةِ[2] فلا ينفكّونَ عنها، أمّا ابنُ عاشور فذهبَ إلى أنَّ إقْحامَ فِعْلِ ﴿كَانُواْ﴾ لِلدَّلالَةِ عَلى المُضيِّ، أي: أنَّ المُرادَ: في زَمانٍ قَبْلَ ذَلكَ الزَّمَنِ، أي في زَمَنِ الحَياةِ الدُّنيا[3].

دلالةُ التعبيرِ بـ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ مادةً وصيغةً:

الانصرافُ عن الحقِّ سَجيَّةٌ متأصلةٌ في نُفوسِ الكفّارِ

الأفكُ بِفَتحِ الهَمزَةِ: الصَّرفُ، والمرادُ بِهِ ههنا أنْ يُسلِّطَ اللّهُ على الكفارِ ما يَصْرِفُهم عن التصديقِ بالحقِّ والإيمانِ به، ما داموا مُكَذِّبينَ معرضين عن الآخرة، لَمْ يُخْلِصوا للّه العِبادَةَ في كُلِّ أحْوالِهم، وجَميعِ أقْوالِهم وأفْعالِهم، فَيَقَعوا في خَبْطِ العَشْواءِ وحَيْرَةِ العَجْباءِ[4]، ودلَّ التعبيرُ بالمضارعِ أنَّهُم كانوا كَذلك حتَّى صارَ ذلك خُلُقًا تَخلَّقوا بِهِ وصارَ لَهم كالسَّجيَّةِ في حَياتِهمُ الدُّنْيا، حَتَّى إذا أعادَ اللّهُ إلَيْهِمْ أرْواحَهم صَدَرَ عَنْهم ما كانوا تَخلَّقوا بِهِ، وفي بناءِ الفعلِ للمفعولِ إيجازٌ عظيمٌ للعلمِ بالفاعلِ، فضلًا عن أنّ في حذفِ

(1) الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: 5/ 249.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 129.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 130.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 471.

الفاعل دعوة للمخاطبين إلى الانشغال عنه بالفعل نفسه، وفي هَذا الخَبَرِ أدَبٌ عَظيمٌ لِلمُسلِمينَ أنْ يَتَحامَوُا الرَّذائِلَ والكَبائِرَ في الحَياةِ الدُّنْيا خَشْيَةَ أنْ تَصيرَ لَهم خُلُقًا فَيُحْشَروا عَلَيْها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسم والحلف واليمين:

القسمُ أبلغُ من الحلفِ والحلفُ في الاستعمالِ القرآنيِّ عادةً لليمينِ الكاذبةِ

القسم أبلغ من الحلف؛ لِأن معنى قَوْلنا: أقسم بِاللّه، أنه صار ذا قسم بِاللّه، والقسم: النَّصيب، والمراد أن الَّذي أقسم عليه من المال وغَيره قد أحرزه ودفع عَنهُ الخصم بِاللّه، والحلف من قَوْلك سيف حَليف، أي: قاطع ماض، فَإذا قلت: (حلف بِاللّه) فكأنَّك قلت قطع المُخاصمَة بِاللّه، فالأول أبلغ لِأَنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخر مَعَ دفع الخصم فَفيهِ مَعْنيانِ، وقَوْلنا: (حلف) يُفيد معنى واحِدًا، وهو قطع المُخاصمَة فَقَط، وذَلِكَ أن من أحرز الشَّيء بِاستِحْقاق في الظّاهِر فَلا خُصومَة بَينه وبَين أحد فيهِ، ولَيسَ كل من دفع الخُصومَة في الشَّيْء فقد أحرزه، واليَمين اسم للقسم مستعار؛ وذلك أنهم كانوا إذا تقاسموا على شَيْء تصافقوا بأيمانهم، ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سمي القسم يَمينًا[2]، كما أنَّ من الخصائص الدقيقة للنظم القرآني أن تأتي كلمةُ الحلف عادةً في سياق اليمين الكاذب، فقد جاءت مادة (حلف) في ثلاثة عشرَ مَوْضِعًا، كُلُّها بغيرِ استثناءٍ في الحِنْثِ باليمين، والغالبُ أن يأتي الفعل مسندًا إلى المنافقين، وجاء الفعل مرة واحدة مسندًا إلى ضمير (الذين آمنوا) فوجبت عليهم كفارة الحَلْف، وأما القسم، فيأتي في الأيمانِ الصادقة، وليس المجرمون هنا بكاذبين إذ يُقْسِمون يومَ تقوم الساعة ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾، إذ القسمُ ههنا يعبِّر عمّا أصابَ نُفوسَهم من ذهولٍ وفزعٍ، لعدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 130.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.

انتفاعهم بمدة لبثهم في الدنيا، ومن هنا يمكن القولُ إن الاستعمالَ القرآنيَّ يلفتُ إلى فرق دقيق بينهما، فإن لم نقل إن القسمَ لليمينِ الصادقةِ - حقيقةً أو وهمًا - والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها، فلا أقل من أن يكون بين دلالتهما الفرقُ بين العامِ والخاصِ: فيكونُ القسمُ لمطلقِ اليمين بعامة، ويختص الحَلْفُ بالحنثِ في اليمين، على ما اطَّرَدَ استعمالُه في البيانِ القرآني[1].

(1) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 221 - 224.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾

[الروم: 56 - 57]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ردُّ أهلِ العلمِ والإيمانِ على منكري البعثِ تشنيعٌ وتغليظٌ وفضحٌ لكذبِهم

لَمّا ذكرَ اللهُ سبحانَه مقالةَ المكذِّبينَ بالبعثِ وإنكارَهم مُدَّةَ لُبثِهم في الدُّنيا أو في القبورِ، وجدالَهم في هذا الشأنِ بما يبيِّنُ جهلَهم وانصرافَهم عن الحقِّ، أَتبَعَهُ سبحانَه ردَّ مَنْ آتاهُم اللهُ العلمَ والإيمانَ على هذه الفريةِ المدَّعاةِ لبيانِ البونِ الهائلِ بين أهلِ العلمِ والإيمانِ وأهلِ الجحودِ والكفرانِ، "فجعلَ اللهُ مُنْكِري البَعْثِ هَدَفًا لِسِهامِ التَّغْليطِ والافْتِضاحِ في وقْتِ النُّشورِ، فَلَمّا سَمِعَ المُؤْمِنونَ الَّذينَ أوتوا عِلْمَ القُرْآنِ وأشْرَقَتْ عُقولُهم في الحَياةِ الدُّنْيا بِالعَقائِدِ الصَّحيحَةِ وآثارِ الحِكْمَةِ لَمْ يَتَمالَكوا ألّا يَرُدّوا عليهمْ غَلَطَهم رَدًّا يَكونُ عليهمْ حَسَراتٍ ألّا يَكونوا قَبِلوا دَعْوَةَ الحَقِّ كَما قَبِلَها المُؤْمِنونَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُ﴾: (نفع) كلمةٌ تدُلُّ على خِلافِ الضَّرِّ، ونَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفْعًا ومَنْفَعَةً، وانْتَفَعَ بِكَذا[2]، والمعنى المحوريُّ فائدةٌ تُنالُ منَ الشَّيءِ أو جدوى تعودُ منه، ومن هذا الأصلِ الإفادةُ والتقويةُ، وجاءَ النَّفْعُ بمعنى ضدِّ الضَّرِّ في القرآنِ كُلِّه، وذلك في كلِّ شيءٍ بحَسَبِه[3]، والنَّفْعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيراتِ[4]، وفي أسماءِ اللهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 130 - 131.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفع).

(4) الراغب، مفردات القرآن: (نفع).

تَعالَى النافِعُ: وهو الَّذي يوصِّلُ النفْعَ إلى مَن يَشاءُ مِنْ خلْقه؛ حَيْثُ هو خالِقُ النفْعِ والضَّرِّ والخيْرِ والشرِّ[1].

2) ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾: (عذر) بِناءٌ صَحيحٌ لَهُ فُروعٌ كَثيرَةٌ، فالعُذْرُ مَعْروفٌ، وهو رَوْمُ الإنسانِ إِصْلاحَ ما أُنْكِرَ عليه بِكَلامٍ، يُقالُ مِنْهُ: عَذَرْتُهُ فَأنا أعذِرُهُ عَذرًا[2]، والمعنى المحوريُّ اعتراض ما يحولُ دونَ المعتادِ من نفاذٍ[3]، فالعُذْر: الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذر بها؛ والجَمعُ أعذارٌ، يُقالُ: اعْتَذَر فُلانٌ اعْتِذاراً وعِذْرةً ومَعْذُرةً ومَعْذِرةً[4]، والعُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبَه، وذلك على ثلاثةِ أضربٍ: إمّا أنْ يقولَ: لم أفعلْ، أو يقولُ: فعلتُ لأجلِ كَذا، فيذكرُ ما يُخْرِجُه عن كونه مذنبًا، أو يقولُ: فعلتُ ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقالِ، وهذا الثالث هو التّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً[5]، و﴿مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾: هو قولُهم: ما علِمْنا أنَّ البعث كائنٌ، ولا أنّا نُبعثُ[6].

3) ﴿يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾: (عتب) أَصْلٌ صَحيحٌ، يَرْجِعُ كُلُّهُ إلى الأَمْرِ فيهِ بَعْضُ الصُّعوبَةِ مِنْ كَلامٍ أو غَيْرِهِ، والعَتْبُ: المَوْجِدَةُ، تَقولُ: عَتَبْتُ على فُلانٍ عَتْبًا ومَعْتَبَةً، أيْ وجَدْتُ عليه[7]، والاسْتِعْتابُ: طَلَبُكَ إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَنْ إساءَته[8]، والتَّعتُّبُ والمعاتبةُ والعِتابُ كل ذَلِك مُخاطبَة المدلّين أخلّاءهم طالِبين حُسْنَ مراجعتهم ومذاكرةَ بَعضهم بَعْضًا ما كرهوه ممّا أكسَبهم الموجدةَ[9]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت: 24] أي: إن يَستقيلوا ربَّهم لم يُقِلْهم، أي: لم يردّهم إلى الدنيا مما هم فيه من العذاب لم يقلهم[10]، والمراد: ولا هم بمُزالٍ عَنهم المؤاخذة.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نفع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذر).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عذر).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (عذر).

(5) الراغب، مفردات القرآن: (عذر).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 528.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتب).

(8) ابن منظور، لسان العرب: (عتب).

(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتب).

(10) الفيروزآبادي، بضائر ذوي التمييز: (عتب).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إفحامُ المؤمنين لمنكري البعثِ وانقطاعُ أملِ الكفّار في التوبةِ والإعتابِ

بعدَ أنْ يستقلَّ الكفارُ مدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنْيا ويُقْسِمونَ على ذلكَ الأقسامَ المُتَجَدِّدَةَ والأيْمانَ المُغَلَّظَةَ؛ إذْ بالمؤمنينَ العالمينَ يَرُدّونَ على منكري البَعث الحالفين بأنَّهم لم يلبثوا غيرَ ساعةٍ، فيقولونَ لَهُم: لقدْ لَبِثْتُم في علم اللهِ وقضائِه وحكمِه مُدَّةً طويلةً في الدُّنْيا من يومِ خُلِقْتُم إلى أن بُعِثْتُم، ولكِنَّكُم كُنْتُم منكرينَ للبعثِ، فهذا يومُه الواقعُ الَّذي لا سبيلَ لإنكارِه، وبِه يَتَبَيَّنُ بطلانُ إنكارِكم إيّاه، غيرَ أنَّكُم تجهلونَ أنَّه حقٌّ واقعٌ، لتَفْريطِكم في النَّظرِ وغَفْلَتِكم عن أدلَّةِ ثُبوتِه واستِكبارِكم عن التصديقِ به، ثُمَّ أوضَحَ الذِّكرُ الحكيمُ أنَّهُ في يومِ القيامةِ لا ينفعُ هؤلاءِ الكافرينَ عُذْرُهم أو اعتذارُهم عمّا فعلوا، ولا تقبلُ مِنْهُم توبتُهم؛ لأنَّ وقتَ التَّوبةِ في دارِ الدُّنيا، وهي دارُ العملِ، أمّا الآخرةُ فهي دارُ الجزاءِ، لا وقت العملِ، فلا يُطلبُ منهُم الإعتابُ، وهو إزالةُ العَتَبِ بالتَّوبةِ والطاعةِ الَّتي تُزيلُ آثارَ الجريمةِ؛ لِأنَّها لا تقبلُ منهُم، ولا يُعاتبونَ عَلى ذُنوبِهم، وإنَّما يعاقبونَ عليها أشدَّ العقابِ، فليست حالهم حال مَن يُستعتب ويرجع عمّا هو عليه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

مُحاجّةُ الكفّار وإفحامُهم من المهامِّ التي شرَّفَ اللهُ بها المؤمنين

عطفَ النَّظْمُ الحكيمُ هذهِ الجملةَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾، فوصَلَ بينهُما للتَّوسُّطِ بين الكَمالين، إذْ كلتاهُما جملةٌ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وبينهما جامعٌ وهو الحديث عن مُدَّةِ اللبثِ، فقدِ انتقلَ السّياقُ من دعوى الكفّارِ بقلَّةِ مُدَّةِ لُبْثِهم في الدُّنْيا والبَرزخ إلى ردِّ المؤمنينَ على الكُفّارِ، والظّاهِرُ أنَّ المُؤْمنينَ يَسْمَعونَ تَحاجَّ المُشْرِكينَ بَعضِهم مَعَ بَعضٍ فَيُبادِرونَ بِالإنكارِ عَلَيهم لِأنَّ تَغييرَ المُنْكَرِ سَجيَّتُهُمُ الَّتي كانوا

عَلَيها، وفي هَذا أَدَبٌ إِسلاميٌّ، وهو أنَّ الَّذي يَسمَعُ الخَطَأ في الدّينِ والإيمانِ لا يُقِرُّهُ، ولَو لَم يَكُنْ هو المُخاطَبُ بِهِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَقَالَ﴾:

نَصاعةُ حجةِ المؤمنين وتَحقُّق حُدوثِها في علم اللهِ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بفعلِ (القول) لِدَلالَته على الجهرِ بالحُجَّةِ والإعلانِ بالبيانِ؛ لما في أقوالِ هؤلاءِ الكُفّارِ من الكذبِ والتَّدليسِ والبُهْتانِ ومجافاةِ الحقِّ، وقد جاء الفعلُ في صيغةِ المُضيِّ للدلالةِ على تحقُّقه يقينًا في علمِ اللّهِ؛ وذلك لأنَّ وضعَ الماضيِ موضعَ المستقبلِ دلالةٌ على قُربِ الوقوعِ وتأكُّده.

نكتةُ إسنادِ فعل القول إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾:

في الإسنادِ تشريفٌ وتكريمٌ يناسب الجهر بكلمة الحقِّ

أُسندَ فعل القول في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، ولهذا الإسنادِ إشارة بليغةٌ، وهي صدورُ القولِ الحقِّ من أهلِ الحقِّ المعتنقينَ له المؤمنينَ به، وهذا هو الأصلُ، على نقيضِ قول المشركين منكري البعثِ في الآيةِ السابقةِ، ففي إسنادِ القولِ للمؤمنين العالمِينَ تشريفٌ لهُم، وتكريمٌ لأشخاصِهم، وإبرازٌ للحقِّ على لسانِ أهلِه.

علَّةُ التعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وصفُ المؤمنين بالنَّعتِ المخصوص دليلٌ على اشتهارِهم بالعلمِ والإيمانِ

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ التعبيرِ باسم الفاعلِ كأنْ يقولَ: (وقالَ المُؤمنونَ العالِمونَ) في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ لِما في التعبيرِ بالاسم الموصولِ من التَّخصيصِ والنَّصِّ والتعيينِ، وفيه كذلك لفتٌ للمقامِ، وتنبيهٌ على الوصفِ الذي لا يلتبس، وتوكيدٌ على اختصاصهم بهاتين الصفتين، دون منكري البعث، فضلًا عن إفادته هنا التّعظيم لشأنهم، وقَدِ اختُلِفَ في المراد بالَّذينَ أوتوا العِلْمَ، فذهب بعضُهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

إلى أنَّهُم المَلائِكَةُ، وذهبَ بعضٌ آخرُ إلى أنَّهُم الأنْبياءُ، وقال بعضُ المفسرين هُم عُلَماءُ الأُمَمِ، أو مُؤْمِنو هَذِهِ الأُمَّةِ، وهناك من رأى أنَّهُم جَميعُ المُؤْمنينَ[1].

دلالةُ التعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:

الإيتاءُ أبلغُ مِنَ الإعطاءِ والإعطاءُ أظهرُ في التَّملُّكِ مِنَ الإيتاءِ

عبَّرَ النَّظمُ الحكيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ، وذلكَ "لأنَّ الإيتاء أقْوى مِنَ الإعْطاءِ في إثْباتِ مَفْعولِه، لِأنَّ الإعْطاءَ لَهُ مُطاوِعٌ يُقالُ: أعْطاني فَعَطَوْتُ، ولا يقال في الإتيان: أتاني فَأتَيْتُ، وإنَّما يُقالُ: آتاني فَأخَذْتُ، والفِعْلُ الَّذي لَهُ مُطاوِعٌ أضْعَفُ في إثْباتِ مَفْعولِه مِنَ الَّذي لا مُطاوِعَ لَهُ، لِأنَّكَ تَقولُ قَطَعْتُهُ فانْقَطَعَ فَيَدُلُّ على أنَّ فِعْلَ الفاعِلِ كانَ مَوْقوفًا على قَبولِ المَحَلِّ لَوْلاهُ لَما ثَبَتَ المَفْعولُ، ولِهَذا يَصِحُّ: قَطَعْتُهُ فَما انْقَطَعَ، ولا يَصِحُّ فيما لا مُطاوِعَ لَهُ ذَلِكَ، فَلا يَجوزُ أنْ يُقالَ: ضَرَبْتُهُ فانْضَرَبَ أو ما انْضَرَبَ، ولا قَتَلْتُهُ فانْقَتَلَ أو ما انْقَتَلَ؛ لِأنَّ هَذِهِ الأفْعالَ إذا صَدَرَتْ مِنَ الفاعِلِ ثَبَتَ لَها المَفْعولُ في المَحَلِّ والفاعِلُ مُسْتَقِلٌّ بِالأفْعالِ الَّتي لا مُطاوِعَ لَها فالإيتاءُ إذَنْ أقْوى مِنَ الإعْطاءِ"[2]، كما أن بينهما فرقًا من وجهٍ آخرَ، وهو أنَّ في الإعطاءِ دليلَ التَّمَلُّكِ دونَ الإيتاءِ[3]، ولذلك فقد عبَّر في هذا السياقِ بالإتياء دون الإعطاء تَنْبيهًا عَلى شُكْرِ مَن آتاهُموهُ[4].

لطيفةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعولِ:

تسهيلُ مأخذِ العلمِ والإيمانِ على أهلِ الحقِّ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيم في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بالفعل ﴿أُوتُواْ﴾ بالبناء للمفعول، إشارَةً إلى تَسهيلِ أخذِهِ عَلَيهِم مِنَ الجَليلِ والحَقيرِ، وأتبَعَهُ ما لا يُشْرِقُ أنوارَهُ ويُبرِزُ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 452.

(2) الزركشي، البرهان: 4/ 85.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 131.

ثِمارَهُ غَيرُهُ، والتعبير بـ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إشارَةً إلى تَفَكُّرِهِمْ في جَميعِ الآياتِ الواضِحَةِ والغامِضَةِ مُقْسِمينَ كَما أَقْسَمَ أولَئِكَ مُحَقِّقينَ مَقالَهُم مواجِهينَ لِلْمُجْرِمينَ تَبْكيتًا وتَوْبيخًا مُؤَكِّدينَ ما أَنْكَرَ أولَئِكَ المجرمينَ[1].

نكتة تقديم: ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾ على ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾:

بدأ نزول القرآن الكريم بالدّعوة إلى وسيلة العلم

أفاد تعريف ﴿ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هنا العهد الذِّهنيّ، فالعلم هنا هو الذي يدلُّهم على ربِّهم ويُوصلهم إلى مرضاته، والإيمان هو الذي دعاهم ربُّهم إليه من خلال كتبه وإرسال رسله، وفي تقديم العلم على الإيمان إشارة إلى أنّ هذا الإيمان بأركانه المختلفة لا يقوم إلّا بهذا العلم؛ فهو شعار هذا الدّين وذروة سنامه، وهذه السّورة على وجه الخصوص قد اعتنت بالعلم وبيّنت أثره في الاستدلال على الله تعالى من خلال آلائه في الكون، والقرآن الكريم يحثّ دائمًا على الإيمان المستند إلى البيّنات وإلى إعمال العقل والبعد عن التّقليد الأعمى.

دلالة التأكيد بـ (اللام) و(قد) في ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ﴾:

تأكيدُ المؤمنين قولَهم دليلٌ على عمقِ إيمانِهم وأصالةِ علمِهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ أكدَّ النَّظْمُ الحكيمُ - على لسانِ المؤمنينَ - إحاطةَ الكفّارِ بقضيةِ لبثهم ومعرفتَهم بها، فاستعمل (اللام) و(قد)، وذلك لأحدِ أمرينِ: **الأولُ:** قَسَمُ المشركينَ على ظنِّهم قلَّةَ مُدَّةِ لُبثِهم ومبالغتُهم في ذلك، فاقتضى مبالغةَ المؤمنين في توكيدِ إحاطةِ علم الله بلُبثِ هؤلاءِ المعاندينَ ووصولِ الأدلةِ لهُم، **والثاني**: شِدَّةُ وثاقة المؤمنينَ من قولِهم، وعمقُ إيمانهم، وأصالةُ علمهم، فكان التوكيدُ باللام وقد مناسبًا لهذينِ الغرضين، وفِعلُ ﴿لَبِثۡتُمۡ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِهِ، أيْ مَكَثْتُمْ، أي اسْتَقْرَرْتُمْ في القُبورِ، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّحْزينِ والتَّرْويعِ بِاعْتِبارِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 131.

ما يَرِدُ بَعْدَهُ مِنَ الإفْصاحِ عَنْ حُضورِ وقْتِ عَذابِهِمْ[1]، وفي ذلك تخويفٌ لهم في الدُّنيا لعلهم يرتدِعون عن الكفرِ والتكذيب.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ و﴿لَبِثۡتُمۡ﴾:

كشف زيفِ الكُفّارِ وافتضاح كذبهم ودعواهم

بينَ قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ﴾ وقولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ طباقُ السلبِ، إذ نَفَى الكافِرونَ اللبثَ إلا ساعةً واحدةً، في حينِ أثبتَ المؤمنون لُبثَهم في علمِ اللهِ وبلوغَ الأدلَّةِ لَهُم، وتكمنُ بلاغةُ الطباقِ في هذينِ الموضعينِ في كشف زيف الكفّار وفضح كذبِهم وإفكِهم على رؤوس الأشهادِ يوم القيامةِ.

نكتةُ تقييدِ لبثِهم بالجار والمجرور: ﴿فِي كِتَٰبِ﴾:

علمُ اللهِ وقضاؤُه محيطٌ بالكفّار فلا يغيبونَ عنهُ طَرْفةَ عَينٍ

قيَّد النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ اللبثَ - في قولِ المؤمنينَ - بالجارِ والمجرور ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، والمرادُ: في عِلْمِه وقَضائِه، أو ما كَتَبَهُ وعَيَّنَهُ سُبْحانَهُ، أو اللَّوْحِ المَحْفوظ، أوِ القُرْآن[2]، و﴿فِي﴾ من قَوْلِه: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ لِلتَّعْليلِ، أيْ لَبِثْتُمْ إلى هَذا اليَوْمِ، ولَمْ يُعَذَّبوا من قَبْلُ لِأَجْلِ ما جاءَ في كِتابِ اللهِ من تَهْديدِهِمْ بِهَذا اليَوْمِ وإمهالِهِم إلى ذلك الوقتِ، أيْ: لَقَدْ بَلَغَكم ذَلِك وسَمِعْتُموهُ فَكانَ الشَّأْنُ أنْ تُؤْمِنوا بِهِ ولا تَعتَذِروا بِقَولِكم ما لَبِثْنا غَيرَ ساعَةٍ[3].

دلالةُ التعبيرِ بالكتابِ وإضافته:

تفخيمُ شأنِ الكتاب وما تضمنه من وعد بالبعث

تعدَّدَتْ أقوالُ العلماءِ في دلالة التعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فقالَ بَعْضُهُمْ: هو على التَّقْديمِ والتأخيرِ؛ كأنه قال: (الذين أوتوا العلمَ في كتابِ اللّه)، أيْ: قالَ الّذينَ أوتوا العلمَ بكتابِ اللّه والإيمانَ بِه: لقدْ لَبِثْتُم إلى يومِ البعث، فهذا يومُ البعثِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: قال الذين أوتوا العلمَ والإيمانَ: لقدْ لبثتم في عِلمِ اللّهِ في الدُّنْيا إلى يومِ البعثِ، فهذا يومُ البعث، وفي قول آخر: وقالَ الذينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 66.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

أوتوا العلمَ والإيمانَ: لقدْ لَبِثْتُم فيما كَتَبَ اللّهُ لَكُم من الآجالِ إلى انقضاءِ آجالِكم وفنائِها[1]، ففي تعدُّدِ المعاني إعجازٌ بليغٌ وسبيلٌ من سبل إظهارِ البلاغةِ القرآنيةِ، وأُضيفَ (الكتاب) إلى أعظم أسماءِ اللّهِ ﷻ؛ لإرادةِ تعظيم أمرِ الكتابِ، ولازمُ ذلك تفخيمُ شأنِ القضيةِ التي تدورُ حولَها الآياتُ، وهي قضيةُ البعثِ، وإثباتُ محوريَّتِها في التصورِ الإسلامي، فمِنْ شأنِ القضايا المحوريَّةِ أن يُصَرِّحَ النَّظْمُ الحكيمُ بنسبتِها لأعظمِ أسماءِ اللّهِ ﷻ.

دلالة التعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلْبَعْثِۖ﴾:

أثار المشركون زوابع الشّكّ والرّيبة حول البعث في كلّ زمانٍ ومكانٍ

أفاد تعريف كلمة ﴿ٱلْبَعْثِۖ﴾ بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ العهد الذّهنيّ في الأولى، فهو يوم القيامة الذي كانوا ينكرونه، وهو اليوم الذي أثار حوله المشركون في كلّ زمانٍ ومكانٍ زوابع الشّكّ والرّيبة، إذ كيف يُبعث من كان رميمًا من جديد، وأمّا تعريف كلمة ﴿ٱلْبَعْثِۖ﴾ في المرَّة الثّانية فهو للعهد الصّريح.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾:

تَوعُّدُ المشركين بهولِ المفاجأةِ يومَ البعثِ

الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ فَصيحَةٌ، كَأَنَّهُ قيلَ: إنْ كُنْتُمْ مُنْكِرينَ البَعْثَ فَهَذا يَوْمُهُ، أيْ فَنُخْبِرُكم أنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ بُطلانُ إنْكارِكم، فأفْصَحَتْ عَنْ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، وتُفيدُ مَعْنى المُفاجَأةِ، أيْ: إذْ كانَ كَذَلِكَ، فَهَذا يَوْمُ البَعْثِ وهَذا تَوْبيخٌ لَهم، وتَهْديدٌ وتَعْجيلٌ لِإساءَتِهم بما يَتَرَقَّبُهم مِنَ العَذابِ، والاقْتِصارُ عَلى ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ دون بيانِ ما ينتظرُهم ليَتوقَّعوا كُلَّ سوءٍ وعَذابٍ[2].

دلالةُ التعبيرِ بالإشارةِ في ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾:

أفادَ التعبيرُ باسم الإشارةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ التنصيصَ والتخصيصَ، أيْ: فهذا هو "اليومُ الَّذي آمَنَّا بِهِ وكُنتُم

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 293.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

تُنكِرونَهُ، قد كانَ طِبقَ ما كُنّا نَقولُهُ لَكُمْ، فَقَدْ تَبَيَّنَ بُطْلانُ قَوْلِكُمْ، وكُنتُم تَدَّعونَ الخَلاصَ فيهِ بِأَنْواعٍ مِنَ التَّكاذيبِ قَصْدًا لِلْمُغالَبَةِ، فَما كُنْتُمْ صانِعينَ عِنْدَ حُضورِهِ فاصْنَعوهُ الآنَ، تَنْبيهًا لَهم عَلى أَنَّهُ لا فائِدَةَ في تَحْريرِ مِقْدارِ اللُّبْثِ في الدُّنْيا ولا في البَرْزَخِ، وإنَّما الفائِدَةُ في التَّصْديقِ بِما أَخْبَرَ بِهِ الكِتابُ حَيْثُ كانَ التَّصْديقُ نافِعًا، ولَمّا كانَ التَّقْديرُ: قَدْ أَتى كَما كُنّا بِهِ عالِمينَ، فَلَوْ كانَ لَكم نَوْعٌ مِنَ العِلْمِ لَصَدَّقْتُمونا في إِخْبارِنا بِهِ فَنَفَعَكم ذَلِكَ الآنَ"[1].

في التنصيصِ على يومِ البعثِ تشنيعٌ بكفرِ المشركينَ وكذبِهم

نكتةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

كرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ كلمةَ ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾، وعَدَلَ عن مقتضى الظاهرِ بأن يكونَ الكلامُ (فهذا هو اليوم)؛ لأهميةِ تأكيدِ التنصيص على قضيَّةِ البعثِ، وللترهيبِ بها، والتخويفِ من التكذيبِ بها.

في تكرار (البعث) تأكيدٌ وترهيبٌ وتخويفٌ

دلالة الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾:

أفادتْ (لكن) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاسْتِدْراكَ، وهو اسْتِدْراكٌ عَلى ما تَضَمَّنَتْهُ جُمْلَةُ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أيْ: لَقَدْ بَلَغَكم ذَلِكَ، وكانَ الشَّأْنُ أنْ تَسْتَعِدّوا لَهُ، ولَكِنَّكم كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ، أي: لا تَتَصَدَّونَ لِلعلمِ بِما فيهِ النَّفْعُ، بَلْ كانَ دَأْبُكُمُ الإعراضَ عَن تَصديقِ الرَّسولِ ﷺ[2]، وأُسنِد ضميرُ الخطابِ في عبارة ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ إلى ضميرِ المخاطبينَ، وهُمُ الكفّارُ منكرو البعثِ؛ للتبكيتِ والتوبيخِ والتشنيع، فلم يقتصرِ المؤمنونَ على بيانِ الحقِّ بالجملةِ السابقةِ بتقريرِ حقيقةِ البعثِ، ولكنَّهُم استمرّوا في تقريعِ منكري البعثِ وتعنيفِهم في عرصاتِ القيامةِ على رؤوسِ الأشهادِ جزاءَ تكذيبِهم وعنادِهم.

إعراضُ المشركينَ عنِ التَّعلُّمِ من رسولِ اللهِ وتصديقِ ما جاءَ به أورَدَهُمُ المهالكَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 131.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

دلالةُ التعبيرِ بـ(الكونِ):

إعراض المشركين ونفورهم من العلمِ الحقِّ

عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه جَلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ عنِ التَّعبيرِ على مُقْتَضَى الظّاهرِ بأنْ يكونَ النَّظْمُ: (ولكنَّكُم لا تعلمونَ)، إذا كان المقصودُ مجرّدَ الدّلالةِ على إثباتِ جَهْلِهم وتعاميهم عن طريقِ العلم، أو (ولَكِنَّكُم لم تَعْلَموا) إذا كان المرادُ إثبات تفريطهم في الدُّنْيا، ولكنّ البيانَ القُرآنيَّ أتَى بزيادةِ الفعلِ ﴿كُنتُمْ﴾ على أصلِ المعنى، لما في التعبيرِ بـ(الكونِ) من تأكيدٍ ومبالغةٍ على تعاميهم عن الحقِّ وإعراضِهم عنه ونفورهم عن طريق العلم، ولِتَفْريطِهم في طَلَبِ الحَقِّ واتِّباعِه[1]، حتى صار إنكارُهم للعلم (كَوْنًا) هو كالجِبِلَّةِ لَهم في إنْكارِهم لَهُ[2]، فَتَبَلَّدَتْ نُفوسُهم وقَسَتْ قلوبُهم وكَسَدَتْ عقولُهم.

أثرُ تسليطِ النَّفيِ على المضارع:

التَّصدّي لِلتَّعلُّم وسيلَةٌ لِحُصولِه

جاءتْ ﴿لَا﴾ نافيةً في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وتسلطَ النَفْيُ على العلم، ولكنْ ليس المقصودُ مجرَّدَ الإشارَةِ إلى جهلهم، بل المرادُ من التَّعْبيرِ بِنَفْيِ العِلْم، وقَصْدِ نَفْيِ الاهْتِمام به والعِنايَةِ بِتَلَقّيه، الإشارَةُ إلى أنَّ التَّصدّيَ لِلتَّعَلُّم وسيلَةٌ لِحُصولِه[3]، وجاءَ الفعلُ في ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في صيغةِ المُضارعة للدَّلالةِ على تجدُّدِ جهلِهم واستمراره، ولاستحضارِه في صورةِ الجهلِ الذي لا يزول.

بلاغَةُ حذفِ المفعول به من: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

إثبات جهل المشركين وانتفاء العلم عنهم

حذفَ النَّظمُ الحكيمُ المفعول به في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويمكن تقديره بمحذوف هو (البعث)، أي: ولكنكم كنتم لا تعلمون البعث، ويمكن عدم تقدير مفعول على معنى،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 17/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 132.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

لم يكونوا من أولي العلم، وهو أبلغ[1] في الدلالةِ على جهلهم وانتفاء العلم عنهم، فحذف المفعول هنا للتّعميم.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ و﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

اتِّباعُ العلمِ الحقِّ هو الفارقُ الجوهريُّ بينَ المؤمنينَ ومنكري البعثِ

بين قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وقولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ طباقُ السلبِ، إذ أثْبَتَتِ الآيةُ الكريمةُ العلمَ للمؤمنينَ، وأشارت بالبناءِ للمفعولِ إلى سهولةِ العلم عليهم ويُسْرِه وسلاستِه، في حين سلبتِ الآيةُ من منكري البعث أهليَّتَهم للعلم وجدارتَهم بالتصدي له والفقهَ فيه، وأثبتت لمنكري البعثِ تعاميهم عن الحقِّ، وإعراضهم عنه، ونفورهم عن طريق العلم، وتَفْريطهم في طَلَبِ الحَقِّ واتِّباعِه، وفي ذلك الطِّباقِ إبراز للفارق الجوهريِّ بين المؤمنين العالمين ومنكري البعثِ الجاهلين المتعامين عن الحقِّ.

مَعنَى (الفاءِ) في قوله: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:

الدُّنْيا دارُ العَمَلِ والآخِــرَةُ دارُ الجَزاءِ والبَرْزَخُ حائِلٌ بَيْنَهُما

تعدَّدَتْ أقوالُ العلماء في معنى الفاءِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾، فذهب البقاعيُّ إلى أنَّها سببيَّةٌ، ذلك أنَّه لَمّا كانَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الروم: 15] في أشْكالِها مِنَ الآياتِ دالًّا عَلى أنَّ هَذِهِ الدُّنْيا دارُ العَمَلِ، وأنَّ دارَ الآخِرَةِ دارُ الجَزاءِ، وأنَّ البَرْزَخَ هو حائِلٌ بَيْنَهُما، فَلا يَكونُ في واحِدَةٍ مِنهُما ما لِلْأُخْرى، سَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ أيْ إذْ تَقومُ السّاعَةُ[2]، وأشار القنوجي إلى أنَّها فاءُ التفصيلِ، لِما يُفْهَمُ مما قبلها، من أنَّه لا يُفيدُهم تقليلُ مُدَّةِ اللُّبثِ ولا النسيانِ، أو هو جواب شرط مقدر[3]، وذهبَ الطاهرُ ابن عاشور إلى أنَّ الفاء ههنا تَفْريعٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾[4].

---

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 118.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 132.

(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 268.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

بلاغة الإيجاز في التعبير بـ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:

بيان عدم انتفاع المشركين وخسارتهم يومَ البعث

عبَّر النَّظم في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ بالظرف (يَوْمَئِذ)، والمرادُ: يوم إذْ تَقومُ السّاعَةُ، وتَقَعُ هَذِهِ المُقاوِلَةُ؛ مِن إِقْسامِ الكُفّارِ، وقَوْلِ أولي العِلْمِ لَهم[1]، (يومئذ): ظرفُ زمانٍ مُضافٍ إلى مثلِه، أي: إذا قامتِ الساعةُ، ويقولُ الَّذينَ أوتوا العلمَ تلكَ المقولةَ، متعلقٌ بـ﴿يَنفَعُ﴾، والتنوين عِوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ، تُقدّر بحسب ما سبقها، والتّقدير: فيوم البعث، وكُسرتْ (ذال) (إذ) لالتقاءِ السّاكِنَيْن: سُكونِ الذّالِ وسُكونِ التنوينِ[2].

نكتةُ تقديمِ الظَّرفِ على الفعلِ المضارعِ المنفي:

غرضُ نفي النَّفْعِ مُتَعلِّقٌ بالآخرةِ وهو أمرٌ مُسْتَقْبَليٌّ

تقدَّم الظرفُ (يَوْمَئِذٍ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾؛ للاهتمام به؛ إذ يومُ البعثِ هو محورُ الحديثِ كلّه، وعليه مدارُ المعنى المقصودِ من مجازاةِ هؤلاءِ الظالمينَ المكذِّبينَ وعدمِ انتفاعِهم بما قدَّموه من معاذيرَ، وأُتبع بنفي النفعِ، أيْ: لا يَنْفَعُهُمُ العِلْمُ بِالقيامَةِ ولا الاِعْتِذارُ يَوْمَئِذٍ[3]، ووردَ التعبيرُ هنا بصيغةِ المضارعةِ الدالةِ على استحضارِ الصورةِ كأنَّها مشهدٌ حيٌّ يراه المُتَدبِّرُ بعينه، وهذا أوقعُ في التأثيرِ، فضْلًا عن دلالتِه على الحالِ والاستقبالِ؛ لأنَّ النفعَ المقصودَ هنا هو نفعُ الآخرةِ بنجاةِ النَّفْسِ من العذابِ[4]، وهو نفعٌ فيما يُسْتَقْبَلُ منَ الزَّمانِ، أمّا نَفْعُ الدُّنْيا الفائتُ، فلا يقعُ عندَ مجيءِ آياتِ يوم القيامَةِ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في الفعلِ ﴿يَنفَعُ﴾:

منَ الإعجازِ البلاغيِّ استيعابُ القرآنِ لأوجهٍ كثيرةٍ من وجوهِ العربيةِ

قَرَأَ الجُمْهورُ ﴿تَنفَعُ﴾ بِالمُثَنّاةِ الفَوْقيَّةِ، وقَرَأَهُ حَمْزَةُ وعاصِمٌ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بِالتَّحْتيَّةِ ﴿لَّا يَنفَعُ﴾ وهو وجهٌ جائزٌ؛ لِأنَّ (مَعْذِرَة)

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 498.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 118.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 49.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 186.

مَجازيُّ التَّأنيثِ، ولِوُقوعِ الفَصلِ بَيْنَ الفِعْلِ وفاعِلِه بِالمَفْعولِ[1]، وفي ورودِ القراءة بالوجهين سبيلٌ لإظهار استيعاب القرآن لكثيرٍ من الوجوهِ الجائزةِ في العربية، وتأكيدٌ لعرَبيَّة النظم الحكيم.

علةُ التعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

وصفُ مُنْكِري البعثِ بالنَّعتِ المخصوصِ دليلٌ على اشتهارِهم به

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ لِما فيهِ من التَّخصيصِ والنَّصِّ والتَّعيينِ، وفيه كذلك لفتٌ للمقام، وتنبيهٌ على الوصف الذي لا يلتبس، وتوكيدٌ لاختصاصهم بصفة الظلم، فضلًا عن إفادة الاسم الموصول هنا معنى الذّمّ والقدح لهم.

نكتةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

الظُّلمُ هو الإشْراكُ باللَّهِ لِأنَّهُ جامِعٌ لِفُنونِ الظُّلْمِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ مُنكري البعث بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، والمُرادُ بهم: المُشْرِكونَ الَّذينَ أقْسَموا ما لَبِثوا غَيْرَ ساعَةٍ، فالتَّعْبيرُ عَنْهم بِالَّذينَ ظَلَموا إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ لِغَرَضِ التَّسْجيلِ عليهِمْ بِوصْفِ الظُّلْمِ وهو الإشْراكُ بِاللَّهِ؛ لِأنَّهُ جامِعٌ لِفُنونِ الظُّلْمِ، فَفيهِ الِاعْتِداءُ عَلى حَقِّ اللَّهِ، وظُلْمُ المُشْرِكِ نَفْسَهُ بِتَعْريضِها لِلْعَذابِ، وظُلْمُهُمُ الرَّسولَ ﷺ بِالتَّكْذيبِ، وظُلْمُهُمُ المُؤْمِنينَ بِالِاعْتِداءِ عَلى أمْوالِهِمْ وأبْشارِهِمْ[2].

نكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

التَّشْنيعُ عَلى مُنْكري البعثِ بِظُلْمِهِم ووضعِهِم الأمورَ في غيرِ موضعِها

قدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ المفعولَ به ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ للاهتمام بذكرِ ما أدّى بهم إلى الخسرانِ وعدمِ النفعِ، وهو ظُلْمُهم ومجاوزتُهم الحدّ في الإنكارِ والتّكذيب والعصيانِ، فضلًا عَنْ كونِ السّياقِ هَهُنا قائمٌ على التوبيخِ والتقريعِ، والتهديدِ والوعيدِ لكلٍّ من

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

أنكرَ البعث وكذَّبَ بالآخرةِ، فكانَ في التقديمِ إثارةٌ لانتباهِ هؤلاءِ المُكَذِّبينَ لعلَّهُم يرجعونَ عن غيِّهم وضَلالِهم.

دلالةُ الإضافةِ في الفعل ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾:

ليس لهؤلاءِ المُكذِّبينَ حُجّةٌ يدفعون بها تكذيبَهم وإنكارَهم للبعثِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفعلِ المعذرةِ، والمَعْذِرَةُ: اسْمُ مَصْدَرِ (اعْتَذَرَ)، إذا أبْدى علَّةً أو حُجَّةً ليَدْفَعَ عَنْ نَفْسِه مُؤاخَذَةً على ذَنْبٍ أو تَقْصيرٍ، وهو مُشْتَقٌّ من فِعْلِ (عَذَرَهُ)، أي: لَمْ يُؤاخِذْهُ على ذَنْبٍ أو تَقْصيرٍ لِأجْلِ ظُهورِ سَبَبٍ يَدْفَعُ عَنْهُ المُؤاخَذَةَ بما فَعَلَهُ، وإضافةُ مَعْذِرَةٍ إلى ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تَقْتَضي أنَّ المَعْذِرَةَ واقِعَةٌ منهم، فكأنّهم سيحاولون الاعتذارَ في يوم البعثِ للنجاةِ من العذابِ الأليم، ثُمَّ يَجوزُ أنْ تَكونَ الإضافَةُ لِلتَّعْريفِ بِمَعْذِرَةٍ مَعْهودَة، فَتَكونُ هي قَوْلُهم: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ كَما تَقَدَّمَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعْريفُ لِلْعُمومِ كَما هو شَأْنُ المَصْدَرِ المُضافِ، أيْ لا تَنْفَعُهم مَعْذِرَةٌ يَعْتَذِرونَ بها مِثْلَ قَوْلِهِمْ: ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106] وقَوْلِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38][1].

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ﴾:

تأكيدُ نفي النفعِ وانتفاءِ المعذرةِ عنْ هؤلاءِ المكذِّبينَ مُنكري البعثِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ على قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾، فوصَلَ بينَهُما للتَّوسُّطِ بين الكمالينِ، إذْ كلتاهُما جملةٌ خبريةٌ لفظًا ومعنى، ووُجِدَتِ المُناسَبَةُ للعطفِ بينهُما، وهي تأكيدُ المعنى واتصالُه، فالجملتانِ تؤكِّدانِ نفيَ النفعِ وانتفاءَ المعذرةِ عن هؤلاءِ المكذبينَ مُنكري البعثِ، وأنَّهم لابثون في العذابِ المُهينِ.

دلالةُ التعبيرِ بلفظِ الاستعتاب:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفعلِ الاِستعتابِ، وهو طَلَبُ العُتْبى، وهي الاِسْمُ مِنَ الإعْتابِ، بِمَعْنى إزالَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

العَتَبِ كالعَطاءِ والاِسْتِعْطاءِ، أيْ: لا يُطْلَبُ مِنهم إزالَةُ عَتَبِ اللّٰهِ تَعالى، والمُرادُ بِهِ غَضَبُهُ سُبْحانَهُ عليهمْ بِالتَّوْبَةِ والطّاعَةِ، فَإنَّهُ قَدْ حَقَّ عليهمُ العَذابُ، وحاصِلُ المَعْنى أنَّهُم مِنَ الإهْمالِ، وعَدَمِ الالتِفاتِ إلَيْهِمْ بِمَنزِلَةِ مَن لا يُؤَهَّلُ لِلْعَتَبِ[1]، وقد جاءَ الخبرُ جملة فعليَّةً للدَّلالَة على نفي الاستعتاب وإن تكرَّر منهم مراتٍ عديدة، ولتأكيدِ دوام النفي أبدًا، والتعبير بصيغة المضارعةِ فيه استحضار للصورة التي يكونُ عليها هؤلاء المكذبونَ، فَكأنَّ المتلقي يرى صورتَهم ماثلةً أمامَ عينَيه وهُم مُهانونَ لا يُؤْبَهُ لَهُم جزاءً لتكذيبِهم وإنكارِهم حقيقةَ البعثِ.

لا يُطلَبُ مِن منكري البعث إزالَةُ عَتَبِ اللَّهِ تَعالى وغضبه بل مأواهُم النارُ

دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾:

أُسندَ الفعلُ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ إلى ضمير الجمع في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، إشارةً إلى جماعة المكذِّبين منكري البعث، وقد آثرَ النَّظْمُ القرآنيُّ إسنادَ الفعلِ إلى جماعَتِهم للدَّلالة على أنَّهم جميعًا يحاولونَ الاِسْتِعْتابَ والتَّرَجّيَ على اختلافِ مَقاماتِهم في الدنيا من عزيزٍ أو ذليلٍ، أو شريفٍ أو حقيرٍ، فلا يُستجابُ لأحدٍ منهم، بل هم في الذُّلِّ والهوان سواءٌ، فمهما اجتمع الكفّارُ للاستعتاب والترجي فلن يقبل.

مهما اجتمعَ الكفارُ للتَّرجي والاستعتابِ فلن يُقبلَ منهُم

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُذرُ والمَعْذِرَةُ:

العُذْرُ هو رَوْمُ الإنْسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِرَ عليه بِكَلامٍ، وهو الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذر بِهَ، وتحرّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه، وذلك على ثلاثة أضربٍ: إمّا أنْ يقولَ: لم أفعلْ، أو يقول: فعلتُ لأجلِ كَذا، فيذكرُ ما يُخْرِجُه عن كونه مذنبًا، أو يقول: فعلتُ ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقال، وهذا الثالث هو التّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً[2]، والمَعْذِرَةُ مصدرٌ ميميٌّ للفعلِ (اعتذر)، على وزنِ (مَفْعَلَة)، أقيمَ

المصدرُ الميميُّ أقوى في الدلالةِ على الواقعِ منَ المصدرِ الصَّريحِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 498.
(2) الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن: (عذر).

مقامَ الاعتذارِ، وذلكَ لأنَّ التعبيرَ بالمصدرِ الميميِّ في دلالَتِه على الحدثِ أقوى من دلالةِ المصدرِ العام، إذ التعبيرُ بالمصدرِ الميميِّ يُصَوِّرُ المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجودِ، وفيه كذلك معنًى الاستمرارِ والتجددِ، أمّا المصدرُ الصَّريحُ فيُصَوِّرُ الحدثَ مُجَرَّدًا عن الواقعِ، والتعبيرُ بالمصدرِ المُؤَوَّلِ يدل على شدةِ رغبتِهم في استفراغِ الوُسعِ في الاعتذار، ولذا فقدْ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في هذا السياقِ بالمعذرةِ إشارةً إلى قولهم: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾: أي: ما علمْنا أنَّ البعث كائنٌ، ولا أنّا نُبعثُ[1].

الاستعتاب والإعذار:

الاسْتِـعْـتـابُ طَـلَـبُـك إلى المُسيءِ الرُّجوعَ والإعـذارُ قبولُ العذرِ

الاستعتابُ الأمْر فيهِ بَعْضُ الصُّعوبَةِ مِنْ كَلامٍ أو غَيْرِه، والعَتْبُ: المَوْجِدَةُ، والاسْتِعْتابُ: طَلَبُك إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَنْ إساءَته، والتَّعتُّبُ والمعاتبةُ والعِتابُ كل ذَلك مُخاطبَة المدلّين أخلاّءَهم طالِبين حُسْنَ مراجعتهم ومذاكرةَ بَعضهم بَعْضًا ما كرهوه ممّا أكسَبهم الموجدةَ[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24] أي: إن يَستقيلوا ربَّهم لم يُقِلْهم، أي: لم يردّهم إلى الدنيا ممّا هُم فيه من العذابِ[3]، وأمّا الإعذارُ فهو إظهارُ المَعْذِرَةِ عن المكروه، ففي العذرِ يتوجّه الفعلُ إلى قبحِ العملِ وكونِه مكروهًا وفي معرض اللوم[4]، وفي الآية الكريمةِ نَفَى البيانُ القرآنيُّ طلبَ العتبِ من منكري البعث يوم القيامة، والمرادُ نفيُ الاستعتابِ من اللّه سبحانَه.

(1) وابن جرير، جامع البيان: 18/ 528.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتب).
(3) الفيروزآبادي، بضائر ذوي التمييز: (عتب).
(4) حسين المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: (عذر).

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩﴾ [الروم: 58 - 59]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ردُّ أهلِ العلمِ والإيمانِ على منكري البعثِ تشنيعٌ وتغليظٌ وفضحٌ لكذبِهم

لَمّا أبانَت هذه السّورةُ طرُقَ الإيمانِ، وألقَت عَلى وُجوهِ أهلِ الطُّغيانِ غايَةَ الخِزيِ والهَوانِ، وكانَ التَّقْديرُ: لَقَدْ أتَيْنا في هَذِهِ السّورَةِ خاصَّةً بَعْدَ عُموم ما في سائِرِ القُرْآنِ بِكُلِّ حُجَّةٍ لا تَقومُ لَها الأمثالُ، ولَم نُبقِ لِأحَدٍ عُذرًا ولا شَيئًا مِن إشكالٍ، لِكَونِها لَيسَ لَها في وُضوحِها مِثالٌ، عَطَفَ عَلَيهِ قَولَهُ صارِفًا الكَلامَ إلى مَقامِ العَظَمَةِ تَقبيحًا لِمُخالَفَتِهِمْ لِما يَأتي مِن قبلِهِ وتَرْهيبًا مِنَ الأَخْذِ مُؤَكِّدًا لِأنَّهم يُنكِرونَ أنْ يَكونَ في القُرْآنِ دَلالَةٌ، ومَن أقَرَّ مِنهم مَعَ الكُفرِ فَكُفرُهُ قائِمٌ مُقامَ إنكارِه، ولَمّا كانَ مِن أعجَبِ العَجَبِ أنَّ مَن يَدَّعي العَقْلَ يُصِرُّ عَلى التَّكْذيبِ بِالحَقِّ، ولا يُصغي لِدَليلٍ، ولا يَهْتَدي لِسَبيلٍ، قالَ مُستَأنِفًا في جَوابِ مَن سَألَهُ: هَلْ يَكونُ مِثْلَ هَذا الطَّبعِ؟ فأجابَ سبحانه أنَّ من كان غارقًا في الجهلِ والإنكارِ فإنَّه سبحانه يطبعُ على قلبه، فلا ينفتحُ لدلالة خيرٍ ولا لإشارةِ هُدى[1]، أي: فلَمّا انتَهَى ما أُقيمَت عَلَيهِ الآياتُ السابِقةُ مِن دَلائِلِ الوَحدانيَّةِ وإثباتِ البَعثِ عَقِبَ ذَلِكَ بِالتَّنويهِ بِالقُرآنِ وبُلُوغِهِ الغايَةَ القُصوَى في البَيانِ والهُدَى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبۡنَا﴾: (ضرب) أَصْلٌ واحِدٌ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُحْمَلُ عليه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 133 - 134.

مِنْ ذَلِكَ ضَرَبْتُ ضَرْبًا، إذا أوقَعْتَ بِغَيْرِك ضَرْبًا، ويُستَعارُ مِنْهُ ويُشَبَّهُ بِهِ الضَّربُ في الأرضِ تِجارَةً وغيرَها مِنَ السَّفَرِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: 101]، ويَقولونَ: إنَّ الإسْراعَ إلى السَّيرِ أيضًا ضَربٌ[1]، والضَّربُ يَقَعُ على جَميعِ الأعمال، إلا قَليلًا[2]، والمعنَى المحوريُّ غِلَظٌ يخالطُ الشيءَ الرَّخْو أو يُداخِلُهُ مداخلةً قويةً[3]، والضَّربُ: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، ولتصوّر اختلافِ الضّربِ خولِفَ بين تفاسيرِها، كَضَربِ الشيءِ باليد، والعصا، والسّيف ونحوها[4]، وضَرْبُ المَثَلِ: هو اعتبارُ الشَّيءِ بغيرهِ وتمثيلُهُ به، والضَّربُ هو المِثالُ، يُقالُ: هذهِ الأشياءُ على الضَّربِ، أي: على هذا المثالِ. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [النحل: 76]، أي: وصفَ وبيَّن[5]، والمعنى في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أيْ: قَدْ بَيَّنّا لَهُمُ الحَقَّ، ووضَّحْناهُ لَهُمْ؛ لِيَتَبَيَّنوا الحَقَّ ويَتَّبِعوهُ[6].

2) ﴿يَطْبَعُ﴾: (طبع) أَصْلٌ صَحيحٌ، وهو مَثَلٌ على نِهايَةٍ يَنْتَهي إلَيها الشَّيءُ حَتَّى يُخْتَمَ عِنْدَها، يُقالُ: طَبَعْتُ على الشَّيْءِ طابَعًا[7]، والمعنَى المحوريُّ جَعْلُ المادة اللَّيِّنَةِ على هَيئةٍ مُعَيَّنَةٍ مع تَسويةِ ظاهرِها على حَسَبِ ذلك؛ كطبع اللَّبِنِ والدراهم، وكحفر النهر، والظاهر المهيأ للشيء يُعدّ كأنه طبقة لاصقة بظاهره تغطيه[8]، والطبعُ والطَّبيعةُ: الخَليقةُ والسَّجيّةُ الَّتي جُبِلَ عَلَيْها الإنسان[9]، والطَّبْعُ: أن تصوّر الشيء بصورة ما، كَطَبعِ السّكّةِ، وطَبْعِ الدّراهم، وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش[10]، ومِنْ ذَلِكَ: طَبَعَ اللَّهُ على قَلْبِ الكافِرِ، كَأَنَّهُ خَتَمَ عليه حَتَّى لا يَصِلَ إلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ، فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضرب).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ضرب).
(5) الجوهري، الصحاح: (ضرب).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 328.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طبع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).
(10) الراغب، مفردات القرآن: (طبع).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يضرب القرآن للمعرضين الأمثال؛ ليَسْتَبِينوا الحقَّ ويتَّبعوه

أشارَ البيانُ القرآنيُّ إلى أنَّ اللّهَ سبحانَه قد بَيَّنَ للناسِ في هذا القرآنِ الحقَّ ووضَّحَه، وضربَ لهم فيه الأمثال؛ ليَسْتَبِينوا الحقَّ ويتَّبعوه، وأنَّه جلَّ شأنُه قد قصَّ عليهم من كلِّ صفةٍ عجيبة الشأنِ كصفةِ الكُفّارِ للمبعوثين يومَ القيامةِ، وما يقولون وما يُقال لهم، وما لا ينفعُ من اعتذارِهم، ولا يُسْمَعُ من استعتابِهم، ولئن أتيتَهم بآيةٍ منَ الآياتِ، أو بمعجزةٍ من المعجزاتِ الَّتي اقترحوها أو غيرِها ليقولَنَّ الذين كفروا لك وللمؤمنينَ الذين اتَّبعوك: إن أنتم إلّا أصحابُ أباطيلَ مُزَوِّرونَ، وذلك لشدَّةِ عُتوِّهم وعنادِهم وقساوةِ قلوبِهم، وما ذاك إلّا لأنَّ اللّهَ قد خَتَمَ على قلوبِ الجهلةِ الَّذينَ لا يطلبونَ العلمَ، ولا يَتَحَرّونَ الحقَّ، بل يُصِرّونَ على خرافاتٍ اعتقدوها، وتُرَّهاتٍ ابتدَعوها، فإنَّ الجهلَ يمنعُ إدراكَ الحَقِّ ويوجِبُ تكذيبَ المُحِقِّ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى (الواو) في جملةِ ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ﴾:

التَّنْويهُ بالقُرْآنِ وبُلوغه الغايَةَ القُصْوى في البَيانِ والهُدى

عطفتِ الواوُ قولَه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ على قولِه سبحانَه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾، وذلك لِلتوسط بين الكمالين، إذ اتفقتِ الجُمْلَتانِ في أنَّ كلًّا منهما جملةٌ خبريةٌ، مع وجودِ المناسبةِ بينهما، إذ شرع النَّظْمُ الحكيمُ في التَّنْويهِ بالقُرْآنِ وبُلوغِه الغايَةَ القُصْوى في البَيانِ والهُدى، بعدَ أنْ أبانَ للمشركينَ عاقبةَ التَّكذيبِ بالبعثِ وسوءَ حالِهم، وردَّ استعتابَهم ومَعْذِرَتَهم.

نكتة التوكيد في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا﴾:

ما ترك القرآن للظّالمين حجَّةً

أكَّدَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير الوسيط: 8/ 73.

﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ بلوغَ القرآنِ الغايةَ القُصوى في الهداية وحثِّ النّاس على سبل الإيمانِ واليقينِ بالآخرة والبعثِ، فاستعملَ (اللامَ) و(قدْ)، فاللامُ قَسَمٌ مُقدَّرٌ، أو هي لامُ الابتداء، و(قدْ) للتحقيق والتوكيد؛ إذ إنَّ تَأكيدَ الخَبَرِ الفِعْلِيِّ بِـ(قَدْ) وبِاللّامِ لِلِاهْتِمام بِهِ، كَما يَجيءُ التَّأكيدُ بِـ(إنَّ) لِلِاهْتِمام، ولَيْسَ ثَمَّ مُتَرَدِّدٌ ولا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَتَهُ[1]، وحَشَدَ النَّظْمُ الحكيمُ هذه المُؤَكِّداتِ الثلاثة لترسيخ قضيةٍ بالغةِ الأهميةِ، وهي قضية اشتمالِ البيانِ القرآنيِّ على كلِّ مَثَلٍ يهدي للحقِّ والإيمانِ للناسِ أجمعينَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالضرب:

إظهارُ فضيلةِ القرآنِ وما يَشْتَمِلُ عليْهِ من الهُدى

اشْتَمَلَ قولُه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ على استعارةٍ تصريحيَّةٍ تبعيَّةٍ، ولهُ وجهانِ اثنانِ: **الأول:** من قولِهم: (ضربَ في الأرضِ) إذا تَوغَّلَ وأبْعَدَ في أقاصيها، كأنَّ اللّهَ سبحانَه أرادَ بضربِ المثلِ تَسييرَه في الأرضِ وإدارتَه على ألسنةِ الناسِ حتى يَعُمَّهُم، **الثاني:** أن يكونَ من ضَرْبِ الخيام ونصبها وإقامتها؛ كأنَّ المرادَ من المَثَلِ إظهارُهُ للناس؛ لِتَستَدِلَّ عَلَيهِ خواطِرُهم، كما تَستَدلُّ عيونُهم على الأشياءِ المنتصبةِ المتشخصةِ أمامَهُم، وكلا الوجهينِ حسنٌ لا تعارضَ بينهما، فمن لازم انتشار المَثَلِ وإشاعتِه أن يكونَ ظاهِرًا ماثلًا في خواطِرِ النّاس[2]، وفي ذلك بيانٌ ساطعٌ ونورٌ باهرٌ على ما للقرآنِ في حياةِ الناسِ من أثرٍ بالغٍ.

نكتةُ إسناد الفعل ﴿ضَرَبۡنَا﴾ إلى ضمير العظمة:

إبراز قدرة القرآن على البيان والهدى بشرف نسبته إلى الله تعالى

أُسنِدَ الفعل ﴿ضَرَبۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ تفخيمًا لشأنِ المَثَلِ القرآنيِّ، وإبرازًا لقدرته على البيانِ والهدى بشرفِ نسبته إلى اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 139.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 178.

تباركت آلاؤه، فاللّه ﷻ هو من يتولّى بنفسه ضرب المثل للنّاس، وفي هذا ما فيه من لفت الأنظار إلى مضمون هذا المثل.

نكتة التعبير بالجار والمجرور وتقديمه:

ضرب الأمثال في القرآن لهداية النـاس الذين أنكروا البعث

اللّام في قوله تعالى: ﴿ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ لام التّعليل، فضرب المثل إنّما كان لأجل اتّعاظ النّاس واعتبارهم به، ويمكن أن تكون للتّخصيص على معنى اختصاصهم به دون غيرهم، ولمّا كانَتِ العِنايَةُ فيها بِالنّاسِ أكْثَرَ بعدَ أن ضلَّ كثيرٌ منهم في قضيةِ البعثِ فَقَدَّمَهم في الذِّكْرِ[1] على القرآنِ وعلى ذكرِ المَثَلِ.

نكتة التعريف بـ (أل) في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

خطابُ الهدايةِ القرآنيّةِ يشملُ البشرَ أجمعينَ

جاءتِ اللامُ في كلمةِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ﴾ لِاستغراقِ الجنسِ؛ فإنَّ الخطابَ هَهُنا لجميع الخلق، إذ كلُّ الناسِ في أمَسِّ الحاجةِ لهدايات القرآنِ الواضحةِ وأنواره الهاديةِ[2].

معنى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

احتواءُ القرآنِ الكريمِ على كُلِّ مَثَلٍ نافِعٍ كالتَّوْحيدِ والحشرِ وصِدقِ الرُّسلِ

جاءتْ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ للدلالةِ على احتواءِ القرآنِ الكريم على كُلِّ مَثَلٍ نافع؛ كالتَّوْحيدِ والحشرِ، وصدقِ الرُّسلِ، وسائرِ ما يحتاجونَ إلَيْه من أمرِ الدّينِ والدُّنْيا، ممّا يَهْتَدي به المُتَفكِّرُ، ويَعْتَبرُ به النّاظرُ المُتدبِّرُ[3]، وذلك لأنَّ ﴿فِي﴾ تفيدُ معنى الظّرفيَّةِ المكانيَّة أو الزمانيَّةِ، وإن اتَّسَعتْ في الكلام، فدلَّتْ على اشتمالِ القرآنِ لكلِّ هذهِ المعاني الجليلةِ.

دلالة التعبير باسم الإشارة في ﴿فِي هَٰذَا﴾:

تخصيص القرآن الكريم بالهداية وتفخيم شأنه

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، ومُقتضى الظاهرِ أن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 134.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 134.
(3) البروسوي، روح البيان: 7/ 60.

يكونَ النَّظْمُ (ولقد ضربنا للناس في القرآن)، ولكن جاء اسم الإشارة في محلِّ جرٍّ، و﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، وقدْ أفادَ اسمُ الإشارةِ هَهُنا عَددًا من الدلالاتِ الدقيقةِ، منها تخصيصُ الهدايةِ بالقرآن في المقامِ الأوَّلِ، ومنها تفخيمُ وتعظيم شأن القرآنِ وإعلاء قَدْرِه في نفوسِ الناسِ عامةً والمُؤمنينَ به خاصةً.

القرآن والنّاس محطّ عنايةِ المَثلِ القرآنيّ

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول:

قدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ القيدينِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ و﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ على المفعولِ بِهِ، وهو قولُه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾، وذلك للاهتمام بهما، ولتخصيصِ ضربِ الأمثالِ وبيانِ الأدلةِ بالقرآنِ دونَ غيره، وهو سمتٌ أسلوبيٌّ في القرآن الكريم في كُلِّ المواضعِ المشابِهَة تقريبًا، فدائمًا ما يُؤَخِّرُ القرآن المفعولَ به ويُقدِّمَ القيد ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ لبيان مزيدٍ من الاهتمام والعناية.

ضَـربُ الأمثـال الـصـالـحـة لـلـمُـعْـتَـبِرين الـمـتـدبِّـريـنَ ما يَـهْـديـهـم إلى الفلاحِ

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾:

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ متعلقةً بمحذوفٍ صفةً لمفعولٍ به محذوفٍ لـ﴿ضَرَبْنَا﴾، أي: ضَرَبْنَا للنّاسِ في هذا القرآنِ عِبْرَةً أو مَوْعِظَةً كائنةً منْ كلِّ مَثَلٍ، أو هيَ مُتَعَلِّقَةٌ بمحذوفٍ مفعولٍ به لـ﴿ضَرَبْنَا﴾ و﴿مِن﴾ تَبْعيضيَّةٌ، والأولُ أرجحُ[1]، والمعنَى الظاهرُ في ﴿مِن﴾ هَهُنا أنَّها إمّا لبيانِ الجنسِ وإما للتَبْعيضِ، أي أنَّ اللّهَ ﷻ لم يضربْ كُلَّ الأمثالِ في القرآنِ، وإنَّما ضَرَبَ للناس من الأمثال الصالحة للمُعْتَبِرين المتدبِّرينَ ما يهديهم إلى الفلاحِ في الآخرةِ، وذهب فريقٌ من الكوفيّين إلى جواز أن تكون ﴿مِن﴾ زائدةً في الصِّناعةِ النَّحْويَّةِ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 120.

في حال الإيجابِ[1]، وهيَ بهذا المعنى تفيدُ الاستغراقَ والتوكيدَ، وعلى هذا الرأيِ فإنَّها تؤكدُ استغراقَ القرآنِ لِكُلِّ مَثَلٍ صالحٍ نافعٍ في الدنيا والآخرة، قال الآلوسي: و﴿مِن﴾ تَبْعيضيَّةٌ، وجوِّزَت الزِّيادَةُ، وقيلَ: المَعْنى وباللَّهِ تَعالى لَقَدْ بَيَّنّا لِلنّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ يُنَبِّؤُهم عَن التَّوْحيدِ والبَعْثِ، وصِدْقِ الرَّسولِ عليه السلام، فَضَرَبَ بِمَعْنى بَيَّنَ، والمَثَلُ عَلى أصْلِه، وقيلَ: بِمَعْنى الدَّليلِ العَجيبِ، والقُرْآنُ بِمَعْنى المَجْموعِ[2].

دلالةُ التَّعْبيرِ بلفظِ العُمومِ في قوله: ﴿كُلِّ﴾:

اشْتمالُ القرآنِ على كلِ مثلٍ صالحٍ يهْدي للحقِّ

أفادَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ اشتمالَ القرآنِ على كلِّ مَثَلٍ صالحٍ نافعٍ يهدي للآخِرةِ ويرشدُ إلى الإيمانِ بالبعثِ والأنبياءِ وغيرِها، أي: مِن كُلِّ مَثَلٍ يَدُلُّهُمْ على ما يَحْتاجونَ إلَيهِ، ويُنَبِّهُهُمْ على التَّوْحيدِ وصِدْقِ الرُّسُلِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَثَلٖۚ﴾ ولطيفةُ تنكيرِه:

أمْثالُ القرآنِ أوضَحُ وأثْبَتُ مِن أعْلامِ الجِبالِ

في قولِه جل جلاله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بكلمةِ ﴿مَثَلٖۚ﴾، أي: وصَفْنا لَهم كُلَّ صِفَةٍ كَأنَّها مَثَلٌ في غَرابَتِها، وقَصَصْنا عَلَيهِم كُلَّ قِصَّةٍ عَجيبَةِ الشَّأنِ، كَصِفَةِ المَبعوثِينَ يَومَ القيامَةِ، وما يُقالُ لَهم، وما لا يَقَعُ مِن اعتِذارِهِم، ولا يُسمَعُ مِن استِعتابِهِم، ولَكِنَّهم لِقَسْوَةِ قُلوبِهِمْ ومَجِّ أسْماعِهِم حَديثَ الآخِرَةِ، إذا جِئتَهم بِآيَةٍ مِن آياتِ القُرْآنِ قالوا: أجِئتَنا بِزورٍ باطِلٍ؟[4]، وجاءتْ كلمةُ ﴿مَثَلٖۚ﴾ لإفادة العموم والشمول، فأفادَ التنكيرُ مع بقية دقائقِ الجملة الكريمة الإشارَةَ إلى إزالَةِ الأعْذارِ والإتيانِ بما فَوقَ الكِفايَةِ مِنَ الإنذارِ، وإلى أنَّهُ لَم يَبقَ مِن جانِبِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم تَقصيرٌ،

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 83.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 499.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 454.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 589.

فَإن طَلَبوا شَيئًا آخَرَ فَذَلِكَ عِنادٌ، ومَن هانَ عَلَيهِ تَكذيبُ دَليلٍ لا يَصعُبُ عَلَيهِ تَكذيبُ الدَّلائِلِ[1].

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم﴾:

عدمُ انتفاعِ منكري البعثِ بالآياتِ الدامغاتِ دليلٌ على ختمِ قلوبِهم

جاءتِ الواوُ عاطفةً في قولِه ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ﴾ فعطفتْ هذه الجملة على كلامٍ مقدَّرٍ يُفهم من سياق الكلام في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾، عَلى نَحْوِ: فَلَم يَنفعهم شَيءٌ مِن ذَلِكَ، إذ لَمّا كانَ المَختومُ عَلى مَشاعِرِهِم مِنهم لا يُؤْمِنونَ بِشَيْءٍ، وكانَ ذَلِكَ مِن أدَلِّ الأدلّةِ عَلى عِلْمِهِ تَعالى وقُدْرَتِه[2]، وهَذِهِ الجُمْلَةُ سيقَت لِلتَّنبيهِ عَلى أنَّ الكُفرانَ مَطبوعٌ في نُفوسِهِم[3]، فهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفّارِ بعدَمِ تفكُّرِهم وسوءِ رأيِهم؛ فإنَّ النَّظرَ السَّويَّ يَقْتضي الإذعانَ لكلِّ آيةٍ بيِّنةٍ صادقةٍ صريحةٍ في إثباتِ البعثِ.

معنى اللامِ في قولِه: ﴿وَلَئِن﴾:

اختزالُ الألفاظِ بتقديرِ الجوابِ وأداءُ المعاني على وجهِ الصَّوابِ

اجتمعَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ﴾ قسمٌ وشرطٌ، أما القسمُ فدلَّتْ عليه اللامُ؛ فهي تُؤْذِنُ بقسمٍ محذوفٍ متقدمٍ، فقد اجتمعَ القسمُ المُتقدِّمُ المحذوفُ، والشَّرطُ متأخرٌ عنه، فجوابُ القسمِ هو قولُه تعالى: ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾، فاللّامُ في (لَئِنْ) موطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ دَخَلَتْ عَلى حَرْفِ الشَّرْطِ[4]، وإذا اجتمعَ الجزاءُ والقسمُ فأيُّهما سبق الآخرَ وتصدَّرَ كان له الجوابُ، وجوابُ القسمِ المحذوفِ سدَّ مسدَّ جوابِ الشرطِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

التعبيرُ بالمجيءِ لما فيهِ مشقةٌ والتعبيرُ بالإتيانِ لما فيهِ سهولةٌ ويسرٌ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفعلِ (المجيء) دونَ فعلِ (الإتيان) في قولِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 134.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(3) التحرير والتنوير: 21/ 124 - 125.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 586، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 65، والآلوسي، روح المعاني: 20/ 483.

اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وذلك لأنَّ منْ عادةِ القرآنِ الكريمِ أنْ يستعملَ (أتَى) لما هو أيسرُ من (جاء)؛ لأنَّ المجيءَ فيه صعوبةٌ وشدَّةٌ مقارنةً بـ(أتى)، أو لما هو أصعبُ وأشقُّ مما تُستعملُ له (أتى)، ولذلك يكادَ يكونُ هذا طابعًا عامًا في القرآنِ الكريمِ ولذلك لم يأتِ فعلُ (جاء) بالمضارع ولا صيغةِ الأمرِ ولا اسم الفاعلِ[1]، ولذلك قيلَ للسَّيْلِ المارِّ على وجهه (أتيٌّ)؛ لأنّ الإتيانَ: مجيءٌ بسهولةٍ[2]، ولمّا كانتِ القضيةُ ههُنا تتعلَّقُ بإثبات البعثِ، والحديثِ عن عدم قبولِ المعذرةِ والإعراضِ عن الاستعتابِ، وكلُّها أمورٌ تتضحُ فيها المَشَقَّةُ والشدَّةُ فكانَ التعبيرُ بالمجيءِ أنسبَ للسّياقِ، وجاء فعل الشرطِ ماضيًا، والقياسُ فيه أن يكونَ مضارعًا؛ لأنَّ حصولَه يكونُ في الاستقبالِ، والغرضُ من ذلك التعريضُ بعنادِهِم واستكبارِهم وسوء فَهْمِهم.

نكتة تغيير الخطاب في الآية:

ينكر المشركون ما جاء به النبي من الآيات وما جاء به مَن سبقه من الأنبياء

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بتَوْحيدِ الخِطابِ في: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم﴾، وبالجَمْعِ في: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾، وفي ذلكَ عددٌ مِنَ الدَّلالاتِ الدَّقيقَةِ والنِّكاتِ الخفيَّةِ، منها أن التعبيرَ بالإفرادِ دلالةٌ على تخصيصِ النبيِّ ﷺ بالمجيءِ بالآياتِ وحدَه، وفيه تشريفٌ له ﷺ[3]، ومنها أنَّ المعنى: ولَئِنْ جِئْتَهم بكُلِّ آيَةٍ جاءَتْ بها الرُّسُلُ، ويُمْكِنُ أنْ يُجاءَ بها، فإنهم سيَقولونَ أَنْتُمْ كُلُّكم أيُّها المُدَّعونَ لِلرِّسالَةِ مُبْطِلونَ[4]، أي أنَّ إنكارَهم لا يقعُ على ما جاء به النبيُّ ﷺ فحسبُ، بل يشملُ إنكارُهم كلَّ ما جاء به الرسلُ السابقونَ، وأشار الآلوسيُّ إلى أنَّ نكتةَ

(1) فاضل السامرائي، لسمات بيانية، ص: 114، ومن أسرار البيان القرآني، ص: 50.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (أتى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 135.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 135.

الإفرادِ والجمعِ ترجعُ إلى أنَّ تَوْحيدَ الخِطابِ في ﴿جِئۡتَهُم﴾ عَلى ما يَقْتَضيهِ الظّاهِرُ، وأمّا جَمْعُهُ في قَوْلِهِمْ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾، فَلِئَلّا يَبْقى بِزَعْمِهِمْ لَهُ ﷺ شاهِدٌ مِنَ المُؤْمِنينَ حَيْثُ جَعَلوا الكُلَّ مُدَّعينَ[1]، وهذا من مكرِهم وسوءِ اعتقادِهم.

نكتةُ إيقاعِ فعلِ المجيءِ على ضميرِ جماعتِهم:

اجتماعُ الكُفّارِ على الضلالةِ والاستكبارِ يقْتضي إرسالَ الآياتِ لهُم مُجتمعينَ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أَسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿جِئۡتَهُم﴾ إلى ضميرِ الجمعِ إشارةً إلى أمرينِ، **الأول:** كثرة عددِ المكذِّبينَ بالبعثِ والآخرة، كما أشار القرآنُ الكريمُ في مواضعَ شتّى بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٧﴾ [هود: 17]، **والآخر:** أن اجتماعَهم على التَّكذيبِ والإنكارِ يقْتَضي إرسالَ الآياتِ لَهُم مجتمعينَ، لئلا يكونَ لأحدِهم حجةٌ بعدمِ بلوغِه الآياتِ أو عدمِ شمولِ الخطابِ له.

معنَى (الباء) في القيدِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

اقترانُ المجيءِ بإظهارِ المعجزاتِ مِنْ علاماتِ النُّبوَّةِ وأماراتِها الظاهرةِ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ﴾ للملابسةِ، أي: لئن جئتهم بآية من عند ربِّك تكونُ مصاحبًا لها، دالةً على صدقِك، فلنْ تغيِّرَ هذهِ الآيةُ شيئًا منْ عنادِهم واستكبارِهم وغُرورِهم، وقدْ تكونُ الملابسةُ هنا بمعناها الواسعِ، أي: لكَ تَمَكُّنٌ منْ إظهارِ آيةٍ معجزةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ ولطيفةُ تنكيرِها:

المرادُ بالآيةِ هنا المعجزةُ الماديَّةُ المحسوسةُ الدالةُ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ﴾ التعبيرَ بـ(الآية) دون (البيّنَة) أو (العلامة)، إذ المرادُ بـ(الآية) هَهُنا: الدلالَةُ الواضِحَةُ عَلى صِدْقِكَ مُعْجِزَةً مَرْئِيَّةً كانَتْ أو مَسْموعَةً، وهي العلامةُ الثابتةُ، فما بِهِ الدعوى مِنْ حيثُ إفادتُه للبيانِ يُسمَّى بَيِّنَةً،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 499.

والعلامةُ ما يكونُ قبلَ وقوعِ الشَّيْءِ، وآياتُ اللّهِ: عجائِبُهُ ومعجزاتُه، وقد كَثُرَ استعمالُ الآيةِ بمعنى العلامةِ الإعجازيَّةِ، وناسبَ لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ السياقَ أتمَّ المناسبةِ لما كانَ عليهِ المشركونَ من إنكارٍ للبعث وغلبةٍ للمادية عليهم، إذ المرادُ بالآيةِ هنا المعجزةُ الماديَّةُ المحسوسةُ، وجاءت ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ نكرةً لإفادة العموم، وهذا يدلّ على شدّة تكذيبهم وإنكارهم لكلّ آية تأتيهم مهما بلغ شأنها.

سِرُّ التوكيدِ في قوله: ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾:

التَّـنْـبـيـه على عُـتـوِّ المشركينَ ومبالغَتِهم في إنكارِ البعثِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ﴾ أكّدَ النَّظْمُ الحكيمُ استكبارَ الكُفّارِ وإعراضَهم عن الحقِّ والإيمانِ بالبعثِ بأداتين من أداوتِ التوكيدِ، الأولى هي اللامُ المؤطئةُ للقَسَم، والأخرى نونُ التوكيد الثقيلة، وذلك للتنبيهِ على فَرْطِ عُتوِّهِمْ، وعِنادِهِمْ، وقَساوةِ قُلوبِهِمْ[1] في إنكارِهم للبعثِ وخطابِهم للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾:

التعبيرُ بالقولِ للمُجاهَرةِ ولِصَدِّ الـنّـاسِ عـنِ الإيمانِ بالآياتِ البيِّناتِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ موقفِ الكُفّارِ من مجيءِ الآيات بفعلِ (القولِ) دون غيره؛ لبيانِ مدَى استكبارِهم وعُتوِّهِم، إذ لمْ يكتفوا بالإنكارِ في ذواتِ نفوسِهم، بلْ جاهروا به بملء أفواهِهم ليَصُدّوا النّاسَ عن الإيمانِ بالآياتِ البيِّناتِ الحاسمةِ بشأن البعثِ، وعُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ المُؤَكَّدِ لإفادةِ تقريرِ استمرارِ قولِهم هذا وتَجَدُّدِه؛ إشْعارًا بأنَّهم يقولونَه عن عنادٍ شديدٍ واستكبارٍ مستمرٍّ.

عِلَّةُ التعبيرِ بالموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الكفرُ هو السَّببُ الحاملُ لهؤلاء المعاندينَ على العنادِ والإنكارِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالمَوْصولِ دونَ الضَّميرِ فذهب البقاعيُّ إلى المرادَ به التعبيرُ عن الحُكْمِ بكُفْرِهِمْ لأجلِ ما هُم فيه من غِلَظَةٍ وجفاءٍ، في حين أشارَ الآلوسيُّ إلى أنَّ هذا التعبيرَ إنَّما هو لبَيانِ السَّبَبِ الحامِلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

عَلى القوْلِ المَذْكورِ، وإذا أُريدَ بِالنّاسِ ما يَعُمُّ الكَفَرَةَ وغَيْرَهُمْ، فَوجْهُ الإظْهارِ ظاهِرٌ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الكُفرِ مادّةً وصيغةً:

تأصل الكفر في نفوسهم وشدَّة إنكارهم وعُتوِّهم

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بمفردةِ الكفرِ دون غيرِها من المفرداتِ مثل (الظُّلم) و(الشِّركِ) و(الإجرام)؛ لأنَّ السياقَ في الآيةِ الكريمةِ إنَّما يتحدَّثُ في المقامِ الأولِ عن الإنكارِ والعُتوِّ والاستكبارِ والجحودِ بآياتِ اللّه، فكان التعبيرُ بمادةِ الكفرِ أنسبَ للمقامِ؛ لأنَّها مشتملةٌ على كلِّ ذلك، وعدل النَّظْم عن الكافرين والكُفّارِ لبيانِ تَأصُّلِ هذه الصفاتِ فيهم، حتى أصبحوا يعرفون بها أكثرَ من غيرها.

بلاغة القصر في قوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾:

عنادُ المشركينَ وقلبهم للحقائق الدامغةِ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بأسلوبِ القَصْرِ باستعمالِ ﴿إِنۡ﴾ التي تفيدُ النفيَ و(إلّا) التي تفيد الاستثناءَ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهو قصر موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيّ؛ لأنّ قصر الموصوف على الصّفة لا يكون إلّا إضافيًّا، أي أنَّ هؤلاءِ المشركينَ يقولون: أنتمُ مُزَوِّرونَ، بل أنتم لا تَنْفكّونَ عن صفةِ الإبطالِ والتَّزويرِ، وفي حكايةِ القرآنِ الكريمِ لاستعمالِ المشركينَ لهذا الأسلوبِ دلالةٌ على قَسوةِ قلوبِ المشركينَ وشدَّةِ عنادِهم، ومكرِهِم وخبثِ طويَّتِهم، وتعاميهم عن الحقِّ مهما بلغتْ درجةُ وضوحِه وبرزتْ براهينُه لكلِّ ذي عيْنَينِ، فهُم يرمونَ النبيَّ ﷺ - وحاشاه - والمؤمنينَ معهُ بتعمدِ إبطالِ حقائقِ الأشياءِ وقلبِها، وتزويرِها.

دلالةُ التعبيرِ بلفظ ﴿مُبۡطِلُونَ﴾ مادةً وصيغةً:

استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ - في حكايته لقولِ المشركينَ عن المؤمنين - مادةَ الإبطالِ، فقال على لسانهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

والإبطالُ يقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالته، حقًّا كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو باطلًا، وقدْ يقالُ فيمنْ يقولُ شيئًا لا حقيقةَ له[1]، والمُبْطلونَ هنا: المزوِّرون الآخذونَ بالباطلِ وأصْحابُ الأباطيل[2]، فهو اتهامٌ فِجٌّ للمؤمنينَ بأنَّهم منْ أهْلِ العَراقَةِ في الباطِلِ، ومرادُ الكفّارِ مُنكري البعثِ وصْمُ المؤمنينَ أنَّهم يأتونَ بما لا حَقيقَةَ لَهُ في صورَةِ ما لَهُ حَقيقَةٌ، وأمّا الَّذينَ آمَنوا فَيَقولونَ: نَحْنُ بِهَذِهِ الآيَةِ مُؤْمِنونَ[3]، وهذا إخبارٌ عن عنادِ المشركينَ وتكذيبِهم، وأنَّهُم لا يعقلونَ عن شركِهم وكفرِهم بالآياتِ الواضحةِ إن أُتوا بها[4]، وجاءتْ ﴿مُبۡطِلُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ مسندًا إلى ضميرِ الجمعِ، ليشيرَ إلى دعوى الكُفّارِ بثباتِ هذه الصِّفةِ في المؤمنينَ ورسوخِها فيهم على الدوامِ، وهو برهانٌ على شدَّةِ تمادي الكُفّارِ في الضَّلالِ البعيدِ وغوايةِ الكذبِ والبهتانِ.

وصفُ النبيِّ والمؤمنينَ بالإبطالِ اتهامٌ فجٌّ وهو دليلٌ على عَمى المشركينَ

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلَها:

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ بين هذه الآيةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ والآيةِ السابقةِ عَلَيْها، وذلك لكمالِ الاتصالِ بين الجملتينَ، إذ كلتاهُما جملة خبريَّةٌ، وبينهما من الاتصالِ والاتحادِ والتلاحم ما يُغني عن العطف، فهذه الجملةُ نتيجةٌ للجملة السابقةِ، ومؤكِّدةٌ للمعنى نفسه الوارد فيها، وهو تكذيبُ الكفّارِ بالآياتِ والأمثالِ التي ضربَها اللهُ لهُم، فأعرضوا عنها، فكانَ الضربُ على قلوبِهم نتيجة لعصيانِهم واستكبارِهم، وأشارَ الطاهر ابن عاشور إلى أنَّ هذه الجملة اعتراضٌ بَيْنَ الجُملَتَينِ المُتَعاطِفَتَينِ تَمهيدًا لِلأمرِ بِالصَّبرِ عَلى غَلوائِهِم[5]، ويمكنُ أنْ يكونَ الفصلُ بين الجملتينِ لِشبهِ

الضربُ على قلوبِ الكفّارِ لعصيانِهم واستكبارِهم

(1) الراغب، مفردات القرآن: (مثل).
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 312، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 67.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 87.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 134.

كمالِ الاتصالِ بينهُما، فهو استئنافٌ بيانيٌّ، إذ لمّا كانَ مِن أعْجَبِ العَجَبِ أنَّ مَن يَدَّعي العَقْلَ يُصِرُّ عَلى التَّكْذيبِ بالحَقِّ، ولا يُصْغي لِدَليلٍ، ولا يَهْتَدي لِسَبيلٍ، قالَ مُسْتَأنِفًا في جَوابِ مَن سَألَهُ: هَلْ يَكونُ مِثْلَ هَذا الطَّبْعِ؟ ومُرَغِّبًا في العِلْمِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أيْ مِثْلَ هَذا الطَّبْعِ العَظيمِ جِدًّا[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ بالكاف في ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾:

منكر البعث جاهل بأمور الآخرة

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تشبيهٌ مُرْسَلٌ مُجمَلٌ، ومعناه: مِثْلُ ذلكَ الطبعِ نطبعُ على قلوبِ منكري البعثِ الذينَ لا يعلمون شيئًا مِنْ أمورِ الآخرة، وغرضُ التشبيهِ بيانُ حالِ المشبَّه.

وكاف التّشبيه يجوز أن تكونَ اسميَّةً بمعنى (مِثْل) في محلِّ نصبِ نائبِ مفعولٍ مطلقٍ، صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، واسمُ الإشارةِ في مَحَلِّ جرٍّ مضافٍ إليه، ويجوز أنْ تكونَ حرفَ جرٍّ، واسمُ الإشارةِ في محلِّ جرٍّ، وهُما متعلقانِ بمحذوفٍ نائبٍ عن مفعولٍ مطلقٍ[2].

نكتة استعمال اسم الإشارة البعيد ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

إنزال البُعد المعنويّ منزلة البعد الحسّيّ

أفادَ استعمالُ اسم الإشارةِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ معنى بُعْدِ هؤلاءِ الكُفّارِ عن رحمةِ اللّه وتوفيقه، بعدَ الخَتْمِ على قلوب هؤلاء واستنفاد كُلِّ وسائل الدعوةِ، فَلَمْ يستجيبوا فلا أملَ في هدايتِهم ولا جَدْوى من سَماعِهم، فأمْعَنوا في الابتعادِ عن صراطِ اللّهِ، وهو كذلكَ طبعٌ بعيدٌ في رتبةِ المنعِ والشِّدَّةِ؛ تعظيمًا له، وإيماءً إلى أنَّه طبعٌ محكمٌ بحيثُ لا يزولُ، فهو طبعٌ محكمٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالطَّبْعِ مادَّةً وصيغَةً:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 120، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 134.

طَبعُ اللّهِ على قَلْبِ الكافِرِ بألّا يَصِلَ إلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ

استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ مادةَ (الطبعِ)؛ للدلالةِ على غَضَبِ اللّهِ عليهِم وطردِهم من حَظائرِ رحمتِه، إذ المرادُ بطَبْعِ اللّهِ على قَلْبِ الكافِرِ، أنْ يَختِمَ عليه حَتَّى لا يَصِلَ إليْهِ هُدًى ولا نورٌ، فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[1]، والطَّبْعُ عَلى القَلْبِ كذلك: تَصْييرُهُ غَيْرَ قابِلٍ لِفَهْمِ الأُمورِ الدّينيَّةِ وهو الخَتْمُ، وعبَّرَ بصيغةِ المضارعةِ لإفادةِ تجَدُّدِ الطبعِ واستمرارِه، ولاستحضارِ صورةِ الطَّبْعِ وتأكيدِ إحكامِه في الأذْهانِ.

بلاغة الاستعارَةِ في الآيةِ:

القلوبُ القاسيةُ مُتَحَجِّرَةٌ فلا تؤثِّرُ فيها آيةٌ ولا يُغَيِّرُها مَثَلٌ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، فاستعارَ الطبعَ لعدمِ دخولِ الإيمانِ في قلوبِهم، ولإنكارِهم لكلِّ آيةٍ بيِّنَةٍ وكلِّ مَثَلٍ صالحٍ، فشبَّه القلوبَ بالشَّيءِ الَّذي يُختَمُ عَلَيه، فلا يُمكِنُ أنْ يَتطَرَّقَ إلَيْه التَّغييرُ، ويَمْتَنِعُ دُخولُ شَيْءٍ عَلَيْه، فكَذلكَ قلوبُ هؤلاءِ، امتنعَ دخولُ الإيمانِ عَلَيْها، فحذَفَ المُشَبَّهَ بِهِ، وأبْقى الدَّليلَ عَلَيْه، والجامِعُ بينَهُما امتناعُ الدُّخولِ، فَشَبَّهَ النَّظْمُ إحداثَ اللّهِ تعالى في نفوسِ الكفارِ هيئةً تُمَرِّنُهم وتُعَوِّدُهم على استحبابِ الكُفرِ والمعاصي واستِقْباحِ الإيمانِ والطّاعاتِ بسببِ إعراضِهم عن النَّظرِ الصحيحِ بالخَتْمِ والطبعِ على الأواني ونَحْوِها في أنَّهما مانعانِ؛ فَإنَّ هذهِ الهيْئَةَ مانِعةٌ عنْ نُفوذِ الحقِّ في قُلوبِهم كما أنَّ الطَّبعَ على الأواني ونَحوِها مانِعٌ عنِ التَّصرُّفِ فيها، ثُمَّ استُعيرِ الطَّبْعُ لتلكَ الهيئةِ، ثُم اشْتُقَّ منْهُ ﴿يَطۡبَعُ﴾ فيكونُ استعارةً تَبَعيَّةً، تُبيِّنُ جزاءَهُم بسببِ إمعانِهِم في التَّكْذيبِ والإنكارِ[2].

دلالةُ إسنادِ الطبعِ إلى اسمِ الجلالةِ:

إظهارُ الاسمِ الأعظَمِ تأكيدٌ على شِدَّةِ الطَّبْعِ واستحالةِ تَغَيُّرِه

أظْهَرَ النَّظمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ اسمَ الجلالةِ الأعْظَمِ، فكَونُ الشَّيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).

(2) البروسوي، روح البيان: 7/ 61.

الواحِدِ لِناسٍ هِدايَةً ولِناسٍ ضَلالَةً جامِعًا إلى العَظَمَةِ تَمامَ العِلمِ والحِكمَةِ، فصَرَفَ الخِطابَ عَنْها إلى الاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ، فقالَ: ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي: الَّذي لا كُفُؤَ لَه، فَمَهما أرادَ كانَ، عادَةً مُستَمِرَّةً لَه سبحانَه[1]، لا يُنازِعُه فيها مُنازِعٌ، وفيهِ كَذلِكَ تأكيدٌ على شِدَّةِ الطَّبْعِ واستحالةِ تَغيُّرِه.

علَّةُ اختصاصِ القلوبِ بالطبعِ ونكْتُةُ جمعها:

القـلـوب محـلّ الإيمـانِ والتصديق لذلك اختصت بالطبع

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خَصَّصَ النَّظْمُ الحَكيمُ الطبعَ بالقلوبِ؛ وذلك لأنَّ القلوبَ مَحَلُّ الإيمانِ والتصديقِ، وإنَّما جَعَلَ الطبعَ جزاءً لَهُم؛ لأنَّ إنكارَ البعثِ والطَّعنَ في الأنبياءِ والمؤمنينَ جُرْمٌ شنيعٌ وإثمٌ عظيمٌ، فناسَبَهُ أن يكونَ الجزاءُ موافقًا لتلكَ البشاعَةِ، فكانَ الطَّبْعُ على قلوبِهم، ونَبَّهَ عَلى كَثْرَةِ المَطْبوعِ عليهمْ بِجَمْعِ الكَثْرَةِ[2].

نكتةُ إضافةِ القلوبِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

العـدولُ عن الإضـمـارِ إلى الإظهارِ لزيادةِ الوصفِ بانتفاء العلمِ

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عن إضافَةِ القلوبِ إلى ضميرِ الجمعِ (قلوبهم)، فأظْهَرَ إضافَتَها إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وذلكَ لِزيادَةِ وَصْفِهِمْ بانْتِفاءِ العِلْمِ عَنْهم، والمُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الَّذينَ كَفَروا أَنْفُسَهم، فوَصَفَهُم بعدمِ العلمِ، بَعْدَ أنْ وُصِفوا: بـ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وفي تنويعِ الوَصْفِ بهذهِ الصِّفاتِ كُلِّها بيانٌ لعراقَةِ هؤلاءِ المكذبينَ في الكُفْرِ والإنكارِ، فاستحقوا الجزاءَ الشديدَ بالطَّبعِ على القلوبِ[3].

دلالة نفي المضارع في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

جاءتْ ﴿لَا﴾ نافيَةً في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 135.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 135.

عَدَم قابليّة الكفار للعلم رضًى بالجَهْل وإيثارًا للضَّلالِ

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فأفادتْ عَدَمَ قابليَّهِم للعِلْمَ، فهم لا يَطْلُبونَ عِلْمَ ما يَجْهَلونَهُ مِمّا حَقَّقَهُ هَذا الكِتابُ مِن عُلومِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، رِضًى مِنهم بِما عِنْدَهم مِن جَهالاتٍ سَمَّوْها دَلالاتٍ، وضَلالاتٍ ظَنّوها هِداياتٍ وكَمالاتٍ[1]، فلا يَتَحَرَّوْنَ الحَقَّ، بَلْ يُصِرّونَ عَلى خُرافاتٍ اعْتَقَدوها، وتُرَّهاتٍ ابْتَدَعوها، فَإِنَّ الجَهْلَ المُرَكَّبَ يَمْنَعُ إِدْراكَ الحَقِّ، ويوجِبُ تَكْذيبَ المُحِقِّ، وإِطْلاقُ العِلْمِ عَلى الطَّلَبِ مَجازٌ؛ لِأَنَّهُ لازِمٌ لَهُ عادَةً[2].

وعبَّر النَّظْمُ بصيغةِ المضارعة إشارةً لاستمرارِ عدم قابليَّتِهم للعلمِ وتَجَدُّدِ جَهْلِهِم، فانتفاءِ العِلْمِ لا يَنْقطِعُ، إذْ هو يَتَجدَّدُ حينًا بعدَ حينٍ، وذلكَ لأنَّ المصدرَ الَّذي يَردونَ منه إنَّما هو التَّكْذيبُ والإنكارُ، فلا يَكْتَسِبونَ عِلمًا، ولا يَحوزون فضْلًا، وجاءَ الفعلُ مُسْنَدًا إلى ضميرِ الجمعِ للدلالةِ على اجتماعِهم على نكرانِ العلمِ والاستكبارِ عنِ الإيمانِ.

نكتةُ الإخبارِ بِنَفْيِ العلمِ عَنهم:

نَفْيُ العلمِ دونَ إثباتِ الجهلِ حثٌّ خَفيٌّ على سلوكِ طريقِ العلمِ بالآخرةِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءتِ الآيةُ بنفي العلمِ عنْ مُنكري البعثِ المكذِّبينَ به، لا بإثباتِ الجهلِ، على ما يَقْتَضيه الظّاهرُ، إذْ هو الأقبَحُ، ويُمكِنُ القولُ إنَّ هذا النفيَ دونَ الإثباتِ يُرادُ بِهِ التَّلَطُّفُ مَعَهُم، بِحَثِّهِم على سلوكِ طريقِ العِلْمِ بالآخرةِ[3]، الَّذي هو طريقُ الفَلاحِ والنجاحِ والنجاةِ، لعلَّهُم يتركونَ ما هُم فيه من ضلالٍ وتكذيبٍ، ويمكِنُ كذلكَ أنْ يكونَ الغرضُ منْ عَدَمِ الوصْفِ بالجهلِ إشارةً إلى الجهلِ المُرَكَّبِ الَّذي خاضوا فيهِ وامتلَأَتْ به عقولُهُم، ولعَلَّ هذا الوجهَ أرجحُ من الوجهِ الأولِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 136.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

لطيفةُ حذفِ مفعولِ العلمِ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

الـكُـفّـارُ لا يعلمون كلَّ ما لَهُ صلةٌ بالهدايةِ فهُم في ضلالٍ مبينٍ

أطلقَ النَّظْمُ الجليلُ عدمَ العلم في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولمْ يُقيِّدْه بشيءٍ بعينِه مِمّا يصلُحُ في هذا المقامِ، ولمْ يُبَيِّنْ أيَّ شيءٍ لا يعلمونَهُ، والمرادُ شُمولُ كلِّ ما لَهُ صلةٌ بالهدايةِ، فَهُم لا يعلمونَ العلمَ الصحيحَ الموصلَ للآخرَةِ، ولا يعلمونَ صدقَ الأنبياءِ والمرسلينَ فيما بلَّغوا عنْ رَبِّهم، فهُم في ضلالٍ مبينٍ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَثَلُ والمِثْلُ والشّبيهُ والنِّدُّ:

المَـثَـلُ قـولٌ مضروبٌ لبيانِ المشابهةِ بينَ أمرينِ بينهُما جامعٌ عقليٌّ

مادة (مثل) تدلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، فمِثْلُ الشيءِ نَظيرُهُ، وكذلكَ المِثالُ، والمَثَلُ: المِثْلُ أيْضًا، كَشَبَهٍ وشِبْهٍ، والمَثَلُ المَضْروبُ مَأخوذٌ مِنْ هَذا، لِأنَّهُ يُذْكَرُ مورًّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ في المَعْنَى[1]، وهو عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخرَ بينهُما مشابهةٌ، ليُبَيِّنَ أحدُهُما الآخرَ ويصوّره، وعادةً ما يكونُ الجامعُ بينَهُما جامعٌ عقليٌّ، وهو أعمُّ الألفاظِ الموضوعةِ للمُشابَهَةِ، وذلك أنّ النّدَّ يقالُ فيما يشاركُ في الجوهرِ فقط، والشّبه يقالُ فيما يشاركُ في الكيفيّةِ فقط، والمساوي يقالُ فيما يشاركُ في الكمّيّةِ فقط، والشّكل يقال فيما يشاركُهُ في القدرِ والمساحةِ فقط، والمِثْلُ عامّ في جميع ذلكَ[2]، والمَثَلُ مَجازٌ عَنِ الصِّفَةِ الغَريبَةِ، وقد عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في الآيةِ بالمَثَلِ؛ لأنَّ المرادَ به سوقُ حكايةٍ مشابهَةٍ لاستخراجِ الدَّليلِ العَجيبِ القاضي بوجوبِ الإيمانِ بالبعث والآخرةِ.

الطبعُ والختمُ والطمسُ:

الطَّبْعُ أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش

الطَّبْعُ أثرٌ يَثْبُتُ في المطبوعِ ويلْزَمُهُ، فَهو يُفيدُ من معنى الثَّبات

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (مثل).

واللزوم ما لا يفيدهُ الخَتْم، ولِهَذا قيل: طُبِعَ الدِّرْهَمُ طَبْعًا، وهو الأثر الَّذي لا يَزول عَنهُ، كَذَلِك أيْضا قيل طبعُ الإنسان؛ لِأَنَّهُ ثابتٌ غيرُ زائلٍ[1]، والطَّبْعُ: أن تصوّر الشيء بصورة مّا، كَطَبْعِ السّكّةِ، وطَبْعِ الدّراهم، وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش[2]، ومِنْ ذَلِكَ: طَبَعَ اللَّه على قَلْبِ الكافِر، كَأَنَّهُ خَتَمَ عليه حَتَّى لا يَصِلَ إلَيْهِ هُدًى ولا نورٌ، فَلا يوفَّقُ لِخَيْرٍ[3]، والختم إنهاءُ الشيءِ ومنعُ الزيادةِ عليه بتسويةِ ظاهرِه وتغطيتِه على ما في أثنائِه[4]، وأمّا الطَّمْس: فهو إزالةُ الأثرِ بالمحو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾ [المرسلات: 8]، وقال على لسان موسى ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [يونس: 88]، أي: أزل صورتها، وقالَ سبحانَه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ [يس: 66]، أي: أزلْنا ضوءَها وصورتَها كما يُطْمَسُ الأثرُ[5].

ويمكنُ القولُ إنَّ استعمالَ هذهِ المُفرَداتِ الثلاثِ يأتي لإفادةِ عدم قبولِ الهدى بشكلٍ عامّ، وأنَّ الفرقَ بينَها أنَّ الطَّبعَ أثَرٌ لازمٌ لا يتغيَّرُ، وأنَّ الختْمَ تغطيَةُ الشيءِ بعد بلوغِ النهايةِ، وأمّا الطمسَ فتغييرُ معالمِ الصورةِ تغييرًا لا يبقى معهُ شيءٌ من معالمِها الأصليَّة، وقد آثرَ النَّظْمُ في الآيةِ الكريمةِ التعبيرَ بالطَّبعِ إشارةً إلى إعادة تَشَكُّلِ قلوبِ الكفّارِ، فلا تقبلُ هدًى ولا نورًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 73.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (طبع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ختم).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (طمس).

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾

[الروم: 60]

العِنادُ يَتَطَلَّبُ الوقوفَ بحزمٍ وصبرٍ أمامَ هؤلاءِ الكُفّارِ المعاندينَ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بالغَ الكُفّارُ في عنادِهم أمامَ دعوةِ الإسلامِ وفي إنكارِهم للبعثِ، حتَّى طبَعَ اللّهُ على قلوبِهم فلا يقْبَلونَ هُدًى، وكانَ ذلكَ مُحزِنًا لقلبِ النَّبيِّ ﷺ؛ أرشدَه سبحانَه أنَّ موقفَ العِنادِ يَتَطَلَّبُ الوقوفَ بحزمٍ وصبرٍ أمامَ هؤلاءِ الكُفّارِ المعاندينَ، فأمَرَه سبحانَه أنْ يعتصمَ بالصبرِ على أذى المشركين، وبمتابعة تبليغ رسالته، وقوّى اللّهُ نفسَه بتحقيقِ الوعدِ، فإنَّ وعدَ اللّهِ الذي وعَدَ به نبيَّه بالنَّصرِ حقٌّ ثابتٌ لا شَكَّ فيه، ولا بُدَّ من إنجازِه وإنفاذِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصْبِرْ﴾: (صبر) أُصولٌ ثَلاثَةٌ، الأَوَّلُ الحَبْسُ، والثّاني أعالي الشَّيْءِ، والثّالِثُ جِنْسٌ مِنَ الحِجارَةِ، فالصَّبْرُ: الحَبْسُ، يُقالُ: صَبَرْتُ نَفْسي على ذَلِكَ الأَمْرِ، أَيْ حَبَسْتُها، والمَصْبورَةُ المَحْبوسَةُ على المَوْتِ[1]، والصَّبْرُ: الإمساكُ في ضيقٍ، وهو حبسُ النَّفسِ على ما يَقْتَضيه العقلُ والشرعُ، أو عمّا يقتضيان حبسَها عنه، فالصَّبْرُ لفظٌ عامٌّ، وربّما خولفَ بيْنَ أسمائِه بحسب اختلافِ مواقِعِه، فإن كانَ حبسَ النَّفسِ لمصيبةٍ سُمّيَ صَبرًا لا غيرَ، ويُضادُّه الجزعُ، وإن كانَ في مُحارَبَةٍ سُمّيَ شجاعةً، ويضادُّه الجبنُ، وإن كانَ في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمّيَ رُحْبَ الصَّدْرِ، ويُضادُّه الضَّجَرُ، وإن كانَ في إمساكِ الكلامِ سُمّيَ كِتْمانًا، ويضادُّه المَذَلُ، وقد سَمَّى اللّه تعالى كلَّ ذلك صبرًا[2]، والصبرُ صبرانِ هُما عُدَّتانِ للْإيمان: الصَّبْرُ على طاعَة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (صبر).

اللّهِ وما أمره، والصَّبْرُ عَن مَعْصيةِ اللّهِ جلَّ ثَناؤُهُ وما نهَى عَنهُ[1]، والمرادُ بالأمر ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ الإرشادُ إلى حملِ النَّفْسِ على تَحَمُّلِ أذى المشركينَ وعصيانِهم وإنكارِهم.

2) ﴿يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾: (خفّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو شَيْءٌ يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ، يُقالُ خَفَّ الشَّيْءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهو خَفيفٌ وخُفافٌ، وخَفَّ القَوْمُ: ارْتَحَلوا[2]، واسْتَخَفَّ: اسْتَفْعَلَ من (خفف)، واسْتَخَفَّ فلانٌ بحقّي: إذا استهان بِهِ، واسْتَخَفَّهُ الفرحُ: إذا ارْتاحَ لأمرٍ، واستَخفَّه فلانٌ: إذا استجْهَلَهُ فَحَمَلَه على اتّباعِه في غيِّه[3]، ومعنَى استخفّ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [الزخرف: 54]، أيْ: حَمَلَهُم أنْ يَخِفّوا مَعَهُ، أو وجَدَهُم خِفافًا في أبْدانِهم وعزائِمِهم، وقيل: معناه وجَدَهُم طائشينَ[4]، والمرادُ بالاستخفافِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، أيْ: لا يَجُرَّنَكَ إلى الخِفَّةِ وعدمِ الصَّبرِ والثباتِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بالصّبرِ واليقينِ يَتَحَقَّقُ النصرُ وتبلغُ دعوةُ الحقِّ العالمين

أمرَ اللّهُ نَبيَّهُ أن يعتصِمَ بالصَّبرِ على أذى المشركينَ، وبمتابعةِ تبليغِ رِسالَتِه، وقَوَّى اللّهُ نفسَه بتحقيقِ الوعدِ، فإنَّ وعدَ اللّهِ الَّذي وعدَكَ به أيُّها النبيُّ مِنْ نَصرِه إيّاكَ عليهم، حقٌ ثابتٌ لا شكَّ فيه، ولا بُدَّ من إنْجازِهِ وإنْفاذِه، ثُمَّ نَهَى اللّهُ نَبيَّهُ عن الانْفعالِ والاهتزازِ لكلامِ المشركينَ، أو التَّحَرُّكِ واضطرابِ النَّفْسِ لأقوالِهم، إذْ هُم لا يَقينَ لَهُم ولا بَصيرةَ، فلا يَحمِلنَّكَ شيءٌ على الخِفَّةِ والطَّيْشِ، والقَلَقِ، جزعًا من أقوالِهم وأفعالِهم، فإنَّهُم قومٌ ضالّونَ، وتابعْ أداءَ رِسالَتِك، فإنَّها رسالةُ الحقِّ والنّورِ والخيرِ والاستقامةِ، ولا يَسْتَفِزَّنَّكَ

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (صبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (خفف).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (خفف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خفف).

الذينَ لا يوقنونَ باللّهِ ولا باليومِ الآخرِ، فاللّهُ ناصرُكَ وحافظُكَ من النّاسِ، وخاذِلُهُم وهازِمُهُم هزيمةً مُنْكَرةً، وفي ذلك كلّه تسليةٌ له ﷺ وطمأنةٌ لنفسه ولأمَّته من بعده.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى (الفاءِ) في جملةِ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

سُنَّةُ اللهِ ماضيةٌ بنصرِ عبادِهِ المؤمنين وخذلانِ أعدائه

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾؛ للدلالةِ على التفريعِ، إذِ الأمْرُ لِلنَّبيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ تَفَرَّعَ عَلى جُمْلَةِ ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ﴾؛ لِتَضَمُّنِها تَأْييسَهُ مِن إيمانِهِمْ[1]، فجاءتِ الآيةُ الكريمةُ طمأنةً لقلبِه ﷺ بأنَّه سبحانَه ناصِرُه ومؤيدُه بتأييدِه المتينِ، حتَّى وإن اتَّهَمَه هؤلاء المكذبون بالإبطالِ والتزويرِ.

غرضُ الأمرِ ونكتَتُه في قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

العاقبةُ للنَّبيِّ ﷺ وأتباعِه من أهلِ الإيمانِ إذا لم تفتر همتهم عن الدعوة

جاء الأمرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ إرشادًا من اللّه تباركتْ آلاؤُه لنبيِّه ﷺ إلى فضيلَةِ الصَّبْرِ، وتسليَةً لخاطِرِه، بأنَّ تكذيبَهُم وعنادَهُم لَنْ يؤثِّرَ شيئًا في مسيرةِ دعوتِه الكريمةِ، فكما كانتِ البشارةُ في أولِ السورةِ بانتصارِ الرومِ أصحابِ الكتابِ على الوثنيّينَ من الفرسِ، فإنَّه سبحانَه هَهُنا يَعِدُه في آخرِ السورةِ الكريمةِ بالنَّصرِ على المشركِينَ المعاندينَ، ذلك أنَّ الصَّبْرَ على عنادِهم وتكذيبِهِم هو سبيلُ النَّصْرِ والغلَبَةِ عليهم، فبالصَّبْرِ الجميلِ يهونُ كلُّ عسيرٍ، وبِهِ يَسْلُسُ الشامِسُ الحرونُ، وينقادُ الأبيُّ العنيدُ، والمرادُ: فتَحَمَّلْ مشاقَّ الدعوةِ ومرارةَ التَّكذيبِ بقلبٍ متينٍ وصدرٍ رحبٍ، ولا تفْتَرْ عنِ الإنذارِ والتَّبيلغِ فستكونُ العاقبَةُ لك ولأتباعِك عليهم.

لطيفةُ الإفرادِ بالأمرِ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

في إفرادِ الأمرِ تشريفٌ لمقامِ النبيِ الكريمِ وتسليةٌ لَهُ

جاء الأمرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ للنبيِّ ﷺ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 136.

أصالةً، إذ هو المقصودُ بالخطاب ولأمَّته من بَعدِه تبعًا له، إذ المرادُ التشريعُ للأمَّةِ كلِّها، وفي إفرادِ الأمرِ له تشريفٌ لمقامِه الكريم، وتسليةٌ له عمّا لاقاه من تكذيبٍ وعنادٍ من هؤلاء المشركين المجرمين، وكذلك فقد أفردَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ لدلالةِ الاقتداءِ به ﷺ، فإنَّ المرادَ هَهُنا أيضًا التَّشْريعُ لأُمَّتِه[1].

نكتةُ حذفِ متعلق الفعل: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

متعلقاتُ الصَّبَرِ كثيرةٌ متنوعةٌ لا حصرَ لها

حذفَ النَّظْمُ الكريمُ مفعولَ الفعلِ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾؛ للدلالةِ على عموم الأمرِ بالصبرِ في حقِّ النبيِّ ﷺ وأمَّته، إذ متعلقاتُ الصَّبرِ كثيرةٌ متنوعةٌ لا حصرَ لها، والمرادُ: اصْبِرْ عَلى مَكارِهِهِمْ مِنَ الأَقْوالِ الباطِلَةِ والأَفْعالِ السَّيِّئَةِ[2]، فإنَّ اللّهَ ناصِرُك عليهم.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ عَمّا قَبْلَها:

الجملةُ تأنيسٌ للنَّبي ﷺ بِتَحْقيقِ وعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِه وتمكينِه

فصلَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ عن قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ وذلكَ لكمالِ الانقطاعِ بلا إيهامٍ بينَهُما، إذ جاءت الجملةُ الأولى إنشائيَّةً، وكانتِ الأُخرى خبريةً؛ ويمكن أن يكون الفصل لشبه كمال الاتّصال جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ: لم الأمر بالصّبرِ؟ فالجملة تَعْليلٌ لِلْأَمْرِ بالصَّبْرِ، وهو تَأنيسٌ لِلنَّبي ﷺ بِتَحْقيقِ وعْدِ اللَّهِ بنصره والِانْتِقامِ مِنَ المُكَذِّبينَ[3].

دلالة التوكيد في قوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾:

التوكيدُ ترسيخٌ للإيمانِ بنصرِ اللهِ لنبيِّهِ في أذهانِ المؤمنينَ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ أكَّدَ النَّظْمُ الحكيمُ بأداةِ التوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ وذلكَ لتأكيدِ نصرِ اللهِ لنبيِّه ﷺ في مواجهةِ افتراءاتِ المكذِّبينَ عليه وعلى رسالَتِه، ولتثبيتِ رسوخِ هذا الوعدِ في أذهان المؤمنينَ لتقرَّ نفوسُهم.

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 543.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 136.

لَطيفةُ إضافةِ الوعدِ إلى اسمِ الجلالةِ ونكتةُ إظهارِه:

تعظيمُ رجاءِ تحقُّقِ النَّصرِ من عاجلِ البُشريات للنبيِّ والمؤمنين

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ أضافَ النِّظْمُ الحكيمُ الوعدَ إلى اسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وذلكَ لتعظيم رجاءِ تحَقُّقِ النَّصرِ للنبيِّ ﷺ والمؤمنينَ، وفي ذلكَ توكيدٌ لتحَقُّقِ الوعدِ بالنَّصرِ على المشركين، وأظْهَرَ النَّظْمُ الحكيمُ الاسمَ الأعظمَ ولم يضمره، فلم يقل: (إن وعدَه حقٌ)، وفي ذلك إظهارٌ لاقتداره سبحانَه على تأييدِ النبيِّ بالنَّصرِ والتمكينِ[1].

براعةُ التَّذكيرِ بـ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ للمؤمنينَ:

التَّذكيرُ بوعدِ اللهِ للمؤمنينَ دونَ وعيدِه للكافرينِ إظهارٌ لكريمِ وعدِه سبحانَه

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّذكيرَ بوعدِ اللّهِ للمؤمنينَ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ دون وعيدِه للكافرين، إظهارًا لكريم وعدِه سبحانَه، بعدَ أنْ توعَّدَ الكافرينَ مرارًا في الآياتِ السابقاتِ بشِدَّةِ العذابِ في الآخرَةِ، وبعدما أبانَ عن فَزَعِهم وتَخَبُّطِهم يومَ البعث، فآثَرَ في ختامِ السورةِ أن يُفرِدَ الوعد للمؤمنين ليكونَ تتميمًا لما بدأته السورةُ من البُشْرَى بنصرِ بعضِ أهلِ الكتابِ على بعضِ المشركينَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿حَقّٞۖ﴾:

وعدُ اللهِ وعدٌ يُطابِقُهُ الواقِعُ كَما يَكْشِفُ عَنْهُ الزَّمانُ

وصفَ النَّظْمُ الحكيمُ الوعدَ بأنه وعدٌ حقٌّ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾، والمرادُ به الوعد الثابتُ، إذ (الحَقُّ) مَصْدَرُ حَقَّ يُحِقُّ بِمَعْنى ثَبَتَ، فالحَقُّ: هو الثّابِتُ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ ولا مُبالَغَةَ[2]، فهو وعدٌ حقٌّ ثابِتٌ جِدًّا يُطابِقُهُ الواقِعُ كَما يَكْشِفُ عَنْهُ الزَّمانُ، وتَأتي بِهِ مَطايا الحَدَثانِ[3]، وأفاد التّنكير هنا معاني التّفخيم والتّعظيم، فوعد اللّه ﷻ شأنه كذلك.

غرضُ توكيدِ الخبرِ في ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾:

تقويةُ عزائمِ المؤمنينَ بتعدُّدِ أساليبِ التوكيدِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ أكّدَ النِّظْمُ الحكيمُ بمؤكِّدين، الأول أداة التوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، والآخر التوكيدُ بالجملة الاسمية التي تفيدُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 136.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 137.

الثَّباتَ والتقريرَ، رُغمَ أنَّ المخاطبَ في ظاهرِ النَّظْم هو رسولُ اللّه ﷺ، وهو غيرُ منكرٍ لوعدِ اللّه بالنصر، بلْ هو ﷺ أولُ الموقنينَ بوعدِ اللّه سبحانَه، والغرضُ من الإتيانِ بهذينِ المُؤَكِّدينِ هو تأنيس اللّه لنبيِّه ﷺ في مواجهةِ افتراءات المكذِّبينَ عليْه وعلى رسالتِه، وتقويةُ عزائم المؤمنينَ بتعدُّدِ أساليب التوكيد، وعبّر بالوعد لإفادة رجاءِ التحقّق؛ لِأنَّ إنْفاذَ مِثْلِ ذَلِكَ في مَحَلِّ الإنْكارِ، لِعِظَمِ المُخالِفينَ وكَثْرَتِهِم[1].

نكتة التعبير بلفظ الاستخفافِ:

الإرشـــادُ إلى الاسْـتِـمـرارِ في التَّبليغِ مَعْلَمٌ دَعَويٌّ بارزٌ

نهى النَّظْمُ الحكيمُ عن التعجّلِ، وعبر بالفعل المضارع ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ للدلالة على تَجدُّدِ النهيِ واستمراره، فالأمَّةُ الإسلامية والدعاةُ منْهُم على وجْهِ الخُصوص مأمورنَ في شخصِ النبيِّ ﷺ بعدم الخِفَّةِ والاضطراب والقلقِ، إذ لا يَضيرُ الدّاعية إلى ربِّهِ أن يَقِفَ الكافرُ الجاحِدُ موقفَ العناد والتَّكبُّر، أو السُّخْريةِ والاستهزاءِ.

دلالة زيادة السين والتاء في قوله: ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾:

شدَّةُ النهيِ عن الاسْتِخْفافِ من هدي الله لنبيِّهِ وللمؤمنينَ

جاء الفعلُ ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ على وزنِ (يَسْتَفْعِلَنَّكَ)، وأصل الفعل (اسْتَخَفَّ)، على وزنِ (اسْتَفْعَلَ)، وهي منْ صيَغِ الأفعالِ المزيدةِ، فقدْ زيدَت السّينُ، والتاءُ، والأصلُ في هذهِ الصّيغةِ أنْ تكونَ لطلبِ الشَّيْءِ وتَحْصيله بالطَّلبِ، وفي استعمالِ النَّظْم للفعل على هذه الصّيغَةِ دلالةٌ على المبالغةِ في نَهيِ الرَّسولِ عَنْ أن يَستَخِفَّهُ الَّذينَ لا يوقِنونَ، وهو نَهْيٌ عَنِ الخِفَّةِ الَّتي من شَأنِها أنْ تَحْدُثَ لِلْعاقِلِ إذا رَأى عِنادَ مَن هو يُرْشِدُهُ إلى الصَّلاحِ، وذَلِكَ مِمّا يَسْتَفِزُّ غَضَبَ الحَليمِ، وأَسْنَدَ الاسْتِخْفافَ إلَيْهِمْ عَلى طَريقَةِ المَجازِ العَقْلِيِّ؛ لِأنَّهم سَبَبُهُ بِما يَصْدُرُ مِن عِنادِهِمْ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 135.

وأكدَّ النَّظْمُ الفعلَ ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ بنون التوكيد الثقيلة، فَكَأَنَّهُ قيلَ: لا تَخِفَّنَّ لَهم جَزَعًا، وفيه مِن إرْشادِهِ تَعالى لِنَبيِّه ﷺ وتَعْليمِه سُبْحانَهُ لَهُ كَيْفَ يَتَلَقّى المَكارِهَ بِصَدْرٍ رَحيبٍ ما لا يَخْفى[1]، ذلكَ أَنَّ المشركينَ حريصونَ على تعويقِه ﷺ عن أداءِ رسالتِه، ومن هُنا كانَ للنهيِ الإلهيِّ دلالتُه القاطِعةُ على رعايةِ اللهِ لِنَبيِّه الكريمِ وحوطِه وحفظِه.

توجيهُ القراءاتِ الواردةِ في ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾:

تَكامُلُ القراءاتِ في تأصيلِ المعاني من إعجازِ البلاغِ القُرآنيِّ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قرأ الجَماعَةُ بِنون التوكيدِ الثَّقيلَة، وفي رِوايَةِ رويْسٍ عَنْ يَعْقوبَ بِالخَفيفَة، فَقِراءَةُ الجَماعَةِ مُصَوَّبَةٌ إلى أصلِ الدّين، أيْ لا تَفْعَلْ مَعَهم فِعْلًا يُطْمِعُهم في أنْ تَميلَ إلَيهم فيه، وقِراءَةُ رويْسٍ إلى نَحوِ الأمْوالِ فَإنَّهُ كانَ يَتَألَّفُهم بِالإيثارِ بِها، ولا شَكَّ أنَّهُ إذا آثَرَهم عَلى أكابِرِ المُسْلِمينَ أطْمَعَهم ذَلِكَ في أنْ يَطْلُبوا أنْ يَميلَ مَعَهُمْ، وما أفادَ هَذا إلّا تَحْويلُ النَّهْيِ، ولَوْ قيلَ: لا تَخِفَّنَّ مَعَهُمْ، لَمْ يُفِدْ ذَلِكَ، ولا يُقالُ عَكْسَ هَذا مِن أنَّ النَّهْيَ في الثَّقيلَةِ أخَفُّ؛ لِأنَّهُ نُهيَ عَنِ الفِعْلِ المُؤَكَّدِ فَيَبْقى أصْلُ الفِعْلِ، وكَذا ما صَحِبَهُ تَأكيدٌ خَفيفٌ، وفي الخَفيفَةِ غَيْرُ المُؤَكَّدِ تَأكيدًا خَفيفًا فَلا يَبْقى غَيْرُ أصْلِ الفِعْلِ فَهو أبْلَغُ[2].

عِلَّةُ التعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

افتقادُ اليقينِ سمةٌ ثابتةٌ في المشركينَ يُعرفونَ بها

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، ولم يُعَبِّر باسم الفاعل، كأنْ يقول: (غيرُ الموقنين)، وذلكَ لأنَّ المرادَ في الآية الكريمةِ الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ اليقينِ قدْ صارَ سِمَةً ثابتةً لهؤلاءِ المكذبينَ المعاندينَ، فهُم يُعرَفونَ بها، وتَبدو عَليهم أماراتُها، وتُشيرُ إليهم دلائِلُها، فامتلأتْ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 501.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 138، وابن الجزري، النشر: 2/ 246.

نفوسُهم بالشك، وعقولُهم بالارتياب، فأُشيرَ إليهم بهذه الصفةِ، وجاءَ استعمالُ الموصولِ مُعَبِّرًا عن هذه السمةِ المَعيبَةِ.

لطيفة حذف متعلق الفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾:

متعلقاتُ نَفْيِ الإيقانِ كثيرةٌ متنوعةٌ لا حصرَ لها

حذفَ النَّظْمُ الكريمُ مفعولَ الفعلِ ﴿يُوقِنُونَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ للدلالةِ على عموم تخَبُّطِهم واضطرابِهم، إذ متعلقاتُ نَفْيِ الإيقانِ كثيرةٌ متنوعةٌ لا حصرَ لها، والمرادُ: أنَّهم لا يوقِنونَ بالأُمورِ اليَقينيَّةِ، أي الَّتي دَلَّتْ عَلَيْها الدَّلائِلُ القَطْعيَّةُ، فَهم مُكابِرونَ(1).

براعة الجمع بين الأمر والنّهي:

الجمعُ السَّلِسُ لأساليبِ العَرَبيَّةِ دلالةٌ ظاهِرةٌ على إعجازِ القرآنِ العظيم

جمعتِ الآيةُ الكريمةُ في كلماتٍ قلائل على أحسنِ وجوه الاتصالِ والانسجامِ والتلاؤمِ بين الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وعطفَتْ عليه بالخبرِ في قولِه سبحانَه: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، وختمتْ بالنهي في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وفي ذلك الجمع السَّلِسِ والبيانِ الناصعِ دلالةٌ ظاهِرةٌ على إعجازِ القرآنِ العظيمِ وحسنِ بيانِه، حتَّى إنَّه ليجْمَعُ بين الأمرِ والنهيِ والخبرِ في سياقٍ واحدٍ ببلاغةٍ آسرةٍ، وفيه كذلك حسنُ تلخيصٍ للسورةِ الكريمةِ التي تناولتْ ضروبًا كثيرةً من الأوامرِ والنواهي والأخبارِ، فكأنَّ الآيةَ الكريمةَ تلخيصٌ للسورةِ الشريفةِ كلِّها، بل يمكنُ القولُ بشيءٍ من التَّجَوُّزِ إنَّ هذه الآيةَ تُلَخِّصُ أساليبَ القرآنِ، فالقرآنُ إمّا أمرٌ أو نهيٌ أو إخبارٌ.

بلاغة ردّ عجزِ السّورةِ الكريمةِ على صَدْرِها:

الإيمانُ بالغيبِ والبعثِ وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ هي الإيمانُ بالله

اختتَمَ النَّظمُ الكريمُ السورةَ بالحديثِ عنِ النهيِ عن الاستجابةِ لاستخفافِ الكافرينَ وغيرِهم من الَّذينَ لا يوقِنونَ بالبعثِ واليومِ الآخرِ، وذلك بعدَ أن افْتَتَحَ السورةَ بالإخبارِ بالغيبِ الذي لا يعلمه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 500.

إلا اللّه إقامةً للحُجَّة على صدق رسول اللّه ﷺ، وأنَّه لا ينطق عن الهوى، إذ الإيمانُ بالغيب والبعثِ وجهانِ لعملةٍ واحدة، هي الإيمانُ باللّه ﷻ، فانْعَطَفَ آخِرُ السورةِ عَلى أوَّلِها[1]، إذ السورةُ كُلُّها إثباتٌ للبعثِ بالبراهين العقليَّةِ والآياتِ الربانيَّة، فَمَنَ أصْغَى لنداءِ العقلِ الحُرِّ السَّويِّ، وتَأمَّلَ في خزائنِ الكونِ وأسْرارِه، وحاكَمَ مُحاكَمَةً عَقليَّةً سريعةً في ربطِ الأشياءِ بأسبابِها، سَهُلَ عليهِ الانْصياعُ لقواعدِ الإيمانِ الصَّحيحةِ، ومنْ وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ في قلبِه، بادَرَ إلى توسيعِ آفاقِ المَعرفَةِ باللّهِ وأسمائِه وصفاتِه، وسارعَ إلى طاعةِ اللّهِ في كُلِّ مأموراتِه ومَنْهيّاتِه، وحينئذٍ يجدُ السعادةَ والطمأنينةَ تغمرُ قلبَه، وتُفيضُ عليهِ بالفيوضاتِ الإلهيَّةِ السخيَّةِ سخاءً لا حدودَ لَه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّبْرُ والرِّضا:

الـصَّـبْرُ كَـفُّ النَّفْسِ وحَبْسُها عـنِ الـتَّسَخُّـطِ وأمّـا الـرِّضـا فيوجبُ انشراحَ الصَّدرِ

الصَّبْرُ حبسُ النَّفسِ عنِ مُقابلَة الشَّر بالشَّر، سواءٌ أكانَ بالقَوْلِ أو بالفعْلِ، والصَّبْر عَن الشَّيْء يُفيد حبس النَّفس عَن فعله، والصَّبرُ كَفُّ النَّفْسِ وحَبْسها عنِ التَّسَخُّطِ مع وجودِ الألم، والرِّضا يوجبُ انشراحَ الصَّدرِ وسَعَته، وإن وُجِدَ الإحساسُ بأصلِ الألم، لكنَّ الرِّضا يُخَفِّفُ الإحساسَ بالألمِ لِما يُباشِرُ القلبَ منْ رَوْحِ اليَقينِ والمَعرفةِ، وقد يُزيلُ الإحساسَ به بالكليَّةِ[2]، ولمّا كانَت القضيةُ تدورُ حولَ تَحَمُّلِ أذَى الكُفّارِ دونَ الرِّضا بما هُم عليه من ضلالٍ وفسادٍ في الاعتقادِ؛ فقد استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ الصبرَ دون الرِّضا.

الاسْتِخْفافُ والاسْتِفْزازُ والاستهزاءُ والاستهانةُ:

الاسـتـخـفـافُ دعـوةٌ للطيشِ والاسـتـفـزازُ حـثٌّ وتحريكٌ والاسـتـهـزاء تحقيرٌ

استَخفَّ فُلانٌ فُلانًا إذا استجْهَلَهُ فَحَمَلَه على اتِّباعِه في غيِّه، حتَّى يكون به منَ الطَّيش والرُّعونةِ ما لا يُحمدُ، والمرادُ بالاستخفافِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 138.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 201، وابن رجب الحنبلي، نور الاقتباس، ص: 150.

في الآيةِ الحملُ على الخِفَّةِ وعدمِ الصَّبرِ والثباتِ[1]، وأمّا الاستهْزاءُ فهو تصغيرُ من قُصِدَ به، وتحقيرُه، ويكونُ بالقولِ أو بالفعلِ، أو بالإشارةِ أو العبارة، أو بالكتابَةِ أو الخطابةِ، ويكونُ تصريحًا أو تلميحًا، تحقيقًا أو تلفيقًا، وهو كذلك صُدورُ ما يدعو لانتقاصِ شأن المقصودِ بِه من المستهزئِ، بوجودِ المقتضي أو بعَدَمِه، بغرض تحقيرِهِ أو التنفيرِ منه أو كليهما، والاستهانةُ هي التوهينُ والتقليلُ مِن شأن المقصودِ بها، والاستفْزازُ تحريكٌ وحثٌّ وتهييجٌ لاتِّباعِ الغرائزِ والشَّهوات أو للهرب[2]، وقد آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ الاستِخفافِ؛ لأنَّ مرادَ الكُفّارِ هو اتباعِ النبيِّ لهم بترك دعوتِهم للحقِّ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي، والراغب، مفردات القرآن: (خفف).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254، والراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فزز) و(هزأ) و(هون)، ومجموعة من المؤلفين، موسوعة التفسير الموضوعي: (الاستهزاء).

سُورَةُ لُقمَان

سُورَةُ لُقۡمَانَ

التّعريفُ العامّ بالسّورة:

سورةُ لقمانَ كلُّها مكّيّة

سورةُ لقمانَ مكّيّةٌ عندَ جمهور العلماء[1]، واستثنى بعضُهم آياتٍ منها: وهي قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: 27 - 29]؛ استنادًا إلى رواياتٍ جاءَتْ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّها نزلتْ بسبب مجادلة كانت بينَ اليهود وبين نبيّنا ﷺ، في أنّهم أكثرُ علمًا من قومه، وأنّهم اُختصّوا بالكتاب[2]، والحقُّ أنّه لم تثبتْ تلك الرّواياتُ التي ذكروها في أسبابِ النّزول[3]، ونظمُ الآيات والصُّوَر التي تضمّنتْها أقربُ إلى النّظم المكّيّ، وصورِ العهد المكيّ منها إلى النّظمِ المدنيّ.

ترتيبُ السورة في المصحَف والنُّزول وعد الآي:

هي السّورةُ الواحدةُ والثّلاثونَ في ترتيب المصحفِ الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابت، والمُعوّلُ عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقعت بينَ سورتيّ الرّوم والسّجدة، وهي ثلاثٌ وثلاثونَ آيةً في عدّ المَدَنيّين والمكّي، وأرْبع وثلاثون في عدِّ الباقينَ[4]، وأمّا ترتيبُها النّزوليّ فهي السُّورَةُ السّابعةُ والخمسونَ في تَعْدادِ نُزُولِ السُّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الصّافّات وقَبْلَ سُورَةِ سبأ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 137.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 152، 153، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 62.
(3) الوادعيّ، الصّحيح المسند في أسباب النّزول، ص: 160.
(4) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 206.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 138.

اسمُ السّورةِ الكريمةِ وسِرُّ التّسميّة:

سورةُ لقمان لمْ يثبتْ تسميتُها باسمٍ آخر في الأثر

لهذه السّورة اسمٌ واحدٌ مُشتهِرٌ لم تُسمّ بغيره هو (لقمان)، حيثُ سمّيت بهذا الاسم؛ لتفرُّدِها بذكره فيها صريحًا في آيتَيْن مُتتاليتين، هما: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 12 - 13]، وهو الاسمُ الذي اشتهرَتْ به هذه السُّورةُ، وكُتبت في المصاحف وكتبِ التّفسير والحديث، ولاشتمالِها على قصّةِ (لقمانَ الحكيم) الذي أدركَ جوهرَ الحِكمة، بمعرفةِ وحدانيّةِ اللّه وعبادتِه، والأمرِ بفضائلِ الأخلاق والآداب، والنّهيِ عن القبائح والمُنكَرات.

منهجُ هذا الدّين قائمٌ على الحِكمة

وأمّا وجهُ ارتباطِ هذا الاسم بمحورِ السّورة فلا يُكتفى فيه بالتّعليل القائل: إنّها سُمّيتْ بسورة كذا لأنّها تحدّثتْ عن كذا، فقد تتحدّثُ السّورة عن أمرٍ مّا وتنفرد به، ولا تُسمّى به، لذا يقول البقاعيّ: "مقصودُها إثباتُ الحِكمةِ للكتاب، اللّازمِ منه حكمةُ اللّه سبحانه في أقواله وأفعاله، وقصّةُ لقمانَ المُسمّى به السّورةُ دليلٌ واضحٌ على ذلك، كأنّه سبحانه لمّا أكملَ ما أراد من أوّل القرآن إلى آخر (سورة براءة)، وكان سبحانه قد ابتدأ القرآنَ بنفي الرّيب عن هذا الكتاب، وأنّه هدى للمتّقين، واستدلّ على ذلك فيما تبعَها منَ السّور، ثمّ ابتدأ (سورةَ يونس) بعد سورة براءة بإثبات حِكمته، وأتبعَ ذلك دليلَه إلى أنْ ختم (سورة الرّوم)، ثمّ ابتدأ دورًا جديدًا على وجه أضخمَ منَ الأوّل، فوصفَه في أوّل (لقمان) بما وصفَه به في يونس التّالية لبراءة، وذلك الوصفُ هو الحكمة، وزاد أنّه هدىً وهدايةٌ للمُحسنين، فهؤلاء أصحابُ النّهايات، والمتّقون أصحابُ البدايات"(1).

ويمكنُ أنْ يُضاف إلى ما ذكره البقاعيّ بأنّ ارتباطَ محورِ سورة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 140.

لقمان باسمِها ناشئٌ من كون حديثِها جاء عن أنّ منهجَ هذا الدّين الذي به تنهضُ الحضارات إنّما يقومُ على الحِكمة في وضع كلِّ شيءٍ في موضعِه الألْيقِ به دونَ زيادةٍ أو نقصان، فبيّنت السّورة الكريمةُ مظاهرَ هذه الحكمةِ وثمراتها ومُعوِّقاتِها، وتناولتْ وصايا لقمانَ الحكيم الَّذي آتاه اللّه تعالى الحكمةَ بكلّ فصولها وأنواعِها، وهي خلاصةُ هذا المنهجِ الرّبّانيّ الحكيم الذي خطّه اللّه تعالى لهدايةِ البشريّة جمعاء.

بيانُ المحورِ العامِّ لسورة لقمان والموضوعاتِ التي تلتفّ حوله:

أولًا: التّأكيد على أنّ منهجَ هذا الدّين الّذي به تنهضُ الحضارات، إنّما يقومُ على الحكمةِ الرّبانيَّة في وضع كلّ شيءٍ في موضعِه الأليقِ به، دون زيادةٍ أو نقصان، فقد وصفتِ السّورةُ الكريمة آياتِ الكتاب بالحكمة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: 2]، ووصفتِ الخالقَ بالحكمة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان: 9]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: 27]، ووصفتْ لقمانَ الّذي سُمّيتِ السّورةُ باسمه بالحكمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12].

ثانيًا: تتجلّى الحكمةُ في كتاب اللّه المنظور من خلال هذا التّناسُق والإبداع العجيب، الذي بيّنتِ السّورةُ الكريمة بعضَ مظاهره، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: 10 - 11]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: 29 - 31].

ثالثًا: ظهرتْ هذه الحكمةُ في الأحكام العقديّة والتّشريعيّة والأخلاقيّة التي ذكرَتْها السّورةُ الكريمة ضمنَ الوصايا اللُّقمانيّة الحكيمة، ففي مجالِ العقيدة جاء قوله تعالى:

حكمةُ المنهج الرّبانيّ بكافةِ جوانبه

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: 13 - 16] فقد قرّرتْ ما يتعلّق بتوحيد الله تعالى في ربوبيّته وحاكميّته وأسمائِه وصفاتِه، وفي مجال التّشريعات جاء في وصايا لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: 17]، وفي مجال الأخلاق قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18 - 19].

أساسُ الحكمةِ البشريّة الشُّكرُ والحذرُ منَ الحكيمِ الخبير

رابعًا: اقتضى هذا المِحورُ بيانَ أنّ ثمرةَ الحكمة تكمُن بتحقّقِ شكر الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ [لقمان: 12]، وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: 14]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: 31].

خامسًا: التّحذير منَ الاغترارِ بالحياة الدّنيا وزينتِها، الذي من شأنه أنْ يذهبَ بمقتضى هذه الحكمة، ويوردَ الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: 33].

سادسًا: التقرير بأنَّ عِلْمَ اللّه مطلقٌ ومحيطٌ بكلّ شيء، كما في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: 29].

سابعًا: تختم السّورةُ كل ما يتعلق بالمحور بتقريرِ علْمِه تعالى بمفاتحِ الغيبِ الخمسة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: 34].

مقاصدُ السُّورة وخصائصها:

جوهرُ السّورةِ بيانٌ لأثرِ الحِكمةِ في كلّ شيءٍ

أوّلًا: تبدأ السّورةُ الكريمة بالثّناء على القرآن الكريم، وعلى المؤمنينَ الَّذين يُقيمون الصّلاة، ويؤتونَ الزّكاة، وهم بالآخرة هم يوقنون.

ثانيًا: تنتقلُ السّورةُ إلى الحديث عن جانبٍ من صفات المشركين، الذينَ يَستهزئون بآيات اللّه تعالى، ويُعرِضون عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7].

ثالثًا: تسوقُ السورة أدلّةً متعدّدةً على وحدانيّة اللّه تعالى وقدرته: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: 10 - 11].

رابعًا: تقصُّ علينا تلك الوصايا الحِكْميَّة، التي أوصى بها لقمانُ

ابنَه، واشتملت على ما يهدي إلى العقيدة السّليمة، والأخلاق الكريمة، ومراقبةِ الخالق ﷻ، وأداءِ العبادات التي كلّفنا سبحانه بها، ومن هذه الوصايا قولُه سبحانه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 17 - 19].

خامسًا: يبيّنُ سبحانه ألوانًا من نِعَمِه على عباده، منها ما يتعلّقُ بخلقِ السّماوات، ومنها ما يتعلّقُ بخلْقِ الأرض، كما بيّنَ ﷻ أنّ علمَهُ محيطٌ بكلِّ شيء، وأنّه لا نهايةً له، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان: 27 - 28].

سادسًا: يختمُ سبحانه السّورةَ الكريمة، بدعوة النّاس جميعًا إلى تقواه، وإلى بيان الأمورِ الخمسة التي لا يعلمُها إلا هو سبحانه؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: 33 - 34]"(1).

الخصائصُ الموضوعيّةُ المُميّزة:

أولًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمةُ باشتمالِها على وصايا لقمانِ الحكيم في جوانبها العقديّة والتّشريعيّة والأخلاقيّة، التي لم تردْ في غيرها منَ السّور.

الحكمةُ الإلَهيّة ضالّةُ المؤمن

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 107، 108.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بذكرها في آخرِ آيةٍ فيها مفاتحَ الغيب الخمسة، التي لا يعلمُها إلّا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: 34].

ثالثًا: انفردتِ السّورةُ الكريمة بذِكرها بعضَ الآيات الكونيّة التي ميّزتها عن غيرها، ولو بطريقة العرض كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان: 27].

الخصائصُ الأسلوبيّة المُميّزة:

لـلـحـكـمـة: ألفاظُها ونظمُها الخاصّان

أولًا: شابهتْ هذه السّورةُ سورةَ البقرة في المطلع، لكنّ الهدى في سورة لقمانَ كان للمُحسنينَ، وكان هنا مقرونًا بالرّحمة بهم، وفي البقرة اقترن الهُدى بالمفلحينَ.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورة الكريمةُ بذكر بعضِ الأمثلة والتّشبيهات التي مازَتْها عن غيرها منَ السّور، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [لقمان: 6 - 7]، وقولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16]، وهذه الأمثلة والتّشبيهات مرتبطةٌ ارتباطًا تامًّا بعلمِ الله تعالى وحكمته، وبيانِ حالِ مَن خرج عن مُقتضى هذه الحكمة.

ثالثًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بذِكر بعضِ الأبنية والمشتقّات الصّرفيّة التي لم تردْ في غيرها منَ السُّوَر، فمن الأفعال: ﴿وَأَنَّهُ﴾ [لقمان: 17]، ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ [لقمان: 27]، ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ [لقمان: 19]، ﴿وَٱقۡصِدۡ﴾ [لقمان: 19]، ﴿يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: 13]، ﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾ [لقمان: 15]، وغيرها، ومن

الأسماء: ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ [لقمان: 32]، ﴿أَقۡلَٰمٞ﴾ [لقمان: 27]، ﴿مَشۡيِكَ﴾ [لقمان: 19]، ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: 14]، ﴿وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20]، ﴿بَعۡثُكُمۡ﴾ [لقمان: 28]، وغيرها، ولا شكّ أنّ لهذه الأبنيَةِ والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بمحور السّورة ومقصودِها العامّ.

رابعًا: حظيت السّورةُ الكريمةُ بألفاظ تفرّدت بها عن غيرها منَ السّور من جهة الجَذْر والمادّة؛ وهما لفظةُ ﴿لُقۡمَٰنَ﴾ [لقمان: 12] التي وردت مرّتيْن، وسُمّيتِ السّورة باسمه، وكذلك لفظةُ: ﴿تُصَعِّرۡ﴾ [لقمان: 18] في ضمن وصايا لقمانَ لابنه، ولفظة ﴿خَتَّارٖ﴾ [لقمان: 32].

❁ بيانُ المناسبة بين السُّورة وسابقتِها ولاحقتِها:

مُناسَبَةُ سورَةِ لُقْمانَ لِسورَةِ الرّومِ:

بينَ السّورتَيْنِ تَناسبٌ من جهاتٍ عِدَّةٍ، مِنْها[1]:

أوَّلًا: اتّحاد السّورتَيْنِ في المَطْلَعِ؛ إذ كلٌّ مِنْهُما مُسْتَفْتَحٌ بِـ ﴿الٓمٓ﴾.

ثانيًا: أنَّ قول اللّهِ تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: 3 - 4] متعلّقٌ بما ذُكر في أواخرِ سورَةِ الرّوم في قولِه سُبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [الروم: 56]، فهذا عينُ إيقانِهم بالآخرَةِ، وهمُ المُحسِنون الموقِنون بما ذُكر.

ثالِثًا: اشْتِراكُ السّورتَيْنِ في الحديثِ عَن بَدْءِ خَلْقِ الإنسانِ.

رابعًا: أثبتَ اللّهُ تعالى في كلتا السُّورتين إيمانَ المؤمنين بالبعث، فقال في الرّوم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الروم: 56] وهذا عينُ إيقانِهم بالآخرة المذكور في مطلع لقمان: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: 4].

خامسًا: حكى اللّهُ تعالى في السّورتينِ الكريمتيْن ما عليه حالُ المشركين منَ القَلَق والاضطراب، إذ يضَّرَّعون إلى اللّه في وقت الشّدّة، ويكفرونَ به وقت الرّخاء، فقال في الرّوم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: 33]، وقال في لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: 32]، وكذلك قال سبحانه في آخر

(1) السّيوطيّ، تناسق الدّرر، ص: 110، 111.

الرّوم: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الروم: 58] إشارةً إلى أنَّ المشركين يكفرون بالآيات، وقال في لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: 7].

سادسًا: قابلَ تعالى في السّورتين بين حالَيْن، فذكر في سورة الرّوم مدى اعتزازِ المشركين بأموالِهم، ورفضِهم إشراكَ غيرهم فيها، وذكرَ في لقمان قصّةَ لقمان الحكيم، العبدِ الصّالحِ الذي أوصى ابنَه بالتّواضُع وتركِ التّكبّر، كما ذكر في الأُولى حربَ الرّوم والفُرْسِ في معركتينِ عظيمتين، وذكر في السّورة الثّانية في قصّة لقمان الأمرَ بالصّبر والمسالمةِ وتركِ المحاربة، وذكرَ في سورةِ الرّوم: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥﴾ [الروم: 15] وفُسِّر بالسَّماعِ، وفي صَدْرِ سورةِ لُقْمان تحريمُ سَماعِ الغناء وآلاتِ الطَّرب في قولِه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ﴾ [لقمان: 6]، فكأنَّ المُتلذِّذَ التَّلذُّذَ الكاملَ بالسَّماعِ في الجنَّة هو مَن أعرضَ عنِ السَّماعِ المُحَرَّمِ في الدُّنيا.

سابعًا: وصفَ اللّه تعالى قدرتَه على بَدْءِ الخَلْقِ والبعث في كِلتا السُّورتين، فقال في الرّوم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: 27]، وقال في لقمان: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان: 28].

مُناسَبَةُ سورَةِ لُقْمانَ لِسورَةِ السَّجْدَةِ:

وأمّا وجهُ ارتباطها بـ(سورة السّجدة) فيقول البقاعيّ: "فلمّا كانت سورةُ لقمان - بما بُيّن من مضمونها - محتويةً منَ التّنبيه والتّحريك على ما ذُكِر، ومُعلِمةً بانفراده سبحانه بخَلْقِ الكلّ ومُلْكِهم؛ أتبعَها تعالى بما يَحكمُ بتسجيل صحّة الكتاب، وأنّه من عنده، وأنّ ما انطوى عليه منَ الدّلائل والبراهين يرفعُ كلَّ ريب، ويزيلُ كلّ شكّ، فقال في مطلع سورة السّجدة: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣﴾ [السجدة: 1 - 3]"(1).

وأمّا السّيوطيّ فقد أوجزَ وجهَ اتّصال سورة (السجدة) بما قبلَها بقوله: "أنّها شرحتْ مفاتحَ الغيب الخمسةَ التي ذُكرت في خاتمة لقمان"(2).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 226.
(2) السّيوطيّ، تناسق الدّرر، ص: 123.

وكشف صاحبُ التّفسير المنير هذا الشّرح بقوله: "تظهرُ صلةُ سورة (السّجدة) بما قبلها - وهي (سورة لقمان) - من ناحيةِ اشتمالِ كلّ منهما على أدلّة التّوحيد، وهو الأصلُ الأوّلُ للعقيدة، وبعد أنّ ذكر الله تعالى في لقمان الأصلَ الثّاني وهو الحشرُ أوِ المَعاد، وختمَها بهَذَينِ الأصلين، بدأ سورةَ السّجدة ببيانِ الأصل الثّالث، وهو الرّسالةُ أوِ النُّبوة، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [السجدة: 1 - 2]، كذلك تعدُّ بعضُ آياتِ سورة السّجدة شرحًا وتفصيلًا للسّورة السّالفة، فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: 5] توضيحٌ لقوله تعالى في بيانِ مفاتح الغيب في لقمانَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]، وقولُه سبحانه في السّجدة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ [السجدة: 27] تفصيلٌ لقوله في لقمان: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان: 34]، وقولُه في السّجدة: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: 7] شرحٌ لقوله في لقمان: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: 34]، وقولُه في السّجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 5] شرحٌ لقوله في لقمان: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان: 34]، وقولُه في السّجدة: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10] إلى قوله: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة: 11] إيضاحٌ لقوله: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: 34].

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [لقمان: 1 - 5]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر النَّظم الحكيم في خواتيم سورة الروم أنَّه ضرب للنّاس في القرآن مِن كلّ مثل، وأمر النبي ﷺ بالصبر على المعرضين والحذر منهم، بين هنا أن القرآن الحكيم نزل هدى للمحسنين، ثم بيَّن صفات أهل الإحسان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾: (حسن) تدلُّ تصريفاتُها على ضِدِّ القُبْحِ[1]، والمحاسنُ مِنَ الأعمال: ضِدُّ المساوئ، ومِنْهُ سُمّيتِ الجنَّةُ: الحُسْنَى؛ ضِدُّ السُّوأى وهي النّارُ[2]، والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، والحَسَنَةُ يُعَبَّر بها عَن كُلِّ ما يَسُرُّ مِن نعمةٍ تنالُ العبدَ في نفسِه أو بدنِه ونحو ذلكَ، والسَّيِّئَةُ ضِدُّها[3]، والإحْسانُ: ضِدُّ الإساءَةِ[4]، وحَدُّ الإحسانِ شرعًا - كما قال النَّبيُّ ﷺ -: «أنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ؛ فَإنَّهُ يَراكَ»[5]، والمُحْسِنونَ في قول اللّه تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هُمُ الذين يعبدُونَ اللّهَ تعالَى كأنَّهم يَرَوْنَهُ، فهمُ أشدُّ مراقبةً للّهِ تعالى في أعمالِهم[6].

2) ﴿يُوقِنُونَ﴾: (يقن) أصل بمعنى زوال الشّكِّ، و(يوقِنُ): فعلٌ مضارع مِنَ الفعل (أيْقَنَ)، والمصدَرُ: الإيقانُ، واليَقينُ مِن صِفات العِلْم، وحَدُّ اليقين: سُكُونُ الفهم مَعَ ثباتِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(2) الخليل، العين: (حسن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسن).
(5) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (50)، ومسلم في صحيحه، برقم: (9).
(6) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 281، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/ 114، 115.

الحُكْم[1]، وقيل: هُوَ العِلْمُ الذي لا تَتَطَرَّقُهُ الشُّكوكُ ولا الأوهامُ، ولا يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ بحالٍ[2]، وقيل: هو إزاحةُ الشَّكِّ وتحقيقُ الأمر[3]، وهذه الثَّلاثةُ مُتَآيِلَةٌ، يَؤولُ بعضُها إلى بعضٍ؛ إذْ إنَّ ثباتَ الحُكمِ معناه عَدَمُ قبولِ التَّغيُّرِ، ولا يكون ذلك إلّا فيما يُقطَعُ به ويُتَحَقَّقُ، مِمّا لا يدخُلُهُ الشَّكُّ.

3) ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: (فلح) أصْلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ على شَقٍّ، والآخَرُ على فَوْزٍ وبَقاءٍ[4]، والمُفْلِحُ: اسْمُ فاعِلٍ مِن (أفْلَحَ)، ومَصْدَرُه: الفَلاحُ؛ وهو الفَوْزُ بما يُغتبَطُ به، وفيهِ صلاحُ الحالِ[5]، ويقال: أفلحَ؛ إذا أدرك مطلوبَهُ[6]، ويأتي الفلاحُ بِمَعْنى البقاء في الخَيْرِ[7]، ومِنْهُ سُمّيَ السَّحُورُ فلاحًا؛ لِأنَّ بِهِ بقاءَ البدنِ والحِفظَ مِنَ الضَّعفِ[8]، وبضَمِّ المعنَيَيْنِ وهما الفَوْزُ والبقاء؛ يَتَحَصَّلُ لنا المعنى الكُلّيُّ لِلْفَلاحِ، وهو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فيه، ولِذا قيل عَنِ الفلاحِ: ليسَ في كلام العرب كلمَةٌ أجمَعُ لِخَيْرِ الدُّنيا والآخرة مِنْها[9]، ولذا جعَلَ الرّاغبُ الفلاحَ ضَرْبَيْنِ: دنيويًّا وأُخْرَويًّا، وذكَرَ حدًّا جامعًا لكلٍّ مِنْهُما[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ المُنْتَفِعينَ بِآياتِ الكِتابِ الحَكيمِ

هذهِ آياتُ الكِتابِ الحكيم بيانًا وتَفْصيلًا، وهيَ آياتٌ جاءَتْ بيانًا ورَحْمَةً مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ لِمَنْ عَبَدوهُ كأنَّهم يَرَوْنَهُ، فهمُ أشدُّ مراقبةً

(1) الرّاغب، المفردات: (يقن).
(2) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/ 412.
(3) الخليل، العين: 5/ 220.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فلح).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، (فلح).
(7) الخليل، العين: (فلح)، والأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 38.
(8) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 250.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 430.
(10) الرّاغب، المفردات:، ص: 644.

للّهِ تعالَى في أعمالِهم، والَّذينَ يُؤدُّون الصَّلاةَ مُظهِرينَ لها مُداوِمينَ عَلَيْها مُحافظين على أرْكانِها وشُروطها ومُكمِّلاتها، ويُنْفِقونَ مِمّا أعطاهُمُ اللّهُ تعالى في وُجوه الخير، بالزَّكاة التي فرضَها اللّهُ تعالى عليهِمْ، وهُمْ كذلك يُصَدِّقون ويُقِرّون إقرارًا يَسْتَلزِم القبولَ والإذعانَ بيَوْمِ القيامة وهو اليومُ الآخِرُ، وما فيه مِمّا وقع الإخبارُ بِهِ في القرآن والسُّنَّة؛ كالبعثِ، والجنَّة، والنّارِ، والحسابِ، والميزانِ، والصِّراطِ، وهؤلاءِ المُتَّصفون بهذه الأوصافِ قد تمكَّنوا مِن طريق الهدايةِ واستقرُّوا عَلَيْها، وهُمْ - وحدهم دُونَ ما سِواهُم - الفائزونَ الظّافرونَ بمَطْلوباتِهم، النّاجونَ مِنْ مَرْهوباتِهِمْ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ الإعْجازِ في اسْتِهْلالِ السّورَةِ:

الحُروفُ المُقَطَّعَةُ وسيلَةُ اسْتِصْغاءٍ وتَنْبيهٍ لِما بَعْدَها

افتتاحُ هذه السُّورةِ الكَريمَة بالحُروف المُقَطَّعةِ فيه حُسْنُ افْتِتاحٍ؛ ووَجْهُهُ: أنَّ فيها نوعَ غَرابَةٍ، وقد جرَتِ العادَةُ بالتِفاتِ النّاسِ واسْتِشْرافِهِمْ للغَريبِ؛ ليَقِفوا على حَقيقَتِه ومُعَمّاهُ، فإذا التَفَتوا إلى القَوْلِ الغريبِ؛ وقعَ مقصودُ الكَلامِ الذي بَعْدُ على قُلوبٍ مُسْتَشْرِفةٍ؛ فيُبَلَّغُ به المرادَ، ولذا قال السُّيوطيُّ: "والذي عندي أنَّ اللّه وضَعَها لإطْفاءِ تَشْغيبِ الكُفّار حيثُ قالُوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فصلت: 26]، فأتى اللّهُ بها ليَسْمَعوها لغَرابَتِها، ثُم يُبَلِّغَ الرَّسولُ رسالَتَهُ"[2]، وفي هذا الافتتاحِ أيضًا براعةُ اسْتِهْلالٍ - وهو أخَصُّ مِن حُسنِ الافْتِتاحِ -؛ إذْ إنَّ الافتتاحَ بالحروفِ المُقَطَّعَة إيماءٌ إلى أنَّ المُتَحدَّثَ عَنْهُ مِنْ جنسِ الكلامِ؛ وهو القُرآنُ الكريمُ، وأفادَ الاستهلالُ بها استمرارَ التّحدّي لهم بإظهارِ عجزِهم عنِ الإتيانِ بمثلِه، مع أنَّه من جنسِ الحروفِ التي يتكلَّمون بها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 124، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 411.

(2) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/ 200.

عِلَّةُ الفَصْلِ فِي الآيات:

إظهارُ امتيازِ كلٍّ منَ السّابق واللّاحق

فُصِل قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ عمّا قَبْلَه؛ لكونِه مبتدأ كلامٍ، لا اتِّصال لهُ مِن جهة الإعراب بِحُروف ﴿الٓمٓ﴾ على ما هو الأظهرُ، كما نصَّ عليه ابنُ عاشورٍ في نظيرِ هذا الموضِع[1]، وأفادَ هذا الفصلُ عدمَ ارتباطِ كلٍّ منَ السّابق واللّاحق، وأنَّ كلًّا منهما مقصودٌ لذاته، وبذا يظهرُ امتيازُ السّابق في دلالته على إظهار التّحدّي، وبيانِ العجْز عن الإتيانِ بمثله، وامتيازُ اللّاحق بكونِ آياتِ الكتاب عظيمةَ المِقدار والمكانة.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿تِلۡكَ﴾:

تَعْظيمُ شَأنِ آياتِ القُرآنِ الكَريمِ

جاءَ التَّعبير باسْمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعْدِ ﴿تِلۡكَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ للإيماء إلى تعظيم قَدْرِ الآياتِ، وما فيها مِنَ العلُوِّ والفَخامة التي لا ينالُها إلّا مَن جاهد نفسَهُ، حتّى طهَّرها وهذَّبها بتَخْليَتِها عنِ الرَّذائل، وتَحْليَتِها بالفَضائل[2]، ودلّتِ الإشارةُ على تميُّزِ المشار إليه غايةَ التّمييز، وفي اتِّصال اسم الإشارة بـ(كاف الخطاب) بيانٌ لحضورِها وكمالِ العِلْم بها لو تأمَّلَها المُتأمِّل، حتّى إنَّها لتُبصَر عندَ الإشارةِ إليها، وفي جعلِ (الآيات) - إنْ كانت بمعنى الكلام اللَّفظيِّ السّيّال أو مرادًا بها معانيها - مُشارًا إليها معَ أنه لا يشارُ باسم الإشارة إلّا إلى المحسوسِ الثّابتِ المُشاهَد استعارةٌ تصريحيّةٌ، بتشبيه الآياتِ بالمعنيينِ بأمرٍ ثابتٍ حاضرٍ مُبصَرٍ، واستعمالُ اسم الإشارة معها بيانًا لحضورها حضورَ الأعيان المشاهَدة عندَ مَن يتأمَّلُها ويفقَهُها.

أسلوبُ القَصْرِ فِي ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

كمالُ الآياتِ بكمالِ مُنزلِها

﴿ءَايَٰتُ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خبرٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 219.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 140.

لاسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾[1]، وجاءَ كلٌّ منَ المبتدأ والخبر معرّفًا، إذِ اسمُ الإشارَةِ من جُمْلَةِ المَعارف، و﴿ءَايَٰتُ﴾ معرفةٌ لإضافَتِها إلى معرفَةٍ، وهُوَ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وتعريفُ جُزْأي الجُملة دالٌّ عَلى القَصْرِ، والمَعْنى: تلكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ لا غيرُهُ من كلامِ البَشَرِ، وفي هذا القصرِ الدّالِّ على مدحِ الآيات، وبيانِ أنَّها التي تستحِقُّ أن تكونَ آياتٍ وبراهينَ محكمةً مدحٌ للمنزِّل لها، وإظهارٌ لحِكمته الباهرةِ في إنزالها دستورًا خالدًا للبشريَّة جَمعاء.

غَرَضُ إضافَةِ الآياتِ إلى الكِتابِ وجمعِها:

عُلُوُّ مَكانَةِ الآياتِ جملةً وتفصيلًا

في إضافَةِ الآياتِ إلى الكِتاب من قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ تعظيمٌ لِشَأنِ المُضاف - وهُو الآياتُ -، والإيماءُ إلى عُلُوِّ قَدْرِها ومَكانَتِها[2]، وفي جمعِ (الآيات) بيانٌ لكون كلِّ آيةٍ من آياته عظيمةَ المِقدار جليلةَ المكانة، واختارَ الإشارةَ هنا إلى (الآيات) دون (الكتاب) نفسِه؛ لبيان أنَّ الكتاب عظيمٌ بعِظَمِ آياته على سبيل التّفصيل، إذ قد يقال: (ذلك الكتاب) فيُفيد أنَّ المجموعَ عظيمٌ، ولا يتنافى مع كون بعضٍ منه ليس كذلك، فكانَ في العدول هنا توضيحٌ لكمال الكتابِ بكمال أجزائه على سبيل التّفصيل والإفراد، وبذا عرفنا سِرَّ البَدْءِ بـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] في البقرة، والبَدْءِ بـ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هنا، وهي أنَّ الآيات لم تُذْكر قبلُ ثمّةَ، فمَدَحَ الكتابَ برُمَّته، ولمّا وصلَ الخطابُ إلى هنا كانتِ الآياتُ المسرودةُ كثيرةً، فأشارَ إلى عَظَمةِ الآياتِ السّالفة، فناسبَ الكلامُ الدّعوى.

مَعْنى اللّامِ ودِلالَتُها في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

كَمالُ القُرآنِ الكَريمِ مِنْ كُلِّ الوُجوهِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ للجنس، فتكون دالَّةً على الكمالِ، أي: الكتابُ الكامِلُ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 140.

نفسِه الجامع لجَميعِ أنواعِ الخَيْر[1]، ويجوزُ أنْ تكونَ اللّام للعَهْدِ العِلْميِّ، والمُراد به كتابٌ خاصٌّ وهو القرآنُ الكريمُ، ولا تنافيَ بينَ الدّلالَتَيْنِ؛ إذِ القُرآنُ الكريمُ هُو الكتابُ الكامِلُ الذي لا يتطرَّقُ إليه نَقْصٌ بوجهٍ مِنَ الوُجوه، ويحتملُ أنْ يكون ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ علَمًا بالغلَبة على القرآن الكريم؛ إذ اشتهرَ أنَّ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ معرَّفًا باللّام دالٌّ على الكتاب المعهود للمسلمينَ، وفي غلبةِ الاسم المعرَّف باللّام عليه إشارةٌ إلى أنَّه مُتميّزٌ عمّا عداه من الكتب، حتّى إنَّ كمالَ التّميُّزِ له جعلَ الذّهنَ ينصرفُ إليه دونَ غيره، بمُجرَّد سماعِ اللَّفظ الدّالِّ عليه.

دِلالَةُ الوَصْفِ مادَّةً وصيغَةً:

من شأن الحِكمة الهيمنةُ والحُكم

وَصْفُ الكتابِ بالحِكْمَة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ التي هي وضْعُ الشَّيءِ في موضعِه اللّائق به، والمَعْنى: أنَّه كتابٌ حكيمٌ بوَضْعِه الأشياءَ في مَراتِبِها الحَقَّة، فلا يُقْدَر على نَقْضِ شيءٍ مِمّا أبْرَمَهُ، ولا على مُعارضَةِ شَيْءٍ من كلامه، وذلك دالٌّ على سَعَةِ عِلْمِ مُنزِله وكمالِه، وعموم عَظَمَتِه وقُدْرَتِه[2]، ووَصْفُه بالحكمة يَشْمَلُ إحكامَ آياتِه بالحلال والحرام والأحكام، وإتقانَهُ بحَيْثُ لا يأتيه الباطِلُ من بين يَدَيْهِ ولا من خَلْفِه، وكونَهُ بيِّنًا أنَّه من عند اللّه سُبْحانَهُ، وكونَهُ يُظهِرُ الحكمةَ بنَفسِه كما يُظهِرُهُ الحكيمُ بقولِه، وكلُّ هذه المعاني حقٌّ لا تعارضَ بينَها[3]، وصيغَةُ (فَعيل) في وصفِ الكتابِ بالحَكيم لَها وجهانِ؛ أحدُهما: أن يكونَ بمَعْنى: الحاكِم، فيكون (فعيلًا) بمعنى (فاعل)، مثْلُ: القَدير بمَعْنى القادر، والعَليم بمَعْنى العالم، وأصلُ الحُكْم: المَنْعُ، والقرآنُ مانعٌ بهَذا الاعتبارِ؛ لِكَوْنِه مانِعًا عَنِ الكُفْرِ والفَساد، والآخَر: أنَّه بمعنى المُحكَم، فيكون (فَعيلًا) بمعنى (مُفعَل)، ومعنى كونِ القُرْآنِ محْكَمًا: أنَّه أُحكِم بالأمْرِ والنَّهْيِ، وبيانِ الحَلال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 141.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 326.

والحَرام[1]، والَّذي يترجّحُ لدينا: أنَّ وصفَ الكتاب بـ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ في الآية صفةٌ مشبّهةٌ، بمعنى: ذي الحِكمة، أي: لاشتمالِه على الحِكمة[2]، فنُسِب إليها وصارَ صاحبًا لها؛ كقولهم في النَّسب بالصّيغة: (تامرٌ ولابِنٌ)، بمعنى: ذو تمرٍ وذو لبن، فيكونُ تسميةً للشّيءِ بما اشتملَ عليه، بقي أنَّ (أل) الداخلةَ على الصّفة المشبَّهة دالّةٌ على الكمال في الحكمة، مع ثبوتها ولزومِها للكتابِ الممدوح.

بَلاغَةُ المَجازِ في وصْفِ الكِتابِ بِالحِكْمَةِ:

عَظَمَةُ الحِكْمَةِ المُشْتَمِلِ عَلَيْها القُرآنُ

وَصْفُ الكتابِ بالحَكيم في قول اللّهِ تَعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ يجوزُ أن يكونَ من بابِ وصفهِ بِصِفَةِ اللّهِ تَعالى؛ إذِ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ من أسْماءِ اللّهِ تَعالى، فيكونُ الإسنادُ مجازيًّا، والمعنى: تلكَ آياتُ الكتابِ الحكيمِ قائلُهُ، فحُذِفَ المُضافُ وأُقيمَ المُضافُ إليَهِ مُقامَهُ[3]، وجوَّز بعضُ أهلِ العِلْم أن يكونَ وصْفُ الكِتاب بالحَكيم مجازًا من وجهٍ آخرَ، وذلك لأنَّ الوصفَ في الأصلِ هُو للتَّملُّك، والكتابُ لا يَمْلِكُ الحكمةَ، وإنَّما يشْتَمِل عليها ويتضمَّنُها، فيكون المَعْنى: تلك آياتُ الكتابِ ذي الحِكْمَة[4]، وهو على هذا مجازٌ مرسلٌ من تسميةِ الشّيء باسم ما اشتملَ عليه، وثَمَّتَ وجهٌ ثالثٌ اسْتَظْهَرَهُ الطّيبيُّ؛ وهو أنْ يكونَ المجازُ من باب الاستعارة المَكْنيَّة، فيكون قد شُبِّه الكتابُ بالحيِّ العاقلِ، فحُذِفَ المُشَبَّهُ به، ورُمِزَ لَهُ بِشَيْءٍ من لوازمِه، وهُو الحِكْمَةِ[5].

بَراعَةُ الاسْتِهْلالِ في وصْفِ الكِتابِ بِالحِكْمَةِ:

التَّنْويهُ بِحِكْمَةِ لُقْمانَ في وصاياهُ

وُصِفَ الكتابُ بالحِكمة في صَدر هذه السّورة في قولِ اللّه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/ 310، 311، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 273.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 140.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 489.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 65.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 278، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 65.

سُبْحانه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ ليكونَ مُلائِمًا لِمَوْضوعِها، وهُو الإشادَةُ بلُقْمانَ وحِكْمتِهِ في وصاياهُ لابنِه، فَيكونُ في ذلكَ بَراعَةُ استهلالٍ؛ وهو الإشارَةُ إلى مَوْضوعِ الكلامِ في مَطْلَعِه[1].

عِلَّةُ فَصْلِ المفردات:

الحالُ وصْفٌ لِصاحِبِها في المَعْنى

فُصِلَ قولُهُ تَعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ - على قراءَةِ النَّصْب[2] - عَمّا قبلَهُ وهُو قولُه سُبْحانَه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ لكونِه حالًا مُفْرَدَةً، ومِنْ شأنِ الحالِ أن لا تُعْطَفَ على صاحبِها؛ إذِ الحالُ صفةٌ لصاحِبِها في المَعْنى، وإخبارٌ عَنْهُ، ومَعْلومٌ أنَّ الخَبَرَ لا يُفرَّق بينَهُ وبينَ المُبْتَدَأ بواوٍ، وكذلكَ الصِّفَةُ عَنْ مَوْصوفِها.

دلالةُ الحالَيْنِ مصدرًا:

بُلوغُ هِدايَةِ القُرْآنِ الكَريمِ ورَحْمَتِهِ مَبْلَغًا عَظيمًا

﴿هُدًى﴾ و﴿وَرَحْمَةً﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالانِ مَنْصوبَتانِ، ولمّا كانَ الأصْلُ في الحالِ أن تكونَ وصْفًا مُشْتَقًّا، وقد وردتِ الحالُ في الآيةِ مصدرًا، فإنّها تُؤَوَّل بالمُشْتَقّ، ويكون التَّقْدير: تلكَ آياتُ الكِتاب الحكيم هاديًا للمُحْسِنينَ وراحِمًا لَهُم، فيكون له حصّةٌ مِنَ الهداية والرّحمة، وفي التَّعبيرِ بِالمَصْدَرِ مبالغةٌ في اتِّصاف القرآنِ الكريم بِالهِداية والرَّحمة، حتّى كأنَّه هُما، وذلك يدلُّ على حَوْزِه عينَ الهداية والرَّحمة، فلم يبق لغيره شيءٌ منهما.

دِلالَةُ التَنْكيرِفي ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾:

بَيانُ عَظَمَةِ الهِدايَةِ وجَلالَةِ الرَّحْمَةِ

نُكِّر لفظُ ﴿هُدًى﴾ و﴿وَرَحْمَةً﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ تعظيمًا لِشَأْنِهما، وبيانًا لفخامَتِهما، والمَعْنى: أنَّهُ هُدًى عظيمٌ، ورَحْمَةٌ جَليلةٌ، لا سبيلَ لمقارنتهما بأيَّةِ هداية ورحمة، فهما عاليتانِ كمًّا وكيفًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 140.

(2) وهي قراءة الجمهور، وقرأ حمزة: (رحمةٌ) بالضمّ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ في ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قَرأ حمزةُ: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ برفع (رحمةٌ)[1]، ويَلْزَمُ مِنْهُ رفعُ ﴿هُدٗى﴾ إلا أنَّ رفعَها لا تظهرُ علامتُه، وقرأ باقي العَشَرَة: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ بالنَّصب على كَوْنِهما حالَيْن، فأمّا قراءةُ الرَّفعِ: فَعَلى أنَّ ﴿هُدٗى﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتَّقديرُ: (هو هُدًى)، ولفظُ (رحمةٌ) معطوفٌ عليه، والمعطوفُ عَلى المَرْفوعِ مَرفوعٌ مثلُه، ويجوزُ أن يكونَ الرَّفع لقَصْدِ الاستئنافِ النَّحوي؛ لِكَوْنِها مستأنفَةً في آيةٍ مُنْفَصِلَةٍ عَنِ الآيةِ التي قَبْلَها[2]، كما يحتملُ أنْ يكون استئنافًا بيانيًّا؛ إذ نشأ سؤالٌ من وصفِ آياتِ الكتابِ بالحكيم، تقديرُهُ: ما سِرُّ حكمتِه وعظمتِه وتفوُّقِه على غيرِه؟ فأجابَ بأنَّه مشتملٌ على الهداية والرَّحمة معًا.

فائِدَةُ وصْفِ الكِتابِ بِالهُدى والرَّحْمَةِ:

التَّنْبيهُ عَلى رُجْحانِ هِدايَةِ القُرْآنِ الكَريمِ عَلى ما قَبْلَهُ مِنَ الكُتُبِ

في وصْفِ الكِتابِ بالهُدى والرَّحمةِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تنويهٌ عظيمٌ بشَأنِ الكتابِ، فَهُو كتابُ إرشادٍ ودِلالةٍ لبلوغِ كَمالِ الإحْسانِ، وفي التَّعبير بصيغةِ ﴿هُدٗى﴾ مبالغةٌ في حُصول الهدايَة؛ لما يَقْتَضيهِ سواءٌ كان حالًا أو خبرًا مِنَ اسم الإشارةِ إلى بُلوغِهِ الغايَةَ في إرْشادِ النّاسِ، حتّى كانَ عينَ الهُدى، وفيهِ تَنْبيهٌ عَلى رُجْحانِ هُداهُ عَلى ما قَبْلَهُ مِنَ الكُتبِ، وفي وصفِهِ بالرَّحْمَةِ بَعْدَ وصفِه بالهُدى؛ لأنَّ المَقْصودَ مِنْ هذهِ السّورة هي قصَّةُ لُقْمانَ ووصيَّتُه لابنِه، فنَبَّه بِوَصْفِ الرَّحمة على أنَّ ذِكْرَ القصَّة هو من باب الرَّحمة؛ لما تَتَضَمَّنُه مِنَ الآدابِ والحِكْمَة[3]، ونلحظُ في الجمع بينَ الوصفين أنَّ قرنَ الهدى بالرّحمةِ قرنٌ بينَ الإقناعِ والعاطفة، بما يدلُّ على أنّ الآياتِ براهينُ تخاطبُ العقلَ، ورحمةٌ تخاطبُ القلبَ ولا

(1) البنّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 447.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 92.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 141.

تقسو عليه، فاشتملَ الكتابُ على حكمةٍ وبراهينَ وتشريعاتٍ تهدي الإنسانَ وتمتزجُ تلك بالرّحمة والشَّفقة على الإنسان السّائرِ في طريق الإحسانِ والاتّباع.

نُكْتَةُ تَقْديمِ وصْفِ الهُدى على الرَّحْمَةِ:

الـوُصـولُ إلى رَحْمَةِ اللهِ تَعالى هُوَ مآلُ الهِدايَةِ

قُدِّم وصفُ الهُدى عَلى الرَّحمة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هُدَى وَرَحْمَةَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن بابِ التَّرقّي في الأوصافِ؛ وذلكَ لِما في الرَّحمة مِنَ الزّيادة على الهُدى، مِن جِهَة أنَّ الهِداية فَرْعٌ مِن فُروع الرَّحمة؛ إذْ مَن رَحِمَهُ اللّهُ تَعالى هداهُ، وفي تأخيرِ الرَّحمةِ أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ مآلَ الهدايةِ هُو الوُصولُ إلى رحمةِ اللّهِ تَعالى(1)، ويمكنُ أنْ يقال: إنَّ الهداية هي الدّلالةُ على طريق الحقّ، وهذه الدّلالةُ فيها براهينُ عقليّةٌ، وتشريعاتٌ ونظمٌ قانونيّةٌ وأخلاقيّةٌ، فيها عنتٌ ومشقّةٌ عند تطبيقها، فأردفَها بالرَّحمة لتكون بيانًا عن أنَّ تلك القوانينَ في جوهرها رحمةٌ بالإنسان وإنقاذٌ له.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾:

هدايةُ المُحسنينَ رحـمـةٌ مـن ربِّ العالمين

اللّامُ في ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿هُدَى وَرَحْمَةَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للاستحقاقِ والاختصاص؛ وذَلِك لوُقوعِها بينَ اسم مَعْنًى - وهُو الهُدى والرَّحمة -، واسم ذاتٍ - وهو المُحْسِن -، وفي ذلك إشادةٌ بشَأنِ المُحْسِنينَ، وأنَّهم مُسْتَحِقّون للهِداية والرَّحمة اسْتِحْقاقًا، تَفَضَّل اللّهُ تعالى بهِ عليهم.

مَعْنى (أل) في ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾:

عُـمـومُ هِـدايَـةِ الـقُـرْآنِ الـكَـريمِ ورَحْـمَـتِـهِ لِـكُـلِّ مُـتَّـصِـفٍ بِالإِحْسانِ

(أل) في ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿هُدَى وَرَحْمَةَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ دالَّةٌ عَلى العموم والشّمول؛ لأنّها اسمٌ موصول بمعنى (الذين يحسنون)، أي: إنَّ الكتابَ هادٍ وراحمٌ كُلَّ مَن اتَّصفَ بِصِفَةِ الإحْسانِ وتحلَّى بها، أو رَغِبَ في الدخولِ بجملةِ المُحسنين، وسارَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 141.

على دربِهم، وفي اختيارِ الموصولِ المرتبطِ بصلتِه إشارةٌ إلى علَّة اختصاص الهدايةِ والرّحمةِ بهم، وهي الإحسانُ والرّغبةُ في نيلِه.

نُكْتَةُ الإتْيانِ بِاسْمِ الفاعِلِ جمعًا:

عَظَمَةُ كَرَمِ اللهِ تَعالى وجَلالُ أثَرِ كِتابِهِ

جاءَ التَّعبير باسْم الفاعِلِ مجموعًا في قول اللّه ﷻ: ﴿هُدَىٰ وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ إذْ لفظُ المُحْسنينَ جمعٌ للمُحْسِن؛ تحقيقًا للاستغراقِ المدلولِ عليه بالموصول، وشمولِ الهدايةِ والرّحمةِ لكلِّ فردٍ من أفراد المُحسنين، وهو اسمُ فاعلٍ دالٌّ على إثباتِ الصِّفة لِلمَوْصوفِ من غيرِ دِلالةِ على المُبالغةِ فيها، وهذا دالٌّ على جليلِ كرَمِ اللّهِ تَعالى وعظيمِ أثَرِ كِتابِهِ.

عِلَّةُ اخْتيارِ وصْفِ الإحْسانِ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ فِي انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

اخْتير هنا وصْفُ الإحْسانِ في قول اللّه تَعالى: ﴿هُدَىٰ وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفي سورة البَقَرَةِ اخْتيرَ وصفُ التَّقْوى فقالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾؛ لأنَّ في سورةِ البَقَرَةِ لَم يُذْكر مع الهُدى شَيْءٌ آخر، فَصار المعنى: يَهْتَدي به مَن يتَّقي الشِّرْكَ ونحوَه، وأمّا هاهُنا فقَد زيدَتِ الرَّحْمَةُ، فَعُلِّق الوصْفُ بالمُحْسِنين؛ لأنَّ رَحْمَةَ اللّهِ قريبٌ مِنْهُم، كَما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56][(1)]، ويَرِدُ هنا سؤالٌ مُفادُهُ: إنْ كان المحسنون قد وصلوا إلى درجةِ الإحسان؛ فما الفائدةُ المرجوّةُ من هدايتهم والرَّحمةِ بهم؟ والجوابُ عن ذلك مبنيٌّ على ما يحتملُه لفظُ (المحسنين) منَ الحقيقة والمجاز؛ فإنْ كان المُرادُ به الحقيقةَ وهم المتّصفونَ بالإحسانِ فعلًا فيَهديهم ويَرحمُهم، بمعنى: يزيدُهم هدًى على هدايتهم، ورحمةً على الرَّحمة فيهم، وإنْ كان المرادُ به المريدينَ للإحسانِ الباحثينَ عنه، فيكونُ المعنى: أنّه هدايةٌ ورحمةٌ للصّائرينَ إلى الإحسان، وعلى كِلا التّخريجينِ فهنالِكَ مجازٌ؛ إمّا في تفسيرِ الهدايةِ والرّحمة، أو في تفسيرِ الإحسان.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 115.

نُكْتَةُ فَصْلِ الجملة:

بَيانُ أوصافِ أهْلِ الإحْسانِ

الاسْمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قولِ اللهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذا جُعِلَ في مَوْضِعِ رَفْعٍ، فيكونُ خبرًا لِمُبْتَدأٍ مَحْذوفٍ، والتَّقديرُ: هُمُ الذين يُقيمونَ، وتَكونُ هذهِ الجُمْلَةُ مفصولَةً عَمّا قَبْلَها؛ لوُقوعِها بيانًا لَها، فيكونُ بينَ الجُمْلَتَيْنِ كمالُ الاتِّصالِ، ويجوزُ أن يكونَ فَصْلُها مِن بابِ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، فيكون بينَ الجُمْلَتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصال، وذلكَ لأنَّه لَمّا ذُكِرَ المُحْسِنونَ؛ أورَثَ ذلكَ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا وهُو: ما أوصافُ هَؤلاءِ المُحْسِنينَ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهُما وجْهانِ مُتَكامِلانِ متآيِلانِ، أمّا لو أُعرِبَ نعتًا في موضعِ خفضٍ من ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، فإنَّ الصّفةَ دالّةٌ على الموصوفِ وزيادة، وهي نفسُه في المعنى، فلا يجوزُ العطف، وإلّا أفادَ المغايرةَ في الذّاتِ الواحدة.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه:

بَيانُ عِلَّةِ اسْتِحْقاقِ وَصْفِ الإحْسانِ

عُبِّرَ بالمَوْصولِ وصِلَتِه في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لِبَيانِ عِلَّةِ اسْتِحْقاقِهم وصْفَ الإحسانِ، وأنَّ ذلكَ بإقامَتِهم الصَّلاةَ وإيتائِهِمُ الزَّكاةَ وإيقانِهِم بالآخِرَةِ، وإنَّما عبّر بـ(أل) الموصولةِ في ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ وبـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الموصولة في ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنَّ النّظمَ الكريمَ أرادَ اختزالَ أوصافِ المُقيمي الصَّلاة والمُؤتي الزّكاةِ والمُوقني بالآخرة بوصفٍ واحدٍ شاملٍ هو الإحسان، فغايرَ النّظمُ بينَ الأسلوبينِ فاختار شكل الاسم في ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، واختار تركيب الاسم مع الفعل في ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ لاختلافِ المَقصدين؛ إذْ لا يكونُ مُحسنًا إلّا مَنِ اتَّصفَ بتلك الصِّفاتِ المفصَّلة على سبيل الإنجاز الفعليّ، وعندئذٍ يُتَوّجُ بلقب (المحسن)، فيكون مُستحقًا لنيل الهُدى والرَّحمة.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾:

الاسْمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ

رِفعةُ شأنِ المُصلّينَ ومَن ذُكِرَ مَعهُم والتّنويهُ بِعَظيمِ مَنزِلَتِهِمْ

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجهٍ[1]؛ **أحدُها**: أن يكونَ في مَوْضِعِ جرٍّ، نعتًا لـ (المُحْسنين) مِن قولهِ تَعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾، والنّعتُ بصلتِه بيانٌ للمنعوت وإيضاحٌ له، وتعليلٌ لسرِّ الاتّصافِ بالإحسان، **ثانيها**: أن يكونَ في موضِعِ رفعٍ، فيكونُ خبرًا لِمُبْتَدأٍ مَحْذوفٍ، والتَّقديرُ: هُمُ الَّذين يُقيمونَ، والجُمْلَةُ حينَئِذٍ واردةٌ على سبيلِ البَيانِ لِما قَبْلَها؛ زيادةً في الإيضاحِ، وإظهارًا لِسَبَبِ اسْتِحْقاقِهِم وصفَ الإحْسانِ، **ثالثُها**: أن يكونَ في مَوْضِعِ نَصْبٍ، ويكونَ مفعولًا لِفِعْلٍ محذوفٍ لِقَصْدِ الثَّناءِ والمَدْحِ، والتَّقدير: أمدحُ الذين يقيمونَ الصَّلاةَ وأُثْني عليهم، وفي هذا رِفْعةٌ لشأنِ المُصَلّين ومَن ذُكر مَعَهُم وتنويهٌ بِعَظيمِ مَنْزِلَتِهِم.

كَمالُ مُحافَظَةِ أهْلِ الإحْسانِ عَلى الصَّلاةِ صِفَةً ووَقْتًا

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالصّلة الفعليّة مادّةً وصيغةً:

في التَّعبيرِ بفِعْلِ الإقامَةِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دلالةٌ راجعةٌ للمادّة، ذلكَ أنَّ الفِعْلَ ﴿يُقِيمُونَ﴾ مِنَ الإقامَةِ بِمَعْنى الدَّوام، فيكون مَعْنى يُقيمونَ الصَّلاةَ: يُداوِمونَ عَلَيْها، ويأتونَ بها مُحافِظينَ على أركانِها وشُروطِها ومكمِّلاتِها، ودلالةٌ راجعةٌ إلى الصّيغة، إذ في اخْتيارِ صيغَةِ الفِعْلِ المُضارعِ ﴿يُقِيمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهُم يُقيمونَها على وجهِ التَّجدّد في الأوقاتِ المُلائِمَة لَها، وأنَّهُم مُسْتَمِرّون على هذهِ الإقامَةِ[2]، وفي إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ الجمعِ دلالةٌ على الإقامةِ الجماعيّةِ للصَّلاة؛ سواءٌ اجتمعوا لها في مكانٍ واحد، وفي ذلك تحقيقٌ لغرضِها المهمِّ باجتماعِ المصلّين وارتباطِهم الشّكليِّ والمضمونيِّ، أو بتواطُؤِهم على فعلِها مُنفردينَ في خلَواتِهم وأوقاتِ مُناجاتِهم.

فائِدَةُ العُدولِ عَنِ أداءِ الصَّلاةِ إلى إقامَتِها:

عُبِّرَ في صِفَةِ المُحْسِنينَ بإقامَةِ الصَّلاةِ دونَ أدائِها، فقالَ

(1) النّحاس، إعراب القرآن: 3/ 192، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 50.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 144.

إقامَةُ الصَّلاةِ كَمالٌ في أدائِها وحِفاظٌ عَلى وقْتِها ودَوامٌ عَلَيْها

سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل (يُصَلُّون) أو (يُؤَدّونَ الصَّلاة)؛ لِما في لفظِ الإقامةِ من زيادةٍ في المَعْنى لا يُفيدُهُ لَفظُ الأداءِ، وبيانُ ذلكَ: أنَّ الفعلَ ﴿يُقِيمُونَ﴾ مصدرُهُ: الإقامةُ؛ ومعناه الدَّوامُ[1]، يقال: أقامَ الصَّلاةَ إذا داومَ عَلَيْها، ويجوز أنْ يكُونَ اشتقاقُها مِنَ التَّقويمِ وهو التَّعديلُ، مِن قَوْلِكَ: قوَّمتُ العُودَ؛ إذا عدَّلتَه، ويكون معنى أقامَ الصّلاةَ - على هذا المَعْنى -: الإتيانَ بها عَلى وجْهِ المُحافَظة علَى أرْكانِها وشُروطِها ومُكَمِّلاتها[2]، وهو رأيٌ غريبٌ؛ لأنَّ (الإقامة ويُقيمونَ) من الفعلِ (أقامَ) دونَ (قَوَّمَ)، وإلّا كان التّعبيرُ بـ(يُقوّمونَ الصَّلاة)، ويحتملُ أنَّ معنى: أقامَ الصلاةَ؛ أظهَرَها، مِنْ قَوْلِهِم: أُقيمَتِ السُّوق[3].

وفي العدولِ عن (يُصلّون) إلى ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ[4]؛ إذ شُبِّهَ الدّوام على الصَّلاة والحفاظُ على أدائها والمواظبةُ على إنجازِها بشيءٍ محافَظ على إثباته قائمًا؛ للدّلالة على الاستمراريَّة على هذا العمل، وكأنَّه قائمٌ في مكانه ثابتٌ لا يتحرّك ولا يتزعزعُ.

ولا مانِعَ مِنَ الجَمعِ بينَ تلك المعاني جميعًا؛ فيكون معنى أقامَ الصّلاةَ: داوَمَ عَلَيْها، وأظْهَرَها، وأتى بها مُحافِظًا على أركانها وشروطها ومكمِّلاتِها، وهذه المعاني مجتمعةً لا توجَدُ في لَفْظِ الأداءِ.

مَعْنى اللّامِ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

إقامَةُ الصَّلاةِ في الخِطابِ القرآنيّ حقيقةٌ شرعيّةٌ في الصَّلوات الخمس

اللّامُ الدّاخلةُ على الصَّلاةِ في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يحتمل أنْ تُخَرَّجَ على أحد وجْهَيْن؛ أحدهما: أنْ تكونَ عهديَّةً، والمرادُ بها: خصوصُ الصَّلَوات الخَمسِ، ويُؤَيِّدُه: أنَّ هذا التَّرْكيبَ (إقامة

(1) أبو عبيد الهرويّ، الغريبين: (قوم).
(2) النّبراويّ، حاشية على الأربعين النّوويّة، ص: 37.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 231.

الصَّلاة) مستعمَلٌ في خطابِ الشَّرْعِ لهذا المعنَى، كما ورد في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإسْلامُ على خَمْسٍ: شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلّا اللّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضانَ»[1]، والمرادُ بإقامِ الصَّلاة الذي هو ركنٌ مِن أركان الإسلام: الصَّلوات الخمسُ قطعًا، فكذلكَ يَنْبَغي أن يكونَ ذلك هو المرادَ في آيةِ لُقْمانَ، والوَجْهُ الآخر: أنْ تكونَ جنسيّةً تفيدُ الاستغراقَ والشّمولَ والكمال، والمرادُ: كُلُّ صلاةٍ يُصلّيها المُحْسِنونَ؛ فإنَّهم يُقيمونَها بمعنى يأتونَ بها على وجهِ الكمال والدّوام والمُحافظَةِ على أركانها وشُروطِها ومُكَمِّلاتها، وهذا القَدْرُ مِنَ الإقامةِ يَتحقَّقُ في الصَّلواتِ كلِّها فَرْضِها ونَفْلِها؛ لأنَّ الجنسَ إنَّما يتحقّقُ في ضمنِ أفرادِه كلِّها؛ والآيةُ الكريمةُ سيقَتْ مساقَ مدحِ المُحْسِنين، وهُمْ لا يَقْتَصِرُون على فعل الواجباتِ، بل يَتَعَدَّوْنَها إلى فعل المستحبّاتِ، وتُقوّيه الاستعارةُ التّبعيّةُ المارَّة، وهذا الوجه الثّاني أشْمَلُ وأوعبُ؛ لكَوْنِ الأوَّلِ مُنْدَرِجًا فيه، إلّا أنَّ موافقةَ المَشْهورِ مِنْ خِطاب الشَّرْعِ مِن استعمال التَّركيب المذكورِ في خصُوص الصَّلوات الخمسِ أولَى.

فائِدَةُ عَطْفِ الزكاة على الصلاة:

الصَّلاةُ طُهْرَةُ البَدَنِ والزَّكاةُ طُهْرَةُ المالِ

في عطفِ إيتاءِ الزَّكاةِ على إقامِ الصَّلاةِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: مُراعاةُ النَّظير، واتحادُ الجامعِ الخياليِّ بينهما؛ إذْ كلاهُما طُهْرَةٌ وإحسانٌ وعملٌ صالحٌ مرغوبٌ فيه، فالأُولى طُهْرةُ البَدنِ وشُكرٌ لنعمتِه، والثّانيةُ طُهْرَةُ المالِ وشُكْرٌ لنعمتِه، ولأنَّ أعظمَ الحقوق البدنيَّةِ الصَّلاةُ، وأعظمَ الحقوق الماليَّةِ: الزَّكاة[2]، وهما جملتانِ مُتّفقتانِ خبرًا لفظًا ومعنًى، والأصلُ فيهما الوصلُ.

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (8)، ومسلم في صحيحه، برقم: (16).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 82.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ مادّةً وصيغةً:

سَخاءُ نُفوسِ المُحْسِنينَ

جاء التَّعبيرُ عَن إيتاءِ الزَّكاة بالفِعْلِ المُضارعِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لِلدِّلالة على التَّجدُّد الاستمراريِّ؛ إذْ إنَّ إيتاءَهُم الزَّكاةَ متجدِّد كُلَّما حالَ حولٌ على أمْوالِهِمْ، وإذا حُمِلَت الزَّكاةُ في الآيةِ عَلى مُطلَقِ الصَّدَقَة؛ لكونِ السّورةِ مَكّيَّةً، ولَم تَكُن قَد فُرِضَت زكاةُ المالِ على النَّحْوِ المعروفِ بعدُ، وإنَّما كانتِ الصَّدقةُ موكولَةً إلى هِمَمِ المُسْلِمين، مِن غيرِ ضَبْطٍ لَها بِوَقْتٍ ولا مِقْدارٍ[1]؛ فَإنَّ التَّعْبيرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾ إيماءٌ إلى اسْتِمْرارِهِم عَلى النَّفقة في جميعِ أحْوالِهِم، وذلكَ دالٌّ على سَخاءِ نُفوسِهِم، ورَجائِهِم ما عِنْدَ اللّه تَعالى مِنَ الثَّواب والجَزاء الحَسَنِ، وفي التعبيرِ عن أداء الزّكاة بالفعل ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾ دون (يزكون)؛ إشارةٌ إلى أنَّهم يُقدِّمون المالَ بكلّ اندفاعٍ ولينٍ وطيبِ نفسٍ ورغبةٍ، إذ يَدلُّ الفعل (آتى) المأخوذ من (أتى) على إعطاءِ المالِ آتيًا وجائيًا إلى الفقير باحثًا عنه، فيُقدِّمونها له بكلّ إقدامٍ على الفعل، بخلاف (يُزكّون) فإنَّه لا يُوحي بالإقدام على المنح والإعطاء، وفي إسنادِ الفعل إلى ضميرِ الجمع العائدِ إلى (المحسنين) تحقيقٌ للرَّبط وبيانٌ لاتّفاقِ كلمتهم في الإحسانِ إلى الفقير والرَّحمة به.

مَعْنى اللّامِ في ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

الزَّكاةُ في صَدْرِ الإسْلامِ يُرادُ بها مُواساةُ ذَوي الخَلَّةِ

اللّامُ في ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ للعَهْدِ العِلْميِّ، والمُرادُ بِها الزَّكاة المَفْروضَة[2]، ولا يَلْزَمُ من ذَلكَ إرادَةُ الزَّكاة بمعناها الذي استقَرَّ في أركانِ الإسْلام الخَمْسَة، وإنَّما المرادُ الزَّكاةُ التي كانت قد فُرِضَت في بَدْءِ الإسْلام مَع فرْضِ الصَّلاة أو بعدَها بيَسيرٍ، وقد كان فرضُها ضَروريًّا لصَلاحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 141.

(2) ابن أبي زمَنين، تفسير القرآن: 3/ 372.

حالِ الفُقراءِ مِنْ أهْلِ الإسْلام، وكانوا كَثيرينَ في صَدْرِ الدَّعوة؛ وذلكَ لأنَّ الذي أسْلَموا قد نَبَذَهُم أهْلوهُم ومَواليهِم، وجَحَدوهُم حُقوقَهم، وسَلَبوهُم أمْوالَهُم، فَكانَ مِنَ الضَّروريِّ سَدُّ أهلِ الجِدَة والقُوَّةِ مِنَ المُسْلمينَ خَلَّتَهم[1]، ولا يَبعدُ أنْ يُراد بـ (أل) الجنسُ الدّالُّ على الكمالِ والعموم، فالمُحسِنونَ من شأنِهم إخراجُ كرائم أموالهم على سبيل الكمال والعموم، الصّادقِ بالزّكاةِ المفروضة وغيرها من سائر الصَّدقات التّطوّعيَّة.

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾:

دَوامُ إيمانِهِمْ بِالآخِرَة

الواوُ في ﴿وَهُم﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للحالِ، والجُملة بعدها حاليَّةٌ، والتَّقدير: يُقيمونَ الصَّلاة ويؤتون الزَّكاة، والحالُ أنَّهم مُؤْمِنون بالآخرة، وهذه الحالُ لازِمةٌ؛ لأنَّ إيمانَهُم بالآخِرَةِ لا يَنْفَكُّ عَنْهُم ولا يُفارِقُهُم طَرْفَة عَيْن، وفي تقييدِ كلٍّ من إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزكاة بالحالِ إشارةٌ إلى أنَّ الفعلَ العباديَّ العمليّ إنْ لم يكنْ مقترنًا بإيمانٍ جازمٍ بلقاء اللّه تعالى لا ينفعُ؛ لتوقُّفِ قبولِ العباداتِ وسائرِ الطّاعات على الإيمانِ والتّصديقِ واليقينِ القلبيِّ بالغيب.

فائِدَةُ الجملة الاسْميَّةِ الحاليَّة:

رِفْعَةُ مَنْزِلَةِ الإيمانِ بِالآخِرَة

في التَّعبيرِ عن إيقانِهم بالآخرة بالجُملة الاسْميَّةِ الحاليَّة ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنَّ الجُمْلَةَ الاسْميَّة آكدُ معَ الدّلالة على الثّبوت والدَّوام؛ ووقعَ ذلك اهْتِمامًا بأمْرِ الآخِرَةِ؛ لِما للإيمانِ بِها مِن مَنْزِلَةٍ رفيعَةٍ وشأنٍ خَطيرٍ، كما أنَّ التّعبيرَ بالحاليَّة بإهابِ الجملة الفعليَّة يُوهِمُ إرادةَ العطفِ على الصِّلتينِ المتقدِّمَتين، وهما: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والعطفُ ليس مرادًا هنا، بل المرادُ تقييدُ هَذَين الفعلينِ باليقينِ بوعدِ اللّه تعالى ولقائِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/ 121.

مَعْنى اللّامِ في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

اللّام في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ للعَهْدِ العلميّ، والمرادُ بها الدّارُ الآخرةُ التي فيها البَعْثُ والحِسابُ والجَزاءُ عَلى الأعْمالِ، ويحتملُ إرادةُ الكناية والرَّمز بها عن (الغيب) بذِكْرِ جُزئيٍّ من جزئيّاته؛ إذ هي أصلٌ لكلِّ مُغيَّبٍ ممّا يأتي فيها أو بعدها، وهي محطُّ إنكارِ المشركين.

بَيانُ المُرادِ بِالآخِرَةِ وأنَّها دارُ الجَزاءِ والحِسابِ

بَلاغَةُ الحَصْرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾:

تحقَّقَ الحصرُ في قولِه تَعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ بوجوه؛

أحدُها: تقديمُ الجارِّ والمجرور؛ اهتمامًا بشأنِ الآخِرَةِ، ومبالغةً في الثَّناءِ على هؤلاءِ؛ إذْ أيقَنُوا بأهمِّ ما يجب على المؤمنِ الإيقانُ به، مع ما في هذا التَّقديم مِن مراعاةِ الفاصلةِ بما لا يتحقَّقُ في حالِ تأخيرِه[1]، **وثانيها**: في بناءِ الفعلِ على الضَّميرِ إيماءٌ لِدلالةِ التَّركيب عَلى القَصْرِ؛ وتعريضٌ بمَن عَدا المَذْكورينَ؛ فإنَّ معتقداتِهم في الآخرة وأحوالِها عاريةٌ عَنِ الصِّحَّةِ، فَضْلًا عن أنْ تَصِلَ إلى رُتبة اليَقينِ[2]، **وثالثُها**: في تكرارِ الضّميرِ ﴿هُمۡ﴾ دلالةٌ على انحصارِ الإيمانِ بالآخرة بهم دونَ مَن سواهم، وكأنَّ مَن عداهم لا يصلونَ إلى درجةِ اليقينِ الجازم.

الاهْتِمامُ بِأمْرِ الآخِرَةِ والمُبالَغَةُ في الثَّناءِ على المُؤْمِنينَ بِها

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِ ﴿يُوقِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

في التَّعْبيرِ باليَقينِ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ مدحٌ جليلٌ لِلمُحْسِنينَ؛ إذْ إنَّهم لا يعلَمونَ بحقيقَةِ اليوم الآخِرِ فحسْبُ، وإنَّما سكنَت أنفسُهم بما عَلِموهُ[3] عَلى وجهِ الاعتقادِ الرّاسِخ، وذلك الذي حَمَلَهُم على الإحسانِ وما تفرَّعَ عليه مِن أعمالٍ جليلَةٍ، وفي إيرادِ اليَقينِ فِعْلًا مُضارِعًا ﴿يُوقِنُونَ﴾ تنبيهٌ عَلى

سُكونُ نُفوسِ المُؤْمِنينَ بِأُمورِ الغَيْبِ ويَقينُهُمْ بِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 240.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 33، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/ 84، 85.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 81.

اسْتِمْرارِ هذا اليقينِ وتجدُّدِه في نفوسهم، بقي أنَّ الفعلَ قد تعدَّى بـ(الباء) الدّالَّة على الإلصاق والتّعدية، فيتولّدُ معنى ارتباطِهم بالآخرة ارتباطًا مُحكمًا لاصَقَ نفوسَهم، فلم يُقدِموا على أيِّ عملٍ لم يُلاحظوا فيه شأنَ الآخرةِ والحسابِ والجزاء، وإنَّما عبّر هنا بتكرار الضَّمير ﴿هُمْ﴾، وفي سورةِ البقرة بلا تكرارٍ له؛ لأنَّ سياق البقرة كان يتكلّمُ عن طائفةِ المؤمنينَ منَ اليهود المعطوفةِ على طائفةِ المسلمينَ من العربِ الدّاخلين في صنف (المتقّين) فحسب، وهنا يتكلّمُ عن (المحسنين) المتجاوزينَ مرحلةَ التّقوى منَ الطّائفتين، فمايَزَ النّظمُ بينَ الفريقينِ والخطابَين، ويمكنُ القولُ: إنَّ الكتابَ هُدًى للمُحسنين لأنَّهم يُصَلّون، ورحمةٌ بهم لأنّهم يُؤتونَ الزّكاة شفقةً، فكان الجزاءُ من جنسِ العمَل، وفي كلتا الحالتينِ ارتبطَتْ قلوبُهم بالآخرة خوفًا ورجاءً، وبذا أدركنا سِرَّ الاقتصارِ على الهداية والرَّحمة بالمُحسنين.

نُكْتَةُ فَصْلِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ عَمّا قبلَهُ:

نتيجةُ الإحسانِ الهُدى والفلاح

فُصِل قولُ اللّه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ عَمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا بيانيًّا، فيكونُ بينَ الجُمْلَتَيْنِ شبهُ كمالِ الاتّصال؛ وذلكَ لأنَّ ما تقدَّم مِن صفاتِ المُحْسِنين الواردة عَلى سبيلِ المَدْحِ والثَّناء عليهم تَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا حاصِلُهُ: ما فائدَةُ تلكَ الأوصافِ وما نَتيجَتُها؟ فجاءَ الجوابُ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ البَعيدِ:

عُـلُـوُّ مَـكـانَـةِ المُحْسِنينَ وبُعْدُ مَـرْتَـبَـتِـهِـمْ في الفَضْلِ

اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قول اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ هو إشارةٌ إلى مَنْ ذُكِرَت خصالُهُمُ الحسنَةُ، وفي التَّعبير بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دِلالَةٌ على تميُّزهم أكملَ تميُّزٍ، وتنزيلِهم بِسَبَبِ ذلك التَّميُّزِ منزلةَ الأمورِ المشاهدَةِ التي مِنْ شأنِها الإشارةُ إلَيْها، وفي

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ معنَى البُعْدِ المُشْعِرِ بِعلُوِّ مكانَتِهم وبُعْدِ مَرْتَبَتِهم في الفضلِ، أي: أولئكَ العالو الرُّتبةِ الحائزونَ منازِلَ القُرْبَة[1].

فائدةُ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ:

مُـتَّبِـعُ الـهُـدى مَـرْفـوعُ المَـنْـزِلَـةِ عالي الرُّتْبَةِ

حرفُ الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ دالَّةٌ - كما هو الأصلُ فيها - على الاسْتِعْلاءِ، وفائدتُهُ هاهنا: الدّلالَةُ على أنَّ الاستعلاءَ حاصِلٌ لهُمْ؛ لكونِ منزلَتِهم علَتْ وارتفعَتْ باتِّباعِهِمُ الهدَى[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾:

تَـمَـكُّـنُـهُـمْ مِـنَ الـهُـدى غـايَـةَ التَّمَكُّنِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ مجازٌ بالاستعارَةِ؛ وذلك لأنَّه قد شُبِّهَتْ حالُهم في تمسُّكهم بالهُدى واستقرارِهم عليه وتمكُّنِهم منْهُ بحالِ مَنِ اعْتَلى شيئًا[3]؛ بجامع مُطْلَقِ التَّصرُّفِ؛ فإنَّهُ لَمّا كانَتْ أفعالُهم كلُّها على مُقْتَضَى الهُدى؛ كان تَصَرُّفهم بالهُدى كتَصَرُّفِ الرّاكِبِ بما يَرْكَبُ[4].

نُكْتَةُ التَّنْكيرِ في ﴿هُدًى﴾:

بَـيـانُ عَـظَـمَـةِ الهُدى وجَلالَتِهِ

نُكِّر لفظُ ﴿هُدًى﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ للدّلالةِ على تعظيمِهِ[5]، أي: على هدًى عظيمٍ مُتَمَكِّنون منهُ تَمَكُّنَ المُسْتَعْلي عَلى الشَّيءِ، ووجهُ إفادتِهِ التّعظيمَ: ما في التَّنكيرِ مِنَ الإبْهامِ الَّذي يُفيده نحوُ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة: 1 - 2]؛ وذلك لِأنَّهُ في مَعْنى: هُدًى أيِّ هُدًى؛ أيْ: هُدًى عَظيم، ولعِظَمِهِ وجلالَتِهِ لا يُعْرف كُنْهُهُ ومِقدارُه[6]، كما أنَّ (الهدى) مصدرٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 145، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/ 33.
(2) العُكبَريّ، إملاء ما منّ به الرحمن: 1/ 14.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 44، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 145.
(4) العُكبَريّ، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 1/ 14.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 145.
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 1/ 248، والطّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/ 17.

دالٌّ على الجنس والحقيقة، فيكونُ استعلاؤُهم على الهدى مُفيدًا لاستحواذِهم الهدى كلَّه بكافةِ صُورِه وأشكالِه؛ إذ حقيقةُ الهدى صارتْ لهم دونَ مَن سِواهم.

مَعْنى ﴿مِّن﴾ ودِلالَتُها:

الهدى الصّادرُ منَ الله خيرٌ كلُّه

حرفُ الجَرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ لابتداءِ الغايةِ، أي: إنَّ هذا الهُدى العظيمَ صادرٌ من رَبِّهم، وهُو الذي أنْعَمَ بِه عليْهِم، وفي تحديدِ مَبدأ الهُدى دلالةٌ على أنَّ هذا الهدى حقٌّ كلُّه وخيرٌ كلُّه، بخلاف الهدى الحاصلِ من غيره؛ فإنّه قاصرٌ وناقصٌ، لا يُحقّقُ كمالَ الاهتداء.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِهِمْ:

حُصولُ الهُدى بِتَوْفيقٍ مِنَ اللهِ تَعالى وإحْسانِهِ

في اخْتيار اسْمِ اللّهِ (الرَّبّ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾، بيانُ أنَّ هذا الهُدى صادرٌ مِنَ اللّه سُبْحانَهُ وحاصِلٌ بتَوْفيقِه، وفيهِ تَذْكيرٌ لَهُم بأنَّه لولا إحسانُهُ ما وصَلوا إلى شَيْءٍ مِمّا هُم عليهِ مِنَ الخَيْرِ؛ وذلكَ ليَلْزَموا التَّواضُعَ والالتجاءَ إلى اللّه تعالى خوفًا مِنَ العُجْبِ وحَذرًا منهُ[1]، كما أنَّ التّعبيرَ بـ(الرّبّ) المأخوذ من (التّربية) الدّالَّة على تبليغِ الشّيءِ مِنَ النُّقصان إلى الكمال، يتناسبُ مع إيصالِهم إلى الهداية وتمكُّنِهم منها، فيكونُ بمثابةِ التّعليل لنيلِهم الهدايةَ والاستقرارَ عليها؛ لأنَّها منحةٌ صدرَتْ من ربٍّ قد بلَّغَهم تلك المنزلةَ برعايتِه وتربيتِه لهم، والإضافَةُ في ﴿رَّبِّهِمۡۖ﴾ إضافةٌ يُقصدُ بها تعظيمُ شَأنِ المُضافِ إليْهِ، وهُمُ المُحسنون[2].

عِلَّةُ الوَصْلِ في الآيةِ:

نتيجةُ نيلِ الهُدى بلوغُ الفَوْزِ والفَلاحِ

وُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بقولِه سُبْحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾؛ لأنَّ بينَهُما توَسُّطًا بينَ الكَمالَيْنِ، وذلكَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 245.

لاشْتِراكِ الجُمْلَتَيْنِ في الخبريَّةِ، واتِّحادُهما في الاسميَّةِ، والتَّطابق بَيْنَهُما في المُسْنَدِ إلَيْه، وكِلاهُما واردٌ في ذِكْرِ مآلِ المُحْسِنين ونتيجةِ إحْسانِهم، ولا يخفى ترتُّبُ الفلاحِ على نيلِ الهُدى، فيكونُ في العطفِ معنى التّرقّي والتّرتُّب؛ إذ مَن كان مُتمكِّنًا منَ الهُدى فأولئك هُمُ المُفلحونَ والفائزونَ.

غَرَضُ إعادَةِ اسْمِ الإشارَةِ:

تَمَيُّزُ المُحْسِنينَ وسَبْقُهُمْ ثابِتٌ لَهُمْ بِالهُدى وثابِتٌ لَهُمْ بِالفَلاحِ

كُرِّر اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مِنْ قول اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لِلتَّنبيه على أنَّ كُلَّ حُكم كالمُستقلِّ عنِ الآخرِ؛ تكثيرًا لفضل اللهِ تعالى الذي حصَّلوهُ، وزيادةً في الثَّناءِ عليهِمْ وتكريمِهم[1]، ولِلإيماءِ إلى أنَّ التَّقدُّمَ والسَّبْقَ والتَّميُّزَ كما ثبَت لَهُمْ بالهُدى؛ فهو ثابتٌ لَهُمْ بالفلاحِ كَذلك، فجُعِلَت كلُّ خَصلةٍ في تَمْييزِهِم بالمَنْزِلَةِ التي لَو انفرَدَت؛ كانت كافيةً[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

اسْتِمْرارُهُمْ عَلى الهُدى ونَيْلُهُمُ الفَلاحَ الدُّنْيَوِيَّ والأُخْرَوِيَّ

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فيهِ جُمْلَتان اسميَّتانِ، وفي ذلك دِلالةٌ على ثُبوت الهُدى والفلاحِ لَهُمْ، وأنَّهم مستمرُّونَ على طريقِ الهُدَى، نائلُونَ الفلاحَ الدُّنْيَويَّ والأُخْرويَّ.

بَلاغَةُ القَصْرِ وتوكيدُه:

انْفِرادُ المُحْسِنينَ بِالفَلاحِ

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ جملة اسميَّةٌ، طَرَفاها: (أُولَئِكَ) - وهو مبتدأٌ، و ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ - وهو خبرُهُ -، وقد وقَعا مَعْرِفَتَيْنِ، وتعريفُ جُزأي الجملةِ مفيدٌ القَصْرَ[3]، فالمُحْسِنونَ مُنْفَرِدونَ بالفلاحِ لا يَشْرُكُهُمْ فيه غَيْرُهُمْ، كما أنَّ الإتيانَ بضمير الفصلِ ﴿هُمُ﴾ هنا ليسَ لإفادة القَصْرِ؛ لأنَّ محلَّ إفادَتِه القصْرَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 409.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 45، والخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 1/ 249.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 145.

فيما إذا لَمْ يَكُنْ في الجملةِ قَصْرٌ، وهو هُنا ثابتٌ بِتَعْرِيفِ الجُزْأيْن، وإنَّما ضميرُ الفصلِ واردٌ هاهنا لِتَقْوِيةِ القَصْرِ وتوكيدِه[1]، وفي اجتماعِ القَصْرِ مع التّوكيدِ دلالةٌ على انحصارِ كمالِ الفلاح فيهم، واختصاصِ مُطلقِ الفوز بهم، وفلاحُ غيرهم دونَهم وأنقصُ منهم.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

قَصْرُ المُحْسِنينَ عَلى الفَلاحِ وقَصْرُ الفَلاحِ عليهِمْ

(أل) في ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يحتملُ أن تكونَ لبيانِ الحقيقةِ والجِنس، أي: الكاملون في الفلاح، والمعنى: أنَّهم الذين إنْ حصلَت فيهم صفةُ الفلاحِ؛ فَهُمْ هُمْ، لا يَعْدُونَ تلكَ الحقيقةَ[2]، ويحتملُ أنْ تكونَ اللّامُ لِلعهدِ الخارجيِّ؛ وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المُحْسِنين هُمُ النّاس الذين بلغَكَ عَنْهُمْ فلاحُهُمْ[3].

وعلى الأوَّلِ؛ هُوَ مِنْ قصرِ المُسند إلَيْهِ على المُسْنَد؛ فَهُمْ لا يتجاوَزُون الفلاحَ إلى صفةٍ أُخْرَى[4]، وهو قصرٌ مجازيٌّ كما لا يخفَى؛ إذْ هو مِن قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفةِ، وليس في هذا النَّوْعِ مِنَ القصرِ حقيقيٌّ.

وعلى الثّاني؛ هو مِنْ قصرِ المُسْنَد على المسند إلَيْهِ؛ فالفَلاح لا يتعدّاهم إلى غيرِهِمْ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوفِ، وعلى كلٍّ مِنَ الاحتمالينِ فإنَّ القصرَ لكمالِ الفلاحِ عليهم، وذلك لا يتنافى مع كونِ الفلاحِ النّاقصِ ينتابُ غيرَهم ممَّن لم يَبلغوا درجةَ الإحسانِ والكمالِ في الالتزام، ويمكنُ القولُ بأنَّ (أل) موصولٌ اسميٌّ بمعنى (الذين)، أي: أولئك الَّذين اتَّصفوا بالفلاحِ على سبيلِ الكمالِ.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 114، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/ 114.
(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 1/ 149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/ 68، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/ 305.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 46، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 114.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 114، 115.

دِقّــةُ الـبَـيـانِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ في الآية:

قال اللّهُ تَعالى في سورة لقمان: ﴿هُدَى وَرَحْمَةَ لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدَى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقال ﷻ في سورة البقرة: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدَى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 2 - 5]، ووجهُ اخْتِصاص كلِّ آيةٍ بما فيها مِنَ البَدْءِ ومِنَ المَنْعوتِ والنُّعوت: أنَّ آية البقرةِ تقدَّمها قولُ اللّه تعالى في خِتام سورةِ الفاتِحَةِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6 - 7]، فلمّا كانَ السّياق متعلِّقًا بالهِدايَةِ؛ ناسبَهُ ذِكْرُها فقط، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، ولمّا كانَ مَن أنْعَم اللّهُ تَعالى علَيْهِم هُمُ الذين اتَّقَوْا غضبَهُ عليهم، فَلَمْ يَضِلُّوا عَنِ الصِّراط المُسْتَقيم؛ ناسبَهُ تَخْصيصُهم بالهِداية في قولِهِ: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2].

ولمّا كان مطلع سورَةِ البَقَرَةِ تَفْصيلًا لِما أَجْمَلَتْهُ خاتِمَةُ سورَةِ الفاتِحَةِ، وذَلِكَ بِبَيانِ أنَّ المُنعم علَيْهِم هُمُ المُتَّقون، وأنَّ الذين غضِبَ اللّهُ عليهِم هُمُ اليهودُ، وأنَّ الضّالّينَ هُمُ النَّصارى، وكان هؤلاءِ لا يُؤْمِنون بالغيب الذي جاء بِهِ القرآنُ الكريمُ، ولا يُؤْمِنون بما أُنْزِلَ إلى النَّبيِّ ﷺ، ولا بما أُنْزِل قبلَهُ وهُو الإنجيلُ، ولا بالآخرة، ويَزْعُمون أنَّ الدّار الآخرةَ لَهُم؛ ناسَبَ ذلك كُلَّه أنْ تَخْتَصَّ آياتُ البقرةِ بما ذُكر فيها مِن أوصافِ المُتَّقينَ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدَى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 3 - 5].

أمّا سورةُ لُقْمانَ؛ فَتَقَدَّمها قولُ اللّهِ سُبْحانَهُ في خِتام سورَةِ الرّوم: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: 59 - 60]، فلَمّا حَرَم اللّهُ تعالى هَؤلاءِ الهداية جزاءً وفاقًا لِكُفْرِهِم وعِنادِهِم، وهَدَّدَهُم بما يَنْتَظِرُهم من وعْدِ اللّهِ تَعالى في الدُّنيا والآخرةِ؛ ناسَبَهُ تَخْصيصُ هدايَةِ اللّهِ ورحمتهِ بِمَن عَلِموا وعدَ اللّهِ سُبْحانَهُ وآمَنوا بهِ وأيْقَنوا، فوَصَلوا إلى درجَةِ الإحْسانِ في العبادَةِ، بِقَوْلِه تَعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ولَمّا كان السّياق غيرَ مُتَعَلِّق بأمورِ الغَيْبِ التي نُصَّ عليها في سورةِ البَقَرَةِ؛ ناسبَهُ عدَمُ ذِكْرِها بقَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفَلاحِ مادَّةً وصيغَةً:

الفَلاحُ أجْمَعُ كَلِمَةٍ لِلخَيْرِ في لُغَةِ العَرَبِ

اخْتيرَ لَفْظُ الفَلاحِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لأنَّها أجمعُ كلمَةٍ لِلخَيْرِ في لِسانِ العرَبِ، فإنَّ الفلاح قريبٌ مِنَ النَّجاح في إدراك الخَيْرِ المطلوبِ، إلّا أنَّهُ زادَ عليه في الدَّيْمومةِ؛ فالفلاح: إدراكُ الخيرِ والبقاءُ فيه، بخلاف النَّجاح فقد يكون عارضًا، فالفلاح يَجْمَعُ بينَ خيرَي الدُّنيا والآخرة، "فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة، وفيه جَنْيٌ لثمار النَّجاح، وفيه إدراك كلِّ مأمولٍ، وفيه معنى السَّعَة، ومعنى التَّيسير، ومعنى البقاءِ والخَيْرِ"[2]، فالتّعبيرُ بالفلاح أجْمَعُ وأوعَبُ، وفي التَّعبير عَنِ الفَلاحِ باسْمِ الفاعِلِ الجمعيِّ المحلّى باللّام ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ دلالَةٌ عَلى اتِّصافِهِم بِهَذا الوَصْفِ عَلى جِهَةِ الكَمال، أي: هُمُ الكامِلونَ في الفَلاحِ.

---

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 50، 51.

(2) محمّد داود، معجم الفروق اللّغويّة والدّلاليّة، ص: 43.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِلْم واليقين:

اليَقينُ أعْلى دَرَجَةً مِنَ العِلْمِ

العِلْمُ: هُو اعتقادُ الشَّيء على ما هُو عليهِ في الواقِع، بخِلافِ اليَقين؛ فإنَّهُ سكونُ النَّفْسِ وثَلْجُ الصَّدر بما عَلِمَ[1]، وبناءً عليه: فاليَقينُ درجَةٌ أعْلى مِنَ العلمِ وأخصُّ منه مطلقًا، فيكونُ اخْتيارُ لفظِ اليَقينِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ أدلَّ على مَدْحِ المُحْسِنين مِن مُجَرَّد العِلْم، فَهُم عَلِموا حقيقَةَ اليوم الآخِرِ وما اشْتَمَلَ عليهِ مِنَ البَعْثِ والجَزاء والحِساب وغَيْرِ ذلكَ، وسَكَنَتْ أَنْفُسُهُم بِما عَلِموهُ عَلى وجْهِ الاعتقادِ الرّاسِخ، كما أنَّ العِلْمَ يُستعمَلُ عندَ التّصديقِ القائم على الدّليلِ العقليِّ أوِ الدّليلِ الحسيِّ، وقد يأتي للظّنِّ والتّصديق بالرّاجح، والآخرةُ وأحوالُها لا يكونُ إثباتُها إلّا بالدّليل النّقليِّ القائم على التّصديقِ بالغيب وأخبارِ الوحي؛ فيحتاجُ البيانُ عنه إلى لفظٍ يدلُّ على بلوغِ أعلى درجاتِ التّصديق، وهو اليقينُ الَّذي لا يتزحزحُ أو يتزعزعُ.

الإيتاء والإعْطاء:

الإيـتـاءُ في الاسْـتِـعْـمـالِ الـقُـرْآنيِّ يَـرِدُ لِـلـشَّيْءِ الكَثيرِ والأمْرِ العَظيمِ

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ مِن أصْحابِ المُعْجَماتِ[2]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[3]؛ **أحَدُها**: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعلِهِ، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فَعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أضْعفُ في إثْباتِ مَفْعُولِه مِمّا لا مطاوعَ له، **ثانيها**: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 81.
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (أتى).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأرَبِ منهُ، **ثالِثُها**: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ.

وأمّا في خصوصِ الاِسْتِعْمالِ القُرآنيِّ لِلَفْظَتَيْ (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا من جِهَتَيْنِ[1]؛ **إحْداهُما**: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلّا لِلشَّيْءِ الكَثير والعظيم الشَّأنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مُرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ، **الأُخْرى**: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكُون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾ [لقمان: 6 - 7]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

التَّعْجيبُ مِنْ تَرْكِ الجِدِّ إلى اللَّهْوِ

لَمّا كانَ فَطْمُ النُّفوسِ عَنِ الشَّهواتِ أعظمَ هُدًى يقودُ إلى حصولِ المُراداتِ، وكانَ اتِّباعُ الشَّهواتِ أعظمَ قاطِعٍ عَنِ الكَمالاتِ، وكانَ ما دَعا إليهِ (الكِتابُ) هُوَ الحِكْمَةَ التي نَتيجَتُها الفَوْزُ، وما دَعا إليهِ (اللَّهْوُ) هو السَّفَهَ المُضادَّ لِلحِكْمَةِ بِوَضْعِ الأشياءِ في غَيْرِ مَواضِعِها، المُثْمِرِ العَطَبَ والهلاكَ؛ قالَ اللهُ تَعالى مُعَجِّبًا مِمَّن يَتْرُكُ الجِدَّ إلى اللَّهوِ - عاطِفًا عَلى ما تَقْديرُه: فَمِنَ النّاسِ مَن يَتَحَلّى بِهَذِهِ الحالِ، فَيَرْقى إلى درجَةِ أَهْلِ الكَمالِ -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡتَرِي﴾: (شرى) مِن معانيهِ الكُلّيَّةِ: التَّعارُضُ مِنِ اثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وإعطاءً مُماثَلَةً[2]، ومِنْهُ: شَرى الشَّيءَ واشتراهُ؛ إذا أخذَه مِن مالِكِه بالثَّمَنِ، وهذا الفعلُ مِنَ الأضْدادِ؛ يُطلَقُ عَلى الشِّراءِ والبيعِ[3]، فالاشْتِراءُ: أخذُ الشَّيءِ بثمنٍ، أو إعطاؤُهُ بثمنٍ[4]، ومِنَ الثّاني قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20] أي: باعُوهُ[5]، والاشْتِراءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 145، 146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرى).
(3) الأنباريّ، الأضداد، ص: 72.
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (شري).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/ 2115.

﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ يجوزُ أن يكونَ بِمَعْنى الشِّراء المَعْروفِ بِالثَّمَن، ويجوز أن يكونَ مَعْناهُ: اختيارَ الشَّيْءِ واسْتِحْبابَه[1]، والَّذي يظهرُ أنّه مجازٌ بالاستعارة للباحثِ عنِ الشّيء، المُنهمِكِ في تحصيله، المُحتاجِ له ليقوم بالاستبدال، كالمشتري الَّذي يستبدلُ ما لدَيه بما يَحتاجُه.

2) ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: (لهو، لهى) تدلُّ كثيرٌ مِن تَصْريفاتِها على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ آخرَ، ومِنْهُ اللَّهْوُ؛ وهو: كلُّ شيءٍ شغَلَ عَن شيءٍ[2]، ويُطْلَقُ على ما يَشْغَلُ الإنْسانَ عَمّا يَعْنيه ويَهُمُّهُ[3]، لا على مُطْلَقِ الشّاغِلِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالَى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 3] أي: مُتشاغِلَةً عمّا يُدْعَوْن إلَيْه[4]، وقولُ اللّهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا﴾ [الأعراف: 51]، أي: اشْتِغالًا بِما مِنْ شَأنِهِ أنْ يُنْسِيَ كُلَّ نافعٍ[5]، والمرادُ به في قولِ اللّه سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ هُو كُلُّ ما يُلهي عَن طاعةِ اللّهِ سُبحانَهُ، ويَصُدُّ عَن مَرْضاتِه، ومِنْهُ الغِناءُ[6]، أي: يستبدلُ الإصغاءَ إلى القرآنِ الكريم وآياته باللَّهْو والباطلِ؛ بُغيةَ صدِّ النّاسِ عن سَماع الآياتِ المحكماتِ البيِّنات.

3) ﴿هُزُوًاۚ﴾: (هزأ) تدلُّ في تَصاريفِها على مَعْنى السُّخريَّة[7]، ويأتي الهُزْءُ بمعنى الاِسْتِخْفافِ[8]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللّازِم؛ فإنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهانُ بشأنِه ويُستخَفُّ به[9]، وحكى ابنُ جرير أنَّ الاستهزاءَ في كلام العربِ معناه: "إظهارُ المُسْتَهْزِئ للمُسْتَهْزَأ به مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ ما يُرضيهِ ظاهرًا، وهُو بذلك مِن قيلِهِ وفِعْله بِهِ، مورِثُهُ مَساءَةً باطِنًا"[10]، والمرادُ به في الآية: السُّخريةُ والاستخفافُ من تلك الآياتِ المُحكَماتِ والبراهينِ القاطِعات، بدلًا من التّفكُّر بها والانتفاعِ منها.

4) ﴿مُّهِينٞ﴾: (هون) تدلُّ تصريفاتُها على سكينَةٍ أو ذُلٍّ، فَمِنَ الأوَّل: الهَوْنُ؛ وهو

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/ 2115.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(3) الرّاغب، المفردات: (لهى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لهى).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 409.
(6) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 411.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ).
(8) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (هزأ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 303.

السَّكينة والوقارُ، ومن الآخَرِ قولُهُم: رجلٌ فيه مَهانة، أي: ذُلٌّ وضَعف[1]، والهوانُ على ضَرْبَيْنِ[2]؛ أحدُهُما: تذلُّلُ الإنسانِ في نفسِه لِما لا يَلْحَقُ بِهِ غضاضَةٌ، فهُو ممدوحٌ، كقولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والآخَرُ: أن يكونَ مِن جهةِ مُتَسَلِّطٍ مُسْتَخِفٍّ به، فهُو مذمومٌ، ومنهُ قولُه سُبْحانَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: 93]، والمُهينُ مِنَ العَذابِ: هُوَ العذابُ المُذِلُّ الذي يَسْحَقُ نفوسَهُم؛ جَزاءً لِتَكَبُّرِهِمْ[3].

5) ﴿وَلَّىٰ﴾: (ولي) تَدُلُّ تَصريفاتُها عَلى لُزومِ الشَّيءِ شَيْئًا آخرَ تبعًا لَهُ مَع نَحْوٍ مِنَ الاشْتِمالِ، ومِنْهُ الوَلِيُّ؛ ويُطلَقُ عَلى المُعْتِق، وعلى كلِّ ذَوي العَلاقَةِ المُتَمَكِّنة، كالجارِ والعَصَبة[4]، وتدلُّ المادَّةُ أيْضًا عَلى مَعْنى الاتِّجاه إلى شَيْءٍ أو وِجْهة، ومنهُ قَوْلُهُم: ولّى وجْهَهُ شَطْرَ كذا، أي: توجَّهَ إليها، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: 144]، والتَّوَلّي: الانصرافُ، ثم تُعيَّن الجهةُ بالحَرْفِ، فإذا عُدّيَ بـ (إلى)؛ كانَ بِمَعْنى الانْصِرافِ على وجْهِ الإقبالِ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ﴾ [التّوبة: 57]، وقولُهُ: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ [الأحقاف: 29]، وإذا عُدّي بـ (عَنْ)؛ كان بمعنى الانصرافِ عَلى وجهِ الإعْراضِ والإدْبارِ، والحالُ تُبَيِّنُ ذلك غالبًا، ومنهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾[5]، أي: أعرضَ مُنصرِفًا عن سماعِ الآياتِ، مُقترنًا بهيئةِ المُستكبرينَ عليها.

6) ﴿وَقْرًا ۖ﴾: (وقر) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى ثِقَلٍ في شَيْءٍ، ومِنْهُ الوَقْرُ؛ وهُو الثِّقَلُ في الأُذُن[6]، والوِقْرُ: الحِمْلُ الثَّقيل[7]، وأكثرُ ما يُسْتَعْمَلُ في حِمْلِ الحِمارِ والبَغْلِ[8]، والوقيرُ: القَطيعُ العَظيمُ مِنَ الضَّأن، سُمّيَ بذَلِكَ لأنَّه لكَثْرَةِ أفراده يَبْطُؤُ سيرُ الضَّأنِ ويثقل[9]،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هون).
(2) الرّاغب، المفردات: (هان).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هون).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقر).
(7) ابن سيده، المحكم: (وقر).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (وقر).
(9) الرّاغب، المفردات: (وقر).

والوَقْرُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ الصَّمَمُ[1]؛ فهو لازِمُ مَعناه الأصليِّ؛ إذ مَن وضعَ شيئًا في أُذُنَيهِ فإنّه يُبطِئُ من سَمْعِه حتّى يَعجِزَ عن سماعِ ما حولَه مع شِدَّةِ وُضوحِه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَـوَعُّدُ المُعْـرِضِ عَـنْ آيـاتِ اللهِ تَـعالى بِـعَذابِ النّارِ الموجِعِ

ومِنَ النّاس مَن يَشْتَري لَهْوَ الحديثِ - وهُو كُلُّ ما يُلهي عَن طاعةِ اللّهِ سُبحانَهُ ويَصُدُّ عَن مَرْضاتِه -؛ لِيُضِلَّ النّاسَ عن طريقِ الهُدى إلى طَريقِ الهَوى، ويتَّخِذ آياتِ اللّهِ تَعالى سُخْرِيَّة، أُولئكَ لَهُم عذابٌ يُهينُهُم ويُخْزيهِم، وإذا تُتْلى عَلى هذا الذي اشْتَرى لَهْوَ الحديثِ لِلإضْلالِ عَن سبيلِ اللّهِ آياتُ كتابِ اللّهِ سُبحانَهُ، فَقُرِئَت عليهِ؛ أَدْبَر عَنْها، واسْتَكْبَر اسْتِكْبارًا، وأَعْرَض عَن سَماعِ الحقِّ والاستجابَةِ له، كأنَّ في أُذُنَيْهِ ثِقْلًا فَلا يُطيقُ مِن أجلِه سَماعَهُ، فَبَشِّر هذا المُعْرِضَ عَن آياتِ اللّهِ بِعَذاب مُوجِعٍ؛ وذلك عذابُ النّارِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل في الآية:

بَـيـانُ أصْـنـافِ الـنّـاسِ في الـهِـدايَـةِ والضَّلالَةِ

الواوُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، عاطفةُ الجملةَ بعدَها عَلى ما قَبْلَها بحسَبِ المَعْنى، كأنَّه قيلَ: مِن النّاس هادٍ مَهْديٌّ، ومِنْهُم ضالٌّ مُضِلٌّ[3]، ويجوزُ أن يكونَ من بابِ عَطْفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ[4]، وعلى التّوجيهينِ المارّينِ فإنَّ الجامعَ بينَ الفريقينِ التّضادُّ، وهو من ألوانِ الجامعِ الخياليِّ بينَ المتعاطفات، وذَكَر بعضُ أهلِ العِلْمِ أنَّها للحالِ، وعاملُ الحالِ: ما في اسْمِ الإشارَةِ ﴿تِلۡكَ﴾ مِن مَعْنى الفِعْلِ،

(1) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (وقر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 131، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 411.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 146.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 66.

والتَّقدير: أُشيرُ إلى آياتِ الكِتابِ حالَ كونِها هدًى ورحمةً، والحالُ أنَّ مِنَ النّاسِ مَن يَشْتَري لَهْوَ الحديثِ ... إلى آخِرِه[1]، وهَذِهِ المَعاني غيرُ مُتَنافيةٍ، فَلا مانِعَ مِن إرادَةِ ذَلِكَ كُلِّه.

مَعْنى (مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

الضّالُّ مِنَ النّاسِ صِنْفانِ ضالٌّ في نَفْسِهِ وضالٌّ في نَفْسِهِ مُضِلٌّ لِغَيْرِهِ

حرفُ الجرِّ (مِن) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ دالٌّ على التَّبْعيض، أي: بعضُ النّاسِ مَنْ يَفْعَل ذلكَ[2]؛ إذِ النّاسُ فيهم المُؤْمِنُ والكافِر، والصّالِح والطّالِح، والمُهْتَدي والضّالّ، والضّالُّ مِنَ النّاسِ: فيهم الضّالُّ في نفسِه فقَطْ، والضّالُّ في نفسِهِ المُضِلُّ لغيْرِه.

دِلالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

اخْتِلافُ مَعاني الحُروفِ لَهُ أثَرٌ في ثَراءِ المَعاني القُرْآنيَّةِ

اللّامُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إمّا للعهد، ويُرادُ بهم المُصِرُّون على الكُفْرِ؛ إذِ الآية واردَةٌ أصالةً فيمَن يَفْعَلُ ذلك مِنَ الكُفّار، ثُمَّ يَكونُ لِمَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِمَّن يَنْتَسِبُ إلى الإسْلام نَصيبٌ مِنَ الآيَةِ، ويكون التّبعيضُ بالنّظر إلى الكافرينَ الضّالّين؛ لتخصيصِ المُضلّينَ منهم، ويحتَمِلُ أن تكونَ اللّامُ للجنس، ويُراد بها العُموم، فالمُرادُ بالنّاس: النّاسُ كُلُّهُمْ، ويكون التّبعيضُ ناظرًا للنّاس كلِّهم لتخصيصِ مَن ذُكِرَت أوصافُهم في الآيةِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

بَيانُ حَقارَةِ المُضِلّينَ

في التَّعبيرِ عَن هَؤُلاءِ المُضلّينَ بالنّاس في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ تحقيرٌ لَهُم، كأنَّهُ لا صفةَ لَهُم تُمَيِّزُهم سِوَى صورةِ الإنسانيَّة، فالتَّعبيرُ بالنّاس تنبيهٌ على أنَّهُ ليس لَهُم مِنَ الصِّفات إلّا الوصفُ الآدميُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 141.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 66.

الأصليُّ؛ وهُوَ أنَّهم ناسٌ مِن النّاس[1]، في حينِ لمّا أرادَ وصفَ صورةِ المُهتدينَ المُقبلينَ على سماعِ الآياتِ البيِّناتِ سمّاهم (المُحسنين).

فائِدَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

التَّشويقُ إلى تَلَقّي الخَبَرِ العَجيبِ

في تَقديمِ الجارِّ والمَجْرورِ الواقعِ خبرًا (مِنَ النّاس) مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ تشويقٌ إلى تَلَقّي خَبَرِه العَجيب[2]، وفيه أيضًا: إشعارٌ بأنَّ فاعلَ ما سيُذكَرُ بعدُ هُو مِنَ النّاسِ؛ لئَلّا يُظَنَّ أنَّهُ مِنْ جنسٍ آخرَ؛ لقُبْحِ الفِعْلِ المَذْكورِ.

مَعْنى ﴿مَن﴾ ودِلالَتُها في ﴿مَن يَشۡتَرِي﴾:

كَثْرَةُ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الحَديثِ بِقَصْدِ الإضْلالِ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى

﴿مَن﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهُو مِنَ المَوْصولاتِ المُشْتَرَكَة، الصّادِقةِ على الواحدِ والواحِدَة، والاثْنَيْنِ والاثْنَتَيْن، والجمعِ مُذَكَّرا كانَ أو مُؤَنَّثا، وهيَ في الآيةِ دالَّةٌ على الجَمْعِ؛ لأنَّ مَن يَفْعَلُ ما ذُكِرَ في الآيَةِ مِنَ العُقَلاءِ غيرُ قليلٍ، ونَلْمَحُ في التّعبيرِ ما يدلُّ على الكثرة؛ لإبهامِ المتحدَّث عنه، ثُمَّ ما كانَ كَذَلِكَ مِنَ المَوْصولاتِ؛ تارةً يُراعَى فيهِ اللَّفظ فيُفْرَدُ، وتارةً يُراعَى فيهِ المَعْنى فيُجْمَعُ، وقد جاءَ ذلكَ كلُّه في هذه الآيَةِ، فَقَدْ رُوعيَ فيهِ اللَّفْظُ أوّلًا في ﴿يَشۡتَرِي﴾ و﴿لِيُضِلَّ﴾ و ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾، ثُمَّ رُوعيَ فيهِ المَعْنى في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و ﴿لَهُمۡ﴾، ثُمَّ عادَ الأمْرُ إلى مُراعاةِ اللَّفظِ في الآيَةِ التي بَعْدُ[3].

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

الإضْلالُ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى سَبَبٌ لِلعَذابِ المُهينِ

في التَّعبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه ﴿مَن يَشۡتَرِي﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾؛ لإرادَةِ التَّعليلِ والإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 142.
(3) القِنّوجي، فتح البيان: 10/ 274.

وأنَّ ما يَحْصُل لَهُم مِنَ العَذابِ المُهين إنَّما هُو بِسَبَب اشْتِرائِهِم لَهْوَ الحديثِ وإعراضَهم عن سماعِ الآيات البيّنات كُفرًا وجُحودًا وسُخريةً بِقَصْدِ الإضْلالِ عَن سَبيلِ اللّه ﷻ، فيكونُ لَفْظُ الآيةِ شامِلًا كُلَّ مَن تحقَّق فيهِ هَذا الوَصْفُ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

اسْتِمْرارُهُمْ في شِراءِ لَهْوِ الحَديثِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعل المُضارِع ﴿يَشْتَرِى﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾؛ للدّلالةِ عَلى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وذلك دالٌّ على أنَّ صنيعَهُم في شراءِ لَهْوِ الحديثِ حاصلٌ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ على وجْهِ الدَّوام.

دلالَةُ الاشْتِراءِ بَيْنَ الاسْتِعارَةِ والكِنايَةِ:

بَيانُ شِدَّةِ انْحِرافِهِمْ وعِظَمِ ضَلالِهِمْ

الاشْتِراءُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ مجازٌ يُرادُ بِه اخْتيارُ الشَّيْءِ، وصَرْفُ عقله بِكُلّيَّته إليه[1]، وهذا المجازُ يَجوزُ تَخْريجُه عَلى وجْهَيْنِ؛ أحدهما: أن يكونَ مجازًا مُرْسَلًا بعلاقة المَلْزوميَّة؛ بحيثُ أُطْلِقَ المَلْزومُ وهُو الاشْتِراءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، وهو الحِرصُ على الشَّيءِ وصرفُ النَّفس إليهِ بالكُلّيَّة، ويكون المَعْنى: أنَّهُم حَرَصوا على لَهْوِ الحديثِ، وزَهِدُوا في مُقابِلِه وهُوَ القرآنُ الكريمُ، والآخَرُ: أن يكونَ ذلك مَجازًا بالاِسْتِعارةِ التّصريحيَّة التّبعيَّة؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ لِلإعْراض عمّا في حيازَةِ المرءِ طالبًا تَحْصيلَ غيرِه، وهذا في الأصْلِ: يَكون في المَعاني ويكونُ في الأعْيان، وفي هذه الاِسْتِعارةِ مِنَ المُبالغةِ في الدّلالَةِ على انْحِرافهم قدرٌ عظيمٌ؛ حيثُ إنَّ أخْذَهمُ لَهْوَ الحديث كان طواعيَّةً وعَن اختيارٍ مِنْهُمْ، وهذا غايةٌ في السَّفَه؛ أنْ يَبْذُلَ الإنسانُ الجليلَ ليأخذَ الحقيرَ! ثمَّ إنَّ مُعاملتَهُم ليسَتْ مُجَرَّدَ تبادُلٍ يُوشِكُ أنْ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 67.

يَرجعوا فيه؛ وإنَّما هو اشتراءٌ لا رجوعَ فيه؛ لِلُزومِه، وهذا أقْصى ما يكونُ في الانْحِرافِ وعَمى البَصيرَة، ويحتملُ أنْ يكون النّظمُ منَ الاستعارة المكنيَّة؛ بأنْ شَبَّهَ ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ بالمالِ المحترم مبالغةً في الهُزء بالآيات والإعراضِ عنها، ثمَّ حذفَه وأبقى من خواصِّه الاشتراءَ، وعلى الاستعارتينِ يكونُ الكافرُ المُعرِضُ عن سماعِ الكتابِ الحكيم وهُداه ورحمتِه، قد استبدلَ ما هو نافعٌ له بأمرٍ حقيرٍ، مَعَ الحرصِ على تحصيلِ ذلك، كالمشتري الحريصِ على تحصيلِ ما يريدُه، ويكون قد فَضَّل الحديثَ المُحرّمَ الفاحشَ على الحديثِ الطيِّبِ المُبارك، مُحاولًا نقضَ جمالِ القرآن والآياتِ البيِّنات بذلك الكلامِ الَّذي فيه اللهْوُ والعبثُ والضَّلال.

وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الاشْتِراءَ في الآيَةِ لَيْسَ اسْتِعارةً، وإنَّما هُو كنايَةٌ عَنِ العِنايَةِ بالشَّيْءِ والاغْتِباطِ بِهِ[1]، والفرقُ بينَه وبينَ التّوجيهِ الأوَّل: أنَّ الكنايةَ يجوزُ فيها إرادةُ المعنى الأصليِّ بخلافِ المجازِ المرسَل، ويَجوزُ أن يكونَ الاشْتِراءُ حَقيقةً، بِمَعْنى شِراءِ المُغَنّياتِ أو آلاتِ اللَّهْوِ والطَّربِ[2].

نُكْتَةُ إضافَةِ اللَّهْوِ إلى الحَديثِ:

بَيانُ جِنسِ اللَّهْوِ المُشْتَرَى

إضافةُ اللَّهْوِ إلى الحديثِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ إضافةٌ بمَعْنى (مِنْ) للبيان؛ وذلكَ لأنَّ اللَّهْوَ قَد يكونُ مِنَ الحَديثِ وقَد يكونُ من غَيْرِه، فبيَّنتِ الإضافَةُ أنَّ المرادَ باللَّهوِ ما كانَ مِنَ الكَلامِ، والمَعْنى: ومِنَ النّاسِ مَن يَشْتَري اللَّهْوَ مِنَ الحَديثِ[3]، واللّامُ في ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ لِلعهْدِ العلميِّ، والمرادُ بِهِ الحديثُ المكروهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 142.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 409.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 409، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 142.

أو المُنْكَرُ[1]، وإنَّما خصّ اللهو بالحديث مع أنَّ وسائلَ اللهو كثيرةٌ ومتعدّدةٌ؛ لأنَّ الحديث هو كلامٌ، فيُقابلُ الآياتِ وكلامَ اللّه تعالى، ويكونُ الكافرُ المُعْرِض قد فضَّلَ الحديثَ البشريَّ العابثَ الخالي من الإحكام والإتقان، وسعى في بيان جمالِه معارِضًا الكلامَ الإلهيَّ المُحكَم، مُحاولًا ردّ إعجازِ القرآن ومُكذِّبًا لأحكامه وتشريعاته، ببيان أنَّ الكلامَ العربيَّ منَ الشِّعْر وغيره أبدعُ من أسلوب القرآن الكريم، فأفادتِ الإضافة أنْ لا مقارنةَ بين كلامه تعالى وكلام البشر؛ إذ كلامُه كلُّه حكمةٌ وهُدىً ورحمةٌ، وكلامُ غيره فيه عبثٌ وسفاهةٌ ولَهْوٌ.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِيُضِلَّ﴾:

بَيانُ غايَتِهِمْ مِنِ اشْتِراءِ لَهْوِ الحَديثِ وهُوَ الإضْلالُ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى

اللّام في ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ للتَّعليل[2]، والمَقْصودُ بيانُ هَدَفِهم مِن اشْتِراء لَهْو الحديثِ؛ وهُوَ الإضلالُ عَن سبيلِ اللّهِ سُبحانَهُ، وفي تعليلِ الاشتراءِ بالإضلالِ بيانٌ لشدّةِ الانحراف، فلم يكتفوا بضلالِهم المُبين، بل سعَوا إلى نشر ضلالاتِهم على أعيُنِ النّاس صَدًّا لهم عن سماعِ آياتِ الكتابِ الحكيم.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿لِيُضِلَّ﴾:

الإضْلالُ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى دَيْدَنُهُمْ وعادَتُهُمْ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعل المُضارِعِ ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادَةِ التَّجدُّد الاستمراريِّ، وذلك لأنَّ الإضلالَ عَن سبيلِ اللّه سُبْحانَهُ عادَتُهم ودَيْدَنُهم، بحيثُ لا يَفْتُرون عَن ذلكَ، كما أنَّ الفعل منصوبٌ بـ(أن) المُضمرةِ الدّالّةِ على الاستقبال، فيفيد أنَّ إضلالَهم امتدّ في الزّمن المستقبل، بما يدلُّ على الانهماك في نشر الضَّلال، والصّدِّ عن سماعِ الآيات البيّنات.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 67.

(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 276.

عَظيمُ انْحِرافِهِمْ وشِدَّةُ حَنَقِهِمْ على دينِ الإِسْلامِ

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿لِيُضِلَّ﴾:

الفِعْلُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ مِنَ الفِعْلِ الرُّباعيِّ (أضلَّ)، وهو فعلٌ متعدٍّ، ومفعولُهُ مَحْذوفٌ، والتَّقديرُ: ليُضلَّ غيرَهُ[1]، أو ليُضلَّ النّاسَ جميعًا، فيكونُ حَذْفُ المَفْعولِ لإرادَةِ العُموم، مبالغَةً في بَيانِ انْحِرافِه وشِدَّة حَنَقِهِ على هذا الدّين، بحيثُ لو أمْكَنَهُ أن يُضِلَّ النّاس جميعًا؛ لفَعَلَ ذَلِكَ، ولعلَّ الحذفَ للمتعلّق ليتمَّ التّركيزُ على الحَدَث ومُسارعتِهم في الإضلالِ، ورغبتِهم في الصّدِّ والعُدوان، وتفنيدِ الكلام الحقِّ بالمُهاترات والكلامِ العبثيِّ.

ضَلالُهُمْ في أنْفُسِهِمْ وإضْلالُهُمْ غَيْرَهُمْ

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿لِيُضِلَّ﴾:

في ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ قراءتانِ مُتواتِرتانِ: **إحْداهُما**: ﴿لِيَضِلَّ﴾ - بفَتْحِ الياءِ - وهيَ قراءةُ ابْنِ كثيرٍ وأبي عَمْرٍو، ووافَقَهُم رُوَيْسٌ من بعضِ طُرقِه، **والأُخرى**: ﴿لِيُضِلَّ﴾ - بضَمِّ الياء - وهي قراءةُ باقي العشَرَةِ[2]، فمَن قَرَأَ ﴿لِيَضِلَّ﴾ فَهُوَ مِنَ الضَّلال، والمَعْنى: ليَصيرَ أمرُهُ إلى الضَّلال، فَهُوَ وإنْ لَم يَقْدِر أن يُضلَّ غيرَه، فإنَّ أمرَهُ يَصيرُ إلى أن يَضِلَّ في نفسِه، وفيهِ وجْهانِ آخرانِ في المعنى؛ أحَدُهُما: ﴿لِيَضِلَّ﴾ أي: ليَثْبُتَ عَلى ضلالِهِ الذي كانَ عليهِ قَبْلُ، ويَزيدَ فيه، والآخر: أنَّ ﴿لِيَضِلَّ﴾ واقعةٌ موقعَ ﴿لِيُضِلَّ﴾ من جهة أنَّ مَن أضلَّ غيرَهُ؛ كان ضالًّا لا محالة، وأمّا مَن قرأ ﴿لِيُضِلَّ﴾؛ فَهُوَ مِنَ الإضلالِ، أي: ليُصَيِّرَ غيرَهُ ضالًّا كما ضلَّ هُوَ وانحرفَ عنِ الهُدى[3]، والقراءتانِ مُتَكامِلَتانِ.

ولا يخفى أنَّ قراءة التّعديةِ إلى الغير تُظهِرُ كمالَ الانحراف عن

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 361.

(2) ابن الجزريّ، النشر: 2/ 299، والبنّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 447.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 98، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 410، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 147.

الكتاب وآياته، إذ يَسعى جاهدًا لُمحاربةِ كلام اللّه تعالى بإظهارِ مزايا كلامِ غيره، ظنًّا منه أنّه بذلك الصَّنيعِ يتفوّقُ الكلامُ الذي فيه العبثُ واللهو والباطل، على الكلامِ المُحكَم المَتين.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الإضْلالِ بِـ ﴿عَن﴾:

مُجاوَزَتُهُمْ سَبيلَ اللهِ تَعالى إلى غَيْرِهِ مِنَ السُّبُلِ المُنْحرِفَةِ

﴿عَن﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تدلُّ على المُجاوَزَة - على ما هُو الأصلُ فيها -، وفي تَعْدِيَةِ فِعْلِ الضَّلالِ أو الإضلالِ بِهِ إيماءٌ إلى مُجازَوَةِ هُؤلاء لِسَبيل اللّه تعالى ودينه الحَقِّ إلى غيرِهِ مِنَ الطَّرائق الباطِلة؛ على قِراءَةِ (لِيَضِلَّ)، أو أنَّهم يُبالِغون في حَرْفِ النّاسِ عن طَريقِ الحقِّ، بحَيْثُ لا يَسْلُكونَ مِنْهُ شيئًا؛ إمْعانًا في الإضْلالِ؛ عَلى قِراءَةِ ﴿لِيُضِلَّ﴾.

فائِدَةُ إضافَةِ السَّبيلِ إلى الاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

تَشْنيعُ حالِ المُضِلّينَ

إضافةُ السَّبيلِ إلى الاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، ولازِمُ ذلك: تَفْظيعُ شأنِ المُضِلّين عن هذا الأمْرِ الجَليلِ، والنِّداءُ عليهم بالانْحِرافِ والضَّلالِ، وفي هذهِ الإضافَةِ إيماءٌ إلى أنَّه طريقٌ موصِلٌ إلى رِضا المَلِكِ الجامِعِ صِفاتِ الكَمالِ والجَلال والجَمال[1].

بَلاغَةُ الاستعارة:

اجْتِهادُهُمْ في الباطِلِ لِقَصْدِ إضْلالِ الخَلْقِ عَنِ الحَقِّ

جاءَ التَّعبيرُ عَن دينِ اللّه تعالى وشَرْعِهِ بالسَّبيلِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ بطريق المجاز الاستعاريّ؛ إذ شُبِّه دينُ اللّه بالسَّبيل والطَّريقِ الموصِلِ إلى اللّه؛ لِما يدلُّ عليه السَّبيلُ مِنَ الامْتِدادِ والسُّهولةِ والسَّعَةِ[2]، والإضلالُ عَمّا هذا وصْفُهُ يَفْتَقِرُ إلى قُوَّةٍ في هذا المَنْعِ واجتهادٍ فيه، فَفي هذا إيماءٌ إلى اجْتِهادِهِم في باطِلِهِمْ لإضْلالِ الخَلْقِ عَنِ الدّين الحقِّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 148.

(2) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

مَعْنى الباءِ في ﴿بِغَيْرِ﴾:

عَظَمَةُ غَفْلَتِهِمْ وعَمى بَصائِرِهِمْ

الباءُ في ﴿بِغَيْرِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لِلمُصاحبَةِ والمُلابَسَة، أيْ: أنَّ ضلالَهُمْ وإضلالَهُمْ واقعٌ بمُصاحبَةِ جَهْلِهم بِحالِ السَّبيلِ مَعَ وُضوحِها وظُهور شَأْنِها؛ لِعَمى بَصائِرِهم وعِظَم غَفْلَتِهم وسُوءِ نَظَرِهم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ العِلْم:

خُلُوُّهُمْ مِنَ العِلْمِ بِشَيْءٍ مِنْ حالِ سَبيلِ اللهِ تَعالى

نُكِّر لفظُ ﴿عِلْمٍ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ لِيُفيد عمومَ النَّفْيِ لِكُلِّ نَوْعٍ مِن أنواعِ العِلْم؛ والمَعْنى: أنَّهُم لا عِلْمَ لَهُم بِشَيْءٍ مِن حالِ السَّبيل لا حالِ غَيْرِها عِلْمًا يَسْتَحِقُّ إطْلاقَ لَفْظِ العِلْم عليه، بكونِه مفيدًا رِبْحًا أو مُبْقيًا على رأسِ المالِ مِن دينٍ أو دُنْيا، وهذا حالُ كلِّ مَن عَدَلَ عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ وعن الهُدى إلى الضَّلال[1].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِلجارِّ والمجرور:

زِيادةُ تَقْبيحِ شَأْنِهِمْ وتَشْنيعِ صَنيعِهِمْ

الجارُّ والمجرورُ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في مَوْضِع الحالِ[2]، أي: يضِلُّ عَن سبيلِ اللّهِ حالَ كونِه خاليًا مِنَ العِلْمِ الذي ينفَعُهُ، وفائدةُ هذا القَيْدِ: زيادَةُ تَشْنيع شأنِهِمْ وتقبيحِ صَنيعِهِم، كما يُحقّقُ هذا القيدُ الاحتراسَ عن كونِ إضلالِهم وسعيهِمُ الباطلِ مبنيًّا على يقينٍ بما هم فيه ساعون، بل كلُّ ما يدفعُهم إلى هذا الباطِلِ والصّدِّ عن سبيل اللّه قائمٌ على أوهامٍ وظنونٍ وشكوكٍ لا نصيبَ لها مِنَ الثّباتِ والقُوَّة.

مَعْنى الواوِ في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾:

الواوُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ عاطفةُ الفعلَ بَعْدَها على فِعْلِ الإضْلالِ في ﴿لِيُضِلَّ﴾، وذلكَ عَلى قِراءَةِ مَن نَصَبَ فِعلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 148.

(2) الدّعّاس وغيره، إعراب القرآن الكريم: 3/ 25.

الاتِّخاذِ؛ بيانًا لكونِهم قد جَمعوا بينَ فعلينِ قبيحين؛ أوّلُهما: إضلالُ النّاسِ عن طريق الصَّواب بالإعجابِ بلَهْوِ الحديث، وبيانِ أنّه مُشتملٌ على حكمةٍ وبيانٍ أعلى منَ القرآن الكريم، وثانيهما: اتّخاذُ آياتِ اللّه مثارًا للسّخريَةِ والاستخفاف، عندما يَجِدُ لَهْوَ الحديث غيرَ قادرٍ على تصويرِ ما يتحدّثُ عنه البيانُ القرآنيُّ، من مواقفَ إزاءَ الحياةِ والإنسانِ والكون، فيثيرُ مُتعمّدًا الهُزْءَ بها أمامَ الآخرين، وأمّا عَلى قِراءَةِ فِعْلِ الاتِّخاذِ بالرَّفع ﴿وَيَتَّخِذُهَا﴾[1]؛ فالواوُ اسْتِئْنافيَّةٌ، دالّةٌ على استقلالِ كلٍّ منَ الجملتين؛ إظهارًا لشناعةِ ما يُقدِمونَ عليه جهلًا بعاقبتِه ومآله.

جَـمْـعُ أهْـلِ الـبـاطِـلِ بَـيْـنَ الإضْـلالِ عَـنْ دين الله واتِّخاذِ الآياتِ هُزُوًا

مرجعُ الضَّمائِرِ في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾:

الضَّميرُ في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ من قولِ اللّه سُبحانه: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ يجوزُ أن يَرْجِع إلى السَّبيل، والمَعْنى: ويتَّخذ سبيلَ اللّهِ هزوًا، فيكونُ كَقَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف: 45]، ويجوزُ أن يَعودَ عَلى آياتِ القُرآنِ الكَريم، فيكونُ كَقَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: 231]، ويحتمِلُ عَوْدُهُ على الأحاديث؛ لأنَّ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ اسْمُ جنسٍ بِمَعْنى الجَمْع، أي: لَهْوِ الأحاديث[2]، والأظْهَرُ رُجوعُه إلى الأوَّلَيْن دونَ الثّالِث، ولا تنافيَ بَيْنَ ذَيْنِكَ الوَجْهَيْن؛ لأنَّ آيات اللّهِ تَعالى مِنْ جُملةِ سَبيلِه الموصِلةِ إلَيْه؛ فَكِلاهُما يقَعُ عليهِ الاسْتِهزاءُ.

اسْـتِـهْـزاؤُهُـمْ بِآياتِ اللهِ تَعالى المُحكَمة

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾:

قرأ ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ بالنَّصْب: حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ ويعقوب وخلفُ العاشرُ، وقرأ باقي العَشَرَة

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِـلْـقِـراءاتِ القُرْآنيَّة

(1) وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، وقرأ الباقون بالنّصب.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 98، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 410.

﴿وَيَتَّخِذُهَا﴾ بالرَّفْع[1]، فالنَّصْبُ عطفًا على الفِعْلِ ﴿لِيُضِلَّ﴾، وعلى هذهِ القراءَةِ يكونُ الاتِّخاذُ المَذْكورُ مِن جُمْلَة التَّعليل، والمَعْنى: أنَّهُ يَشْتَري لَهْوَ الحديثِ لِلإضْلالِ عَن سبيلِ اللّهِ تَعالى واتِّخاذِ آياتِ اللّهِ هُزوًا، والرَّفع عطفًا على الفِعْلِ ﴿يَشْتَرِى﴾، فيكونُ مِن جُمْلَةِ الصِّلةِ، أو على جَعْلِ الواوِ استئنافيَّةً، والجملة بعدَها مُسْتَأْنَفَة[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ (الافْتِعالِ):

تَكْليفُ النَّفْسِ ضِدَّ ما تَدْعو إلَيْهِ الفِطْرَةُ غايَةٌ في الانْحِراف

في التَّعْبيرِ بِصيغَةِ (الافْتِعال) في (يَتَّخِذ) من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلكَ واقعٌ على وجْهِ التَّكلُّف، فهُو يُكَلِّفُ نفسَهُ ضِدَّ ما تَدْعوهُ إلَيْهِ فِطْرَتُه الأُولى، بأنْ يَأْخُذَ السَّبيلَ التي لا أشْرَفَ مِنْها هُزُوًا مَعَ ما ثبتَ لَهُ مِنَ الجَهْلِ المُطْبِق المُطْلَق[3]، والفعلُ (اتَّخذَ) مِنَ الأفعالِ التي تتعدَّى إلى مفعولينِ؛ للدّلالة على التّحويل والجَعْل والتّصيير، فهو يُصيِّرُ جاهدًا تلك الآياتِ المحكمةَ هُزُوًا بسببِ استخفافِه بها وسُخريّتِه منها، ومُحاولاتِه للانتقاصِ من قيمتِها وقُدسيّتِها.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿هُزُوًاۚ﴾:

بَيانُ مُبالَغَتِهِمْ في الاسْتِهْزاءِ

نُكِّر لفظُ ﴿هُزُوًاۚ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾؛ لإرادةِ التَّعظيم في الهُزْء، ويُؤَيِّدُهُ التَّعبيرُ عَنِ المفعولِ الثّاني (الهُزْء) بالمَصْدَر؛ إذِ الأَصْلُ: ويَتَّخِذَها مَهْزوءًا بها، ولَكِنْ عُبِّر بالمَصْدَر لِقَصْدِ المُبالغَةِ في هَذا الاتِّخاذ، حتّى كأنَّه جعَلَها نَفْسَ الهُزْء.

نُكْتَةُ الفَصْلِ في الآيَةِ:

بَيانُ حالِ جَزاءِ المُضِلّين في الدّارِ الآخِرَة

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ عمّا قَبْلَه؛

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 346، والبنّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 447.
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 277.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 149.

لِوُقوعِها اعْتِراضًا بينَ جُمْلَةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾ وجُمْلَةِ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ قَصْدًا لِبَيانِ جَزائِه في الآخرةِ قَبْلَ ذِكْرِ حالِه الأُخْرى؛ لِيَسْتَقِلَّ كُلُّ حالٍ بعَذابٍ[1]، ويحتملُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا لما يُثيره الحُكمُ المتقدّمُ من سؤالٍ عن مصيرِ هؤلاءِ المُضلّين والمُستهزئين.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإِشْعارُ بِكَوْنِهِمْ بُغَضاءَ بُعَداءَ في الشَّرِّ والفَسادِ

أُوثِرَ اسْمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهو دالٌّ على البُعْدِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّهم بُغَضاءُ بُعَداءُ في الشَّرِّ، وبُعَداءُ عَنْ رُتبة الإنسانِ[2]، والإشارةُ راجعةٌ إلى المَذْكورِ باعْتِبارِ اتِّصافِه بما ذُكرَ مِنَ الصِّفاتِ الشَّنيعةِ والخِلالِ القبيحَةِ المُميِّزةِ لَهُ عمَّن عداهُ أكملَ تَمْييزٍ وأوضَحَهُ، بِحَيْثُ صارَ كأنَّهُ حاضرٌ مُشاهَدٌ عَلى ما هُوَ عليه، وبذلك يتمُّ التّقابلُ بينَ الإشارةِ إلى أولئك المُحسنين، والإشارةِ إلى هؤلاء المُضلّين؛ إذ كلٌّ منهما تميَّز بخِلالٍ معيّنةٍ، لكنَّ افتراقَ تلك الخِلال وتضادَّها استوجبَ اختلافَ وظيفةِ الإشارتين من تعظيمٍ إلى تحقيرٍ، فبينهما طباقٌ خفيٌّ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ جَمْعًا:

تَهْويلُ العَذابِ وتَفْخيمُهُ

اخْتِيرَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ جَمْعًا؛ حَمْلًا على مَعْنى (مَنْ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى﴾، والجَمْعُ أنسبُ لمَقام الجزاءِ؛ لكونِه أدخلَ في التَّهويل[3]، وهذا التّنوُّعُ بينَ الإفراد والجمع يُشيرُ إلى أنَّ فعلَهم بلا تأثيرٍ ولا جدوى؛ لأنّه باطلٌ وقائمٌ على عبثٍ ظاهرٍ، بخلاف الجزاءِ فإنّه حقٌّ وصِدقٌ، ومن ثَمَّ أُفرِدَ في بيان عملِهم وتفصيل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 144.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 149.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 149.

فعلِهم استخفافًا به وازدراءً، وجُمِعَ في موطن الجزاء والعقابِ تنكيلًا بهم وإظهارًا لعَظَمةِ عقابِ اللّٰه لهم.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾:

ثُبوتُ الخِزْيِ لَهُمْ ضِدّ ما كانَ لِلمُحْسِنينَ مِنَ الرَّحْمَةِ

اللّامُ في الأصلِ موضوعةٌ للأمْرِ المُلائِم، فتقولُ: دَعَوْتُ لَهُ، في بابِ المَنْفَعَة، ودعوتُ عليه، في بابِ المَضَرَّة، واللّام في ﴿لَهُمْ﴾ من قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ واردةٌ على جهةِ التَّهَكُّم في التَّعْبير؛ لأنَّ العذابَ المُهينَ مَضَرَّةٌ عظيمَةٌ لَهُم، فالمَعْنى: يَثْبُت لَهُم الخِزْيُ ضِدّ ما كانَ لِلمُحْسِنين مِنَ الرَّحمة[1]، كما أفادتِ اللّامُ الاستحقاقَ والاختصاصَ؛ فالعذابُ مختصٌّ بهم لما اقترفوه؛ وكان التّعبيرُ عنِ العقابِ من جنس العمل؛ إذِ اشتراؤُهم لهوَ الحديث للإضلالِ والاستهزاءُ بالآيات أوجبَ التّهكُّم بهم بإثباتِ العذابِ لهم.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الخبرِ:

شِدَّةُ العَذابِ الواقِعِ عَلى أهْلِ الكُفْرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمْ﴾ الواقعُ خبرًا في قولِ اللّٰهِ سُبْحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لإرادةِ القَصر، وفيه: قَصْرُ العذابِ المُهينِ عَلى المَذْكورينَ، وهُوَ قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ قَصْرًا ادِّعائيًّا، ونُكْتَتُهُ: الإيماءُ إلى شِدَّةِ هذا العذابِ المهينِ الذي يُلاقونَهُ، حتَّى كأنَّ العذابَ المهينَ الذي ينالُ غيرَهُم ليس بِشَيْءٍ بالنِّسبةِ إلى ما يلاقونَه هُمْ، وفي النّصِّ إيماءٌ إلى أنَّ عذابَ الضّالّين مغايرٌ لعذاب المُضلّين؛ لأنَّ الضّلال قاصِرٌ، والإضلالَ متعدٍّ، فناسبَ أنْ يكون العذابُ مختصًّا بهم، مقصورًا عليهم.

نُكْتَةُ التَنْكيرِ في قولِه: ﴿عَذَابٌ﴾:

تَفْخيمُ العَذابِ وتَعْظيمُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ من قولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى تَعْظيمه وتَفْخيمه، ويُحتمَلُ أنْ يكون التّنكيرُ للنّوعيَّة؛ إشارةً إلى أنّه عذابٌ من نوعٍ خاصٍّ، لا يشاركُهم فيه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 149.

غيرُهم؛ لشِدَّةِ بُغضِهم للآيات، ومُسارعتِهم إلى تكذيبها، والإعلاءِ من شأن الكلام الباطلِ عليها معارضةً ومُعاندةً.

فائِدَةُ وصْفِ العَذابِ بِالمُهِين:

تِـلاوَةُ الآيـاتِ عـلـيـهـمْ لا تَـزيـدُهُـمْ إلّا طُغيانًا وخَسارًا

وُصِفَ العذابُ بِالإهانَةِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ لكونِه مُلائِمًا لِجُرْمِهم وسُوءِ صَنيعِهم؛ لأنَّهُم فَعَلوا ما فَعَلوهُ مِن بابِ الاسْتِعْلاءِ والاسْتِكْبارِ والعِناد، كَما يدُلُّ لِذَلكَ قولُ اللّهُ سُبْحانَهُ بَعْدُ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾، فَهُو لا يَزْدادُ بِتلاوَةِ الآياتِ عليه إلّا بَغْيًا وطُغْيانًا[1]، ونلحظُ في توصيفِ العذاب بالإهانةِ لهم أنَّ أصلَ العذابِ كان لإضلالِهم، ووصفُه بالمُهين كان لاستخفافِهم واستهزائِهم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿مُّهِينٞ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

كـمالُ الـعـذابِ المقرونِ بالإهانة

في التَّعبيرِ بِلَفْظِ ﴿مُّهِينٞ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه عذابٌ دائمٌ، ووجْهُ ذَلكَ: أنَّ المَلِكَ إذا أمَر بِتَعْذيبِ عَبْدٍ مِن عبيدِه، فإنَّ الجَلّادَ المُوكَّلَ بذلك إذا عَلِمَ أنَّ المُعَذَّب مِمَّن سَيعودُ إلى خِدْمَةِ المَلِكِ ولا يَتْرُكُه المَلِكُ في الحَبْسِ؛ فإنَّه يُكْرِمُه ويُخَفِّفُ مِن تَعْذيبِه، أمّا إذا عَلِمَ أنَّ هذا المُعَذَّب لا يعودُ إلى ما كانَ عليه، وأنَّ أمْرَه قَدِ انْقَضى؛ فإنَّه لا يُكرِمُه، ويُديم عذابَهُ ويُشدِّد عليه فيه[2].

مَعْنى الواوِ في ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾:

بَـيـانُ حـالِ المُنْحَرِفينَ عَنْ آياتِ اللهِ تَعالى ودِينِه

الواوُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ عاطِفَةٌ الجُمْلَةَ بعدَها علَى الجُمْلَة قَبْلَها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي﴾؛ وذلكَ لاشْتراكِهما في الخبريَّة، وبينَهُما مُناسبَةٌ مَعْنَوِيَّة؛ إذْ كُلٌّ مِنَ الآيتَيْنِ في ذِكْرِ حالِ المُنْحَرِفين عَن دينِ اللّهِ تَعالى وآياتِه، فيكونُ بينَ الجُمْلَتَيْنِ توسُّطٌ بيْنَ الكَمالَيْن.

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1562 - 1563.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 115.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ (إذا):

اقترانُ الإعراض والاستكبار بالتّلاوةِ خطرٌ عظيم

عُلِّق الشَّرْطُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ بـ (إذا) دونَ غَيْرِها؛ لأنَّ (إذا) تدُلُّ على الجَزْمِ والقَطْعِ بِوُقوعِ مَدْخولِها، فيكونُ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّ تلاوةَ آياتِ اللّهِ تَعالى عليهِ أمْرٌ محقَّق، إلّا أنَّه قابلَ ذلكَ بِالإعْراضِ والاسْتِكْبارِ عَنْها المحقَّقينِ المقطوعِ بوقوعِهما، وفي ذلك الاقترانِ تنبيهٌ على الخطرِ العظيمِ الَّذي ينتابُ هؤلاءِ المُستكبرينَ؛ إذ يُعرِضونَ عنِ الآياتِ ويَستكبرون عليها عندَما تُتلى عليهم، وهذا مُنتهى الإعراضِ، وكمالُ الاستكبار.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

إقامَةُ الحُجَّةِ عليهِمْ بِأبْلَغِ صُوَرِها

عُبِّر بفِعْلِ التِّلاوَةِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ دون القِراءَة؛ لِما في لَفْظِ التِّلاوةِ مِنَ الدّلالَةِ عَلى تَبْيينِ الحُروفِ عِنْدَ القِراءَةِ، والتَّأنّي في أدائِها؛ لِيَكونَ أقْرَبَ إلى فَهْمِ المَعاني، ومعَ ذلكَ قابَلَ ذلكَ بِالعِنادِ والاسْتِكْبارِ[1]، والتّلاوةُ مأخوذةٌ منَ التُّلُوِّ بمعنى المتابعة على الأمر؛ للدّلالة على أنَّ تلك التّلاوةَ مُستمرّةٌ من دون أيِّ انتفاعٍ بها أو تدبُّرٍ في معانيها، وجاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ التِّلاوةَ تَتَجَدَّدُ عليهِ ولَم تَكُن أمرًا عارضًا[2]، وبُني الفِعْلُ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للإشارَةِ إلى العُموم، أي: وإذا تُتْلى عليهِ آياتُ اللّهِ سُبحانَهُ من أيِّ تالٍ كانَ ولَو كانَ عظيمًا؛ فإنَّ النَّتيجةَ واحدةٌ، وهيَ عِنادُهُ واستكبارُهُ عنِ الانقيادِ لَها.

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ على الفاعل:

شِدَّةُ الاعْتِناءِ بِإقامَةِ الحُجَّةِ عَلَيه

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾؛ لِلدّلالَةِ على العِنايةِ والاهتمامِ دونَ القَصْر،

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1563.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 150.

لأنَّ الآياتِ تُتلى على مسامعِ الجميعِ، فمنهم مَن يُعرِض ويَستكبر، وفي التّقديم مَزيدُ اعْتِناءٍ بحالِ هذه الطّائفةِ التي تقابلُ التّلاوةَ بالإعراضِ والاستكبار، وأفادَ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ أنَّ التّلاوةَ تتسلّطُ عليهم بُغيةَ التّأثيرِ فيهم، لكنّهم يُعرِضون مُستكبرين.

نُكْتَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

تَعْظيمُ الآياتِ وتَقْبيحُ الإعْراضِ عَنْها

أُضيفَتِ الآياتُ إلى ضميرِ العَظَمَةِ الدّالِّ على اللّهِ تَعالى في قولِهِ سُبْحانَه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾؛ تَعْظيمًا لشَأنِ المُضافِ وهُوَ الآياتُ، ولازِمُ ذَلكَ المُبالَغَةُ في تَقْبيحِ فِعْلِ المُسْتَكْبِر عَنْها؛ إذْ أعْرَضَ واسْتَكْبَرَ عَن أمرٍ جليلٍ في غايَةِ العَظَمَةِ، كما أنَّ تسميةَ كلامِ اللّه تعالى بـ(الآيات) طباقٌ خفيٌّ مع ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ فإنَّ ما تمسَّك به هؤلاءِ المستكبِرونَ حديثٌ عابثٌ، وخالٍ منَ الحكمة، وتركوا الاستمساكَ بالحديث الّذي هو آياتٌ بيّناتٌ مُحكَمات.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ ﴿وَلَّىٰ﴾:

تَمْثيلُ إعْراضِهِمْ عَنِ الآياتِ

جُمْلَةُ ﴿وَلَّىٰ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ لا محلَّ لَها مِنَ الإعْرابِ؛ لوُقوعِها جوابَ شَرْطٍ غيرِ جازمٍ[1]، والتَّعْبيرُ بالفِعْلِ ﴿وَلَّىٰ﴾ تَمْثيلٌ للإعراضِ عَن آياتِ اللّهِ تَعالى، فَهُو كقَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النّازعات: 22][2]، فيكونُ هناك مجازٌ بالاستعارة التّمثيليَّة؛ إذ شَبَّه حالَ المُعرِض عن سماعِ الآيات بحالِ المُتوجِّهِ الرّاجعِ عن مكانِ الحضور، والجامعُ بينهما التّوجُّه إلى جهةٍ عن قصدٍ ونيَّة، وبذلك يتحوّلُ الإعراضُ عن سماعِ الآيات والنّفورُ، منَ الإصغاءِ للنّصوصِ المُحكمات إلى حالةِ استدبارٍ للمجلسِ، والتّوجُّهِ إلى جهةٍ مضادّةٍ له، بكلِّ قصديّةٍ ورغبةٍ فيه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 528.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 144.

المَوْقِعُ النَّحويُّ لِـ ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾:

شَناعَةُ التَّوَلّي عَنِ الآياتِ مُقترنًا بالاسْتِكْبارِ عَنْها

لفظُ ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ منصوبٌ عَلى الحالِ، وصاحبُها ضميرُ الفاعلِ المستترُ في ﴿وَلَّىٰ﴾، والقَصْدُ من ذلكَ الإيغالُ في بيانِ إعراضِه، وذلك أنَّ التَّولّيَ عَنِ الآياتِ شنيعٌ في نَفْسِه، فكيفَ إذا انْضَمَّ إلى ذلكَ الإعْراضِ الاسْتِكْبارُ؟! إذِ الحالُ تقييدٌ للعامل؛ ليُحْتَرسَ به عن كون الإعراضِ لشُغْلٍ ضروريٍّ أو لطلبِ منفعةٍ ما، وبذلك يمتزجُ الإعراضُ بالاستكبار، ويكونُ الاستكبارُ مقرونًا بعمليّة الإعراض والنّفور، ممّا يدلّ على مدى القصديَّة في عدم الإصغاءِ للآيات البيّنات، والانشغالِ عنها بلَهْوِ الحديث.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ مادَّةً وصيغَةً:

بَيانُ جِنْسِ الإعْراضِ وأنَّهُ اسْتِكْبارٌ لا تَفْريطٌ في الخَيْرِ

جاءَ التَّعبيرُ بمادّة الاسْتِكْبارِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾؛ للدّلالَةِ عَلى أنَّ إعْراضَهُ هو إعراضُ اسْتِكْبارٍ وعِنادٍ، لا إعْراضُ تفريطٍ في الخيرِ فَحَسْبُ، ودلّتِ المادّةُ على ظُلم شديدٍ؛ إذِ الكِبْرُ غمْطُ الحقِّ وظُلْمُ النّاس، فهو يعلمُ أنَّ الحديثَ الَّذي يتمسّكُ به مُجرّدُ لَهْوٍ، وأنَّ الآياتِ مُحكَمةٌ مُعجِزةٌ، لكنَّه يُغالي في الظُّلم بتركِ الحقِّ والحقيقة، ويجعلُ من نفسِه كبيرًا عليهما، وفي اختيارِ صيغَةِ الاسْتِفْعالِ (الاسْتِكْبار) في قوله: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾؛ للإيماءِ إلى مُبالَغَتِه في التَّكَبُّر[1]، وفي (اسْتَكْبَر) مَعْنى الطَّلَبِ أيضًا؛ كأنَّه لِمُبالغته في الكِبْرِ يَطْلبُ شَيْئًا لَيْسَ لَه أهلٌ حرصًا على تحصيله، فالزّيادةُ في الصّيغَةِ هاهُنا تدُلُّ على الطَّلَبِ والتَّصنُّعِ والمُبالغَة، فَهُو يَسْتَكْبِرُ حالَ كونِهِ غَيْرَ أهلٍ لِذَلِك، مِمّا يُضاعفُ قُبْحَ صورتِه، وبَشاعةَ هَيْئَتِه[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 69، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 278، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 144.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1563.

نُكْتَةُ فَصْلِ التّشبيهِ الأوّل:

حالُهُ في عَدَمِ الانْتِفاعِ بالآياتِ كَحالِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْها أصْلًا

قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ في موضع النَّصْبِ على الحالِ[1]، وفُصِلَ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ من شأنِ الحالِ إذا كانَت مُفْرَدَةً أن لا تُعطَفَ على صاحِبِها؛ إذْ هيَ بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ والخبَرِ عَنْهُ، وكذلك الحالُ إذا كانَت جملةً تُفصلُ تبعًا لأصْلِها، وهيَ الحالُ المُفْرَدَةُ، إلّا إذا وُجِد مُقْتَضٍ للعَطْفِ، ولَم يوجَد هاهُنا.

ويجوزُ أن يكونَ فَصْلُ الجُمْلَةِ مِن بابِ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، وذلكَ لأنَّه لمّا أخبَرَ عَن حالِ المُعْرِض بقولِه: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾؛ أورثَ ذَلِكَ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا؛ وهُو: وهَل سَمِعَ الآياتِ التي تُلِيَتْ عليه وعقَلَها؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي: سَمِعَها سَماعَ أُذُنٍ، ولكِنَّ حالَهُ في عدَمِ الانْتِفاعِ كحالِ مَن لَم يَسْمَعْها أصْلًا.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ:

بَيانُ قَسْوَةِ قَلْبِهِ وشِدَّةِ إيغالِهِ في الإعْراضِ والعِنادِ

في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ تشبيهٌ بالكاف، أي: إنَّ حالَه بعدَ السَّماع تُشْبِهُ حالَه حينَ لَم يَسْمَعْها[2]، فأفادَ هَذا التَّشبيهُ أنَّه لم يَزَلْ عَلى حالِ الكِبْرِ، وهو دالٌّ على قَسْوَةِ قَلْبِه وإيغالِه في الإعْراضِ والكِبْرِ والعِنادِ[3]، ففي تشبيهِ السّامع بغيرِ السّامع تشبيهٌ للموجودِ سمعُه بالمعدومِ سمعُه في عدمِ الانتفاعِ به؛ فكأنَّه لا قيمةَ للسَّماعِ الخالي من التّفهُّمِ والاعتبارِ والاتِّعاظ؛ وفي هذا تأشيرٌ مهمٌّ على الفرقِ الكبيرِ بينَ سماعِ لهوِ الحديث وسماعِ الآيات؛ فاللهوُ يُسمَعُ أحيانًا لمُجرّدِ إضاعةِ الوقتِ، والتّرويحِ أحيانًا عنِ النّفس؛ لاختلاطِه بالباطل، وأمّا سماعُ الآياتِ البيّناتِ فإنَّه يحتاجُ إلى أُذُنٍ واعيةٍ، ونفسٍ مُعتبرة صافيةٍ، وقلبٍ حاضرٍ، وعقلٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 69.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 150، والقِنّوجي، فتح البيان: 10/ 278.

(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1564.

راسخ، ومَن سمِعَ الآياتِ ولم يتَّصف بذلك ولم يتَّعظ بها، فحالُه حالُ غيرِ السّامع، إذِ الغَرضُ منَ السَّمع العِلْمُ والانتفاع، فيكونُ هذا السّامِعُ بأُذُنِه الغافلُ بقلبه كحالِ الجاهلِ بها غيرِ العارف لها.

بَيانُ سَبَبِ الإِعْراضِ عَنِ الآياتِ

عِلَّةُ فَصْلِ التّشبيهِ الثّاني:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ عمّا قبلهُ؛ لكونِه في موضعِ الحالِ؛ ومِن شأنِ الحالِ إذا كانَت مُفْرَدةً أن لا تُعطفَ على صاحِبِها؛ إذْ هيَ بِمَنْزِلَة النَّعْتِ والخبَرِ عَنْهُ، وكذلك الحالُ إذا كانَت جملةً تُفصلُ تبعًا لأصْلِها، وهيَ الحالُ المُفْرَدَةُ، إلّا إذا وُجِد مُقْتَضٍ للعَطْفِ، ولَم يوجَد هاهُنا، ويجوزُ أن يكونَ الفَصْلُ لِكَونِه استئنافًا بيانيًّا؛ وذلكَ لأنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهو: ما سببُ هذا الإعراض الذي صيَّره بمنزلَةِ الذي لا يَسْمَعُ تلك الآياتِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾[1].

وأظْهَرُ مِنَ الوَجهَيْنِ المُتَقَدِّمين - على أنَّه لا تنافيَ بَيْنَهما - أن يُقال: إنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ فُصِل عَمّا قَبْلَهُ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾؛ لأنَّ بينَ الجُمْلَتَيْنِ كمالَ الاتِّصالِ؛ إذِ الجُمْلَةُ الثّانية مؤكِّدَةٌ لِمَضْمونِ الجُمْلَة الأُولى؛ "لأنَّ المقصودَ مِنَ التَّشبيه بِمَنْ في أُذُنَيْه وقْرٌ، هُوَ بِعَيْنِه المقصودُ مِنَ التَّشبيه بِمَنْ لَم يَسْمَع، إلّا أنَّ الثّانيَ أبْلَغُ وآكَدُ في الّذي أُريدَ"[2]، كما أنّ الّذي لم يسمعْ يكون غائبًا عن مكان السَّماعِ للتّلاوة، لكنَّ هذا المُعْرِضَ المُسْتَكْبِرَ كان حاضرًا وسامِعًا، فعرّج إلى ذِكْر تشبيهٍ آخرَ توكيدًا لعدم سماعِه، وهو أنَّ هذا السّامعَ الحاضرَ مثلُ الّذي وضعَ مانعًا منَ السَّماع في أُذُنيه.

غَرَضُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ:

الاهْتِمامُ بِآلَةِ الإِدْراكِ

في تَقْديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيٓ أُذُنَيۡهِ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 69.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 228 - 229.

﴿فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ اهتمامٌ بآلَةِ الإدراك، وأنَّها لم تَنْفَعْهُ، كأنَّ فيها خَلَلًا مانِعًا مِنْهُ، وفي تأشيرِ محلِّ السَّمعِ بيانٌ لقيمةِ الآلاتِ الحسيَّة في نقلِ المعلوماتِ إلى النَّفس، فإنْ كانتِ النّفسُ غيرَ مُتأثّرةٍ كما دلَّ عليه التشبيهُ الأوّلُ؛ إذ شبَّه السّامعَ بغير السّامع، بمعنى أنَّ النّفسَ لم تدركْ ما وصلَ إليها بحاسّة السّمع، وكانت الأذنانِ مُعطّلتَينِ عنِ السَّماع؛ لوجودِ مانعٍ فيها كما دلَّ عليه التّشبيهُ الثّاني، فكيفَ يتحقّقُ الانتفاع؟!.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿وَقۡرٗاۖ﴾:

بَيانُ شِدَّةِ الإعْراضِ عَنْ سَماعِ الآياتِ

نُكِّر لفظُ ﴿وَقۡرٗاۖ﴾ من قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾؛ لإرادةِ التَّعْظيم، أي: كأنَّ في أُذُنَيْهِ صَمَمًا شَديدًا لا يَتأتّى معَهُ أدْنى دَرجاتِ السَّماعِ.

نُكْتَةُ تَوالي التَّشْبيهاتِ:

التَّفَنُّنُ في بَيانِ قُوَّةِ الإعْراضِ عَنْ آياتِ اللهِ سُبْحانَهُ

وردَ التَّشبيهُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾، ثُمَّ أُتْبِعَ بِتَشْبيهٍ آخَرَ في قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾؛ لِتَقْويَةِ التَّشبيهِ الأوَّل معَ اخْتِلافِ الكَيْفيَّةِ في أنَّ عدمَ السَّمعِ مَرَّةً مع تَمَكُّن آلَةِ السَّمْعِ، نظرًا لتعطُّلِ نفسِهِ وعقلِهِ، ومرَّةً أُخرى مَعَ انْعِدامِ قُوَّةِ آلَتِه، فكانَ التَّشبيهُ الثّاني أخَصَّ مِنَ الأوَّلِ[1].

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

طَيُّ ما دَلَّ السّياقُ عليه إيجازًا في اللَّفْظِ

الفاءُ في ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فصيحةٌ[2]؛ لكَوْنِها أفْصَحَت عَن شَرْطٍ مُقَدَّر، والتَّقدير: إذا كانَتْ حالُه ما ذُكِرَ مِنَ الإعْراضِ والاسْتِكْبارِ؛ فَبَشِّرْهُ بِعَذابِ أليم، ففي الآيةِ إيجازٌ بالحَذْفِ، وقابلَ هذا الشّرطُ وجوابُه الشّرطَ السّابقَ وجوابَه مقابلةَ الجزاءِ والعقوبةِ على الفعلِ والجُرم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 144.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 528.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في الأمْرِ بالبِشارة:

التَّهكُّم بالمُسْتكبِرِ عنِ الآياتِ

البِشارةُ: كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغَيَّر بَشرةُ الوجهِ به، وبناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُسْتَعْمَل في الخَيْرِ والشَّر، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وهيَ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من غَيْرِ الغالِب، بقرينَةِ ذِكْرِ العَذاب الأليم، وذهبَ بعضُ أهْلِ العلْم إلى أنَّ البشارَة هيَ الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرِه من بابِ التَّهكُّم[1]، فيكونُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعارةٌ تهكُّميَّة[2]؛ إذ شبّهَ الإخبارَ والإبلاغَ للجزاءِ الأليمِ والمصيبةِ العُظمى بالتّبشيرِ والتّهنئةِ على تحصيله، تشبيهَ الضّدِّ بالضّدِّ بعدَ ادّعاءِ مناسبةٍ بينهما؛ لتحقيقِ التّهكّمِ والاستخفافِ والسُّخرية، والغرضُ منَ التّهكُّمِ مقابلةُ تهكُّمِهم بالآيات؛ إذِ الَّذي تولَّى كان مُستكبِرًا، فكانَ العذابُ لتولّيه، وكانتِ التّهنئةُ له لتَهكُّمِه واستخفافِه بالآيات؛ إذ شأنُ المستكبرينَ الاستخفافُ.

مَعْنى الباءِ في قَوْلِه: ﴿بِعَذَابٍ﴾:

لُزومُ العَذابِ لَهُمْ وعَدَمُ مُفارَقَتِهِ إيّاهُمْ

الباءُ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ للإلْصاقِ والمُصاحَبَة، وفيه إيماءٌ إلى ملازمةِ العَذابِ الأليمِ لهُم، ومُصاحَبَتِه لَهُم مُصاحبةً لا تُفارِقُهُم بحالٍ، فإنْ كان التّولّي مُصاحِبًا لهيئةِ الاستكبار، فإنَّ التبشيرَ مُصاحِبٌ ومُلتبسٌ بالعذابِ الأليم، فتحقّقتِ المقابلةُ بين كلا المُلابِسين، أعني: الفعلَ معَ التّهكُّم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿بِعَذَابٍ﴾:

تَفْخيمُ العَذابِ وتَعْظيمُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿بِعَذَابٍ﴾ من قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى تَعْظيمِه وتَفْخيمِه، ويحتملُ أنْ يكون التّنكيرُ للنّوعيّة؛ بيانًا لكونه عذابًا يختلفُ عمّا يتصوّرُه الإنسان أو يدورُ في مُخيّلته، ويُقوّيه الوصفُ له بالأليم الكاشفِ عن تلك الغرابةِ فيه.

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 78.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 145.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿أَلِيمٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

قُوَّةُ العَذابِ الواقِعِ عليهِمْ وفَرْطُ إيلامِهِ

اخْتيرَ التَّعْبيرُ بِلَفْظِ ﴿أَلِيمٍ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأنّه أدلُّ على قوَّةِ العذاب وشِدَّةِ إيجاعه؛ إذِ الأليمُ هو الموجِعُ إيجاعًا شديدًا[1]، وفي وصْفِ العَذاب بالأليم بِصيغَة (فَعيل) إيماءٌ إلى إفْراطِ هَذا العذابِ في الإيلام[2]، بناءً على أنّه صفةٌ مشبّهةٌ أو صيغةُ مبالغةٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ اسمَ مفعولٍ بمعنى (مؤلَم)؛ مبالغةً في شدّة العذاب وفظاعته، حتّى إنَّ العذابَ يتلوَّى لفرطِ قوّته.

بَلاغَةُ المتُشابِهِ اللَّفْظِيِّ في وصْفِ العَذابِ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ الملُائِمَةِ لِسياقاتِها

وَصْفُ العذابِ في القُرآنِ الكريم بِأوصافٍ كثيرَةٍ، مِنْها: كونُهُ مُهينًا، وأليمًا، وعظيمًا، فيَرِدُ وصفُه بالمُهين في سياقِ جَزاءِ مَن يَتَكَبَّر على غَيْرِه، ويَسْتَعْظِمُ ما عِنْدَهُ، فيكونُ العَذابُ المُهينُ أنْسَبَ لَه؛ لِمَحْقِه مشاعِرَ الكِبْرِ والغُرور عِنْدَهُ، ولأنَّه مجازاةٌ لَهُ بِنَقيضِ قَصْدِه، ومِنْهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، فإنَّ الباعثَ عَلى الاستهزاءِ هُو الكِبْرُ وغَمْطُ الشَّيْءِ المُسْتَهْزَأِ بِهِ.

ويوصَفُ العذابُ بالأليم؛ إذا كانَ المُعذَّب أو المُتوعَّدُ بالعذابِ سَبَّب بجُرمِهِ آلامًا كثيرةً لأهلِ الإيمانِ، واخْتيرَ لَهُ العَذاب الأليمُ؛ ليكونَ الجَزاءُ مِن جِنْسِ العَمل، ومنهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ فإنَّ المبلِّغ لآياتِ اللّه سُبْحانَهُ، إذا قوبِلَ بالإعْراض والاسْتِكْبار؛ يكبُرُ ذلكَ في نفسِه، ويَجِدُ لذلكَ ألمًا معنويًّا عظيمًا، فناسبَ أن يُعاقَب المُتَسَبِّب في ذلك الألَم بالعذابِ الأليم، وأمّا الإهانةُ لهم فقد أوحتْ بها الاستعارةُ ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾، ولم يُذْكَر العَذابُ المُهينُ في آيةِ لُقمان

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ألم).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 69.

المتقدِّمَةِ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ مع أنَّه نُصَّ على الاستكبارِ؛ اكتفاءً بذِكْرِه في الآيةِ المتقدِّمَةِ، وليُجمَعَ لَهُ ألوانٌ مِنَ العذابِ.

وقَد يوصَفُ العذابُ بالعظيمِ، وذلكَ إذا عَظُمَ الجُرْمُ والذَّنْبُ؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ، ومِنْهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞﴾ [البقرة: 6 - 7]، فقد ورَدَتْ هذهِ الآيَةُ في سياقِ الحَديثِ عَنِ الكُفّارِ الذينَ أعْرَضوا عنِ الحقِّ واسْتَوى لَدَيْهِم الإنذارُ وعَدَمُه، فلَمّا كانَ ذَلكَ إعراضًا عظيمًا عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ ناسبَ أن يُتَوَعَّدوا بالعذابِ العَظيمِ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّهْو واللَّعِب:

اللَّعِبُ فِي اللُّغَةِ: ضِدُّ الجِدِّ، ويُقالُ لِكُلِّ مَن عَمِلَ عَمَلًا لا يُجْدي عليهِ نَفْعًا: إنَّما أنتَ لاعِبٌ، قال تميمٌ الدّاريُّ في حديثِ الجَسّاسَةِ: «فَلَعِبَ بِنا المَوْجُ شَهْرًا»[2]، فَسَمّى اضْطِرابَ المَوْجِ لعِبًا؛ لَمّا لَم يَسِرِ بِهِم إلى الوَجْهِ الذي أرادوهُ، ويُقال: لَعِبَ فلانٌ؛ إذا كانَ فِعْلُه غيرَ قاصِدٍ بِهِ مَقْصدًا صَحيحًا، فاللَّعِب فعلٌ يَخْلو مِنَ الحِكْمَةِ.

اللَّـعِـبُ فِـعْـلٌ واللَّهْوُ انْصِرافٌ وانْشِغالٌ

واللَّهْو في اللُّغَة: كُلُّ ما يَشْغَلُ الإنسانَ عَمّا يَعْنيهِ ويُهِمُّه، ومِن وسائلِه: الهَوى، والطَّرِبُ، واللَّذّاتُ، والغَفْلَةُ، والانْصِرافُ عنِ الخَيرِ.

والفَرْقُ بينَ اللَّعِبِ واللَّهْوِ: أنَّ اللَّعِب فِعْلٌ، بينَما اللَّهْوُ انْصِرافٌ وانْشِغالٌ، وقَد لا يكونُ فِعْلًا، نحوُ: الغَفْلَة؛ فهيَ مِن أعمالِ القُلوبِ، وقَد ورَد ذِكْرُ اللَّعِب في القُرآنِ كَثيرًا، منهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞﴾ [الأنبياء: 55]، ووردَ ذِكْرُ اللَّهْوِ كثيرًا

---

(1) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 56.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2942).

أيضًا، كقولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ [الأنبياء: 17]، واجْتَمَعا في آياتٍ، مِنْها في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعام: 70].

والنُّصوصُ القُرآنيَّةُ تدُلُّ على أنَّ اللَّعِب عملٌ لا يَهْدِف إلى غايةٍ أو منفعَةٍ، وليسَ ذا حِكْمةٍ، وهو جالبٌ لِلَّذَّة وراحةِ البالِ، ولِذا كانَ أكثَرُ إطْلاقِه على عمَلِ الصِّبْيانِ، فشُبِّه عملُ الكِبارِ إذا خلا مِنَ القَصْدِ والحِكْمَة بذَلِك، وأمّا اللَّهو؛ فهُو انصرافُ النَّفْسِ عَن الجِدِّ إلى الهَزْلِ، ولا يَلْزَمُ أن يكونَ فِعْلًا، كالذي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 2 - 3][1]، ونتيجةً للفرقِ بين اللّعب العمليّ واللهو القلبيّ، كان اللّعبُ مُباحًا بضوابطِه؛ لما فيه من الحركاتِ البدنيَّة والرّياضيَّة والذّهنيّة، وأمّا اللهوُ فحرامٌ؛ لأنّه مُجرّدُ تَلذُّذٍ مقترنٍ بالمُحرَّمات والغَفلةِ.

الاسْتِهْزاء والسُّخْرِيَّة:

الاسْتِهْزاءُ أعَمُّ مِنَ السُّخْرِيَةِ

الاستهزاءُ لا يلزمُ مِنْهُ سبقُ فعلٍ مِنَ المُستهزَأِ به يقتضي ذلك، أمّا السُّخريَةُ فإنَّها لا تكون إلّا على فعلٍ صَدَرَ مِنَ المَسْخُورِ مِنْهُ، والقولُ بأنَّ الاستهزاءَ لا يَلْزَمُ مِنْهُ سَبْقُ فِعْلٍ مِنَ المُسْتَهزَأ به يَقْتَضي ذَلِك؛ لا يَنْفي وجودَ فعلٍ أصلًا، وإنَّما ينفي اللُّزومَ، فقد يوجَدُ وقد لا يُوجَدُ؛ فهو بهَذا أعَمُّ مِنَ السُّخريَةِ، كما أنَّ الاستهزاءَ يكونُ بالقول والفعل، بخلافِ السُّخريَةِ فإنّها تكونُ قوليّةً وكلاميّةً فحسب.

(1) محمد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 367 - 370.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [لقمان: 8 - 9]

بَيانُ حالِ المُقْبِلِ عَلى الآياتِ بَعْدَ بَيانِ حالِ المُعْرِضِ عَنْها

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تَعالى حالَ مَن إذا تُتْلى عليهِ الآياتُ ولّى مُستَكْبِرًا؛ بيَّن حالَ من يُقْبِلُ على تلكَ الآياتِ ويَقْبَلُها، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾: (نعم) تَدُورُ تصريفاتُها على ترفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصلاحٍ[2]، ومِنْهُ النَّعْمَةُ: وهو ما يترفَّهُ بِهِ الإِنْسانُ من مأكلٍ أو مَشْرَبٍ أو مَلْبَسٍ[3]، والنَّعيمُ: الخَفْضُ والدَّعَةُ[4]، ويُرادُ به: النِّعْمَةُ الكَثيرَةُ[5]، وهُوَ المرادُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نَعيمُ الجَنّاتِ.

2) ﴿حَقّٗاۚ﴾: (حق) تدُلُّ تَصْريفاتُهما على إِحْكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه، أو تَمَكُّنِ الشَّيْءِ في عُمْقِ مَقَرِّه أو وسَطِ مقرِّه، ومنهُ الحَقُّ؛ وهُو نقيضُ الباطِلِ[6]؛ لأنَّهُ الشَّيْءُ الثّابِتُ الرّاسِخُ المُتَمَكِّنُ بشريعَةٍ أو عُرْفٍ عامٍّ مسلَّم، ومِنْ صُوَرِ تَمَكُّنِ الشَّيءِ واستقرارِهِ على ما وُضِعَ عليه: مُطابَقَةُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ، ومنهُ الحقُّ: الصِّدْقُ، كما قال اللّهُ تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: 62]، أي: المُطابِقُ لِما وقَعَ[7]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ أي: وعَدَكُم اللّهُ ﷻ وعْدًا حَقًّا صادِقًا.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 116.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نعم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نعم).
(4) الخليل، العين: (نعم).
(5) الرّاغب، المفردات: (نعم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حقق).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ الوَعْدِ الحَسَنِ لِأهْلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ

إنَّ الذينَ آمَنُوا باللّهِ تَعالى فَوَحَّدوه، وصدّقوا رَسولَهُ ﷺ واتَّبعوه، وأطاعوا اللّهَ سُبْحانَهُ، فعَمِلوا بِما أمَرَهُم في كِتابِهِ وعلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ، وانْتَهَوْا عمّا نَهاهُم عَنْهُ؛ لَهُمْ بساتينُ النَّعيم، ماكِثين فيها إلى غَيْرِ نِهايَةٍ، وعَدَهُم اللّهُ تَعالى وعْدًا حقًّا، لا شكَّ فيه ولا خُلْفَ لَهُ، وهُوَ سُبْحانَهُ القويُّ الذي لا يُغْلَبُ، الحَكيمُ في تَدْبيرِ خَلْقِه، فَيَضَعُ الأشياءَ مواضِعَها اللّائقةَ بِها[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

ذِكْرُ جَزاءِ المُقْبِلينَ عَلى الآياتِ بَعْدَ ذِكْرِ جَزاءِ المُعْرِضينَ عَنْها

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ عَمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلكَ أنَّ الآيةَ المتقدِّمَةَ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ وهُوَ إذا كان هذا جزاءَ المُعْرِضينَ عن آياتِ اللّهِ تَعالى، فَما جزاءُ المُقْبِلين عليها، القابِلين إيّاها؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية[2]، ويمكنُ أنْ تكونَ هاتان الآيتانِ بيانًا تفصيليًّا لما أُجمِلَ سابقًا من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ففصَّلَتِ الفلاحَ بنيلِ الخُلودِ في جنّات النَّعيم، ويكونُ ذِكْرُ قصّةِ المُستكبرينَ عن الآياتِ اعتراضًا بينَ التّفصيلِ والمُفصّل.

فائِدَةُ التَّوْكيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾ والجُمْلَةِ الاسْميَّةِ والتّقديمِ للخبرِ:

الرَّدُّ عَلى إنْكارِ الكَفَرَةِ والمُبالَغَةُ في الاهْتِمامِ بِمَضْمونِ الخَبَرِ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ وتقديمِ الخبرِ ﴿لَهُمۡ﴾؛

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 132، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 411.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 151، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1562 - 1563.

مراعاةً لإنكارِ الكَفَرَة، فكان في الآيةِ مُواجهةٌ لإنكارِهم أن يكونَ للمُؤْمنين كُلُّ هَذا النَّعيم[1]، ويجوزُ أن يكونَ التَّوكيدُ مُبالغَةً في الاهْتِمام بِمَضْمونِ الخَبَر.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

الـتَّرْغيـبُ في تَحْقيقِ الأوصافِ المُـقْـتَـضيَـةِ الـتَّـكْـريـمَ في الآخِرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ إلَيْه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوْصوليَّة في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إيماءً إلى نَوْعِ الخَبَرِ المَحْكوم به على المسنَدِ إلَيْه؛ وأنَّه مِن جنسِ التَّكْريمِ والرِّفْعَة، وفيه إعلامٌ بعِلَّة اسْتِحْقاقِهم جنّاتِ النّعيم المذكورةَ في قولِه: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وأنَّ هذه المَكْرُمَةَ مُسَبَّبةٌ عَنْ إيمانِهِمْ وعَمَلِهم الصّالح، وفي هذا تَرْغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيمانِ والعمَلِ الصّالِح؛ ليَنْدَرِجَ العبْدُ في سِلْكِ المُكْرَمينَ بجَنّاتِ النَّعيم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ جَمْعًا:

كَـثْرَةُ المُؤْمِـنينَ الـعـامِـلـينَ الصّالِحاتِ

إيرادُ الاسمِ المَوْصولِ جَمْعًا في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ فيهِ إشْعارٌ بِكَثْرَةِ أهلِ الإيمانِ الذينَ جمَعُوا معَ الإيمانِ العمَلَ الصّالِحَ، وكونُهُم كَثيرينَ في أنفسِهم لا يَلْزَمُ منهُ أنَّهُم أكثَرُ الخَلْقِ كَما هُو ظاهِرٌ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي:

تَـحَـقُّقُ وصْـفِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ فيهِمْ

جيءَ بصِلةِ المَوْصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ معطوفًا عليه فعلًا ماضيًا ﴿وَعَمِلُواْ﴾ في قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ للدّلالَةِ علَى تحقُّقِ وصْفِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ فيهِمْ، وفي إسنادِ الفعلينِ المتعاطفينِ إلى ضميرِ الجمعِ دليلٌ على توافُقِ جماعةِ المؤمنينَ على الإيمانِ والعمَلِ الصّالح.

نُكْتَةُ حَذْفِ المُتَعَلَّق:

حُذفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو المُؤْمَنُ بِه، وفي ذَلِك مَسْلَكان:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 151، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1573.

أحدُهما: ظُهورُ أفرادِ المُؤْمَنِ به؛ وذلك لأنَّ لِلإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطْلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِنْ غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه، والآخَر: إرادَةُ العُمومِ؛ وذَلِكَ لِأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُشْعِرٌ بالعُمومِ، والمَعْنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرْعًا.

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ وهُمْ مُقِرّونَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

فائِدَةُ عَطْفِ عَمَلِ الصّالِحاتِ عَلى الإيمانِ:

شَرَفُ العَمَلِ الصّالِحِ وعَظيمُ مَنْزِلَتِهِ

عُطِفَ العملُ الصّالح على الإيمانِ في قَولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهُوَ من بابِ الإطْنابِ بعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذْ إنَّ حقيقةَ الإيمانِ: قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فالعمَلُ داخِلٌ في مسمَّى الإيمانِ وحقيقتِهِ الشَّرعيَّةِ، والنُّكْتَةُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ التَّنبيهُ على شرفِ العمل الصّالحِ بذِكْرِه مرَّتين؛ **إحداهُما**: مُنْدَرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ، **والأُخْرى**: مُنْفَرِدًا، ويحتملُ أنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ كما هو الأصلُ، فتكونُ حقيقةُ الإيمان مجرّدَ التّصديقِ القلبيِّ بما يجبُ الإيمانُ به، ثمَّ عَطفَ عليه العملَ الصّالح؛ للدّلالةِ على أنَّ الممدوحينَ قد جمَعوا بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالح، وإنَّما قدّمَ الإيمان على العملِ الصّالح؛ لأنّه لا ينفَعُ عملٌ بلا إيمانٍ واعتقادٍ صحيح.

فائِدَةُ ذِكْرِ الصِّفَةِ وحَذْفِ المَوْصوفِ:

الإيجازُ في اللَّفْظِ اكْتِفاءً بِالقَرينَةِ

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ إنَّ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: وعَمِلُوا الأعمالَ الصّالحاتِ، والقَرينَةُ على تَعْيينِ المَحْذوفِ هُوَ الفِعْلُ ﴿وَعَمِلُواْ﴾، فاكتُفيَ بالقَرينَةِ عنِ التَّصريحِ بالمَوْصوفِ؛ اقْتِصادًا في اللَّفْظِ وإيجازًا، ولعلَّ الحذفَ للموصوف يشيرُ إلى أنَّ شأنَ المؤمنينَ أنْ يُقدِموا على الصّالح منَ الأعمال؛ فكأنَّ عملَهم الصّادرَ منهم لا يكونُ إلّا صالحًا، ولا يفارقُهم أينَما توجَّهوا.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العَمَلُ الصّالِحُ هُوَ الجامِعُ لِلإخْلاصِ والمُتابَعَةِ

(أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُرادُ بها العَهْدُ العلميُّ؛ وذلك أنَّ العملَ الصّالحَ معروفَةٌ حقيقَتُه في الشَّرعِ، وهو كلُّ عملٍ أمرَ به الشّرعُ الحنيف، وندبَ إلى عمله جماعةَ المؤمنين، ويَجوزُ أن تَكونَ اللّام لِلاسْتِغْراقِ العُرْفيّ[1]، وفي هذا ضَرْبٌ مِنَ المُبالغَةِ في وصفِ أهلِ الإيمانِ، حتَّى كأنَّهم ما تركُوا عملًا صالحًا إلّا ولَهُمْ فيهِ نَصيبٌ، والأظهرُ أنْ تكون اللّامُ للجنس، أي: إنّهم عملوا أفرادَ هذه الحقيقةِ الموسومةِ بالصّلاح، فيكونُ الجمعُ لإرادةِ الأنواع.

نُكْتَةُ الجمْعِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

أعْمالُ الخَيْرِ في الإسْلامِ كَثيرَةٌ أفرادُها ومُتَنَوِّعَةٌ مَجالاتُها

جُمِعَتْ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلإيماءِ إلى الإتْيانِ بها بأنواعِها دونَ الاكْتفاء ببَعْضِها؛ إذْ إنَّ أركانَ الإسلامِ وأعمالَ الخيرِ مُترابطةٌ، آخِذٌ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ، كما قال اللّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: 208].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾:

إثْباتُ كَرامَةِ أهْلِ الإيمانِ عِنْدَ رَبِّهِم تعالى

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ﴾ مِنْ قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرٌ لـ ﴿إِنَّ﴾، وفي التَّعْبيرِ بالخبَرِ جُمْلَةً اسْميَّةً مُبالَغَةٌ في ثُبوتِ الجِنانِ لَهُمْ؛ إثْباتًا لِكَرامَتِهِم عِنْدَ رَبِّهِم سُبْحانَهُ.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾:

لَيْسَ لِلمُعْرِضينَ عَنْ آياتِ اللّهِ تَعالى نَصيبٌ في جَنَّةِ الآخِرَةِ

اللّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لِلاخْتِصاص[2]، فلا يُشارِكُهُمْ فيها غيرُهُم، وفي ذلكَ تَعْريضٌ بأهْلِ الكُفْرِ الصّادّينَ عَن سبيلِ اللّهِ تَعالى، المُعْرِضينَ عَن آياتهِ بأنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ نَصيبٌ في هذهِ الجِنانِ.

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1569.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

تَخْصيصُ أهْلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ بِالنَّعيمِ المُقيمِ في الجَنَّةِ

قُدِّم الجارُّ والمَجْرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ - وهُما متعلَّق الخبرِ المَحْذوفِ - مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لإفادَةِ القَصْرِ والاخْتِصاصِ؛ لأنَّ تَقْديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ ذلكَ، والمَعْنى: لَهُم دونَ غيرِهم جنّاتُ النَّعيم، فكانَ أهلُ الإيمانِ والعمل الصّالحِ مَخْصوصينَ بِتِلْكَ الدَّرجاتِ العُلْيا، والنَّعيم المُقيم في الجَنَّة[1].

دلالَةُ الجَمْعِ في ﴿جَنَّٰتُ﴾:

تَنْشيطُ القُلوبِ لِتَحْصيلِ أسْبابِ دُخولِ الجَنَّةِ

في جَمْعِ الجَنّات مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ دلالَةٌ عَلى أنَّها ليسَتْ جنَّةً واحِدَةً، وإنَّما تَشْتَمِلُ عَلى جَنّاتٍ كثيرَةٍ مُتَعَدِّدة[2]؛ إذِ الجنَّةُ في الآخرةِ تشتمِلُ على جِنانٍ كثيرةٍ، وهذا أقْوى في التَّرغيبِ، وأنْشَطُ لقُلوبِ المُتلقّينَ على فِعْلِ أسبابِ تحصيلِها.

فائِدَةُ إضافَةِ الجَنّاتِ إلى النَّعيمِ:

خُلُوُّ نَعيمِ الجَنَّةِ مِمّا يُنَغِّصُهُ

أُضيفَتِ الجَنّاتُ إلى النَّعيمِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ باعْتِبارِ اشْتِمالِ الجَنّاتِ عليه، وفيهِ دِلالَةٌ عَلى أنَّهُ لا كدَرَ فيها أصْلًا، ولا شَيْءَ فيها ما يُنَغِّصُ عَليهِم حَياتَهُم، ويُعَكِّرُ علَيْهِم صَفْوَها، بَل لا شيءَ فيها غَيْرُ النَّعيم[3].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإضافة المَقلوبة:

بَيانُ الجَزاءِ الحَسَنِ لِأَهْلِ الإيمانِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ قلبٌ، والأصلُ: لَهُم نعيمُ الجَنّاتِ[4]، وعُدِلَ عن هذا إلى ما في النَّظمِ القُرآنيِّ لِقَصْدِ المُبالغة؛ إيغالًا في بيانِ الجَزاءِ الحَسَنِ لأَهْلِ الإيمانِ، إذ أفادَ قلبُ الإضافة أنَّ النّعيمَ صارت له جنّاتٌ مُشتمِلٌ عليها، فتكونُ جميعُ الجنات عبارةً عن نعيمٍ محض، بخلافِ (نعيمِ الجنّات) الدّالِّ على عدم تمحُّضِ النّعيمِ وكمالِه في الجنّات.

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1572.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1571.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 151، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1571.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70.

اشْتِمالُ الجِنانِ عَلى النَّعيمِ الكامِلِ

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ للجنسِ الدّالّ على الكَمالِ، أي: لهُم جنّاتٌ مُشْتَمِلَةٌ على النَّعيم الكاملِ وحقيقةِ النّعيم، ولأجلِ إرادةِ الجنسِ قُلبتِ الإضافة، فالجنّاتُ قد تَجسَّد فيها النّعيمُ الكليُّ وتحقّق، حتّى غدتِ الجنّاتُ مُعبّرةً عن ذاتِ النَّعيمِ الكامل.

اللّذّاتُ الدُّنْيَويَّةُ مُعَرَّضَةٌ لِلانْقِطاعِ بِخِلافِ نَعيمِ الجَنَّةِ

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾:

لفظُ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ منصوبٌ عَلى الحالِ، والقَصْدُ مِن إيرادِ الحالِ بيانُ تمامِ النَّعيم، واحْتِراسًا مِن تَوَهُّمِ انْقطاعِه بما تَعَوَّدوا مِن انْقطاعِ اللَّذّاتِ في الدُّنيا؛ إذْ هيَ مُعَرَّضةٌ للزَّوال، إمّا بِمَوْتِ المُنْعَمِ عليهِ، أو بذَهابِ النِّعْمةِ نَفْسِها[1].

الحَثُّ عَلى الاجْتِهادِ في طاعَةِ اللهِ تَعالى

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الفاعِلِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

عُبِّرَ باسْمِ الفاعلِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ دونَ اسْمِ المَفْعولِ (مُخلَّدين) لِقَصْدِ المبالغةِ، حتّى كأنَّهم اخْتاروا الخُلود بأَنْفُسِهم، بما قدَّموه من إيمانٍ وعمَلٍ صالحٍ، وفي ذلكَ مزيدُ حَثٍّ وحَضٍّ على الاجتهادِ في طاعَةِ اللّهِ تَعالى؛ لِلانْدِراجِ في سِلْكِ هَؤُلاءِ[2].

عَظيمُ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ المُؤْمِنينَ

مَعْنى (في) ودِلالَتُها:

حَرْفُ الجَرِّ (في) الواردُ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ يُفيدُ مَعْنى الظَّرْفيَّة، وذلكَ يُوحي بِقُوَّة مُلابَسَتِهم بالجَنَّة، بحيثُ صارَتْ جَنّاتُ النَّعيم ظَرْفًا لَهُمْ، وهُم بِداخِلِها تُحيط بِهِم أشْجارُها، وتَجْري مِن حَوْلِهِم أنْهارُها، لا يُدْرِكونَ أطْرافَها

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1572.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1572.

ونهايتَها لشِدَّةِ اتِّساعِها[1]، وذلكَ مِن عَظيمِ فَضْلِ اللّه تَعالى عليهم، كما أفادتِ الظّرفيّةُ الاحتراسَ عن كونِ خلودِهم في جنّات النَّعيم وغيرِها، إذ حدَّد مكانَ الخُلود، فاجتمعَ التّحديدُ الزّمانيُّ المُتمثّلُ بالخلود، والمكانيُّ المُتمثّلُ بـ﴿فِيهَا﴾.

نُكْتَةُ الفَصْلِ والمَوْقِعُ النَّحويُّ:

صِدْقُ وعْدِ اللهِ تَعالى في الأحْوالِ كُلِّها

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ عمّا قبلَهُ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ لورودِهِ تأكيدًا لَهُ عَلى وجهِ التَّذْييلِ الجاري مَجْرى المَثَلِ؛ لاسْتِقْلالِهِ بالإفادَةِ وعدمِ افْتِقارِهِ إلى ما قَبْلَهُ في إدْراك تمامِ المُرادِ مِنْهُ، وهُو تذييلٌ أعَمُّ مِمّا قَبْلَهُ؛ لأنَّ اللّه سُبْحانَهُ وعَدَ أهلَ الإيمانِ العامِلين الصّالحاتِ بجَنّات النَّعيم، ثُمَّ ذيَّل ذلك بِحُكْمٍ عامٍّ يَشْمَلُ ما تقدَّم وغيرَهُ، وأمّا موقِعُهُ النّحويُّ فهو مفعولٌ مطلقٌ نائبٌ عن فعلِهِ لبيانِ النّوع.

فائِدَةُ إضافَةِ المفعولِ المطلَقِ:

الثِّقةُ بالوَعْدِ عَلى قَدْرِ الثِّقَةِ بِالواعِدِ

أُضيفَ الوَعْدُ الواقِعُ مفعولًا مطلقًا إلى الاسْمِ الأحْسَنِ (اللّه) في قولِهِ تَعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾؛ لِما تَقرَّر مِن أنَّ الثِّقةَ بالوَعْدِ عَلى قَدْرِ الثِّقة بالواعد، فبيَّنَ اللّهُ ﷻ أنَّ هذا الوعدَ وعدُهُ الذي لا وعْدَ أصْدَقُ مِن وعْدِه[2].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ﴿حَقّٗاۚ﴾:

وَعْدُ اللهِ تَعالى لا يَتَخَلَّفُ بِحالٍ

﴿حَقّٗاۚ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مفعولٌ مُطْلَقٌ مُؤَكِّد لمَضْمونِ جُمْلَةِ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ باعْتِبارِ ما فيهِ مِنَ الفِعْلِ المَحْذوفِ؛ إذِ التَّقديرُ: وعَدَكُم اللّهُ تَعالى وعْدًا حَقًّا[3]، والحقُّ هو الثّابتُ الذي لا يَدْخلُه الرَّيبُ بوجهٍ من الوُجوهِ؛ فالمَعْنى: أنَّ اللّه سُبحانَهُ وعَدَ وعْدًا ثابِتًا لا يتَخلَّف بحالٍ.

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1573.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 151.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 91.

بَلاغَةُ تَوالي المُؤَكِّدَين:

التَّأكيدُ عَلى استِحْقاقِ أهْلِ الإيمانِ النَّعيمَ

توالَتِ المُؤَكِّداتُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾، فقولُهُ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ مطلَقٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الوعد، و﴿حَقّٗاۚ﴾ مؤكِّدٌ لغَيْرِه[1]، دافعٌ لاحتمالِ النَّقيضِ والكذبِ في الكلامِ، كقولهم: (أنتَ ابني حقًّا)، وهذا التَّوكيدُ واقعٌ بسببِ أنَّ الكفّار كانوا يَرَوْنَ أنفُسَهُم - لما كانَ لَهُم مِن سُلْطَة ومنَعَة وشَوْكَة - أكبَرَ مِنْ أن يُعذَّبوا، ويَرَوْنَ المُؤمنينَ - لقلَّتِهِم واسْتِضْعافِهِم - أدْنى من أن يُمْنَعوا أو يَفوزوا بالخُلْدِ؛ حسدًا مِنْهُم واسْتِكْثارًا للنِّعْمَةِ عليهم، فجاءَتِ الآياتُ تُؤَكِّدُ ما أعدَّهُ اللّهُ سُبْحانَهُ لِعبادِهِ المُؤْمنينَ، مُشيرةً إلى اسْتِحْقاقِهِم ذَلكَ النَّعيم، وأنَّهم له أهلٌ بما سَبَقَ لَهُم مِن إيمانٍ وعمَلٍ صالِحٍ، وتُشعِلُ الآياتُ في نفوسِ الكافِرين نارَ الحِقْدِ والحَسَد، وتُحرِّكُ الكامِنَ في أنفُسِهِم مِنَ الحَنَقِ والغَيْظِ[2].

مَعْنى الواوِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾:

ثُبوتُ وصْفِ العِزَّةِ والحِكْمَةِ للهِ تَعالى

الواوُ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حاليَّةٌ[3]، والضَّمير (هُوَ) في محلِّ رفعِ مبتدأٍ، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبرُهُ، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: خبرٌ ثانٍ، وفي إيرادِ جُمْلَةِ الحالِ اسميَّةً إيماءٌ إلى ثُبوتِ ما تَضمَّنَه الاسْمانِ الكَريمانِ مِنَ الأوصافِ للّهِ سُبْحانَهُ.

بَلاغَةُ القَصْرِ:

كَمالُ أوصافِ اللهِ ﷻ

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أُسْلوبُ قصرٍ، وهو من قَصرِ الصِّفَةِ على المَوْصوفِ، وطريقُه: تعريفُ جُزْأي الإسْنادِ: الضَّميرُ في (هُوَ) و ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ففيه قَصْرُ صفةِ العِزَّةِ والحُكْمِ والحِكْمَةِ على اللّهِ سُبحانَهُ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللّامِ، سواءٌ أكان مقدَّمًا أمْ مؤخَّرًا، وهذا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 411.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1573.

(3) الدّعّاس وغيره، إعراب القرآن الكريم: 3/ 26.

القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذْ إنَّ ظاهرَ قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يَقْتَضي نفيَ كونِ غَيْرِه عَزيزًا حَكيمًا، ولَيْسَ الأمرُ كذلكَ؛ فإنَّ العِزَّة والحِكْمَة مراتِبُ ودرجاتٌ، ويُوصَفُ المخلوقُ بهما، ولَكِنْ لا نِسْبَة بينَ عِزَّة اللّهِ تَعالى وحِكْمَته وبينَ عِزَّةِ المَخْلوقِ وحِكْمَته، فأفادَ هذا أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ وليس حَقيقيًّا تَحْقيقيًّا، والمعنى: أنَّ اللّهَ ﷻ هو العَزيزُ الكامِلُ في عِزَّتِه، فلا يَغْلِبُه شَيْءٌ، الحكيمُ الكامِلُ في حِكمَتِهِ فلا يَخْرُج شَيْءٌ عَن مَوْضِعه اللّائقِ بِه، وهو الحكيمُ الكامِلُ في حُكْمِه، فلا يُنقضُ حُكْمٌ حَكَمَ بِه، فكانَتْ عِزَّةُ غيرِه وحِكْمَتُهُ وحُكْمُه بالنِّسْبةِ إلى عِزَّةِ اللّهِ سُبحانَهُ وحكْمَتِه وحُكْمِهِ ليْسَتْ بشيءٍ[1].

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ:

ذُيِّلت هذهِ الآيَةُ الكَريمةُ بالاسْمَيْنِ الكَريمَيْنِ من أسماءِ اللّه تَعالى، وهُما: العَزيزُ والحَكيم، فَقال سُبْحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لِمُلاءَمَتِهِما ما تقدَّم قبلُ، من وعْدِ المُؤْمنين ووعيدِ الكافرين، والمعنى: أنَّه سُبْحانَهُ بعِزَّته لا يَمْنَعُه شَيْءٌ من إنْجازِ وعْدِه لأهْلِ الإيمان، ووَعيده لأهْلِ الكُفْر، وذلكَ كُلُّه صادرٌ بِمُقْتَضى حِكْمتِهِ، فكلٌّ منْهُما يَسْتَحِقُّ ما قُدِّر لَهُ[2]، ويمكنُ أنْ نلمحَ أنَّ ذِكْرَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الدّالِّ على القُوّة يتناسبُ معَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ الذي لا يمنعُ شيءٌ من إنجازِه، وذكرَ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الدّالِّ على أنَّ حُكمَه لا يتخلّفُ ولا يُنقَضُ يتلاءمُ مع ﴿حَقّٗاۚ﴾، وبذلك يكونُ ذكرُ الاسمينِ الجليلينِ تعليلًا لإنجازِ الوعْدِ وعدَمِ الكذب فيه بأسلوبِ اللفِّ والنَّشر المرتَّب.

كُلٌّ مِنْ أهْلِ الإيمانِ والكُفْرِ مُسْتَحِقٌّ لِما قُدِّرَ لَهُ

نُكْتَةُ تَقْديمِ صِفَةِ العِزَّةِ على الحِكْمَةِ:

قُدِّم اسْمُ اللّهِ تَعالى العَزيز على اسمِه الحكيم في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ من بابِ تَقْديمِ السَّبَبِ عَلى المُسَبَّب؛

الإتْقانُ والإحْكامُ نـاشِـئـانِ عَـنِ العِلْمِ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1574.

(2) فاطمة محمد شلدان، المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، ص: 49.

وذلكَ لأنَّه سبحانه عزَّ فحَكَمَ، وهو كَتَقْديمِ العليم على الحَكيم؛ لأنَّ الإحْكامَ والإتّقانَ ناشِئانِ عَنِ العلم[1]، كما حصلَ بهذا التّقديم التّناسبُ معَ الوعدِ ومُؤكِّدِه ﴿حَقًّا﴾.

نُكْتَةُ المُبالَغَةِ في الاسْمَيْنِ الجليلَيْنِ:

اللهُ ﷻ شَديدُ العِزَّةِ عَظيمُ الحِكْمَةِ

في بِناءِ اسْمَي اللّهِ تَعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على أمثلَةِ المبالغَةِ، دِلالَةٌ على شدَّةِ العزَّة وعظيم الرَّحْمَةِ، إذِ العِزَّةُ والحِكْمَةُ مِن أوصافِ اللّهِ تَعالى، وأوصافُه سُبْحانَهُ لا مُنْتَهى لِكَمالِها.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَمَل والفِعْل والصُّنْع:

الفِعْلُ تأثيرٌ في الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ المُؤَثِّرِ والعَمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيْءِ والصُّنْعُ تَأثيرٌ على جِهَةِ الإتْقانِ

تَفْتَرِقُ هذهِ الأحْداثُ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ، وإن كانَ يَجْمَعُها مَعْنى التَّأثيرِ في الشَّيء، فالفِعْلُ: هُو التَّأثيرُ في الشَّيء من جِهَةِ مُؤَثِّر، والعَمَلُ: إيجادُ الأثَرِ في الشَّيْء، كَما يُقال: فلانٌ يَعْمَلُ الطّينَ خزَفًا، ولا يُقال: يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لأنَّ المُرادَ من ذلكَ الشَّيْءِ هو إيجادُهُ.

وأمّا الصُّنْعُ: فَهُو تَأثيرٌ في شَيْءٍ ما على جِهَةِ الإتْقانِ، ومِنْهُ قولُهم: سيفٌ صَنيعٌ؛ إذ جُوِّدَ عمله، فيكون الفعلُ أعمَّ مطلقًا من العمَلِ والصُّنْعِ، والعملُ أعمَّ مُطلقًا منَ الصُّنع.

و(الفِعْلُ) في القُرآن الكريم إذا أُطْلِقَ في موضع القُدْرَةِ الإلَهيَّة؛ فإنَّه يدُلُّ عَلى الوَعيدِ الشَّديد وسُرْعَةِ إنْفاذِ الأمْر، كقولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ [إبراهيم: 45]، وقوله سُبْحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]، وكذلكَ (فَعَل) إذا وردَ مَحْكيًّا صدورُه عنِ الخَلْق؛ فإنَّه يُفيدُ السُّرْعَة وعدمَ الإبْطاء، ومنهُ قَوْلُ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، فَهُم يأتونَ ما يُؤْمَرون به بِسُرْعةٍ، وكذلكَ قولُ اللّهِ ﷻ:

(1) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 2/ 183.

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ﴾ [الحجّ: 77]؛ فإنَّه بِمَعْنى: سارِعوا، ووردَ إطْلاقُه على الفِعْلِ الشَّنيعِ، كما قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: 155]، وقال سُبْحانه: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

وأمّا العملُ؛ فيُطلَقُ عَلى الصّالِحِ والسَّيِّئِ، ولِذا قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام: 54]، ثُمَّ إنَّ دِلالةَ العَمَلِ تَرِدُ لِما فيهِ امْتِدادٌ في الزَّمَنِ ونَوْعُ إبطاءٍ، كما قالَ اللّهُ سُبْحانَهُ: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13].

وأمّا الصُّنْعُ؛ فَهُو أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ مِن جِهَةِ كَوْنِ الفِعلِ يأتي في الحيوانِ والجَماد، ولَكِنَّ الصُّنْعَ لا يَأتي إلّا مَعَ العالِمِ؛ إذْ فِعْلُه يَتَطَلَّبُ إتْقانَ العملِ وإحْكامَهُ، كما قال اللّهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النّمل: 88][1].

الوَعْد والعَهْد والميثاق:

العَهْدُ أخَصُّ مِنَ الوَعْدِ

العهدُ أخَصُّ منَ الوعد؛ من جِهَةِ أنَّ العَهْدَ ما كانَ مِنَ الوَعْدِ مَقْرونًا بشرطٍ، كقولِكَ: إنْ فعلتَ كَذا؛ فَلَكَ كَذا وكَذا، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، أي: أعْلَمْناهُ أنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنَ الجَنَّةِ ما لَم يَأكُل مِنَ الشَّجرةِ التي نُهيَ عَنْها، ثُمَّ إنَّ العَهْدَ يَقْتَضي وفاءً، والوعدَ يَقْتَضي إنجازًا، يُقال: أنجزَ الوعدَ، ووفَّى بالعهْدِ، كَما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «لا إلَهَ إلّا اللّهُ وحْدَهُ، أنْجَزَ وعْدَهُ»[2]، وقال اللّهُ سُبْحانَه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ [الأنعام: 152][3]، وقد يُستعمَلُ الوَفاءُ مَعَ الوعْدِ أيضًا.

(1) محمّد الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 186 - 188.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1218).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 57 - 58.

وأمّا العَهْدُ والميثاقُ؛ فَقَدْ دَرجَ جمعٌ مِنْ أَصْحابِ المُعجماتِ على التَّسويةِ بينَهُما[1]، ولعلَّهم أرادوا بذلك التَّقريبَ على عادتِهم في ذلك، والتَّحقيق: أنَّ بينَ العهدِ والميثاق فرقًا؛ وهو أنَّ أصلَ الميثاقِ: العهدُ المؤكَّدُ[2]، أو المؤكَّد بخصوص اليَمين[3]؛ وعلى كِلا الاحتمالَيْنِ؛ فإنَّ العَهْدَ أعَمُّ مِنَ الميثاقِ مطلقًا، فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كلُّ عهدٍ ميثاقًا، ويدُلُّ لهذا الفرقِ الاشتقاقُ اللُّغويُّ؛ فإنَّ الميثاقَ مِنْ قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أحكمتُهُ[4]، وذكر الشَّوكانيّ فرقًا آخرَ بينَهما[5] لا يَرْجِعُ إلى اللُّغةِ؛ وهو أنَّ العهدَ: جميعُ ما عَهِدَ اللّهُ عَلى العبادِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ: ما أخذه اللّه تعالى على عبادِه حينَ أخرجَهُم مِنْ صُلْبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172].

(1) ابن سيده، المحكم: (وثق).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 57.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 206.
(4) ابن القطّاع، كتاب الأفعال: 3/ 304.
(5) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 94.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ [لقمان: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

سَوْقُ أدِلَّةِ إتْقانِ أفْعالِ اللهِ تَعالى وإحْكامِها

لمّا ختَم اللّهُ سُبْحانَهُ الآيةَ المُتقَدِّمة باسْمَيْه الجَليلَيْن ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وما يَتضَمَّنانه من صِفتَي العِزَّةِ - وهيَ غايةُ القُدْرَةِ - والحِكْمَة - وهيَ ثمرَةُ العِلْم -؛ أعقبَهُ ببيانِ ما دَلَّ علَيْهما مِن إتْقانِ أفْعالِه وإحْكامِها، فقالَ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَمَدٖ﴾: (عمد) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى اسْتِقامةٍ في شيءٍ على وجهِ الانْتِصابِ أوِ الامْتِداد، يُقال: عَمَدْتُ الشَّيءَ؛ أي: أسْنَدْتُه، والشَّيْءُ الذي يُسنَدُ إليه يُسمّى: عِمادًا، والجمع: عُمُدٌ، ويُقال أيضًا: عَمودٌ، والجمعُ: عَمَدٌ[2]، ومِنَ البابِ: العَمْدُ وهُو ضِدُّ الخطأ؛ سُمّي بذلك لأنَّ فيهِ قَصْدًا للشَّيءِ واسْتِنادًا عليه[3]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ أي: خَلقَها مَرْفوعةً بغَيْرِ شَيْءٍ تَسْتَنِدُ إليه[4]، وذلك بناءً على تمامِ الوقفِ عِنْدَ ﴿عَمَدٖ﴾[5].

2) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: (رسا) تدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى مَعْنى الثَّبات،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عمد).
(5) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 178.

يُقال: رَسا الشَّيء يَرْسو؛ إذا ثبَتَ، وأَرْسى اللّهُ تَعالى الجبالَ؛ أي: أَثْبَتها[1]، والرَّواسي مِنَ الجِبال: الثَّوابِت الرَّواسِخ[2]، ومنهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾.

3) ﴿تَمِيدَ﴾: (ميد) تَدُلُّ تَصريفاتُها عَلى أصْلَيْنِ كُلّيَّيْنِ؛ أحَدُهما: حركَةٌ في شَيْءٍ، والآخَرُ: نَفْعٌ وعَطاءٌ، ومِنْهُ قولُهُم: مادَ، أي: أَطْعَمَ ونفعَ، ومنهُ سُمّيتِ المائدةُ مائدةً[3]، ومِنَ الأوَّل: المَيْدُ؛ وهُو الحركَةُ والمَيْلُ، ومنهُ قَوْلُهُم: فلانٌ يَميدُ في مِشْيَتِه؛ إذا تَكَفَّأ[4]، وخصَّ الرّاغِبُ المَيْدَ: باضْطِرابِ الشَّيءِ العَظيم، كاضْطِرابِ الأرْض[5]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لِئَلّا تَضْطَرِبَ بِكُم الأرْضُ.

4) ﴿وَبَثَّ﴾: (بث) تدورُ تَصاريفُها على مَعْنى تفريقِ الشَّيْءِ وإظْهارِه[6]، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦﴾ [الغاشية: 16]، فإنَّ مَعْناه: مُفَرَّقةٌ في مَجالِسِهم[7]، وقال الفَرّاءُ: هيَ الكثيرَةُ[8]، وهَذا لازِمُ التَّفريقِ غالبًا، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: فَرَّقهُم في الدُّنيا[9].

5) ﴿دَآبَّةٍ﴾: (دب) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على حركَةٍ عَلى الأرْضِ هيَ أخفُّ مِنَ المَشْي، ومنهُ قولُهُم: دَبَّ دَبيبًا[10]، والدَّبُّ: المَشْيُ الخَفيفُ[11]، والدّابَّةُ: كُلُّ ما مَشى عَلى الأرْض[12]، وتُطْلَقُ عَلى ما كانَ يَعْقِلُ مِنْها وما لا يَعْقِل[13].

6) ﴿زَوْجٍ﴾: (زوج) تدورُ تَصْريفاتُها عَلى مُقارنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ[14]، ومنهُ قَوْلُهم لِكُلِّ واحدٍ مِن القَرينَيْنِ مِنَ الذَّكر والأُنْثى في الحَيواناتِ المُتزاوِجَة: زوجٌ، ولِكُلِّ قرينَيْن فيها وفي غَيْرِها:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رسا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ميد).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 242.
(5) الرّاغب، المفردات: (ميد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بث).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بث).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 258.
(9) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (بثث).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دب).
(11) الرّاغب، المفردات: (دب).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (دبب).
(13) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دب).
(14) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زوج).

زَوْجٌ، كالنَّعْلِ والخُفِّ[1]، والزَّوْجُ: الجِنْسُ والصِّنف، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي: مِن كُلِّ جِنْسٍ حَسَنٍ[2].

7) ﴿مِن دُونِهِۦۚ﴾: (دون) تدُلُّ تَصريفاتُها عَلى مُداناةٍ ومُقاربَةٍ، يُقال: هَذا دونَ ذاكَ، أيْ: هُو أقْرَبُ مِنْهُ[3]، ويُقالُ لِلقاصِرِ عَنِ الشَّيْءِ: دُوْنٌ، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118]، أي: مِمَّن لَم تَبلُغ مَنزِلَتُه مَنزِلَتَكُم في الدّيانة، وقولُ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48]، أي: ما كانَ أقَلَّ مِن ذلكَ، وقيل: ما سِوى ذَلك، والمَعْنيانِ مُتَلازِمان[4]، ويَرِدُ (دون) بِمَعْنى (غير)، ومنهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ مَظاهِرِ عِزَّةِ اللهِ تَعالى وحِكْمَتِهِ دِقّةُ الخَلْقِ وإتقانُه

خلقَ اللّهُ تعالى السَّماواتِ، ورَفَعَها بِغَيْرِ عمَدٍ كما تُشاهِدونَها، وألقى في الأرْضِ جِبالًا ثابِتَةً راسِخَةً؛ لِئَلّا تَضْطَرِبَ بِكُمُ الأرضُ وتتَحَرَّكَ فَتَفْسُدَ حياتُكُم، ونَشَرَ في الأرضِ مُخْتَلَفَ أنواعِ الدَّوابِّ، وأنزَلَ مِنَ السَّحابِ مَطَرًا، فأنْبَتَ بِهِ مِنَ الأرْضِ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ نافِعٍ حسَنِ المَنْظَرِ، وكُلُّ ما تُشاهِدونَهُ هُو خَلْقُ اللّهِ سُبحانَهُ، فَأَروني - أيُّها المُشْرِكونَ -: ماذا خَلَقَتْ آلِهَتُكُم التي تَعْبُدونَها مِن دونِ اللّهِ سُبحانَهُ؟ بَلِ المُشْرِكون في ذَهابٍ بَيِّنٍ عَنِ الحَقِّ والاسْتِقامَةِ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فَصلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

دَلائِلُ عِزَّةِ اللهِ سُبْحانَهُ وحِكْمَتِهِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ عَمّا

(1) الرّاغب، المفردات: (زوج).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 713.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(4) الرّاغب، المفردات: (دون).
(5) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 411.

قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئنافًا نحويًّا مَسوقًا للاسْتِشْهادِ بِما فُصِّل فيهِ على عزَّتِه وحِكمتِه، وفيه تَمْهيدٌ لقاعِدَةِ التَّوحيدِ وتقريرِه، وإبطالُ أمْرِ الشِّركِ وتبكيتُ أهلِه[1]، ويمكنُ أنْ يكونَ الفصلُ دالًّا على أنَّ آياتِ هذا الكتابِ الحكيمِ مذكورةٌ للجميعِ، فهي هدًى ورحمةٌ للمحسنين؛ إذ يتأمَّلونها ويُدركون أنَّ لهذه المخلوقاتِ العجيبةِ المُتحدَّثِ عنها خالِقًا عزيزًا حكيمًا، وأنَّ الآخَرين عندما يَسمعونها يتهكَّمونَ بها، ولا ينتفعونَ بمضامينِها، فذكرَ الآياتِ التي سبقَ التّنويهُ بانقسامِ النّاسِ إزاءَها إلى فريقين: مُؤمنٍ وكافرٍ.

نُكْتَةُ خُلُوِّ الآيَةِ مِنَ التَّوْكِيدِ:

الاحْتِجاجُ عَلى إفْرادِ اللهِ تَعالى بِالعِبادَةِ

سيقَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ دونَ توكيدٍ؛ وذلِك لأنَّهُ لا أحدَ يدَّعي أنَّه خَلَقَ السَّماواتِ أو شارَكَ في خَلْقِها، فالنّاسُ كُلُّهم مَفْطورونَ على الإقْرارِ بِخالِقِهم ﷻ، إلّا مَن أنْكَر ذلكَ عَلى وجْهِ المُكابرةِ، فَفي تَرْكِ التَّوْكيدِ إيماءٌ إلى أنَّ ما ذُكِرَ أمْرٌ مُسَلَّمٌ به، فيَصِحُّ بذلكَ الاحْتِجاجُ بالمُتَّفَقِ عليهِ عَلى المُخْتَلَفِ فيهِ، وهُو إفرادُ اللّه تعالى بالعِبادَةِ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإيماءُ إلى عُمومِ السَّماواتِ وعُمومِ بِقاعِ الأرْضِ

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، هي لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ السَّماواتِ وعُمومَ بقاعِ الأرضِ المُنْدَرِجةِ في لَفْظِها، فاللَّفظانِ شامِلانِ لكلِّ ما يَصْدُقُ عليهما مِن مَعْنًى، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السَّماواتُ السَّبْعُ، وفي لَفْظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأرضُونَ السَّبْعُ كُلُّها.

نُكْتَةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفْرادِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اخْتارَ النَّظْمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِالسَّماواتِ جَمْعًا في قولِه تَعالى:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 152، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 80.

السَّماواتُ مَقَرُّ المَلائِكَةِ ومَحَلُّ دارِ الجَزاءِ

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بِها ذواتُ السَّماواتِ بأعْدادِها الكثيرَةِ، والسَّماواتُ هيَ مَقَرُّ الملائكَةِ ومَحَلُّ دارِ الجزاءِ، ومَهْبِطُ المَلائِكَة والوَحْي، بِخِلافِ ما إذا أُريدَ جِهَةُ العُلُوِّ؛ فإنَّها تَرِدُ مُفْرَدَةً[1]، ولَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأرْض) مجموعَةً في القرآنِ الكريمِ مُطْلقًا، ومِنْها قولُهُ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، فإنَّ السَّماءَ إذا ذُكِرَت مجموعَةً جيءَ بلفظِ الأرض مُفْرَدًا في جميعِ مواضِعِها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِهِ، والجُسْأَةُ[2] التي تعرِضُ للَّفْظِ، حتَّى إنَّ النَّظْمَ لَيَخْتَلُّ بسببِ ذلك[3].

نُكْتَةُ تَقْديمِ خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عَلى الإلْقاءِ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الآيَةُ في السَّماواتِ أعْظَمُ مِنْها في الأرْضِ

قُدِّم ذِكر السَّماواتِ عَلى الأرْضِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾؛ لاقْتِرانِهِما في سِياقِ ذِكْرِ الدَّليل عَلى رُبوبيَّة اللّهِ تعالى ووحدانيَّته، ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماوات أعظَمُ مِنْها في الأرض؛ لِسَعَتِها وعِظَمِها، وما فيها من كَواكِبِها وبُروجِها، واسْتِغْنائِها عَن عَمَدٍ تُقِلُّها أو عِلاقة تَرْفَعُها، ولِهَذا أمَرَ اللّهُ سُبْحانَهُ أن يُرْجِعَ البَصَرُ فيها كَرَّةً بعدَ أُخْرى، ويُتأمَّلَ استواؤُها واتِّساقُها، وبراءَتُها مِنَ الخَلَلِ والفُطور؛ فكانَتِ الآيَةُ فيها أعْظَمَ مِنَ الأرْضِ[4].

مَعْنى الباءِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾:

نَفْيُ العَمَدِ عَنِ السَّماواتِ حاصِلٌ مِنْ أوَّلِ وقْتِ خَلْقِها

الباءُ في ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ دالَّةٌ عَلى المُصاحبَةِ، أيْ: أنَّ خَلْقَ السَّماوات وقَعَ مُصاحِبًا لِنَفْيِ العَمَدِ عَنْها، فَلَمْ تُخْلَق بعَمَدٍ ثُمَّ بَعْدَ اسْتِقْرارِها أُزيلَ ذَلِكَ العَمَد، بَل نَفْيُ العَمَدِ عَنِ السَّماوات حاصِلٌ مِن أوَّلِ وقتِ خَلْقِها.

(1) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 121 - 122.
(2) من جسأ، وهو يدلُّ على صلابة وشدّة، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسأ).
(3) الرّافعيّ، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 160.
(4) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 214 - 125.

مُقارَنَةُ انْتِفاءِ العَمَدِ لِخَلْقِ السَّماواتِ

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾:

الجارُّ والمَجْرورُ ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ في مَوْضِعِ نَصْبٍ على الحالِ[1]، والمَعْنى: خَلَقَ السَّماواتِ خاليةً من عمدٍ، والأصلُ أنَّ الحالَ مُقارِنَةٌ لِعامِلِها في الزَّمن، فأفادَ ذَلِكَ أنَّ خَلْقَها من غَيْرِ عَمَدٍ واقِعٌ ابتداءً.

خُلُوُّ السَّماواتِ مِنْ أيِّ عَمَدٍ مُطْلَقًا

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَمَدٖ﴾:

نُكِّر لَفْظُ ﴿عَمَدٖ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؛ لإفادةِ العُموم، وذلكَ لِوُقوعِها في سياقِ النَّفي بـ (غَيْر)، وذلك يَقْتَضي خُلُوَّ السَّماواتِ من أيِّ عَمَدٍ مُطْلقًا، أو مِنْ أيِّ عَمَدٍ مَرْئيَّة على الإطْلاق.

كَوْنُ السَّماواتِ مَخلوقَةً مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ أصْلًا أدَلُّ عَلى عَظَمَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

دلالة التعبير بقوله: ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾:

جُمْلَةُ ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ يجوزُ أن تَكونَ في مَحَلِّ جرٍّ صفةً لـ ﴿عَمَدٖ﴾، أو تكونَ جُمْلَةً مُسْتَأنفةً، فَعَلى الأوَّلِ؛ يكونُ المَعْنى: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ مَرْئيَّةٍ لَكُم، فيكونُ النَّفْيُ مُتَسَلِّطًا على العَمَدِ المَرْئيَّة، وذلك يُفْهِمُ أنَّ لها عمَدًا، إلّا أنَّها غيرُ مَرْئيَّة لنا، وكَوْنُها لا تُرى أدخلُ في الحِكْمَةِ وأدَقُّ في اللَّطافَةِ والعَظَمَةِ؛ لاحْتياجِ مِثْلِ هذا الخَلْقِ إلى عَمَلَيْن: تَخْفيفِ الكَثيفِ، وتَقْويَةِ اللَّطيفِ، وعَلى الآخَرِ؛ يكونُ المَعْنى: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ مُطْلَقًا، والدَّليلُ عَلى ذَلِكَ أنَّكُم تَرَوْنَها كذلكَ لا عَمَدَ لها؛ إذْ لَو كانَ لها عَمَدٌ لكانَتْ مَرْئيَّةً في الغالِبِ، وهَذا أدَلُّ عَلى عَظَمَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّة؛ إذْ كانَ مِثْلُ هَذا الخَلْقِ الكَبيرِ الواسِعِ يُحْمَلُ بِمَحْضِ القُدْرَةِ[2].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 532.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 152 - 153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 279، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/ 382.

فائِدَةُ عَطْفِ قَوْلِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾:

بيانُ الأوتادِ المُقِرَّةِ بَعْدَ بيانِ العَمَدِ المُقِلَّةِ

لَمّا ذكَرَ اللّهُ تَعالى العَمَدَ المُقِلَّةَ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؛ أعْقَبَهُ بِبَيانِ الأوتادِ المُقِرَّةِ بقولِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾[1]، وعَطَفَ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الجُمْلَة قَبْلَها؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الخَبَرِيَّة، وتَوافُقِهِما في الفعليَّةِ والماضويَّة، واتِّحادِهما في المُسْنَدِ إليهِ وهُو الضَّميرِ المُسْتَتِر في الفِعْلَيْن ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ العائد إلى اللّهِ سُبْحانَهُ، فيكونُ بينَهما جامعٌ عقليٌّ.

ولم يُعبّر النّظمُ الجليل هنا وفي سورة الرعد بـ (وخلقَ الأرضَ وألقى) أو (خلق الأرض ومدّها)؛ للدّلالةِ على أنَّ الأرض واحدةٌ مِنَ السَّماوات المخلوقة، وأنَّها عندَ خلقِها لم يكن لها عمدٌ مرئيّة؛ ففي المَوطنين عندما تُوصَفُ السَّماوات بأنّها مخلوقةٌ بغيرِ عَمَدٍ مَرئيّة لا يُعبِّرُ النّظمُ عن خَلْقِ الأرض حتَّى لا يُتوَهَّمَ أنَّها متّصفةٌ بالعَمَدِ المَرئيّة بقرينةِ المقابلة.

دلالَةُ تَعْدِيَةِ الإلْقاءِ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

غَوْصُ الجِبالِ في أعْماقِ الأرْضِ واسْتِقْرارُها في مَكانِها

حَرْفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ دالٌّ على الظَّرْفيَّة، وفي تَعْديَةِ فِعْلِ الإلْقاءِ بِهَذا الحَرْفِ إيماءٌ إلى تَلَبُّس الرَّواسي بالأرْضِ، وأنَّها تَغوصُ في أعْماقِها، وأنَّها ثابِتَةٌ مُسْتَقِرَّةٌ في مَكانِها[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الامْتِنانُ بِالأرْضِ هُوَ الأصْلُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾؛ لإرادة الاهتمام بالمُقدَّم؛ إذِ المِنَّةُ بالأرضِ هُوَ الأصلُ، وأمّا الرَّواسي فَمِن تَوابِعِ ذَلِكَ وتَمامِ الانْتِفاعِ بِها، ولا يدلُّ التّقديمُ على حصرِ خَلْقِ الرَّواسي في الأرضِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 153.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.

بَلاغَةُ المَجَازِ:

الجِبالُ مِنْ تَوابِعِ الأرْضِ وتَتِمّاتِها

في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ المُسبَّبِيَّة، وذلكَ في التَّعْبيرِ عَن خَلْقِ الجِبالِ في الأرْضِ بِالإلْقاءِ، إذْ أصْلُ الإلْقاءِ رَمْيُ شَيْءٍ على الأرضِ، وذلكَ لأنَّ الجِبالَ مَجْعولةٌ كالتَّكملَةِ للأرضِ؛ إذْ هيَ موضوعَةٌ في ظاهِرِ سَطْحِها بِحَسَبِ ما يَبِينُ للنّاظِرِ[1]، وإنَّما ارتُكِب المجازُ لدلالةِ الرّمي من فوق على الغَرسِ في الأرضِ حتّى تُمسِكَ أجزاءَها عنِ الحركةِ والاضطراب، كما تُوحي دلالةُ الإلقاءِ والسُّقوط من عُلُوٍّ على التّمدُّد في الأرض وأخذِ مساحةٍ فيها.

دلالَةُ الإيجازِ:

الاقْتِصادُ في اللَّفْظِ اكْتِفاءً بِدِلالَةِ الحالِ

﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ جمعُ: راسٍ، وهُو مأخوذٌ مِنَ الرُّسُوِّ؛ وهو التَّمكُّنُ والثَّباتُ والاسْتِقْرارُ في المَكانِ، والمَعْنى: وألْقى في الأرْضِ جبالًا رَواسيَ، فَحُذِفَ المَوْصوفُ وأُقيمَتِ الصِّفَةُ مُقامَهُ؛ لِظُهورِ المَعْنى، فاقتُصِدَ في اللَّفْظِ اكْتِفاءً بِدِلالَةِ الحالِ، فَهُوَ كَقَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ [الرّحمن: 24] أي: السُّفُنُ الجَواري[2].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾:

مَقامُ الامْتِنانِ قَرِينَةٌ عَلى تَعْيينِ المَحْذوفِ

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في محلّ نصبِ مفعولٌ لَهُ[3]، وفي الكَلامِ حَذْفٌ تَقْتَضيهِ القرينةُ؛ إذِ المَقامُ مقامُ امْتِنانٍ، وذلكَ دالٌّ على أنَّ المُعَلَّل به هو انتفاءُ المَيْد لا وُقوعُه، والتَّقدير: وألْقى في الأرضِ رَواسي لِئَلّا تميدَ بكُم، أو أنَّ الكلامَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ بينَ الفِعْلِ المُعَلَّل و﴿أَن﴾، والتَّقديرُ: وألْقى في الأرضِ رَواسيَ كَراهيَةَ أن تَميدَ بِكُم[4]، وفي تعليلِ خَلْقِ

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 532.

(4) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578.

الرَّواسي ما يدعو إلى التأمُّل في خلقِ الأشياء ومنافعِها، وأنَّ عزيزًا حكيمًا أوجدَها لتحقيقِ مصالحَ للعباد، ولتكونَ دليلًا عليه عندَ المؤمنين، ومثارًا للهُزءِ والتّهكُّم عندَ الكافرين، واختارَ المصدرَ المؤوّلَ ليكونَ مفعولًا له بدلَ الصّريح؛ لما فيه من دلالةِ الاستقبالِ والتّجدُّد.

عَوْدُ الضَّمائِرِ في قَوْلِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾:

المَجْرورُ بِالباءِ مَعَ فِعْلِ المَيَدِ هُوَ الأمْرُ المُسْتَقِرُّ في الظَّرْفِ المائِدِ

الضَّميرُ المُستَترُ في ﴿تَمِيدَ﴾ في مَحَل رفع فاعلٌ، وهُو يَعودُ عَلى ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والقرينةُ عَلى ذَلِك قولُه: ﴿بِكُمۡ﴾؛ إذِ المَيَدُ إذا عُدّيَ بالباءِ دالٌّ على أنَّ المَجْرورَ بها هُو الشَّيءُ المُستَقِرُّ في الظَّرْفِ المائد[1]، والضَّمير في ﴿بِكُمۡ﴾ لِكُلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، ويجوزُ أن يَختَصَّ بِالمُشْرِكينَ؛ لأنَّهُم الَّذين سيقَ هذا الدَّليلُ لِأجْلِهم.

عِلَّةُ عَطْفِ ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾:

الاشْتِراكُ في الفِعْليَّةِ والمُسْنَدِ إلَيْهِ جامعٌ عقليٌّ

عُطِفَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ عَلى قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْنِ؛ لاشْتِراكِهِما في الخَبَريَّة، وتَوافُقِهِما في الفعليَّةِ والماضَويَّة، واتِّحادِهما في المُسْنَدِ إليهِ وهُو الضَّمير المُستَتِر في الفِعْلَيْنِ ﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ و﴿وَبَثَّ﴾ العائد إلى اللّهِ سُبْحانَهُ.

نُكْتَةُ التَعْدِيَةِ بِحَرْفِ الجَرِّ (في):

شِدَّةُ ارْتِباطِ الدَّوابِّ بِمَقارِّها

عُدّيَ فِعْلُ البَثِّ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ بِحَرْفِ الجَرِّ (في) الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّة؛ للدّلالة عَلى التَّمَكُّن، إيماءً إلى شِدَّة ارْتِباطِ الدَّوابِّ بِمَقَرِّها - وهي الأرضُ - وانتشارِها في جميعِ جوانبِها، مع دلالةٍ على الكثرةِ والدّقّةِ في التّوزيع؛ نفعًا للعبادِ ومادّةً للتأمُّل في الخالقِ العظيم.

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.

غَرَضُ حَذْفِ المَفْعولين:

حَذْفُ ما دَلَّ السّياقُ عليه اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذَلِكَ أنَّ المفعولَ به للبثِّ محذوفٌ، والتَّقدير: وبَثَّ فيها حَيواناتٍ من كُلِّ دابَّةٍ، فحُذِفَ لفظ (حَيوانات)؛ لأنَّ البيانَ الواقِعَ بـ ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ يدُلُّ عليهِ ويُرْشِدُ إلَيْهِ، فكانَ في الحَذْفِ اقْتِصادٌ في اللَّفْظِ، كما حَذفَ النَّظمُ المفعولَ له؛ للتّأمُّل في عِلَّة خَلْق الدّوابِّ وما فيها من منافعَ جمّةٍ، بخلاف الرّواسي، إذ نصَّ النّظمُ على العِلّة فيها؛ لصعوبةِ إدراكِها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾:

بَيانُ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِ الخَليقَةِ وتَفْريقِهِمْ في الأرْضِ

جاءَ التَّعبيرُ بلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾؛ لِبَيانِ عَظيمِ قُدْرَةِ اللّهِ سُبْحانَهُ في خَلْقِ الخَليقَةِ ونَشْرِهم وتَفْريقِهِم في الأرْضِ بما تَقْتضيهِ حِكْمَتُه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ يَدِبُّ على الأرضِ إلّا واللّهُ تَعالى خالِقُه ومُقَدِّرٌ حَرَكَتَهُ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿دَآبَّةٖ﴾:

النَّكِرَةُ في سياقِ الامْتِنانِ مُفيدَةٌ العُمومَ

نُكِّر لفظُ ﴿دَآبَّةٖ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ ليكون أدخلَ في التَّعميمِ المُسْتَفادِ من لَفْظِ ﴿كُلِّ﴾؛ وذلكَ لأنَّ الآيةَ وارِدَةٌ في سياقِ الامْتِنانِ، والنَّكِرَةُ في سياقِ الامْتِنانِ تَدُلُّ عَلى العُمومِ[1].

فائِدَةُ العَطْفِ في ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾:

الاشْتِراكُ في الفِعْليَّةِ والمُسْنَدِ إلَيْهِ مُحَسِّناتٌ لِلوَصْلِ

عُطِفَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ عَلى قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْنِ؛ لاشْتِراكِهِما في الخَبَرِيَّة، وتَوافُقِهِما في الفِعليَّةِ والماضَويَّة، واتِّحادهما في المُسْنَدِ إليهِ وهُو الضَّمير المُسْتَتِر في الفِعْلِ ﴿وَبَثَّ﴾ العائد إلى اللّهِ سُبْحانَهُ والضَّميرُ (نا) في ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾، وفي توالي

(1) زكريا الأنصاريّ، غاية الوصول في شرح لبّ الأصول، ص: 75.

ذِكرِ هذه المخلوقاتِ وما فيها من منافعَ دليلٌ قاطعٌ على عِزّة الخالق وحِكمته العظيمة، والمؤمنُ يهتدي بهذه الآياتِ البيّنات، والكافرُ يشتري لهوَ الحديث ليضلَّ الناسَ عن سماعِها، وإذا ما سمِعَها ولَّى مستكبِرًا عنها.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّمِ:

مَزيدُ العِنايَةِ بِأمْرِ الإنْزالِ والإنْباتِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ التفاتٌ إلى التَّكلُّم منَ الغَيْبة المذكورة في الأفعالِ: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَأَلۡقَىٰ﴾، و﴿وَبَثَّ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلكَ إبْرازُ مزيدِ العِنايَةِ بِأمْرِ الإنْزالِ والإنْباتِ؛ للاهتِمامِ بِهاتَيْنِ النِّعْمَتَينِ اللَّتَيْنِ هُما أكثر دَوَرانًا عِنْدَ النّاس[1]، وفي هذا الالتِفاتِ إيقاظٌ ولَفْتٌ لِهَذا المَقْطَعِ المُهِمّ مِن مَقاطِعِ المَعْنى؛ إذْ إنْزالُ الماءِ مِنَ السَّماء وإنباتُ الزَّرْعِ ممّا تتَعَلَّق به حياةُ الأرْواح وبَقاؤُها في الأرْضِ، إضافَةً إلى أنَّهُ ضَرْبٌ من تَقْسيم الأرْزاق، فَناسَب أن يُنقلَ الإسنادُ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ للّهِ تَعالى[2]، وفيه ردٌّ على مَن يعتقد أنَّ إنباتَ الأرض بسببِ نزولِ المطر نتيجةَ تجمُّعِ الغيوم بحركة الرّياح، وأنَّ ذلك أمرٌ يعودُ إلى الطّبيعة وقوانينها؛ فأظهرَ الفاعلَ المتكلِّم لبيانِ أنَّ كلَّ تلك العواملِ تَجري بأمرِ اللّه تعالى، وما هذه العللُ والأسبابُ إلا أسبابًا ناقصةً جعلَها اللّه تعالى تجري وفقَ حكمةٍ باهرة، بخلاف أفعالِ (الخلق والإلقاء والبثّ)، فهي أفعالٌ إيجاديّةٌ لا يُظَنُّ أنّها تقعُ لعللٍ طبيعيّة، فعبَّر عنها بأسلوبِ الغَيبة الكافي في الإخبارِ عنِ الإيجاد والخَلْق والإنشاء.

غرضُ ذِكْرِ المتُعلّق:

تَعْظيمُ شَأنِ النِّعْمَةِ بِالماءِ النّازِلِ مِنَ السَّماءِ

حَرْفُ الجَرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 81، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 280، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 146.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 153، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578 - 1579.

دالٌّ على الابْتِداء، أي: أنَّ ابتداءَ نُزولِ الماءِ حاصِلٌ مِنَ السَّماء، وذلكَ تَرْفيعٌ لِقَدْرِه وتَعْظيمٌ لشَأنِ هذهِ النِّعْمَةِ؛ فَإنَّ الأشياءَ المُخْبَرَ بِنُزولِها مِنَ السَّماء تدلُّ على مَزيدِ تَشْريفٍ إذا سيقَتْ مَساقَ الامْتِنانِ، وفي تحديدِ مكانِ النُّزولِ دونَ مكانِ الوصولِ وهي الأرض؛ لبيان أنَّ أمرَ النّزولِ يحتاجُ إلى تفكُّرٍ وانتباه، فإنَّ مَن أنزل الماء إلى الأرضِ ليُحييَها بالنّبات، يرسلُ الأنبياءَ إلى النّاس ليُنبتَ فيها الإيمانَ وأنواعَ الإحسان، بقي أنّ (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يُرادُ بِها العَهْدُ العِلْميُّ، وهي جهةُ العُلُوِّ والفوق، وفي ذلك تأشيرٌ إلى مدى العنايةِ والرّعاية الإلَهيّة بما خلقَ، وأنَّ كلَّ تلك الأفعالِ من خلقِ السَّماوات، وإرساءِ الجبال، وبثِّ أصنافِ المخلوقات، وإنزالِ المياه، دليلٌ هُدًى للمؤمنين، وحُجّةٌ على الضّالّين والكافرين.

نُكْتَةُ العُدولِ:

بَيانُ نُزولِ الماءِ مِن جهة الفَوق

في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ عدولُ عَنِ الجَمْعِ إلى الإفْرادِ؛ لأنَّ الكلامَ عَن إنْزالِ الماءِ مِنَ السَّماء، ولو جُمِعَت السَّماء فَوَرَدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (وأنْزَلْنا مِنَ السَّماوات ماءً)؛ لَتُوُهِّم أنَّ المَطَر يَنْزِلُ مِنَ السَّماوات جَميعًا ومن ذواتها، وهذا غيرُ مُرادٍ، إذِ الماءُ إنَّما يَنْزِلُ مِن جهةِ العُلُوِّ، والتّعبيرُ القرآنيُّ عندما تكلَّم عن خلقِ السَّموات جمعَها؛ لأنّه يتكلَّمُ عن ذواتٍ مخلوقةٍ بعينها، ولكنَّه لمّا تكلَّم عن إنزالِ الماءِ منها أفردَها، فتغيَّر النّظمُ؛ لأنّ المراد بالسّماء جهة الأعلى مِنَ الأرض دونَ ذواتِ المخلوقات، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ الإنزالَ لم يكن من ذاتِ السَّماءِ الدّنيا، بل من جهتِها المَرئيَّة.

لَفْتُ نَظَرِ المُتَلَقّينَ لِلخِطابِ القُرآنيِّ إلى السَّماءِ لِقَصْدِ تَأمُّلِها

بَلاغَةُ المَجازِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مَجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقَةِ المَحَلّيَّة؛ إذِ المَقْصودُ: أَنْزَلْنا مِنَ السَّحاب ماءً، ومَحَلُّ السَّحاب في

السَّماء، فأُطْلِقَ المَحَلُّ - وهُو السَّماء - وأُريدَ الحالُّ فيهِ - وهُو السَّحاب -، وفي التَّعبير بالسَّماء إيماءٌ إلى جليلِ العَظَمةِ؛ إذْ هُو يَنْزِلُ مِن مكانٍ لا يَسْتَطيعُ أحدٌ الوُصولَ إليه، بالإضافَةِ إلى أنَّ السَّماء الدُّنيا بِما فيها، مِن أظْهَرِ الآياتِ عَلى قُدْرَةِ الخالِقِ سُبْحانَهُ، التي حثَّ القُرْآنُ الكريمُ عَلى النَّظَرِ إليْها، والتَّأمُّل فيها كَثيرًا، فَفي التَّعبيرِ بِلَفْظِ السَّماء إيماءٌ إلى لَفْتِهم إلَيْها لفتة مُتَأمِّل[1].

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

الاهْتِمامُ بِالمُقَدَّمِ والتَّشْويقُ إلى المُؤَخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المَفْعول بِهِ ﴿مَآءً﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم، وتشويقًا إلى المُؤخَّر، وذلك أنَّ تأخيرَ ما حقُّهُ التَّقديم يجْعَلُ النَّفْسَ مرْتَقِبَةً لَهُ، فإذا وردَ بَعْدُ؛ تَمَكَّنَ عِنْدَها فضلَ تمكُّن، وفي إلقاءِ الرّواسي في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ وإنزالِ الماء من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ طباقٌ بينَ السّماء والأرض، أُريدَ به أنَّ التّنظيم للمخلوقات كان يتعلَّق بجميع أجزاءِ المكان منَ الأرض وما علاها؛ ليكونَ النّظامُ صالحًا للعيشِ فيه، وفي ذلك آيةٌ للنّاظرينَ والمُتأمِّلين.

نُكْتَةُ التّنْكيرِ في ﴿مَآءً﴾:

عَظَمَةُ الماءِ النّازِلِ مِنَ السَّماءِ لِكَثْرَةِ مَنافِعِهِ

نُكِّر لفظُ ﴿مَآءً﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لِلبَعْضيَّةِ[2]، أي: أنَّ هذا الماء النّازلَ هو بعضُ نِعَمِه، وليس الماءُ النّازلُ إلَّا بعضًا مِن مياهٍ كثيرةٍ[3]، وعبَّر جماعةٌ من أهلِ العلْم عَن غرض التَّنكير في مِثْلِ هَذا بِبَيان النَّوعيَّة[4]؛ أي: نوعًا من أنواعِ الماء، والغالب أنَّ النَّوعيَّةَ إذا أُطْلِقَت باعتبارها غرضًا؛ فإنَّه يَلزم مِنْها التَّعْظيمُ، أي: إنَّه نوعٌ عظيمٌ، كأنَّه لعظمَتِه مخالفُ المَعْهودَ مِنَ الأنواعِ، ويجوزُ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 94.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/ 159.

(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 132.

الجَمْعُ بين الغَرَضَيْنِ المَذْكورَيْنِ لعَدَمِ التَّعارُض بَيْنَهُما، وتكثيرًا لِلمَعاني القُرآنيَّة، وأنَّ المَعْنى: وأنزلنا مِنَ السَّماء ماءً عظيمًا في ذاتِهِ لِكَثْرَةِ منافعه، ومع ذلك هُو بعضٌ من نِعَمِهِ سُبحانَهُ عَلى خلقه، ونلحظُ في التّنكير أنَّ الماءَ النّازلَ يكونُ بقدرٍ موزونٍ كافٍ للنّظام المعاشيِّ على الأرض، أي: ماءً محدودًا يجري على نظام لا يزيدُ ولا ينقص، وإلّا اختلَّ النّظامُ وغرقتِ المخلوقاتُ وأُبيدتْ.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾:

رَحْمَةُ اللهِ تَعالى وكَرَمُهُ وعَطْفُهُ عَلى خَلْقِهِ

الفاءُ في ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ دالَّةٌ عَلى التَّرتيبِ والتَّعْقيب، وفي تَرْتيبِ إِنْباتِ الأَرْضِ عَلى نُزولِ الماءِ مِنَ السَّماء بالفاءِ إشارَةٌ إلى رَحْمَةِ اللّهِ سُبْحانَهُ وكَرَمه وعَطْفِه على خَلْقه؛ إذْ إنَّ العَطْفَ بالفاء لَمّا كانَ لِلتَّرْتيبِ والتَّعقيبِ؛ كانَ دالًّا عَلى أنَّ الإنْباتَ لا يَتَأَخَّر عَن نُزولِ الماءِ، وإنَّما يكونُ في عَقِبِه مُباشَرَةً[1]، وفي ربطِ الإنباتِ بالإنزال دعوةٌ للتّأمّل في دليلِ وقوعِ المسبَّبات عقيبَ الأسباب، فما على العاقل الفطِن إلّا الإيمانُ؛ إذ كلُّ أفعال الخلق والإلقاء والبثِّ والإنزال دليلٌ على أنَّ وراءها سبب في هذا الجعل والتّنظيم، وهو اللّه تعالى.

نُكْتَةُ إضافَةِ الإنْباتِ:

الإشارَةُ إلى عَظيمِ المِنَّةِ بِالنَّباتِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإنْباتِ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ على العَظَمَةِ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ هذا الإنْباتِ وجَلالَةِ مُنْبِتِه سُبْحانَهُ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عَظَمَةِ المِنَّة بالنَّباتِ؛ لأنَّ بِهِ قِوامَ عَيْشِ النّاس وبَهائِمِهم، وردًّا على مَن يعتقدُ أنَّ الإنباتَ بسبب نزولِ المطر، وأنّه سببٌ تامٌّ للإنبات، فبيَّن النّظمُ القرآنيّ أنَّ المطرَ ما هو إلّا سببٌ ناقصٌ وعاجزٌ عنِ الإنبات، وأنَّ الإنبات يحدثُ بمحضِ خلق اللّه تعالى، الذي جعل الماءَ سببًا عاديًّا

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578.

له لا عقليًّا، إذِ الخالقُ تعالى هو الذي خلقَ الأسبابَ والمُسبَّبات، وربطَ بينهما ربْطًا اقترانيًّا، فلا يحكمُهُ سببٌ في الإيجاد، بل أبدعَ الأسباب كما أبدع المُسبَّبات.

نُكْتَةُ التَّعْدِيَةِ بِالظَّرْفِيَّةِ:

شِدَّةُ ارْتِباطِ النَّباتِ بِمَقارِّهِ

عُدّيَ فِعْلُ الإنْباتِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ بحَرْفِ الجَرِّ (في) الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّة؛ للدّلالة عَلى التَّمَكُّن، إيماءً إلى شِدَّة ارْتِباطِ النَّباتِ بِمَقَرِّهِ وهُو الأرضُ، وفيه تأشيرٌ إلى أهميَّة محلِّ الإنبات - وهو باطن الأرض - القابلِ للإنبات، فلو لم يكن باطنُها صالحًا ما نفعتِ المياه النّازلةُ شيئًا، وفي ذلك تأشيرٌ دقيقٌ على أنَّ نزولَ الماء مظهرٌ واضحٌ لعَظَمته، وأنَّ الأرض مظهرٌ خفيٌّ لقدرته.

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

الاهْتِمامُ بِالمُقَدَّمِ والتَّشْويقُ إلى المُؤَخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وتشويقًا إلى المُؤخَّر، وذلك أنَّ تأخيرَ ما حقُّهُ التَّقديم يجعَلُ النَّفْسَ مرْتَقِبَةً لَهُ، فإذا وردَ بَعْدُ؛ تَمَكَّنَ عِنْدَها فضلَ تمكُّنٍ.

بَلاغَةُ الإدْماجِ:

الامْتِنانُ بِما في النِّعَمِ مِنْ مَنافِعَ لِلخَلْقِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ إدماجٌ[1]؛ فقَد أُدْمِجَ في ثَنايا أدِلَّة الحِكْمَةِ الامْتِنانُ بما في ذلكَ مِنْ مَنافِعِ الخَلْقِ، وذَلك أنَّ مِنَ الدَّوابِّ المَبْثوثَةِ ما يَنْتَفِعُ بِهِ النّاسُ من أكلِ لُحومِ ما أُحِلَّ مِنْها، وينتفعونَ أيضًا بِأَصْوافِها وجُلودِها وأَلْبانِها، ويَنْتَفِعونَ بها في

(1) حَقيقَةُ الإدماجِ: "إدْخالُ فِكْرةٍ في فكرةٍ، أو غرضٍ بلاغيٍّ في غرضٍ آخر، أو وَجْهٍ من وُجوه البَديعِ في وجهٍ منهُ آخَرَ، بأسلوبٍ مِنَ الكلامِ لا يظهرُ منه إلّا إحْدى الفِكْرَتَيْن، أو أَحَدُ الغرضَيْن، أو أحَدُ الوَجْهَين، فإذا تأمّل المتفكِّرُ ظَهَرَ لَهُ المُدْمَجُ، وسَرَّهُ هذا الإدماجُ"، عبد الرحمن، البلاغة العربيّة: 2/ 427.

الحَمْلِ عَلَيْها والتَّجمُّل بها، ثُمَّ في الإدماجِ امْتِنانٌ بِمَنافِعِ النَّباتِ مِنَ الحَبِّ والثَّمَرِ والكَلأ، ولَمّا كانَتِ البِحارُ مِن جُمْلَةِ الأرْضِ - بالمَعْنى العامِّ -؛ فَقَد شَمِلَ الانْتِفاعَ بِدَوابِّ البحرِ أيضًا[1].

مَعْنى ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿مِن كُلِّ﴾:

عَظَمَةُ ما عِنْدَ اللهِ تعالى مِنْ جَليلِ النِّعَمِ ودَقيقِها

﴿مِن﴾ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على البَعْضيَّة[2]، وهَذا مُفيدٌ عظمَةَ ما عِنْدَ اللّهِ سُبْحانَهُ مِن جلائِلِ النِّعَمِ ودَقائِقِها؛ إذْ كانَ كُلُّ ما على الأرْضِ مِنَ النَّباتِ هو بَعْضٌ مِمّا عِنْدَهُ، ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ للابتداء، وكأنَّ الإنباتَ يبدأ من مكانِ كلِّ زوجٍ بهيجٍ نافعٍ، فيأتي بتلك النّباتاتِ التي تأخذُ العقلَ واللّبَّ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿كُلِّ﴾:

عَظَمَةُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ في إنْباتِ النَّباتِ

جاءَ التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾؛ لِبَيانِ عَظيمِ قُدْرَةِ اللّهِ سُبْحانَهُ في إنْباتِ النَّباتِ في الأرْضِ بِما تَقْتَضيهِ حِكْمَتُه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ يَنْبُتُ فيها، إلّا واللّهُ تَعالى مُنْبِتُهُ وخالِقُهُ.

نُكْتَةُ التّنكيرِ:

النَّكِرَةُ في سِياقِ الامْتِنانِ مُفيدَةٌ العُمومَ

نُكِّر لفظُ ﴿زَوۡجٖ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ ليكون أدخلَ في التَّعميمِ المُسْتَفادِ مِن لَفْظِ ﴿كُلِّ﴾؛ وذلكَ لأنَّ الآيَةَ وارِدَةٌ في سِياقِ الامْتِنانِ، والنَّكِرَةُ في سِياقِ الامْتِنانِ تَدُلُّ على العُمومِ[3].

غرضُ الوَصْفِ:

حُسْنُ لَوْنِ النَّباتِ وكَثْرَةُ مَنافِعِهِ

في وصْفِ الزَّوجِ بالكريمِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾؛ للإشارَةِ إلى حُسْنِ لَوْنِه وكَثْرَةِ مَنافِعِه، ويجوزُ أن يَكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 427.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 74.

(3) زكريا الأنصاريّ، غاية الوصول في شرح لبّ الأصول، ص: 75.

المُرادُ مَدْحَهُ مِن جِهَةِ إتْقان صُنعِه وظُهورِ حُسْنِ الرُّتْبَةِ والتَّحكيمِ للصُّنْعِ فيه[1].

عِلَّةُ الفَصْلِ:

خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ وما فيها وما بَيْنَهُما مِنَ اللهِ تَعالى

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لِوُرودِه نَتيجَةً وحاصِلًا لِما تَقَدَّم مِن ذِكْرِ خَلْقِ السَّماءِ والأرضِ والجِبالِ، وبَثِّ الدَّوابِّ وإنْزالِ المَطَرِ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ:

كَـوْنُ النِّعَمِ في مُتَناوَلِ يَدِ الإنْسانِ أدْعى لِشُكْرِ المُنْعِمِ بِها

في التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ الدّالِّ في الأصلِ على المُشاهَدِ المحسوسِ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ إيماءٌ إلى ما يُشاهِدونَهُ مِن مَخْلوقاتِ اللّهِ تعالى؛ إذِ المُشاهَدُ أدَلُّ على عظَمَةِ اللّهِ تَعالى، وليسَ في تَأمُّله كبيرُ عناءٍ، فليس الدّليلُ على وجودِ اللّه تعالى وكمالِ قُدرته دليلًا عقليًّا مَحضًا، بل هو من نوعِ العلم الإحساسيّ المُدْرَك بالحواسّ، المُتميِّزِ أكملَ تمييزٍ لكلِّ مَن شاهد وتأمَّل في المشاهدات، وفي انتقاءِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ الدّالِّ عَلى القُرْبِ تَنْبيهٌ إلى أنَّ هذهِ النِّعَمَ إنَّما وُجِدَت مِن أجْلِ الإنْسانِ، وفي مُتناوَلِ يدِه، وهَذا أدْعى لشُكْرِ المُنْعِم بها، والاعترافِ لَهُ بالفَضْلِ فيها[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ:

الحَثُّ على النَّظَرِ إلى طَريقَةِ الخَلْقِ والإبْداعِ

لَفْظُ ﴿خَلۡقُ﴾ مصدرٌ لِلفِعْلِ خَلَقَ أُريد الحاصلُ به، ولَمّا كانَ المَقْصودُ في الآيةِ نظرَ الإنسانِ إلى هذهِ المَخْلوقاتِ نَظْرَةَ اعْتِبارٍ لا نَظْرَةَ اسْتِحْسانٍ؛ جاءَ التَّعبير بالمَصْدَر، فقالَ اللّهُ تَعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّوْجيهِ إلى نوعِ النَّظَرِ المَطْلوبِ، وهُو نظرٌ إلى طريقَةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 347، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 280.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.

(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1580 - 1581.

الخَلْقِ والإبْداع، وإلى الدِّقَّة والحِكْمَة في خَلْقِها، وطريقَةِ تَناسُقِها فيما بَيْنَها، بِحَيْثُ لا يَتَعارض شَيْءٌ مِنْها مع آخَر[1].

نُكْتَةُ الإضافَةِ:

لا يَصْدُرُ مِنَ العَظيمِ إلّا عَظيمٌ

أُضيفَ لَفْظُ الخَلْقِ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ من بابِ إضافَةِ المَصْدَرِ إلى فاعِلِه، والخَلْق بِمَعْنى المَخْلوقِ، أي: هَذا مَخْلوقُه، والإضافَةُ هاهنا تَقْتَضي التَّعظيمَ؛ لأنَّ العظيمَ لا يَصْدُرُ مِنْهُ إلّا العظيمُ، فخَلْقُ اللّهِ سُبْحانَهُ جليلُ القَدْرِ عظيمُ الشَّأن كامِلُ الصُّنْع[2].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إلى الغَيْبَةِ:

إدْخالُ الهَيْبَةِ بإظْهارِ الاسْمِ الأحْسَنِ (الله)

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ التفاتٌ مِنَ التَّكَلُّم إلى الغَيْبَة، وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (هذا خَلْقُنا)؛ لأنَّه قالَ قبلُ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، ونُكْتَةُ الالتفاتِ: زيادَةُ التَّصريح بأنَّ الخطاب صادِرٌ مِنَ اللّهِ تعالى[3]، ولإدخالِ الهَيْبَة بإظْهارِ الاسْمِ الأحْسَن ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّه الاسْمُ الجامِعُ لِصِفاتِ الجلال والكَمالِ والجَمالِ.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَأَرُونِي﴾:

طَيُّ ما دَلَّت القَرائِنُ عليه اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

الفاءُ في ﴿فَأَرُونِي﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّها أفْصَحَت عن شَرْطٍ مُقَدَّر، والتَّقديرُ: إنِ ادَّعَيْتُم لِما دُونَهُ مِمّا عَبَدْتُموهُ من دونه خَلْقًا عَبَدْتُموه من أجْلِه؛ فأروني ماذا خَلَقَ الذين مِن دونِه[4].

دلالَةُ الأمْرِ:

فِعْلُ الأمْرِ ﴿فَأَرُونِي﴾ من قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1581.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 154، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1582.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 154.

﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ لا يُرادُ حَقيقَتُهُ مِن إرادَةِ الإِلْزامِ بالفِعْلِ، وإنَّما المُرادُ بِهِ التَّهَكُّم؛ لِكَوْنِهم لا يُمْكِنُ لَهُم أن يُكافِحوا اللّهَ سُبْحانَهُ، وفي الأَمْرِ مَعْنى التَّعْجيزِ أيضًا؛ إلّا أنَّ التَّهَكُّم أسبَقُ للجَزْمِ بِعَدَمِ تَمَكُّنِهم مِنْ مُكافَحَةِ اللّهِ تعالى، قَبْلَ القَطْعِ بِعَجْزِهِم عَن تَعْيين مخلوقٍ خَلَقَهُ مِن دونِ اللّهِ سُبْحانَه[1].

التَّهَكُّمُ أَسْبَقُ لِلقَطْعِ بِعَدَمِ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ مُكافَحَةِ اللهِ تَعالى

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرُّؤْيَةِ البَصَريَّةِ أو القَلْبيَّة:

الرُّؤية في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ يَجوزُ أن تَكونَ بَصَريَّة، ويجوزُ أن تكونَ عِلْميَّةً قَلْبيَّة، وكَوْنُها بصريَّةً أشَدُّ في إثباتِ عَجْزِهِم؛ لاسْتِلْزامِها الاقْتِناعَ مِنْهُم بإحْضارِ شَيْءٍ يَدَّعون أنَّ آلهتَهُم خَلَقَتْهُ[2].

أَثَــرُ اخْـتِـلافِ مَعاني الأَفْعالِ في إِثْراءِ المَعاني القُرْآنيَّةِ

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ:

الاسْتِفهامُ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ يُراد بِهِ المُبالَغَةُ في التَّهَكُّم والتّعجيز؛ لأنَّ هذا السُّؤال التّقريريَّ يُلجِئُهُم إلى الإقْرارِ بِعَدَمِ إلَهيَّة مَن عَبَدوهُم مِن دونِ اللّهِ تَعالى بِطَريقِ الكِنايَةِ والاسْتِدلالِ؛ لأنَّهُ إذا لَم يَثْبُت أنَّهم قَد خَلَقوا شَيْئًا؛ فَهَذا يَقْتَضي أنَّهُم لَيْسوا آلِهةً، فإذا وُجِدَ مَن يَعْبُدُهم من دونِ اللّهِ تَعالى وحالُهُم ما ذُكِر؛ فَهُو في ضَلالٍ مُبينٍ[3]، والمُستفهَم عنه هو الاسم الموصول (ذا)، المُرتبطُ بصلته، وهي جملةٌ فعليّةٌ بصيغة الماضي الدّالِّ على التّحقُّقِ والوقوع؛ والعائدُ إليه محذوفٌ تقديرُه (خلقَهُ)، أي: ما الّذي خلقَه الّذين من دونه، والموصولُ المسؤولُ عنه صراحةً وإضمارًا دالٌّ على أيِّ شيءٍ مخلوقٍ لغير اللّه أنْ يُجيبوا بإثباته، لكنَّهم عاجزونَ عن إثباتِ التّخليقِ لغيره.

العـاجِـزُ عَـنِ الـخَـلْـقِ لا يَـسْـتَـحِـقُّ الأُلوهيَّةَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.

(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1583.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

حَقارَةُ الأَصْنامِ وخِسَّتُها وضَعْفُها

في التَّعبير بالاسْم المَوْصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الموضوع للعقلاء الذّكور وصِلَتِه مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾، احترازٌ عنِ التَّصريح بِذِكْرِ أصْنامِهم؛ قَصْدًا إلى احْتِقارِها وبيانِ خِسَّتِها وضَعْفِها[1]، وإنَّما جعلَها عاقلةً قصدًا إلى مجاراة الخصمِ في ادِّعاء العلْم والنَّفع والضّرر لها من دون اللّه تعالى[2].

مَعْنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦۚ﴾:

مَجيءُ البَيانِ بَعْدَ الإبْهامِ أوقَعُ في النَّفْسِ وأمْكَنُ

حرفُ الجَرِّ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتقَدُّم الاسم المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وفيهِ إبهامٌ، فجاءَ بيانُهُ بـ ﴿مِن دُونِهِۦۚ﴾، والحَرْفُ ﴿مِن﴾ يَجُرُّ اسمَ المكانِ عَلى وجْهِ الزّيادَةِ؛ لِتأكيدِ الاتِّصالِ بِالظَّرف[3].

بلاغَةُ الكِنايَةِ:

ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى في مَرْتَبَةٍ أقَلَّ مِنْ رُتْبَةِ الرُّبوبيَّةِ

(دون) في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ كنايةٌ عنِ الغير[4]، فالمَعْنى: فَأروني ماذا خَلَقَ الذينَ مِن غيرِه، وفي التَّعْبير بِلَفْظِ (دون) إيماءٌ إلى أنَّ ما عُبِدَ مِمّا سِوى اللّهِ تَعالى هُم في مَرْتَبةٍ أقَلَّ من رُتْبَة الرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة، وفي هذه الدّونيَّةِ إشعارٌ بالعجْزِ وإعلانٌ بالنّقص؛ ليكون باعثًا لهم على التّأمُّلِ في الإلهِ الحقِّ، الَّذي يستحقُّ العبوديّةَ والخضوعَ له.

دلالَةُ إضافَةِ (دون) إلى الضَّميرِ الغائِبِ:

الإيماءُ إلى سُفولِ رُتْبَتِهِمْ

في إضافَةِ لَفْظِ (دون) إلى ضَميرِ الغَيْبَةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ تنبيهٌ عَلى سُفولِ رُتْبَتِهِم؛ إذْ لَيْسَ فيما أُسْنِدَ إلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) جِهَةٌ يُخْشى مِنَ التَّقْييدِ بِها نقصٌ ما[5].

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1582.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 148.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 154.

مَعْنى ﴿بَلِ﴾:

تسجيل ضلالهم وانحرافهم في اعتقادهم إلهيَّة الأصنام

﴿بَلِ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ للإضْرابِ، وهُو هُنا إضْرابٌ انتقاليٌّ، فقد انْتُقِل مِن غرضِ المُجادلَةِ إلى غرَضِ تَسْجيلِ ضَلالِهم وانْحرافِهم في اعْتقادِهم إلَهيَّة الأصنام، وفي هذا الإضْراب: تَبْكيتُهُم بما نُصَّ عليه مِن ضَلالِهم والإعْلامِ ببُطْلانِ ما هُم عليه[1].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

ذِكْرُ حالِ العَريقينَ في الظُّلْمِ

(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حرفٌ دالٌّ عَلى الجنس والكَمالِ، أي: الظّالِمون العَريقونَ في الظُّلْم الكامِلونَ فيه[2].

بلاغَةُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

الظُّلْمُ موجِبٌ لِلْكَوْنِ في الضَّلالِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وضْعٌ لِلْمُظهرِ مَوْضِعَ المُضمر، وكانَ مُقْتَضى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظم القرآنيّ: (بَل هُم في ضلالٍ مُبين)، والنُّكْتَةُ في ذَلِكَ: الدّلالة بأنَّهُم بِسَبَب شِركِهم واضِعونَ الشَّيءَ في غيرِ مَوْضِعه ومُجاوِزون الحدَّ وظالِمونَ لِأنْفُسِهِم بِتَعْريضِها لِلعذابِ الدّائم، وفي الإظْهارِ تَعْميمٌ لِكُلِّ مَن اتَّصف بوصْفِ الظُّلْم، وتنبيهٌ عَلى أنَّ وصفَ الظُّلْم هُو الذي أوجَب لَهُم كَوْنَهُم في ضَلالٍ[3]؛ لأنَّ تعليقَ الحُكمِ عليهم بالضَّلال على المشتقِّ دالٌّ على علّيَّته فيه.

دلالَةُ الظَّرْفيَّةِ:

شِدَّةُ مُلابَسَةِ الضَّلالِ لِلظَّلَمَةِ

حرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ دالٌّ على الظَّرْفيَّة المَجازيَّة، وهو مُفيدٌ أنَّ ضَلالَهُم قَدِ اكْتَنَفَهُم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 280، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 148.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 81.

وأحاطَ بِهِم في جَميعِ أَحْوالِهِم، فَهُو لِشِدَّة مُلابَسَتِه إيّاهُم كأنَّهم داخِلونَ فيه[1]، ففي جعلِ (الضّلال) - وهو أمرٌ معنويٌّ - مكانًا حسّيًّا يدخُلُه الظّالمون استعارةٌ مكنيّةٌ، بتشبيه الضَّلال بدهليزٍ عميقٍ يحيطُ بالظّالمينَ ويَتيهون فيه، ثمَّ حَذَفَه وأبقى من لوازمه ﴿فِي﴾ الدّالّةِ على الظّرفيَّة؛ لتكون قرينةً على الاستعارة، ونلحظُ أنّ هنالك طباقًا حرفيًّا خفيًّا بين حالِ المؤمنين بأنَّهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾، وحالِ الظّالمينَ بأنَّهم ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، كما خالفَ بين ذِكر المؤمنينَ بـ(اسم الإشارة: أولئك) الدّالِّ على عَظَمةِ الرُّتبة، وذكرِ الظّالمينَ بذكرِهم بوصفِهم دونَ إشارةٍ إليهم؛ تحقيرًا وازدراءً بحالِهم.

نُكْتَةُ التّنكيرِ:

نُكِّر لفظُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لإفادَةِ التَّعْظيمِ، أي: هُم في ضَلالٍ عظيمٍ جِدًّا مُحيطٍ بِهِم[2].

بَلاغَةُ المَجازِ:

شِدَّةُ انْحِرافِهِمْ وخُطُورَةُ شِرْكِهِمْ

﴿مُّبِينٍ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ بِمَعْنى: الوُضوحِ، والمَعْنى: بَلِ الظّالمونَ في ضَلالٍ واضِحٍ، وهَذا لِشِدَّة انْحِرافِهِم وعَظيمِ شِرْكِهِم، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ بِمَعْنى المُظْهِرِ، أي: إنَّ الظّالمينَ في ضلالٍ مُظْهِرٍ حالَهُمْ بينَ النّاسِ، وإسْنادُ الإبانَةِ للضَّلال مجازٌ عَقْليٌّ على جهَةِ المبالغَة.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿مُّبِينٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

فَسادُ عُقولِ المُشْرِكينَ بِحَيْثُ إنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الضَّلالِ مَعَ شِدَّةِ ظُهورِهِ

في التَّعبيرِ عَن الضَّلال بأنَّهُ ﴿مُّبِينٍ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إيماءٌ إلى شِدَّة ظُهور ضَلالِهم، وأنَّ عُقولَهُم وصَلَت مَبْلَغًا عَظيمًا منَ الفَسادِ؛ حيثُ لَم يَرْعَووا عَن هذا الضَّلال، معَ أنَّه ظاهِرٌ غايَةَ الظُّهور، وفي التَّعبيرِ بصيغَةِ ﴿مُّبِينٍ﴾ -

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 148.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155.

وهيَ في الأصلِ اسمُ فاعلٍ مِنْ (أبانَ) - مُبالغةٌ في وُضوحِ ضَلالِهِم؛ لأنَّه إذا كانَ مبيِّنًا لضَلالِهِم وانْحِرافِهِم؛ فكَوْنُه بيِّنًا في نَفْسِه مِن باب أولى.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنْباتُ والزَّرْع:

الإنْباتُ إخْراجٌ والزَّرْعُ إدْخالٌ

الإنْباتُ: إفْعالٌ مِنَ النَّباتِ، والمرادُ: إخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، والنَّباتُ يَعُمُّ كُلَّ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، سواءٌ أكانَ لَهُ ساقٌ أم لَم يَكُن له ساقٌ[1]، أمّا الزَّرْعُ؛ فيُطلَقُ على أمرَينِ؛ أحدُهما: أن يكون اسمًا، والمراد بهِ المَزْروعُ، وهُو ما يَنْبُت عَلى غَيْرِ ساقٍ ممّا يَخرُجُ مِنَ الأرْضِ[2]، والآخَرُ: أن يكونَ مَصْدَرًا، والمُرادُ بهِ: وضْعُ البَذْرِ في الأرْضِ بقَصْدِ النَّماءِ، والفَرْقُ بينَ الإنْباتِ والزَّرعِ بِمَعْناهُ المَصْدَريِّ أنَّ الإنباتَ إخراجٌ، والزَّرعَ إدخالٌ.

وقَد يُطلق الزَّرعُ على الإخراجِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]، فنَسبَ اللّهُ تعالى الحَرْثَ إلى العِبادِ، ولكنَّه نفى عَنْهُمُ الزَّرعَ ونسبَهُ إلى نَفْسِه سُبْحانه، وإذا نُسِب الزَّرْعُ إلى العَبْدِ؛ فَلِكَوْنِه فاعِلًا لأَسْبابِهِ[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نبت).
(2) الرّاغب، المفردات: (زرع).
(3) الرّاغب، المفردات: (زرع).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ [لقمان: 12]

بَيانُ نموذجٍ مِنَ الحُكَماءِ المُحْسِنينَ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى حِكْمَتَهُ، وذَكَر شيئًا مِن آثارِها المُتَرَتِّبة عَلَيْها، وبيَّن أنَّهُ أبْعَدَ المُعْرضين عَن حُصولِ الحِكْمَة لَهُم، وآتاها مَن تابَ، واعْتَصَم بآياتِ الكِتاب؛ ذَكَرَ سُبْحانَهُ بعضَ مَن آتاهُ الحِكْمَةَ مِنَ المُتَقَدِّمينَ الذين كانوا مِنَ المُحْسِنين، فوَضعوا الأشْياءَ في مَواضِعِها، فَقالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشْكُرْ﴾: (شكر) تَدورُ اشتقاقاتُها حول امتلاءِ جوفِ الشَّيء برَخْوٍ طيِّب وظُهورِه عليه، ولو كانَ رافِدُهُ قليلًا[2]، حسّيًّا كان ذلك أو معنويًّا، فَمِنَ الحسّيِّ قولُهم: شاةٌ شَكْرى؛ وهي ممتلئَةُ الضَّرْع لَبَنًا[3]، ودابَّة شَكور، وهي التي يَكْفيها قليلُ العَلَفِ، فَتَسْمَنُ عليه، وتَصْلُحُ[4]، ومِنَ المعنويِّ: الشُّكْرُ، وهو عِرفانُ الإحْسانِ ونَشْرُهُ[5]؛ "إذْ هُو تعبيرٌ عَنِ امتلاء النَّفْسِ ورضاها بما قُدِّم لَها مِن خَيْرٍ، ونُجُوع هذا الخيرِ فيها"[6]، وحَقيقَةُ الشُّكْرِ شَرْعًا: ظُهور أثَر نعمةِ اللهِ تَعالى عَلى لِسان عَبْدِه ثَناءً واعْترافًا، وعَلى قَلْبِه: شُهودًا ومحَبَّة، وعَلى جَوارِحِه: طاعةً وانْقيادًا[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 155.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (شكر).
(4) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (شكر).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).
(7) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/ 234.

المَعْنى الإجْماليُّ:

غِنى اللهِ سُبْحانَهُ عَنِ الخَلْقِ

ولَقَد آتَيْنا لُقْمانَ - وهو عبدٌ صالحٌ من عبادنا - الفِقْهَ في الدِّين والعَقْلِ، والإصابةَ في القَوْلِ، وقُلْنا لَهُ: اشْكُرْ للّهِ سُبحانَهُ نِعَمَهُ عليك، ومَن يَشْكُر لرَبِّه؛ فإنَّما يعودُ نَفْعُ ذلك عليه، ومَن جحد نِعَمَهُ؛ فإنَّ اللّهَ تَعالى غنيٌّ عَن شُكْرِه، غيرُ محتاجٍ إليهِ، لهُ الحمدُ والثَّناء على كُلِّ حالٍ[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ الحكمة مستلزمة للعلم؛ إذ قد يكون الإنسان عالمًا، ولا يكون حكيمًا، وإلى أنَّ صفة الغنى للّه تعالى من لوازم ذاته، وإلى كونه حميدًا في صفات كمالهِ، حميدًا في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين، صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر، زيادة كمال إلى كمال[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

بَيانُ بُطْلانِ الشِّرْكِ عَقْلًا ونَقْلًا

الواوُ في ﴿وَلَقَدۡ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ اسْتِئْنافيَّة، والكلامُ بَعْدَها مُسْتَأنَفٌ مسوقٌ لِبَيانِ بُطْلانِ الشِّرْكِ بِالنَّقل بعدَ أن أُشير إلى بُطْلانه بالعَقْلِ[3].

ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ عاطفةً قِصَّةَ لُقْمان عَلى قِصَّة مَن يَشْتَري لَهْوَ الحديث، بِاعْتِبار أنَّها تَضَمَّنت عجيبَ حالِه في الضَّلالةِ مِن اعْتِنائِهِ بِلَهْوِ الحَديثِ لِقَصْدِ الإضْلالِ عَن سَبيلِ اللّهِ تَعالى، واتِّخاذِهِ آيات اللّه هُزُوًا، وبِاعْتِبارِ أنَّ قِصَّة لُقْمانَ تَضَمَّنَت عَجيبَ حالِهِ في الهِدايَةِ والحِكْمَة، فَهُما حالانِ مُتَضادّان[4].

دلالةُ اللّامِ و(قَدْ) في: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

اللّام في ﴿وَلَقَدۡ﴾ مُوَطِّئةٌ لِلقسَم، والمَعْنى: (واللّهِ لَقَد آتَيْنا لُقْمانَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 134، ونخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 648.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 82.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 148.

الحِكْمَة)، و(قَدْ) حَرْفٌ دالٌّ عَلى التَّحقيقِ؛ لاقْترانِه بالفِعْلِ الماضي، وكِلاهُما مُفيدٌ التَّوكيدَ[1].

نُكْتَةُ تَوالي المُؤَكِّداتِ:

بَيانُ امْتِنانِ اللهِ تَعالى عَلى لُقْمانَ

تَوالَت المؤَكِّدات في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ حيثُ اجْتَمَعَتِ اللّامُ المُوَطِّئَة للقَسَم مَعَ (قَد) التَّحقيقيَّة، وذلك لِلإنْباءِ إلى أنَّ الخبَرَ المَذْكورَ مَعَها أمْرٌ مُهِمٌّ واقِعٌ، فالتَّأكيدُ لا بالنَّظَر إلى حالِ المُخاطَبِ في تَرَدُّده أو إنْكارِه، وإنَّما لِلاهْتِمام بِمَضْمونِ الخَبَر[2].

فائدةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الإيتاءِ:

عَظَمَةُ ما أوتِيَهُ لُقْمانُ مِنَ الحِكْمَةِ

عُبِّر بِلَفْظِ الإيتاءِ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ الحِكْمَةِ التي أوتيَها لُقْمانُ؛ وذلك لأنَّ الإيتاءَ في الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ لَم يُستعمَلْ إلّا لِلشَّيْءِ الكَثير والعظيم الشَّأنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْك، والرَّحمة، والحكمة، ونحوِ ذلكَ مِنَ الأمورِ العَظيمَةِ.

بَلاغَةُ الالْتِفاتِ في قَوْلِهِ: ﴿ءَاتَيْنَا﴾:

إبْرازُ العِنايَةِ بِشَأْنِ إيتاءِ الحِكْمَةِ

في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّم، وذلك لأنَّه تقدَّم ذِكْرُ اللهِ سُبْحانَهُ بأُسْلوب الغَيْبَةِ في قوله تَعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: 11] ثُمَّ التُفت إلى التَّكلُّم في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾، والنكتةُ في ذلكَ إبْرازُ مزيدِ العِنايَةِ بِأمْرِ هذا الإيتاءِ؛ للاهتمام بنِعْمَةِ الحِكْمَة.

نُكْتَةُ إسْنادِ الإيتاءِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

مِنْ أجَلِّ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى العَبْدِ إيتاؤُهُ الحِكْمَةَ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإيتاءِ إلى الضَّمير (نا) الدّال عَلى العَظَمَةِ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 148.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 148.

هذا الإيتاءِ وجَلالَةِ المُؤْتي سُبْحانَهُ، فإنَّ إيتاءَ الحِكْمَةِ مِنْ أعظَمِ النِّعمِ وأجَلِّها[1].

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾:

أَثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانِيِّ في إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه بيانًا للحِكْمَةِ التي أوتيَها، فيَكونُ بينَ الجُمْلَتَيْنِ كمالُ الاتِّصالِ، ويجوزُ أن يكون اسْتِئْنافًا بيانيًّا، وذلكَ لأنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمّا قالَ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾؛ أورَثَ ذَلِكَ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهُو: فَماذا قالَ لَهُ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾؛ إذِ التَّقْديرُ: قُلْنا لَهُ: اشْكُرْ للّهِ[2].

مَعْنى ﴿أَنِ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾:

مَدارُ حِكْمَةِ لُقْمانَ عَلى شُكْرِ اللهِ سُبْحانَهُ

﴿أَنِ﴾ في ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ يجوزُ أن تَكونَ مَصْدَرِيَّةً، ويكون التَّقدير: آتيناهُ إيّاها بسبَبِ الشُّكْرِ، ويَجوزُ أن تكونَ مُفَسِّرةً للحِكْمَةِ؛ باعْتِبارِ أنّها أقوالٌ أوصيَت إليه أو أُلْهِمَها، فلمّا كان في الحِكْمَةِ مَعْنى القولِ دونَ حُروفِهِ بِهَذا الاعْتِبارِ؛ صَلَحَ أن تكونَ ﴿أَنِ﴾ تفسيريَّةً، والمَعْنى: أنَّ حِكْمَتَهُ كانت دائرَةً عَلى الشُّكْرِ للّه تَعالى، وجميعُ الاعتقاداتِ والعِباداتِ مُنْدَرِجَةٌ تحتَ حقيقَةِ شُكْرِ اللّهِ سُبْحانَه[3].

دِلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱشۡكُرۡ﴾:

حُسْنُ عُبوديَّةِ لُقْمانَ بِامْتِثالِهِ أمْرَ اللهِ تَعالى

الأمْرُ في ﴿ٱشۡكُرۡ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ جارٍ على حَقيقتِهِ مِن إرادةِ الإلْزام بالفِعْلِ، وآثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بفِعْلِ الأمْرِ دونَ الفِعْلِ المُضارِعِ، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (أن يَشْكُرَ للّه)؛ للإعلام بأنَّ شُكْرَ لُقْمان كانَ ناشِئًا عَنِ امتثالٍ لأمرِ اللّهِ ﷻ، فَيكونُ أبلغَ في الثَّناء عليهِ بِحُسْنِ العُبوديَّة[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 156.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 159.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 159، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 348، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 151.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 159.

مَعْنى اللّامِ في قَوْلِه: ﴿لِلَّهِۚ﴾:

بَيانُ اسْتِحْقاقِ اللهِ ﷻ لِلشُّكْرِ

فِعْلُ الشُّكْرِ يجوزُ أن يُعَدّى بنفسِه، فتقولُ: شكرتُ اللّهَ تعالى، وشَكَرْتُ نعمَهُ، ويجوز أن يُعَدَّى بالحَرْفِ؛ إمّا بالباءِ بأن تقولَ: شَكَرْتُ باللّهِ، وباللّام فتقول: شَكَرْتُ للّهِ - وهو الأفصح الغالب على أسلوب القرآن - وعُدّيَ فعلُ الشُّكْرِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ باللّام؛ لإفادَةِ مَعْنى الاسْتِحْقاقِ، أيْ: إنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ هُو المُسْتَحِقُّ لِلشُّكْرِ(1).

نُكْتَةُ الالتِفاتِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾:

إظْهارُ الاسْمِ الأحْسَنِ (الله) رِعايَةً لِحَقِّ الجَلالِ والكَمالِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ، وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ في النَّظْمِ القُرآنيِّ: أنِ اشْكُرْ لَنا؛ لأنَّه قَد تَقَدَّمَهُ قولُ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، والنُّكْتَةُ في الالتِفاتِ إلى الغَيْبَةِ ما فيها مِنْ إظْهارِ الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه)، وفيهِ مِن مَعاني الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ ما فيه(2).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الشُّكْرِ:

الشُّكْرُ أعَمُّ مِنَ الحَمْدِ آلَةً

عُبِّرَ بلَفظِ الشُّكْرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ دونَ الحَمْدِ، فَلَم يَرِد في النَّظم القُرآنيِّ: (أنِ احْمَدِ اللّه)؛ لأنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنَ الحَمْدِ آلةً، فإنَّه يَكون بالقَلْبِ واللِّسان والجَوارحِ، بخِلافِ الحَمْدِ؛ فَإنَّه مُخْتَصٌّ بالقَلْبِ واللِّسان فَقَط.

بَلاغَةُ الإيجازِ في ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾:

المُبادَرَةُ بِالشُّكْرِ فَوْرَ حُصولِ النِّعْمَةِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّ فيهِ تَفْسيرًا للحِكْمَةِ، وإرْشادًا للنّاسِ إلى شُكْرِ اللّهِ تَعالى معَ الشُّروعِ في الأمْرِ المَشْكورِ عليه؛ تَنْبيهًا على المُبادرَةِ بِالشُّكْرِ عندَ حُصولِ النِّعمَةِ(3).

---

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1589.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 159.

(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1588.

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ﴾:

تأكيدُ الكلامِ المُتقدِّمِ وتقريرُ معناهُ في النُّفوسِ

الواوُ في ﴿وَمَن﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ اسْتِئنافيَّةٌ، والكلامُ بَعْدَها مستأنَفٌ يُراد بِهِ تقريرُ مَضمونِ ما قَبْلَهُ وإيجابُ الامتِثالِ بالأمْرِ الوارِدِ في قولِهِ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾[1].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالشَّرْطيَّةِ:

فائِدَةُ الشُّكرِ تَرْجِعُ لِلشّاكِرِ لا لِلمَشْكورِ

عُبِّر بِالجُمْلَةِ الشَّرطيَّة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ لتحقيقِ التَّعلُّق بينَ مَضمونِ الشَّرط ومضمونِ الجَزاءِ، وذلكَ لأنَّ الشَّرط أدَلُّ على ذلكَ مِنَ الإخْبارِ المَحْضِ، فكانَ في الآيَةِ تَأكيدٌ بليغٌ في بيانِ أنَّ فائِدَةَ الشُّكر لنَفْسِ الشّاكرِ لا لِلمَشْكورِ[2].

مَعْنى (مَنْ) وإعْرابِها:

تأكيدُ اسْتِغْناءِ اللهِ تَعالى عَنْ شُكْرِ العِبادِ

(مَنْ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ اسمُ شَرْطٍ جازِم في محَلِّ رفعٍ مبتدأً، و﴿يَشۡكُرۡ﴾ فعلُ الشَّرط، وجملة: ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ في محلِّ جزم جوابُ الشَّرطِ وجزاؤُه، فتكونُ جُمْلَةُ الشَّرط جملةً اسميَّةً، وفي ذلك تأكيدٌ لِما تضمَّنَتْهُ مِنَ المَعْنى.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ في ﴿يَشۡكُرۡ﴾:

وُجوبُ تَكْرارِ الشُّكْرِ بِتَكْرارِ النِّعَمِ

عُبِّرَ بفِعْلِ الشُّكر مُضارِعًا في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ للدِّلالة على أنَّه يَنْبَغي أن يَتَكرَّر الشُّكر مِنْهُ في كُلِّ وقتٍ لِتَكرُّرِ النِّعَم، وأنَّه يَنْبَغي أن يَتَعاهَدَ بِهِ نَفْسَه[3]، ولِلإيماءِ إلى أنَّ مَن تَواصَل شكْرُهُ؛ تواصَل انْتِفاعُهُ بِهَذا الشُّكْرِ، واستمرَّ.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

مَنْفَعَةُ الشُّكْرِ راجِعَةٌ لِلشّاكِرِ وحْدَهُ

الفاءُ في ﴿فَإِنَّمَا﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 71.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 152.

(3) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 119، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 159.

﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ رابطَةٌ للجوابِ بشرطِه، وفيها بيانُ ما يَتَرَتَّب عَلى صُدور الشُّكْرِ مِنَ العَبْدِ أنَّ منفعةَ شُكْرِه تَرْجِعُ إليهِ وحدَهُ.

بَلاغَةُ القَصْرِ في قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

كَمالُ غِنى اللهِ ﷻ عَـنْ شُكْـرِ الشّاكِرينَ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أسلوبُ قصرٍ بصيغَةِ (إنَّما)، وهو قصرُ صفَةٍ على مَوْصوفٍ؛ إذْ فيهِ قَصْرُ فائدَةِ الشُّكْرِ عَلى نَفْسِ الشّاكِر، لا تَتَعدّاهُ إلى المَشْكورِ؛ وذلكَ لأنَّ آثارَ شُكْرِ اللّهِ تَعالى كَمالاتٌ حاصلةٌ للشّاكِرِ، ولا تنفَعُ المَشْكورَ شَيْئًا؛ لِغناهُ سُبْحانَهُ عَن شُكْرِ الشّاكرينَ[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الفِعْلِ ﴿يَشۡكُرۡ﴾:

الـدِّلالَـةُ عَلى عُـمومِ المُتَعَلِّقِ بِحَذْفِهِ

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الفِعْلِ ﴿يَشۡكُرۡ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ للإيماءِ إلى العُمومِ؛ إذْ حَذْفُ المُتَعَلِّقِ مُؤْذِنٌ بِذَلِك.

ويجوزُ أن يكونَ فِعْلُ الشُّكْرِ قَد نُزِّل مَنْزِلَةَ الفِعْلِ اللّازم؛ للدِّلالة عَلى مُجَرَّدِ صُدورِ الفِعْلِ بِقَطْعِ النَّظر عن تَعَلُّقهِ بِشَيْءٍ آخرَ، أيْ: مَن يَصْدُرْ مِنْهُ شُكْرٌ؛ فإنَّ منفعَةَ شُكْرِه تعودُ إليه.

مَعْنى اللّامِ في قَوْلِهِ: ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

اللّامُ في ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ دالَّةٌ عَلى اخْتِصاصِ المنفعةِ، أي: إنَّ منفعةَ شُكْرِهِ تَخْتَصُّ به هُو لا تتعدّاهُ إلى المَشْكورِ.

دلالةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

مِـنْ أساليبِ القُرْآنِ الكَريمِ بَيانُ المُتَقابِلاتِ

الواوُ في ﴿وَمَن﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ عاطفةُ الجُمْلَةَ بعدَها على ما قَبْلَها، وذلكَ لاشْتِراكِهِما في الخبريَّةِ؛ إذْ جُملةُ الشَّرطِ - على التَّحقيقِ - يُنْظر في خَبَرِيَّتِها أو إنْشائِيَّتِها إلى جوابِها، فإنْ كانَ خَبَرًا؛ كانت خبريَّة، وإلّا فإنشائيَّة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 152.

والجوابُ ها هُنا خبرٌ، واشتركَتِ الجُملَتان أيضًا في الاسميَّةِ، وبينَهُما جامِعٌ وهْميٌّ، وهُو التَّضادُّ، فكان عطفُ جُملَةِ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ على ما قبلَها؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْن.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالشَّرْطِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

لا يَـضُـرُّ الـلـهَ تَـعالى كُـفْرُ مَنْ كَفَرَ

عُبِّرَ بِالجُملَةِ الشَّرطيَّة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ لتحقيقِ التَّعلُّق بينَ مَضمونِ الشَّرط ومضمونِ الجَزاءِ؛ وذلكَ لأنَّ الشَّرط أدَلُّ على ذلكَ مِنَ الإخْبارِ المَحْضِ، فكانَ في الآيَةِ تَأكيدٌ بليغٌ في بيانِ أنَّ اللّهَ تَعالى لا يَضُرُّه كُفْرُ مَنْ كَفَر.

مَعْنى (مَنْ) وإعرابُها:

تأكيدُ تَنَزُّهِ اللهِ تَعالى عَنْ لُحوقِ ضَرَرِ كُفْرِ العِبادِ بِهِ

(مَنْ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ اسمُ شَرْطٍ جازِم في محَلِّ رفعِ مبتدأً، و﴿كَفَرَ﴾ في محلِّ جزم فعلُ الشَّرْطِ، وجملةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ في محلِّ جزم جوابُ الشَّرطِ وجزاؤُه، فتكونُ جُملَةُ الشَّرط جملةً اسميَّةً، وفي ذلك تأكيدٌ لِما تضمَّنَتْهُ مِنَ المَعْنى.

نُكْتَةُ العُدولِ عَنِ المُضارِعِ إلى الماضي في قَوْلِهِ: ﴿كَفَرَ﴾:

المُـبـالَـغَـةُ في التَّنْفيرِ مِنْ كُفْرِ النِّعَمِ

عُدِلَ في التَّعبير عَن فِعْل الكُفْر إلى الماضي، فقالَ اللّهُ تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وكانَ مُقْتَضى المقابلةِ بالجُملة قبلَهُ أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ بصيغَةِ المضارِع: (ومَنْ يَكْفُرْ؛ فإنَّ اللّه غنيٌّ حميد)، كما قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، ونُكْتَةُ هذا العدولِ: التَّنبيهُ على أنَّ مَن وقعَ مِنْهُ كفرٌ - ولو مرَّةً - جوزيَ بالإعْراضِ عَنْهُ، وهذا أبلغُ في التَّنفير مِنَ الكُفْرِ، وفي التَّعبيرِ بالماضي أيْضًا: إشارَةٌ إلى أنَّ الكُفْرَ يَنْبَغي أنْ ينقَطِعَ، فمَن كَفَر؛ يَنْبَغي أن يَتْرُك الكُفْرانَ، بخِلافِ الشُّكر؛ فإنَّه مطلوبٌ اسْتِمْرارُهُ[1].

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 119، والبقاعي، نظم الدرر: 15/ 160.

أحوالُ العِبادِ دائِرَةٌ بَيْنَ الشُّكْرِ والكُفْرِ

بَلاغَةُ الطِّباقِ بَيْنَ الشُّكْرِ والكُفْرِ:

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ طباقٌ بينَ الشُّكْرِ والكُفر؛ إذ جُمع بين متضادّين مع مراعاة التقابل، وفيهِ اسْتيعابُ أحوالِ الخَلْق، فإنَّ أحوالَهُم دائِرَةٌ بينَ شُكْرِ النِّعم أو كُفْرِها، فَمَن شكر؛ نَفَعَهُ شُكْرُه، ومَن كفر؛ كانَ ضررُ كُفْرِه راجعًا إليه.

بَـراعَـةُ البَـيـانِ القُرْآنيِّ في تَرْتيبِ الألْـفـاظِ بِـما يُلائِمُ سياقاتِها

لطيفةُ تَقْديمِ الشُّكْرِ عَلى الكُفْرِ:

قُدِّم الشُّكْر على الكُفْر في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾، بخلاف الذي في سورَةِ الرّوم في قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤﴾ [الروم: 44]، فقد قُدِّم الكُفْرُ عَلى ما فيهِ مَعْنى الشُّكْر؛ لأنَّ الذي في الرّوم واردٌ في سياقِ التَّرهيب، فقد تَقَدَّمهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ [الروم: 43]، بخلافِ ما في سورَةِ لُقْمان؛ فإنَّه واردٌ في مقامِ التَّرغيبِ؛ لأنَّ وعْظَ الأبِ للابْنِ يكونُ بِطَريقِ اللُّطْفِ والوَعْدِ(1).

بَيانُ آثارِ الكُفْرِ الـصّـادِرِ مِـنَ العِبادِ

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ﴾:

الفاءُ في ﴿فَإِنَّ﴾ من قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ رابطَةٌ للجوابِ بشرطِه، وفيها بيانُ ما يَتَرَتَّب عَلى صُدور الكُفْرِ مِنَ العَبْدِ بأنَّ ضررَهُ يَرْجِعُ إليهِ وحدَهُ، ولا يضرُّ اللّهَ تَعالى شيئًا.

تَغْليبُ الخَوْفِ عَلى الرَّجاءِ حالَ الصِّحَّةِ

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾؛ لكونه جامعًا لصِفاتِ الجَلال والجمالِ والكَمال، وهذا أنسَبُ لِمَقامِ الحِكْمةِ؛ إذِ الحكيمُ مَن أدامَ اسْتِحْضارَ

---

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 119.

صِفاتِ الجَلال والجمالِ، فغَلَب خوفُهُ رجاءَهُ ما دامَ في حالِ الصِّحَّة في هذهِ الحَياة[1].

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ بالاسمين الجَليلَيْن:

بَيانُ شِدَّةِ افْتِقارِ العِبادِ إلى اللهِ سُبْحانَهُ وإلى شُكْرِه

في خَتْم قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ بالاسْمَيْن الكَريمَيْن إيماءٌ إلى عدَم حاجَة اللّهِ سُبْحانَه إلى شُكْر العِباد، حتّى على فَرْض أنَّه لَم يَشْكُرْه أحدٌ مِنْهُم؛ لأنَّه سُبْحانَهُ غَنيٌّ عَن شُكْرِهم، وحميدٌ: كثيرُ المَحْموديَّة بِلسانِ حالِ الكائِنات كُلِّها، أو هُو حميدٌ في ذاتِه مِن غَيْرِ حَمْدِ العِباد لَهُ.

وفي خَتْم الآيةِ بالاسْمَيْن الجَليلَيْن أيضًا إيحاءٌ بفَقْرِ العِباد، واحْتياجِهم إلى شُكْرِ اللّهِ سُبْحانَهُ وحَمْدِه؛ لِما يَتَرَتَّب عَلى ذلكَ مِن فَوائِدَ لَهُمْ[2].

وجهُ تَنْكيرِ الاسْمَيْنِ الكَريمَيْن:

سَعَةُ غِنى اللهِ سُبْحانَهُ وعَظَمَةُ حَمْدِهِ

نُكِّرَ الاسْمانِ الكريمانِ: الغَنيُّ والحميدُ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ للإيماءِ إلى عظمةِ الوَصْفَيْن اللَّذين تضمَّنَهُما الاسمانِ، فهُو غَنيٌّ: عظيمُ الغِنى وواسِعُه، وحَميدٌ: عظيمُ الحَمْدِ ومُسْتَحِقُّه.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الغَنيِّ عَلى الحَميدِ:

غِنى اللهِ ﷻ مِنْ أوصافِهِ الجَليلَةِ التي يُحْمَدُ عَلَيْها

ذُكِرَ اسمُ اللّهِ تَعالى الحميد بَعْدَ اسمه الغَنيِّ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ لبَيانِ أنَّ غناهُ ﷻ غنًى يُحمَدُ عليهِ، فغناه تعالى من لوازِم ذاتِه؛ بخِلافِ غِنى المَخْلوق، فَقَد يُحمَدُ عليه، وقَد لا يُحمَدُ؛ إذْ لا يُحْمَدُ المَخْلوقُ عَلى غِناه؛ إذا كانَ بَخيلًا، وإنَّما يُحمدُ عليه؛ إذا بذلَ، واللّهُ ﷻ غَنيٌّ حميدٌ، فَهُو لَم يَسْألِ العِبادَ شُكْرَ النِّعم لحاجَتِه إلى ذَلِك، وإنَّما لمَصْلَحَتِهم هُمْ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 160.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1590.

(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 341.

سرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ:

كَثْرَةُ مَحمودِيَّةِ اللهِ تَعالى وكَمالُ غِناهُ

في التَّعْبيرِ بِاسْمِ الحَميدِ، مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وهُوَ على زِنَةِ أَمْثِلَةِ المُبالَغَةِ، إشْعارٌ بِكَثْرَةِ مَحْمودِيَّتِه بِلِسانِ حالِ الكائِناتِ كُلِّها، ويَدْخُلُ في ذلكَ الكافِرُ بِهِ، كَما قالَ اللّٰه سُبْحانَه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 15][1].

وأمّا ﴿غَنِيٌّ﴾؛ فَهُو صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وهِيَ دالَّة على ثُبوتِ وصْفِ الغِنى لَهُ سُبْحانَهُ، الذي له الغنى التامُّ المطلق من كلِّ الوجوه، فلا يَتطَرَّق لِغناهُ نَقْصٌ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ في الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ يَرِدُ لِلشَّيْءِ الكَثيرِ والأمْرِ العَظيمِ

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ مِن أصْحابِ المُعْجَماتِ[2]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[3]:

أحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعلِه، فتقول: آتاني شيئًا، فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعاطني شيئًا، فَعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أضْعفُ في إثْباتِ مَفْعُولِه مِمّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأرَبِ منهُ.

ثالِثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّك بخلاف الإيتاء.

وأمّا في خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ للفظتَي (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرْقًا **مِن جِهَتَيْنِ**[4]: **إحْداهُما**: أنَّ الإيتاءَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 153.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(4) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

لَم يُستعمَلْ إلّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيم الشَّأنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدٍ ما يدلُّ على الكثرَةِ، و**الأُخْرى**: أنَّ الإيتاءَ إذا صدرَ مِنَ العَبْدِ؛ يكُون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ؛ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

الشّكر والحمد:

الحَمْدُ أعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مُتَعَلَّقًا وأخَصُّ مِنْهُ آلَةً

الحَمْدُ هو الشُّكْرُ عند الأَخْفَشِ وجماعةٍ[1]، وفيه نَظَرٌ، بل بينَهُما فرقٌ.

وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشُّكرَ أعمُّ مُطْلَقًا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، والشُّكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"[2]، وعكَسَ الجَوْهَريُّ ذلك، فجعل الحَمْدَ أعمَّ مُطلقًا مِنَ الشُّكر[3].

والصَّوابُ أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وجْهيًّا؛ فالحمدُ أعمُّ مُتَعَلَّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً.

وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون في مقابلِ النِّعمةِ، ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعة، ويكون ابْتداءً للثَّناء عَلى الرَّجُلِ"[4]، بل قد يُحَمْدُ على المُصيبَةِ[5]، وذلك في حَمْدِ اللهِ تعالى؛ إذْ يكون على كلِّ حالٍ.

بخلاف الشُّكْر؛ فلا يكون إلّا في مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ، قال في القامُوس: "الشُّكْرُ - بالضَّمِّ -: عِرْفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه، ولا يَكُونُ إلّا عن يَدٍ"[6].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدَّميريّ في تحبير المختصر: 1/ 62، أنه ظاهر قول سيبويه، وهو ظاهر كلام ابن جرير في جامع البيان: 1/ 138.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).

(3) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (حمد).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(5) كمَا جاء مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ ﵁ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ، وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدي بَيْتًا في الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه الترمذي، الحديث رقم: (1021)، وهو حسن كما في صحيح الجامع الصَّغير، الحديث رقم: (795).

(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ متعلَّقًا مِن الشُّكر.

أمّا الآلةُ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دُون الجوارحِ، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال اللّٰهُ سُبْحانَه: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سبأ: 13]، فتقرَّر من هذا أنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ وصايا لُقْمانَ الدّالَّةِ عَلى حِكْمَتِهِ

لمّا ذكَر اللّهُ تعالى إيتاءَهُ الحِكْمَةَ لِلُقْمان، وكانَ الإنْسانُ لا يَعْرِفُ حِكْمَةَ الحكيمِ إلّا بأقْوالِه وأفعالِه، ولا صِدْقَ للكلامِ وحِكْمَته إلّا بمُطابقَتِهِ الواقِعَ؛ أعقبَهُ ببيانِ بعضِ وصايا لُقْمانَ لابْنِهِ الدّالَّة على حِكْمَته، فقال سُبْحانَه: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعِظُهُۥ﴾: (وعظ) تدورُ تَصْريفاتُها على معنى التَّخويفِ، فالوَعْظُ: التَّخويفُ، والاسمُ مِنْهُ: عِظَةٌ، قال الخليلُ: هُوَ التَّذكير بالخير وما يَرِقُّ لَهُ القلبُ[2]، وما ذكَرَهُ الخليلُ إحْدى صورَتَي الوَعْظِ. وحقيقةُ الوعظِ الكاملةُ: التَّخويفُ والزَّجر بما وقَعَ لِغَيْرِه، ويكونُ للتَّذْكير بالخَيْر مِمّا يَرِقُّ لهُ القَلْبُ، كَما يكونُ للتَّذْكير والإنْذار بِما وقَعَ للعُصاةِ[3].

وكأنَّ الأصل فيه أنَّه خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيئة فحسْبُ، ثم عُمِّم في الحضِّ على ما له ثوابٌ[4].

2) ﴿تُشۡرِكۡ﴾: (شرك) تدورُ اشْتِقاقاتُها على لُزوم شَيءٍ شَيْئًا إمْساكًا بِجامِعٍ دَقيقٍ، ومنْهُ: شِراكُ النَّعْلِ؛ لكونِهِ ملازِمًا للنَّعْلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 160.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 264.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).

مُمْسِكًا إيّاها، وكذا شَرَكُ الصَّيْدِ، ومِنْ هذا التَّلازُمِ: الشَّرِكَةُ، وهي خُلْطَةُ المِلْكَيْنِ(1).

وحقيقَةُ الشِّرْكِ شَرْعًا: تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللّهِ بِاللّهِ، في شيءٍ مِنْ خَصائِصِ اللّهِ تَعالى(2).

3) ﴿لَظُلۡمٌ﴾: (ظلم) تدور اشتقاقاتُها على حَجْبِ ما يَنْبَغي، أو ما يُسْتَحَقُّ، أي: مَنْعُهُ أو انْتِقاصه(3)، ومِنْهُ الظَّلامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَة، والأرضُ المَظْلومةُ: التي لَم يَنَلْها المطرُ(4)، والظُّلم: وضعُ الشَّيْء في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمّا بنُقْصانٍ أو بزيادَةٍ، وإمّا بِعُدولٍ عَن وقْتِه أو مَكانِه(5)، ومِنْهُ سُمّيَ الشِّرْكُ ظُلْمًا؛ لأنَّه وضعُ العبادةِ في غيرِ مَنْ خَلَقَ(6)، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أعْظَمُ الكَبائِرِ وأبْشَعُها الشِّرْكُ باللهِ تَعالى

واذكُر - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - النَّصيحَةَ الأولى من لُقْمانَ لابْنِه ووصيَّتَهُ لَهُ حينَ قال لهُ واعظًا: يا بنيَّ لا تُشْرِكْ باللّهِ سُبحانَهُ؛ فتَظْلِمَ نَفْسَك، إنَّ الشِّرك لأعظَمُ الكَبائِرِ وأبشَعُها(7).

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ مكانةَ الوصيَّة من الأب لابنه الذي هو أشفق الناس عليه، وأحبهم إليه؛ فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يَعْرف، وإلى أهميَّة ابتداء لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشِّرك باللّه؛ لأنَّ النفس المُعَرَّضة للتزكية والكمال يجب أن يُقدَّم لها قبل ذلك تخليتُها عن مبادئ الفساد والضلال، وإلى أنَّه لا أفظعَ

(1) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن الكريم، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرك).
(2) ابن قاسم العاصمي، حاشية كتاب التوحيد، ص: 15، ومحمد الخميِّس، شرح الرسالة التدمرية، ص: 89.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤَصَّل: (ظلم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرَّاغب، مفرداتُ ألفاظ القرآن: (ظلم).
(6) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/ 82.
(7) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.

وأبشعَ ممن سَوَّى المخلوق من تراب، بمالك الرِّقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا، بمَن له الأمرُ كلُّه، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالربِّ الكامل الغنيِّ من جميع الوجوه، وسوَّى مَن لم ينعم بمثقال ذرَّة من النِّعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم، إلّا منه ﷻ، ولا يصرف السوء إلّا هو، فهل أعظم من هذا الظُّلم شيء؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَإِذۡ قَالَ﴾:

تَكْميلُ لُقْمانَ نَفْسَهُ وسَعْيُهُ في تَكْميلِ غَيْرِه

الواوُ في ﴿وَإِذۡ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بَعْدَها عَلى جُمْلَة: ﴿ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾، والتَّقْديرُ: آتَيْنا لُقْمانَ الحِكْمَة حينَ جعَلْناهُ شاكِرًا في نَفْسِه، وحينَ جَعَلْناهُ واعظًا غيرَهُ، فَهُو في وقْتِ قَوْلِه ذلكَ لابْنِه كانَ قَد أوتيَ حِكْمَةً، فذلكَ القولُ مِنَ الحِكْمَة قَطْعًا[2].

وهذا العطفُ مِن بابِ التَّرَقّي؛ لأنَّ في الأولى تَكْميلًا لنفسِه، وفي الثّانيةِ تكميلًا لغَيْرِه، ولا يكونُ الإنسانُ مُكَمِّلًا غيرَهُ إلّا إذا كَمَّل نفسَهُ قبلُ، فكانَتِ الثّانيَةُ أَعْلى مرتبَةً مِنَ الأولى.

دلالةُ (إذْ) ومَوْقِعُها الإعْرابيُّ:

تنبغي مُوافَقَةُ القَلْبِ اللِّسانَ في الوَعْظِ

(إذْ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ في محلِّ نصبٍ على الظَّرفيَّة، وهذا الظَّرْفُ مُتَعَلِّق بفِعْلٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: واذْكُرْ بِقَلْبِك لتَتَّعِظَ وبلِسانِكَ لِتَعِظَ غيرَك؛ إذْ قالَ لُقْمان لابْنِه، وجملةُ: ﴿قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ﴾ في محلِّ جرٍّ بإضافةِ (إذْ) إلَيْها[3].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 428، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 648، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 153.

(2) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 119، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 153.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 161، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 533.

ومالَ الزَّجّاجُ إلى أنَّ (إذ) في موضع نَصْبٍ بالفِعْلِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ مِن قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، والمَعْنى: ولَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الحِكْمَةَ؛ إذْ قالَ لابنِه[1]، واسْتَدْرَكَ عليهِ النَّحّاس بأنَّ الواوَ في ﴿وَإِذْ﴾ تَمْنَعُ مِنْ تسليطِ العامِلِ المتقدِّمِ عَلَيْها[2].

نُكْتَةُ إظْهارِ لقمان في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

تَحْقيقُ مَعْنى الحِكْمَةِ بِذِكْرِ أفْرادِها

في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ إظهارٌ في محَلِّ الإضْمارِ؛ وذَلِكَ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ في النَّظْمِ القُرآنيِّ: (وَإذْ قالَ لابنِهِ وهُو يعِظُه)، ونكتةُ إظْهارِ اسم لقمان زيادةُ تَعْيين مَن صَدَرَ مِنْهُ هذا القولُ؛ تحقيقًا لِمَعْنى الحِكْمَةِ التي أوتيَها بذِكْرِ أفرادٍ مِنْها.

مَعْنى اللّامِ في قَوْلِه: ﴿لِٱبْنِهِۦ﴾:

تَخْصيصُ المَوْعِظَةِ دَليلٌ عَلى الاعْتِناءِ بِها

اللّامُ في ﴿لِٱبْنِهِۦ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ دالَّةٌ عَلى الاخْتِصاصِ، أي: إنَّ لُقْمانَ خَصَّ ابنَهُ بهذِهِ المَوْعِظَة، وتخصيصُهُ بها أمارَةٌ عَلى شِدَّة عِنايَتِه بِها وبِأُسْلوبِها المُحَقِّق الغَرَضَ مِنْها في تزكية نَفْس ابنه وكمالها.

غَرَضُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى المُسْنَدِ:

الاهْتِمامُ بِشَأْنِ الوَعْظِ الصّادِرِ مِنْ لُقْمانَ

قُدِّمَ المُسْنَدُ إليه عَلى المُسْنَدِ الفِعْليِّ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾؛ لإرادةِ تأكيدِ النِّسْبَةِ، وذلكَ لأنَّ فِعْلَ الوَعْظِ مُسْنَدٌ إلى الضَّميرِ المُنْفَصِل (هُوَ)، ومسندٌ إلى الضَّميرِ المُسْتَتِر في ﴿يَعِظُهُۥ﴾، فكانَ في هَذا تَكرارٌ للنِّسبة، وفي هَذا التَّكْرار تأكيدٌ لِنِسْبَةِ الوَعْظِ إليهِ، وذلكَ دالٌّ على الاهْتِمام بشَأنِه.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِه: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾:

الوَعْظُ زَجْرٌ مَقْرونٌ بِتَخْويفٍ

الواوُ في ﴿وَهُوَ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ للحالِ، والجُمْلَةُ

---

(1) الزجاج، معاني القرآن: 4/ 196.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 3/ 194.

بعدَها حاليَّة، والمَعْنى: إذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِه والحالُ أنَّه يُخاطِبُه بالمَوْعِظَةِ المُرَغِّبة له في التَّوحيد الصّادَّةِ لَهُ عنِ الشِّرك، وفي ذِكْرِ جُمْلَةِ الحالِ إشارَةٌ إلى أنَّ ابنَهُ كانَ على حالٍ تَسْتَدْعي الوعظَ والإرْشادَ؛ إذِ الوَعْظُ زَجْرٌ مقتَرِنٌ بتَخْويفٍ، والمَزْجورُ عَنْهُ يُعْرَف بمتعلِّقِ فعلِ الموعظَةِ، وهو هنا النَّهي عنِ الشِّرك باللّه سُبحانه، ولازِمهُ الأمْرُ بالتَّوحيد[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿يَعِظُهُۥ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عِنايَةُ الواعِظِ بِالطَّريقِ الموصِلِ إلى ما يُرَقِّقُ القُلوبَ

في اخْتيارِ لَفْظِ الوَعْظِ من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ إيماءٌ إلى عظَمَة شفَقَةِ لُقْمانَ عَلى ابْنِه، وشِدَّةِ حِرْصِه على هدايَتِه؛ إذِ الوَعْظُ تَذْكيرٌ بالخَيْر وما يَرِقُّ له القلبُ، وهذا يَقْتَضي عنايةً شديدةً في طريقِ الوُصولِ إلى ما يَرِقُّ لهُ القَلْبُ.

غَرَضُ النِّداءِ بِـ (يا):

الإيماءُ إلى عُلُوِّ شَأنِ النِّداءِ وجَلالَةِ مَضْمونِه

افْتُتِحت موعِظَةُ لُقْمانَ بنِداءِ المَوْعوظِ في قَوْلِه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾، مع أنَّ توجيهَ الخِطاب لَهُ مُغْنٍ عَن ندائِه؛ لحُضورِه بالخِطابِ؛ لِلإيماءِ إلى مَزيدِ الاهْتِمام بالغَرَضِ الذي سيقَ الكَلامُ مِنْ أجْلِه، فيكونُ النِّداء مُسْتَعملًا مجازًا في طلَبِ حُضورِ الذِّهن لإدراكِ الكَلام ووَعْيه[2].

وحرفُ النِّداء (يا) موضوعٌ في الأصْلِ لِنِداءِ البَعيدِ، والمُنادى هَهُنا قريبٌ، كَما يُومِئُ إليه قولُهُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ﴾، وفي نداءِ القَريبِ بِالأداةِ المَوْضوعَة لِنداءِ القَريب إشْعارٌ بِعُلُوِّ شَأنِ النِّداءِ وأهَمّيَّة مَضْمونِه، وأنَّ المُخاطَبَ لا يَفي بما هُو حَقُّه مِنَ السَّعْي فيه وإنْ بذَلَ وُسْعَهُ، واسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ، فكأنَّه غافلٌ، بَعيدٌ ذِهْنُهُ عَنْه[3].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 413، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 7/ 134، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 283، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 153، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1590.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 154.

(3) أحمد إبراهيم محمد علي، سورة لقمان، دراسة بلاغية، ص: 1591.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ البُنُوَّةِ وإضافَتِهِ:

إظْهارُ الشَّفَقَةِ في الوَعْظِ أدْعى لِقَبولِهِ

في اخْتيارِ لُقْمانَ نِداءَ ابنِه بلَفْظِ البُنُوَّة في قولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ مخاطبَةٌ لَهُ بأحَبِّ ما يُخاطَبُ به، معَ ما فيهِ من إظْهارِ التَّرحُّم والتَّحنُّن والشَّفقَةِ؛ ليَكونَ ذَلِكَ أدْعى لقَبولِ وعْظِه ونُصْحِه[1].

وتصغيرُ لَفْظِ البُنُوَّة زيادَةٌ في التَّلطُّف والتَّرقيقِ والإشْفاقِ والمَحبَّة، وليَدُلَّ التَّصغيرُ على أنَّه لا يزالُ في حاجةٍ إلى نَصائحِه ومَواعِظِه، وكِبَرُ سنِّه لا تجعلُه في غِنًى عن ذَلك[2].

وفي إضافَةِ لَفْظِ البُنُوَّةِ إلى ضميرِ المتكلِّم إظهارٌ لغايةِ الشَّفقةِ وكمالِ النُّصحِ؛ لأنَّ مِن شأنِ الأبِ محبَّةَ الخيرِ لِولَدِهِ ومحبَّتَهُ كَمالَ حالِه.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في (بُنَيَّ):

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قَرأ حفصٌ عن عاصم (بُنَيَّ) مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ بِفَتْحِ الياءِ، وقرأها ابْنُ كَثيرٍ بإسْكانِ الياءِ مخفَّفةً (بُنَيْ)، وكسَرها الباقونَ مشدَّدةً[3].

فوَجْهُ مَن شدَّد الياءَ مَكْسورَةً: أنَّ الأصلَ فيها ثلاثُ ياءاتٍ: ياءُ التَّصغير، وياءٌ هي لامُ الفعلِ في (ابن) - إذْ أصْلُها (بَنَوٌ)، فالتَّصغيرُ يرُدُّ الكلماتِ إلى أُصولِها - وياءُ الإضافَةِ التي يَجِبُ كسرُ ما قَبْلَها، فأُدْغِمَت ياءُ التَّصغير في الثّانية التي هيَ لامُ الفِعْلِ، وكُسِرَت لأجْلِ ياءِ الإضافَة، ثُمَّ حُذِفَت ياءُ الإضافَةِ لاجْتِماعِ الأمثالِ، وبَقِيَتِ الكَسْرَةُ دالَّةً عَلَيْها.

ووَجْهُ مَن فتَحَ الياءَ، وشدَّدها أنَّه لَمّا جيءَ بِالكَلِمَةِ عَلى أصْلِها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 161.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 63، والقِنّوجي، فتح البيان: 10/ 283، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11636.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 289، والبنّا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 321.

بياءاتٍ ثلاثٍ؛ استُثْقِل اجْتماعُ الياءاتِ والكَسرات، فأُبْدِلَت الكَسْرَةُ التي قبلَ ياء الإضافةِ فتحةً طلبًا لِلتَّخفيف، فانْقَلَبت ياءُ الإضافةِ ألفًا، ثُمَّ حُذِفَت.

ووَجْهُ إسكانِ الياءِ أنَّه قد حُذِفَت ياءُ الإضافَةِ على أصْلِ حَذْفِها في بابِ النِّداء، ثُمَّ اسْتُثْقِلَ تَشْديدُ الياءِ مَكْسورَةً، فحُذِفَت لامُ الفِعْلِ، وبَقِيَت ياءُ التَّصغير ساكِنَةً[1].

دِلالَةُ النَّهْيِ في قَوْلِهِ: ﴿لَا تُشْرِكۡ﴾:

مُجانَبَةُ الشِّرْكِ أعْظَمُ الواجِباتِ الشَّرْعِيَّةِ

النَّهي في ﴿لَا تُشۡرِكۡ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ يُراد به النُّصْحُ والإرْشادُ، ولا تَمْنَع هذهِ الدِّلالَةُ مِن وُجودِ الامْتثالِ لِمَضْمونِ النُّصْحِ شرعًا، فإنَّ اجْتِنابَ الشِّرك أعظمُ الواجباتِ الشَّرعيَّة.

ونَهْيُه عَنِ الشِّرك مُشْعِرٌ بأنَّ ولدَهُ كانَ على مِلَّةٍ تُخالِفُ ملَّة التَّوحيد؛ إذِ الأَصْلُ في النَّهي أن يُوجَّهَ إلى المُتَلَبِّس بالمَنْهِيِّ عنهُ أو عِنْدَ مُقارِبَةِ التَّلَبُّس به، ولا يُنْهى في الأصلِ عَن شَيْءٍ مُنْتَفٍ عنِ المَنْهيِّ.

ويجوزُ أن يكونَ النَّهْيُ نَهْيًا عَنِ الدَّوام، على قولِ مَن يرى أنَّ ابنَ لقمانَ كانَ مُسْلِمًا، فيكون النَّهي مرادًا به دوامُ مُجانبَةِ الشِّرك لِئَلّا يقع مِنْهُ إشْراكٌ في المُسْتَقْبَل[2].

مَعْنى الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿بِٱللَّهِۖ﴾:

أثَـرُ الـوُقـوفِ في تَـنَـوُّعِ مَـعـاني الحُروفِ

الجارُّ والمجرورُ ﴿بِٱللَّهِۖ﴾ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ مُتَعَلِّقان بفِعْلِ الإشْراكِ ﴿تُشۡرِكۡ﴾، ومَن وقفَ عَلى: ﴿لَا تُشۡرِكۡ﴾؛ جعلَ الباءَ لِلقَسَم، والمَعْنى: (أُقْسِمُ باللهِ ﷻ إنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيمٌ)[3]، وهو تكلُّفٌ واضح في قلب حرف الجر إلى قَسَم، ويردُّه أنَّ غالب الأوامر في القرآن بالنَّهي عن الشرك جاءت بتعدية فعله بالباء.

(1) محمد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة: 2/ 246 - 247.

(2) القِنّوجي، فتح البيان: 10/ 283، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 154، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1591.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 84.

الزَّجرُ عَنِ الشِّرْكِ بِبَيانِ عَظَمَةِ حَقِّ اللهِ تَعالى

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِالاسْمِ الأحْسَنِ (الله):

في التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحْسَنِ (اللّه) مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ مزيدُ إشفاقٍ على ابنِه، وذلكَ بإبْرازِ الاسْمِ الأعْظَمِ الموجِبِ اسْتِحْضارَ صفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ[1]، فيَكون ذَلِكَ أَزْجَر عَلى مُقارَبَةِ الشِّرْك.

تَعليلُ الأحْكامِ أدْعى لِامْتِثالِها

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾:

فُصِل قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه تعليلًا له، وهو تعليلٌ للنَّهْيِ عَن الشِّرك أو تعليلٌ للانتهاءِ عَنْه[2].

ويجوزُ أن يكونَ فَصْلُ الجُمْلَةِ؛ لكونِها خبرًا مِنَ اللّهِ تعالى شأنُهُ منقطِعٌ عَن كلامِ لقمانَ، وإنِ اتَّصل بهِ في تَأكيدِ المَعْنى[3].

تَأكيدُ الكَلامِ السّابِقِ وتَقْريرُ مَعْناهُ في النَّفْسِ

بَيانُ قائِلِ هَذِهِ الجُمْلَةِ:

اخْتُلِفَ في جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، فقال جَماعَةٌ مِن أَهْلِ العِلْمِ: إنَّها مِن كلامِ اللّهِ تَعالى، فتكونُ جُمْلَةً مُسْتَأنفةً واردةً على جِهَةِ التَّأكيدِ لِما قَبْلَها، وقال آخَرونَ: إنَّها مِن تمامِ كلامِ لُقْمانَ في وصيَّتِه لابنِهِ، وكونُهُ مِن كلامِ لُقْمانَ أظْهَرُ[4]، كَما يَدُلُّ عليهِ ما جاءَ عَن ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنَّه قال: لَمّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: 82]؛ شَقَّ ذَلِكَ على أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، وقالُوا: أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ كَما تَظُنُّونَ، إنَّما هُوَ كَما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13]»[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 161.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 161، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 84.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 155.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 413، والقِنوجي، فتح البيان: 20/ 283، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 84، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 156.
(5) رواه البخاري في صحيحه (برقم: 6937)، ومسلم في صحيحه (برقم: 124).

عِلَّةُ البَدْءِ بِالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ:

أهمُّ مُهمّاتِ الدّيانَةِ تَوْحيدُ اللهِ تعالى ومُباعَدَةُ الشِّرْكِ بِهِ

بدأ لُقْمانُ وعْظَهُ ابنَهُ بنَهْيِه عنِ الشِّرك، فقالَ اللّهُ سُبْحانَهُ عَن ذَلِكَ: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾؛ لكونِهِ أهَمَّ من غيرِهِ؛ إذْ نَفْيُ الشِّرك يستلزِمُ الأمرَ بالتَّوحيد، وهو أهَمُّ المُهِمّات[1].

وابتدأ وعظَهُ ابنَهُ بطلَبِ إقلاعِهِ عنِ الشِّركِ أيضًا؛ لأنَّ النَّفس الطّالبة للتَّزكيَةِ والكمالِ يجبُ أن يُقدَّم لها قبلَ ذلكَ تَخْليَتُها عَن أصولِ الفسادِ والضَّلال، وذلكَ لأنَّ إصلاحَ العقائدِ أصلٌ لإصلاحِ العمَلِ[2].

بَلاغَةُ تَوالي المُؤَكِّداتِ:

بَيانُ شَناعَةِ الشِّرْكِ وعِظَمِ جُرْمِ المُشْرِكِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ حشْدٌ لمؤكِّداتٍ، وهي: إنَّ واللّام واسميَّةُ الجملةِ، وفي وصْفِ الظُّلْم بالعظمَةِ ضَرْبٌ من ضُروبِ التَّوكيدِ المَعْنَويِّ، وهذهِ التَّأكيداتُ تُشير إلى فَظاعَة الشِّرك، وشناعةِ جُرْمِ المُتَلَبِّس به، وليُصَوِّر لقمانُ عِظَمَ الكُره الذي شَغَلَ نفسَهُ، وملأَ قلبَهُ للشِّرك باللّهِ تعالى، وفي هذا التَّأكيد أيضًا: تقريرٌ لهذا المعنى وتثبيتُه في نفسِ المُخاطَب؛ ليكونَ ذلك أدْعى لاجْتِنابِه[3].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلشِّرۡكَ﴾:

شُمولُ لَفْظِ (الشِّرْك) لِجَميعِ أنْواعِهِ

(أل) في ﴿ٱلشِّرۡكَ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ هي لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ أفرادِ الشِّرْكِ، فهو شامِلٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلشِّرۡكَ﴾ الشِّرْكُ الأكبَرُ والشِّرْكُ الأصغَرُ[4].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَظُلۡمٌ﴾:

المُبالَغَةُ في التَّنْفيرِ مِنَ الشِّرْكِ

اللّامُ في ﴿لَظُلۡمٌ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ هي

---

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 119، والقِنوجي، فتح البيان: 10/ 283، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11636.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 155.

(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1592 - 1593.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 161.

لامُ الابتداء، المسمّاة هنا باللّامِ المُزَحْلَقَة، لكنها تزحلقت بعد ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة؛ كراهية ابتداء الكلام بمؤكِّدين؛ إذ التقدير في الأصل: (إنَّ لَلشِّرك ظلمٌ)، وهيَ مِن مؤكِّدات الجُمْلة الخبريَّة[1]، وفي ذلكَ تعظيمُ شَأنِ الشِّرْكِ، ومُبالغَةٌ في التَّنفير منه بتأكيدِ نِسْبَةِ الظُّلْمِ إليه.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ الظُّلْمِ:

أشْنَعُ ما في الشِّرْكِ تَسْويَةُ المَخْلوقِ بِالخالِقِ

نُكِّر لفظُ ﴿لَظُلۡمٌ﴾ في قولِ الله سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؛ لإفادَةِ التَّعْظيم، أي: إنَّ الشِّركَ ظُلْمٌ عظيمٌ جدًّا، وذلك لظُهورِ ظُلْمِهِ مِن جهاتٍ عديدَةٍ، أبرزُها أنَّ فيه تسويةَ المخلوقِ بالخالقِ.

فائِدَةُ وصْفِ الظُّلْمِ بِالعِظَمِ:

في وصْفِ الظُّلْم بالعِظَم في قولِ الله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ تقبيحٌ لهُ وتشنيعٌ، ولازمُ ذلك بيانُ سوءِ صنيعِ المُتَلَبِّس به.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّصيحة والوعظ:

الوَعْظُ أخَصُّ مِنَ النَّصيحَةِ

الوعظُ هُوَ التَّخويفُ والزَّجر بما وقَعَ لِغَيْرِه، ويكونُ للتَّذْكير بالخَيْر مِمّا يَرِقُّ له القَلْبُ، كَما يكونُ للتَّذْكير والإنْذار بما وقَعَ للعُصاةِ[2]، والنَّصيحةُ: كلمَةٌ جامِعَةٌ تدلُّ على إرادَةِ الخَيْرِ للمَنْصوحِ لَهُ وبذلِهِ لَهُ[3].

فالنَّصيحةُ عَلى هَذا أعمُّ مِنَ الوعظِ؛ لأنَّ النَّصيحةَ قَد تكونُ تَذْكيرًا بمعلوم مغفولٍ عَنْهُ، أو تعليمًا لمجهولٍ، بخلافِ الوَعْظِ، فغالِبُ اسْتِعْمالِهِ يكونُ في التَّذكير بمعلومٍ مَغْفولٍ عَنْهُ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 21/ 77، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 534.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 264.
(3) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 1/ 219.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ
فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ
عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا
فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

بَيانُ عِظَمِ حَقِّ الوالِدَيْنِ

لمّا ذكَرَ اللّهُ تَعالى ما أوصى به لُقْمانُ ولدَهُ مِن شُكْرِ اللّه سُبْحانَهُ، وهُو المُنْعِمُ وحدَهُ، لا مُنْعِمَ عَلى الحقيقةِ إلّا هُو، وذكَر ما في الشِّرْك مِنَ الشَّناعة والبَشاعَة؛ أتبَعَهُ سُبْحانَهُ بِبَيانِ وصيَّةِ لُقْمان للوَلَدِ بِوالِدِه؛ لكونه مُنْعِمًا مِن جهَةِ جَعْلِ اللّه تَعالى لَهُ سببَ وجودِ الولَد، وذلكَ للاعتراف بالحَقِّ لأهله، والإعلام بأنَّه لا يَشْكُرُ اللّهَ تَعالى مَن لا يَشْكُرُ النّاس، والتفخيم لحَقِّ الوالِدَيْن؛ لكَوْنِه قَرَنَ عقوقَهُما بالشِّرْك، والإعلام بأنَّ الوفاءَ شَيْءٌ واحِدٌ متى نَقَص شيءٌ منهُ؛ تَداعى سائِرُه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَصَّيْنَا﴾: (وصي) تدورُ تَصْريفاتُها عَلى وَصْلِ شيءٍ بِشَيْءٍ[2]، أو على التزامِ الأشياءِ بعضِها ببعضٍ، كالمَحْزوم بالجَريد والنَّبات المُلْتَفّ، ومِن هذا الالتزام جاءَ مَعْنى الإيجابِ في الوَصيَّة؛ لِكَوْنِها عهدًا وتَكْليفًا وإلزامًا[3]، ومن مَعْنى الوصل سُمّيت الوَصيَّةُ بذلك؛ لِأنَّ الموصي قَد وصلَ ما كانَ في حَياته بِما بعدَهُ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 162 - 163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وصى).
(4) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 241.

وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾، أي: عهدنا إليه، وجَعَلْنا ذلكَ وصيَّةً عندَهُ يُسْأَلُ عَن القيامِ بها[1].

2) ﴿وَهۡنًا﴾: (وهن) تدلُّ كثيرٌ مِن اشْتِقاقاتِها عَلى مَعْنى الضَّعْفِ، يُقال: وهَنَ الشَّيءُ يَهِنُ وهْنًا، أي: ضَعُفَ[2]، والوَهْنُ: الضَّعْف في العَمَل والأمر ونَحْوه[3].

وقولُ اللّه تَعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾، أي: ضَعْفًا عَلى ضَعْفٍ، والمَعْنى: لَزِمَها لِحَمْلِها إيّاه أن تَضْعُف مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وقالَ بعضُ أهلِ العِلْم: جَهْدًا عَلى جَهْدٍ[4].

3) ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: (فصل) تدلُّ تصريفاتُها على تمييزِ شيءٍ مِنْ شيءٍ وإبانَتِهِ عَنْهُ، ومِنْهُ سُمّيَ الحاكِمُ فَيْصَلًا؛ لأنَّه يُميِّزُ الحقوقَ، وسُمّيَ اللِّسانُ مِفْصَلًا؛ لأنَّ به تُمَيَّزُ الأمورُ[5].

الفَصْلُ: إبانَةُ أحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الآخَرِ، حتَّى تكونَ بَيْنَهُما فُرْجَةٌ[6].

والفِصالُ: الفِطامُ[7]، ومنهُ قَوْلُهُم: فَصَلتِ المرأةُ ولَدها؛ إذا فَطَمته، فاستقَلَّ عَنْها، وهُوَ المراد بقول اللّه ﷻ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾[8].

4) ﴿جَٰهَدَاكَ﴾: (جهد) تدلُّ تصريفاتُها على المشقَّةِ[9]، ويأتي بمعنى الطّاقة والوُسْعِ[10]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على اسْتِفْراغ الوُسع في مدافعة العَدُوِّ، وهي ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهرِ، ومجاهدة الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس[11].

وغالبُ مُراداتِ الشَّرع في الجهاد: أنَّهُ محاربةُ الكفّار، وسُمّيَ بذلكَ؛ لِما فيه مِن اسْتِفْراغِ ما في الوُسع والطّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[12]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النُّفوس،

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 648.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وهن).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (وهن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (وهن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(6) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (فصل).
(7) أبو عبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (فصل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فصل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهد).
(10) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(11) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(12) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).

و﴿جَٰهَدَاكَ﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾، أي: بَذَل الوالدانِ الجُهْدَ، واسْتَفْرَغا الوُسْعَ على أن تتلَبَّس بالشِّرْك.

5) ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾: (عرف) تدُلُّ تَصْريفاتُها على أصْلَيْن اثنَيْن، أحدهما: تتابُعُ الشَّيء مُتَّصلًا بعضُه ببعضٍ، والآخَرُ: سكونٌ وطُمَأنينةٌ، ومن هذا: العُرْفُ، وهو المَعْروفُ، سُمّي بذلكَ؛ لأنَّ النُّفوس تَسْكُنُ إليهِ، وتَطْمَئِنُّ به[1].

وحقيقَةُ المَعْروفِ شَرْعًا: ما عُرِف حُسْنُه شرعًا[2]، والمعروفُ - في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ - هو الأمْرُ المُتعارَفُ الذي لا يُنكَر، فهُو الأمر الحسَنُ، والمَعْنى: صاحِبْ والِدَيْكَ صُحْبةً حسنَةً[3].

6) ﴿أَنَابَ﴾: (نوب) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى اعْتيادِ المكانِ والرُّجوع إليه، ومِنْهُ سُمّيت النَّحلُ نُوَبًا؛ لكونِها تَرْعى، ثُمَّ تعود إلى مكانِها[4]، ومنهُ قولُهُم: أنابَ فلانٌ إلى اللّهِ سُبحانَهُ إنابَةً، فَهُو مُنيبٌ؛ إذا نابَ، ورجعَ إلى الطّاعَة[5]، وهُو المَعْنى الوارِدُ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾، أي: رجَعَ إلَيَّ، وأقبلَ عَلَيَّ بالطّاعةِ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الوَصيَّةُ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ والإحْسانِ إليْهِما

أمَرْنا الإنسانَ ببِرِّ والدَيْهِ والإحسانِ إلَيْهِما، حَمَلَتْهُ أمُّه ضعفًا على ضَعْفٍ، وتمامُ فِطامِه عن الرَّضاعَةِ في مُدَّة عامَيْن، وقُلْنا له: اشْكُرْ للّهِ سُبحانَهُ، ثُمَّ اشْكُر لوالِدَيْك، إليَّ المَرْجِعُ، فأُجازي كُلًّا بِما يَسْتَحِقُّهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(2) ابن عثيمين، مجموع الفتاوى والرسائل: 4/ 312.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 161.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (نوب).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 106.

وإن جاهَدك - أيُّها الولَدُ المُؤمِنُ - والِداكَ على أن تُشْرِك بي غَيْري في عبادَتِك إيّاي ممّا ليسَ لكَ بِهِ عِلمٌ، أو أمَراكَ بمعصيَةٍ مِن مَعاصي اللّهِ تَعالى؛ فَلا تُطِعْهُما؛ لأنَّه لا طاعةَ لَمخْلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ، وصاحِبْهُما في هذهِ الحياةِ الدُّنيا بالمَعْروفِ فيما لا إثْمَ فيه، واسْلُك - أيُّها الولدُ المُؤمِنُ - طريقَ مَن تابَ مِن ذَنْبِه، ورجع إليَّ، وآمنَ بِرسولي مُحمَّد ﷺ، ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُم، فأُخْبِرُكُم بِما كُنْتُم تَعْمَلونَهُ في الدُّنيا، وأُجازي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِه(1).

وترشدُ الآيتان الكريمتان إلى الإحسان إلى الوالدين بالقول اللَّيِّن، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كلِّ وجه، بالقول والفعل، وإلى رعاية حقِّ الوالدة وتعبها، ومشقَّتها في سهرها ليلًا ونهارًا؛ لتذكير الولدِ بإحسانها المتقدِّم إليه، وإلى بيان تمام مدة الرَّضاع، وهي في خلال عامين، وإلى تقرير مبدأ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق بعدم طاعة الوالدين في غير المعروف، وإلى وجوب اتِّباع سبيل المؤمنين من أهل السنة والجماعة، وحرمة اتِّباع سبيل أهل البدع والضلالة(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ ومَوْقِعُ الجُمْلَةِ بَعْدَها:

وَصيَّةُ اللهِ تَعالى العَبْدَ بِوالِدَيْهِ

الواوُ في ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ استئنافيَّة، والجملةُ بعدَها مُسْتأنفَةٌ على وجْهِ الاعتراضِ في أثناءِ وصيَّةِ لُقْمان؛ لإرادَةِ التَّأكيد لِما فيها من الزَّجر عنِ الشِّرك(3).

(1) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 429، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 648، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 206.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 71، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 84.

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ بعدَها حاليَّة، والمَعْنى: (قالَ لُقْمانُ ذلكَ لِوَلَدِه نُصْحًا لَهُ، والحالُ أنّا بِعَظَمَتِنا وصَّيْنا ولدهُ بهِ بِنَحْوِ ما أوصاهُ بهِ في حَقِّنا)[1].

بَلاغَةُ الاعْتِراضِ في الآيَةِ:

تأكيدُ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ باللهِ تَعالى

هذه الوصيَّة الواردةُ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى قولهِ تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اعتراضٌ بينَ كَلامِ لُقْمانَ على نَهْجِ الاسْتِطْرادِ، والغَرَضُ من ذلكَ تأكيدُ ما تَقَدَّمَ مِنَ النَّهْيِ عنِ الشِّرك باللّهِ سُبْحانَهُ؛ إذْ هُوَ أعظَمُ الذُّنوب على الإطْلاقِ، فَلا جرَمَ جاءَ النَّهْيُ المُؤَكَّد عنهُ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ التَّوْصيَةِ:

الإشـارَةُ إلى عَظَمَةِ الوَصيَّةِ بِحَقِّ الوالِدَيْنِ

جاء التَّعبيرُ بلفظِ التَّوصيةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ للإيماء إلى عظمَةِ ما وُصّي به؛ إذِ الوصيَّةُ في كلامِ العرَبِ: الأمْرُ المؤكَّدُ[3]، والتَّوكيد إنَّما يكونُ في الأمورِ العِظامِ الجَليلَةِ المِقْدارِ.

والتَّوصيَةُ تَتَعَلَّقُ بصلاحِ المُخاطَب خُصوصًا أو عمومًا، ويكونُ في فَوْتِهِ ضَرٌّ، فكانَ التَّعبيرُ بالتَّوصية أبلغَ مِن مُطْلَقِ الأمرِ والنَّهي؛ إذْ لا تُطْلَقُ الوصيَّة إلّا حيث يُخاف الفواتُ، فلهذا كلِّه آثر البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ إذِ المقصودُ مِنْها إلهابُ الهِمَمِ للاحترازِ مِنَ الوُقوعِ في عُقوقِ الوالِدَيْنِ[4].

فائِدَةُ إسْنادِ التَّوْصيَةِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

العَظيمُ لا يوصي إلّا بعَظيمٍ

أُسْنِدَ الفعلُ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ إلى ضميرِ العَظَمَة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ للإيماء إلى عظمَةِ الموصي، وذلكَ يَلْزَمُ منهُ تعظيمُ الموصى بِه؛ إذِ العظيمُ لا يوصي إلّا بالعظيم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 163 - 164.
(2) القِنّوجي، فتح البيان: 10/ 284.
(3) الشنقيطي، العذب النَّمير: 2/ 501.
(4) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1595 - 1596.

فكان في ذلك إشعارٌ بعظمةِ حقِّ الوالِدَيْن، ولذا جُعِلَ حقُّهما بعدَ حقِّ اللّهِ سُبْحانَهُ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

بِـرُّ الـوالِـدَيْـنِ جَـزاءٌ لِبَـعْـضِ إحْـسـانِـهـما السّابِقِ

(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مِن قول اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ يُراد بها الجِنْسُ، أي: وصَّيْنا هذا النَّوعَ مِنَ الخَلْقِ - على لِسان أوَّل نَبيٍّ أُرسل إليهِ فما بَعْدَهُ، وبما رُكِز في فِطْرَةِ كُلِّ فَرْدٍ مِن أفرادِ هذا النَّوع - بأنَّ الإحسانَ لا جَزاءَ لَهُ إلّا الإحسانُ[1].

دلالةُ الباءِ في ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾:

الإيماءُ إلى قُوَّةِ صِـلَـةِ الـعَـبْـدِ بِـوالِـدَيْـهِ بِـرًّا وإحْسانًا

الباءُ في ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ للتَّعدية، وفيها مَعْنى الإلْصاقِ أيضًا؛ إذِ الإلْصاقُ مِنَ المَعاني المُلازِمَةِ لِلباءِ[2]، وهُوَ إلْصاقٌ مَجازيٌّ، وفي ذلك إيماءٌ إلى قُوَّة الوصيَّة بالوالدَيْنِ وشِدَّةِ صِلَةِ الإنْسانِ بِهِما بِرًّا وإحْسانًا.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ وموقِعُهُ الإعْرابيُّ:

تَعْليلُ الأحْكامِ يُقَوّيها ويُؤَكِّدُها

فُصِل قولُ اللّه تَعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ عَمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِهِ موقِعَ التَّعليل لِلوصايَةِ بالوالِدَيْن، والقَصْدُ مِن ذَلِكَ توكيدُ تلكَ الوصايَة؛ إذْ تعليلُ الحُكم يُفيدُهُ تقويةً وتأكيدًا، ولأنَّ في مَضْمون هذه الجُمْلَةِ ما يُثير الباعِثَ في نَفْسِ الولَدِ عَلى أن يَبَرَّ بأُمِّه، ويَسْتَتْبِعَ البِرَّ بِأبيه[3].

وجملةُ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ يجوزُ أن تَكونَ حاليَّة، والمَعْنى: وصَّينا الإنسانَ بِوالِدَيْهِ حالَ كونِ أُمِّه ذاتَ وهْنٍ تحملُهُ في أحْشائِها[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 164.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 158.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 164.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّمائِرِ في قَوْلِهِ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ﴾:

تَوْجيهُ الكَلامِ إلى أفْرادِ النّاسِ عَلى وجْهِ التَّوْزيعِ

ضمائِر الغَيْبَة في: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ﴾ من قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾ ترجع إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ باعتبار فردٍ منه على جهة التَّوزيعِ، أي: وصَّينا كلَّ إنسانٍ بوالديه، حملَت كلَّ فردٍ - من أفرادِ الإنسانِ المذكور قبلُ - أُمُّهُ في بَطْنِها، فالضَّمير في ﴿حَمَلَتۡهُ﴾ ليسَ راجعًا للإنْسانِ باعْتِبار عُموم أفرادِهِ؛ لأنَّ عمومَ النّاس لَم تَحْمِلْهُم أمٌّ واحدةٌ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهۡنًا﴾:

تَحْنينُ قُلوبِ الأولادِ عَلى أُمَّهاتِهِمْ حَثًّا عَلى بِرِّهِنَّ

﴿وَهۡنًا﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾ منصوبٌ على الحالِ، أي: حَمَلَتْهُ أمُّه حالَ كونِها ذاتَ وهنٍ[1]، ويجوز أن يكونَ منصوبًا على المَصْدريَّة المُطْلَقةِ، والمَعْنى: وهنَت بِحَمْلِها إيّاه وهْنًا على وهنٍ[2]، وفي تقييدِ الفعْلِ بالحالِ أوِ المَفْعولِ المُطْلَقِ مُبالغةٌ في تَحْنينِ قُلوبِ الأولادِ عَلى أُمَّهاتِهِم بتَذْكيرِهم بما قاسَيْنَهُ من أجلِ خُروجِهِم إلى الحياةِ، فيكون ذلك أدْعى إلى بِرِّهِنَّ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿وَهۡنًا﴾:

شِدَّةُ الضَّعْفِ اللّاحِقِ بِالأُمِّ في حَمْلِها

جاءَ التَّعبيرُ بالمَصْدَر ﴿وَهۡنًا﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾؛ لإرادَةِ المُبالغَةِ في لُحوقِ الضَّعْفِ بِها وشِدَّة ذلك الضَّعْف، حتّى جَعَلها نفسَ الوَهْنِ[3].

ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ عَلى حَذْفِ مضافٍ، والتَّقدير: حَمَلَتْهُ أمُّه حالَ كونِها ذاتَ وهْنٍ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾:

اشْتِدادُ ضَعْفِ المَرْأةِ كُلَّما أثْقَلَتْ

الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 71.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 104.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 164.

﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ متعلّقانِ بمحذوفٍ صفةٌ للمَصْدَرِ ﴿وَهۡنًا﴾، والتَّقدير: وهْنًا كائنًا عَلى وهْن، أي: تَضْعُفُ ضعفًا فوقَ ضعفٍ؛ إذْ لا تزالُ المرأةُ يتضاعَفُ ضعفُها، ويزيدُ؛ كُلَّما أثقلَتْ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تَمَكُّنُ الضَّعْفِ مِنَ الأُمِّ تَمَكُّنًا بَيِّنًا

في التَّعبير بحَرْفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ إيماءٌ إلى تراكُمِ الضَّعف بعضه فوقَ بعضٍ حتّى اشْتَدَّ عليها، وقويَ، فصار بيِّنًا ظاهرًا مُتَمَكِّنًا تَمكُّن الشَّيءِ العالي عَلى غيرِه.

لطيفةُ تَنْكيرِ الوَهْنِ:

بَيانُ عَظَمَةِ الوَهَنِ اللّاحِقِ بِالأُمِّ وشِدَّتِهِ

نُكِّر لفظُ الوَهْنِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾؛ للدِّلالةِ على تَعْظيمِه وشِدَّتِه، فالمَعْنى: حَمَلَتْهُ أمُّه حالَ كونِها ذاتَ وهْنٍ عظيمٍ مُضافٍ إلى وهْنٍ عظيمٍ آخرَ.

المَوْقِعُ البَيانيُّ لِقَوْلِه: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾:

التَّذْكيرُ بِعِظَمِ حَقِّ الأُمِّ وتَأكيدُ إيجابِ الوَصِيَّةِ بِها

قولُ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ جملةٌ اعتراضيَّة بينَ قولِه ﷻ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾، وقولِه تَعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، فهُو اعْتراضٌ بينَ المُفسَّر والمُفسِّر؛ وذلك لأنَّ اللّهَ تَعالى لَمّا وصّى الإنسانَ بوالِدَيْه؛ أتْبَعَهُ ببيانِ ما تُكابِدُهُ الأمُّ، وتُعانيه مِنَ المَشاقِّ والشَّدائد والمتاعِبِ في حَمْلِه وفِصالِه هذه المُدَّة المُتطاوِلَة؛ تأكيدًا لإيجابِ الوَصيَّة بالوالدةِ على وجْهِ الخُصوص، وتَذْكيرًا بحَقِّها العظيم[2].

نُكْتَةُ الاقْتِصارِ بالوصيةِ عَلى أحْوالِ الأُمِّ:

الـوَصِيَّةُ بِالأُمِّ أصالَةً وبِالأبِ عَلى وَجْهِ الإلْحاقِ والقِياسِ

في قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ اكتفاءٌ، وذلكَ لأنَّ اللّهَ تعالى لَمّا وصّى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 72.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1597.

بالوالِدَيْن؛ أعقبَهُ بِتَعْليلِ هذهِ الوصايَة بذِكْرِ أحوالٍ خاصَّةٍ بالأُمِّ؛ لأنَّ تلك الحالَ المذكورَةَ تَقْتضي الوصايةَ بالأبِ أيضًا على وجْهِ الإلحاقِ والقياس؛ إذِ الأبُ يُلاقي مشاقَّ ومتاعبَ في القيامِ على الأُمِّ؛ لتتَمَكَّنَ مِنَ الشُّغل بالطِّفْلِ مُدَّةَ حضانَتِه، ثُمَّ هو يتولّى تَرْبيَتَهُ والذَّبَّ عنه حتّى يبلُغَ أشدَّه عنِ الإسْعافِ[1].

واكْتُفي بذِكْرِ أحوالِ الأُمِّ؛ لضَعْفِها، فيُحتاج في بِرِّها إلى مزيدِ العِنايَة بِشَأنِها، بِخِلافِ الأبِ؛ فإنَّ له قوَّة في الغالبِ تَمْنَعُ مِنَ الإخلالِ بِحَقِّه.

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾:

بَيانُ أحْوالِ الوَلَدِ في صِغَرِهِ مَعَ أُمِّهِ

الواوُ في ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ عاطِفَةٌ الجملَةَ بَعْدَها على جُمْلَةِ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، وبَيْنَ الجُمْلَتَيْن توسُّطٌ بينَ الكمالَيْن؛ لاشْتراكِهما في الخَبَريَّة، ولِوُجودِ المُناسبَةِ بَيْنَهُما؛ إذْ كِلاهُما في بيانِ أحوالِ الولَدِ في صِغَرِه معَ أُمِّه.

دِلالَةُ ذِكْرِ الفِصالِ بَعْدَ الحَمْلِ:

تَعْليلُ أحَقِّيَّةِ الأُمِّ بالبِرِّ

في ذِكْرِ الفِصالِ بَعْدَ الحَمْلِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ تأكيدُ حقِّ الأُمِّ، وزيادَةُ ترقيقِ قلبِ الولدِ عَلَيْها؛ لأنَّ الحالَيْنِ المَذْكورَيْنِ - وهُما الحَمْلُ والفِصالُ - يَبْعثانِ في الولَدِ دافِعَ الشَّفقة عليها والرَّحمةِ بها[2].

وذِكْرُ الفِصالِ بعدَ ذِكْرِ الحَمْلِ تعليلٌ لأحقّيَّة الأُمِّ بالبِرِّ، وفي ذِكْرِهِما يَسْتَلْزِمُ الرَّضاعَ؛ لأنَّه حالٌ بينَهما؛ إذِ المُتَقَرِّر في القَواعِدِ أنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْن، ثُمَّ إنَّ الفِصال فيه إيماءٌ إلى ما تَتَحَمَّلُه الأُمُّ مِن حُزْنٍ وألَمٍ وشفقةٍ عَلى الرَّضيع لِما تُشاهِدُه مِن أَلَمِه وحُزْنِه في مَبْدَأ فِصالِه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 158.
(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1598.
(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1598 - 1599.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الفِطامِ بِالفِصالِ:

شِدَّةُ عِنايَةِ الأُمِّ بِوَلَدِها وشَفَقَتِها عليه

الفِصالُ المَذْكورُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ هو الفِطامُ عَنِ الإرْضاعِ، وذَلِكَ لأنَّ الصَّبيَّ يُفْصَل عَن ثَدْيِ مُرْضِعِه[1]، وفي التَّعبيرِ عَنِ الفِطام بالفِصال مبالَغةٌ في شِدَّةِ عنايَةِ المَرْأة بوَلَدِها؛ إذْ بلَغَ حالًا يَسْتَغْني بِه عَن لَبَنِها اسْتِغْناءً تامًّا حتّى انْفَصَل عَنْها.

عِلَّةُ ذِكرِ مُدَّةِ الفِصالِ:

غايَةُ الفِطامِ عامانِ وما دونَهُ مَوْكولٌ إلى اجْتِهادِ الأُمِّ

في ذِكْرِ تَوْقيتِ الفِصالِ بالعامَيْنِ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّها الغايَةُ التي لا تُتجاوَزُ، والأمْرُ فيما دونَ العامَيْنِ مَوْكولٌ إلى اجْتِهادِ الأُمِّ، فإنْ عَلِمَت أنَّه يَقْوى عَلى الفِطام؛ فَلها فِطامُه، كما يدُلُّ لذلكَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233][2].

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ المَجازيَّةِ في قَوْلِه: ﴿فِي عَامَيۡنِ﴾:

مُراعاةُ المَصْلَحَةِ في فِطامِ الوَلَدِ قَبْلَ الحَوْلَيْنِ

في التَّعبيرِ بِحَرْفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّ لِلوالِدَيْن فطامَهُ قبلَ تَمام المُدَّة المَذْكورَة حَسَب ما يَحْتَمِلُه حالُ الوَلَدِ، وتَدْعو إليه المَصْلَحَةُ من أمْرِه؛ لأنَّ الظرفيَّة تَصْدُق مَع اسْتيعابِ المَظْروفِ جميعَ الظَّرف، وتَصْدُقُ أيضًا بِوُقوع ذلكَ في بَعْضِه[3].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالعامِ:

سُرورُ الأُمِّ بِمُدَّةِ الرَّضاعِ مَعَ ضَعْفِها فيها

في التَّعبيرِ بِلَفْظ العامِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ إيماءٌ إلى تَعْظيمِ الأُمِّ لِهذهِ المُدَّة؛ إذْ هيَ تَعُدُّ أيّام رضاعِه - مع كونِها أضعفَ ما تكون في تربيتِه - أيّامَ سُرور وسعَةٍ وسعادَةٍ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 438.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1599.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 165، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 159.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 165.

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ في الآيَة:

قالَ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: 15]، ولا تنافيَ بينَ الآيتَيْن؛ لأنَّهما خبرانِ عَن قَضيَّتين مُتباينَتَيْن؛ وذلكَ لأنَّ الحملَ والفِصالَ مُدَّتان لا مُدَّة واحدَةٌ، ومجموعُ المُدَّتين: ثلاثونَ شَهْرًا - في أقلِّ مُدَدِه - ومُدَّةُ الحَملِ غيرُ مُدَّةِ الرَّضاع، فأخبر في آيةِ لُقْمانَ عَن مُدَّة الرَّضاع فَقَطْ(1).

أقَلُّ مَجْموعِ مُدَّةِ الحَمْلِ والفِطامِ ثَلاثونَ شَهْرًا

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ عَمّا قلبَهُ؛ لِوُقوعِه تَفْسيرًا لفِعْلِ ﴿وَوَصَّيۡنَا﴾ وبيانًا لَهُ، فكانَ بينَ الجُمْلَتينِ كمالُ الاتِّصالِ(2).

مَعْنى ﴿أَنِ﴾ ومَوْقِعُ الجُمْلَةِ بَعْدَها:

﴿أَنِ﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ بِمَعْنى: (أيْ) التَّفْسيريَّة، والجُمْلَةُ بعدَها تفسيريَّة، والمَعْنى: وعَهِدْنا إليه أنِ اشْكُر نِعْمَتي عليك، واشْكُرْ لوالدَيْك تربيتَهُما لكَ ومِحنَتَهُما فيك(3).

ويجوزُ أن تكونَ ﴿أَنِ﴾ مَصْدَريَّة، فتُسْبَكَ معَ ما بعدَها بمصدَرٍ منصوبٍ بنَزْعِ الخافِضِ، والمَعْنى: وصَّيْنا الإنسانَ بِشُكْرِه لي ولِوالِدَيْه(4).

تَفْسيرُ الشُّكْرِ وبَيانُ جِهَتِه

دِلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱشۡكُرۡ﴾:

فِعْلُ الأمْرِ ﴿ٱشۡكُرۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ يَدُلُّ على النُّصحِ والإرشادِ؛ لما فيه مِن تحقيقِ مصالحَ دُنْيَويَّة وأُخْرَويَّة، ولا يُنافي أن يكونَ ذلكَ واجبًا؛ فإنَّ شُكْرَ اللّهِ سُبْحانَهُ وشُكْرَ الوالِدَيْنِ من أوجَبِ الواجِبات وأهَمِّ المُهِمّات.

شُكْرُ اللهِ تَعالى وشُكْرُ الوالِدَيْنِ مِنْ أوجَبِ مُهِمّاتِ الدّيانَةِ

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 389.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 160.

(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5723.

(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 538.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِى﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ للاخْتِصاص، ويجوزُ أن تَكون اللّامُ للتَّعليلِ، والمَعْنى: اشْكُر لي؛ لأنَّني المُنْعِمُ على جِهَةِ الحَقيقَةِ، واشْكُر لِوالِدَيك؛ لأنَّ اللّهَ تَعالى جَعَلَهُما سَبَبًا لِوُجودِ الإنسانِ والإحسان بِتَرْبيَتِه[1].

جَعَلَ اللّهُ تَعالى الوالِدَيْنِ سَبَبًا لِوُجودِ العَبْدِ والإحْسانِ بِتَرْبيَتِه

بَلاغَةُ الإدْماجِ في قَوْلِه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾:

التَّمْهيدُ لِلكَلامِ اللّاحِقِ

في تَفْسيرِ الوَصيَّةِ بالوالِدَيْنِ في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ - بِما فيهِ الأمْرُ بِشُكْرِ اللّهِ سُبْحانَه مَعَ شُكْرِهِما - إدماجٌ، من إدماجِ غرضٍ في غرض، بحيث لا يظهر في الكلام إلّا أحدُ الغَرَضين، فجيءَ به تَمْهيدًا للمَذْكورِ بَعْدُ في قَوْلِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾:

التَّحْذيرُ مِن مُخالَفَةِ وصيَّةِ اللهِ تَعالى

فُصِلَ قولُ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ عَمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِهِ تعليلًا للأمْرِ بالشُّكْرِ عَلى وجْهِ التَّحذيرِ من مُخالَفَةِ ذَلِكَ[2].

ويَجوزُ أن تَكونَ الجُمْلَةُ اسْتِئْنافًا؛ لِقَصْدِ الوَعْظِ والتَّحذيرِ من مُخالفَةِ ما أوصى اللّهُ سُبْحانَهُ بِهِ مِن الشُّكْرِ لَهُ وللوالِدَيْنِ[3].

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿إِلَيَّ﴾:

نَفْيُ المصيرِ إلى غَيْرِ اللهِ تَعالى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيَّ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لإرادَةِ الحَصْرِ والقَصْر، أي: المَصيرُ إليَّ لا إلى غَيْري، وفيهِ نَفْيُ أن يكونَ للأصْنامِ مَصيرٌ في شَفاعَةٍ أو غَيْرِها[4].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾:

مَصيرُ النّاسِ كُلِّهِم إلى اللهِ سُبْحانَهُ وحْدَهُ

(أل) في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ للجِنْسِ، أي:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 166.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 166.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 160.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 166، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 160.

مَصيرُ النّاس جميعًا إلى اللهِ تَعالى دونَ ما سِواهُ، ويَجوزُ أن تكونَ (أل) عوضًا عَن مُضافٍ إليهِ، فالأصْلُ: إليَّ مَصيرُ النّاس، فحُذِفَ المضافُ إليهِ (النّاس)، وعُوِّض عنهُ بـ (أل) في لَفْظِ المُضافِ[1].

دلالةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾:

الواوُ في ﴿وَإِن﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ عاطفَةٌ الجُملةَ بعدَها عَلى جُمْلَة: ﴿ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِن التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ وذلكَ لأنَّ جملةَ الشَّرطِ إنشائيَّة؛ إذِ التَّحقيقُ في جُمْلَةِ الشَّرط أنَّه يُنظَرُ إليها بحَسَبِ جوابِها، وجوابُ الشَّرط ها هُنا إنشاءٌ، وهُو قولُه: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾، وجملةُ ﴿ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ إنشائيَّة أيضًا، وبينَهُما مناسبَةٌ؛ إذ كِلتاهما مشتمِلٌ على حقِّ اللّه تعالى في قولِه: ﴿ٱشْكُرْ لِى﴾، وقولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾، وحَقِّ الوالدَيْنِ في قولِه: ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، وقولِه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾.

اشْتِمالُ الجُمْلَتَيْنِ عَلى بَيانِ حَقِّ اللهِ تَعالى وحَقِّ الوالِدَيْنِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ (إنْ) دونَ (إذا):

جاء التَّعبيرُ بـ (إنْ) دونَ (إذا) في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾؛ لأنَّ (إنْ) تدُلُّ في أصل وضْعِها على الشَّكِّ في وُقوع مَدْخولِها، ومجاهدةُ الوالِدَيْن ابنَيْهما على مُواقَعَةِ الشِّرك ليسَ أمرًا مَقْطوعًا به، فكانَ تعليقُ الشَّرط بـ (إن) أنسبَ لِبَيانِ المَعْنى المُرادِ.

الإيماءُ إلى أنَّ مُجاهَدَةَ الوالِدَيْنِ ابْنَهُما عَلى مُواقَعَتِهِ الشِّرْكَ لَيْسَ مَقْطوعًا بِها

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في التَّعبير بالمُجاهدَةِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾ إيماءٌ إلى شِدَّة سَعْيِهما

عَظَمَةُ حَقِّ اللهِ تَعالى فَوْقَ كُلِّ حَقٍّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 160.

في إيقاعِ ولَدَيْهما في الشِّرك؛ إذِ المُجاهدَةُ تَقْتَضي اسْتِفْراغَ الوُسعِ في عملٍ ما، وفي صيغةِ المُفاعلةِ إشارَةٌ إلى مُخالَفَتِهما فيما يَدْعُوانِ إليهِ مِنَ الشِّرك، وإنْ بالَغا في الحَمْلِ عَلى ذَلِكَ مَبْلَغًا عظيمًا، وكُلُّ ذلك لِبَيانِ عَظَمَةِ حَقِّ اللّه ﷻ فَوْقَ كُلِّ حَقٍّ[1].

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّمائِرِ في ﴿جَٰهَدَاكَ﴾:

إرادَةُ العُمومِ بالخِطابِ

في قَوْلِه تَعالى: ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ ضميرانِ، أحدُهُما: ضَميرُ التَّثنية - وهُو الألف - وهُو راجِعٌ إلى الوالِدَيْنِ المَذْكورَيْنِ قبلُ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، وظاهِرُ ضَميرِ الخِطابِ - وهُو الكافُ - أنَّه لا يعودُ إلى مُعَيَّنٍ، كَما هُو الأصلُ فيه، وإنَّما خرَجَ عَن تلكَ الدِّلالة إلى إرادَةِ العُموم، والمَقْصودُ كلُّ مَن يَتَأتّى خِطابُهُ مِنَ المُكَلَّفينَ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

وُجوبُ تَرْكِ طاعَةِ الوالِدَيْنِ في أمْرِهِما بالشِّرْكِ باللهِ تعالى

وفي التَّعبيرِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّه لا مَطْمَعَ لِمَن أطاعَهُما في ذلكَ - ولَو باللَّفظِ فقَطْ - أن يكونَ في جُمْلَةِ عِبادِ اللّه المُحْسِنين، وإنْ كانَ الوالِدانِ في غايَةِ العُلُوِّ والتَّمكُّنِ مِنَ الأسْبابِ الموقِعَةِ في الفِتْنَة[2].

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تُشْرِكَ﴾:

تَحْريمُ مُطاوَعَةِ الوالِدَيْنِ فيما يُخالِفُ شَرْعَ اللهِ سُبْحانَهُ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تُشْرِكَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ للدِّلالة على الاسْتِمْرار، وأنَّ بَذْلَهُما غايَةَ الوُسْعِ في إيقاعه في الشِّرك مُسْتَمِرٌّ متواصلٌ، ومع ذلك فلا يَلِينُ الابن - العبدُ الصالح - لذلك فيُطاوِعَهُما؛ إذْ إنَّ إصرارَهُما على أمْرٍ ما قَد يوجِبُ رِقَّةً ولينًا في قَلْبِ الوَلَدِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 166.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 166 - 167.

مَعْنى الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿بِي﴾:

الإلْصاقُ مَعْنًى مُلازِمٌ لِحَرْفِ الباءِ

الباءُ في ﴿بِي﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ للمصاحبةِ، وفيها مَعْنى الإلْصاقِ أيضًا؛ إذ إنَّ الإلصاقَ مِنَ المَعاني المُلازِمَةِ للباءِ[1]، وهُو إلصاقٌ مَجازيٌّ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾:

لَيْسَ لِلشِّرْكِ دَليلٌ عَلى صِحَّتِهِ واعْتِبارِهِ

﴿مَا﴾ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في محلِّ نصبِ مفعولٌ لـ ﴿تُشْرِكَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ نَكِرَةً، أي: تُشْرِكَ بي شَيْئًا ليسَ لك به علمٌ، أو تكون ﴿مَا﴾ بمعنى: (كُفْرًا أو الكُفْر)، وتكون حينَئذٍ في محلِّ نصبٍ على المَصْدَريَّة، وذلك الكلامُ على حَذْفِ مُضاف، والتَّقدير: وإن جاهدكَ والداكَ على أن تُشْرِكَ بي كُفْرًا ليس لك به عِلْمٌ، أو الكُفْرَ الذي ليسَ لك بِصِحَّته علمٌ؛ فلا تُطِعْهُما[2].

وجُمْلَةُ: ﴿لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ صلةُ المَوْصول لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ؛ إذا جُعلت ﴿مَا﴾ اسْمًا موصولًا، وإذا جُعلت ﴿مَا﴾ نكرةً؛ تكون جملةُ: ﴿لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في محلِّ نعتٍ، والصِّفَةُ حينئذٍ كاشفَةٌ لبيانِ الواقعِ لا مُقَيِّدة لقَصْدِ الاحْتِراز.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

الحَثُّ عَلى الاسْتِمْساكِ بِالتَّوْحيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ

في التَّعبير بالاسْم المَوْصول ﴿مَا﴾ وصِلَته: ﴿لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مِن قول اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إيماءٌ إلى العُموم؛ إذْ إنَّ الاسمَ المَوْصولَ مِنَ الألفاظِ المُفيدَةِ ذَلِكَ المَعْنى، فيكونُ في الآيةِ حَثُّ العبدِ وحَضُّه على التَّمَسُّك بالتَّوحيد ونَبْذِ الإشْراكِ باللّهِ تعالى أيًّا كانَ ذلك المُشْرَكُ به، وأيًّا كان نَوْعُ الشِّرك، ففي ﴿مَا﴾ عُمومانِ: عُمومٌ في الشِّرْكِ، وعمومٌ في المُشْرَكِ بِهِ معَ اللّهِ تَعالى.

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 138.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 86.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَكَ﴾:

المُشركون يتعلّقون بالأوهام والشُّبهات لا بالحُجج الثّابتات

اللّام في ﴿لَكَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ تدلُّ على الاخْتِصاص، أيْ: أن يكونَ عندكَ علمٌ يقينيٌّ كأنَّك اخْتُصِصْتَ به، لا مجرَّد شبهاتٍ واهيَة؛ إذْ لا يُعدم المُشْرِكُ باللّهِ تعالى شُبَهًا يَزْعُم بها صِحَّةَ ما هُو عليه من الشِّرك، ولكن ليس لمُشْرِكٍ قَطُّ عِلْمٌ يقينيٌّ بصحَّةِ مَذْهَبه، كما قال اللّه سُبْحانَه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَكَ﴾:

تقويةُ مَعنى الاختِصاصِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكَ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ لتقوية مَعْنى الاخْتِصاص المُسْتَفادِ مِنَ اللّام؛ وذلكَ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخير يُفيد القَصْرَ والاختصاصَ.

مَعْنى الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿بِهِۦ﴾:

التَّحذيرُ مِن اتِّباعِ الشُّبَهِ والظُّنونِ الكاذِبَةِ

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ للإلصاقِ، أيْ: أن يكونَ هَذا العِلْمُ المَقْطوعُ بِهِ مُلاصِقًا لكَ أيُّها العبدُ، وفي ذلكَ تَرْشيحٌ بِمَعْنى الاخْتِصاص المُسْتَفادِ مِنَ اللّامِ وتقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾، وفي كُلِّ هذا تَحْذيرٌ مِن اتِّباعِ الشُّبَهِ المُضَلِّلة والظُّنون الكاذِبَةِ للعُدولِ بها عَنِ التَّوحيدِ إلى الشِّرْكِ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عِلۡمٞ﴾:

نَفْيُ مُطْلَقِ العِلْمِ عَلى صِحَّةِ الشِّرْكِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿عِلۡمٞ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ لإرادَةِ العُموم؛ إذْ هُو نكرَةٌ في سياق النَّفْي، فتَعُمُّ، والمَعْنى: ما ليسَ لكَ بِهِ أيُّ علمٍ يقينيٍّ، ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ

للتَّعظيم، أي: ما لَم يَكُن عِنْدَكَ عِلْمٌ عظيمٌ مقطوعٌ بهِ؛ فلا تُطِعْهُما بالعُدول عن التَّوحيد إلى الشِّرك.

والأوَّل أظهرُ؛ لأنَّ المراد بـ ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بيانُ الواقع، وليسَ هُو قَيْدًا للاحترازِ، فكونُه للعُمومِ أولى، وهُو أدخلُ في نَفْيِ مُطْلَقِ العِلْمِ على صِحَّة الشِّرك.

بَلاغَةُ عَكْسِ الظَّاهِرِ في ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾:

المُرادُ بِنَفْيِ العِلْمِ بِهِ نَفْيُهُ رَأْسًا

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ نفيُ الشَّيء بإيجابه، وهُو المُسَمّى: عكسَ الظّاهر، وذلكَ بأن يُذكَرَ كلامٌ يدلُّ ظاهرُه على أنَّه نفيٌ لصفَةِ موصوفٍ ما، وهُو في الحقيقَةِ نَفْيٌ للمَوْصوفِ أصْلًا، وذلك أنَّ اللّه تَعالى بقوله: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أراد بِنَفْيِ العِلْم نفيَهُ، والمَعْنى: لا تُشْرِك بي ما ليسَ بِشَيْءٍ، يعني: الأصنامَ ونحوَها، أي: لا تُشْرِك بي ما لَيْسَ بإلَهٍ، فيكون لكَ علمٌ بالإلهيَّة[1].

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا﴾:

الأَمْرُ بِالشِّرْكِ مُنافٍ لِلحِكْمَةِ حامِلٌ عَلى الظُّلْمِ والسَّفَهِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ رابطَةٌ للشَّرط المذكورِ قبلُ في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، وفيها معنى السَّببيَّة، أي: لا تُطِعْهُما في مُواقعَةِ الشِّرك، ولَو اجْتَمَعا على المُجاهدَةِ لَكَ عليه، بَل خالِفْهُما؛ لكَوْنِ أمْرِهما بذلكَ مُنافيًا للحِكْمَةِ حامِلًا عَلى مَحْضِ الظُّلم والجَوْرِ والسَّفه[2].

دِلالَةُ النَّهْيِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾:

تَحْرِيمُ طاعَةِ الوالِدَيْنِ في مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحانَهُ

النَّهي الوارد في ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ يَدُلُّ على النُّصح والإرشادِ؛ لما فيه مِن تحقيقِ مصالِحَ دُنْيَويَّةٍ وأُخْرَويَّة، ولا يُنافي أن يكونَ ذلكَ النَّهي دالًّا على التَّحريمِ، وذلك أنَّ طاعةَ الوالدَيْنِ في

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 536، 7/ 539.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 168.

معصيةِ اللّه تَعالى - ولا سيَّما أعظمُ المعاصي وهُو الشِّرك - مِنَ المُحَرَّمات القَطْعيّاتِ.

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في اختيارِ حُروفِ المَعاني المُناسِبَةِ لِسياقاتِها

قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، وقال سُبْحانَهُ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾ [العنكبوت: 8]، فعُدّي فِعْلُ الشِّرْكِ في هذهِ السّورة بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾ وفي سورةِ العَنْكبوتِ باللّام؛ وذَلك لِلفرقِ ما بينَ الآيَتَيْنِ في السّورتَيْنِ من حيثُ بناءُ آيةِ العَنْكَبوتِ على الإيجازِ، فناسَب ذلك الاكتفاء باللّام، وبناءُ آية سورة لُقْمان على الإطنابِ، فناسب ذلك تَعْديته بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾، ولأنَّ ما في سورة العنكبوتِ وافقَ ما قبلَه في اللَّفظ، وهو قولُه ﷻ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾ [العنكبوت: 6]، فاختير فيهِ اللّامُ كما اختيرَ في الذي قبلَه، وأمّا ما في سورةِ لقمان؛ فَهُو محمولٌ على المَعْنى؛ إذِ التَّقدير: (وإنْ حَمَلاك على أن تُشْرِكَ)[1].

دِلالَةُ العَطْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾:

بَيانُ عِظَمِ حَقِّ الوالِدَيْنِ

عُطِفَ ﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾ على ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾؛ لِما بينَ الجُمْلَتَيْنِ مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْنِ؛ إذْ جُمْلَةُ ﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾ إنشائيَّةٌ، وكذا جُمْلَةُ: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، وبينَهُما تَناسُبٌ في المَعْنى واشْتراكٌ في المُسْنَدِ إليه، وهُو ضَميرُ الخِطاب المُسْتَتِر (أنت) الذي يَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، واشْتِراك في المفعول بهِ، وهُو الضَّمير العائد على الوالِدَيْن.

وفي تعقيبِ الأمْرِ بِصُحْبَتِهِما بالمَعْروفِ عَلى النَّهي عن طاعَتِهِما

---

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 198، وابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 388، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 168.

في الشِّرك احتراسٌ؛ إذِ النَّهي عن طاعَتِهما قَد يوهِمُ أنَّ النَّهي عامٌّ في الشِّرْكِ وفي غيرِهِ، وأنَّ ذلك يَقْتَضي نَصْبَ العِداء لَهُما، فدُفِع ذلك بِبَيانِ أنَّ الواجبَ مُصاحَبَتُهما بالمعروفِ، ولو كانا مِن الدّاعين إلى الشِّرك الحامِلين غيرَهُم عليه، وذلكَ لِعِظَم حقِّهما على ولَدِهما.

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾:

تقْلِيلُ مُدَّةِ الصُّحْبَةِ للحَثِّ عَلى تَحَمُّلِ مَشاقِّها

تَقْييد المصاحبةِ بالظَّرف المُستَفادِ مِن ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾، فيه إشارَةٌ إلى تَهْوينِ أمْرِ الصُّحْبَةِ؛ إذْ إنَّها في أيّامٍ قلائلَ وشيكَةِ الانْقِضاءِ، فلا يَصْعُب على الولَدِ تَحَمُّل مَشَقَّتِها[1].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

(أل) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ تدلُّ على العُموم، فَيَنْدَرِجُ تحتَها جميعُ أحوالِ الدُّنيا ممّا لا يُصادِم المأمورَ بِهِ شَرْعًا.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿مَعْرُوفًاۖ﴾:

جَميعُ صُوَرِ المَعْروفِ مَطْلوبَةٌ في بِرِّ الوالِدَيْن

لفظُ ﴿مَعْرُوفًاۖ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ منصوبٌ على أنَّهُ وصفٌ لِمَصْدَرٍ محذوف مفعول مطلق، والعاملُ فيه الفعلُ ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾، والمَعْنى: صاحِبْهُما صِحابًا مَعْروفًا لأمثالِهما، وذلكَ بإطْعامِهما وكِسْوَتِهما، وتركِ الجَفاءِ في مُعامَلتِهما، ومِنْ صُوَرِ المصاحبةِ بالمَعروف: عيادَتُهُما؛ إذا مَرِضا، ومُواراتُهما؛ إذا ماتا[2].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ: ﴿مَعْرُوفًاۖ﴾:

تَجاوُزُ اللّهِ تَعالى عَنِ الوَلَدِ فيما عَجَزَ عَنْهُ مِنَ البِرِّ

لَمّا كانَ الإنسانُ ناقِصًا، وما كان هذا وصفَهُ؛ فإنَّ مِن شأنهِ العجزَ عَنِ الوفاءِ بالحقوقِ كُلِّها؛ نُكِّرَ لَفْظُ ﴿مَعْرُوفًاۖ﴾ تخفيفًا مِنَ اللّهِ تعالى عَنِ الوَلِدِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾[3].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 84.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 414، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 161.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 168.

تناسُبُ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

دِلالَةُ العَطْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

عُطف ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على ﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾؛ لِما بينَ الجُمْلَتَيْنِ مِنَ التَّوسُّط بينَ الكمالَيْنِ؛ إذْ جُمْلَةُ: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ إنشائيَّة، ومثلُها جُمْلَةُ: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾، وبينَهُما تَناسُبٌ في المَعْنى واشْتِراكٌ في المُسْنَدِ إليه، وهُو ضَميرُ الخِطاب المُسْتَتِر (أنت) الذي يَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، واشْتِراك في المفعول بِه، وهُو الضَّمير العائد على الوالِدَيْن، وكلتاهما أسلوبُ أَمْرٍ.

الإرْشادُ إلى اتِّباعِ سَبيلِ المُنيبين

دِلالَةُ الأمْرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الأمْرُ في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ يدلُّ عَلى الوُجوب، عَلى ما هُو الأصلُ في صيغَةِ الأمْرِ، وذلكَ لِصُدورِ الطَّلب مِنَ اللّهِ تَعالى لِعبادِه، ولا يَمْنَع هذا أن يكونَ في الأمْرِ مَعنى النُّصح والإرشادِ؛ لِما فيهِ مِنَ الدِّلالة عَلى مصالِحَ دُنْيَويَّةٍ ودينيَّةٍ.

دينُ اللهِ تَعالى سَهْلٌ سُلوكُهُ لِمُوافَقَتِهِ الفِطْرَةَ الإنْسانِيَّةَ

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في التَّعْبيرِ عَنْ دَعْوَةِ الحَقِّ بِالسَّبيلِ:

جاءَ التَّعبيرُ عَن دَعْوَةِ الحَقِّ بالسَّبيلِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾؛ لِما يدلُّ عليه السَّبيلُ مِنَ الامْتِدادِ والسُّهولةِ والسَّعَةِ(1)، واتِّباعُ ما هذا وصْفُهُ ليسَ مِمّا يَعْسُر عَلى العَبْدِ.

تأنيسُ العِبادِ في سُلوكِهِمْ سَبيلَ أهْلِ الإنابَةِ

نُكْتَةُ إضافَةِ السَّبيلِ إلى ﴿مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾:

أُضيفَ السَّبيلُ إلى مَن أنابَ إلى اللّهِ تَعالى في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ المُنيبين إلى اللّهِ تَعالى، وتأنيسًا للعبادِ في سُلوك هذا السَّبيل، بأنَّه سبيلٌ لَم يَنْفَرِد المأمورُ باتِّباعه بسُلوكِه، بَل سَلَكَتْهُ قبلَهُ جماعاتٌ.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

في التَّعبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ

(1) محمَّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم: 281 - 284.

﴿سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾؛ لِبَيان ما يُؤَدّي إليهِ هَذا السَّبيل مِن رِضا اللّهِ تَعالى على سالِكِه، وفيهِ حَثٌّ وحضٌّ شديدانِ عَلى سلوكِه؛ إذْ لَم يَسْلُكْه أفرادٌ مِنَ النّاس لا يُعبأ بِهِم، بَلْ هذا السَّبيل سلَكَهُ خُلَّصُ المُؤْمنين، وهُم مَن أنابَ إلى اللّهِ تَعالى، ورجَعَ إلَيْهِ بالطّاعَةِ.

الحَضُّ الشَّديدُ عَلى سُلوكِ سَبيلِ المُنيبين

مَعْنى ﴿ثُمَّ﴾ ودِلالَتُها:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ دالَّةٌ على التَّرتيب والتَّراخي على ما هُو الأصلُ فيها، ولكنَّه تراخٍ رُتَبيٌّ، وهُو يُفيد الاهْتِمامَ بِالمَذْكورِ بَعْدُ، والمَعْنى: وعَلاوةً على ما تقَدَّم: إلَيَّ مَرْجِعُكم، فأُنَبِّئُكم بِما كُنْتُم تَعْمَلون(1).

الاهْتِمامُ بِأمْرِ المَرْجِعِ وما يَكونُ فيهِ

نُكْتَةُ تَقْديم شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿إِلَيَّ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيَّ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ للدِّلالَةِ عَلى القَصْر والحَصْر، أي: إلَيَّ مَرْجِعُكم لا إلى غَيْري؛ إذْ لا يَرْجِعُ النّاس إلى الحِسابِ يَوْمَ القيامَةِ إلّا للّهِ سُبْحانَهُ وحْدَه(2).

لا مَرْجِعَ لِلنّاسِ إلى الحِسابِ إلّا للهِ تَعالى

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عُبِّرَ بمادَّة الرُّجوع في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لدِلالَتِها على الرُّجوع حِسًّا ومَعْنًى؛ إذِ الرُّجوع إلى اللّهِ تَعالى بالأجْسامِ بإعادَةِ بَعْثِهِم ووُقوفِهم بينَ يديهِ سُبْحانَهُ، والرُّجوع إليهِ بالحِساب عَلى أعمالِهِم التي عَمِلوها في الدُّنيا.

واخْتيرَ التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ الميميِّ ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لدِلالَتِه عَلى الحدَثِ، ودِلالة هذهِ الصّيغَةِ أيضًا على زمانِ الحدثِ ومكانِه، فالرُّجوع إلى اللّهِ تَعالى، ومكانُ الرُّجوع وزمانُه للّهِ سُبْحانَهُ(3).

الرُّجوعُ إلى اللهِ تَعالى شامِلٌ لِلبَعْثِ والحِسابِ عَلى الأعْمالِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 161.
(2) القنوجي، فتح البيان: 10/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 170.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾:

تحقُّقُ إنْباءِ اللهِ سُبْحانَهُ العِبادَ بِأعْمالِهِمْ

الفاءُ في ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تدُلُّ على التَّرتيبِ مع التَّعقيبِ، وفي ذلك إشارَةٌ إلى سُرْعَةِ إنباءِ اللّهِ تعالى العبادَ بما عَمِلوه، كَما جاءَ مُصَرَّحًا بِسُرْعَةِ الحسابِ في مواضعَ مِنَ القرآنِ الكريمِ، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة: 202].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

إخْبارُ اللهِ تَعالى العِبادَ بِجَميعِ أعْمالِهِمْ

(ما) في ﴿بِمَا﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتَّقدير: فأُنَبِّئُكُم بالذي كنتُم تَعْملونَهُ، وفي التَّعبير بالاسْمِ المَوْصول دلالَةٌ على العموم، أي: إنَّ اللّه سُبْحانَه يُنَبِّئُ العبادَ بجميعِ أعمالِهم صَغيرِها وكَبيرِها، ويُقَوّيه بِناءُ فعلِ الإنْباءِ على صيغَةِ التَّضعيفِ؛ مِمّا يُعْطي دِلالَةً أوسعَ في كَثْرَةِ هَذا الإنْباءِ المُقْتَضي كثرةَ الأعمالِ المُنَبَّأِ عَليها.

دِلالَةُ فِعْلِ الكَوْنِ في قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

الاسْتِمْرارُ عَلى عَمَلٍ يُصَيِّرُهُ بِمَنْزِلَةِ الجِبِلَّةِ

في التَّعبيرِ بِفِعْلِ الكَونِ ﴿كُنتُمْ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عَمَلَهُم الذي عَمِلوهُ صارَ بِمَنْزِلَةِ الجِبِلَّةِ والطَّبيعة لَهُم[1].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

إنْباءُ اللهِ تَعالى العِبادَ بالأعْمالِ كُلِّها صَغيرِها وكَبيرِها

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدِّلالَةِ عَلى التَّجدُّدِ والحُدوث، أي: إنَّ اللّهَ سُبحانَه يُنَبِّئُهُم بِجَميعِ ما يتجدَّدُ لَهُم وما يُحْدِثونَهُ مِن أعمالٍ، صغيرةً كانَت أو كبيرةً، خفيَّةً كانَتْ أو ظاهِرَةً[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 170.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 170.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأبَوانِ والوالِدانِ:

بَيْنَ الأبِ والوالِدِ عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

الأبُ في اللُّغة يُطْلَق على سببِ وُجود الشَّيء، أو إصلاحِه أو ظُهوره، ومنهُ سُمّي الأبُ مِن بَني آدمَ أبًا؛ لأنَّه يقومُ على إصلاحِ الأبْناءِ ورِعايَتِهِم بالتَّربية والغذاءِ.

والوالدُ في اللُّغة: الأبُ المباشِر، الذي هو سببُ وجود الابنِ، وبناءً على هذا؛ فالأب أعمُّ، والوالدُ أخصُّ.

والاستعمال القرآنيُّ لِلكَلِمَتَين رُوعي فيهِ ما لِكُلٍّ منهما مِن ملامحَ دلاليَّةٍ، فالأب يطلق على الأبِ المباشِر، كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]، ويُطلق على الجدِّ وإن علا، كما في قول اللّه تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78].

وهذا الاستعمالُ مرتبِطٌ باتِّساع الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب)، وشُمولها لكُلِّ ما كان سببًا في وجود شيءٍ أو رِعايته أو ظهوره.

بخلافِ الوالدِ؛ فإنَّه في الاستعمالِ القرآني اقتصَرَ على معنى الأب المباشرِ الذي هو سبب وجود الابن، وفي أغلب المواضع القرآنيَّة ورَد بصيغَةِ التَّثنية للإيماءِ إلى أنَّ الأنثى هي الوالدَةُ حقيقةً، والأب مُلْحَقٌ بها.

وباستقراءِ الآياتِ التي ورَدَ فيها لفظُ (الوالِد) مُفْرَدًا أو مُثَنًّى، يدُلُّنا على دقَّة البيانِ القُرآنيِّ، حيث إنَّ لفظَ الوالد - وهو المُخْتَصُّ بالأبِ المُباشر - استُعمِلَ في سياقاتٍ تَقْتَضي قوَّةَ الرّابطة والعاطفة، كقول اللّه تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]، وكما في قول اللهِ سُبْحانَه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾، حيث إنَّ المقامَ مقامُ صلةٍ روحيَّة وعاطفيَّة بين الولدِ ووالده.

ولَم يَرِد لفظُ (الوالد) مجموعًا في القرآنِ الكريم مِمّا يُؤَيِّد أنَّ لفظَ (الوالِد) مختصٌّ بالأبِ المُباشِر دونَ غَيْرِه.

وحاصلُ ما تقدَّم: أنَّ القرآنَ الكريمَ راعى في استعمالِ الكَلِمَتَيْنِ المُتَقَدِّمتَيْنِ (الوالد) و(الأب) الملامحَ الدِّلاليَّة المُشْتَرَكة بينَهُما، وهي كونُهُما بِمَعْنى السَّبب، ودلالة كُلٍّ مِنْهُما على القَرابة.

كما مَيَّز القرآنُ الكريم بينَ اللَّفظين بدلالاتٍ فارقةٍ، فالمُمَيِّز لِلَفْظِ (الأب) دلالتُه على الأجدادِ، ودلالتُه على التَّربية والرِّعاية، بخلاف لفظ (الوالد)؛ فإنَّه يتميَّز باختصاصهِ بالأب المباشِر، وذلك يقتضي قُوَّة الرّابطة والصِّلة العاطفيَّة[1].

الوَهن والضَّعْف:

الضَّعْفُ أعَمُّ مِنَ الوَهنِ

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين:

أحدهما: أنَّ الوَهنَ أخصُّ مِنَ الضَّعْفِ، من جِهَة أنَّ الوَهنَ: أشَدُّ الضَّعْفِ[2].

الآخَرُ[3]: أنَّ الضَّعفَ ضدُّ القُوَّةِ، وهُوَ ذاتيٌّ جُبِلَ الضَّعيفُ عليهِ، يقال: خلقَ اللّهُ تعالى فلانًا ضعيفًا، أي: إنَّه طُبِعَ على الضَّعْفِ، كما قال اللّه سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: 28]، بخلاف الوَهنِ؛ فهو أن يفعلَ المَرْءُ فِعْلَ الضُّعَفاء، ومنه قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: 139]، أي: لا تفعلوا فعلَ الضُّعفاءِ والحالُ أنَّكم أقوياءُ.

فالضَّعيفُ فيهِ ضَعْفٌ مِن أصل الجِبِلَّةِ، والواهِنُ مَن فَعَلَ فِعْلَ الضُّعفاءِ؛ لنقصٍ في إيمانِهِ أو عزيمَتِهِ.

---

(1) داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 26 - 27.

(2) النَّحّاس، معاني القرآن: 1/ 491.

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 115، والرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (وهن)، وعبد الجبار، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم: 680 - 683.

ولا يَلْزَمُ اجتماعُهما على وجهِ الاطِّراد، بَل قد يَنْفَرِدُ أحدُ الفَرْقَيْن، فإنَّ الوهنَ في قول اللّه تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ هو الضَّعف الشَّديد، لا أن يَفْعَلَ المرءُ فِعْلَ الضُّعفاء؛ لأنَّ المُراد بالوهنِ الوهنُ الاضْطِراريُّ لا الاخْتياريُّ.

وفرَّق جماعةٌ مِنْ أهلِ العلم بينَهما؛ بأنَّ الوهنَ انكسارُ الجسَدِ ونحوِه، بخلاف الضَّعْفِ؛ فهو نقصانُ القوَّة[1]، والأوَّلُ أشهرُ.

السَّنَة والعام:

غالِبُ اسْتِعْمالِ السَّنَةِ في الشِّدَّةِ وغالِبُ اسْتِعْمالِ العامِ في الخَيْرِ

السَّنَةُ والعامُ بِمَعْنًى مُتقارِبٍ؛ إذْ كُلٌّ مِنْهما دالٌّ علَى مُدَّةٍ مَخْصُوصةٍ مِنَ الزَّمَنِ تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عشَرَ شهْرًا، إلّا أنَّهُ يُغايَرُ بينَهُما في غَلَبةِ الاسْتِعْمالِ.

فالغالِبُ اسْتِعْمالُ السَّنَةِ في الحَوْلِ الذي فيهِ الجَدْبُ والشِّدَّةُ، ولذا يُطْلَقُ علَى الجدْبِ: السَّنَةُ، كما قالَ اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالقَحْطِ والجَدْبِ.

والغالِبُ في لفظِ العام استِعْمالُهُ في الرَّخاءِ والخَيْرِ والخَصْبِ[2]، ويَجْمَعُ ذِكْرَ العامِ والسَّنَةِ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 47 - 49]، فعُبِّر بالسِّنينَ عن زَمَنِ الاجْتِهادِ في الزَّرْعِ مَعَ عَدَمِ الاسْتِمْتاعِ الكامِلِ بما حُصِدَ مِنْهُ؛ استِعْدادًا للأزمنةِ القادِمَةِ، ثُمَّ عُبِّرَ عن الأزْمِنَةِ الشِّدادِ بالسِّنينَ أيضًا في قولِه: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: 48]، أي: سَبْعُ سِنينَ؛ لحذْفِ التّاءِ في العَدَدِ، فذلكَ مُقْتَضٍ أنَّ مفرَدَ المعدودِ

(1) الجصَّاص، أحكام القرآن: 2/ 326.

(2) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن الكريم: (عوم)، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 368، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 21/ 356.

مؤنَّثٌ، وهُوَ لفظُ سنَةٍ، ثُمَّ عُبِّر عَنِ الزَّمَنِ الذي يكُونُ فيه الفرَجُ بالعام، فقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49].

وقدِ اجتَمَعَ ذِكْرُ العامِ والسَّنَةِ أيضًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، فعُبِّر بلفظِ السَّنَةِ؛ ذمًّا لأيّامِ الكُفْرِ والتَّكذيب، وبلفظِ العامِ في الاستِثْناءِ؛ إيماءً إلى أنَّ زمَنَ حياةِ نُوحٍ عليه السلام بَعْدَ إغْراقِهِمْ؛ كانَ عيشًا رَغيدًا واسِعًا حَسَنًا بإيمانِ المُؤمنينَ وخَصْبِ الأرضِ[1].

الإنابَة والتَّوْبَة والأوبَة:

الإنابَةُ أخَصُّ مِنَ التَّوْبَةِ والتَّوْبَةُ أخَصُّ مِنَ الأوبَةِ

الإنابَةُ والتَّوبة والأوبَةُ يَجْمَعُها معنًى كُلّيٌّ تَرْجِعُ إليهِ، وهُو الرُّجوع، ثُمَّ إنَّ بعضَها أخَصُّ مِن بعضٍ.

فالأوبَةُ أعمُّها؛ إذ تَدُلُّ على مُطْلَقِ الرُّجوع، وأخَصُّ مِنها: التَّوبَةُ؛ لاخْتِصاصِها بِصُدورِها عِنْدَ الذَّنْبِ، سواءٌ أكانَت رُجوعًا من العَبْدِ عَنِ المَعْصيَةِ إلى الطّاعة، أم قبولَ اللّهِ سُبْحانه توبةَ عَبْدِه، أم ندَمًا على الذَّنب.

أمّا الإنابَةُ؛ فهِيَ رجوعٌ إلى اللّهِ سُبْحانَهُ وإقبالٌ عليهِ وصدورٌ عَن أمرِهِ في كُلِّ قولٍ وفِعْلٍ، فاخْتُصَّتِ الإنابَةُ بدلالَةِ الإقْبالِ عَلى اللّهِ تَعالى والصُّدور عن أمْرِه[2].

المَرجِع والمَصير:

اشْـتِراكُ اللَّفظَتَيْنِ في مُطلَقِ انْقِلابِ الشَّيْءِ

الفَرْقُ بينَهُما أنَّ المَرْجِعَ: انْقِلابُ الشَّيءِ إلى حالٍ قد كانَ عَلَيْها، بخلافِ المَصيرِ؛ فهُو انْقلابُ الشَّيءِ إلى خِلافِ الحالِ التي هُو عَلَيْها، نَحْوُ قولِهِم: صارَ الطّينُ خَزَفًا، ولا يُقال: رجَعَ الطّينُ خَزَفًا؛ لأنَّه لَم يَكُنْ قبلُ خَزَفًا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 404.

(2) داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 90 - 94.

ولا يَتَنافى هَذا معَ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۞ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۞﴾ [الصافات: 67 - 68] مع أنَّهُم لَم يَكونوا قبلُ في الجَحيم حتّى يُقال: رَجَعوا إليها؛ لأنَّنا نقول: إنَّه رُويَ أنَّ أهلَ النّار يُوردونَ الحَميمَ لِشُرْبه، كَما تُوردُ الإبلُ الماءَ، ثُمَّ يُرَدّون إليها، كَما يَدُلُّ لذلك قَوْلُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۞﴾ [الرحمن: 44][1].

(1) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 492.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَيانُ دَقيقِ عِلْمِ اللهِ تَعالى وإحاطَتِهِ

لَمّا فرَغَ مِن تأكيدِ ما ذَكَرَهُ لُقْمانُ عليه السلام في الشُّكْرِ والشِّرك، فَعُلِم ما أوتي مِنَ الحِكْمَة، وخَتَمَهُ بعدَ الوصيَّة بطاعةِ الوالِدَيْنِ بذِكْرِ دقيقِ الأعمالِ وجَليلِها، وأنَّها في علم اللّهِ سُبْحانَه سواءٌ؛ حَسُنَ الرُّجوع إلى تَمامِ بيانِ حِكْمَتِه، فقالَ اللّهُ تَعالى بادِئًا بما يُناسِبُ ذلكَ مِن دَقيقِ العِلْمِ ومُحيطه المُكَمِّل لمقامِ التَّوحيد، فقالَ عز وجل: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِثۡقَالَ﴾: (ثقل) تدورُ تَصْريفاتُها عَلى ضِدِّ الخِفَّة، ومنهُ سُمّي الإنسُ والجِنُّ ثَقَلَيْن؛ لكثرَةِ العدَد، ومنه: أَثْقالُ الأرض، وهيَ كُنوزُها، كَما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزلزلة: 2]، وقيل: هي أجسادُ بني آدَمَ[2]، والثِّقل: مَتاعُ المسافِرِ وحشَمُه، والجمعُ: أثْقالٌ.

والمِثْقالُ: وزْنٌ معلومٌ قَدْرُه، ومِثقالُ الشَّيْءِ: ميزانُه من مِثلِه، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾[3].

2) ﴿خَرۡدَلٖ﴾: الخَرْدَلُ: شجَرٌ لَهُ حَبٌّ صِغار، وهُوَ حارٌّ يابِسٌ[4]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقل).
(4) نشوان الحميري، شمس العلوم: (خردل).

وهذا الاسمُ كما يرى ابنُ فارسٍ: اسمٌ وقعَ فيه الاتفاقُ بين العربِ والعجَم، وهُوَ موضوعٌ مِنْ غير اشتقاقٍ(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

لُطْفُ اللهِ تَعالى بالعِبادِ وخُبْرُهُ بأعْمالِهِمْ

يا بنيَّ اعْلَم أنَّ السَّيِّئة أو الحسنَةَ إن كانت قَدْرَ حَبَّة خَرْدَلٍ - وهيَ المُتناهيَةُ في القلَّةِ والصِّغر - في جوفِ جَبَلٍ، أو في أيِّ مكانٍ في السَّماواتِ أو في الأرضِ، فإنَّ اللَّهَ ﷻ يأتي بها يومَ القيامَةِ، ويُحاسِب عليها، إنَّ اللَّهَ تَعالى لَطيفٌ بِعِبادِهِ خَبيرٌ بأعْمالِهِمْ(2).

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى الحثِّ على مراقبة اللّه، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيبِ من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُرَ(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

صِفاتُ العِلْمِ والقُدْرَةِ دالَّةٌ عَلى إفْرادِ اللهِ تَعالى بِالعِبادَةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا ابتدائيًّا؛ لكونِ المَذْكورِ ابْتِداءَ وصيَّةٍ أُخْرى مِن لُقْمان لِوَلَدِه.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ قد فُصِلَت؛ لِوُقوعِها استئنافًا بيانيًّا، فقد وردت جوابًا عَن سُؤالٍ مقدَّرٍ سألَهُ عنه ولدُه؛ وذلك لأنَّه لَمّا أوصاهُ بِتَوْحيدِ اللّهِ سُبْحانَهُ ونَفْيِ الشِّرك عنهُ؛ سألَهُ عَن أوصافِهِ مِنَ العِلْمِ والقُدْرَة، فأجابَهُ بـ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾(4).

فائِدَةُ تَكْرارِ النِّداءِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وغَرَضُهُ:

إظْهارُ التَّحَبُّبِ في الوَعْظِ أدْعى لِقَبولِهِ

كُرِّر النِّداء بالبُنُوَّة ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ من قول اللّهِ سُبْحانَه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾؛ لتجديدِ نشاطِ السّامع قَصْدًا إلى إدراكِ الكلامِ ووعيه(5).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خردل).
(2) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 251.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 270.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.

والغرَضُ مِن النِّداء التَّحبُّب والاستعطافُ، كما يَدُلُّ عليهِ تَصْغيرُ لفظ البُنُوَّةِ وإضافتُه إلى ضمير المُتَكَلِّم؛ ليكونَ ذلك أدْعى إلى قبولِ النُّصحِ الوارد بعدَ النِّداء[1].

نُكْتَةُ التَّوْكيدِ في ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى وعُمومُ قُدْرَتِهِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ تأكيدٌ بـ (إنَّ) وبضميرِ القِصَّة، والنِّداءُ قبلَهُما ضربٌ مِن ضُروب التَّوكيد، وحَشْدُ هذهِ المُؤَكِّدات مناسِبٌ لِعِظَم خَطَرِ المذكورِ بعدُ مِن تَقْريرِ وصفِ اللّه سُبْحانَهُ بالعِلْم المُحيط بجَميعِ المَعْلوماتِ، ووصفه تَعالى بالقُدْرَةِ الكامِلَةِ المُحيطَة بِجَميعِ المُمْكِناتِ[2].

دِلالَةُ تَأنيثِ الضَّمائِرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾:

التَّأْنيثُ لِمُراعاةِ مَقامِ التَّقْليلِ

أُنِّث الضَّمائرُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، وإن كان المِثْقالُ مُذَكَّرًا؛ لِكَوْنه أُضيفَ إلى مُؤَنَّثٍ، وهُو لفظُ ﴿حَبَّةٍ﴾، فاكْتَسَبَ اللَّفظ تأنيثًا مِنَ المُضاف إليهِ[3].

وفي إيثارِ التَّأنيثِ مُراعاةٌ لِمَقام التَّقليل والتَّحقير؛ إذِ التَّأنيثُ أولى بذلكَ، ولأنَّ ذلك يُؤَوَّلُ بالطّاعة والمعصيَةِ أو الحسنَةِ والسَّيِّئَة، وهي ألفاظٌ مؤنَّثةٌ، فكان في التَّأنيث مُراعاةٌ لِلمَعْنى[4].

سرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

التَّنْصيصُ عَلى شُمولِ عِلْمِ اللهِ تَعالى

﴿إِن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ شرطيَّةٌ، كما قالَ السَّمينُ الحلبيُّ: "والجملةُ الشَّرطيَّةُ مفسِّرةٌ للضَّمير"[5]، وإيثار ﴿إِن﴾، وهي تدلُّ في الأصل على الشَّكِّ في وُقوعِ مَدْخولِها دون (إذا) الدّالَّة على القَطْعِ والجَزْمِ بِوُقوع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 64.

مَدْخولِها؛ لِما تُفيدُهُ ﴿إِن﴾ في هذا السّياق مِن أنَّ مَضْمونَ ما بعدَها مِن شأنِه أن يُتَوَهَّم تخلُّفُ الحكم عنهُ، فإذا نُصَّ على شُمولِ الحُكْم إيّاه؛ عُلِمَ أنَّ شُمولَه لِما عَداه بطَريقِ الأحرويَّة والأولويَّة، وهذا يَقْتَضي أنَّ الشَّرْطَ المَذْكورَ بعدُ شرطٌ مُفْتَرض، وذلك غايةُ ما يُتوقَّع معَهُ انْتِفاءُ الحُكْم[1].

نُكْتَةُ التَّخْفيفِ بِالحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكُ﴾:

التَّنْبيهُ عَلى أصْغَرِ الكَوْنِ وأقَلِّهِ

حُذِفَت النّون من ﴿تَكُ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ تخفيفًا، ولِقَصْدِ الإيجازِ في الوَصيَّة بِما يُحصِّل المَفاز، وللدَّلالَةِ عَلى أصْغَرِ الكَوْنِ وأقلِّه[2].

تَوْجيهُ القِراءاتِ المُتَواتِرَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِثْقَالَ﴾:

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنِيَّةِ

قُرِئَ لفظُ ﴿مِثْقَالَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ بالرَّفع والنَّصب، فقرأها بالرفع نافِعٌ وأبو جَعْفَر، وباقي العشَرَةِ بالنَّصْب[3].

فقِراءةُ النَّصب على أنَّ (كانَ) ناقصةٌ، واسمها ضميرٌ مُسْتَترٌ، و﴿مِثْقَالَ﴾ خبرها، وهذا يقتضي الدِّلالة على أقَلِّ الكَوْنِ وأصْغَره وأحقرِه.

وقِراءةُ الرَّفع على أنَّ (كانَ) تامَّة، والمَعْنى: (إنَّها إن توجَد مثقالُ حبَّة في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ هيَ أصغَرُ شيءٍ وأقلُّهُ)[4].

نُكْتَةُ إضافَةِ ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾:

تَفْسيرُ المِثْقالِ وبَيانُ حَقارَتِهِ

في إضافَةِ ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ لقصد البيانِ؛ إذ لفظُ المثقالِ دالٌّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 85، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1609.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 71.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 324.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.

مقدارٍ مُبْهَم، لا تُدرى حقيقتُهُ إلّا بإضافَتِه إلى ما يبيِّنُه، ويوضِّحه، فلَمّا جاء التَّعبير القرآنيُّ: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾؛ كان في هذا نوعُ بيانٍ، وتقليلٌ لِهَذا المِثْقالِ وتحقيرٌ لَهُ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿خَرْدَلٍ﴾:

التَّنْبيهُ بِالأدْنى عَنِ الأعْلى

اختير التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿خَرْدَلٍ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ لأنَّ الخردلَ مِن أصغَرِ الحبوبِ، ولا يُدرك ثِقَلُ الحبَّة منْهُ بالحسِّ، ولا أثر لها في تَرْجيح الميزانِ، فكانَ في التَّعبير بالحبَّة منه تنبيهٌ بالأدنى عَنِ الأعْلى[2].

عِلَّةُ تَنْكيرِ ﴿حَبَّةٍ﴾ و﴿خَرْدَلٍ﴾ و﴿صَخْرَةٍ﴾:

فــي التَّنْكيرِ مَعْنى العُمومِ والتَّحْقيرِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿حَبَّةٍ﴾ و﴿خَرْدَلٍ﴾ و﴿صَخْرَةٍ﴾ من قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ لإرادة التَّعميم؛ لكونِ هذهِ الألفاظِ المنكَّرة واردةً في سياق الشَّرطِ وذلك مِن ألْفاظِ العُموم، وفيهِ مَعْنى التَّحقير والتَّصْغير أيضًا؛ ليكونَ ذلكَ مِن بابِ التَّنبيهِ بِالأدْنى عَنِ الأعْلى[3].

دلالةُ ﴿مِّنْ﴾ في قَوْلِه: ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾:

البَيانُ بَعْدَ الإبْهامِ أوقَعُ في النَّفْسِ وأثْبَتُ

جاء التَّعْبيرُ القُرآنيُّ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ دون (حَبَّةِ خَرْدَلٍ)؛ لإرادةِ البيان والتَّخْصيص بعدَ الإبهام، وذلك أوقَعُ في النَّفس، وأثْبَتُ في الذِّهنِ، فهُو نظيرُ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]؛ إذْ لَم يَرِد في البيان القُرآنيِّ: (قواعِدَ البَيْتِ)، فـ﴿مِّنْ﴾ يُراد بها البيانُ؛ لِما في لَفْظِ ﴿حَبَّةٍ﴾ مِنَ الإبْهامِ[4].

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَتَكُن﴾:

عُمومُ عِلْمِ الله تعالى وإحاطته بالخلق

الفاءُ في ﴿فَتَكُن﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(2) القِنوجي، فتح البيان: 10/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 270.

﴿خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾؛ للاتِّصال بالتَّعقيب، فَتكونُ مفيدَةً الاجتِماعَ، أي: إنْ كانَتِ الحبَّةُ صغيرَةً، ومعَ صِغرِها تكونُ خفيَّة في مَوْضِعٍ حَريزٍ كالصَّخْرَةِ، فإنَّ ذلك لا يَخْفى عَلى اللهِ سُبْحانَهُ؛ لِعُموم عِلْمِه وإحاطَتِه بالكائِناتِ[1].

نُكْتَةُ إثْباتِ النّونِ في ﴿فَتَكُن﴾:

الإيـمـاءُ إلى أصْغَرِ كَوْنٍ وأقَلِّهِ

أُثْبِتَت النّون في ﴿فَتَكُن﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾؛ للإشارة إلى ثَبات الحبَّة في مَكانِها، بعد أن حُذِفَتِ النّون في ﴿تَكُ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾؛ للإيماءِ إلى أصْغَرِ كَوْنٍ وأقَلِّه، وفي ذلك زيادةٌ لتَشَوُّفِ النَّفْسِ إلى مَحَطِّ الفائِدَةِ وذهابِ الذِّهْنِ كُلَّ مذهبٍ؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ المَقْصَدَ عظيمٌ بحذفِ النّون مرَّةً وإثباتِها مرَّةً أُخْرى[2].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِه: ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ متعلِّقانِ بمحذوفٍ خبرٌ لـ ﴿فَتَكُن﴾[3]، والتَّقدير: فتَكُنْ مستقِرَّةً في صَخْرَةٍ.

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِه: ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾:

لا يَـخْـفـى عَـلى الـلـهِ سُبْحانَهُ شَيْءٌ مَهْما كانَ حِرْزُهُ

الظَّرفيَّةُ التي دلَّ عليها حرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ مفيدةٌ أنَّ الحبَّةَ وإنْ كانَت في موضعٍ شديدٍ حِرْزُهُ كالصَّخْرَةِ، فإنَّ ذلك لا يَخْفى عِلْمُهُ عَلى اللّهِ ﷻ[4].

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 120/ 121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171 - 172.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 543.
(4) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 120.

مَعْنى ﴿أَوۡ﴾:

بَيانُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ

﴿أَوۡ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُراد بِها التَّنويعُ المُقْتَضي عُمومَ عِلْمِ اللّه تَعالى بأصْغَر شَيْءٍ وأقَلِّه مَهْما كانَ مكانُه المُحْرَزُ فيه.

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تأكيدُ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى بالأشْياءِ مَهْما بَعُدَتْ

الظَّرفيَّة المستفادَةُ مِن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تَقْتَضي الإشارَةَ إلى البُعْدِ؛ إذِ السَّماوات أبعدُ الأبْعادِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى عُموم عِلْم اللّه تعالى، ولو بَعُدَتِ الأشياءُ بالنِّسبة لِبني آدَمَ، فالمَعْنى: يَعْلَمُ اللّهُ تَعالى مقدارَ الحبَّة، ولو كانَت في أيِّ مكانٍ مِن السَّماوات على سعَةِ أرجائِها وتَباعُدِ أنْحائِها[1].

نُكْتَةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفْرادِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تَصَرُّفُ النَّظْمِ القُرآنيِّ في الألفاظِ جَمْعًا وإفْرادًا بِما يُحَقِّقُ جَزالَتَهُ وانْسيابَهُ

لم تُجْمَع ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ كَما جُمعَت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بَل لَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأرْض) مجموعَةً في القرآنِ الكريمِ مُطْلقًا، فالسَّماءُ إذا ذُكِرَت مجموعَةً؛ جيءَ بلفظِ الأرض مُفْرَدًا في جميع مواضِعها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِهِ وللجُسْأَة التي تعرِضُ للَّفْظِ حتَّى إنَّ النَّظْمَ لَيَخْتَلُّ بسببِ ذلك[2].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإيماءُ إلى عُمومِ بِقاعِ الأرْضِ

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ الجنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجة في لَفْظِها، وهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جميعُ أرجائِها وأنْحائِها، ويَدْخُل في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأرضُونَ السَّبْعُ كُلُّها[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172، والفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 120.

(2) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 160.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

نُكْتَةُ تَقْديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عَلى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تَفَنُّنُ البَيانِ القُرآنيِّ في الألفاظِ تَقْديمًا وتَأْخيرًا

رُتِّبت الظُّروف في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على نحوٍ بديعٍ، فبُدئ بِكَيْنونَةِ الشَّيء في صخرةٍ، وهُوَ ما صلُبَ مِنَ الحجَرِ، وعَسُرَ الإخراجُ مِنْهُ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بالسَّماوات، وهي عالَمٌ عُلْويٌّ، وذلك أغرَبُ للسّامعِ، ثُمَّ أخَّر ذِكْرَ الأرضِ، وهيَ مقَرُّ الأشياءِ للشّاهِدِ[1].

دِلالَةُ تَكْرارِ ﴿أَوۡ﴾:

تَقْويَةُ المَعْنى وتَأْكيدُهُ

أُعيدَ حَرْفُ العَطْفِ ﴿أَوۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّنْصيصِ عَلى إرادَةِ كُلٍّ مِنْهُما عَلى حِدَتِه، وأُعيدَ الجارُّ ﴿فِي﴾ أيضًا تأكيدًا لِلمَعْنى وتَقْويةً لَهُ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الصَّخْرَةِ عَلى السَّماواتِ والأرْضِ:

عُمومُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِجَميعِ الأَمْكِنَةِ الأرْضيَّةِ والسَّماويَّةِ

بُدِئ بِذِكْرِ الصَّخرة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّها أحرَزُ جُزْءٍ مِن أجزاءِ الأرْض، وهيَ قريبةٌ مِن فَهْمِ الإنسانِ وإدراكِهِ، وذُكِرَتْ بعدَها السَّماواتُ عَلى مَعْنى: أو كانَت في أعَزِّ مكانٍ منالًا مِنَ الصَّخْرَة، ثُمَّ ذُكِرَتْ بعدَها الأرْضُ، وإن كانَتِ الصَّخْرَة جُزْءًا مِنْها؛ لقَصْدِ تَعْميمِ الأمْكِنَةِ الأرْضيَّة؛ إذِ الظَّرفيَّة تَصْدُقُ بِهِما، والمَقْصودُ أنَّ ذلك كلَّهُ سواءٌ في جانبِ عِلْمِ اللّهِ سُبْحانَه وقُدْرَته، فكأنَّه قال: فتَكُنْ في صَخْرَةٍ، أو حَيْثُ كانَت مِنَ العالَمِ عُلْويًّا كانَ أو سُفْليًّا[3].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿يَأۡتِ﴾:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ وشُمولُهُ

الفِعْلُ ﴿يَأۡتِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، وهُو جوابُ الشَّرْطِ، وجزاؤُهُ للشَّرْطِ المَذْكورِ قبلُ في قولِه:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 87.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 163.

﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾، وهذا الجوابُ مبنيٌّ على فَرْضِ كونِ مِثْقالِ الحبَّة في الأماكِنِ المَخْفيَّة والبعيدَةِ، والمقصودُ بيانُ عُمومِ علمِ اللّه سُبْحانَهُ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾:

ذِكْرُ دَليلِ العِلْمِ والقُدْرَةِ

في التَّعبيرِ بالإتْيانِ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾، كنايَةٌ عَنِ التَّمكُّن منْها، وهُو أيضًا كنايَةٌ رَمْزيَّة عن إحاطَةِ العِلْمِ بِها؛ وذلك لأنَّ الإتيانَ بأدَقِّ الأجسامِ مِن أصْلَبِ الأمْكِنَةِ وأقْصاها وأعْمَقِها لا يكونُ إلّا عَن عِلْمٍ بِكَوْنِها في ذلكَ المَكانِ، وعلمٍ بوسائِلِ اسْتِخْراجِها مِنْهُ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

عَظَمَةُ أوصافِ اللهِ تَعالى

جاء التَّعبيرُ بالاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾، مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾، وهُو الاسمُ الجامِعُ لمَعاني الجلالِ والجَمالِ والكمالِ؛ لِبَيانِ عَظَمَة هذا الإتيانِ وعُمومِ الإحاطَةِ، فَلا يَخْفى على اللّهِ سبحانَهُ شَيْءٌ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِهَا﴾:

التَّنْبيهُ بالأدْنى عَلى الأعْلى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾؛ لإرادة الاهْتِمام لا لِقَصْدِ التَّخصيص؛ إذِ اللّهُ سُبْحانَهُ لا يختَصُّ إتْيانُهُ بالأشياءِ بِمِثْقالِ الحبَّة، ولَكِنَّ هذا التَّقديم للاهتمام بالمَذْكورِ قَبْلُ، وهُوَ مِن أدَقِّ الأشياءِ وأصْغَرِها في خَفيِّ الأماكِنِ وبَعيدِها، فإذا كانَ يَأتي بِذَلِكَ؛ فإتْيانُهُ بما هُو أعظَمُ وأظْهَرُ مِن بابٍ أولى وأحْرى.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ عمّا قَبْلَه:

خَتْمُ الآيَةِ بما هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّتيجَةِ بَعْدَ دَليلِها

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 163.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

لِوُقوعِه تَعليلًا لِما تَقدَّم مِن بيانِ عُمومِ عِلْمِ اللّه سُبْحانَهُ وعظيمِ قُدْرَتِه(1).

ويجوزُ أن يَكونَ فَصْلُ هذه الجُمْلَة؛ لِكَوْنِها بِمَنْزِلَة النَّتيجةِ مِنَ الدَّليل، والنَّتيجةُ كبدَلِ الاشْتِمال يشتَمِلُ القياسُ عليها، واختارَ هذا ابنُ عاشورٍ، واعْتَرَضَ على اعْتِبارِ الآيةِ تعليلًا بأنَّ مقامَ تعليمِ لقمان ابنَهُ يقتَضي جَهْلَ الابنِ بِهَذِهِ الحقائق، ومِن شَرْطِ التَّعليل أن يكونَ مُسَلَّمًا معلومًا قبلَ العِلْمِ بالمعلَّلِ؛ ليصحَّ الاستدلالُ به(2).

تَعْيينُ قائِلِ جُمْلَة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

تَعْلِيمُ اللّهِ تَعالى عِبادَهُ المُسْلِمينَ

جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تَحتَمِلُ أن تكونَ مِن تمامِ كلامِ لُقْمان في وصيَّته لابنِه، فتكونَ بِمَنْزِلَة المَقْصد مِنَ المقدِّمة، أو النَّتيجةِ مِنَ الدَّليل.

ويجوزُ أن تكونَ جملةً مُعْتَرِضةً بين كلامِ لُقْمان ووصيَّته ابنَهُ، والغرضُ مِنَ هذا الاعتراضِ تعليمُ اللّهِ سُبْحانَهُ المُسْلِمينَ(3).

غَرَضُ التَّأكيدِ في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

دَأبُ النُّفوسِ غَيْرِ المُوَفَّقَةِ إنْكارُ لُطْفِ اللهِ تَعالى وخُبْرِه

في تأكيدِ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملةِ إيماءٌ إلى أنَّ إنكارَ ما تضمَّنَتْهُ هذه الجملةُ مِن لُطْفِ اللّه تعالى وخُبْرِهِ من دأبِ النُّفوس التي لم يَصْحَبْها التَّوفيقُ الإلهيُّ(4).

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ بِالاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ:

تَقْريرُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِدَقائِقِ الأشْياءِ وبَواطِنِها

لمّا قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وقَعَ لابْنِ لُقْمان أنَّ ما يُفْعَلُ في الخفاءِ لا يُعْلَمُ، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، والمقصودُ: الإعلامُ بأنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ بواطنَ الأمورِ الخفيَّة والدَّقيقة، ولذلك وصفَ اللّهُ سُبْحانَهُ نفسَهُ باللَّطيف

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 164.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 164.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

- ومِن معانيه: نافِذُ القُدْرَةِ - وبِالخبير: وهُوَ العالِم بِبواطِن الأُمور ودقائِقِها، وفي ذلكَ تأكيدٌ وتقريرٌ لعِلْمِه تَعالى بدَقائقِ الأشْياءِ وبَواطِنها، وكانت هذه الفاصِلَةُ حاملةً في طَيّاتِها مَعْنى التَّرجّي والتَّخويف، إضافةً إلى بيانِ عُموم قُدْرَتِه وعِلْمِه سُبْحانَه[1].

كَمالُ أوصافِ اللهِ ﷻ

غرضُ تَنْكيرِ الاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ:

نُكِّر الاسمانِ الجَليلان مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ تعظيمًا لِمَدْلولِهما، فاللّهُ سُبْحانَهُ لَهُ مِن جلالِ اللُّطف وسعَةِ الخُبْرِ ما لا مُنْتَهى لِكَمالِهما.

جَلالَةُ لُطْفِ اللهِ تَعالى وخُبْرِهِ

دِلالَةُ صيَغِ المُبالَغَةِ في الاسْمَيْنِ الكَريمَيْنِ:

في ذِكْرِ الاسْمَيْنِ الكَريمَين الوارِدَيْن في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بصيغةِ المُبالغَة على زِنَةِ (فَعيلٍ)، فيهما إيماءٌ إلى جلالةِ ما تضَمَّناهُ مِنَ الأوصافِ وسَعتِها وعَظَمَتِها، وهيَ وصْفُ اللُّطْفِ، ووَصْفُ الخُبْرِ والخِبْرَةِ.

(1) فاطمة محمد شلدان، المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، ص: 55.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوَصيَّةُ بِما يُصْلِحُ العَمَلَ ويُصَدِّقُ التَّوْحيدَ

لَمّا نَبَّه لُقْمانُ ابنَهُ عَلى إحاطَةِ عِلْمِ اللّه تَعالى وإقامَتِه الحسابَ؛ أمرَهُ بِما يَدَّخره لذلكَ تَوَسُّلًا إليه، وتَخَضُّعًا لديه، وهُو رأسُ ما يُصْلِحُ به العملَ، ويُصَحِّح التَّوحيد، ويُصَدِّقُهُ، فقالَ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَزۡمِ﴾: (عزم) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على القَطْعِ والجَزْمِ، يُقال: عَزَمْتُ عليهِ إلّا فعلَ كذا، أي: جعلتُهُ أمرًا عَزْمًا، أي: لا مَثْنَويَّة فيه[2]، وقال الخليلُ: العزمُ: ما عَقدَ عليهِ القلبُ أنَّك فاعله، أو من أمرٍ تَيقَّنْتَهُ[3].

وعَزْمُ الأمورِ: ما يُعْزَم عليهِ مِنَ الأمْرِ لظُهُورِ رُشْدِه، وموضعِ الحظِّ فيه، وكان مِنَ الواجبِ التَّمَسُّكُ بهِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصَّلاةُ رَأْسُ الأعْمالِ الشَّرْعيَّةِ وأُسُّها

يا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلاة تامَّةً بِشُروطها وأرْكانِها وواجِباتِها، وأمُر بالمَعْروف، وانْهَ عَنِ المُنْكر، وتحمَّل ما يُصيبُك مِنَ الأذى مُقابلَ ذلكَ، واعْلَمْ أنَّ هذهِ الوَصايا مِمّا أمَرَ اللّهُ تَعالى بهِ مِنَ الأمورِ التي يَنْبَغي الحِرْصُ عَلَيْها[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزم).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (عزم).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 6/ 238 - 239.
(5) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى ما يستلزم العلمَ بالمعروف؛ ليأمر به، والعلمَ بالمنكر؛ لِيَنهى عنه، والأمرَ بما لا يتمُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلّا به، من الرِّفق والصبر، وإلى أنَّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بدَّ أن يناله من الناس أذًى، وفيها دليل على أنَّ خوف المكروه لا ينبغي أن يمنعَ من الأمر بالمعروف، إلّا أن يخاف مكروهًا لا يطيقه، ولا يحتمله(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَنْ سابِقَتِها:

تَعليمُ لُقمانَ ابنَهُ أُصولَ الأعمالِ الصّالِحَةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا نحويًّا، حيثُ انْتَقل لُقْمانُ مِن تعليمِهِ ابنَهُ أُصولَ الاعتقادِ إلى تَعْليمِه أُصولَ الأعمالِ الصّالِحَةِ، وابتدأ ذلكَ بالأمْرِ بإقامَةِ الصَّلاة(2).

فائِدَةُ تَكْرارِ النِّداءِ بـ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وغَرَضُهُ:

إظْهارُ التَّحَبُّبِ في الوَعْظِ أدْعى لِقَبولِهِ

كُرِّرَ النِّداء بالبُنُوَّة ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ من قول اللّهِ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ قصدًا لإرادَةِ تجديدِ نشاطِ السّامع؛ ليكونَ ذلكَ أدْعى إلى إدراكِ الكلامِ ووعيه(3)، وفي تَكْرار النِّداء أيضًا تنبيهٌ على فَرْطِ النَّصيحة لفَرْطِ الشَّفقة(4).

والغرَضُ مِن النِّداء التَّحبُّبُ والاستعطافُ، كما يَدُلُّ عليه تَصْغيرُ لفظ البُنُوَّة، وإضافتُه إلى ضمير المُتَكَلِّم؛ ليكونَ ذلك أدْعى إلى قبولِ النُّصح الوارد بعدَ النِّداء(5).

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 113، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 430، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/ 648.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 173.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.

دِلالَةُ الأمْرِ بِإقامَةِ الصَّلاةِ:

فِعْلُ الأمْرِ ﴿أَقِمِ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَدُلُّ على النُّصح والإرشادِ؛ لما فيه مِن تحقيقِ مصالِحَ أُخْرَويَّةٍ بالأصالَةِ ومَصالِحَ دُنْيَويَّةٍ بالتَّبَع، ولا يُنافي أن يكونَ ذلكَ واجِبًا، فإنَّ إقامَةَ الصَّلاةِ أوجَبُ الواجباتِ بعدَ توحيدِ اللّهِ تَعالى.

عِظَمُ قَدْرِ الصَّلاةِ وكَوْنُها أوجَبَ الواجباتِ العَمَليَّةِ

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

(أل) الدّاخلةُ على ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عهديَّةٌ، والمرادُ: خصوصُ الصَّلَواتِ المفترضة، ويُؤيِّدُه: أنَّ هذا التَّركيبَ (إقامة الصَّلاة) مستعمَلٌ في خطابِ الشَّرْعِ لهذا المعنَى، كما ورد في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلّا اللّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضانَ»[1]، والمرادُ بإقام الصَّلاة الذي هو ركنٌ مِن أركان الإسلام: الصَّلوات المفروضة، والصلاة التوجُّه إلى اللّه بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان[2].

(إقامَةُ الصَّلاةِ) تَرْكيبٌ مَعْهودٌ شَرْعًا يُرادُ بِهِ الصَّلواتُ الخَمْسُ

ويُؤَيِّد مَعْنى الصَّلوات المفروضة - وهُو أنَّ (أل) عهديَّةٌ لا استغراقيَّة - أنَّ هذه الوَصايا اقْتُصِر فيها عَلى ما كانَ واجبًا مُتَحَتِّمًا فِعْلُهُ، والواجِبُ المُجْمَعُ عليهِ مِنَ الصَّلواتِ هيَ الصَّلواتُ المفترضة عليه.

غَرَضُ العَطْفِ عَلى إقامَةِ الصَّلاةِ:

عُطِفَ الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عنِ المُنْكَرِ عَلى الأمرِ بإقامَةِ الصَّلاة في قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؛ لأنَّ بإقامةِ الصَّلاة يُكمِّل المرءُ نفسَهُ؛ إذْ إقامَةُ الصَّلاة على وجْهِها تَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في المنكراتِ والفواحِشِ، كما

الجَمْعُ بَيْنَ تَوْفيَةِ حَقِّ اللهِ تَعالى وحَقِّ خَلْقِهِ

(1) رواه البخاريّ في صحيحه (برقم: 8)، ومسلم في صحيحه (برقم: 16).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.

قال اللّهُ تَعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]؛ فلمّا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ أَتْبَعَهُ بالأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ؛ لأنَّ بِهِما تكميلَ غيرِهِ، فَفي الأوَّلِ توفيةُ حقِّ الحقِّ سُبحانَهُ، وفي الآخَرِ توفيةُ حقِّ الخلقِ[1].

الأمْرُ بِالمَعْروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ مِنْ أبْرَزِ خَصائِصِ أُمَّةِ الإسْلامِ

دِلالَةُ فِعْلَيِ الأمْرِ ﴿وَأۡمُرۡ﴾ ﴿وَٱنۡهَ﴾:

الفِعْلانِ (مُرْ) و(انْهَ) الوارِدانِ في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ كِلاهُما فعلُ أمرٍ، وإن كان الفعلُ (انْهَ) في ظاهرِه دالًّا على التَّرك، فإنَّه فعلُ أمرٍ، والأسلوبُ في البلاغَةِ أُسْلوبُ أمرٍ كذلكَ، وهُما فعلانِ دالّانِ على النُّصحِ والتَّوجيهِ والإرشادِ؛ لكونِ السّياقِ سياقَ إبداءِ النُّصْحِ والمُبالغة فيه، ولا يُنافي ذلكَ أن يكونا واجبَيْن؛ إذِ الأمرُ بالمَعْروف والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ من أظْهَرِ خصائِصِ هذهِ الأُمَّة التي وقعَ بها تَفْضيلُها على سائرِ الأُمَمِ.

الأمْــــرُ بِـكُـلِّ مَعْروفٍ والنَّهْيُ عَـنْ كُـلِّ مُنْكَرٍ بِحَسَبِ الوُسْعِ

مَعْنى (أل) في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾:

(أل) في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ للجنسِ، والمرادُ الأمْرُ بعُموم ما عُرف حسنُهُ في الشَّرع، والنَّهْيُ عن عُموم ما عُرف قُبْحُه فيه، وذلك العمومُ مقيَّدٌ بحسَبِ الوُسْعِ والطّاقة؛ إذْ لا يكادُ يتأتّى لأحدٍ أن يأمُرَ بكلِّ معروفٍ، ويَنْهى عَن كُلِّ منكرٍ، ولكنَّ المقصودَ: مُرْ بِكُلِّ ما تَقْدِرُ على أمْرِه؛ تهذيبًا لغيرك ونُصْحًا لَهُم، وانْهَ عَن كُلِّ ما تَقْدِرُ على النَّهي عنه؛ شفقَةً مِنْكَ عَلى غَيْرِك[2].

ويجوزُ أن يُراد بـ (أل) العَهْدُ، والمُرادُ به أعظَمُ معروفٍ، وهُو التَّوحيد، وأعظَمُ مُنْكَرٍ، وهو الشِّرك، كما جاءَ ذلكَ عن سعيدِ بنِ جُبَيْر[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 173 - 174.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 174، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 88.

(3) السيوطي، الدر المنثور: 6/ 523.

والأوَّل أظهرُ؛ لأنَّه أعَمُّ، فيدخُلُ في المعروفِ التَّوحيدُ وجميعُ ما يحبُّه اللّهُ تعالى، ويَرْضاه، ويدخُل في المُنْكَرِ الشِّركُ وجميعُ ما يَكْرَهُه اللّهُ سُبْحانه، ويأباهُ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الأمْرِ بالمَعروفِ عَلى النَّهْيِ عَنِ المُنكَرِ:

فِعْلُ المَعْروفِ مُسْتَلْزِمٌ تَرْكَ المُنكَرِ

قُدِّمَ الأمْرُ بالمَعْروفِ عَلى النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ لاسْتِلزامِه تركَ المُنْكَر، بِخلاف تَرْكِ المُنْكَر؛ فإنَّه لا يَسْتَلْزِمُ فعلَ المَعْروف، وإنَّما غايَتُه الكَفُّ عَن فِعْلِ المَعْصيَةِ[1].

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ بَيْنَ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنكَرِ:

اسْتيعابُ كُلِّ أوجُهِ الخَيْرِ والشَّرِّ

بينَ الأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مقابلَةُ مَعْنَيَيْن بِمَعْنَيَيْن، والنُّكْتَةُ في هذه المُقابَلَة: اسْتيعابُ كُلِّ أوجُهِ الخَيْرِ في الأمرِ وكُلِّ أوجُهِ الشَّرِّ في النَّهي، فكانَ في هذِهِ المُقابلَةِ إيجازٌ بديعٌ بليغٌ؛ إذْ لا تَجِدُ ضَرْبًا من أضرُبِ الخَيْرِ إلّا وهُو مُنْدَرِجٌ تحتَ لفظِ المَعْروفِ، ولا ضَرْبًا من أضْرُبِ الشَّرِّ إلّا وهُو مَشْمولٌ بِلَفْظِ المُنْكَر[2].

غَرَضُ عَطْفِ الصَّبْرِ:

الآمِرُ بالمَعْروفِ النّاهي عَنِ المُنْكَرِ مُحتاجٌ إلى الصَّبْرِ عَلى مُعاداةِ النّاسِ

عُطِفَ الأمرُ بالصَّبرِ على الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾؛ لأنَّ الأمرَ بالمَعْروف والنَّهيَ عن المُنْكَر قَد يَجُرّان لِمَن قامَ بِهما معاداةً من بعضِ النّاس أو أذًى من بعضٍ، فإذا لم يَصْبِر على ما يُصيبُه جَرّاءَ أمرِه بالمَعْروفِ ونَهْيِه عن المُنْكَر يوشِكُ أن يَدَعَهُما[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 174.

(2) أحمد إبراهيم محمد علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية، ص: 1612.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 165.

دِلالَةُ الأمْرِ بِالصَّبْرِ:

الصَّلاةُ والصَّبْرُ مِلاكُ الاسْتِعانَةِ

فِعْلُ الأمْرِ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ دالٌّ على النُّصحِ والإرشادِ؛ لما فيه مِن تحقيقِ مصالحَ أُخْرَويَّةٍ ودُنْيَويَّةٍ، ولا يتنافى هذا مع وجوبِه، فقد ورد الأمرُ بالصَّبْرِ في القرآنِ الكريمِ مرّاتٍ عديدةً.

وقَد بُدِئَت هذه الوصيَّة بالصَّلاة، وخُتِمت بالصَّبر؛ لأنَّهما مِلاكُ الاستعانَةِ، كَما قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45][1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

وُجوبُ تَوْطينِ المَرْءِ نَفْسَهُ عَلى الصَّبْرِ

﴿مَآ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ اسمٌ موصولٌ، و﴿أَصَابَكَۖ﴾ صِلَتُهُ، وفي التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ دلالَةٌ عَلى العمومِ، أي: اصْبِرْ عَلى جميعِ الذي أصابكَ؛ وذلكَ لأنَّ الموصولَ من ألفاظِ العُمومِ.

وفي اختيارِ جُمْلَةِ الصِّلة ﴿أَصَابَكَۖ﴾ تَهْيئَةٌ لنَفْسِ الآمرِ بالمعروفِ والنّاهي عَنِ المُنْكَر بأنَّ الذي يتَرتَّب على أمْرِه ونَهْيه غالبًا عداوَةٌ وأذًى منَ النّاس، ولذا اخْتيرَ لَها صيغَةُ الماضي؛ لتَحْقيق أنَّه لا بُدَّ منَ الإصابة، فيَجِبُ عليهِ أن يُوَطِّن نفسَه على الصَّبْرِ، ويكون على بصيرَةٍ مِن أمرِهِ[2].

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

تَعْظيمُ شَأنِ الصَّبْرِ المأمورِ بِهِ

حرفُ الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ دالٌّ في الأصلِ على الاسْتِعْلاءِ، واخْتيرَ هذا الحرفُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾؛ تعظيمًا لشَأنِ الصَّبرِ المأمورِ به، والمَعْنى: اصْبِرْ صبرًا عظيمًا بحيثُ يكونُ حالُكَ مِنَ التَّمَكُّنِ مِنْهُ كحالِ المُسْتَعْلي عَلى شيءٍ على وجْهِ التَّمَكُّنِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 175.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 175.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 175.

تَعْليلُ الحُكْمِ بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لكَوْنِه تَعْليلًا لِوُجوبِ امْتِثالِ ما تَقَدَّم مِنَ الأمْرِ والنَّهيِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما بعدَها ليسَ بِمَنْزِلَتِه[1].

وهذا التَّعليل لا يَتَنافى معَ كونِ الفَصْلِ واقِعًا على جِهَةِ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ[2]؛ لأنَّ حقيقةَ الاسْتِئْناف البيانيِّ فَصْلُ جملةٍ عمّا قبلَها؛ لِوُقوعِها جوابًا عَن سُؤال يُفهم مِنَ الأولى، وهذا قَد يَكونُ تعليلًا، وهو الواقعُ في جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ لأنَّها واقعةٌ جوابًا عَن سُؤالٍ اقتضتْهُ الجملَةُ الأولى، فنُزِّلت الأولى مَنْزِلَةَ السُّؤال، ونُزِّلَتِ التّاليةُ لَها منزلةَ الجَواب الذي مِن شأنِهِ أن يَلْتَحِمَ بِسُؤالِه مِن غيرِ عطفٍ.

وبلاغةُ هَذا الضَّربِ مِنَ الاستئنافِ يكمنُ في أنَّ الجملةَ المتقدِّمة تبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي جملةً مِنَ الأسئلة، تكونُ جاذِبةً لهُ، مُشارِكَةً له في الصّياغة، ويكْتَفي الأسلوبُ بما يُثيرُه، فَلا يَظْهَر مُصَرَّحًا به، ثُمَّ تَرِدُ الجملةُ التّاليَةُ عَلى نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ مُتَطَلِّعةٍ، فيتمَكَّن الجوابُ مِنْها غايَةَ التَّمكُّنِ[3].

كَوْنُها مِنْ كَلامِ لُقْمانَ؛ لِمَجيءِ الكَلامِ عَلى نَسَقٍ واحِدٍ

بَيانُ قائِلِ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾:

اخْتُلِفَ في جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، فقال جَمْعٌ مِن العلماءِ: إنَّها مِن كلامِ اللّهِ سُبحانَهُ، فتكونُ جُمْلَةً مُسْتَأنفةً، وقال آخرونَ: إنَّها مِن تمامِ كلامِ لُقْمانَ في وصيَّته لابنِهِ، وكونُهُ من كلامِ لُقْمانَ أظْهَرُ؛ ليكونَ الكلامُ نسقًا واحدًا.

تَقْريرُ المَعْنى وتَثْبيتُهُ في نَفْسِ المُتَلَقّي

فائِدَةُ التَّوْكيدِ بِـ﴿إِنَّ﴾ والجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تأكيدٌ للجملةِ بـ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 73.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 175.

(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1613.

﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجُملة؛ وذلكَ لإرادةِ الاهتمام بالمَذْكوراتِ مِن إقامَةِ الصَّلاةِ والأمر بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ والصَّبْرِ على البلاءِ، وفي تَصْديرِ الجُمْلَةِ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ ضَرْبٌ مِن ضُروبِ التَّوكيدِ المَعْنَويِّ، وفي هذا التَّأكيد أيضًا: تقريرٌ لهذا المَعْنى وتثبيتُه في نفسِ المُخاطَب؛ ليكونَ ذلك أَدْعى لالتزامِ ما تقدَّمَ.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تَعْظيمُ شَأنِ المُوصى بِهِ

اسْمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ دالٌّ على البُعْد، وهُو يَقْتَضي تعظيمَ المذكورِ قَبْلُ بالإيماءِ إلى بُعْدِ منزلتِهِ في الفضْلِ، وأنَّه في المكانةِ العاليَةِ والمَنْزِلَة السّامية[1].

والمشارُ إليهِ هُو الصَّبرِ الوارِدُ في قولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾، وذلكَ لإفْرادِ حَرْفِ الخطاب مَع اسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، ويَجوزُ أن يكونَ المرادُ جميعَ ما تقدَّمَ على تأويلِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بالمَذْكور، أو بما ذُكر[2].

مَعْنى ﴿مِنۡ﴾ ودِلالَتُها:

عَزائِمُ الأُمورِ ما ظَهَرَ رُشْدُهُ ووَجَبَ التَّمَسُّكُ بِهِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ من قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ دالٌّ على التَّبعيض، وذلك لأنَّ عَزْمَ الأمور: ما يُعْزَم عليهِ مِنَ الأمْرِ لظُهُورِ رُشْدِه، وموضعِ الحظِّ فيهِ، وكان مِنَ الواجبِ التَّمَسُّكُ بهِ[3]، وهذا ليس خاصًّا بالمذكوراتِ في هذهِ الآيَةِ الكَريمَة.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿عَزۡمِ﴾:

المُبالَغَةُ في مَدْحِ الأعْمالِ المُتَقَدِّمَةِ

لفظُ ﴿عَزۡمِ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مصدرٌ، وفي التَّعْبيرِ بهِ مُبالغةٌ[4] في وصْفِ الأفعالِ المُتَقَدِّمة بما يَقْتَضي مَدْحَها، مِن كَوْنِها ظاهرةَ الرَّشَدِ، وأنَّه من الواجبِ المُتَحَتِّم الاسْتِمْساكُ بها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 175، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 73.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 88.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 6/ 238 - 239.
(4) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1614.

وعَزْمُ الأُمورِ: مَعْزوماتُها، فيَكونُ مِن تَسْمِيَةِ اسْمِ المَفْعولِ أوِ اسْمِ الفاعِلِ بِالمَصْدَرِ، والمَعْنى: الأمورُ المَقْطوعُ بها المَفْروضَةُ، أوِ الأُمورُ القاطِعَةُ الجازِمَةُ بِجَزْمِ فاعِلِها، أيِ: التي هيَ أهْلٌ لأنْ يَعْزِمَ العازِمُ عليها، ويتَّجِهَ الجازِمُ إلَيْها بكلِّيَّتِه[1].

فائِدَةُ إضافَةِ العَزْمِ إلى الأُمورِ:

المُبالَغَةُ في ظُهورِ رَشَدِ الأعْمالِ السّابِقَةِ

إضافَةُ العَزْمِ إلى الأمورِ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مِن بابِ الإسْنادِ المَجازيِّ، كـ: مَكْرِ اللَّيلِ، وليسَ هُو من بابِ الإضافَةِ عَلى مَعْنى (في)، وإن كانَ المَعْنى صَحيحًا[2]، فيكونُ ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ على جَعْلِ الأمورِ عازمةً، على وجْهِ المُبالغةِ، وإلّا فإنَّ العازِمَ هُو فاعِلُها مِنَ العبادِ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾:

الوَصيَّةُ بِجَلائِلِ الأعْمالِ وكَمالاتِها

(أل) في لَفْظِ ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تدلُّ على الكمالِ، أي: إنَّ المذكوراتِ من إقامةِ الصَّلاةِ والأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ والصَّبرِ على المصائبِ مِن جَلائلِ الأمورِ وكَمالاتِها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 176، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 73، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 287، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 89.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 89.

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّحذيرُ مِنَ العُجْبِ والكِبْرِ

لَمّا ذكر اللّهُ تَعالى مِن وصايا لُقْمانَ: الأمْرَ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ، وكانَ التَّلبُّس بِهِما قد يُؤدّي بالآمرِ والنّاهي إلى الإعْجابِ المُستَلْزِم الكِبْرَ؛ لتَصَوُّرِهما بصورَةِ الاسْتِعْلاءِ؛ أعْقبَهُ اللّهُ سُبْحانَهُ بالتَّحذير من ذلك معبِّرًا عنِ الكِبْرِ بلازِمِه، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾؛ مُنَبِّهًا على أنَّ المطلوبَ في الأمْرِ والنَّهيِ الرِّفْقُ واللِّينُ لا الشِّدَّةُ والغِلْظَةُ الحامِلان على النُّفْرَةِ مِن الحَقِّ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصَعِّرۡ﴾: (صعر) تدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى مَعْنى المَيْلِ في الشَّيءِ، ومِن ذلكَ: الصَّعَرُ، وهُو الميلُ في العُنقِ، والتَّصعيرُ: إمالَةُ الخَدِّ عَنِ النَّظر عجبًا(2)، والأصْعَرُ: هُو المُعْرِض بوَجْهِه(3).

وقولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، معناهُ: لا تُعْرِض عَنْهُم تَكَبُّرًا عليهم(4).

2) ﴿خَدَّكَ﴾: (خدّ) تدُلُّ اشتقاقاتُها على الشَّقِّ المُسْتَطيل الغائِر في الشَّيءِ، ومنهُ الأُخْدودُ، وهُو الشَّقُّ في الأرضِ، كالوارِدِ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤﴾ [البروج: 4]، وهُو شَقٌّ طويلٌ سَعَّروهُ نارًا، وكانوا يُلقون فيهِ من يَتَمَسَّك بدينِهِ الصَّحيح، ويَأبى التَّحوُّلَ إلى دينِهم الباطِل(5).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعر).
(3) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/ 205.
(4) أبو عبيد الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (صعر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صعر).

ومِنْ ذَلِكَ الخدُّ: جانِبُ الوَجْهِ، وهُو ما جاوَزَ مُؤخِّر العَيْنِ إلى مُنتهى الشِّدق، وسُمّي خدًّا؛ لكونه غائرًا، إلّا أنَّه يَكْسوهُ لَحْمُ الوجهِ، ولذا إذا هُزِل المرءُ؛ ظهرَ غُؤورُه[1].

3) ﴿مَرَحًا﴾: (مرح) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى مَسَرَّةٍ لا يكادُ صاحِبُها يَسْتَقِرُّ معَها مِن شِدَّة الطَّرَب[2]، ومِن ذلك المرَحُ، وهُو شِدَّة الفرَح والنَّشاط، ويَرِدُ المَرَحُ بِمَعْنى الكِبْرِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[3].

4) ﴿مُخْتَالٍ﴾: (خيل) تدُلُّ تَصْريفاتُها على حركةٍ في تَلَوُّنٍ، ومِن ذلكَ: الخيالُ، وهو الشَّخص، وأصْلُهُ: ما يتخيَّلُه العَبْدُ في مَنامِهِ؛ لكَوْنِهِ يَتَشَبَّهُ، ويتلَوَّن، ومنهُ سُمّيت الخيلُ خيلًا؛ وذلك لاخْتيالِها، والمختالُ في مِشْيَتِه: الذي يتَلَوَّن في حركَتِه ألْوانًا[4].

والمُخْتالُ - في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ - هو المُتَعاظِم في الظّاهر بما عِنْدَهُ حقيقةً أو ادِّعاء[5].

5) ﴿فَخُورٍ﴾: (فخر) تدُلُّ تَصْريفاتُها على عِظَمٍ وقِدَمٍ، ومِن ذلك: الفخرُ[6]، وهو التَّمَدُّح بالخِصالِ وعدُّ القديم[7].

والفَخورُ - في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ - هو كثيرُ الفَخْرِ، أي: الذي يَعُدُّ المآثِر القَديمَةَ تَعَظُّمًا[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهْيُ عَنْ مَظاهِرِ الكِبْرِ

ولا تُمِلْ وجْهَك عنِ النّاسِ؛ إذا كلَّمْتَهُم، أو كَلَّموك؛ احتقارًا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صعر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرح).
(3) نشوان الحميري، شمس العلوم: (مرح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خيل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فخر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فخر).
(8) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح: 19/ 237.

منكَ لَهُم واسْتِكْبارًا عليهم، ولا تَمْشِ في الأرْضِ بينَ النّاس مُخْتالًا مُتَبَخْتِرًا مُتَكَبِّرًا، إنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ مُتَباهٍ في نَفْسِه وهَيْئَتِه وقَوْلِه(1).

وترشد الآيةُ الكريمة إلى حرمة التَّكبُّرِ والاختيال في المشي، ووجوب القصد في المشي، وإلى أنَّه ينبغي للإنسان عند محادثة غيره أن يكون مُقبلًا إليه بوجهه؛ لأنَّ النَّهي عن تصعير الخدِّ يدلُّ على الأمر بضدِّه، وهو أن يكون مُقبلًا إليه بوجهه(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بما قَبْلَها:

التَّناسُبُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

وُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ بما قَبْلَه، وهُو قولُهُ سُبْحانَهُ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ لما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ إذْ كِلْتا الجُمْلَتَيْنِ إنشائيَّتان، وبينَهُما مُناسبَةٌ في المَعْنى؛ إذْ كُلٌّ منهُما فيهِ تَعْدادٌ لِوَصايا لُقْمان لابنه، وبينَهُما مُناسبَةٌ لَفْظيَّة حسَّنت هذا الوصلَ، وهُو اشْتِراكُهُما في الفعليَّةِ، واتِّحادُ المسنَدِ إليهِ فيهما.

دِلالَةُ النَّهْيِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾:

مِنْ أعْظَمِ المُحَرَّماتِ التَّكَبُّرُ عَلَى الخَلْقِ

النَّهيُ الوارد في: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يَدُلُّ على النُّصحِ والإرشادِ؛ لما فيه مِن تحقيقِ مصالِحَ دُنْيَويَّةٍ وأُخْرَويَّة، ولا يُنافي أن يكونَ ذلكَ النَّهي دالًّا على التَّحريم، وذلك أنَّ التَّكبُّرَ على الخَلْقِ مِن جُمْلَةِ المُحَرَّماتِ.

بَلاغَةُ تَوْجيهِ القِراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾:

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وأبو جَعْفَرٍ ويعقوبُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ بتَشْديدِ العَيْنِ من غيرِ ألفٍ بينَها وبينَ الصاد، وقرأ الباقونَ: ﴿وَلَا تُصَاعِرْ﴾ بتَخْفيفِ العَيْنِ وألفٍ قَبْلَها(3).

(1) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة لقمان: 1/ 112، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 209.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 346.

فأمّا قِراءةُ: ﴿تُصَعِّرْ﴾؛ فهيَ من التَّصعيرِ، والتَّفعيلُ فيه دالٌّ على المُبالغَةِ في الفِعْلِ وتَعَمُّده؛ لأجْلِ الكِبْرِ حَتّى يصيرَ ذلك خُلُقًا مُتَأصِّلًا في صاحبِهِ، وأمّا قِراءَةُ: ﴿تُصَاعِرْ﴾؛ فهيَ مِن التَّفاعُلِ، كأنَّك تُعارِضُهُ بِوَجْهِك[1].

والأولى لُغَةُ تَميمٍ، والأُخْرى لُغَةُ الحِجازِ[2].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في تَصْعيرِ الخَدِّ:

تَصْويرُ المُتَكَبِّرِ بِأقْبَحِ صورَةٍ وأشْنَعِها

تَصْعيرُ الخدِّ المذكورِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ كِنايَةٌ يُراد بِها تَمْثيلُ الاحْتِقارِ؛ لأنَّ مُصاعَرَةَ الخَدِّ وتَصْعيرَهُ الهَيْئَةُ الغالبَةُ لِلمُحْتَقِرِ المُسْتَخِفِّ بالخَلْقِ، والمَعْنى: أَقْبِلْ عَلى النّاسِ بِوَجْهِكَ تَواضُعًا، ولا تُعْرِض عَنْهُم، ولا تُوَلِّهِم وجْهَك كصَنيعِ المُتَكَبِّرين.

وهَذا يَقْتَضي أنَّ النَّهْيَ عَن تَصْعيرِ الوَجْهِ لا يُرادُ بِهِ خُصوصُ ذَلِكَ، وإنَّما عَن كُلِّ ما يَدُلُّ على الكِبْرِ واحْتِقارِ الخَلْقِ.

وعدَلَ البيانُ القُرآنيُّ عَن النَّهْيِ عنِ الكِبْرِ إلى النَّهيِ عَن تَصْعيرِ الخَدِّ؛ لإظْهارِ المُتَكَبِّرِ في صورَةٍ قبيحَةٍ مُسْتَهْجَنَةٍ[3].

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

وُجوبُ الانْبِساطِ لِلنّاسِ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ ولا كِبْرٍ

اللّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ من قولِ الله سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ دالَّةٌ عَلى التَّعليلِ، والمَعْنى: لا تَفْعَلْ ذلكَ لأجْلِ الإمالَةِ عَنْهُم؛ لأنَّ ذلكَ لا يَكونُ إلّا تَهاوُنًا بِهِم مِنَ الكِبْرِ، بَلِ الواجِبُ الإقْبالُ عَلى النّاسِ بالوَجْهِ كُلِّه على وجْهِ الاسْتِبْشارِ والانْبِساطِ من غَيْرِ غُلُوٍّ ولا كِبْرٍ[4].

مَعْنى (أل) في قَوْلِهِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

التَّكَبُّرُ عَلى الخَلْقِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ إلّا مَعَ الكُفّارِ المُحارِبينَ

اللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ للاستغراقِ، أي: لا تُصَعِّرْ خدَّك على وجهِ الاحْتِقارِ لأيِّ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 198، والواحدي، البسيط: 18/ 133.
(2) محمد سالم محيسن، الهادي في شرح طيبة النشر: 3/ 136.
(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1615.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 176.

أحدٍ مِنَ النّاسِ، إلّا أنَّ ذلك مخصوصٌ بالمُحارِبينَ مِن أهْلِ الكُفْرِ، فإنَّ التَّكبُّر عليهم في النِّزالِ مَطْلوبٌ، فيكون لفظُ (النّاس) في الآيةِ مِنَ العامِّ الذي يُرادُ بِهِ الخُصوصُ، أو أنّه عامٌّ خُصَّ بِما دلَّت عليه السُّنَّةُ النَّبويَّة.

عِلَّةُ وصْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ بما قَبْلَهُ:

التَّناسُبُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

وُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ بما قَبْلَه، وهو قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْنِ، فإنَّ كِلْتا الجُمْلَتَيْنِ إنشائيَّتان، وبينَهُما مُناسبَةٌ في المَعْنى، وهيَ النَّهيُ عن الكِبْرِ بذكر صُورِهِ الدّالَّةِ عليه، ثُمَّ إنَّ بينَ الجُمْلَتَيْنِ مُناسبَةً لَفْظيَّةً حسَّنت هذا الوصلَ، وهُو اشْتِراكُهُما في الفعليَّةِ، واتِّحادُ المسنَدِ إليهِ فيهما.

دِلالَةُ النَّهْيِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمۡشِ﴾:

التَّكَبُّرُ عَلى الخَلْقِ مُحَرَّمٌ بِجَميعِ صُوَرِهِ

النَّهيُ في ﴿وَلَا تَمۡشِ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ مفيدٌ النُّصحَ والإرشادَ، وذلك لِما يشتَمِلُ عليهِ مِنْ تحقيق مصالِحَ دُنْيَويَّةٍ وأُخْرَويَّة، من غيرِ أنْ تكونَ هذهِ الدِّلالَةُ مُنافيَةً لدِلالَةِ النَّهْيِ على التَّحريمِ؛ إذْ إنَّ التَّكبُّر على الخَلْقِ بجميعِ صُوَرِهِ محرَّمٌ في شريعَةِ اللّه.

دِلالَةُ التَّقْييدِ بِالجارِّ والمَجْرورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تَذْكيرُ الإنْسانِ بِأصْلِهِ أدْعى لِتَواضُعِهِ

قُيِّدَ النَّهيُ عنِ المَشْيِ عَلى وجْهِ المرَحَ بكونِهِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وذلكَ في قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾، وفائِدَةُ هَذا التَّقْييدِ - معَ أنَّ المَشْيَ لا يكونُ إلّا عَلى الأرْضِ - تَذْكيرُ المُتَكبِّر بأصْلِه، وهُو التُّراب، وأنَّه لا يَقْدِرُ أن يعدوَهُ، فيكون ذلكَ أدخلَ في الحَمْلِ على التَّواضُعِ والزَّجْرِ عن الكِبْرِ[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 177.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تَحريمُ المَشْيِ عَلى وجْهِ الفَخْرِ والخُيَلاءِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قولِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المُنْدَرِجَةِ في لَفْظِها، وفي هَذا دِلالَةٌ على المَنْعِ مِنَ المَشْيِ عَلى وجْهِ المَرَحِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ في أيِّ بُقْعَةٍ مِنْ بقاعِ الأرْضِ، وأنَّ المقصودَ ألّا يَصْدُرَ هذا الخُلُقُ الذَّميم - وهُوَ الكِبْرُ - مِنَ المُسْلِمِ أصلًا، بقَطْعِ النَّظرِ عَنِ الأرْضِ التي يَمْشي عَلَيْها.

أثَرُ اخْتِلافِ إعْرابِ ﴿مَرَحًاۖ﴾ في المَعْنى:

شَناعَةُ المَشْيِ عَلى وجْهِ التَّكَبُّرِ

﴿مَرَحًاۖ﴾ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ مصدَرٌ وقَعَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المُسْتَتِرِ في ﴿تَمۡشِ﴾، وفي التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ دِلالَةٌ عَلى المُبالَغةِ في الاتِّصافِ بِهَذا الوَصْفِ، وهُو مُؤَوَّلٌ هَهُنا باسْمِ الفاعِلِ؛ لِما تقرَّرَ مِن أنَّ الحالَ إذا وقَعَ مَصْدَرًا؛ أُوِّلَ بالمُشْتَقِّ، والتَّقدير هَهُنا: لا تَمْشِ في الأرْضِ مارِحًا، أي: مِشْيَةَ المارِحِ، وهي المِشْيَةُ الدّالَّة على تَكَبُّرِ الماشي بِتَبَخْتُرِهِ وتَمايُلِه، فيكونُ ﴿مَرَحًاۖ﴾ مَصْدَرًا يُراد بِهِ اسْمُ الفاعِلِ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَرَحًاۖ﴾ مفعولًا مُطْلَقًا مُبَيِّنًا لنَوْعِ الفِعْلِ ﴿تَمۡشِ﴾؛ إذِ المَشْيُ لَهُ أنواعٌ مُتَعَدِّدة، مِنْها ما يدُلُّ على أنَّ الماشيَ ذو مرَحٍ وكِبْرٍ، فيكون إسنادُ المَرَحِ إلى المَشْيِ مجازًا عقليًّا؛ إذِ المارِحُ حقيقَةً هُو الماشي(1).

بَلاغَةُ الكِنايَةِ التَّمْثيليَّةِ:

تَحريمُ الفَخْرِ عَلى النّاسِ بِالكَلامِ وبِغَيْرِه

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ نَهْيٌ عنِ المَشْيِ عَلى وجْهِ التَّبَخْتُرِ والكِبْرِ، وهَذا تَمْثيلٌ كِنائيٌّ يُرادُ بِهِ النَّهي عَنِ التَّكَبُّرِ والتَّفاخر مُطْلَقًا، بأيِّ صورَةٍ وقَع، وليسَ النَّهيُ عَن خُصوص

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 103.

المَشْي في حالِ المَرَح، ولِذا كانَتِ الآيَةُ شامِلَةً الفَخْرَ عَلى النّاس بالكلام وغَيْرِه(1).

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾:

تَعْليلُ النَّهيِ عَنْ مَظاهِرِ التَّكَبُّرِ والفَخْرِ عَلى الخَلْقِ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه تَعْليلًا للنَّهْيِ عَن تَصْعيرِ الخَدِّ والمَشْيِ عَلى وجْهِ المَرَح؛ وذلكَ لأنَّه لَمّا كانت غايَةُ ذلكَ التَّكبُّرَ على الخَلْقِ المثمرَ لِبُغْضِهم، وذلك ناشِئٌ عن بغضِ اللّه تعالى؛ جاء هذا التَّعليل المُؤَكَّد؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ النّاس يَتَوهَّم أنَّ حُصولَ النِّعم الدُّنْيَويَّة لهُ ناشِئٌ عَن محبَّة اللّهِ تَعالى لَهُ(2).

دِلالَةُ تَتابُعِ المُؤَكِّداتِ في خِتامِ الآيَةِ:

الاختِيالُ والفَخْرُ يُوَرِّثانِ سَخَطَ اللهِ تَعالى وغَضَبَهُ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ بأنواع من المؤكِّداتِ، وهي: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة، والتَّعبيرُ بالمُسْنَد فِعْلًا؛ ليكونَ في ذلكَ تَكْرارٌ لِلنِّسْبَة مرَّتين؛ إحْداهُما بإِسْنادِ الحُبِّ المَنْفيِّ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾، والأُخْرى بإسْنادِهِ إلى الضَّمير المُسْتَتِر فيه، وهَذا التَّأكيدُ يُرَسِّخ النَّهيَ المُتقدِّم عَنِ الكِبْرِ، وأنَّه لا يورِثُ إلّا سَخَطَ اللّهِ سُبْحانَهُ وغَضَبَهُ.

بَيانُ قائِلِ هَذِهِ الجُمْلَةِ:

تَنْزيلُ الكَلامِ مَنْزِلَةَ النَّتيجَةِ مِنَ الدَّليلِ

جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ يجوزُ أن تكونَ مِن تمام كلامِ لُقْمان في وصيَّتِه ابنَهُ، فتَكون بِمَنْزِلَة المَقْصد مِنَ المقدِّمة، أو النَّتيجةِ مِنَ الدَّليل.

تَعْليمُ اللهِ تَعالى عِبادَهُ

ويجوزُ أن تكونَ جملةً مُعْتَرِضةً بين كلامِ لُقْمان ووصيَّته ابنَهُ؛ وغرضُ هذا الاعتراضِ تعليمُ اللّهِ تَعالى العِبادَ(3).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 166.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 177.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 168.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ المَحَبَّةِ:

التَّعْبِيرُ بِنَفْيِ المَحَبَّةِ أَزْجَرُ لِلنُّفوسِ عَلَى الكِبْرِ

لَمّا كانَ حُبُّ اللّهِ سُبْحانَهُ - الذي يَلْزَمُهُ حُبُّ النّاسِ - مَحْبوبًا إلى النُّفوس، وكانَ فَواتُ المَحْبوبِ أشَقَّ على النُّفوسِ مِنْ وُقوعِ المَحْذورِ، وكانَ حَرْفُ النَّفْيِ ﴿لَا﴾ مُخْتَصًّا بالدُّخول على المُضارِعِ المُسْتَقْبَلِ؛ قال اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ولو ورَدَ في النَّظْمِ القُرْآنيِّ: (إنَّ اللّه يُبْغِض)؛ لاحْتَمَلَ تقييدَهُ بالحالِ، فكانَ التَّعبيرُ بِنَفْيِ المَحَبَّة أوقعَ في النُّفوس، وأزْجَرَ، وأدَلَّ عَلى الدَّوام والاسْتِمْرارِ[1].

دِلالَةُ وُقوعِ ﴿كُلَّ﴾ في حَيِّزِ النَّفْيِ:

كُلٌّ مِنَ المُخْتالِ والفَخورِ مُبْغَضٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى

مَعْنى قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أنَّ اللّه سُبْحانَهُ لا يَرْضى عَن أحدٍ من المُخْتالينَ ولا أحَدٍ مِنَ الفَخورينَ، ولا يَخْطُر ببالِ أهْلِ العَرَبيَّة أن يكونَ المَعْنى أنَّ اللّهَ تعالى لا يُحِبُّ مجموعَ المُخْتالينَ الفَخورين؛ إذا اجْتَمَعوا؛ لأنَّ لفظَ ﴿كُلَّ﴾ في الآيَةِ لا يُرادُ به تأكيدُ الإحاطَة، وإنَّما يُرادُ بِه الأفرادُ[2].

دِلالَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿مُخْتَالٍ﴾:

الإيماءُ إلى المُبالَغَةِ في وصْفِ الخُيَلاءِ

جاءَ التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿مُخْتَالٍ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ لإرادة المبالغةِ في الخيلاء؛ إذْ إنَّ صيغَةَ الافْتِعال في ﴿مُخْتَالٍ﴾ دالَّةٌ على المُبالَغَةِ في الوَصْفِ[3].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ لَفْظَيْ ﴿مُخْتَالٍ﴾ و﴿فَخُورٍ﴾:

شُمولُ الحُكْمِ كُلَّ مُختالٍ وكُلَّ فَخورٍ

نُكِّر لفظا ﴿مُخْتَالٍ﴾ و﴿فَخُورٍ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ ليكونا أوعَب، وأشمَلَ لِكُلِّ مَن اتَّصف بِوَصْفِ الاخْتيالِ أوِ الفَخْر؛ لِوُقوعِ اللَّفْظَيْن في سياق النَّفْي.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 177.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 167.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 167.

المُخْتالُ المُرائي في مِشْيَتِه تَبَخْتُرًا والفَخورُ المُعَدِّدُ مناقِبَهُ

نُكْتَةُ تَأخيرِ ﴿فَخُورٍ﴾ عَنْ ﴿مُخْتَالٍ﴾:

أُخِّر لفظ (الفَخور) عَن (المُخْتالِ)، في قول الله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، مع أنَّ الفخورَ مقابلٌ للمُصَعِّر خَدَّه، والمختالَ مقابلٌ للماشي عَلى وجْهِ المَرَح؛ وذلكَ ليَكونَ أَنْسَبَ لِتَوافُق فواصِل الآيِ، فإنَّ قَبْلَهُ قولَ اللّه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وبعده قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[1]، فيكون في الآيَةِ لَفٌّ ونَشْرٌ غيرُ مُرَتَّب، وهذا أبلغُ لقُرْبِ الرُّجوع على سَبيلِ التَّدَلّي فيما تَرَقّى فيه المُقْبل، فالمُخْتالُ هُو المُرائي في مِشْيَتِه تَبَخْتُرًا؛ لِكَوْنِه يرى لنفسِه فَضْلًا على النّاس، وهذا فِعْلُ المَرِح، والفخورُ هُوَ المُعَدِّد مناقِبَهُ، وذلك فِعْلُ المُصَعِّرِ خَدَّهُ؛ إذْ ذلكَ مِن جُمْلَةِ الكِبْرِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاخْتِيالُ تَكَبُّرٌ بِالفِعْلِ والفَخْرُ تَكَبُّرٌ بِالقَوْلِ أو بِالقَوْلِ والفِعْلِ مَعًا

الاخْتيال والفَخْر:

الاخْتيالُ: التَّكَبُّر والإعْجابُ بِالنَّفسِ في مَشْيٍ أو نَحْوه، والفَخْرُ: ذِكْرُ المَناقِب عَلى وجْهِ التَّطاوُلِ بها على النّاس[3]، وأصْلُ الاخْتيالِ يَدُلُّ عَلى زَهْوٍ في الحَرَكةِ، ومِنْهُ سُمّيَت الخَيْلُ خَيْلًا؛ لأنَّها تَخْتالُ في مِشْيَتِها، وإذا ركِبَها الفارِسُ؛ تَتَبَخْتَرُ به، فيَكونُ الاخْتيالُ حركةً مَرْئيَّة، بخِلاف الفَخْر؛ فَهُو حَرَكَةٌ مَسْموعةٌ؛ لأنَّ في الفَخْرِ تَعاظُمَ المَرْءِ بِكَلامٍ يُبالِغُ فيه، فيَحْكي عَمّا فعلَهُ، ويُمَجِّده، ويُعْلي مِن شَأنِه.

فالاخْتيالُ: تَكَبُّرٌ بِالفِعْلِ وحْدَهُ، والفَخْرُ: تَكَبُّرٌ بالقَوْلِ وحْدَهُ، أو بِالقَوْلِ والفِعْلِ معًا.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 73.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 177 - 178.

(3) الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ص: 32.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمْرُ بِالتَّواضُعِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الكِبْرِ

لَمّا نَهى اللّهُ سُبْحانَهُ عَن تَصعيرِ الخَدِّ تَكَبُّرًا، وعَنِ المَشْيِ عَلى وجْهِ المرحِ والبَطرِ، وكانَ النَّهْيُ عَن ذلكَ يَسْتَلْزِمُ الأمرَ بِأضْدادِه، وهُوَ الأمْرُ بِطَلاقَةِ الوَجْهِ المقتضيةِ الإنْصافَ في الكلامِ، والأمْرُ بالمَشْيِ على وجهِ التَّواضعِ، ورُبَّما أدَّى الإنصافُ في الكَلامِ والمَشْيُ لا على وجهِ المَرَحِ إلى التَّماوُتِ في الكلامِ والمَشْيِ، أو السِّرِّ والجهرِ بالصَّوتِ فوقَ الحَدِّ والإسراعِ في المَشْيِ، لَمّا كانَ كذلكَ؛ أعْقَبَ اللّهُ تَعالى ما تقدَّم بما يَدُلُّ على الاحْتِراسِ مِنْهُ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱقۡصِدۡ﴾: (قصد) تدُلُّ تَصْريفاتُها على تَوَسُّطِ الشَّيءِ في حالِه أو تَوسُّطه بالأمِّ والاتِّجاه، ومنهُ قولُهُم: سَفَرٌ قاصِدٌ، أي: سَهْلٌ قريبٌ، فَهُو متوسِّط ليسَ بعيدًا، والمُقْتَصِدُ - في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: 32] - المُتَوَسِّطةُ حالُهُ بينَ الظّالمِ نَفْسَهُ والسّابقِ بالخيراتِ.

وأمّا قولُ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾؛ فمعناهُ: تَوَسَّطْ فيهِ بينَ الإسْراعِ والبُطْءِ(2).

2) ﴿وَٱغۡضُضۡ﴾: (غضّ) تدورُ اشتقاقاتُها على أصْلَيْنِ كُلِّيَّيْنِ، أحَدُهُما: كَفٌّ ونَقْصٌ، والآخَرُ: طَراوَةٌ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 178.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قصد).

ومِنَ الأوَّل: غَضُّ البَصَرِ؛ لِما فيهِ مِن كفِّه، وكُلُّ شيءٍ كَفَفتَهُ؛ فقد غَضَضْتَهُ، ومنهُ قولُهُم: تَلْحَقُهُ في ذلكَ غَضاضَةٌ، أي: أمرٌ يُغَضُّ لَهُ بصرُهُ[1]، وقولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ معناهُ: انْقُصْ مِنْ جَهارَتِهِ[2].

3) ﴿أَنكَرَ﴾: (نكر) تَدُلُّ تَصريفاتُها عَلى خِلافِ المَعْرِفَةِ التي يَسْكُنِ القَلْبُ إليَها، ومِنْهُ قولُهُم: نَكِرَ الشَّيءَ، وأنكرَهُ؛ لَم يَقْبَلْهُ قلبُهُ، ولَم يَعْتَرِفْ بهِ لسانُهُ[3]، ومنهُ المُنْكَرُ في الشَّرْعِ، وحَقيقَتُه: ما عُرِفَ قُبْحُه في الشَّرعِ[4].

والنُّكْرُ والنُّكُرُ: هُوَ الأمرِ الشَّديدُ[5].

وقولُ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ معناهُ: أقْبَحُها وأشَرُّها[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمْرُ بِمَكارِمِ الأخْلاقِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ سَفاسِفِها

وتَواضَعْ في مَشْيِكَ؛ إذا مَشيتَ، فَلا تَسْتَكْبِر، ولا تَسْتَعْجِل، ولَكِنِ اتَّئِدْ، واخْفِض مِن صَوْتِك، فاجْعَلْهُ قَصْدًا؛ إذا تكلَّمْتَ؛ فَلا تَرْفَعْهُ، إنَّ أقبحَ الأصْواتِ وأشَرَّها وأبْغَضَها لَصَوْتُ الحَميرِ المَعْروفةِ بِبَلادَتِها وارْتِفاعِ أصْواتِها[7].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّه لو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختُصَّ بذلك الحمار، الذي قد علمت خِسَّته وبلادته، وإلى أنَّ وصايا لقمانَ لابنه، تجمعُ أمهات الحِكَم، وتستلزم ما لم يُذكر منها[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غض).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (غض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(4) ابن عثيمين، مجموع الفتاوى والرسائل: 4/ 312.
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نكر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 147.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 146 - 147، ونخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.
(8) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 648.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

التَّناسُبُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

وُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ بِما قَبْلَه، وهُو قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ إذْ كِلْتا الجُمْلَتَيْن إنشائيَّتان، وبينَهُما مُناسبَةٌ في المَعْنى؛ فكُلٌّ منهُما فيهِ تَعْدادٌ لِوَصايا لُقْمان لابنِه، وبينَهُما مُناسبَةٌ لَفْظيَّة حسَّنت هذا الوصلَ، وهُو اشْتِراكُهُما في الفعليَّة، واتِّحاد المسنَدِ إليهِ فيهِما.

دِلالَةُ الأمْرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱقۡصِدۡ﴾:

الدَّعْوَةُ إلى الآدابِ الظّاهِرَةِ بَعْدَ الدَّعْوَةِ إلى الآدابِ الباطِنَةِ

الأمر الوارِدُ في ﴿وَٱقۡصِدۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ يُرادُ بِهِ النُّصحُ والإرشادُ؛ لِما فيهِ مِن تحقيقِ مصالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ وأُخْرَوِيَّةٍ، وما فيهِ مِن تَثْبيتِ الآدابِ الظّاهِرَةِ لِلمُسْلِم بَعْدَ تَثْبيتِهِ الآدابَ الباطِنةَ.

دِلالَةُ تَقْييدِ القَصْدِ بِالمَشْي:

الأمْرُ بِالقَصْدِ في المَشْيِ والاعْتِدالِ فيهِ

القَصْدُ: التَّوسُّط بينَ الشَّيْئَيْن، ويكونُ في المَشْي والمَعيشَة ونَحْوِهِما، فالقَصْدُ في المَعيشَة ألّا يُسْرِفَ، ولا يُقْتِرَ، والقَصْدُ في المَشْي: المَشْيُ مُسْتَوِيًا بينَ الإسراعِ والبُطْءِ، فجاءَ في النَّظْم القُرْآنيِّ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾؛ ليكونَ أدَلَّ على المَعْنى المُرادِ بِالقَصْدِ هَهُنا، وأنَّ المرادَ بِه القَصْدُ في المَشْي والاعتدالُ فيهِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾:

أَهَمّيَّةُ التَّوسُّطِ والاعْتِدالِ

أصلُ القَصْد: تَرْكُ مُجاوزَةِ الحَدِّ فيه، والرِّضا بالتَّوسُّط، وعلى هذا فيكونُ القَصْدُ في قولِه: ﴿وَٱقۡصِدۡ﴾ مستعارًا؛ حيث شُبِّه الاستواء في المَشْي - الذي هُو بينَ طَرَفَي السُّرعةِ والبُطْءِ - بالقَصْدِ: وهُو الوَسْطُ العَدْلُ بينَ طَرَفَيْن، بجامع عَدَم التَّجاوُزِ أوِ المُغالاةِ في كُلٍّ مِنْهُما، ثُمَّ اسْتعيرَ القَصْدُ لِلاسْتِواءِ، واشْتُقَّ منهُ الفِعْلُ (اقْصِدْ)

بِمَعْنى: (اسْتَوِ)، وفي التَّعبيرِ بالقَصْدِ إيماءٌ إلى أَهَمّيَّةِ الاسْتِواءِ، وأنَّ المَيْلَ إلى أحَدِ الطَّرَفَيْنِ ضَرْبٌ مِنَ التَّجاوُزِ والمُغالاةِ والتَّفْريطِ(1).

دِلالَةُ عَطْفِ غَضِّ الصَّوْتِ عَلى قَصْدِ المَشْيِ:

المُناسَبَةُ الدَّقيقَةُ بَيْنَ قَصْدِ المَشْيِ وغَضِّ الصَّوْتِ

وُصِلَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ بما قَبْلَه، وهُو قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْنِ؛ إذْ كِلْتا الجُمْلَتَيْنِ إنشائيَّتان، وبينَهُما مُناسبَةٌ في المَعْنى؛ إذ هما تَعدادٌ لوصايا لقمانَ لابْنِه.

ونُكْتَة عطفِ الأمْرِ بغَضِّ الصَّوت، على الأمْرِ بالقَصْدِ في المَشْيِ؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّناسب الدَّقيق البَديع، ووجهُ ذلِكَ: أنَّ الإنسانَ لَمّا كانَ شَريفًا في نَفْسِه؛ كانَت مَطالِبُهُ شَريفَةً، ويكونُ فَواتُها خَطَرًا، ولِذا أقْدَرَ اللّهُ تَعالى الإنسانَ عَلى تَحْصيلِها بالمَشْيِ، فَإنْ عَجَز عَن إدْراكِ مَقْصودِه؛ نادى مَطْلوبَهُ، فَيَقِفُ لَهُ أو يأتيه مَشْيًا.

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ في المُناسَبَةِ بَيْنَهُما، وهُو أنَّ الإنسانَ له عملٌ بالجَوارِحِ مِنْ حَرَكَةٍ أو سُكونٍ يُشارِكُهُ فيهِ الحَيوانُ، ولَهُ قولٌ باللِّسان لا يُشارِكُهُ فيه غيرُهُ، وعَزْمٌ بالقَلْبِ، وهُو مِمّا لا يَطَّلِعُ عليهِ أحَدٌ إلّا اللّه سُبْحانَهُ، وقَد ذَكَرَ اللّهُ سُبْحانَه إصلاحَ القَلْبِ في قولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾، وبَقيَ العمَلُ والقَوْلُ، فذَكَرَ إصْلاحَهُما بذِكْرِ القَصْدِ في المَشْيِ والغَضِّ مِنَ الصَّوت(2).

مَعْنى ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مِن صَوۡتِكَۚ﴾:

الأصْلُ غَضُّ الصَّوْتِ إلّا مِنْ حاجَةٍ

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ للتَّبْعيض، وفي التَّعْبيرِ بها دِلالَةٌ على أنَّهُ يُغَضُّ بَعْضُه، أي: بَعْضَ الجَهْرِ، لَكِنْ لا يَصِلُ إلى حَدِّ التَّخافُت، ولِئلّا يوهِمَ غَضَّ الصَّوتِ جميعِهِ؛ إذ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1618 - 1619.

(2) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 122.

الصَّوْتُ قَد يُستحسَنُ رفعُهُ للحاجة، كرفْعِهِ عِنْدَ الأذانِ؛ فإنَّ ذلك مأمورٌ به[1].

وذهَبَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ بالعَرَبيَّةِ إلى أنَّ ﴿مِن﴾ زائدةٌ، بدليلِ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [الحجرات: 3][2]، والأظهَرُ أنَّها للتَّبعيضِ عَلى المَعْنى المتقدِّم، وأمّا آيَةُ الحُجُراتِ؛ فجاءَتْ مُقَيَّدَةً بِغَضِّ الصَّوت عندَ النَّبيِّ ﷺ، فلَم يَكُن ثَمَّ داعٍ إلى إدخالِ حَرْفِ التَّبعيض، بخلافِ آيَةِ لُقْمانَ.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾:

تَصْويرُ رافِعِ الصَّوْتِ بِلا حاجَةٍ بِأقْبَحِ الصُّوَرِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِهِ تَعْليلًا لِلأمْرِ بِغَضِّ الصَّوت، باعتبارِه قَد تضمَّن تَشْبيهًا بديعًا، في تَصويرِ رافِعِ الصَّوتِ مِن غَيْرِ حاجةٍ بِأقْبَحِ صورَةٍ لِأجْلِ التَّنفيرِ عَنْهُ[3].

دِلالَةُ تَتابُعِ المؤَكِّدات:

المُبالَغَةُ في التَّنْفيرِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ ثلاثةُ مؤكِّدات، وهي: ﴿إِنَّ﴾، واللّامُ، واسميَّةُ الجملة، وهَذا التَّأكيدُ يُرَسِّخ الأمرَ بِغَضِّ الصَّوتِ؛ إذْ شُبِّهت مُخالفَةُ ذلكَ - بِرَفْعِ الصَّوت مِن غَيْرِ حاجَةٍ - بِصَوْتِ الحَمير، وهو أشْنَعُ الأصْواتِ وأقبَحُها، وأُكِّدَ ذلك زيادَةً في التَّنفير.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ التَّفْضيلِ ﴿أَنكَرَ﴾:

رَفْعُ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ أمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ

جاءَ التَّعْبيرُ باسْمِ التَّفضيلِ ﴿أَنكَرَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾؛ ليكونَ دالًّا على اشْتِراكِ رَفْعِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 178 - 179.

(2) القنوجي، فتح البيان: 10/ 289.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 179، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 168.

الصَّوت مُطْلَقًا في النَّكارَة، ثُمَّ خُصَّ أعلاها مُصَوَّرًا لها بأقبَحِ صورةٍ وأشْنَعِها مبالغةً في التَّنفير عِنْها[1].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْأَصْوَٰتِ﴾:

صَوْتُ الحِمارِ أشَدُّ أصْواتِ الحَيَوانات نَكارَةً

(أل) في ﴿ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ للعَهْد، والمَقْصودُ: أصْواتُ الحَيَواناتِ لا الأصْواتُ مُطْلَقًا؛ إذْ في الأصْواتِ عُمومًا ما هُو أشدُّ نكارةً مِن صَوْتِ الحمارِ[2].

أو تكون (أل) للاستغراقِ المفيدِ العمومَ، ولكنَّه عامٌّ مرادٌ به الخُصوصُ، فيكونُ مَجازًا مُرْسَلًا، علاقَتُه العموميَّة؛ إذْ ذُكِرَ العامُّ، وأُريدَ الخاصُّ، والوَجْهانِ مُتآيلانِ كما هُوَ ظاهِرٌ.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَصَوْتُ﴾:

نَكارَةُ صَوْتِ الحَميرِ وشَناعَتُهُ

اللّامُ في ﴿لَصَوْتُ﴾ مِن قولِ الله سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ هي اللّامُ المُزَحلَقَة[3]، المفيدَةُ تأكيدَ النِّسْبَةِ في الجُمَلِ الاسْميَّة، ففي هذه الجُمْلَة تأكيدُ نَكارةِ صَوْتِ الحَمير وفَوَقانِه عَلى سائِر أصْواتِ الحَيوانِ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾ مِن قولِ الله سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ للجنس[4]، أي: أنكرُ الأصواتِ هُوَ صوتُ هذا النَّوع مِنَ الحيوانِ بِقَطْعِ النَّظر عَن خصوصِ أفرادِه.

نُكْتَةُ إفْرادِ الصَّوْتِ وجَمْعِ الحَميرِ:

اجْتِماعُ أصْواتِ الحَميرِ لَيْسَ شَرْطًا في نَكارَتِها

أُفْرِدَ لفظُ الصَّوت، وجُمِعَ لفظ الحمير - مِن قولِ الله سُبْحانَه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ - ليكونَ إفْرادُ الصَّوت نصًّا على إرادَةِ الجِنْسِ؛ لِئَلّا يُتوهَّم أنَّ اجْتِماعَ الأصْواتِ شَرْطٌ في النَّكارة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 179.
(2) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 123.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 544.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 179.

المَذْكورَةِ، ولأنَّ المقصودَ الجِنْسُ؛ إذْ لِكُلِّ جِنْسٍ مِنَ الحَيوانِ صَوْتٌ، وأنكَرُ هذهِ الأَجْناسِ صَوْتًا هذا الجنسُ، وهو الحِمار[1].

وَأوثِرَ لفْظُ ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾ جمعًا أيضًا؛ لأنَّه أنسَبُ للفَواصِل، وذلكَ لأنَّ مِن محاسِنِ الفَواصِل والأسْجاعِ أن تكونَ جاريَةً على أحْكامِ القَوافي، ومِنَ المُتَقَرِّرِ أنَّ القافيَةَ المُؤَسَّسة بالواوِ أو الياءِ لا يَتَأتّى معَها ألفُ تأسيسٍ، والفواصلُ المتقدِّمَةُ كلُّها فواصلُ تدورُ بينَ الواوِ والياء، فلَمْ يَكُن مِنَ المُناسِبِ وُرودُ لَفْظِ (حمار) مُفْرَدًا؛ لأنَّ ذلك سَيَجْعَلُ الفاصِلةَ عَلى حَرْفِ الألِفِ[2].

بَيانُ قائِلِ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾:

زيادَةُ التَّنْفيرِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ

جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ يجوزُ أن تكون مِن تتمَّةِ كلامِ لُقْمان في وصيَّتِه ابنَهُ.

ويجوزُ أن تكونَ جملةً مُعْتَرِضةً بين كلامِ لُقْمان ووصيَّته ابنَهُ؛ وغرضُ هذا الاعتراضِ زيادَةُ التَّشْنيعِ والتَّنفيرِ عَن رَفْعِ الصَّوت مِن غَيْرِ حاجَةٍ داعيَةٍ إلى ذَلِكَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 180، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 289.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 169.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ٢٠﴾ [لقمان: 20]

تَذكيرٌ بِأصلِ النِّعَمِ ومَصْدَرِها والتَّحذيرُ مِنَ الكِبْرِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا نَهى اللّٰهُ تَعالى عَنِ الكِبْرِ ومَظاهِرِه، وكانَ التَّكبُّر على النّاس والتَّعالي عليهم مِن آثارِ الفَضْلِ في النِّعَمِ؛ بيَّن اللّٰهُ سُبْحانَهُ أنَّ كُلَّ ما يُرى هو خلقُهُ؛ مُذكِّرا بأنَّ النِّعَمَ إنَّما هي مِنْهُ سُبْحانَهُ، فَلا يَنْبَغي لأحَدٍ أن يَفْخَرَ بما آتاهُ غيرُهُ، ومُحَذِّرًا من سَلْبِها عن المُتَكَبِّر وإعْطائِها للمُحْتقَر، فقالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَخَّرَ﴾: (سخر) تدلُّ اشتقاقاتُه على مَعْنَى الاحْتِقار والاستِذْلالِ[2]، ومِنْهُ قَوْلُهم: سَخِرْتُ مِنْهُ، أي: هَزِئْتُ به وتهكَّمْتُ[3]، وقولُهم: سخَّر اللّٰه تعالى الشَّيءَ؛ هو من هذا البابِ؛ لأنَّ مَعْنَى تَسْخيرِ اللّٰهِ سُبْحانَهُ لَهُ أنَّه ذلَّلَه لأمْرِه وإرادَتِه[4]، ومِنْهُ قولُ اللّٰهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

2) ﴿وَأَسْبَغَ﴾: (سبغ) تدُلُّ اشْتِقاقاتُه عَلى تَمامِ الشَّيءِ وكَمالِه[5]، ومِنْهُ إسْباغُ الوُضوءِ؛ وهو أنَّ يَأتيَ بالماءِ على كلِّ عُضْوٍ يَلْزَمُهُ غَسْلُه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 155.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) الخطابي، غريب الحديث: 2/ 289.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبغ).

مع إمْرارِ اليد، فهو إنْ فعَلَ ذلك وأكْمَلَهُ، فقد توضَّأ كما أمَرَهُ اللّهُ تعالى[1]، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أتَمَّها عليكم وأكْمَلَها[2].

3) ﴿ظَٰهِرَةً﴾: (ظهر) تدورُ تَصْريفاتُه علَى بُروزٍ من أثناءٍ أو باطِنٍ إلى سَطْحٍ مَعَ شِدَّةٍ وغِلَظٍ أو قوَّة، ومنهُ: الظَّهْرُ منَ الأرض، والظَّهْرُ منَ الحَيوانِ والإنْسان، وكَظَواهِرِ الأوديَةِ والجبالِ بالنِّسْبَةِ لِما دونَها[3]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ أي: بارزةً، وهي ما يُدْرَكُ بالمُشاهدَة[4]، كالّتي تكونُ في البدَن؛ مِنَ السَّمعِ والبَصَرِ ونَحْوِهما، ومنَ النِّعَمِ الظّاهرَةِ: المالُ والبَنونَ والجاهُ وغَيْرُها[5].

4) ﴿وَبَاطِنَةً﴾: (بطن) تَدُلُّ اشتقاقاتُه على جوفٍ داخِليٍّ للشَّيْء حيث يَخْفَى فيه ما يَدْخُل إليه، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى حكايَةً عَنِ امرأةِ عِمْرانَ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، وقولُ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [النحل: 69]، ويقال: بَطَنَ الشيءُ؛ أي: خَفيَ، كأنَّه في بَطْن[6]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ هي النِّعَمُ التي لا تُدْرَكُ بالمُشاهَدَة، وهيَ ما كانَت خَفيَّةً في القُلوبِ اعْتِقادًا ومَعْرِفةً[7]، وكَراحَةِ البالِ والتَّوفيقِ لِلرَّشَدِ في الفِكْرِ والتَّصرُّف[8].

5) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: (جدل) تَدُلُّ تَصْريفاتُه عَلى اسْتِحْكامِ شَيْءٍ في اسْتِرْسالٍ يكونُ فيه، وعَلى امْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجعَةِ الكَلام[9]، ومَعْناهُ الجامِعُ أنَّه: امْتِدادُ الشَّيْءِ الشَّديدِ الأثناءِ بالتِفافِ بَعْضِه عَلى بَعْضٍ أوِ التِفافِ مِثْلِه عليه، كما في الحَبْل، ومنهُ قَوْلُهُم: جَدَلَهُ؛ أي: صَرَعَهُ، ففَتَلَهَ ولَواهُ فامْتَدَّ عَلى الأرض، ومِنْهُ المُجادَلَةُ: وهيَ المُخاصمَةُ في شِدَّةٍ ولَدَدٍ؛ لأنَّ المُجادَلَةَ فيها التِفافُ كُلٍّ عَلى الآخَرِ بإِصْرارٍ[10]، والمُجادلَةُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ

(1) ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك: 3/ 132.
(2) ابن عبد البر، الاستذكار: 2/ 302.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 418.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 149.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جدل).

﴿ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هي شِدَّةُ الخُصومَةِ واسْتِمْرارُ مُراجعَةِ الكَلامِ(1).

7) ﴿مُّنِيرٍ﴾: (نور) تدُلُّ اشتقاقاتُه علَى الإضاءةِ والاضْطِرابِ وقِلَّةِ الثَّباتِ، ومِنْهُ النّورُ والنّارُ، وقد سُمّيا بذلكَ من طريقةِ الإضاءَة؛ لأنَّ ذلك يكونُ مُضْطَرِبًا سَريعَ الحركَةِ(2)، وحقيقةُ النّورِ: الضَّوْءُ المُنْتَشِرُ الذي يُعينُ عَلى الإبصارِ، وهو ضَرْبانِ: دُنْيَويٌّ وأُخْرَويٌّ، فالدُّنْيَويُّ؛ مِنْهُ ما هو معقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَة، وهو ما انْتَشَر مِنَ الأُمورِ الإلهيَّة كَنورِ العَقلِ ونورِ القرآنِ، ومنهُ ما هو محسوسٌ بعَيْنِ البَصرِ، وهو ما انْتَشَر مِنَ الأجْسامِ النَّيِّرَةِ كالقَمَرَيْنِ والنُّجومِ والنَّيِّراتِ، ومنهُ قولُ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61]، ومِنَ النّورِ الأُخْرَويِّ قولُ اللّه تَعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12](3)، ومَعْنى قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: ولا وحْيٍ نَيِّرٍ واضِحٍ يَعْلَمُ بِهِ ما يُجادِلُ بِهِ(4).

المَعنى الإجْماليُّ:

تَسْخيرُ المَخْلوقاتِ وتَعْدادُ النِّعَمِ ودَعْوَةٌ لِلتَّوْحيدِ

ألَم تَرَوْا – أيُّها النّاس – أنَّ اللّه ﷻ قد ذلَّل لَكُم ما في السَّماواتِ مِن شَمْسٍ وقمَرٍ ونَجْمٍ وسَحابٍ وغيرِ ذلكَ، وما في الأرْضِ مِن دابَّةٍ وشجَرٍ وماءٍ وبَحْرٍ، وغيرِ ذلكَ مِمّا لا يُحْصى، وعمَّكُم بِنِعَمِه الظّاهِرَةِ على الأبْدانِ والجَوارح، والباطِنَةِ في العُقولِ والقُلوبِ، وما ادَّخره لَكُم مِمّا لا تَعْلَمونَهُ، ومِنَ النّاس مَن يُجادِلُ في توحيدِ اللّه تَعالى وإخْلاصِ العِبادَةِ لَهُ بغَيْرِ حُجَّةٍ ولا بيانٍ، ولا كتابٍ مُبينٍ يبيِّنُ حقيقةَ دَعْواهُ(5).

(1) محمد محمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(3) الراغب، المفردات: (نور).
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 280.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 147 - 149، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

تَسْخيرُ اللهِ الكَوْنَ لِلإنْسانِ اسْتِدْلالٌ إلهيٌّ وامْتِنانٌ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عَمّا قَبْلَه؛ لِكَوْنِه اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا، وهو رُجوعٌ إلى ما تَقَدَّم في أوائلِ السّورَةِ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: 10]، وذلك أنَّهُ بَعْدَ الاسْتِدلالِ بِخَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ والحَيوانِ والأمْطارِ؛ رجَعَ هَهُنا الاسْتدلالُ والامْتِنانُ بتَسْخيرِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ لَنا[1]، ولو وقعَ مَعطوفًا لأوهمَ أنَّه من كلامِ لُقمانَ الَّذي يوصي ابنَهُ.

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ ونَوْعُهُ وغَرَضُهُ:

دَعْوَةٌ لِلتَّفَكُّرِ في آياتِ التَّسْخيرِ الإلَهيِّ

الهَمْزَةُ في ﴿أَلَمْ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للاسْتِفْهامِ التّصديقيّ، والاسْتِفْهامُ خارِجٌ عن أصلِ دِلالَتِه من إرادَةِ طلَبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَم يَكُنْ معلومًا من قبلُ، والمُرادُ بِهِ التَّقريرُ، والمَعْنى: قَد رَأَيْتُم ذَلِكَ وعَلِمْتُموهُ، ففيه إلجاءٌ إلى الاعترافِ بمضمونِ الكلامِ المُثْبَتِ وهي الرّؤيةُ، ودعوةٌ للتّفكُّرِ عندَ الإقرارِ بمُحتواهُ ومَعناه، أَوِ المُرادُ الإنْكارُ عليهم لِعَدَمِ رُؤْيَتِهِم؛ بِتَنْزيلِهِم مَنْزِلَةَ مَن لَم يَرَوْا آثارَ ذلكَ التَّسخيرِ، وذلكَ لِعَدَمِ انْتِفاعِهِم بها في إثْباتِ وحْدانيَّةِ اللّهِ تَعالى في أُلوهيَّتِه[2]، فيكونُ الإنكارُ للنَّفي توبيخيًّا يُلقي باللّائمةِ عليهم، ويُعطي دلالةَ عدمِ الانبغاءِ لتلكَ الغَفلةِ عنِ النِّعمِ العظيمةِ المُحيطةِ بهم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿تَرَوْا﴾ مادَّةً وصيغَةً:

شِدَّةُ عِنادِهِمْ وإعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ

فِعْلُ الرُّؤيةِ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بمَعْنى العِلْمِ، أي: أَلَمْ تَعْلَموا، إلّا أنَّ فعلَ الرُّؤيةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 173.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

الوارِدَ بِمَعْنى العِلْم أقْوى في الدِّلالَة؛ إذْ مَعْناهُ: ألَمْ تَعْلَموا عِلْمًا هو في الظُّهور كالمُشاهَدِ؟!(1) وهذا أبلَغُ في الإنْكارِ عليهم؛ إذْ عَمُوا عَن هَذا العِلْمِ الشَّديد الظُّهور، البيِّنة آثارُهُ أعظَمَ البيانِ وأوضحَهُ، وهذا يَقْتَضي عِظمَ عِنادِهِم وشِدَّةَ إعْراضِهِم عنِ الحَقِّ، فيكونُ في ﴿تَرَوۡاْ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّه العِلْمَ بالرُّؤية بجامعِ الانكشافِ في كلٍّ، ثمَّ استعارَ الرُّؤيةَ للدِّلالة على المُبالغة في عدمِ الانتفاعِ بالنِّعَم ودلالاتِها الظّاهرةِ على المُنعِم.

وجاءَ الفِعْلُ بِصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ المَنْفيِّ الدّالِّ على الماضي؛ لِلإشْعارِ بأنَّهُم مُسْتَمِرّون في هذا الإعْراضِ إلى زمنِ الحالِ بمَعونةِ المَقام، دائِمونَ على هَذا العَمى عَنِ الحقِّ؛ إذِ المَقْصودُ بالفِعْلِ المُضارِعِ المَنْفيِّ: استمرارُ النَّفْي لا نَفْيُ الاسْتِمْرار؛ لأنَّه لَم يَحْصُلْ لَهُمْ انتفاعٌ أصلًا بِما يَقودُهُم إلى الإقْرارِ بانْفِراد اللّهِ سُبْحانَهُ بالأُلوهيَّة، وجاء الفعلُ بدلالةِ الزّمنِ الماضي لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ عدمِ الانتفاعِ بالرُّؤيةِ؛ لزيادةِ التّوبيخ وشدَّة الإنكار.

الرُّؤْيَةُ بَيْنَ البَصَرِيَّةِ والقَلْبِيَّةِ:

رُؤْيَـةُ التَّسْخيرِ رُؤْيَــةٌ لِآثــارِهِ وأدِلَّتِهِ

الرُّؤيةُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بصريَّةٌ، ويكونُ رُؤْيَةُ التَّسْخيرِ المَذْكورِ مُرادًا به رؤيةُ آثارِهِ وأدِلَّته، وذلك أنَّ البصرَ لا يُدرِكُ ثبوتَ التّسخيرِ للّه تعالى؛ لأنَّ ثبوتَهُ أمرٌ معنويٌّ يُتعقَّلُ ولا يُرى.

وجائزٌ أن تَكونَ الرُّؤْيَةُ عِلْميَّةً قَلْبيَّة، ورُؤْيَةُ التَّسْخيرِ - على هذا - كَسابِقِه؛ يُرادُ بِهِ عِلْمُ آثارِ ذَلِكَ التَّسخيرِ وأدِلَّته(2)، ولا مانعَ من أنْ يكونَ العِلْمُ مُتعلِّقًا بثبوتِ التّسخير للّه تعالى؛ إذْ مَن نظرَ إلى المخلوقاتِ وربطَها بوجودِ الإنسانِ وحياتِه حكمَ بأنَّها مُسخَّرةٌ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 184.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

اللّه تعالى لخدمتِهِ، فيتعلَّقُ علمُهُ بالتّسخيرِ المحكومِ به للّه تعالى كما يتعلَّقُ بآثارِهِ وأدلّتِهِ، ولذا كانتِ استعارةُ الرُّؤيةِ للعلْمِ راجحةً على الرُّؤيةِ البصريَّة.

المُخاطَبُ في ﴿تَرَوۡاْ﴾:

عُمومُ امْتِنانِ اللهِ تَعالى عَلى العِبادِ

الخطابُ في ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَجوزُ أن يكونَ لِعُمومِ النّاسِ؛ مُؤْمِنِهم وكافِرِهِم، وذَلِكَ لأنَّ المَذْكورَ في الآيَةِ امْتِنانٌ مِنَ اللّه تَعالى عَلى عِبادِه، وهَذِهِ المِنَّةُ تَعُمُّ النّاسَ جميعَهم، فيكونُ الضّميرُ مُستعمَلًا في معناهُ المجازيِّ المُرادِ به الشُّمولُ الاستغراقيُّ، وذلك أوضحُ في الحُجّة وأقوى في الاستدلال والامتنان؛ إذ يُصبحُ كلُّ مَن تتأتَّى منه الرُّؤيةُ والعلمُ قادرًا على إدراكِ ذلك الثّبوتِ التّسخيريِّ للمخلوقاتِ منَ اللّه تعالى.

ويجوزُ أن يكونَ الخِطابُ لِخُصوصِ المُشْرِكينَ؛ لأنَّ المَذْكورَ وإنْ كانَ امْتِنانًا عامًّا إلّا أنَّه نُظِرَ إلَيْهِ باعْتِبارِ أنَّه استدلالٌ بالرُّبوبيَّةِ عَلى اسْتِحْقاقِ اللّهِ تَعالى للعِبادَةِ وحْدَهُ[1].

فائِدَةُ التَّوْكيدِ في الآيَةِ:

تَقْويَةُ المَعْنى وإزالَةُ الإنْكارِ

في التَّعبيرِ بـ ﴿أَنَّ﴾ المُؤَكِّدةِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقويَةٌ لِمَضمونِ الجُملَة، اهتمامًا بِهِ في جانِبِ المُؤْمنينَ، وإزالَةً لِلتّردُّد في جانِبِ الكافِرينَ، كما أفادَ التّوكيدُ للجملةِ تقويةَ الإنكارِ التّوبيخيِّ، فهم يُنكرونَ أمرًا محقَّقًا لا سبيلَ للشّكِّ والتّردُّدِ فيه، ويكونُ المعنى: ألم تعلموا هذا الأمرَ المحقَّقَ الثّابتَ المتقرِّرَ؟.

دلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

تَسْخيرُ المَخلوقاتِ لا يَكونُ إلّا لله تعالى وحده

آثرَ النّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ عنِ الأمرِ المُنكَرِ عليهم عدمُ رؤيتِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

له بالجملةِ الاسميَّة الدّالّةِ على الثّبوت، والّتي تقتضي تقديمَ المُسنَد إليه؛ لأنّهم كانوا يُنكرونَ اختصاصَ ذلك التّسخيرِ باللّه تعالى وحدَهُ، ويُشركونَ معَهُ آلهةً لا تضرُّ ولا تنفع، فكانَ تقديمُ المُسنَدِ إليه في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دالًّا على الاختصاصِ معَ تقويةِ الحُكم؛ لبيانِ فضاعةِ إنكارِهم لذلك الأمرِ المحقَّق.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿سَخَّرَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

الإشـــارَةُ إلى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وعُمومِ إحْسانِهِ

في التّعبير بالتَّسخيرِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُبالغَةٌ في الامْتِنانِ؛ لأنَّ التَّسخيرَ يَقْتَضي أنَّ الأمرَ المُسَخَّر في غايةِ السُّهولةِ والتَّيسير؛ إذ حقيقَةُ التَّسْخيرِ تدُلُّ على التَّذليل، وفي هذا الفعلِ تصويرٌ لكمالِ العظمةِ الإلهيَّة التي جعلتْ كلَّ المخلوقاتِ المُحيطةِ بالإنسانِ خادمةً له، يأمرُها فتُطيعُ وتَنقادُ، ويدلُّ ذلك التّركيبُ بالكناية عن بُطلان اتّخاذِ ما في السَّماوات والأرضِ شريكًا للّه تعالى؛ لأنَّ كلَّ تلك المخلوقاتِ خادمةٌ للإنسان؛ فما بالُه يخضعُ لها ويطيعُها من دون اللّه؟ مع أنَّها المأمورةُ بالطّاعةِ والانقيادِ له.

ولفظُ التَّسْخيرِ أيضًا يومِئُ إلى الانْتِفاعِ بِكُلِّ هذهِ الأشْياءِ دونَ مُقابِلٍ مِنْهُم، وهَذا يَدُلُّ على سعَةِ رَحْمَةِ اللّهِ تَعالى وعُمومِ إحْسانِهِ إلى عِبادِه(1).

وفي التَّعبيرِ عنِ التَّسخيرِ بالفِعلِ الماضي ﴿سَخَّرَ﴾ زيادةٌ في تأكيدِ المَعْنى وتَرْسيخِه، وأنَّ التَّسْخيرَ المَذْكورَ واقِعٌ مُحَقَّق، واختارَ النّظمُ صيغةً تدلُّ على المبالغةِ والتّكثيرِ في الفعلِ المُستلزمِ كثرةً في المسخَّرات، لبيانِ عظيمِ فعلِ اللّهِ بعبادِهِ وإحسانِهِ إليهم.

(1) أحمد علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 375.

النّظامُ البيئيُّ خادمٌ للإنسان

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾:

عبَّر النّظمُ الكريمُ عنِ الأمرِ للمخلوقاتِ بخدمةِ الإنسان لغرضِ بقاءِ نوعِهِ واستمرارِ حياتِهِ بـ(التّسخير) في قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سبيلِ الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة؛ إذ شبّه الأمرَ لها بخدمةِ الإنسان، وخلقَها وفْقَ نظام وناموسٍ محدَّدٍ بالمذلَّل لغايةٍ معلومة، والغرضُ بيانُ عظيم قدرةِ اللّه تعالى على مخلوقاته، وأنَّ كلَّ مخلوقٍ خادمٌ للإنسان فلا يستحقُّ أنْ يُعبَدَ، وأنَّ الإنسان سيِّدُ الموجودات، فعليهِ أنْ يُحسِنَ الأدبَ مع اللّه الخالقِ المسخِّر الآمرِ للمخلوقاتِ بالانقيادِ للإنسان، ولا يبعدُ أيضًا أن تكونَ الاستعارةُ مكنيّةً، بتشبيه ما في السّموات وما في الأرض من مخلوقاتٍ بـ(الحيوانات)، ثمَّ حذفَها وأبقى من خواصِّها ولوازمِها التّسخيرَ والتّذليلَ، والغرضُ منها إضفاءُ الحياة على المخلوقات الجرميَّةِ المُحيطةِ بالإنسان، وأنَّها تنقادُ أمرًا منَ اللّه لخدمةِ الإنسان كما تنقادُ الحيواناتُ المسخّرةُ للعمَل.

تَسخيرُ المَنافِعِ لِلعِبادِ

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَكُم﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للتّعليلِ، أي: سخَّر ذلك لأجْلِكُم ولنَفْعِكم، وذلك لأنَّ من جُمْلَةِ المُسَخَّر: ما هو منافعُ لَنا من أمطارٍ ورياحٍ ونورِ الشّمس والقمَر، ومنازلِ القمَر ونَحْوِها[1]، فهو تعالى وإنْ خلقَها لا لعلّةٍ لتنزُّهِه تعالى عنِ العِلَلِ والأغراض في أفعالِه الجليلةِ، لكنْ لمّا كانتْ تلك المخلوقاتُ لنفعِكم ومَصلحتِكم فكانت كأنَّها علّةٌ، ففي (اللّام) استعارةٌ تبعيّةٌ بتشبيهِ العاقبةِ بالعلَّة وجعلِ ما ليس علّةً كالعلَّة.

نُكْتَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿لَكُم﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ الواقعُ حالًا منَ المفعولِ به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

حَمْلُ المُخاطَبين عَلى اسْتِشْعارِ عَظيمِ نِعْمَةِ اللهِ تَعالى عليهمْ

المُسخَّر، وذلك في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وكان مُقْتَضى الظّاهِر أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (سَخَّر ما في السَّماوات وما في الأرضِ لَكُمْ)، وهذا التَّقديمُ يُرادُ بِهِ الاهْتِمامُ والعِنايَةُ بالمُقدَّم وهُمُ المُخاطَبونَ؛ ليكونَ ذَلِكَ أدْعى لَهُمْ لاسْتِشْعارِ عَظيم نِعَم اللّهِ تَعالى عليهم، فيَسْتَدِلّوا بها على اسْتِحْقاقِ اللّهِ سُبْحانَهُ للأُلوهيَّة وحْدَهُ، وفي تخصيصِ تسخيرِ ما في السّمواتِ والأرضِ بنا لا بغيرنا دعوةٌ إلى التّأمُّلِ في عظيمِ المِنَّة، فهل يليقُ بمَن خصَّنا بذلك أنْ نُشرِكَ به مُسخَّرًا من مُسخَّراته، ونجعلَه إلهًا يُعبَدُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِهِ:

تَعَدُّدُ نِعَمِ اللهِ تَعالى على العِبادِ وعَدَمُ تَناهيها

﴿مَّا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اسمٌ موصولٌ بمَعْنى الَّذي، وعُبِّر بالمَوْصولِ وصِلَتِه دونَ التَّنصيص على أفْرادِ المُسَخَّرات؛ لعدمِ الفائدةِ من ذِكْرِ الأفْرادِ؛ وللدِّلالة على عَدَمِ تَناهيها، حتى إنَّ الإنسانَ أينَما التفتَ فإنّه يجدُ تلك المُسخَّراتِ مُحيطةً به، تخدمُهُ وهي طوعُ أمرِهِ وقُدرتِه، فكانَ التَّعبيرُ بالمَوْصولِ وصِلَتِه دالًّا على الإحاطَةِ والعُمومِ مَع الاخْتِصارِ والإيجازِ، وفي الإبهامِ للمُسخَّرات إشارةٌ إلى تنوُّعها حتّى تكونَ ممّا يُدرِكُه الإنسانُ ويقِفُ على حقيقتِه، أو لا يُدرِكُهُ ولا يقفُ على أسرارِه العجيبةِ، وإرادةُ الإبهامِ تتناسبُ مع إرادة الإحاطةِ المنظور إليها في ذكرِ جميعِ أرجاءِ (السَّماوات والأرض)؛ لإيضاحِ صورةِ الشُّمول والاستغراق لكلِّ النِّظامِ الكونيِّ الفسيحِ.

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ في قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

امْتِنانُ اللهِ سُبْحانَهُ عَلى العِبادِ

﴿فِى﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وما في الظَّرف قَد يَخْفى علْمُهُ والانتفاعُ به، فبَيَّن اللّهُ تَعالى امْتِنانَهُ على العبادِ بما

في السَّماوات وما في الأرضِ؛ تنبيهًا على ما هوَ أظهَرُ مِنْ ذَلِكَ مِمّا هو على الأرْضِ.

ويجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ الدّاخِلَةُ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مُسْتَعمَلَةً في مَعْنَى الاستعلاء مبالغةً؛ لأنَّ ما على الأرضِ شديدُ الصِّلة بها حتّى كأنَّهُ فيها، والَّذي يترجّحُ لدينا أنَّ ﴿فِي﴾ في الموضعينِ مجازٌ استعاريٌّ عنِ الاستعلاء؛ بتشبيهِ ما فوقَها بالدّاخلِ فيها من كثرتِه وانتشارِه وتمكُّنِه وإحاطتِه، ولعلّ النَّظمَ آثرَ التّعبيرَ بحرفِ الظّرفيَّة؛ للدّلالة على غموضِ ذلك التّسخيرِ حتَّى كأنَّه في الشّيءِ لا ظاهرٌ فوقَه، فيحتاجُ إلى تأمّلٍ لمعرفةِ آثارِه وأحوالِه.

دلالةُ الوصلِ في الآية:

لا كمالَ في التّسخيرِ من دونِ إتمامِ النِّعَمِ

عطفَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ على قولِه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لتوافُقِهما خبرًا لفظًا ومعنىً؛ ولبيانِ أنَّه لا يكفي تسخيرُ ما حولَ الإنسانِ لخدمتِه، وتطويعُ المخلوقاتِ من أجلِ بُنيانه ووجودِه وحَياتِه، مِن دونِ إسباغِ النِّعَم عليه بالعقلِ والوَحْي والهِداية والرَّشاد، فيكونُ ذكرُ التّسخيرِ مقصورًا على النِّعَم التي يَحتاجُها لبقاءِ النّوعِ الإنسانيِّ واستمرارِه، وذكرُ الإسباغ للنِّعم دونَ ذكرِ مُجرَّدِ النِّعَم لبيانِ خلقِ العقل والقُوى الفكريّة فيه لفهمِ الوحي والرِّسالة والعملِ بموجبهما.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

سَعَةُ إنْعامِ اللهِ سُبْحانَهُ على العِبادِ

في التَّعبيرِ بفعلِ الإسْباغِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ دِلالَةٌ عَلى سَعَة إنْعامِ اللّه سُبْحانَهُ عَلى عبادِه، وإتْمامِه نِعْمتَهُ عليْهِم، بحيثُ زادَتِ النِّعَمُ عَلى قَدْرِ حاجَتِهِم[1]، وفي ذكرِ الإسْباغِ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَأَسْبَغَ﴾: تَحْقيقٌ لِهَذا المَعْنى وتأكيدٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 184.

لَهُ، وجاءتْ صيغةُ (أفعلَ) هنا للدِّلالة على تعديةِ الفعل إلى النّعَم بإكمالِها وإتمامِها، وإنَّما اختارَ النّظمُ الكريمُ صيغةَ (فعَّل) مع التّسخير وصيغةَ (أفعلَ) معَ النِّعَم؛ لأنَّ الجماداتِ الجُرميّةَ المُحيطةَ عظيمةُ البناء ولا تَعي ولا تَعقِلُ؛ لأنَّها متعلِّقةٌ بالنِّظام البيئيِّ المُحيطِ بالإنسان، فناسبَ ذكرُ صيغةِ المبالغة معَها، فتكونُ مُسخَّرةً وفقَ نظام ونواميسَ مُحدَّدةٍ كالحركةِ الفلكيَّة التي ينجمُ عنها اللَّيلُ والنّهارُ والفصولُ الأربعة مثلًا، وأمّا النِّعَم فهي لطيفةٌ ودقيقةٌ، فناسبَ معَها ذكرُ صيغةِ (أفعل)، كما أنَّها تتفاوتُ كَمالًا وتمامًا، كنعمةِ الوجود والحياة، التي لا توصفُ بالسّبوغ والكمال من دون نِعَم العقلِ والحِكمة والإرسالِ والهداية.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في التَّعْبيرِ بِالإِسْباغِ:

إِسْبـاغُ النِّـعَمِ دِلالَةٌ عَلى كَثْرَتِها وشُموليَّتِها

المُراد بإسْباغِ النِّعَم في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ هو إكْثارُها وتَعْميمُها وتكْميلُها، وأصْلُ الإِسْباغ: جَعْلُ ما يُلْبَسُ سابغًا، أي: وافيًا في السَّتْرِ، ومنهُ قَوْلُهُم: دِرْعٌ سابغةٌ، وهو في الآية الكريمَةِ مُسْتَعْمَلٌ على جِهَةِ الاستعارَة؛ إذْ شُبِّه إكثارُ النِّعَم وتَعْميمُها بالإسْباغ بِجامِعِ الكَثْرَة؛ لأنَّ الشَّيء السّابغَ كثيرٌ فيهِ ما يُتَّخذ من سَرْدٍ أو شُقَقِ أثوابٍ[1]، واشْتُقَّ مِنَ الإسْباغِ بِالمَعْنى المُتقدِّم الفعلُ: أَسْبَغَ؛ وذلك على جِهَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وفي ذلك تصويرٌ بديعٌ لعُموم النِّعَم وكِفايَتِها الخَلْقَ، ولا يبعُدُ أنْ تكونَ الاستعارةُ في النّظم مكنيّةً، من خلال تشبيهِ النِّعَم الظّاهرة والباطنةِ بالثّوبِ الّذي يلتفُّ به الإنسان، ويُحيطُ به من جميع جوانبِه، ثمَّ حذفَهُ وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ الإسباغَ؛ لبيان أنَّ النِّعَم الإلهيّةَ تُحيطُ بالإنسان من جميع جوانبه، فتكونُ الكثرةُ مع الإحاطةِ حاصلينِ على هذا التّوجيهِ الاستعاريِّ، ولذا يكون راجحًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

على الاستعارةِ التّصريحيَّة، كما يتحقّقُ التّخييلُ في جعل الإسباغِ مُسندًا للنّعم المعنويّة، وكأنَّها جلّلَتْه وغطّتْهُ حتى لا يكادَ يُرى من أثرِ ذلك اللَّفِّ وتلك الإحاطةِ.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الإِسْباغِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ:

التَّأكيدُ عَلى عُمومِ النِّعَمِ وتَمَكُّنِها

تَعْديَةُ فِعْلِ الإسْباغِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ بِحَرْفِ الجَرِّ (عَلى) الدّالِّ على الاسْتِعْلاءِ تَأكيدٌ لِمَعْنى تَعْميمِ النِّعَمِ وتَمَكُّنِها في حياةِ العِبادِ، بقي أنَّ هنالك انسجامًا حرفيًّا بينَ ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ و﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ إذِ الحرفُ الأوّلُ دالٌّ على التّعليلِ، والغرضُ اللّازمُ منه التّملّكُ والانتهاء، والحرفُ الثّاني دالٌّ على الاستعلاءِ والإحاطة؛ وكلٌّ منهما متناسِبٌ مع سياقِه؛ إذِ النّظامُ الكونيُّ لوجودِ المخاطبينَ وبقائِهم فاستعملَ (لام التّعليل)، وهذا يتناسَبُ مع جميع المخلوقات مُؤمنِها وكافرِها؛ لأنَّ ذلك المُسخَّر مهمٌّ لبقاءِ النّوعِ الإنسانيِّ، والنّعَمُ المحيطةُ بالإنسان لبيانِ إحاطتها به إحاطةً تامّةً، فاستعملَ (على)، وللدّلالة على أنَّ نعمةَ الهداية من أجلِّ النِّعَم فاقتصر بها على المُؤمنِ، وعدّاها بـ(على)؛ لأنَّها تشتملُ على صاحبِها اشتمالَ المُتمكِّنِ المُستعلي.

غَرَضُ تَقْديمِ شبهِ الجملة:

حَمْلُ المُخاطَبينَ عَلى اسْتِشْعارِ عَظيمِ نِعْمَةِ اللهِ تَعالى عليهِمْ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ الواقعُ حالًا من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾، وكان مُقْتَضى الظّاهِر أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وأسبغَ نِعَمَهُ عليكُمْ)، وهذا التَّقديمُ يُرادُ به الاهْتِمامُ والعِنايَةُ بالمقدَّم وهُمُ المُخاطَبونَ؛ ليكونَ ذَلِكَ أدْعى لَهُمْ لاسْتِشْعارِ عَظيمِ نِعَمِ اللّهِ تَعالى عليهم، كما أنَّ فيه قصرَ النِّعَم السّابغةِ على النّوعِ الإنسانيِّ دونَ بقيّةِ الأنواع؛ لكمالِ عقلِه وتشريفِه بالخطابِ الإلهيِّ، واختيارِ الرُّسُل من جنسِه.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿نِعَمَهُۥ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ نافعٌ وأبو عَمْرٍو وحفصٌ وأبو جَعْفَر ﴿نِعَمَهُۥ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ بالتَّذكير والجَمْع، وقرأ الباقونَ (نِعْمَةً) بالتَّأنيث والإفْراد[1].

فالأوَّلُ - وهو ﴿نِعَمَهُۥ﴾ - جمعُ: نِعْمَةٍ، كسِدْرةٍ، تُجْمَعُ على: سِدَرٍ، والهاءُ في محلّ جرٍّ مضافٌ إليه، والضَّمير راجعٌ إلى اللّه سبحانَهُ، وهذه الصّيغةُ ﴿نِعَمَهُۥ﴾ دالّةٌ على العموم؛ لأنَّه جمعٌ مضافٌ، وفي الإضافَةِ إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّهِ تَعالى إيماءٌ إلى عظمَةِ هذِهِ النِّعْمَةِ وجَلالَتِها[2].

وأمّا الآخَرُ - وهو (نِعْمَةً) -؛ فهو مصدرٌ أُريدَ به اسْمُ الجنسِ[3]، أو أنَّه لفظٌ مفردٌ منكّر واقِعٌ في سياقِ الامْتِنانِ، فيدُلُّ على العُموم أيضًا، والغرضُ من إلحاقِ (تاء الوحدة) به الدّلالَةُ على أنَّ هذا الجنسَ إنَّما يتحقّقُ في مفردٍ مُتّصفٍ بالعموم مَفهومًا وبالوحدةِ تحقُّقًا؛ إظهارًا لكمالِ كلِّ نعمةٍ من تلك النِّعَم العظيمةِ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ (نِعْمَةً):

تَعْظيمُ نِعَمِ اللهِ تَعالى وتَفْخيمُها

نُكِّرت لفظةُ ﴿نِعْمَةً﴾ في قراءةِ الجُمْهورِ لقَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ وذلك لإرادَةِ التَّعظيم والتَّفْخيم[4]، فهيَ نِعْمَةٌ عظيمةُ القَدْرِ جليلَةُ المَنْزِلَةِ؛ لأنَّ الَّذي أفاضَها عَلى العِبادِ هو رَبُّهُم ﷻ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِه: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾:

أثَرُ الإعْرابِ في كَشْفِ دَقائِقِ المَعاني

﴿ظَٰهِرَةً﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ منصوبةٌ على الحالِ، و﴿وَبَاطِنَةً﴾ معطوفةٌ عَلَيْها، والمَعْنى:

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 347.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.
(3) محمد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 3/ 141.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 185، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 174.

أسبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ حالَ كونِها ظاهِرةً وباطنةً، ومنَ المعلوم أنَّ الحالَ يُبيِّنُ هيئةَ صاحبِهِ ويُقيِّدُ عامِلَه، فيكونُ المعنى: أنَّ النِّعَمَ في حالةِ الظُّهورِ وعدمِه قد أسبغَها عليكم، كما يدلُّ الحال على الاشتراط؛ لأنَّه مقيِّدٌ للعامل، أي: إنَّ الإسباغَ عليكم بالنِّعَم في تينِك الحالتينِ، وبما أنَّهما حالتانِ شاملتانِ فيكونُ الإسباغُ مطلقًا وكاملًا.

وأمّا على قِراءَةِ الجُمْهورِ (نِعْمَةً)، فتكونُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ مُنْتَصِبَةً على أنَّها صِفَةٌ لِـ (نِعْمَةً)، و﴿وَبَاطِنَةً﴾ مَعْطوفةٌ عَلَيْها[1]، ومنَ المعلوم أنَّ النَّعتَ الجاريَ على النّكرةِ مفيدٌ للتّخصيص، لكنَّه لمّا وصف النِّعَمَ بالظّهور وعدمِه فإنَّها تكونُ شاملةً لكلِّ النِّعَم جليِّها وخفيِّها.

نُكْتَةُ تَقْديمِ ﴿ظَٰهِرَةً﴾:

النِّعَمُ الظّاهِرَةُ أبْيَنُ في الامْتِنانِ مِنَ النِّعَمِ الباطِنَةِ

قُدِّم وصفُ الظُّهور في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ لأنَّ النِّعَمَ الظّاهرةَ أبْيَنُ في المِنَّة وأوضحُ مِنَ النِّعَم الباطنة، فكان التَّذكيرُ بها أحْضَرَ لَها في الذِّهن، ثُمَّ انتَقَلَ بَعْدُ إلى التَّذكير بالنِّعم الخفيَّة، ونلحظُ بينَ تقديم ﴿ظَٰهِرَةً﴾ على ﴿وَبَاطِنَةً﴾ هنا، وتقديم ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيما تقدّمَ مقابلةً خفيّةً؛ إذ قدّمَ الخفيّ على الظّاهر سابقًا، وقدَّمَ الجليَّ على الخفيّ هنا، والغرضُ من ذلك أنَّ تلك النِّعَمَ لا تعدُّ ولا تُحصى من أيِّهما ابتدأت وإلى أيِّهما انتهيت.

بَلاغَةُ الطِّباقِ في قَوْلِهِ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾:

تأكيدُ العُمومِ وتَقْوِيَتُهُ

بَيْنَ ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ طباقُ إيجابٍ، وذلك لِتَأكيدِ العُمومِ المُسْتَفادِ مِنَ الإضافَةِ في ﴿نِعَمَهُۥ﴾؛ إذِ النِّعَمُ لا تَخْلو إمّا أن تَكونَ ظاهِرةً وإمّا أن تكونَ باطِنَةً، فَكانَ ذلك تَقْوِيَةً لِلْعُمومِ وتأكيدًا لَهُ، وأُريدَ بهذا الطِّباق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.

أنَّ النِّعَمَ منها ما يمكنُ ملاحظتُهُ ومنها ما يَعجَزُ الإنسانُ عن إدراكِهِ؛ سواءٌ تعقَّلَه بعدَ جريانِ النِّعمةِ الخفيّة أم لم يَتعقّلهُ أصلًا، وحينها يدركُ الإنسان أنَّ المحنةَ التي هو فيها نعمةٌ في الحقيقة؛ لأنَّها مِحنةٌ ظاهرةٌ، لكنَّها تنطوي على نعمةٍ باطنةٍ بالشُّكرِ وعدمِ الجزَعِ، بقي أنَّ هذا التّعميمَ يمثّلُ أبلغَ ردٍّ على المشركينَ الَّذين يعتقدونَ أنَّ بعضَ النّعَمِ من آلهتهم المزعومة، فسدّ النّظمُ الحكيم صدورَ أيّةِ نعمةٍ للإنسان من غير اللّه تعالى؛ إذ لا فاعلَ ولا خالقَ ولا منعمَ إلّا اللّهُ ﷻ.

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

افْتِراقُ النّاسِ في تَعامُلِهِمْ مَعَ التّسخيرِ والإسباغِ

(الواوُ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ عاطفةٌ على مُقدّرٍ محذوفٍ، وذلك أنَّه لَمّا كانَ تَقْديرُ قولِهِ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ مع كَوْنِ كُلٍّ مِنْكُم أيُّها العبادُ يَعْرِفُ أنَّ ذلكَ التّسخيرَ والإسباغَ نِعْمَةٌ منهُ تَعالى، فَمِنَ النّاسِ مَن أقرَّ بها واسْتَيقَنَ وانْقادَ لِما دَعا إليهِ الكتابُ الحكيمُ فاهْتَدى؛ لَمّا كانَ كذلكَ عُطِفَ عليهِ قولُهُ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾؛ للإشارَةِ إلى ما يُقابِلُ الصِّنْفَ الذي طُوِيَ ذِكْرُهُ[1]، وإنَّما حذفَ الموقنين الشّاكرين؛ لأنَّ الغايةَ مِنَ التّذكير بالتّسخيرِ والإسباغِ للنّعَمِ أنْ يرعويَ المُكذّبون، فلم يكنْ لذكرهم مدخليَّةٌ في المقصَد.

وَيَجوزُ أن تَكونَ (الواوُ) لِلحالِ، والمَعْنى: قَد رَأيْتُم تَسْخيرَ اللّهِ تَعالى لَكُمْ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، وأنْعَمَ عَلَيْكم نِعَمًا سابِغَةً عامَّة، والحالُ أنَّ بَعْضَكُم يُجادِلُ في وحْدانيَّةِ اللّه ويَتَعامى عَن أدِلَّة وحْدانيَّته ويتغافَلُ عَنْها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 185.

وفي الواوِ احْتِمالٌ آخرُ؛ وهو كونُها اعْتِراضيَّةً، والجملَةُ بَعْدَها واقِعَةٌ على سبيلِ الاعْتِراضِ بينَ قَوْلِه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ وبَيْنَ قولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[1].

مَعْنى (مِنْ) في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

ذِكْرُ أساليبِ التَّلْبيسِ والتَّدْليسِ في مواجَهَةِ الحَقِّ

(مِنْ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ حرفُ جَرٍّ دالٌّ على التَّبعيضِ، والمُرادُ بهذا الفَريقِ مِنَ النّاسِ المُتَصَدّون لمُجادَلَة النَّبيِّ ﷺ بالباطِلِ والتَّمويهِ تَلْبيسًا وتَدْليسًا[2].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

لَيسَ الجِدالُ واقِعًا مِنَ الجَميعِ

(أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ دالَّةٌ عَلى الاستغراقِ والعموم، فهي شامِلَةٌ لِكُلِّ أَفْرادِها المُنْدَرِجَة تَحْتَها، ولِذا لَمّا لَم يَكُنِ الجِدالُ واقِعًا مِن جَميعِهِم؛ جيءَ بِحَرْفِ التَّبعيضِ (مِنْ) قَبْلَهُ، وفي ذلك إرشادٌ قرآنيٌّ عظيمٌ لعدمِ التّعميم بهلاكِ النّاس جميعِهم؛ إذ يبقى الخيرُ فيهم ما بَقيَتِ السَّمواتُ والأرضُ، بل نفهمُ مِنَ التّبعيضِ معنى القلّةِ؛ لأنَّ البقيّة الكثرةَ أتباعٌ لأولئك المُجادلينَ القلّة.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

الاضْطِرابُ يورِثُ الانْحِرافَ في الاعْتِقادِ والعَمَلِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ، وذلكَ لأنَّه تقدَّم هذا الموضعَ قولُهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾، فكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وَمِنْكُم مَن يُجادِلُ)، ولكن عُدِلَ عن ذلكَ إلى الإظْهارِ؛ للإشارَةِ إلى مَعْنًى يَدُلُّ عليهِ لَفْظُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ وهو أنَّهم أهلُ نَوْسٍ، أي: اضْطِرابٍ[3]، وهذا الاضطرابُ هو الذي

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 185.

أورَثَهُم ضَلالًا في الاعْتِقادِ وانْحِرافًا في العَمَلِ، كما أنَّ الإظهارَ دالٌّ على الغَيبة، وتغييبُهم دليلُ احتقارِهم وامتهانِ ما هُم عليه من جدالٍ وخصومةٍ في اللهِ وآياتِه، ونجدُ في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ تعجيبًا من صُدور المُجادلةِ من هذا الجنسِ المزوَّد بالعقلِ والحكمة، فكيف يكونُ منَ النّاس وهو يجادلُ في الله بغير علمٍ، ولا يُلاحظُ تلك النِّعَم.

نُكْتَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ (مِنَ النّاسِ):

قُبْحُ الجِدالِ في الحَقِّ بالباطِلِ

في تقديمِ شبهِ الجملةِ (مِنَ النّاسِ) الواقعِ خبرًا مقدَّمًا مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على المُبتدأ وهو الاسمُ الموصول، تَشْويقُ السّامعِ إلى الاِسْتِعلامِ عَنِ المسنَدِ إليه، فإذا ذُكِرَت قبائحُهم وقَعَتْ على نفسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ للمَعْرفةِ، فيتمكَّنُ مِنْها غايةَ التَّمكُّنِ، وليس في هذا التَّقديمِ إفادةُ التَّخصيص.

وفي تقديمِ شبه الجملةِ أيضًا إشعارٌ بأنَّ فاعلَ ما سيُذكَرُ بعدُ هو من النّاسِ؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّهُ مِنْ جنسٍ آخرَ؛ وذلك لقُبْحِ الفِعْلِ المذكورِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُجادَلَةِ مادَّةً وصيغَةً:

العِنادُ والاِسْتِكْبارُ في مواجَهَةِ الحَقِّ

في التَّعْبيرِ بالمُجادَلَةِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دِلالَةٌ على شِدَّةِ عِناد هَؤُلاءِ وقوَّةِ اسْتِكْبارِهِم عَنِ الانْقيادِ إلى الحقِّ، وذلكَ لأنَّ المُجادلَة هيَ شدَّةُ الخُصومَةِ مَع اسْتِمْرارِ مُراجعَةِ الكَلام.

وفي لَفْظِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ اسْتِعارةٌ تصريحيَّة تَبَعيَّة؛ وذلك لأنَّ أصلَ الجَدلِ إبْرامُ الحَبْلِ وإحكامُه، والمُجادلُ يُحاولُ إحكامَ شُبْهَتِه لِتَروقَ وتَروجَ عندَ سامِعيها، وفي ذلك دلالةٌ على شِدَّة تَمَسُّكهم بما هُم عليهِ مِنَ الباطلِ، وبُعْدٍ عَمّا تَقْتَضيهِ الحِكْمَة[1].

ويُقَوّي هذهِ الدِّلالَةَ التَّعبيرُ عَنِ المُجادلَةِ بالفِعْلِ المُضارع

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغية: 2/ 376.

﴿يُجَٰدِلُ﴾، وهو دالٌّ على استمرارِهم عَلى الجِدال كُلَّما ظهَرَ حقٌّ وبدَتْ أدلَّتُه.

دِلالَةُ الإيجازِ في قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

إنْكارُ المُشْركينَ شُمولَ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى لِلبَعْث

في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إيجازٌ بِالحَذْفِ، والتَّقْديرُ: ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في وجودِ اللّه بالنِّسبةِ لمُنكري التّسخير، وفي تَوْحيدِ اللّهِ سُبْحانَهُ وصِفاتِه، بالنِّسبةِ للمُشْرِكين المُنْكِرين وحْدانيَّتَه سُبْحانَه وعُمومَ قُدْرَتِه وشمولَها للبَعْث، ولمّا كان الجدالُ مُتعلِّقًا باللّه تعالى وجودًا ووَحدانيّةً وقعَ الإيجازُ فيهما بدلالةِ ذكرِ (التّسخير والإسباغ) لكلِّ النِّعَم.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

تَهْويلُ شَأنِ الجِدالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

في قول اللّه ﷻ: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضْمارِ؛ إذْ تقدَّم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾، فكان مُقْتَضى الظّاهِر: ومِنَ النّاس مَنْ يُجادِلُ فيه، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك إلى الإظهار؛ تهويلًا لأمر الجدالِ بغير علم[1]، واستكمالًا لصدورِ التّعجيبِ معَ الإقرار بأنَّه اللّه؛ إذِ المُقرُّ بذلك ينبغي أنْ يُقِرَّ بالخلقِ والتّسخير والإسباغِ منه؛ إذ يوحي الاسمُ الجليل بكلِّ صفات الجلالِ والكمالِ، فكيف يكونُ الخلقُ والنِّعَمُ صادرينِ من غيره تعالى.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عِلۡمٖ﴾ و﴿هُدٗى﴾ و﴿كِتَٰبٖ﴾:

خُلوُّ المُجادِلينَ في اللهِ تَعالى عَنْ مُطْلَقِ العِلْمِ

نُكِّر كلٌّ من ﴿عِلۡمٖ﴾ و﴿هُدٗى﴾ و﴿كِتَٰبٖ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ للدّلالَةِ عَلى العُموم؛ إذْ هُما واقِعانِ في سياق النَّفي، فأفادَ أنَّهُم يُجادِلونَ في اللّهِ تَعالى وفي تَوْحيدِهِ وصِفاته بغَيْرِ أيِّ عِلْمٍ كانَ، ولا ضَرْبٍ من ضُروبِ الهُدى، ولا يمتلكونَ كتابًا يُفنِّدُ ما نزلَ من عندِ اللّه تعالى.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 93.

فائدَةُ تَقْيِيدِ المُجادَلَةِ بِالحال ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾:

تَحْقِيرُ شَأْنِ المُجادِلِينَ في اللهِ تَعالى

قُيِّدتِ المُجادلَةُ بِكَوْنِها واقِعةً خاليةً مِنَ العِلْم في قولِه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾؛ إذ شبهُ الجُملةِ في محلِّ النَّصبِ حالٌ مِنَ الضَّمير المُستتِر، وفائدتُها بيانُ أنَّ مَن جادل في اللّه وآياته لا ينفكُّ عنِ الاتّصافِ بالوهمِ الَّذي يتوهّمُه الجاهلُ؛ إذ كلُّ شيءٍ يدلُّ على وجودِهِ ووَحدانيّتِه؛ ولبيانِ أنَّ المُجادِلَ وإنْ كانَ قَد يَكونُ فَهِمًا، إلّا أنَّ كلامَهُ مُجَرَّدٌ عَنِ العِلْم، بَلْ يَتلفَّظ بألفاظ هيَ في ركاكَةِ مَعانيها - لعَدَمِ اسْتِنادِها إلى حِسٍّ ولا عَقْلٍ - مُلْحَقةٌ بأصواتِ الحيواناتِ العُجْمِ[1]، وإنَّما لم يقل النّظم الكريم: (بجهل)؛ لأنّ الجهلَ معذورٌ فيه المُجادِلُ، وأمّا هؤلاءِ المُجادلونَ فإنَّهم يُدركونَ الأدلّةَ ويَرَونَ الآياتِ ويَجحدونَها، فليسوا جهلةً في الحقيقة عندَما تصدَّوا للجدال، بل هم أذكياءُ عارفونَ لكنَّهم جاحدون، ومن ثمَّ أخبرَ عن هيئَتِهم عند الجدالِ أنَّها مُلابِسةٌ لحالِ عدم العلم، وأمّا هُم في أنفسِهم فإنَّهم عالِمون، فيوردونَ الشُّبَه والضَّلالاتِ الوهميَّةَ مُصوّرِينَ لها بصورة العلْم المزيَّف.

نُكْتَةُ عَطْفِ نَفْيِ الهُدى عَلى نَفْيِ العِلْمِ:

بَيانُ أنْواعِ المُجادِلِينَ

نَفَى اللّهُ تعالى عنِ المُجادِل فيهِ وفي تَوْحيدِهِ وصِفاته العلمَ، ثُمَّ نَفى عنهُ الهُدى، فقالَ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى﴾؛ وذلك لأنَّ المُجادِلينَ ضَرْبانِ؛ مُقلَّدونَ ومقلِّدون، فلَمّا ذكرَ اللّهُ تَعالى مَن يُجادِلُ فيهِ بِغَيْرِ عِلْم وهُمُ المقلَّدون من أئمَّة الكُفْرِ والضَّلال؛ أَعْقَبَهُ بِبَيانِ مُجادَلَة المُقلِّد، وهوَ دون رتبة الأوَّلِ، ولذا لم يُسْتَغْنَ بذِكْرِ السّابقِ عَن ذِكْرِ هَذا[2]، ويمكنُ أنْ يكونَ عطفُ النّفي لبيانِ أنَّ المجادل إمّا أنْ يكونَ مُطّلعًا على الأدلّة العلميّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 186.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 208.

دارسًا لها متأمِّلًا باحثًا عن حقيقتِها، وإمّا أن يكونَ مُمتلكًا للهداية والحكمةِ بالخِلقة والجبلَّة، فهو وإنْ خلا منَ العلم ووسائلِه إلّا أنَّه يمتلكُ دلالةً على الحقِّ وإرشادًا إليه بالفطرة، فسلبَ النّظمُ عن هؤلاء المجادلينَ العلمَ والفطرةَ الصّافيةَ معًا، وفي نفيِ المصدرينِ (العلم والهدى) دلالةٌ على سلبِ حقيقةِ العلم والهداية عنهم؛ فكانوا في جدالِهم للحقّ عينَ الجهل والضَّلالة.

فائِدَةُ المُغايَرَةِ بَيْنَ (غَيْرِ) و(لا):

نَفْيُ الهِدايَةِ عَنِ المُجادِلينَ في اللهِ تَعالى بِالكُلّيَّةِ

غايَرَ النَّظْمُ الكَريمُ بينَ أداتَي النَّفي (غير) و(لا) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾؛ لأنَّ (غير) تَدُلُّ على نَفْيِ العِلْم عَنِ المُجادِل حالَ جِدالِه، وإنْ كانَ في الأصْلِ صاحبَ علم، ولو وقَعَ النَّفْيُ بـ (لا)؛ بأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (ومِنَ النّاسِ مَن يُجادِلُ في اللّهِ بلا عِلْم)؛ لتُوهِّم أنَّ المذمومَ إنَّما هو الجِدالُ إذا كانَ غيرَ متَّصفٍ صاحبُهُ بالعِلْم.

بخِلاف قَوْلِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾؛ فوقَعَ النَّفْيُ بـ (لا)؛ لبَيانِ انْتِفاءِ الهِدايَةِ عنهُ بالكُلّيَّة، وذلكَ لأنَّ المَعْنى قَد يَظْهَرُ لِبَعْضِ القاصِرين؛ لِجَرَيانِهِ على لِسانِ مَن لا يُعْتَبَر، فإذا أُضيفَ إلى مُعظَّم عِنْدهم تَأمَّلوه ولَم يُبادِروا إلى ردِّه؛ لاستعظامِه، فَنَفى اللّهُ تَعالى الهِدايَةَ عَنْهُ بالكُلّيَّة لا الهدايةَ حالَ جِداله[1].

نُكْتَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾:

نَفْيُ جَميعِ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ المُحْتَجّونَ بِالباطِلِ

لَمّا نَفى اللّهُ تعالى العِلْمَ عَنِ المُجادِل في تَوْحيدِه سُبْحانَهُ، ونَفى عَنْهُ الاهْتِداءَ بتَقْليدِ غيرِه مِنَ المُهْتَدينَ مِن أتْباعِ الرُّسُل أوِ امتلاكِ الحكمة والفِطرة النقيَّة، وكانَ القَوْلُ مَقبولًا إذا أُسْنِدَ إلى اللّهِ تعالى وإن لَم يَظْهَر وجهُ حِكْمَتِه، أو كان ممّا تَحارُ فيهِ العُقول[2]؛ نَفى اللّهُ سُبْحانَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.

أنْ يكونَ لِهَذا المُجادِلِ أصلٌ يَعْتَمِدُ عليه مِن كُتُبِ اللهِ سبحانَه؛ لِيَقْطَعَ عَنْهُ جميعَ ما يتعلَّق به المُحتجُّ، فقالَ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، وبعبارةٍ أُخرى ليس لهؤلاءِ المُجادلينَ سندٌ نقليٌّ عبَّر عنه بـ(الكتاب المنير)، ولا سندٌ عقليٌّ عبَّر عنه بـ(العِلْم)، ولا تقليدٌ أو فطرةٌ نقيّةٌ عبَّر عنهما بـ﴿هُدٗى﴾، ومن افتقدَ في جدالِه هذه المقوِّماتِ الثّلاثةَ فإنَّ حِواره مجرَّدُ جدالٍ لا بُرهانَ لهُ فيه.

نُكْتَةُ إعادَةِ حَرْفِ النَّفْيِ (لا):

لَيسَ لِلمُجادِلِ في اللهِ سُبْحانَهُ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ

كُرِّر حرفُ النَّفْيِ (لا) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾؛ لِمَزيدِ العِنايَةِ بهذا النَّفيِ، فيكونُ نَفْيُ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما عَلى سَبيلِ الاسْتِقْلالِ، فلَيْسَ لِهَذا المُجادِلِ في توحيدِ اللهِ تعالى علمٌ، وليسَتْ لَهُ هِدايةٌ، وليسَ لَهُ كتابٌ مِنْ كُتُبِ اللهِ سُبْحانَهُ يَسْتَنِدُ إليها، بِخِلافِ ما لَو جاءَ البَيانُ القُرْآنيُّ: (ولا هُدًى وكتابٍ منير)؛ لتوُهِّم أنَّ المَنْفيَّ الجمعُ بَيْنَهُما، وأنَّ عندَهُ واحدًا مِنْهُما على سَبيلِ الانْفِرادِ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿كِتَٰبٖ﴾:

لَيسَ لِلمُجادِلِ في اللهِ ﷻ مُسْتَنَدٌ مِنْ كِتابٍ مُنَزَّلٍ

نُكِّر لَفْظُ ﴿كِتَٰبٖ﴾ من قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ للدّلالَةِ عَلى العُمومِ؛ لأنَّه واقِعٌ في سياقِ النَّفيِ، فأفادَ أنَّهُم يُجادِلون في اللهِ تعالى وفي تَوْحيدِهِ وصِفاتِه من غَيْرِ اسْتِنادٍ إلى أيِّ كِتابٍ مِن كُتُبِ اللهِ تَعالى.

نُكْتَةُ وصْفِ الكِتابِ بِأنَّهُ مُنيرٌ:

تَصْويرُ هِدايَةِ القُرْآنِ الكَريمِ

وُصفَ الكِتابُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ - والمرادُ به كتابٌ من كتُب اللهِ سُبْحانَهُ - بكونِه منيرًا، وهو وصفٌ كاشفٌ؛ لكونِ هَذا الوَصْفِ لازِمًا لِمَوْصوفِه لا يَنْفَكُّ عنهُ بِحالٍ، والمَعْنى: كتابٌ بيِّنٌ غايَةَ البَيانِ، مُبَيِّنٌ لغَيْرِهِ الحَقَّ والهُدى[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.

وفي وصفِ الكِتابِ بالإنارةِ؛ تَشْبيهٌ لهُ بالمِصْباحِ المُضيءِ في اللَّيل؛ بجامِعِ بَيانِ الطَّريقِ في كُلٍّ مِنْهُما والاهتِداءِ بهِ، فيكونُ استعارةً مكنيّةً، وإسنادُ الإنارةِ إليهِ قرينتُها، وفي هذا تصويرٌ بديعٌ.

وفي وصْفِ الكِتابِ بالمُنيرِ أيضًا: تعريضٌ بِمَن يُجادِلُ في أمْرِ الإسْلامِ وتَوْحيدِ اللّهِ تَعالى بالموازَنَةِ بينَ كِتابِ اللّهِ ﷻ المنيرِ وبينَ الأخْبارِ الماضيَةِ المُظْلِمَةِ المَنْقولَةِ عنِ الأُمَمِ الجاهِليَّةِ[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّقْسيمِ في الآيَةِ:

التَّنْبيهُ عَلى مَراتِبِ تَحْصيلِ العِلْمِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ اسْتيعابٌ لأقسامِ مَراتِبِ تَحْصيلِ العِلْمِ، فَفيهِ أُسْلوبُ التَّقسيمِ[2]؛ ووجهُ ذلكَ أنَّ مراتِبَ تَحْصيلِ العِلْمِ ثلاثَةٌ: إمّا أن تكونَ اجْتِهادا واكْتِسابًا، أو تَلَقِّيًا من عالمٍ أو بامتلاكِ فطرةٍ صافيةٍ وجبلَّةٍ نقيَّة، أو مُطالعَةً مِن كِتابٍ سابقٍ[3]، وهي المَذْكورَةُ في الآيةِ عَلى هَذا التَّرتيبِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُجادَلَةُ والمُحاجَّةُ والمُحاوَرَةُ:

في المُجادَلَةِ اسْتِمْرارٌ وفي المُحاجَّةِ إرادَةُ الغَلَبَةِ وفي المُحاوَرَةِ هُدوءٌ في المُراجَعَةِ

المُجادلَةُ في أصْلِ اللُّغَةِ تَدُلُّ على شدَّةِ الخُصومَةِ واسْتِمْرارِ مُراجعةِ الكَلامِ، بخِلافِ المُحاجَّة فإنَّ مَعْناها: المُغالبَةُ بِالحُجَّة والبُرْهانِ، وأمّا المُحاورَةُ فَهيَ مُراجعَةُ الكَلامِ.

وقَد جاءَ ذِكْرُ المُجادَلَة في القُرآنِ الكريمِ كثيرًا، بَل إنَّ سورَةً مِن سوَرِه سُمّيت بالمُجادلَة، ومِن شَواهِدِ الجِدالِ الوارِدِ في القرآنِ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 208.

(2) لأسلوب التَّقْسيم معانٍ مختلفةٌ، منها: اسْتيفاءُ أقسامِ الشَّيء بالذِّكْر، عبد المتعال الصَّعيدي، يُنظر: بغية الإيضاح: 4/ 608.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 175.

وورَدَ النَّهْيُ عَنِ الجِدالِ إلّا بالتي هيَ أحسَنُ، كَما في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46]، والجِدالُ المَنْهيُّ عنهُ هو الذي يَجُرُّ إلى المُغاضبَةِ والمُشاتَمَة، وأمّا مُراجعَةُ الكلامِ بغَرَضِ الإقْناعِ والوُصولِ إلى الحَقِّ، فهذا مَنْدوبٌ إليه.

وأمّا المُحاجَّة؛ فقد وردَتْ في القرآنِ الكريمِ ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّةً، منها في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76].

فالمُحاجَّة: مُحاولَةُ كُلِّ واحِدٍ أن يَغْلِبَ خَصْمَهُ بِما يُقيمُهُ مِن بَراهينَ وحُجَجٍ، بقَصْدِ إقامَةِ الحَقِّ وبيانِه ونُصْرَتِه.

وأمّا المُحاوَرَةُ؛ فَقد ذُكِرَت في القرآنِ ثلاثَ مَرّات، منها في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾ [الكهف: 37].

وحقيقَتُها: مُراجعَةُ الكَلامِ، وهيَ تَخلو مِنَ الشِّدَّةِ التي في المُجادَلَة.

والحاصِلُ أنَّ المُجادَلَة والمُحاجَّة والمحاورَةَ تَجْتَمِعُ في مراجعَةِ الكلامِ، وتَنْفَرِدُ المُجادلَةُ بدِلالَتِها على الشِّدَّة والاسْتِمْرارِ، وأمّا المُحاجَّةُ فَهيَ مُصاحبَةُ الكلامِ لِلحُجَجِ التي يُراد بها الغلَبَةُ عَلى الخَصْمِ، وأمّا المُحاورةُ ففيها هدوءٌ في مراجعَةِ الكلامِ[1].

(1) داود، معجم الفروق، ص: 178 - 181.

المحتويات